

التفسير الكبير

المجلد الأول

سورة الفاتحة وسورة البقرة إلى آية ٨٣

مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمته الله

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

اسم الكتاب: التفسير الكبير - المجلد الأول
الطبعة الحديثة: ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١ م

AT-TAFSIR AL-KABIR
"The Grand Exegesis"

by

Hazrat Mirza Bashir-ud-Deen Mahmood Ahmad
Khalifatul-Masih II, (may Allah be pleased with him)

Volume: 1

SURAH AL- FATIḤAH AND
SURAH AL-BAQARAH (Verses 1-.83)
(Arabic Translation)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

First Arabic translation published in the UK in 1993
Present revised translation published in the UK in 2021

© Islam International Publications Ltd.

Published by:

Islam International Publications Ltd
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in UK at:

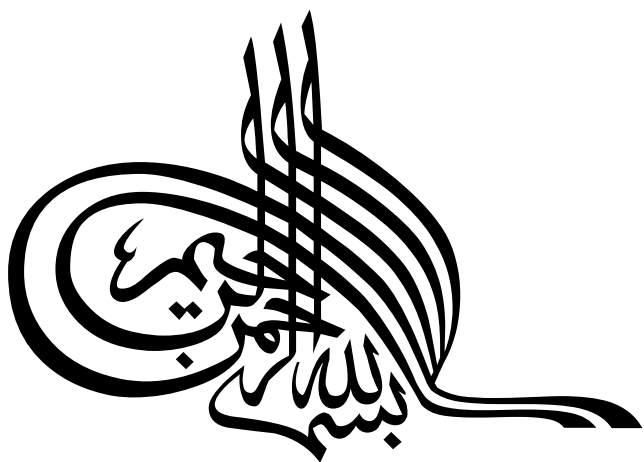
Raqeem Press
Farnham, Surrey
GU9 9PS

For further information please contact:

Phone: +44 1252 891330

www.alislam.org
www.islamahamadiyya.net

ISBN: 978-1-84880-272-8



بسم الله الرحمن الرحيم
 نحمده ونصلي على رسوله الكريم
 وعلى عبده المسيح الموعود
 بفضل الله ورحمته هو الناصر

مقدمة الطبعة الحديثة

لقد سبق أن خرج المجلد الأول من التفسير الكبير إلى النور بالعربية قبل ٢٨ عاماً، حيث تشرف بالترجمة الأستاذ المرحوم مبارك أحمد ملك، وقد راعى فيها، وبأمر من الخليفة الرابع رحمه الله تعالى، شيئاً من الاختصار سداً للحاجة العاجلة (انظر مقدمة الناشر للطبعة الأولى في الصفحات التالية). وبعد أكثر من عقدين من الزمن على نشر هذه الترجمة أمرَ حضرة أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره العزيز، الخليفة الخامس لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام، بنشر المجلد الأول أيضاً بترجمة كاملة مثل المجلدات الأخرى. والحمد لله الذي وفقنا بعونه لإعداد هذه الترجمة وإخراجها بلغة حبيبه محمد المصطفى ﷺ، حيث تشرفَ بها الداعية عبد المؤمن طاهر.

ثمة أمور ينبغي توضيحها عن هذه الترجمة:

أولاً: في الأصل (الأردو) لم تُذكر معظم الاقتباسات من الحديث النبوي الشريف والسيرة وغيرهما من المراجع بنصوصها، وإنما ذكرها المفسر بألفاظه وأسلوبه، فنقلناها عند الترجمة بنصها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ثانياً: هناك مواضع قليلة في الأصل أشار فيها حضرة المفسر ﷺ إلى بعض الأحداث إشارة لا تُعتبر كافيةً لبعض القراء العرب، فقام المترجم بتوضيحها في الهامش صرفاً للالتباس.

ثالثاً: إن ترقيم الآيات في التفسير يبدأ بالبسملة في كل سورة.

نتقدم بخالص الشكر والدعاء لكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب، ولا سيما الأستاذ حضرة سيد مير محمود أحمد ناصر، عميد الجامعة الإسلامية الأحمدية (معهد تأهيل الدعاة) ببروة، باكستان سابقاً، لتفضُّله بالإشراف على مجموعات الطلاب الذين قاموا بتخريج أو توثيق معظم المراجع لهذا التفسير. وكذلك نشكر السادة الأفاضل: خالد عزام، د. محمد حاتم الشافعي، وحلمي مرمر، ومعتز القزق، الداعية الحافظ عبد الحي بهتي، الداعية أويس أحمد نصير، الداعية ظافر محمود ملك، لمساعدتهم المشكورة في مراجعة الترجمة وتدقيقها وغيرها من الأمور العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعاً أحسن الجزاء، آمين.

كما ندعو الله تعالى أن يجعل هذا التفسير سبباً لشفاء غليل كثير من عباده علمياً وعملياً وروحياً، ووسيلة لفهم كلامه ﷺ. آمين!

الناشر

ذو القعدة ١٤٤٢ هـ

حزيران (يونيو) ٢٠٢١ م

بسم الله الرحمن الرحيم
 نحمده ونصلي على رسوله الكريم
 وعلى عبده المسيح الموعود
 بفضل الله ورحمته هو الناصر

مقدمة الطبعة الأولى

قام الإمام حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد -رضي الله عنه- بتفسير القرآن الكريم -ما عدا بعض السور- باللغة الأردية، وذلك قبل تقسيم القارة الهندية. ونُشر معظم هذا التفسير في عشر مجلدات. ثم صدرت منه طبعات مختصرة بعدة لغات. وكان هناك حاجة ملحة لإصدار ترجمة عربية له.. يطلع عليها وينتفع بها أبناء العروبة.. وهم أصحاب اللسان الذي نزل به القرآن المجيد. فالحمد لله الذي مكّننا من نشر المجلد الأول من هذا التفسير بلغة الضاد.. مشتملاً على سورة الفاتحة وسورة البقرة حتى الآية ٨٣ منها.

وكان شرف الترجمة الأولية من نصيب الراحل الأستاذ مبارك أحمد ملك الذي مكث طويلاً في مختلف الديار العربية، ورأس القسم العربي بالجامعة الأحمدية (معهد عالمي لتأهيل الدعاة للإسلام) بربوة، باكستان. فأتاح له تبحره في العلوم الدينية وتمكنه من اللغة العربية أن يترجم هذا التفسير الجليل، ويقوم بهذا العمل العظيم. تغمّده الله بواسع رحمته، ورفع في الطيبين درجته، وأحسن مثوبته. آمين.

كما شُرّف بمراجعة هذه الترجمة لجنة من السادة الأفاضل: الحاج محمد حلمي محمد الشافعي.. من الديار المصرية، والأستاذ عبد المؤمن طاهر، والأستاذ منير أحمد جاويد.. من الدعاة إلى الإسلام في المملكة المتحدة.

والإمام مرزا بشير الدين محمود أحمد -رضي الله عنه وأرضاه- مشهود له بالبلاغة والفصاحة في اللغة الأردية، وله أسلوب خاص في التصنيف والخطابة يتسم بالسهولة والسلاسة، ويجمع بين القوة والحلاوة، يعتمد فيه إلى الإطناب

المفيد، ويتناول الموضوع من جوانب متعددة.. فييسر على القارئ أو السامع فهمه والإحاطة به.

ولا يتسني لقارئ الترجمة أن يحصل على المتعة الكاملة التي يحظى بها قارئ التفسير باللغة الأصلية الأردنية، ولكننا على يقين من أن قراء العربية سوف يجدون فيه من لآلي المعاني ما يكفل لهم المتعة والرضا، ولسوف يفتح الله تعالى لهم نوافذ جديدة يطلّون منها على بحار العلوم القرآنية.. فيزداد تذوقهم لكلام الله تعالى واطلاعهم على معارفه المكنونة.

ولقد رُوعي في هذه الترجمة تمام الالتزام بالأصل.. اللهم إلا في مواضع قليلة.. حُذف في بعضها شيء مما هو خاص بالمزاج والتمدن الهنديين، والذي قد يصعب تذوقه وفهمه على القارئ العربي؛ وفي بعضها قُصد إلى الإيجاز تحاشياً للتكرار، فخرجوا المَعْدرة لذلك. ولكننا نؤكد أن هذه الترجمة لم تضيف أي فكرة أو معنى إلى التفسير الأصلي.

نسأل الله تعالى أن يجعل من هذه الترجمة خدمة نافعة لقراء العربية وخاصة لمن تَهَفَو نفوسهم لاقتناء كنوز القرآن الكريم.. فيتزودوا منها بما يقوي إيمانهم وينير طريقهم في رحلتهم إلى الله.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالفسر رضي الله عنه

صاحب هذا التفسير القيم هو حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمه الله، الخليفة الثاني لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام حضرة مرزا غلام أحمد القادياني مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، ونجله الموعود الذي جاء مصداقا لأنباء أنبأها الله تعالى لحضرته عليه السلام.

ولم يكن مولده تحققا للبشارات الخاصة بوالده عليه السلام فحسب، بل لقد تحقق بمولده النبأ الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: "ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له." (مشكاة المصابيح، باب نزول عيسى عليه السلام)

ويشير هذا الحديث النبوي الكريم إلى أن عيسى النازل الذي هو الإمام المهدي عليه السلام سيتزوج زواجا مباركا، وسيكون ثمرة هذا الزواج ذرية صالحة من الأبناء الذين يخدمون الدين، وخاصة ولداً صالحا يشابه أباه في الفضل والنفع.

ولقد تلقى أبوه بشارة مولده في شهر شباط/ فبراير ١٨٨٦م حينما كان خائضا في نضاله التاريخي العظيم ذوداً عن حياض الإسلام وكرامة نبيه ﷺ ضد هجمات أعداء الإسلام من القساوسة وزعماء الهندوس وغيرهم. فعندما أعلن عن استعداده لإثبات صدق الإسلام بآيات سماوية سخر منه بعض الهندوس من قريته وطلبوا منه أن يريهم ما يدّعي به من الآيات. فتوجه حضرته إلى ربه العزيز القدير، واعتكف أربعين يوما يتהל إلى الله تعالى ويتضرع على عتبته، ويسكب الدموع، مستمطرا عونه ﻋَظِمْ ليُري أعداء الإسلام آية من السماء.

فسمع الله صرخاته، واستجاب لدعواته، وبشره بولادة ابن عظيم في بضع سنين، ومما أوحى إليه:

"سمعتُ تضرعاتك ودعواتك، وإني معطيك ما سألت مني وأنت من المنعمين. وما أدراك ما أعطيك؟ آية رحمةٍ وفضلٍ وقربةٍ وفتحٍ وظفرٍ. فسلام عليك، أنت من المظفرين. إنا نبشرك بسلام اسمه عنموایل وبشير. أنيق الشكل دقيق العقل ومن المقربين. يأتي من السماء، والفضل ينزل بنزوله. وهو نور ومبارك وطيب ومن المطهرين.... قد ملئ قلبه علمًا، وباطنه حلمًا، وصدره سلمًا، وأُعطي له نفسٌ مسيحي، وبورك بالروح الأمين. يوم الاثنين. فوهاً لك يا يوم الاثنين، يأتي فيك أرواح المباركين. ولد صالح كريم ذكي مبارك. مظهر الأول والآخر. مظهر الحق والعلاء، كأن الله نزل من السماء. يظهر بظهوره جلال رب العالمين. يأتيك نور ممسوح بعطر الرحمن، القائم تحت ظل الله المنان. يفك رقاب الأسارى وينجي المسجونين. يعظم شأنه، ويُرفع اسمه وبرهانه، ويُنشر ذكره ويريجانه إلى أقصى الأرضين. إمام هُمام، يبارك منه أقوام، ويأتي معه شفاء ولا يبقى سقام، وينتفع به أنام...."

(مرآة كمالات الإسلام، الخزائن الروحانية: ج ٥، ص ٥٧٧ - ٥٧٨)

"وسيكون مليئاً بالعلوم ظاهرة وباطنة... وسيأتي لينكشف به على الناس شرف دين الإسلام ومرتبة كلام الله".

وعندما أعلن عليه السلام هذه البشارة سخر منه أعداء الإسلام، ولكن الله تعالى.. الغيور على دينه.. أنجز للإمام المهدي وعده، ووهبه غلاماً زكياً وجيهاً في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٨٩م.

نشأ الابن المبارك في بيت أبيه، تكلؤه عين رعاية الله.. فظهرت عليه أمارات النبيل والطهر والذكاء الخارق منذ نعومة أظفاره. ومع أنه لم ينل من التعليم الديني إلا القليل، إلا أن الله تعالى آتاه من لدنه علمًا، وأسبغ عليه نعمة حب القرآن المجيد والحديث النبوي الشريف، ونهل منهما الخير العميم فيما تلقاه من دروس على يد أستاذه مولانا الحافظ نور الدين عليه السلام الخليفة الأول لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام.

كان حضرة المفسر عليه السلام كثير القراءة، جم النشاط، حديد العزيمة، شديد

الحماس لتربية الشباب.. حتى أصدر، وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره، مجلة خاصة للشباب سماها "تشحيد الأذهان"، وأنفق عليها من جيبه ومن مساعدة بعض أصدقائه من الشباب، وعمل رئيساً لتحريرها وكتب فيها مقالات قيمة. ولا تزال هذه المجلة تصدر حتى اليوم.

وبلغ حبه وفهمه للقرآن الكريم مبلغاً عظيماً في صباه حتى شرع يلقي الدروس القرآنية في المسجد، ويغوص في بحار معاني القرآن ليأتي بجواهر المعارف ولآلئ الحقائق.. تخلب اللب، وتدهش الفكر.. كل ذلك وهو لا يزال دون العشرين من عمره!!

ولقد زادت هذه الموهبة الربانية مع تقدمه في السن بعد أن آتاه الله تبارك وتعالى علماً خاصاً حول ترتيب السور والآيات القرآنية والربط بينهما.. كما أعلن بنفسه أن ملاكاً من ملائكة الرحمن علّمه تفسير سورة الفاتحة.

وقد قاد الجماعة قيادة تاريخية في مرحلة حساسة من تاريخ البشرية امتدت منذ عام ١٩١٤م إلى عام ١٩٦٥م، أي لمدة قاربت ٥٢ عاماً، حدثت خلالها حربان عالميتان وشهد العالم تحولات وتغيراً كبيراً في القارة الهندية بل وفي جميع أنحاء العالم. وقام حضرته خلال هذه المدة بالعديد من الإنجازات العلمية والإدارية والتنظيمية، وشهدت الجماعة في عصره اتساعاً وانتشاراً واسعاً في العالم.

وقد كان حضرته مميزاً بسعة علمه الديني وعلمه الديني وإطلاعه الواسع على كافة العلوم، ودقة نظره وذكائه الخارق، وهذا ما اعترف به الخصوم قبل الأصدقاء، وأقرّ الجميع بمرتبته العلمية العظيمة وقيادته الفذة ورشاد رأيه وسداده وقدرته الفائقة على استقراء الواقع وتحليله وتشخيص المشاكل والمعضلات ووضع الحلول وتوقع النتائج المستقبلية.

أعماله البارزة:

ومن خدماته الجليلة للإسلام والمسلمين:

الدفاع عن الخلافة وتمكينها:

لقد أخبر سيدنا محمد المصطفى ﷺ عن عودة الخلافة الراشدة في آخر الزمان. وبالفعل أعادها الله تعالى عن طريق سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي ﷺ الذي جاء بمنهاج النبوة نائباً وممثلاً وخادماً للنبي ﷺ. ثم نشأت من بعده سلسلة الخلافة الراشدة الثانية الموعودة؛ إذ انتُخب الخليفة الأول حضرة مولانا الحافظ نور الدين بعد وفاة حضرته ﷺ. ولكن عندما اشتد المرض بالخليفة الأول ﷺ، ظهرت حركة بين نفر من الجماعة ترمي إلى إلغاء منصب الخلافة وتوكيل مؤسسة "صدر أنجمن أحمديّة"، اللجنة الإدارية المركزية، في إدارة وتنظيم شؤون الجماعة. وعندما انتُخب حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد لمنصب الخلافة عام ١٩١٤م - وهو لا يزال ابن خمسة وعشرين عاماً - وفّق الله تعالى للخروج بالجماعة سالمة من هذه الفتنة والفتن الخارجية وتمكين الخلافة بوضع نظام محكم لانتخاب الخليفة. فاستمرت الخلافة الراشدة تعطي ثمارها وبركاتها للأمة إلى يومنا هذا. ومضت الجماعة تحت قيادتها تنتقل من نصر إلى نصر ومن ازدهار إلى ازدهار.. على الرغم من الصعاب والشدائد والمؤامرات والمكاييد.

تنظيم الجماعة ومؤسساتها:

أنشأ حضرته عديداً من النُظُم التي تكفل سير عجلة العمل في الجماعة بما يحقق أهدافها في خدمة الإسلام وتبليغ دعوته إلى جميع أرجاء الأرض. فوزّع العمل على دوائر لبيت المال والمحاسبة والأملاك، والتأليف والتصنيف، والإشاعة والنشر والتوزيع، والدعوة والتبليغ، والتربية والتعليم، والقضاء والفتوى، والضيافة، والأمور العامة والأمور الخارجية، وغيرها.

كذلك أنشأ تنظيمًا للكبار فوق الأربعين من العمر في الجماعة وسماه "مجلس أنصار الله"، وآخر للشباب وسماه "مجلس خدام الأحمديّة"، وثالثاً للسيدات وسماه "لجنة إماء الله" ورابعاً للبنين وسماه "أطفال الأحمديّة"، وخامساً للبنات

وسماه "ناصرات الأحمديّة". ولكل هذه التنظيمات فروع في كل الجماعات المنتشرة في كل أنحاء العالم، لها هياكلها الإدارية واجتماعاتها الدورية واشتراكاتها الإلزامية ومجالاتها الخاصة.

مشروع "التحريك الجديد":

في سنة ١٩٣٤م وعلى إثر قيام طائفة الأحراريين* بالاعتداء على مركز الجماعة حينئذ في "قاديان" - الهند، ومحاولة القضاء على الأحمديّة، وذلك بمساندة من الحكام الإنجليز، أعلن حضرته إنشاء مشروع باسم "التحريك الجديد" (أي المشروع الجديد) بهدف نشر وتوطيد الدعوة الإسلامية الأحمديّة في أنحاء العالم خارج شبه القارة الهندية، وفتح مراكز للتبليغ وتعمير المساجد. ولقد أعطت هذه الشجرة الطيبة أكلها بإذن ربها، فتوطدت الجماعة حتى الآن في أكثر من ٢٠٠ بلد، وبنت آلاف المساجد والمراكز في مختلف أنحاء العالم.

خدماته لمسلمي الهند:

في عام ١٩١٢م قامت حركة هندوسية متطرفة باسم (شدهي).. تهدف إلى استعادة الهنود المسلمين وضعفائهم إلى الهندوسية، وبالفعل تمكنوا من تضليل ستة ملايين منهم. وعندما استفحلت هذه الفتنة في عام ١٩٢٣م تصدى لها حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمته الله، وجمع حوله المخلصين من جماعته من كل المجالات: علماء، أطباء، تجارا ومحامين وغيرهم، وخاض بهم معركة بأسلة ضد الهندوس المتطرفين، سلاحه فيها القرآن والسنة والدعاء إلى الله تعالى. فهزم موهم بإذن الله، وتمكنوا من إقناع كثير من المرتدين التعساء وإنقاذهم من

* الأحراريون أو حزب الأحرار، كانوا بعض المشايخ المتعصبين وأشياعهم المتطرفين المعارضين للجماعة الإسلامية الأحمديّة، وكانوا يوالون الهندوس ويعارضون فكرة تأسيس باكستان. (الناشر)

برائن الهندوسية.

هذا إلى جانب جهوده الجبارة لتحرير أبناء كشمير المسلمين، ولذلك اختاره المسلمون رئيساً للجنة كشمير. ولولا اندساس الأحراريين في هذه اللجنة وإفسادهم فيها لَكُلِّتْ جهودها بالنجاح التام.

مواقفه المشهودة للعرب:

عندما كان الاستعمار ينفذ مؤامراته في فلسطين عام ١٩٤٨ م كتب الإمام رحمته الله نشرتين: "هيئة الأمم المتحدة وقرار تقسيم فلسطين" و "الكفر ملة واحدة"، ندد فيهما بموقف الاستعمار والصهيونية، ودعا العالم الإسلامي إلى نبذ خلافاته وتوحيد صفوفه لمواجهة إسرائيل ومساعدة العرب. ومما قاله حضرته:

"إن قضية فلسطين ليست بقضية عربية فحسب، بل إنها قضية تهم العالم الإسلامي كله. إنها ليست قضية فلسطين، وإنما هي قضية المدينة المنورة. والمسألة ليست مسألة بيت المقدس، وإنما هي مسألة مكة المكرمة ذاتها. إن القضية ليست قضية زيد أو عمرو بل هي قضية عرض محمد رسول الله صلوات الله عليه. لقد اتحد العدو ضد الإسلام متناسياً أوجه الخلاف الكثيرة بينه، أولاً يتحد المسلمون بهذه المناسبة رغم وجود آلاف من أوجه الاتفاق بينهم." ("الكفر ملة واحدة" نقلاً عن جريدة "الفضل" ٢١/٥/١٩٤٨ م)

ولقد نشرت بعض الصحف العربية ما جاء في "الكفر ملة واحدة" وأثنت على جهود الإمام والجماعة لإنقاذ فلسطين. (انظر جريدة النهضة: عدد ١٢ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)

خدماته العلمية:

بالإضافة إلى آلاف الخطب والمحاضرات في شتى المناسبات ألف حضرته عشرات الكتب منها: العرفان الإلهي، حقيقة ملائكة الله، حقيقة الرؤيا، حياة محمد صلوات الله عليه، منهاج الطالبين، نظام الاقتصاد في الإسلام، بداية الخلافات في تاريخ الإسلام، دعوة إلى الحق، تحفة الملوك، والأحمدية أي الإسلام الحقيقي، وله

ديوان شعر بالأردنية اسمه: "كلام محمود".

التفسير الكبير:

ولكن أعظم خدماته العلمية هو تفسيره للقرآن الكريم: ويسمى (التفسير الكبير). وقد نُشر في عشرة مجلدات باللغة الأردنية، ثم نُقل مختصراً إلى عدة لغات منها الإنجليزية. وأشادت جهات مختلفة بهذه التراجم. وقد قرظت جريدة "وكالة الأنباء العربية" عليها تحت عنوان بارز: "ترجمة القرآن الكريم" ما يلي:

"عمّان، تلقى فضيلة الميرزا رشيد أحمد جغتائي المبشر الإسلامي المعروف وعضو الجماعة الأحمدية والمقيم حالياً بعمّان نسخةً من الكتاب القيم الذي أصدرته الجماعة في الهند باللغة الإنكليزية حاولًا ترجمة القرآن المجيد. ويقع الكتاب في ٩٦٨ صفحة تضم ترجمة السور المجيدة: الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة. وقد قدّم لها بمقدمة قيّمة تقع في ثلاثمائة صفحة كتبها إمام الجماعة حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد تضم مصادر الكتاب وبحوثاً قيّمة عن قيمة القرآن المجيد وسيرة الرسول الأعظم وشخصيته وكيفية جمع القرآن وغيرها.

والترجمة الإنكليزية تفوق كل ترجمة سبقتها من حيث الإتقان وجودة الورق والطبع والانسجام وصدق الترجمة الحرفية وتفسيرها تفسيراً مسهباً بأسلوب جديد يدل على علم غزير وإطلاع واسع على حقائق الدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه السامية.

والكتاب الثمين في مجموعته دفاع عن الإسلام وردّ على خصومه وخاصة المستشرقين.. يُبطل مزاعمهم بأسلوب علمي رائع....

ومما يجدر ذكره بأن المسر "زمرمان" الكاتبة الهولندية المعروفة قامت بترجمة القرآن المجيد من الإنكليزية إلى الهولندية، وما كادت تفرغ من ترجمتها حتى كانت قد اعتنقت الإسلام". (جريدة "وكالة الأنباء العربية" الصادرة في عمّان والقاهرة في

عددتها ١/٢٠٥ بتاريخ ١٩٤٩/٢/٦م الموافق ٨ ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ)

أما فيما يتعلق بشهادة علماء "الأزهر" فقد نشرت "مجلة الأزهر" تحت عنوان: "نقد الكتب.. القرآن المقدس" تعليقَ الدكتور محمد عبد الله ماضي على الترجمة الألمانية لهذا التفسير بما يلي:

"هذه الترجمة أو هذا الكتاب يحتوي على مقدمة مفصلة وعلى ترجمة معاني القرآن باللغة الألمانية. والمقدمة كتبها رئيس الطائفة الأحمدية الحالي حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد.

أما الترجمة نفسها فقد اختبرتها في مواضع مختلفة وفي كثير من الآيات في مختلف السور، فوجدتها من خير الترجمات التي ظهرت للقرآن الكريم في أسلوب دقيق محتاط، ومحاولة بارعة لأداء المعنى الذي يدل عليه التعبير العربي المنزل لآيات القرآن الكريم. وقد نبه المترجم إلى أنه ليس في الاستطاعة نقل ما يؤديه الأسلوب العربي المحكم من الروعة البلاغية وسمات الإعجاز التي هي من خصائص القرآن إلى لغة أخرى، فهي خصائص انفرد بها كتاب الله المنزل في أسلوبه العربي، الذي نزل به من عند الله على نبيه المرسل، والذي لا تبديل فيه ولا تحريف، فهو يمثل كلام الله في معناه وفي مبناه، ولهذا فمن باب الاحتياط جعل النص العربي بجوار الترجمة الألمانية، حتى يستطيع القارئ أن يقارن ويختار بنفسه المعنى الذي تطمئن نفسه إلى صحته.

وعلى وجه الخصوص اختبرتُ ترجمة الآيات التي تتعلق بالقتال والجهاد في سبيل الله، بحثاً عما عساه يكون قد ضمّن الترجمة مما يتصل بما يراه الأحمدية في الجهاد، ويخالفون به جماعة المسلمين، حيث إنهم يقولون: "إن الجهاد يجب ألا يقوم على امتشاق الحُسام، بل يجب أن يقوم على وسائل سلمية....

اختبرتُ ترجمة هذه الآيات المشار إليها فوجدتها سليمة لا تتضمن أدنى الإشارات إلى هذا الذي كنت أخشى أن تتضمنه.

وفي المقدمة أورد كاتبها بحثاً إسلامية فلسفية قيمة، وقسمها إلى قسمين: تحدث في القسم الأول منهما عن حاجة البشرية التي اقتضت نزول القرآن، وبيّن أن الإسلام كان من تعاليمه وحدة الإله، وكان من عوامل توحيد

البشرية. فذكر أنه لما ارتقت البشرية وأصبح الناس على اتصال يكونون جماعة واحدة، أصبحوا في حاجة إلى تعاليم سماوية شاملة، تشمل الناس جميعاً، وتصلح لهم في كل زمان ومكان، وتدلهم على قدرة الله وعظمة رب الناس كافة؛ فكان القرآن هو الذي أدى تلك الرسالة جميعها.

كما تحدث عن كتاب العهد القديم (التوراة) وكتاب العهد الجديد (الإنجيل)، وبيّن أنه نالهما التحريف والتبديل، فأصبحا معه لا يمثلان كتب الله المنزلة. وذكر بعض المتناقضات فيهما، وبعض المبادئ التي تخالف العقل، وبعض الخرافات، وبعض القواعد الخلقية غير الثابتة. كما تحدث عما ورد في التوراة والإنجيل من التبشير بظهور النبي محمد ﷺ، إلى غير ذلك مما أورده صاحب المقدمة في القسم الأول.

وفي القسم الثاني من المقدمة كان الحديث عن بناء القرآن. فذكر المؤلف ما سبق أن تعرض له من بيان أن القرآن هو الكتاب المقدس الذي يمثل كلام الله المنزل، والذي حفظه الله من كل تحريف وتبديل، وتحدث في هذا الصدد عن المحافظة على القرآن بكل الوسائل المختلفة في عهد الرسول من كتابة الوحي وتقييده، ومن وعي الحفاظ له. وتحدث كذلك عن ترتيب الآيات والسور، مبيناً أن ذلك كان بوحي من الله نزل على نبيه. وتابع الحديث عن الأمور الآتية: " (هنا يورد هذه المواضيع في قائمة طويلة ثم يقول)

"وإذا صرفنا النظر عن بعض التلميحات العامة غير الصريحة المتصلة بمذهب الأحمديّة في الجهاد، والتي وردت في صحيفة (١٣٤) من المقدمة تحت عنوان: "المنازعات الدينية"، فإننا نجد أن المقدمة بقسميها اشتملت في الجملة على بحوث إسلامية رائعة، ونقلت صورةً من الأفكار والتعاليم الإسلامية المتعلقة بالقرآن، في ثوب وإطار إسلامي إلى اللغة الألمانية."

بعدها يقول المعلق:

"ولكن، نعم ولكن، مع الأسف الشديد خُتِمت هذه المقدمة بفصل عن المسيح المنتظر (مرزا غلام أحمد)..... وحبذا لو كان من المستطاع فصلُ هذا

الجزء الأخير عن الترجمة وعن المقدمة، والعملُ على نشرها دون هذا الجزء، فإنه لو أمكن ذلك لكان فيه خير كثير."

("مجلة الأزهر" الجزء الثامن، القاهرة، شعبان سنة ١٣٧٨ - فبراير (شباط) سنة ١٩٥٩ - المجلد الثلاثون)

وكتبت جريدة أخرى تحت عنوان: "الجماعة الأحمدية وترجمة القرآن المجيد":

"بدأ الناس يُعجَبون، بالرغم من انهماكهم في أمور دنياهم، بنشاط الحركة الأحمدية وجهادها لنشر الإسلام في القارات الخمس. ومن أعظم ما قام به الأحمديون في السنوات التي تلت الحربَ ترجمتهم القرآنَ المجيد للغات الأجنبية الحية كالإنجليزية والألمانية والأفرنسية والروسية والإيطالية والأسبانية وغيرها، تحت إرشاد إمام الجماعة الأحمدية حضرة ميرزا بشير الدين محمود أحمد.

وقد طُبعت الترجمة الإنجليزية، فأينها تفوق كل ترجمة سبقتها من حيث الإتقان وجودة الورق والطبع والترتيب والانسجام وصدق الترجمة الحرفية وتفسيرها تفسيراً مسهباً، بأسلوب جديد يدل على علم غزير واطلاع واسع على حقائق الدين وروحه وتعاليمه السامية.

وقد كُتبت الآيات القرآنية في أعلى الصفحات بالعربية في الجانب الأيمن وترجمتها بالإنكليزية في الجانب الأيسر، وتحت ذلك التفسير بلغة إنكليزية راقية.

وإن المطالع لهذا التفسير الجديد يرى أن حضرة إمام الجماعة الأحمدية في دفاعه عن الإسلام إنما يدافع عن الدين الحي الذي يجد الناس كافة فيه السبيلَ القاصد للقاء ربهم، وخاصة في الوقت الذي تعددت فيه الطرقُ على السالكين، فابتعدوا بها عنه.

وحضرته يرد في تفسيره هذا على خصوم الإسلام وبخاصة المستشرقين، ويُبطل مزاعمهم ومطاعنهم بأسلوب علمي منقطع النظير.

وقد بين في تفسيره هذا علاقةَ السور ببعضها وكذلك الآيات وأسباب النزول وملخص مضامين السور في أوائلها ليزيد القراء علماً وإيضاحاً لحقيقة المعاني. وإلتام الفائدة ألحقَ هذه الترجمةَ النفيسة بسيرة مسهبة للنبي ﷺ بقلمه، فجاءت هذه السيرة غايةً في الإتقان والأسلوب والمواضيع. " (جريدة "الأردن" عمان ٢٠ محرم ١٣٦٨ الموافق ٢١ / ١١ / ١٩٤٨)

هذا ما قاله العلماء العرب من أهل التقوى وخشية الله. وجزاهم الله أحسن الجزاء.

وقد اعترف علماء الهند أيضاً، علناً ومراراً، بعلمه الغزير وكونه مفسراً لا يُبلغ شأوه، فأتنوا عليه، وكان مثل هذا الثناء والتقريظ من أهل النزاهة والاستقامة أمراً عادياً في حياة سيدنا الميرزا بشير الدين محمود أحمد. ثم ما هو المعيار للحكم على منجزات شخص أفضل مما يشهد به أعداؤه ويعلنونه؟

فهذا شودري فضل حق - زعيم حركة الأحرار، وهي منظمة نذرت نفسها لمعارضة الجماعة الإسلامية الأحمديّة - يتحدث عن براعة حضرته ﷺ فيصرح: "إن وراءه عقلاً فذاً قادراً على تدمير أعظم إمبراطورية في غمضة عين". (جريدة "المجاهد" ١٥/٨/١٩٣٥)

وهذا المولوي ظفر علي خان.. وهو معارض شديد للجماعة الإسلامية الأحمديّة.. يتحسر لما شهدته من منجزات سيدنا محمود وينذر زملاءه وأصحابه:

"أعيروني سمعكم وأنصتوا أنتم وشركاؤكم أيها الأحراريون! إنكم لن تستطيعوا أن تهزموا الميرزا محمود حتى يوم الدين. إن الميرزا محمود يملك القرآن وعلم القرآن. وإنكم لم تقرأوا القرآن قط ولو في أحلامكم. مع الميرزا محمود جماعة مستعدة للتضحية بكل ما تملك عند قدميه. الميرزا محمود لديه دعاة: مبلغين وعلماء في تخصصات شتى. لقد ثبتَ رأيته في كل بلد من العالم."

(ايك خوفناك سازش (أي مؤامرة مخيفة) للسيد مظهر علي أظهر، ص ١٩٦)

وصيته للمسلمين:

في عام ١٩٥٩م مرض المفسر رحمه الله مرضاً شديداً وظن أنه ملاق ربه.. فكتب وصية لأبناء الجماعة في أنحاء العالم حثهم فيها على مواصلة العمل في خدمة الإسلام والتمسك بنعمة الخلافة الإسلامية الراشدة.. نقتبس منها قوله:

"كنا أذلاء لا يُعتدّ بنا، فشرّفنا الله تعالى كرماً منه وفضلاً وجعلنا حمّةً لدينه. كنا ضعفاء عديمي الحيلة، فمنحنا الله تعالى القوة وأناط بنا مستقبل الإسلام. كنا فقراء بلا إمكانيات، ومع ذلك فرض الله علينا نشر اسمه واسم نبيه المصطفى صلّى الله عليه وآله إلى أقصى أطراف الأرض.

لقد كانت مهمة صعبة عجز الملوك عن القيام بها، ولكننا حملناها، ليس بكفاءتنا وإنما بفضل الله تعالى ورحمته وبركته ثم ببركة رسوله خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله.

لم تكن بأيدينا الوسائل ولكنه تعالى نصرنا وأخرى أعداء الإسلام وأذهم. فسبحان الذي أحرز الأعداء. وإني لواثق بأن الله تعالى سيظل ناصراً للإسلام إلى يوم الدين.

وأرجو أن يتابع أبنائي وبناتي.. وأبناء وبنات سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه الصلاة والسلام.. تضحياهم لحمل اسم محمد صلّى الله عليه وآله إلى أقصى أطراف الأرض ورفع لواء الإسلام خفاً إلى الأبد.

وبنفس الثقة والرجاء.. أعهد إلى كل مسلم أحمدي أن يحمل هذه الأمانة. إن كل البركات تنبع من الخلافة. النبوة تزرع البذرة، فتتعهد الخلافة نموها ونشرها في العالم أجمع. فاعتصموا بهذا النظام السماوي، ولتنتفع من بركاته الدنيا كلها.

هذه هي وصيتي الأخيرة لكم. رحمكم الله وأعزكم في هذه الدنيا وفي الآخرة. أوفوا بعهدكم حتى الموت".

وفاته:

بعد حياة مباركة حافلة بجلائل الأعمال والخدمات للإسلام والمسلمين، وبعد قيادة تاريخية فذة للجماعة الإسلامية الأحمدية لأكثر من نصف قرن.. لقي حضرته رفيقه الأعلى، ولى نداء ربه صباح الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٦٥م في مدينة ربوة التي أنشأها، ودفن هناك.

لقد كتب السيد يعقوب خان - المحرر السابق للجريدة الرسمية المدنية والحربية (CIVIL & MILITARY GAZETTE) - مؤبناً سيدنا محمود أحمد رحمه الله بعد وفاته:

عظيم من بُناة الأمة

"ب وفاة الميرزا بشير الدين محمود أحمد إمام الحركة الأحمدية بربرة.. أُسْدِلَ الستار على مسار حياةٍ هي الأحفل بالأحداث والأحشد بمشروعات بعيدة المدى لا تحصى. رجل ذو شخصية عبقرية متعددة المواهب، مفعمة بالنشاط والحيوية. لا يكاد يوجد مجال من مجالات الفكر والحياة المعاصرة من العلوم الدينية إلى تنظيم الدعوة والتبليغ، بل والقيادة السياسية.. إلا وترك فيه الفقيه أثراً عميقاً في خلال النصف القرن الماضي.

هناك شبكة كاملة من البعثات الإسلامية والمساجد منتشرة في أنحاء العالم؛ واختراق عميق للدعوة الإسلامية في أفريقيا، وإزاحة للإرساليات النصرانية الراسخة منذ زمن طويل عن مواقعها. كل ذلك ينهض نصباً تذكاريّاً وأثراً خالداً لما كان يتمتع به الفقيه من تخطيط مبدع؛ ومقدرة تنظيمية وطاقة لا تنضب. لا يكاد يوجد قائد قوم من زمننا الحاضر حاز كل هذا الإخلاص العميق من جانب أتباعه.. ليس إبان حياته فقط، بل وبعد وفاته، فقد هرع ستون ألفاً - من كافة أنحاء البلاد ليقدموا واجب التكریم والتقدير الأخير نحو إمامهم الراحل. وفي تاريخ الحركة الأحمدية.. سوف يُسجَل اسم الميرزا محمود على أنه عظيم من بُناة الأمة.. شيد جماعةً متينةً محبوكة النسج في مواجهة

ظروف ثقيلة الوطأة، وجعل منها قوةً يُحسب حسابها" (جريدة "النور"، لاهور، ١٦/١١/١٩٦٥).

جزاه الله تعالى خير ما يجزي.. إماما في قومه، ومعلما ومرييا عن تلاميذه.. وأبا روحيا عن أبنائه وبناته، ونفعنا بعلمه ووعظه، وألحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم صلّ على سيدنا محمد وآله وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

الناشر

٢٧-٦-٢٠٢١

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام الله

إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يمكن أن يسمى "كلام الله". أما الكتب الأخرى، وإن كانت تُدعى كتباً إلهامية، إلا أنها لا يمكن أن تسمى "كلام الله"، لأن كلام البشر قد أُضيف إليها وخالطها. أما "كلام الله" الخالص في كل حرف منه، فإنما هو القرآن الكريم وحده بدءاً من الباء في قوله تعالى "بسم الله الرحمن الرحيم" إلى السين في قوله "مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ".

لا يزال هذا الكتاب إلى يومنا هذا هو هو كما نزل. لم تُنقص منه كلمة واحدة، ولم تُضف إليه كلمة واحدة. ليس فيه أمر لا يمكن العمل به، ولم تُنسخ منه آية واحدة. كل سكتة أو حركة في ألفاظه بفتح أو ضم أو كسر محفوظة، وكل وقف كما هو. فلذلك ليس هناك كتاب سوى القرآن نستطيع أن نتخذه مناراً لحياتنا موقنين بأن لا شبهة في أي أمر فيه.

ولكن وا أسفاه!! لقد نسي المسلمون هذا الكتاب القيم، وانشغلوا عنه إلى كتب أخرى، وبدلاً من أن يتبعوا الله ربهم يتبعون زعماء اختاروهم بأنفسهم. ولقد أردت بكتابة هذا التفسير لكلام الله تعالى أن يجد فيه من لا يعرفون اللغة العربية، أو من ليس لديهم لسوء حظهم وقت للتدبر في كلام الله، أو من لا تتولد في قلوبهم رغبة في ذلك، الفرصة لأن يفهموا كلام الله تعالى، ولأن يطلعوا على محاسنه المكنونة.

بهذه السطور أستهل المجلد الأول من هذا التفسير..... تَقَبَّلَ اللهُ مِنِّي هَذِهِ
المحاولة المتواضعة، وأحيا بهذا التفسير من جديد معاني القرآن الكريم حياة ظاهرة
وباطنة.. ووفقني لإكماله. آمين!

ميرزا محمود أحمد

١٩٤٨ / ٥ / ٢٣

رتن باغ، لاهور

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم
نحمده ونصلي على رسوله الكريم
بفضل الله ورحمته، هو الناصر

سورة الفاتحة

مكية وهي مع البسمة سبع آيات

السورة: السورة لغة تعني: المنزلة؛ الشرف؛ ما طال من البناء إلى جهة السماء وحسن؛ العلامة؛ القطعة المستقلة. ويقال سُورَةٌ بالهمز وهي لغة (الأقرب).

وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها قُطعت من القرآن على حدٍّ، من قول العرب للبقية: سُورٌ، وهو في أسأَر الناس، أي بقاياهم^١.

وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لتمامها وكماها من قول العرب للناقة التامة: سورة. وجمعُ سورةٍ سُورٌ. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي)

لماذا تُسمى جمل القرآن سورة؟ لقد اختلف العلماء في ذلك، وذكروا أسباباً مختلفة، فمنهم من يرى أن سبب ذلك أنها تزيد قارئها منزلة، وقال البعض: لأنها تزيد شرفاً، وقال بعضهم إنها علامة لانتهاء موضوع من مواضيع القرآن، وقال آخرون إنها تقدّم للعالم بناء روحانياً عالياً وجميلاً، ويرى آخرون أنها بقية القرآن وحصّة منه، ويرى غيرهم أنها تحتوي على موضوع كامل مكتمل.

^١ نص ما ورد في القرطبي هو: وجاء أسأَرُ الناس أي بقاياهم. (المترجم)

وواضح أن هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف الأذواق، وإلا فأرى أن هذه المعاني الستة كلها تصدق على هذه الكلمة، لأن السورة القرآنية (١): تورث قارئها منزلة عالية، (٢): تُكسب مَنْ يعمل بها شرفاً وتُميّزه عن الآخرين، (٣): هي علامة اختتام موضوع خاص، (٤): هي بناء روحي فخم، (٥): هي جزء من أجزاء القرآن، (٦): تضم بحثاً كاملاً من جميع النواحي.

ولقد أطلق الرسول ﷺ نفسه هذه التسمية على سور القرآن بوحى من الله تعالى. وقد وردت نفس التسمية في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (البقرة ٢٤).^١ وفي الحديث عن أنس قال رسول الله ﷺ: "أنزلت عليّ أنفاً سورة، فقراً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ". (مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة). فثبت من هنا أن الرسول ﷺ أيضاً نفسه كان يُسمي فقرات القرآن الكريم التي يطلق عليها المسلمون سوراً بهذه التسمية، ولم تأت هذه التسمية لاحقاً.

أسماء سورة الفاتحة

إن اسم هذه السورة الوجيزة الواردة في مستهل القرآن الكريم هو فاتحة الكتاب، وقد اختصر الاسم وصار: الفاتحة. وقد روي هذا الاسم عن النبي ﷺ، حيث ورد عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب). وقد وردت هذه الرواية عن هذا الصحابي نفسه في صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة.

^١ ملحوظة: لقد وُضعت أرقام الآيات القرآنية في هذا التفسير باعتبار البسملة آية من كل سور القرآن، ما عدا سورة التوبة، أي البراءة. (الناشر)

ولهذه السورة عدة أسماء أخرى؛ ومن أشهر ما ورد في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ من هذه الأسماء هو الآتي:

١: **سورة الصلاة**: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله عز وجل: "قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ". (مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة).

وقد أخرج ابن جرير أيضاً هذه الرواية عن جابر بن عبد الله أيضاً، أي قَسَمْتُ الصلاة، أي سورة الفاتحة. والمراد أن نصف السورة ذكرٌ لأسماء الله عز وجل والثناء عليه، ونصفها الثاني دعاء العبد.

٢، ٣، ٤، ٥، ٦: **سورة الحمد، أمُّ القرآن، أمُّ الكتاب، السبع المثاني، والقرآن العظيم**: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله أمُّ القرآن وأمُّ الكتاب والسبعُ المثاني" (أبو داود، كتاب الصلاة، باب فاتحة الكتاب). وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "هي أمُّ القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم." (مسند أحمد)

وقد جاء اسمها السبع المثاني في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٨)

٧: **الشفاء**: عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: "في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء". (مسند الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل الفاتحة). وفي رواية: "شفاء من السمِّ". (البيهقي، شعب الإيمان).

٨: **الرُقِيَّة**: عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً ذكّر لرسول الله ﷺ أنه رقى رجلاً سليماً، أي من لدغته الحية، فبرأ. فقليل له: "أكنتَ تحسن رُقِيَّةً أو كنتَ ترقّي؟ قال: لا، ما رقيتُ إلا بأَم الكتاب". فعندما ذكّر لرسول الله ﷺ قال: "وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَلْقَيْ فِي رُوعِي" (مسند أحمد والبخاري، كتاب الإجارة، باب ما يُعطى في الرقية).

٩: الكنز: أخرج البيهقي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "إن الله أعطاني فيما منّ به عليّ فاتحة الكتاب، وقال: هي كنز من كنوز عرشي." (تفسير فتح البيان).

فهذه تسعة أسماء ثابتة من القرآن والحديث. وقد سبق أن ذكرت اسما آخر لها، وهو "فاتحة الكتاب"، وهناك أسماء أخرى لها مروية عن الصحابة، وقد قال السيوطي إن عدد أسمائها خمسة وعشرون، بينما ذكر القرطبي اثني عشر اسما، ولأنّ لم أجد أدلة على أسمائها الأخرى في القرآن الكريم والحديث فلم أذكرها (تفسير القرطبي).

أما اسمها "الفاتحة" فله خصوصية بأنه مذكور في الكتب السابقة كنسوة، حيث ورد في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي:

"وَمَعَهُ فِي يَدِهِ سِيفٌ صَغِيرٌ مَفْتُوحٌ. فَوَضَعَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْبَحْرِ وَالْيُسْرَى عَلَى الْأَرْضِ، وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ كَمَا يُزْمَجِرُ الْأَسَدُ. وَبَعْدَ مَا صَرَخَ تَكَلَّمَتْ الرُّعُودُ السَّبْعَةُ بِأَصْوَاتِهَا." (رُؤْيَا يُوحَنَّا اللَّاهُوتِيِّ ١٠ : ٢-٣).

فاسم هذه السورة وعدد آياتها مذكور في هذه الصحيفة كنسوة، ولكن مترجم الكتاب المقدس كان يجهل حقيقة هذه النبوءة، فترجم الكلمة العبرية "فتوحه" إلى "سيف مفتوح"، مع أن لفظ "فتوحه" يشير إلى اسم سورة الفاتحة. أما أصوات الرعود السبعة فهي إشارة إلى آيات الفاتحة السبع.

والكتاب المسيحيون مجمعون على أن هذه العبارة من سفر يوحنا اللاهوتي نبوءة عن المجيء الثاني للمسيح، وهو قول صحيح تماما. والثابت من كلمات هذه النبوءة أن هذه السورة ستظل مُقْفَلَةً مُعَلَّقةً حتى زمن مجيء المسيح ثانية، بمعنى أن مفهومها المفصل سوف ينكشف في زمن المسيح الموعود، إذ ورد في هذه الرؤيا بعد ذلك أن صوتا سماويا قال لهذا النبي: "اخْتِمِ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ الرُّعُودُ السَّبْعَةُ وَلَا تَكْتُبْهُ" (رُؤْيَا يُوحَنَّا اللَّاهُوتِيِّ ١٠ : ٤)

ولقد تناولتُ أسماء هذه السورة مفصّلاً لسببين: أوّلاً للتأكيد على أن النبي ﷺ هو الذي قد قام بتسمية سور القرآن بوحى من الله تعالى، كما رأينا آنفاً فيما يتعلق بأسماء الفاتحة.

وثانياً، لأن هذه الأسماء تلقي الضوء على ما في هذه السورة من مفاهيم واسعة. الحقيقة أن هذه الأسماء التسعة تشير إلى عشرة مواضيع تتناولها سورة الفاتحة:

أوّلاً: فهي فاتحة الكتاب، لأن الله تعالى أمر بوضعها في أوّل القرآن، وثانياً: هي أيضاً بمنزلة مفتاح تفتح به معارف القرآن كلها.

ثانياً: هي سورة الحمد، لأنها تبين علاقة الإنسان بخالقه، وتحدّد غاية خلقه بأنه خلق لأجل التقدم إلى الدرجات العلى من قرب الله، وأن صلته مع الله تعالى أساسها رحمة الله وفضله.

ثالثاً: هي سورة الصلاة، أي الدعاء الكامل، لأنها تعلّم دعاء كاملاً لا مثيل له. رابعاً: هي أمّ الكتاب، أي أنها محتوية على جميع العلوم التي يخاطب بها الآخرون من أهل الكتب الأخرى. وهي أمّ الكتاب أيضاً لأنها بمنزلة أم للكتاب الكريم، أي القرآن الكريم، بمعنى أن الأدعية التي تتضمنها الفاتحة هي التي كانت قد انبعثت من القلوب المتضرعة ووصلت العرش العظيم ونزلت بالقرآن الكريم.

خامساً: هي أم القرآن، أي أنها تبين كل العلوم التي هي ذات صلة بالإنسان. سادساً: هي السبع المثاني، لأنها وإن كانت سبع آيات فحسب، فهي تلبي جميع احتياجات الإنسان، فما من قضية روحانية إلا وتلقي عليها الضوء آية من آياتها، وكأن آياتها السبع تعاد مرة بعد أخرى مرجعاً لحل جميع المسائل العلمية. وهي تسمى المثاني أيضاً لأن آياتها تُقرأ في كل ركعة من الصلاة.

سابعاً: مع أنها أم الكتاب وأم القرآن، فهي جزء من القرآن، وليست منفصلة عنه كما ظنّ البعض خطأً. وقد سميت سورة الفاتحة قرآناً عظيماً على شاكلة قولنا: أسمعني القرآن، وتعني سورة منه أو بضع آيات.

ثامنا: هي سورة الشفاء، لأنها تشفي من جميع الوسوس التي تختلج بها صدور الناس في أمور الدين.

تاسعا: هي رُقِيَّة، لأنها تفيد رُقِيَّة. كما تمنع عن قارئها هجمات الشيطان وذريته. وتولد فيه قوة تصير حيالها دسائس الشياطين عقيمة.

عاشرا: هي سورة الكنز، إذ تجري فيها أنهار العلوم والمعارف، ولعل المثل السائر "حصر البحر في كوب" لا ينطبق انطباقا صحيحا إلا على سورة الفاتحة؛ بل بالفعل قد حُصرت فيها البحار.

وقصدي من تعداد أسمائها المختلفة توجيه الأذهان إلى معارفها الواسعة التي أشار إليها الرسول ﷺ في شتى أسمائها، وإلا فالأسماء الخالية من أي حقيقة لا تساوي شيئا حتى ولو بلغت مائة، وصدور مثل هذا العمل من الرسول ﷺ محال. الحق أن في هذه الأسماء نورا عظيما وهداية كاملة للمتدبرين.

فضائل الفاتحة

لهذه السورة فضائل كثيرة مذكورة في الحديث؛ منها ما مر ذكره ومنها ما يقتضي التفصيل، وهاك بيانه:

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن. وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل." (النسائي، كتاب الافتتاح).

هذه الفضيلة عظيمة الأهمية، لأنها ترشد إلى طريق يساعد الإنسان على حل الأمور الدينية والدنيوية، وهو أن كل دعاء مصحوب بالفاتحة ينال القبول. غير أن الجملة الأخيرة من هذا الحديث لا تعني أن مجرد قراءة هذه السورة وسيلة لإجابة الدعاء، وإنما المراد أن الذي يسلك طريق القبول المذكور في السورة هو الذي يحظى دعائوه بالقبول حتماً. وهذا الطريق ترسمه أجزاء السورة كما يلي:

١: بسم الله الرحمن الرحيم، ٢: الحمد لله رب العالمين، ٣: الرحمن، ٤: الرحيم، ٥: مالك يوم الدين، ٦: إياك نعبد، ٧: إياك نستعين.

فكان السورة كما أنها سبع آيات فهي كذلك تتضمن سبعة مبادئ لقبول الدعاء:

المبدأ الأول: بسم الله، وطبقا لهذا المبدأ يجب أن يكون الدعاء لأمر صالح. فلا ينبغي للسارق مثلا أن يدعو الله تعالى للنجاح في سرقة، لأنها لا تصلح لأن تبدأ باسم الله عز وجل. فالدعاء المبتدئ باسم الله والاستعانة به لا بد أن يكون في أمر يمكن أن يشترك الله فيه مع العبد. انظر كيف بين الله تعالى بهذه الكلمة الوجيزة نطاق الدعاء. رأيت كثيرا من الناس يدعون على غيرهم بالدمار والهلاك ثم يشكون عدم استجابة الدعاء. وكذلك يدعون لمقاصد جائرة ثم يزعمون أن الدعاء لم يسمع. ومنهم من يتظاهر بالزهد والتقوى ويدعو ويبيع التمايم لأموال محرمة، والواقع أن هذه التمايم والأدعية مردودة عليهم.

المبدأ الثاني: الحمد لله رب العالمين، أي ينبغي للداعي أن يدعو دعاء يعم خيرُه الآخرين، بل الناس أجمعين، أو على الأقل لا يضرهم دعاؤه، وتؤدي إجابته إلى إثبات حمد الله وتأكيده، ولا يتنافى مع كماله.

المبدأ الثالث: الرحمن، أي أن يكون الدعاء مستثيرا لرحمة الله الواسعة ويؤدي قبوله إلى تحلي صفته الرحمانية.

المبدأ الرابع: الرحيم، أي أن يكون الدعاء أساسا لخير يبقى تأثيره في الدنيا طويلا، وأن يظل يستفيد منه الصالحون والشرفاء باستمرار، أو على الأقل لا يقف في طريقهم.

المبدأ الخامس: مالك يوم الدين، أي ينبغي للطالب ألا يهمل اتخاذ الأسباب الظاهرة التي خلقها الله للإنتاج الصحيح، لأنها أيضا من خلق الله عز وجل، وليس من المستساغ أن يتضرع العبد إلى الله بالدعاء ثم لا يتخذ الأسباب المادية التي خلقها الله لتحقيق مراده. فالأسباب المادية يجب استعمالها بشرط وجودها لدى الداعي وتمكُّنه منها. نعم، إذا لم تكن الأسباب متوافرة تجلت صفة "مالك

يوم الدين" متعالية عن الأسباب. ويشير هذا المبدأ أيضا إلى أن الداعي يجب أن يكون متسائحا مع الناس في معاملاته، وألا يقسو عند مطالبته بحقوقه.

المبدأ السادس: إياك نعبد، أي أن يتمتع السائل بعلاقة كاملة مع الله وإخلاص كامل معه سبحانه، وأن يكون بريئا من الشرك والأفكار الوثنية كليا.

المبدأ السابع: إياك نستعين، أي أن تكون حياته ومماته لله، وأن يكون توكله كله على ذاته عز وجل، منقطعاً إليه عن جميع ما سواه، وأن يبلغ في التوكل على الله مكانة تغنيه عن الاستعانة بغير الله دوماً مهما دارت به الدوائر. هذه هي المبادئ السبعة التي إذا عمل بها الإنسان صار العبد الذي ذكره الرسول ﷺ في الحديث: "ولعبدني ما سألت"، ويستجاب دعاؤه.

والحق أنه لا يوجد نموذج لمثل هذا الدعاء الكامل إلا عند محمد المصطفى ﷺ وأتباعه الكاملين؛ فمن خلاهم رأيت الدنيا آياتٍ لقبول الدعاء أعادت للعميان بصرهم، وللصم سمعهم، وللبكم نطقهم. وباب الوصول إلى تلك المنزلة التي نالها أصحاب النبي ﷺ لم يغلق، بل إنه مفتوح على مصراعيه، ومن سعى للوصول إليها نالها.

أخرج البخاري عن سعيد بن المعلّى أن رسول الله ﷺ قال له: "ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؟ فعلمهم الفاتحة." (البخاري، كتاب فضائل القرآن).

وأراد ﷺ بقوله "أعظم سورة في القرآن" أن معارف الفاتحة، على صغر حجمها، أكثر من معارف السور الطوال، ولا مرأى في ذلك؛ فإنها بمثابة متن القرآن وخلاصته.

وهنا أود أن أبين خبرتي الشخصية بصدد هذه السورة؛ كنت حدثاً صغيراً حينما رأيت في المنام أنني قائم في مكان متوجهاً نحو الشرق، وأمامي ميدان واسع، فإذا بصوت منطلق من هذا الميدان مثل طنطنة الآتية. وأخذ الصوت ينتشر في الجو حتى ظننت أن الجو قد امتلأ به. ثم بدأ وسط الصوت يتجسد

لي، وأخذ يظهر بمظهر إطار مثل إطارات الصور، وبدت في ذلك الإطار ألوان خفيفة، ثم زادت الألوان وشكلت في النهاية صورة. ثم تحركت الصورة و أصبحت ذات حياة. فخيّل إليّ أنه ملاك. فخاطبني وقال: ألا أعلمك تفسير الفاتحة؟ قلت له: بلى، علّمني تفسير هذه السورة. فأخذ يعلمني حتى فسّر لي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ثم قال لي: إن جميع كتب التفسير انتهت عند تفسير هذه الآية، ولم يأت أحد بتفسير ما بعدها من الآيات. ثم قال: ألا تريد أن أعلمك تفسير ما بعدها؟ قلت: بلى. ففسر لي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وما بعدها من الآيات. فلما انتهى من التفسير استيقظت، ووجدت نفسي كأنني لا أذكر من التفسير إلا أمراً أو أمرين. ثم عدت إلى النوم ثانية، ولما أفقت نسيت جميع ما علّمت من التفسير.

وبعد مدة سّحت لي فرصة للحديث حول تفسير هذه السورة في مجلس، وعندئذ شعرت بأن نفسي تأتي بمعارف لا عهد لي بها. فتأكدت أنها تلك التي علّمنيها الملاك. ومنذ ذلك اليوم ما زلت أتلقي حقائق لطيفة لهذه السورة المباركة، وقد صرحت بكثير منها في الكتب والخطب، ولم تنفد هذه الخزينة. والمبادئ السبعة التي ذكرتها هنا عن استجابة الدعاء هي أيضاً من ثمرات تلك التجارب، إذ إنني لما أردت تفسير الفاتحة هذه المرة أحببت أن يفتح الله عليّ معارفها الجديدة هذه المرة أيضاً، فلم ألبث حتى انكشفت لي هذه المبادئ السبعة لإجابة الدعاء، فالحمد لله على ذلك. وما كتبت إلا كلاماً موجزاً بالنسبة إلى ما تحتوي عليه هذه المبادئ من حقائق واسعة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

زمن نزول الفاتحة

قال ابن عباس وقتادة وأبو العالية عن زمن نزولها إنها مكية، بينما قال أبو هريرة ومجاهد وعطاء والزهري إنها مدنية، ولكن الواضح من القرآن الكريم أنها كانت معروفة في الفترة المكية؛ إذ أُشير إليها في سورة الحجر التي هي مكية بالإجماع في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر

٨٨). بينما يرى بعض الأئمة أنها نزلت مرتين، مرة في مكة ومرة في المدينة. إذا، فهي مكية ومدنية أيضا.

هذه الرواية وردت في القرطبي نقلا عن الثعلبي، ولكن لم يرد هذا القول في تفسير الثعلبي المطبوع في الجزائر. ولعل القرطبي أخذ رأي الثعلبي هذا من كتاب آخر له.

وعندي أن السورة نزلت بمكة ثم نزلت بالمدينة. فكونها مكية أمر يقين، كما أن كونها مكية مدنية ثابت من الرواة الموثوق بهم، فالحق أنها نزلت مرتين. ويبدو أن النبي ﷺ قد ذكر نزولها ثانية في بعض المجالس، فظن البعض أنها نزلت في المدينة فقط، مع أن النبي ﷺ كان يقصد أنها نزلت في المدينة أيضا. والدليل على أنها مكية أن كل الروايات تبين أن سورة الفاتحة كانت تقرأ في الصلاة دائما. وكانت الصلاة جماعة قد بدأت في مكة، بل في أوائل الإسلام.

سورة الفاتحة جزء من القرآن الكريم

لقد قال البعض إن سورة الفاتحة ليست جزءاً من القرآن، وحجّتهم أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لم يكتبها في مصحفه.

ولكن يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لم يكتب في مصحفه الفاتحة والمعوذتين "الفلق والناس" أيضا؛ إذ كان يرى أن الفاتحة تُقرأ قبل كل سورة في الصلاة، فهي بمثابة تمهيد لكل سورة، والأغلب أن هذا كان رأيه عن المعوذتين أيضا، وكأنه كان يرى أن فحوى هاتين السورتين دعاء للنجاة من أنواع الشرور والخسران، فهما -عنده- ليستا من نص القرآن العظيم، رغم وجودهما في متنه، والأغلب أنه كان يعتبرهما ذواتي علاقة بكل سورة.

أما رأيه عن سورة الفاتحة هذا فهو ثابت من الأحاديث، فقد أخرج الأنباري عن الأعمش عن إبراهيم أنه قيل لعبد الله بن مسعود: لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة. وكأنه يقول إن

هذه السورة تتعلق بكل سورة أخرى، ولذلك لم أثبتها في مصحفي حتى لا يُفهم خطأً أنها تتعلق بسورة البقرة فقط. (القرطبي)

ويبدو أن هذا كان استدلاله عن المعوذتين أيضاً، وإلا فكيف يمكن أن يمحو من القرآن سورة اعتبرها الرسول ﷺ بكل وضوح أفضل سورة في القرآن؟ (البخاري: كتاب فضائل القرآن)

وقراءة الفاتحة واجبة في كل ركعة من كل صلاة. ومن دخل الصلاة عند الركوع فقراءة الإمام للفاتحة تجزيه، وعليه أن يكبر ويدخل في الركوع من دون قراءة شيء. أما وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة فتؤكد أحاديث كثيرة منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج." (مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة).

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب." (البخاري: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الإمام والمأموم في الصلاة؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة). وقد أخرج ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما رواية مماثلة عن أبي هريرة (القرطبي).

كما ورد عن أبي هريرة: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أُنَادِيَ أَنَّهُ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَمَا زَادَ. (أبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته)

وروي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأبي بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُباد بن الصامت وأبي سعيد الخدري وعثمان بن أبي العاص وخوات بن جبير أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. وهو قول ابن عمر. (القرطبي)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ وَسُورَةٍ، فِي فَرِيضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا. (ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب القراءة خلف الإمام)

لقد ضعف المحققون هذه الرواية، ولكن ما دام هذا هو عمل الصحابة فلا شك في صحة محتواها. وهناك رواية أخرى ذكرها أبو داود تؤيد هذه الرواية، وهي عَنْ نَافِعِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: أَبْطَأَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَأَقَامَ أَبُو نُعَيْمٍ الْمُؤَذِّنُ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى أَبُو نُعَيْمٍ بِالنَّاسِ وَأَقْبَلَ عِبَادَةُ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى صَفَفْنَا خَلْفَ أَبِي نُعَيْمٍ، وَأَبُو نُعَيْمٍ يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ، فَجَعَلَ عِبَادَةُ يَقْرَأُ أَمَّ الْقُرْآنِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ لِعِبَادَةَ: سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَأَبُو نُعَيْمٍ يَجْهَرُ؟ قَالَ: أَحَلَّ، صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الصَّلَوَاتِ الَّتِي يَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ، قَالَ فَالْتَبَسْتُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بَوَجهِهِ وَقَالَ: هَلْ تَقْرَءُونَ إِذَا جَهَرْتُ بِالْقِرَاءَةِ؟ فَقَالَ بَعْضُنَا: إِنَّا نَصْنَعُ ذَلِكَ. قَالَ: فَلَا، وَأَنَا أَقُولُ مَا لِي يُنَازِعُنِي الْقُرْآنُ، فَلَا تَقْرَءُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِذَا جَهَرْتُ إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ. (أبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته)

وهناك أحاديث كثيرة بهذا الصدد، فقد أخرج الدارقطني مثلاً عَنْ يَزِيدَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ سَأَلْتُ عُمَرَ عَنْ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ. قَالَ قُلْتُ وَإِنْ كُنْتُ أَنْتَ؟ قَالَ وَإِنْ كُنْتُ أَنَا. قُلْتُ: وَإِنْ جَهَرْتُ؟ قَالَ وَإِنْ جَهَرْتُ. هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. (الدارقطني، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة أم الكتاب في الصلاة)

وهذا ما أفتى به المسيح الموعود عليه السلام، إذ قال يجب قراءة الفاتحة وراء الإمام وإن كان يجهر بها، إلا أن يأتي أحد وينضم إلى الصلاة والإمام في الركوع، ففي هذه الحالة عليه أن يكبر وينضم إلى الصلاة، وقراءة الإمام تجزيه. (الملفوظات المجلد ١ ص ٤٤٨)

وهذا استثناء، والاستثناء لا يلغي القاعدة. ومن الاستثناء أيضاً أن المصلي لا يحفظ الفاتحة، كأن يكون مسلماً جديداً أو طفلاً صغيراً لم يتعلم الصلاة ولم

يعرف من القرآن شيئا، فيُجزّئه مجردُ التسبيح والتكبير في الصلاة، وإن لم يقرأ فيها شيئا من القرآن الكريم وحتى الفاتحة.

خلاصة معارف الفاتحة

إن الفاتحة كما يبدو من اسمها "فاتحة القرآن" قد جمعت معارف القرآن مقدمةً له، لكي يقف عليها القارئ مجملَةً في مستهلّ القرآن.

أولاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

بدأ باسم الله مما يدل على أن المسلم:

١: يوقن بالله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

٢: أنه يوقن أن الله ليس العلة الأولى للكون فحسب، كما يزعم الفلاسفة، بل إن جميع الأمور في الكون تحدث بحُكمه وإشارته، ومن ثم فاستعانة العبد بالله تعالى تنفعه نفعا كبيرا. ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

٣: يوقن المؤمن بأن الله ليس قوةً روحانية خفية فحسب، بل له وجود مستقل وله اسم مستقل، وهو متَّصف بمختلف الصفات. ﴿اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

٤: هو المبدأ لجميع أصناف الرقي، وعنده كافة الوسائل التي يمكن أن تتقدم بها الدنيا وتنهض. ﴿الرَّحْمَنُ﴾

٥: خلق الإنسان للترقيات العالية، فإذا استخدم الإنسان ما خلق الله له من أسباب استخداما صحيحا أتت أعماله بنتائج رائعة، مما يجعله مستحقا للمزيد من الإنعام باستمرار. ﴿الرَّحِيمُ﴾

٦: تمتاز كافة أفعاله عز وجل بالجامعية والكمال، وأنه متصف بكل حسن وصاحب كل حمد، لأنه خالق كل ما سواه. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٧: كل ما يوجد من دون الله تعالى من شيء ليست بدايته ونهايته متساويتين، بل كل شيء يتطور من حالة أدنى إلى الكمال. فالله تعالى خالق الأشياء كلها، وليس هنالك شيء وُجد بنفسه. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٨: إن المخلوقات أنواع كثيرة، ويتفرع عن كل نوع آلاف الفروع والأمزجة، فلفهم كل شيء عن مخلوق ما، لا بد من التدبر في نوعه هو، وليس في نوع آخر، لأن الله تعالى يعامل كل نوع حسب طبيعته، فإذا رأيتم اختلافًا في معاملة الله تعالى مع الخلق فيجب أن لا تنخدعوا بذلك، لأن هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف الأحوال، لا إلى الظلم أو الإهمال. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٩: فكما أننا نرى أن الله تعالى -خالق كل مخلوق- يستخدم أسبابًا مختلفة، كذلك الله خالق كل الأسباب، فكل شيء محتاج إليه في كافة الظروف والأحوال. ﴿الرَّحْمَنُ﴾

١٠: وكما أنه خالق الأشياء وما تحتاج إليه من أسباب، كذلك هو الذي يملك النتائج التي تؤدي إليها هذه الأسباب. فمثلاً إن الله تعالى خلق الإنسان وخلق غذاءه الذي لا بد منه لاستمرار حياته، فالدم الذي يتولد من طعامه - سواء كان صالحاً أو فاسداً- إنما يتولد بأمره تعالى وحُكمه. ﴿الرَّحِيمُ﴾

١١: ثم إنه قد سنَّ قانوناً للجزاء، بمعنى أن كل ما يقوم به المرء من أعمال -صالحة أو سيئة- حسب ظروفه، سيرى نتيجتها الكلية في يوم من الأيام، بمعنى أن نتائج الأعمال نوعان: أحدهما عابر، وهو ما يترتب على كل عمل على حدة، والآخر هو مجمل نتائج الأعمال كلها. فالله تعالى لا يرتب النتيجة على كل عمل فقط، كما تشير إلى ذلك صفة الرحيم، بل إنه يرتب النتائج الكلية لجميع أعمال الإنسان أيضاً، كما تشير إليه صفة مالك يوم الدين.

١٢: إذن، فهذه الذات هي الجديرة بالعبادة والحب. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾

١٣: تقدّم الإنسان يتوقف على أمرين: الأول: أعمال البدن، والثاني: أعمال القلب، والمراد من أعمال القلب الفكر والخيال والعقيدة والإرادة وغيرها. ولا بد من إصلاح الاثنين. وهذا الإصلاح محال من دون هداية الله تعالى. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

١٤: ثم أخبر أن الله تعالى نفسه يحب لقاء عباده وإصلاحهم، كل ما في الأمر أن ينبى العبد إليه، وإليه يتوسل للقائه. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

١٥: ثم بيّن الله تعالى أن الإنسان يرى أمامه طرقاً متعددة تؤدّي إلى الله فيما يبدو، ولكن معرفة الطريق وحده لا يكفي، بل لا بد من:

أولاً: أن يعرف الإنسان أقصر الطرق وأقربها، لئلا يقضي عليه السعي المضني قبل الوصول إلى غايته. ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

ثانياً: أن يكون هذا الطريق معروفاً قد وصل العباد بسلوكه إلى الله تعالى. وذلك كي يطلع المرء على الأخطار التي تعترض سبيله، ويقدر على معالجتها قبل الوقوع فيها، ويطمئن قلبه، ولا يأخذه اليأس، ولكي يتمتع بصحبة رفاق صالحين. وهذا هو الطريق الجدير بالطلب من الله عز وجل. ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

١٦: عندما يتقدم الإنسان في التقرب إلى الله تعالى قد تهلّكه ميول الكبرياء والعُجب، فعليه أن يتجنبها، ولا يتخذ رقيّه سبباً للظلم والفساد، بل عليه أن يتوسل به إلى خدمة الإنسانية والسلام العام، وينبغي أن يستعين بالدعاء لتحقيق هذا الغرض. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

١٧: كما أن الإنسان قد يطغى ويتخذ رقيه سبيلاً للظلم، كذلك قد يُطري أدنى الأشياء بسبب غلوّه في رحمته ومحبته، فعليه أن يتجنب ذلك أيضاً ويستعين عليه بالله تعالى. ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

شرح الكلمات:

—: الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ليس مجرد حرف من حروف الهجاء، بل هو حرف ذو معنى. علماً أن بعض الحروف في اللغة العربية كما تفيد في الهجاء فإنها تؤدي معاني أخرى أيضاً، ومن هذه الحروف الباء، ومن معانيها المعية والاستعانة، والمعنى هنا: أقرأ هذا الكلام متمسكاً باسم الله ومستعيناً به.

والباء حرف جرّ، وهناك محذوف قبل الحروف الجارة -غالبا- يحدّد بحسب السياق بحسب القواعد العربية. والمحذوف هنا عند البعض هو: أقرأ وأشرع، ودليلهم قوله تعالى في سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. أما الزمخشري فيرى أن المحذوف هو: أقرأ أو أشرع، والتقدير: بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ أو أشرع. ودليل الزمخشري هو أن التأكيد هنا هو على اسم الله، لذلك قدّم اسم الجلالة، وأما في سورة العلق فكان التأكيد على القراءة، لأن الرسول ﷺ كان متردداً في القراءة، فقدّم لفظ "أقرأ" هنالك. (الكشاف)

ورأي الزمخشري لطيف للغاية وقد أخذت به، وهو يدعم ما ذكرت من قبل من أسباب ورود البسملة قبل كل سورة في القرآن الكريم.

لفظ ﴿بِسْمِ﴾ مركب من الباء والاسم، وقد سقطت همزة الاسم، لأن بعض الهمزات في العربية وصليّة فهي تُكتب ولا تُنطق، أما في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فالهمزة لم تُكتب أيضاً، وذلك تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما ذكر علماء الصرف والنحو. ويرى الكسائي والأخفش أن لفظ الاسم إذا ورد قبل أسماء الله تعالى كلها فتُحذف ألفه، ولكن الفراء يرى أنها لا تحذف إلا مع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، لأن الاستعمال إنما كثر فيه، فأما في غيره من أسماء الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف. (تفسير البحر المحيط)

اسم: معنى الاسم: الصفة أو العَلَم (القاموس المحيط)، وقيل أصله سَمَوَّ بمعنى رفعة، حُذفت الواو وعُوِّضَ عنها بهمزة وصلية في أوله. وقيل أصله وَسَمَّ بمعنى علامة، فأبدلت الواو همزة. (الأقرب)

الله: هو اسم ذلك القدوس الأزلي الأبدى الحي القيوم المالك الخالق ورب كل شيء. وهو عَلم وليس وصفًا. ولا يوجد عَلمٌ لله عز وجل في أي لغة سوى العربية. وهذا الاسم لا يدل إلا على ذات الله تعالى. وهو اسم جامد وليس بمشتقٍّ، ولم يُشتقَّ منه اسم ولا لفظ آخر أيضًا. (التفسير الكبير للرازي، وحقائق الفرقان، تفسير البسملة)

ويرى البعض أنه مشتقٌّ من لاهَ يليه، أي تَسَرَّ وعلا وارتفع. (الأقرب)
وقيل أنه من لاه يلوهُ، بمعنى بَرَقَ، وحكي عن بعضهم: لاهَ الله الخَلْقَ: خَلَقَهُمْ. (روح المعاني)

ولكن كل هذا باطل، إذ ورد في لسان العرب: "وذلك غير معروف".
"وقيل أصله "لاها" بالسريانية فَعُرِّبَ" (البيضاوي).

ولكنه قول باطل تماما، بل يدل على الجهل باللغة السريانية.

ويرى بعض المحققين الأوروبيين أن اللفظ العربي "الإله" أقرب إلى لفظ الجلالة من حيث أصل حروفها. يقول المستشرق الألماني "نولدكه" أن اللفظ العربي "الإله" واللفظ العبراني "إيل" كانا متداولين جنبًا إلى جنب في زمن سحيق، وكان هذا اللفظ مستعملًا في اللغات السامية حتى قبل انفصال العبرية عن العربية. (الموسوعة التوراتية، ج ٣ تحت كلمة names)

الرحمن: فَعْلَانٌ مِنْ رَحِمَ، وهذا الوزن يدل على الامتلاء والغلبة. (تفسير البحر المحيط).

فالرحمن: الواسع الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء. ولا بد أن تكون هذه الرحمة عن غير استحقاق أو عمل، إذ ليس من حق كل إنسان أن يطالب بالرحمة.

الرحيم: فعيلٌ من رحم، ويدل على التكرار والوقوع بمحال الرحمة (البحر المحيط). فالرحيم هو من يجزي المستحق بالرحمة على عمله جزاء حسنا وافيًا، ويواصل هذا الفعل.

قال الإمام اللغوي أبو علي الفارسي: "الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، الرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (تفسير فتح البيان).

وفي الحديث: عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: "الرحمن رحمن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة." (البحر المحيط). أي أنه تعالى يسمى رحمانا بالنظر إلى رحمته في الدنيا، ويسمى رحيمًا بالنظر إلى رحمته في الآخرة. وهذا أيضا يدل على أن الرحمن يشير إلى الرحمة التي تكون بلا مقابل ومن دون استحقاق؛ لأن مثل هذه الرحمة جارية في الدنيا على الأغلب، أما الرحيم فيشير إلى أنه يجزي على الصالحات خير جزاء، لأن الآخرة هي دار الجزاء.

التفسير:

تبدأ سور القرآن كلها بالبسملة، ما عدا سورة "براءة". والأصح أن "براءة" "البراءة". والأصح أن "البراءة" ليست سورة مستقلة، بل هي تكملة لسورة الأنفال، لذا لم تستهل بالبسملة. فقد روي عن ابن عباس قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (أبو داود، كتاب الصلاة، باب الجهر بها). وذكره الحاكم في مستدركه (ابن كثير). لقد تبين من هذا الحديث أن البسملة كانت تنزل قبل نزول كل سورة جديدة، وما كان النبي ﷺ يعرف انتهاء سورة وابتداء سورة أخرى إلا بنزول البسملة. فما دامت البسملة لم تنزل قبل سورة "البراءة"، وتعبير آخر: ما دامت البسملة لم تفصل بين الأنفال و"البراءة"، فثبت أن الأخيرة ليست سورة جديدة بل هي جزء من الأنفال.

لقد ثبت من هذا الحديث أيضاً أن ورود البسملة قبل كل سورة كان بوحى الله تعالى، وأن البسملة جزءٌ من القرآن الكريم بلا مراء، وليست شيئاً زائداً.

وقد زعمت طائفة من العلماء أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، بينما قال بعضهم أنها ليست بآية إلا في الفاتحة. وهذا الرأي غير صحيح، أولاً: بشهادة الحديث السالف ذكره، وثانياً: هناك أحاديث عديدة أخرى تذكر بأن رسول الله ﷺ قد اعتبر البسملة جزءاً من كل سورة، فقد روى الدارقطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قرأتم الحمد لله فاقراءوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها". (الدارقطني، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة "بسم الله الرحمن الرحيم" في الصلاة)

وقد أخرج البخاري هذه الرواية في تاريخه مرفوعاً وموقوفاً (فتح البيان) هذا الحديث أيضاً يشير إلى أن البسملة جزء من سائر السور أيضاً، لأن الرسول ﷺ لم يكتف باعتبار البسملة جزءاً من الفاتحة، بل استدل على ذلك بأنها ما دامت أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني فيجب أن تقرأوا البسملة قبلها. وهذا الاستدلال لا يصح إلا مع اعتبار البسملة آية في سائر السور، وكأنه ﷺ قال: ما دامت البسملة جزءاً من السور الأخرى فهي جزء من الفاتحة من باب أولى لكونها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني.

وهناك أدلة أخرى على ذلك منها ما روي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: "أُنزِلَتْ عَلَيَّ سُورَةُ أَنْفَاءٍ، فَقَرَأْتُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ". (مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة).

فالرسول ﷺ قد اعتبر البسملة جزءاً من سورة الكوثر. هذا، وقد وردت روايات مماثلة عن سور أخرى.

قد يعترض البعض على هذه الرواية قائلًا: إن سورة الكوثر مكية، وكان أنس رضي الله عنه من الأنصار، وكان عند الهجرة طفلًا في الثامنة أو التاسعة من عمره، وكلمات هذه الرواية تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها بمجرد نزول الكوثر، فكيف سمعها أنس يا ترى؟

والحق أنه لولا الأدلة الأخرى لأدى هذا الاعتراض إلى تضعيف هذه الرواية، ولكن لا قيمة له مع وجود تلك البراهين، ذلك أن الصحابة كان بعضهم يروي ما سمعه من بعض، ومن المسلم به أنه إذا نسب الصحابي قولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلا شك في روايته، إذ لم يثبت الكذب من الصحابة. وما دام أنس رضي الله عنه قد نسب هذا القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلا بد أنه قد سمعه من بعض المهاجرين، وبالتالي لا شك في صحته.

يظن البعض أن الأحناف يرون أن البسملة ليست جزءاً من القرآن الكريم، ولكنه ظن باطل، لأن هذا ليس بمذهب الإمام أبي حنيفة، إنما مذهبه أن البسملة آية مستقلة، لكنها ليست جزءاً من السور. يقول الإمام أبو بكر الرازي وهو من الأئمة الأحناف: "ولما ثبت أنها ليست من أوائل السور، وإن كانت آية في موضعها على وجه الفصل بين السورتين، أمرنا بالابتداء بها تبركاً." (أحكام القرآن)

فمن الجهل القول بأن الأحناف لا يعتبرون البسملة جزءاً من القرآن الكريم. لا شك أنهم لا يعتبرونها جزءاً من أي سورة، ولكنهم يعدونها جزءاً من القرآن الكريم حتماً.

غير أنني أرى أن عقيدتهم هذه غير صائبة، إنما الحق أنها جزء من كل سورة، وهناك حكم كثيرة في استهلال كل سور القرآن بها وسندكرها لاحقاً.

فضل البسملة

لقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل البسملة بوجه خاص حيث قال: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أقطع" (الدرر المنتور للسيوطي، والأربعين للحافظ عبد القادر عن أبي هريرة).

وعملًا بسنة النبي ﷺ فإن المسلمين يبدأون أعمالهم كلها بالبسملة، فقد ورد أن النبي ﷺ قال: "أَغْلِقْ بابك واذْكُرْ اسمَ الله عز وجل، فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأَظْفِقْ مصباحك واذْكُرْ اسمَ الله، وخُمْرُ إِنْءَاكَ ولو بَعُودٍ تَعْرِضُهُ واذْكُرْ اسمَ الله، وَأَوَّلُكَ سِقَاءَكَ واذْكُرْ اسمَ الله عز وجل". (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين).

وكذلك أَمَرْنَا رسول الله ﷺ في أحاديث أخرى بالبسملة عند لقاء الزوجين، وقبل الوضوء والطعام واللباس، وقبل دخول المرحاض.

وذكر في القرآن الكريم أن سليمان عليه السلام بدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة حيث قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل ٣١). وأيضاً ذكر القرآن الكريم أن نوحاً عليه السلام سَمَى الله قبل دخول السفينة فقال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود ٤٢)

حكمة استهلال كل سورة بالبسملة

جاءت البسملة قبل كل سورة لأن القرآن الكريم يعلن أنه خزينة لا تنفتح إلا بإذن الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٠)، أي لا يمكن أن يطلع على أسرار القرآن إلا من اصطفاه الله لهذا الغرض. وكذلك يقول الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٧). ومعنى ذلك أن اللفظ واحد للجميع، لكن تأثيره مختلف من شخص لآخر. ولكن ما هي الوسيلة إلى هذه الاستفادة الصحيحة؟ وقد جاء الجواب عليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل ٩٩). وفي جعل البسملة قبل كل سورة، أي قبل البدء في قراءة القرآن الكريم: عليكم أن تدعوا الله تعالى لتُصَانُوا من هجمات الشيطان، كما عليكم أن تستعينوا به سبحانه متوسلين برحمانيته ورحيميته، وهكذا تنجون من الضلال وتهتدون؟

والحكمة الثانية في ورود البسملة أول كل سورة هو نبأ التوراة بأن النبي الذي سوف يُبعث مثيلاً لموسى في الزمن الأخير ستكون سنة الله معه أنه يبدأ

كل ما يكلم به الناس باسم الله تعالى، فقد ورد في سفر التثنية: {وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أَطَالِبُهُ.} (التثنية ١٨: ١٩). فطبقاً لهذا النبأ العظيم كان مقدراً لمثيل موسى عليهما الصلاة والسلام أن يسمي الله قبل أن يدعو الناس إلى رسالته، ويقول لهم إن كل ما أقوله لكم هو باسم الله، وليس من عند نفسي. فكان لا بد بحسب هذه النبوءة أن توضع البسملة قبل كل سورة في القرآن المجيد، لكي تتحقق نبوءة موسى هذه أولاً، وثانياً كي يكون إنذاراً لليهود والنصارى أنهم إذا لم يستجيبوا لهذا الكلام، فإن الله تعالى سيعاقبهم بحسب ما أوحى به إلى موسى.

الحكمة الثالثة في تقديم البسملة هي شهادة التوراة: {وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلَامًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمْ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ إِلَهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذَلِكَ النَّبِيُّ.} (التثنية ١٨: ٢٠)

تصرح هذه الشهادة بأن الذي يفتری على الله الكذب مصيره الهلاك. ولذلك وإتماماً للحجة على جميع الأمم، وخاصة على اليهود والنصارى، تبدأ كل سورة بالبسملة بحسب هذه النبوءة. وهكذا يتجلى صدق النبي ﷺ لكل محقق يبصر نجاحه وازدهاره، إذ لو كان كاذباً فلماذا لم يهلكه الله تعالى عندما قدّم هذا الكلام باسم الله تعالى؟ فالبسملة في أول كل سورة حجة دامغة على اليهود خاصة أقامها الله عليهم ١١٤ مرة، كما أنها بمثابة ١١٤ دليلاً على صدق النبي ﷺ، ولو كانت في أول القرآن فقط لم يتحقق هذا الهدف.

الحكمة الرابعة في تقديم البسملة في كل سورة هي أن قارئ القرآن لا يخلو عن أحوال ثلاث: إما أن يكون خاوي الوفاض، أو أنه قد أثار سخط الله عليه بارتكاب المعاصي، فلا يملك أية وسيلة يستحق بها فضل الله عز وجل، أو أن يكون مؤمناً مضحياً في سبيل الله. وواضح أن الحالة القلبية لكل من هؤلاء الثلاثة تختلف من واحد لآخر، فيمكن أن يكون الأول متحيراً، والثاني يائساً، والثالث مستكبراً. الأول متحير في إيجاد الوسيلة التي يتوسل بها إلى الحق،

والثاني يذوب حزنا بأنه بأي وجه يسأل الله الهدى، والثالث مستكبر بسبب توهمه أنه حصل على كل ما لا بد منه. ونتيجة لهذه الأحوال الثلاث يُحرم الإنسان من الانتفاع بهدي الله.

فوضع البسملة في أول كل سورة دواء لهذه الأمراض الثلاثة، فهي تخبر المفلس المتحير بأن هناك إلهاماً مُعيناً للمفلسين يتفضل من دون استحقاق، والثاني العاصي اليائس الذي فقد حقه بعصيانته تبشره البسملة بأن لا ييأس، لأن الذي أنزل هذه السورة يريد أن يغفر الذنوب. والثالث المستكبر بسبب تضحياته، فتحذره البسملة أن خزائن رحمة الله لا تنفذ، فعليه أن لا يكتفي بما قدمت يداه من تضحيات، فيجب أن لا يتوقف عند مقام؛ إذ لا تزال أمامه ترقيات بلا حدود. وواضح أن الإنسان إذا صلح قلبه على هذا النحو انكشفت له المعارف القرآنية التي لا عهد له بها قبل هذا الإصلاح. فبإيراد البسملة قبل كل سورة قد هيا الله تعالى وسيلة رائعة لفهم معارف القرآن الكريم.

والحكمة الخامسة في تقديم البسملة هو أنها تعمل عمل المفتاح لكل سورة، لأن كل المسائل الدينية والروحانية تدور حول صفتي الرحمن والرحيم. ولما كان سوء الفهم يزول بطريقتين: حيناً بالتفصيل وحيناً بالإجمال، فلذلك قد جعل الله البسملة قبل كل سورة حتى إذا أشكل على المرء بعض مطالب السورة أزاله على ضوء البسملة، بمعنى أن المعنى الذي يتفق مع مفهوم الرحمن والرحيم اعتبره صحيحاً، والمعنى الذي يخالفهما اعتبره خطأً، وهكذا تصبح البسملة شرحاً للسورة، والسورة مفسرة للبسملة. فبمساعدهما يدرك القارئ المفهوم الصحيح للقرآن الكريم.

ذكر البسملة في الكتب السابقة

قال بعض الطاعنين في الإسلام أن البسملة التي تفاخرون بها توجد في الكتب القديمة أيضاً، فقد جاء في الكتب الزرادشتية: "بنام يزدان بنخشائش گر دادار"، وقد تُرجمت هذه العبارة باللغة الفارسية الحديثة كالآتي: "بنام خداوند بنخشائش نده".

بجشاش كغر". (تفسير القس ريفرند ويرى R. Wherry، وينابيع الإسلام بالأردنية ص ١٢٧)

كما قال هؤلاء الطاعنون أن استعمال (بِسْمِ اللَّهِ) كان شائعاً في كتب اليهود، وتعلم العرب ذلك منهم، وأول من أجرى هذا الاستعمال من العرب أمير من الطائف. (ترجمة القرآن لروذويل Rodwell).

والرد على روذويل هو أن ادعاءه لا أصل له في التاريخ، بل كان العرب لا يحبون كثرة استعمال لفظ الرحمن. لذا لا بد هؤلاء الطاعنين من تقديم شاهد تاريخي على استعمال البسملة على هذا النحو، ولكن من أين لهم هذا.

وأما ما قيل عن اعتياد اليهود هذا الاستعمال، فإن أريد به أن البسملة بهذا الشكل كانت متداولة بينهم في زمن متصل بعهد النبي ﷺ أو حتى في العهد النبوي، أو أن تاريخهم يشهد به؛ فهذا يعاكس الحقيقة كلياً. أما إذا أريد به ما ورد في القرآن على لسان سليمان عليه السلام فهذا خيانة عظيمة منهم؛ إذ يطعنون في القرآن الكريم بما لا نجد له أي أساس سوى القرآن، ويحاولون نسبته إلى الآخرين. فما دام القرآن نفسه ذكر أن سليمان عليه السلام اختار هذا الأسلوب عندما كتب في رسالته إلى ملكة سبأ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل ٣١)، فكيف يصح إذا القول بأن المسلمين ينفون وجود أي نظير لهذا المفهوم في كتب الأولين؟ إن الإسلام لا يقول بأن مفهوم هذه الآية جديد، فالكلمات "الله، الرحمن، الرحيم" كانت كلها موجودة من قبل ومستعملة من قبل القرآن الكريم، إنما يدّعي الإسلام بأن الأسلوب الذي اختاره في استعمال هذه الكلمات غير مسبوق. وإذا جاء أحد أعداء الإسلام بشاهد على زعمه فعندئذ يمكن أن يؤخذ في الاعتبار. لكن إيجاد هذا الشاهد مستحيل، لأنه لا يوجد في الدنيا أي كتاب قبل القرآن الكريم ادّعى بشأنه أن كل كلمة

من كلماته وحي الله عز وجل. فليس هناك كتاب سوى القرآن الكريم يمكن أن تدوّن البسملة قبل كل سورة منه بحقّ.

وأما ذكر اسم الله وصفاته على وجه التبرك والتفاؤل في الرسائل وغيرها فأمر عادي لا ينكره الإسلام ولا المسلمون، فإن شاركهم غيرهم في هذا فلا ضير في هذه المشاركة، ولو تكررت ألف مرة.

وأما ما قاله القسيس "ويري" فجوابه الأول ما ذكرناه آنفاً، والجواب الثاني أن بين مفهوم العبارتين الفارسية والعربية بونا شاسعا، ولا يمكن أن يعتبرهما مفهوما واحدا إلا الذي يجهل اللغة العربية جهلا شديدا، إذ لا يُفهم من كلمتي "بخشائش گر" و"دادار" عَشْرَ مِئْثَارٍ ما يُفهم من ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، كما سيظهر من تفسيرهما المفصل لاحقاً. ذلك مع اعترافنا بما في تركيب العبارة الفارسية من مزية معنوية، والإسلام يعلن أنه قد خلا الأنبياء في الأمم كلها، إذ قال الله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ٢٥). إذن، فلو وُجدت جملة جميلة في الكتب الزرادشتية فلماذا يستاء منها المسلمون؟ إنما يستاء منها القسيس نفسه، لأن عقيدته المسيحية هي التي تحجر على جميع الإنسانية فضل الله، ولا تقبل أي أثر من آثار النبوة والوحي خارج بني إسرائيل. إن زرادشت نبي من أنبياء الله عز وجل، وهذا من وجهة نظر الإسلام، ولأجل ذلك فهو عندنا حقيق بالاحترام، لأن منبع كلامه هو نفس منبع القرآن، فإن وافقنا على أمر فلا مجال للاستغراب.

لقد سبق أن ذكرنا لدى شرح الكلمات أن البعض قالوا أن اسم الجلالة مشتق وليس علماً، ولكننا قد أثبتنا أنها فكرة خاطئة وقد رفضها علماء اللغة ومنهم سيبويه والخليل (تفسير الرازي). ومن الأدلة التي ساقها هؤلاء العلماء (أولاً) أن هذا اللفظ لا يستعمل إلا لله تعالى، حتى إن مشركي العرب أيضاً

كانوا لا يطلقون هذا الاسم على أي من آلهتهم، فلو كان هذا اللفظ مشتقاً من "ال" و"إله" أو من "ال" و "لاه" لاستعمله العرب لغير الله كما استعملوا "الإله" و"اللاه"، ولكن العرب لم يفعلوا ذلك. و(ثانياً) أن الأسماء الإلهية الأخرى تستعمل صفات للفظ الجلالة دائماً، ولكن لا يستعمل لفظ الجلالة صفةً لأي اسم إلهي آخر، وهذه هي علامة الاسم العَلَم.

ويرد البعض على ذلك قائلاً: لكن لفظ الجلالة قد ورد صفةً في قول الله تعالى ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ٢-٣)، ولكن هذا ليس برأي سليم، إذ لم يرد لفظ الجلالة هنا صفةً، بل ورد عطفَ بيانٍ، وذلك كقولهم: "هذه الدار مِلْكٌ للعالم الفاضل زيدٍ". ومثل هذا الاستعمال للعَلَم يكون درءاً للبس، لأن مفهوم هذه الآية هو: قصدنا من العزيز الحميد هو الله تعالى.

ويستدل البعض بقول الله تعالى ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٤)، ويقول: هذا يدل على أن اسم ﴿الله﴾ ليس علماً بل صفة.

وجوابه أن العَلَم يُستخدم صفةً إذا صار معروفاً مع صفاته، فمثلاً يقال للكریم حاتم وللشجاع رستم، مع أنهما عُلَمان، إذ كان حاتم الطائي مشهوراً بكرمه، ورستم الفارسي بشجاعته. كذلك لما كان لفظ الجلالة مع صفاته معروفاً بأنه تلك الذات الكاملة، فجاز القول: وهو الله في السماوات والأرض، أي: أن الكامل في صفاته كلها والذي اسمه الله هو واحد لا شريك له في اسمه وأفعاله.

ويقول البعض إن لفظ الجلالة هو على وزن فعّال، وبحسب القواعد يجب أن يكون منوَّناً، ولكنه لا ينوّن، مما يدل على أن "ال" في بدايته هو للتعريف، وبالتالي هو مشتق ومركب.

والجواب أن في كل قاعدة استثناء، وعدم تنوين لفظ الجلالة أيضاً استثناء، والدليل على ذلك هو أنه إذا دخل حرف النداء على المعرف باللام يضاف لفظ "أيها"، مثل يا أيها الناس، ولكن إذا دخل حرف النداء على الله فلا يقال يا أيها الله، مما يدل على أن اللام هنا أصلي وليس للتعريف.

ويقول البعض إن الهمزة في لفظ الجلالة وصلية إذ تسقط في أثناء الكلام، مما يدل أنها ليست أصلية بل هي زائدة، وكذلك إذا دخلت اللام على لفظ الجلالة سقطت الألف وصار: لله، مما يدل على أن الهمزة فيه ليست أصلية.

وجواب ذلك أن سقوط الهمزة وحده ليس بدليل على كونها زائدة، فالهمزة في "اسم" و "ابن" ليست زائدة، بل تقوم مقام حروف أخرى، ومع ذلك تسقط كما في قول الله تعالى "بسم الله"، مع أنها ليست زائدة بل هي مبدلة من الواو. فثبت أن كون الهمزة وصلية أو سقوطها ليس دليلاً على أنها زائدة.

باختصار، إن استعمال اسم الجلالة في كلا العصرين، الإسلام وقبلة، تدل على كونه علماً وغير مشتق، والحجج التي ساقها البعض على كونه مشتقاً ليست صحيحة، وإنما يتضح بطلانها بأمثلة كثيرة.

سبب زيادة الاسم في (بسم الله)

قد يقول قائل: كان المفروض أن يقال: أقرأ مستعيناً بالله، بينما قيل هنا: باسم الله أقرأ، فلماذا زيادة كلمة اسم؟

والجواب:

أولاً: الباء يُستعمل للقسم إضافةً إلى الاستعانة، فلو قيل: (بالله) لاشتبه الأمر، وظن أنه للقسم مع أنه للاستعانة والتبرك، فمنعاً للاشتباه أضيف لفظ الاسم.

ثانياً: إن الله تعالى في خفاء تام ولا يُعرَف إلا بصفاته، لذلك زيدَ الاسم، ولهذا الغرض نفسه تلاه الرحمنُ والرحيم، إذ المعنى: أَسْتَعِينُ بالله عز وجل متوسلاً برحمانيته ورحيميته.

ثالثاً: لقد أُريدَ بوضع الاسم الإشارةُ إلى أن أسماء الله تعالى مباركة، وعلى الإنسان أن يهتم بها لينال بركاتها.

رابعاً: القرآن خزينة محروسة، حينما يريد الإنسان دخول بيت محروس فلا بد أن يقدم لحراسه أو لسكّانه سماحاً من قبل صاحب البيت حتى يُسمَح له بالدخول، فالشرطة مثلاً حين تدخل البيوت أو تصدر الأموال تقول: نحن نفعل ذلك باسم الحكومة. كذلك إذا أراد الإنسان قراءة القرآن تقدّم باسم الله للملائكة المأمورين بتعليم معارف القرآن، وكأنه يقول لهم: إن الله تعالى قد سمح لي بقراءة القرآن فافتحوا لي أبواب معانيه، فكأنه يؤدي هذا المفهوم كآلي: باسم الله الرحمن الرحيم أتوسل إليكم فَتَحَ خزائن القرآن لي. ومن الجليّ أن من يهتم بمعرفة القرآن بهذه الصورة سوف ينال من علومه نصيباً وافراً، أما الذي لا يتوجه إلى القرآن بإذن الله وباسمه، وإنما يقصده شراً وحقداً، فتُسَدّ في وجهه أبواب كنوزه.

خامساً وسادساً: إن في هذا الاستعمال إشارةً إلى نبأَي العهد القديم المذكورين في سفر التثنية الإصحاح ١٨، والفقرتين ١٨ و ٢٠، وقد ذكرتهما في بيان الحكمة في ورود البسملة قبل كل سورة بأن الرسول المعهود بهذين النبأين سوف يقرأ على الناس كلام الله تعالى باسمه، فكان لا بد من زيادة الاسم هنا توجيهاً للأنظار إلى النبأين المذكورين.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)

شرح الكلمات:

الحمد: هناك في العربية كلمات عديدة بمعنى الإشادة، مثل الحمد والمدح والشكر والثناء، ولكن الله تعالى قد اختار هنا لفظ الحمد، ولا بد من حكمة وراء هذا الاختيار الإلهي. والشكر من الإنسان يعني اعترافه بإحسان المحسن وتقدير صنيعه، أما الشكر من الله تعالى فيعني تقدير عمل العامل فقط. وواضح أن الحمد أشمل من الشكر، لأنه لا يعني الإقرار بالإحسان فقط، بل يعني أيضاً الإدراك بحسن كل حَسَنٍ والإعجاب والإشادة به، فثبت أن الحمد أشمل من الشكر.

أما الثناء فمعناه الأصلي إعادة الشيء، فـ "الثناء ما يُذكر في محامد الناس، فيُثنى حالاً فحالاً ذكره". (المفردات)

وواضح أن الثناء يشير إلى ذبوع صيت المرء بين الناس أكثر منه إلى اختبارك له شخصياً، ولا شك أن ذلك يشير إلى ميزة، ولكنه لا يُلقي الضوء على ما بين العبد وربّه من علاقة شخصية كما يدل عليه لفظ المدح، إذ إنه أكثر دلالة على الشكر الذاتي والاعتراف بالإحسان.

أما المدح فيستعمل للثناء سواء كان حقاً أو باطلاً، بينما الحمد يدل على الثناء الحق فقط، فقد ورد في الحديث: "احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ" (مسند أحمد)، أي في وجوه الذين يمدحون على سبيل الكذب. وكذلك فإن المدح يمكن أن يكون فيما لا يكون من الإنسان باختياره، أما الحمد فيكون فيما يكون منه باختياره (المفردات)، فالحمد أفضل من المدح وهو الأولى والأجدر بالله تعالى.

لقد قلت آنفاً إن الثناء هو الصيت الذائع بين الناس، وهو ميزة، وقد يعترض هنا أحد قائلًا: إن لفظ الحمد لا يتميز بهذا المفهوم المميز.

والجواب أن هذا المفهوم المميز يوجد هنا في لفظ ﴿الحمد لله﴾، ذلك أن اللام في ﴿الحمد﴾ للاستغراق، فقوله تعالى ﴿الحمد لله﴾ يعني: أن الحمد كله لله تعالى، أي أن الله تعالى يستحق حمد كل حامد، وهكذا فإن لفظ الحمد يشتمل على مفهوم ذيوع الصيت والذكر الحسن على نطاق واسع، بل الحق أن الحمد أدلُّ على شيوع الذكر الحسن لله تعالى من لفظ الثناء.

ربّ: معنى الربّ في الأصل: "التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحلاً إلى حد التمام" (المفردات). كما يعني التربية المجردة سيما إذا نُسب إلى الإنسان، فقد ورد في القرآن عن الوالدين: ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء ٢٥).

فمن معاني الربّ: المنشئ للشيء حالاً بعد حال حتى تمامه، وهو المربي؛ والمالك؛ والسيد؛ والمطاع (الأقرب)، كما ورد في القرآن الكريم قول يوسف عليه السلام لصاحبه في السجن: ﴿ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. والرب: المصلح (الأقرب).

فالرب يمكن أن يطلق على ما سوى الله تعالى أيضاً مثل: رب الدار ورب الفرس، ولكن "لا يُقال الرب مطلقاً -أي مجرداً عن الإضافة- إلا لله تعالى" (المفردات).

وقد فسر المفسرون الرب بمعنى الخالق أيضاً (البحر المحيط).

العالمين: العالم: الخلق كله، وجمعه عالمون وعوالم، ولا يُجمع فاعلٌ بالواو والنون غيره وغير "ياسم". وقال بعضهم: هو اسم لما يعلم به شيء، ثم سمي به ما يعلم به الخالق (الأقرب).

وقيل: "إنما جُمِعَ هذا الجَمْعُ لأنه عُني به أصنافُ الخلائق من الملائكة والجن والإنس". (المفردات)، أي ذوو العقول.

ولكن قولهم هذا خلاف اللغة ومحاورات القرآن الكريم، لقد سبق أن ذكرنا ما ورد في اللغة، أما القرآن فقد قال الله تعالى فيه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء ٢٤-٢٩).

فهنا قد عني الله تعالى بالعالمين السماوات والأرض وكل الأشياء التي بينها من المشارق والمغارب.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِئِذٍ﴾ (فصلت: ١٠-١١)

هنا أيضا قد أراد بالعالمين الأرض والجبال وكل ما سواهما.

وقد قال المسيح الموعود عليه السلام أيضا: "إن العالمين عبارة عن كل موجود سوى الله، سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، أو كالشمس والقمر وغيرهما من الأجرام." (إعجاز المسيح، الخزائن الروحانية المجلد ١٨ ص ١٣٩-١٤٠)

أما الذين يرون أنه يراد بـ "العالمين" ذوو العقول فقط فيستدلون بقوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم ٥٣)

لكنه استدلال خاطئ، لأنه ما دام القرآن الكريم قد استعمل "العالمين" لغير ذوي العقول أيضا، فإنما نقول إن "العالمين" في سورة القلم قد ورد هنا بمعنى خاص، كما في قوله تعالى لليهود: ﴿... وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ٤٨)، إذ ليس المراد أنه تعالى فضلهم على أهل كل زمان، إنما المراد أنه فضلهم على أهل ذلك الزمن فقط، لأن المسلمين هم الذين قد سُموا خير الأمم قاطبة. فما دامت هذه الكلمة قد استعملت بمعناها العام فاستعمالها بمعنى خاص في

بعض الأحيان لا يعني أنها لا تفيد معناها العام. والحق أن "العالمين" تُطلق على كل أنواع المخلوقات سواء كانت من ذوي العقول أو غيرها.

التفسير:

الحمد لله: لم يقل الله هنا: أحمد أو نحمد، بل قال: ﴿الحمد لله﴾، وقد أبدع بهذا التركيب مفاهيم عديدة منها:

أولاً: استعمال المصدر أفاد الشمول، فهو يعني (١) أن كل نوع من الحمد تقوم به المخلوقات أو يمكن أن تقوم به إنما يرجع إلى الله تعالى لأنه يستحق كل نوع من الحمد، فما من خير إلا هو موجود فيه تعالى، وما من سوء إلا هو منزعه عنه. (٢) أن الله تعالى هو الذي يستطيع أن يحمّد مخلوقه حمداً صحيحاً لأنه عالم الغيب. الإنسان يحمّد غيره، ولكنه قد يكون حمداً خاطئاً، أي قد يقصّر في حمده له، أو يغالي في حمده إذ يمدحه بما ليس فيه، لذا فالحمد الحقيقي هو ما يحمده الله به، أما الإنسان فلا يستطيع أن يتجنب الخطأ في الرأي حتى عن نفسه وكفاءاته، فضلاً عن تقديره لمحاسن الآخرين. لكن ما يقوله عالم الغيب عن عبده فلا تقصير فيه ولا مغالاة. أما لو استخدم الله تعالى الفعل "أحمد" أو "نحمد" بدلاً من "الحمد" فلا يؤدي إلى إبداع هذه المعاني الرائعة.

وثانياً: لو قيل هنا "أحمد الله"، فقد يُظنّ أن الإنسان قادر على الإحاطة بصفات الله كلها، وهذا خطأ، لأن حمد الإنسان لله محدود، فهو يحمده تعالى على قدر علمه فقط، مع أن حمد الله تعالى دواعي أخرى لا نهاية لها.

باختصار، إن القول "الحمد لله" يشمل معنى "أحمد الله" أو "نحمد الله" بل أكثر من ذلك، ولذلك كان لزاماً أن يقول الله تعالى "الحمد لله" في هذه السورة الوجيزة الجامعة لكل مطالب القرآن. لا شك أن "حمد الله" قد نُسب في القرآن إلى المخلوق أيضاً، حيث قالت الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة ٣١)، ولكن لم ترد في القرآن كلمة "نحمد الله" أو "أحمد الله" على لسان مخلوق، مع أن كلمات "نسبح" و"نقدّس" قد وردت من طرفهم. وفي

هذا إشارة لطيفة إلى أنه ليس بوسع الإنسان إدراك حمد الله الخالص إدراكا كاملا. لا شك أن كلمات كمثل "نحمد الله" أو "أحمد الله" قد وردت في الأحاديث، ولكن الواضح أن معاني الكلمات في كلام العباد لا تبلغ ما لها في كلام الله تعالى من معان، أعني أنه عندما يستخدم العباد كلمة فلا تكون معانيها بنفس السعة التي تكون بها في وحيه ولا سيما وحيه الذي يحتوي على شريعة.

أما قوله تعالى ﴿لِلَّهِ﴾ فقد أزال بها شبهة أخرى، وهي: ما دام الناس أيضا يُحمَدون فكيف يصحّ القول إن الله يملك الحمد كله؟
اعلم أن اللام تفيد الملك أيضا، فقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني أن الحمد الحقيقي هو لله تعالى، أما حمد غيره فليس بحمد حقيقي، لأن ما يوجد فيه من محاسن ومزايا ومواهب فهي ليست ذاتية، وإنما هي هبة وعطاء من الله تعالى، فما يُعزى إليه إنما هو حقُّ الله في الواقع.

معاني الآيات ومفاهيمها

١. ومن معاني هذه الآية ما يلي:
٢. أن خالق هذا الكون منزّه عن كل عيب وجامع لكل فضيلة.
٣. هو عليم بكُنْهِ المخلوقات كلها، وليس أحد سواه يدرك ماهية أيّ شيء إدراكا كاملا. إن ما حققه العلم من تقدّم ورقّيّ لدليل ساطع على ذلك، فهناك آلاف العلماء منهمكون في البحث عن حقيقة شتّى الأشياء، ولكنهم لم يستطيعوا حتى اليوم إدراك حقيقة أدنى مخلوق من المخلوقات بشكل كامل، ولا تزال الاكتشافات الجديدة تظهر عن كل شيء كل يوم.
٤. أن الله تعالى لا يمكن أن يملك الحمد الكامل إلا إذا كان رب العالمين، فكما أن نظامه المادي مسخّر لنفع الجميع كذلك لا بدّ أن يعمّ نفع نظامه الروحاني الجميع، فلا يُحرّم بلد ولا أمة من وسائل الارتقاء الروحاني. ولو

كان الله قد أنزل لقوم وحيًا خاصًا للزم أن ينزل وحيًا خاصًا بالأقوام الأخرى، ولكن إن لم يكن هناك وحي خاص لكل قوم فينبغي أن ينزل الوحي الشامل لإرشاد الأمم كلها. فالأديان التي تقول بتخصيص الوحي بها فقط، أو تدّعي أن النجاة منوطة بأهلها فحسب فهي على الخطأ.

٥. كل ما في الناس من كفاءات إنما هي عطاء من الله تعالى، فكل ما يفعلونه من خير فإنما يرجع فضله وحمده إلى الله تعالى حقيقةً.

٦. لقد بين الله تعالى بربط الحمد بربوبيته للعالمين أن الإنسان ينبغي أن يفرح الفرح الحقيقي بما يكشف صفة رب العالمين، أما الذي يفرح بتحقيق منفعته هو ولا يهتم بما يصيب الآخرين من ضرر فلا يفهم من تعليم الإسلام شيئاً، لأن الفرح الحقيقي إنما في راحة العالم كله.

٧. وقد أشار الله تعالى بذكر أنه رب العالمين إلى أن كل ما سواه خاضع لربوبيته تعالى، أي خاضع لقانون التطور والارتقاء. لقد بين الله بذلك أنه ليس في الكون شيء تستوي بدايته ونهايته، بل كل شيء سوى الله تعالى معرض للتغير والارتقاء من حالة أدنى إلى أعلى. وهذا المبدأ يؤدي إلى تأكيد أمرين: أولهما أن كل ما سوى الله مخلوق، فالذي هو خاضع للتغير والتطور لا يمكن أن يوجد بنفسه، وثانيهما أن مبدأ التطور والارتقاء صحيح، فكل شيء من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد قد تطور من حالة أدنى إلى أعلى، لأن معنى الرب أنه يربي الأشياء بالتدريج حتى يوصلها إلى الكمال. فالارتقاء جارٍ في جميع الكائنات.

٨. لقد تبين من ذلك أيضاً أن التطور يتم بمراحل مختلفة وأزمان عديدة، لأن الرب يعني إنشاء الشيء حالاً بعد حال إلى حد التمام، وليس معناه تكميل الحلقة الواحدة فقط من سلسلته الممتدة.

٩. ثبت من ذلك أيضاً أن التطور في الخلق لا يتنافى مع عقيدة وجود الباري عز وجل، لأنه يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، بل إن التطور في

الخلق يؤكد حمد الله تعالى، ومن أجل ذلك قرَنَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مع ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٠. تدل هذه الآية على أن الإنسان مخلوق لأجل تقدم لانهائي، لأنها تقول: الحمد لله الذي يربي كل أنواع المخلوقات من درجة أدنى إلى أرقى منها، ولا تتأكد صحة هذا القول ما لم نسلّم بوجود درجة فوق كل درجة في الرقيّ الإنسانيّ.

١١. بافتتاح سورة الفاتحة -التي هي أول سورة في القرآن وخلاصة معارفه- بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد أشار الله تعالى إلى أنه حان الآن أن يُحمد الله حمدا كاملا، لأن الإسلام الذي هو أتم مظهر لصفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد جاء لإرشاد الناس أجمعين، واتحد بظهوره العالمُ الروحي كاتحاد العالم المادي، ذلك أنه عندما كانت الرسل تبعث في الماضي إلى أمم خاصة، كان الجهلاء يكذبون سائر شرائع الأنبياء الآخرين، فكان الهندوس يقولون: إنهم لا يعرفون "يَهُوه" إله اليهود، بل إن الإله الحق هو إلههم "برميشور"، وكان اليهود يستهزئون بإله الهندوس "برميشور"، أما بظهور الإسلام فصار لكل العالم دين واحد، وأخذ الهنود والصينيون والمصريون والفرس وأهل الشرق والغرب كلهم في حمد الله تعالى معترفين أنه ليس لكل قوم إله خاص، بل إن إله الجميع إله واحد.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الفاتحة: ٣)

شرح الكلمات:

الرحمن الرحيم: سبق شرحهما في الصفحات السابقة.

التفسير: لقد بيّنا معاني الرحمن الرحيم من قبل في تفسير البسملة.

وقد تساءل البعض عن سبب تكرار هاتين الصفتين هنا، مع أنهما قد ذُكرتا في البسملة. والجواب أن البسملة تحمل معنى مستقلا، وهي مفتاح لكل سورة أيضا، فلا بأس في ورود صفتي الرحمن والرحيم ضمن موضوع سورة، وليس هذا من التكرار في شيء، وقد أُعيدت هاتان الصفتان للحكمة نفسها، فقد بين الله تعالى في قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه يخلق الشيء فيربيه شيئا فشيئا إلى درجة الكمال، أما هنا فبين بذكر ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ طريق ربوبيته، حيث أخبر أولاً أنه الرحمن، أي خلق لكل شيء أسباباً دقيقة تساعد على الارتقاء وظهور كفاءاته الخفية، فالكل من إنسان وحيوان ونبات وحماة يتأثر بما حوله، ويستمد ما يساعده على بقائه أو كماله.

وثانيا هو رحيم، أي إذا قام أحد من خلقه بواجبه حق القيام شكر الله سعيه، وتفضل عليه بفضله الخاص، وزوده بالميل للمزيد من الارتقاء، وهكذا يستمر هذا التسلسل إلى ما لا نهاية، ولا ينقطع أبداً.

والرحمن صفة لا تُطلق على غير الله عز وجل إلا بالإضافة، كما فعل مسيلمة الكذاب إذ سَمَّى نفسه "رحمن اليمامة". لقد بينتُ من قبل أن الرحمان من يرحم من دون مقابل وبلا استحقاق، فمفهوم الرحمان يدحض عقيدة الكفارة والفداء. فأساس عقيدة الفداء هو أن الله تعالى لا يستطيع أن يرحم من دون استحقاق، وهذا الإحساس قوي عند المسيحيين حتى إن نصارى العرب عندما يذكرون اسم الله في كتبهم أو خطبهم، يذكرون معه صفاته الأخرى إلا صفة الرحمن، اللهم إلا من كان متأثراً منهم بالحضارة الإسلامية، فيكتبون مثلاً: بسم الله الكريم الرحيم، ذلك لأن قلوبهم تشهد بأن الله عز وجل إذا كان هو الرحمن أيضاً، فلا يصعب عليه أن يغفر للناس ذنوبهم بلا كفارة المسيح.

أما صفة الرحيم فتبطل عقيدة تناسخ الأرواح الهندوسية المبنية على فكرة أن أعمال الإنسان في هذه الحياة محدودة، ومن ثم لا يمكن أن يترتب عليها جزاء غير محدود. ذلك أن صفة الرحيم تبين أن جزاء العمل المحدود لا يبقى غير

محدود، بل إن من خاصية العمل الصالح التكرار، ولذلك يُجزى عليه صاحبه بالتكرار. فلفظ الرحيم يدل على الرحمة المتكررة، وليس المراد من تكرار الرحمة أن الإنسان ينال الجزاء على نفس الفعل مرة بعد أخرى، وإنما المراد أن الذي يدرك حقيقة الخير يقوم بالصالحات تكراراً، أو على الأقل يتمنى أن يعمل الصالحات مرة بعد أخرى. ولذلك كلما يُجزى العبد على صالح عمله يُزوّد بقوة لفعل المزيد من الخير، ويزداد رغبةً لفعل الصالحات مرة بعد أخرى، فيرحم الله عليه أكثر، فيزداد رغبةً في الخير وفعلاً للصالحات أكثر، وهكذا تنزل عليه رحمة الله مرة بعد أخرى، وبتعبير آخر إن رحمة الله تعالى لا تنزل عليه جزاءً على صالح عمله السابق، بل تعمل عمل بذر الخير الذي يَنْبُت وينمو باستمرار.

الواقع أن فكرة الجزاء المحدود إنما نشأت عند الهندوس لأنهم يعتقدون أن الجنة مكان البطالة وعدم العمل، ولا بد أن يفكروا هكذا، لأن النجاة عندهم تعني "النرفانا"، أي تحرُّر الإنسان من كل الرغبات والأعمال. فالعمل عندهم ينتهي في هذه الدنيا، لذلك يكون محدوداً، وبالتالي يجب أن يكون جزاؤه محدوداً، ولكن الإسلام يقدّم مسألة الرحمة المتكررة والعمل المتكرر، ويعتبر الجنة دار العمل، فما دام الله تعالى رب العالمين، والجنة أيضاً عالمٌ من العالمين، فيجب أن يظل الإنسان يرتقي هناك أيضاً، وإلا لا يبقى الله ربَّ العالمين، وما دام الإنسان سيظل مستمراً في الرقي في الآخرة، فلا بد أن يزداد هناك في تقوى الله وحبّه، وبالتالي لا بد أن تنزل عليه رحمة الله أيضاً على التوالي، وما دامت عملية نزول الرحمة والعمل ستتكرر في الآخرة، فكيف يمكن أن يكون وقت النجاة محدوداً. إنما الفرق بين العمل في الدنيا والآخرة أن في الحياة الدنيا خطر الانحطاط، أما في الآخرة فلا وجود لهذا الخطر، وإنما سيظل الإنسان يرتقي ويرتقي فقط. إذن، فلا بد من العمل الروحاني والراقي الروحاني في الآخرة، فلا مجال للعمل المحدود والجزاء غير المحدود.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة : ٤)

شرح الكلمات:

مالك: هناك ثلاث كلمات متماثلة: المَالِك، والمَلِك والمَلِك، فالمالك مَنْ له القبضة والاقتدار على شيء، والمَلِك هو الملاك، والمَلِك هو صاحب السلطة السياسية.

يوم: ومن معاني اليوم: الوقت مطلقاً، كما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج ٤٨).

ويقول الشاعر: يوماه يومٌ نَدَى ويومٌ طَعَانِ

أي أن الممدوح يعيش في حالتين، فإما هو منهنك في العطاء، أو في قتل الأعداء. كذلك تقول العرب: يوما يوم نُعمٍ ويومُ بُؤس (لسان العرب)، أي لا تخلو حياة الإنسان من أمرين، فإما هو يعيش في النعم، أو يعاني من البؤس.

وقال سيبويه: تقول العرب: أنا اليوم أفعل كذا، ولا يريدون يوما بعينه ولكنهم يريدون الوقت الحاضر؛ كذلك قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة ٤). واليوم: الدهر. وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً، ومنه الحديث: تلك أيام الهرج، أي وقته، أي تلك وقت الفتن والحروب. (لسان العرب)

الدين: الجزاء؛ المكافأة؛ الطاعة؛ الحساب؛ القهر؛ الغلبة؛ الاستعلاء؛ المُلْك؛ السلطان؛ الحكم؛ السيرة؛ التدبير؛ اسم لجميع ما يُعبد به الله؛ الملة؛ الورع؛ المعصية؛ الحال؛ القضاء؛ العادة؛ الشأن (الأقرب).

التفسير:

ونظراً إلى شتى معاني الدين فقوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني أن الله تعالى

هو:

مالكٌ وقتِ الجزاء،

مالكُ وقتِ الشريعة (اسم لجميع ما يعبد به الله)،

مالك وقت القضاء،

مالك وقت الديانة،

مالك وقت الورع،

مالك وقت المعصية،

مالك وقت الحساب،

مالك وقت الطاعة،

مالك وقت الغلبة

ومالك وقت الحالات الخاصة.

إن قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يفسَّر عادةً أنه مالك يوم القيامة، ولكنه ليس معنى لغويا بل هو معنى تفسيري. الواقع أن من معاني الدين الجزاء والمكافأة، حيث إن الجزاء الكامل يتم يوم القيامة؛ فقال المفسرون إن قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني "مالك يوم القيامة"، مع أن لهذه الآية مفاهيم أخرى أيضاً على ضوء اللغة، وكلها صحيحة ومطابقة لمراد القرآن الكريم، فلا مبرر للأخذ بمفهوم واحد دون المفاهيم الأخرى.

فأولاً: نظراً إلى هذا المعنى الذي يذكره المفسرون، فستعني هذه الآية: أن الله تعالى هو مالك يوم الجزاء أي يوم القيامة، أي لن يتدخل أحد في أمر الجزاء أو العقاب يومئذ، إنما يكون أمره بيد الله فقط. وبذلك قد نبه الله تعالى إلى الفرق الموجود بين نتائج الأعمال في الدنيا ونتائجها في الآخرة، ذلك أن الإنسان ينال جزاء أعماله الحسنة أو الشريرة على يد الناس أيضاً، وحُكمهم قد يحمل الخطأ، أما يوم القيامة فإن الله تعالى وحده سيتولى الجزاء والعقاب، ومن المستحيل أن يظلم أحداً فيعاقب البريء على ما لم يفعله، أو يرهق الجاني أكثر من جريمته، أو ينجو المجرم من العقاب بالكذب أو الخداع.

وتنبهنا هذه الآية إلى أن الله تعالى لن يحكم يوم القيامة كملكٍ فحسب، بل يصدر حُكمه بصفته مالِكاً، ذلك أن الملك يسعى أن يكون حكمه عادلاً

بحسب قوانين الدولة، إذ يتعلق حكمه بحقوق المدعي والمدعى عليه، فلا يملك الخيار في أن يعفو عن أحد، أما الله تعالى فهو مالِكٌ، وليس مَلِكًا فقط، فله الخيار كله في أن يعفو عن حقه على الناس كما يشاء. وبيان هذا الأمر قد خلق الله تعالى في الإنسان الأملَ ونَجَاهَ من اليأس من جهة، ومن جهة أخرى حذرَه من التفكير في استغلال رحمة الله استغلالاً مشيناً، فهو عَجَلٌ مالِكٌ؛ فإذا كان يرحم مخلوقه فإنه لا يرضى أن تتمرغ مخلوقاته في دنس الآثام. وبتعبير آخر قد شحن الله تعالى الإنسان هنا بالأمل والخوف على سواء، فحثّه على الجد والاجتهاد كما رفع معنوياته. وذلك على عكس ما تعلّمه النصرانية عن النجاة، فإنها قد دفعت الإنسان إلى أعماق هَوّة اليأس بتقديمها مفهوما خاطئاً للعدل من ناحية، ومن ناحية أخرى حرّضته على الإثم بتقديمها فكرة الفداء. فالعقيدة المسيحية بمبدأيها الهدّامين لم تساعد الإنسان على الطهارة، بل شجّعته على المعصية، فاليأس الزائد الناتج عن العدل المزعوم قد أدّى إلى زيادة المعصية، كما أن الرجاء الزائد بسبب الفداء أيضاً قد دفع إلى الإثم. فبعض الناس يتركون الخير يائسين من الطهارة، وبعضهم يجروون على الإثم معتمدين على الفداء.

ثانياً: ومن معاني قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن الله تعالى مالِكُ زمنِ الشريعة والدين. وهذا المعنى يرشدنا إلى بحث لطيف في نواميس القدرة. ذلك أن الله عز وجل ينفذ حكمه في الدنيا عادةً بحسب سنّته العامّة، لكنه عندما يؤسس ديناً أو يُنزل شريعة فإنه يظهر بصفته مالِكاً، أعني أنه تعالى لا يظهر بملوكيته فقط التي تتعلق بسنّته العامّة، بل يتجلّى بمالكيته بشكل خاص، أعني أنه يتجلّى بتجليات خاصة يعتبرها الذين لا يعرفون حقيقة صفات الله تعالى خرقاً لسنّته على ما يبدو، حيث يرون أن إنساناً لا حيلة له ولا نصير يهبّ ويتحدّى العالم بدعوى نبوته، فينبري الناس لمعارضته، ومع ذلك ينجح في النهاية، وكذلك تظهر على يده أحداثٌ كثيرة تذهل العالم نتيجة أدعيته ومعجزاته. والسرّ في ذلك أن الله تعالى عندما يرسّي الأساس لجماعة ربّانية أو يقيم شريعة سماوية في الأرض فإنه يتجلّى بصفته المالكية بشكل خاص بدلاً من صفته

الملوكية، أعني أنه تعالى يتجلى بسنته الخاصة بعباده المقربين بدلاً من سنته العامة، فيحدث لهم أحداثاً تبدو خارقة للعادة. هذه هي سنة الله التي لم تزل تظهر هكذا في زمن كل نبي، وقد أخبر الله هنا بأن هذا ما سيحدث في زمن محمد رسول الله ﷺ، وسينصره بما سيبدو خارقاً للعادة، مما يكون دليلاً على أن عهد محمد ﷺ هو عهد إقامة شريعة، وأنه رسول الله حقاً.

ثالثاً: ومن معاني هذه الآية أن الله تعالى مالكُ زمن الخير والشر، والمراد من ذلك أن الدنيا تواجه طورين: طوراً ينتشر فيه الخير والشر على السواء، وحينئذ ينفذ الله سنته العامة في الأرض، وطوراً يسود فيه الشرُّ العالم كله، وعندها يظهر الله في الأرض بصفته "المالكية"، فيهتم بإصلاح جنته التي خلقها بغرس الإنسان، ويبعث نبياً يؤسس على يديه جماعة تقوم على الخير بحيث يمكن القول إنها حقاً جماعة الصالحين، ولا ينفكّ ينصرها بنواميسه الخاصة إلى أن ينخفض المستوى العالي لتلك الجماعة فينتشر فيها الشر مع الخير، فلا يعاملهم الله تعالى بسنته الخاصة، بل يعاملهم بسنته العامة الجارية في الناس، إلى أن تبلغ هذه الجماعة أقصى مدى الشر، وعندئذ يظهر الله للعالم مرة أخرى بمظهر المالكية وفقاً لسنته المستمرة، فيبعث نبياً آخر لاجتثاث الإثم من الأرض، ولتأسيس جماعة من الطاهرين، ويعاملها الله تعالى بصفته المالكية إلى أن تزلّ هذه الجماعة أيضاً عن المستوى العالي للخير، ويجري معها ما جرى مع الأولين.

رابعاً: ومن معاني هذه الآية أنه مالكُ زمن الطاعة، بمعنى أنه تعالى يعامل الخواص من الأفراد أيضاً بنفس سنته الخاصة التي يعامل بها ﷺ الجماعات، أي أن الذي يقضي حياته في طاعة كاملة لله تعالى فإنه تعالى يظهر له قدرته الخاصة؛ فلا يبقى كالأناس العاديين.

خامساً: ومن معاني هذه الآية أنه مالكُ زمن الأحوال الحاسمة، والمراد من ذلك أن كل عمل في الدنيا هو كحلقة من حلقات سلسلة طويلة، وليس له

وجود منفرد؛ فمثلاً عندما يمرض الإنسان فمرضه ليس بسبب خطأ طارئ في ذلك اليوم فقط، وليست صحته بسبب رياضته أو غذائه في يوم واحد، بل كل هذا نتيجة لحلقات من أعماله المتكررة الكثيرة، ذلك أن لأعمال الإنسان نتيجتين: نتيجة بدائية ومؤقتة، ونتيجة نهائية دائمة؛ وعلى سبيل المثال، هناك رجل طائش يسيء استعمال عينه، فيصيبها الرمد، فتصحّ بالمداواة، ثم يتهاون في أخذ الحيلة، فيعود الرمد إليها، ثم تصحّ بالعلاج مرة أخرى، وهكذا يرمد ويرأى إلى أن يفقد بصره، ولا يجدي الدواء نفعاً. والطالب الجاد يحفظ دروسه، فيُسَرَّ به أستاذه، فيحفظ درسه في اليوم التالي فيفرح أستاذه أيضاً، هذه هي النتيجة الفورية لدراسته وجهوده، لكن هناك نتيجة أخرى أوفى وأبقى من الأولى، فهو بذلك لا يتقدم في دروسه اليومية فقط، بل إن جهوده تؤثر على تفكيره تأثيراً إيجابياً، وتزيده ذكاءً وإدراكاً لدقائق العلم، حتى تجعله ممدوحاً ومرجعاً للخلائق. وهذه النتائج الأخيرة تكون من الخفاء بمكان حتى لا يشعر بها أصدقاؤه وزملاؤه ولا يدركون أسبابها.

لقد نبّهنا الله تعالى بهذه الحقيقة إلى أن النجاح الأخير الدائم لا يتحقق إلا بالتقرب إليه تعالى. لا شك أن الإنسان يحقق النجاح والعزّ بطاعة القانون العام، ولكن النتيجة التي تظهر باكتمال حلقات سلسلة الأعمال هي الجديرة بالتقدير والاهتمام، ولا سيما التي تظهر في صورة الإيمان عند الموت، إذ عليها تتوقف الحياة الآخرة.

وقوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لا يعني أنه ليس مالِكاً للدنيا، كلا، وإنما المراد أن المالكية المادية التي يحظى بها الناس في هذه الدنيا سوف تنقطع في ذلك اليوم انقطاعاً تاماً إذ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٨-٢٠). فالمراد أن هؤلاء الملوك والحكام والملّك الدينيين لا قيمة لهم في الآخرة. هذا هو المراد من الآية، وليس المراد أنه ليس مالِكاً لهذه الدنيا.

هذه الصفات الإلهية الأربع المذكورة في مستهل الفاتحة وما جاءت عليه من ترتيب، ترشدنا إلى أمر رائع من أدب السلوك، وهو أن الله تعالى له الدرجة العليا، والعبد له الدرجة الدنيا بالنسبة إلى الله تعالى، ولأجل ذلك عندما يُقبل الله على العبد فإنه ينزل إليه درجة فدرجة، لكن إذا أراد العبد أن يتقرب إلى الله تعالى فعليه أن يصعد إليه درجة فدرجة حتى يصل إليه سبحانه وتعالى.

وبإدراك هذه الحقيقة ندرك أن الله تعالى يتنزل ويتجلى على عبده درجةً فدرجة وفق ترتيب هذا الصفات الأربع؛ فأولاً: إنه تعالى ينزل إليه بصفة رب العالمين، أي يهيئ لعبده المحبوب محيطاً يلائم نموه وازدهاره على ما يرام، ثم يعامله سبحانه وتعالى بصفته الرحمن، أي يسخر له أسباباً تمهد له طريق الرقي الروحي، ثم عندما يستفيد العبد من هذه الأسباب فإن الله تعالى يُرتب لجهوده نتائج عظيمة وفقاً لصفته الرحيمية، ثم يُظهر الله تعالى النتيجة النهائية لجهوده العبد بعد أن ينال إنعامات كثيرة، فيجعله غالباً على الدنيا بحسب صفته المالكية.

أما العبد فيكون سلوكه إلى الله على عكس هذا الترتيب، فإنه عندما يتوجه إلى الله تعالى، فلا بد له أولاً أن يتصبغ بصبغة مالكية الله، أي يقيم العدل في العالم، غير أن عدله يغلب فيه طابع الرحمة والعفو، مما يعني أنه يتجنب إيصال الشر إلى الناس، وهذه الدرجة تُسمى اجتنب إيصال الشر إلى الآخرين. ثم عندما يرتقي العبد أكثر يصبح مظهرًا للرحيمية، فلا يُقدّر أعمال الذين لهم علاقة معه فحسب، بل يُنعم عليهم ويعطيهم أكثر من حقهم، أي أنه يعتاد إيصال الخير إلى الآخرين، وهذا ما يسمى بالإحسان. ثم يرتقي العبد درجة أخرى ويصير مظهرًا للرحمانية؛ إذ يُعمّ فضله وكرمه الجميع، فيشمل إحسانه الأقارب والأبعد، ويحبّ الكلّ بلا تفریق بين مؤمن وكافر ومحسن ومسيء، فهو يتمنى أن يحسن إلى الجميع، وهذا ما يُسمّى إيتاء ذي القربى، أي أنه يصبح ناصحاً لبني جنسه دون

مقابل، مثل الأم التي تتفانى في خدمة طفلها دونما تفكير في المقابل. ثم يتقدم درجةً ويصير مظهرًا لصفة رب العالمين، أي أنه لا ينظر إلى الأفراد، بل ينظر إلى النظام والمجتمع من حوله، ويشعر أنه مسؤول عن العالم أجمع؛ كأنه راعٍ وهم رعيته، فيهتم بهم ويرعاهم، ومن ثمَّ يتوجه لإصلاح المجتمع كله. وطُرق الصعود والهبوط من العبد ومن الله المذكورة في هذه الصفات الأربع تعليمات سامية ورحمة عظيمة للسالكين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة : ٥)

شرح الكلمات:

إِيَّاكَ: حسب القاعدة العامة يجب أن يكون: نعبدك، ولكن قيل هنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للتخصيص، أي اللهم نخصك أنت وحدك بالعبادة والاستعانة.

نَعْبُدُ: عبد الله: أطاعه؛ خضع؛ ذلّ؛ خدمه؛ التزم شرائع دينه ووحدته (الأقرب).

ومن معاني العبد: قبول نقش الآخر، يقال: طريق مُعَبَّد: مذلّل (لسان العرب)، أي قد ارتسمت عليه آثار الأقدام من كثرة المارين به.

ولا تكون العبادة إلا للذات الكاملة الفريدة في كمالها بلا شريك، وتكون طاعته ممكنة للإنسان، لأنَّ مَنْ لا يمكن طاعته فلا معنى للعبادة له. وواضح أن هذه الذات هي الله فقط؛ إذ ليس سواه من يمكن طاعته حقيقةً ومَنْ يختاره الإنسان بحيث يتفانى في حبه وطاعته. أما مَنْ سواه سبحانه وتعالى فإذا أطاعه الإنسان فتكون طاعته محدودة أولاً، وثانياً لا بد أن يكون هناك ذوات أو قوانين أخرى يضطر الإنسان لطاعتها.

نستعين: الاستعانة: طلبُ المعونة (المفردات). فقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعني: ربّ أنت الذي نخصّه بالاستعانة، ولا نرى غيرك جديراً بطلب العون منه.

التفسير:

يبدو من قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ كأنه ﷺ مستتر عن العبد الذي يناجيه، ولذلك يحمده بصيغة الغائب أولاً، ولكنه فجأةً يناجيه بصيغة الحاضر ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقد زعم بعض الجهلاء أن هذا الأسلوب يناقض الكلام البليغ! والحق أن هذا الأسلوب قمة في البلاغة، لأن وجود الله تعالى غيبُ الغيوب، ولا يستطيع العبد أن يراه بالعين المادية، وإنما يعرفه بصفاته، ويتقرب إليه بذكره، حتى يراه بعيون قلبه. لقد بين الله تعالى هنا هذا السرّ للسلوك، أعني أن الإنسان عندما يتدبر في هذه الصفات الإلهية الأربع ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تنكشف عليه الحقيقة، ويستولي عليه حب الله بشدة، فينادي وقد تشرفت روحه برؤية الله وتملكه حبه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فبتغيير الضمائر من الغائب إلى المخاطب قد أشار الله تعالى إلى أن الإنسان إذا تدبر في صفاته المذكورة في القرآن فاز بلقائه، وتجلت له ذاته سبحانه وتعالى.

ورد في الحديث عن أبي هريرة سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أُنْتَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَدَّنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوُضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. (مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة).

وَيُسْتَنْبَط من هذا الحديث الشريف عدة أمور:

أولاً: أن الحمد والثناء والتمجيد يَخْتَلِف بعضها عن بعض في المعنى.

ثانياً: أن قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يَحْتِّ على التوكل الكامل، أي أن العبد عندما يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مُؤَمِّناً بأن الله تعالى هو الذي يرتب النتائج النهائية لعمله فكأنه يعرب عن اطمئنانه ورضاه بقرار الله تعالى، وما دام يتوكل على الله تعالى توكلًا كاملاً فلماذا لا يرفق الله به ويعفو عنه؟

ثالثاً: أن النعم التي لأجلها عَلَّمْنَا هذا الدعاء لا بد أن ينالها المسلمون في وقت ما، لأن الحديث يبيِّن بأن "ولعبدي ما سأل"، أي أنه سوف يُعْطَى ما طلب حتماً.

لقد عَلَّمَنَا الله تعالى هنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وانتقد البعض ذلك وقالوا: إن التوفيق للعبادة يكون بعون الله تعالى، فكان الأجدر أن يقال "إياك نستعين وإياك نعبد".

والرد على ذلك هو التالي:

(١): لا شك أن العبادة تتم بإعانة الله وتوقيفه، ولكن تقديم العبادة هنا إشارة إلى أن الإنسان الذي يفكر في عبوديته وعبادته لله تعالى هو الذي يستعين به، والذي لا يهتم بعبادته فكيف يطلب منه العون؟ فالاستعانة، أي خرورج العبد على أعتاب الله تعالى لا يمكن إلا بعد تفكيره في العبادة، ولذلك قُدِّمَت كلمة ﴿نَعْبُدُ﴾ على ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

(٢): إن الإرادة بالقيام بعمل تكون من العبد، والتوفيق يكون بالاستعانة بالله عز وجل، ولو كانت إرادة العمل أيضاً بيد الله لكان الإنسان مجبراً في أعماله. فعَلَّمَنَا الله هنا أنه إذا رغب العبد في عبادته تعالى فعليه أن يسأله العون لتحقيق رغبته، ويقول: ربّ، لقد قرّرت أن أعبدك، ولكن لا أستطيع تنفيذ هذا القرار من دون معونتك، فأعِنِّي على الوفاء بعهدي ووفّقني بألا أعبد سواك.

والعبادة هي غاية التذلل والخضوع، والمقصود منها محاولة العبد للاتصاف بصفات الله عز وجل. أما الحركات الظاهرية في العبادة فتستهدف إحداث تطورات في القلب. إن العبادة إنما هي حالة في القلب، وما يصدر من أعمال هو نتيجة لتلك الحالة، أما تعيين مواعيد العبادة والتوجه إلى القبلة والوقوف والركوع والسجود فليست مقصودة لذاتها، وإنما جُعِلت هذه الحركات الظاهرة في الصلاة لأن الحالة الظاهرة للجسد تؤثر على القلب وتساعد على التركيز، فهي كإناء يوضع فيه لبن المعرفة، أو كقشر لللبِّ العبادة.

وجاءت هذه الآية وما بعدها على صيغة الجمع: نعبد، نستعين، اهتدنا، وهذا يدل على أن الإسلام دين اجتماعي، يهدف إلى ارتقاء الجميع وليس الفرد وحده، وأن المسلم راعٍ لأخيه المسلم، فلا يكفي بالعبادة وحده، بل من واجبه أن يحثَّ الآخرين على العبادة بسعي دؤوب حتى يكون الجميع من العابدين، وألا يقنع وحده بالتوكل على الله، بل ينبغي أن يدعو الآخرين إلى ذلك حتى يصبح الجميع من المتوكلين على الله تعالى، ثم لا يكفي بطلب الهداية لنفسه فقط، بل عليه مواصلة نُصح الآخرين بطلب الهداية حتى يرغبوا في الهداية ويكونوا من المهتدين، ويستخدم كل واحد منهم في دعائه صيغة الجمع لا صيغة المفرد. والواقع أن مثل هذه الروح التبليغية والتربوية هي التي أدّت إلى رقيِّ الإسلام بشكل مدهش في سنين قليلة جداً. وإذا أمكن ازدهار المسلمين اليوم فلن يكون إلا بهذا الشعور السامي، وليس لأهل الإسلام كرامة في الدنيا ولا شرف في الدين إلا إذا سعوا جاهدين وبصدق لأن يقولوا بصورة جماعية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

والحق أن العبادة والاستعانة وطلب الهداية لا تتحقق إلا بصورة جماعية، لأن الفرد الوحيد لا يستطيع إقامة العبادة إلا لوقت محدود ونطاق محدود، أما العابد الذي يجعل أولاده وجيرانه يعبدون الله تعالى فإنه يوسّع مجال العبادة ويمدّ أجلها.

وأي شك في أن العبد الصادق الوفيّ لسيّده هو مَنْ يحول دون مساس الأعداء بأمالك سيّده، أما الذي يشهد خراب بستان سيّده، ولا يسعى جاهداً لإنقاذه من أيدي المعتدين فليس بعبد صادق.

ثم إن الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ردُّ على الأفكار الخاطئة المنتشرة بين الناس حول الجبر والقدر. هناك طائفتان من أهل الآراء المتطرفة حول كُنْه أفعال الإنسان وحقيقتها، فالبعض يرى أنها تصدر عن جبر وإكراه، وهذا رأي بعض رجال الدين والفلاسفة وعلماء النفس المعاصرين، وعلى رأسهم البروفيسور "فرويد" التمساوي.

والذين يأخذون منهم بهذا الرأي على أساس العقيدة والدين يقولون: إن الله مالِكٌ، ومثله كمثّل المهندس الذي يخصّص بعض الأحجار للغرف وبعضها لدورة المياه، فالله تعالى يخلق من يشاء للخير ويُرغم من يشاء على الشر، وليس الإنسان مختاراً.

أما النصارى فقاموا بترويج عقيدة الجبر بقولهم بالخطيئة الموروثة؛ إذ يقولون ما دام الناس لا يستطيعون التحرر من الخطيئة المتوارثة من دون الفداء فكل أولئك الذين لا يؤمنون بعقيدة الفداء مجبرون على أن يكونوا آثمين.

وعقيدة التناسخ عند الهندوس أيضاً تؤيد الجبر، لأن الولادة الجديدة التي وُلدت بها الروح نتيجة آثامها السابقة لا بد أن تبقى خاضعة للقيود المفروضة عليها نتيجة الذنوب السابقة.

أما قول الفلاسفة فأساسه التجربة فقط، إذ قالوا إننا نرى أن بعض الناس لا يقدرّون على تجنّب الإثم رغم محاولتهم، ولكن الدكتور "فرويد" قد جعل من هذا القول قضية علمية، إذ يرى أن زمن تعليم الإنسان (أي زمن طفولته) يسبق ظهور الإرادة فيه عند البلوغ، فلا يمكن أن نقول إنه حر من إرادته، لأن إرادته ليست إلا امتداداً للنزعات التي تتولد عنده في مرحلة الطفولة نتيجة تأثير محيطه. يظن الإنسان أن أعماله وليدة إرادته وتفكيره الحر، لكن الحق أنها

ثمة التأثيرات التي خضع لها في طفولته، ولأن هذه التأثيرات أصبحت جزءاً من نفسه فيظن خطأ أنها إرادته، وليست نتيجة تأثير محيطه.

وآراء "فرويد" هذه ليست مبتكرة، بل نجد أساسها في الإسلام، حيث قال الرسول ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه." (البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين). ومعنى هذا الحديث الشريف أن المولود يتأثر بتربية أبويه ويقتنع بأفكارهما الخاطئة قبل سن البلوغ، فيسلك مسلكهما من دون تفكير. وكذلك قد كشف لنا النبي ﷺ أهمية وعمق تأثير المحيط في عهد الطفولة، حيث أمر بالأذان في أذن المولود عند ولادته. (أبو داود، كتاب الأدب، باب في الصبي يولد فيؤذن في أذنه)

ولقد ردّ القرآن الكريم على الأجزاء الخاطئة في هذه الأفكار إذ أعلن: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لأن الجبر يجعل الجزاء والعقاب أمراً لغوياً. فبقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علّمنا الله تعالى أن الإنسان حرّ في إرادته، لا شك أن هذه الحرية محدودة إلى حدّ ما، ولكنه حرّ بلا شك في أن يختار لنفسه طريقاً جديداً عند رؤية الهدى. فمثلاً: إن الإنسان إذا فكّر في صفات الله فيمكن، بل بالفعل، ينطلق من داخله صوت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى ولو كان خاضعاً لتأثيرات سيئة. هذه حقيقة لا يسع أحداً إنكارها. فماذا عساه أن يجيب الدكتور فرويد وتلاميذه إذ نجد أن الظروف تتطور، والآراء تتغير، والدنيا لم تعد بحالة واحدة قط؟ فلو كانت تأثيرات الطفولة شديدة بحيث يستحيل معه تحرُّر الإنسان من قيودها، لوجب أن تبقى الدنيا من عهد آدم إلى يومنا هذا جامدة لا تتحول خطوة عن الطريق القديم، ولكننا نرى بعين الواقع أنها تطورت ولا تزال في تطور دائم، مما يدلّ على إمكانية حدوث التغيرات في مجرى أفكار الإنسان التي يكون خاضعاً لها بتأثير مناخ الطفولة. والقرآن الكريم قد قدّم أدلة قوية على ذلك، ولكن لا مجال للخوض فيها، وإنما بيّنتُ هنا بإيجاز ما تقوله هذه الآية.

وهناك فكرة أخرى تعاكس الجبر تماماً، وهي أن الإنسان حرّ مطلقاً في أفكاره، والله تعالى لا يتدخل في أعماله أدنى تدخل. هذه الفكرة يرفضها أيضاً

الإسلام ويقول: إنكم لا تستطيعون أن تتحرروا تماما من عوامل البيئة التي تحيط بكم، فلا بد أن يكون عليكم رقيب يسمو عن تأثير هذه العوامل، ويحفظكم من خطورتها عند اشتدادها. ودعاء ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يوجه الأنظار إلى أن خالقكم سبحانه وتعالى لا يجلس عاطلا بلا عمل، بل يرى عجزكم، فادعوه يستجب لكم، واقرّعوا بابه يفتح لكم.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة : ٦)

شرح الكلمات:

اهدنا: يقال: هداه إلى الطريق: بينه له. وهدى العروس إلى بعلها: زفّها إليه. وهدى فلاناً: تقدّمه، تقول: جاءت الخيل يهديها فرسٌ أشقر، أي يتقدمها (الأقرب).

فللهدى ثلاثة مفاهيم: الدلالة على الطريق؛ القيادة في الطريق؛ المصاحبة إلى نهاية الطريق.

وقد أطلقت الهداية في القرآن على عدة معان منها:

خَلَقُ الْقَوَى وتسخيرها للعمل كما في قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه ٥١). ومنها الدعوة للاهتمام كما في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (السجدة ٢٥)، أي جعلنا من بين بني إسرائيل أئمة يدعوهم إلى التوراة بأمر الله. ومنها القيادة المتواصلة حتى بلوغ الغاية كما قال تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (الأعراف ٤٤). ومنها الترغيب والتجيب، يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن ١٢)، أي أن الذي يؤمن بالله إيمانا كاملا يخلق في قلبه أنسا بالهدى ورغبة بالخير، فالهدى في هذه الآية ليس بمعنى الدلالة على الطريق، لأن الذي آمن فقد عرف الطريق سلفا. ومنها: النجاح كما جاء في قوله تعالى عن المنافقين إنهم

يقولون أنهم إذا أمروا بالقتال فسيخرجون، ولكن عملهم يكذبهم، فيقول الله لهم: لا تقسموا، بل أطيعوا عملياً، لأن الله خير بأعمالكم، ثم يقول لرسوله ﷺ: قُلْ لَهُمْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فلو انحرقتم فأنتم مسؤولون عن أنفسكم والرسول مسؤول عن نفسه، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (النور ٥٥)، أي أما إذا أطعتم الرسول فلن تتضرروا، بل ستفلحون وتنتصرون، حيث قال الله في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد ١٨)، أي أن الذين ينتفعون من هدي الله فإن الله يزيدهم هدى.

ويتضح من القرآن الكريم أن الهدى ليس محدوداً، بل له مدارج متصاعدة لا نهاية لها، والذين يستحقون بعملهم فضل الله ورحمته لا يزالون يرتقون.

الصراط: يُكْتَب الصراط بالصاد والسين أيضاً، والسرّاط أو الصراط: الطريق المستسهل، أصله من: سرطت الطعام، أي ابتلغته، فقليل سراط، تصوّراً أنه يبتلعه سالكه (المفردات).

المستقيم: من الاستقامة، ولفظ "الاستقامة" يقال في الطريق الذي يكون على خطٍّ مستوٍ، وبه شبه طريق الحقّ نحو: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (المفردات).

التفسير:

يعلّمنا الله تعالى في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دعاءً لم يسبق له مثيل في كماله وسموه؛ فهو دعاء لا يختص بأمر خاص، بل يعمّ جميع ضرورات الحياة صغيرة وكبيرة، دينية ودنيوية. إنّ لكل عمل -أيا كان- طريقة ينحز بها، إذا اتبعناها نجحنا فيه، وإلا فلا. وأحياناً يكون لإنجاز عمل واحد طرقٌ شتى بعضها مشروعة وبعضها غير مشروعة، ويكون من المشروعة منها ما هو أسرع وأقرب للنجاح، ومنها ما يكون غير ذلك. ويعلّمنا الله تعالى في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن ندعوه دائماً أن يهدينا إلى الطريق المشروع السويّ الأسرع إلى الفوز.

فما أيسرَ هذا الدعاءَ وما أكملَه وما أشملَه! فما من هدف من أهداف الحياة إلا ويمكننا أن ندعو له بهذا الدعاء العظيم. ومَن اعتاد هذا الدعاء فلن يدّخر وسعاً في استثمار جهوده، لأن الذي يُذكر مرة بعد أخرى أن لكل عمل طريقاً مشروعة وغير مشروعة، وأنه يجب عليه البحث عن المشروع منها، وأن عليه اختيار الأقرب والأسرع منها، فسوف يظلّ هذا التعليم السامي مسيطراً على عقله كل حين. وواضح أن الذي يدعو الله تعالى أن يهديه إلى الطريق المستقيم، فلا بد أن يتأثر فكره بهذا الدعاء، وسيبحث جاهداً عن هذا الطريق في جميع أموره. وأي شك في سمو المقاصد وسداد الأعمال ومواصلة الجهود لدى مَن يهتم في أعماله بالمبادئ التالية المبنية على هذا الدعاء:

- ١: أن تكون جميع وسائل أعماله مشروعة.
- ٢: أن لا يقنع بدرجة واحدة، بل يظلّ تَوَّاقاً للدرجات العُلى التي لا نهاية لها.
- ٣: أن لا يضيع وقته سدى، بل ينتهز كل لحظة، وينهي كل أشغاله في أقل وقت ممكن.

إني على ثقة من أن المسلمين لو داوموا على هذا الدعاء بإخلاص مع فهم معانيه، لكان له تأثير ملموس في عقولهم، فضلاً عما يعود عليهم من فوائد جمّة كدعاء جامع.

اعترض البعض قائلاً: لقد أمر الله المسلمين بأن يدعوه في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، بل كان رسولهم (ﷺ) يدعو به كل يوم، أفلا يدل ذلك على أنه لم يهتد إلى ذلك الصراط المستقيم حتى كان دائب الدعاء من أجل العثور عليه؟

وهذا تساؤل غريب يدعو إلى الضحك من عقول هؤلاء المثقفين من النصارى والهندوس الذين يوجّهون مثل هذا الاعتراض بلا تأنٍ ولا تروٍّ، ويتعجبون قائلين: ماذا عسى أن يجيب المسلمون عليه؟ وإليك الجواب:

أولاً: الهداية، كما ذكرنا آنفاً، ليست الدلالة فقط، بل هي الدلالة والقيادة والإبلاغ إلى الغاية؛ فطلب الهدى إذن يختلف باختلاف درجات الداعين،

فالذي لا علم له بالهداية فدعاؤه يعني: ربّ أخبرني ما هو الهدى وفي أي دين أو مذهب؟ أما مَنْ يعرف الهداية ولكن يجد في سبيل قبولها موانع من ضعف الإرادة أو الأصحاب الأشرار الذين يعيقون طريقه، أو البُعد عن الهادي الكامل الذي يصعب الاتصال به، أو عدم تيسر الصحبة الصالحة، فهذا الشخص عندما يطلب الهداية فإنه يعني: ربّ، قُدّني إلى الهداية، ربّ، قد فهمتُ نظرياً ما هو الهدى، ولكن تمنع الموانع من اتّباعه، فأزِلْها عن طريقي.

أما إذا كان هذا الطلب ممن تيسر له الهدى نظرياً وزالت العوائق من أمامه، وهو سائر في طريق الهدى فيعني دعاؤه: ربّ، إنّ طرق هداك واسعة جداً، ومسالك معرفتك لا تنتهي، فأعني بفضلك على مواصلة التقدم في هذا الطريق، ولا تجعل قدمي تتأخر عن السبق فيها، واكشف لي المزيد من أسرار الحق، ووفّقني للعمل به أكثر من ذي قبل. فمَنْ مِنَ الناس يمكنه أن يستغني في أي وقت عن هذا الدعاء نظراً إلى هذه المعاني الثلاثة كلها؟ لا شك أن رسولنا ﷺ كان أكمل الأولين والآخرين، لكن إله الإسلام ذو قدرات لا نهائية، ومهما تقدّم الإنسان في قربه فلا يزال أمامه مجالٌ للمزيد من الرقي، وحاجةٌ إلى المزيد من دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

والحق أن علم الإنسان يزداد باستمرار، ليس في الدين فقط، بل في الدنيا أيضاً، فليس هناك علم من العلوم إلا ويظل فيه مجال للمزيد من الرقي، فالإنسان محتاج دائماً إلى دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في أمور دنياه أيضاً لكي يزداد علماً.

فالحق أن هذا الدعاء ليس محل اعتراض أصلاً، بل إنه يقدّم عن العلم نظرية إسلامية شاملة فيها دليل قاطع على أفضلية القرآن. لقد نزل القرآن الكريم مع وجود الأديان السابقة، فأعلن نسخها وأسس مكانها ديناً جديداً كاملاً، لكنه لم يقل ما قالت به الأديان الأخرى بأن العلم قد انتهى بوجودها، بل أعلن أن العلم سيظل يزداد ويزداد عن طريق هذا الكتاب دائماً، وعلم أتباعه هذا

الدعاء وفرض عليهم قراءته أكثر من ثلاثين مرة في اليوم، وبهذا المبدأ السامي قد وسّع الإسلام الرؤية الإنسانية لازدهار العلم أيما توسيع.

وقد اعترض البعض على هذه النظرية قائلاً بأن هذا الرأي يناقض كون القرآن آخر رسالة سماوية للعالم، لأن العلم إذا كان دائماً الارتقاء والازدهار فلماذا لا نسلم أن القرآن سيأتي دوره أيضاً ليُنسخ ويحلّ محله كتاب آخر في وقت من الأوقات؟

ويمكن الرد على هذا الزعم بما يلي:

١: لو سلّمنا جدلاً بنزول كتاب بعد القرآن ينسخه، فهذا قد مضى على نزوله ثلاثة عشر قرناً ولم ينزل هذا الكتاب الأكمل المزعوم. ولقد سعى الفلاسفة وأتباع الملل الباطلة جاهدين أن يأتوا بمثله فخابوا وخسروا في كل مرة، فما دام أحد لم يقدم كتاباً كهذا فكيف نقيم لهذا الزعم وزناً؟

٢: إن القرآن عالمٌ روحي، ولا يختلف في أحواله عن العالم المادي، فكما يتقدم الإنسان كل يوم في مجال العلوم المادية، ومع ذلك لا يُخلق له كل يوم عالمٌ جديد ليكتشف أسرارهِ الكامنة، بل يبذل تفكيره في نفس العالم القديم ويطلع على أسرارهِ وغوامضهِ، كذلك لا حاجة لأي كتاب جديد بعد نزول القرآن الكريم الذي هو عالمٌ روحي، غير أنه لم يضع آيةً عراقيل في طريق ازدهار العلم ورقّهِ، بل كما أن الناس يكتشفون أموراً جديدة بدراسة العالم المادي، كذلك القرآن يحتوي على علم غير محدود نظراً إلى مدى تخليق الفكر الإنساني، فالذين يتدبرون القرآن تنكشف عليهم أسرارهِ بقدر إخلاصهم في دعائهم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فمع أن القرآن هو الكتاب الأخير إلا أن الارتقاء الروحاني لم يتوقف، بل قد ازداد سرعة وسعة بنزوله كما صرح القرآن نفسه إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد ١٨).

فالهدى الذي وُصف به القرآن لا يُطلق على رقي محدود، بل هو سلسلة غير منقطعة من الحقائق، ولا تزال حلقاته تظهر الواحدة تلو الأخرى. ولقد جرّبتُ بنفسِي أنه ما من مسألة دينية إلا ويقدم القرآن لنا بشأنها علماً شافياً. وبوجود

هذه الحقيقة الناصعة فإن الإنصات إلى شريعة أخرى إنما هو بمثابة ابتعاد المرء عن ينبوع بحثاً عن الماء.

أَتَعْجَبُ للمسلمين الذين يدعون كل يوم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم يظنون أنه لا يجوز لأحد أن يزيد عما كتبه المفسرون الأوائل في تفاسيرهم، وليس في القرآن علم أكثر مما كتبه هؤلاء! إن كان ما يزعمونه حقاً فلماذا يدعون ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإن الله تعالى لم يبقَ لديه الآن المزيد من المعارف القرآنية حسب عقيدتهم؟ إنما الحريّ بهم أن لا يضيعوا وقتهم في هذا الدعاء، بل يقتنوا تفاسير السلف ويكتفوا بما فيها!

إن هذا الدعاء دعاء جامع وشامل بصورة رائعة، إذ يمكن للإنسان أن ينتفع منه في كل أمر من أمور الدين والدنيا، ولا يمكن للباحث عن الهدى - أيا كان دينه - أن يقدم أي عذر في الانتفاع من هذا الدعاء؛ لأنه دعاء للاهتمام إلى الصراط السوي الذي لا عوج فيه، ولا ذِكر فيه لديانة معينة أو لطريقة محددة أو مبدأ معين، وإنما هو طلب للاهتمام إلى الحقيقة الخالصة من أي شوائب، يمكن أن يقوم به أي إنسان دون أن يعارض عقيدته أو أفكاره. ولا يسع أحداً، نصرانياً كان أو زرادشتياً، بوذياً كان أو ملحداً، أن يعيب هذا الدعاء. إن الملحد لا يؤمن بالله، لكنه يستطيع أن يقول: إذا كان الله موجوداً فليدلّني على الصراط المستقيم. فهذا الدعاء جامع شامل وعامٌ وغير ضارٍّ، وكل إنسان محتاجٌ إليه في كل حال، ولا يصحّ له أن يعترض على ترديده. وقد ثبت من خلال تجاربي أنني لم أنصح أحداً من غير المسلمين بهذا الدعاء فدعا به، إلا وكشف الله عليه صدق الإسلام. لهذا فإنني على يقين أن كل من يبتهل إلى الله بهذا الدعاء بصدق فلا بد أن يهيئ الله له من عنده أسباب الهدى، إذ من المحال أن يستغيث المخلوق على باب الخالق طالباً الهداية فيردّه خائباً خاسراً.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧)

شرح الكلمات:

أَنْعَمْتَ: أَنْعَمَ: أَفْضَلَ وَزَادَ (الأقرب). والإنعام إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين؛ فإنه لا يقال: أَنْعَمَ فلان على فرسه. (المفردات)

المغضوب عليهم: الغضب هو ثوران دم القلب إرادة الانتقام، ولذلك قال عليه السلام: "اتَّقُوا الغضب، فإنه حمرة تَوْقَدُ في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه؟" وإذا وُصفَ الله تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره. (المفردات)

فَ- ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم القوم الذين حكم الله بعقابهم نتيجة سيئاتهم. **الضالِّينَ:** الضلال: العُدُولُ عن الطريق المستقيم، ويضادُهُ الهدايةُ. ويقال الضلال لكل عُدُولٍ عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً (المفردات).

ومن معاني الضلال الانهماك والاستغراق في أمر، قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف ١٠٥)، أي الذين انصبَّت جهودهم على الحياة الدنيا كليةً، وتهاوتوا عليها تماماً. وبهذا المعنى نفسه قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى ٨)، أي وجدناك مشغولاً بجنابنا وتائهاً في عشقنا فهديناك إلينا. وهذا التعبير شائع في لغتنا أيضاً، إذ يقولون: فلان يبدو تائهاً، أي منهمكاً في فكر معين. كما يوجد هذا التعبير في الإنجليزية أيضاً. إذاً فهو من التعابير لمألوفة القرية جداً من الفطرة الإنسانية، ولذلك يوجد في كثير من اللغات.

فقله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني أن محمدا رسول الله ﷺ أصبح مشغوبا بحب الله تعالى بحيث صار تائها في حبه كل حين، فأعجب الله أمره، واستثار حبه حبَّ الله تعالى، حتى أتى بالحبيب إلى داره.

ولا يغيين عن البال أن فعل "ضَلَّ" يُستخدم بالمعنى السيئ عموما، ولا يفيد معنى حسنا إلا مع قرينة، كما نجد في هذه الآية حيث قال الله تعالى ﴿فَهَدَى﴾.

التفسير: عندما علّمنا الله الدعاء من أجل الهداية إلى الصراط المستقيم، علّمنا أيضا أن يكون هذا صراط الذين أنعم عليهم، أي لا يكون طريقا عاديا، بل يكون مسلكا للأرواح السامية المرتقية.

ما أعظمَ هذا الهدفَ الذي جعله الله غايةً لكل مسلم في أول سورة من القرآن! فالمسلم حريٌّ بآلا يرغب في الصالحات والطيبات فقط، بل من واجبه أن يطمح في أن يكون من المتفوقين الفائزين بالإنعامات والجوائز. والحق أن من أحبَّ الله لم يقنع بدرجة عادية، لأن حبَّ الله تعالى يُوسّع آفاق الإنسان بحيث لا يرضى برقيٍّ عاديٍّ، بل لا يمكن أن يرضى به، إذ ليس هناك شيء يمكن أن يُرضيه بعد أن التاعَّ قلبه بحب الوصال بالله عز وجل. فمن طلب الله تعالى طلب الترقيات كلها، ومن عرف الله لم يعتبر أيَّ درجة من الرقيّ آخر الدرجات، غير أن ما يبعث المؤمن على المسرّة أكثر هو أن هذه ليست مجرد رغبته القلبية فقط، بل إن هذا ما يعلمه ربُّه أيضا ويقول له: حذار أن ترضى بأدنى الدرجات، بل اطلب مني الخير، ولكن لا تطلب خيرا عاديا، بل ذلك الخير الذي قد ناله الذين أنعمت عليهم. ولا تطلب إنعام قوم أنعمت عليهم في عصر من العصور، بل اطلب جميع الإنعامات التي أنعمت بها عليهم في مختلف العصور.

والإنعام في اللغة لا يحدّد بمعنى خاص، بل يطلق على كل خير يُعطاه الإنسان تعبيرا عن الرضا، دنيويا كان هذا الإنعام أم دنييا. لقد وردت هذه الكلمة بهذا

المعنى الواسع في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ (الإسراء ٨٤)، أي بدلاً من أن يشكرنا على هذا الإنعام يتغافل عنا. فمن معاني الإنعام أسباب الدنيا من علم ومهارة وعزّ وغير ذلك، لأن هذه النعم الربانية هي التي تحمل صبغة الإحسان، وكثير من الناس ينسون الله تعالى بعد أن يحولها لهم بدلاً من أن يتوجهوا إليه شاكرين.

كما أن القرآن يعدّ الإنقاذ من المصائب أيضاً نعمةً من النعم كما يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة ١٢). فهنا قد اعتبر الله تعالى حماية المسلمين من هجمات الأعداء نعمة. ومع أن كل منّة نعمة، إلا أن هناك منّا هي أحقّ بأن تسمى نعمةً بوجه خاص، لأنها أفضل المنن وأسمائها، كما يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢١). لقد ذكر الله هنا الأشياء الجديرة بكونها نعمة للإنسان، والتي أعطى الله اليهود حظاً وفيراً منها كلها.

علماً أن الكمالات الإنسانية ثلاثة أنواع:

١: الكمالات الدنيوية الذاتية

٢: الكمالات الدينية الذاتية

٣: الكمالات الدنيوية والدينية النسبية، أي فضل الفرد أو الأمة على

المعاصرين والمنافسين في هذه الكمالات.

والإنسان طموح بفطرته إلى هذا الكمال النسبي، أعني أنه لا يطلب الكمال فقط، بل يطلب الكمال الذي يجعله أفضل من معاصريه ومنافسيه. وقد ذكر موسى عليه السلام هنا أن الله تعالى قد منح بني إسرائيل هذه الكمالات بأنواعها الثلاثة:

١: فقد أنعم الله عليهم النعم الدنيوية حتى جعلهم ملوكاً لفترة طويلة. والحق أن كل الكمالات المادية بحاجة إلى الملك من أجل رقيها وازدهارها؛ فالأمة التي تنال الملك تتهياً لها جميع أسباب الرقي المادي بغض النظر عن اغتنامها إياها أو عدمه، فإعطاء الملك لأمة لفترة طويلة يعني فتح أبواب الرقي المادي لها على مصاريعها.

٢: وكما أن الملك وسيلة للنجاح المادي وذروته، كذلك فإن النبوة هي وسيلة للنجاحات الدينية وذروة الرقي الديني. ويقول موسى عليه السلام لقومه هنا إن الله تعالى قد أعطاكم هذه الوسيلة التي هي منتهى النعمة، فلم يبعث فيكم نبياً أو نبيين، بل سلسلة طويلة من الأنبياء.

٣: والكمال الثالث هو الإنعام النسبي، أي ألا تتلقى الأمة النعم الدينية والمادية فحسب، بل تتلقاها أكثر من الأمم الأخرى مما يحقق لها عزاً وغلبة على المعاصرين. ويقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة ٢١)، أي أن الله تعالى قد أعطاكم نعمة التفوق في هذه الكمالات على الأمم الأخرى أيضاً، فلم يعطكم الملك والنبوة فحسب، بل بعث فيكم الأنبياء الذين هم بمثابة منارات الهدى للأنبياء الآخرين، وقد جاء أنبياء تابعون لهم. فأنتم تتمتعون بالنعم بأنواعها الثلاثة؛ الدنيوية والدينية ونعمة التفوق على الأمم الأخرى دنيوياً ودينياً.

هذا ما قاله موسى عليه السلام ونقله القرآن الكريم. ولا يملك المرء إلا أن يتأثر بهذه الكلمات الوجيزة المحتوية على معاني واسعة.

وقد توسعت معاني قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مع ذكر قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ توسعاً كبيراً؛ فهذه الكلمات لم تفرض على المسلم مجرد طلب الصراط المستقيم لأهدافه التي يحددها بنفسه، بل تأمره أن يلتجئ إلى الله تعالى فيما يتعلق بالغايات السامية أيضاً، ويتوسل إليه تعالى ألا يهديه إلى صراط الهدى ولا يُدخله في المنعم عليهم فحسب، بل يكشف عليه ما

كشف على المنعم عليهم من قبل من طرق الهدى والتعاليم وسبل العرفان. والحق أن الله تعالى قد منَّ على المسلمين منة عظيمة بهذه الآمال الواسعة. بعد هذا التعليم الواضح لسنا بحاجة إلى مزيد من التأكيد على أن أبواب التقدم مفتوحة تمامًا للمسلمين، ولكن لما كان اليأس قد عمَّ المسلمين واستولى عليهم، لذلك نتوجه إلى القرآن ثانية لنعلم ماذا أراد الله بتعليم هذا الدعاء، وهل وعد بإجابته أم لا.

قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٧-٧٠).

لقد ذكرت هذه الآيات النعم التي قدرها الله تعالى للمسلمين، وقد تكررت هنا تقريباً نفس الكلمات التي وردت في الفاتحة، أعني ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. وقد فسر القرآن الطائفة المنعم عليها وحددها بالنبين والصديقين والشهداء والصالحين، وقال إن المسلمين سوف ينالون هذه النعم كلها، أي ينالون هذه الدرجات الروحانية العالية.

يعترض البعض هنا ويقول: إن ﴿مَعَ﴾ هنا تعني المصاحبة ولا تعني المشاركة، أي أن المطيعين لله والرسول يكونون مع المنعم عليهم ولن يكونوا منهم. لكن ضعف هذا القول واضح في الآية نفسها، لأن ﴿مَعَ﴾ لو كانت متصلة بالنبين فقط، لكان المراد أن بعض هذه الأمة سيتشرف بمرافقة الأنبياء من غير أن يكون منهم لامتناع النبوة المطلقة في هذه الأمة، لكن لفظ ﴿مَعَ﴾ قد ورد قبل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ولو كان ﴿مَعَ﴾ هنا يعني المصاحبة فقط دون المشاركة، لكان معنى ذلك أن المسلمين لن ينالوا شيئاً مما أنعم الله به على الأولين؛ فإنهم سيُعطَوْنَ مصاحبة ذوي تلك الدرجات الأربع من غير أن يشاركوهم فيها. أي لن يكون في المسلمين من يستحق نعمة من هذه النعم،

وإن كان بعضهم سوف يرافقون أهل هذه النعم الذين خلوا من قبل. وهذا المعنى لا يقبله القرآن والحديث ولا العقل السليم.

الحق أن كلمة ﴿مع﴾ تتعلق بالفئات الأربع من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فإن كانت ﴿مع﴾ بمعنى المعية والمصاحبة فقط، لكان معنى الآية أن المسلمين لن ينالوا النبوة غير أنهم يصاحبون الأنبياء الآخرين، ولن يكونوا صديقين غير أنهم يلازمون الصديقين السابقين، ولن يكونوا شهداء غير أنهم يصحبون الشهداء السابقين، ولن يكونوا صالحين غير أنهم يصاحبون الصالحاء السابقين. وليس هناك ما هو أشدّ إساءةً لمقام النبي المصطفى ﷺ ولأتمته من هذا التأويل السخيف، إذ يقال أن أتمته ﷺ ستخلو من الصديقين والشهداء والصالحين فضلاً عن النبيين.

وقد قال البعض بأن النبوة هبةٌ من عند الله تعالى، فلا يجوز الدعاء من أجل الحصول عليها؟

والجواب أن المسلم لا يدعو لأجل النبوة، بل الأمة المسلمة تدعو أن تكون من المنعم عليهم، وهذا هو معنى الآية، ثم الله يخلع نعمة النبوة على من يشاء: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام ١٢٥). والنبوة هبة من الله بلا شك، لكن لماذا وهبها الله لحمد ﷺ ولم يهبها لأبي جهل مثلاً؟ لا بد للإنسان من كفاءات كتضحية وإيثار في سبيل الله ليكون أهلاً لهذه الهبة الربانية.

ثم متى قلنا إن الآية تعلّم المؤمن أن يسأل نعمة النبوة لنفسه، فمثل هذه الأدعية مكروهة وغير محبّدة في الأمور الدنيوية فضلاً عن أمور الدين. فمثلاً لو دعا الحدّاد أن يجعله الله عميداً لكلية الطبّ، أو دعا الأعرج أن يصبح بطل العالم في العدو، لكان دعاؤه عقيماً باطلاً، لأن الدعوات إنما تحاب حسب الظروف الروحية والمصالح السماوية، فلا يجوز للمؤمن أن يدعو ويلجّ من أجل شيء خاص من المراتب الروحية، والحق أنه لو دعا أن يصبح صديقاً أو شهيداً أو قطباً لكان دعاؤه مكروهاً عند الله تعالى، فما بالك بدعاء لنيل النبوة؟! من

أجل ذلك قد علّمنا الله هذا الدعاء بصيغة الجمع أعني: ﴿اهْدِنَا﴾ وليس (اهديني)، لأن صيغة الجمع تشير إلى الدعاء من أجل رقي الأمة، ثم الأمر متروك لله تعالى ليصطفي لأي من هذه الدرجات من يراه أهلاً لها.

ثم لا يغيبن عن البال أيضاً أن هذا الدعاء يراد به الحصول على الإنعام، والنبوة هبة، أي إنعام؛ فأیُّ حرج لو اعتبرنا أن هذا الدعاء هو من أجل قيام النبوة في الأمة؟

باختصار، لقد علّمنا الله تعالى هنا دعاء لطلب النعم كلها وطلب الهداية في كل الأمور، والقرآن يؤكد لنا أن جميع النعم، وعلى رأسها النبوة، سوف توهب للمسلمين، فلا يحق لأحد أن يحرمها عليهم.

وأما قولهم: كيف يمكن أن يُبعث نبي ورسول الله ﷺ خاتم النبيين؟ فجوابه موجود في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء ٧٠)، أي: أنه لن يستحق هذه النعمة إلا من أطاع الله ورسوله ﷺ. وواضح أن المطيع للنبي ﷺ لا يمكن أن يعارض عمله ﷺ، ولا أن يأتي بشرع جديد بعد شرعه ﷺ. فثبت أن النبي التابع لشرعية رسول الله ﷺ لا يكون مخالفاً ولا معارضا لخاتم النبيين، بل يكون مكماً لمعناه.

لقد كتب أحد المفسرين المعاصرين في تفسيره قولاً ويكرر تقديمه للناس، وهو: لو كان دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ من أجل الحصول على النبوة لعلّمه النبي ﷺ قبل بعثته، ولكن وجود هذا الدعاء في القرآن يدل على أنه ﷺ قد علّمه بعد البعثة، مما يعني أنه ليس دعاءً للنبوة.

وهذا القول غاية في السخف ودليل على قلة تدبر صاحبه، لأن دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دعاء فطري، وإننا نتلفظ به بكلمات القرآن لأنها مباركة ومنزهة عن الخطأ، وإلا فكل باحث عن الحق، مؤمناً كان بدين أو كافراً،

عندما يرغب في الوصول إلى الحق فإنه يدعو بكلمات مفهوما يشابه مفهوم هذه الكلمات القرآنية كأن يقول: إلهي، اهدنا الطريق المستقيم، طريق أحبائك. وهل يمكن لمن عنده مسحة من العقل أن يظن أن رسول الله ﷺ ما كان يتمنى قبل بعثته أن يهتدي إلى الصراط المستقيم ويسلك طريق المحبوبين المقربين لدى الله؟ إن مثل هذا الظن يؤدي بالإنسان إلى الكفر؟ والحق أن اضطراب قلب محمد ﷺ هو الذي جذب فضل الله إليه، وقد عبّر عن هذا الاضطراب بكلمات: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كل ما في الأمر أن القرآن قد اختار لهذا الدعاء كلمات تتسم بالكمال والنزاهة عن كل عيب، كما أنها تثير شعور الاضطراب فيمن مات فيه هذا الشعور، ثم إنها تبعث الناس على الأمل بأنهم إذا دعوا على هذا النحو فسوف يجاب دعائهم، بل قد أمرهم الله بهذا الدعاء. أما الزعم بأن رسول الله ﷺ لم يقيم بدعاء بهذا المفهوم قبل بعثته إنما هو إهانة شديدة له ﷺ، بل هو إساءة كبيرة إلى الله عز وجل، إذ يقال بأنه ﷺ فرض النبوة على محمد ﷺ عن غير جدارة ومن غير رغبة ولهفة عنده للاهتمام. نعوذ بالله من هذه الخرافات!

ثم إذا كان هذا الزعم صحيحا، فيمكن أن يسأل سائل: هل كان محمد ﷺ صالحا ومحبا لله تعالى ومقربا إليه قبل نزول القرآن عليه أم لا؟ فلو أجيب أنه ﷺ لم يكن كذلك قبل نزول القرآن عليه - معاذ الله - لقال السائل: إذا ليس بي حاجة أن أصلي وأصوم وأجاهد وأعمل بأحكام القرآن الأخرى، لأن محمدا رسول الله ﷺ قد حاز على التقوى وعلى محبة الله بدون العمل بهذه الأحكام، فأنا أيضا سأفوز بتقوى الله ومحبة بدون العمل بالقرآن؟ بل دَعُ عنك أمور الدين، فإن هذا المنطق مرفوض في أمور الدنيا أيضا، فمثلا ما رأيك في شخص يقول: ما دامت الدجاجة أو البيضة وُجِدَت أول مرة بدون جهد بشري، أو ما دامت البذرة أو الشجرة خُلقت أول مرة دون عمل منا، فستُخلَق الآن أيضا تلقائيا، فلا حاجة بنا للسعي لإيجادها عملاً بالقوانين الطبيعية؟ ألن تعدّ هذا الشخص غبيا؟ الواقع أن سنة الله عند انعدام البذرة مختلفة عن سنته بعد

وجودها، كذلك كانت التعاليم السماوية قد انمحت واندرست قبل بعثة النبي ﷺ، فاضطربت فطرته الطاهرة بشعور الحب الإلهي، فشرّف الله تعالى عواطفه الفطرية بالقبول بدون أن يصوغها بكلمات معينة أو بأسلوب معين، أما بعدما أنزل الله القرآن وسنّ فيه لكل أمر قواعد وقوانين، فلا يمكن الفوز بالنعم التي تتمتع بها الأولون إلا بالعمل بتلك القواعد. لقد جاء محمد رسول الله ﷺ بدين وشرعة، ولن ينجح بعدها من يخرج على هذه الشريعة ويندد بأحكامها.

ويمكن الرد على هذا الزعم بطريقة أخرى وهي سؤالنا: هل درجة النبوة هذه مجرد منصب من المناصب لا حاجة إلى العمل للحصول عليه، أم هي منصب ديني عظيم ذو أهمية كبرى، ويتطلب أن يكون النبي متصفًا بالتقوى والطهارة وقُرب الله قبل أن يصبح نبيا؟ وإذا كانت التقوى والطهارة وقرب الله ضرورية للنبي فسؤالنا: هل يمكن أن يكون غير النبي أتقى وأقرب إلى الله من النبي؟ فإن أجاب المفسر المعاصر المشار إليه وأمثاله بأنه من الممكن أن يكون غير النبي أتقى من النبي، فلم يبق إلا نزاع لفظي فقط. أما إذا كان جوابهم أنه من المحال أن يكون غير النبي أتقى من النبي، فمن زعم أن لا نبوة في الأمة المحمدية، لا غير تشريعية ولا تابعة لنبوة محمد رسول الله ﷺ، فكأنه يقرر أن لا أحد من هذه الأمة بقادر أن يبلغ المكانة الروحية التي بلغها الناس من الأمم الغابرة. وأي شك في أن هذا القول يؤكد حرمان الأمة المحمدية من النعم السماوية، والعياذ بالله! وتساءل المفسر المشار إليه فقال: لماذا لم تُقبل أدعية أي فرد من الأمة في هذا الشأن خلال الـ ١٤٠٠ سنة؟

والجواب أن إجابة الدعاء تتوقف على كمية الدعاء ونوعيته، وإن هذا المفسر نفسه يسلّم بإمكانية فوز أفراد الأمة بدرجة الصديقية، فنسأله طبقاً لمنطقه: كم فرداً من الأمة فاز بدرجة الصديقية؟ فإذا قال: لم يوجد في هذه المدة إلا صديق واحد هو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، فنسأله: لماذا لم يستجب الله لأحد آخر من الأمة طوال هذه القرون؟ وإذا قال: كان في الأمة آخرون مع أبي

بكر ﷺ نالوا هذه الدرجة، فنسأله: هل كانوا أفضل من عمر وعثمان وعلي ﷺ أم أدنى منهم درجة؟ فإذا كانوا أقل من هؤلاء الثلاثة درجة، فكيف نالوا درجة الصديقية مع أن هؤلاء الثلاثة -الذين كانوا أفضل منهم في الواقع- لم ينالوا مقام الصديقية، وإنما وصلوا إلى درجة الشهداء فقط؟

فما يَرِدُ على بقاء النبوة من اعتراض يَرِدُ نفسه على بقاء الصديقية أيضًا، فثبت أن هذا الاعتراض ناشئ عن قلة تدبر ولا يقوم على الحقيقة.

وأحبّ هنا ذكر أمر آخر حول قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهو أن الرسول ﷺ قد سَمِيَ الفاتحة أم القرآن وأمّ الكتاب أيضًا (أبو داود: كتاب الصلاة)، وعندني أن هذه التسمية أخذت من هذه الآية، حيث بيّن الله تعالى فيها والتي قبلها أن متهى العبادة أن يسأل العبد ربّه الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم، وأن هذا الدعاء ممكن الإجابة، فالواضح أنه إذا تضرعت قلوب القوم إلى الله تعالى بأن يفتح لهم طريق الهدى لأنهم مندفعون نحو الهلاك، وانضمت إلى تضرعاتهم استغاثة الشخصية الكاملة الطاهرة التي بعثها الله في تلك الفترة منقذًا للإنسانية، فلا بد أن تغور رحمة الله وينزل فضله وحيا وهُدًى للناس. هكذا جرت سنة الله من قبل، وهكذا ستبقى إلى الأبد. فقد وافق صراخ المظلومين في زمن نوح ﷺ تضرعات قلبه الطاهر النقي، وتسبب في نزول الوحي عليه، واجتمعت صرخات الأرواح في عهد إبراهيم ﷺ مع اضطراب قلبه المطهر، فاستدرت نزول صُحفه، وقد تكرر ذلك في زمن موسى وعيسى عليهما السلام، وكذلك حدث عند بعثة النبي ﷺ. تخبرنا الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان يعكف على العبادة والابتهاال إلى الله تعالى ليالي في غار حراء قبل نزول القرآن (البخاري: كتاب بدء الوحي). كانت هذه حالة قلبه الأطهر الذي كان مدرّكًا لحقيقة ما يجول فيه من أفكار، غير أنه كانت هناك آهات أيضًا ترتفع من قلوب أهل الأرض إلى السماء في خفاء طالبة الهداية والصراط المستقيم، فلما اجتمعت كل تلك التضرعات والابتهاالات استشارت رحمة الله تعالى، فأنزل القرآن. فالحق أن

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ترسم لنا حالة قلوب أهل الأرض قبل نزول كلام الله، لاسيما حالة أهل النفوس الطاهرة في ذلك الزمن، التي لا تنطلق من قلوبها الآهات فحسب، بل يحدث في أفكارهم ثوران، مما يستنزل فضل الله تعالى. فيما أن هذا الدعاء نزل في سورة الفاتحة، وهو الذي أسفر عن نزول القرآن، فلذلك سمي رسول الله ﷺ الفاتحة أم القرآن وأم الكتاب، لأن العلة لوجود شيء تنزل منزلة الأم له.

وجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ قد وصف الفاتحة بـ "القرآن العظيم"، ولكن ذلك لا يعني أن سائر القرآن أصغر منها شأنًا، فهذا بين البطلان، إنما هناك سبب آخر لهذه التسمية، ذلك أنه كان من الممكن أن يشته الأمر على المسلمين بسبب هذه التسمية فيظنوا أن الفاتحة غير القرآن، فقال ﷺ إنها "القرآن العظيم" توضيحًا لهم إنها من القرآن وليست خارجه، إذ يُطلق اسم الكل على الجزء، فيقال مثلاً إن فلانًا يقرأ القرآن، ولا يراد به القرآن كله وإنما جزء منه.

ومن اللطائف الروحانية العظمى أن الرسول ﷺ قد سمي الفاتحة أم القرآن وأم الكتاب والقرآن العظيم، فهو قد اعتبر الفاتحة أمًا، أي سببًا لنزول القرآن، وكذلك اعتبرها في الوقت نفسه وليدًا أي القرآن نفسه، أي أنه ﷺ اعتبر الأصل والفرع شيئًا واحدًا. وفي ذلك حكمة عظيمة وهي أن الحالة الأولى في العالم الروحاني تولد الحالة الثانية، فتسمى الأولى أمًا والثانية وليدًا، فالفاتحة سُميت أمًا لأن الدعاء المذكور فيها هو الذي تسبب في نزول القرآن، وسُميت "القرآن العظيم" لأنها جزء منه. ويعبر عن تطورات الإنسان الروحانية المختلفة أيضا بكلمات مماثلة حيث أخبر الله تعالى أن المؤمنين يمكن تشبيههم بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران، ثم قال تعالى عن المؤمنين الذين يمكن تشبيههم بمريم بنت عمران: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا

يتقدمون فإنهم يتلقون كلام الله تعالى ويصيرون ذوي النفوس المسيحية كالمسيح عليه السلام.

والخلاصة أن تسمية هذه السورة بأُمّ القرآن وأُمّ الكتاب والقرآن العظيم في وقت واحد تُلقي ضوءاً لطيفاً على هذه الاصطلاحات الإسلامية، وتُهيئ أسباب الرشد والهدى للذين فشلوا في أن يفهموا كيف سُمّي رجل من الأمة باسم مريم واسم عيسى في وقت واحد. فما دام رسول الله ﷺ يسمي الفاتحة أُمّ القرآن والقرآن نفسه، فليس صعباً على المسلم الصادق أن يدرك لماذا أطلق الله على هذا الرجل اسم مريم واسم عيسى أيضاً. الحق أن حالته الأولى وهو يتضرع إلى الله تعالى لظهور مسيح في الأمة كانت حالة مريمية، ولذلك سُمّي باسم "مريم" التي هي أُمّ عيسى، مثلما سُمّيت الفاتحة أُمّ القرآن لورود دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي كان بمنزلة صراخ لنزول هدي من السماء، ثم لما سُمع دعاء هذا الرجل المتضرع نُفخت فيه روح مسيحية ولذلك سُمّي عيسى، تماماً كما أن دعاء الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لما صعدت إلى السماء واستنزل القرآن وصار جزءاً من القرآن، سُمّيت الفاتحة قرآناً عظيماً مع أنها سميت من قبل أُمّ القرآن وأُمّ الكتاب.

هذا، وفي قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ درس يجب أن نتلقنه كما تلقّنه الصحابة، فقدّموا قدوة حسنة لم يسبق لها نظير في آية أمة، ولو أن المسلمين بعدهم استوعبوا هذا الدرس لقدّموا قدوة رائعة تخلّد ذكرهم في تاريخ العالم للأبد. ولكن وأسفاه على المسلمين فإنهم قد نسوا هذا الدرس الذهبي، وسقطوا عن المقام الذي أراد الله أن يبوّئهم إياه. ولو أن المسلمين جعلوا هذا الدرس العظيم نصب أعينهم اليوم أيضاً لنجوا من المصائب المحيطة بهم ولاستردّوا مجدهم الغابر.

والدرس العظيم في هذه الآية هو أن لكل قوم غاية يطمحون إليها ويستنفدون جهودهم لتحقيقها. لقد جعل الله وراء خلق هذا الكون غاية،

والأُمَّة التي تحقّق هذه الغاية لحرية بأن يقال إن هذه الأُمَّة هي غاية خلق الكون. لقد جاء آدم ﷺ وأمر الناس ببعض الصالحات التي كانت تعاليم رائعة لأهل ذلك الزمن، فعملوا بها وتطوروا روحانيا وأخلاقيا وعقليًا حتى سبقوا البدائيين إلى مدى بعيد. غير أنهم ما بلغوا الكمال المقدّر للإنسان، لذلك استمرّ طموحه إلى الكمال، حتى بُعث نوح ﷺ، فبلغ بالناس درجة أخرى في الرفعة والكمال، ومع قطع الإنسان في عهد نوح ﷺ شوطاً من الرقي الروحي والأخلاقي والعقلي إلا أنه ما حقق الغاية التي خلّق من أجلها. ثم جاء بعد نوح نبي تلو نبي حتى بُعث محمد رسول الله ﷺ، وكشف جميع الأسرار التي كانت مستورة عن الناس، وبَيّن ﷺ كل ما كان ضرورياً لتطور الإنسان روحياً وخلقياً وعقلياً، حتى بلغ بالدين ذروته من الناحية العلمية، فأعلن الله تعالى بلسانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة ٤). لكن الغاية المنشودة من نزول هذه التعاليم ما كانت لتتحقق فعلاً، وإن رسالة النبي ﷺ ما كانت لتنجح حقاً، ما لم يعمل الإنسان بهذه التعاليم السامية الكاملة، ومن أجل ذلك علّم الله المسلمين دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: أن هدفكم هو بلوغ ذلك المقام المحمود الذي من أجله بدأت الدنيا رحلتها الروحانية، والذي صعد إليه الأنبياء بأمرهم درجة فدرجة، والذي عهد إلى محمد ﷺ قطع المرحلة الأخيرة منه والوصول بهم إلى الغاية.

فالحق أن دعاء المسلمين: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اللهم أعطنا حسنات أمة آدم، ثم طورنا عقلياً كما فعلت بأمة نوح، ثم ارفعنا إلى مستوى أمة إبراهيم، ثم هب لنا فضائل قوم موسى، ثم اجعل لنا حظاً من روحانية عيسى، واكتبه لنا رفعة بعد رفعة إلى أن تسمو بنا إلى المقام الحمدي، كي

ينجح سيدنا محمد ﷺ في تحقيق غاية رسالته، ويُبعث المقام المحمود الذي وعدته به.

فالمراد من ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو منتهى الكمال الإنساني الذي لم تنزل القافلة الإنسانية سائرة إليه تحت قيادة الأنبياء في فترات عديدة ومراحل مختلفة، وعُهد إلى رسول الله ﷺ قطع مرحلته الأخيرة. وكأن أمة المصطفى ﷺ عندما يتوسلون إلى الله تعالى بهذا الدعاء فهم يعنون: اللهم قد أكملت الدين على رسولك ﷺ، فنسألك الآن التوفيق لأن نطبق هذا الدين بأعمالنا ونتحلى بتلك الكفاءات الجبارة الخفية التي نمت على أيدي الأنبياء على مر العصور، والتي هي الغاية السامية النهائية لخلق الإنسان. اللهم لقد قمنا لتحقيق هذا الهدف العظيم، فأعنا على قطع أشواط المعرفة كلها التي قطعناها شتى أُمم الأنبياء شوطاً فشوطاً، كي تتحقق على يد أمة المصطفى ﷺ الغاية المتوخاة من خلق الإنسان.

لقد جعل الصحابة رضوان الله عليهم هذا الهدف نصب أعينهم، وتحلّوا بأخلاق الأمم السابقة كلها، وقدموا للعالم قدوة حسنة لم يسبق لها نظير. واليوم لو اتخذت جماعتنا هذا الهدف نصب عينها من جديد لاقتربت الساعة المباركة التي يبعث فيها رسول الله ﷺ المقام المحمود، وتنجو الدنيا من كربها ومصائبها.

أما قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فاعلم أن كل قوم أثاروا غضب الله بمعصية فهم من المغضوب عليهم، وكل قوم تاهوا في حب ما سوى الله ونسوه ﷻ، فهم من الضالين. غير أن رسول الله ﷺ قد فسر هاتين الكلمتين بمفهوم خاص، ففي رواية طويلة عن عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ المغضوب عليهم اليهود، وإنَّ الضالين النصارى". (مسند أحمد).

ونقل الترمذي الحديث بهذه الرواية وقال عنه: حسن غريب. ونقل ابن مردويه عن أبي ذر الغفاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم؟ قال: اليهود. قلت: الضالين؟ قال: النصارى.

وقد ثبت هذا المعنى عن كثير من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود حتى قال ابن أبي حاتم: "ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا". (تفسير ابن كثير)

ويمكن أن نستدل على هذا المعنى بالقرآن أيضاً، فقد ورد فيه عن اليهود مراراً أن الله غضب عليهم، وكأن غضبه أصبح ملازماً لهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ (البقرة ٩١)، أما النصارى فقد وصفهم الله بالضلال مرة بعد أخرى كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف ١٠٥)، وقد ندد بهم على اتخاذهم المسيح وأمه إلهين من دون الله فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة ٧٨). لقد بين الله هنا أن عامة النصارى ما كانوا مشركين، بل كان بعضهم مؤمنين وبعضهم مشركين، والمشركون منهم كانوا ضالين ومضلين أيضاً إذ دعوا سائر النصارى وأضلوا كثيراً منهم عن العقيدة الصحيحة تاركين وحدانية الله إلى الشرك.

يجمل القول: إن القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة تؤكد أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى خاصة.

وقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدلٌ من ﴿الذين﴾ أو من الضمير (هم) في ﴿أنعمت عليهم﴾، والمراد: اللهم اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ لم يستوجبوا غضبك بعدما أنعمت عليهم، والذين لم ينحرفوا عنك بالمغالاة في حب غيرك بعد ما أنعمت عليهم. وفي ذلك الكثير من دواعي العبرة والخوف للمؤمن، فعليه ألا يطمئن أبداً ما لم يبلغ مقاماً يكون فيه في مأمن من الضلال، وإنما عليه أن يعضي قُدماً في سبل التقوى كي لا تنزل قدمه بعد ثبوتها لأقل غفلة، فتنهار به إلى الهلاك.

وفي هذه الآية نبأٌ عظيم يزيد كل متدبر إيماناً مع إيمانه، وإليك بيان.

لما نزلت هذه السورة لم يكن اليهود ولا النصارى في اعتبار رسول الله ﷺ، بل كان كفار مكة هم الذين يقفون ضده، وكان عدد اليهود والنصارى في مكة ضئيلاً جداً، وما كان لهم دخلٌ في حكومة المشركين بمكة، ومع ذلك لما نزل دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لم يرد فيه (غير المشركين)، بل ورد ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، أي اليهود والنصارى. فكيف كان ذلك؟

الجواب أن هذا الأسلوب الرباني كان نبوءةً بأن ملة المشركين ستنمحي إلى غير رجعة، فلا حاجة للمسلمين أن يدعوا لتجنب طريق المشركين، أما اليهود والنصارى فسيبقون، فكان المسلمون بحاجة إلى أن يدعوا الله تعالى ليجنبهم أتباع سبيل هاتين الملتين.

ومن الجدير بالتدبر هنا أن المسيحيين يسعون لتنصير المسلمين، فكانوا بحاجة إلى أن يدعوا الله تعالى أن يحميهم من فتنة المسيحيين، ولكن اليهود لا يدخلون غيرهم في ديانتهم عادة، فلماذا أمر الله المسلمين أن يدعوه أن يجنبهم أتباع سيبلهم يا ترى؟ من المحال أن يعلمنا الله تعالى في وحيه دعاء لا حاجة لنا به ولا معنى له، وليس بمستساغ أن يأمرنا النبي ﷺ بترديد دعاء لا جدوى منه ثلاثين بل أربعين مرة في اليوم الواحد! فعلى المسلمين أن يفكروا في الأمر، فلعل فتنة اليهود تفاجئهم بشكل آخر. أليس في ذلك إنذار بأنهم سيشبهون اليهود حين يكفرون بالمسيح الموعود والإمام المهدي كما كفر اليهود بالمسيح ابن مريم، وستتزامن هذه الفتنة مع هجوم فتنة المسيحية الضالة على الإسلام. فمن جهة سيشابهون اليهود لإنكارهم المسيح الموعود المثل للمسيح الناصري، فيُحرَمون من نصر الله، ومن جهة أخرى ستهاجمهم المسيحية الضالة التي تحتطف منهم مئات الآلاف من أبنائهم. أفليست هذه الآية نبأً عظيماً؟ أليس بوسع المسلمين أن يتعظوا بها فينجوا من نار هاتين الفتنتين؟

عند إمعان النظر في هذه السورة نجد فيها حكمة لطيفة أخرى أودعها الله إياها. فالصفات الإلهية وعبارات الدعاء قد جاءت محاذية ومتناسقة تماماً:

صفة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقابلها من الدعاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان عندما يشعر بأن الله جامع للمحامد كلها، فإن فطرته تدفعه لأن يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وصفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقابلها من الدعاء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وذلك لأن الإنسان عندما يجد أن الله تعالى هو خالق كل ذرة من السماوات والأرض وهو رب محسن، فلا يلبث أن يلتجئ إليه قائلاً: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وصفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ يقابلها من الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ذلك لأن الإنسان عندما يشعر أنه أُعطي جميع حاجاته بلا مقابل، فإنه يصيح قائلاً: اللهم إن أكبر حاجتي هي الفوز بوصالك وقربك، فاهدني إلى صراطك المستقيم.

وصفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ يقابلها من الدعاء ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والرحيم من يقدر عمل الإنسان حق قدره ولا يضيعه، فكأن العبد يسأل الله تعالى أن لا يرح يهديه إلى الصراط المستقيم حتى يورثه النعم التي أنعم الله بها على الأولين، فالرحيمية تقتضي ألا يضيع عمل عامل.

أما صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيقابلها من الدعاء ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، لأن العبد عندما يوقن أن الله سوف يحاسبه على أعماله فلا يلبث أن يستشعر الخوف من الخسران، فيدعو الله ألا يجعله من المغضوب عليهم ولا الضالين.

إن التدبر في آيات هذه السورة المباركة وما جاءت عليه من ترتيب يكشف لنا جلياً أنها تتضمن تعاليم ارتقائية تدريجية لمراحل القرب الإلهي. إن الطاعة والعبادة ليس وراءهما إلا سببان: الحب أو الخوف، وقد وجه الله تعالى الإنسان هنا إلى حبه وخوفه كليهما، ذلك أن بعض الناس مجبولون على الشكر للمحسن، فيطيعون بالنظر إلى إحسانه، وبعضهم لا يباليون بالإحسان، ولكن خوفهم من العقاب يدفعهم إلى الطاعة والعبادة، وينبغي للحكيم أن يرغب أولاً بالحب والإحسان، وإذا لم ينفع ذلك فعليه بالترهيب والإنذار. وقد اتبع الله تعالى هذا الأسلوب الحكيم هنا، فذكر أولاً من صفاته ما يغمر قلب العبد حباً

له **وَعَلَيْكَ** إذا تدبّر فيها، فذكر أولاً أن اسمه (الله)، أي أنه الجامع للمحامد كلها، والمنزّه عن المعاييب كلها، وأنه الخالق والرازق لكل شيء، وربوبيته تعمّ المؤمن والكافر، وأنه قد هيأ حياتنا من الأسباب والوسائل ما لا نقدر على الإحاطة به، وأنه يجزيّننا على صالح أعمالنا خير جزاء. فالذين اعتادوا الطاعة والانقياد برؤية الحُسن أو الإحسان والكرم، عندما يفكّرون في هذه الصفات الإلهية فلا يلبثون إلا أن ينيبوا إلى الله تعالى قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أما الذين لا يتأثرون بالحب والإحسان ولا ينقادون إلا بالشدة، فإنهم حين يفكّرون في صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يدركون أن الله مالك يوم الحساب وأنهم سيقفون أمامه ليحاسبهم على ما خوّلهم من نعم، فلا يلبثون أن تعنو له أعناقهم خوفاً من حسابه قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. فسواء أكان العبد من الذين يتأثرون بالحب أو من الذين ينصاعون بالخوف، فإنه حين يقرأ الآيات الأولى من الفاتحة فلا يملك إلا القول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولكنه عندما يشعر بضعفه من جهة، ومن جهة أخرى يرى حُسن ذلك الحُسين وإحسان ذلك المحسن العظيم أو يفكّر في عظّمته تعالى وجبروته، فلا يلبث أن يضيف قائلا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي: رب إني أطيعك أنت وأعبدك أنت، لكنني لا أستطيع أداء حق العبادّة، فأستعين بك على ذلك، فأعني على طاعتك حقاً.

فإذا بلغ الحب بالعبد هذا المدى واستولت عليه عظمة الله وجبروته لهذه الدرجة، فلا يلبث أن تصرخ فطرته: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. والمعروف أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق. فدعاء العبد هذا يدل على كمال حبه لله تعالى، إذ يقول: رب لا أستطيع الآن البقاء بعيداً عنك، فاهدني إلى أقصر طريق إليك، يكون خالياً من أي إفراط وتفریط، حتى أصل إليك بأسرع وقت ممكن. وبما أن رجال البلاط الملكي تتفاوت درجاتهم، فبعضهم من العامة، وبعضهم من خواص الحاشية، ولذلك علّمنا الله بعد ذلك دعاءً يتفق مع الفطرة تماماً وهو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أي رب أسألك أن تهديني إلى الصراط المستقيم، وليس هذا فقط بل اهدني صراط المنعم عليهم، أي:

ربّ لا أحبُّ أن أتخلف بين العامة في بلاطك، بل أريد أن أكون من خواص حاشيتك، وأن أكون محبوباً عندك كما أُنِي محب لك، وأن تكون مشتاقاً لي كما أُنِي مشتاق لك؛ ذلك لأن الطائفة التي ليس لها إلا الإنعامات والجوائز فقط هي الطائفة المحبوبة في الواقع. وهكذا يطمح العبد إلى درجة من الحب والوصال تزول فيها حُبُّ المغايرة بين العبد وربّه، وكأن العبد يبلغ ذروة القرب ويتحد المحب بالمحبيب.

ولكن الإيمان يكون بين الخوف والرجاء، لذا فإن العبد إذا حظي بهذه اللذة الروحانية تمنى دوام هذا الاتصال بحيث لا ينقطع أبداً، ولذلك علّمه الله تعالى أن يدعوهُ لوصال بلا فراق. والفراق يحدث بسببين: فإما أن يغضب المحبوب ويطرده المحب من عنده، أو يضلّ المحبّ الطريقَ ويتعدّ عن المحبوب، لذا فقد علّم الله تعالى العبدَ الدعاءَ التالي مشيراً إلى السببين: ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، أي: رب لا تجعلني أخطئ فتطردني من جنانك غضباً عليّ، ولا تجعلني أضلّ عنك بالمغالاة في حُبِّ غيرك بعد إذ هديتني إلى صراطك المستقيم.

هذا هو الدعاء الكامل الجامع الذي علّمه الله العبادَ رحمةً بهم وفضلاً عليهم، وليس بوسع دين من الأديان أن يأتي بمثله. ألم تروا كيف رسم الله هنا الفطرة الإنسانية رسماً دقيقاً، وكيف وصف في هذه السورة القصيرة علاجاً لجميع الناس ذوي الأفكار المختلفة والطبائع المتباينة. ألا فليعقل العاقلون وليدرك المدركون أن لا نجاة للعالم اليوم إلا بالإسلام، ولا شفاء من الأمراض الروحية إلا بالقرآن.

آمين: ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ إذا انتهى من قراءة الفاتحة قال: آمين، أي: اللهم استجب لنا. وهذا هو العمل المطرد الثابت عن الصحابة تأسيّاً بالنبي ﷺ.



سورة البقرة

مَكْنِيَّةٌ وَهِيَ مَعَ الْبِسْمَةِ مَائَتَانِ وَسَبْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

اسمها:

ورد هذا الاسم في عدة أحاديث على لسان الرسول ﷺ. ولا يتضح من الأحاديث ما إذا كان النبي ﷺ قد أطلق هذه التسمية على هذه السورة من عنده أم بوحى من الله تعالى، ولكني على يقين أن أسماء السور كانت بأمر الله تعالى. ومن الروايات التي تذكر هذا الاسم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل شيء سنّام، وإن سنّام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، هي آية الكرسي." (الترمذي، أبواب فضائل القرآن)

نزلت هذه السورة في المدينة المنورة على فترات. ويرى البعض أن قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨٢) نزل يوم النحر من حجة الوداع. وأيضاً نزلت آيات الربا في الأيام الأخيرة من البعثة النبوية. (الترمذي، أبواب فضائل القرآن، وابن ماجة: كتاب التجارات، باب الغليظ في الربا)

فضائلها:

عن أبي هريرة قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا وَهُمْ ذُو عَدَدٍ، فَاسْتَقْرَأَهُمْ، فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدِيهِمْ سِنًا فَقَالَ: مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ مَعِيَ كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ. قَالَ أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟ فَقَالَ نَعَمْ. قَالَ فَادْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مَعَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ إِلَّا خَشْيَةً أَلَّا أَقُومَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَءُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ

بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ وَكَيْ عَلَى مِسْكٍ." (الترمذي، أبواب فضائل القرآن)

وقد رواه ابن ماجة مختصراً.

وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "إن الشيطان ينفر من البيت تُقرأ فيه البقرة" (السنن الكبرى للنسائي، ١٠٧٩٩) وذكره ابن كثير في تفسيره نقلاً عن ابن مردويه.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَتَّى يُصْبِحَ: أَرْبَعًا مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَانِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثُ خَوَاتِيمِهَا، أَوَّلُهَا ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ (سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، سورة البقرة).

هذه الفضائل الذاتية لسور القرآن تشقّ في الظاهر على بعض المثقفين إذ لا يستسيغون وجود كل هذا التأثير في سورة ما، ولكنهم لو فكّروا أن كل سورة تحتوي على موضوع خاص لا بد أن يترك أثراً على قلب القارئ، لسهل عليهم فهم قضية فضائل السور.

وتعيين الرسول ﷺ ذلك الشاب أميراً على الجيش يحتوي على حكم عديدة، فأولاً: أنه ﷺ رغب الآخرين في حفظ القرآن وعدم نسيان ما حفظوه. كانت إمارة الجيش في ذلك الوقت لا تمثل كسباً مادياً وإنما كان الصحابة يسعون إلى اكتساب رضا أبيهم الروحي ﷺ بدافع حبهم الذي لا يعرف قدره إلا مَنْ عرف لذة مثل هذا الحب.

وثانياً: كانت العادة يومها أن يكون أمير الجيش أيضاً إمام الصلاة ومرجع الناس في المسائل الدينية، وتحتوي سورة البقرة على مسائل دينية أكثر من أي سورة سواها، حتى قال حضرة ابن العربي إني سمعتُ بعض أشياخي يقول: فيها ألفُ أمرٍ وألفُ نهي وألفُ حكم وألفُ خبر (تفسير القرطبي). لا شك أن هذا

القول ذو طابع صوفي، إلا أنه لا يمكن إنكار أن سورة البقرة لا تجاريها سورة أخرى من حيث تنوع المواضيع وكثرة الأحكام.

أما قوله ﷺ بأن الشيطان لا يدخل بيتاً تُقرأ فيه سورة البقرة، فإنما يعني أنه إذا تدبر الإنسان فيما تتضمنه هذه السورة من وسائل لدفع همزات الشيطان ووساوسه لعجز الشيطان عن دخول ذلك البيت.

وأما قوله ﷺ إن الشيطان لا يدخل البيت حتى الصباح، ففيه إشارة إلى أن التعليم، مهما كان عظيماً، لا يترك أثراً كاملاً ما لم يُتعهد مرة بعد أخرى، وأن التأثير الطيب مهما كان عظيماً، فإنه سرعان ما يزول ما لم يُجدد.

وأما قوله ﷺ إن من قرأ آيات سورة البقرة العشر هذه فرّ من بيته الشيطان، فالمراد به أيضاً أن هذه الآيات تتضمن لبّ الإسلام؛ آياتها الأربع الأولى ترسم الحياة العملية الطاهرة، وأما آية الكرسي والآيتان التاليتان لها والآيات الثلاث الأخيرة من سورة البقرة فتشتمل على دعوات تطهر القلب، وإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة: أعني الأعمال الصالحة بحسب كلام الله تعالى، والتفكير في صفاته تعالى، والارتقاء على العتبة الربانية بالدعاء والابتغال، تطهر قلب الإنسان وفرّ منه الشيطان.

ترتيب السور:

هذه السورة هي أول سورة من المفصلات، بدأ نزولها في السنة الرابعة عشرة للبعثة النبوية، ولم تزل تنزل لسنوات حتى اكتملت قبيل وفاة الرسول ﷺ.

لماذا حدث ذلك؟ لماذا لم يدوّن المصحف حسب نزول الوحي القرآني؟

لقد أجاب على هذا السؤال بعض أعداء الإسلام، بل بعض المسلمين، بقولهم أنه قد تم تدوين القرآن الكريم حسب طول السور وقصرها، دون مراعاة أي ترتيب معنوي.

وهذا الزعم باطل وبعيد عن الحقيقة تماماً، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: ترتيب السور في المصحف يبطل هذا الادعاء، فالسورة الأولى (الفاتحة) قصيرة تشتمل على سبع آيات فقط، والسورة الثانية (البقرة) طويلة جداً، وسورة النساء وهي الرابعة أطول من سورة آل عمران التي هي الثالثة، والسور التالية أيضاً تختلف من حيث الطول والقصر اختلافاً كبيراً. فالقول بأن السور مرتبة حسب طولها باطل.

ثانياً: جمع القرآن الكريم ليس من فعل البشر، بل ولا من فعل الرسول ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨)، فالله تعالى يعلن هنا أن جمع القرآن الكريم ونشره في العالم هما من اختصاصه هو، وسوف يتم كلا الأمرين بحكمه وتحت إشرافه ﷺ. فلا يمكن للمسلم أن يعتبر جمع القرآن وترتيبه من عمل إنسان.

أما غير المسلمين فلهم جوابنا الذي ذكرناه من قبل. ثالثاً: إن كل سورة من القرآن الكريم تشتمل على موضوع خاص يتصل بمواضيع السورتين السابقة واللاحقة لها. ولو كان ترتيب السور حسب طولها وقصرها فكيف وُجد هذا الربط والوصل بين مواضيعها يا ترى؟ ولسوف نثبت هذا الأمر لاحقاً إن شاء الله، وسيطَّلَع عليه القارئ عند قراءة ما سنبينه لدى تفسير كل سورة بشأن موضوع الربط والوصل بين مضامين شتى سور القرآن، بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان.

ولسائل أن يسأل: إذا كان ترتيب سور القرآن في المصحف من وحي الله تعالى، فلماذا لم ينزل القرآن بهذا الترتيب نفسه؟

وجواباً على ذلك نقول: من اللازم أن يكون ترتيب تدوين الكلام الحكيم مختلفاً عن ترتيب نزوله. فكلما بُعث نبي بشريعة جديدة تتضمن منهجاً كاملاً للناس فيما يتعلق بالعقائد والتكاليف، فلا بد أن يكون تدوين وحيه مختلفاً عن ترتيبه النزولي، ذلك لأن الأمور التي يجب بيانها للناس في بداية دعواه حين يجهلون دينه تماماً، لا حاجة لذكرها في بداية تدوين وحيه وقد عرفوا كلام الله

إلى حد ما. وبمقتضى هذه الحكمة كان ترتيب نزول سور القرآن مختلفا عن ترتيب تدوينها في المصحف.

والحق أن كيفية نزول الآيات أيضاً تؤكد أن سور القرآن مرتبة في المصحف بحسب موضوعها، فالثابت من الحديث أن الرسول ﷺ كلما نزلت عليه آية من القرآن أمر كُتَاب الوحي أن يضعوها في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا (أبو داود، كتاب الصلاة، والترمذي، وابن حنبل). فلو كان ترتيب النزول كافياً لوُضعت كل آية جديدة بجانب الآيات السابقة في التنزيل. خذوا مثلاً سورة البقرة، فإن آيات الربا منها هي من آخر ما نزل من وحي القرآن، ولكنها لم توضع في آخر هذه السورة. كذلك الحال لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فقد ورد في الحديث أنه نزل أيام حجة الوداع، ومع ذلك لم يوضع في آخر هذه السورة. فتبين أن الآيات لم تكن توضع في سور القرآن بحسب ترتيب نزولها وإنما بحسب مضامينها. وهكذا كان الحال في ترتيب السور، فهي مرتبة في المصحف بحسب مضامينها لا بحسب نزولها.

وجدير بالذكر أن أول ما نزل من الوحي القرآني هو قول الله تعالى في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٢-٦). وفي هذه الآيات أمرٌ بالبداية بالتبليغ ودعوة الناس إلى الله، حيث بين الله تعالى أنه قد أوجب على الإنسان التبليغ لأن له رباً خلقه وأودع قلبه الحب والتعلق، رباً زوّده بقوى الرقي والتقدم، رباً يحبّ لعبده الازدهار فضلاً منه وكرماً، ولذلك وهبه ملكة التعلم والكتابة، كي لا ينتفع بعمله وحده، بل يبلغه الآخرين وينفعهم به ويحفظه للأجيال القادمة. وفضلاً عن تزويد الإنسان بالمقدرة على التعلم والترقي فيه، وتوصيل المعارف للآخرين، وطريقة حفظها من الضياع، فإنه عز وجل قد أوجد الوسائل التي يترتب عليها الرقي العلمي في كل زمان، ويكتشف بها الإنسان كل جديد لم يكن معلوماً لدى آبائه.

في هذه الآيات وجه القرآن الكريم نظر النبي ﷺ إلى ضرورة الدعوة والتبليغ، وأخبر أن هناك خالقاً للسموات والأرض، وأن الإنسان في حاجة إلى الهداية، وأنه مزود بقوة تساعد على الاهتداء والازدهار، ومن أجل تنبيه هذه القوة وصقلها ينزل هذا الوحي السماوي. وكل هذه أمور لا بُدَّ من ذكرها عند التكليف بالنبوة؛ فإن الإنسان يخاطب نفسه قبل الآخرين، فإن لم يمتلئ قلبه حماساً وإخلاصاً وإحساساً بأهمية الأمر وضرورته، فلا يستطيع أن يوطن نفسه لأمر تتطلب منه التضحية براحته بل بحياته.

هذا هو الموضوع الذي تتضمنه هذه الآيات الأولى من الوحي القرآني، بل تناولته أيضاً السور التي نزلت في الفترة الأولى من الوحي. فمثلاً سورة المدثر تشير إلى هذا الموضوع نفسه حيث تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ٢-٤)، أي: يا من تدثرت بخلعة النبوة، قُمْ وَبَّهِ النَّاسَ وَكَبِّرْ رَبِّكَ. ثم هناك سورة المزمل، وهي من أوائل السور نزولاً، تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٢-٦)، أي: يا مَنْ تَزَمَّلْتَ برداء النبوة، قُمْ فِي اللَّيَالِي لِعِبَادَةِ اللَّهِ، واقضها في قراءة القرآن، لأننا سنحملك مسؤولية لا يسهل حملها.

يتبين من مضامين هذه السور الأوائل نزولاً أنها إلى جانب بيان صفات الله تعالى، والغاية من خلق الإنسان، وضرورة عبادة الله، وذكر انتشار الشرور والآثام في العالم، وغيرها من المواضيع، فإنها تحت النبي ﷺ على الدعوة إلى الله، وتحمس قلبه للقيام بذلك، وبعبارة أخرى لقد أعدت هذه الآيات الرسول ﷺ لمهمة عظيمة، مهمة النبوة. وواضح أنه من دون هذا الإعداد لم يكن النبي ﷺ ليدرك خطورة هذه المهمة التي سيعهد بها إليه، كما لم يكن ليؤديها حق الأداء. وإذا، كانت هناك في البداية ضرورة لمثل هذا الوحي. ثم بعد هذا كانت هناك حاجة لبيان صفات الله تعالى، وضرورة النبوة، ومواضيع التقوى والطهارة، وأهمية الدعاء، ومسائل القضاء والقدر والبعث بعد

الموت، إذ لم تكن هناك جماعة قد تكونت بعد، ولم يكن الدين قد اكتمل، فكان من الضروري أن تُذكر للناس بإيجاز أمورٌ أساسية هامة، كي يعرفوا هذه المبادئ التي تميز الإسلام عن الديانات الأخرى.

وعندما اكتمل نزول القرآن، وازداد عدد المسلمين، وعرف الذين كانوا يعيشون معهم بهذه الأمور، ووُجد جيل جديد من المسلمين الذين تعلموا هذه المبادئ الأساسية من آبائهم منذ الصغر، مسّت الحاجة إلى تدوين القرآن للقارئ بترتيب آخر يسد حاجات كل زمن إلى الأبد، ولم تكن عندئذ حاجة ليقال للرسول ﷺ أن يا محمد، إن قومك قد فسدوا، وعندهم ملكات عطّلوها ولا يستفيدون منها، فقمّ وبلّغهم كلام الله وادعهم إليه. الآن يجب أن يكون أول المخاطبين بالقرآن الكريم هم المؤمنون به، الذين تحقق في زمنهم انتصار الإسلام، ويجب أن تكون للقرآن بداية تبين لهم الغرض من نزوله، وما عليهم من مسؤوليات بوصفهم مسلمين. كما أنه لا بد أن يحاول غير المسلمين - الآن - النظر إلى القرآن نظراً فلسفياً متسائلين: ما الحاجة إلى دين الإسلام مع وجود ديانات أخرى؟ وما هي الغاية التي يحققها المسلم ولم يحققها أبناء الديانات الأخرى؟ كما سيقارنون تعليم الإسلام بتعاليم الكتب السابقة مقارنة تفصيلية، ويبحثون فيما إذا كان الإسلام ونبيه ﷺ مصداقاً للنبوءات التي جاء بها الأنبياء السابقون عن خاتم النبيين.

وخلاصة القول إنه بعد اكتمال نزول الوحي القرآني اختلف الأسلوب الذي يتوجه به المؤمنون وغير المؤمنين إلى القرآن الكريم. والكتاب الكامل لا يبقى على كماله إلا إذا راعى هذه الحالات المتغيرة. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي سد هذه الحاجة، وراعى هذه الحكمة التي لم تراعى التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما من الكتب السابقة، فقد نزل بترتيب يتفق مع حالة المخاطبين الأولين، ثم بعد انتشار الدين دُوّن بترتيب آخر مراعاةً لحاجات الناس في ذلك الوقت وما بعده، حتى يكون لمواضيعه وقعٌ أكبر بحسب الأحوال

المتغيرة. فالفرق الموجود بين الترتيب القرآني من حيث النزول، وترتيبه من حيث التدوين، ليس محل اعتراض، وإنما هو علامة امتياز وفضيلة. أما سورة البقرة فيتبين عند دراستها أنها تردّ على كل الأسئلة الطبيعية التي تثيرها الفطرة الإنسانية من وجهة النظر الفلسفية إزاء الدين الكامل، وتدل مضامينها على أنها لم تنزل إلا لتوضع في بداية القرآن، بل إنها، كما سنبين، ترتبط بسورة الفاتحة ارتباطاً خاصاً وتُتَمِّمُ مضامينها، مما يدل مرة أخرى أنها لم توضع في بداية القرآن لطولها، وإنما بسبب ارتباطها العميق بمضامين سورة الفاتحة.

هناك لطيفة أدبية جديرة بالذكر بصدد سورة البقرة. كان لبيد بن ربيعة العامري من فحول الشعراء الجاهليين إذ كان من أصحاب المعلقات الشهيرة التي هي في قمة الشعر العربي. لقد أسلم في آخر أيامه، وقد تأثر بفصاحة سورة البقرة وبلاغتها حتى هجر قرض الشعر، وذات مرة سأله سيدنا عمر رضي الله عنه أن ينشده شيئاً من شعره الجديد، فأخذ لبيد يتلو سورة البقرة، فقال له عمر: سألتك أن تنشدي بعض شعرك الجديد؟ فأجاب لبيد: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علّمني الله البقرة وآل عمران. فسُرَّ عمر من جوابه وزاد في عطائه خمسمئة، وكان ألفين. (أسد الغابة)

قد تبدو هذه الواقعة عادية، ولكنها ليست عادية إذا ما وضعنا في الاعتبار مكانة لبيد بين شعراء العرب وقتئذ. كان لبيد يتبوأ مكانة مرموقة في الأوساط الأدبية العربية في زمن أوج الأدب العربي، ويُعتبر كلام شعراء ذلك العصر أجمل الشعر العربي حتى اليوم. هذا الشاعر المجيد الذي كان يُعَدُّ مَلِكَ البلاغة والشعر ينبهر من بلاغة سورة البقرة حتى يمتنع تماماً عن قرض الشعر الذي كان غذاء روحه وسبب عزّه، وبوّأه مكان الصدارة في مجالس الزعماء العرب، وعندما طُلب منه إنشاد بعض شعره الجديد قال في حيرة: هل بقي هناك مجال للشعر بعد سورة البقرة؟ وهذا يدفعنا للاعتراف بأن هذا التأثير لا يمكن أن يكون إلا من كلام معجز.

خلاصة سورة البقرة

قبل أن أشرع في تفسير هذه السورة آية آية، أرى من المناسب أن أجمال هنا مضامينها، وهذا سوف ييسر على القارئ إدراك سبب وضع هذه السورة في مقدمة القرآن الكريم رغم تأخرها نزولاً، كما يسهل عليه إدراك ترتيب مضامينها بصورة موجزة، وهذا بدوره سوف يساعده على فهم معارفها.

لقد ذكرتُ لدى تفسير الفاتحة أن ملاكاً علّمني تفسيرها في الرؤيا. أما تفسير سورة البقرة فلم أتلّفه بهذه الطريقة، غير أنه مما لا شك فيه أن الله علّمني تفسيرها بالإلقاء في قلبي. وكل من تدبّر أدرك أن الأمر التالي الذي علّمته في هذا الصدد يجعل هذه السورة كلها بحثاً مرتّباً محكّماً، وبالتالي فلا بد له من التسليم بأن هذا كان تفهيماً ربانياً خاصاً.

وبيان ذلك أنه قبل حوالي سبع وعشرين سنة كنت أعلم بعض أصدقائي القرآن الكريم، وكان الدرس في سورة البقرة، وعندما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٠)، أُلقي في روعي فجأة أن هذه الآية هي مفتاح مضامين سورة البقرة، وأن مواضيع هذه الآية هي مواضيع السورة، وقد ذكرتُ بالترتيب نفسه. وعندما درستُ سورة البقرة على ضوئها لم يكن لدهشتي وسعادي وامتثالي لله تعالى حدود، إذ وجدتُ مضامين سورة البقرة مطابقة تماماً لمضامين هذه الآية. ليس هذا فحسب، بل رسخت هذه المضامين في ذهني رغم كثرتها حتى وجدتُ أنها منظومة كعقد من اللآلئ.

التدبر في هذه الآية يكشف لك أنها تذكر دعاءً لسيدنا إبراهيم عليه السلام دعا به الله تعالى ليعث نبياً في مكة. يقول الدعاء: ابْعَثْ يَا رَبُّ فِي هَذَا الْبَلَدِ، وَيَبْنِ هَذَا الْقَوْمِ، نبياً يقوم بالمهام التالية:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ...﴾، أي يأتي بآيات ودلائل من الله تعالى تصحح الإيمان واليقين وتقوّمهما، وتنشئ علاقة بالله تعالى، وتكون معالم ومنازل على الطريق المؤدي إلى الله تعالى.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ...﴾، أي يقدم للناس كتاباً شاملاً كاملاً.

﴿وَالْحِكْمَةَ...﴾، أي يأتي بشريعة مصحوبة ببيان حكمة أحكامها والغرض من الدين والأمر المتعلقة به والتي عليها مدار رقيه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ...﴾، أي يختار وسائل تهدف إلى ازدهار الأمة وطهارتها.

وعندما درست سورة البقرة على ضوء هذه المواضيع وجدت مواضيعها تتطابق تماماً مع مواضيع الآية لفظاً لفظاً، بل وجدتها مرتبة بنفس الترتيب المذكور في الآية. كما وجدت في كل عنصر من هذه العناصر الأربعة إشارات إلى كلمات هذه الآية. بمعنى أن سورة البقرة تحدث أولاً عن الآيات والدلائل، مشيرة إلى كلمة ﴿آيَاتِهِ﴾ الواردة في هذه الآية، ثم تناولت موضوع الشريعة وحكمتها، مشيرة إلى لفظي الكتاب والحكمة الواردين في هذه الآية، ثم تناولت موضوع التزكية. فقد ورد موضوع "تلاوة الآيات" حتى قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٨). ثم ذكر موضوع "تعليم الكتاب وحكمة الشريعة" حتى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٣). ثم بدأ موضوع "التزكية" واستمر إلى آخر السورة. ومن يدرس سورة البقرة من هذا المنظور يدرك بشكل مدهش سعة معارفها وشمول معانيها وما في ترتيبها من حسن وتأثير.

خلاصة الركوع الأول

في سورة الفاتحة عُلِّمنا دعاء لطلب الهداية، وفي الآيات الأولى من سورة البقرة قد أُشيرَ إلى هذا الدعاء وقيل: إن الهداية التي طلبتموها في الفاتحة، أي هداية المنعم عليهم السابقين، هي هذا الكتاب، القرآن الكريم، فبنزول هذا الكتاب قد لَبَّى الله نداء الفطرة الذي كان يهزّ عرش الرحمن، والذي ارتفع من قلوب الناس عند اندراس هداية الكتب السابقة.

ثم يبين عز وجل أن القرآن الكريم لا يقدّم للعالم منهجاً للهداية فحسب، بل منهجاً كاملاً شاملاً لكل الحقائق الموجودة في الأديان السابقة، ولذلك فهو لا يبني دعواه على الطعن والتشكيك في تلك الديانات. وأن هذا الكتاب لا يقتصر على إصلاح أخلاق الإنسان وتصحيح سلوكه فحسب، بل يسمو به إلى مقام توطيد علاقة حب خالص مع ربه تعالى. وأن هذا الكتاب يذكر أموراً اعتقادية يجب أن يؤمن بها المؤمنون، كما يبين لهم طرق العبادة التي ينبغي لهم السير فيها، ويوضح لهم حقوق بني جنسهم التي لا بد لهم من أدائها. كما يذكر لهم هذا الكتاب أحوال مؤسسي الديانات السماوية السابقة، ويتناول كل الحقائق المتعلقة بالماضي والمستقبل التي يجب عليهم الإيمان بها كلها. وينبغي ألا يكون هذا الإيمان شكلياً، بل لا بد لهم من تقديم التضحيات في سبيله، لأن الناس سوف يعارضونهم، إلا أنهم يفتشون في النهاية.

١) بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وأندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. والركوع الأول من سورة البقرة يحتوي على الآيات من ١ إلى ٨. (المترجم)

خلاصة الركوع الثاني^١

وسيكون هناك أناس منافقون يتظاهرون بالإيمان وقلوبهم فارغة منه. وسيكون هناك طائفة أخرى مؤمنة، ولكنهم لجبنهم الشديد لن يترددوا في إقامة علاقات سرية مع أعداء الإسلام، إلا أن عداوة هؤلاء ومؤامرات أولئك، لن تضر الإسلام شيئاً.

خلاصة الركوع الثالث^٢

فعلى كل من يؤمن بالله تعالى أن يدخل في هذا الدين ويعبد الله وحده، وينال مقام التقوى، ويصل بمعونة القرآن الكريم إلى ربه، فهذا هو الغرض من خلق العالم. وإذا قال قائل كيف نقبل دعوى القرآن هذه؟ فقل لهم: لا بد وأنكم تتبعون ديناً من الأديان، فقيسوا القرآن بتعاليم دينكم، فإن لم تجدوا تعاليمه أسمى مما عندكم فارفضوه، وإلا فلا مناص لكم، بناءً على مبادئ دينكم، من التسليم بأن هذا الكتاب سماويّ ويتضمن تعليماً أسمى مما في الكتب السابقة. كما يمكن لكم أن تتباروا مع أتباع القرآن في مجال الإتيان بالآيات السماوية، لتعرفوا من الذي يحظى بتأييد الله تعالى. فإن أبيت إلا الرفض دون تفكير فلا مفر لكم من العذاب. وأي شك في أن الذين يؤمنون بهذا التعليم سينالون النعم الإلهية باستمرار، لكي لا يظن أحد أن هذه النعم جاءهم صدفة وليست ثواباً من الله تعالى؟ ومع أننا قد أشرنا إلى هذه النعم بإيجاز، إلا أن عظمة هذه البشارات سوف تتضح في حينها، فيزداد الكافرون كفرًا والمؤمنون إيماناً ويقيناً. وحرمان الكافرين من الإيمان نتيجة طبيعية، فالعين المريضة لا تستطيع رؤية النور.

^١ الآيات من ٩ إلى ٢١. (المترجم)

^٢ الآيات من ٢٢ إلى ٣٠. (المترجم)

كيف لا تستطيعون رؤية صدق القرآن، وهو ليس بدعاً من الكلام الإلهي؟ فقد جاءت الهداية السماوية في الماضي إلى أقوام كانوا موتى روحانيًا، فُبعثوا بها من جديد. فما المبرر لانقطاع سلسلة الهداية هذه؟ لقد جاءكم الحق من الله تعالى طبقاً لهذه السُّنة الإلهية المستمرة، وليأتين في المستقبل كذلك. فما الذي يمنعكم من قياس صدق القرآن بالمقاييس التي عُرف بها صدق الكتب السابقة؟

ثم يقول ﷺ: لِمَ لا ينظر هؤلاء إلى نظام الكون الدالّ على سُنّة التطور الذي تتجلى فيه يد القدرة الإلهية؟ ولماذا يختلقون الأعذار الواهية لكي يرفضوا الحلقة الأخيرة من سلسلة التطور، مع أن هذه الحلقة الأخيرة هي الهدف النهائي لنظام التطور، ويتركها يبقى ناقصاً؟

خلاصة الركوع الرابع^١

ثم يذكر الله تعالى الحلقة الأولى من هذه السلسلة، سيدنا آدم، أول مَنْ تلقى الوحي، فقال: إنكم تؤمنون بآدم، فما الدليل على صدقه عندكم؟ إن بوسعكم معرفة صدق محمد ﷺ بالمعيار الذي عرف به معاصرو آدم صدقه. لقد أثّرت الاعتراضات على شخصه، ولم تكن من أشخاص عاديين، بل من أناس هم كالملائكة، ولكن هل نال هذا من صدقه؟ كلا، بل إن الله تعالى أيد آدم حتى لم يبقَ على ملائكتِهِ إلا من أطاعوا آدم ووضَعوا أيديهم في يده، وخرّوا بين يديه في تواضع. أما الباقون فقد تحولوا إلى شياطين.

خلاصة الركوعات من ٥ إلى ١٤^٢

ولا يظن أحد أن كلام الله قد نزل على آدم عليه السلام فلا حاجة إلى نزول كلام آخر بعده. فمن المعلوم أن الله تعالى لم يزل ينزل وحيه بعد آدم حسب حاجة

^١ الآيات من ٣١ إلى ٤٠. (المترجم)

^٢ الآيات من ٤١ إلى ١٢٢. (المترجم)

البشر، إلى أن نزل كلام الله تعالى على موسى عليه السلام الذي زمنه ليس ببعيد عنكم؛ فقد بُعث لإصلاح قومه نبي بعد نبي، ولكن قومه ما انفكوا يعصون مرة بعد مرة. ففضى الله تعالى بتحويل مركز الوحي من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل فبعث فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم بشريعة نهائية. والآن بدأ بنو إسرائيل يعادونه حسدا من عند أنفسهم، وسيكون مصير هذه العداوة مثل مصير عداوة الأمم الغابرة لأنبيائهم.

خلاصة الركوع الخامس عشر^١

ثم يجب على بني إسرائيل أن يعرفوا أن أفضال الله التي نزلت عليهم كانت بسبب وعود قطعها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، ولم تكن هذه الوعود خاصة ببني إسحاق وحدهم، وإنما تشمل بني إسماعيل أيضًا. لذلك كان من الضروري أنه إذا قصر بنو إسحاق في أداء واجباتهم أن يتم الوفاء لبني إسماعيل بوعودهم. وتحقيقا لهذه الوعود أبقى الله تعالى إسماعيل عليه السلام في واد غير ذي زرع، أي مكة المكرمة. وأخيرا حان أن ينال بنو إسماعيل ثمرة هذه التضحية. فبعث الله الآن فيهم نبيا، ومن مهامه أن يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

خلاصة الركوع السادس عشر^٢

ولا حقَّ لبني إسرائيل أن يمتعضوا من ذلك، بل عليهم أن يتذكروا أن آباءهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام قد نصحوهم بأن العز الحقيقي هو في الطاعة الكاملة. فعليهم أن ينالوا نِعَمَ الله تعالى عن طريق طاعته، ولا يثيروا غضبه بالعصيان.

^١ الآيات من ١٢٣ إلى ١٣٠. (المترجم)

^٢ الآيات من ١٣١ إلى ١٤٢. (المترجم)

خلاصة الركوعين ١٧ و ١٨

يعترض بنو إسرائيل على محمد رسول الله ﷺ بأنه ترك قبلة الأنبياء السابقين، ولكنهم ينسون أن القبلة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي عامل على الوحدة. ثم عليهم أن يتذكروا أن دعاء إبراهيم في حق بني إسماعيل يتضمن نبأ بأن الكعبة المشرفة ستكون قبلة للناس، وأن مكة المكرمة ستكون مركز الحج. فإذا كان محمد ﷺ هو الذي تحقق فيه هذا النبأ، فكان لزاما عليه أن يعلن أن الكعبة قبلة الناس وإلا استحال على قومه نيل نصيبهم من البركات التي صارت منوطة بهذه القبلة نتيجة دعاء إبراهيم. لذلك أمره الله تعالى بتطهير الكعبة تطهيرا ظاهريا وباطنيا. والتطهير الظاهري يتم بفتحها وتحريرها وإزالة مظاهر الشرك منها، أما التطهير الباطني فيتم بتخليصها من أفكار الشرك والكفر، وجعلها قبلة للعالم كله.

خلاصة الركوع التاسع عشر^٢

ثم يقول إن هذه المهمة مخوفة بالصعاب، وأن الكفار سيسعون لمنع المسلمين من ذلك بجد السيف. فلا تخافوهم، بل امضوا قدما مستعينين بالدعاء والسعي الحثيث، وتذكروا أن مَنْ يُقْتَل في سبيل الله يُفْز بالحياة الأبدية، وأن فوز المسلمين محتم، ولا بد أن تُفتح مكة ليجد المسلمون الفرصة لتطهيرها ظاهرا وباطنا.

خلاصة الركوع العشرين^٣

في هذا الركوع استخدم القرآن كلمة (آيات) خاصة للإشارة إلى دعاء إبراهيم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ ويبيّن أن الأمور التي ذكرها آنفا ليست ادعاء فارغا، بل إن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وسائر الظواهر الكونية تصدق

^١ الآيات من ١٤٣ إلى ١٥٣. (المترجم)

^٢ الآيات من ١٥٤ إلى ١٦٤. (المترجم)

^٣ الآيات من ١٦٥ إلى ١٦٨. (المترجم)

ذلك. فأولاً: النواميس الطبيعية تدلّ على وجود القوانين الروحانية وارتقائها، وثانياً: سوف ترون بأنفسكم أن السماء والأرض والليل والنهار والسحاب والرياح ووسائل النقل في البر والبحر لا تنفك تعمل في تأييد محمد رسول الله ﷺ ونصرته، لتعرفوا أن هذا الشخص محبوب عند الله تعالى، وهذا هو السبب في أن الكون كله يعمل لنصرته، وإلا فإن الذي يتدع من عنده سبيلاً غير سبيل الله تعالى يُذل ويُهان.

ولقد انتهى إلى هذا الركوع معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.

خلاصة الركوع الحادي والعشرين^١

بدأ من هذا الركوع العنصر الثاني من دعاء إبراهيم، أي بيان الشريعة وحكمها. فبدأ بأن أمر بأكل الحلال والطيب، لأن أعمال الإنسان تابعة لحالته الذهنية، وهذه تتأثر بالغذاء الذي يتناوله الإنسان. والحلال ما رخصت به الشريعة، والطيب ما أجازته مبادئ الصحة والعرف والذوق السليم. ثم بين أربعة أصول تتعلق بالأطعمة المحرمة، فقال: لا تأكلوا من الأغذية ما هو ميت، أي الذي بدأ يطلق رائحة كريهة لفساده، أو ما هو كالدّم وما شابهه، أي ما يشتمل على السموم، أو ما هو كلحم الخنزير، لأنه حيوان سيئ الطباع. ومن أكل لحمه أخذ من سوء طبعه، أو لا تأكلوا ما يُفقد الإنسان الغيرة لله تعالى، كالأطعمة التي توزّع في مناسبات الشرك وغيرها.

خلاصة الركوع الثاني والعشرين^٢

يبين هذا الركوع خلاصة التعاليم الإسلامية، وهي أنه لا بد للمرء من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والنبين، كي لا يقع في إنكار حقيقة من الحقائق. كما لا بد له من الإحسان إلى العباد، وعبادة الله، والإنفاق

^١ الآيات من ١٦٩ إلى ١٧٧. (المترجم)

^٢ الآيات من ١٧٨ إلى ١٨٣. (المترجم)

في سبيل مصالح الأمة، وحسن الخلق، والصبر والوفاء بالعهد، وإقامة العدل، ومساعدة الأقارب بطريق مشروع، ووضع القوانين للتمدن الاجتماعي التي من أهمها قانون الميراث.

خلاصة الركوع الثالث والعشرين^١

لا بد من تهذيب الأخلاق، ولهذا فرض الإسلام الصوم. فالصوم يحسّن الأخلاق، ويساعد على الدعاء ويزيده تأثيراً.

خلاصة الركوعين ٢٤ و ٢٥^٢

يتناول هذا الركوع قواعد الحج الذي هو ذريعة لوحدة الأمة، ويبين أن من يعيث الفساد في الطرق المؤدية إلى هذا البلد الآمن فالحرب ضده ليست فساداً، بل هي وسيلة لاستتباب الأمن، فعلى المسلمين ألا يحجموا عن محاربة هؤلاء. كما يبين أنه لا يمكن أن يتمسك العالم كله بجبل واحد إلا إذا كان لهم مركز واحد، ومن ثم فلا تحسبوا حُكم الحج هيئاً.

خلاصة الركوع السادس والعشرين^٣

يبيّن هذا الركوع الحِكم وراء هذه الأحكام الإلهية. فعليكم ألا تعتبروا الشريعة عبثاً، فالظاهر يساعد على إصلاح الباطن. والسبب الحقيقي في مخالفة الشريعة هو حب الدنيا، لأن الإنسان لا يريد أن يبذل أوقاته وأمواله في سبيل الله، ويختلق المعاذير فراراً من حمل هذا العبء، وهذا التهرب هو سبب الخلافات في العالم، فيشوّه الناس تعاليم الأنبياء ويدّلّونها إلى ما يخالفها تماماً، مع أن الروحانية لا يمكن أن تتم من دون بذلٍ وتضحية.

^١ الآيات من ١٨٤ إلى ١٨٩. (المترجم)

^٢ الآيات من ١٩٠ إلى ٢١١. (المترجم)

^٣ الآيات من ٢١٢ إلى ٢١٧. (المترجم)

ثم ذكر الصدقات وعدّد مصارفها، وبَيَّن أن أعظم مصرف لها أن تنفق في الجهاد في سبيل الله ضد من يعتدون على الآخرين بسبب عقيدتهم ويسلبونهم حرية الاعتقاد.

خلاصة الركوع السابع والعشرين^١

وإذا كان الوضع هكذا فلا مناص من القتال والتضحية بالمال والنفس، حتى وإن هاجمكم أعداء الحق في أشهر الحج التي يحرم فيها القتال عادةً، فلكم الحق في قتالهم. ويميل الناس في أوقات الحرب عادة إلى ممارسة القمار وشرب الخمر طلباً لِلَّهِ وجمعاً للمال اللازم للحرب، فقال الله تعالى: إِنَّ حرب المسلمين حرب دينية مقدسة، وإن سكينة قلوبهم لتكمن في رضا الله تعالى، لذلك ينبغي عليهم تجنب هذه المساوئ.

ثم بيّن أنه لا حد للتضحية المالية. فعلى الإنسان أن يضحي بأكثر ما يستطيع دون إضرار بحقوق الآخرين عليه.

ثم ذكر أن اليتامى يكثرّون بسبب الحروب، فعاملوهم خير معاملة. واحذروا من الزواج بالمشرّكين والمشرّكات، لأن هذا يُخلُّ بالنظام الإسلامي.

خلاصة الركوعات ٢٨ إلى ٣١^٢

ثم بيّن الأحكام الخاصة بالنساء. فنهى عن مباشرتهن في الحيض، وأمر بحسن معاشرتهم. وقال إذا اضطررتم لهجرهن فلا يطولن الهجر أكثر من أربعة أشهر. أما إذا لم تستطيعوا الاستمرار في العيش معهن فطلّقوهن. بعد ذلك بيّن أحكام الطلاق والرضاع وأحكام الأرامل. وبذلك ينتهي موضوع تعليم الكتاب والحكمة.

^١ الآيات من ٢١٨ إلى ٢٢٢. (المترجم)

^٢ الآيات من ٢٢٣ إلى ٢٤٣. (المترجم)

خلاصة الركوعين ٣٢ و ٣٣^١

يبدأ هنا موضوع التزكية ومبادئها. فبيّن أن الرقي على مستوى الأمة محال من دون تضحية. فتذكروا دائما أن الحياة لا تُكتب إلا لقوم مستعدين لاستقبال الموت. وبهذه الطريقة يُحيي الله الموتى، بمعنى أنه تعالى يصدر أوامر بحسبها القوم موتا لهم، ولكنهم إذا عملوا بها كتبت لهم الحياة.

خلاصة الركوع الرابع والثلاثين^٢

ذكر الله فيه أن الحياة الدنيا تنتهي على حين غرة، ولذلك يجب أن تسارعوا إلى فعل الخيرات وإنشاء علاقة بالله ﷻ قبل فوات الأوان. ثم هناك بيان موجز وجامع لذات الله وصفاته، وهو ما يُسمّى آية الكرسي التي سماها الرسول ﷺ سيدة آي القرآن (الترمذي، أبواب فضائل القرآن). ثم بيّن أن الإنسان لا يحتاج إلى جبر وإكراه لإنشاء علاقة مع هذا الربّ المتصف بتلك الصفات الحسنى، لأن حُسْنَهُ خلاب للقلوب. ومثل هذه الصلة بالله القائمة على المحبة هي التي تنفع الإنسان؛ فإياكم واللجوء إلى الإكراه في أمور الدين، لأن غرض الدين هو التزكية، وتزكية القلوب لا تتم بالإكراه. وإن الدين يُنعم الله عليهم بالقرب والولاية يزيل عن قلوبهم الظلمات بالدلائل والبراهين، ولا يرضى من أحد بظاهر من القول.

خلاصة الركوع الخامس والثلاثين^٣

والتزكية التي تُمنح من الله تعالى على نوعين، الأولى: التي يهبها الله للأفراد مباشرة، كتزكيته تعالى للأنبياء، والثانية: التزكية القومية التي توهب للأمم عن

^١ الآيات من ٢٤٤ إلى ٢٥٤. (المترجم)

^٢ الآيات من ٢٥٥ إلى ٢٥٨. (المترجم)

^٣ الآيات من ٢٥٩ إلى ٢٦١. (المترجم)

طريق الأنبياء. ثم بيّن الله تعالى أنّه قدّر أن يمنح هذه التزكية بنوعيتها لذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام في أربعة عصور بوجه خاص.

خلاصة الركوع السادس والثلاثين^١

ثم بين أن الحصول على التزكية القومية يقتضي سعيًا وتعاونًا جماعيًا. وقد يعترض معترض بأن التعاون الجماعي هو سبب ازدهار أي قوم سواء كانوا مؤمنين بالله أو غير مؤمنين. فالجواب أن غير المؤمنين بالله تعالى إذا تعاونوا على فعل شيء كانت نتائج أعمالهم بقدر جهودهم، أما الذين يتعاونون لوجه الله تعالى فتكون نتائج أعمالهم أعظم كثيرًا من تضحياتهم. ومن علاماتهم أنهم (أولًا) يقدمون تضحياتهم لإقامة أحكام الله تعالى وتوطيد شريعته، و(ثانيًا) يذلون تضحياتهم ابتغاء مرضاة الله، ولا يمتنون على عباده شيئًا.

خلاصة الركوع السابع والثلاثين^٢

والذين يضحّون لوجه الله تعالى لا تضيع أعمالهم، وتطمئن قلوبهم بها، وتتطهر أعمالهم. ثم بيّن الله تعالى أن الإحسان إلى أي أحد أمرٌ محمود، ولكن إذا كان الإحسان إلى الذين يشتغلون في إصلاح الخلق فهذا أدعى لجزيل الثواب، مع ملاحظة أنه لن يفيد من الإحسان إلا ما كان من المال الحلال.

خلاصة الركوع الثامن والثلاثين^٣

ثم بيّن الله تعالى أن التعامل بالربا يتعارض مع الإحسان وروح التعاون الجماعي، ويجب على المؤمن تجنبه. إن الأمم التي تتعامل بالربا جريئة على شن

^١ الآيات من ٢٦٢ إلى ٢٦٧. (المترجم)

^٢ الآيات من ٢٦٨ إلى ٢٧٤. (المترجم)

^٣ الآيات من ٢٧٥ إلى ٢٨٢. (المترجم)

الحروب، ولا تحفل بأمن الشعوب، فلا تظنوا أنّ الرقي محال من دون التعامل بالربا. إن الله تعالى سيهيئ من الأسباب ما سيدمر الأمم التي تتعامل به.

خلاصة الركوع التاسع والثلاثين^١

والإقراض أحد طرق الإحسان والتعاون الجماعي. وإذا كان الإنسان غير قادر على أن يهب ماله لأخيه المحتاج، فبوسعه أن يساعده بإقراضه إياه، ويجب عليه ألا يتردد في إسداء هذا المعروف. ولما كان القرض سيُردُّ بعد فترة، لذلك تجب كتابته أمام شهود؛ لتجنب الخصام وما يترتب عليه من فساد. وإذا لم يكن هناك كاتب فيمكن الإقراض نظير رهنٍ شهادةً على الدين.

خلاصة الركوع الأربعين^٢

ولكن أفضل وسائل الطهارة هي (أولا) أخذ صفات الله تعالى في الاعتبار، و(ثانيا) الإيمان بكلام الله تعالى والتفكير فيه، و(ثالثا) الدعاء من قِبَل الأنبياء والصلحاء ومن يتعلق بهم.

هذه خلاصة سورة البقرة. وفيها أقيمت الحجة مباشرة على اليهود والنصارى وقريش، حيث قيل لهم: كان هناك دعاء لإبراهيم قَبْلَهُ الله تعالى، وكان تحقيقه منتظرا، وها هو محمد رسول الله ﷺ تحقيق مجسد له، فإذا كذبتموه كذبتهم إبراهيم لا محالة، وتكذيبه يعني تكذيب السلسلتين من النبوة الموسوية والمسيحية معا.

كما أثبت الله تعالى بذلك صدق الإسلام للعالم كله إثباتاً غير مباشر، إذ من المحال أن يكون خلق الإنسان بلا هدف.

^١ الآيات من ٢٨٣ إلى ٢٨٤. (المترجم)

^٢ الآيات من ٢٨٥ إلى ٢٨٧. (المترجم)

وإذا كان هناك كلام يحقق هذا الهدف فهو كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، لأنه هو الذي يزود بالقضايا الهامة من معرفة الله، والتشريع الصحيح وحكمته، وتركيزه القلب.

إذا قرأ أحد سورة البقرة على ضوء هذه الملاحظات فإنه يجد في ذلك لذة جديدة وينفتح له باب واسع على معانيها إن شاء الله تعالى.

علاقة سورة البقرة بسورة الفاتحة

لسورة الفاتحة ارتباط بكل سور القرآن الكريم، لأنها خلاصة له، غير أن ورود سورة البقرة بعد الفاتحة مباشرة في ترتيب المصحف يدل على أنها أشد صلةً بالفاتحة من غيرها.

وأول صلة لها بالفاتحة هي أن الفاتحة خلاصة القرآن كله، كذلك سورة البقرة هي خلاصة القرآن أيضاً، لأنها تتضمن الدلائل والبراهين والشرعية وحكمتها وأساليب التزكية والطهارة. وهذه العناصر هي الهدف من مجيء مبعوث أخير وُعد به في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وعلاقتها الثانية بالفاتحة أن هذه تعلّمنا دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، وسورة البقرة تعلن في بدايتها: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٣)، بمعنى أن هذه السورة تحقق الهدف من السير في الصراط المستقيم، وبالتالي هي علامة واضحة لقبول دعاء الفاتحة.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (البقرة: ١)

﴿الْم﴾ (البقرة: ٢)

التفسير:

﴿الم﴾: تسمى هذه الحروف مقطّعات لتقطّعها في النطق، ويتراوح عدد الحروف في المقطع الواحد الوارد في مستهلّ بعض السور بين حرف وخمسة حروف. ومن ناحية النطق هي أربعة عشر حرفاً: ا، ل، م، ص، ر، ك، ه، ي، ع، ط، س، ح، ق، ن، والأخيران منها (ق، ن) وردا في بداية سورتين بشكل منفرد، والبقية منها وردت مثنى مثنى أو أكثر.

وقد اختلف المفسرون في معاني هذه الحروف، فقال بعضهم: إنها أسرار لله، وليس لنا أن نبحث عن حقيقتها. وقال البعض: إنها للتحدي بأن القرآن رغم أنه مؤلّف من هذه الحروف فهو كلام معجز، ولو كان القرآن كلام البشر فلم لم يستطع العرب أن يؤلفوا مثله من هذه الحروف؟ وقال بعضهم: إنها أسماء السور. كما قيل إنها القسم الذي أقسم به الله على موضوع السورة. (فتح البيان)

لكن هذه المعاني عادية بحيث لا تصلح لأن تكون دافعا لوضع المقطعات في بداية السور.

وفسرها بعضهم بأنها ملخص لكلام ذي مغزى ومعنى: ففي (الم) الألف يدل على الله، واللام على جبريل، والميم على محمد ﷺ، أي هذا الكلام أنزله الله على محمد بواسطة جبريل. (فتح البيان)

هذا المعنى ينطبق على ﴿الم﴾، ولكنه لا يصدق على جميع المقطعات. وقال البعض إنها تدل على صفات الله التي تبيّنها السورة بعدها، وهي الحروف الأولى أو الأهم من هذه الصفات الإلهية المشروحة في السورة. وهذا

المعنى الأخير أصح وأجدر بعظمة القرآن وأكثر اتفاقاً مع ما يشهد به القرآن نفسه بهذا الشأن.

وقال البعض: إن هذه الحروف تشير إلى مواعيد المواضيع المذكورة في هذه السور، بمعنى أن القيمة العددية لهذه المقطعات تشير إلى آجال الحوادث التي وردت الأنباء بحدوثها في السورة، أو أن السورة تخص بالذكر أحوال تلك الأيام.

هذا المعنى أقرب إلى الصحة أيضاً، وعلى الأقل فإن سكوت رسول الله ﷺ عليه يصدق كما سأذكره.

وقد زعم بعض المستشرقين أنها تدل على أسماء الكتبة الذين ألفوا هذه السورة بأمر محمد ﷺ (ترجمة سيل sale نقلاً عن غويليس). فالألف عندهم يدل على أبي بكر، والعين تدل على علي أو عمر، والسين يدل على سعد، والطاء على طلحة، والهاء تشير إلى أبي هريرة ؓ.

وهذا مما يشهد على جهل المستشرقين، ولكن بالرغم من هذا الجهل فإن كلاً منهم يعد نفسه نابغة عصره في مسائل الإسلام. والأغرب من ذلك أنهم أرادوا بالهاء أبا هريرة مع أنه أسلم قبل وفاة رسول الله ﷺ بثلاث سنوات فقط (أسد الغابة)، بينما سورتا "مريم"، و"طه" المبتدئتان بالهاء مكيتان، وقد نزلتا قبل إسلام أبي هريرة بقرابة خمس عشرة سنة. إضافة إلى ذلك أن الثابت من حديث الرسول ﷺ أن هذه الحروف من وحي الله.

ومما يجب أخذه في الاعتبار أن هذه السور لو كانت من تأليف الصحابة ؓ لكان ذلك يعني أن رسول الله ﷺ قد أشهد بنفسه هؤلاء الأشخاص على كذبه -نعوذ بالله من ذلك. فما دام قد استطاع أن يؤلف سائر القرآن من عنده -والعياذ بالله- فما هو هدفه من تكليف الصحابة بتأليف هذه السور، حتى جعلهم شاهدين على افترائه، وإذا افترضنا أنه فعل ذلك فلم أقام الحجة على نفسه بوضع أسماء هؤلاء الكتاب في مستهل السور؟! الأمر الذي لا يفعله أغبي الأغبياء.

ومما يشهد أن رسول الله ﷺ قد اعتبر هذه الحروف وحيا قرآنيا ما رواه البخاري في تاريخه ونقله الترمذي والحاكم أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (الترمذي: أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في من قرأ حرفاً من القرآن). وقد نقل هذه الرواية البزار وابن شعبة عن عوف بن مالك الأشجعي.

علماً أن المراد من الحرف هنا الكلمة، لأن الحرف قبل تدوين قواعد النحو في العهد الإسلامي كان يستعمل للكلمة أيضاً، ولكن بعد التدوين اختص استعماله بحروف الهجاء أو بالألفاظ التي ليس لها معنى مستقل. فكيف يمكن الظن بأن هذه الحروف وُضعت في بداية السور للدلالة على أسماء الذين زُعم أنهم قد ألفوها.

ثم الأغرب من ذلك أنهم يزعمون أن هذه الحروف علامات للأسماء، لكن أصحاب هذا الزعم فسروا ﴿الم﴾: (أمر لي محمد)، الذي لا يدل على اسم أحد. فكيف يقال أن هذه الحروف رمز لما يزعمون؟

وحديث جابر بن عبد الله الذي سيأتي ذكره أيضاً يشهد بأن رسول الله ﷺ قد بين أن ﴿الم﴾ من الوحي.

سبق أن ذكرت أن من معاني هذه الحروف دلالتها على آجال الحوادث التي تنبئ بها السورة. وصاحب هذا المعنى عالم يهودي، كان قد أبدى وكرّر رأيه هذا عند رسول الله ﷺ فلم ينكره، وكأنه صدّقه. ولذلك فإن هذا المعنى أيضاً جدير بالانتباه ويفتح آفاقاً جديدة للمتدبرين.

والحديث الذي يذكر هذا المعنى، رواه البخاري وابن إسحاق في تاريخهما، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله، وهو: "مرّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الم﴾ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿﴾ فأتى أخاه حبيّ بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿الم﴾ * ذَلِكَ الْكِتَابُ

لَا رَيْبَ فِيهِ؟ فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَمَشَى حَيَّيَّ فِي أَوْلَئِكَ النَّفَرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ يُذَكِّرْ أَنَّكَ تَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ قَالَ: بَلَى، قَالُوا: أَجَاءَكَ بِهَذَا جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكَ الْأَنْبِيَاءَ، مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ لَنَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةَ مَلِكِهِ وَمَا أَجَلَ أُمَّتِهِ غَيْرُكَ! فَقَالَ حَيَّيَّ بْنُ أَخْطَبٍ وَأَقْبَلُ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ: الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً. أَفْتَدْخُلُونَ فِي دِينِ نَبِيِّيْ إِنَّمَا مَدَّةَ مَلِكِهِ وَأَجَلَ أُمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الْمَص. قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطُولُ: الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ وَالصَّادُ تِسْعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسِتُونَ وَمِئَةٌ سَنَةً. هَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدُ غَيْرُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الر. قَالَ: هَذَا أَثْقَلُ وَأَطُولُ. الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ وَالرَّاءُ مِائَتَانِ. فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ سَنَةً وَمِائَتَانِ. فَهَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. الْمِر. قَالَ: فَهَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطُولُ: الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ وَالرَّاءُ مِائَتَانِ. فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً وَمِائَتَانِ. ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ لَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى مَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا. ثُمَّ قَامُوا، فَقَالَ أَبُو يَاسِرٍ لِأَخِيهِ حَيَّيَّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْبَارِ: مَا يَدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ قَدْ جُمِعَ هَذَا لِمُحَمَّدٍ كُلُّهُ: إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَإِحْدَى وَسِتُونَ وَمِئَةٌ وَوَاحِدَةٌ وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ وَإِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ، فَذَلِكَ سَبْعُ مِائَةٍ وَأَرْبَعُ وَثَلَاثُونَ سَنَةً. فَقَالُوا: لَقَدْ تَشَابَهَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ." (تفسير فتح البيان)

يتبين من هذا الحديث أن اليهود أرادوا بهذه الحروف الآجال أيضاً، وصرحوا بذلك لرسول الله ﷺ، فلم ينكره.

ولكن استدلالهم بهذه الحروف على أجل الأمة المحمدية صريح البطلان، لأن زمن هذه الأمة ممتد إلى يوم القيامة. ومع ذلك فإن سكوت رسول الله ﷺ عند استدلالهم لا يخلو من حكمة. فبالنظر إلى ذلك وإلى مواضع السورة يمكن أن نقول بأن هذه الحروف من حيث قيمتها العددية تشير إلى ذلك الزمن الذي تقع

فيه الأحداث التي تشير إليها السورة خاصة، وذلك بأن تقع تلك الحوادث بعد البعثة النبوية؛ إما خلال نهاية هذه المدة أو أنها تبدأ من عندها.

وإذا أقمنا وزنا لهذه الحقيقة فواضح جداً أن محتويات سورة البقرة خلاصة لما جرى بعد البعثة خلال إحدى وسبعين سنة. لقد توفي حضرة معاوية في ستين للهجرة، وإذا زدنا على ذلك ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة صارت هذه المدة ثلاثاً وسبعين سنة، وأعلن حضرة معاوية بيعه يزيد قبل وفاته بسنة أو سنتين، وبما أن الفتنة الحقيقية بدأت في هذه السنة، لذا تتحدد فترة بداية الإسلام ورقية بإحدى وسبعين سنة. وسورة البقرة ترسم أحداث هذه الفترة نفسها.

وسورة مريم تبدأ بـ ﴿كهيعص﴾ التي قيمتها العددية هي مائة وخمسة وتسعون. وهذه السورة تذكر ازدهار المسيحية ولا سيما ازدهارها الثاني الذي يأتي بعد رقي الإسلام. والتاريخ يشهد أن المسيحية في هذه السنة، أي ١٩٥ بعد البعثة النبوية، بدأت تسترد قوتها. وهذه في نفس السنة التي دُبرّت فيها - لأول مرة في تاريخ الإسلام - مؤامرة لعزل الخليفة العباسي المعتصم بالله وهو يحارب الروم، ولوضع عباس بن المأمون خليفة مكانه، كي يضعف الإسلام ضد النصرانية. وفي هذه الفترة نفسها تقريباً هاجم النصارى واستردوا بعض المناطق من الأندلس، وفي الزمن ذاته بلغت الشقاوة بالمسلمين أن تأمر خلفاء الأندلس مع ملك الروم على الخلافة العباسية، والعباسيون بدورهم عزّزوا علاقات الصداقة مع ملك الإفرنج على حساب الدولة الإسلامية الأندلسية، وهكذا مهّدوا الطريق لازدهار المسيحية وانحطاط الإسلام بإقحام المسيحيين في سياسة المسلمين. وأرى أننا لو فكرنا بنفس الأسلوب في سائر السور، لتبينت لنا معانيها من الناحية الزمنية أيضاً.

والآن أسرد بحث المقطعات الذي يتأسس على التفسير الذي فسر به سيدنا علي وابن عباس رضي الله عنهما، وهو أن المقطعات تتضمن أسراراً كثيرة،

منها ما يتعلق بأشخاص هم على صلة بالقرآن بحيث لا بد من ذكرهم فيه، ولكن المقطعات إلى جانب ذلك تعمل عمل القفل لبعض معارف القرآن، فلا يقدر المرء على الوصول إلى تلك المعارف إلا بفتحها، وبقدر ما تنفتح له هذه الأقفال يتمكن من الاطلاع على معاني القرآن الكريم.

وبحثي بهذا الصدد يدل على أن معاني القرآن تتجدد بتغيّر المقطّعات؛ فإذا ابتدأت سورة بمقطّعة منها فاعلم أن السور التي تليها ولا تبدأ بمقطّعة جديدة، هي تابعة للسورة السابقة في الموضوع. وإن السور التي يُعاد فيه المقطّع نفسه فموضوعها كلها واحد.

وطبقاً للمبدأ المذكور أرى أن الموضوع الواحد يستمر من البقرة إلى التوبة، فإن هذه السور كلها مرتبطة بمقطّعة ﴿الم﴾ التي تبتدئ بها البقرة ثم آل عمران. أما النساء والمائدة والأنعام فهي خالية من المقطعات، فكأنها تابعة لما قبلها. وبعد ذلك تبدأ الأعراف بـ ﴿المص﴾، وفيها ﴿الم﴾ بحالها، لكن زيد في آخرها ﴿ص﴾. بعد ذلك الأنفال والتوبة خاليتان من المقطعات، مما يعني أن موضوع ﴿الم﴾ مستمر حتى التوبة. أما الصاد الذي زيد في مقطّعة الأعراف فيشير إلى موضوع التصديق. وإن سور الأعراف والأنفال والتوبة تبحث في نجاح النبي ﷺ وازدهار الإسلام، لكن الأعراف تشير إلى موضوع التصديق بصورة مبدئية، أما الأنفال والتوبة فتذكران موضوع التصديق مفصلاً، ولذلك قد زيد هنا الصاد.

ثم سورة يونس تبدأ بـ ﴿الر﴾ عوضاً عن ﴿الم﴾، حيث بقيت (الـ) بحالها، لكن الراء حلت محل الميم. فهنا تغير الموضوع، لأن البحث من سورة البقرة إلى التوبة كان علمياً^١، أما البحث من سورة يونس إلى الكهف فهو تاريخي، ويقتصر على الاستنتاج من حوادث التاريخ، لأجل ذلك قال الله عز وجل

^١ معنى ﴿الم﴾: أنا الله أعلم، كما سيتضح لاحقاً. (المترجم)

﴿الر﴾، أي: أنا الله أرى، وأعرض عليكم هذا الكلام معتمدا على رؤيتي لتاريخ جميع الأمم. فهذه السورة كلها تبحث في صفة رؤية الله، وأما السور التي قبلها فتختص بصفة علم الله.

أرى من المناسب أن أذكر هنا بإيجاز ما يزعمه بعض المفسرين من أن المقطعات لا معنى لها وأنها وضعت قبل السور بدون جدوى. الحق أن المقطعات نفسها تبطل زعمهم، لأننا إذا تعمقنا في القرآن كله، وجدنا المقطعات مرتبة ترتيبا وثيقا؛ فالبقرة تبدأ بـ ﴿الم﴾، ثم آل عمران تبدأ بـ ﴿الم﴾، ثم النساء والمائدة والأنعام بلا مقطعات. ثم تبدأ الأعراف بـ ﴿المص﴾، ثم الأنفال والبراءة خاليتان. ثم سور يونس وهود ويوسف تبدأ بـ ﴿الر﴾. ثم زيد الميم إليها في الرعد، لكن الزيادة تختلف عما مضى، إذ الصاد في الأعراف بعد الميم، وهنا الميم قبل الراء، فلو كانت الزيادة عن غير قصد لوُضعت الميم بعد الراء، لكنّ توسط الميم بين اللام والراء يدل على أن هذه الحروف تؤدي معنى خاصا. وعندما نجد أن السور المبتدئة بـ ﴿الم﴾ متقدمة، وتليها السور المبتدئة بـ ﴿الر﴾، يتضح لنا تماما أن الميم متقدم على الراء من ناحية الموضوع. وفي سورة الرعد اجتمع الميم والراء، وتقدم الميم على الراء أكد بأن هذه الحروف وضعت لمعان خاصة، ولذلك نجد أن المتقدمة منها معني متقدمة في الترتيب أيضًا دائما. بعد الرعد استهلّت سور إبراهيم والحجر بـ ﴿الم﴾، أما النحل والإسراء والكهف فخالية منها، فكأنها تابعة في الموضوع لما قبلها من السور.

ثم سورة مريم تبدأ بـ ﴿كهيعص﴾، ثم سورة طه بـ ﴿طه﴾، ثم الأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان كلها خالية من المقطعات، وكأنها تابعة لـ ﴿طه﴾. ثم الشعراء تبدأ بـ ﴿طسم﴾، فبقي الطاء من ﴿طه﴾ بحاله وزيد عليه السين والميم مكان الهاء. وبعد ذلك سورة النمل تبدأ بـ ﴿طس﴾ الذي حذف منه الميم. ثم عادت سورة القصص مبتدئة بـ ﴿طسم﴾، كأن موضوع الميم أُضيف ثانيةً إلى موضوع السورة.

ثم عادت مقطعة ﴿الم﴾ في سورة العنكبوت، وتكرر موضوع بحث علم الله من ناحية أخرى، ولأجل ضرورة جديدة. إنني وإن لم أكن هنا بصدد بحث الترتيب، لكن إذا سئلت عن تكرار ﴿الم﴾ هنا، قلتُ إن ﴿الم﴾ في سورة البقرة كان الخطاب بها موجهًا للكفار، أما في سورة العنكبوت فموجه إلى المؤمنين.

ثم بعد العنكبوت تبدأ سور الروم ولقمان والسجدة بـ ﴿الم﴾. ثم الأحزاب وسبأ وفاطر بلا مقطعات، وكأنها تابعة لما قبلها. بعد ذلك سورة يس تبدأ بالياء والسين. ثم الصافات بلا مقطعات. ثم سورة ﴿ص﴾ تبدأ بالصاد، والزمر خالية من المقطعات، وهي تابعة لما قبلها. ثم سورة غافر تستهل بـ ﴿حم﴾، وبعدها تبدأ سورة السجدة أيضا بـ ﴿حم﴾، ثم الشورى تبدأ بـ ﴿حم﴾ أيضا، إلا أنه زيد عليها ﴿عسق﴾. وبعدها الزخرف تبدأ أيضًا بـ ﴿حم﴾، ثم الدخان والجناثية والأحقاف كلها تبدأ بـ ﴿حم﴾، ثم تليها سورة محمد ﷺ والفتح والحجرات بلا مقطعات وتابعة لما قبلها، ثم سورة ق تبدأ بالمقطع ﴿ق﴾، ثم يستمر موضوعها إلى آخر القرآن.

هذا الترتيب يدل أن هذه الحروف لم توضع عبثًا، فتكرار بعضها ثم حذف البعض الآخر، ثم تعويض البعض يدل على أن الذي وضعها لم يضعها إلا لغاية، فهَمَّهَا البعض أم لم يفهموها.

إضافة إلى الأدلة المذكورة آنفًا فإن الاستدلال الذي قام به معارضو الإسلام نفسه يدل على أن للمقطعات معنى، حيث يقول هؤلاء أن سور القرآن الكريم مرتبة في المصحف حسب طولها وقصرها، وإذا كان قولهم صحيحًا فليس غريبًا أن ترد المقطعات من جنس واحد في هذه السور المرتبة بحسب طولها وقصرها في زعمهم، فالسور المبتدئة بـ ﴿الم﴾ قد وردت بعضها مع بعض، والمبتدئة بـ ﴿الر﴾ في مجموعة واحدة، و﴿طه﴾ وما يشترك في موضوعها قد جاءت معًا، ثم جاءت مجموعة أخرى، وهي المبتدئة بـ ﴿الم﴾، ثم مجموعة أخرى المستهلة بـ ﴿حم﴾. لو كانت السور مرتبة بحسب حجمها أفليس غريبًا أن تدل المقطعات على حجم السور؟ ولو سلمنا بقولهم هذا فقط لدل ذلك أن

للمقطعات معنى، وإن كان ينحصر في الدلالة على طول السور وقصرها، ولكن الحق أن اجتماع السور المستهلة بمقطعة واحدة يدل أنها مشتركة في مواضيعها، وأن هذه المقطعات تعمل عمل مفاتيح لمعارف تلك السور.

ولتحديد معاني المقطعات أرى من الأفضل أن نرجع للقرآن نفسه. فالسور الأولى تستهل بـ ﴿الم﴾، فسورة البقرة تبدأ بهذا المقطع، ثم يليه قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٣)، ثم سورة آل عمران تستهل بـ ﴿الم﴾، ثم يليه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (آل عمران: ٣-٤).

ومما تجب ملاحظته هنا أن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و﴿بالحق﴾ بمعنى واحد، فالكتاب الذي ذكر بعد ﴿الم﴾ في البقرة وقيل عنه ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو نفس الكتاب الذي وصف ﴿بالحق﴾ في آل عمران.

ثم الأعراف تستهل بـ ﴿المص﴾، ويليه قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٣). هنا أيضاً ذكر نفس الكتاب الموصوف بـ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فقوله تعالى ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ يدل على نفس الميزة.

ثم بعد عدة سور تبدأ العنكبوت بـ ﴿الم﴾ أيضاً، ويليهما قوله عز وجل: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٣-٤).

هذه الآيات أيضاً تدل على كتاب حق يقيني، لأن الاختبار أو الابتلاء لا يكون إلا لدفع الشك والريبة. فهنا أيضاً يُبحث نفس الموضوع المذكور في سورة البقرة وغيرها باختلاف بسيط وهو أن الخطاب في البقرة عام، وهنا خاص بالمؤمنين، حيث قيل لهم: كيف تستحقون منا معاملة المقربين الكاملين ولا يزال الشك يخالط قلوبكم؟

وفي سورة الروم نفس البحث وإن أصبح غاية في الدقة، يقول الله عز وجل: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾

(الروم: ٢-٣)، أي أن كلام الله نزل بصدد الروم وسيتحقق بلا شك. كأن الله عز وجل تحدّى هنا بجزء من كتابه بدلا من الكتاب كله، وأكد تحقّقه بحرفي (من) و (س) في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾

ثم تبدأ سورة لقمان أيضاً بـ ﴿الم﴾ ويليهما قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (لقمان: ٢-٦)

وصفة الحكيم أيضاً تدل على أمر يقيني، فكأن موضوع البقرة نفسه قد أعيد هنا.

بعد ذلك سورة السجدة تبدأ بـ ﴿الم﴾ أيضاً، ويليهما قول الله عز وجل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (السجدة: ٣)، فهذا أيضاً ذكر الكتاب الذي لا ريب فيه.

فيتضح من هذه الآيات كلها جلياً أنه أينما ورد ﴿الم﴾ تبعها موضوع خاص، وهو نزول علم يقيني. فكيف يُظنّ مع هذه الحقيقة الناصعة أن هذه الحروف مهملة وبلا هدف؟ فالحق أن ﴿الم﴾ ترمز إلى ما يزيل الشك ويهب اليقين. والشيء الذي يزيل الشك ويهب اليقين هو العلم الكامل. فلا شك أن معنى ﴿الم﴾ "أنا الله أعلم"، فمن أراد دفع الشك وجلب اليقين فليتوجه إلى وحيي وكتابي هذا.

الآن أتناول البحث عن ﴿الر﴾. إذا أمعنا النظر في السور التي تفتتح بهذه الحروف وجدناها تبتدئ ببحث واحد؛ فقد استهلّت سورة يونس بقوله عز وجل: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (يونس: ٢-٣)

أما سورة هود فتبدأ بقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: ٢-٤)

ثم تبدأ سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٢-٤)

ثم تستهل سورة الرعد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢-٣). هنا اجتمع موضوع الميم والراء.

ثم ورد في سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ٢-٣).

ثم بدأ الله تعالى سورة الحجر بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (الحجر: ٢-٦).

التعمق في هذه المواضع كلها يبيّن أنها تبحث في موضوعين اثنين، أحدهما التاريخ القديم ولا سيما عقاب الأشرار، والثاني: خلق الكون. والاستفهام الإنكاري في سورة يونس يدل على أن الأنبياء بين بشير ونذير لم تنقطع بعثتهم قط. أما سورة هود فقد بيّن الله تعالى فيها أولاً أن الأقوام لا تبقى في حالة

واحدة، بل تظل تدور في نطاق معيّن. ووضح بذكر الخلق أن تقدم العالم خاضع لقانون الارتقاء. بعد ذلك أشار في سورة يوسف إلى تاريخ العالم بصورة واضحة. ثم بإضافة (م) في سورة الرعد جمّع موضوعي ﴿الم﴾ و﴿الر﴾، حيث أشار بـ (م) إلى وحي يقيني، ثم دعا إلى النظر والتفكير في خلق الكون. ثم في سورة إبراهيم كرّر التوجيه إلى التفكير في قوانين القدرة، مبيناً أنكم لو فعلتم ذلك فستجدون فيه آثار يد الخالق الحكيم. وفي سورة الحجر دعانا إلى التفكير في التاريخ القديم. ووضح أن أحداث التاريخ وقوانين الطبيعة مرتبطة بالمشاهدة. والحق أنه لا يستطيع أحد الوصول إلى الحقيقة إلا إذا وقعت الأحداث أمام عينيه أو ظهر ناموس من نواميس الطبيعة أمامه. فثبت أن هذه السور وثيقة الصلة بالمشاهدة. وهذا ما أعلن الله بقوله ﴿الر﴾، أي أنا الله أرى. فلا التاريخ القديم غائب عني ولا خلق الكون أو نواميس الطبيعة خافية عليّ، فهدايتي هي التي يمكن أن تغنيكم عن كل شيء آخر في إدراك الحقائق المتعلقة بالرؤية.

وجدير بالذكر أن المقطعات، وإن كانت معانيها تتغير بتغير الأحرف، لكنها متفقة في أمر واحد، وهو أن السور التي تفتتح بالمقطعات يستهلّ موضوعها بالوحي، ومعظم هذه السور تصرّح بكلمة الكتاب والقرآن، وبعضها تشير إلى كتاب قديم مثل سورة مريم، أو إلى وحي خاص مثل سورة الروم.

هذان المعنيان المذكوران صحيحان، أي أن المقطعات (أولاً) تدلّ على بعض صفات الله، وكل حرف منها يمثّل الصفة التي تبحث فيها السورة، وأثماً (ثانياً) تدل بقيمتها العددية على الآجال؛ لأن مجموع عدد هذه الحروف يشير إلى الفترة التي تقع فيها أحداث معينة، وليس من اللازم أن يكون أحد هذين المعنيين صحيحاً دون الآخر. ويوافقي في هذا الرأي بعض العلماء من صدر الإسلام أيضاً، فقد روي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿الم﴾ قال: "... ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو مدّة قوم وآجالهم" (تفسير

ابن أبي حاتم الرازي)، أي أن في هذه الفواتح ثلاث دلالات في وقت واحد، ففيها إشارة إلى صفات الله تعالى، وفيها أنباء عن أحداث تقع في مختلف العصور، وأنها نموذج من وحي الله المعجز. وقول أبي العالية في غاية الروعة والصواب والصدق. وقد نقله ابن جرير بلفظ آخر وصدّقه.

يمكن أن يُسأل عن المقطعات: لماذا اختار القرآن الكريم هذا الأسلوب غير العادي؟ ولماذا لم يبين هذه المعاني بلغة سهلة واضحة كي يسهل فهمها على العرب ومن يأتي بعدهم؟

فالجواب أن هذا الأسلوب ليس غير عادي، بل كان رائجا عند شعراء العرب وأدبائهم، فكانوا يستعملونه نظماً ونثراً. قال الشاعر: "قلنا قفي لنا فقالت قاف"، أي وقفت.

وقال آخر:

بالخير خيراتٌ وإن شراً فإِ
ولا أريد الشرَّ إلا أن تا

(الإلتقان في علوم القرآن للسيوطي)

أراد: وإن شراً فشرّ، وإلا أن تشاء.

وفي حديث رسول الله ﷺ: "مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" (ابن ماجة، أبواب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً)، أي أنه إذا قال: "أق" مكان اقتل، فجزأؤه بما ذكر من اليأس والحرام.

فالعرب متمسكون بهذا الأسلوب المرتبط بالقرينة نظماً ونثراً، ومن الأمثال الرائعة لهذا الأسلوب من الكلام ما اختاره القرآن من المقطعات. والأمم الغربية قد بلغت اليوم في استعمال هذا الأسلوب. وهناك مئات بل آلاف من الحروف التي تختزل مختلف الكلمات، والناس يفقهون معناها ولا يستغربونها، مثل (M.A.) (B.A.) (B.T.) (M.D.).

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة : ٣)

شرح الكلمات:

ذلك: اسم إشارة للبعيد، أحياناً يستعمل للقريب بمعنى: هذا. نُقل عن الزجاج: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي هذا الكتاب (تاج العروس). ويمكن استعماله للقريب مع دلالة على البعيد، إذ إن الإشارة إلى القريب بالبعيد إنما يراد منه البعد المعنوي دلالة على علوّ شأنه. (فتح البيان)

الكتاب: "ال" يفيد التعريف بالإضافة إلى معانيه الأخرى. فإذا كانت للتعريف فهي إمّا عهدية وإمّا جنسية، فالعهدية إما أن يكون معهودها قد سبق ذكره، أو يكون متصوراً في الذهن، أو موجوداً. أما الجنسية فتكون استغراقية أو تعريفية، والاستغراقية نوعان: استغراقية حقيقة ومجازية، والحقيقية تشمل أفراد الجنس كلهم، مثل: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٩)، فكلُّ الناس ضعفاء خلقاً. وأما الاستغراقية المجازية فمثالها "أنت الرجل"، أي أنت الكامل في الرجولة، وإن كان هناك رجال آخرون؛ إذ يصدق عليك تعريف الرجل كل الانطباق.

وأما التعريفية فهي تفيد بيان الحقيقة مثل: الإنسان أفضل من الحيوان.

الكتاب: مصدر؛ وما يُكْتَب فيه تسمية بالمصدر، سُمِّي به لِجَمْعِهِ أَبْوَابَهُ وفصوله ومسائله؛ والتوراة؛ والصحيفة؛ والفرض؛ والحكم؛ والقدر؛ ويُطلق الكتاب على المكتوب، ويُطلق الكتاب على المنزل من الله تعالى. (الأقرب)

فهذه الكلمة يختلف معناها حسب اختلاف المواضع، فيُطلق لفظ الكتاب على وحي التشريع لاشتماله على فروض وأحكام، وقد يطلق على كل وحي حقٍّ لكونه إلهاماً، دُونَ أم لم يدوّن.

ريب: الريب: الظُّنَّة والتهمة؛ الشك؛ الحاجة؛ وريب المنون (الأقرب).

وقد وردت كلمة «رَيْبٍ» في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ففي سورة البقرة: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» (البقرة: ٢٤). فالريب هنا بمعنى الشك في الحق. وفي سورة الحج: «إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ» (الحج: ٦)، أي في شك منه. ثم في سورة الطور: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ» (الطور: ٣١)، أي يقول أعداء النبي ﷺ أن هذا شاعر نتربص به دوائر الدهر التي ستهلكه، فالريب هنا بمعنى مصائب الدهر والهلاك.

واعلم أن هذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا للدلالة على معنى مذموم، كما في قوله تعالى: «مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ» (ق: ٢٦)، وقوله: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» (غافر: ٣٥). فالريب لا تدل على الشك الذي يزيد الإنسان بحثاً وتدقيقاً، بل هو الشك الذي ينشأ عن سوء الظن والتعصب ويُبعد الإنسان عن الحق، كما في قوله تعالى: «وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ» (المدثر: ٣٢)، أي لقد فعلنا ذلك لكي لا يرتاب أهل الكتاب والمؤمنون، مما يعني أن المؤمن لا يقع في الريب، وأن الله تعالى يحميه منه.

وفي الحديث الشريف: "دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ" (الترمذي، أبواب صفة القيامة). ويتضح من الحديث أيضاً أن الريب شك ناشئ عن الوهم أو الوسوسة، وليس مما يساعد الإنسان على البحث وتحري الحقيقة.

هُدًى: الهدى هو: الرشاد؛ البيان؛ الدلالة (الأقرب).

وقال الراغب عن الهداية التي هي مصدر بمعنى الهدى: هي دلالةٌ بلطف.

وقال أيضاً: الهداية وردت في القرآن الكريم على أربعة أوجه:

١: "الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلف، من العقل والفتنة والمعارف الضرورية التي أعمَّ منها كلَّ شيء بقدر فيه حسب احتمالها، كما قال تعالى: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» (طه: ٥١)".

أي من هذه الهداية ما ترى حتى في الحيوانات التي لم تكتمل فيها قوة الإدراك، وليس لها منه إلا ما لا بدَّ منه من العلم الجزئي السطحي بالأمر البسيطة اللازمة لحياتها ولأعمالها.

فالمراد من ﴿هَدَى﴾ هنا: أن الله تعالى أوجد القوى المختلفة الضرورية في الشيء وسخرها له، لأن مجرد وجود القوى في شيء لا يجديه نفعاً، بل لا بد من دفعها للعمل لبث الحياة فيه. فالوليد مثلاً يكون قبل الولادة مزوَّداً بجهاز التنفس كاملاً، ولكن بمجرد أن يولد تتحرك فيه أعضاء أجهزة التنفس بلمسة هواء أو بِنَخَّة ماء، فتبدأ حياته العملية حقيقةً، شأنه شأن الساعة التي تحتوي على جميع المعدّات المهمة لتشغيلها، ولكنها لا تبدأ الحركة إلا بعد التدوير. والخلاصة أنه لا بد للشيء من دفعة أولى لبداية الحياة، والهدى هنا يشير إلى هذه الدفعة الأولى، حيث بيّن الله تعالى أنه خلق كل شيء مزوَّداً بقوى مناسبة، ثم حرّكها التحريكة الأولى ودفعه للعمل المفوض به.

ثم يقول الراغب أن الوجه الثاني من الهداية هو: "الهداية التي جعلها للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء...، وهو المقصود بقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (السجدة: ٢٥)"، أي وجعلنا في بني إسرائيل أئمة كانوا يدعون الناس إلينا بناءً على وحيائهم.

"والثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد: ١٨)"، أي أن التوفيق للعمل ورفع الفكر والرغبة في المزيد من الهدى والعلم يسمى أيضاً هدى.

ثم يقول الراغب: "والرابع الهداية في الآخرة إلى الجنة المعنيّ بقوله ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٦). أما قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (السجدة: ٢٥)، أو قوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٨) فمعناه دعوة الناس إلى الحق. أما الآيات المشتملة على عدم اهتداء الظالمين كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٧)، فالمراد منها النوع الثالث والرابع من الهداية، أي التوفيق للعمل أو التمتع بنور الإيمان أو دخول الجنة. فالمراد من مثل هذه الآيات أن

الكافرين لم ينالوا مثل هذه النعم. والواضح أن الذي لا ينال النوع الثاني من الهدى، أي لا يقبل دعوة الأنبياء، فإنه يُحرم من النوعين الثالث والرابع من الهدى، لأهما نتيجة النوع الثاني.

المتقين: جمع مُتَّقٍ، والمتَّقِي اسم فاعل من اتَّقَى، والاتَّقَاءُ افتعال من وَقَى. ووقاه أي ستره عن الأذى وصانَه وحفظه. (الأقرب)

وهو يدل في الشرع على الامتناع عن المعصية والشر، ولا يعني مجرد الخوف. والوقاية: الترس وما وقيتَ به شيئاً. وقال البعض: اتقاء الله معناه اتخاذ الله عز وجل حُجَّةً للنجاة.

روي أن رجلاً سأل أبا هريرة: ما معنى التقوى الواردة في القرآن الكريم؟ فقال: "هل أخذتَ طريقاً ذا شوك؟ قال نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال إذا رأيتُ الشوك عدلتُ عنه، أو جاوزته، أو قصرتُ عنه. قال أبو هريرة: ذاك التقوى". (الدر المنثور)

وقال الشاعر ابن المعتز مشيراً إلى هذا المعنى اللطيف:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْبَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنْ الْجِبَالُ مِنَ الْحَصَى (ابن كثير)

التفسير:

قيل أن ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ للبعيد، فلماذا استعملها الله تعالى للقريب قائلاً: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟

أجاب بعض العلماء بأن "ذلك" يأتي للقريب أيضاً كما ذكرنا في معاني المفردات. وقال غيرهم إنه للبعيد، لأنه إذا انتهى ذِكْرُ شيءٍ فيصبح في حكم البعيد، كما لو ذكرنا شيئاً في الكلام ثم أردنا إعادته جاز أن نقول: "ذلك". والعرب عندما ينتهون من حكاية أمر، يقولون: وذلك ما لا شك فيه (الكشاف). وكذلك ورد في القرآن: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا بَكْرِ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: ٦٩)، فـ ﴿ذَلِكَ﴾ هنا إشارةٌ إلى الفارض والبكر المذكورين آنفاً.

وورد في القرآن الكريم قول يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ (يوسف: ٣٨)، فهو يشير بـ ﴿ذلك﴾ إلى كلامه السابق. (الكشاف)

وهناك استعمالات أخرى مماثلة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (السجدة: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ (الأنعام: ٨٤). وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٣). والخلاصة:

(أولاً): "ذلك" يستعمل في كلام العرب بمعنى "هذا".

(ثانياً): ليس من الضروري أن يكون المشار إليه بـ "ذلك" بعيداً في الواقع، بل يشار به إلى المذكور من قبل المتصور في ذهن.

وعليه فيمكن تفسير قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ بعدة معان:

(١) هذا هو ذلك الكتاب،

(٢) ذلك الكتاب هذا،

(٣) هذا هو الكتاب الكامل،

(٤) هذا ذلك الكتاب الكامل.

تصلح هذه المعاني الأربعة باعتبار "ذلك" مبتدأ و"الكتاب" خبراً، غير أنه يمكن أن يُعتبر ﴿الْكِتَابُ﴾ هنا عطْفَ بيان و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبراً، والمعنى: هذا، أي الكتاب الكامل، لا يتضمن ريباً، أو ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي هداية الأنبياء، لا يحتوي على أي ريب.

بعد بيان المعاني اللغوية أبين الآن المعاني التفسيرية:

(١): الذين اعتبروا ﴿الم﴾ اسمَ هذه السورة قالوا: إن مفهوم هذه الآية أن

﴿الم﴾ هو اسم هذه السورة، أو أن ﴿الم﴾ كتاب كامل.

(٢): أما الذين قالوا أن ﴿ذلك﴾ استُخدم للإشارة إلى القرآن الكريم لعلَّ

شأنه ففسروا العبارة كالاتي: هذا الكلام العظيم هو ذلك الكتاب الذي قد أُثني

عليه في صحف موسى وغيرها من الصحف.

(٣): أما الذين اعتبروا ﴿ذلك﴾ إشارةً للبعيد ففسروا: ذلك الكتاب الموجود في اللوح المحفوظ هو هذا القرآن الكريم.

وهناك معان أخرى ذكرها المفسرون ولكنها كلها لا تستحق الذكر. وعندي أن المعنى الثاني من هذه المعاني الثلاثة هو ما يتفق مع كلمات القرآن الكريم، لأنهم يشيرون هكذا إلى الأمر المعروف والمشهور. لقد كان أهل الأديان الأخرى ينتظرون كتاباً، فكأن الله تعالى قال لهم في مستهل القرآن الكريم إن ذلك الكتاب الذي تنتظرونه هو هذا.

غير أن هناك مفهوميْن آخرين هما الأصحّ عندي والأوفق للفظ القرآن، فيما يلي بيانهما:

أولاً: هذا هو الكتاب الكامل، تقول العرب: زيدٌ العادل، أي أن زيداً هو العادل، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يعني أن هذا الكتاب وحده يستحق أن يوصف بالكتاب، فتُعتبر "ال" في هذه الحالة للاستغراق المجازي. والأخذ بهذا المعنى لا يضطرنا إلى تأويلٍ بعيد خارج عن الكلام، ثم إن هذا المعنى أكثر انسجاماً مع السياق أيضاً، لأن الكتاب الذي يقدم نفسه بأنه كتاب سماوي جديد نزل مع وجود الصحف الأخرى، يجب أن يقوم في بدايته بمثل هذا الإعلان، إذ سيتساءل الناس حتماً: ما الحاجة إلى كتاب جديد مع وجود الصحف السابقة؟ فهذا الأسلوب إجابة عن هذا السؤال الفطري، حيث قيل عند افتتاح القرآن الكريم لمن يبحث عن الحق: إن هذا هو الكتاب الكامل، أي لا شك في وجود كتب أخرى، لكن مجرد وجود كتاب لا يجعله محققاً لجميع الضروريات الإنسانية. إن الغرض من الكتاب تأمين الوسائل الروحية للإنسان، وهذا هو الكتاب الوحيد الذي يحقق هذه الغاية العظمى، لذا فمست الحاجة إليه مع وجود الكتب الأخرى.

هذا هو المعنى الأكثر انطباقاً في هذا السياق، لأن قوله ﴿الم﴾، أي "أنا الله أعلم" يعني أن التعليم الذي أنزلهُ أنا في أي عصر، يكون هو الأكمل والأنسب فيه.

ثم اعلم أن قوله تعالى "أنا الله أعلم" ادعاء لا بد من التدليل عليه، وأكبر دليل على ذلك هو أن يُقدّم للناس مادة علمية لم يسبق لها نظير، ومن أجل ذلك أقول إن أفضل معنى لقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ بالنظر إلى مفهوم ﴿الم﴾، هو أن هذا الكتاب هو الكتاب الكامل.

وشهادة التاريخ أيضاً تدعم هذا الادعاء بقوة. لا شك أن القرآن مسبق زمنًا بالتوراة والإنجيل و"الفيدا" و"الزند" وغيرها من الكتب، لكن المقارنة بينها وبين ما جاء به القرآن من تعليم يبين أنها تفتقر إلى الشمول والجامعية التي نجدها في تعاليم القرآن المجيد. فإذا كانت أكبر مزايا الإنجيل أنه يؤكد على حب الله، فإن القرآن يتضمن ذلك وأكثر، وإذا كانت التوراة تفتخر بشريعتها الشاملة، فهي أيضاً تتضاءل أمام شريعة القرآن الشاملة الكاملة، مع أن القرآن أصغر حجماً من التوراة والإنجيل الحاليين. لقد بلغ القرآن الكريم من الشمول والكمال مبلغاً جعل معنى الشريعة عند المسلمين متميزاً. فالمسلم عندما ينطق بكلمة الشريعة يفهم منها فوراً أنها الأحكام المفصلة الكاملة مع بيان حكمها حول:

١. علاقة الوالدين والأولاد
٢. علاقة الزوجين
٣. الزواج وأهدافه
٤. حقوق الزوجين وواجباتهما
٥. اختيار الرجل زوجته وبالعكس
٦. مبادئ تربية الأولاد
٧. نظام الأسرة وحقوقها
٨. نظام الوراثة
٩. نظام الوصية
١٠. حقوق الجار القريب والبعيد
١١. مبادئ التجارة والزراعة

١٢ و ١٣. واجبات الحاكم والرعية وحقوقهما

١٤. أنواع الحكم

١٥. حقوق الأجير والمستأجر وواجباتهما

١٦. العلاقات الدولية

١٧. أسس الاقتصاد

١٨. حقوق الإنسان، بل الحيوان أيضاً

١٩. وأخيراً وليس آخراً، بل قبل الكل، ما بين الله وعباده ورسله من

علاقات وأحكام.

لقد تناول القرآن الكريم كل هذه القضايا وغيرها مع حكمها بحيث لا يتضمن أي كتاب آخر عُشْرَ مِغْشَارِهَا. ولنأخذ مثلاً كتاب "الفيدا" الهندوسي، فأولاً: نجد أن الأكثرية من الهندوس تجهله، وثانياً: الأقلية التي تعرفه لا تستعمله إلا للشعوذة والألغاز. وثالثاً: وأهمّ ميزة للفيدا عندهم أنه يتضمن الأدعية المختلفة، ويبيّن الغرض من خلق الإنسان، ولكن الأدعية وفلسفة خلق الإنسان التي يذكرها القرآن مفصلةً ومتكاملةً يتضاءل أمامها تعليم الفيديا كليا؛ فأدعية القرآن مشتملة على دقائق الفطرة الإنسانية، وليست كلمات رثانة جوفاء. إنها تجعل الإنسان يشعر بضعفه وحاجته، ثم تستره برداء القدس والطهر. ثم إن تفاصيل خلق الإنسان التي يبينها القرآن ليست خفية في حجب الاستعارات بحيث تشوّش عقل الإنسان، بل تساعد وتأتي به إلى ميدان المشاهدة والتجربة، وبالتالي تصقل عقله وتخلو فكره.

أما قضية الحياة ما بعد الموت فإن القرآن قد ذكرها بحيث لا يسع الكتب الأخرى إلا الاعتراف بالهزيمة والفشل. فالتوراة ساكتة عن الحياة بعد الموت كل السكوت، والإنجيل يذكرها ذكراً ناقصاً جداً، والفيديا لا يتناولها بتاتا، وكتاب "زرادشت" يذكرها ذكراً موجزاً باستعارات غامضة وبكلمات مادية بحتة. أما القرآن فيتناول هذه القضية مفصلة، ويبيّن ما هو جزاء المحسن والمسيء، وكيف

يتم ذلك، وما هو الغرض منه، وما هو الهدف الحقيقي من الحياة الآخرة، وماذا على المرء فعله للفوز بها، وما هي مبادئ الجزاء والعقاب.

ثم إن فلسفة الأخلاق التي عليها أساس الدين ويناظر بها الأمن والسلام في الأرض بحثٌ لم تتناولهُ الكتب الأخرى قط، أو تناولتْ قشره وأهملتْ لبّه؛ فتعاليم بوذا ترتبط بالعواطف ولا شك، لكنها لا تبلغ شأوَ تعليم القرآن، لأنه لا يكتفي بذكر العواطف والأحاسيس فحسب، بل يبحث أسباب نشأتها، ويؤكد ضرورتها، ويوضح الطريق المناسب لإظهارها، ويبين متى تكون المشاعر صالحة ومتى وكيف تسوء، وكيف يمكن تحويلها من السيئ إلى الأحسن، وكيف يمكن تجنُّب العوامل التي تدفع العواطف إلى السيئات. لقد علّم بوذا: "أقْلِعُوا عن الأهواء تَتَّقُوا الذنوب"، لكنه لم يذكر الدوافع المؤدية إلى السيئة، وسكت عن العوامل التي تساعد على إزالتها. أما القرآن المجيد فيرشدنا إلى منبع الإثم، ويوجهنا إلى التدابير التي تسدّ ذلك المنبع. ومع هذه التفاصيل الجامعة، فإن القرآن الكريم أصغر حجماً من جميع الكتب التي تدعي أنها سماوية؛ مما يجعله سهل القراءة، هيّن الفهم، وسريع الحفظ حتى يوجد حفاظه بمئات الآلاف.

إذاً، فإعلان القرآن الكريم في بدايته أنه الكتاب الكامل للدليل على أن هذا الإعلان كان ضرورياً وقد تم في محله.

ثانياً: وهناك مفهوم آخر لهذه الآية يتفق مع السياق تماماً، وفيما يلي بيانه:
 إن سورة البقرة مسبوقة بسورة الفاتحة، التي تعلّمنا دعاء: ﴿اهْدِنَا
 أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٦-٧)، وقد جاء الجواب على هذا الدعاء هنا من سورة البقرة، أعني في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي أن الهداية التي طلبتموها في الفاتحة هي هذا الكتاب، أي القرآن الكريم. وبهذا يظل لفظ ﴿ذلك﴾ بمعناه الحقيقي إشارةً إلى البعيد، دون الحاجة إلى تأويلات أخرى.

عندما علّمني ربي هذا المعنى شكرته على ذلك وشعرت بالانشراح، ولكن بعد فترة من الزمن اطلعتُ على قول لمفسر واحد سبقني إلى هذا المعنى وهو ابن جعفر ابن إبراهيم بن الزبير أحدُ أساتذة أبي حيان، الذي نقل عنه هذا المعنى في تفسيره. ولا جرم أن هذا المعنى في غاية الروعة والدقة، إذ يكشف ما بين سورتي الفاتحة والبقرة من ارتباط واتصال، ويبيّن أن ورود سورة البقرة بعد الفاتحة في المصحف ليس مصادفة، بل إنها تقع موقع الجواب للفاتحة. وبذلك أيضًا لا نضطر إلى ترك المعنى المعروف لكلمة ﴿ذلك﴾.

والجزء الأخير من هذه الآية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٣) هو أيضًا يدعم هذا المعنى، فكأن الله يعلن هنا أن الهداية التي سألتموها في دعاء الفاتحة هي هذا الكتاب. وبما أنكم ما طلبتم هداية عادية، بل سألتكم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧)، فجاء هذا الكتاب حسب طلبكم، فهو لا يتضمن مجرد هداية، بل هو ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي يسمو بالنقيّ الكامل ليدخله في الفئات المنعم عليها، كما أنه يتضمن كل ما أوتي النبيون من تعاليم وما تؤدي إليه هذه التعاليم من إنعامات وجوائز.

أما قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٣)، فقد سبق أن ذكرنا أن من معاني الريبِ التهمة والشك والحاجة وريب المنون، أي الآفات والمصائب، وكل هذه المعاني تنطبق هنا، وهكذا فإن القرآن الكريم قد قدّم هنا أربع دعاوي:

الدعوى الأولى:

هذا الكتاب لا يبخس أحدًا حقّه، ولا يوجه إلى أحد تهمة باطلة، لا إلى الله تعالى، ولا إلى أحد من ملائكته ورسله وعباده، ولا إلى الفطرة الإنسانية. وهذه الدعوى من العظيمة بحيث لا نجد لها نظيرًا في أي كتاب آخر، وهي حقيقة رائعة لم يسبق لها مثيل في الملل الأخرى.

لقد أثيرَ في بداية القرآن تساؤل عن الحاجة إلى هذا الكتاب الجديد مع وجود الكتب الأخرى، وكان أيسر طريق للرد عليه أن يُذكر شيء من مهازل الكتب السابقة، ويقال: هذه هي العيوب التي تصم هذه الكتب وتجعلها غير صالحة للهداية، ولذلك قد أنزل الله الآن القرآن المجيد. وهذا الجواب كان صحيحا وفي محله مع ادعاء القرآن أنه قد نزل ليهدي الناس إلى تعاليم الأنبياء جميعا. ذلك أن القرآن الكريم يعلن بلا شك أنه قد جاء رسل قبل محمد ﷺ وكان بعضهم قد أتوا بشريعة، إلا أنه لا يسلم ببقاء تعاليمهم محفوظة في عصر القرآن. فلو أجاب القرآن الكريم بأن كتب الأنبياء السابقين لم تُعدْ محفوظة بل قد تطرق إليها التحريف والفساد، لكان جوابا سليما ومفحما للمعارضين، غير أن ذكر بشارة عظيمة بهذا الأسلوب كان لا بد أن يشقّ على أصحاب الطبائع البريئة الطيبة، ذلك أنه مما لا شك فيه أن من واجب القرآن ذكر عيوب الكتب السابقة، إلا أن إيراد هذا الأمر في بداية القرآن لم يكن لائقا بكتاب عظيم مثله، كما أنه لا يكشف عن عظمة القرآن كما يكشفه القول بأننا لا نخط من درجة أحد، بل نسلم بسمو مكانة الجميع. والحق أن القرآن قد جعل أمر إثبات دعواه صعبا إلى حد ما بهذا الإعلان في بدايته، فالاعتراض سهل، وإن أتباع الأديان المختلفة يؤسسون دعوتهم على الطعن في الآخرين عادة، ولكن القرآن الكريم لا يبدأ ببيان عيوب الأديان الأخرى لإثبات الحاجة إلى نزوله، بل يقول ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي أنه لا يؤسس دعوى كماله على إعلانه كون الكتب الأخرى موصومة بالعيب وعلى خلوه من العيب، فإن الكمال النسبي ليس دليلا على الصدق، بل يثبت القرآن صدقه وضرورته من خلال كمالاته وفضائله وميزاته من دون الطعن في الأديان الأخرى.

ويا له من أسلوب رائع، ولكنه صعب بلا شك، ومع ذلك أتبع القرآن هذا الأسلوب وبرهن على صدقه بنجاح. فهو لا يدل على صدقه بقوله أن الأديان الأخرى باطلة، لذا فمست الحاجة إلى دين حق جديد، وقد جئت بالدين الحق، بل يعلن ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

(الرعد: ٨)، وهكذا فهو يعترف مبدئياً بصحة ادعاء مختلف الأمم بأن الله تعالى لم يزل يرسل لهم الرسل لهدايتهم، ويبرئ جميع الأديان التي تحمل طابع الوحي السماوي من تهمة الكذب والزور، وهذا على عكس ما يقوله اليهود والنصارى والهندوس وغيرهم، إذ كلٌّ منهم يصر على تكذيب الأديان الأخرى، ويقول إن كل كتاب سوى التوراة والإنجيل والفيدا ضلال وظلام، وأن الله حرم كل الأمم من الهداية إلا أمتهم.

الحق أن كل دين سوى الإسلام يكذب ديناً آخر أو يحتقره بشكل من الأشكال، ولكن الإسلام لا يفعل هذا، بل يقر بضرورة الهداية السماوية لكل زمان ولكل قوم التي كانت كاملة في زمنها وكانت تسدّ حاجات أهله بشكل كامل، وهكذا يمتاز القرآن عن الكتب الأخرى بترفعه عن اتهام الأديان الأخرى.

أما أصول الدين المفصلة فإن القرآن الكريم يمتاز عن الأديان الأخرى في هذا المجال أيضاً بترفعه عن اتهام الأديان الأخرى. إن الذات الإلهية هي العنصر الأساس في كيان الدين، وهي النقطة المركزية لكل الملل، ولا يخطر ببال المرء أن أحداً من الأديان يمكن أن يتهم الذات الإلهية، ولكن القليل من التدبر سيكشف عليك بأن الإنسان قد ارتكب هذا الخطأ المدهش مراراً.

تقول التوراة إن الله تعالى بعد أن خلق الكون شعر بالحاجة إلى الراحة فاستراح! فكيف يمكن أن يكون إلهاً من يتعب ويُرهبق، فقد ورد: "وَفَرَغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَأَحَ." (التكوين ٢ : ٢)

لقد حرّف المترجمون في الطبقات الأردية كلمة "استراح" إلى "فرغ" خوفاً من الطعن، ولكن كلمة استراح ما زالت موجودة في النسخة الإنجليزية وغيرها من النسخ. ولا شك أن القول بأن الله تعالى تعب من العمل واحتاج إلى الراحة تهمة شنيعة بحق الله تعالى. ولكن القرآن الكريم يبرئ الله تعالى من هذه التهمة إذ قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا

مَسْنًا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ق: ٣٩﴾ أي خلقناها في ست فترات، ولكن هذا لم يُصَبِّنا بأي تعب أو إرهاق، ولم نشعر بحاجة إلى الراحة.

كذلك ورد في التوراة: "فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ" (التكوين ٦: ٦). وكأنها تقول إن الله تعالى قد أخطأ في خلق الإنسان فندم وحزن على ذلك والعياذ بالله. وهذه إساءة بحق الله تعالى، فأَيُّ إِلَهٍ ذَلِكَ الذي يخطئ ولا يعرف نتيجة فعله؟ أما القرآن الكريم فيسبِّح الله تعالى ويقُدِّسه، أي أنه يعلن أن الله تعالى بريء من كل عيب وجامع لكل كمال، فيقول تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٣٤)، أي إني أعلم جيدا كل ما يتعلق بالسموات والأرض منذ الأزل وإلى الأبد. ومن يعلم غيب السموات والأرض وما يتعلق بها حالا ومستقبلا فكيف يقال عنه أنه خلق الكون خطأ ثم ندم؟

ثم يبين القرآن الكريم مبدأ هاما آخر، فيقول ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة: ٢)، أي أن كل ذرة من الكون تدل على براءة الله من أي عيب. فانظر كيف علّم القرآن تعليما أساسا ضد ما تزعمه التوراة، ويبين أن الله تعالى لم يخطئ في خلق الكون لأن العمل الذي يفعله أحد بإرادته ويخطئ به أو يترتب عليه الخطأ في النهاية فإنه يدل على عيب فاعله وضعف علمه وبصيرته، ولكن القرآن الكريم يعلن أن كل ما في السموات والأرض من إنسان أو حيوان أو ملك أو روح أو نبات أو جماد أو ذرة صغيرة أو كوكب ضخيم، ليشهد على أن الله بريء من كل عيب، وأنه لم يخطئ في خلق الكون قط. بل الحق أن هذه الآية تبين أكثر من ذلك، وهو أنه ليس المؤمنون والمخلصون وحدهم، بل إن الكافرين والمنافقين أيضا يشهدون عبر أفعالهم أن الله ﷻ لم يخطئ في خلق السموات والأرض، مع كل ما يقولونه بأفواههم من كلام خاطئ أو ما يجول في أذهانهم من أفكار باطلة.

ثم يبين الله تعالى أن الدليل على صدق هذه الدعوى هو أن نظام هذا الكون يدل على أنه هو الملك القدوس العزيز الحكيم. فهو الملك بمعنى أنه قد سنّ

للكون قانونًا، فالذين يلتزمون ويطيعون قانونه ينالون الجزاء، والذين يخالفونه ينالون العقاب. علمًا أن الملك هنا يشير إلى قانون الشريعة، أو إلى ما يقدر الإنسان على مخالفته من النواميس الطبيعية؛ كأن يأكل أكثر من الحاجة، أو أن يعمل بعينه أو أنفه أو أذنه أكثر من اللازم أو لا يعمل بها كما ينبغي. باختصار، المراد من ملوكية الله هنا قوانينه التي ليس الإنسان مجبرًا على طاعتها، بل هو قادر على أن يطيعه فيها أو لا يطيعه، لأن هذا هو شأن قوانين الملوك أيضًا إذ يقدر الناس على مخالفتها، غير أنهم يعاقبون إذا خالفوها ويجزّون إذا التزموا بها. فمن خالف القوانين الإلهية الملكية نال من الله الجزاء، فالذين يعملون بقوانين شريعته ينالون منه الجزاء الروحاني، والذين يطيعون قوانينه الطبيعية ينالون منه الجزاء الطبيعي، مما يبرهن على أن لهذا العالم ملكًا، فمعاملة الله تعالى مع أنبيائه وصلحائه لدليل قطعي ويقيني على وجود الإله القادر الذي هو ملكُ المخلوقات كلها.

ثم قال الله تعالى إنه ﴿الْقُدُّوسُ﴾، أي المبرأ من كل عيب ونقص، أي أن التدبر في ملوكيته تعالى يكشف لكم أنه لا يعمل كالملوك والحكام الماديين الذين يبيحون كل نوع من التصرفات للحفاظ على مُلكهم، كلا، بل إنما تتجلى ملوكية الله تعالى بحيث تؤكد قدوسيته، أي براءته من كل عيب. فعلى سبيل المثال، إن الذين يبعثهم الله تعالى لتنفيذ قوانينه يتحلّون بالأخلاق الحميدة، وكلما كان أحدهم أكثر قربًا إلى الله تعالى كان أكثر شفقةً على عباده. كذلك من عمل بنواميس الله الطبيعية انتفع بها أكبر نفع ونجا من النقائص الطبيعية، فالذي يستخدم عيونه بحسب الناموس الإلهي الطبيعي كان قويّ البصر، والذي يستخدم معدته بحسب الناموس الإلهي الطبيعي ينجو من كل الأمراض المتعلقة بالمعدة. باختصار، إن العمل بالقانون الإلهي لا يُلقى الإنسان في المشقة والمعاناة، بل يستره برداء القدوسية، أعني أن هذا القانون يبرّئه من العيوب والنقائص بقدر ما يعمل، فإذا عمل بقانون الشريعة نال الطهارة الروحانية، وإذا عمل أيضًا بالقانون الطبيعي نال الطهارة والقوة المادية.

ثم قال الله تعالى أنه ﴿العزیز﴾، أي إذا تعمقتم في خلق الله تبيّن لكم أنه بالإضافة إلى القانون الإلهي المشابه لقوانين الملوك الذي يقدر الإنسان على العمل به وعدم العمل به، هناك قانون إلهي آخر لا يقدر أحد على مخالفته، وهو ما يمكن تسميته بقانون الفطرة. وهو نوعان: روحاني ومادي؛ والقانون الروحاني هو ما يسمى دين الفطرة، وهو الذي يشمل كافة العواطف والأحاسيس الأخلاقية، والذي يخضع له المؤمن والكافر على السواء، والذي يتسبب في نهاية المطاف في هداية كل من أراد أن يفهم الدين بصدق القلب. وهذا القانون لا يقدر أحد على التخلص منه، فكل إنسان توجد فيه مشاعر الرحمة والشكر، فلا يمكن لأشد الناس ظلمًا أن يتخلص من هذه المشاعر، فالجرم الذي لا يندم على قتل الآلاف فإنه إذا مرض ابنه أخذ في البكاء والصراخ، وقد رأينا أن اللصوص والصعاليك لا يؤذون من أحسن إليهم ولو مرة. فهذه المشاعر توجد في فطرة كل إنسان، وإن كان البعض لا يستعملونها إلا في نطاق محدود لسوء أعمالهم.

وهذا القانون يتجلى لنا في العالم المادي عبر الخواص الطبيعية للأشياء التي هي مدار نظام الكون، فالملحد مثلاً يسبّ الله تعالى بلسانه ومع ذلك لا يقدر على الخروج على هذا القانون الدال على كون الله عزيزاً. وعلى سبيل المثال، قد جعل الله تعالى اللسان للتذوّق، فلا يستطيع الملحد أن يستخدم لسانه للرؤية مثلاً، بل لا مفر له من الخضوع لهذا القانون الطبيعي منقاداً، وذلك رغم خروجه على الله تعالى فيما يتعلق بقوانين دينه وشريعته. كذلك إن خواص الأشياء إنما تتجلى كما خلقها الله فيها، ولا يمكن أن تظهر خلاف ما جعل فيها. مما لا شك فيه أن خواص الأشياء تتغير أحياناً، ولكنها تتغير أيضاً بحسب نواميس الله الطبيعية الأخرى.

خلاصة الكلام أن هناك قانوناً إلهياً يعمل في الكون بحسب صفة الله العزيز، مما يدل على غلبته وقدرته، وكل واحدٍ -صغيراً كان أو كبيراً- مطيع لهذا

القانون، بل هو مجبر على طاعته، ولا يقدر على مخالفته كما يستطيع مخالفة نواميسه الملكية. وهذا القانون يدل على أنه ﴿العزیز﴾.

ثم قال الله تعالى أنه الحكيم، إذ قد يقول البعض إن هذا الجبر والإكراه ليس جيدا، فردّ الله بقوله ﴿الحكيم﴾ بأن لا الحرية المطلقة جيدة ولا الجبر المطلق جيد، وإنما يصلح كل منهما محله. ولا تأتي النتائج جيدة إلا إذا مورس الأمران بحكمة؛ فلو لا نواميس الله الطبيعية غير المتبدلة لظلّ رقي الإنسان العلمي محدودا جدا، لأن العلوم كلها من الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والزولوجيا إنما أساسها على هذه النواميس غير المتبدلة وعلى خواصها. فلو أنّ النار حرقت مرة وأزالت العطش مرة، ولو أن الماء برّد تارة وحرّق تارة أخرى، لاحتلّ نظام العالم كله. فكون النواميس الفطرية غير متبدلة، فيه حكم عظيم، وليس من دون سبب ونفع.

باختصار، لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن خلق السماوات والأرض يدل على صفات الله الأربع هذه: الملك القدوس العزيز الحكيم. ووضح أن فعل الله الذي يكشف صفاته الأربع هذه ويدل على حكمته العظيمة خاصة، لا يمكن أن يدفعه إلى أي ندم أو أسف. إن أبسط إنسان أيضا يفرح بعمله الحسن، ولا يندم عليه أبدا.

ثم إن القرآن الكريم قد رفض هذه الفكرة بذكر هذا الموضوع خاصة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧)، أي ما خلقنا هذا الكون من دون خطة وعلى سبيل اللعب، بل خلقناه بالحكمة والحق. ويؤكد هذا المعنى أيضا قوله تعالى ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، أي أنه خلقها بحسب قانونٍ قويم لا يبطل.

إن أكبر التهم وأشنعها في حق الله تعالى هي الشرك. والقرآن الكريم كله مليء بالأدلة الداحضة لهذه التهمة الشنيعة. والإنسان قد تفنّن في اصطناع شركاء مع الله تعالى؛ فمنهم من قال بإلهين: إله النور وإله الظلام، ومنهم من اتخذوا ثلاثة آلهة، فقالوا: الآب والابن والروح القدس، وبعضهم افترضوا عليه

الأزواج، ومنهم من وزَّع صفات الله على عدة شخصيات، واتخذوا آلهة مظاهر لهذه الصفات المختلفة. وبعضهم قالوا أن الله يتنازل عن حقوقه كلياً أو جزئياً لعبد يختاره من عباده. وبعضهم اعتبروا كل المظاهر العظيمة من الكون ذوات لها إرادة في إظهار صفات الله. وبعضهم ألَّه الأشياء الضاربة والحيوانات المخيفة. واعتبر بعضهم مظاهر الحسن والجمال مظهرًا لله تعالى ووصفوها بأوصاف الألوهية.

ولقد فُتد القرآن الكريم كل أنواع الشرك هذه بالتفصيل، ودحض هذه العقائد الباطلة بأدلة دامغة.

ولكن المجال لا يسمح بالخوض في هذا البحث مفصلاً، وسنتناوله في فرصة أخرى عند تفسير الآيات التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بالتفصيل إن شاء الله. كذلك قد تناول القرآن الكريم صفات الله تعالى مفصلاً بما لا يوجد له نظير في أي كتاب آخر. وبالتالي نزه الله تعالى عن كل التهم التي نسبتها إليه مختلف الأديان أو الفلسفات نتيجة بيان ناقص لصفاته أو فهم قاصر عن إدراكها.

باختصار، إن دراسة القرآن الكريم تكشف أن بيان القرآن الكريم عن الله تعالى يتفق مع عظمة الله وشأنه تماماً، فتحب أن ينسب إلى الله تعالى ما لا يليق بعظمته، بل فتده بالأدلة والبراهين. ونسب إلى الله تعالى ما يليق بعظمة معبود كامل في صفاته ذكرنا مفصلاً راعياً.

ثم إن الملائكة هي العلة الابتدائية والأساسية للكون بعد الله تعالى. ولقد برَّاهم القرآن أيضاً من العيوب والنقائص التي يُرمون بها فقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٧). وبذلك أبطل التهم التي قذف بها اليهود الملائكة من أنهم عصوا الله تعالى وأعرضوا عن أحكامه.

ويقول الهندوس أن الآلهة، أي الملائكة، ارتكبوا كذا وكذا من الذنوب والمعاصي والآثام، فكان لزاماً تبرئة الملائكة من هذه التهمة لأنهم المنيع الرئيس

لخوافز الخير. ولا شك أن عين الماء الصافي إذا أصبح نقاؤها عرضة للشك والشبهة فسيُحرم الإنسان من الانتفاع منه ويُسدّ في وجهه باب الخير.

والعماد الثالث لكمال صرح البناء الخلقي والروحي للإنسان هو كلام الله، لأنه يورث الإنسان المعرفة واليقين، لكن أصحاب الديانات والفلاسفة لم يرتدعوا عن اتهمه أيضاً. فبعضهم زعموا أن الوحي إنما هو مجرد أفكار صافية، مع أن تسمية الأفكار وحيًا يغلق في وجه الإنسان باب الثقة واليقين الذي يتأتى عن طريق الوحي اللفظي، لأنه يمكن لكل إنسان في هذه الحالة أن يسمي أفكاره وحيًا وإلهاما. والقرآن يرد على كل ذلك بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥)، أي كلم الله موسى شفويا وبالكلمات. وكذلك يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٧)، أي إذا التجأ إليك أحد من المشركين الذين يحاربونك فأجب طلبه؛ كي يسمع ما أنزل إليك من كتاب الله الذي كله كلام الله، وليس فيه أي لفظ من تأليف البشر. ثم إذا سمع كلام الله وأراد أن يعود إلى قومه، فعليك أن توصله آمنا إليهم. فالقرآن الكريم قد برأ الكتب السماوية أيضاً من تهمة أنها ليست من كلام الله، وأنها من أفكار العباقرة التي نسبوها إلى الله تعالى.

والأساس الرابع لبناء الدين هو الأنبياء، والتعاليم التي أوردتها القرآن عنهم هي أسمى من كل هتان. فأولاً بين القرآن للإنسان مبدأ أن الأنبياء عباد الله المقربون الأطهار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، أي عندما يعرض أنبياء الله تعالى على الناس كلامه المعجز وآياته السماوية فإن العصاة منهم يقولون لن نؤمن حتى تُعطى مباشرة ما أُعطي الرسل من نعم، إنهم لا ينظرون إلى أعمالهم السيئة! وكيف يمكن أن يُنزل الله تعالى وحيه المقدس على هؤلاء الآثمين المجرمين؟! إن الله أعلم على من يلقي عبء رسالته، أي إنما

يخلع نعمة الرسالة على الأطهار الصالحين لا على الجرمين. إن هؤلاء الآثمين يطالبون بالنعمة التي نزلت على أنبياء الله تعالى فليعلموا أن الله تعالى سوف يصبّ على هؤلاء الآثمين المتآمرين الأشرار ذلة وعذابا شديدا.

لقد شهدت هذه الآية بصورة مبدئية على نزاهة حياة الأنبياء وقداستهم، وهكذا فنّدت التهم والأخطاء التي تنسب إلى الأنبياء عموما، سواء ذكرهم القرآن أم لم يذكرهم. مثلا: يقول الهندوس عن نبيهم كرشنا عليه السلام أنه كان يسرق الزبدة وعاش منغمساً في التمتع بالنساء والعياذ بالله؛ فقد ورد عنه أن أمّه قالت له:

يا بُنَيَّ، عندي تسعمائة ألف بقرة حلوب، فكلّ من لبنها وزبدتها ما شئتَ، ولا تدخل بيوت الناس لسرقة الزبدة (كتاب شريمدا بهغوت بران، الباب العاشر، رقم ١٠-٨).

كذلك ورد: أنه بعد مغيب الشمس ذهب السيد "أكروور جي" إلى بيته، وذهب "كرشنا" إلى بيت أحد، وأقام كرشنا مع السيد نند والسيد "بلديو" في بيت السيد "جوبند بغت"، فاستقبلهم "بغت" بحفاوة واحترام. وعندما نام الجميع على فرشهم ونامت السيدة "كبجا" ذهب كرشنا إلى بيت كبجا، فوجدها نائمة على السرير، فلم يوقظ كرشنا الخادמות وإنما أيقظ كبجا وقال لها: أيتها الجميلة، اتركي النوم ومتّعيني. (برهم وي ورت بران، كرشن جنم، باب ٤ فصل ٧٢).

وبعد هذه الفقرة هناك كلام كثير سخيّف يمنعي من نقله الحياء واحترام كرشنا. ولكن كل هذه من مفتريات القوم، وكرشنا عليه السلام بريء منها، كما أعلن القرآن الكريم المبدأ الأساس أن كل المصلحين الربانيين أطهار.

وورد عن "رام شنذر" أنه غضب في آخر عمره على زوجته "سيتاجي" بلا سبب، وقطع عنها كل صلة. (راماين، الباب كاند، رقم ٥٣)

أما الأنبياء الذين ذكرهم القرآن بأسمائهم لأسباب خاصة ومصالح جليلة، فإنه أبرزَ عظمتهم وشأنهم بشكل خاصة، وبرأهم من التهم التي وُجّهت إليهم على

وجه الخصوص. فمثلاً: تقول التوراة إن آدم عليه السلام ارتكب معصية متممّة، أما القرآن الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٦)، أي يا محمد، لقد أنزلنا قبلك على آدم بعض أحكام الشرع، ولكنه نسي حكماً منها في إحدى المرات، ولكنه لم يعصنا عمداً، أي إنما وقع في هذا الخطأ نسياناً، فلا يمكن أن يسمى إثمًا ومعصية تدل على سواد قلبه.

وزُعم في التوراة أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كذب عدة مرات (التكوين ١٢: ١١-١٩)، وهي فرية انخدع بها طائفة من المسلمين أيضاً لعدم فهمهم بعض الأحاديث الشريفة. ولكن القرآن يعلن: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٨)، أي أنه أتمّ عهد الله تعالى إتماماً كاملاً، فكان مثلاً أعلى في طاعة أوامر الله، فتحلّى بالأخلاق الحسنة كلها من عدل وإحسان وعفو وغفران ورأفة وشفقة وصدق وحسن معاملة وغيرها.

قال أهل التوراة إن موسى عليه السلام خدع المصريين وسلبهم حُلِيِّهم بأمر من الله وفرّ بها (الخروج ١١: ٢)، ولكن القرآن يقول على لسان قوم موسى: ﴿وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٨)، أي لما ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل وقع جزء من قومه في الشرك، فلما رجع موسى غضب فقالوا: لم نفعل هذا برغبتنا، إنما أغوانا السامري. والحق أن حُلِيّ المصريين التي حُمِلناها قهراً لم نكن نرغب في الاحتفاظ بها، فسلمناها للسامري على طلبه؛ فهذه الآية تبين أن بني إسرائيل لم يخدعوا المصريين برغبتهم، دعك أن يخدعوهم بأمر من موسى، بل إن المصريين هم الذين أعطوا بني إسرائيل حُلِيِّهم خوفاً من صنوف العذاب حتى يتخلصوا منهم بخروجهم من بينهم. أما بنو إسرائيل فما كانوا يرغبون بالاحتفاظ بحُلِيّ المصريين مطلقاً.

وقيل في التوراة أن يد موسى عليه السلام صارت بيضاء نتيجة مرض البرص (الخروج ٤: ٦)، والتوراة تعتبر المبروص نجساً (اللاويين ١٣: ٩-١٢)، والبرص مرض مكروه. ولكن القرآن الكريم يبرئ موسى عليه السلام من هذه الوصمة ويقول: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (طه: ٢٣).

وتزعم التوراة أيضاً أن هارون عليه السلام صنع لبني إسرائيل عجلاً —والعياذ بالله— ودفعهم نحو الشرك (الخروج ٣٢: ٢١-٢٤). ولكن القرآن الكريم يرفع عنهم هذا الريب فيقول: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩١)، أي أنه قبل أن يرجع موسى من الجبل كان هارون ينهى قومه عن الشرك، ولم يزل يقول لهم: يا قوم، إنكم تفسدون إيمانكم باتخاذ العجل، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. وهكذا يبين القرآن أن هارون لم يكن من المشركين بل من الناهين عن الشرك.

واليهود يتهمون سيدنا سليمان عليه السلام أنه أشرك وصار عاصياً، إذ ورد في التوراة: {وَكَانَ فِي زَمَانٍ شَيْخُوحَةً سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى} (الملوك الأول ١١ : ٤)، ولكن القرآن برّاه من هذه التهمة فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٣)، أي أن سليمان بريء من الكفر، والذين رمّوه بالكفر هم الكفرة الشياطين.

وزعم اليهود أن سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام كان ثمة بغاء، والعياذ بالله، وأنه وُلد من نطفة يوسف النجار من غير زواج. (دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة JESUS). ورماه بعض اليهود بأنه ابن الجندي الروماني بنثيرا (Panthera) نتيجة علاقة أئيمة مع مريم (دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة JESUS). وطعن فيه اليهود بأنه كان يتلقى إلهامه من الشيطان، وكان على علاقة ببعل، أي الشيطان؛ حيث ورد: {وَأَمَّا الْكُتُبُ الَّذِينَ نَزَّلُوا مِنْ أَوْرُشَلِيمَ فَقَالُوا: إِنَّ مَعَهُ بَعْلَزُبُولَ! وَإِنَّهُ بِرَأْسِ الشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ} (مرقس ٣ : ٢٢).

لكن القرآن الكريم يبرئ المسيح وأمه —عليهما السلام— من هذه التهم كلها ويقول: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، فهو يعلن أن الصديقة مريم والدة عيسى عليهما السلام حفظت كل منافذها ولم تحمل من روح شريرة، وإنما من روح طاهرة من عند الله تعالى، وكانت هي وابنها من آيات الله.

وبرأ القرآن سيدنا عيسى عليه السلام من علاقة الشيطان فقال: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٤). فهو صاحب الآيات البينات المؤيد بروح القدس، أي بالملاك الطاهر المقدس الذي ينزل بالوحي من الله تعالى، ولم يكن له أي علاقة بالشيطان.

وأُتهم عيسى عليه السلام من قِبل أتباعه أيضا بتهمة خطيرة بأنه مات على الصليب، والعياذ بالله، مع أن الموت على الصليب مية لعنة بحسب التوراة. ورد في العهد الجديد: {الْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لِأَجْلِنَا، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِقَ عَلَى خَشَبَةٍ} (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣ : ١٣).

والقرآن الكريم يرى ساحة المسيح عليه السلام من هذه التهمة أيضا ويقول على لسانه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٤)، أي أن الذين يرموني بأن ولادتي غير شرعية فإنهم كاذبون، لأن ولادتي شملها سلام الله تعالى. كما أن الذين يدعون بأني مت مصلوبا ملعونا هم أيضا مخطئون، لأن موتي سيشمله سلام الله تعالى، وسوف أنجو من مية اللعنة. ومن يزعم أنني سوف أتحمل ذنوب الآخرين وأبقى في الجحيم ثلاثة أيام -والعياذ بالله- هم أيضا مخطئون، لأنني سوف أبعث بعد الموت تحت ظل سلامته عز وجل.

وقد ورد عن موت المسيح على الصليب حسب زعم النصارى ومكتبته في جهنم وموته مية لعينة في إنجيل نقوديمس الإصحاح ٢١. (THE GOSPEL OF NICODEMUS)

وكذلك جاء في رسالة بطرس الأولى ما يلي: {فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الْآثِمَةِ، لِكَيْ يُقَرَّبَنَا إِلَى اللَّهِ، مُمَاتًا فِي الْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيًى فِي الرُّوحِ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَّرَزَ لِلْأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السَّجَنِ، إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا، حِينَ كَانَتْ أَنَا اللَّهُ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ الْفُلُكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ}. (رسالة بطرس الأولى ٣ : ١٨-٢٠)

وقد ورد أن المراد بالسجن هو جهنم (تفسير الكتاب المقدس لماثيو بول MATHEW POOL ٩١١/٣).

والأساس الخامس للدين هو الإنسان نفسه لأنه مهبط وحي الله، وقد حاولت بعض الأديان أن تهدم هذا الأساس أيضاً؛ حيث تقول المسيحية بأن الروح الإنسانية أئمت بسبب إثم آدم، وأن الإنسان ميال بطبعه إلى الإثم؛ فقد ورد في العهد الجديد: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْما بِنَاسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ، وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ}. (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ ٥ : ١٢)

والدين الهندوسي أيضاً يصرح بأن الإنسان لا يمكن أن يتطهر رغم كفاحه، بل لا بد له أن يخضع للتناسخ، أي الولادات المتكررة في هذا العالم. (ستيوارث بركاكاش، للبانند دياند جي مؤسس فرقة آريا سماج الهندوسية: باب ٩).

لكن القرآن الكريم، على عكس كل الأديان، يبرئ الفطرة الإنسانية ويقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٨-١١). أي أننا نقدم النفس الإنسانية شهادة على أننا خلقناها منزهة من كل عيب، وأودعنا فطرتها القدرة على التمييز بين الخير والشر؛ فالذي يحفظ روحه من شوائب الشر الخارجي يفلح، ومن يلوث طهارته الفطرية بالشوائب الدنيوية ويحطها من مكانتها العالية يلقي الخسران، بمعنى أن الروح الإنسانية في أصلها طاهرة، لكن الناس بعد ذلك يندسونها. وليس صحيح أنها تدنست بذنب آدم أو غيره.

وكذلك يبطل القرآن دورات التناسخ ويقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٣). فاستخدام الجملة الاسمية ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يفيد معنى الدوام، أي تكونون في سلام دائم في الجنة. وكذلك يقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ (هود: ١٠٩)، فالسعداء سوف يبقون في الجنة بحسب مشيئة الله ما دامت سماوات

الجنة وأرضها باقية. ثم يعلن الله مشيئته ويقول: أنهم لن يُخرجوا من الجنة أبداً، وأهم يُعطون عطاء لا انقطاع له أبداً. ولقد أقرت هذه الآية الكريمة حقَّ الفطرة الإنسانية بالنجاة الدائمة الذي أبطله الهندوس الآريون من خلال عقيدة التناسخ.

فالإسلام قد برأ الدين من جميع التهم التي نسبها أتباع الأديان المختلفة والفلاسفة لأهم دعائم الدين؛ فبرأ الله عز وجل والملائكة والكتب والرسل والفطرة الإنسانية من كل ما تُسب إليهم من افتراءات. وهذه مزية لا يملكها كتاب آخر في حالته الراهنة. والقرآن الكريم وحده يبرئ من هذه التهم هؤلاء الشخصيات المباركة والمبادئ السامية التي هي بمنزلة أعمدة الدين. ولو لم يكن للقرآن فضل سوى هذا الأمر لكفى بذلك وحده دليلاً على ضرورة نزوله مع وجود الكتب الأخرى.

وواضح أن الذي يسيء الظن بالله تعالى ويرتاب في صفاته عز وجل لا يمكن أن يتمتع برحمته الواسعة بإنشاء علاقة متينة معه ﷻ. والذي يسيء الظن بالملائكة لا يستطيع أن يعزز علاقته بهم ويستفيد من حوافزهم الطاهرة. والذي يسيء الظن بالأنبياء أو ببعضهم فليس بإمكانه أن ينتفع بأسوقهم الحسنة. والذي يشك في كلام الله سيُحرم حتماً من تأثيره الطيب وثماره النافعة. ومن يظن بالفطرة الإنسانية الظنون سوف تضعف جهوده لتطهير نفسه بالعزيمة الصادقة التي لا بد منها للحصول على الطهارة الروحية.

فوصف القرآن المجيد بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قد فتح للإنسان طريقاً للانتفاع من منابع الخير والتأسي بأصحاب الأسوة الحسنة، وأمل الإنسان بأمل لا ينقطع، وهو طريق يضمن له النجاة ويكفل له النجاح.

الدعوى الثانية:

والمعنى الثاني للريب هو الشك، وعليه فقله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني أن من البراهين الدالة على صدق القرآن الكريم وضرورته براءته من أي شك.

والذين يسارعون إلى الطعن في القرآن مع جهلهم الفاضح باللغة العربية يفسِّرون عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ على أنها تعبير عن القلق الذي شعر به الرسول ﷺ لما في القرآن من ريبة، وأنه ينفي عن نفسه الريب لإحساسه بما فيه من ريب (القيس ويحيى، نقلًا عن الترجمة الرومية للقرآن). وهذا الاعتراض يكشف عن سخف صاحبه الذي لا يعلم أن سورة البقرة ليست من أوائل الوحي النازل على النبي ﷺ حتى يظن أنه ينفي ما يختلج في قلبه من شكوك، وإنما نزلت في المدينة المنورة بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة تتابع فيها نزول القرآن، وأبدى الكفار في هذه الفترة كثيرًا من الشبهات حول القرآن الكريم؛ ألا يحقّ للقرآن بعد كل هذه الفترة من الطعن والتجديف أن يعلن ألا ريب فيه؟ وإذا لم يحقّ هذا للقرآن لكان معنى ذلك أن الصادق لا يحق له أن يقول إنه صادق، وإلا لتعرض صدقه للشك. إن مثل هذه الدعوى باطلة بداهة، ولن يرضى بها عاقل، ولم يعمل بناء عليها أي صادق، وإنما هي اختراع صاحب الترجمة الرومية للقرآن الكريم، ولم يوفق لتصديق هذه الدعوى المعارضة للعقل إلا القسيس ويحيى.

من المؤسف أن القسيسين لم يتعمقا في دراسة كتبهما المقدسة؛ إذ لو درساهما حقًا لما تجرّأ على الطعن في القرآن، لأنهما يعرضان بذلك كتبهما للطعن والتجريح، لأن الأسلوب الذي يعرضان عليه يتكرر فيها أيضًا، ونسوق بعض هذه العبارات مثالًا:

{كُلُّ كَلِمَاتٍ فَمِيَ بِالْحَقِّ. لَيْسَ فِيهَا عَوَجٌ وَلَا تَوَاءٌ} (الأمثال ٨ : ٨).

{أَنَا الرَّبُّ مُتَكَلِّمٌ بِالصِّدْقِ، مُخْبِرٌ بِالاسْتِقَامَةِ} (إشعياء ٤٥ : ١٩).

{صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلُّ قُبُولٍ} (رسالة بولس الرسول الأولى إلى

تيموثاوس ٤ : ٩).

{صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ.} (رسالة بولس إلى تيطس ٣ : ٨)

{وَقَالَ لِي: اكْتُبْ: فَإِنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ}. (رؤيا يوحنا

اللاهوتي ٢١ : ٥)

{ هَذِهِ الْأَقْوَالُ أَمِينَةٌ وَصَادِقَةٌ }. (المرجع السابق ٢٢ : ٦)

يتضح من هذا أن الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) قد اختار أسلوباً مماثلاً لأسلوب القرآن للتأكيد على صدقه؛ فمؤلفو العهدين إذاً أولى بالتشكيك بحسب منطق القسيسين! والحق أن هذه الشبهة لا تصحّ ضد الكتاب المقدس ولا ضد القرآن الكريم، لأن ورود مثل هذه الكلمات الدافعة للشبهات لا يدل على الشك في صدق الدعوة، وإنما يدل على اليقين من صدقها. علماً أن هذه الكلمات لم يستعملها القرآن الكريم في السور الأولى نزولاً، وإنما بعد فترة طويلة من المعارضة. هذا الجواب قدّمناه نظراً إلى الأمر الواقع، وإلا فأرى أن استعمال مثل هذه الكلمات حتى في أوائل الكتاب النازل من عالم الغيب لا يدل على أيّ شك فيه، لأن الإنسان لا يعرف ما سيلقاه قوله من رفض أو قبول عند إعلان دعواه، ولكن الله تبارك وتعالى عليم بما سيكون عليه موقف الناس مما أنزله من الوحي، ولذلك يناسب المقام نفي الريب عنه منذ البداية، ولذلك لا بأس إذا استعمل مثل هذه الكلمات بناء على علمه للغيب. وهذا لا يدل على وجود شكٍّ في دعوى الرسول، وإنما يدل على علم عالم الغيب.

لقد قدمْتُ الإجابات السابقة باعتبار أن قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنما جاء فقط للتأكيد على صدق القرآن الكريم، ولكني أرى أنه حتى لو فسرنا الريب بمعنى الشك فقط فلا يكون للتأكيد على صدق القرآن فحسب، بل يكون إشارة إلى المزيد من الحقائق الدالة على صدق القرآن الكريم؛ فأحد معاني قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن هذا الوحي حق حتماً. ومعناه الثاني هو أنه ليس فيه ما يثير الشك. وقد سبق أن ذكرتُ عند شرح الكلمات أن الريب ليس هو الشك الذي يساعد على المزيد من التحقيق، والذي عليه مدار تقدم العلم، وإنما الريب هو الشك الذي لا مبرر له وأساسه سوء الظن. وعليه فقوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني أنه ليس في القرآن الكريم ما فيه سوء ظن أو إنكار الحقائق. بمعنى أن كل ما فيه هو حقّ محقق وليس من قبيل الظنون. وهذه الدعوى القرآنية ليست هينة، بل إنها لو ثبتت لقدّمت برهاناً عظيماً على صدق القرآن الكريم.

بالفعل نجد أن كل القضايا التي ذكرها القرآن الكريم فقد ذكرها بالأدلة والبراهين. إن الكتاب المقدس والفيدا وغيرهما من الكتب تقدّم ذات الباري تعالى، ولكن أقوالها مجرد دعوى من دون دليل، أما القرآن الكريم فإنه إذا أمر بالإيمان بالله تعالى شفعه بالأدلة والبراهين القوية. وكذلك إذا أمر بالإيمان بالملائكة دلت على وجودها بالبراهين الساطعة. وإذا حثّ على الدعاء ذكره بشكل مبرهن. وإذا دعا إلى الإيمان بالأنبياء ساق أدلة صدقهم، وإذا حثّنا على الإيمان بالبعث بعد الموت دعم هذه العقيدة ببراهين قوية. فما من عقيدة يقدمها القرآن إلا ويسوق معها أدلة صدقها وبراهينها.

وسوف نتناول هذه القضايا والأمور مفصلة لدى تفسير الآيات في مكانها. فقلوه تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني أن القرآن الكريم مع كونه كتابا كاملا، أي شاملا لكل قضية ضرورية، إلا أنه لا يذكر الأمور الظنية المشكوك فيها، بل يقدّم كل أمر مع الدليل والبرهان، ويعرض كل قضية بشكل محقق ثابت.

وهذا الأمر من أكبر الأدلة على أفضلية القرآن الكريم، لأن ذكر أمر أو أمرين معلومين بالأدلة أمر يسير، أما أن يذكر الكتاب كل أمر هام مدعما بالدليل الذي يزيح عنه ستار الظن والاضطراب، ويوقفه موقف اليقين والثبوت، فهو أمر صعب للغاية. ولا يسع المنصف إلا أن يثق بالكتاب الذي يقدّم دعاويه كلها على هذا المنوال ولا يشك في صدقه أبدا.

ومن معاني ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه لا شك في كون القرآن محفوظا. وورود هذه الكلمات بعد ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يدل على أنه لا كتاب بعد هذا الكتاب، وأنه آخر كتاب أنزل لهداية الناس، إذ قلنا من قبل إن من معاني قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أنه هو الكتاب الكامل الذي يتضمن ما يلي جميع حاجات الإنسان، فما دام كذلك فلا يمكن أن ينزل كتاب آخر إلا إذا تطرق الضياع إليه، لأن القانون الجديد يتطلبه أمران اثنان: أن يكون القانون السابق ناقصا، وظهر عليه قصور وعجز أمام مهمّات زمن ما، أو فقد كُله أو بعضه، ومست الحاجة إلى إعادة تدوينه. لذلك صرح الله عز وجل بهذا الأسلوب، أي قول ﴿لَا رَيْبَ

فِيهِ» بعد ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أن هذا الكتاب الكامل لن يزال محفوظا من حوادث الدهر، ولن يأتي زمن ينتاب فيه الناس ريباً فيما إذا كان لفظه لا يزال محفوظا كما نزل من عند الله تعالى أم أنه قد حُرِّفَ وزُيِّفَ. وبما أنه لن يأتي على هذا الكتاب مثل هذا الزمن، فلن يُنسخ أبداً، بل لا بدّ للناس إلى يوم القيامة أن يعملوا به من أجل حياتهم الروحية.

إن هذا المفهوم أيضاً يدل على ميزة عظيمة للقرآن. فاليوم، وقد مرت على نزوله أكثر من ثلاثة عشر قرناً لا يزال الأعداء فضلاً عن الأصدقاء يشهدون على صحته. وهناك من الشواهد الذاتية والخارجية ما يدل على أصالته وسلامته من التحريف. ويشهد بذلك رجل مثل السير وليام موير قائلاً:

There is otherwise every security, internal and external, that we possess a text the same as that which Mahomet himself gave forth and used. (Life of Mohammad by Sir William Muir P561)

أي أن لدينا كل ضمان داخلي وخارجي على أن الكتاب الذي بين أيدينا هو نفس نص الكتاب الذي قدّمه محمد للناس واستعمله بنفسه.

وهذه ميزة تدل بجلاء على حاجة البشر إلى القرآن الكريم رغم وجود الكتب الأخرى، لأن الكتاب الذي يتطرق إلى صحته الشك لا ينشر في الصدر للعمل به، مع أنه لا بدّ من الانشراح الكامل في الدين والعقيدة. لا شك أن العهدين القديم والجديد و"الفيدا" و"الزند" وتفسيره "أفستا" كانت موجودة قبل القرآن، ولكن لم يكن أيٌّ منها محفوظاً بصورته المنزلة؛ فأتباع الزند أفستا يعترفون بأنفسهم أن معظمه قد ضاع، وأن النسخة الحالية منه في حالة لا تدع مجالاً للشك في ضياعه، فقد ورد أن الملك يستاسب (vishtaspa) الذي كان راعي الديانة الزرادشتية أعدّ نسختين للأفستا مكتوبتين بالأحرف الذهبية ووضعهما في مدينتي اصطخر وسمرقند، ولكنهما دُمّرتا خلال هجوم الاسكندر في سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، وكسّر هجوم الاسكندر قوة الديانة الزرادشتية. وكانت القرون الخمسة التالية التي حكم فيها أسرتي سيليسد (Seleucid) وبارتين (Parthian)

فترة الظلام والانحطاط في تاريخ الديانة الزرادشتية، مما أسفر عن ضياع الكثير من كتبها الدينية الأصلية. ورغم الغفلة التي سادت نتيجة ذلك، إلا أن أجزاء متفرقة لا بأس بها من الكتب الدينية ظلت محفوظة في شتى المصادر وذاكرة العلماء. (دائرة معارف الأديان والأخلاق، مجلد ٢ تحت كلمة: Avesta)

والفيدا أيضاً غير مصون، ونُسَخُه مختلفة فيما بينها اختلافاً كبيراً مما يشكل دليلاً واضحاً على التحريف. وقد بلغ هذا التحريف إلى حدّ اختفاء فقرات من نُسَخِ ووجودها في أخرى، وورود عبارة في نسخة بأسلوب يختلف عما يوجد في نسخة أخرى. فقد شهد على تحريف الفيذا عالم هندوسي كبير قبل عدة قرون، قائلاً:

"إن "الفيدياس" قد ذكر كتب الفيذا الأربعة في "دوا برِئغ"، ولكن أولاد الريشيين قد جعلوا كتب الفيذا مختلفاً بعضها عن بعض لجهلهم، وأضافوا في بعض الفقرات الأصلية تفسير المفسرين أحياناً، وأحياناً أخرى أخطأوا في الإعراب وضبط الكلمات فجعلوا كلاً من "ريغ فيدا، و"يَجُرْ فيدا، و"سام فيدا" مختلفاً بعضها عن بعض، وشوهوها تارةً بإضافة شروح وأفكار عامة، وتارةً أخرى بالخلط بين ما ورد في كُتب الشارحين وكلام الله. (كورم بُران، النصف الآخر، باب ٢٠، فقرات ٤٤-٤٦).

ولقد صدّق جمهور الهندوس وعلمائهم في الزمن الحاضر بهذه الحقيقة أيضاً، الأمر الذي يكشف عن حالة الفيذا الراهنة؛ فقد كتب "البانديت جي ديو شرما" في تفسيره لسامفيدا: لا يوجد في كثير من نسخ "سام فيدا" الباب المسمى "آرنِيك كاند". (ص ٢٩٥)

وكذلك كتب "البانديت ثُلَسِيرام سوامي" في تفسيره لسام فيدا: "نسخة سام فيدا التي نشرها "البانديت ستية برّت سام شرمي" لا يوجد فيها الباب المسمى "مهانامي سُوكت"، مع أن هذا الباب والباب المسمى "آرنِيك كاند" موجودان في النسخ المطبوعة من قبل الآريين الصادرة من مدينة أجمير، ولكنهما مفقودان

في نُسخ سام فيدا المطبوعة في مدينة بَنَارَس. وفي كل من هذين البابين ٦٥ فقرة، وهي توجد في بعض النُسخ ولا توجد في غيرها. (المجلد ٢ ص ٨٣٤)
وهذا هو حال ريغ فيدا ويجر فيدا وأثر فيدا؛ حتى قال "البانديت فيدك مُني" عن تحريف أثر فيدا: لقد تعرَّض أثر فيدا للتحريف والفساد بما لم يتعرض له أي من كتب الفيديا الأخرى، فقد أُضيف إليه أبواب كثيرة حتى ما بعد زمن "ساين آجاريا". (فيد سَر دَسَو، ص ٩٧)

أما التوراة الحالية فشهد على نفسها بالتحريف حيث جاء فيها: {فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ، وَدَفَنَهُ فِي الْجَوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فُغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ.} (التَّثْنِيَّة ٣٤: ٥-٦)

كما ورد أيضا:
{وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجَعَهَا لِيُوجِّهَ.} (التَّثْنِيَّة ٣٤ : ١٠)

ويدرك كل عاقل أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون قد نزل على موسى عليه السلام، وإنما أُضيفت هذه الفقرات إلى التوراة بعد وفاته بمدة طويلة.

وعلاوة على ما ألحقَ بالتوراة من كلام البشر، نجد فيها من التناقضات ما لا يمكن معها الادعاء بأن هذا الكتاب هو نفس ما أنزل إلى موسى عليه السلام، لأن كلام الله تعالى منزه عن الاختلاف والتناقض، وهاك بعض الأمثلة:

ورد فيها أن الله خلق الحشرات والحيوانات أولًا، ثم بعد ذلك خلق الإنسان (التكوين ١ : ٢٤-٢٧)، ولكنه في موضع لاحق يقول إن الله خلق حيوانات البر وطيور السماء بعدما خلق آدم. (التكوين ٢ : ١٩).

وجاء فيه أن الله تعالى أمر نوحًا عليه السلام أن يأخذ معه في السفينة سبعة أزواج من كل نوع طاهر، فعمل نوح كما أمر (التكوين ٧ : ١ - ٥)، لكنه في نفس الإصحاح يقول أن الزوجين، أي الذكرين والأنثيين، من كل نوع طاهر دخلا

السفينة حسب ما أمر الله!! (التكوين ٧: ٧ - ٩). فهل هي سبعة أزواج أم زوجان؟

وهناك عشرات من أمثال هذا التناقض الذي يكشف بوضوح أن هذا الكتاب لم يُعد بالصورة التي نزل بها على موسى ﷺ، وإلا لما وجدت فيها هذه التناقضات الصارخة.

وهذا هو حال الأناجيل، فأولاً: ليس هناك ما يدل على أي منها وحيٌ وأي منها ليست وحيًا، لأن الأناجيل كثيرة، ورجّحوا منها أربعة بإلقاء القرعة بلا أي دليل، ثم قالوا إن هذه الأربعة هي أصحّها وأوثقها. ولكن يندر في هذه الأربعة أيضاً كلام المسيح ﷺ، أما كلام الله تعالى فلا يوجد فيها مطلقاً. نعم، هناك بضع فقرات نسبها المسيح إلى الله، أما وحي الله الخالص، سواء كان بكلمات الله أو بكلمات المسيح، فقليل جداً في الأناجيل. إنها تضم أحداثاً تاريخية لا تمت إلى الوحي بصلة، وما هي إلا وجهة نظر لبعض المؤرخين لا غير.

ولا تنتهي القضية عند هذا الحد، بل إن الأناجيل التي يتكون منها العهد الجديد: (١) متناقضة أشد التناقض، و(٢) تراجمها في مختلف العصور متعارضة أشد التعارض، وإليك بعض الشواهد على الأمر الأول:

يقول متى في إنجيله إن المسيح ﷺ أوصى تلاميذه قائلاً: {لَا تَقْتَنُوا ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا نَحَاسًا فِي مَنَاطِقِكُمْ، وَلَا مِزْوَدًا لِلطَّرِيقِ، وَلَا ثَوْبَيْنِ، وَلَا أَحْذِيَّةً، وَلَا عَصًا.} (متى ١٠: ٩-١٠)، ولكن مرقس يقول في إنجيله: {أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصَا فَقَطْ، لَا مِزْوَدًا وَلَا خُبْزًا وَلَا نَحَاسًا فِي الْمِنْطَقَةِ، بَلْ يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنَعَالٍ، وَلَا يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ.} (مرقس ٦: ٨-٩)

فأحدهما قال إن المسيح ﷺ أوصاهم: لا تأخذوا حذاء ولا عصا، والثاني يقول إنه قال لهم أن لا يأخذوا إلا عصا وأن يلبسوا الحذاء فقط. وهذا تناقض بين.

ويقول متى: {أَيْضًا كَانَ اللَّصَّانِ اللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ يُعَيَّرَانِهِ.} (٢٧: ٤٤)

ويتفق مرقس في ١٥ : ٣٢ مع متى فيما قال، لكن (لوقا) يخالفهما ويقول: {وَكَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنِبِينَ الْمُعْلَقِينَ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلًا: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحُ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا!» فَاجَابَ الْآخَرُ وَانْتَهَرَهُ قَائِلًا: «أَوَلَا أَنْتَ تَخَافُ اللَّهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هَذَا الْحُكْمِ بِعَيْنِهِ؟ ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي، يَا رَبُّ، مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِيَ فِي الْفِرْدَوْسِ}. (لوقا ٢٣ : ٣٩-٤٣)

ويقول مرقس بخصوص المسيح ﷺ {وَكَانَتْ السَّاعَةُ الثَّلَاثَةُ فَصَلَّبُوهُ} (١٥ : ٢٥)، ولكن يوحنا يعارضه ويقول إنه ﷺ ظل موجودًا في محكمة بيلاطوس حتى الساعة السادسة تقريبًا. (١٩ : ١٤).

ورود في متى أن يهوذا الاسخريوطي الذي ساعد على اعتقال المسيح ﷺ خنق نفسه منتحرا (٢٧ : ٥)، لكن ذكر في موضع آخر أنه سقط على وجهه وانشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها. (سفر الأعمال ١ : ١٨)

وهناك اختلاف غريب في الأناجيل حول الحوادث التي وقعت في اليوم التالي ليوم الصليب. يقول يوحنا: {وَفِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ (أي يوم الأحد) جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ} (إنجيل يوحنا ٢٠ : ١)، ويقول متى: {وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الْأُخْرَى لِيَنْتَظِرَا الْقَبْرَ} (متى ٢٨ : ١). فالزائرة امرأة واحدة عند يوحنا، ولكن في متى زائرتان، أما مرقس فيخالف الاثنين ويقول: {وَبَعْدَمَا مَضَى السَّبْتُ اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ حَنُوطًا لِيَأْتِيَنَّ وَيَذْهَبْنَ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ} (١٦ : ١-٢). فالزائرات عنده ثلاث نسوة. ولكن لوقا يخالف الجميع فيمن جئن إلى القبر، فيقول {كَانَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَيُونَّا وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَالْبَاقِيَاتُ مَعَهُنَّ} (لوقا ٢٤ : ١٠). وكان كل إنجيل يعارض الإنجيل الآخر في هذا البيان! فكيف يمكن مع هذه التناقضات البينة أن نسلّم بأن هذا

كله هو كلام الله؟ إن هذه التناقضات وغيرها الكثير تؤكد أن الأناجيل ليست منزهة عن الريب والشك.

ونقدم الأمثلة التالية لإثبات الأمر الثاني وهو اختلاف تراجم الإنجيل:

١- في إنجيل متى المطبوع قبل عام ١٩٣٠م، نجد الفقرة التالية: {وَأَمَّا هَذَا الْجِنْسُ فَلَا يَخْرُجُ إِلَّا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ} (١٧: ٢١)، ولكنهم حذفوها من النسخ المطبوعة عام ١٩٣٠ وما بعده.^١

٢- وحتى عام ١٩٣٠ كان في متى قول المسيح عليه السلام: {لَمَّاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ} (١٩: ١٧)، ولكنهم حرفوه في طبعة ١٩٣٠ إلى: "لماذا تسألني عن الصلاح".

٣- وكان في متى أيضاً: {وَيَلْ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ الْمَرَاؤُونَ! لِأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الْأَرَامِلِ، وَلِئَلَّا تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ، لِذَلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ} (٢٣: ١٤)، وقد حذفوا هذه الفقرة من طبعة ١٩٣٠.

٤- وكان في متى: {لَمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقُوا قُرْعَةً} (٢٧: ٣٥)، فحذفوها في نسخة عام ١٩٣٠.

٥- وكذلك حذفت في طبعة ١٩٣٠ وما بعدها الفقرة التالية من إنجيل يوحنا (٥: ٤): {لَآنَ مَلَاكًا كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَاءًا فِي الْبَرَكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ، فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلًا بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ}.

٦- نجد في نسخة إنجيل يوحنا - المطبوعة في "مرزابور"، الهند - هامشاً يقول إن الفقرات من ٧: ٥٣ إلى ٨: ١١ لا توجد في أكثر النسخ المخطوطة.^٢

^١ يتحدث المفسر عليه السلام هنا عن الطباعات الأردنية للكتاب المقدس. (المترجم)

^٢ علماً أن بعض الفقرات التي حذفوها في طبعة عام ١٩٣٠ قد أعادوها في طبعة عام ١٩٣٨، وذلك بين الأقواس على شاكلة هوامش، مما يزيد الأمر تأكيداً أن الكتاب

فعلماء النصرانية أنفسهم يعترفون أن بعض الفقرات التي في الإنجيل لم تكن في الواقع جزءاً منه، وأن النسخ القديمة يختلف بعضها عن بعض، إذ يوجد في بعضها طائفة من الفقرات لا توجد في البعض الآخر. فهذه الأمور كلها دليل حاسم على أن الأناجيل الحالية ليست منزهة عن الشك والشبهات، بل إنها لدليل قاطع على تحريف الإنجيل والزيادة فيه.

فمع وجود هذه الكتب المحرفة المنسوبة إلى الله كان العالم بحاجة ماسة إلى كتاب تكون كل كلمة منه محكمة متسمة باليقين، ويعترف الجميع معارضين ومؤيدين بصحته وحفظه من التحريف. وقد سدّ القرآن الكريم هذه الحاجة، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

فالاعتراض أنه ما الحاجة إلى نزول القرآن الكريم مع وجود الصحف السابقة اعتراض باطل، لأن الكتب السابقة المحرفة المبدلة كانت نفسها تقتضي نزول كتاب محفوظ من التحريف يعمل به الناس مطمئنين بأن كل لفظ فيه من وحي الله تعالى. فالقرآن قد دلل على الحاجة إليه بدليلين: أولهما أنه الكتاب الكامل، وثانيهما أنه لا بد للإيمان من اليقين التام بالكتاب الذي يعمل به الإنسان. وكانت الكتب قبل القرآن الكريم قد أصبحت كلها مزيفة مشكوك فيها، فمست الحاجة إلى كتاب يكون كل لفظ فيه من عند الله من دون أي شك، فنزل القرآن الكريم سدّاً لحاجة الناس هذه، لكي يعمل الناس به موقنين مطمئنين بأن هذا الكتاب محفوظ كله وأن كل لفظ فيه هو هو كما نزل من عند الله تعالى. وهذا دليل لا يسع أحداً بعده إنكار ضرورة نزول القرآن الكريم، فوجود الكتب الأخرى لا يُبطل ضرورة نزوله، كما أن هذه الكلمات تمثل نبوءة بأن هذا الكتاب سيظل محفوظاً دوماً وإلى الأبد ولن يتعرض للبعث والتحريف بأيدي البشر.

المقدس ليس كتاباً سماوياً، وإنما اتخذوه لعبة، إذ يضيفون إليه ويحذفون منه ما شاءوا ومتى شاءوا. (المفسر)

الدعوى الثالثة:

ومن معاني الريب أيضًا الهلاك والدمار، وعليه فقوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يدل على أن هذا الكتاب ليس جامعًا لكل الكمالات كلها فحسب، بل هو منزّه من كل نقص وعيب أيضًا، فهو أسمى من أن يكون فيه ضرر ما. ذلك لأن بعض وصفات العلاج قد تفيد في علاج مرض معين ولكنها قد تسبب أعراضًا أخرى، فقد أعلن الله تعالى بهذه الكلمات أن القرآن الكريم يسدّ كل حاجة دينية للإنسان، كما أن من مزاياه أن من عمل به لا تتضرر روحانيته بأي شكل من الأشكال. كما قال تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ٣). فليس في القرآن ما يعرقل التقدم الروحي أو المادي للإنسان، بل إن توجيهاته نافعة، كما أنها خالية من أي ضرر. وسوف نذكر أمثلة كثيرة خلال التفسير على هذا الأمر في مكانها إن شاء الله، مما يؤكد أنه ليس في القرآن الكريم ما يضر روحانية الإنسان أو أخلاقه بشكل من الأشكال، بل هو خير كله. وهي ميزة تدل على أفضلية القرآن الكريم على الكتب الأخرى بكل جلاء.

الدعوى الرابعة:

ومن معاني الريب الحاجة، فيعني قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أنه كتاب جامع لكل القضايا الدينية الضرورية الهامة ولم يفته شيء منها. فمن فضائل القرآن الكريم أنه كتاب جامع، فليس هنالك أي قضية اعتقادية أو عملية أو اقتصادية أو مدنية إلا ويتناولها القرآن الكريم ويعطي بشأنها تعاليم مفصلة. وذلك مع صغر حجمه، الأمر الذي يجعل الإنسان يندهش ويضطر لاعتباره معجزة قرآنية عظيمة.

وهذه ميزة قد اعترف بها حتى الأعداء. فقد ورد في الحديث: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ عَلَيْنَا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

لَتَتَّخِذُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنِّي أَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؛ أُنْزِلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ (الترمذي، تفسير القرآن). وكان سيدنا عمر قال له: أن هذه الآية نزلت في يوم كان لنا فيه عيدان، الجمعة ويوم عرفة.

ويروى أن ابن عباس قرأ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وعنده يهودي فقال: لو نزلت علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين، في يوم الجمعة وفي يوم عرفة. (المرجع السابق)

خلاصة الكلام أن قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله حقاً فحسب، بل إنه يشير إلى المفاهيم التالية بالنظر إلى المعاني المختلفة للريب.

أن القرآن الكريم:

١: كتاب لا ينكر حقيقة بل يعترف بالحقائق كلها. ويذب التهمة وسوء الظن عن كل ما يتعلق بالدين.

٢: يعتمد على اليقنيات لا الظنيات؛ إذ يذكر كل شيء مع أدلته.

٣: كلام محفوظ وقطعي وسيظل كذلك إلى الأبد.

٤: ليس فيه ما يشقّ على الإنسان ويدمره.

٥: فيه كل ما هو ضروري، فما من قضية دينية أو أخلاقية أو مدنية أو اقتصادية أو سياسية إلا ويقدم بشأنها منهاجاً كاملاً.

أما قوله تعالى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمن معانيها:

١: أن في القرآن الكريم ما يجعل الإنسان يلتاع لوصال الله تعالى، بمعنى أن تلاوته تدفع الفطرة السليمة تلك الدفعة التي من دونها لا يمكن أن تندفع الأرواح نحو حبیبها بلهفة وشوق. إن توليد الأفكار الفلسفية وحدها لا يكفي الإنسان، لأن الفلسفة والحكمة تُصلح الأفكار فقط، ولكنها لا تخلق تلك العاطفة الحياشة التي لا تُقاوم لوصال الله تعالى. بينما تكون الفطرة الإنسانية من

أجل العمل بحاجة إلى دفعة تتقدم بعدها تلقائياً. يستطيع الفيلسوف إلقاء خطاب رثان حول الإيثار والخدمة، ولكن الأم الجاهلة لا تستطيع أن تبين عُشْرَ معشار ما يقوله الفيلسوف نظرياً، لكنها تقدّم في سبيل طفلها مثلاً عملياً للتضحية والتفاني ما لا يستطيع الفيلسوف أن يأتي بعُشْرٍ معشاره لخدمة الإنسانية. من أجل ذلك لا ينجح الكتاب في رسالته الإصلاحية الشاملة إلا إذا كان «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»، أي قادراً على إيقاد نيران العشق والمحبة في قلوب قوم قد تطهرت أفكارهم بالدليل والبرهان، فيولد في قلوبهم عاطفةً يزدادون فيها حبا لله تعالى باستمرار من ناحية، وشفقة على المخلوقات باستمرار من ناحية أخرى.

والقرآن بقوله «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» يعلن أنه يحقق هذه الغاية، ويبيّن أنه يُكسب الإنسان طاقة التقدم التي يسير بها نحو الحب الكامل لله عز وجل.

٢: ومن معاني الهدى، الهدى الذي يصل الناس على أيدي الأنبياء، وعليه فقوله تعالى «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» يعني أن الذين يحبون أن يتيسر لهم هدى خالقهم ومالكهم دائماً، فإن هذا الكتاب يحقق رغبتهم أيضاً، فأياً كانت درجة هذا المتقي فإنه سيجد في هذا الكتاب تعاليم إلهية مقدسة ومطهرة لإرشاده، مما يطمئن به قلبه بأنه لا يعمل بعقله فقط، بل إنه يتمتع بهدي الله الذي يساعده على التقدم بكل يقين واطمئنان، فيعيش بعيداً عن الشكوك والشبهات.

٣: التوفيق لمزيد من العمل ورفع المستوى الفكري للعامل، وعليه فقوله تعالى «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» يعني: أن القرآن الكريم يمتاز بقوة عجيبة، فإذا عمل الإنسان بحكم من أحكامه ووفق للمزيد من الخيرات، والله يوفقه لذلك توفيقاً متواصلاً، فتستثير أفكاره ويزداد همة وإقداماً وتفتح له الطرق الدقيقة للتقوى، وكأنه يسير على طرق الصلاح والتقوى التي لا نهاية لها، فيتقدم تقدماً لا نهاية له. كما يقول الله تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» (محمد: ١٨). فالتقوى والهدى ليس لهما حد أو نهاية، بل لهما منازل ومراحل. والقرآن يهدي أهل الهدى إلى المزيد من الهدى حسب مراتبهم، ثم يعطيهم تقواهم بحسب

مراتبهم. وهذا الارتقاء التدريجي مستمر إلى مراتب غير متناهية. كذلك يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٧٠)، أي الذين يجتهدون من أجل الفوز بجنا ووصلنا طبقا للقواعد التي بيناها - وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿فِينَا﴾، علاوة على أنه يعني القرآن الكريم أيضا - فإننا ندلهم على طريق تلو طريق يوصلهم إلينا. وفي هذه الآية إشارة إلى أن سبل الله غير منتهية، بل بعد كل طريق يبدأ طريق آخر.

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿تُورِثُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحریم: ٩). وهذه الآية تتحدث عن الحياة الآخرة، حيث بين الله هنا أنه يأتي رسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنون إلى الجنة، ويتقدمهم ذلك النور المنشق عن الإيمان والعمل، وهم يسألون الله تعالى تمام النور والغفران. ومعنى ذلك أن الإنسان لا يزداد هدى في هذه الدنيا فحسب، بل إنه يزداد هدى ومعرفة بعد الموت أيضا، ويزتود بالقوى الجديدة باستمرار.

والخلاصة أن الله تعالى قد أشار باستخدام كلمة ﴿هُدًى﴾ هنا وفي الآيات القرآنية الأخرى إلى أنه لا نهاية للرقى الروحاني، وأن القرآن الكريم لا يزال يسمو بالمتقين إلى أعلى الدرجات.

٤: ومن معاني الهدى عاقبة الخير وبلوغ الغاية المنشودة، ألا وهي دخول الجنة. ومعنى ذلك أن الآية تهدف إلى بيان أن القرآن يتضمن من التعاليم ما يستطيع به المتقي أن يبلغ هدفه النهائي. واعلم أن سائر الأديان تدعي بنفس الدعوة، لذلك قد يبدو للقارئ أن دعوى القرآن هذه لا تقدّم ما هو جديد وأفضل؛ ولكن إذا أمعنا النظر في المعنى الذي ذكره القرآن للجنة تبين لنا ما يتصف به القرآن في هذا الموضوع من جدّة وطرافة. فالقرآن الكريم لا يذكر أن الجنة دارٌ تمتّع بالنعم في الآخرة فقط، بل يقول أن دخول الجنة الأخروية مرتبط بالجنة الدنيوية، فمن نال جنة الدنيا فإنما هو الذي يفوز بجنة الآخرة، كما يقول عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (الرحمن: ٤٧)، فالذي يتقي الله

حق ثقافته له جنتان؛ جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ (الإسراء: ٧٣). أي أن من لم يحظَ برؤية الله في الدنيا سيُحرمها في الآخرة، أي يُحرم الجنة أيضاً.

وبناء على هذا الشرح فإن دخول الجنة لا يعني أن المؤمن بالقرآن الكريم يدخلها بعد الموت فقط، ذلك لأنها دعاوى لا دليل عليها، وإنما المراد أن المؤمن بالقرآن الكريم الذي يستنير بنوره يتشرف برؤية الله في هذه الدنيا، ويتحول إيمانه بالغيب إلى الإيمان بالمشهود، ولا يعتقد بأنه سيرث جنة الآخرة بعد موته فحسب، بل يكشف الله تعالى له صفاته ويتجلى له في الدنيا، حتى أنه يرى نفسه في الجنة قبل الممات. أما الموت المادي فإنه يزيد رؤيته لله تعالى جلاء.

وواضح أنه لا يبقى بعد هذا المقام اضطراب أو اشتباه، ومن فاز بهذا المقام نجح من كل عثار وزلة، فكأنه في كنف الله تعالى في الحياة الدنيا. فثبت أن إعلان القرآن الكريم أن المؤمنين يدخلون به الجنة في الدنيا ليس ادعاءً بلا دليل، بل هو أمرٌ يمكن أن يُختبر صدقه أو كذبه في الدنيا. ولم تخلُ الأمة الإسلامية يوماً من أناس كانوا دليلاً على صدق هذه الحقيقة؛ فظلوا يتمتعون بوصال الله تعالى ورؤيته التامة حتى دخلوا الجنة وهم في الدنيا، أي أصبحوا بمأمن من همزات الشيطان كلها وتمتعوا بالنعم الروحانية كلها، وسمعوا كلام الله المتجدد، وتشرفوا بمكالمته مشافهة ورأوا آياته الحية في أنفسهم، وجعلوها تتجلى في الآخرين.

ويقول البعض إذا كان القرآن ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقط، فلا بد من وحي أو كتاب آخر يُهيئ للناس التقوى قبل الاهتداء بالقرآن. واعلم أن هذا الاعتراض منشؤه قلة التدبر، لأن القرآن الكريم يعلن أنه يزود بالتقوى، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح: ٢٧)، تبين هذه الآية أن التقوى الحقبة إنما تتيسر بالقرآن وبالإيمان به، وهي التقوى الباقية الدائمة. بل يتضح من هذه الآية أن المؤمنين بالقرآن هم أهل التقوى حقاً. فثبت أن الاعتراض بأن القرآن الكريم يدعي بأنه

هدى للمتقين وحدهم ولا يدّعي بأنه يزود بالتقوى من هو حال منها اعتراض باطل، لأن القرآن الكريم يعلن أنه لا تيسر التقوى الحقيقية إلا بالإيمان بالقرآن. وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن القرآن الكريم ليس هداية للمتقين فقط، بل هو هدى للناس كلهم أيا كانت درجاتهم الروحانية، فيقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ (آل عمران: ١٣٩). ويقول: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)، أي أن القرآن الكريم هداية للبشرية كلها، وفيه كل أنواع الهدى. ويقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف: ٥٥)، أي لقد ذكرنا في القرآن الكريم وفي أروع أسلوب كل ما هو نافع للناس جميعا، سواء المتقين أو غيرهم، أي فيه من التعاليم التي تسمو بكل إنسان مهما كانت درجته، وتسد كل حاجاته الروحانية. ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم: ٥٩). وهذه الآية تؤكد مفهوم الآية السابقة تقريبا، والفرق الوحيد أن الله تعالى قد قال في الأولى ﴿صَرَّفْنَا﴾ وقال هنا ﴿ضَرَبْنَا﴾. والتصريف إشارة إلى تنوع الأساليب التي اختارها القرآن لتعليم الهدى، أما ضرب المثل فهو إشارة إلى بيان هدى القرآن بذكر أمثلة صحيحة وواضحة من الفطرة الإنسانية. ويقول أيضاً: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ (الإسراء: ٤٢)، وهنا أيضاً لا تخص الهداية المتقين أو المؤمنين وحدهم، بل قدمها للناس جميعا.

ويتضح من العديد من آيات القرآن الكريم أنّ ما ذكرت من سبل الهدى فهي للناس جميعا. ثم قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢٢). فلم يخاطب هنا المؤمنين أو المسلمين، بل خاطب الناس جميعا، وقال ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (طه: ١١٤). فهنا القرآن يتوعد الكفار كي يصبحوا متقين.

وإن كان الأمر كذلك فلماذا قال إنه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يقل إنه يزود الناس كلهم بالتقوى؟ والإجابة على هذا التساؤل ذات شقين:

أولاً: أن هذه الآية في محل الإعلان عن أفضلية القرآن وبيان الحاجة إليه مع وجود كتب أخرى، لذلك كان من الأنسب أن يذكر المراتب العليا التي يوصل إليها القرآن وحده، والتي سكنت الديانات الأخرى عنها ولو بالإشارة.

وثانياً: أن القرآن الكريم قد عرّف التقوى بتعريف آخر أيضاً، فالتقوى وفق هذا التعريف لا تتعلق بالدين، بل بالفطرة الإنسانية، إذ قال الله تعالى عن النفس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٩)، أي ألهمها قوة التمييز بين الخير والشر. ولا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم، بل كل إنسان مزوّد بهذه الكفاءة. فبحسب هذا التعريف فإن التقوى تعني الحفاظ على الفطرة، ولا تعني ديناً أو عقيدة ما. وواضح أنه لا يهتدي إلا الذين يحفظون فطرتهم النقية من التأثيرات السيئة، أما الذين لا يسعون للحفاظ على نقاء فطرتهم وينكرون الحق فلا يهتدون ما لم يُرغمون على ذلك إرغاماً. والقرآن يعارض الإكراه في مسألة العقيدة بتاتا؛ فقوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني على ضوء هذا التعريف الخاص للتقوى أن القرآن الكريم إنما يهدي الذين يستعدون لقبول الحق ويوصلهم إلى الدرجات العلى. أما الذين ليسوا بمستعدين لقبول الهدى فكأنهم يريدون الهلاك، ولا يمكن أن يهتدوا إلا أن يُكرهوا على ذلك إكراهاً، ومثل هذا الهدى لا ينفع المجبور عليه وإنما ينفع الذي جبره! فمثلاً لو أخذت من أحد ماله جبراً وتصدقت به فكيف تنفعه هذه الصدقة ما دام لا يؤمن بإخراج الصدقة ولا يريد أن يخرجها؟

خلاصة القول: إن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يؤكد ضرورة القرآن الكريم مع وجود الكتب الأخرى؛ فحاجة الناس إليه مع وجود كتب غير سماوية واضحة، ذلك أن الإنسان لا يهتدي من دون هدي سماوي، فالقرآن جاء ليسدّ هذه الحاجة، أما ضرورته مع وجود الكتب السماوية السابقة فهي بسبب الأمور التالية:

١. القرآن كتاب كامل، وغيره ينقصه الكمال.
٢. القرآن محفوظ من التحريف، وغيره لم يسلم من التحريف والاختلال.

٣. القرآن هدي لكل الشعوب والأمم، ويرسي تعظيم واحترام جميع الملل ويحيي ما ضاع من التعاليم السماوية السابقة.

٤. الكتب السابقة قد فقدت صلاحية وصال العبد بالله تعالى بسبب عيوبها الداخلية والخارجية، وقد جاء القرآن الكريم ليشرف الإنسان بوصال الله ووحيه وما إلى ذلك من أمور.

إن احتواء هذه الآية الوجيزة على هذه المفاهيم الواسعة لمعجزة قرآنية عظيمة تعجز الصحف الأخرى عن الإتيان بمثلاً.

قدمت هذا البحث بفضل الله تعالى على ضوء المعاني والتعاليم التي بينها مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمديّة، ولكني أود أن أذكر نموذجاً هنا وهو إحدى المعارف العظيمة التي بينها حضرته في كتبه -والتي لا تُعدّ ولا تحصى- والتي ذكرها حضرته ذكراً مباشراً ليتضح للناس كيف استخراج لآلي الحكمة غائصة في بحر هذه الآية.

يقول عليه السلام أنه لا بد من علل أربع لتكميل أي شيء:

أولاً: أن يكون صانعه كاملاً،

ثانياً: أن تكون المادة التي صُنِعَ منها عالية الجودة،

ثالثاً: أن تكون صورته في ذروة الجمال،

رابعاً: أن تكون نتيجته محققة للغاية منه تماماً.

أي علته الفاعلة، وعلته المادية، وعلته الصورية، وعلته الغائية: وبكمال هذه العلل الأربع يكون الشيء كاملاً.

ولقد أعلن الله تعالى في مستهل القرآن المجيد بتوافر هذه العلل الأربع في حقه؛ حيث يقول: ﴿الم﴾، أي أنا الله أعلم، وهذه إشارة إلى كمال العلة الفاعلية، أي أن صانعه أكمل وأفضل علماً. فالكتاب الذي يصدر عن العليم يكون أفضل وأكمل من الكتب التي تؤلفها شخصيات هي أقل منه علماً.

ثم يقول عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي هذا هو الكتاب الكامل، وبهذا دلل على كمال العلة المادية للقرآن، حيث بين أنه يشتمل على كل المقاصد وكل ما هو ضروري وهام؛ فهي أفضل مادة من الكتب الأخرى.

ثم يقول ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ليدل على كمال العلة الصورية، لأن القرآن الكريم أفضل الكتب من ناحية شكله وظاهره، لكونه أفصح لغةً وكونه محفوظاً. فعِلته الصورية أكمل وأتم من أمثالها في الكتب الأخرى.

ثم يقول: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فعِلته الغائية أيضاً أكمل، لأن الكتب السابقة تصل بالإنسان إلى درجة التقوى، أما القرآن فيسمو بالمتقين أيضاً إلى أعلى مراتب القرب ويشرفهم بكلام الله، ويمكّنهم من الاتصال الكامل بخالقهم. (حقيقة الوحي، ص ١٣٦)

هذا ملخص ما كتبه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. ومن يتدبر في كتابه من أهل البصيرة يجد فيها هذه المعارف، بل أكثر وأروع.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة : ٤)

شرح الكلمات:

يؤمنون: آمنه إيماناً: آمنه. آمن به: صدقه ووثق به. آمن له: خضع له وانقاد. والإيمان التصديق. (الأقرب)

الإيمان يتعدى بنفسه كصدق، وباللام، باعتبار معنى الإذعان، وبالباء، باعتبار معنى الاعتراف، إشارةً إلى أن التصديق لا يُعتبر بدون اعتراف. (تاج العروس)

فكلمة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ تدل على ثلاثة معان: التصديق والاعتراف واليقين الراسخ.

الغيب: ورد في المفردات: "الغيبُ مصدرٌ غابت الشمس وغيرها: إذا استترت عن العين... واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان، بمعنى الغائب... والغيبُ في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداية العقول."

وورد في لسان العرب: "قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، أي يؤمنون بما غاب عنهم... والغيبُ أيضاً ما غاب عن العيون وإن كان مُحَصَّلًا في القلوب أو غير محصل... وكلُّ مكان لا يدري ما فيه فهو غيبٌ، وكذلك الموضع الذي لا يدري ما وراءه... وغابَ الرجل غيباً: سافر أو بان."

فالمراد - من قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾:

أَهم (١) يوقنون ويعترفون ويصدقون بكل ما هو موجود وإن كان لا يرى بالعيون المادية وتتقاصر الحواس الظاهرة عن إدراكه، ولكنه داخل في الإيمانيات. (٢) و أنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بما سيحدث بعد هذه الحياة.

(٣) ويمكن أن يراد به أنهم يؤمنون في حالة الغياب، أي وقت انفرادهم أيضاً، وليسوا ذوي وجهين كالمنافقين.

يقيمون: قام يقوم قياماً: انتصب ضدَّ قعد. قام الأمرُ: اعتدل. قام على الأمر: دام وثبت. قامت السوق: نفقت. قام الحق: ظهر وثبت. وأقام الصلاة: أدام فعلها. أقام للصلاة: نادى لها. وأقام الله السوق: جعلها نافقة. (الأقرب)

وورد في المفردات: "قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، أي يديمون فعلها ويحافظون عليها."

وورد فيه أيضاً: "إنما خصّ لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط."

وورد في لسان العرب: القيام: العزم.

الصلاة: فَعْلَةٌ مِنْ صَلَّى، والألف منقلبة من الواو. وصلَّى (يصلِّي): دعا. والصلاة: عبادة فيها ركوع وسجود، ولها معان أخرى تشير إلى حقائق،

ومنها: الرحمة؛ الدين؛ الاستغفار؛ الدعاء. والصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء، ومن الطير والهوام التسبيح، وهي لا تكون إلا في الخير بخلاف الدعاء، فإنه يكون في الخير والشر. والصلاة حسنُ الثناء من الله على الرسول ﷺ. (الأقرب)

والصلاة التعظيم والبركة. (التاج)

ويسمى موضعُ العبادة الصلاة. (المفردات)

فيعني قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنهم:

١. يصلّون جماعةً،

٢. يؤدّون الصلاة وفقاً لشروطها ومواقيتها،

٣. يعمرّون المساجد بحثاً الناس على الصلاة،

٤. يخلقون في قلوب الناس حبَّ الصلاة والرغبة فيها،

٥. يداومون عليها دون انقطاع،

٦. يحمون الصلاة من الانهيار والسقوط ويحافظون عليها.

رَزَقْنَاهُمْ: الرزق: العطاء. رُزِقْتُ علماً: أُعْطِيتُهُ. والرزق: النصيب، قال

تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. (المفردات)

والرزق ما يُنتفع به. ورزقه الله يرزق رزقاً: أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ. (الأقرب)

يَنْفَقُونَ: أنفق ماله: صَرَفَهُ وَأَنْفَقَهُ. أنفق التاجر: نَفَقَتْ تِجَارَتُهُ. وأنفق السلعة:

رَوَّجَهَا. ونفقت المرأة أو السلعة: أَي كَثُرَ طَلَّابُهَا وَخَطَّابُهَا. النافق: خلاف

الكاسد (الأقرب). أي المال الذي يشتريه الناس فور وصوله إلى السوق.

فالإنفاق يدل على إخراج الشيء وترويجه بدون انقطاع.

التفسير: وكما ذكرنا عند شرح الكلمات أن الإيمان يعني اليقين والطاعة،

والذي ليس عنده يقين وطاعة لا يسمى مؤمناً بل منافقاً، كما قال تعالى ﴿وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩)، كما

يتضح من القرآن الكريم أن من ليس عنده يقين ولا طاعة فليس بمؤمن بل

كافر. قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٥).

بيد أن قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ لا يعني أبدا أنهم يصدقون تصديقا أعمى. هذا المفهوم غير سليم لغويا، كما أن القرآن لا يدعمه، لأنه قد ندد بالذين يؤمنون من دون دليل؛ إذ قال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم: ٢٤). وواضح من هذه الآية أن القرآن الكريم يندد بأعداء الإسلام بأنهم يرضون بما لا يدل عليه أي كتاب سماوي ولا عقل سليم، وإنما يتبعون أهواءهم وأوهامهم.

إذن، ما دام الله تعالى لا يقبل أن يصدق الإنسان أوهامه فكيف يمكن أن يأمر المسلمين في أول القرآن بأمور لا دليل عليها، ويعتبر هذا الإيمان من تقوى القلوب؟

تؤكد آيات عديدة في القرآن الكريم على وجوب أن يكون الإيمان ثابتا على قواعد من الأدلة والبراهين، لا على الوهم والظن. قال الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٥). والمراد من قوله تعالى ﴿إِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي إذا كنتم صادقين فعليكم أن تقدموا دليلا على ما أنتم عليه من كتاب سماوي قبل القرآن، أو تأتوا بحجة علمية ذكرها لكم آباؤكم، أي أن كل الأمور الوثنية لا تثبت من أي كتاب سماوي ولا بأي دليل علمي معقول. فكيف يجوز الإيمان بهذه الأمور الشريكية؟

كذلك قال الله تعالى ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٦)، أي هل أنزل الله تعالى أي دليل على جواز الإشراك به؟ وما دام الأمر ليس كذلك فكيف يرضون بأمر لا دليل عليه؟

كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩-١٥٠)، والمراد من قوله تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، أي قل يا محمد إن الله تعالى إنما يدعو العباد للإيمان بما يكون ثابتا بالأدلة والبراهين، فالأمر الذي ليس ثابتا بالبراهين لا يمكن أن يكون من عند الله تعالى.

وكذلك يقول الله تعالى عن المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرِجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٤)، أي أنهم لا يؤمنون بآيات ربهم إيماناً أعمى، بل يؤمنون بالتدبر فيها ومعرفة أدلتها.

ثم يقول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٩)، أي قل يا محمد للمنكرين هذه سبيلي التي أتبعها، إنني أدعو أنا ومن اتبعني إلى الله تعالى، ولكننا لا نؤمن من دون دليل، بل إن إيماننا متأسس على التفكير والأدلة القاطعة الخالية من أي شبهة أو شك. ويتضح من المعنى الذي استعمل به القرآن الكريم لفظ الغيب أنه لا يراد به الأوهام، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحجرات: ١٩). فالغيب هنا استعمل بمعنى الحقيقة؛ ذلك لأن الغيب لو كان بمعنى الوهم أو الأمر الذي لا دليل عليه لكان معنى الآية أن الله يعلم الأمور الوهمية التي لا دليل عليها، وهذا المعنى باطل بدهاء.

وكذلك يقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (السجدة: ٧)، أي أن الله هو عالم الغائب والظاهر، فالغيب هنا قد استخدم للأمور اليقينية المستترة عن الأنظار.

وكذلك يقول الله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ...﴾ (الأنعام: ٦٠). هذه الآية تؤكد أيضاً أن الغيب لا يعني الأوهام، بل يُطلق على كل الكنوز الخفية عن أعين الناس، ولكن الله تعالى يعلمها. باختصار، إن قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ لا يعني أن المتقين قوم يصدقون ما يقوله القرآن من دون دليل، لأن هذا المفهوم مخالف لآيات قرآنية أخرى.

كتب القسيس "ويري" في تفسيره لهذه الآية أن المسلمين إذا كانوا قد آمنوا بأسرار كتابهم، فلماذا إذن ينكرون أسرار الكتب السابقة مثل الكفارة والثالوث؟ وواضح أن وسوسته هذه ناشئة عن جهله بمعنى قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. فالقرآن لا يأمر بالتمسك بشيء لا يدعمه دليل، بل يندد بما في الأديان الأخرى من معتقدات لا تستند إلى دليل، ويشهد أن محمدا ﷺ وأتباعه لا يصدقون شيئا إلا بالدليل والبرهان.

الحق أن إنكار المسلمين للكفارة والثالوث ليس لأنها سرّ، كما يزعم القسيس (ويري)، بل لأنها أمور لا ينهض عليها دليل، بل هي مخالفة للعقل. ولو كان هناك برهان عليها لما أنكرها المسلمون.

فما هو معنى قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إذن؟ فالجواب: لقد بينا عند شرح الكلمات عن الغيب أنه ما لا تدركه الحواس الظاهرة، وإنما يحتاج إدراكه إلى الأدلة العقلية والتجريبية. وواضح أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تعتبر مما لا برهان عليه، فإننا نؤمن بكثير من الأشياء المادية مع أنها لا تُدرك بالحواس الخمس، مثل: الذاكرة الإنسانية، الحياء، الجرأة، الحب، الكراهية، العقل، الفكر، فمن ذا الذي يدرك هذه الحقائق بالحواس الخمس، فهل ننكر وجودها لأنها لا تُدرك بالحواس؟ وهناك أخلاق عديدة لا تدرك بالحواس ولكننا نصدق بها، كالعفو الذي يزيل الحقد من القلوب، وحسن المعاملة التي تؤلف بين القلوب، يعترف بها العالم أجمع، ولكنها أمور غير ملموسة. الأم تتفانى في سبيل وليدها مع أنها لا تعرف فيما إذا كانت هذه التضحية ستأتيها بالمسرة والخير أم تسفر عن الألم والشقاء، ومع ذلك لا تنفك تسهر على ولدها. والمعلم الذي يُدرّس الطلاب لا يعرف ما إذا كان جهده يوصل الطلبة إلى درجات عليا أم لا، ولكنه يواصل عمله ولا يتوقف عنه. والدول تبذل كل ما في وسعها لإصلاح البلاد، ولا تدري كيف تظهر نتائجها ومتى، ولكنها تستمر في محاولتها معتمدة على أمل مقبل أو تجربة سابقة. والجنود يدخلون الحرب وهم

لا يعرفون عاقبتها، ومع ذلك يضحّون بجياهم دفاعا عن أرض الوطن. أليست هذه الأمور كلها دليلاً بيّناً على الإيمان بالغيب؟
ملخص الكلام أن الإيمان بالغيب يعني:

١: تصديق جميع الحقائق التي لا تُدرَك بالحواس الخمس، ولكنها تُدرَك بوسائل أخرى، مثل ذات الله تعالى، فهو لا يُدرَك بالحواس الخمس، بل هناك براهين أخرى لمعرفة، وهي أدلة يقينية لا تقلّ وثوقاً عن الإدراك بالحواس الظاهرة، بل هي أوثق منها وأقوى، منها ما يتلقاه المؤمنون من كلام الله ﷻ ويسمعونه، ومنها الأنباء الغيبية التي يرونها تتحقق بكل وضوح، ومنها قدراته ﷻ الجبّارة العظيمة التي يرى المؤمنون تجلياتها في نفوسهم وفي سائر الكون.
ومع ذلك فإن ذات الله تعالى هي وراء الورا، ولا تُدرَك بالحواس الخمس.
والإيمان بالملائكة أيضاً من الإيمان بالغيب. فهي لا تُرى بالبصر الظاهري أو الحواس الأخرى، ومع ذلك فإن وجودها ليس وهماً، بل هناك براهين قاطعة على وجودها مذكورة في مختلف آيات القرآن الكريم.
ولا يأمر القرآن الكريم بها من دون دليل، بل يسوق عليها أدلة قوية سوف نذكرها لاحقاً في محلها.

٢: ومن معاني قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أن المتقين لا يكتفون بالأعمال ذات النتائج العاجلة، شأن التاجر الذي لا يتعامل إلا نقداً، بل تكون حياتهم ذات طابع أخلاقي؛ فهم يؤمنون بقوة الأخلاق وثمراتها الطيبة، وإن تأخر عائدها. إنهم لا يتصرفون بالعقلية التجارية الفورية، وإنما يقومون بتضحيات تنهض بقومهم ويسائر العالم. وعلى سبيل المثال إن القيام بالجهاد لإرساء الأمن في العالم هو نتيجة الإيمان بالغيب، وإلا مَنْ ذا الذي يدري أنه سيعيش بعد الحرب وتكون عاقبته حسنة؟ فالجندي عندما يتوجه إلى المعركة لهدف سام إنما يؤكد إيمانه بالغيب، ويدرك أنه لو نجح في تحقيق هذا الهدف فنعماً هي، أما إذا مات في هذا السبيل فأيضاً تكون النتيجة خيراً لصالح الحق.

والواقع أن المنجزات العظمى لا تتحقق إلا بالإيمان بالغيب. فالجهود التعليمية، وأعمال البر، ومساعدة الفقراء، والتضحيات لأجل بناء الوطن والنهوض بالفقراء وتنظيم البلاد، كلها أنواع مختلفة من الإيمان بالغيب، ولو لم يؤمن الإنسان بالنتائج الطيبة لأعماله المستترة عن أنظاره لما استطاع تقديم هذه التضحيات أبداً. فوصف القرآن للمتقين بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يشير إلى أن المتقي مع إيمانه بالعقائد الأساسية، فإنه يتمتع بجرأة عظيمة لتقديم التضحيات الأخلاقية، فيترفع عن العقلية التجارية، ولا يتشبث بالثمرات العاجلة، بل إذا أيقن أن ما يطالب به هو عمل حسن وخير، فيبذل في سبيله كل ما أوتي من قوة مهما كانت الظروف غير مواتية، مؤمناً بأن عاقبة العمل الخير ستكون خيراً، وغير مكترثٍ ما إذا كان سيرى ثمار جهوده أم لا.

فمن لم يكن متعصباً إذا تدبر في الأمر أدرك أن هذا المفهوم للإيمان بالغيب يبلغ من الأهمية بحيث إن القرآن الكريم قد وضع بذلك الأساس للتضحيات لكل نوع من الرقي سواء الفردي أو القومي وللإنسانية جمعاء. إن الإيمان بالغيب هو الذي جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقومون بالتضحيات الجسيمة التي غيرت وجه الجزيرة العربية، وحولت مجرى التاريخ العالمي. ولو لم يكونوا مترفعين عن العقلية التجارية وغير مؤمنين بالغيب لما قاموا بتلك الأعمال الخالدة.

هذا المعنى الذي بيناه آنفاً هو متعلق بالمتقين المؤمنين بالغيب من الطراز الأول، ولكن هناك معنى آخر يتعلق بالمتقين الأقل درجة، وهو أن أدنى درجات التقوى هي أن يكون الإنسان مؤمناً بالغيب، أي أن يؤمن بالله تعالى والملائكة والبعث بعد الموت بالأدلة العقلية، وإن لم يكن قد بلغ درجة يرى فيها ربه بحواسه الروحانية. وهذه الدرجة من التقوى أساسها الأدلة وليست المشاهدة والتجربة. ويقول الله في القرآن الكريم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٧)، فالذي لم يبلغ بعد الدرجة العالية من التقوى ولم يتيسر له إيمان بالأمور الغيبية التي هي يقينية وقطعية ولكنها أسمى من إدراك الإنسان، ولا

يكون إيمانه قد بلغ درجة المشاهدة والتجربة، فإن الله تعالى لا يطالبه أكثر مما يستطيع، ولا يقول له بأنه ما لم يتيسر لك الإيمان بالغيب من خلال المشاهدة والتجربة فلن تُعتبر مؤمناً متقياً، وإنما يطالب فقط أن يؤمن بالأمور الغيبية بالتدبر في الأدلة والبراهين التي هيأها الله تعالى لتعين على الإيمان بالغيب. وهذا يكفيه لبلوغه الدرجة العالية من التقوى.

فكم هو رائع هذا التعليم الذي يكفل سدّ حاجات كل السالكين ذوي الدرجات المختلفة من الإيمان، ومثل هذا التعليم هو الذي يمكن أن يقال عنه إنه نزل من الله تعالى. وهذه الدرجة الأدنى من التقوى كافية لنجاة الإنسان. بيد أنه عندما يرتقي فإنه يبلغ درجة من الإيمان بالغيب بحيث تتجلى له الأمور الغيبية عياناً، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الفرق في حديث له فقال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (مسلم، كتاب الإيمان). ومن معاني الغيب الغائب، وعليه فقوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني عندما يكون الإنسان غائبا عن الآخرين، أي مستترا عن أعينهم، فالمتقي يراعي تعاليم دينه وآداب عقيدته أمام الناس، ويستمسك بها وهو بعيد عن عيونهم؛ فهو لا يتظاهر بالإيمان أمام قومه وينسى إيمانه في غيبته عنهم. والقرآن يشيد بالمؤمن بالغيب فيقول: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ (الأنبياء: ٥٠). ويقول أيضاً: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد: ٢٦)، أي أن الله تعالى يهيئ أسباب الحرب والقتال ليتبين للناس من ينصر الله ورسله من الصميم ولا يكتفي بالكلام.

وكذلك يقول على لسان يوسف: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٣)، أي أنني لم أخن سيدي في غيابه.

لقد نبّه الله بهذا المعنى أولئك القوم الذين إذا سمعوا خطاباً أو حضروا مجلساً تحمّسوا، ولكنهم إذا انفردوا ضعف إيمانهم. الحق أن لا حقيقة لإيمانهم، ومثلهم كمثل الخراف، يتبعون آراء الآخرين، ولا دين لهم في الواقع. يحذر الله مثل هؤلاء، لأن مثل هذا الإيمان لا قيمة له، وإنما الإيمان هو الإيمان الذاتي الذي لا

يثور برؤية حماس الآخرين. أما مَنْ ليس عنده إيمان ذاتي، ويخمد حماسه إذا ما ابتعد عن صحبة قومه وجماعته وأصحاب المواعظ الحماسية فلا يمكن أن يسمى متقياً، لأن إيمانه ليس ذاتياً، إنما استعاره من الآخرين مؤقتاً. ويقول الله تعالى عن مثل هؤلاء: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٥)، أي أن من الناس مَنْ إذا حضروا مجالس المؤمنين واستمعوا لكلامهم ورأوا إيمانهم ويقينهم تأثروا منهم وقالوا: نحن أيضاً مؤمنون، ولكنهم إذا انفصلوا عنهم وحضروا مجالس أعداء الإسلام وافقوهم الرأي. ويقولون متأثرين بأفكارهم: نحن نؤمن بما تؤمنون به. أما ما قلناه للمؤمنين فمجرد استهزاء. ومثل هؤلاء لا إيمان لهم ولا مبدأ.

فقوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يبين أن المتقي إنما هو مَنْ لا يدعي الإيمان بلسانه فحسب، بل يصدق الحق بقلبه من الصميم أيضاً. وعندما يبتعد عن صحبة المؤمنين كأن يسافر إلى بلاد الآخرين، أو أن يذهب إلى مجالسهم حيث لا يجد هناك أهل ملته، فلا يتزعزع إيمانه ولا يضعف، لأنه لا يكون مقلداً لغيره، بل يكون إيمانه راسخاً على الثقة واليقين. وفي هذا درس عظيم للطلبة المسلمين الذين يلتحقون بكليات أهل الأديان الأخرى، أو يسافرون للدراسة في البلدان الأخرى، فعليهم أن يفحصوا إيمانهم، فإذا كان يضعف عند ابتعادهم عن مجتمع المؤمنين فليدركوا أنهم لم يؤمنوا بدينهم عن دراسة ووعي، وأن إيمانهم ليس إيماناً ذاتياً، بل هو صدى لمجتمعهم.

الخلاصة أن قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يبين أن القرآن الكريم يسمو بالمتقين التالية صفاتهم إلى أعلى درجات الروحانية والهدى، فهو:

١: يرشد المتقين الذين يؤمنون بالعقائد الروحانية بعد انكشاف صدقها عليهم بالبراهين إيماناً كاملاً، وإن لم يكن إيمانهم قد تقوى بعد من خلال الخبرة والمشاهدة الذاتية.

٢: يرشد أيضاً المتقين الذين لا يشوب إيمانهم النفاق وتتطابق قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم إلى درجات عليا من الهدى.

٣: يرشد المتقين الذين لا يكون إيمانهم مجرد تقليد للقوم، بل يكون إيمانا ذاتيا، فليسوا من الذين يؤمنون إذا كانوا مع المؤمنين، ويكفرون إذا كانوا مع الكافرين، بل لا يتزلزل إيمانهم ولا ينحرف سلوكهم ولو عاشوا بين مجتمع مخالف وقوم معارضين.

٤: يرشد المتقين الذين يوقنون يقينا كاملا بالحقائق التي لا تدرك بالحواس الظاهرة ولكنها ثابتة بالأدلة والبراهين الأخرى، ويوصلون إيمانهم إلى درجة الكمال من خلال التجربة والمشاهدة.

٥: يرشد المتقين الذين يترفعون عن العقلية التجارية مؤثرين العواقب الخلقية والدينية، وموقنين بنتائج التضحيات التي لا تبدو في الظاهر مثمرة، ولكن الرقي القومي والديني يتطلبها. ويضحون بمصالحهم الشخصية لصالح الأمة.

فالمثقون الذين يتحلون بهذه الصفات أو بعضها يستحقون أعلى درجات الهدى التي يعد بها القرآن الكريم. وبالفعل ينالون هذا الهدى.

أما قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. فقد سبق أن ذكرنا أن من معاني إقامة الصلاة:

١: المثابرة عليها. فالقيام على الأمر هو المداومة عليه، فقوله ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني أنهم يستمرون فيها ولا يتركونها ولا مرة واحدة. لأن الصلاة التي يتخللها انقطاع فلا يعتبرها الإسلام عبادة، لأن الصلاة ليست من الأعمال المؤقتة، بل إنها لا تكتمل إلا إذا أداها المرء بعد توبته أو بعد بلوغه، ولا يتخللها انقطاع حتى مماته. فالذين يتركون بعض الصلوات فصلواتهم مردودة، فمن واجب المسلم أنه إذا وصل سن البلوغ أو إذا وفقه الله للتوبة ألا يتركها ولا مرة بعد ذلك؛ لأن الصلاة بمنزلة زيارة الله تعالى. ومن أعرض عن زيارة حبيبه شهد على نفسه أن دعوى حبه باطلة أو زائفة.

٢: ومن معاني الإقامة التعديل والتسوية، وعليه فقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني أن المتقين يؤدون الصلاة مع شروطها الظاهرة، ولا يخالفون ما وُضع لها من قواعد. فإذا كانوا بصحة جيدة وكان الماء ميسرا يتوضؤون

للصلاة، مراعين ما وضعه الشرع للوضوء من شروط. ويصلون الصلاة في مواقيتها، ويحسنون ما في الصلاة من قيام وركوع وسجود وقعود. ويقومون بالتلاوة وبالأدعية وغيرها من العبارات في مواضعها وعلى أحسن وجه.

باختصار، إنهم يوفون بكل الشروط الظاهرة للصلاة، ويؤدونها على أفضل وجه.

وليكن معلوما أن الشرع يأمر بأداء الصلاة بشروطها، ولكن هذا لا يعني أنه إذا كان هناك اضطرار ولا يستطيع الإنسان مراعاة شروط الصلاة فيمكنه تركها، كلا، بل إن أداء الصلاة مقدم على شروطها، فإذا لم يتيسر لأحد ثياب نظيفة فيمكن أن يصلي فيما تيسر من ثوب، وخاصة أن عليه ألا يترك الصلاة بناء على الوهم، فهو تصرف غير معقول، كما تفعل عندنا بعض النساء، فهنّ يتركن الصلاة بحجة أن ثيابهن ربما ليست طاهرة بسبب بول الطفل. وكثير من المسافرين يتركون الصلاة بحجة أن طهارتهم لا تكون كاملة في السفر. إنها كلها وساوس شيطانية. والله يصرح بقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٧). مادام المرء يستطيع الوفاء بشروط الصلاة، فترك هذه الشروط وعدم مراعاتها إثم، ولكنه إذا لم تتوفر له هذه الشروط فلا يصح له أن يترك الصلاة بحجة عدم توفرها، فإنه لن يُعتبر معذورا في هذه الحالة، بل يعتبر تاركا للصلاة. فعلى المؤمنين أن يأخذوا الحذر بهذا الشأن خاصة.

٣: ومن معاني إقامة الصلاة إقامتها من الانهيار، بمعنى أنهم يسعون دوماً أن تكون صلاتهم صحيحة مستوفية شروطها. وقد أُشير بذلك إلى المشاكل والعقبات التي يواجهها المبتدئ عموماً والعارف بالله أحياناً، حيث تهاجمه الأفكار المختلفة وتحول دون تركيزه في الصلاة بسبب بعض العوامل الخارجية والداخلية. إن من طبيعة الإنسان أن أفكاره تتشعب وتتشتت عموماً، وتتولد فكرة من فكرة وتقيم به بعيداً إلا في بعض الحالات الخاصة التي تركز فيه أفكاره بشكل كامل، نتيجة صدمة أو حماس أو حب. إن ذهنه يتشتت مما

يسمع من أصوات أو يرى من حركات الناس أو من رائحة كريهة أو طيبة أو صلابة المكان أو نعومته، وما إلى ذلك. وهذه المشاكل يواجهها المصلي أيضا، فإذا لم يتحكم في أفكاره فلا تزال تشتت به هنا وهناك، فينسى بعض الأحيان موضوع الصلاة ويقع في دوامة أفكار أخرى. وإلى هذه الحالة نفسها قد أشير في قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، أي أنه إذا عانى البعض من ذلك فعليهم ألا يصابوا بالقلق، لأن الله فتح لكل إنسان طريق التقدم حسب مستواه من الإيمان. فإذا كان أحد يعاني من تشتت الأفكار فلا يقنط ولا ييأس ولا يظن أنه لا فائدة من صلاته، ذلك لأن الله تعالى يتوقع من العباد ما يستطيعون من التضحية، فالذي تشتت أفكاره في الصلاة إذا حاول باستمرار إقامة صلاته المنهارة بتشتت الأفكار مركزا في الصلاة فإن الله لن يضع صلاته بل يتقبلها ويعتبر صاحبها الذي يسعى لإقامتها من المتقين.

٤: ومن معاني قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنهم يرغبون الآخرين فيها، لأن إقامة الأمر يعني ترويجه أيضا وترغيب الناس فيه. وعليه فقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني أن هؤلاء المتقين يؤدّون الصلاة، كما يحثّون الآخرين على أدائها، وينشّطون الكسالى بترغيبهم فيها. والذين يوقظون الناس للتهجد في رمضان يندرجون في الذين يقيمون الصلاة أيضا.

٥: وقبل الصلاة بالجماعة تردد كلمات الأذان بشيء من الزيادة دعوة للإمام لأن يصلي بالناس، وهذه الكلمات تسمى إقامة. وعليه فمن معاني إقامة الصلاة الصلاة بالجماعة. وفي بلادنا يقولون: قامت الصلاة. وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنهم يؤدونها ويجعلون الآخرين يصلّون.

لقد نسي المسلمون عموما ضرورة الصلاة جماعة، وهو أحد الأسباب الكبرى لفرقتهم واختلافهم. لقد جعل الله تعالى في هذه العبادة بركات كثيرة فردية وقومية، ولكن المسلمين قد نسوها للأسف. إن القرآن الكريم حيثما أمر بالصلاة فقد أمر بالصلاة جماعة، ولم يأمر بأداء الصلاة فقط، مما يبين أن الصلاة بالجماعة من أهم مبادئ الدين، بل الحق أن التدبر في آيات القرآن يكشف أن

القرآن الكريم كلما أمر بالصلاة أمر بأدائها جماعة، مما يدل أن الصلاة عند القرآن الكريم لا تُؤدى إلا جماعة. إلا في حالة اضطرار، فمن لا يصلي جماعة - من دون أي اضطرار؛ من مرض أو سفر أو نسيان أو عدم وجود مسلم آخر - فلا صلاة له، وإن صلى في بيته، بل يعتبر تاركا للصلاة.

حيثما أمر الله تعالى بالصلاة في القرآن الكريم قال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٤٤)، ولم يقل صلّوا، مما يدل بوضوح أن الحكم الأساس هو أداء صلاة الفرض جماعة، ولا تجوز صلاة الفرد من دون جماعة إلا في عذر واضطرار، ومثله كمثّل من لا يستطيع أن يصلي واقفا فيجوز له الصلاة جالسا. وكما أن المرء يعتبر آثما حتما إذا صلى جالسا وهو قادر على أن يصلي قائما، كذلك من لم يصل جماعة مع أنه قادر على ذلك فهو آثم.

نجد في هذه الأيام كثيرا من الناس المقصرين في أداء الصلاة جماعة؛ إذ يتجاذبون أذيال الحديث حتى تفوتهم الصلاة، ثم يقولون متأسفين ها قد فاتتنا الصلاة جماعة! فعليهم أن يأخذوا الحذر لأن قليلا من الغفلة يحرم المرء الكثير من الثواب.

٦: ومن معاني قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنهم يؤدونها بنشاط، لأن الغفلة والكسل يشنتان الأفكار، فيُحرم المصلي من لبّ الصلاة. لذلك نهى رسول الله ﷺ أن يقف الرجل مسترخي الرجلين أو مستندا لشيء (مسلم، كتاب الصلاة، باب كراهة الاختصار في الصلاة). أو أن يفترش ذراعيه في السجود افتراش الكلب (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الاعتدال في السجود). وأمر أن يركع مستقيم الظهر (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه). وأن يكون مستقيم الرجلين وهو قائم أو راکع، وأن يسجد على القدمين والركبتين واليدين والجبهة. (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في السجود على سبعة أعضاء). وأن يفرّج في السجود بين بطنه وخاصرته. (النسائي، كتاب افتتاح الصلاة، باب صفة السجود). وإذا جلس للتشهد افترش رجله اليسرى ونصب رجله اليمنى، وأقبل بصدر اليمنى على

قبلته. (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في كيف الجلوس في التشهد). ذلك لأن هذه الأمور كلها تبعث على التيقظ وتدفع عن المصلي النوم والنعاس والغفلة والكسل، لذلك أمر الإسلام بالوضوء قبل الصلاة، لكي تنتشط أعصاب الرأس والجوارح ببيلة الماء وبرده.

إن هذه المفاهيم التي يبنّيها مستنبطاً من المعاني اللغوية لقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يؤيدها القرآن والحديث؛

١: فكان المفهوم الأول أنهم يواظبون على الصلاة ولا يتركونها أبداً، ويؤيده قوله تعالى عن المؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: ٢٤)

٢: المفهوم الثاني هو أنهم يحسنون أداء الصلاة، ويؤيده قوله تعالى عن المؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٣)، أي أنهم يراعون كل الأحكام الظاهرة والباطنة لأداء الصلاة.

٣: المفهوم الثالث أنهم يسعون لإصلاح صلاتهم وتكميلها، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠)، أي يبذلون جهدهم لتكون صلاتهم أفضل وأكمل.

٤: أنهم يحثّون الآخرين على الصلاة ترويحاً لها، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٣)، أي عليك أن تحت أهلَكَ على أداء الصلاة ولا تنسَ هذا الحكم بل اجعله لزاماً عليك.

٥: أنهم يؤدون الصلاة جماعةً، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٣)، أي إذا كنت مع المسلمين خلال الحرب وصليت بهم إماماً فيجب ألا يشتركوا جميعاً في الصلاة وراءك، بل يجب أن يصلي وراءك طائفة منهم، وليتقلدوا أسلحتهم. فقوله تعالى ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ (النساء: ١٠٣) يدل بوضوح على الصلاة بهم جماعةً.

٦: أنهم يؤدون الصلاة بنشاط وتيقظ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٥-٦)، أي أنهم يصلون

ولكن لا يصلون بنشاط ورغبة تامة. ويشير إليه أيضا قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ (التوبة: ٥٤) وأيضا قوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣٢)، ومن معاني أخذ الزينة الوضوء والنشاط. وأيضا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٤)، أي: أيها المؤمنون إن كانت أفكاركم مشتتة فلا تقتربوا من الصلاة، بل صلوها عندما تدركون ما تقولون، لأن المرء لا يعرف ماذا يقول في حالة الكسل وتشتت الفكر، فيفسد صلاته، فلا تنفعه مطلقا.

ليس المراد من هذه الآية أن الإنسان إذا كان مشتت الفكر فعليه ألا يصلي، بل المراد أن عليه أن يقوم بما يزيل ما يعكر فكره وينشط عقله، وتحقيقا لهذا الهدف أمر الإسلام برفع الأذان قبل الصلاة بوقت حتى يسمعه المسلمون ويتركوا أعمالهم ويستعدوا للصلاة. كما أمرنا بالوضوء قبل الصلاة وأداء السنن في المسجد أو البيت قبل الفرض، ثم الاهتمام في ذكر الله تعالى في المسجد قبل أن يحضر الإمام. فكل هذه الأمور تزيل الكسل الظاهري والباطني، ذلك لأن تشتت الأفكار والكسل إنما سببه انشغال المرء بأمر آخر. ولكن الذي يترك عمله قبل الصلاة فإن أفكاره المشتتة بسبب عمله وتجارته أو مشاغل بيته سوف تتركز بالتدريج وتتوجه إلى الصلاة. ثم إذا حضر المسجد وأدى السنن واشتغل بذكر الله تعالى انصرف فكره إلى العبادة والصلاة كلية، وتيسرت له كل الأسباب الدافعة إلى التركيز في الصلاة. ودفعاً لتشتت الفكر نهى رسول الله ﷺ أيضا أن يصلي المرء وهو يدافع الأختين؛ بل عليه أن يقضي حاجته أولاً ثم يصلي (أبو داود، كتاب الطهارة، باب أَيُصَلِّي الرَّجُلُ وَهُوَ حَاقِنٌ). كما أمر رسول الله ﷺ إِذَا وُضِعَ الْعِشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَأَبْدَءُوا بِالْعِشَاءِ (البخاري، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة). وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا وُضِعَ الطعام أمام الإنسان فسيظل يفكر فيه لو بدأ الصلاة، فعليه أن يأكل أولاً ثم يصلي حتى يركز في الصلاة.

علما أن رسول الله ﷺ قد ذكر هنا وجبة العشاء خاصة: (١) لأن وجبة الغداء لا تتصادم مع وقت الظهر كثيرا كما تتصادم وجبة العشاء مع صلاة العشاء. (٢) لأن رسول الله ﷺ قد حث هنا على تناول العشاء قبل النوم بوقت كافٍ، حتى لا يصاب الإنسان بالسهر والأرق وسوء الهضم، لأن الإسلام يحث على النوم بعد صلاة العشاء فورا لكي يسهل أداء صلاة التهجد. أما إذا أخر المرء في تناول العشاء بعد صلاة العشاء فلا يستطيع التهجد، كما أن صحته تتدهور من سوء الهضم.

لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن من معاني الصلاة الدعاء والرحمة والدين والشرعية والاستغفار والتعظيم والبركة وعبادة المسلمين. فالصلاة من الله الرحمة والبركة، ومن العباد الدعاء والدين والشرعية والاستغفار والتعظيم والعبادة عموما، أو العبادة الإسلامية المعروفة. والمراد من الصلاة على النبي ﷺ الدعاء والبركة والتعظيم، أي أن المؤمن يسأل الله تعالى أن يرفع مدارج سيده محمد ﷺ وإنزال البركات عليه وتعظيمه. وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٧)، أي أن الله ينزل بركاته على رسوله، وأن ملائكته يدعون له ﷺ ويعظمونه، فأيتها المؤمنون عليكم أن تدعوا له ﷺ وتعظموه وتطيعوه في كل ما يأمركم به. أما الصلاة بمعنى الاستغفار فقد وردت في قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣)، أي: أيها الرسول، إذا حصل تقصير من المؤمنين الصادقين فاستغفر لهم، لأن استغفارك يجلب السكينة لهم. وأما الصلاة بمعنى الدعاء فذلك في قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (التوبة: ٩٩)، أي أن من البدو من يؤمن بالله واليوم الآخر حقا ويعتبر ما ينفقه في سبيل الله سببا لقربه من الله ولدعاء الرسول ﷺ له، فليعلم هؤلاء أن عملهم هذا سيؤدي إلى قرب الله تعالى حتما، وأن الله تعالى سيدخلهم في رحمته لحسن نيتهم بسبب أدعية الرسول ﷺ لهم.

وعندما تُطلق كلمة الصلاة على العبادة فهي، إضافةً إلى الإشارة إلى الصلاة الإسلامية المعروفة، تشير أيضا إلى أن الصلاة دعاء وتحقق لبّ الدين وغاية الشريعة، ويسأل فيها العبد ربه العفو عن خطاياہ ويرجو رحمته وبركته، فقال الله تعالى ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، أي اتل القرآن الكريم وأدّ الصلاة، فلا شك أن الصلاة تمنع المرء من السيئات المتعلقة بشخصه والمعاصي التي تشقّ على المجتمع. لقد تبين من هذه الآية أن الصلاة ليست مجرد طقس، بل هي عبادة لا بد أن تكفل للإنسان كراهية السيئة، والطهارة الباطنة. لقد بين الله تعالى بوصف الصلاة بهذه الميزة بأن الذي لا يكره السيئة مع أدائه للصلاة فليعلم أنّ صلاته ناقصة حتما. ويقول ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٤٠) بين الله تعالى أن المتقي لا يؤدي الصلاة كطقس، بل يسعى جاهدا أن تقوم صلاته، أي أن تكون سندا لروحانيته. وكما أن الأعمدة إذا ثبتت ورسخت في مكانها حملت السقف، كذلك إذا صارت الصلاة كاملة صارت سنداً لتقوى المتقي، فعلى المرء ألا يطمئنّ لمجرد أنه يصلي، بل عليه أن يقيم صلاته لتكون سندا تقوم عليه تقواه.

الصلاة الإسلامية؛

لقد جاء الأمر بالصلاة هنا لأول مرة، لذلك أوجز هنا بيان كيفية الصلاة الإسلامية، لكي يطلع عليها من يقرأ هذا التفسير من غير المسلمين.

الوضوء أو التيمم فرض قبل أداء الصلاة، والوضوء هو الأصل، والتيمم يقوم مقامه. (المائدة: ٧)

ويتم الوضوء بالماء، حيث يغسل المرء يديه أولا، ثم ينظف فمه بالمضمضة، ثم ينظف أنفه بالاستنشاق، ثم يغسل وجهه، ثم يديه إلى المرفقين، ثم يمسح شعر رأسه إلى ثلثه أو ثلثيه بيدين مبللتين، ثم يمسح باطن أذنيه بسبابتيه المبللتين، ويمسح ظاهر أذنيه بإبهاميّه المبللتين. ثم يغسل قدميه إلى الكعبين. (البخاري،

كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً، والنسائي، كتاب الوضوء، باب مسح الأذنين مع الرأس). وعند غسل الساعدين والقدمين يجب أن يبدأ باليمين أولاً. (النسائي، كتاب الوضوء، باب بأي الرجلين يبدأ بالغسل). وغاية الوضوء صرف تيار الأفكار من الأعمال الأخرى إلى العبادة، كما أن هذا العمل يساعد على الطهارة الظاهرة، لأن الأعضاء التي تُغسل تتعرض للغبار عادةً، لكونها مكشوفة. إن غسل هذه الأعضاء أو تبليها مفيد وضروري في تركيز الأفكار، لأن تشتت الأفكار راجع إلى حدة أماكن الحواس الخمس، وأماكن الحواس الخمس هي الأذن والأنف والفم والوجه والجسم، فالمضمضة تبلل الفم وتولد فيه قوة التركيز. وتنظيف الأنف بالاستنشاق يبرده، ويغسل الوجه تبلل العيون، ويمسح باطن الأذنين بالأصابع وتمرير الإبهام على ظاهرهما يزيل تشتت قوة حسّ الأذن. أما لإزالة تشتت حسّ الجسم فتُغسل الأيدي والأرجل. والثابت بالتجارب الطبية أن غسل الأيدي والأقدام أو تبليها يكفي لإزالة حرارة الحمى من الجسم كله. وإن حرارة الرأس تشتت أفكار الإنسان جداً، ولذلك أمرنا بمسح الرأس الذي يبرده ويزيل حرارته ويساعد على تركيز الفكر.

لقد أثبت المتخصصون في علم الأعصاب بتجارهم أنه يمكن تغيير مجرى تيار الأفكار بتبريد أنامل اليد والقدم؛ فقد أثبت علماء المسمرية (التنويم المغناطيسي) أنه لو وضعت أيدي المريض وأرجله في الماء فيمكن منع ضياع قوة دماغه الكهربائية التي لو استمرت بعد عملية التنويم لأصاب المريض بضعف وإرهاق شديدين. إذن، بغسل الأيدي والأرجل يمكن صرف الأفكار التي تجول في عقل الإنسان قبل الصلاة وتوجيهها إلى العبادة وذكر الله.

إذن، فالأمر بالوضوء أمر حكيم جداً، وقد أكدت التجربة وعلم الأعصاب نفع كل جزئية من الوضوء. وقد ورد الأمر بالوضوء في القرآن الكريم في الآية (٧) من سورة المائدة.

وإذا لم يتيسر الماء، أو كان المرء مريضاً، أو كان هناك خطر مرضه إذا توضأ، فيأمره الإسلام بالتيمم. (المائدة: ٧، والنساء: ٤٤). وطريقته أن يضرب

يديه بالتراب أو بشيء نظيف عليه غبار ويمسح بهما وجهه وساعديه. (البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم للوجه والكفين). ووراء هذا الحكم أيضا نفس الحكم، لأن التجربة أثبتت أن التراب النظيف والطاهر يقوم مقام الماء، ومن أجل هذه الحكمة نفسها كان النساك الهندوس قد بدأوا مسح أجسادهم بالرماد منذ زمان، ولكن فاتهم أن هذه أدنى طريقة للنظافة، ولا تصلح إلا إذا لم يتيسر الماء أو لم يمكن استعماله، وإلا فإن استعمال الماء هو الطريقة الفضلى.

وحكم التيمم أيضا موجود في القرآن الكريم في الآية ٤٤ من سورة النساء. وهناك حكم إضافي للزوجين بعد الجماع، وهو أن يغتسلا قبل الصلاة، والحكمة في هذا أن هذا الفعل يؤثر على الجسم كله كما تدل عليه التجربة، ويولد هيجانا في الطاقة الكهربائية في كل جزء من الجسم. ولا بد من تهدئة الجسم بإيقاف هذه الطاقة وتشتت الأفكار من أجل العبادة على وجهها وللاتصال بالله تعالى. وقد ورد هذا الحكم في الآية ٤٤ من سورة النساء، ولكن كما أن التيمم يُجزئ عن الوضوء في حالة المرض أو عدم تيسر الماء، كذلك يجزئ التيمم عن الغسل في هاتين الحالتين. فبعد قيام المسلم بالوضوء أو التيمم فهو مأمور إذا كان آمنا وعلى الأرض أن يستقبل القبلة ويرفع يديه حتى شحمي إذنيه موجهًا كفيه نحو القبلة، ثم يكبر ناويا أن يبدأ في عبادة الله تعالى، ثم ينهك فيها متخليًا عن كل الأفكار الأخرى. ومن حِكَم رفع اليدين هكذا التركيز، كما أن هذه العملية تعبير طبيعي عن التخلي عن الأمور الأخرى، فكأن المسلم يعبر بهذه الحركة أنه قد توجه إلى ربه منقطعا عن كل فكرة وعمل دنيوي. وقد أشار الشاعر "ميرزا غالب" في بيت شعر له إلى ما في حركة هذه اليد من مفهوم، حيث قال ما معناه: حبيبي يسلم عليّ لامسًا أذنيه، مشيرًا إليّ بأنني لا أعرفك.

فكأن المؤمن يريد أن يقول أنه قد تبثّل إلى مولاه وانقطع إليه معرضًا عن الدنيا وما فيها. كما أن هذا يبعث فيه النشاط واليقظ.

وبعدها يضع المسلم يديه على صدره (ابن خزيمة، رواية وائل بن حجر)، وكأنه يقف أمام الله تعالى في منتهى التعظيم، ثم يقول: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، النسائي، كتاب الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر)، أي: إلهي، أنت بريء من كل ما لا يليق بك، ومتصف بكل ما يليق بك، واسمك جامع للبركات، وعزتك متعالية، ولا معبود سواك.

ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: إلهي أستعذ بك من تأثير كل روح شريرة تُبعديني عن عتبتك حتى لا أكون من الذين ينحرفون عنك.

ثم يقرأ الفاتحة (النسائي، كتاب الافتتاح، باب البداءة بفاتحة الكتاب قبل السورة)، ثم يقرأ سورة من القرآن الكريم أو شيئاً منه بقدر ثلاث آيات. ثم يكبر ويركع بحيث يكون رأسه في الركوع في استواء مع ظهره، وتكون يداه على ركبتيه، ورجلاه مستقيمتين دون انحناء (النسائي، كتاب الافتتاح، باب الاعتدال في الركوع).

ثم يردد في الركوع ثلاث مرات أو أكثر وترّاً: سبحان ربي العظيم، أي أن ربي العظيم بريء من كل عيب (الترمذي، أبواب الصلاة، باب التسبيح في الركوع).

ثم يقف قائلاً: سمع الله لمن حمده، أي أن الله يستجيب لدعاء كل من يحمده بصدق القلب.

ثم يقف مستقيماً مسبلاً اليدين ويدعو الله تعالى: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ" (النسائي).

ثم يكبر ويسجد على الأرض على سبعة عظام وهي: الجبهة كلها، والكفان وهما نحو القبلة، والركبتان والقدمان وأصابعهما نحو القبلة. (مسلم، كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود). ويردد في السجود: "سبحان ربي الأعلى" ثلاث مرات أو أكثر وترّاً. (الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود).

ثم يكبر الله ويقعد بحيث يفرش قدمه اليسرى تحته، بينما ينصب قدمه اليمنى وأصابعها نحو القبلة. وفي هذه القعدة يدعو الله تعالى: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي (أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء بين السجدين). والمراد من "وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي"، أن اهديني إلى كل الحقائق واحمني من كل العيوب وارزقني من الحلال الطيب.

وقد ورد في بعض الروايات: "واجبرني"، وفي بعضها: "وارفعني"، ومعناه: رب، نجني من كل النقائص واحمني من كل ضرر، واجعلني أتقدم وأرتقي باستمرار.

ثم يكبر ويسجد مرة أخرى ويدعو كما فعل في السجدة الأولى، ثم يكبر ويقف. وهكذا تكتمل الركعة الأولى.

ثم بعد ذلك يؤدي الركعة الثانية كالأولى بفارق أنه لا يبدأها بدعاء: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ..."، وإنما يبدأها بالفاحة فقط.

وبعد الانتهاء من الركعة الثانية يجلس للتشهد جلسته ما بين سجدي الركعة الأولى ويردد الكلمات التالية: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ. السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ (البخاري، الصلاة، التشهد)، أي أن كل كلمات التعظيم التي يمكن أن ينطق بها أحد، وكل العبادات التي يمكن أن يقوم بها الإنسان، وكل التضحيات المالية التي يمكن أن تقدم لأي ذات مقدسة، إنما هي حق الله وحده. وسلام الله عليك ورحمته وبركاته أيها النبي، وكذلك سلام الله علينا نحن المصلين وعلى عباد الله الصالحين الأولين والآخرين أجمعين. وأشهد أن الله أحد، وأن محمدا عبده ورسوله.

ثم بعد ذلك يصلي على النبي ﷺ، وقد وردت الصلاة على النبي ﷺ بكلمات مختلفة، وإن أكثرها اختصاراً ما يلي: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ

مَجِيدٌ (البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب اتخذ الله إبراهيم خليلًا)، أي: اللهم أنزل فضلك ورحمتك وبركاتك على محمد ﷺ وعلى من ينتمي إليه كما أنزلتها على إبراهيم وعلى من اتتموا إليه.

ثم يردد بعض الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ منها: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ (أبو داود، كتاب الصلاة، باب الاستعاذة)، أي: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَصِيبَةٍ تَسْبِبُ لِي الذَّعْرَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ سَيْطَرَةِ الْأَحْزَانِ عَلَيَّ، وَمَنْ أَنْ أَفْقِدَ أَسْبَابَ الْعَيْشِ، أَوْ أَفْقِدَ طَاقَاتِي الْإِلَازِمَةَ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِي وَحَاجَاتِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَلَا أَسْتَغْلِ أَسْبَابَ الرِّقَى وَالْكَفَاءَاتِ الْمُتَوَفِّرَةِ نَتِيجَةً إِهْمَالِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْخُلُقِيَّةِ كَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تَتْرَاكُمَ عَلَيَّ الدَّيُونُ فَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَسْدِيدِهَا فَأَذِلَّ وَأُخْزَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيَّ أَنَاسٌ يَهْضُمُونَ حَقِّي وَيَعِيقُونَ تَقْدِمي الَّذِي قَدَّرْتَهُ بِفَضْلِكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.

يردّد المصلّي في هذه الجلسة هذا الدعاء وما شابهه من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ إضافةً إلى ما يراه ضرورياً بحسب حاجاته. ثم يتوجه يميناً، ويقول: السلام عليكم ورحمة الله، ثم يساراً ويقول: السلام عليكم ورحمة الله، وهكذا تنتهي صلاته.

هذا إذا كانت الصلاة ركعتين، أما إذا كانت أكثر من ذلك، فعليه أن يكبر ويقف بعد قراءة الشهادتين في جلسة التشهد. فإذا كانت الصلاة ثلاث ركعات فيجب أن يجلس في الركعة الثالثة جلسة التشهد ثانيةً ويخرج من الصلاة بالتسليم. وإذا كانت أربع ركعات، فعليه أن يجلس في الركعة الرابعة جلسة التشهد ثانيةً ويسلم.

وفي الركعتين الثالثة والرابعة لا يُقرأ شيء من القرآن الكريم بعد سورة الفاتحة.

وهناك خمس صلوات هي فرضٌ على المسلمين يومياً، أولاهما: صلاة الفجر، ويبدأ وقتها بطلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيجب أدائها قبل طلوع الشمس. وهي ركعتان.

ثم صلاة الظهر التي يبدأ وقتها بزوال الشمس، ويمتدّ إلى ثلاث ساعات إلا ربعاً تقريباً، وفي بلادنا (الهند) يمتدّ وقتها حتى ثلاث ساعات تقريباً في أيام الصيف. وهي أربع ركعات.

ثم يبدأ وقت الصلاة الثالثة، وهي العصر، ويمكن أدائها حتى اصفرار الشمس. وهي أربع ركعات.

ثم صلاة المغرب ويبدأ موعدها بعد غروب الشمس حتى غياب الشفق. وهي ثلاث ركعات.

ثم صلاة العشاء، ويبدأ وقتها في بلادنا الهند بعد غروب الشمس بساعة ونصف تقريباً، ويستمر حتى منتصف الليل، ويرى البعض أنه ممتد إلى ما بعده أيضاً. وهي أربع ركعات.

ويصلّي المرء صلاة الفرض بهذا العدد من الركعات إذا كان مقيماً بين أهله أو حيث يقيم إقامة دائمة. أما إذا كان في سفر فيقصر الظهر والعصر والعشاء ويصلّيها ركعتين، أما الفجر والمغرب فلا قصر فيهما، بل هما ركعتان وثلاث في كل حال.

يظن البعض خطأً أن الصلاة في السفر صارت نصفاً، ولكن الصحيح عكس ذلك، فعن عائشة رضي الله عنها أنه لما فرضت الصلاة كانت الظهر والعصر والعشاء ركعتين، فأقُرت في السفر ركعتين، وزيد في الحضر فصارت أربع ركعات (الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر).

وفي صلاة الفجر جماعة يقرأ الإمام سورة الفاتحة جهراً، ويرددها المقتدون دون الجهر بها، أما ما يقرأ سواها مما تيسر من القرآن الكريم فيستمعون له فقط صامتين. أما سائر كلمات الصلاة فيقرأها الإمام والمأموم دون جهر، غير أن

الإمام يجهر بالتكبير وبـ "سمع الله لمن حمده" عند القيام من الركوع، وبالتسليم الأخير عند انتهاء الصلاة.

أما في صلاتي الظهر والعصر فلا يجهر الإمام ولا المقتدون بقراءة الفاتحة ولا ما يُقرأ بعدها من القرآن، وإنما يقرأون كل شيء في قلوبهم.

أما صلاة المغرب فيجهر الإمام بالقراءة في الركعتين الأوليين، فيردد المقتدون الفاتحة وراءه دون جهر، وأما ما يقرأ بعدها من القرآن فيستمعون له صامتين. أما الركعة الثالثة فيقرأ فيها الإمام والمقتدون الفاتحة فقط، ودون جهر.

أما صلاة العشاء فيصلّي الإمام والمقتدون ركعتيهما الأوليين كما يصلّونهما في المغرب، أما في الركعتين الثالثة والرابعة فيقرأ فيهما الإمام والمقتدون الفاتحة فيها فقط، ودون جهر.

في الصلوات كلها يجهر الإمام بالتكبيرات ويقول "سمع الله لمن حمده" عند انتهاء الركوع، وبالتسليم الأخير عند نهاية الصلاة، وذلك لكي يأخذ معه المصلين وراءه.

وإضافةً إلى هذه الصلوات الخمس، التي هي فرض، هناك صلاة أخرى تسمى صلاة الوتر، وهي ثلاث ركعات كصلاة المغرب، والفارق بينهما أنه:

أولاً: صلاة المغرب لا يُقرأ في ركعتها الثالثة شيء من القرآن بعد الفاتحة، أما صلاة الوتر فتُقرأ في ركعتها الثالثة سورة قصيرة أو بضع آيات من القرآن بعد الفاتحة. (الترمذي: أبواب الوتر، باب ما جاء ما يقرأ في الوتر)

وثانياً: يمكن تقسيم صلاة الوتر جزأين، أي يجوز أن يسلم المصلي بعد التشهد في الركعة الثانية، ثم يصلّي الركعة الثالثة وحدها، وذلك خلاف صلاة المغرب (النسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب كيف الوتر بثلاث، وباب كيف الوتر بواحدة).

ويمكن أداء صلاة الوتر بعد صلاة العشاء أو بعد صلاة التهجد التي سنذكرها لاحقاً.

وإضافة إلى صلوات الفرض وصلاة الوتر، هناك سنن، أي صلوات قد داوم النبي ﷺ على أدائها، ولكنه لم يفرضها على المسلمين غير أنه حثهم عليها وأكدها. وهي ركعتان قبل فريضة الفجر، وأربع قبل الظهر وأربع أو ركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان أو أربع بعد العشاء (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة من السنة، وباب ما جاء في الركعتين بعد الظهر). وبعد أداء هذه السنن تؤدي صلاة الوتر المذكورة أعلاه.

ثم هناك صلاة تسمى صلاة التهجد، التي يمكن أدائها في أي وقت ما بين منتصف الليل وطلوع الفجر. ولكن كما هو ظاهر من معنى التهجد، فينبغي أدائها بعد الاستيقاظ من النوم. ومع أنه إذا لم يستطع المرء النوم لسبب ما في ليلة وانتصف الليل، فيجوز له أن يصلي هذه الصلاة، ولكن نظراً إلى اسم "التهجد" الذي أطلقه القرآن على هذه الصلاة، ونظراً لما هو ثابت من أسوة الرسول ﷺ، فمن الأفضل أن ينام المرء بعد صلاة العشاء ثم يستيقظ ويؤدي هذه الصلاة. إن صلاة التهجد وثيقة الصلة بالترقيات الروحانية، وقد حث عليها القرآن الكريم بوجه خاص (المزمل: ١-٦).

ثم هناك سنن أخرى هي غير مؤكدة، أعني أن الرسول ﷺ لم يحث ولم يؤكد عليها، غير أنه قد صلاها كلما استطاع. ومنها صلاة "الضحى"، وتؤدي بعد ارتفاع الشمس قدر رمح أو ضعفه. كما أن هناك نوافل أخرى أيضاً. لا تجوز الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ولا عندما تكون في منتصف النهار، كما أن الصلاة غير محبذة حين اصفرار الشمس.

وأمرنا أن نؤدي الصلوات في مواقيتها المحددة، ولكن يجوز الجمع بين صلاتين لاضطرار مثل مطر أو سفر أو صعوبة اجتماع المصلين مرة بعد أخرى، أو عمل ديني أو قومي مشترك لا يمكن تركه دون إنجاز.

ويرى البعض أنه عند الجمع يعفى المرء من أداء السنن الواقعة بين الصلاتين، ويرى الآخرون أنه يعفى من السنن كلها، وأرى أن الرأي الأخير هو الصواب.

وَتُجْمَعُ الظُّهْرُ مَعَ الْعَصْرِ، أَوْ الْمَغْرَبُ مَعَ الْعِشَاءِ فَقَطْ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْفَجْرِ وَالظُّهْرِ، أَوْ بَيْنَ الْعَصْرِ وَالْمَغْرَبِ، أَوْ بَيْنَ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي حَالَةِ خَطَرٍ عَلَى الْحَيَاةِ، كَأَنْ يَكُونَ الْقَوْمُ فِي قِتَالٍ، فَلَوْ بَدَأُوا يَصَلُّونَ تَارِكِينَ الْقِتَالَ لَقَتَلَهُمُ الْعَدُو، أَوْ أَنْ تَحُلَّ بِهِمْ كَارِثَةٌ طَبِيعِيَّةٌ كَأَنْ يَتَهَدَّمِ سَدٌ نَهْرٌ أَوْ قَنَاةٌ فَيَحَاوِلُوا سَدَهُ أَوْ يَنْشَبُ حَرِيقٌ فَيَحَاوِلُوا إِطْفَاءَهُ، فَهِيَ كَوَارِثُ تَهْلُكِ النَّاسِ وَتَدْمِيرِ الْمَدَنِ.

وَكَذَلِكَ يَجُوزُ لِمَنْ يَغْشَى عَلَيْهِ جَمْعُ الصَّلَوَاتِ الَّتِي لَا تَجْمَعُ عَادَةً، فَمَثَلًا لَوْ أَغْمِيَ عَلَيْهِ وَقْتُ الْعَصْرِ وَلَكِنَّهُ أَفَاقَ وَقْتُ الْعِشَاءِ فَيَجُوزُ لَهُ جَمْعُ الْعَصْرِ مَعَ الْمَغْرَبِ. فَفِي إِحْدَى الْحُرُوبِ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ كُلَّهَا بِاللَّيْلِ (السِّيَرَةُ الْحَلَبِيَّةُ، بَابُ ذِكْرِ مَغَازِيهِ ﷺ).

وَمَعَ ذَلِكَ مَنْ تَعَمَّدَ تَرْكَ الصَّلَاةِ فِي مَوْعِدِهَا فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَدَاؤُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، أَعْنِي أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلَاةِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّمَا السَّبِيلُ لِتَلَاوُفِهَا التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْمَرْءُ الصَّلَاةَ نَاسِيًا أَوْ فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ وَهُوَ نَائِمٌ فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا حِينَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَسْتَيْقِظُ، شَرِيطَةٌ أَلَا يَصْلِي فِي وَقْتٍ مَمْنُوعٍ فِيهِ الصَّلَاةُ، فَمَثَلًا لَوْ فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ وَهُوَ نَائِمٌ وَحِينَ اسْتَيْقِظَ وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ طُلُوعَهَا جَدِيدًا ثُمَّ يَصَلِّيَ.

ثُمَّ هُنَاكَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ الَّتِي تُؤَدَّى يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَكَانَ صَلَاةِ الظُّهْرِ. وَيَبْدَأُ الْإِمَامُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ بِخُطْبَةٍ يَبَيِّنُ فِيهَا مَسْأَلَةً إِسْلَامِيَّةً مُهِمَّةً أَوْ يَحِثُّ عَلَى ضَرُورَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ قَوْمِيَّةٍ بِحَسَبِ الظَّرْفِ، ثُمَّ يَصْلِي بِالنَّاسِ رَكْعَتَيْنِ يَجْهَرُ فِيهِمَا بِالْقِرَاءَةِ خِلَافَ صَلَاةِ الظُّهْرِ.

ثُمَّ هُنَاكَ صَلَاتَانِ أُخْرَيَانِ هُمَا صَلَاةُ عِيدِ الْفِطْرِ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَ انْقِضَاءِ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ شَوَالٍ، وَصَلَاةُ عِيدِ الْأَضْحَى الَّتِي يَكُونُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ لِلْحَجِّ أَيْ فِي الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، حَيْثُ يَصْلِي الْإِمَامُ بِالنَّاسِ رَكْعَتَيْنِ يَجْهَرُ فِيهِمَا بِالْقِرَاءَةِ.

وتقام صلاة العيد في الجزء الأول من النهار. تقام صلاة عيد الفطر مؤخرَةً قليلاً، أما صلاة عيد الأضحى فتقام باكراً.

وهناك خطبة يليقها الإمام في صلاة العيد، غير أنها تكون بعد أداء الركعتين، وذلك خلافاً لخطبة الجمعة التي تسبق الركعتين. وليس هناك نداء إقامة الصلاة قبل صلاة العيد.

وهناك صلاة هامة أخرى هي صلاة الجنازة، وهي فرض كفاية، بمعنى أنه إذا مات مسلم وصلى عليه بعض المسلمين كان في ذلك كفاية، ولكن إذا لم يصل عليه أحد فيأثم كل الذين علموا بوفاته ولم يصلوا عليه. مما يعني أن صلاة الجنازة ليست مسؤولية فردية بل هي مسؤولية القوم كلهم.

وليس في صلاة الجنازة ركوع ولا سجود، بل يصلّيها الناس قائمين (البخاري، أبواب الجنائز، باب سنة الصلاة على الجنائز). ويصلّون الجنازة والميت موضوع أمامهم، وهذه هي الحكمة في خلوّ هذه الصلاة من ركوع ولا سجود، إذ قد يظن البعض بأن هؤلاء يركعون ويسجدون للميت، بل قد تنتاب هذه الفكرة الخادعة بعض المصلين أنفسهم من ذوي الطباع الضعيفة خاصة إذا كان الميت أحد كبار الصالحين. فمنعاً للشرك، قد أزيل الركوع والسجود من صلاة الجنازة.

وهذه الصلاة أربعة أجزاء: يقف الإمام والمصلون مستقبلي القبلة، ثم يرفع الإمام يديه مكبراً بدون أذان ولا إقامة، ثم يضع يديه على صدره، ويقرأ هو ومن وراءه سورة الفاتحة دون جهر، وبعدها يكبر الإمام التكبيرة الثانية ويصلي هو ومن وراءه على النبي ﷺ بالصلاة الإبراهيمية دون جهر، ثم يكبر الإمام التكبيرة الثالثة ويدعو هو والمقتدون لمغفرة الميت -إذا كان بالغاً- ولكافة المسلمين عموماً، ذكوراً وإنثاً صغاراً كباراً، ولورثة الميت خصوصاً، أما إذا كان المتوفى غير بالغ فيدعون لأبويه بالصبر والسلوان ونعم البدل، وأن يكون سبباً لنزول الرحمة والمغفرة عليهم يوم القيامة، كما يدعون بما يشاءون بلغتهم

بالإضافة إلى الأدعية المأثورة. وبعدها يكبر الإمام التكبيرة الأخيرة، وبعد هنيهة ينهي الصلاة بالتسليم يمينا وشمالا.

وهناك أنواع أخرى للصلاة في الإسلام؛ منها صلاة الاستسقاء التي يصلونها طلبا للمطر عند الجفاف مخافة القحط والمجاعة، وصلاة كسوف الشمس وخسوف القمر، وصلاة الحاجة التي يصلّيها المرء طلبا لكشف مصيبة أو شكرا على زوالها. ولكنها صلوات يصلّيها المرء نادرا، ولذا لا أكتب بشأنها المزيد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب الفقه.

في كل الصلوات التي تقام جماعة يجب أن يقوم الإمام أمام المصلين، فيقفون وراءه صفّا صفّا بحيث يسهل على الجميع السجود. وقد حثّ النبي ﷺ على تسوية الصفوف خاصة (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في إقامة الصفوف). وفي القرآن الكريم ما يُستدل به على الاهتمام بتسوية الصفوف.

يؤدي المرء كل جزئيات الصلاة واقفاً إلا السجود والقعود، أما المريض فيجوز له أن يصلي جالسا، وإن لم يستطع فبالإشارة مستلقيا.

وممنوع في الصلاة الالتفات أو الكلام أو الاستماع لصوت خارج الصلاة وما إلى ذلك من أمور تخلّ بها (أبو داود، كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة، وباب النظر في الصلاة، وباب تشميت العاطس في الصلاة). وممنوع أيضا السعال أو الحركة من دون داعٍ. كل هذا ممنوع بدءا من التكبيرة الأولى إلى التسليم.

أما الصلاة في حالة الخوف، أي حين يستحيل أداؤها باطمئنان، كأن يكون المرء في ساحة القتال والعدو يجهز للهجوم، أو يكون هناك خوف هجومه، فيمكن قصر الصلاة بعدة طرق. ومن الطرق المسنونة أن تصلي طائفة من المسلمين ركعتين وراء الإمام، أو ركعة إذا كان الخوف شديدا، بينما تقف طائفة أخرى مواجهة للعدو، وإذا صلّت الطائفة الأولى الركعتين أو الركعة، ينصرفون لمواجهة العدو، وتأتي الطائفة الأخرى ليصلّوا وراء الإمام. وإذا كان

العدو في جهة القبلة فكلتا الطائفتين تتوجه إليه (مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف).

ولصلاة الخوف أحد عشر شكلاً مختلفاً بحسب درجة الخوف، ولا حاجة لبيانها هنا. المهم أن صلاة الخوف جماعة تختلف شكلاً باختلاف نوعية الخطر وفقاً لسنة النبي ﷺ (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة إلى الراحلة). وقد ذكر القرآن صلاة الخوف في الآيتين ١٠٢-١٠٣ من سورة النساء.

وإذا كان الخوف شديداً واضطر المرء لمواجهة العدو أو الانسحاب ركباً أو ماشياً، فيجوز له الصلاة ركباً أو ماشياً، كما يجوز له أن يصلي بسرعة. وقد ذكر هذا في الآيتين السابقتين من سورة النساء أيضاً.

ويصلي المسلم مستقبل القبلة، أي أنه يصلي ووجهه ناحية الكعبة في مكة المكرمة، حيثما كان. وهكذا ينصبّ تركيز المسلمين في كل مكان في العالم إلى مركز واحد.

والمسلمون لا يتوجهون إلى الكعبة لعبادتها وتأليها، بل قد بين القرآن الكريم سبب ذلك في سورة البقرة كما سنتناوله بالتفصيل لاحقاً، وهو أنه كان لا بد أن يؤمر المسلمون بالتوجه إلى جهة من الجهات في الصلاة جماعة، ولو لم تُحدد لهم هذه الجهة ولم يستطيعوا الصلاة صفا صفا في مكان لتوجهوا إلى جهات مختلفة، فلم تعدّ صلاحهم بالجماعة عبادة في الحقيقة، فأمرهم الله تعالى أن يصلوا مستقبل الكعبة التي أخبر الله تعالى أنها أول بيت بُني للناس لعبادة الله (آل عمران: ٩٧). وقد بُني هذا البيت قبل إبراهيم عليه السلام بزمن، ولكنه كان قد تهدّم، فأمره الله تعالى أن يعيد بناءه من جديد بمساعدة ابنه إسماعيل (البخاري، كتاب بدء الخلق).

وكان إبراهيم عليه السلام قد ترك إسماعيل عليه السلام وهو طفل صغير مع أمّه في مكة لعمران هذا المكان ولذكر الله تعالى (البخاري، كتاب بدء الخلق). وأخبره الله تعالى أن هذا المكان سيصبح مركزاً للعابدين الصادقين كلهم (البقرة: ١٢٥،

والحج: ٢٦). وحيث إن الله تعالى قد حقق هذه النبوءة على يد الرسول ﷺ (البقرة: ١٢٩، والجمعة: ٣)، فقد جعلها الله مركزاً لاجتماع المسلمين الظاهري، لكي يتذكروا ذلك الهدف -الذي حدّده الله تعالى منذ زمن إبراهيم- من وراء إنشاء جماعة المسلمين.

ومما يدلّ على أن الكعبة لم تُبنَ لتُعبَد وأنها ليست إلا سبباً للاجتماع والوحدة أن المسلم إذا كان في سفينة أو على راحلة فيكفيه أن يبدأ الصلاة مستقبلَ القبلة، ولا بأس لو تغيرت جهة السفينة والراحلة بعد ذلك (الترمذي، أبواب الصلاة، باب الصلاة على الراحلة، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب التطوع على الراحلة).

لا يُعفى المرء من الصلاة إذا لم يعرف جهة القبلة، بل عليه أن يصلي حيثما توجه (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم).

وإذا لم يستطع الوضوء ولا التيمم فعليه أن يصلي في هذه الحالة أيضاً ما دام قادراً على الصلاة. فمثلاً لو كان يركب سفينة فغرقت، فقفز في البحر لابساً سترة النجاة ولم يجد من ينقذه لوقت طويل، ولكنه لا يستطيع أن يتوضأ أو يتيمم، فيمكنه أن يصلي بالإشارة، وهذا يكفيه. أما الفقهاء الذين يرون أنه ما دام في الماء فهذا وضوءه، لأن جميع أعضائه قد غُسلت، فهو عندهم على وضوء، لذا عليه أن يصلي.

الحكمة في هيئات الصلاة

يبدو لأول وهلة أن هيئات الصلاة وحركاتها من قيام وركوع وسجود وقعود إنما هي طقوس فارغة. والحق أن في هذه الهيئات حكماً عظيمة لا بد منها لتكميل الصلاة، وهي لا تجعل الصلاة مجرد طقوس، إنما تكمل ما في الصلاة من روحانية. الواقع أن الإنسان قد خُلِقَ بحيث إن الروح والجسم يتفاعلان، إذ نرى أنه إذا تباكى جرت الدموع من عينه بعد قليل، واستولى

عليه همّ، وإذا جلس الناس مع شخص حزين وضحكوا وأضحكوه خَفَّ حزنه. وعلى النقيض نرى أنّ ما في قلب المرء من همٍّ أو سرور يُرى أثره على وجهه وأعضائه الأخرى، حتى إن بعض الناس قد ابيضَّ شعرهم في ليلة واحدة نتيجة صدمة شديدة. وطبقاً لهذا القانون الطبيعي قد جعل الإسلام في العبادة بعض الهيئات والحركات الجسمانية لكي تتفاعل روحه مع هذه الحركات الظاهرة الدالة على الأدب والتعظيم وتُشحن بمشاعر مماثلة.

ونرى في العالم أشكالاً مختلفة للتعبير عن غاية الاحترام والتعظيم، فبعضهم يقفون أمام كبارهم رابطين أيديهم على صدورهم تعظيماً لهم، وبعضهم يرون أن الوقوف سابلي الأيدي هو منتهى التعظيم، وبعضهم يعدّون الركوع أفضل أنواع التعظيم، وبعضهم يرون الخُرور ساجدين ذروة التعظيم، وبعضهم يعتبرون الجلوس على الركب منتهى الأدب، ولذلك نجد هذه الهيئات المختلفة في عبادات شتى الأمم؛ فالفرس كانوا يقفون مربوطي الأيدي أمام مَلِكِهِم الذي اعتبروه مظهرًا لله ﷻ، كما كانوا يقفون مسبلي الأيدي في بعض الحالات. أما الأمم الغربية فتعدّ الجلوس على الركب غاية التذلل، وأما أهل الهند فيرون الركوع أفضل تعبير عن الأدب والتعظيم، كما أنهم يخرون ساجدين أمام صلحائهم وأصنامهم. ولما كان الإسلام قد جاء للأمم كافة فجمع في عبادته كل هذه الأشكال والهيئات لكي تتولد في قلوب المسلمين من مختلف الأمم الخشية المطلوبة في العبادة، ذلك لأن كل قوم منهم سوف يتأثرون في الصلاة من هيئتها الخاصة بهم لاعتيادهم إياها، كما أنهم يتأثرون أكثر في كل هيئة من هذه الهيئات بحسب كيفيتهم القلبية، لأن الملاحظ أن الإنسان يتخذ هيئات جسمانية مختلفة بحسب حالته الباطنة المختلفة؛ فحيناً يركع من شدة الحب والتعظيم، وحيناً يجلس على الركبتين، وحيناً يقف قائماً، وحيناً يخّر ساجداً. فالمصلي يجد في العبادة حماساً أكثر ومتعة أكثر بحسب كل هيئة تنسجم مع حالة قلبه في مختلف مراحل الصلاة.

كما أن هذه الهيئات المختلفة تترك أثراً مختلفاً في قلب الإنسان بالنظر إلى كفاءاته الجسمانية علاوة على كفاءاته الباطنة؛ فمثلاً: المصاب بالزكام يعاني في السجود، ولا يجد خشوعاً كاملاً وهو ساجد، ولكنه إذا وقف أو قعد وجد حماساً شديداً للدعاء، لأن هيئة الوقوف أو القعود أكثر ملائمة لحالته الصحية. أما الذي يشعر بضعف في رجله مثلاً فيخشع في السجود أكثر.

باختصار، لما كان الإسلام قد اعتبر العبادة عملاً جماعياً، وأراد جمع كافة الأمم وتوحيدها، فقد جمع في عبادته كل تلك الهيئات والحركات التي تعبّر بها شتى الأقوام عن حبها وتعظيمها، والتي تثير في ذوي الطبائع المختلفة في حالات مختلفة مشاعر الحب والاحترام، وإن الصلاة الإسلامية تبلغ من الشمول والكمال بحيث لا تباريها عبادة في أي دين، ولذلك قد أمر الإسلام بالصلاة جماعة، لأنه إذا صلى أصحاب الطبائع المختلفة معاً في مكان واحد فلا بد أن تؤثر حالة قلب الواحد على الآخر، ولا بد أن يشعر الضعيف منهم بتأثير قوة إيمان القوي عليه.

ولما كان الإنسان يشعر برغبة عارمة للعبادة على انفراد، فحث الإسلام على أداء النوافل إضافة إلى الفرائض، مثل صلاة التهجد، وهكذا قد شفى هذا الغليل الطبيعي في الإنسان.

والخلاصة أن الصلاة الإسلامية جامعة لكل الطرق الموجودة عند مختلف الأقوام لخلق الحماس والخشوع في القلب، وهو ضروري للعبادة، فجمع في هذه الصلاة كل ما يعمل على إصلاح القلب وخلق الحماس الصادق للعبادة عند كل فرد وكل قوم. والهيئات الجسمانية التي اعتبرها الإسلام ضرورية للصلاة لا تقلل من عظمتها، بل تساعد على كمالها وتدل على أفضليتها على عبادات الملل الأخرى.

وإضافة إلى هذه الحركات الظاهرة فإن في الصلاة من المعاني الكثيرة السامية من تسبيح الله وتحميده وتعظيمه ما يلين أشد القلوب قسوة، وفيها من الأدعية ما يرفع بفكر الإنسان عالياً، ويسمو بأهدافه، ويثير فيه مشاعر الصلاح

والتقوى، ويذكى فيه نار حب الله تعالى. وهذه المعاني السامية هي الجزء الروحاني من الصلاة، ولو قارنّا بين صلاة الإسلام وعبادات الملل الأخرى في هذا المجال لوجدنا أن بينهما ما بين الثريا والثرى. لقد جعل الإسلام عبادته خالية من كل الإثارات المادية الموجودة في العبادات الجماعية للملل الأخرى عموماً من غناء وموسيقى وغيرهما، إذ يقف عباد الله المسلمون في عبادتهم بجديّة يعبرون عن حبهم لربهم ويسألونه حبه. ثم إن الإسلام لا يأمرهم بالصلاة مرة في الأسبوع، كما هو حال الديانات الأخرى، بل يأمرهم بأدائها خمس مرات على الأقل يومياً، ومع ذلك تجد في هذا العصر الذي سادت فيه اللادينية أن المسلمين الذين يصلّون الخمس يومياً يفوق عددهم عدد أتباع الأديان الأخرى كلها الذين يصلّون مرة في الأسبوع، وهذا الأمر الواقع لدليل بيّن على ما في الصلاة من جاذبية روحانية.

في معابد الأمم الأخرى تُعزف الموسيقى، وتُغنى الأغاني، وتُقدّم للناس المقاعد والكراسي ليجلسوا عليها براحة خلال العبادة، ويدعون مرة واحدة كل أسبوع، ومع ذلك يتهربون من عبادتهم، أما الذين خاطبهم الله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فيجتمعون يومياً في المساجد خمس مرات بشوق ولهفة للسجود على الأرض الصلبة، ويجدون في عبادتهم الخالية تماماً من أية وسائل للإثارة المادية والراحة لذة وسروراً تتضاءل أمامها نعم الدنيا كلها. ومن ذا الذي يسعه القول بعد مشاهدة هذا الأمر الواقع بأن العبادة الإسلامية ليست إلا مجرد مجموعة طقوس جسمانية فارغة، وأنها تركز على الحركات البدنية أكثر من الروحانية. إن علم النفس والواقع والخبرة كلها تؤكد أن ظاهر العبادة الإسلامية إنما هو بمنزلة القشر، أما لبّها فهي تلك المضامين الرفيعة والمعارف السامية التي يرددها المصلي وتلك الأدعية العظيمة التي يقوم بها، وتلك الابتهالات الحارة التي يبتهل بها.

يعترض البعض: لماذا أمر الله تعالى العباد بالعبادة؟ هل هو بحاجة إلى عبادتهم؟ لا يفرح بالتعظيم والتكريم إلا الجهلاء، ويجب أن يكون الله تعالى أرفع من هذا.

والجواب أن العبادة لا تريد من عظمة الله شيئاً، وإنما غايتها خلق اتصال بين الله والعبد بحيث يقتبس من نوره سبحانه وتعالى. ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن الفكر وحده لا يخلق في الإنسان تلك العاطفة الجياشة التي تجعله يتفانى في ذات البارئ تعالى، إنما تُخلق هذه العاطفة بالحب الكامل الذي لا يتولد إلا بانكشاف من المحسن انكشافاً تاماً، والصلاة تحقق هذا الهدف، لأن فيها ما يجلي للعبد عظمة الله الحقيقية.

ولو قيل: من أراد حب الله تعالى فسوف يهين نفسه الفرصة لذلك، فلا داعي لتعيين خمسة مواعيد لأداء الصلاة جماعة؟

والجواب أن هذا الاعتراض يدل على قلة تدبر صاحبه، فإن من طبيعة المرء أنه يركن إلى الغفلة والكسل إذا لم يُذكر بمهدفه من دون انقطاع، وقد أمر الله تعالى بأداء الصلاة جماعة للوصول بالضعيف والقوي إلى هذا المقام السامي، حيث تتاح للضعفاء مع الأقوياء فرصة لتطهير قلوبهم واجتذاب تلك التأثيرات الروحانية الخفية الصادرة من قلوب أقوياء الإيمان مما يساعد على طهارة قلوبهم. يقول البعض: لماذا نؤمر بأداء الصلاة خمس مرات يومياً، مع أن هذا العصر قد كثرت فيه المشاغل بحيث يتعذر التفرغ لخمس صلوات؟

والجواب: ما دام هدف الصلاة إذكاء حب الله تعالى في قلب العبد تسهيلاً له لأن يتصبغ بصبغة صفات الله تعالى، فالحاجة إلى الصلاة تزداد ولا تقل في الزمن الذي كثرت فيه المشاغل الدنيوية. الواضح أنه إذا قلت الأسباب التي تشغل الإنسان عن غايته قلت الحاجة إلى تذكيره بها، ولكن كلما كثرت الشواغل عن هدفه اشتدت الحاجة إلى تذكيره به. لو كانت الصلاة مجرد تعبير عن العقيدة والإيمان لكان هذا الاعتراض ذا وزن، ولكن ليس هدف الصلاة الإقرار بعبودية الله فقط، إنما هدفها تأهيل النفس البشرية لأن تخرج من الدنيا المادية وتخلق عالياً في سماء العالم الروحاني، وألا يظل عقله متخبطاً في الأهواء المادية، بل يسعى للتخلي بالأخلاق السامية، كما أشار الله إلى ذلك في قوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت ٤٦)، أي أن الصلاة

ليست إقرار المرء بعبوديته لله تعالى فحسب، بل إنها تنقي قلبه وتساعد على تجنب المعاصي والمنكرات، فتجعله فرداً نافعا لبني جنسه وملتته وقومه؛ والعمل الذي يحقق هذه الغايات السامية تشد الحاجة إليه أكثر في زمن كثرة الشواغل عنه، ولا تقل. والحق أن أنواع الفتن التي تسود هذا العصر من فساد وأناية وحروب وخروج أمم بعضها على بعض، إنما سببها تقصير الناس في العبادة الحقّة. ولو أنهم عبدوا الله تعالى بطريقة صحيحة لازدادوا إثارةً وتضحيةً نتيجة اتصافهم بخالقهم المحسن بدلاً من البغض والكراهية.

قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

لقد بينّا عند شرح الكلمات أن الرزق إنما يعني العطاء، أي تقديم أي شيء للآخر، وليس مجرد تقديم الطعام له. فقولهم رَزَقَهُ لا يعني أنه أطعمه، بل يعني أنه أعطاه شيئاً أيا كان. وهناك في العربية كلمات عديدة بمعنى تقديم الشيء لأحد، وقد استخدم القرآن منها السبعة التالية: الرزق والهبة والعطاء والمن والإحسان والإنعام والإيتاء.

وفأما الإيتاء فيعني مجرد تقديم الشيء لأحد، لأنه من "أتاه"، أي جاءه، والإيتاء يعني الإتيان بالشيء إلى أحد، ثم ضُمِّن معنى تقديم الشيء لأحد، لأنه إذا جاءه شيء فهو يقدمه له غالباً؛ فلفظ الإيتاء يعني مجرد تقديم الشيء لأحد سواء كان الشيء شيئاً أو جيداً، صغيراً أو كبيراً. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بهذا المعنى مراراً.

أما العطاء فهو أحصً من الإيتاء، لأنه لا يُستخدم بمعنى تقديم الشيء العادي للآخر، بل يعني تقديم ما يعتبره المتلقي نعمة عظيمة ويأخذه بشوق ولهفة. فهذا اللفظ إنما يستخدم لتقديم ما هو نافع ومفيد. ومن معاني العطاء الخدمة، وتعاطى يعني: أخذ الشيء واقفاً على أطراف أصابع الرجلين مع رفع اليدين إليه (الأقرب).

أما المنّ والإحسان والإنعام فيدل غالباً على فعل المعروف، ولا يشير إلى وصف في المتلقي، وإنما يدل على حسن نية المعطي.

أما الهبة فتدل على العطاء من غير رغبة في عوض أو بدل.

أما الرزق ففيه معنى الإيتاء وسدّ حاجة المتلقي، مما يعني أنه يدل على حاجة المتلقي وسدّها أيضاً. ولأن الإنسان يحتاج مرة بعد أخرى فأطلق الرزق على عطاء ينزل مرة بعد أخرى بقدر الحاجة. فقد ورد في المفردات ما معناه: الرزق: يقال للعطاء الجاري، ويقال للنصيب أيضاً. ويسمى الرزق نصيباً لأنه يكون بقدر الكفاية. والنصيب أيضاً يقال فيما يجده المرء حسب ضرورته. قال الله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ (الذاريات ٢٣)، أي أن الله تعالى قد هبّ الأسباب بحسب حاجة كل جنس.

هناك فكرة خاطئة بين الناطقين بالأردية أن الرزق لا يعني إلا ما يؤكل ويشرب، مع أن المعنى الأساس للرزق هو تهيئة الأسباب بقدر الحاجة. لا شك أن معنى الرزق يدل على الغذاء أيضاً لأنه ضروري للإنسان، ولكنه ليس هو المعنى الأساس للرزق، وليس مقصوراً عليه، وإنما هو مفهومٌ ضمنيّ.

وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أنهم ينفقون جزءاً من كل ما آتيناهم من علم وعزّ وعقل ومال وثناء وما إلى ذلك، وليس المراد أن ينفقوا على الفقراء مما يأكلون ويشربون فقط، فإن الله تعالى لم يذكر الفقراء هنا، ولم يحدد الشيء الذي أمر بإنفاقه، فلا يحق لنا أن نحدد ما لم يحدده الله تعالى. لقد قال الله تعالى إنهم ينفقون مما آتيناهم بحسب حاجتهم، وما يؤتاه المرء قد يكون علماً أو عقلاً أو جرأة أو غيره أو وفاء أو خدمةً من أحد؛ باليد أو الرجل أو العين أو الأنف أو المال. فكل ما يمكن القول إن الله قد آتانا إياه لسدّ حاجةٍ من حاجتنا فنحن مأمورون بالإنفاق منه. فالذي ينفق من ماله على الآخرين ولكنه لا يطعمهم مثلاً، أو يطعمهم ولكن لا يكسوهم، أو يكسوهم ولكن لا يسكنهم، أو يهيئ لهم السكن ولكن لا يخدمهم بيده، أو يخدمهم بيده ولكن لا ينفعهم بعلمه، فهو لا يعمل بهذه الآية حقاً.

كذلك يتضح من هنا أنه لا يعمل بهذا الحكم مَنْ ينفق من ماله على الفقراء فقط، بل إن الذي ينفع الناس بعلمه، ومن يتفقد أحوال الأرامل واليتامى، والجندي الذي يخرج إلى ساحة القتال دفاعاً عن الوطن، والمخترع الذي يخترع شيئاً لنفع الناس ببذل الجهود ليل نهار، كل هؤلاء هم من الذين ينفقون مما رزقهم الله.

إن مَنْ يتدبر في هذه الآية يسعى دومًا لنفع الآخرين بما أُعطيَ من قوة أو مال وغيره من النعم. ولقد أصاب الفقهاء كبد الحقيقة حين أفتوا بأن لا زكاة على الحُلِيِّ التي تعيرها المرأة للفقيرات ليلبسنها في مختلف المناسبات. هذه حقيقة إسلامية عظيمة، لأن هدف الزكاة تزكية المال، ومثل المال الذي يُنفق كمثل الماء الجاري الذي لا يفسده شيء، والمال الذي ينفع اليوم أحدًا وفي الغد أحدًا آخر فهو كالعين الجارية التي يكون ماؤها الآن هنا ويصل بعد دقيقة هناك، ولذلك لم يَنه الإسلام عن الزراعة والتجارة وغيرهما، ولكنه نهى عن جمع المال وكنز الذهب والفضة، ذلك لأن التجارة والزراعة وغيرهما من المهن تنفع أصحابها كما تنفع الآخرين، ورأس مالهم يُنفق بهذا الطريق، ولكن المال الذي يجمعه المرء لا ينفع به غيره ولذلك قد عدّه الإسلام آثمًا، حتى قال الله تعالى إن هذا المال سوف يُحمى به على نار جهنم وتُكوى به جباه أصحابه وأيديهم (التوبة ٣٥).

والأمر الثاني هو أين ينفق المرء من رزقه؟ لم تصرح الآية هذا الأمر، إذ ليس فيها أي ذكر للفقير أو المسكين، إنما قال الله تعالى إنهم ينفقون مما أوتوا لسدّ حاجتهم. بل لا تذكر هذه الآية ما إذا كانوا ينفقون على الأغيار أو الأحباب أو على أنفسهم، وعليه فلا يعمل بهذه الآية مَنْ ينفق من ماله على الفقراء فحسب، بل إن الأب الذي ينفق على أولاده، والأم التي تُرضع وليدها، والزوج الذي يسد حاجات زوجته، والأولاد الذين ينفقون على والديهم، كلهم يُعدّون ممن يعمل بحكم من أحكام هذه الآية؛ لأنها تشمل هذه النفقات كلها، بل يندرج في مفهومها ما ينفقه المرء على طعامه ولباسه وغيرهما من حاجاته. وكل

مَنْ يَخْلُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَأْكُلْ حَسَبَ حَاجَتِهِ لِلْحِفَافِ عَلَى صِحَّتِهِ فَهُوَ يَخَالِفُ
هَذِهِ الْآيَةَ مَهْمَا أَنْفَقَ عَلَى الْآخَرِينَ مِنْ مَالِهِ، فَالْآيَةُ لَا تَقُولُ أَنْفَقُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ،
بَلْ تَذَكِّرُ الْإِنْفَاقَ مُطْلَقًا، وَهَكَذَا يَنْدَرِجُ فِي هَذَا الْإِنْفَاقِ مَا يَنْفَقُهُ الْمَرْءُ عَلَى
نَفْسِهِ أَوْ زَوْجَتِهِ أَوْ أَوْلَادِهِ أَوْ أَحِبَّابِهِ.

وَهُنَاكَ حَدِيثٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَفْضَلُ شَرْحٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ
قَضِيَّةُ شَخْصٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ وَيُظَلُّ غَافِلًا عَنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ تَجَاهُ
زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا
وَلِضَيفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"
(الترمذي، أبواب الزهد، باب في إعطاء حقوق النفس والرب والضيف والأهل).

لَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ كُلَّ أَنْوَاعِ الرِّهَابِيَّةِ الَّتِي تَرَى أَنْ عَيْشَ الْإِنْسَانِ مَلُوءًا
بِالْأَوْسَاحِ وَجَائِعًا وَمَهْمِلًا حَقُوقَ الْأَقْرَابِ هُوَ الْعَمَلُ الْحَسَنُ. فَالْمُتَّقِيُّ عِنْدَ اللَّهِ
إِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَنْفَقُ مِنْ كُلِّ مَا آتَاهُ اللَّهُ، وَيَعْمَ إِنْفَاقَهُ نَفْسَهُ وَأَقْرَبَهُ
وَأَصْدِقَاءَهُ وَجِيرَانَهُ، وَالْفُقَرَاءَ وَالْأَغْنِيَاءَ، وَالْمَعَارِفَ وَالْأَجَانِبَ، وَأَهْلَ الْبَلَدِ
وَالْمَسَافِرِينَ الَّذِينَ أَتَوْا مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ، وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ، وَحَتَّى الْحَيَوَانَاتِ، لِأَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ هُنَا بِالْإِنْفَاقِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ مَا هُوَ ضَرُورِي.

وَمَا يُسْتَدَلُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا هُنَا بِالْإِنْفَاقِ جُزْءًا مِمَّا آتَانَا،
وَلَيْسَ أَنْ نَنْفَقَهُ كُلَّهُ. وَثَمَّةُ آيَةٍ أُخْرَى تَوْضَحُ بِأَنَّ عَلَى الْمَرْءِ أَلَّا يَنْفَقَ إِنْفَاقًا يَصِيبُهُ
بِالْإِفْلَاسِ، فَهَذَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى
عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٣٠)، أَي لَا
تُمْسِكْ عَنْ إِنْفَاقِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى كَلِيَّةً وَلَا تَنْفَقْهَا بَحِيثٍ يَضِيعُ كُلُّ مَا بِيَدِكَ
فَتَصْبِحَ مَلُومًا عِنْدَ النَّاسِ وَمَحْرُومًا مِنْ أَسْبَابِ كَسْبِ الْمَالِ، فَالْحُسُورُ مِنْ ضَاعَتْ
قُوَّتُهُ وَظَهَرَ ضَعْفُهُ، وَمَعْنَاهُ هُنَا مَنْ حُرِمَ أَسْبَابُ الرِّقِيِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

ورب سائل يسأل: يمكن أن يُعتبر إنفاق المال كله سيئاً، ولكن هذه الآية تأمر بالإنفاق من العلم والفهم أيضاً، فهل يعني هذا ألا يعلم المرء غيره كل ما عنده من العلم، أو لا ينفعه بعقله وذكائه كله؟

الجواب: إن العلم والعقل والفهم تزداد بالإنفاق، والمراد من الإنفاق منها أن ينفق المرء من علمه أو فهمه وعقله بحيث لا يضر بمنبعها ولا يفسده، فعليه ألا يرهق نفسه بحيث تتدهور صحته أو يهلك أو يحتلّ عقله، فينقطع نفعه للآخرين بالعلم والفهم. إنما عليه أن ينفق من علمه وفهمه وعقله على الآخرين بحيث لا يحفّ منبعها؛ أما من أنفق من علمه وعقله وذكائه لنفع الآخرين أو لنفعه بحيث أفسد منبعها فقد خالف هذه الآية.

ولو قيل: هل يُعتبر آثماً مَنْ ينفق كل ماله في سبيل الله تعالى؟

فالجواب كما أن للعلم والعقل والفهم منبع يُعتبر رأس مالها، كذلك هناك منبع للمال، والمراد من إنفاق المال كله إنفاق ذلك المنبع أيضاً. فعلى سبيل المثال: شخصٌ رأسُ ماله قوّته وعقله ومهارته، فلو أنفق كل ما عنده من ثروة في سبيل الله تعالى فلن يُعدّ آثماً، لأن رأس ماله، أي عقله وفهمه ومهارته، محفوظ عنده، وسوف يكسب بها مزيداً من المال. أما الذي رأس ماله ليس عقله وقوته ومهارته، بل هو بحاجة إلى المال لكسب القوت، فلا يجوز له أن ينفق كل ما عنده من مال.

كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه شديد الذكاء في أعمال التجارة، وكان يكسب كثيراً من المال بعقله وذكائه فقط، فإنه لما خرج مهاجراً من مكة ضاع ماله كله تقريباً، ولكنه كسب المال في المدينة مرة أخرى. وذات مرة دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الإنفاق دعوة خاصة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه كل ما عنده من مال وجاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله: ماذا تركتَ في بيتك؟ قال: الله ورسوله (الترمذي، أبواب المناقب، مناقب أبي بكر). فمثل هذا الإنسان لا يُعدّ آثماً إذا أنفق كل ماله، لأن رأس ماله، أي عقله وذكائه، محفوظ عنده، ومن أجل ذلك نجد أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه لم يمدّ يده إلى أحد بعد هذا الحادث، بل كسب المال ثانية،

وعاش محترماً دون سؤال الآخرين. إذاً، فتعريف "إنفاق المال كله" يختلف من شخص إلى آخر؛ فهو يختلف من صاحب مهنة إلى تاجر عادي رأس ماله بسيط، إلى تاجر ذكي لا تعتمد تجارته على ماله فقط، بل على خبرته الواسعة التي يكسب بها مزيداً من المال بسهولة، بل يأتيه الآخرون ويضعون عنده رؤوس أموالهم لعلمهم أنه سيستثمر أموالهم بخبرته وذكائه.

ويُستدل من قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أن على المرء أن ينفق مما كسبه من الحلال، إذ الإنفاق من المال الحرام أو الأشياء المحرمة ليس بحسنة. إن بعض الناس يجمعون المال بالرشاوى وبعضهم بالسرقة وقطع الطرق ثم يوزعونها على الفقراء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، مع أن السيئة إنما تؤدي إلى سيئة، لا حسنة، فهؤلاء إنما يضعون الأساس للسيئات. ما كان عليهم إلا أن ينفقوا مما أعطاهم الله، أما من أنفق على الآخرين من مال غيره الذي لا حق له فيه فلا يعمل بهذه الآية، لأنه لم ينفق مما رزقه الله، بل أنفق مما لم يرزقه الله، بينما يعلن الله في هذه الآية أنهم ينفقون مما آتيناهم.

ويتضح من هذه الآية أن الخوف من الإنفاق يتنافى مع العقل، لأن الله تعالى قد سمى نعمته رزقاً، والرزق هو العطاء الجاري الذي لا ينفد مرة واحدة؛ فبكلمة ﴿الرِّزْقُ﴾ قد أشار الله تعالى أن الذي ينفق بحسب حُكمه فسوف يزداد ماله ولن ينقص، لأن الله تعالى سينعم عليه مرة بعد أخرى.

إن زيادة العقل والفهم والعقل والقوة البدنية بإنفاقها أمر مفهوم، لأننا نرى أن الذي ينفق بعمله الآخرين بالتعليم والتدريس يزداد علماً ولا ينقص، كذلك من ينفق الآخرين بعقله وفهمه يزداد عقلاً وفهماً، ومن استعمل قوته البدنية بطريقة صحيحة فلا يضعف بل يزداد قوة. كذلك المال يزداد بالإنفاق، فمثلاً من أنفق جزءاً من ماله على نفسه ازداد قوة، فقدّر على الكسب أكثر، كذلك من أنفق على زوجته وأولاده إنفاقاً صحيحاً ازدادت عنده الأيدي العاملة الكاسية، ومن أنفق على جيرانه وأحبابه ازداد عدد معاونيه ومساعديه، ومن أنفق على الفقراء تحسنت حالة قومه الاقتصادية مما يعود عليه بالنفع ويزيده مالا.

باختصار، إن الإنفاق الصحيح للمال يزيده دائماً ولا يضيّعه أبداً. فإضافةً إلى أن الإنفاق يتسبب في نزول الأفضال الروحانية على صاحبها، فإن قوانين الطبيعة أيضاً تساعد على زيادة ماله عند الإنفاق لا على نقصانه، ولا يخاف من الإنفاق إلا قليلو العقل إذ لا يدرون أن تصرفهم هذا يضر بأموالهم ولا يحفظها. ولعل معترضا يقول هنا: لماذا أمر الله العباد بالإنفاق على الآخرين، ولماذا لم يعط الجميع نصيبهم مباشرة؟

الجواب: هذا الاعتراض راجع إلى قلة تدبّر صاحبه، لأن من الخطأ القول أن بعض الناس ينفقون والآخرون يعيشون على معونتهم. كلا، بل الجميع ينفق بعضهم على بعض. لا شك أنه يبدو من أول وهلة أن الأثرياء ينفقون أموالهم على الفقراء، لكن الواقع أن الفقراء أيضاً ينفقون على الأثرياء، فإن الثري الذي يعيش في قرية إنما تبقى ثروته محفوظةً بسبب وجود مئات الفقراء حوله، وإلا لسلبها اللصوص والصعاليك. إذا كان اللصوص لا ينهبون بيته فليس سببه حرّاسه، إنما سببه أهل القرية كلهم الذين يخافهم اللصوص. ثم إن ثراء الثري لا يبقى محفوظاً من دون مساعدة الفقراء، لأنه يكسب المال بمساعدة الأجراء، ولولاهم لما كانت عنده أي ثروة. فثبت أن الغني لا يساعد الفقير فقط، بل الفقير أيضاً يساعد الثري. والحق أن الله تعالى قد أقام في الدنيا نظام التعاون والحبّ بين الناس، فجعل نصيباً للآخرين في مال كل إنسان، ليزدادوا من خلال التعاون والمواساة حباً وتمدُّناً. لو كان كل إنسان حرّاً وغنياً عن غيره لما ازدهرت المدينة ولما تطورت تلك العلوم التي تميّز الإنسان عن الحيوان. فهناك حكمة عظيمة في جعل رزق العباد مشتركاً ومخلوطاً.

وأودّ هنا بيان أحكام القرآن عن الإنفاق بشيء من التفصيل لكي تترسخ في الأذهان هذه الأحكام بشكل إجمالي.

إن الإنفاق في القرآن الكريم أنواع:

١: الزكاة، وهي فرض.

٢: الصدقة، وهي نفل، وأمرها متروك لتقوى الإنسان. وهذه الصدقة نوعان: أ: ما يُنفق منها على الذين يذكرون حاجاتهم للناس، ب: ما يُنفق على الذين لا يذكرون حاجاتهم لأحد، وهم نوعان: أولهم: الذين يمتنعون عن إظهار حاجاتهم لأحد، وثانيهم: الذين لا يستطيعون ذكرها لأحد أصلاً.

٣: ما يُنفق على حاجات الأمة.

٤: ما يُنفق شكرًا لله تعالى.

٥: ما يُنفق فديةً.

٦: ما يُنفق كفارةً.

٧: ما يُنفق لتطوير النظام الاجتماعي والمدني.

٨: حق الخدمة والأجرة.

٩: ما يُنفق إحساناً.

١٠: ما يُنفق هديةً.

هذه عشرة أنواع من الإنفاق المذكورة في القرآن، ومن ترك أحدها في محله لم يعد من العاملين بهذه الآية وضعفت تقواه. إن كثيرا من الناس يُحرّمون ثواباً عظيماً لعدم إدراكهم لهذا التقسيم من النفقات.

النوع الأول: الزكاة

هي نفقة قد فرضت في القرآن الكريم وقد بين الله حِكمتها بأن الجميع يكسبون ما لهم بمساعدة الآخرين، ويظل في أموالهم حق للناس غالباً وإن أدوا حقوق البعض بشكل فردي. فعلى سبيل المثال: إذا دفع الثري الذي ينتفع من منجم أجرة الأجراء فهو لم يدفع سوى أجرتهم، ولكن لهم نصيباً في ملكية هذا المنجم بحسب القرآن الذي يعلن أن كل كنوز الدنيا قد خلقت للناس جميعاً، وليست لشخص معيّن، فمع أن صاحب المنجم يدفع أجرة الأجراء إلا أن نصيبهم في ثروة المنجم كشركاء في ملكها يبقى غير مدفوع لهم، وليس السبيل إلى أدائه لهم إلا أن يُعطوا المزيد. ولو دفع لهم هذا المزيد فإنه لم يدفع لبقية

الناس حقهم في المنجم الذي هو للناس أجمعين، ولذلك أمره الإسلام بدفع جزء من أموال المنجم للدولة كزكاة، لكي توزّعه على كل الناس توزيعاً مشتركاً. أما المزارع الذي يكسب رزقه من أرضه فلا شك أنه يأكل ثمار جهوده، إلا أنه ينتفع من الأرض التي خلقت للناس جميعاً، فيأمره القرآن أن يدفع جزءاً من دخله للحكومة لتنفقه لمنفعة الناس جميعاً.

والتاجر لا يستثمر إلا ماله في الظاهر، ولكن تجارته تتوقف على أمن البلاد الذي يساهم فيه كل مواطن، ولذلك قد فرض عليه الإسلام الزكاة ليدفع للناس حقهم في ماله لتتولى الحكومة توزيعه عليهم.

أما الذي يكتنز ماله بعد ذلك، فإنه يحرم الآخرين من الانتفاع بماله الذي هم شركاء فيه منذ الأزل، ولذلك فرض عليه الشرع الزكاة على ماله هذا. لا شك أنه يكون قد دفع جزءاً من ماله للمرة الأولى عندما كسبه، ولكنه قد دفعه كحقّ للآخرين في ماله، أما الزكاة التي يدفعها عليه فإنما سببه أنه حرم الناس من الانتفاع منه بجمعه وكنزه.

وأحكام الزكاة هذه كلها مذكورة في القرآن وقد شرح بعضها النبي ﷺ، وسوف يأتي ذكرها في محلها في هذا التفسير إن شاء الله. بيد أني أشير هنا إلى الحكم الإجمالي للزكاة الذي يبين الحكمة وراءها، وهو قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣)، أي خُذْ مِنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَاطِنِينَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ صَدَقَةً لِكَيْ تُطَهَّرَ قُلُوبُهُمْ وَتُطَهَّرَ أَمْوَالُهُمْ مِنْ نَصِيبِ الْآخَرِينَ فِيهَا، وَتُمَهِّدَ لِرُقَى الْأُمَّةِ.

فالصدقة هنا تعني الزكاة المفروضة. علماً أن للصدقة مفاهيم كثيرة -بالإضافة إلى معناها المعروف- منها الزكاة المفروضة. وقد بين الله تعالى هنا أن أموال الناس لا تتطهر من دون إخراج هذه الزكاة منها، لأن مال المرء يظل غير طاهر ما لم يؤد منه حق الآخرين، كما أن تقوى صاحبه تبقى ناقصة بدون ذلك.

وهذه الزكاة تأخذها الدولة، وهي التي تتولى إنفاقها. وإذا لم تكن هناك دولة فإن نظام الإسلام له الحقّ بجمعها وإنفاقها، كما هو واضح من كلمة ﴿خُذْ﴾.

النوع الثاني: الصدقة

أما الصدقة المعروفة فأساسها الرحمة والشفقة، ولم تُفرض بمقدار محدد، بل أمرها متروك لمقدرة الإنسان ومستوى تقواه ولحاجات المحتاجين من حوله. ولأن الحكمة في هذا الإنفاق خلق عاطفة التعاون المتبادل بين الناس، فلا يتم هذا الإنفاق عن طريق الحكومة، بل نُصح كل فرد أن ينفقه بنفسه. وقد جاء ذكره إجمالاً في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥). علماً أن قوله تعالى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني أنهم لا يخافون مما يخفيه لهم المستقبل ولا يحزنون على ما صدر منهم في الماضي من تقصير.

وواضح من هذه الآية أنها لا تتحدث عن الزكاة المفروضة التي تُدفع للدولة، ذلك أن الزكاة لا يمكن إنفاقها سرّاً، فثبت أن الحديث هنا عن صدقة النفل التي ينفقها المرء بنفسه، تارةً سرّاً وأخرى علانيةً. ينفقها سرّاً لكي لا يعرض المتصدّق عليه للخجل، وينفقها علانيةً حثّاً للآخرين المقصّرين فيها، لا طلباً للشهرة. وقد وعد الله مثل هؤلاء بأجر عظيم من عنده. لقد ذكرتُ من قبل أن هذه الصدقة تنفق بطريقتين:

١: تنفق على الذين يطالبون بسدّ حاجاتهم، مثل الفقراء الذين يسألون الناس ولا يرون فيه عاراً، فقد أمر الإسلام بالإنفاق عليهم بحسب المقتضى، قال الله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾ (الذاريات: ٢٠)، أي في أموال المؤمنين حق للذين يسألون.

علماً أن "السائل" في التعبير القرآني لا يعني المتسول الذي يحترف التسول، لأن الإسلام لا يجبّد السؤال، ولا مكان لمثل هذا في النظام الإسلامي، فالقرآن الكريم يحث على التوكل على الله حثّاً كبيراً، والسؤال يتنافى مع التوكل كلية.

ثم إن القرآن الكريم يحث الإنسان على تمضية حياته بشكل نافع، أما السائل المحترف فإنه يدمر حياته.

لقد نهي رسول الله ﷺ عن السؤال بشدة، أما سيدنا عمر رضي الله عنه فكان صارماً في تطبيق هذا الأمر النبوي، فإذا رأى أحداً من السائلين المحترفين رمى ما جمعه وأمره بالكسب بجهده.

وليس المراد من السائل هنا المعاق والعاجز الذي لا يقدر على كسب شيء، لأن الإسلام قد جعل مسؤوليته على الأمة والمجتمع، حيث يُنفق عليه من أموال الزكاة.

فالتدبر في أحكام الإسلام الأخرى يكشف لنا أن المراد من السائل في هذه الآية مَنْ يكسب بجهده وعرق جبينه ولكن ماله لا يكفيه، أو أن عياله كثيرون فيضطر لأن يسأل معارفه وأصدقاءه. فمع أن الإسلام يكره السؤال إلا أنه لا يمنع منه؛ لأن السائل يبذل جهده للكسب إلا أنه لا يكفي حاجته، فسؤاله الآخرين غير محبذ، ولكنه ليس حراماً ولا ممنوعاً، لأن الإخوان يحمل بعضهم حمل بعض.

والمصرف الثاني لهذه الصدقة هو المحروم المذكور في قوله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠). والمراد من المحروم قوم لا يسألون الناس مع فقرهم، فلا ينتبه إلى ضيق يدهم مَنْ لا يتفقد أحوال جيرانه بدقة. وقد جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿لِّلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: ٢٧٤)، أي: أيها المؤمنون، أنفقوا من أموالكم على قليلي المال الذين يعكفون على خدمة الدين أو الملة فلا يستطيعون أن يكسبوا ويزيدوا في مالهم. إنهم مع ضيق يدهم يتجنبون لوثة السؤال ويظلون صامتين، فيظنهم الذي لا يعتاد تفقد أحوال الناس بدقة ميسوري الحال، مع أنك إذا نظرت إليهم عرفت حالهم من آثار وجوههم. إنهم لا يسألون الناس إلحافاً. علماً أن قوله تعالى ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

لا يعني أنهم يسألون الناس ولكن يرفق دون إلحاح، كلا، لأن الله تعالى قد ذكر من قبل تعفُّفهم عن السؤال، إنما المراد أنهم لا يلتقون بالأترياء إخفاءً لفقرهم، وهكذا يُحرِّمون من النفع الذي يمكن أن يصيب الفقير الذي تدل هيئته على ضيق يده. وقد حثَّ القرآن الكريم على الإنفاق على هؤلاء حثًّا كبيراً.

ومن معاني المحروم غيرُ القادر على السؤال، وعليه فيندرج في المحروم العجزة مثل البكم والعرج أو النساء اللاتي يقررنَ في بيوتهن أو الأطفال الصغار، أو الحيوانات إذ هي محرومة من النطق، فالإنفاق على كل هؤلاء صدقة.

والثابت من القرآن أن الصدقة تردُّ البلاء، وقد حثَّ الإسلام على إخراجها عند حلول المصائب والآفات حثًّا متكرراً، وتشمل الصدقة كل النفقات التي تُنفق لردِّ البلاء الذي نزل ويُخاف نزوله، ولنزول فضل الله تعالى. ومن هذه النفقات النذرُ، والفرق بين الصدقة المعروفة والنذر أن الصدقة تُخرَج ردًّا لبلاء قد نزل، أما النذر فهي الصدقة أو العبادة التي يَعِد المرء بإخراجها أو القيام بها لو رُدَّ عنه البلاء أو فازَ في مقصده، وقد جاء ذكره في قوله تعالى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان: ٨)، أي أن المؤمنين يوفون بعهدهم كلما عاهدوا الله تعالى بإخراج صدقةٍ أو فعلٍ خيرٍ إذا ما كشف عنهم كربهم أو حقق مقصودهم.

ويرى بعض كبار صلحاء الأمة أنه رغم وجوب الإيفاء بالنذر باعتباره عهداً يقطعه العبد مع الله تعالى، إلا أنَّ الأفضل أن يخرج الصدقة متوكلاً على الله تعالى بدلاً من أن يساوم الله تعالى بأنه إذا كشف عنه الهمُّ أو حقق له المراد فيُخرج كذا من الصدقة. ولا شك في صواب هذا الرأي.

وقد نقل البخاري عن الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ قال: "مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ". (البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة).

النوع الثالث: النفقات الجماعية والدينية

والنوع الثالث من النفقات الثابتة من القرآن الكريم ما ينفقه الصالحاء وأهل الخير لسد حاجات القوم والملة، وهي لا تسمى صدقة لأنها لا تُنفق على سدّ حاجات الفقراء والمساكين، بل يعود نفعها على الفقير والغني، بل على الأمة كلها أحياناً. فمثلاً إذا خرج المرء من بيته للجهاد أو زوّد مقاتلاً بطعام أو راحلة، فإنه ينفق على القوم وليس على الفرد، لأنه لا يقاتل من أجل نفسه بل لمصلحة الأمة والدين، ولا يطلب الراحلة أو الزاد لبضعة أيام ليذهب إلى ساحة القتال ويزهق نفسه هناك هدرًا.

لقد حثّ الإسلام على هذه النفقات أيضاً، وهي لا تندرج في بند الزكاة ولا الصدقة. قال الله تعالى ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٤١)، أي اخرجوا للجهاد في كل حال سواء كنتم ﴿خِفَافًا﴾، أي كان عندكم راحلة، أو كان في بيتكم زادٌ كافٍ لسدّ حاجات أهلکم في غيابکم، أو كنتم ﴿ثِقَالًا﴾، أي لم يكن عندكم راحلة بل ستحملون أثقالكم بأنفسكم، أو لم يكن في بيتكم ما يسدّ حاجات أهلکم على ما يرام؛ فاخرجوا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله تعالى، فهذا خير لكم إن كنتم تعلمون.

والإنفاق بالنفس والمال لا يكون على الآخرين بالضرورة، بل من هيأ لنفسه راحلة ليخرج عليها للقتال، أو اشترى سيفاً ليقاتل به العدو، أو اشترى طعاماً ليتناوله أيام الجهاد فإنما ينفق على نفسه، لذا فهذه النفقة لا تكون كالصدقة المعروفة، إذ ينتفع بها المرء بنفسه، ولكنه لا ينفقها على نفسه جلباً للذة، وإنما خدمةً للدين والملة معروضاً نفسه للخطر، لذا فتعتبر نفقته لا بتغاء مرضاة الله تعالى، وتجعله مستحقاً لثواب جزيل.

كذلك إذا أنفق المرء على أخيه الذي يريد الخروج للجهاد أو لأي خدمة اجتماعية أخرى فإنفاقه ليس صدقة بالمعنى المعروف، لأنه لم يسدّ حاجة شخصية لأخيه، وإنما يسد بها حاجة القوم.

فهذا النوع الثالث من الإنفاق ليس زكاة ولا صدقة، ولكنه ضروري جداً، ويكفل لصاحبه ثواباً عظيماً. ولم يُعدّ الجهاد اليوم بالسيف، لذا فكل ما يُنفق لنشر الإسلام أو التعليم أو لإرساء نظام الجماعة أو غيرها من الأعمال والمشاريع فهو يندرج في هذا البند، ومن أنفق هذه النفقة فقد عمل بنصف الحكم الوارد في قوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ٤١)، أما العمل بنصفه الآخر، أي الجهاد بالنفس، فلا يمكن إلا إذا اشترك المرء بنفسه في أعمال التبليغ أو التعليم والتربية من أجل رقي الأمة، ولو على حساب أعماله الشخصية.

النوع الرابع من النفقات التي رغب فيها الإسلام وأمر بها هي نفقة الشكر، والفرق بينها وبين الصدقة أن الصدقة تُنفق دفعاً لمصيبة أو رغبة في تحقيق غاية، أما نفقة الشكر فتنفق شكراً لله تعالى بعد زوال مصيبة أو تحقيق غاية، وقد جاء ذكرها في قوله تعالى ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام ١٤٢). والمراد من قوله تعالى ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾: أنفقوا منه في سبيل الله تعالى أداءً لحقّ قطف الثمر أو حصاد الزرع، أي شكراً على أنه صار في حوزتكم.

لقد قال البعض أن هذه الآية تتحدث عن الزكاة، وقال آخرون أن هذا الحكم قد نسخ حكم الزكاة، ولكن الواقع أن هذه الآية لا تتحدث عن الزكاة ولا تنسخها كما سنفصل ذلك عند تفسير هذه الآية لاحقاً، وإنما بين الله هنا أنه إذا أنزل فضله على أحد وأعطاه ثمرة جهوده فعليه أن ينفق منها على عباد الله الفقراء شكراً له ﷻ.

لقد أهمل المسلمون العمل بهذا الحكم تمامًا، مع أنها نفقة فطرية يجب ألا ينساها المرء، بل عليه أن يُخرج من ماله عند إحراز نجاح وتحقيق غاية شكرًا لله تعالى، فهو حمدٌ عمليٌّ لله تعالى على إحراز النجاح.

النوع الخامس من النفقة التي ذكرها القرآن الكريم هي الفدية. والفدية تعني الصدقة، ومعناها الأساسي إنفاقُ شيء في سبيل الله تعالى تلافياً لتقصير في عمل صالح. فقد قال الله تعالى في سورة البقرة (الآية ١٩٧) في معرض بيان أحكام الحج أنَّ على المحرم ألا يخلق رأسه، ولو اضطرَّ للحلق لمرض في رأسه فعليه إخراج مال أو صوم أيام أو تقديم أضحية فدية. فثبت أن الفدية نفقة يُقدِّمها المرء تلافياً لتقصير في عبادة.

والنوع السادس من النفقة حسب القرآن الكريم هو الكفارة، ومن معانيها: عملٌ يدفع البلاء، ولكنه يعني في اصطلاح القرآن: نفقة أو عبادة يقوم بها المرء دفعاً لوبال معصية ارتكبها. وقد جاء ذكرها في الآية (٩٠) من سورة المائدة. والفرق بين الكفارة والفدية أن الفدية تُدفع عندما يترك الإنسان برخصة من الله تعالى أمراً لا بد من العمل به في الظروف العادية، أو يقوم بعمل يظن أنه قد قصّر فيه، فيخرج صدقة تلافياً للتقصير. أما الكفارة فتُدفع عند صدور معصية منه، أو عند اقترابه منها دون ارتكابها. والهدف من الكفارة النجاة من وبال الإثم أو التأكيد على التوبة عملياً، وسوف نتناول هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآيات المتعلقة به.

وجدير بالذكر أن الكفارة عند القرآن الكريم هو تأكيد التائب توبته عملياً بدفع تضحية مالية أو بدنية بالإضافة إلى ندامته في القلب واعترافه باللسان، أما الكفارة (الفداء) عند المسيحيين فمفهومها أن كائنًا عظيمًا ضحّى بنفسه حتى قبل ولادة الآثمين، مما يعني أنه لا علاقة للفداء المسيحي بالتوبة، لأن فداء المسيحيين قد تم قبل ارتكاب الآثام، بل قبل وجود الآثمين، وواضح أن مثل هذه الكفارة لا تمت إلى التوبة من قريب ولا بعيد.

والنوع السابع للنفقات بحسب القرآن الكريم ما يُنفقه المرء على زوجته أو أولاده لرقّي النظام الاجتماعي، وهي نفقة ضرورية وفريضة على المرء في القرآن، ومَن لم يدفعها صار آثماً، ومن واجب الحكومة الإسلامية أو النظام الإسلامي إكراهه على أدائها. وسوف نتناول تفاصيل هذه النفقة في مكانها إن شاء الله.

والنوع الثامن من النفقات الثابتة من القرآن الكريم هو الأجرة، أي إذا عمل لك امرؤ عملاً فعليك أن تدفع له أجراً مناسباً وتحسن إليه، ومثاله في القرآن الكريم ما أمر الله به بحق المُرْضِع، فقال إنكم إذا أردتم أن ترضع المُرْضِعة أولادكم فلا حرج في ذلك ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، أي شريطة أن تدفعوا لها ما وعدتموها به من أجرة بحسب العرف واقتصاد البلد وحالتكم الاقتصادية.

لقد بين الله تعالى هنا أنه لا بد من: (١) أن يؤدي المرء الأجرة من دون مماطلة أو تأخير، ويجب أن يعد بها وكأنه قد أداها.

٢: أن يؤدي هذا الحق بحسب العرف، أي: أ: أن يُدفع بالنظر إلى اقتصاد البلد فلا يكون قليلاً بحيث لا يكفي لسد حاجات المُرْضِع. ب: هذا أقل ما يجب على المرء، والأفضل أنه إذا كان ميسور الحال فيدفع حسب وضعه الاقتصادي.

اعلم أن القرآن الكريم قد بيّن هنا مبدأً ذهبياً بحيث لو تحدّدت الأجرة على ضوئه لانتَهت كل الخصومات الحاصلة بين الأجير والمستأجر. بيد أننا سنتناول هذا الموضوع مفصلاً في الآية المشار إليها وغيرها من الآيات.

والقسم التاسع للنفقات حسب القرآن الكريم هو ردّ الإحسان، كخدمة الوالدين والإحسان إليهما، فخدمتهما لا يمكن أن تسمى أجرة، ذلك لأن الوالدين لا يقومان بخدمة الولد، بل يربّيان به بدافع فطري، ولا يستخدم الولد ولا أحد غيره والديه على تربيته، ولا يتمنيان أجراً على سهرهما عليه، فثبت أن معاملتهما للولد ليست خدمة بل إحسان، وإذا فعل بوالديه أي معروف عندما

يكبر، فإنه لا يؤدي لهما حق الخدمة، وإنما يسعى لرد إحسانهما لهما. قال الله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ... أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٥). فبكلمة الشكر قد بين الله تعالى أن على الإنسان ألا يظن أن ما يسديه لوالديه من معروف هو إحسان إليهما، بل الحق أنهما قد أحسنا إليه، فحسن معاملته إياهم إنما هو تعبير عن شكره لهما اعترافاً بإحسانهما.

لقد أطلق القرآن الكريم لفظ الإحسان على حسن معاملة الوالدين، كقوله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة: ٨٤)، لكن ينبغي ألا يظن أحد بسبب ذلك أن خدمة الوالدين إحسانٌ إليهما بمعناه المعروف، لأن الإحسان ورد هنا بمعنى آخر؛ فمن أساليب اللغة العربية استعمال الكلمة بمعنى الجزاء بمثله، فمثلاً يسمى جزاء الظلم ظلمًا، كذلك هنا قد أطلق الله على خدمة الوالدين لفظ الإحسان، أي أنه جزاء لإحسانهم، بينما استخدم القرآن الكريم لفظ الإحسان بحق الآخرين بمعناه المعروف.

فهناك أمثلة أخرى لكلمات تُستخدم بمعنى الجزاء بمثله، كقوله تعالى ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٥). والبديهي أن جزاء الاعتداء بحسب قدره ليس اعتداء، وإنما وُرد الاعتداء هنا بمعنى الجزاء فقط وليس بمعنى الاعتداء والظلم.

كذلك إذا أمرنا بالإحسان إلى المحسن فمعناه أن نرد إليه إحسانه وليس أننا نمن عليه بمنة زائدة.

والأمر بالإحسان إلى الوالدين يشمل حسن معاملة الأساتذة وأولادهم وغيرهم ممن يحسنون إلى المرء. وعملاً بهذا الأمر الرباني كان الصحابة رضي الله عنهم يسعون جاهدين لرد إحسان النبي ﷺ بالصلوات والأدعية وأنواع الخدمة الأخرى. وعندي أن الحكمة في تحريم الرسول ﷺ الصدقة على أولاده (مسلم، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وآله) هي أن يبين لأئمة

بأن الإحسان إلى أولاد هذا المحسن العظيم ﷺ لا يُعتبر صدقة، وإنما هي محاولة متواضعة لرّد جميله.

وإنني أستغرب دائماً أن المسلمين يركّزون كثيراً على أن النبي ﷺ كان شديد الزهد ولذلك حرّم على أولاده الصدقة، ولكنهم لا يفكّرون أنهم قد أصبحوا ناكرين للجميل بحيث لا يسعون أدنى سعي لرّد إحسان هذا المحسن العظيم ﷺ. الزاهد في الدنيا. لا شك أن المحسن لا يفكّر في أي جزاء ومقابل، ولكن أليس من مقتضى المروءة أن يشكر المرء إحسانَ المحسن إليه عملياً؟ وأرى أن الله تعالى قد علّم المسلمين بهذا الحكم أدباً من آداب السلوك بأنهم إذا وجدوا أحداً من أولاد الرسول ﷺ في ضيق، فليحسنوا إليه تذكّراً لإحسانه ﷺ إليهم؛ إذ لا يجوز التصدق على أولاده ﷺ بحال من الأحوال، فمتى يتصدق الأخ على أخيه؟! إذاً، أليس واجبهم أن يحسنوا إلى أولاد أبيهم الروحاني ﷺ كما يحسنون إلى إخوتهم؟ من المؤسف أن المسلمين يخالفون أحد هذين الأمرين لجهلهم بهذه الحكمة، فإما أنهم لا ينفقون على "السادات"، نسل الرسول ﷺ، أموال الصدقة والزكاة، أو لا يخدمونهم أصلاً. ومن فضل الله عليّ أنه قد فهمني هذه الحقيقة، ووفّقني مراراً لخدمة فقراء "السادات"، لا صدقةً عليهم، بل محاولةً عمليةً متواضعة للاعتراف بالإحسان العظيم الذي أسداه إلينا ذلك المحسن العظيم ﷺ، فالحمد لله على ذلك. ليت المسلمين يدركون هذا الأمر، ويتجنبون ارتكاب جرمتين قبيحتين؛ أعني إنفاق الصدقة على "السادات"، أو الغفلة عن معاناتهم كلبيةً، ولو تجنبوا ذلك فعسى الله تعالى أن يعامل أولادهم برحمة.

والقسم العاشر للنفقات المذكورة في القرآن الكريم هو الهدية، أي إهداء المرء لأخيه شيئاً - في مناسبة - من دون إحسان سابق منه، لا تصدقاً عليه بل ليزداداً حباً. وأفضل طريق لتقديم الهدية هو الضيافة؛ فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في معرض الحديث عن النبيّين لوط وإبراهيم عليهما السلام.

والضيافة إنما هي إحدى طرق الهدية، وهناك طرق أخرى للعمل بهذا الحكم القرآني. وللأسف أن المسلمين قد نسوا هذا الحكم أيضاً، ولا يهتمون بضيافة المسافرين إلا قليلاً. أما أهل المدن فقد حُرِّموا العمل بهذا الحكم تماماً، مع أن الرسول ﷺ قد حثَّ على الضيافة حتى اعتبرها حقاً للضيف، فقال: إذا قصر أهل قرية في أداء حق الضيافة فيمكن أخذه جبراً. وسوف نذكر تفاصيل هذا الحق في محله، أما هنا فأكتفي بذكر حديث للرسول ﷺ جاء شرحاً لهذا الحق، حيث قال: "تهادوا تحابوا" (المعجم الأوسط للطبراني، الحديث رقم ٧٤٤٨، والبيهقي)، وقال ﷺ أيضاً: "مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِّنِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورِّثُهُ" (الترمذي، أبواب البرِّ والصلة، باب ما جاء في حق الجوار)

وهذه النفقة ليست من الصدقة، بل هي من أساليب التعبير عن الإخوة والحب، وهي الأحكام الضرورية لازدهار التمدن.

خلاصة الكلام أن قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لا يعني الصدقة المعروفة فقط، بل يشمل كل أنواع النفقات المذكورة آنفاً. إذاً، هذه الآية تحوي أحكاماً لطيفة للغاية بالنسبة إلى الفقير والغني والصغير والكبير كلهم، وهي ضرورية لإرساء التقوى.

نظرة إجمالية على مواضيع هذه الآية

لقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أحكام، فأولاً قد أمر الله فيها بالإيمان بالحقائق المستترة عن أعين الناس، حيث بين أن الإيمان بالمحسوسات ليس ذا قيمة، لأن أغبي الأغبياء أيضاً يؤمن به، والمتقي أسمى مكانة من ذلك، فإنه يسعى للإيمان بالحقائق الخفية على الناس أيضاً. وهذه هي علامة الكمال في الروحانية؛ إذ لا قيمة لاعتراف المرء أن النهر نهر والجبل جبل، فمثل هذا لا يسمى ذا علم ولا ميزة، وإنما العالم من ينظر إلى ما وراء هذا النهر، ويفكر في منبعه، وكيف صار نهرًا، وما هي التغيرات التي جعلته يمتلئ ماءً، وما هي المنافع التي يمكن أن يجنيها بمائه، وإلى أي جهة يجري وأين يصب. إنما الفرق بين

الجاهل والعالم أن الجاهل يعلم ظاهر النهر، أما العالم فيعلم غائبه أيضاً، وهذه المعرفة هي التي تساعد على الانتفاع به نظرياً وعملياً، كما ينفع به الآخرين. وهذا هو شأن العالم العامل، أو العالم المتقي فيما يتعلق بالروحانيات؛ فإنه لا يقنع بما هو ماثل أمام أعينه من هذا الكون، وإنما يبحث عن مبدئه ومنتهاه، وعمما فيه من كنوز خفية، وهذا ما يسمى بالإيمان بالغيب. كما هو غير خاف على أحد، فمن المحال أن يكتمل العلم أو العمل من دون هذا النوع من البحث والتحقيق. فثبت أن الإيمان بالغيب ضروري جداً لتكميل الإنسانية، ولا يغضّ النظر عنه إلا جاهل.

بعد التأكيد على ضرورة الإيمان بالغيب وأهميته لفت الله الأنظار إلى نتائجه الحتمية، فذكر أولاً أن الإنسان حين يفكر في مبدأ هذا العالم ويعرف خالقه بالأدلة والبراهين، فإنه يهتم بإنشاء علاقة متينة به، وبتعبير آخر يتوجه إلى العبادة أو إقامة الصلاة. وإذا توطدت علاقته الروحانية بمبدأ الكل، أي بالله تعالى، فلا بد أن يهتم بخلقه ويسعى لخيرهم، لأن صلته المتينة بمبدأ الكل تملأ قلبه حباً لمخلوقه، فمن شأن الإنسان محبة إخوته بسبب علاقتهم جميعاً بأبويهم. فالواجب الثاني للمتقي بعد العبادة وإقامة الصلاة أن يصبح من الذين قال الله فيهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

لقد تبين من هذا الشرح أن ذكر إقامة الصلاة ثم الإنفاق من الرزق ثم الإيمان بالغيب هنا ليس صدفةً، بل قد وردت هذه الأمور بترتيب حكيم جداً. وجدير بالتذكر هنا أن الله تعالى قد قدم إقامة الصلاة على الإنفاق من الرزق ليبين أن علاقة المرء بالله تعالى في العالم الروحاني مقدمة على علاقته بخلق الله، وهذا هو الترتيب الطبيعي والسليم، إذ يستحيل أن يحب المرء خلق الله حباً كاملاً من دون علاقته الكاملة به ﷻ.

وهناك اختلاف بين موقف الإسلام وآراء الفلاسفة في هذه القضية، حيث يقول الفلاسفة -ويؤيدهم في ذلك أصحاب العلاقة الناقصة مع الدين- بأن الإنسان إذا صار على علاقة بخلق الله تعالى توطدت علاقته بالله تلقائياً، ومن

أصلح أموره مع الخلق صلح أمره مع الله تعالى تلقائياً، فالأهم هو الاهتمام بالمخلوق.

ولكن أدنى تأمل يكشف بطلان هذا الزعم. لا شك أن الإحسان إلى المخلوق جزء من عبادة الله تعالى، ولكن لا يصح القول بأن الإحسان إلى المخلوق يؤدي إلى التعلق بالله تعالى، إنما الحق أن العلاقة بالله تعالى تؤدي إلى حب المخلوق. والذين يخالفون هذا الرأي لا يرون ما يؤكد الواقع، فليتهم رأوا الفارق الكبير بين سيرة قوم أحبوا الخلق نتيجة وصالهم بالله تعالى وبين سيرة قوم ادّعوا وصال الله تعالى نتيجة حبهم لمخلوقه، إذا وجدوا أصلاً. أما الذين أحبوا خلق الله تعالى نتيجة وصال الله فكان منهم إبراهيم وموسى وعيسى وكرشنا ورام شنذر وزرادشت، بل بوذا وكونفوشيوس عليهم السلام أجمعين، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ. إن سيرتهم جميعاً معروفة للجميع، فمتى وجد عند الفئة الأخرى نظير لما قام به هؤلاء من خدمات للإنسانية وغيرها من مخلوقات الله؟ من المحال أن يقدم إزاءهم مثال واحد لشخص وصل إلى الله تعالى من خلال حب المخلوق. الأمر الواقع أنه لا يوجد في التاريخ مثال شخص واحد ادعى أنه أحب المخلوق فوصل إلى الله تعالى، بينما نجد مئات الآلاف الذين ادّعوا أنهم وصلوا إلى الله تعالى فأحبوا مخلوقه نتيجة حبه سبحانه وتعالى. وما دام الواقع والمشاهدة يدلان على وجود مئات الآلاف الذين أحبوا المخلوق نتيجة وصالهم بالله تعالى، بينما لا نجد أثراً لشخص واحد وصل إلى الله تعالى نتيجة حبه للمخلوق، فما الفائدة من تقديم هذا الزعم الذي لا يستند إلى دليل؟

والجانب الثاني للنظر في هذه القضية هو العقل، فلو فحصنا عقلاً هذه الدعوى بأن على الإنسان أن يحب المخلوق أولاً فيصل إلى الله تلقائياً لوجدناها باطلة أيضاً. الحق أن وصول العبد إلى الله تعالى نتيجة حب المخلوق أمر مستحيل عقلاً، ذلك لأن حب المخلوق راجع إلى حب الوطن أو للدين الطبع، وواضح أن حب المرء للوطن يمكن أن يدفعه لمعاداة من ليسوا من وطنه، فلا يبقى هناك أي سبب يوصله إلى الله تعالى، بل ستكون هناك دوافع كثيرة تبعده

عن الخالق وتجعله متخبطاً في مصالحه بدلاً من وصوله إليه وَجَلَّ. وأما إذا كان يحب الآخرين للين طبعه فليس هنالك سبب يصرفه إلى الله تعالى، لأنه لا يحسن إلى الخلق لسبب عقلي، وإنما للين طبعه، فلا يهديه عقله إلى أي طريق آخر ولا يمكن أن يهديه.

يقول البعض هنا: ليس حب الوطن بل حب الإنسانية هو ما يدفعه إلى الإحسان إلى الناس، ومثل هذا الإنسان لا بد أن يترفع عن المصالح الأنانية. والحق أنها دعوى بلا دليل، إذ إن كل فعل يكون وراءه دافعٌ طبيعي، وهو ما يصرف مجرى أفكار المرء، فما هو الدافع الطبيعي لمن يحسن إلى الناس حباً للإنسانية؟ وواضح أنه إذا لم يكن دافعه حب الله، فإنما يكون دافعه تفكيره بأن الآخرين أناس مثله فيجب أن يحبهم، ومن الواضح الجلي أن الذي يحب الآخرين لأنهم أناس مثله إنما يحب نفسه في الواقع؛ فحبُّه لذاته لن يصرفه إلى مَنْ فوقه عز وجل، فتكون نهايته وبدأيته سواء، فلا يمكن أن يهتدي إلى الله تعالى من خلال حب الإنسانية فقط.

فلم يبق الآن إلا سبيل واحد، وهو أن الذي يحب المخلوق فإن الله تعالى يجذبه إليه بسبب إحسانه إلى خلقه، ولكن هذه حالة نادرة، لأن هذا لن يتحقق إلا لمن يحب الخلق حباً كاملاً دون أن يكون له علم بالله تعالى؛ أما الذي عرف بوجود الله عقلاً، ثم أعرض عنه مكتفياً بخدمة المخلوق، فقد أنكر حقيقة عظمى، فهو لا يستحق الهدى. إنما يستحق الهدى في هذه الحالة فقط مَنْ لا علم له بالله تعالى ولكنه يستعمل كفاءاته الفطرية استعمالاً صحيحاً، ومع أن الخالق ظل مستترا عنه إلا أنه عمل على تقوية صلته بما كان بادياً له أيّ بخلق الله، ولا شك أن مثل هذا الإنسان حريٌّ بأن يهتدي إلى الله مع أنه قد بدأ علاقته بخلق الله وَجَلَّ أولاً، ذلك أنه قد عمل بالقدر الذي كان ممكناً له بحسب علمه. ولا ننكر مثل هذه الحالات الاستثنائية، كما لا يخالفها القرآن الكريم، بل يتضح من القرآن بكل جلاء أن الذي يغتنم ما تيسر له من أسباب الهدى فإن الله تعالى يوفّر له المزيد من أسبابه، وإن شهادة النبي وَجَلَّ أيضاً تؤكد ذلك،

فقد ورد في الحديث أن رجلاً جاء النبي ﷺ وقال يا رسول الله، كنت أحسن إلى خلق الله قبل إسلامي، فهل أجرى عليه؟ فقال ﷺ: "أسلمت على ما أسلفت" (مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده)، أي أن حسناتك لم تضع، بل هي التي ساعدتك على اعتناق الإسلام، وبتعبير آخر إن الأعمال التي قمت بها قبل علمك بالله صارت مقبولة لديه تعالى، مع أنك لم تعملها ابتغاء مرضاته، ولكن لم يكن ذلك تقصيراً منك؛ فإحسانك إلى خلق الله هو الذي قد أرشدك إلى معرفة الله والإيمان به.

ولكننا لا نناقش هنا هذه الحالة الاستثنائية، أعني أننا لا نناقش هنا أنه إذا لم يكن للمرء علم بالله تعالى فكيف يعامله الله على حسناته، بل نناقش هنا: إذا كان المرء على معرفة بوجود الله تعالى فهل عليه أن يحاول إصلاح نفسه بالاتصال به تعالى، أم عليه خدمة خلق الله معرضاً عنه تعالى مدّعياً أن هذا سيوصله إلى الله تعالى؟ لا أظن أي عاقل سيؤيد أن يُعرض الإنسان عن الله تعالى مع علمه به ويعكف على خدمة خلقه مدّعياً أن هذا هو الطريق الطبيعي للوصول إلى الله تعالى. كلا، بل سيقول كل عاقل أن إعراضه عن الله تعالى في هذه الحالة لن يساعده على الهدى، وإنما يتسبب في ضلاله.

باختصار، إن وصول الإنسان إلى الله تعالى عبر خدمة المخلوق حالة استثنائية، ولا يتحقق ذلك لأحدٍ إلا مَنْ لم يكن له علم بالله تعالى. أما حب المخلوق بعد وصال الله تعالى فهو حالة طبيعية، لأن الذي يجد الله ويعبده فلا بد أن يحب مخلوقه أيضاً، لأن وصال الله تعالى يعني معرفةً كاملةً بصفاته تعالى، ومن اطلع على صفات الله مثل رب العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين، فسوف يسعى للاتصاف بها فيعامل عباده كما يعاملهم ربهم، وإلا فلا يمكن أن يتصبَّغ بصبغة الله. فالإحسان إلى العباد نتيجة حتمية لوصال الله تعالى، وعلامة على علاقة العبد بربه، وللإشارة إلى هذا الأمر الطبيعي قد ذكر الله إقامة الصلاة قبل قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٥)

شرح الكلمات:

يؤمنون: راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب...﴾ .

أنزل: أنزل الله كلامه على النبي: أوحى به إليه. (الأقرب)

الآخرة: مؤنثُ الآخر، وهي ضدُّ الأولى، وهي صفة (الأقرب). وموصوف

﴿الآخرة﴾ محذوف، ومعناها: الآتية، القادمة.

يوقنون: أيقنَ الأمرَ وأيقنَ به: علِمَ به وتحقَّقه. واليقينُ إزاحةُ الشكِّ وتحقيقُ

الأمر. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاث علامات أخرى للمتقين،

فعلامتهم الرابعة أنهم يؤمنون بما نزل على محمد ﷺ من الوحي. والحكمة في بيان هذه الصفة أنه لا يكفي المرء حسنُ النية، بل لا بد له من العمل الصحيح أيضا. إنما يكفيهِ حسنُ النية إذا كان يستحيل عليه أن يعرف العمل الصحيح، أما إذا علم سبيله فعُدَّ حسنُ النية لا يكون مقبولا، بل يصبح غير معقول؛ إذ كيف يمكن أن يكون المرء حسنَ النية ثم يَغضُّ الطرف عن العمل الصحيح أو يتهاون في البحث عنه؟ فليس حسنُ النية إلا من يعمل بحسبها، أما الذي يترك العمل الصحيح مع قدرته عليه أو لا يسعى لمعرفة فإنه يؤكد بطلان دعواه بعمله، ويشهد على سوء نيته.

ولما كان طريق العمل الصحيح في العالم الروحاني هو ما يخبر به الله، فلا يُعتبر حسنُ النية إلا مَنْ يسعى للبحث عن ذلك الطريق ثم العمل بحسبه. ولما كان القرآن يعلن أنه ليس بعد بعثة النبي ﷺ طريق صحيح للعمل إلا ما كشف الله به عليه ﷺ بالوحي، فلن يحقق المقاصد الروحانية إلا من آمن بما نزل على

محمد ﷺ، ولذلك أخبر الله تعالى أن الصفة الرابعة للمتقين أنهم يؤمنون بما نزل على محمد من وحي. ذلك أن الذي لا يؤمن بوحى الله الذي أنزله لهداية الناس في عصره، فلن يطلع على جزئيات الهدى، ولن يتمكن من العمل بها، وواضح أن غير المطلع على كل الجزئيات الضرورية لتحقيق هدف فلن يحققه، فمثلاً من أراد أن يكون خبيراً بلغة فلا بد له من معرفة كلماتها وتراكيبها وتعابيرها المختلفة لبيان الأفكار، وإلا لن يتقنها، كذلك من أراد تكميل تقواه فلا بد له من معرفة جزئياتها كلها، أما الذي يكون جاهلاً بها فقد يخالف التقوى فكراً وعملاً، وسيفقد ما بيده من التقوى الحاصلة له لحسن نيته بدلاً من الترقى في مدارجها، ذلك أن حسن النية وحده لا يجعل المرء قادراً على الأعمال السليمة، فمهما كان المرء قوياً الإرادة لأن يتحدث بلغة ما بطريقة سليمة إلا أنه لا يستطيع ذلك بمجرد إرادته القوية إذا لم يكن له معرفة كافية بكلماتها وتراكيبها وتعابيرها المختلفة. فبقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ قد بين الله تعالى أن المتقي يسعى لمعرفة تفاصيل التقوى والعمل بها بعد أن تيسر له التقوى الإجمالية، ولما كانت تفاصيل التقوى ليست إلا ما كشف الله بوحيه على محمد ﷺ فلا بد للمرء من الإيمان بوحيه لتكميل تقواه مع دقائقها كلها.

يسيء البعض فهم هذه الآية وغيرها، فيظنون أن الناس مأمورون بالإيمان بالقرآن وليس بمحمد ﷺ، فلا حاجة بل لا جواز لقبول أي قول للنبي ﷺ، فهذا شركٌ. وقد وجدت هذه الفرقة منذ سنوات في الهند، والحقيقة أنها فرع من الخوارج الذين قالوا: "الحكم لله، والأمر شورى بينكم". لقد وقع هؤلاء في هذه الخدعة لعدم تدبرهم في القرآن الكريم. إنما أساس أوهامهم هو قولهم بأن القرآن الكريم يعلن مراراً أنه كتاب كامل، وما دام كاملاً فلا حاجة لأي أمر أو شرح من أحد سواه. وقد أدى بهم غلوهم حتى قالوا إنه حيثما يأمرنا القرآن بالإيمان بالرسول ﷺ وطاعته فالمراد منه طاعة القرآن لا طاعة الرسول ﷺ.

إن هؤلاء لا يفكرون أن القرآن الكريم يذكر نزول الكتب السماوية بطريقتين، فتارةً ينسب نزول الكتاب إلى الرسول وتارةً إلى قومه، كما قال الله

تعالى هنا في هذه السورة: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وقال في آية أخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي أُنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ (الأنعام: ١١٥). لماذا فَرَّقَ القرآن هكذا؟ فقال مرةً إن هذا الكتاب قد أُنْزِلَ إليكم، وقال مرةً أخرى إنه قد أُنْزِلَ إلى محمد رسول الله ﷺ؟ إذا كان نزوله إليهم يعني أنه أُنْزِلَ من أجلهم فلماذا نُسِبَ إلى الرسول ﷺ إذن؟ ألم يكن كافياً أن يقال: آمَنُوا بهذا الكتاب الذي أُنْزِلَ إليكم! ولكننا نجد القرآن الكريم ينسب نزوله إلى الرسول مرةً بعد أخرى. ولم يتحدث القرآن الكريم على هذا النحو بحق النبي ﷺ فقط، بل اتبع الأسلوب نفسه بحق الأنبياء الآخرين جميعاً، حيث قال الله تعالى عما أُنْزِلَ على موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ٨٨)، بينما قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). فنسبة نزول الكتاب إلى الرسول تارةً وإلى قومه تارةً أخرى يوضح بجلاء أنه حين ينسب نزوله إلى قوم فيكون التركيز على بيان أن هذا الكتاب منسجم مع حالتهم، وأنه لا بد لهم من العمل به، وحين ينسب نزول الكتاب إلى الرسول فالتركيز على انسجام الكتاب مع فطرة الرسول؛ فالله تعالى لا يؤكد بهذا الأسلوب أنه هو الذي أُنْزِلَ هذا الكتاب فحسب، بل يؤكد أيضاً أن هذا الرسول تفسيراً عملياً ونموذجاً حيّاً لهذا الكتاب. أما إذا لم نسلّم بهذا المعنى فما الداعي لأن يقول الله تعالى تارةً ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) وتارةً ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ (البقرة: ٥) أو ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ٨٨)؟ كان ينبغي أن يكتفي بقوله مثلاً: عليكم الإيمان بالقرآن أو التوراة. فما دام قد ذكر اسم الكتاب فلا حاجة لذكر كلمات زائدة، لأن ذكرها عبث ولغو، أما إذا لم يُذكر اسم الكتاب في كلام حكيم بل ذُكر نزوله بهذا الأسلوب الخاص فلا بد من الاعتراف أن في ذلك مصلحة خاصة، وما هي إلا الإشارة إلى أن هذا الكتاب ليس وحده هادياً، بل إن من نزل إليه أيضاً هادٍ. وقد ذكر القرآن هذا الأمر صراحةً في قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، أي: عندما تأتي

الكفار آيةً من وحي النبي يقولون لن نؤمن بها حتى ينزل إلينا كلام كما نزل على هذا المدعي بالنبوة، فیردّ الله عليهم بأننا أعلم على من نزل وحيناً، وإنما ننزله على من نراه أهلاً لنزوله عليه.

فهذه الآية تؤكد بوضوح أن كلام الله لا ينزل مع ساعي بريد، بل ينزل على من يدرك مفهومه الصحيح، ويقدر على شرحه الصحيح. لو كان الهدف مجرد إيصال الكلمات مع أحد فلماذا لم يرسل الله كلامه مع أدباء كبار وُجدوا في قوم كل نبي؟ فإرسال كلامه على أيدي الأميين عمومًا، الذين كانوا أقلّ علمًا في رأي من لا بصيرة له، بدلاً من كبار الأدباء والشعراء، يعني أن المنزل عليه أقدر على استيعاب الوحي وبيانه، وأنه لا يعطى كلمات الوحي فقط، بل فهمه أيضاً، لأن فطرته أكثر انسجاماً مع مفهوم هذا الوحي.

إذن، فكيف يصحّ قولهم بأن الوحي موجود بينهم، وألا فرق بينهم وبين المرسل إليهم، وأهم يؤمنون بالوحي ويفهمونه بأنفسهم!!

لا شك أن هذا القول مناف للعقل، وبماثل ما قال الكفار بأنه ما دام الله تعالى يريد خطابنا فلماذا لم يكلمنا مباشرة؟ ولماذا اتخذ النبي وسيطاً بيننا وبينه؟ ألم تكن قادرين على استيعاب وحي الله؟ وكما أن الله لم يُقم لاعتراض الكفار وزناً، كذلك باطل زعم هذه الفرقة الإسلامية. الحق أن الإيمان بكلام الله تعالى يتضمن الإيمان بالرسول وقبول شرحه لهذا الوحي، لأن وحي الله كلامٌ لفظي، والرسول نموذج عملي له، ولا يختاره الله تعالى إلا ليقدم للناس نموذجاً لتطبيق هذا الوحي ويقوم بتفسير ألفاظه.

بيد أن الواجب ألا يُقبل مما يُنسب إلى النبي ﷺ من شرح هذا الوحي إلا ما وصلنا منه ﷺ بشكل قطعي، وليس كل رطب ويابس نسبّه إليه ﷺ بعض الرواة الكاذبين على لسان بعض من سبقوه من المشاهير.

لقد ذكرتُ هذا الموضوع هنا بإيجاز لعلاقته بهذه الآية، غير أننا سنتناوله مفصلاً لدى تفسير الآيات التي تتناوله بشكل أوضح، أو التي يستدل بها البعض على هذه العقيدة الفاسدة.

وهناك أمر آخر يتطلب توضيحًا، وهو تعبير "إنزال الوحي". إن الذين يجهلون تعاليم الإسلام عندما يقرءون في القرآن تعبير "نزل كلام الله تعالى" يظنون عادةً أن الله تعالى كتب هذا الكلام، فأعطاه ملائكته، فنزلوا بالوحي من السماء إلى الأرض ووضعوه في يد الرسول! وليس غير المسلمين فقط، بل إن شريحة كبيرة من المسلمين أنفسهم ممن يجهلون تعاليم الإسلام يظنون اليوم كأن شيئاً مكتوباً ينزل من السماء نزولاً مادياً فيتلقاه الرسول! ونشوء هذه العقيدة الباطلة راجع لعدة أسباب:

١: أن هؤلاء لم يفكروا في المراد من السماء.

٢: لا يعلمون ما هي الملائكة وكيف تقوم بأعمالها.

٣: لا يعلمون كيف تنزل أحكام الله تعالى.

٤: لا يعلمون ما معنى النزول.

فعدم تدبرهم في هذه الأمور الأربعة أوقعهم في هذا الخطأ.

إن المهم هو: هل يعني النزول هنا أن كلام الله ينزل من السماء بشكل مادي كما شاع بين عامة المسلمين وبين أتباع الأديان الأخرى عن طريق المسلمين؟ فقد كتب المستشرق "سيل" في ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم في الديباجة الباب (٣) أن المسلمين يؤمنون أن الله أعطى جبريل القرآن كله في مجلد، فنزل به إلى السماء الدنيا، ومنها أنزلَه على محمد شيئاً فشيئاً. (تفسير القس ويرى، مجلد ١ ص ١٠٨). لا جرم أن هؤلاء المسيحيين قد وضعوا الأساس لمثل هذا التاريخ على ما شاع بين المسلمين لسوء حظهم من روايات لم يتدبروا في مفهومها، ولا نستطيع اتهام المستشرقين باختراع هذه الروايات من عندهم، إلا أن استغلالهم إياها أمر غير مقبول إطلاقاً. ثم إن ما يطعنون فيه موجود في كتبهم أيضاً، فما داموا يؤولون ما ورد في كتبهم من مثل هذا التعبيرات، فكان من مقتضى الأمانة والتقوى أن يؤولوا هذه الروايات الإسلامية أو الآيات القرآنية التي وجدوا فيها هذا التعبير بتأويل مماثل، لأن غاية الدين إنما هي خشية الله وتقواه، لا أن نجعله ساحة للانتصار على الخصم.

فقد ورد في كتاب موسى ﷺ أنه عندما كثر الإثم في سدوم وعمورة أخبر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بدمارهم قائلًا: "أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّامِّ حَسَبَ صُرَاحِهَا الْآتِي إِلَيَّ، وَإِلَّا فَأَعْلَمُ". (التكوين ١٨ : ٢١). فهذه الآية لا تشير إلى نقصان علم الله فحسب، بل تبين أنه ﷻ يسمع الأخبار من الآخرين ثم يتأكد من صحتها أو زيفها، بل هنالك أكبر من ذلك، بأنه ﷻ يضطر للنزول من السماء للتأكد من صحتها.

فلو كان هؤلاء الكتاب المسيحيون متحلين بروح دينية حقيقية، ولم يعتبروا الدين ساحة للتغلب على الخصم، لما اعترضوا -مع وجود هذه الفقرة في التوراة- على قول القرآن الكريم بأن كلام الله ينزل من السماء. وقد ورد أيضًا: "وَحَلَّ رُوحُ الرَّبِّ عَلَى دَاوُدَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَصَاعِدًا" (صموئيل الأول ١٦ : ١٣). وروح الله هنا يعني كلامه وهديه، والمراد من هذه الجملة أن كلام الله ظل ينزل على داود عليه السلام. فكيف يُصدّق أن عقول هؤلاء المسيحيين تقاصرت هنا عن استيعاب المراد من ذلك الشيء الذي كان ينزل دائما على داود بحسب العهد القديم؟

وقد ورد تعبير مماثل في العهد الجديد أيضًا: {وَشَهِدَ يُوْحَنَّا قَائِلًا: "إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَعْمَدَ بِالمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ} (يُوْحَنَّا ١ : ٣٢-٣٤).

لقد تبين من هذه العبارة أن روح القدس -الذي يراد به في القرآن الملاك الذي ينزل بكلام الله، أو جبريل- قد نزل على المسيح عليه السلام على شكل حمامة. وكما هو ثابت من فقرات كثيرة من العهد الجديد بأن روح القدس هو الذي يبلغ كلام الله، فهذه الحمامة عندما نزلت على المسيح إنما أخبرته بمشيئة الله، كما وضح ذلك متى حيث قال: {فَرَأَى (المسيح) رُوحَ اللَّهِ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ} (متى ٣ : ١٦). فليس المراد من روح الله إلا وحيه ﷻ.

فما دام الكتاب المقدس بعهديه شاهد على نزول الله ونزول كلامه، فكيف وجد المسيحيون صعوبةً في فهم الروايات الإسلامية التي تذكر نزول الله ونزول كلامه؟

الحق أن السماء في القرآن الكريم قد وردت بمعان شتى، فحيناً تعني السحاب، وحيناً ارتفاع المكان، وحيناً رفعة المكانة، فإذا وردت بحق الله تعالى كان المراد رفعة مكانته وليس أنه قاعد في مكان عال. فما دام الله تعالى قد قال عن نفسه في القرآن ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧)، أي نحن أقرب إلى الإنسان من شريانته، فكيف يُظنُّ أنه تعالى جالس في سماء مادية ويكتب وحيه ويرسله من هناك؟

لقد وقع عامة المسلمين أيضاً في هذا الخطأ لعدم تدبرهم في صفات الله المذكورة في القرآن الكريم منخدعين بروايات ظنية الدلالة والمتشابهات من آيات القرآن.

والسبب الثاني لانخداع الناس هو نقصان علمهم عن الملائكة وطريقة أعمالها. يتضح من القرآن أن الملائكة ليست أجساماً مادية، بل هي بمنزلة العلة الثانية للكائنات كلها، أعني أنها هي الواسطة الأولى بين الخالق والمخلوق، وأن عملها إدارة نظام الكون بحسب أوامر الله ومشيئته، فمنهم من هو مسؤول عن تبليغ كلام الله إلى العبد، ومنهم من هو مسؤول عن خلق الأشياء، ومنهم من هو مسؤول عن الموت، فالملائكة بمنزلة أسلاك يدير الله تعالى الكون بتحريكها. لقد قال الله على لسان الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصفات: ١٦٥)، أي أن كلا من الملائكة يقوم بعمله وهو في مكانه، فكما أن الشمس تضيء الكواكب الدائرة حولها وهي ثابتة في مكانها، كذلك الملائكة ليست بحاجة إلى ترك مكانها للقيام بأعمالها. فما دام نزول الملائكة استعارةً فنزول الكلام معها استعارة أيضاً.

والخطأ الثالث الذي وقع فيه الناس هو أنهم لم يتدبروا في كيفية ظهور أفعال الله تعالى. يظن الجاهلون أن الله تعالى مضطر -والعياذ بالله- لاتخاذ الوسائل

المادية لإيصال كلامه، فكما أن الإنسان يبعث رسالته مع شخص يركب دابةً أو ركوبةً أخرى فيوصلها إلى المرسل إليه، كذلك يكتب الله تعالى رسالةً ويبعثها مع رسول فيأتي هذا إلى عبده ساعياً. مع أن الله تعالى قد أعلن عن كيفية ظهور أفعاله قائلاً: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٨)، أي أنه تعالى إذا قضى أمراً فلا يحتاج للتحرك كالناس، إنما يكفيه أن يريد ذلك الشيء فيتمّ كما أراد. فإنزال الله وحيه إلى أحد يعني أنه تعالى يريد ذلك، فيطلع على إرادته الملاك المسؤول عن إنزال الوحي، ويحرك الملاك السلاسل الروحانية المتعلقة بهذا الأمر، فينزل على أذن العبد المقصود أو على قلبه أو عينه وحي رباني لطيف مليء بالمعارف. وليس المراد أن الله ﷻ شفتين ولساناً وحلقوماً، وأنه يحركها فينتج عن حركتها صوت، أو أن له أيدي كأيدي الناس فيكتب بها، ثم يضع هذا المكتوب في يد الملاك فيوصله إلى رسوله!

والسبب الرابع لعدم استيعاب معنى هذه الآية هو خطأ الناس في فهم لفظ النزول. لا شك أن المفهوم المعروف لهذا اللفظ هو النزول المادي، ولكن له مفاهيم أخرى في القرآن الكريم، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً﴾ (آل عمران: ١٥٥). أي أنه تعالى هباً لكم أسباب الأمن بعد الغم؛ لأن الغم أو الأمن لا ينزلان من السماء، بل هما نتيجة التغيرات الحاصلة على الأرض. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: ٧)، وقال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (الأعراف: ٢٧)، وقال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ (البقرة: ٥٨)، وقال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد: ٢٦). وقوله تعالى ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، أي أن في الحديد أسباباً حربية عظيمة. فليس بين الأشياء المذكورة هنا شيء ينزل من السماء، بل كلها تخلق في الأرض.

وقد قال الله تعالى عن الرسول ﷺ نفسه ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا﴾ (الطَّلَاق: ١١-١٢)، أي لقد أنزل الله إليكم شرفا عظيما، أي هذا الرسول.

لقد ثبت من هذه الآيات كلها أن من معاني النزول الخلق أيضا، ويُطلق خاصة على خلق شيء يكون منّة عظيمة وإنعاما كبيرا، إذ قد ذكر الله تعالى هنا خلق الأنعام والحديد والمن والسلوى واللباس ورسول الله ﷺ على سبيل المنّة، وعليه فتعبير نزول كلام الله إشارة إلى كونه نعمة عظيمة إذا لم يشكرها الناس ولم يقدروها حق قدرها سقطوا من عين الله، وليس المراد من نزول كلامه تعالى أنه كلام مكتوب على الورق يُنزل من السماء، إنما هو أمر رباني خاصّ منزه عن كل شائبة ووسوسة وينكشف على مقرّبيه بكلمات أو صوت عبر آذانهم أو عيونهم أو قلوبهم. وهو ليس مجرد فكرة، كما يظنّ أتباع فرقة "براهمو سماج" الهندوسية أو البابيون والبهائيون وغيرهم.

ويجب ألا ينخدع أحد بقوله تعالى ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، فيظن أن المتقي إنما هو من يؤمن بما نزل على محمد ﷺ، ذلك أن القرآن الكريم يسلم بوجود المتقين في الماضي أيضا، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٩). فما دام المتقون موجودين في عصر موسى عليه السلام حين لم يكن الرسول ﷺ قد ظهر ولم يكن القرآن قد نزل، فثبت أن الإيمان بما نزل على محمد ﷺ لم يكن شرطا دائما للمتقين، وإنما وُضع هذا الشرط منذ بعثة الرسول ﷺ، وهكذا ينبغي أن يكون، لأن من لا يؤمن بأحكام الله الجديدة فليس متقيا. كان الشرط للمتقين في زمن موسى عليه السلام أن يؤمنوا بما نزل عليه، وكانت علامة المتقين في زمن عيسى عليه السلام أن يؤمنوا بما نزل عليه، وعلامة المتقين بعد ظهور النبي ﷺ أن يؤمنوا بما نزل عليه من الوحي.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، لقد بين الله هنا العلامة الخامسة للمتقين وهي أنهم يؤمنون بالوحي الذي نزل قبل محمد ﷺ.

الله أكبر! يا لها من معجزة قرآنية عظيمة؛ فهذا الأُمِّي الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وكان من أمة بلغت ذروة التعصب، يعلن لهم بأمر الله أنكم لن تنالوا النجاة بالإيمان بما نزل عليّ فقط، بل لا بد لكم - إذا أردتم أن تنالوا هدى الله تعالى - من الإيمان بما نزل من قبلي من الوحي. وقد ورد شرح ذلك في قول الله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٨). فنبينا محمد ﷺ ليس مَجْمَع البحرين فقط، بل هو مَجْمَع البحار، فَمَنْ آمَنَ به فلا بد له بأن يؤمن بالأنبياء الأوائل من العراق: آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام، وأن يؤمن بأنبياء اليهود: كموسى وداود وإدريس وإلياس وزكريا ويحيى، وأن يؤمن بمؤسس المسيحية عيسى، وأن يؤمن بأنبياء الهند مثل كرشنا ورام شنذر، وأن يؤمن بنبي الفرس زرادشت وغيرهم. فما أعظمه من برهان على تسامح القرآن وتمسكه بالحق! فليس هناك عصبية قومية، ولا تمييز عرقي، بل كله حقٌّ وتمسكٌ بالحق، فأينما وُجد الحقُّ اعترف به، وأينما خفي كشفه. ولكن وأسفاه على أهل الدنيا! ويا لنكراهم للجميل! إذ يبغضون الكتاب الذي يعلم هذا المبدأ العظيم! ليتهم تمسكوا بالعدل بشأن القرآن! ليتهم حكموا فيه بعد التدبر في ما ورد في أوائل آيات هذه السورة من معارف وتعاليم!

إن الكتاب المسيحيين يروُنَ الجميلَ قبيحًا، فبدلاً من أن يروا ما في هذه الآية من ميزة ويعترفوا بعظمتها، حاولوا استغلالها بطريق مشين، إذ قالوا إن القرآن يصدّق الكتاب المقدس، ولكنه يخالف مضامينه، مما يعني أن القرآن باطل والعياذ بالله! ما أسخفَ هذا الوسواس الذي خطر ببالهم عند قراءة هذا المبدأ العظيم في هذه الآية! إنهم لا يفكرون ما الذي يصدّقه القرآن من الكتاب المقدس، أيصدق العهد القديم الذي يرى أن الشريعة ضرورية من أجل الروحانية؟ أو يصدّق قصص الإنجيل التي ورد فيها أن المسيح ﷺ كان يصوم (متى ٤: ١-٢)، وأنه قال إن هذه الأرواح الشريرة لا تخرج إلا بالصيام (مرقس ٩: ٢٩)، أم يصدّق

أقوال الحواريين التي ورد فيها بأن الشريعة لعنة؟ يجب أن يخبروا أيًا من هذه الأقوال المتعارضة يصدّقه القرآن.

ليتهم أدركوا أن أي مصلح رباني لا يكون به حاجة إلى الخوض في تفاصيل الأديان السابقة، بل يكفيه إبداء رأيه في أصلها ومنبعها. أليس عظيمًا، من أجل إرساء السلام في العالم وتصديق الحق حيثما كان، أن يقرّ المرء أن الله ربّ الناس كلهم، وأنّ وحيه قد نزل إلى كل قوم، وأنّ على المؤمن الصادق أن يؤمن إجمالاً أن الله تعالى لم يحرم أي قوم من هدايته؟ إذا كان تصديق المعتقدات المفصلة لمختلف الطوائف ضروريا لإرساء السلام والصلح في العالم، فإن هذا غير موجود بين المسيحيين أنفسهم، ففي المسيحية عشرات الفرق التي تعتبر عقائد الفرق الأخرى باطلة، فالأنجيل عند الكاثوليك الرومان تقول غير ما يراه البروتستانت، فإذا كان معنى التصديق ما ينسبه الكتاب المسيحيين إلى القرآن الكريم فما هي العقائد المسيحية التي على المسلم أن يصدّقها؟ أيصّدق عقائد البروتستانت، أم الكاثوليك، أم الموحدين، أم الكنيسة اليونانية، أم الكنيسة السريانية؟ وما يدل على بطلان استدلال الكتاب المسيحيين هذا:

١: أن القرآن الكريم قد أمر بالإيمان بوحى السابقين بعد الإيمان بوحى القرآن، فلو كان القرآن يعني بالتصديق الإيمان التفصيلي بعقائد أهل الأديان السابقة لذكر وحى الأولين قبل الإيمان بوحى النبي ﷺ. إن أسلوبه هذا يبين أن الإيمان بوحى الأولين يتمّ بوساطة القرآن، أي بحسب القواعد التي بينها القرآن الكريم.

٢: لقد قال القرآن الكريم هنا ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، فلم يذكر أمة أو ديناً معيناً، بل صدّق الوحي الذي نزل إلى أي قوم، فإذا كان المسيحيون يستدلون بذلك على ضرورة التصديق التفصيلي بالكتاب المقدس فيحقّ للهندوس أن يستدلّوا بذلك على ضرورة التصديق المفصّل لكتّابهم الفيدا، وكذلك يحقّ ذلك للزرادشتيين، فكيف يتّحد المسيحيون مع أصحاب هذه الكتب؟ وما هو الدليل على تفضيل الكتاب المقدس على الصحف الأخرى؟

٣: قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٩). لقد تبين من هنا أن كثيرا من الأنبياء لم يُذكروا في القرآن الكريم، فكيف يؤمن المسلمون بوحيتهم؟ مما يؤكد أن التصديق هنا يعني التصديق الإجمالي لا التفصيلي.

٤: ورد في القرآن الكريم ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (البينة: ٤)، أي أن القرآن الكريم قد جمع فيه كل التعاليم السابقة الصحيحة غير المنسوخة. وقال الله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٩)، أي لقد أنزلنا إليك الكتاب الذي هو جامع للحقائق كلها ومصدق لكل ما كان موجودا أمامه في ذلك الوقت من كتب الله، ومحافظا على ما فيها من تعاليم.

فالقرآن الكريم يعلن هنا أنه فيما يتعلق بالتعاليم التفصيلية فإنه جامع لكل التعليمات السابقة غير المنسوخة والصالحة للعمل. وبما أن القرآن مشتمل على كل التعليمات السابقة الصالحة للعمل فلا يمكن أن يراد من تصديقه للكتب السابقة إلا تصديقا إجماليا لا غير، وهذا التصديق يماثل إيمان المسيحيين بإبراهيم وموسى، فهم يؤمنون بهما ولكن لا يعملون بتعاليمهما، بل يعدّون شريعتهما لعنة، والقرآن أيضا يصدق بإبراهيم وموسى وغيرهما من أنبياء الأمم السابقة تصديقا إجماليا، وإن كان لا يعتبر شرائعهم لعنة، بل يعدّ كل هؤلاء الصالحين رحمة ربانية في عصورهم.

الحق أن الكتاب المسيحيين لا يستوعبون هذا الأمر المنقطع النظير الذي ذكره القرآن لعدم تورّعهم عن اعتبار الأنبياء مجرمين وأثمين مع إيمانهم بهم. ليس بوسعهم أن يفهموا كيف يكون المبدأ القرآني العظيم القائل أن الأنبياء كلهم صادقون وأن وحيهم حقّ ونافع للعالم وقادر على إرساء السلام فيه؛ لأنهم لا يرتدعون عن اتّهام أنبيائهم بارتكاب الجرائم الأخلاقية، ولا يبرّئون منها أحدا منهم إلا المسيح. أما القرآن الكريم فيعلّم على النقيض أن كل الأنبياء أطهار صلحاء، لذلك فإنه حين يأمر بتصديق وحي أنبياء الأمم الأخرى كلهم تصديقا

إجمالاً فإنه يمهّد بذلك الطريقَ لقيام السلام في العالم، لأن المسلم إذا صدّق أن الله تعالى قد أنزل وحيه إلى كرشنا ورام تشندر وزرادشت مثلاً فلا بد أن يعدّهم صالحين أطهاراً بحسب العقيدة القرآنية، ويبرئهم من كل ما رُموا به من تم باطله، سواءً من قبل أتباعهم أو أعدائهم، وسوف يحترمهم، وهكذا يعمل على نشر السلام في العالم.

وهناك منفعة أخرى في هذا الإيمان الإجمالي، وهي أن هذا الإيمان الإجمالي يرسّخ حبّ الله الحقيقي في قلوب المسلمين، ذلك لأنه مهما أيقن قوم جرّاء تعصبهم بأن الله تعالى لم ينزل وحيه إلا إليهم، فلا بد لهم في الأوقات التي تستولي فيها الخشية على قلوبهم - كما يحدث مع كل إنسان من حين لآخر - أن يفكّروا في أنفسهم: كيف يكون الله ربّ العالمين وهو لم يصطفِ لوحيه إلا قومنا دون الأقوام الآخرين؟ فثبت أن هذه العقيدة القرآنية تزيد المسلم إيماناً بربوبية الله للعالمين، إذ يدرك أن الله ليس ربّاً لقوم معين، بل هو رب الكون كله فعلاً.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

لقد سبق أن ذكرنا عند شرح الكلمات أن الآخرة تعني القادمة أو الآتية فيما بعد، ومن أجل ذلك يقال للحياة بعد الموت الحياة الآخرة، ويقال للقيامة يوم الآخرة، ويقال للعاقبة الآخرة لأنها تظهر فيما بعد. وقد ورد لفظ الآخرة بمعنى العاقبة في قوله تعالى ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٥)، أي: أنه ما من عمل تقوم به إلا وتكون عاقبته أفضل لك من بدايته، ويكون هذا دليلاً على أن الله راضٍ عنك.

إذن، فقوله تعالى ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني أنهم يوقنون بالآتية فيما بعد. أما ما هو هذا الشيء الآتي فيما بعد، فالجواب: بالنظر إلى استعمال القرآن لفظ الآخرة فإنها تعني - غالباً - القيامة، أو الحياة بعد الموت، كما قال الله تعالى ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ (البقرة: ١٠٣)، أي ليس له نصيب في الحياة بعد الموت، وقال الله تعالى ﴿بَلْ إِذَا دَارَكَ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ (النمل: ٦٧)، أي

قد اكتمل علمهم عن الحياة بعد الموت نتيجة المشاهدة. وقد وردت الآخرة بهذا المعنى في آيات عديدة أخرى أيضاً، فبالنظر إلى كثرة استعمال القرآن لهذه الكلمة سيعني قوله تعالى ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أنهم يوقنون بيوم الآخرة. علماً أنه لأداء هذا المعنى يستعمل القرآن الكريم عادةً لفظ "اليوم الآخر" بدلاً من "الآخرة"، بيد أننا حين ننظر إلى موضوع هذه الآية ومطالبها نجد أنها تتحدث عن الإيمان بوحى الرسول ﷺ، ثم الإيمان بما نزل قبله من الوحي، ثم يذكر اليقين بالآخرة، ومن هنا نتوصل إلى أن ﴿الآخرة﴾ هنا تعني الوحي الآخر، أي الآتي فيما بعد. فكأن الله تعالى قد بين هنا أن من علامات المتقين أنهم يؤمنون بأنواع الوحي الثلاثة كلها، فهم يؤمنون بما نزل على محمد ﷺ من الوحي، وما نزل قبله من الوحي، وما سينزل بعده من الوحي. فهذا المعنى أكثر انسجاماً مع السياق.

يظن بعض المسلمين خطأً أن نزول الوحي بعد الرسول ﷺ مستحيل، ولكن ظنهم هذا مناف لما يقوله القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى عن المسلمين صراحة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣١)، أي أن المسلمين الذين يعلنون أن الله ربهم ثم يصبرون على كل المصائب المنصبة عليهم بثبات واستقامة، فإن ملائكة الله تنزل عليهم قائلين لهم: لا تخافوا من الآتي ولا تحزنوا على الماضي، بل افرحوا بالجنة التي وعدتم بها. كذلك قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٧٠)، فما دامت الأمة قد وعدت بالفوز بنعم الصديقين والشهداء والأنبياء فكيف يُغلق عليها باب الوحي؟ فإن النعمة الحقيقية التي نالها الأنبياء والصديقون والشهداء إنما هي نعمة وحي الله.

وفي هذه الآية إشارة إلى سورة الجمعة أيضاً حيث قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمَيِّ ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤). فقله تعالى ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ يعني أن هذا الرسول سيعلّم قوما آخرين لم يلحقوا هؤلاء. فقد ورد في الحديث أن الصحابة سألوا النبي ﷺ عند نزول قول الله هذا: مَنْ هَؤُلَاءِ المذكورون هنا الذين لم يلحقوا بنا؟ فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ وَقَالَ: لَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَذَهَبَ رَجُلٌ مِنْ فَارِسٍ أَوْ أَبْنَاءِ فَارِسَ حَتَّى يَتَنَاوَلَهُ (مسند أحمد).

يتضح من هذه الرواية وغيرها التي ورد فيها كلمة "رجال" بدلاً من "رجل" (البخاري، كتاب التفسير) أن الإيمان سيرتفع من الدنيا في عصر من العصور فيرجع به رجل من بني فارس، ويساعده في ذلك غيره من أبناء فارس. فمن خلال ذلك الرجل يوفّق الله النبي ﷺ للقيام بعمله الذي أنجزه في زمن الصحابة ﷺ، بمعنى أن هذا الرجل سيقوم بإصلاح الأمة على ضوء وحي الله لكونه بروزا للنبي ﷺ.

إذن، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ على ضوء السياق هو أن المتقين يوقنون بالوحي الذي سينزل في المستقبل، كما يؤمنون بالوحي الذي نزل على محمد ﷺ والوحي الذي نزل قبله ﷺ.

لعل شبهة تساور البعض بأنه فيما يتعلق بما نزل على النبي ﷺ وقبله من الوحي فقد ورد لفظ الإيمان هنا، بينما ورد عن ﴿الآخرة﴾ أنهم يوقنون بها، مما يدل على أن الحديث هنا ليس عن الوحي، بل عن شيء آخر؟ وإلا لاستخدم الله للآخرة أيضاً لفظ الإيمان.

والجواب أن الإيمان يُستعمل لشيء موجود، أما ما لم يوجد فاستعمال اليقين له أنسب.

ولو قيل أنه قد ورد لفظ الإيمان عن الحياة بعد الموت أيضاً، مع أنها ستأتي فيما بعد؟ فالجواب: لا شك أن الحياة بعد الموت شيء سيأتي فيما بعد بالنسبة إلى الشخص الحي، ولكنها موجودة الآن أيضاً، لأن الذين يُتوفون ينالون نوعاً من الحياة فور وفاتهم، فهذا الفعل الإلهي قد ظهر من قبل ولا يزال يظهر الآن،

وسيطهر مستقبلاً أيضاً؛ فالحياة بعد الموت شيء يقع في كل آن في الواقع، فكان الأنسب أن يستعمل له لفظ الإيمان. أما الوحي الذي سينزل مستقبلاً فالأنسب له استعمال لفظ اليقين.

ولو لم يكن الحديث هنا عن الوحي السابق وقيل فقط أن على المؤمنين أن يؤمنوا بظاهرة نزول الوحي الإلهي، فكان لفظ الإيمان له أنسب، إذ ليس هناك ذكر خاص للإيمان بالوحي القادم.

الواقع أن الوحي لا ينزل على كل شخص، إنما ينزل على المقربين المتقدمين في الروحانية، وقد فرض الله على الأمة أن يوقنوا أن الله تعالى لن ينسأهم مستقبلاً أيضاً، بل سيظل يُنزل وحيه على الكاملين من بينهم، مما يجعل كل مسلم يرغب في بلوغ الدرجات العلى من التقوى حتى يصبح مهبطاً لوحي الله تعالى. وهكذا فإن الله تعالى قد بثّ فيهم أملاً عظيماً ووضع أمامهم غاية سامية لرفع هممهم.

الأسف أن المسلمين لم يستوعبوا هذه المنة الربانية العظيمة وجعلوا مستقبلهم مظلماً. لماذا ابتعد المسلمون عن الإسلام اليوم؟ ولماذا لم يوجد بينهم في القرن الماضي رجال كالحسن البصري وعبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي ومعين الدين الجشتي وشهاب الدين السهروردي ومحيي الدين بن عربي والسيد أحمد السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي، رحمة الله عليهم؟ إنما سببه افتقارهم إلى الأمل واليقين اللذين لا مناص منهما لبلوغ المقامات الروحانية العالية. لقد وعدهم الله تعالى بالنعم الروحانية العظيمة لبثّ الحماس والأمل فيهم، وأمرهم في بداية القرآن أن يوقنوا بهذا الوعد، ولكنهم لم يقدروه حق قدره، فانهارت هممهم وفترت جهودهم. ينال المسلمون التعليم المادي اليوم لإيقانهم أنهم سينالون الوظائف إذا حازوا شهادة الماجستير أو البكالوريوس، ويمارسون أعمال التجارة ليقينهم أنهم سيحبسون بها الأموال، ويزاولون الزراعة ليقينهم أنهم سينالون بها الغلال والثمار، ولكنهم لا يقومون بالصلاة والصوم والحج بحماس نابع من قلوب عامرة بالأمل، وذلك لظنهم أن

القيام بهذه العبادات إنما هو أداء فرض فحسب، ولن يجنوا منها أية ثمار روحانية. يا حسرة عليهم! فإن الذي قام من بينهم وأعلن أن باب الوحي مفتوح، فافتوا عليه بالكفر وقالوا إنه يسيء إلى النبي ﷺ بقوله بنزول الوحي بعده ﷺ. إنهم لا يدرون ما الوحي! إنما الوحي أن يسمع المرء كلام الله المتجدد، وأي شك في أن الذي يسمع كلام الله المتجدد سيزداد حباً للرسول ﷺ وإيماناً به، وليس العكس. هل يمكن أن يتقرب الإنسان إلى الله تعالى ثم يتعد عن رسول الله ﷺ؟ معاذ الله من ذلك!

باختصار، لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالإيقان بالآخرة رفعا لهمهمم وحثا لهم على بذل الجهود للترقي في الروحانية. وكل مسلم يوقن بهذه الآخرة سيسعى للفوز بها، كما سعى الصحابة الكرام والسيد عبد القادر الجيلاني ومحبي الدين بن عربي وغيرهما من صلحاء الأمة.

يعترض البعض أن لفظ الوحي مذكّر و﴿الآخرة﴾ مؤنث، فكيف يمكن أن تكون الآخرة بمعنى الوحي؟

والجواب لم يرد هنا لفظ الوحي، إنما قيل: ﴿ما أنزل﴾، فيمكن تفسيره بأي كلمة، وقد عبّر القرآن عن ﴿ما أنزل﴾ بلفظ الوحي ولفظ الرسالة أيضا، إذ قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يُكَلِّمُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحزاب ٤٠)، فالرسالة والوحي بمعنى واحد، والرسالة مؤنث، فلفظ ﴿بالآخرة﴾ هنا يعني الرسالة الآخرة. واعلم أنه قد ورد في القاموس أيضا أن الوحي: الرسالة. (تاج العروس)

وجدير بالملاحظة هنا أن كلتا الآيتين الماضيتين ورد في بدايتهما لفظ ﴿يؤمنون﴾، ويليهِ ذكر أمرين في كل آية، مما يُستدل به أن إقامة الصلاة والإنفاق من الرزق تابعان للإيمان بالغيب، أما الإيمان ﴿بما أنزل من قبلك﴾ واليقين ﴿بالآخرة﴾ فتابعان للإيمان بما أنزل إلى محمد ﷺ. وأي شك في أن الإيمان بوحى الأولين واليقين بالآخرة لا يتولد في هذا العصر إلا من خلال القرآن الكريم، ذلك لأن أحوال الأنبياء السابقين قد جعلت محرّفة مشبهة بحيث

يستحيل معرفة مكانتهم وصدقهم إلا بمساعدة القرآن، كما أن اليقين بنزول الوحي القادم لا يمكن أن يتيسر إلا بالعمل بتعليم القرآن، لأن سائر الديانات قد أغلقت باب الوحي، وليس هناك دين سوى الإسلام يدعي أن الإنسان يمكن أن يتلقى وحي الله باعتناقه الآن.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٦)

شرح الكلمات:

على: حرف جرّ، وله تسعة معان، منها: الاستعلاء، أي الغلبة. (معني اللبيب)

هدى: راجع شرح الكلمات لقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في سورة الفاتحة، ولقوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في هذه السورة.

رَبِّهِمْ: راجع شرح الكلمات لقوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الفاتحة.

المفلحون: المفلح اسم فاعل من أفلح، وأفلح الرجل: فاز وظفر بمطلبه. وأفلح زيد: نجح في سعيه وأصاب في عمله. (الأقرب) والفلاح: الظفر وإدراك بُعْية. (المفردات).

ورد في "تاج العروس": "يقال لكل من أصاب خيراً مُفْلِحاً".

وورد فيه أيضاً: "الْفَلَّاحُ: الْفَوْزُ بِمَا يُعْبَطُ بِهِ... ليس في كلام العرب كله أجمع من لفظة الفلاح لِحَيْرِي الدنيا والآخرة، كما قاله أئمة اللسان."

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا عاقبة المتقين المتحلّين بالصفات المذكورة آنفاً. لقد أخبر ﷺ من قبل أن القرآن الكريم يسمو بهؤلاء المتقين إلى أعلى درجات الهدى، أما الآن فبيّن نوعية هذا الهدى وقال إنهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وفيما يلي بيانه:

١: إن القول ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يشير إلى تقدّمهم المستمرّ، لأنّ الربّ هو مَنْ يربّي ويطوّر بالتدريج، فَمَنْ كان على صلة بالربّ تقدّم باستمرار.

٢: لقد أضافَ هنا "الربّ" إلى المتقين فقال ﴿رَبِّهِمْ﴾، وفيه إشارة إلى أن مشيئة الله هي أن يهتدي الناس لا أن يضلّوا، فمن أراد الهدى هيّا الله له أسبابه من عنده.

٣: قال الله هنا ﴿عَلَى هُدًى﴾، وفيه إشارة إلى أن الهداية تصبح لهؤلاء المتقين كمطيّة يسافرون عليها، وهذه المطيّة تُرسل إليهم من عند ربهم، وإرسال المطيّة من عند إنسان إلى غيره يعني أنه يدعوه للقاءه؛ وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الهدى يأخذهم إلى الله تعالى إلى أن يصلوا إليه.

وتعبير "مطيّة الهدى" ليس تعبيرا ذوقيا، بل هو تعبير عربي شائع، فتقول العرب: جعل الغواية مركباً؟ أي حيثما توجهَ ضلّ وغوى. ويقولون أيضاً: امتطى الجهل (الكشاف). ووفقاً لهذه التعابير العربية قال القرآن الكريم إن هدى الله يصبح مركباً للمتقين المتحلّين بالصفات المذكورة، أي أنهم يعملون كل عمل على ضوء هدى الله، وتكون أفعالهم منزّهة عن شوائب الجهل والضلال. ومعلوم أنه لا يكون على الهدى في كل حين إلا مَنْ يتلقى هدى الله بوحيه وإلهامه، أما مَنْ يعمل بعقله فقط فهو عرضة للخطأ في أي وقت.

وفي قوله تعالى ﴿عَلَى هُدًى﴾ إشارة أيضاً أن رحلتهم إلى الله تعالى تصبح سهلة عليهم، لأنّ مركب الهدى الذي يرسله الله لهم يسهّل عليهم رحلتهم إلى الله تعالى.

والتنوين في "هدى" للتعظيم، أي أن هذا الهدى هدى عظيم. أما قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فقد بيّنا عند شرح الكلمات أن المفلح مَنْ يفوز بمراذه، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني أنهم ينالون غايَتهم المنشودة، وغاية المؤمن ليست إلا قرب الله ووصاله، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إنما هو تكملة لمفهوم الحملة السابقة، حيث

أخبر الله تعالى أن هؤلاء المتقين يركبون مطيّة الهدى ويصلون إلى الله ويفوزون بمطلبهم في نهاية المطاف.

لقد اعترض البعض هنا قائلاً: نجد أن كثيراً من أهل الله المقربين يتعرضون في حياتهم للأذى، حتى يُقتل بعضهم، فكيف يقال إن الذين ينالون هدى الله تعالى يفوزون بمرادهم حتماً؟

والجواب أن المفلح هو الفائز بمرامه، وليس مَنْ يُحرز الرقيّ المادي أو ينال الراحة البدنية. لا شك أن أهل الله المقربين يحوزون عادةً النجاح المادي أيضاً، ولكنه أمرٌ ضمني وليس هدفهم، إنما هدفهم قربُ الله ونشرُ الحق الذي بعثهم الله به؛ ولم يفشل أحدٌ من أهل الله تعالى في تحقيق غايته هذه قط. لقد علّق اليهود المسيح عليه السلام على الصليب، فهل نجحوا في إفشاله في هدفه؟ كلا، بل قد فاز المسيح عليه السلام بمطلبه. وقد استشهد الإمام الحسين عليه السلام إزاء يزيد، ولكن هل نجد أحداً يذكر يزيد بالخير؟ كلا، بل قد تحقق الهدف الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام، ولم يقبل العالم شرحاً لنظام الإسلام إلا الذي انبرى سيدنا الحسين دفاعاً عنه. لن تجد اليوم مسلماً واحداً يدافع عن موقف يزيد البتة. فالمفلح إنما وعده الله تعالى بتحقيق غايته وليس أنه لن يُقتل بيد أعدائه. قد يموت عاجلاً ولكن لا يُكتب الفوز في النهاية إلا لموقفه. لو أن الإمام الحسين عليه السلام لم يقدم حياته في كربلاء لفعل المسلمون لم يدركوا أهمية النظام الإسلامي كما أدركوه باستشهاده. إن شهادته قد أشعلت في قلوبهم حماساً لإحياء تعليم الإسلام، فظل علماء الإسلام يعملون على إضاءة هذا التعليم للأبد.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أن دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي أمر العبد بترديده قد استجيب بواسطة القرآن، فبالسير في سبل التقوى التي بيّنها القرآن يصل العبد إلى ربه فعلاً، ولا يبقى دعاؤه محروماً من القبول.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة : ٧)

شرح الكلمات:

كفروا: كفر الرجل يكفر كفراً: ضلّ آمن. كفر نعمة الله وبنعمة الله: حجبها وسترها. (الأقرب)

وورد في المفردات: "الكفر في اللغة ستر الشيء... وكفر النعمة وكفرائها سترها بترك أداء شكرها... ولما كان الكفر يقتضي جحود النعمة صار يُستعمل في الجحود... والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوجدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها."

وعليه فمن معاني ﴿كفروا﴾: جحدوا بالحق، وأنكروه، وستره، أو كفروا بوجدانية الله ونبوة الرسول ﷺ والشريعة. **أأنذرتهم:** أ: همزة استفهام، وتدخل على الفعل وتجعله مصدرًا ولا يفيد الاستفهام عندها.

وأنذره بالأمر إنذاراً: أعلمه وحذّره من عواقبه قبل حلوله. وأنذره: خوّفه في إبلاغه، يقال أنذرتُ القوم سيرَ العدو إليهم، فنذروا. (الأقرب)

يؤمنون: راجع شرح كلمات قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

التفسير: لقد بين الله تعالى في الآيات السابقة أحوال قوم سيعملون بالقرآن ويرثون فضل الله تعالى ويرتقون من أدنى درجات الهدى إلى أعلاها حتى تصبح علاقتهم بالهدى دائمة، وسينالون من الله نوراً يكملون به رحلتهم الروحانية بنجاح. أما في هذه الآية فقد وصف الله قوماً يسمعون هدى القرآن ثم يُعرضون عنه ولا يتدبرونه بجدية، ويصبرون على رفضه مع تيسر كل نوع من الأدلة والبراهين، ومثل هؤلاء لا يؤمنون، ذلك أن الإيمان إنما يُكتب لمن يسعى للانتفاع من البراهين والأدلة التي تقدّم له. وستجد هذا الموضوع مشروحاً في

الآية ٣٣ من سورة يونس، والآية ٣٠ من سورة الأعراف، والآية ٣٧ من سورة النحل، والآيات ٨-١١ من سورة يس.

وليس المراد من قول الله هذا أنه لن يؤمن أحد من الكافرين مستقبلاً، إذ يشهد التاريخ أن كثيراً منهم آمنوا بعد نزول هذه الآية، بل لقد نزلت بعد نزولها سورة النصر التي نبأ الله تعالى فيها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر: ٢-٣). فمادام الله تعالى قد نبأ بعد نزول هذه الآية من سورة البقرة بسنوات عديدة بدخول الناس في الإسلام أفواجا فكيف يصح القول بأن قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أن الكفار لن يدخلوا في الإسلام أبداً؟

لقد نشأت الشبهة المذكورة أعلاه لقلّة التدبر في الآية، والحقيقة أنها لا تعني، من قريب ولا من بعيد، أن لا أحد من الكافرين سيؤمن في المستقبل، إنما يقول الله فيها إنّ الكافرين الذين سواء عليهم إنذارك أو عدمه هم لا يؤمنون. وواضح أنه لا يكون كل كافر ممن يكون الإنذار وعدمه سواء عليهم، كما أن كل كافر لا يظل محروماً من الهداية على الدوام. الكافر يعني المنكر، والذين يُعرض عليهم الحق وهم لا يعرفونه ولا يعلمون الأدلة عليه، فهم مضطرون لإنكاره ما لم تتغير حالتهم هذه، ولكن لا يكون كل واحد منهم ممن ينكر الحق مع انكشافه، كما لا يكون كل واحد ذا كفاءة عقلية قادرة على معرفة الحق من أول يوم. فثبت أنه ليس جميع الكفار يكونون مصداقاً لهذه الآية، وإنما مصداقها من يكفر بالحق مع انكشافه، أو يسعى لكيلا ينكشف الحق عليه. وواضح أن مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يؤمن ما لم يغير حالته هذه.

الواقع أن هذه الآية لا تعني أن الكفار لن يهتدوا، بل تعني أن هذا القرآن سيهدي الكافرين إلا الذين يصرون على الإنكار رغم انكشاف الحق عليهم، أو الذين يسعون لیسدوا عليهم الطرق التي تكشف الحق وتبينه.

لقد انتابت هذه الشبهة البعض لظنهم أن قوله تعالى ﴿سَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلق بالماضي، وإلا فسيصبح مفهومها كالاتي:

"سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ" أكان إنذارك لهم في الماضي أم لم يكن. وأدنى تدبر يكشف أن هذه العبارة لا معنى لها؛ إذ لا حاجة للاستفهام في هذه الحالة، وإنما كان يجب أن يقال: لقد صار إنذارك لهم في الماضي وعدمه سواءً عليهم. فالاستفهام هنا يدل أن الحديث هنا ليس عن الماضي، وإنما عن حالة بعض الكفار الموجودين.

ثم إنني قد بينتُ سلفاً أن هذا المفهوم يتنافى مع الآيات القرآنية الأخرى.

إن الذين فسروا الآية بهذا المفهوم الخاطئ لم يدروا أن الهمزة في مثل هذا السياق لا تفيد الاستفهام، وإنما تفيد معنى مشابهاً للمصدر، إذ يعني قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أن إنذارك أو عدمه قد أصبحا سيّين، وهي جملة اعتراضية تفيد التأكيد أو استدراك الخطأ، وهي مشابهة للحال أو الصفة، والمعنى: أن الكافرين الذين هذا حالهم أو صفتهم فإنذارك لهم وعدمه سيّان، لأنهم لن يؤمنوا، أي أن الكافرين الذين لا يستمعون إلى الأدلة لن يهتدوا أبداً. من أجل ذلك نجد سبويه - الذي يعد أعظم النحويين - يقول: هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام (الكشاف)، أي أن الهمزة هنا ليست استفهامية، بل يجب إهمال مفهوم الاستفهام. وورد في القاموس الشهير "أقرب الموارد":

"وتخرج الهمزة عن حقيقة الاستفهام فتدّر لثمانية معانٍ:

١: الأول: التسوية، نحو: ما أبالي، أَقُمْتَ أم قعدت. وضابطها أنها تدخل على جملةٍ يصحّ استبدالها بالمصدر. وهي تقع بعد "سواء"، و"ما أبالي"، و"ما أدري"، و"ليت شعري"، وما شاكلهنّ." (الأقرب)

وقد وردت الهمزة في هذه الآية أيضاً بعد سواء، فهي تفيد هنا المصدرية لا الاستفهام، والتقدير: سَوَاءٌ إنذارك لهم وعدمُ إنذارك لهم.

وعلى ضوء هذا المعنى الذي ذكرته سيكون قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرَ (إِنَّ)، أي أن مثل هؤلاء الكافرين لا يؤمنون.

بيد أن بعض المفسرين قالوا أن ﴿سواء عليهم﴾ هو خبر (إِنَّ) الأول، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرها الثاني. ومع أن هذا صحيح نحويّاً، إلا أنه لا يصحّ معنًى في

رأيي، لأن المفهوم في هذه الحالة أن إنذارك وعدمه سواء للكافرين ولن يؤمنوا، وهذا المعنى كما أسلفت منافٍ لمضمون سورة النصر التي قد وعد الله فيها بإيمان الكافرين بكثرة.

باختصار، يمكن تفسير قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالمعاني الممكنة التالية:

١: إن الكافرين، حال كونهم أنه سواء عليهم إنذارك لهم وعدم إنذارك، لن يؤمنوا، أي أنهم لن يهتدوا ما لم يتخلّوا عن العناد.

٢: إن الكافرين الذين سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إنذارك لهم وعدمه لن يؤمنوا. أي أن الذين ليسوا محلّ الإنذار، أي لا ينفعهم تخويفهم من الله تعالى، لن يؤمنوا. بمعنى أن الكافرين نوعان: الأول هم الذين ينتمون إلى دين من الأديان، ويؤمنون بالله تعالى ويوم الحشر والنشر، فإذا عُرض عليهم الحقّ ودُعوا إلى خشية الله، شعروا بشيء من تقوى الله وتدبروا في الأمر، فإذا انكشف عليهم الحقّ آمنوا به. أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالله ولا بالحشر ولا بالنشر فلا فائدة من تخويفهم من الله تعالى، لأنهم يستهزئون بالله سبحانه وتعالى، إنما ينبغي أولاً أن تقدّم لهم الأدلة على وجود الله وضرورة الإيمان به وبالحشر والنشر، عندها سيميلون إلى تصديق ما جاء به النبي، لأن الخشية إنما تتولد بعد الإيمان، وعندها يبدو جلياً أن تذكير المرء بخشية الله يؤدي به إلى التصديق بالنبي.

٣: يمكن تفسير هذه الآية أن الكافرين الذين صار إنذارك وعدمه سواء عليهم، أي أنهم لا يريدون أن يستمعوا لك سواء وعظمتهم أم لم تعظهم، فهم لا يؤمنون ولن يؤمنوا.

يعترض البعض هنا قائلاً: لقد تبين من ذلك على الأقل أن طائفة من الناس ستظلّ محرومةً من الإيمان. والحق أن هذا الاعتراض منشؤه سوء فهم، لأن بيان نتيجة حالة لا يعني أن تلك الحالة لن تتغيّر أبداً. لا شك أن الذي يستوي عنده الإنذار وعدمه لا يمكن أن يؤمن، ولكن ليس ضرورياً أن يبقى على حالته هذه على الدوام. إن كبار المعاندين والمكابرين أيضاً يتركون العناد في نهاية المطاف

أحياناً، فيهدون. فقد ورد عن سيدنا عمر رضي الله عنه ثاني خلفاء الرسول ﷺ أنه لم يكن يدع الآخرين يستمعون للقرآن، ناهيك أن يستمع له بنفسه، ولكن ذات يوم وقع في أذنه بالصدفة صوت زوج أخته وهو يقرأ القرآن، فأراد ضربه، فحالت بينهما أخته فشجّها، وكان من الشرفاء، فندم على رؤيتها في هذه الحالة، وقال لهما: أرنا ما تقرأنه. فقرأ عليه شيئاً من القرآن الكريم، فلم يلبث أن آمنَ (سيرة ابن هشام). فلا شك أن هذه الحالة تحول دون إيمان المرء، ولكن زوالها ممكن، فإذا زالت انفتح للمرء طريق الإيمان.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٨)

شرح الكلمات:

خَتَمَ: خَتَمَ خَتْمًا وخَتَمًا: طَبَعَهُ ووضَعَ عليه الخاتم. وختم الصكَّ وغيره: وضع عليه نقشَ خاتمه حتى لا يجري عليه التزوير. (الأقرب)

ورد في كليات أبي البقاء: "ختم الله على قلبه: جعله حيث لا يفهم شيئاً ولا يخرج عنه شيء".

وورد في المفردات: "الختم والطبع يقال على وجهين: مصدرٌ ختمتُ وطبعتُ، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع؛ والأثرُ الحاصل عن النقش، ويُتَجَوَّزُ بذلك تارةً في الاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب... وقوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾... إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تنهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور ولا يكون منه تَلَفُّتٌ بوجهٍ إلى الحق، يورثه ذلك هيئةً تُمرِّنه على استحسان المعاصي، وكأنما يُخْتَمُ بذلك على قلبه"، أي فلا يتأثر قلبه من الحق ولا يرجع إليه.

وورد في تاج العروس: "الطَّبْعُ والْحَتْمُ واحدٌ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من ألا يدخله شيء."

قلوبهم: القلوب جمعُ القلب، وهو الفؤاد؛ وقد يُطلق على العقل. (الأقرب)
وورد في المفردات: "ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك."

وورد في لسان العرب: وجائز في العربية أن تقول: ما لك قلب، وما قلبك معك؛ تقول: ما عقلك معك. وأين ذهب قلبك؟ أي أين ذهب عقلك؟... له قلب، أي تفهّم وتدبّر.

فالمراد من قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم أنه تعالى جعلها بحيث تفهم شيئاً ولا تتدبر أمراً أو تفقه شيئاً.

سمّعهم: سمع الصوتَ يسمع سمعاً: أدركه بحاسة الأذن. والسمعُ: حسُّ الأذن؛ الأذن؛ ما وَلَجَ فيها من شيء تسمعه؛ الذِّكْرُ المسموع، ويكون للواحد والجمع.... لأنه في الأصل مصدر فيحتمل القلة والكثرة بلفظ واحد، وجمعه أسمع. (الأقرب)

وورد في المفردات: السمع قوة في الأذن به يدرك الأصوات، وفعله يقال له السمعُ أيضاً.... ويعبر تارةً بالسمع عن الأذن... وتارةً عن فعله كالسمع، نحو ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٣).... وتارةً عن الفهم، وتقول: لم تسمع ما قلت، وتعني: لم تفهم؛ وتارةً عن الطاعة.

أبصارهم: الأبصار جمعُ البصر، وهو حاسة الرؤية؛ العين؛ العلم. (الأقرب)
غشاوة: الغشاوة الغطاء. (الأقرب).

الغشاوة ما يغشى به الشيء. (تاج العروس)

عذاب: العذاب كلُّ ما شقَّ على الإنسان ومنعه عن مراده. وفي الكليات "كلُّ عذاب في القرآن فهو تعذيب إلا ﴿وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ﴾، فإن المراد الضرب. (الأقرب)

وورد في المفردات: العذاب هو الإيذاء الشديد، واختُلف في أصله، فقال بعضهم: هو من قولهم: عَذَبَ الرجلُ إذا تَرَكَ المأكَلَ والنوم. فالتعذيب في الأصل هو حملُ الإنسان أن يَعَذِبَ، أي يجوع ويسهر. وقيل أصله من العَذَبِ (أي الماء الطيب البارد) فَعَذَّبْتُهُ: أي أزلتُ عَذْبَ حَيَاتِهِ.

فالعذاب هو ١: الأذى، ٢: ما يحرم الإنسان من حلاوة الحياة، ٣: ما يحرم الإنسان من مراده.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا مصير الكافرين المذكورة صفاتهم في الآيات، وليس مصير كل كافر.

إن من القوانين الطبيعية أن العضو الذي لا يُستعمل يتعطل، حيث نجد بعض النساء الهندوس يرفعون أيديهم عمراً طويلاً حتى تيبس. كذلك إذا لم يستخدم المرء عينه فقد بصره، وإذا لم يستعمل أذنه ذهب سمعه، وإذا لم يتكلم زمناً طويلاً فقد القدرة على الكلام. هذا هو حال الحواس الباطنة، فإذا لم يستعملها المرء تعطلت بعد فترة، ولذلك قال الله تعالى هنا إن هؤلاء الكافرين لم يبصروا بقلوبهم ففقدوا البصيرة الباطنية وماتت قلوبهم، ولم يسمعوا لقولنا مع وجود آذانهم، ولم يبصروا آياتنا مع وجود عيونهم، فتعطلت حواسهم هذه عن معرفة الدين. ولو استخدموا عيونهم واستمعوا للحق وفهموه لما وقعوا في هذا العذاب. ومن أجل ذلك نجد أن أهل النار يقولون بعد دخولهم في العذاب ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١١).

باختصار، لقد نبه الله تعالى هنا إلى ثلاثة أمور لطيفة مبيناً أن التدبر سيكشف لكم أن الكفار المعاندين هم أولئك الذين يعطلون قلوبهم وآذانهم وعيونهم، مع أنها هي الطرق الثلاث الكبرى للهداية، وهي السبل الثلاث للتدبر في أي أمر. فأولا القلب: فهو الوسيلة الأولى للهدى، فإن المعتاد على التفكير يتوصل إلى عشرات الحقائق. وثانيا الأذن، فإنه إذا لم يكن أحدٌ ذا عقل وفهم كبير حتى يصل بنفسه إلى الحق، فيمكنه الوصول إليه بسماعه عنه من الغير. وثالثا العيون: فإذا لم يهتد أحد بسماعه بالأذن، فيمكن أن يرى بعينه نتيجة ما يقال له، فإذا

كانت النتيجة جيدة فعليه أن يدرك أن المشاهدة تؤيد ما يقال له، وإن لم يعجبه ما سمعه. ولكن الشقي الذي لا يستعين بهذه الوسائل الثلاث فلا يمكن أن يؤمن، ويظل في الشقاء دوماً.

إذن، فالذي لا يستطيع أن يتوصل بنفسه إلى النتيجة الصحيحة بالتدبر في الكون في إمكانه أن يهتدي بسماع ما يقول الأنبياء، وإذا لم يستطع قلبه التوصل إلى القرار فيمكنه أن يرى مشاهد قدرة الله وتحلياته ليعرف من يخالفه التأييد الرباني. أما إذا لم يفكر بنفسه، ولم يسمع المعارف من الآخرين، ولم يرَ آيات الله تعالى، فليس مصيره إلا الشقاء.

لقد نبه الله هؤلاء القوم إلى هذه الأمور الثلاثة وبيّن أنه قد أعطاهم قلوباً قادرة على التمييز بين الحق والباطل، ولو أنهم استعانوا بقوتهم الفكرية لتفجرت من قلوبهم عين حقائق الإسلام، ولأمنوا بدعوته بمجرّد سماعها. وإذا فشلوا في الاستعانة بقلوبهم وأفهامهم فكان عليهم أن يستمعوا للأدلة التي يقدمها الإسلام ليهتدوا. وإذا لم يستطيعوا أن يعرفوا صدق الإسلام بسماع هذه البراهين فكان عليهم أن يروا فعل الله تعالى ويدركوا أنه تعالى يؤيد محمداً ﷺ، ولكنهم لم يفعلوا هذا أيضاً. فما داموا قد أغلقوا كل الأبواب بأنفسهم فكيف ينالون الهدى؟ لقد تعطلت وضاعت قواهم بسبب عدم استخدامها لهذه الوسائل الثلاث.

وليس المراد من هذه الآية أن الإسلام ختم على قلوب الكفار وآذاهم وغشى عيونهم قهراً وجبراً كما يزعم بعض أعداء الإسلام، لأن ذلك يُعدّ ظلماً بلا شك، والله تعالى ينفي عن نفسه ظلم العباد، إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤١)، أي أن الله تعالى لا يظلم عباده مقدار ذرة. وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٥).

وثانيا: التسليم بهذا المعنى يعني أن الله تعالى يحب لبعض عباده الكفر، مع أن القرآن الكريم قد أعلن عن الله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٨)، وقال الله تعالى ﴿وَكُرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٨).

وثالثا: التسليم بهذا المعنى يعني أن الله تعالى يُكره بعض عباده على الكفر، ولكن القرآن الكريم يفند هذا المفهوم أيضا إذ قال الله تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٣٠)، بل إن القرآن الكريم قد بيّن، وهو ينفي عن الله الإكراه في عشرات الآيات، أن الله تعالى لو أراد إكراه العباد لأكرههم على الإيمان لا على الكفر، حيث قال الله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٥٠). إن القرآن الكريم يعلن صراحة أن اختيار الإيمان أو الكفر هو من فعل العباد، ولذلك نجد بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين، كما قال الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وقال أيضا ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ (الروم: ٤٥)، أي سيقع عليه كفره.

الواقع الثابت من القرآن الكريم أن الختم والغشاة هنا نتيجة لأعمال الإنسان نفسه، كما قال الله تعالى ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٦)، وقال تعالى أيضا: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، أي أن هؤلاء آمنوا في البداية رياءً للمسلمين، ثم كفروا بالإسلام بسبب اختلاطهم بالمنكرين حتى طُبِعَ على قلوبهم. ثم قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (يونس: ٧٥)، وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٦)، وقال تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٥)، أي أن الواقع أن أعمالهم السيئة هي التي قد غطّت قلوبهم.

ولو قيل لماذا نسب الله الختم هنا إلى نفسه، فالجواب: لقد نسب الله تعالى الختم والطبع إلى نفسه لأنه هو الذي يرتّب النتائج على أعمال البشر، وإلا فإنه تعالى قد نسب هذا الختم والطبع إلى الكفار أنفسهم في آية أخرى إذ قال ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٥). لقد تبين من هذه الآية أن هناك سببين اثنين للكفر؛ عدم التدبر، أو فقدان القدرة على الفهم نتيجة

العناد والتعصب طويلاً، مما يمكن أن يعبر عنه استعاراً بأن نوافذ قلوبهم قد أقفلت بأقفال تولدت في قلوبهم. فهذا هو المراد من ختم الله تعالى، أي أن هؤلاء القوم كانوا قد أغلقوا في وجوههم أبواب الهدى أو عطّلوا قلوبهم وأذاهم وعيوهم، فأتى الله بالنتيجة الملائمة لفعلهم.

وهناك في القرآن الكريم مثال يوضح هذه الفكرة، حيث قال الله تعالى في معرض بيان خروج آدم من الجنة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٩)، وهذا يعني أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة، بينما قال تعالى في آية أخرى ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٨). والحكمة في نسبة إخراجهم من الجنة تارة إلى الله وتارة إلى الشيطان هي ما قلناه آنفاً؛ فقد نسب إخراجهم من الجنة إلى الشيطان لأن آدم استحقّ الخروج من الجنة بسبب فعل الشيطان، أما نسبة إخراجهم إلى الله تعالى فذلك لأنه تعالى هو الذي أتى بالنتيجة النهائية اللازمة لفعله. وهذا هو الأمر بعينه فيما يتعلق بالختم، فالختم والطبع إنما سببه العناد والجحود، أي إنكار الحقّ عمداً، ولكن الله هو الذي يرتب النتيجة النهائية لهذه الجهود، كما يرتب النتائج على الأفعال الأخرى.

وهذا المعنى الذي بينته لهذه الآية تؤيده أقوال الرسول ﷺ، فقد قال: إنّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً كانت نُكْتَةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صَقَلَتْ قلبه، فإن زاد زادت حتى تُعْلِقَ قلبه، فذلك "الرَّأْنُ" الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (ابن جرير).

وقد قال ابن جرير في شرح هذا الحديث: "فأخبر ﷺ أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم والطبع من قبل الله عز وجلّ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلُكٌ، ولا للكفر منها مَخْلَصٌ، فذلك هو الطَّبْع" (ابن جرير).

وقد ورد حديث بهذا المعنى في صحيح مسلم عن حذيفة أيضاً، (مسلم، كتاب الإيمان).

وليكن معلوما أن الختم والغشاوة ليسا ماديين، فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم عن الكفار ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٦)، مما يعني أن الختم والغشاوة وغيرها من الكلمات قد وردت هنا على سبيل الاستعارة وليس معناها إلا ما ذكره الله تعالى في الآية التالية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وهناك آية أخرى تشرح هذا المعنى وهي قول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٧).

والشبهة التي رددنا عليها آنفاً إنما انتابت هؤلاء لعدم انتباههم إلى أن هذه الآية تنتم للآية السابقة، حيث ذكر الله هنا أولئك الكفار الذين يأبون سماع الحق ورؤية أفعال الله تعالى، فالختم على قلوبهم إنما هو نتيجة تصرفاتهم، فكيف يمكن الاعتراض على الله تعالى نتيجة هذا الختم؟

أما قول الله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يراد به عقوبة الجحيم بعد الموت فحسب، وإنما هو يشير من باب أولى إلى عذاب البعد عن الله تعالى، فقد ذكرنا عند شرح كلمة العذاب أن من معانيه المنع عن المراد، وعليه فالعذاب هنا يعني أن المؤمنين سيصلون إلى الله تعالى راكبين المطية المرسلة إليهم من عنده تعالى، أما هؤلاء فيُمنعون من رؤية الله تعالى، وأيُّ عذاب أكبر من هذا العذاب؟

كما أنه إشارة إلى أن الذين لا يستخدمون قلوبهم وآذانهم وعيونهم يلقون الذلة والعذاب في كل عمل من أعمال الدنيا.

ومن لطائف هذه الآية أن الله تعالى قد ذكر هنا القلب أولاً ثم الأذن ثم العين، ونجد أن القرآن الكريم كلما ذكر الآذان والعيون قدّم الآذان، وقد سبق أن ذكرت إحدى الحكيم من وراء ذلك قبل قليل، والحكمة الثانية أن أول ما

يعمل في الإنسان بعد ولادته هو آذانه ثم عيونه، حتى إننا نجد أن عيون أولاد بعض الحيوانات لا تفتح إلا بعد أيام كثيرة، وآذانها هي التي تعمل أولاً.

وقد يتساءل هنا أحد أن القلوب أو العيون قد ذُكرت هنا بصيغة الجمع بينما ذُكرت الأذن (أي السمع) مفرداً، فما الحكمة في ذلك؟ والجواب أن فعل القلوب والعيون يختلف من شخص إلى آخر، ويكون الاختلاف بين الناس فيما يتعلق بقوى القلب وكفاءاته كما لو أن أحدهم يكون عند الثريا بينما يكون الآخر تحت الثرى. كذلك يختلف كل إنسان عن الآخر فيما يتعلق برؤية الآيات الإلهية والمعجزات، وكأنهم ينظرون إليها بعيون مختلفة. لكن ما يُسمع، أي القرآن الكريم، فهو شيء واحد للجميع، فهو يُقرأ على الجميع بكلمات محددة معينة، فهؤلاء الناس وإن كانوا متفاوتي الدرجات فيما يتعلق بالتفكير ورؤية المعجزات، ولكنهم لم يكونوا على درجات متفاوتة فيما يتعلق بالسماع، إذ كانوا يسمعون كلاماً واحداً، لذا استخدم للسمع صيغة المفرد، وكأن للجميع أذن واحدة.

هناك تساؤل آخر عن هذه الآية وهو أن الله تعالى قد استعمل هنا لفظ الختم للقلوب والسمع، وهو تعبير أشد من غشاوة العيون التي يمكن أن تزول، بينما قال في آية أخرى: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (النحل: ١٠٩)، فلماذا هذا الفرق؟

والجواب أن الإنسان يفكر في قلبه أولاً، ثم يستمع للقول ويهتدي، وإذا لم يستطع ذلك فيرى المعجزات، ولكن المعجزات تظهر تدريجياً بعد نزول الوحي، ولذلك يُؤخَّر الطبع على العيون، إذ تقام الحجة على المرء من خلال العيون مؤخراً حيث تغطيها الغشاوة أولاً ثم يُختم عليها. فسورة البقرة تشير إلى الحالة الأولى التي لا يُطبع فيها على العيون، أما سورة النحل فتشير إلى الحالة المتأخرة حين يكفر الإنسان رغم رؤية المعجزات مدة طويلة.

ومن لطائف هذه الآية أن الله تعالى قد نسب الختم على القلوب والسمع إلى نفسه، لكن لم ينسب غشاوة الأعين إلى نفسه، وذلك أن الكفار كان يمكنهم

أن يقولوا: لم يعطنا الله تعالى فهماً لاستيعاب دقائق حكمه، كما كان يمكنهم أن يقولوا: لم تتح لنا فرصة السماع، مع أن الواقع أنهم لم يريدوا أن يستمعوا للقرآن بأنفسهم، ولكن ما هو جواهم عن الآيات والتأييدات الإلهية التي كانت تظهر عن يمينهم وشمالهم وأمامهم، فلماذا لم يروها؟ وهكذا قد أوضح الله تعالى أن نسبة الختم إليه تعالى إنما هو إشارة إلى إظهاره تعالى نتيجة فعل الكفار، لأن الختم على قلوبهم وأسماعهم ليس إلا نتيجة عدم تفكيرهم وعدم استماعهم هم، مثلما أن عدم رؤيتهم الآيات هو عملهم هم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة : ٩)

شرح الكلمات:

آمناً: سبق أن ذكرنا عند شرح كلمات قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أن للإيمان ثلاثة معان، وهي الاعتراف، والتصديق، والثبات على الشيء. ويقول الإمام الراغب في شرح الإيمان: "الإيمان يُستعمل تارةً اسماً للشيعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام.... ويوصف به كل من دخل في شريعته مُقِرّاً بالله وبنبوته.... وتارةً يُستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء؛ تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح."

فالؤمن الحقيقي عند الراغب من يتصف بالصفات الثلاث المذكورة، ولو فاتته صفة منها فلا يستحق أن يسمى مؤمناً.

لقد صرح الله في القرآن الكريم أن مجرد الإقرار باللسان أو مجرد اليقين بالقلب دون الإقرار باللسان لا يعني شيئاً، بل لا بد من اجتماعها، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٥)، أي أنهم يدعون الإيمان ولكن ادعاءهم

ليس صحيحا، إذ يقولون بألسنتهم أنهم قد أسلموا، ولكن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، ومثل هؤلاء لا يكونون مؤمنين حقا، فدعوى إيمانهم باطلة. وقال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٥)، أي أنهم أنكروا آيات الله بظواهرهم وبعملهم، ولكن قلوبهم كانت مستيقنة بصدقها.

باختصار، لا يعني الإيمان الإقرار باللسان فقط أو اليقين بصدق الشيء في القلب فقط، بل لا بد للإيمان من تصديق القلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك.

التفسير: كان الحديث بدءاً من قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ عن الذين هم ثابتون على الإيمان ويتنفعون حقاً بما فيه من فوائد وبركات. ثم بدأ الحديث من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ﴾ حتى ما قبل هذه الآية عن الطائفة الثابتة على الكفر والعصيان وعما يستحقونه من نتائج ذلك، وقد تضمن ذكرهم أيضاً تلك الطائفة الكافرة الذين هم كفار عقيدة ولكن قلوبهم خالية من التعصب، حيث إنهم مستعدون لقبول الحق عند انكشافه ويسعون لمعرفة؛ ذلك أن الله تعالى لما قال إن الكافرين الذين قد صار إنذارك لهم وعدمه سواء عليهم وهم متعصبون لدرجة أنهم قد أبوا إلا إنكار الحق، فُيستنتج من ذلك ضمناً أن الكافرين الذين يستمعون للحق وهم مستعدون لقبوله عند استيعابه، فإنهم سيؤمنون عند انكشاف الحق عليهم بالتدريج. أما الآية قيد التفسير فقد تحدث الله فيها عن طائفة أخرى: طائفة المنافقين. والمنافقون نوعان نظراً إلى جماعة المؤمنين: النوع الأول هم الذين قد انضموا إلى جماعة المؤمنين في الظاهر فقط، وقلوبهم منكرة. لقد انضموا إلى صفوف المؤمنين من أجل المصالح المادية أو العصبية القومية. والنوع الثاني من المنافقين هم قوم قد صدّقوا بالحق نتيجة الأدلة العقلية، ولكنهم ليسوا أقوياء الإيمان بحيث يضحّون من أجله تضحية كاملة. فهؤلاء مقصرون لضعفهم في العمل وليس لضعفهم في العقيدة، ويوافقون الكافرين ويؤيدون لهم المودة عند

شدة المعارضة، ظانين أن الله تعالى ما دام سيجعل الحقّ غالباً فلا حرج من المداينة تفادياً لبعض الأضرار. إنهم لا يدركون أن الجميع لو سلكوا هذا الطريق فمن يقوم لتأييد الحق. لا يفكرون أن الحقّ سيعليه الله لا محالة، ولكن لماذا لا يفكرون في مصيرهم هم؟ لو انتصر الحقّ وعُدّوا من منكري الحق فماذا ينفعهم ذلك؟

والآية قيد التفسير تتحدث عن النوع الأول من هذه الطائفة الثالثة الذين كانوا لا يؤمنون بالقرآن الكريم بقلوبهم ولكنهم انضموا للمسلمين في الظاهر، حيث يخبر الله تعالى أن هناك قوماً قد انضموا إلى المسلمين في الظاهر، ولكن قلوبهم منكرة لحقائق الإسلام، حيث يقولون بأفواههم نؤمن بالله وباليوم الآخر، ولكن لا يؤمنون في قلوبهم.

لقد ذكر الله تعالى هنا الإيمان بالله وباليوم الآخر دون ذكر الإيمان بوحى الله وبأنبيائه أو غيرهما، وسبب ذلك أن أول حلقة من سلسلة الإيمانيات هي الإيمان بالله، وآخر حلقة منها هي الإيمان باليوم الآخر، فذكر الله تعالى الحلقتين الأولى والأخيرة وترك الحلقات التي بينها توحيّاً للإيجاز، لأن ذكر البداية والنهاية يتضمن تلقائياً ذكر ما بينهما. فمع أن الله تعالى قد نقل هنا قول الكفار على سبيل الإيجاز بأنهم يقولون نؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنهم يعنون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وبكلّ العقائد الأخرى. وهذا الأسلوب متبع في لغتنا أيضاً، حيث يقولون: قد فهمتُ كل شيء من الألف إلى الياء.

وقد اتبع القرآن الكريم هذا الأسلوب كثيراً، ذلك لأنه كتاب جامع للعلوم والمعارف كلها، فكان على القرآن الكريم أن يبين القضايا الروحانية والمادية الحيوية كلها، وأن يتضمن الإلهيات، وعلم الأفلاك، والضرورات المادية، ومبادئ الاقتصاد، وأساسيات الاجتماع، والأحكام المدنية والأخلاقية، وأحكام العبادات وما يتعلق بالعباد، وواجبات الحاكم والرعية والأغنياء والفقراء وأصحاب المصانع والعمال، ويذكر حقوق الزوجين وأفراد الأسرة وواجباتهم، وأحكام الحرب والسلام، ومبادئ القضاء، وأحكام الأكل والشرب، وعشرات

ومئات غيرها من الأحكام والتوجيهات، مع بيان حِكْمِها وعللها. كما كان عليه بيان آيات الله المتجددة، ومهمات الأنبياء السابقين ومعاملة الله معهم، والإخبار عن أنباء المستقبل ليزداد المؤمنون في كل زمن إيماناً، ويجد الكافرون فيه عبرة وهدى. فكيف لكتاب صغير الحجم أن يتناول هذه الأمور كلها لولا هذا الإيجاز اللطيف المعجز. وهل يحتوي العهد الجديد إلا على موضوع أو موضوعين، ومع ذلك فهو أكبر حجماً من القرآن الكريم؟! والحال نفسه بالنسبة إلى العهد القديم، وكتاب الهندوس الفيدا. وسواء أَعْتَرَفَ أحد بصدق مباحث القرآن الكريم حول مختلف القضايا والمسائل أم لا، إلا أنه لن يجد مناصاً من الاعتراف أن قائمة معارف القرآن ومطالبه أكبرُ كثيراً مما ورد في الكتب الأخرى، ومع ذلك فإن إيجاز القرآن لم يجعل بيانه غامضاً كالألغاز. إن مضامين ديوان المتنبى لا تساوي ما ورد في ركوع واحد من القرآن الكريم، ومع ذلك فإن هذا الديوان ضخم، ثم هو ليس إلا ألغازاً. أما القرآن الكريم فإنه قد تناول مئات القضايا والمسائل بإيجاز، ومع ذلك لم يصبح بيانه لغزاً، بل كل إنسان يفهم مضامينه قدر كفاءته، ويجده كتاباً يبين المسائل بلغة سهلة مفهومة، ولا يجد فيها عبارةً تبدو له وكأنها لغز.

والبديهي أن هذا الإيجاز لا يتأتى إلا باتباع مثل هذه الأساليب اللطيفة، كأن يُكتفى عند ذكر تقسيم طبيعي لشيءٍ ببيان بدايته ونهايته، وعند استخلاص العبرة من قصة تُحذف الزوائد ويُذكر منه ما يخص الموضوع، وأن تُستعمل كلمات ذات معاني واسعة، وجمل ذات تراكيب محكمة، بحيث يؤدي كل معنى لكل لفظ فيها بالاشتراك مع الكلمات الأخرى إلى موضوع جديد مستقل، وأن تُرتَّب الآيات ترتيباً بحيث لو أُخذت آية منها مفصولةً عن السياق لدلت على معنى غير ما تدل عليه إذا ما قرئت مع الآيات الأخرى، ثم تدل مجموعة من الآيات على مفهوم، أما إذا قرئت مع مجموعات من الآيات الأخرى دلت على مفهوم آخر. وقد اتبع القرآن الكريم كل هذه الأساليب لبيان مواضع واسعة للغاية بكلمات قليلة جداً.

لقد اضطررت لبيان هذا التفصيل لأن بعض الجهلة يستنتجون من مثل هذه الآيات بأنه يكفي المرء الإيمان بالله واليوم الآخر، إذ لم يُذكر هنا إلا هذان الأمران. إن هؤلاء ينسون هذه المبادئ الهامة القيمة التي أتبعها القرآن الكريم من أجل الإيجاز والشمول، وقد كثر استعمالها في القرآن كما هو واضح على الذين يتدبرون في معانيه.

لعل أحدا يقول هنا: إن استدلالك هذا بدعة واختلاق من عندك، فكيف نعلم أن القرآن الكريم قد ذكر هنا الحلقة الأولى والأخيرة للإشارة إلى كل حلقات السلسلة من الإيمانيات؟ ولماذا لا نفهم أن القرآن الكريم إنما أراد بيان هذين الأمرين لأتهما أساس الإيمان؟

والجواب: إن من معجزات القرآن الكريم أنه يقوم بنفسه بشرح قواعده وأساليبه هذه في آيات أخرى، فالإيجاز الموجود في هذه الآية نجد شرحه في آية أخرى حيث قال الله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣)، أي أن هذا الكتاب عظيم إذ قد أنزله الله تعالى، وقد جمع فيه كل التعاليم الضرورية التي نزلت في الصحف السابقة، وقد أنبأت تلك الكتب السماوية بنزوله، فحقق بنزوله أنبأها، وقد نزل لهداية وإنذار أهل أم القرى ومن حولها من العالم أجمع، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بهذا الكتاب أيضا، ويدومون على صلواتهم بكل حرص.

فانظر كيف بين الله تعالى هنا بكل وضوح أن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن. ومن آمن بالقرآن فلا بد أن يؤمن بمحمد ﷺ، لأن الدنيا لم تجد القرآن إلا به ﷺ. كما ثبت من هذه الآية أن الإيمان بالملائكة أيضا مندرج تحت الإيمان باليوم الآخر، فمن آمن بالقرآن لا يسعه إنكار الملائكة، لأن القرآن الكريم يذكرهم مرارا. بل قد ذكرت هذه الآية أمرا آخر وهو أن الإيمان بالآخرة يتضمن ضرورة القيام بالأعمال الصالحة، لأن من آمن باليوم الآخر فلا يؤمن بالقرآن الكريم فقط بل يعمل به أيضا.

باختصار، إن هذه الآية تشهد على صحة استدلالى بأن الإيمان لا يعني الإيمان بالله واليوم الآخر فقط وأن لا حاجة إلى سواهما، كلا، بل إن هذين الأمرين هما الحلقتان الأولى والأخيرة من سلسلة الإيمان، وقد ذكرهما الله تعالى خاصة للإشارة إلى السلسلة كلها.

ويمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٩) أن يكون هذا مقولة للمنافقين، فيحتمل أن يكون هؤلاء يرددون هذه الكلمات عمداً لخداع المؤمنين. كانوا يريدون بها إيهام المؤمنين أنهم يؤمنون بكل عقائد الإسلام، ولكن في قرارة قلوبهم كانوا يقولون: نؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن لا نؤمن بالقرآن ولا من جاء به. لا شك أن كثيرا من كفار العرب كانوا يكفرون بيوم القيامة، ولكن لم يكونوا جميعاً يكفرون به، بل كان بينهم من يؤمن بالحياة بعد الموت، حيث نجد إشارات إلى ذلك في رواياتهم وأشعارهم، وكان القاطنون منهم في المدينة وحوها يحملون أفكارا صحيحة نسبياً، وذلك لتأثرهم بعقائد أهل الكتاب من يهود ونصارى بحكم اختلاطهم بهم. والمنافقون المذكورون هنا كانوا من أهل المدينة نفسها.

خلاصة الكلام أن هذه الآية تشير إلى الخدعة التي كان هؤلاء المنافقون يحاولون بها خداع المؤمنين، والآيات التالية تذكر خداعهم واستهزاءهم أيضاً. وقد بدأ الله تعالى هذه الآية بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، ومن الحكم وراء ذلك استشارة ما في المنافقين من مشاعر إنسانية، ذلك أن القرآن الكريم كلما ذكر كلمة الناس إنما أشار بها إلى ما في البشر من قدرات وكفاءات جيدة، وإلا فمن أسلوب القرآن الكريم عند الحديث عن منكري الحق أن يستعمل كلمة الكافرين أو الضمير أو اسم البلاد أو الشعوب. فقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ طعنٌ لطيفٌ بالمنافقين تنبيهاً لهم إلى الإصلاح، حيث لفت أنظارهم إلى أن الفرق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يسلك طريقاً واحداً محدداً لا يحدد عنه، أما الإنسان فيتصرف بحسب ما يمليه عليه العقل، فعليكم أيها المنافقون إكرام إنسانيتكم، وأقل ما يمكن أن تفعلوه هو أن تتبعوا ما ترونه حقاً، فإذا كان

قومكم قد دخلوا في الإسلام بينما ترون الإسلام سيئاً، فكان الأولى بكم ألا تقلدوهم تقليد الأنعام، بل تتمسكوا بعقيدتكم المخالفة للإسلام.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه تنبيهٌ إلى أنه لا يوجد فيهم ذرة من الإيمان؛ ذلك لأن حرف الباء بعد ما النافية يفيد التأكيد، أما لو أُريدَ مجرد بيان عدم إيمانهم لاستعمل كلمات أخرى مثل: "وهم منافقون".

وهذا النوع من المنافقين، أي الكافرون في قلوبهم والمؤمنون بألسنتهم، قد ذكرهم القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٦٢). والمراد من قوله تعالى ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أنهم عندما جاءوكم كانوا كافرين، وعندما خرجوا من عندكم كانوا كافرين أيضاً. ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: ٤٢). ومنها قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٨).

إن الآيات المذكورة أعلاه والآية قيد التفسير تفقد بقوة مزاعم قوم يزعمون أن الإسلام أمر بإدخال الناس فيه قسراً. والواقع أن بعض المسلمين أيضاً واقعون في هذا الخطأ، وقد عزا أعداء الإسلام خطأ هؤلاء المسلمين إلى الإسلام، وجعلوا الطعن في الإسلام شغلهم الشاغل. ولو أن هؤلاء المسلمين المنخدعين وكذلك أعداء الإسلام تدبروا في هذه الآية وحدها لعلموا أن الإسلام يعارض الجبر كليةً، لأن الجبر والإكراه يؤدي إلى النفاق. إن إدخالك المرء في الإسلام جبراً يمثّل قولك له: عليك أن تتظاهر بالإسلام وإن لم يقتنع به عقلك ولم يطمئن به قلبك. والدين الذي يميز هذا بل يجبره، لا بد أن يعتبر المنافقين جزءاً من جماعته ولن يطردوهم منها، لأنه يقبل في جماعته شخصاً لا يؤمن به حقاً، مع ما في النفاق من عيب وسوء. ولكن القرآن الكريم يلوم المنافقين بشدة، كما هو واضح في الآيات المذكورة آنفاً، ويعلن أن هؤلاء ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وواضح أن الدين الذي لا يقبل في صفوفه المنافقين ولا يُدخل فيه إلا من اطمأن به قلبه وصحّت عقيدته، فلا يمكن أن يُدخل فيه أحدًا بقوة السيف، بل لن يجيز ذلك. لقد قال الله تعالى صراحة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٦).

فالإسلام يشترط اليقين من أجل الإيمان، والدين الذي يشترط للإيمان اليقين القلبي لن يجيز الجبر والإكراه في الدين أبدًا.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٠)

شرح الكلمات:

يُخَادِعُونَ: خَدَعَ الشيءُ خَدْعًا: فسَدَ (التاج).
 خَدَعَهُ: خَتَلَهُ وأراد به المكروه من حيث لا يعلمه. وفي الكليات لأبي البقاء يقال: خَادَعَ إذا لم يبلغ مراده، وخَدَعَ: إذا بلغ مراده. وخَادَعَهُ: تركه. وخَادَعَ العين: شككها فيما ترى. وخَادَعَهُ: كاسَدَهُ (الأقرب).
 الخَدَاع: إنزال الغير عما هو بصدد به بأمرٍ يديه على خلاف ما يخفيه. (المفردات).

الخَدْع: إظهار خلاف ما تخفيه. وجاز "يُفَاعِلُ" لغير اثنين، لأن هذا المثال يقع كثيرا في اللغة للواحد، نحو: عاقبتُ اللصَّ (مع أن اللص لا يعاقب الحاكم)... والعرب تقول: خادعتُ فلانًا، إذا كنتُ ترومُ خَدْعَهُ (اللسان).
 وخَدَعَهُ: كَمَنَعَهُ. ومن الجاز: كان فلان الكريم ثم خدع، أي أَمْسَكَ... ومنع. وسوق خادعة: أي مختلفة متلونة... تقوم تارةً وتكسُدُ أخرى (التاج).
 وخَادَعَ الحمد: تركه (الأقرب).

إذن فمعنى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أنهم:

(١): يريدون خداع الله تعالى، ولكن الله لا ينخدع منهم.

(٢): يشككون غيرهم بإظهار خلاف ما في صدورهم.

(٣): يفسدون في دين الله تعالى.

(٤): يحاولون منع الله، أي يعرقلون انتشار دينه.

(٥): يعاملون الله معاملة المتلونين، فأحياناً يصلحون وأحياناً يفسدون.

يشعرون: شعر به: علم به؛ وشعر لكذا: فطن له؛ عقله؛ أحس به (الأقرب).

والشعر هو العلم بدقائق الأمور، وقيل هو الإدراك بالحواس... ولو قال في

كثير مما جاء فيه ﴿لا يشعرون﴾، ﴿لا يعقلون﴾ لم يكن يجوز، إذ كان كثير مما لا يكون محسوساً قد يكون معقولاً (التاج).

أي لا يجوز استخدام "يعقلون" مكان "يشعرون"، لأنه في كثير من الأحيان يكون الأمر معقولاً ولكن لا يكون محسوساً.

فالفرق بين الشعور والعلم أن الشعور يكون بالحس الباطني الذي يعمل بدون الأسباب الظاهرة، أما العلم فيحصل بالوسائل الظاهرة. وقد لا يؤثر العلم في القلب، أما الشعور فلا بد أن يؤثر فيه.

وعليه فالمراد بقول الله تعالى ﴿وما يشعرون﴾ أنهم لا يفهمون ولا يدركون.

التفسير: أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الإيمان النافع إنما هو ذلك الذي

يتأسس على النية الحسنة والإخلاص والصدق، والإيمان الذي ينقصه الإخلاص لا يجدي شيئاً لأنه خداع، والله تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يمكن أن ينخدع.

وقد كان لهذه الآية نصيبها من الاعتراضات، فقالوا:

أولاً- كيف يمكن لأحد أن يخدع الله تعالى؟ وثانياً- إذا كان المراد من

﴿يُخَادِعُونَ﴾ أنهم يحاولون أن يخدعوه تعالى، فالسؤال: كيف يحاول أحد أن

يخدع الله تعالى بعد الإيمان به؟ وثالثاً- ﴿يُخَادِعُونَ﴾ من باب المفاعلة التي تدل

على اشتراك الطرفين في العمل، وهذا يعني أن المنافقين يخدعون الله والله

يخدعهم أيضاً، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى؟ أليس فيه انتقاص من قدر الله عز وجل؟

ورداً على الاعتراض الأول نقول:

أ- خادَع هو غيرُ خَدَع، فخادَع يعني حاولَ خَدَع الآخر، سواء خُدِعَ أم لم يُخدَع، وقد سبق تفصيل ذلك عند شرح الكلمات، فلا يصحّ هذا الاعتراض لأن أحدا لا يقدر على خدع الله تعالى.

ب- حتى لو فُسِّر قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بمعنى يخدعون الله سبحانه وتعالى فلا يصح الاعتراض أيضاً، لأن مفهوم هذه الجملة أنهم يعاملون الله تعالى معاملةً تشبه الخداع، بمعنى أنهم لا يكونون صادقين مخلصين فيها. والتجربة تؤكد ذلك حيث نجد البعض غير مخلصين في إيمانهم. فما دامت التجربة تؤيد ذلك، فكيف يصحّ هذا الاعتراض؟ فسواء أكان المنافق مؤمناً في الظاهر ويعيش مختلطاً مع الكفار، أو يكون المرء كافراً في الظاهر ويعيش مختلطاً مع المسلمين، علينا أن نرى لماذا يتصرف هكذا. من الواضح أن غرضه أن يجني بعض المنافع بخداع القوم، أما الإيمان فيخصّ الله تعالى في الحقيقة، فلا يعني خداعه إلا أنه ليس صادقاً ومخلصاً كما ينبغي في علاقته مع الله تعالى. وحتى لو كان ينوي خداع الناس، إلا أن تحليل تصرّفه هذا يكشف أنه لا يريد إلا أن يخدع الله تعالى. وإذا فسد قلب المرء فصدور مثل هذه التصرفات المتناقضة عنه ليس بمستبعد. ولكن هذا لا يقدر في الله تعالى لأنه كما هو ثابت من معاني المخادعة فهذا لا يعني أن الله تعالى يخدع بهذه المعاملة؛ بل كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي أنهم يظنون بتصرفاتهم الخاطئة أنهم سينجون من الآلام، والحق أنهم يجلبون عليهم غضب الله وعذابه.

وقد ورد استخدام فعل خادع بهذا المعنى في كلام شعراء العرب كقول الشاعر: "وخادعتُ النيةَ عنك سرّاً"، والمراد أنه أزال أسباب الموت. وفي هذه الآية أيضاً قد ورد الخداع بمعنى التنصل من العمل بأحكام الله تعالى وواجباته، وقد سمي تصرف المنافقين هذا خداعاً على سبيل المجاز.

ثانياً: والاعتراض الثاني يقول: لو كان الخداع هنا بمعنى محاولة الخدعة، فهذا أيضاً لا يصح، لأن الإنسان لا يحاول خدع الله تعالى لعلمه أن الله عالم الغيب. والجواب: إن هذا الاعتراض لا يصح أيضاً لأن في هذه الدنيا طائفة من الناس، وكل الفلاسفة من هذه الطائفة، الذين لا يعتقدون بكون الله عليمًا، بل يظنون بأن علم الله تعالى يقتصر على الكليات ولا يحيط بالجزئيات. وأمثال هؤلاء كانوا موجودين وقت نزول القرآن أيضاً كما ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٣-٢٤). أي كنتم تظنون أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون، أي يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وظنكم هذا الذي قد رسخ في قلوبكم قد تسبب في هلاككم، أي أن ظنكم هذا منكم من إصلاح أعمالكم فأصبحتم من الخاسرين.

كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لَيْسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: ٦).

الظاهر أن أصحاب مثل هذه العقيدة لا يُستبعد منهم صدور مثل هذه الأعمال المفتقرة إلى الاخلاص لله تعالى، لأنهم لا يؤمنون بأنه تعالى يعلم الجزئيات أيضاً. والحق أن هذا الأمر ليس مشروطاً باعتقادهم أن الله لا يعلم الجزئيات، لأن ضعف إيمان الناس راجع عادة إلى افتقارهم إلى العلم الكامل بصفات الله تعالى، وإذا لم يتيسر للمرء العلم الكامل بصفات الله تعالى فصدور مثل هذه العقائد والأعمال منه ليس محالاً. يقول الله تعالى في القرآن الكريم إن المشركين حين يُعرضون عليه يوم القيامة يقول بعضهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٤). ومن الأمثال العربية: الغريق يتشبث بقشة، فضعفاء الإيمان الذين لا يستطيعون الصمود أمام المحن والمصاعب يحاولون أن يطمئنوا بشئ الأعدار، فيقولون مثلاً إن الله تعالى رحيم غفار، علينا أن ننقذ أنفسنا من عذاب البشر الآن، وعندما يحاسبنا الله تعالى فسوف نسأله المغفرة. مثل هذه

الأفكار الباطلة هي التي جعلت أحد الشعراء يقول (بالفارسية): "مستحق شفاعت
 گناه گاراند" أي لن تظهر مغفرة الله إلا عن طريقنا نحن الآثمين، فلا ضير إذا كنا
 آثمين لأننا نحن مظاهر مغفرة الله، أي لولاهم ما ظهرت مغفرة الله تعالى. ومثل
 هذه الأفكار تدل بوضوح على أن أصحابها يحاولون أن يخدعوا الله تعالى.
 الواقع أن الإخلاص مع الله تعالى إنما يكون نتيجة العلم الكامل بصفاته تعالى،
 والمحرومون من هذا العلم يلجؤون إلى مثل هذه الأعذار الواهية الكثيرة لكي
 يُطمئنوا أنفسهم، مع أن مثل هذا الاطمئنان يماثل حال النعامة التي تخفي رأسها
 في الرمل عند الخطر المحدق.

ثالثاً: والاعتراض الثالث هو: ﴿يُخَادِعُونَ﴾ هو من باب المفاعلة التي تدل على
 اشتراك الفريقين في نفس الفعل، مما يعني أن الله تعالى أيضاً يخدعهم، وهذا المعنى
 مستبعد عن الله تعالى.

والجواب:

أ- المفاعلة لا تستلزم المشاركة من الجانبين دائماً، بل قد تدل على صدور
 الفعل من جهة واحدة فقط، كقول العرب المذكور في شرح الكلمات: عاقبتُ
 اللصَّ. فهذا لا يعني أن القاضي عاقب اللص وهو عاقبه أيضاً، إنما المراد فقط أن
 القاضي أنزل العقاب على اللص. وعليه فقول الله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ لا يعني
 أن الله تعالى مشترك معهم في فعل الخداع، وإنما المراد فقط أنهم يحاولون أن
 يخدعوا الله تعالى.

ب- لقد بينّا من قبل أن جزاء الجريمة يعبر عنه أحياناً بلفظ الجريمة نفسه،
 وعليه فمفهوم الآية هو: المنافقون يخدعون الله والله يخدعهم، ولا يكون المراد
 من القول (والله يخدعهم) أنه يخدعهم فعلاً، بل المعنى أنه يعاقبهم على خداعهم.
 وكما سبق أن فصلنا لدى تفسير قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون)، فإن هذا
 التعبير ورد في موضع آخر في القرآن الكريم أيضاً حيث قال تعالى: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ
 سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤١). وجزاء السيئة ليس سيئة في الحقيقة، وعليه فالمعنى

أن عقاب السيئة بقدرها. وقال الله تعالى أيضا: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٥). ومعلوم أن جزاء الاعتداء والظلم بقدره لا يسمى ظلماً، وعليه فقوله تعالى ﴿فَاعْتَدُوا﴾ يعني أن عقاب الاعتداء يجب أن يكون بقدره.

وهذا التعبير شائع في اللغة العربية، فقد ورد في القاموس العربي "أقرب الموارد": "حَسَدَنِي اللَّهُ إِنْ كُنْتُ أَحْسَدُكَ"، أي عاقبني على الحسد، وهو من باب المشاكلة. والمراد من المشاكلة هنا أن لفظ الجريمة نفسه استخدم بمعنى عقابها.

وقد استعمل الشعراء العرب هذا التعبير، فقال عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أي أننا ذوو بأس وقوة، فمن هاجمنا ارتكب جهالة كبرى سوف نعاقبه عليها، ذلك لأن هجوم الضعيف على القوي يُسمى جهلاً، ولكن هجوم القوي على الضعيف لا يسمى جهلاً.

وقال أبو الغول الطهوي:

فَنَكَبَ عَنْهُمْ دَرَأَ الْأَعَادِي وَدَاوَا بِالْجُنُونِ مِنَ الْجُنُونِ

فسمى هجوم العدو جنوناً، أي أن العدو ضعيف ومع ذلك يهاجمنا نحن الأقوياء، أما ردُّ القوي على الضعيف لا يمكن أن يسمى جنوناً، بل هو بمعنى الجزاء والعقاب.

باختصار لا اعتراض على هذه الآية حتى ولو أخذنا المفاعلة بمعناها الأصلي، لأن الفعل (خدع) نُسِبَ هنا إلى الله تعالى في سياق الرد على جريمة، وعليه فليس مفهوم الآية إلا أن الله تعالى سوف يعاقبهم على خداعهم. وهذا المعنى يدعمه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٣)، أي أنهم يريدون أن يخدعوا الله تعالى، وهو معاقبهم على عملهم السيء هذا.

ومن معاني قول الله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أنهم يتركون الله تعالى، حيث ورد في أقرب الموارد: خادع الحمد: أي تركه.

خلاصة القول: لا تعني هذه الآية أبداً أن الله تعالى يمكن أن يخدعه أحد، فهذا الفهم الخاطئ يخالف نصوص القرآن الصريحة، وليس إلا نتاج عناد المعترضين فحسب. لقد أعلن القرآن الكريم صراحة أن الله مُطَّلَع على أخفى الخفايا، أفليس من الظلم العظيم، رغم هذا الإعلان القرآني الصريح، أن يُقال أن الله تعالى يمكن أن يُخدَع بحسب القرآن الكريم؟! قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧).

وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الأنفال: ٤٤).
وقال أيضاً: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٤).
وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٨).

وقال أيضاً: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ٢٠).
فمن الظلم العظيم، بعد هذا التعليم القرآني الصريح، أن يقول البعض أن إله المسلمين يمكن أن يخدعه أحد أو ينطلي عليه احتيال أحد.

نخلص من هذا البحث إلى أن قول الله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ يعني ما يلي:

١. أن المنافقين بسلوكهم يتعاملون مع الله تعالى معاملة الخادع.
٢. أنهم يريدون خداع الله تعالى مع أنه يجلّ عن الانخداع.
٣. أنهم يعاملون الله تعالى بالخداع ولذلك فإنه تعالى سيعاقبهم على أفعالهم غير المخلصة.

٤. أنهم ينأون عن الله تعالى ويتركونه.

٥. أن معاملتهم مع الله تعالى ليست مخلصة. فهم أحياناً يتصرفون تصرف المؤمنين ويسايرونهم خوفاً منهم، وأحياناً يخضعون لتأثير الكفار ويعادون دين الله تعالى، حيث تقول العرب: "سوق خادعة" أي غير مستقرة، بمعنى يرتفع فيها السعر حيناً وينخفض حيناً آخر.

٦. أنهم يسلكون مع الله تعالى مسلك الفاسدين، فأعمالهم تفتقر إلى الإخلاص حيث أن الخداع يعني الفساد أيضاً.

٧. ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ يمكن أن يعني أنهم يخادعون رسول الله ﷺ والمؤمنين، وقد ورد تعبير مماثل لهذا في عدة أماكن في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١١) فهنا قد عدّ الله تعالى بيعة رسول الله ﷺ بيعة لله تعالى.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٤). فهنا قد قيل أن ما يفعل برسول الله من ظلم كأنما يفعل بالله تعالى.

وعلى هذا المنوال قد نسب الله في الآية قيد التفسير إلى نفسه ما فعل برسوله ﷺ.

ولقد ورد نفس الأسلوب في الحديث القدسي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا ربّ كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض، فلم تعدّه؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك ولم تطعمني. قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تُسقه. أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي» (مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض).

لقد تبين من هذا الحديث الشريف أن الله تعالى يُعَدُّ معاملته عباده بمنزلة معاملته تعالى، فكما أن عدم إطعامنا عباد الله هو عدم إطعامنا لله تعالى، وعدم عيادتنا للعباد هو عدم عيادتنا لله تعالى، وعدم سقينا العباد هو عدم سقينا لله تعالى، كذلك تماماً يمكن أن يسمّى خداع العباد خداعاً لله تعالى.

وقد ورد هذا الأسلوب البياني في الإنجيل أيضاً حيث جاء فيه أن كل الشعوب سوف تُعَرَضُ على المسيح عند مجيئه الثاني فيقول للمؤمنين: تعالوا خذوا ملكوت الله تعالى، {لَأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُكُمْ. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَأَوْيَيْتُمُونِي. غُرِياباً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزَرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمُ إِلَيَّ. فَيُجِيبُهُ الْأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطِشَائناً فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَأَوْيَيْنَاكَ، أَوْ غُرِياباً فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَتَّكُمُ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدٍ إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ} (إنجيل متى ٢٥: ٣٥-٤٠)

ومع أن كتبة الإنجيل قد كتبوا هنا اسم المسيح مكان اسم الله تعالى وشوهوا هذه الاستعارة اللطيفة إلا أنها تؤكد أن معاملة الحبيب المقرب لدى أحد هي بمنزلة معاملته هو. وقد استخدم الله تعالى هذه الاستعارة اللطيفة نفسها في قوله ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيدل على حقيقة ناصعة بأن أعمال المنافقين التي يعوزها الإخلاص ستعود عليهم وبالاً، لأن الخديعة لا تحلّ إلا بصاحبها، فيصبح من الأذلاء السافلين في الدنيا والآخرة. إنه يظن أنه يخدع الآخرين، ولكنه في الواقع يخدع نفسه ويدفعها نحو الهلاك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني أنهم لا يفتنون لحقيقة الأمر. والشعور يعني معرفة دقائق الأمور كما أسلفنا في شرح الكلمات. وقد وردت في القرآن الكريم كلمات مشابهة للشعور مثل العلم والعرفان والعقل والفكر، وكل واحدة منها تختلف عن الأخرى في المفهوم رغم تشابهها، بل وكما قال علماء اللغة

العربية ليس في اللسان العربي كلمة تشبه كلمة أخرى في المعنى تماماً، بل لكل واحدة منها مفهوم مختلف وإضافي. فالعلم مثلاً يحصل من الخارج بالحواس الظاهرة من سمع ورؤية ولمس وذوق، فعندما يتذوق المرء شيئاً حلوّاً فحلاوته تسمى علماً ظاهراً، لكنه لا يسمى شعوراً أو عرفاناً. أما العرفان فهو العلم المتكرر بالشيء، لأن العرفان هو معرفة الشيء، والمرء يعرف الشيء الذي يكون قد علمه سلفاً، فمثلاً عندما تقول: قد عرفتُ فلاناً، فهذا يعني أنك قد رأيته من قبل، وعندما رأيته الآن تجدّد علمك السابق ولم تُخطئ في ذلك العلم، ومن أجل ذلك تسمى العلوم الروحانية عرفاناً، لأنها تُدرّك أولاً بكلام الله تعالى أو بالفطرة الصحيحة، وعندما تقترن المشاهدة بهذا العلم الابتدائي يصير عرفاناً، ولذلك يسمى صاحبه عارفاً، لأنه شاهد صفات الله التي علمها من كتاب الله تعالى وأدرك أنها نفس الصفات التي علمها في كلام الله تعالى.

أما العقل فهو القوة التي توجه الإنسان نحو العمل طبق علمه وفكره وشعوره، والعقل هو الذي يعمل بالعلم الصحيح والفكر الصحيح والشعور الصحيح، وينهى نفسه عن مخالفة كل هذا.

أما الفكر فهو قوة تساعد على الاستنتاج من المعلومات الخارجية، والمفكر من يرتّب علمه البسيط ترتيباً يؤدي به إلى نتائج جديدة لا تيسر بالعلم البسيط وحده.

أما الشعور فهو الحس الذي ينبع من داخل المرء، وهو اسم لمعرفة الفطرة الصحيحة، فالشعور يعني أن يحسّ الإنسان بقواه الباطنة التي جبله الله عليها، وبالتالي يهتدي بها إلى طريق الخير. ومنه سُمّي الشعر، لأنه ينبت من الداخل إلى الخارج. والشعر هو اللباس الداخلي الذي يلي الجسد. والشعر الشجرة، لأنها تنبت من الأرض. ومن معاني الشعر أيضاً كلمة السرّ التي يُتفق عليها بين الجنود للتفاهم فيما بينهم سرّاً، وسمي كذلك لأنه من الأسرار الخفية ويسمى بالإنجليزية Pass Word أو Watch Word. والشعر سُمي كذلك لأنه يعبر عن

المشاعر والعواطف التي تحتلج في باطن الإنسان. والشعائر هي مظاهر إرادة الله عز وجل، لأن بها تتجلى مشيئته وصفاته. والمشاعر هي الحواس الباطنية. فالشعور إذن حسّ خفي يُطلع الإنسان على قواه الباطنة، ولا علاقة له بالعلم الخارجي.

وعليه فقله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ يعني أن الفطرة السليمة تشهد ضد المنافقين، ولكنهم لا يعرفون حتى قوى نفوسهم فضلاً عن حقائق الدين، ولا يدرون أن النفاق من الأفعال القبيحة التي ترفضها فطرة المرء السليمة دون أن يوجهه أحد.

كما بيّنا آنفاً فإن هذه الآية تتحدث عن الذين كانوا يسمّون مسلمين ولكنهم لم يكونوا مسلمين بقلوبهم، وإنما انضموا إلى جماعة المسلمين في الظاهر فقط. كان هؤلاء من سكان المدينة، ولما دخل معظم أهلها في الإسلام أسلموا أيضاً تقليداً للآخرين دون التدبر الكافي في دين الإسلام، ثم لما أمعنوا النظر في شروط دخول الإسلام ونظروا إلى التضحيات التي يجب على المسلم أن يقدمها لم يتقدموا في الإسلام بل ابتعدوا عنه تدريجياً، غير أنهم لم يستطيعوا تركه علانيةً بسبب قومهم. وقد ذكر الله هذه الطائفة في القرآن الكريم بقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبَ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٦٦-٦٧).

أي عندما يقوم المنافقون بأعمال شريرة ويعاقبون عليها فإنهم يختلقون شتى الأعذار، ويقول الله تعالى لهم: لا تقدّموا الأعذار إذ لا قيمة لها، لقد كنتم آمنتم تقليداً فحسب، ثم كفرتم، وسوف نعفو عن بعضكم بسبب بعض المصالح، وسوف نعاقب بعضكم حسب مقتضى الأمر لأنهم مجرمون. إنه من الطبيعي أن يكون بين المنافقين والمنافقات علاقات وأواصر، ودأبهم أن يأمر بعضهم البعض بما ينهى عنه الإسلام وينهى عما يأمر به الإسلام، ويكفّون أيديهم عن نصره

الإسلام، لقد تركوا الله تعالى فتخلى عنهم، أي لا شك أن المنافقين هم الذين يخرجون عن الطاعة، وإلا فإن الله تعالى لا يتخلى عن أحد.

والواضح من هذه الآيات أن هؤلاء أسلموا في البداية، ثم خرج الإسلام من قلوبهم، وكانوا رجالاً ونساء. كانوا يطعنون في الإسلام، ولكنهم لم يجرؤوا على معارضته علناً، بل كانوا يعادونه سراً، ويتخلفون عن نصره الإسلام عند الحاجة. لم تكن قلوبهم عامرة بحب الله تعالى، وإنما غلب عليهم حب الدنيا، فحرموا نصره الله تعالى.

الحق أن أهل المدينة لما بلغهم خبر الإسلام لقي بعضهم رسول الله ﷺ في الحج في إحدى المرات واقتنعوا بصدقه، ولما رجعوا إلى قومهم أخبروهم أن الرسول الذي ينتظر يهود المدينة بعثته قد ظهر في مكة. فمالت قلوب أهل المدينة إلى رسول الله ﷺ وأرسلوا إليه وفداً في موسم الحج التالي، ولما تكلم هذا الوفد مع النبي ﷺ واطَّلَعُوا عَلَى أَفْكَارِهِ آمَنُوا بِهِ وَبَايَعُوهُ. وكان النبي ﷺ عُرِضَ لِمُعَارَضَةٍ شَدِيدَةٍ فِي مَكَّةَ فِي تِلْكَ الْيَوْمِ، فَلَقِيَ هَذَا الْوَفْدَ فِي عَقْبَةٍ فِي وَادٍ، بَعِيدًا عَنْ أَنْظَارِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَهَنَالِكَ بَايَعُوهُ ﷺ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ بَيْعَةَ الْعَقْبَةِ. وَعَيَّنَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ نِقَبَاءً لِنَتِظِيمِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ، وَأَرْسَلَ مَعَهُمْ صَحَابِيًّا شَابًّا هُوَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ لِمُسَاعَدَتِهِمْ فِي تَعْلِيمِ الْمُسْلِمِينَ هَنَالِكَ دِينَهُمْ (سيرة ابن هشام، بيعة العقبة الأولى).

وقد قال هؤلاء القوم لرسول الله ﷺ لدى عودتهم إلى المدينة أن يتفضل إليهم في المدينة لو اضطرَّ للهجرة من مكة. ولما رجعوا إلى قومهم انتشر الإسلام في أهل المدينة خلال فترة قليلة، وأرسل رسول الله ﷺ إليها صحابته الآخرين وكان من بينهم سيدنا عمر رضي الله عنه (سيرة ابن هشام). ثم هاجر النبي ﷺ إليها عندما أمر بذلك، وبعد وصوله إلى المدينة أسلم في فترة وجيزة كل من كان فيها من المشركين.

كان في المدينة قبل انتشار الإسلام فيها قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية هم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. كان اليهود أثرياء

ومثقفين ثقافة مادية، ولكنهم كانوا قلة، وكانوا يُعَدُّون ضعفاء إزاء العرب الساكنين في المدينة وفي ضواحيها. ولذلك كان اليهود قد نشروا في المدينة شبكة مؤامرات متبعين سياسة "فَرَقْ تَسُدْ". كانوا يؤججون الحروب بين الأوس والخزرج كل يوم، ويخربون سلام المدينة وأمنها في كل مناسبة، فأدرك أهلها المشركون قبيل قدوم الإسلام إلى المدينة ما آلت إليهم حالهم، وبدأوا يفكرون بجدية في وضعهم المزري. فارتأى بعضهم أن هناك سبيلا واحدا للقضاء على هذه الفتنة، وهي أن تُقام في المدينة حكومة منظمة وأن يختاروا واحدا منهم ملكاً عليهم. وقويت هذه الفكرة فيهم واتفقوا على اختيار واحدٍ منهم ملكاً عليهم وأجمعوا على شخص اسمه عبد الله بن أبي بن سلول رئيس قبيلة الخزرج، وقرروا أن يصنعوا له تاجاً كما هو من تقاليدهم. وبينما هم يستعدّون لصنع التاج له تناهى إليهم صوت الإسلام وأدركوا أن علاج مشاكلهم يكمن في الإسلام لا في اختيار ملكٍ. وهكذا دخلوا في الإسلام في نهاية المطاف كما سبق ذكره. ولما رأى عبد الله بن أبي بن سلول وأشياعه في القوم إخلاصاً شديداً لدين الإسلام لم يستطيعوا مقاومة هذا التيار، ولم يحظر ببالهم أنه سوف يُقضى على مُلكهم نهائياً بقيام حكم الإسلام. ولكن لما قام نظام حكم الإسلام أدرك هؤلاء أن حلمهم بالفوز بمكانة دنيوية مميزة قد تبخر. وهذا الإحساس مما كان في قلوبهم من ولاء قليل للإسلام أيضاً، وحلّت محله عداوةٌ له. ولكن الغالبية الساحقة من أهل المدينة كانوا يحبون الإسلام حباً شديداً، فكان هؤلاء المنافقون لا يستطيعون الخروج من الإسلام علانيةً، وكانت النتيجة أنهم ظلوا مسلمين في الظاهر، ولكنهم بدأوا يكيدون به سراً. وفي البداية ظلوا يخططون للإضرار بالإسلام بالتآمر مع اليهود بسبب صداقتهم، ولكنهم لم ينشئوا أي علاقة مع كفار مكة، لأنهم لم يحبوا ذلك بسبب عصبيتهم القومية، حتى إن هؤلاء المنافقين استعدوا للخروج مع المسلمين لمحاربة أهل مكة في غزوة أحد ثم رجعوا من الطريق ساخطين على بعض أوامر رسول الله ﷺ (سيرة ابن هشام). ثم بعد ذلك نسوا تعصبهم القبلي القديم بتحريض من

اليهود وخوفاً من قوة المسلمين المتزايدة، وبدأوا يتآمرون على المسلمين مع كفار مكة أيضاً. ومع ذلك كان زعمائهم يخرجون مع رسول الله ﷺ في بعض الحروب حفاظاً على علاقاتهم الشكلية مع المسلمين، ولكنهم ظلوا يخططون دائماً لإثارة الحرب بين طوائف المسلمين أنفسهم.

لقد ورد ذكر هؤلاء المنافقين في القرآن الكريم في أماكن عدة، وكان آخر شروهم أنهم لما يئسوا من قوة كفار مكة بعد فتحها، تأمروا مع حكومة قيصر الروم، مما اضطر النبي ﷺ للخروج لغزوة تبوك. ولما فشلوا في تلك المؤامرة أيضاً، وربما بسبب هذه الصدمة مات عبد الله بن أبي بن سلول بعد غزوة تبوك بشهرين فقط. وهكذا تشتت شمل هذه الفئة المنافقة، فانضم بعضها إلى المسلمين بصدق القلب ومات بعضهم في خمول.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١١)

شرح الكلمات:

قلوبهم: راجع شرح الكلمات للآية (ختم الله على قلوبهم...).

المرض: كل ما خرج بالإنسان عن حد الصحة من علة ونفاق وشك وظلمة ونقصان وتقصير في أمر (الأقرب).

والمرضُ الخروجُ عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان: الأول مرض جسمي وهو المذكور في قوله: ﴿ولا على المريض حرج﴾، والثاني عبارة عن الرذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق وغيرها من الرذائل الخلقية... ويُشبهه النفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض، إما لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإما لكونها مانعةً عن تحصيل الحياة الأخروية... وإما لميل النفس بها إلى الاعتقادات الرديئة ميلَ البدن المريض إلى

الأشياء المضرة. ولكون هذه الأشياء متصورةً بصورة المرض قيل: دَوِيَ صدرُ فلان ونَغِلَ قلبه (المفردات).

عذاب: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (ولهم عذاب عظيم).

أليم: موجه (الأقرب).

عذاب أليم: أي مؤلم (المفردات).

يكذبون: كَذَبَ: أي أخبرَ عن الشيء بخلاف ما هو مع العلم به؛ ضدُّ صدق، وسواءٌ فيه العمد والخطأ (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله في هذه الآية أن عدم عملهم وفق الفطرة السليمة دليل على أن قلوبهم مريضة، وإلا لأحسّوا على الأقل بما تُمليه عليهم الفطرة السليمة. وكما أن زيادة مادة الصفراء تُفسد طعم اللسان حتى إنه يجد الحلو مُراً، كذلك فمن كان في قلبه مرض لا يستطيع سماع صوت فطرته السليمة على ما يُرام.

ويراد بالمرض في هذه الآية النفاق. لقد ذُكرت هذه السورة في الركوع الأول أصحاب الروح وهم المتقون، ثم ذُكرت المصابين بمرض الكفر، أما الآن فتحدثت هنا عن مرض النفاق.

ولقد ذكر النبي ﷺ علاماتٍ لمرض النفاق فقال إن المنافق: إذا حدّث كَذَبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا أوْثَمَ خان، وإذا عاهدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ. (البخاري، كتاب المظالم وكتاب الشهادات).

هذه العلامات من لوازم النفاق، لأن المنافق يريد أن يخفي نفاقه، وليس سبيل ذلك عنده إلا أن يلجأ إلى الكذب والشجار والسباب إذا اتهمه أحد وكشف عيبه، لكي يشغل الناس عنه. ثم إنه لا بد للمنافق من إخلاف الوعد والغدر، لأن المنافق هو من يكون مع القوم في الظاهر ويخالفهم في الواقع. ثم من لوازم المنافق أن يخون الأمانة، إذ من المحال أن يحظى بالقبول عند الأغيار ما لم يُفَشِّ لهم أسرار قومه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرْضًا...﴾ قد نُسَبِتْ زيادة المرض إلى الله تعالى، وذلك لأنها نتيجة لمخالفة أحكام الله وقوانينه، وأيضا لأن الله تعالى هو الذي يأتي بنتائج أعمال الناس، حسنة كانت أو سيئة. والحق أن الله تعالى لم ينزل القرآن الكريم ليزيد الناس مرضًا، بل أنزله شفاء لهم من الأمراض حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٨).

والمرض المذكور في الآية قيد التفسير هو فقدان قوة الحسب، والجبن والنفاق، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٧).

أما زيادة مرض المنافقين فكان بطريقتين: أولاً: كلما زاد الله تعالى المسلمين تقدماً وقوة، اضطر المنافقون إلى زيادة النفاق -خلافًا لعقيدتهم الحقيقية- لكي يرضوا المسلمين، مع تضايقهم الشديد برؤية ازدهار الإسلام وشوكته. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ (آل عمران: ١٢١).

وثانياً: لقد نزلت شريعة الإسلام تدريجيًا، فكلما ازدادت الأحكام والمسائل ازداد المنافقون نفاقًا وقلقًا وجبنًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشِيَةِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢١).

لقد قال الله تعالى في الآية السابقة عن الكفار: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، بينما قال هنا عن المنافقين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والسبب الفارق بين العذابين أن الكفار مهما تعرضوا للعذاب إلا أنهم يناوئون الإسلام ويحاولون بذل جهدهم للقضاء عليه، وهكذا يشفون غليلهم بصب جام غضبهم وبالانتقام. أما المنافقون فإنهم يخفون ما في قلوبهم وهكذا يموتون كمدًا، ولذلك وصف الله تعالى عذابهم بأنه عذاب أليم، أي أنهم إلى جانب الآلام يتجرعون الغصص أيضًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٢)

شرح الكلمات:

لا تُفسدوا: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج منه أو كثيرا، ويضاده الصلاح (المفردات).

الأرض: النَّفْضَةُ والرَّعْدَةُ (التاج).

الأرض: الكرة الأرضية؛ وكلُّ ما سفلَ فهو أرض (الأقرب).

مصلحون: أصلح بين القوم: وفق، وأصلحه: أقامه بعد فساد (الأقرب).

التفسير: الأرض في اللغة العربية تعني الكرة الأرضية كلها، وجزء الأرض

الذي يكون تحت شيء أيضا يُسمى أرضًا. وأَرْضُ النَّعْلِ ما أصاب الأرض منها، وكل شيء هو في الأسفل أو متواضع ومقهور يُسمى أرضًا. يُقال فلان إن ضُرب فأرض، أي لا يُبالي بالضرب. والأرضُ المُلْكُ والقُطْرُ، يُقال: أرضُ الشام وأرض مصر. (اللسان وتاج العروس)

والأرض في هذه الآية تعني المُلْكُ والقُطْرُ، لأن المنافقين المذكورين لم تكن أعمالهم ذات صلة بالعالم كله، وإنما كانت تخص بلاد العرب أو حدودها.

كان فساد المنافقين يظهر في تصرفاتهم المختلفة التالية:

١- إثارة الشقاق بين المهاجرين والأنصار، متخذين الحمية القومية ذريعة

لتحقيق أغراضهم الهدامة. في غزوة بني المصطلق حصل خلاف بسيط بين المهاجرين والأنصار، وكان عبد الله بن أبيّ بن سلول في تلك الغزوة، فاستغل اختلافهم وأثار ضجة وقال للأنصار إن هؤلاء المهاجرين قد جاؤوا من الخارج ويريدون أن يحكموا علينا، وأنتم الذين أعطيتموهم هذه الفرصة، فلو لم تساعدوهم لتشتتوا وتشردوا تلقائيًا (سيرة بن هشام). وقد ذكر الله تعالى قولهم هذا في القرآن الكريم فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ

اللَّهُ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ (المنافقون: ٨)، أي أن المنافقين هم الذين يقولون لا تنفقوا أموالكم على الذين اجتمعوا حول محمد رسول الله لكي يتشتتوا بأنفسهم. وعندما رأى عبد الله بن سلول أن الأنصار قد استشاطوا غضباً أراد أن يقضي على الأساس، أعني أنه أساء إلى رسول الله ﷺ قائلاً ﴿لَإِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٩)، أي أن أعزَّ إنسان في المدينة (وهو يعني نفسه) سوف يُخرجُ منها أذلَّ إنسان (يعني رسول الله ﷺ)، فداه نفسي وروحي).

وأحياناً كان هؤلاء المنافقون يحرّضون الذين وقعوا في بعض الأخطاء بحق القوم ليرتدوا عن الإسلام غضباً. وأحياناً كانوا يطعنون في أعمال النبي ﷺ سعياً لزعزعة إيمان الناس، حيث ورد في القرآن الكريم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (التوبة: ٥٨). أي أن بعض المنافقين يطعنون في توزيع الصدقات. وكان هدفهم من ذلك أن ينفروا الذين لم يُعطوا من أموال الصدقات شيئاً. وكان بعضهم يعرض بالرسول ﷺ بأنه سَماع لكل ما يقال، فكانوا يقولون: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ (التوبة: ٦١)، أي أنه قد نشر الجواسيس في كل مكان، فلا يستطيع أحد التعبير عن أفكاره بحرية.

وأحياناً كانوا يشمتون في المسلمين إذا أصابهم مكروه، لكي يضعفوا روحهم المعنوية، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ (التوبة: ٥٠)، أي أنه إذا أصاب رسول الله ﷺ وصحابته المخلصين ضررٌ في الحرب قالوا لقد حصل هذا لأنهم لم يعملوا برأينا، أما نحن فكنا قد أدركنا الخطر سلفاً فلم نشترك في الحرب.

وأحياناً كانوا يحرّضون الكافرين على المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر: ١٢). وبالفعل كان هؤلاء المنافقون كاذبين فيما قالوا للأعداء، لأن أهل الكتاب هؤلاء لما أُجِّلوا من المدينة لم يخرج معهم المنافقون،

ولما حارب المسلمون أهل الكتاب هؤلاء لم ينصروهم، لأن هدفهم الحقيقي لم يكن إلا نشر الفساد ضد المسلمين.

وكان من أساليب إفسادهم أيضا ترويح الشائعات تثبيطاً لعزيمة المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ (النساء: ٨٤)، أي كلما بلغهم خبرٌ من الأمن أو الخوف أشاعوه على نطاق واسع، إفساداً بين المسلمين. كان هؤلاء المنافقون ينشرون أخبار الخوف تخويفاً للمسلمين، وإذا بلغهم أمر من الأمن أو الصلح ورأوا أن بعض المسلمين غير مرتاحين له، كانوا يقولون لهم تأجيجاً لمشاعرهم: هذا الصلح إهانة لنا.

باختصار، كان المنافقون يفسدون في الأرض بشتى الحيل، وقد بين الله تعالى هنا أنهم إذا قيل لهم: ما الفائدة من الإفساد في الأرض هكذا؟ قالوا: إنما نعمل كل ذلك من أجل الإصلاح. وهذا أيضا من علامات المنافقين، إنهم يختلقون دائما بعض الأعذار تبريرا لأعمالهم الخبيثة لكي تبدو للناس حسنة، فحينما يقدمون عذر مساعدة الفقراء، وحينما آخر يختلقون عذر إنقاذ المسلمين من الدمار، ومرة يبررون موقفهم بقولهم: إننا كنا نريد تهدئة ثورة الأعداء. باختصار، إن المنافقين يسعون لإخفاء سوء نيتهم بغطاء حسن النية، ولو لم يفعلوا ذلك فكيف يخفون نفاقهم؟!

يلجأ المنافقون إلى هذه الحيل في كل شعب وفي كل بلد، وعندما تأتي أيام هلاك قوم، فإنهم ينخدعون بالمنافقين ويتخلون عن المخلصين للقوم. ولكن الله تعالى نجى الصحابة من خداع هؤلاء وقلب شرورهم على أنفسهم.

إن وجود المنافقين ظاهرة تلازم الجماعات التي فيها نظام دقيق محكم. أما المجتمعات التي تفتقر إلى النظام فلا يضطر أهلها إلى النفاق إلا قليلا. إذا كانت الجماعة منظمة يصعب على ضعاف الإيمان والقلوب تركُّها، فيظلون على صلة بها من ناحية، ومن ناحية أخرى يوالون الأعداء سرًّا، ويحكيون الدسائس السرية ضد النظام. والجماعة الإسلامية الأحمدية ذات نظام محكم، فعلى أن نتوقع وجود المنافقين بين صفوفنا دائما، ووجود المنافقين في جماعتنا دليل على

نظامها المحكم، وليس على ضعف فيها. غير أن هناك حاجة إلى أن نفطن لحيل المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم، ونعرفهم بها، ونعاملهم بالمعاملة التي رسمها القرآن الكريم، فلا نغترّ بدعواهم الخلابه، لأنهم يهاجمون متكررين كالشيطان في زي الناصحين.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٣)

شرح الكلمات:

ألا: تفيد تنبيه السامع إلى ما يلقي إليه.

ولكن: "و" و "لكن" حرفا عطف جاءا للتأكيد.

يشعرون: راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

التفسير: كان المنافقون يعنون بقولهم ﴿إنما نحن مصلحون﴾ أنهم هم المصلحون أما من سواهم الذين يُقال أنهم مسلمون صادقون فهم المفسدون في الواقع، ذلك أن ﴿إنما﴾ تفيد الحصر، وإذا قال المرء إنما أنا مصلح فيعني أن من سواه ليس بمصلح. وقد رد عليهم القرآن الكريم بقول مماثل فقال ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾، أي استمعوا أيها المستمعون وعوا، إنما المنافقون هم المفسدون، ومع ذلك يتهمون غيرهم بالفساد.

لقد أثبتنا من قبل أن المنافقين كانوا يفسدون بأساليب شتى وكانوا يقدمون لأعمالهم الفاسدة تبريرات صالحة في الظاهر، ولكن التبرير الصالح لا يجعل العمل الفاسد صالحاً. إذا كان المرء غير راضٍ بنظام أو عقيدة جماعة فمن واجبه أن ينفصل عنها، وليس أن يبقى فيها ثم يسعى للإفساد فيها.

لقد بين الله تعالى في آخر هذه الآية أن المنافقين يعوزهم الشعور، ذلك أن النفاق ذو صلة بالقلب، وقوة الشعور هي التي تساعد على معرفة النفاق، فلو

أن المنافقين حاولوا مراجعة أنفسهم بدلاً من تقديم تبريرات لتصرفاتهم لأدركوا أن تصرفاتهم لا تهدف إلى الإصلاح إنما منشأها الجبن والخلاف مع جماعة المؤمنين، ولو أنهم فعلوا ذلك لعلمو مرضهم، ولكنهم لا يريدون مطالعة أفكار قلوبهم بشكل صحيح، وبالتالي لا يخدعون الآخرين بل يخدعون أنفسهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤)

شرح الكلمات:

آمِنُوا: راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر...﴾

السفهاء: جمع السفية. سفه علينا: جهل. وسفّهت الطعنة: أسرع منها الدم وخفّ. وسفّه نصيبه: نسيه. السفّة: خفة الحلم أو نقيضه؛ أو الجهل، وأصله الخفة والحركة والاضطراب. والسفيه ذو السفه (الأقرب). السفّة: الخفة في البدن، ومنه قيل: زمام سفية: كثير الاضطراب؛ وثوب سفية: رديء النسيج. واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأخروية (المفردات). وسافهتُ الشراب: إذا أسرفتُ فيه (اللسان).

فالسفيه هو: خفيف العقل؛ الجاهل؛ المتقلب الرأي؛ قليل الذكاء في الدين والدنيا؛ من لا وزن لرأيه؛ من ينفق أشياءه القيمة بدون تفكير.

لا يعلمون: علمه (يعلمه): تيقنه وعرفه، وإذا كان علم بمعنى اليقين تعدّى إلى مفعولين، وإذا كان بمعنى عرف تعدّى إلى مفعول واحد. وعلم الأمر: أتقنه.

وَعِلِمَ الشَّيْءَ وَعِلِمَ بِالشَّيْءِ: شعر به وأحاطه وأدركه. والعلمُ: إدراكُ الشيء بحقيقته (الأقرب).

فالمراد بقوله تعالى (لا يعلمون) أنهم لا يدركون الحقيقة.

التفسير: استخدم القرآن الكريم هنا صيغة المجهول (قيل)، ولكن هؤلاء القائلين هم المسلمون كما هو ظاهر مما ورد في الآيات السابقة، والمراد أن المسلمين عندما يقولون للمنافقين آمنوا كما آمن الشرفاء الآخرون الذين يوفون بعهدهم، فما هذا الهراء إذ تكونون مرة إلى هؤلاء وأخرى إلى هؤلاء، وتقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم؟ يردّ عليهم المنافقون بقولهم إن هؤلاء الذين تشيرون علينا أن نؤمن مثلهم هم سفهاء إذ يبذلون نفوسهم وأموالهم بإنفاقها بدون هوادة، فهل تريدون منا أن نكون مثل هؤلاء السفهاء؟ إنهم حفنة من الناس ويريدون محاربة العالم كله! عليهم أن يرجعوا إلى صوابهم ويوطدوا علاقات طيبة مع الجميع كما فعلنا نحن.

لقد بيّنا لدى شرح الكلمات أن من معاني السفه خفة العقل وإهدار المال بدون هوادة، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ (النساء: ٦)، أي لا تضعوا أموالكم في أيدي الذين لا يعرفون كيف ينفقونها فيضيعونها. وبهذا المعنى سُمّي المنافقون المسلمين سفهاء، إذ كانوا يظنون أن المسلمين لا يعرفون كيف يحافظون على أنفسهم وعلى أموالهم، بل يهلكون أنفسهم ويهدرون أموالهم لقلة عقلهم. ولكننا أذكاء، حيث أنشأنا مع المسلمين ومع الكفار أيضًا أواصر جيدة، وهكذا نتجنب ضرر الطرفين.

لقد بين القرآن الكريم صراحةً اعتراض المنافقين هذا في مواضع أخرى إذ أخبر أنهم يقولون لأشياعهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ (المنافقون: ٨)، أي لا تنفقوا أموالكم عبثًا على هؤلاء الذين التفّوا حول محمد

رسول الله ﷺ، ولو فعلتم ذلك فسوف ينفصون من حوله تلقائياً، وتصبحون في مأمن من هذه المعاناة.

كذلك قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: ٧٩)، أي أن المنافقين يسخرون من المسلمين الذين هم ميسورو الحال ويتنافسون في الإنفاق في سبيل الله، كما يسخرون أيضاً من المسلمين الذين هم فقراء، ومع ذلك يحضرون ما عندهم من مال قليل. كان المنافقون يطعنون في الفتيتين قاتلتين عن ذوي السعة والمال: انظروا إلى هؤلاء السمرائين كيف ينفقون أموالهم رياءً وسمعةً، أما فقراء المسلمين فكانوا يستهزئون بهم قائلين انظروا إلى هؤلاء الحمقى، فإنهم لا يجدون ما يأكلون ومع ذلك يتبرعون بما عندهم من مال قليل.

كما كان المنافقون يطعنون في المسلمين بإزهاق أرواحهم عبثاً حيث قال الله تعالى بعد ذكر الحرب وغلبة الأعداء وكثرهم: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ (الأنفال: ٥٠)، أي أن هؤلاء المسلمين قد اغتروا بما وعدهم دينهم من الرقي والازدهار، ويضحون بأنفسهم في سبيله بدون هوادة ولا يفكرون في المال.

باختصار، يعني المنافقون بوصفهم المسلمين بالسفاهة أنهم يهلكون أنفسهم ويهدرون أموالهم دون تفكير، أما نحن فنحافظ على أنفسنا ونوفر أموالنا أيضاً. وهذا الاعتراض يُثار دائماً ضد الأمم التي تسير في طريق التقدم. كلما أراد الله تعالى الرقي والازدهار لأمةٍ كتبه لها في ظروف مماثلة تماماً، أعني أنها تكون ضعيفة وبلا وسائل وأسباب، ولكنه تعالى يأمرها بالتضحية بدون هوادة، وهو عملٌ عابث في رأي المنافقين والأعداء، إذ لا يدرون قيمة التضحية، ولكن الأمة حين تحرز النجاح يقول المنافقون والأعداء أن هذا النجاح ليس خارقاً، وإنما مرجعه أن المؤمنين كانوا يقدمون التضحيات، وأعداؤهم كانوا غافلين عن ذلك. وهذا يعني أن المعارضين الآباء كانوا يعترضون على المؤمنين بعكس ما اعترض به أولادهم فيما بعد. ففي صدر الإسلام كانوا يعترضون بأن المسلمين

أغبياء، يهدرون أموالهم ويهلكون نفوسهم عبثاً، وينفقون أموالهم ولكنها لن تعود عليهم بنتيجة مُرضية، لقد انخدعوا بما وعدهم دينهم من وعود زائفة، ولكن لما صار الإسلام غالباً قال أولادهم، أو أظلالهم الموجودون اليوم، أن رُقِّي الإسلام لم يكن خارقاً أو مُعجزاً، كل ما في الأمر أن العرب والفرس والروم كانت أخلاقهم قد فسدت ولم تُعدْ فيهم عاطفة التضحية من أجل الشعب، ولذلك صار المسلمون غاليين عليهم.

والواقع أن المرء إذا ترك الحق فلا يقدر على أن يظل ثابتاً بموقف واحد، بل يُضطر لتغيير موقفه مرة بعد أخرى. ليت هؤلاء يفكّرون أن المسلمين إذا كانوا يمتلكون القوة غير العادية وكان أعداؤهم ضعفاء، فلماذا كان المنافقون داخل الجماعة المسلمة والأعداء من خارجها يعدّون تضحيات المسلمين إهداراً وخططهم جنوناً.

أما قولهم بأنه قد قهّيات عندها أسباب ساعدت المسلمين على الانتصار، فهذا لا ينافي كون غلبة الإسلام معجزةً، ذلك لأن الله تعالى عندما يُنبئ نبياً يُهيئ لتحقيقه الأسباب أيضاً، ولكنها لا تكون نتيجة جهود المؤمنين. فمتى كان المسلمون يمنعون العرب والفرس والروم من تقديم التضحيات الحقيقية؟ ثم لم لا ينظر هؤلاء الطاعنون إلى البون الشاسع بين قوة المسلمين وغيرهم آنذاك. لا شك أن الله تعالى سلّب مشركي العرب والروم والفرس روح التضحية الحقيقية، ولكن ما كان المسلمون قادرين في الظاهر على ردّ القوة التي بذلها الأعداء لمحاربتهم، فكيف يا تُرى صاروا غاليين عليهم؟

وهناك آية أخرى تبين أن المنافقين كانوا يرون أن مواجهة الكفار سفاهة وغباء، حيث قال الله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: ٥٣)، أي ترون المنافقين الذين في قلوبهم مرض كيف يسارعون للانضمام إلى صفوف أعداء الإسلام،

ويقولون إذا هُزم المسلمون فسنلقى مصيراً سيئاً جداً، فقل عسى الله أن يهیی أسباب انتصار المسلمين أو يأتي بأمرٍ آخر، فيُصبح المنافقون نادمين بسبب المخاوف التي تنتاب قلوبهم.

والحق أن الفتح والانتصار حقُّ الشجعان البواسل الذين يقدمون التضحيات. والمؤمن أشجع من في الأرض، لأن نظره شاخص إلى السماء دون الأرض. والأمة التي تتهرب من التضحية الحقيقية هالكة لا محالة، والذين يضنون بأموالهم عن الإنفاق هم الذين يضيعونها، أما الذين ينفقونها في مواضعها فأولئك هم الذين تعود إليهم أموالهم أضعافاً مضاعفة.

لقد بين الله تعالى في آخر الآية أن المنافقين هم الذين يدمرون أموالهم وأنفسهم، فلا الكفار ينتصرون فتنتفعهم صداقتهم، ولا المسلمون ينهزمون حتى ينتفعوا من عدائهم. ولأن هذا الأمر متعلق بالمستقبل فلا يدرونه، ولأنهم لا يؤمنون بالله تعالى فلا يفهمون هذه الحقيقة على ضوء النبوءات الإلهية. ولو علموا ذلك لأدركوا أن سلوكهم هو الذي يعرض أموالهم وأنفسهم للدمار.

وقد شرح الله تعالى هذا الأمر أكثر في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥)، أي أن المنافقين يتباهون بأموالهم وأولادهم ظانين أنها في مأمن من الضياع والهلاك لأنهم لا يسمحون لأولادهم بالخروج إلى الجهاد، لكن على المسلمين ألا ينخدعوا بتفاخر المنافقين هذا، فرغم أنهم أثرياء وأن أولادهم يعيشون في رغد العيش مطمئنين مرتاحين في البيوت، ولكن الله تعالى سوف يعذبهم من خلال أموالهم وأولادهم في هذه الدنيا، فيغادرون الدنيا في يوم من الأيام أذلاء مهانين في حالة الكفر.

هذه الآية تنطبق على رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أيما انطباق، فقد مات في حياة النبي ﷺ بعد أن رأى بأمر عينه جهوده قد باءت بالفشل بينما

حقق النبي ﷺ النجاح الباهر، بل وصار ابنه من كبار المؤمنين المخلصين، مما زاده حزياً وأذىً.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٥)

شرح الكلمات:

خَلَوْا: خلا بالشيء: انفرد به ولم يخلط به غيره. وخلا بفلان وإليه ومعه: سألته أن يجتمع به في خلوة ففعل. وفي القرآن ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾، وقيل أن ﴿إِلَى﴾ ههنا بمعنى "مع"، كما في قوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾. ويقال: خلاك ذمًّا: أي لا يلحقك (الأقرب).

شَيَاطِينِهِمْ: الشياطين جمعُ الشيطان، وهو مشتق إما من "شَطَنَ" أو "شَاطَ". فإن كان من شَطَن فهو على وزن "فيعال"، يقال: شَطَنَ عنه: أَبْعَدَهُ، وشَطَنْتُ الدارَ: بَعَدْتُ. والشَطَنُ: الحبل الطويل. وشَطَنَ صاحبه: خالفه عن نيته ووجهته (الأقرب).

فالشيطان من هذا الاشتقاق هو النائي عن الحق، والساعي لإبعاد غيره عنه، والذي يفكر دائماً في الشر كأنه احتكر مخالفة الحق.

أما شَاطَ الشيءُ فيعني احترق. واستشاط غضباً: إذا احتدَّ في غضبه والتَّهَبَ. وشَاطَ فلان: هلك. فالشيطان من هذا الاشتقاق صيغة المبالغة على وزن "فعلان"، وهو غير منصرف، أما إذا كان على وزن "فيعال" فهو منصرف.

ومن معاني "الشيطان" الواردة في القواميس: روحٌ شرير، وكلُّ عاتٍ متمرّد؛ الحيّة (وتسمى الحيّة شيطاناً لأنها تهلك الناس، ولا تسمّى الحيّة شيطاناً إلا إذا كانت صغيرة). والشيطان: الهالك، ومنه في الحديث: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركبٌ" (مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو، حديث رقم ٦٧٠٩). وقد سُمي الراكب والراكبان بالشيطان لأنهما أكثر

عرضة للهلاك على يد السارقين وقطاع الطرق في تلك الأيام، أما إذا كانوا ثلاثة فهناك أمل كبير بأنهم سيعودون بسلام.

وورد في القاموس أيضاً: الشيطان معروف؛ وكلُّ عاتٍ متمرِدٍ من إنسٍ أو جنٍّ أو دابةٍ (القاموس المحيط).

مستهزئون: استهزأ بمعنى هزأ. وهزأ به ومنه: سخر منه (الأقرب).

وأهزأه البردُ: قتله (لسان العرب).

فالمستهزئون هم المستخفون الساخرون.

التفسير: لقد ذكرنا في شرح الكلمات أن الشيطان يعني كل بعيد عن

الحق، وكل من يحترق بغضاً وحقداً، وكل متمرِد عاتٍ باغٍ.

والواضح من مضمون هذه الآية أن لفظ الشياطين قد ورد حتماً في القرآن الكريم بمعنى الناس أيضاً. والمراد من الشياطين في هذه الآية رؤساء الكفار والمنافقين الذين كانوا قد ابتعدوا عن دين الله كبيراً وصلافة، وكرهوا الحضور عند رسول الله ﷺ، ولم يدعوا أتباعهم ليتوجهوا إلى الصراط المستقيم، كما أخبرنا الله تعالى أن الكفار سيقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٨). هؤلاء هم الذين كانوا يحرِّضون المنافقين وكانوا يحترقون كمدًا برؤية ازدهار المسلمين وكانوا بعيدين عن الحق، وكانوا يخاصمون المسلمين وظلوا يقومون بأعمال أدت إلى هلاكهم. فلا يصح أن يراد بالشيطان هنا إبليس، كما أن كلمة ﴿شياطينهم﴾ ليست سباً لزعماء اليهود والمسيحيين، ذلك لأن النبي ﷺ قال لأصحابه: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب»، أي أن الذي يخرج في السفر وحده يعرض نفسه للهلاك نظراً إلى مصاعب السفر، وكذلك حال الاثنين، أما إذا كانوا ثلاثة فيمكن أن ينجوا من المصائب.

على المعارضين المسيحيين أن يقرأوا في أناجيلهم ما يلي: {فالتفت وأبصر

تلاميذه، فانتهر بطرس قائلاً: اذهب عني يا شيطان} (مرقس ٨: ٣٣).

كذلك قال المسيح للفقهاء والفريسيين المعارضين له: {أيها الحياتُ أولادُ الأفاعي، كيف تهربون من دينونةِ جهنم} (متى ٢٣: ٣٣).
 وورد أيضا: {فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصّدوقيّين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي، مَنْ أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟} (متى ٣: ٧)

إنه لما يثير العجب العجيب أن الكتاب المسيحيين يعترضون -رغم ورود هذه العبارات في أناجيلهم- على ورود كلمة ﴿شياطينهم﴾ في القرآن الكريم التي ليست شتيمة، بل هي إظهار للواقع بحسب الأسلوب العربي.
 وهذا المعنى الذي بينته لكلمة الشيطان واستعمالها ثابت عن الصحابة وكبار العلماء أيضاً، فقد نقل ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه: "إذا خلوا إلى شياطينهم من اليهود الذين يأمرهم بالكذب."
 ونقل ابن جرير أيضاً عن قتادة أن المراد بقوله ﴿إذا خلوا إلى شياطينهم﴾ إخوانهم من المشركين.

ونقل ابن جرير عن مجاهد قوله: "هم أصحابهم من المنافقين والمشركين."
 ونقل عن عبد الله بن مسعود: "أهم رؤوسهم في الكفر" (تفسير بن جرير).
 أما قوله تعالى: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ فالمستهزئون اسم الفاعل الذي يدل على دوام الاستهزاء، فكأن المنافقين كانوا يريدون أن يقولوا لشياطينهم إننا لا نلقى المسلمين إلا للاستهزاء بهم.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٦)

شرح الكلمات:

يَمُدُّهُمْ: مَدَّه في غيّه: أمهله وطوّل له. (الأقرب)

ويقال مَدَّه في الغيِّ والضلال: أَمَلَى له وتَرَكَه. (تاج العروس)

طغيان: طغى يطغى وطمغى يطغى طغيانا: جاوز القدرَ والحدَّ. وطمغى الكافر: غلا في الكفر. وطمغى فلان: أسرف في المعاصي والظلم. وطمغى الماء: ارتفع. (الأقرب)، أي صار فيضاً وسيلاً.

يعمّهون: عمَّ الرجل: تردّد في الضلال وتخيّر في منازعة أو طريق. وقيل العمَّ أن لا يعرف الحجة. فهو عامه، والجمع عمّة. والعمّه مبالغة، وجمعه عمّهون.

ولفظ الأعمى الوارد في القرآن الكريم يعني أيضاً من لا يبصر، ولكن الزمخشري قال: "العمّه كالعمى، غير أن العمى عام في البصر والبصيرة، والعمه خاص بالبصيرة، فلا يقال أعمّه العين." (الأقرب)

فمعنى ﴿يعمّهون﴾ أنهم يتخبطون في تصرفاتهم الظلمة، ولا تعمل عقولهم ولن تعمل.

التفسير: لقد زعم بعض المعترضين أن قوله تعالى ﴿الله يستهزئ بهم﴾ يعني أن إله المسلمين يستهزئ بالناس -والعياذ بالله. وهذا زعم باطل، وإنما عبّر عن عقاب الجريمة بذكرها هي. وهو أسلوب عربي شائع، وقد كثر في القرآن الكريم، والمراد أن الله تعالى سوف يُعاقبهم على استهزائهم. (راجع للمزيد تفسير قول الله تعالى: ومما رزقناهم ينفقون، وقوله تعالى: يخادعون الله والذين آمنوا... إلخ).

إن تعاليم القرآن الكريم واضحة بهذا الصدد، وتبيّن أن الله تعالى أسمى من الاستهزاء والسخرية، حيث قال الله تعالى في هذه السورة نفسها إن موسى عليه السلام لما أمر قومه بذبح بقرة معينة ليمنعهم من الشرك قالوا له ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (البقرة: ٦٨)، أي أن الاستهزاء دأب الجاهلين، وأما أنا فأسأل الله تعالى ألا أكون من الجاهلين، فكيف يمكن أن أستهزئ بكم. فالله الذي بعونه يتجنب عباده الاستهزاء، كيف يمكن أن يُعزى إليه الاستهزاء بحسب تعليم القرآن الكريم؟

كما أن الاستهزاء يعني الكذب، إذ يعني الاستهزاء قول المرء شيئاً وهو يَكُنُّ في قلبه خلافه إهانةً للخصم، بينما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٣).

ثم إن المُستهزئ يتكلم بلغو الكلام، بينما يقول القرآن الكريم إن الله تعالى حكيم، أي أن كل كلام الله مليءٌ بالحكمة.

وعليه فليس المراد من قوله ﴿والله يستهزئ بهم﴾ إلا أنه يعاقب المنافقين على استهزائهم.

وفضلاً عن ذلك فإن صفةً أو كلمةً ما إذا أُسندتْ إلى الله تعالى، فلا يراد بها ما يراد عند إسنادها إلى الإنسان. فمثلاً إذا قلنا إن الله يتكلم، فلا يراد بذلك أبداً أن الله تعالى يتكلم كالإنسان بلسان وشفقتين، وإنما المراد بذلك نتيجة الكلام، أي ظهور ألفاظ مسموعة للإنسان بقدرة الله تعالى. وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١٢).

وعليه فيكون معنى قوله ﴿الله يستهزئ بهم﴾ أنه تعالى يأتي بنتيجة الاستهزاء في حقهم، أي يخزيهم بين أيدي الناس، ويجعلهم أضحوكة.

وجدير بالانتباه أن المنافقين قالوا للمؤمنين: ﴿إنما نحن مصلحون﴾، بينما قالوا للكفار: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾، وهذه شهادة فطرة المنافقين عن حال المؤمنين وحال الكافرين، فكانوا يدركون أن المؤمنين لن يقبلوا منهم عذراً بأنهم كانوا يستهزئون بالكفار، وإنما يستاءون من هذا القول، أما الكفار فكان المنافقون يعلمون أن قلوبهم خالية من تقوى الله فلن يستاءوا من قولهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾، بل إنهم بسبب عداوتهم للمؤمنين سيفرحون بهذا الجواب الساحر، ويستهجون بأن أشياعهم هؤلاء قد سفَّهوا المسلمين جيداً. فقول المنافقين هذا يصلح أن يكون شهادةً تلقائيةً مؤثرة على ما تحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، وعلى خلو الكفار من التقوى.

و﴿يُمدِّهم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُمدِّهم في طغيانهم﴾ يعني يُمهِّلهم (تاج العروس، والقاموس المحيط). وهذا هو المعنى الذي ذكره صاحب "روح المعاني"

والزجاج وابن كيسان، وهو المروي عن عبد الله بن عباس أيضا. وقول الله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١١) أيضا يؤيد معنى الإمهال. وعليه فالمراد أن الله تعالى يمهلهم رغم شرورهم لكي يرتدعوا ويتوبوا، ولكنهم يزدادون طغيانا.

وليس المراد من هذه الجملة أن الله تعالى يزيد الكافرين طغيانا. وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر في سورة فاطر مبينا أنهم لا يُعْطَوْنَ هذه المهلة ليزدادوا ضلالا، إنما ليتوب من أراد منهم أن يتوب في فترة هذا الإمهال، حيث قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٨)، أي أو لم نعطكم عمرا يتعظ فيه من أراد التذكر، وقد جاءكم المندرون ولكنكم لم تغتنموا هذه المهلة ولم تنتفعوا من النذر. فهذه الآية قد أكدت أن المهلة التي ينالها الكفار ليست لإضلالهم بل لهدايتهم.

وأما قوله تعالى ﴿يَعْمَهُونَ﴾، فاعلم أن العمه هو عدم وجود أمارات وأعلام في الطريق (الأقرب)، وله ثلاثة معانٍ ١- أن يصبح الإنسان حيرانا، ٢- أن لا يبصر، ٣- أن يمشي مطرق الرأس لا يرى شيئا. فالمراد من ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أن المنافقين غارقون في شرورهم ويتمادون فيها بدون بصيرة وعقل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٧)

شرح الكلمات:

اشترؤا: اشتراه: ملكه بالبيع؛ واشتراه باعه. وكلُّ مَنْ ترك شيئا وتمسكَ بغيره فقد اشتراه (الأقرب).

على العموم فالمشتري هو دافع الثمن والبائع هو آخذ الثمن، "أما إذا كانت بيع سلعة بسلعة صحَّ أن يُتصور كل واحد منهما مشتريا وبائعا، ومن هذا

الوجه صار لفظ البيع والشرء يُستعمل كل واحد منهما في موضع الآخر، وشرئت بمعنى بعت أكثر، وابتعت بمعنى اشتريت أكثر. ويجوز الشراء والاشتراء في كل ما يحصل به شيء." (المفردات)

الضلالة: الضلالة ضد الهدى. ضلَّ يَضِلُّ: ضد اهتدى: أي جار عن دين أو حق أو طريق. وضلَّ يَضِلُّ فلان الطريقَ وعن الطريق: لم يهتد إليه. وضلَّ الرجل في الدين ضلالاً وضلالة: ضدَّ اهتدى. وضلَّ فلان الفرسَ: ذهب عنه. وضلَّ عني كذا: أي ضاع. وضلَّ الماء في اللبن: خفي وغاب. وضلَّ فلان فلاناً: نسيه. وضلَّ الناسي: غاب عنه حفظُ الشيء. وضلَّ سعيه: عمل عملاً لم يُعد عليه نفعه (الأقرب).

وللمزيد راجع شرح كلمات قوله تعالى (ولا الضالين) في سورة الفاتحة.

الهدى: راجع شرح الكلمات في قول الله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وقوله تعالى ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾.

ربحت: ربحت تجارتُ: ربح فيها وانتفع. (الأقرب)

مهتدين: راجع شرح الكلمات لقول الله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

التفسير: لقوله تعالى: ﴿اشترُوا الضلالة بالهدى﴾ معنيان: الأول، أنهم اشتروا الضلالة وباعوا الهدى في مقابلها. والثاني، أنه عرض عليهم الهدى والضلالة فاخترأوا الضلالة وتركوا الهدى.

وأساس المعنى الأول أن الله تعالى قد وهب كلَّ انسان فطرةً سليمة وزودَه بأفضل القوى والكفاءات، كما قال الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَىٰهَا﴾ (الروم: ٣١)، وقال تعالى أيضاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٥)، أي أننا خلقنا الإنسان بأفضل المواهب والكفاءات والقدرات. ولكنه يصبح محروماً من فطرته السليمة وقدراته الطيبة إما بنفسه أو نتيجة مساوئ وأخطاء والديه، كما قال الرسول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (البخاري كتاب تفسير القرآن، ومسلم

كتاب القدر)، أي أن المولود يولد على الفطرة السليمة، ولكن والديه يستغلان طفولته فيجعلاناه على دينهم، إما يهودياً أو مجوسياً أو نصرانياً، وبتعبير آخر إنهما يضحيان بهداية المولود الفطرية ويشتريان بدلاً منها الضلالة، أو أنه بنفسه عندما يكبر يسيئ استعمال قدراته الطيبة فيفسدها، فمثلاً: قد وهبه الله الشجاعة، فيبدأ في ظلم الناس بدلاً من أن يستعمل شجاعته في مساعدة الآخرين، وهكذا فباستخدامه السيء يضع ما آتاه الله من كفاءات وقدرات طيبة.

فالمراد هنا من (الهدى) تلك القوى والقدرات الفطرية الطيبة التي وهبها الله تعالى للإنسان، والمراد من (اشترؤا) أن المشركين يستخدمون قواهم الطيبة التي أعطوها للتقدم والرقى استخداماً سيئاً، فيشترون بدلاً منها الضلالة ويصبحون محرومين من الفوائد الدينية والمادية.

وأساس المعنى الثاني (أي أن المنافقين يفضلون الضلالة على الهدى) هو أن الله تعالى قد وهب الإنسان من ناحية القدرة على التمييز بين الخير والشر، ثم خيرَه في اختيار ما يشاء، ومن ناحية أخرى يرسل له تعاليمه الحسنة والهداية على أيدي الرسل، ولكن الشياطين يعرضون على الإنسان تعاليمهم السيئة، فالذين لا يستعينون بما وهبهم الله من العقل يرفضون ما أرسل الله لهم من الهدى، ويقبلون ما يعرض عليهم الشيطان وأشياعه من الضلال، وهكذا يختارون الضلالة على الهدى.

أما قوله تعالى ﴿فما رجحت تجارتهم﴾ فلاهم تركوا شيئاً وأخذوا مكانه شيئاً آخر، فسماه الله تجارة. يقول الله تعالى إن المنافقين يظنون أنهم قد قاموا بتجارة نافعة إذ اختاروا أموراً سيئة رافضين ما آتاهم الله من فطرة طيبة، أو اتبعوا ما علمهم الشيطان من أمور سيئة معرضين عن هدي الله تعالى ظانين أنهم سيرجون بذلك ربحاً كبيراً، ولكن الواقع أنهم لن يرجحوا شيئاً بل سيتضررون ضرراً كبيراً وستكون صفقتهم كاسدة خاسرة جداً.

أما قوله تعالى ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فهو نتيجة تابعة للنتيجة السابقة، حيث بين الله تعالى أنهم لن يتضرروا ولن يذلوا في الدنيا فحسب بل ستكون هناك نتيجة أخرى وهي أنهم سيُحرَمون الهدى وتكون عاقبتهم سيئة.

لقد تبين من هذه الآية أن لكل فعل نتيجتين، عاجلة وآجلة. فمثلاً إذا سرق المرء فالنتيجة الأولى أنه يُقبض عليه ويتعرض للذل والهوان والسجن أو لقطع اليد أو لعقاب آخر، والنتيجة الثانية لفعله أنه يفقد الصلاحية لقبول الهدى ويتعد عنه. كذلك لكل حسنة نتيجتان إحداهما تظهر فوراً، حيث يشعر قلبه بالانبساط والسرور نتيجة فعل الخير، وينال العز بين الناس، وينتشر صيته بينهم، والنتيجة الثانية أنه يزداد صلاحية لقبول الهدى ويزداد هدًى باستمرار، وإلى الأمر نفسه قد أشار الله تعالى بقوله ﴿وما كانوا مهتدين﴾ حيث بين أن هؤلاء يصابون بضرر ثانٍ وهو أنهم يتعدون عن الهدى دائماً.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٨)

شرح الكلمات:

مَثَلُهُمْ: المَثَل هو الشِّبْهُ والنظير؛ الصفة؛ الحجة، يقال: أقام له مثلاً أي حجة؛ الحديث؛ القول السائر؛ العبرة؛ الآية (الأقرب).

والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لبيان أحدهما الآخر ويصوّره. (المفردات)

استوقد: استوقد النار استيقاداً: أشعلها. (الأقرب)

أضاءت: أضاءت (النار) أي استنارت وصارت مُضيئةً، وأضاءته، يتعدى ولا يتعدى (اللسان)

حوله: قعد حوله، أي في الجهات المحيطة به. (الأقرب)

ذهب به: أزاله. (الأقرب)

ظلمات: جمعُ ظلمة، والظلمة: ذهابُ النور، وقيل هي عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئاً... وربما كُنِيَ بالظلمة عن الضلالة كما يُكْنَى بالنور عن الهدى. (الأقرب)

وورد في المفردات: ويعبرُ بها عن الجهل والشرك والفسق.

وجاءت كلمة ﴿ظلمات﴾ (بصيغة الجمع) إشارةً إلى أن هذا المكان مخوف بشتى الأخطار الأخرى أيضاً، فضلاً عن الظلمة الظاهرية.

ولقد وردت هذه الكلمة في القرآن دائماً بصيغة الجمع، وجاءت دائماً للإشارة إلى أمر أخلاقي أو روحاني، ذلك لأن المعاصي والأحلاق السيئة لا تبقى على حالها، بل تزداد وتتفاقم وتولد السيئة سيئةً أخرى، والبليةُ بليةً أخرى.

لا يبصرون: أبصره: رآه؛ أخبره بما وقعت عينه عليه. وأبصرَ فلاناً: جعله بصيراً. وأبصرَ الطريقُ: استبان ووضح. (الأقرب)

التفسير: لقد ضرب الله هنا مثلاً لبيان حال المنافقين عقيدةً، أي أنهم كانوا كفاراً في قلوبهم، ولكنهم كانوا مع جماعة المسلمين في الظاهر. لقد ذكر النبي ﷺ في حديث له كلماتٍ ماثلةً لهذه الآية، فظن البعض أن الحديث شرحٌ للآية، والحديث المشار إليه هو: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتْ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ» (مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقتة على أمتة).

وقوله ﷺ (فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه) يعني أنكم تقعون في هذه النار بلا هوادة وأنا أمسككم من ظهوركم لكي لا تقعوا فيها.

لا شك أن هذا الحديث النبوي يحتوي على تمثيل ويذكر شخصاً أوقد ناراً، ولكن النبي ﷺ يقول فيه إن هذا مثلي ومثلي أمتي، بينما الآية قيد التفسير تتحدث عن الكافرين عقيدةً، أي الذين يوقنون في قلوبهم أن رسول الله ﷺ

كاذب، والعياذ بالله، والذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿وما هم بمؤمنين﴾، فكيف يمكن أن يُعَدَّوا من أمة الرسول ﷺ؟ فثبت أنه مما لا شك أن هذا الحديث يذكر كلمات مماثلة لكلمات الآية، ولكنه لا يتحدث عن المنافقين، بل يتحدث عن بعض الآثمين من الأمة الذين يؤمنون بصدق الرسول ﷺ، ولكنهم ضعفاء في أعمالهم لقلة تقواهم.

أرى أن هذه الآية تتحدث عن الحالات والمراحل التي مرَّ بها المنافقون، إذ إنهم أوقدوا النار بأنفسهم أولاً، ثم إذا انتشر ضوؤها، حُرِّموا الرؤية ولم ينتفعوا بها. والمراد من إيقاد النار هنا هو رغبتهم لوصول الدعوة الإسلامية إلى المدينة، ذلك أن دعوة الحضور إلى المدينة قد تلقاها الرسول ﷺ من أهل المدينة جميعاً. بمن فيهم هؤلاء المنافقون، ولكن عندما انتشر نور الإسلام أصابهم البغض والحسد، حتى فقدوا بصيرتهم. ومن الحقائق الروحية أن من يضلَّ بعد الاهتداء يهوي إلى دركٍ سحيق، ويفقد ما ناله من قبل من درجة الصلاح.

واستخدام لفظ ﴿النار﴾ بمعنى التعاليم الإلهية والآيات السماوية ثابت في القرآن الكريم، فعندما كان موسى ﷺ عائداً من مَدْيَن رأى تجلياً سماوياً بصورة النار حيث قال الله تعالى إن موسى ﴿آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٣٠). ثم لما اقترب موسى منها ناداه الله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: ٣١). فلفظ النار يُستعمل للتجلي الإلهي أيضاً، وهذا هو المراد هنا، أي أن هؤلاء المنافقين أوقدوا ناراً في أول الأمر، أي استدعوا التجلي الإلهي (محمدًا رسول الله ﷺ) إلى المدينة، ولكنهم بدأوا يحسدونه بعد ذلك، فحرموا من بركات الانتماء إليه.

وقد شبه القرآن الكريم في موضع آخر أيضاً الكلام السماوي بالنار حيث قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (النور: ٣٦)، أي أن زيت الفطرة السليمة قويٌّ بحيث يكاد يضيء بدون نار الوحي، بمعنى أن هذا الزيت وإن كان يشتعل بنار الوحي إلا أنه وشيك الاشتعال سلفاً من حيث قوته الذاتية.

باختصار، يراد بلفظ النار التجلي الإلهي والكلام السماوي بحسب التعبير القرآني، وعليه فمفهوم هذه الآية أن المنافقين أضاءوا بيوتهم بنار كلام الله تعالى في أول الأمر، ولكنهم أصبحوا محرومين من فوائدها في نهاية المطاف.

وتشبيه التجلي الإلهي أو الكلام الإلهي بالنار ليس معيياً، لأن النار تحرق ولا شك، إلا أنها يُعَبَّرُ بها عن الحب أيضاً، لأن الحب يولّد رغبة عارمة لا تنتهي. كذلك فإن ما يقضي على الأفكار السيئة والرغبات الآثمة ويحرقها، فتشبيهه بالنار تشبيه سليم ولطيف للغاية. وهذا هو تأثير التجلي الإلهي والكلام السماوي، أي حرق الأفكار والرغبات الآثمة، وبالتالي فإن تشبيهه بالنار جائز نظراً لتأثيره. كما أن تشبيه الكلام الإلهي والتجلي الإلهي بالماء جائز نظراً إلى تأثيراته الأخرى، وقد شبهه القرآن بالماء أيضاً.

ويُعَبَّرُ في العربية بالنار عن الحرب أيضاً، وعليه فمفهوم هذه الآية أن المنافقين أشعلوا نار الحرب بالتآمر مع الكفار ظناً منهم أنهم سيضرون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، ولكن النتيجة كانت على عكس أمانيتهم، لأن هذه الحروب زادت الإسلام قوة وشوكة وعزاً، أما المنافقون ففقدوا البصيرة، أي أصبحوا حيارى ولم يدروا ماذا يفعلون، لأن النتيجة جاءت خلاف ما توقعوا.

وقد شاع استعمال النار بمعنى الحرب عند العرب، حيث يقال: خمدت ناره، أي انهزم جمعه في الحرب. وقد ربط العرب النار بالحرب بحيث إذا خمدت نار فريق أثناء المعركة تشاءموا بالهزيمة. وقد فرّ أبو سفيان بجيش المشركين في غزوة الأحزاب بسبب انطفاء نيرانهم (سيرة ابن هشام).

وقد استخدم القرآن الكريم هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٥)، أي كلما أجاجوا نار الحرب أخمدها الله، أي خلق أسباب هزيمتهم وهوانهم.

وعليه، فمفهوم هذه الآية أن المنافقين ألبوا نار الحرب ضد المسلمين للقضاء على الإسلام، ولكنهم دُمّروا في النهاية.

ومن معاني قول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أن العبادة النورانية للإسلام التي لبسها هؤلاء المنافقون قد نزعها الله منهم نتيجة الحروب، بمعنى أن الكفار لم ينتصروا في هذه الحروب ولكن انكشف نفاق المنافقين بسببها، ذلك أن عدم حضورهم الحروب لنصرة المسلمين كشف بطلان ادعائهم بالإيمان، وعلم المسلمون الذين كانوا يحسنون بهم الظن خطأ أن هؤلاء منافقون ولا يمتنون إلى الإسلام بصلة.

والمعنى الآخر لقول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ هو أن ازدهار الإسلام كشف عن حقيقة المنافقين، ذلك أنه كلما اكتمل الدين وازداد النور الإلهي كثرت أحكام الشريعة، فيشق هذا على المنافقين أكثر فأكثر، مما يفضحهم، فيسلب عنهم لباس النور.

وقوله تعالى ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني أن المنافقين أوقدوا نار الحرب لتحقيق أهوائهم واسترجاع مجدهم، ولكنهم فضحوا وانكشف نفاقهم فوقعوا في الظلمات أكثر، أي أصبحوا حيارى لا يدرون ما يفعلون. أو معناه أن مرض نفاقهم تفاقم أكثر.

أما إذا اعتبرنا النار بمعنى الإسلام، فستعني الآية أنهم استدعوا الإسلام بأنفسهم ثم أعرضوا عنه، فحرمهم الله من نور الفطرة السليمة الذي يوهب لكل إنسان، وتركهم على حالهم، فأصبحوا محرومين من نور وحي الله تعالى ومن هداية الفطرة السليمة أيضاً.

اعترض البعض على هذه الآية قائلاً إنها تذكر شخصاً واحداً أوقد النار، ولكنها تذكر بعد ذلك ضمير الجمع، فلماذا؟

والجواب: لقد ذكرت هذه الآية مُوقد النار بلفظ ﴿الذي﴾، وهذا اللفظ يُستعمل للواحد والاثنتين والجمع، ويصح في العربية ذكر ضمير المفرد نظراً إلى اللفظ وضمير الجمع نظراً إلى المعنى. فقد ورد في كتاب "مع الهوامع" للإمام السيوطي، وهو كتاب عظيم في النحو، تحت عنوان "الموصول" قول الأخفش: "الذي كَمَنْ يكون للواحد والمثنى والجمع بلفظ واحد".

ثم أورد السيوطي برواية الأخفش شطر بيت كالتالي:
"أولئك أشياخي الذي تعرفوهم"

وقد ورد هنا لفظ (الذي) للجمع وهم الأشياخ.

وقد ورد "الذي" للجمع في مواضع أخرى في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٤). فهنا ذكر ﴿الذي﴾ و﴿جاء﴾ و﴿صدق﴾ وكلها للمفرد، ثم أشار إلى الجمع بـ ﴿أولئك﴾. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة: ٦٩)، والمراد وخضتم كالذين خاضوا.

باختصار قال الله تعالى في الآية قيد التفسير أولاً ﴿استوقد﴾ نظراً إلى لفظ ﴿الذي﴾، ثم قال ﴿بنورهم﴾ إشارةً إلى أن المراد من ﴿الذي﴾ جماعة من الناس. وهناك جواب آخر وهو أن كلمة ﴿استوقد﴾ قد تكون إشارةً إلى زعيمهم الذي أشعل النار، أما قوله تعالى: ﴿فذهب الله بنورهم﴾ فإشارةً إلى أن هذا الشخص لم يكن وحيداً بل كان معه جماعة.

وقد يُراد بهذا التعبير أن رأس المنافقين هو الذي بدأ الفساد في أول الأمر، ولكنهم كلهم هلكوا في نهاية المطاف.

ومن الاعتراضات التي تُثار على هذه الآية أنه قيل أولاً ﴿مثلهم﴾ ثم قيل ﴿كالذي استوقد ناراً﴾، أي أنه ذكر أولاً حال جماعة، ولكن بعد ذلك تحدث عن شخص واحد.

والجواب الأول هو ما ذكرنا آنفاً بأن الحديث هنا ليس عن شخص واحد، وإنما جاء فعل ﴿استوقد﴾ نظراً إلى لفظ ﴿الذي﴾، ولكن المراد به جماعة.

والجواب الثاني: إن حال جماعة تشابهُ حال شخص واحد، ولا غرابة في ذلك.

والجواب الثالث: إن تشبيه جماعة بشخص واحد لا يتنافى مع كلام الناس، فقد قال القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٦)، أي أن الذين أمروا من

عند الله تعالى بالعمل بالتوراة ثم لم يعملوا بأحكامها، مثلهم كالحمار الذي يحمل كتبًا.

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٩)

شرح الكلمات:

صُمُّ: جمع أَصَمٍّ. صَمَّ الرجلُ صَمًّا وصَمَمًا: انسدت أذنه وثقل سمعه، فهو أَصَمُّ. والأصمُّ أيضًا الرجلُ لا يُطَمَعُ فيه ولا يُرَدُّ عن هواه. (الأقرب)

بُكْمٌ: جمع أَبْكَمَ. والبُكْمُ: الخَرَسُ مع عِيٍّ وَبَلَةٍ. وقيل هو الخَرَسُ ما كان. وقال ثعلب: البُكْمُ أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر. وقال الأزهري: بَيَّنَّ الأخرس والأبكم فرقًا في كلام العرب، فالأخرس الذي خلق ولا نطق له كالبهيمة العجماء، والأبكم الذي لسانه نطقٌ وهو لا يعقل الجواب ولا يُحسن وجه الكلام. (اللسان)

عُمَيٌّ: جمع أَعْمَى. عَمِيَ: ذهب بصره كله من عينيه كليتهما. وعمي فلان: ذهب بصرُ قلبه وجَهِلَ؛ غَوِيَ. (الأقرب)

لا يرجعون: رجع الرجل: انصرف (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى إن المنافقين صم وبكم وعمي، فلا يتردعون عن شرورهم. إثم صمُّ لأنهم سمعوا القرآن ولم ينتفعوا منه، وإثم بكمٌ لأنه كان من واجبهم إذا انتابتهم الشبهات أن يسألوا عنها لتصفو قلوبهم، ولكن أخذتهم العزة بالإثم، إذ قالوا كنا أساتذة القوم فكيف نتعلم من الآخرين! فلم يسألوا وصاروا كالصم. وإثم عميٌ لأنهم رأوا بأَمِ أعينهم التغيرات الطيبة الحاصلة في المؤمنين الصادقين، ولكنهم لم ينتفعوا من ذلك. لقد تخلص المئات من الأوس والخزرج من عيوبهم الخلقية، وصارت قلوبهم عامرة بحب الله تعالى، وفاضت عيونهم بذكر الله تعالى، وتغنت ألسنتهم بأغاني تقديس الله

تعالى، كانوا يعيشون في الدنيا ومع ذلك كانوا منقطعين عنها. كان المنافقون يعرفون هؤلاء المؤمنين وكانوا مطلعين على ما حصل فيهم من ثورة روحانية بعد الإيمان، وإذا كان المنافقون لم يفهموا القرآن الكريم وخجلوا أن يقدموا شبهاتهم لمعرفة الحقيقة، فلم لم يروا هذه الثورة العظيمة الحاصلة في بيوتهم أمام أعينهم. كان ابن عبد الله بن أبي بن سلول مسلماً مخلصاً، ألم ير عبد الله كيف أن رسول الله ﷺ جعل ابن كاذب مثله إنساناً صادقاً صالحاً، وكيف جعل ابن جبان مثله شجاعاً باسلاً، وكيف جعل ابن عابدٍ للدنيا مثله يحرّ ساجداً أمام عرش الله ذي الجلال. هذه التغيرات الطيبة والثورات الروحانية كانت تقع في بيوت من سواه من المنافقين وبيوت جيرانهم أيضاً، ولكن عميت قلوبهم فلم يروا منها شيئاً.

﴿أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٠)

شرح الكلمات:

أو: حرف عطف يُفيد اثني عشر معنى، وهي: الشك؛ الإبهام؛ التخيير؛ الجمع المطلق؛ التقسيم؛ والإضراب؛ والإباحة؛ بمعنى "إلا"؛ بمعنى "إلى"؛ التقريب؛ الشرطية؛ التبعض. (مغني اللبيب)

لقد وردت (أو) في هذه الآية بمعنى الجمع المطلق والتقسيم، وفيما يلي الأمثلة:

١ - أما بمعنى الجمع المطلق، أي بمعنى الواو، أي للجمع بين أمرين، فمثاله قول الشاعر:

وقد زعمت ليلي بأني فاجرٌ لنفسي تقاها أو عليها فجورها

فقد وردت (أو) هنا بمعنى الواو، أي أن تقوى نفسي ستفني وفجورها سيكون وبالاً علي.

٢ - أما التقسيم فمثاله قول النحويين: الكلمة اسمٌ أو فعلٌ أو حرفٌ، أي أنها ثلاثة أقسام: اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ.

صَيَّب: الصَيَّب: السحاب ذو الصوب. (الأقرب)

الصَيَّب: السحاب المختص بالصوب، وهو نزول المطر بقدر ما ينفع. (المفردات)

السماء: هي: كل ما علاك فأظلك؛ سقف كل شيء؛ رواق البيت؛ ظهر الفرس؛ السحاب؛ المطر؛ المطرة الجيدة؛ العُشب. (الأقرب)

ظلمات: العرب تقول لليوم الذي تلقى فيه الشدة يومٌ مظلم. (تاج العروس)
(للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وتركهم في ظلمات لا يبصرون).

رعدٌ: الرعدُ صوت السحاب. رعدَ السحابُ: صاتَ وضجَّ للأمطار. (الأقرب)

والمراد من الرعد في هذه الآية الأحكامُ الإلهية الكبيرة وأنباء الهلاك والنبوءات الوعيدية وأحكام الحرب، فكلها قد شُبِّهت بالرعد.

برقٌ: البرق وميضُ السحاب. (الأقرب)

والمراد من البرق هنا مشاهد الحرب، والنكات العلمية البينة، والآيات الدالة على الصدق، والغنائم، والانتصارات الإسلامية.

يجعلون: جعله: صنعه، ومنه قيل: جعل الله الظلمات والنور. جعل الشيءَ: وضعه. وجعل: ظنَّ، يُقال جعل البصرةَ بغداداً، أي ظنَّها إياها؛ وجعل يعني

شرع، يقال: جعل ينشد. (الأقرب)

ومعنى يجعلون في هذه الآية أنهم يضعون أصابعهم في آذانهم.

الصواعق: جمع الصاعقة وهي: الموت؛ كلُّ عذابٍ مُهلك؛ صيحةُ العذاب؛ نارٌ تسقط من السماء في رعد شديد لا تمرّ على شيءٍ إلا أحرقتة. (الأقرب).

والصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها. (المفردات)
حذر: الحذر: التحرزُ ومجانبةُ الشيء خوفاً منه. (الأقرب)

الموت: زوال الحياة عمن اتصف بها. (الأقرب)
الموت: زوال القوة الحيوانية وإبادة الروح عن الجسم. وأنواع الموت بحسب أنواع الحياة:

فالأوّل: ما هو بإزاء القوّة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنبات، نحو قوله تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٢٠).

الثاني: زوال القوة الحاسة، كقول مريم عليه السلام في القرآن: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ (مريم: ٢٤).

الثالث: زوال القوة العاقلة وهي الجهالة نحو: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام ١٢٣).

الرابع: الحزن المكدر للحياة وإياه قصد بقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (إبراهيم: ١٨).

والخامس: المنام. (المفردات)
وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والمهرم والمعصية (اللسان).

والله: الواو هنا حالية، والمعنى أن الكفار ماداموا قد وقعوا في بطش الله تعالى وصاروا موشكين على الهلاك، فالخوف منهم حماسة.

محيط: أحاط بالأمر: أحدقه من جوانبه. (الأقرب)

التفسير: بدءاً من هذه الآية يتحدث القرآن الكريم عن فئة ثانية من المنافقين، وهم الذين لم يكونوا كافرين في قلوبهم، ولكن كان إيمانهم ضعيفاً،

فكانوا يخشون عندما كانوا يطالبون بالتضحيات أو عند هجوم الأعداء، وكانوا من عقوبة الناس أشدّ خوفاً من عقوبة الله تعالى، لذا كانوا في الظروف الصعبة يتواصلون مع الكفار في السر استرضاءً لهم، أو كانوا يتكلمون معهم بما يوهّمهم أنهم ناصحون لهم، أو كانوا يمدّونهم ببعض أخبار المسلمين، معلّين أنفسهم بأن الإسلام دين الله الحق، ولن يتضرر بتصرفهم هذه ضرراً حقيقياً، فما الحرج لو صانوا أنفسهم من الأذى والمعاناة بهذا التصرف.

ولكن لا مكان لمثل هؤلاء القوم أيضاً في الإسلام الذي هو دين التضحيات، ولذلك يعلن القرآن الكريم منذ بدايته صراحةً أن مثل هؤلاء القوم منافقون عند الله تعالى وسوف يعاملهم كما يعامل المنافقين. إن الإسلام يعني التضحية بكل شيء لرضا الله تعالى، فالذي لا يستطيع أن يُنشىء مع الله تعالى علاقة مخلصّة صادقة فلا يرجو الجوائز المنوطة بالإسلام.

أما الدليل على أن هذه الآية وما بعدها تتحدث عن ضعيفي الإيمان -الذين كانوا لا يساهمون في مهمات الأمة بشجاعة لضعف إيمانهم، بل يظهر ضعفهم عند الاختبار- فهو أن الآيات السابقة تتحدث عن المنافقين الذين يوقدون النار، أما هذه الآيات فلا تتحدث عن إيقاد المنافقين للنار، بل تتحدث عن ظهور أسباب من السماء. في الآيات السابقة أخبر الله تعالى أنه ذهب بنور المنافقين عند إضاءة النار، أما في هذه الآية فأخبر أن هؤلاء القوم يقفون على أقدامهم ويمشون قدماً كلما أضاءت النار. ثم في المثال السابق المذكور في الآيات السابقة قال الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين وأنهم صم وبكم وعمي، بينما يقول عن المذكورين في هذا المثال إنه لو أراد الله تعالى لجعلهم صمًا وعميًا، ولكنه لم يفعل ذلك حتى الآن، إلا أنهم لو استمروا في تصرفاتهم فسوف يصبحون صمًا وعميًا. كذلك في المثال السابق قال الله تعالى إن هؤلاء يريدون إلحاق الضرر بالمسلمين، أما في هذا المثال قال إنهم لا يريدون إلحاق الضرر بالمسلمين، وإنما يتخلّون عنهم عند المصائب حذر الموت.

لقد اعترض البعض هنا قائلاً: إن ورود لفظ ﴿أو﴾ في هذه الآية يعني أن المنافقين ينطبق عليهم المثال الأول أو المثال الثاني، وهذه العبارة تدل على الشك، والله تعالى أسمى من الشك، فثبت أن هذا كلام البشر.

هذا الاعتراض دليل على قلة تدبر المعترض، لأن هذه الآية ما كانت تعطي معنى الشك إلا إذا كان مفهومها أننا لا ندري أحال المنافقين كما ورد في الآية السابقة أم كما ورد في هذه الآية، ولكن لا يوجد في هذه الآية أية كلمة يُستنبط منها هذا المفهوم. لا جرم أن لفظ ﴿أو﴾ الوارد في هذه الآية يفيد التقسيم أو الجمع المطلق كما أسلفنا، لكن لا يدل أيُّ من هذين المعنيين على الشك هنا. لو فسّرنا ﴿أو﴾ هنا بمعنى الواو، فستعني الآية: أن المنافقين ينطبق عليهم المثال الأول والمثال الثاني أيضاً، أي أن المنافقين فئتان ينطبق على إحدهما المثال الأول وعلى الأخرى المثال الثاني. أما إذا فسّرنا ﴿أو﴾ بمعنى التقسيم فستعني الآية: أن حالة المنافقين إما ما ذكرنا في الآيات السابقة، وإما ما نذكرهم الآن، أي أن إحدى فئتي المنافقين حالها ما سبق ذكره والأخرى صفتها ما نذكره الآن.

لقد سبق أن ذكرنا عند شرح الكلمات أن (أو) يفيد التقسيم، بالإضافة إلى الشك والإبهام. أي أنه يفيد بيان أقسام الشيء، كقولنا: "الكلمة اسم أو فعل أو حرف"، وهذا لا يعني بأننا لا نعرف هل الكلمة اسم أو فعل أو حرف، وإنما المراد أن الكلمة ثلاثة أقسام: اسم أو فعل أو حرف. وعليه فهذه الآية تعني أن المنافقين قسمان: أحدهما أولئك الذين هم كافرون في الحقيقة، ولكنهم أسلموا في الظاهر، والقسم الثاني أولئك الذين هم مسلمون عقيدةً، ولكنهم لضعف إيمانهم يوالون الكفار ولا يضحّون في سبيل الإسلام خوفاً من الكفار.

ورد في ديوان الحماسة بيت شعر لجعفر بن علبة الحارثي:

فقالوا لنا ثنتان لا بد منهما صدور رماح أشرعت أو سلاسلُ

أي: أنهم قالوا لنا: ليس عندنا لكم إلا شيئان ولا بد لكم من اختيار أحد منهما، فإما أن تتلقوا رؤوس الرماح المرفوعة أو السلاسل، أي أننا سنقتل

بعضكم ونأسر بعضكم. وليس في هذا التعبير شائبة شك، وإنما هو تقسيم للأعداء حيث يقول الشاعر: سنقسمهم قسمين، نقتل بعضهم ونأسر بعضهم. وكما قلنا آنفاً أن (أو) يفيد الجمع المطلق أيضاً، وليس التخيير فقط. ومثاله قول الشاعر:

لنفسى تقاها أو عليها فجورها

فهو لا يعني أن نفسي ستال تقواها أو فجورها، بل يعني أن نفسي ستال جزاء تقواها وأيضاً عقاب آثامها.

ثبتت من هذه الأمثلة أن الآية لا ذكر فيها للشك، بل قد بين الله فيها أن المنافقين الوارد ذكرهم هنا نوعان: النوع الأول مذكور قبل هذه الآية، والنوع الثاني مذكور في هذه الآية. وهناك مثال آخر لاستعمال (أو) وهو قول الشاعر:

قوم إذا سمعوا الصراخ رأيتهم ما بين ملجمٍ مُهَرَّةٍ أو سافِعٍ

(لسان العرب)

أي أنهم إذا سمعوا صوتَ مستغيث تراههم مسارعين إليه، فيبدأ بعضهم في إجمام حصانه وبعضهم يجر حصانه من شعر ناصيته. أي كلهم يهّبون فوراً لإغاثة المستغيث.

باختصار هذه الآية تتحدث عن فئتين من المنافقين ولا تدل على الشك. الحق أن هؤلاء المعارضين لم يفكروا أن القرآن الكريم لا يتحدث هنا عن فرد واحد، بل عن طائفة أوضاع أفرادها مختلفة، وفي مثل هذا السياق لا يكون لفظ ﴿أو﴾ للشك، وإنما يكون الشك حين تُذكر حالتان لشخص واحد باستعمال لفظ (أو)، كأن يقال زيد قائم أو قاعد. ولكن إذا قيل عن جماعة إنهم قائمون أو قاعدون، فالمعنى أن بعضهم قائمون وبعضهم قاعدون.

بل الحق أنه لو ذُكرت حالتان لشخص واحد باستخدام (أو)، فهذا أيضاً لا يدل على الشك. فمثلاً نستطيع القول عن شخص جبان: إنه يفر أو يختفي عند الخطر، فهذا لا يعني أننا لا نعلم ماذا يفعل، بل نعي أنه يخاف في الموقف الخطير، فحيناً يلوذ بالفرار، وحيناً يختفي في مكان.

خلاصة القول: إن هذه الآيات لا تدل على الشك، بل تبين أن المنافقين فئتان: فئةٌ مثلها كمثّل قوم إذا نزل المطر المصحوب بالظلمة والرعد والبرق تقدموا تقدماً جيداً، ولكن لو نزلت الصاعقة توقفوا واضعين أصابعهم في آذانهم مخافة الموت، مع أن المطر آيةٌ رحمة الله ولا بد من أن يكون مصحوباً بالظلمات والرعد والبرق، كما أن حدوث الصواعق عند المطر ظاهرة كونية، فحرمان المرء نفسه من منافع المطر خوفاً من هذه الظواهر حماقة وغباء. على سبيل المثال، لو جلس الفلاح عند المطر عاطلاً في بيته واضعاً أصابعه في أذنيه، بدلاً من أن يصلح أطراف حقله ليجمع فيه الماء، فلن يعده أحد من العاقلين. إن ظهور الإسلام كمطر السماء، ولا بد أن يكون مقروناً بظلمات ورعد وبرق، والمؤمنون يدركون ذلك جيداً فينتفعون منه بتقديم التضحيات بدلاً من الخوف، ولكن المنافقين ضعيفي الإيمان والعمل يظلّون قابعين في بيوتهم خوفاً من هذه الأهوال، فيظلّون محرومين من هذه المنافع المقرونة بالبرقي الظاهري للإسلام، كما يجلبون على أنفسهم سخط الله أيضاً.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿والله محيط بالكافرين﴾، أي ممّ يخاف هؤلاء؟ يخافون إيذاء الكفار الذين قد قضى الله تعالى بهلاكهم؟ فلم الخوف من قوم قد قضى الله بهلاكهم؟!

لقد بين الله تعالى هنا أنه كلما ظهرت جماعة ربانية في الدنيا صاحبت ظهورها ظلمات وبرق ورعد كما هو حال السحاب الممطر، بمعنى أنه لا بد للجماعات الربانية من مواجهة الحن والشدائد. ومن هذه الظلمات مثلاً أن المؤمنين يؤمّرون حيناً بقطع صلاتهم عن أقاربهم وأصدقائهم السيئين، وحيناً يؤمّرون بالهجرة، وتارةً يُدعَوْنَ إلى تقديم التضحية المالية، وأخرى يطالبون بالتضحية بالنفس.

ثم إن الجماعات الربانية تكون مصحوبة بالرعد، بمعنى أنها تعلن مواجهة العالم كله، فيتراءى للرائي أن هذه الجماعة قد جعلت الدنيا كلها عدواً لها بدعوها إلى دينها.

ثم إن هذه الجماعات تكون مصحوبة بالبرق أيضاً، أعني تظهر هناك أمور تُبهر الأبصار.

ثم إن هذه البروق تصبح صواعق أحياناً، بمعنى أن الأعداء يشنون هجمات على المؤمنين للقضاء عليهم، أو أن المؤمنين يقومون بهجمات مضادة على الكافرين، وفي بعض الحالات يُقتل المؤمنون نتيجة هذه الحروب.

إن ضعاف القلوب من المنافقين يخافون جميع أنواع المشاكل، ولكن تكاد تزهق نفوسهم من هذا الخطر الأخير بوجه خاص.

ولقد رد الله تعالى في هذه الآية على أولئك الذين يزعمون أن بعثة الأنبياء مدعاة إلى ظهور الفساد والشتات، فأخبرهم أن المطر نعمة ربانية ذات منافع عديدة، ولكن تصحبه أيضاً بعض الظواهر الشديدة، حيث تختفي الشمس وتحلّ الظلمة، ويكون هناك رعد وبرق. كذلك الأنبياء، فعند بعثتهم تكون هناك ضجة من المعارضة والشر، ولكنها لا تكون علامة نحس وشؤم، بل تكون بشارة بالبركات المقبلة. إن مثل تغيّر معاملة الله مع العباد كمثل الشمس التي تختفي عند المطر، ولكن بعد هطول المطر الروحاني تشرق الشمس الإلهية ثانية وهي أحلى ما تكون منظراً وجلالاً.

لقد سبق أن بينّا لدى شرح الكلمات أن الصاعقة تعني الصوت الشديد المصحوب بالسحب الذي يكون معه نار، ومن معانيها أيضاً الموت والعذاب. وهذه هي الأمور التي يخافها ضعاف القلوب، ولكن الله تعالى يقول: أولاً، ماذا ينفعهم وضع أصابعهم في آذانهم بسبب الصاعقة. إن صوت الصاعقة يصدر بعد سقوطها، فما الفائدة بعد سقوطها من وضع الأصابع في الأذان مخافة الموت.

وثانياً: مادام الله تعالى قد أعلن الحرب، فلن يتغير قرار الحرب هذا نتيجة خوف المنافقين. والنتيجة الحتمية الآن هي أن الكفار سيهاجمون المسلمين، فتقع المضرات على المنافقين لا محالة، أو يبدأ الهجوم من جانب المسلمين على الكفار، وبالتالي يتضرر المنافقون أيضاً، ولا مناص من كون إعلان الحرب الذي

صدر من الله لن يُلغى بوضعهم أصابعهم في آذانهم، كذلك فإن هذه الحرب بين الكفر والإيمان لن تتوقف بسبب جنهم.

وكما سبق عند شرح الكلمات فإن الصاعقة هي غير الظلمات والرعد والبرق، وليس ضرورياً أن تسقط الصاعقة مع البرق، فهي تسقط أحياناً، لا دوماً، كذلك فإن المواجهة مع الكفر لا تؤدي إلى الحرب دائماً. وأحياناً يضيء البرق المكان فقط بدون سقوط الصاعقة معه، وأحياناً تسقط معه الصاعقة أيضاً، كذلك فعندما لا يكون برق الإسلام مصحوباً بنزول الصاعقة فلا يصاب المنافقون بالقلق، لأن ظهور البرق وحده إظهار لشوكة الإسلام وقوته، ولكن إذا كان هذا البرق مصحوباً بالصاعقة، فإن المنافقين يصابون بالهلع الشديد. وقد بين الله هذا الفرق في الآية التالية.

لقد اختلف النحويون حول قوله تعالى ﴿من الصواعق﴾ و﴿حذر الموت﴾؛ قال أكثر المفسرين إن ﴿حذر الموت﴾ هو مفعول له، وردّ عليهم آخرون فما القول في ﴿من الصواعق﴾ إذا؟ فأجاب الفريق الأول أن ﴿من﴾ هنا سببية، فقال الفريق الثاني إذا كانت سببية فمعنى ذلك أنها أيضاً بمعنى مفعول له، وفي هذه الحالة لابد من ورود حرف عطف بين المفعولين له. فأجاب الأولون أن قوله تعالى ﴿من الصواعق﴾ بمعنى المفعول له، أو في محله، لكن (من) هنا ليست مفعولاً له على وجه الحقيقة، وبالتالي فإن "معنى المفعول له" شيء، أما "المفعول له" فهو شيء آخر، فلا حاجة لورود حرف العطف. (البحر المحيط)

وقد حل بعض النحويين هذا الإشكال بقولهم أن قبل ﴿حذر الموت﴾ فعلاً محذوفاً هو (يحذرون)، والتقدير: يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً ويحذرون حذر الموت (إملاء ما من به الرحمن لأبي البقاء).

وقال صاحب الكشف أن قوله تعالى ﴿من الصواعق﴾ متعلق بـ﴿يجعلون﴾.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١)

شرح الكلمات:

البرق: راجع شرح كلمات الآية السابقة.

يَخْطَفُ: خَطَفَ الشَّيْءَ: اسْتَلَبَهُ بِسُرْعَةٍ. وَخَطَفَ الْبَرْقُ الْبَصَرَ: ذَهَبَ بِهِ. (الأقرب)

أَضَاءَ: راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ...﴾

أَظْلَمَ: أَظْلَمَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ: صَارَ مَظْلَمًا عَلَيْهِمُ (الأقرب). أَيِ أَحَاطَتْ بِهِمُ ظِلْمَتُهُ.

ذَهَبَ: ذَهَبَ بِهِ: أَزَالَهُ. (الأقرب)

لقد ورد لفظ (ذهب) في القرآن الكريم بمعان عديدة منها مثلاً، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ (هود: ٧٥)، أَيِ زَالَ خَوْفُهُ.

وقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ٩)، أَيِ فَلَا تَهْلِكِ نَفْسُكَ.

وَأَذْهَبَهُ يَعْنِي: ذَهَبَ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ٢٠)

فالمراد بقول الله تعالى ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾: لَضَيَّعَهُ وَدَمَّرَهُ.

الشَّيْءُ: مِنْ شَاءَ يَشَاءُ: أَيِ أَرَادَ. وَالْمَصْدَرُ فِي الْعَرَبِيَّةِ يُسْتَعْمَلُ أحياناً مَكَانَ اسْمِ الْمَفْعُولِ، وَقَدْ وَرَدَ ﴿الشَّيْءُ﴾ هُنَا بِهَذَا الْمَعْنَى، أَيِ بِمَعْنَى: مَا يَرَادُ، أَوْ يُبْتَغَى، أَوْ يُقْصَدُ. وَالشَّيْءُ أَيْضاً كُلُّ مَا يَصَحُّ أَنْ يُعْلَمَ أَوْ يُخْبَرَ عَنْهُ. (الأقرب)

ويترجم لفظ الشيء عموماً بمعنى الأمر، ولكن معناه الحقيقي ما يشاؤه أو يريده الفاعل. وبعض الجاهل الذين لا يعرفون هذا المعنى ينخدعون بقوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ويقولون: هل يعني ذلك أن الله قادر على أن يسرق أو يموت أيضاً؟ والحق أن الله تعالى لا يريد السرقة ولا الموت، لأن هذا عيب وليس بكمال، والله بريء من العيب.

قدير: قدر عليه قدرًا وقدرًا: قَوِيَ عليه. القدرة: القوة على الشيء والتمكن منه. (الأقرب)

والقدرة إذا وُصف بها الإنسان فاسمٌ لِهَيْئَةٍ له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وُصف الله تعالى بها فهي نفْيُ العجز عنه. ومحال أن يُوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنًى، وإن أُطلق عليه لفظًا. والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه. (المفردات)

والقدير صيغة المبالغة للقدرة، أي كثير القدرة وعظيمها.

التفسير: لقد بين الله تعالى في قوله تعالى ﴿يكاد البرق يُخطفُ أبصارهم﴾ أنه لو نزلت هذه الصاعقة مرة بعد أخرى لكان هناك خطر ضياع أبصارهم، أي ضياع إيمانهم نهائيًا، ولكن الله تعالى دبر الأمر بحيث أن هذا البرق يكون بمثابة السراج الذي يضيء الطريق أحيانًا، بمعنى أنه يُهيء أسباب ظهور شوكة الإسلام وقوته، فينضم هؤلاء المنافقون إلى المسلمين نتيجة رؤية الآيات، ولكن في أحيانٍ أخرى تكون الصواعق مصاحبةً للبرق أيضاً، فتُظلم الدنيا في أعينهم، فيتوقفون خائفين، ويفرضون المضي قدماً مع المسلمين.

يتضح من هذه الآية أن ظهور البرق بطريقتين مختلفتين يترك على المنافقين تأثيرين مختلفين، فعندما يظهر مصحوبًا بالضوء فقط يكون عليهم تأثيره على عكس تأثيره عندما يكون مصحوبًا بالموت والهلاك. يبدو من ظاهر كلمات الآية أن الضوء والظلمة كلاهما فعلُ البرق، لأن الفعلين (أضاء) و(أظلم) كلاهما من أفعال البرق، ولكنَّ الواقع يشهد أن البرق يُضيء ولا يُظلم، فثبت أن الظلمات هنا لا تعني الظلمات الظاهرة بل هي إشارة إلى الدمار والهلاك نتيجة

سقوط الصاعقة. وهناك دليل آخر على ذلك وهو أن الله تعالى قال في بداية هذه الآية ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾، ولكنه قال أيضًا ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾، بمعنى أنهم يطمئنون عندها وينضمّون إلى المسلمين للعمل معهم. فما داموا يصبحون على ما يرام عند الضوء ويتفعلون بدلًا من أن يتضرروا، فمتى يخطف البرق أبصارهم؟ ولو قيل أنه يخطف أبصارهم حين لا يُضيء ويسود الظلام، فهذا القول خلاف للعقل والواقع، لأن البرق لا يخطف الأبصار حين لا يُضيء. فثبت أن الظلمات هنا ظلمات معنوية، أي شدة المصائب والحن. وتنسب المصائب والشدائد إلى البرق عندما يصبح صاعقة فتسقط وتُهْلِك.

فمفهوم الآية أنه عندما يُضيء البرق ولا تسقط الصاعقة فإنهم يطمئنون ويسيروا مع المؤمنين، ولكن البرق عندما يؤدي إلى ظلمات، أي يتحول إلى صاعقة ويؤدي إلى الموت والهلاك، فإنهم يتوقفون مذعورين ويتخلون عن المسلمين. ثم يقول الله تعالى ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾. سبق أن ذكرنا أن الذهاب بالشيء يعني إزالته أو إضعافه، وهذا هو المعنى الذي ينطبق هنا، حيث بين الله تعالى أنه لو أراد لدمّر سمعهم وبصرهم، أي أنهم يُوفّقون حتى الآن لسماع القرآن والإيمان به، ولكنهم إذا ظلوا على حالهم هذه فمن الممكن تمامًا أن يضيع ما عندهم من الإيمان، ولا يتولد في قلوبهم الإيمان مطلقًا بسماع القرآن أيضًا. كذلك لو استمر وضعهم هذا فهناك خطر أن يفقدوا أبصارهم أيضًا، أي انفصلوا عن المسلمين كلية بسقوط الصاعقة مرارًا، أي بحلول المصائب والآفات على التوالي. إنهم في الوقت الحالي يسيرون مع المسلمين طالما الضوء موجودًا، ولكنهم لو استمروا على هذا الوضع فسوف يفقدون بصرهم الروحاني، وبالتالي فلن يحالفهم التوفيق لمرافقة المسلمين ما داموا على هذا التردّي، بل إنهم سيخذلوهم كليةً لا محالة.

وهذه الآية من الآيات التي يصعب تفسيرها، وقد فسّرها الآخرون تفسيراً مجملًا ولم يفسروا كل فقرة منها تفسيراً تنسجم به كل فقرة من فقراتها، ولكني تمكنت بتوفيق الله تعالى من تفسيرها جزءاً جزءاً، ثم الربط بين عناصرها من

ناحية وبينها وبين الآيات السابقة والتالية لها من ناحية أخرى، فلا يبقى في فهمها أي غموض أو إشكال.

يظن البعض أن القرآن الكريم لا يقول بوجود المنافقين عملاً، ويرون أن المثال الثاني المذكور في قوله تعالى ﴿أو كصيب... الآية﴾ هو أيضاً عن المنافقين عقيدة. أذكر أنني عندما كنت أدرس القرآن الكريم على يد حضرة المولوي نور الدين الخليفة الأول رحمته الله كان يدرس معي الحافظ المرحوم "روشن علي" الذي كان من العلماء الأجلاء الموهوبين بملكة خاصة في استنباط معاني القرآن الكريم -أنزل الله عليه بركاته ووهبه القربى والزلفى عنده. وكان الحافظ يناقش حضرته كثيراً حول موضوع النفاق، وكان يقول إن وجود المنافقين في الأعمال محالٌ عقلاً، وإنما المنافق من هو فاسد العقيدة.

والحق أن مفهوم هذه الآيات يدل على أنها تتحدث عن المنافقين بالعمل. وبالإضافة إلى ذلك قد عثرتُ على حديث لرسول الله ﷺ يذكر المنافقين بالعمل، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلبٌ أجردٌ فيه مثلُ السراج يزهَر، وقلبٌ أغلفٌ مربوطٌ على أغلافه، وقلبٌ منكوس، وقلبٌ مصفَح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجُه فيه نورُه، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلب المصفَح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثلُ الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثلُ النفاق فيه كمثل القُرْحَةِ يمدّها القيح والدم، فأَيُّ المَدَّتَيْنِ غلبت على الأخرى غلبت عليه» (مسند أحمد بن حنبل، باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري).

أي أن قلوب البشر أربعة أنواع: أولّها قلبٌ صافٍ شفاف كالسيف اللامع، مستعدٌّ لخدمة الدين دائماً، وقلب آخر مُغلفٌ بالغلاف بإحكام، وقلبٌ ثالثٌ هو منكوس، وقلبٌ رابعٌ مُعوجٌّ أو مدفون تحت الأحجار. والقلب الأول الذي هو صافٍ وشفاف هو قلب المؤمن، وسراجُه ذلك النور الذي فيه، أما القلب المُغلفٌ بأغلفة محكمة فهو قلب الكافر لأن الحق لا يدخل فيه والكفر لا يخرج منه، وأما القلب المنكوس فهو قلب المنافق الذي يؤمن بالحق أولاً ثم يضيع

إيمانه، أما القلب المدفون تحت الأحجار فهو قلب إنسان فيه إيمان ونفاق كلاهما، فمثل إيمانه كالخضار التي يسقيها الماء الطيب، ومثل نفاقه كجرح يفسده القيح والدم، فأَي الحالتين غلبت عليه ينضم إلى أصحابها.

فهذا الحديث يؤكد أن من المنافقين مَنْ يُعَدُّ مسلمًا من حيث الإيمان، ولكنه ضعيف من ناحية العمل، فإن غلبت عليه حالة إيمانه أصبح مؤمنًا، وإن غلبت عليه حالة نفاقه صار منافقًا كاملًا، أي يضع إيمانه كلية.

هذا الحديث شرحٌ لهذه الآيات، لأنها أيضًا تبين أن أَسْمَاع وأَبْصَار هؤلاء لم تزلْ بعد، ولكنهم لو استمروا على هذه الحالة فهناك خطر كبير أن تضيع تماما. إن هذه الآيات تنبه المؤمن تبيينًا قويًا حيث بيّنت أنه كلما نزل الهدى من عند الله تعالى كان في بدايته مصحوبا بكثير من المحن والمصائب. إن طريق الدين ليس مفروشا بالورود، بل إن الإنسان يصل إلى غايته الروحانية عبر كثير من الفياق الحفوفة بالأهوال، فإن أردتم الإيمان فلا بد لكم من الصبر على تلك المصاعب، ولا مناص لكم من تقديم التضحيات التي جعلها الله تعالى في سبيل هذه الغاية. إن الذي يريد أن ينال الإيمان بدون التضحيات فهو غي يريد بنفاقه الفوز برضى الله، ولن ينجح في مرامه أبدًا. لو أن الباحثين عن الحق أدركوا هذا السر فإن نجاحهم مؤكد، وإلا فإنهم يننون قلاعًا في الهواء، وسيجلبون عليهم غضب الله بدلًا من فضله، أعاذنا الله من ذلك.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبين الله فيه أن خوف ضعاف الإيمان سببه أنهم لا يؤمنون إيمانًا كاملًا، ولا يدركون صفات الله حق الإدراك. لماذا يخافون تقديم التضحيات ياترى؟ إنما سببه أنهم يخافون الأذى الذي يمكن أن يصيبهم بيد الكفار. لو كانوا موقنين بصفات الله تعالى حق اليقين لما ساورتهم هذه الشبهة. لو كانوا موقنين بأن الله تعالى قادر على كل أمر أبرمه، فكيف يمكن أن يخافوا من أذى الكفار؟ عليهم أن يدركوا أن الله إذا أراد أمرًا فإنه قادر على تنفيذه كل القدرة، ولا مانع لما أراد. وما دام الله تعالى قد قضى بازدهار الإسلام وغلبته فأنتى للكفار أن يحولوا دون قضاء الله هذا مهما امتلكوا في

الظاهر من القوة والأسباب. لذا يجب على هؤلاء القوم أن يتدبروا صفات الله تعالى ويقوّوا إيمانهم، ولو فعلوا ذلك زال عنهم الخوف تلقائياً.

لا جرم أن كل أنواع الضعف والإثم ناجم عن عدم إدراك الصفات الإلهية وعدم الإيمان الكامل بها. فمن خاف غير الله تعالى فليعلم أن إيمانه بصفات الله تعالى ناقص بقدر خوفه، وإلا ما تولّد في قلبه خوفٌ ممّا سوى الله تعالى.

لقد اعترض البعض على قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قائلًا: هل الله قادر على أن يكذب أو أن يموت؟

هذا الاعتراض ناجم عن قلة التدبر وضحالة التفكير. ذلك أن القدير يدلّ على كمال القدرة والقوة، فمتى كان الكذب والموت علامة القدرة والقوة حتى يقول أحد بسبب هذه الآية هل الله قادرٌ على الموت والكذب؟! إن مثل هذا الاعتراض كمثّل أن يقول أحد: إن فلانا عظيم الشجاعة، فيعترض عليه غيره قائلًا: هل هو شجاع بحيث يهرب من الفأر؟! فمن ذا الذي يعدّ مثل هذا المُعترض من العقلاء؟.

كما أن قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يعني كل ما يشاءه الله سبحانه وتعالى ويريده، ذلك أن "الشيء" مصدر بمعنى المشيئة والإرادة، ومفهوم الآية أن الله تعالى قدير على كل ما يشاءه هو ويريد. وهكذا فإن كلمات الآية نفسها تفنّد هذا الاعتراض كلية، لأن الله تعالى لا يريد لنفسه الموت والكذب، لأنهما علامة ضعف، ومنافيان للقدرة والكمال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)

شرح الكلمات:

اعبدوا: العبادة: غاية التذلل (المفردات). للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (إياك نعبد) في سورة الفاتحة.

ربكم: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (رب العالمين) في سورة الفاتحة.
خَلَقَكُمْ: خَلَقَ (يَخْلُقُ) الْأَدِيمَ: قَدَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَهُ. خَلَقَ الشَّيْءَ: أَوْجَدَهُ
 وأبدعه على غير مثال سبق. (الأقرب)
 فالخلقُ له معنيان: التقدير والاختراع.

لعلكم: (لعل) من الحروف المشبهة بالفعل... وإذا اتصلت بها ياء المتكلم
 جاز أن تلحقها نون الوقاية، وجاز تجريدتها منها وهو الأشهر، تقول: لعلّي
 ولعلّني. والمشهور في عملها أنها تنصب الاسم وترفع الخبر مثل (إنّ) نحو: لعلّ
 زيداً مقبلاً. وذهب الفراء مع أصحابه أنها تنصب الاسم والخبر نحو: لعل زيداً
 منطلقاً... ولها معانٍ عدة أحدها التوقع وهو تَرْجِيّ المحبوب والإشفاق من
 المكروه... وتختص بالممكن الذي لا وثوق بمحصوله كقول فرعون ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ
 الْأَسْبَابَ* أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ (غافر: ٣٧-٣٨)، قيل إنما قاله جهلاً (الأقرب).

أي قال المفسرون أن فرعون قال هذا بسبب جهالته، إذ كان يظن لغبائه أنه
 سيجد الطريق إلى الله تعالى من مكان عال. ولكني أرى أن هذا المعنى غير
 صحيح، إنما أراد فرعون بقوله هذا أنه سوف يتصدى لموسى بمعرفة مستقبله من
 خلال علم الهيئة والفلك. ومع أن هذه العقيدة باطلة، إلا أنها شائعة على نطاق
 واسع. أو أن فرعون قال هذا على سبيل السخرية، ذلك أن موسى ﷺ كان
 يقول مرة بعد أخرى إن الله في السماء وإنه وملائكته يكلمونني، فقال فرعون
 ساحراً تعالوا ابنوا لي بنياناً مرتفعاً لعلنا نصل إلى إله موسى ونكلمه نحن أيضاً،
 أي أن الإيمان بأن الله في السماء ثم الادعاء بأنه يُكلمني منافٍ للعقل. ولا غرابة
 في فشل الجاهلين بالعلوم الإلهية في إدراك قضية مكالمة الله تعالى مع العباد.

ويتابع صاحب أقرب الموارد في بيان معاني (لعل) ويقول: إن المعنى الثاني هو
 التعليل، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

والثالث: الاستفهام، أثبتته الكوفيون.

وقال (أبو البقاء) في الكليات: كل ما في القرآن من (لعل) فهي للتعليل إلا
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٣٠)

والمراد من قول أبي البقاء هذا أنه حيثما ورد (لعلّ) في القرآن الكريم فهو بمعنى التعليل لا للتوقع إلا في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. (الأقرب)

والرابع: ويكون من قبيل كلام الملوك، أي يقوله الملك أو غيره عنه على سبيل التوقع، بمعنى أنه أمرٌ مؤكد ويطيّن.

تقون: راجع شرح كلمات قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

التفسير: استهلّ القرآن الكريم بإعلان أن خير الدواء ما يصفه العليم الخبير، وهو الله تبارك وتعالى، وأن القرآن الكريم هو الدواء الناجع لتكميل الناس روحانياً؛ فإنه أولاً: كتاب جامع للكلمات كلها؛ وثانياً: مبرأ من كل ريب، أي من كل عيب؛ ثالثاً: يفتح باب الكمال والرقى بلا حدود، ويتدرج بالمتقي أعلى فأعلى حسب كفاءته. ثم بيّن للمتقين الشروط التي وضعها لمعاصري القرآن الكريم. ثم بيّن مصير الذين يكفرون بهذا الوحي الإلهي. ثم ذكر طائفة ثلاثة تدّعي الإيمان بلسانها ولكن قلوبها من الإيمان هواء، أو قلوبهم مؤمنة ولكنهم لا يجرؤون على العمل بحسب ما يأمرهم به القرآن، وأخبر أن هذه الطائفة بنوعيتها لن تستفيد من القرآن الكريم، لأن القرآن ما جاء لمجرد أن يشكل طائفة جديدة ليفرح الناس بالانتساب إليها بلسانهم فقط، بل قد جاء ليُحدث تطوراً حاسماً في حياة البشر، فما لم يسعوا للعمل به بعد الإيمان فلن ينتفعوا منه شيئاً، كما لا يمكن اعتبارهم من المؤمنين بالقرآن الكريم.

بعد رسم هذه الخطة بإجمال، يوجه القرآن الكريم في هذه الآية أنظار الناس إلى أنه يبلغ بالإنسان إلى المراتب العليا من التقوى، فعليهم أن يكونوا متقين، لكي يتمتعوا بالمنافع المنوطة بالقرآن، وسيله أن يعبدوا ربهم ليكونوا من المتقين. والعبادة، كما بيّنا عند شرح الكلمات، تعني التذلل الكامل والاتباع الشامل. فما لم يكن هناك اتباع كامل ولم يجعل الإنسان نفسه صالحاً لتلقي التأثيرات الإلهية، فلا تُسمى عبادته عبادة حقيقية. إن الذي يكتفي بالعبادة الظاهرية فحسب لا يمكن أن يسمى عابداً، لأنه لم يُقدّم نموذجاً صادقاً للتذلل والاتباع.

لقد قدّم الله تعالى في هذه الآية تعليمًا آخر لطيفًا وكاملًا عن العبادة، وبين كل ما لا بد منه لتكميل العبادة، وذكر فائدة العبادة أيضًا. من المعلوم أن العبادة الكاملة تتطلب علاقة كاملة، والعلاقة الكاملة تتولد نتيجة إحسان كامل يشمل العابد وآباءه أيضًا، ذلك أن الناس في الدنيا لا يصادقون أحدًا صداقة مخلصة إلا لسببين: إما أن يُحسن إليهم أو أن يكون قد أحسن إلى آبائهم من قبل. نجد في التاريخ آلاف الأمثلة للتضحيات التي قدمها الناس من أجل شخص أحسن إلى آبائهم وإن لم يكن قد أحسن إلى المضحّين إحسانًا خاصًا. لقد ضحى الآلاف بنفوسهم من أجل الملوك والزعماء الظالمين لمجرد أنهم كانوا قد أحسنوا إلى آبائهم في الماضي. ففدى هؤلاء الأولاد بأرواحهم -رغم كونهم مظلومين مقهورين- من أجل هؤلاء الملوك الظالمين لكي لا يُعدّوا من ناكري الجميل الذي صنّع لآبائهم. أما إذا اجتمع الإحسان بنوعيه، أي أن يكون أحد قد أحسن إليه وإلى آبائه أيضًا، فتثور فيه عاطفة الحب الشديد نحو المحسن. ولكي يستثير الله تعالى هذه العاطفة الفطرية في الناس قال هنا يا أيها الناس اعبدوا من خلقكم وخلق آباءكم أيضًا. فما دام بعضكم يعامل الآخر بإخلاص بناء على العلاقات العابرة، فلماذا لا تنشؤون علاقة مخلصّة مع مُحسنكم ومحسن آبائكم وأجدادكم أيضًا.

تحت هذه الآية على عبادة الله تعالى بأسلوب رائع جدًّا، ويوضّح ضرورة العبادة كل التوضيح، حيث قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. لقد أشار الله بذلك إلى أن صانع الشيء هو الأدري بكفاءاته وقدراته، فالمهندس الذي يشيد بناءً مثلاً يعلم مقدار الثقل الذي سوف يتحمّله البناء، وكذلك الله تعالى الذي هو خالق الإنسان وآبائه والعليم بما زوده به من القوى والمواهب والكفاءات، هو وحده القادر على إصلاح الإنسان. إن عبادته لكائن آخر هو بمنزلة أن يدمّر نفسه بتسليم زمامه بيد من لا علم له بكفاءاته وقدراته وحدودها. فالعبادة الحقيقية التي لا تعني الحركات والتقاليد الظاهرة فقط، بل تعني السير على الدرب الروحاني، لا

تليق إلا بالله تعالى، لأنه الوحيد الذي يعلم كفاءات الإنسان ويعلم كيف يمكن تطويرها وتكميلها.

ثم بعد ذلك بين الله تعالى غاية العبادة، وأخبر بأن غايتها ليست مجرد الإقرار بعبوديته تعالى باللسان فحسب، وحتى لو كان الأمر كذلك لكانت عبادة غير الله ظلمًا أيضًا، لكنها لم تكن ضارة لهذه الدرجة. إنما هدف العبادة إحراز التقوى، أي تكميل الروحانية، وأتى للكائنات الأخرى أن تقوم بتكميل روحانية الإنسان وهي لم تخلقه ولا علم لها بما فيه من قدرات وكفاءات خفية ولا بحدودها، فإنها ستدمر قواه بدلًا من تطويرها وتكميلها.

ولقد رأينا أن الإنسان كلما أسلم قيادته لغير الله تضرر. فمن قائد فتح للإنسان أبواب الحرية المطلقة وألقاه بعيدًا عن سبل تكميله الروحاني، وقائد آخر صرف النظر عن قوى الإنسان فحمله من الأعباء الثقالة ما ناء به كاهله، فتعطلت قواه ودُمّرت مواهبه؛ ومنهم من وجهه إلى الرهبانية وترك الطيبات؛ ومنهم من لم يميز بين النافع والضار وسمى الشريعة لعنة، ومن ثم ألقاه في هوة الدمار. فالله تعالى هو الوحيد الذي أعطاه تعليمًا يساعده على أن لا ينسى مسئولياته، وأن لا يقع تحت أعباء تدمر قواه الفطرية.

فبقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ نبه الله تعالى إلى أن هدف العبادة أن يترقى الإنسان على ضوء هدي الفطرة السليمة، والبدهي أن لا أحد يقدر على إرشاد الفطرة إرشادًا سليمًا إلا من هو واقف على جزئيات الفطرة الإنسانية، وهو من خلق الإنسان لا غيره سبحانه وتعالى.

وبقوله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ أشار أيضًا إلى أن الأمر بالعبادة لا يهدف إلى منفعة لله تعالى، بل إنما هو لخير الإنسان ونفعه، وليست الغاية المنشودة من العبادة إلا تكميل الإنسان بتحقيق مقتضيات الفطرية على وجه سليم.

وهذا المفهوم ردّ وافٍ على شبهات قوم تركوا العمل بالشريعة بعد اعتبارها لعنة. إنهم لم يعتبروا الشرع لعنة إلا لأنهم ظنوا أحكامه عبثية خالية من الحكمة متوهمين أن الله تعالى إنما يريد بالشرع تذكيرهم بحاكميته عليهم فحسب.

ولكن الله تعالى قد أخبر في القرآن الكريم أن أحكامه ليست عبثية ولا خالية من الحكمة، وإنما غايتها إرشاد الإنسان إلى الطريق المستقيم، وحمايته من سبل الإفراط والتفريط، وتنبيهه إلى الأعمال المساعدة على تنمية قواه الخفية. ومن اعتبر مثل هذا المنهج لعنة فلا يمكن أن يعدّ من العقلاء. هل تحذير المرء للكفيف من حفرة تقع في طريقه يُعدّ لعنة؟ هل يجوز لأحد أن يقول للكفيف إن هذا الذي يحذرك من الحفرة إنما يدعوك إلى اللعنة! الحق أن الطبيب الذي ينهى المريض عن تناول الأطعمة الضارة لا يريد له اللعنة وإنما يريد له الرحمة. إن الذين عدّوا الشرع لعنة إنما أساس دعواهم ظنهم أن أحكام الشرع خالية من الحكمة. قد تكون تعاليم دينهم هكذا، ولكن تعاليم القرآن الكريم ليست هكذا، بل إنه يُعلن أن هذه التعاليم والأحكام لنفعكم ولإنقاذكم من سبل الدمار.

والإتقاء يعني لغةً اتّخاذُ شيءٍ سِتْرًا وجنّةً، والمقصود من الأمر "اتَّقِ" يعني اتّخذُ الشيءَ وقايةً لك، وعليه فقول الله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ يعني: لكي تتخذوا الله تعالى وقايةً وجنّةً، لكي تحموا بعونه أنفسكم من أسباب الهلاك والدمار، ولتتولواكم الله عز وجل، وينجيكم من مشاكل الحياة وصعوباتها سالكين معافين، شأن المُرشد الديني الذي يأخذ بالناس من الفياقي والغابات والطرق غير المطروقة سليماً بدون أذى.

وينطوي قوله تعالى: ﴿اعبدوا ربكم﴾ على حكمة لطيفة جديرة بالالتفات. فالربّ كما بيّنا من قبل هو مَنْ يخلق ثم يتدرج بمخلوقاته إلى كمال النشوء والرقى. وفي ذكر هذه الصفة على وجه خاص إشارة إلى أنه قد وُضع في خلق كل إنسان الأساس لرقيه القادم، ليبيّن عليه حياته للوصول إلى الكمال، فلا فائدة من العبادة ما لم يعبد الإنسان ربّه الذي يوصله إلى درجة الكمال بحسب قدراته الخفية. لا شك أن هناك أموراً مشتركة بين البشر، فكُلّهم مزودون بقدرات متشابهة، ومع ذلك فكل إنسان مختلفٌ عن غيره أيضاً، حتى يختلف الولد عن والده والأخ عن أخيه طبعاً ومزاجاً، فلا يمكن أن يكون التعليم

الواحد نافعاً للجميع على سواء. لا شك أن التعليم في مبادئه الأساسية يكون واحداً، ولكنه في جزئياته يكون مختلفاً، لذا فهناك حاجة لهاذِ عالمٍ بهذه الجزئيات قادرٍ بحسبها على ترقية الإنسان إلى المراتب العليا. وهذا لا يقدر عليه إلا الرب الذي لم يزل يرَبِّي الإنسان من ولادته إلى شبابه على نحو معين، ويعلم طبيعته ومزاجه، ومدى اختلافه عن أبيه أو إخوته طبعاً ومزاجاً. وعليه فلا يكفي العمل بالشرعية وحدها، بل لا بد له من علاقة حب وإخلاص مع الرب، لكي يرشد الإنسان من خلال هديه الخاص إلى ما هو أنفع له من جزئيات الشريعة نظراً إلى طبعه ومزاجه. لا شك أن الشريعة تأمر بالصلاة والزكاة، ولكنها لا تقدر على إرشاد الإنسان إلى عملٍ هو أفضل وأدعى لرقية الروحاني بعد أدائه الحد الأدنى من الصلاة والصدقة مثلاً. هذا الإرشاد لا يتيسر للإنسان إلا بصفة فردية، ولا يتأتى له ذلك إلا من ربه.

باختصار، لا يكون الإنسان في مأمن حتى بعد تلقّي الهداية العامة، أي الشريعة، لأنه بحاجة من أجل الترقيات العالية إلى هداية خاصة لا تتيسر له إلا من ربه على صورة إلقاء. أعني أن يُلقَى بها في قلبه ذلك الرب الذي خلقه وتكفّل بترقيته إلى المدارج العليا. لذا فلا بد للإنسان من إنشاء علاقة حب وعبادة بذلك الرب في كل حال لكي يتلقى منه الهداية الخاصة أيضاً ويتنفع بها. ومن معاني قوله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ أن يتجنب المرء ما يفسد علاقته مع ربه، كما أن فيه إشارة إلى ضرورة تجنب الأمور التي تفسد علاقة المرء مع العباد الآخرين، وعبادة الله تعالى تُجنّب الإنسان الخطأ في الأمور المتعلقة بالناس أيضاً. إن الذي يؤمن بأن الله ربّه لا بد أن يُحسن علاقته مع عباد الله أيضاً، وبالتالي لا بد أن يتجنب ظلم الناس، لأن الذي صار عبداً لله حقاً ويوقن أنه ربّه، لن ينظر من أجل سدّ حاجاته إلا إليه سبحانه، ومن أيقن أن الله تعالى سوف يتولى حاجاته كلها لن يمدّ عينيه إلى أموال العباد، ولن يخون أموالهم لسد حاجاته، ولن يظلمهم. وعليه فمن معاني قول الله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ أنكم إذا عبدتم ربكم بإخلاص ويقين فسوف تنجون من أن يظلم بعضكم بعضاً

وسيسود العالمَ السلامُ أيضاً. كان صحابة الرسول ﷺ قد صاروا عباداً لربهم حقاً، وترون كيف تمتّع العالمُ في حكمهم بالسلام والأمن، حتى اعترف الأعداء بسلوكهم الطيب، ولا تزال ذكريات حكم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حيّةً في قلوب الناس حتى اليوم. لا شك أن حكم عثمان وعلي كان كحكم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما جميعاً، إلا أنني لم أذكرهما في الجملة السابقة لاختلاف الناس فيهما. فالحق أنه من المحال أن يستتب السلام والأمن في الدنيا بدون أن يصبح الإنسان عبداً لربه. لو أن أهل أوروبا صاروا عباداً لربهم لما أصيبوا بمرض جوع الأرض، أي هوى الاستعمار، الذي هم مصابون به اليوم.

لقد استدل البعض بقول الله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ استدلالاً خاطئاً، وقال: هذا يعني أن القرآن الكريم أيضاً يقول بخلق العالم من مادة موجودة سلفاً، فثبت أن القرآن الكريم أيضاً يقول بأزلية المادة.

الحق أن هذا الاستدلال ليس إلا وسوسة، لأن الخلق، وإن كان يعني تقدير شيء موجود، إلا أنه يعني أيضاً إيجاد الشيء وإبداعه على غير مثال سبق، وقد مرّ ذكره في شرح الكلمات. فالاستدلال من كلمة الخلق الواردة في سياق معين على أنه لا يعني إلا هذا المعنى استدلال باطل. ألم يعلن القرآن الكريم بنفسه في آية أخرى أن الله تعالى ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٠٢)؟ ولا يغيّن عن البال أيضاً أن القرآن الكريم لم يستخدم بحق الله تعالى لفظ (الخلق) فحسب، بل استعمل أيضاً لفظ (البديع) و(الفاطر)، والبديع مَنْ يبدع الشيء أول مرة، والفاطر مَنْ يُوجد الشيء من العدم. لا شك أنه قد وردت في القرآن الكريم كلمات مثل ﴿فَطَرَنِي﴾ (هود: ٥٢) و﴿فَطَرَنَا﴾ (طه: ٧٣)، ولكنها تشير إلى بدء الخلق وليس إلى الخلق الذي كان فيما بعد.

إن هذه الآية من الأهمية بمكان من حيث أنها تحتوي على أول حكم قرآني. لا شك أن الله تعالى قد قال من قبل إن المتقين يعملون كذا وكذا من الأعمال، ولكن لم يؤمر البشر قبل هذا في القرآن الكريم كحكم من الأحكام أن افعلوا كذا، بل قد جاء أول حكم في هذه الآية نفسها. وهذا الحكم الأول هو عن

التوحيد، وقد أمر به الله تعالى بصورة لطيفة وكاملة بما لا يوجد له نظير. فعلى سبيل المثال، أمر أولاً بالعبادة مستخدماً كلمة الناس، بمعنى أنه تعالى خاطب بهذا الأمر العالم كله، وليس العرب فقط، وهذا دليل قاطع على أن الإسلام ادّعى منذ البداية أنه جاء لجمع العالم على دين التوحيد وأراد القضاء على العبادات القومية ليخلق حلقة جامعة للعبادة تشمل البشرية جمعاء.

وثانياً: أخبر عن المعبود، فلم يقل القرآن الكريم اعبدوا الله، بل قال اعبدوا ربكم. وباستخدام كلمة الرب ردّ على الآلهة الباطلة، ذلك أن كثيراً من الناس في العالم يعبدون الأحجار، وباستخدام لفظ الرب قد أخرج كل هذه الأشياء من دائرة العبادة. ثم إن كثيراً من الناس يعبدون الأنهار والجبال والنجوم، فأخرج هذه الأشياء أيضاً من دائرة العبادة باستخدام لفظ ﴿الذي خلقكم﴾. ثم إن من الناس من يعبدون سلفهم الصالح، فأخرجهم أيضاً من نطاق العبادة بقوله ﴿والذين من قبلكم﴾. باختصار قد استخدم القرآن الكريم كلمات جامعة بحيث علّم التوحيد الخالص في بضع كلمات فقط. كما اتّبع الأسلوب الفطري لتقوية علاقة العباد مع الله تعالى. ذلك أن أساس العلاقات في الدنيا أمران اثنان: إما الحب أو الخوف. والعبادة عند مختلف الشعوب مبنية على هذين الأساسين، كما ذكر ذلك علماء مقارنة الأديان في بحوثهم المفصلة. وقد أشارت الآية قيد التفسير إلى هذين الأمرين كليهما، ففي الكلمات الأولى أشار إلى الحب، ثم بقوله ﴿لعلكم تتقون﴾ أشار إلى الخوف. والحب يتولد بأمرين، إما بالحسن أو بالإحسان، وقد أشار الله تعالى في هذه الآية الوجيزة إلى الأمرين كليهما لخلق علاقة حب مع الله تعالى. فإن الله تعالى حسين، لأنه رب. فإله من صانع، حيث يخلق الشيء في حالة بسيطة جداً، ثم يطوّره درجة فدرجة حتى يوصله إلى الكمال. ثم تحدّث الله تعالى بكل روعة عن الإحسان، فذكر أنه تعالى محسنكم ومحسن آبائكم أيضاً حيث قال ﴿خلقكم والذين من قبلكم﴾. ثم بقوله تعالى ﴿لعلكم تتقون﴾ إذ أشار إلى الخوف، فقد نبّه أيضاً إلى إحسانه في

المستقبل. فما أروعَه من كلام معجز، حيث حوى هذه المعاني الواسعة في آية وحيدة جدًا، فتبارك الله أحسن الخالقين!
(راجع أيضًا معاني (لعلّ) لدى شرح كلمات هذه الآية).

ومن الغريب جدا أن المسيح الناصري ﷺ حينما سُئل عن أعظم وصية في الشريعة، أجاب: { تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكَرِكَ. هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ } (متى ٢٢: ٣٧-٣٩). لكن لو قرأتم الأناجيل لوجدتم أنها تذكر في أولها أمورًا أخرى، ولن تجدوا هنالك أي أثر لهذه الوصية. بل لم يذكر المسيح الناصري ﷺ هذه الوصية التي هي أعظم وأولى الوصايا ما لم يسأله الناس عنها، مع أنه كان الأولى به أن يذكر في البداية هذا الحكم الذي هو أعظم الأحكام أهمية.

ولو قرأتم العهد القديم لوجدتم أنه لم يُذكر فيه أيضًا هذا الحكم إلا متأخرًا جدًا بعد أمور كثيرة أقل أهمية. وهذا هو حال كتب الأديان الأخرى، فليس هناك أي سفر من أسفار الأديان ذكر في بدايته هذا الحكم الذي هو أول وأعظم الأحكام ليس بحسب قول المسيح ﷺ فقط بل بحسب العقل أيضًا. هذا الفضل ما حازه إلا القرآن الكريم، إذ إن أول حكم جاء فيه هو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. أليس من فضل القرآن الكريم أنه ذكر الحكم الأول في المقام الأول، بينما أخرته سائر الكتب السماوية إلى غير موضعه.

أما لو تغاضينا عن اصطلاح الحكم والوصية، لوجدنا أن هذا الأمر قد ذكره القرآن الكريم قبل هذه الآية بكثير، وذلك في سياق الحديث عن أعمال المتقين، حيث قال إنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وليس معناه إلا: آمنوا بالله واعبدوه. ثم بعد ذلك ذكر القرآن الكريم الأمر الآخر الذي ذكره المسيح ﷺ في المقام الثاني حيث قال الله تعالى في صفة المتقين ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾. وهنا أيضًا يتجلى فضل تعاليم القرآن الكريم على تعاليم الإنجيل،

ذلك أن المسيح عليه السلام قد أشار بصدد هذا الأمر إلى حالة القلب فقط، أما القرآن الكريم فقد استعمل كلمات جامعة وقال ﴿مما رزقناهم ينفقون﴾، أي أن على المرء أن يحب جيرانه من صميم القلب، كما عليه أن ينفعهم بعلمه وماله ونفسه أيضاً.

باختصار، قد ذكر الإسلام هذين الحكيمين في محلها المناسب، كما حثّ عليهما بكلمات هي أروع وأفضل من كلمات المسيح عليه السلام.

ولو قال أحد إن الكلمات التي استخدمها المسيح عليه السلام أشد روعة إذ قال: (من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك)، فالجواب أن المعنى الذي ذكره المسيح عليه السلام في جملة كاملة قد بينه القرآن الكريم في كلمة واحدة ﴿اعبدوا﴾، لأن العبادة تعني غاية التذلل، أي بذل المرء قدراته وكفاءاتها كلها إلى أقصى الحدود. فالعبادة تشمل كل القلب وكل النفس وكل العقل، وتحتوي كذلك كل القوة وكل الأسباب أيضاً. وهكذا فإن القرآن الكريم قد ذكر بلفظ واحد كل ما أراد المسيح الناصري عليه السلام أن يذكره بل وزيادة.

اقرأ الملحوظة عن ذات الباري تعالى في تفسير الآية بعد القادمة.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣)

شرح الكلمات:

الأرض: الكرة الأرضية؛ كل ما سفلى. (الأقرب)

فراشا: فرش الشيء يفرش فرشاً وفراشاً: بسطه. وفرش فلاناً بساطاً: بسطه له... والفراش: ما يُفرش ويُنام عليه. (الأقرب).

الْفَرْشُ: بسطُ الثياب، ويقال للمفروش فَرْش وفِراش، قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشًا﴾، أي ذلّلها ولم يجعلها ناتئة لا يمكن الاستقرار عليها... والفَرْشُ: ما يُفَرَش من الأنعام أي يُرْكَب. (المفردات)

بناءً: جمعه أبنية. بناه بينيه بنيًا وبناءً: نقيضُ هدمه. وبني الأرض: بني فيها دارًا أو نحوها. (الأقرب)

والبناء: اسم لما يُبنى بناءً. (المفردات)

السماء: هنا يعني السحاب. وللمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿أو كصيب من السماء﴾.

أخرج: أنبت.

الثمرات: جمعُ الثمرة، وهي حمل الشجر. (الأقرب)

والثمر: اسمٌ لكل ما يُتَطَعَم من أحمال الشجر. (المفردات)

رزقًا: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون).

أندادا: جمعُ ندٍّ، وهو المثل، ولا يكون إلا مخالفًا، ويقال ما له ندٌّ، أي ما له نظير. (الأقرب)

وندُّ الشيءِ مُشاركه في الجوهر، ومثله مُشاركه في أي شيء كان (أي أن المثل عام، والندّ خاص)... ندُّ الشيء: ما يسدُّ مسدّه... قال ابن الأثير: هو مثل الشيء الذي يضاده في أموره وينادّه، أي يخالفه. (التاج)

التفسير: هذه الآية تُكمل موضوع الآية السابقة. لقد بين الله في السابقة أن العبادة لا تصحّ إلا لربكم الذي خلقكم وآباءكم، لأنه هو القادر على إرشاد قدراتكم وكفاءاتكم على أحسن وجه. أما في هذه الآية فأخبر الله تعالى أنه هو خالق السماوات والأرض، والظاهر أن أعمال الإنسان ما هي إلا نتيجة تأثير هذه الأشياء المحيطة به. ما هي الأعمال الإنسانية يا تُرى؟ إن هي إلا تجارته وزراعته وصناعته وسياحته، وهي كلها نتاج السماء والأرض وتأثيرهما، فلا يستطيع أن يُسيّر أعماله للطريق السليم إلا خالق السماوات والأرض

وتأثيراتهما. أما أي كائن آخر فلا يستطيع أن يهديه هداية كاملة، لأنه ليس خالق هذه الأشياء وبالتالي لا يعلم جيداً تأثيراتها وقواها، كما لا يستطيع أن يسخرها لخدمة الإنسان، إذ لا سيطرة له عليها. ومن أجل ذلك قال الله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ذلك الإله الذي جعل الأرض لكم فراشاً، أي بسطها بسطاً يساعدكم على الانتفاع بها والعيش فيها براحة. لقد سبق أن ذكرنا أن الفرش يعني بسط الشيء بسطاً يريح الإنسان، فالمراد من جعل الأرض فراشاً أنه تعالى قد هيأ فيها أسباباً لراحة الإنسان. والظاهر أنه ليس كل تصرف في الأرض يمكن أن يؤدي إلى راحة الإنسان، لأن هذه الأرض قد تهلك الإنسان أيضاً، لذا فلا بد من قاعدة للانتفاع بما في الأرض من قوى ومنافع. ولا يمكن أن تكون أفضل قاعدة لذلك إلا ما يكون من خالق الأرض. كذلك قال الله تعالى أن السماء قد جعلت بناءً أي سقفاً، أي سبب حماية. كم تجلب أضواء الشمس والقمر والنجوم آلاف المنافع للإنسان، ولكن لهذه الأجرام تأثيرات سلبية أيضاً تؤثر على أخلاق الإنسان وعاداته، وهناك آلاف الأمراض والحوادث التي تتعلق بدورات الأجرام الفلكية. وسواء اعترف العلماء بذلك أم لا، فتقع في الدنيا حوادث وكوارث لا يمكن أن تُعزى إلى التغيرات الأرضية. فقد لاحظت مثلاً أن النساء يُصَبْنَ بمرض الإجهاض بوجه خاص في أيام معينة، وفي أيام تكثر ولادة الإناث، وفي أيام أخرى تكثر ولادة الذكور، وفي أيام تكثر وتشتد آلام المخاض، وفي أيام أخرى تقع حوادث كسر العظام بكثرة، وفي أيام تكثر حوادث اصطدام القطارات. وهذه التغيرات لا يمكن أن تُعتبر صدفة فحسب، إذ لا بد من سبب وراء زيادة حوادث إصابات بالرأس نتيجة السقوط في أيام معينة، وزيادة حوادث إصابات بالأرجل في أيام أخرى. لقد ذكرتُ هذا الأمر لأطباءنا الذين يعملون في مشفانا، فقاموا بدراسة هذا الأمر ورفعوا بعد ذلك عدة تقارير بأنه قد كثرت في أيام معينة حالات مرض كذا وحادث كذا، مع أنها لا يمكن أن تُعزى إلى وباء، بل هي حوادث تظهر على منوال واحد بكثرة. والغريب أنه كثرت في أيام معينة حالات إصابات بالرأس على التوالي، وفي أيام

أخرى جاء المصابون بالأرجل بكثرة، واعترف الأطباء بعد هذه التجربة أن هذا الأمر يدل بالفعل على أسباب خفية تديرها النواميس الطبيعية المدهشة.

ثم إن الأمطار وشحّها، ونضج الثمار والمحاصيل، والتغيرات الجوية، كلّها ذات صلة بتأثيرات الأجرام الفلكية. كما أن بعض الكوارث والأمراض غير الوبائية لها صلة وثيقة بالأجرام الفلكية. لقد عاينت بنفسى أن المناطق والأيام التي ينخسف فيها القمر انخسافاً كاملاً تكثر فيها حالات آلام المخاض كثرة ملحوظة. ولقد نبّهتُ الإخوة إلى هذا الأمر مراراً وقد شاهدوه وأكدوه.

فثبت من هذه الأمور والظواهر أن الأرض والسماء تؤثران معاً على العالم كله بتأثيرات شتى، ونتيجة لرؤية تأثيرات الشمس والقمر والنجوم يتوهّم بعض الناس أنها شريكة مع الله تعالى فيعبدها بشتى الطرق استرضاءً لها، والحق أنها كلها أوهام تُسقط الإنسان من مقام الإنسانية إلى الحيوانية. وحقيقة هذه التأثيرات إنما هي أن يُعدّ الإنسان هذا الكون كله مؤثراً طبيعياً على أعماله وقدراته، ويسأل الله عونَه ونصرته لكي يرشده فيما لا يعلمه بعد أن عمل بما يعلمه، ولكي يهيء الله له أسباب الحماية من الغيب. أما عبادة المرء لهذه الأجرام بعد رؤية تأثيراتها فمثلها كمثل أن يشرع في عبادة ديدان الطاعون أو الهیضة. ومن المؤسف أن بعض الجهال في بلادنا يعبدون هذه الأشياء بالفعل، فعبادَة "إلهة مرض الجدري" أمر معروف وشهير في بلادنا، وبناء على هذا الوهم لا يذكرون هذا المرض باسمه بل يسمونه (ماتا) أي الأمّ، وذلك لكي يرضوا إلهة الجدري المزعومة فلا تصيب أولادهم بالجدري. نعوذ بالله من ذلك.

باختصار، لقد بين الله تعالى هنا أنه قد خلق في السماوات والأرض أسباب راحة الإنسان، ولكن ليست كلها ظاهرة، بل بعضها ظاهرة وبعضها خفية، ومن واجب الإنسان أن ينشئ صلته مع الرب الذي خلق هذا الكون ليوَفِّقه للانتفاع بهذه المخلوقات على وجه سليم، ويحفظه مما فيه من مضار خفية. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن ينجو نجاَ كاملة مما في التغيرات الأرضية والسماوية من أضرار حتى بعد اتخاذه التدابير اللازمة، بل الله الذي يمكن أن يحميه من

أضرارها حماية كاملة. انظروا إلى أنبياء الله تعالى كيف أن أعداءهم بذلوا كل ما في وسعهم للقضاء عليهم، ولكن الله تعالى كان يبطل مكائدهم دائماً. لقد شنّ الأعداء صنوف الهجوم على رسول ﷺ، فقد سعوا لقتله بدسّ السمّ في الطعام، فاستشهد أحد أصحابه بتناوله، ولكن الله تعالى حفظ النبي ﷺ الذي كان هو الهدف الأساسي من هذا التسميم. لقد نصبوا الكمائن لاختياله ﷺ ولكن الله أفضلهم. وحاول الأعداء أن يهاجموه وهو منفرد، ولكن الله حيّهم في ذلك أيضاً. ودعوا النبي ﷺ إلى أحد بيوتهم لإلقاء حجر عليه، ولكن الله تعالى أخبره بالوحي بمؤامرتهم، فاعترفوا بها. إن العالم مندهش حتى اليوم كيف أن أعداءه ﷺ وصلوا إلى غار ثور وهو بداخله، ولكنهم رجعوا خائبين. كل ذلك قد تم بفضل الله الذي هو خالق السماوات والأرض. لقد تعلق ﷺ بالله تعالى، فصار الله معه وسخرّ الكون كله لخدمته. كان أعداء المسيح الناصري ﷺ قد علّقوه على الصليب، وقتلوه في زعمهم، ولكن انظروا كيف أن الله تعالى أرسل عاصفة شديدة مظلمة وأجبرَ الحاكمَ واليهودَ على إنزال المسيح من على الصليب قبل الأوان، وهكذا نجاه من ميتة مهينة أرادها له الأعداء. وهناك في هذا العصر عشرات الوقائع المماثلة التي وقعت على يد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ﷺ، فقد أخبره الله تعالى أن داره ستبقى محمية من الطاعون، فلم تقع أية حالة للطاعون في بيته مع أن هذا المرض ظل يتفشى في قاديان لسنوات وحصد الناس يميناً وشمالاً من داره ﷺ. هناك واقعة حصلت في شبابه وبعض الهندوس شهود عيان عليها، ومنهم (لالا بهيم سين) المحامي والد السيد القاضي (كنور سين) الذي عمل قاضي القضاة في ولاية جامون، وقد أدلى بشهادته أمام ابنه هذا حول هذه الواقعة، ويمكن أن يُسأل عنها اليوم أيضاً. والواقعة هي أن حضرته ﷺ كان يبيت مع نفر من الناس بالطابق العلوي في غرفة بيت في مدينة "سيالكوت"، فسمع صوتاً خفيفاً من السقف، فأيقظ زملاءه جميعاً، ومن بينهم (لالا بهيم سين) المحامي، وقال لهم انزلوا من هنا فوراً، ولكنهم ضحكوا وقالوا هذا وهمك، ولكنه بعد قليل أيقظ الجميع

وأجبرهم إجبار الصديق للصديق على الخروج من الغرفة، وأمرهم بالنزول قبله، لأن السقف سيبقى قائماً كما هو ما دام هو في الغرفة، لذلك سيخرج هو من الغرفة بعدهم جميعاً. ولما خرج الجميع إلى السلم نزل المَلَكُ من الغرفة، وما إن وضع قدمه على السلم حتى انهار السقف على الأرض دفعةً واحدة.

كل هذه الأمور التي لم تزل تقع في الدنيا منذ خلقها حتى اليوم، وستظل تقع، تشكّل دليلاً قاطعاً على أن لهذا الكون خالقاً، ولا ينجو الإنسان من الهلاك نجاة كاملة إلا بالتعلق به. وهذا هو مفهوم هذه الآية حيث قال الله تعالى للناس إنما خلقت السماوات والأرض لفائدتكم أنتم، ولن تنتفعوا منها حق الانتفاع ولن تنجوا من أضرارها إلا بالتعلق بالله الذي خلقها.

علمًا أن الانتفاع هنا لا يعني ذلك الانتفاع الجائر الذي هو من دأب الملوك الظالمين والزرعماء المستبدين، لأنه ليس انتفاعاً بل هو لعنة، فلا يصحّ أن يضع أحد حياة أهل الله إزاء حياة الملوك الجبابرة والدكتاتوريين ويقارن بينهما، لأن هؤلاء لم ينالوا عزّاً بل لقوا الذل والهوان.

علمًا أن المراد من السماء في قول الله تعالى ﴿والسمااء بناءً﴾ هو العلوّ، أي كل الفضاء المحيط بالأرض الذي توجد فيه النجوم والكواكب، وليس أية دائرة ملموسة كما يتوهم العامة، والمراد من جعل البناء، أي السقف، أنه تعالى قد جعل هذه السماء سبب حماية. وقد استخدم للحماية لفظ السقف لأنه وسيلة للحماية من أضرار كثيرة، وهو تعبير شائع.

والمراد من قوله تعالى أنه جعل ﴿السمااء بناءً﴾ أن الأشياء الضرورية لبقاء الإنسان ذات صلة بالعلو، أي الفضاء، فالماء أيضاً ينزل من فوق، والهواء أيضاً يكون من فوق، وكذلك الشمس والقمر وغيرهما، وتأثيرها تنهياً كل تلك الأشياء التي هي ضرورية لحياة الإنسان. ثم إنه محتاج إلى السماء من أجل الروحانيات أيضاً.

أما قوله تعالى ﴿وأنزل من السمااء ماءً﴾، فالسمااء هنا ليست بمعنى الفضاء، بل بمعنى السحاب، وهذا المعنى ليس استعارة، بل تعني السماء لغةً السحاب

أيضاً. وقد استخدم القرآن الكريم السماء بمعنى السحاب في مواضع أخرى حيث قال الله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٧)، وقال تعالى ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (نوح: ١٢)، أي يرسل عليكم السحاب الذي يطر عليكم بغزارة.

ومما يدل على أن السماء في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تعني السحاب أن الله تعالى استخدم لفظ السماء في هذه الآية مرتين، الأولى بمعنى الفضاء في قوله تعالى (والسمااء بناءً)، ولو كان لفظ السمااء الثانية في قوله تعالى (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) بمعنى الفضاء أيضاً لكان ذكر الضمير كافياً، وما كانت هناك حاجة لإعادة لفظ السمااء.

بعد أن بيّن الله تعالى أنه هو خالق السماء والأرض وما فيها من تأثيرات وتغيرات مثل السحاب وغيره، قال تعالى أنه ما دام هو خالق كل شيء في الكون، فعليكم أن تدركوا أن الله ليس له ندٌّ، أي ليس هناك كائن هو شريك مع الله تعالى في ذاته وصفاته ومساوٍ له سبحانه وتعالى. وما دام نظام الكون كله خاضع لقانون واحد كما ترون، وليس في الكون ما يدل على أن بعضه مخلوق بيد خالق، وبعضه بيد خالق آخر، فكيف يستساغ عبادة ما سوى الله تعالى؟ اعبدوا إلهاً واحداً، وانتفعوا من أفضاله، ولا تدمروا بعبادة غيره حاضرکم ومستقبلکم.

أما قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ففيه إشارة إلى أن هناك وحدة في نظام الكون، وهي قضية لا يجهلها عاقل، فالجميع يعلم ويعترف أن كل الكون قائم تحت قانون واحد، فلا تقعوا في الشرك وأنتم تعلمون هذا الأمر، بل تمسكوا بالتوحيد منتفعين بهذه المعرفة.

كما أن قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن الجريمة لا تُعَدُّ كاملةً إلا إذا ارتُكبت مع علم. وهذا التعليم دليل بينٌ على فضل الإسلام، حيث إنه لا يصدر الحكم نظراً إلى العمل وحده، بل يراعي عند الحكم الظروف التي تمت فيها الجريمة ومدى علم الجاني بها.

كما أن قول الله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ يتضمن إشارة إلى أن تكميل العالم المادي لا يكون إلا باجتماع القوى الأرضية والسمائية معاً.

يلوث الناس الماء على الأرض، فينزل الله لهم من السماء ماءً نقيًا. ويلوثون بالتنفس الهواء النقي، فيرتفع إلى طبقات الجو العليا ويعود نقيًا كما كان. والعين شيء نافع بالطبع، ولكنها لا تعمل بدون السماء، أي بدون ضوء الشمس. باختصار: تعمل الأرض كفراش للإنسان، والسماء كبناء له في العالم المادي، وهذا هو حال العالم الروحاني أيضًا. لا شك أن الإنسان مزود بالعقل، ولكن مثله كمثال العين إذ لا يقدر العقل على العمل بوجه سليم ما لم يجتمع به ضوء الشمس الروحانية، أي الوحي والإلهام. لا شك أن مقتضيات الفطرة نقية جدًا، ولكنها تتلوث بالمطامع المادية، ولا تتطهر إلا بماء السماء، أي الوحي والإلهام. فثبت أن الإنسان لا يقدر أبدًا على العيش الناجح بدون التعلق بالله تعالى. لقد ربط الله الحياة المادية بالأرض والسماء كليهما، ليرشدنا إلى العالم الروحاني حيث نبه أن لا تكتفوا في الأمور الروحانية بالأسباب الأرضية فقط، ولا تعدّوا عقولكم وفطرتكم كافية، لأن العالم المادي كما هو بحاجة إلى إمداد سماوي كذلك حال العالم الروحاني فهو بحاجة إلى مدد من السماء كل حين، وكما يوجد في العالم المادي سماء فوق الأرض، كذلك يكون القلب والعقل في العالم الروحاني بمنزلة الأرض، وتكون الفيوض الإلهية والهدايات الربانية بمنزلة السماء، وبالعامل معًا تكملان العالم الروحاني، أما بدون اجتماعهما فيظل العالم الروحاني غير مكتمل وغير نافع.

أما قول الله تعالى ﴿وَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ فهو مزيد من الإيضاح والشرح للموضوع المذكور من قبل، حيث أخبر الله تعالى أن الأرض مزودة بقوة النمو بلا شك، ولكن هل هي قادرة على أن تثمر بدون ماء السماء؟ فكيف تظنون أن عقولكم، مهما كانت خصبة وصالحة للنمو، تستطيع وحدها أن تثمر ثمارًا طيبة بدون عون الله تعالى. وكما أن المطر إذا انقطع نزوله فسدت مياه

الأرض لم تعد الأرض قادرة على أن تخرج ثماراً طيبة، كذلك إذا لم ينزل وحي الله -الذي هو نتيجة عبادة الله تعالى- تقاصرت عقول الإنسانية عن تقديم الأفكار الطيبة التي هي ثمرة الروحانية. فلا تدّعون أنكم تستطيعون بعقولكم أن تقتربوا لأنفسكم الهدى وأنكم سوف تفعلون ذلك.

كما أن قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ إيماءة أيضاً إلى أن الله تعالى قد طوّركم من الحالة الأدنى إلى مقام أسمى، ولكنكم في المقابل تريدون أن تُسقطوا الله تعالى من مقامه، حيث تجعلون من كائنات ضعيفة جداً أنداداً له، وكأنكم تقولون بأن الله تعالى أيضاً ضعيف مثلها. لقد جعلتكم بلا ندّ بين المخلوقات، وسخرت لكم السماوات والأرض، ولكنكم جعلتم لي أنداداً مع أنه لا ندّ لي في الواقع.

ألا ما أشدّ جهلاً وغباء أولئك الذين زعموا — مع كل هذه الأيادي الإلهية والنعم الربانية — أن الله لم يخلق الإنسان، بل إن الإنسان هو الذي خلق الله! أي أن الله تعالى ليس موجوداً في الحقيقة، وإنما اختلقه الإنسان بوهمه وخياله. ومن المؤسف جداً أن هؤلاء القوم يُدّعون فلاسفة وعلماء، وهم أجهل من على وجه البسيطة في الواقع.

أما وكيف عمل النبي ﷺ بالتوحيد الذي علّمناه الله تعالى في هذه الآية، فأضرب على ذلك مثلاً؛ ذات مرة قال صحابي للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال أ جعلتني لله ندّاً! قل ما شاء الله وحده (مسند أحمد، وابن كثير)

والآن أتناول في ضوء الآيتين الأخيرتين تساؤلاً أثاره بعض العلماء الغربيين المعاصرين، وقد قدّمه الفيلسوف المعروف هربرت سبنسر والسيد فريزر بشكل واضح، ثم أشاعه بعدهما الدكتور روبرتسن سميث، والسيد لورنس غوم، والسيد جرانت أيلن وغيرهم. وهؤلاء فريقان: فريق يزعم بأن عقيدة وجود الله تطورت عن الاعتقاد بوجود الأرواح والجن والجنّيات، وفريق يرى أن الإنسان الأول خاف السباع والزواحف والحشرات السامة فعبدّها، ثم تطور الأمر بالتدريج إلى الاعتقاد بوجود الله تعالى. ويتفق الفريقان في القول بأن عقيدة

وجود الله بدأت أولاً بالتعدد، أي الإيمان بوجود آلهة كثيرة، ثم بالتدريج حلَّ محلّه الاعتقاد بوحدانية الله تعالى. وقد بنوا نظريتهم على زعمهم بأن تاريخ الإنسان البدائي يدلّ على الاعتقاد بوجود آلهة متعددة، مما يدل على أن الشرك سبق الوحدانية وجوداً، وأن التوحيد ليس في الحقيقة إلا صورة متطورة عن الشرك.

وقال بعض هؤلاء القائلين -خوفاً من أهل الدين- بأن نظرياتهم هذه لا تمثل طعنًا في الدين، بل من الممكن أن الإله العاقل قد تدرج في إظهار نفسه للناس كما تدرّج في كشف النواميس الكونية لهم.

ولكني لا أقبل أبداً أنهم قدّموا هذا القول بعد تدبر وروية، بل أرى أنهم قدّموه خوفًا من أهل الأديان، أو تهدئةً لمشاعر أتباع الأديان، لكن بدون تدبّر كافٍ.

وأساس قولي هذا هو أن كل الديانات الهامة تؤكد على أنها نشأت بالوحي السماوي. وإذا كان الأمر هكذا فتنهار كلية الفلسفة القائلة بأن الله أظهر نفسه شيئاً فشيئاً، ووجه الناس أولاً إلى كائنات أخرى سواه. فمِمّا يتنافى مع العقل والمنطق أن يكون الله تعالى قد وجهّ الناس أولاً إلى عبادة الأرواح الميتة، أو الأحجار والأثمار والأفاعي والضواري من الأسود وغيرها، ثم بعد ذلك كله أظهر نفسه للناس، مع أنه لو وجهّهم إلى إله واحد منذ البداية لما كان هذا منافياً للعقل.

ثم إن الديانات المعاصرة كلها تعلن بوجود الوحي منذ بداية الخلق، ولا تقول أيّ منها بأن الإلهام والوحي بدأ فيما بعد. يقول الهندوس ببداية نزول الوحي منذ بداية الخلق، وكذلك اليهود، وكذلك المسيحيون التي تمثل ديانتهم آخر حلقة من سلسلة الديانة اليهودية، وهذا ما يقوله الزرادشتيون وكذلك الإسلام. ولو كان زعم الفلاسفة هذا صحيحاً فلا بد من الإقرار بأن الفيدا والتوراة والإنجيل والزندافستا والقرآن الكريم كلها كذب وافتراء.

تقول التوراة صراحة إن الإنسان تشرف بالوحي الإلهي. بمجرد أن ظهر على الأرض، وأخبر أن الإله واحد. والإنجيل يصدق ذلك كل التصديق. فإذا كان الناس لا يعلمون بوجود الله تعالى منذ البداية، لصار الكتاب المقدس كاذباً في دعواه بأن الله تعالى قال لآدم: {أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض} (التكوين ١: ٢٨). فهذه الفقرة تؤكد أنه منذ زمن آدم، الذي كان أول إنسان، قد أُخبر أن كل ما خُلق في السماوات وما في الأرض هو مسخر لخدمة الإنسان. فكيف يمكن لآدم، بعد هذا التعليم الرباني أن يفكر أن الشمس والقمر والنجوم وحيوانات الأرض وغيرها آلهة؟ كما لم يكن قبل آدم آباء حتى يعتبرهم آلهة! فلا بد من أحد الأمرين، إما تكذيبُ بيان الكتاب المقدس أو إبطالُ زعم الفلاسفة أن فكرة الإله الواحد تطورت بالتدريج.

وقد قدّم الإسلام النظرية نفسها كما سيأتي ذكرها عند الحديث عن آدم في الآيات التالية، أي أن الله تعالى قد شرف الإنسان بمجرد خلقه بكلامه ومعرفة وجوده.

فلا يمكن، مع وجود هذه التعليمات، أن تجتمع دعوى الدين وأفكار هؤلاء الفلاسفة بأي حال من الأحوال، بل لا بد من اعتبار أحدهما باطلاً. وسوف أقارن الآن بين النظريتين لأبين أيتهما صحيحة وأيتهما باطلة.

تتأسس نظرية الفلاسفة عن الله تعالى على أمرين اثنين: إنكار الوحي السماوي، والمفهوم الخاطئ للتطور.

أما إنكارهم للوحي فقد نجم عن حرمانهم من هذه النعمة، لأنهم وُلدوا وترَبَّوا في البلاد المسيحية التي لم تحظَ بنعمة الوحي والإلهام منذ أمد بعيد. فلأنهم لم يتلقوا الوحي بأنفسهم، كما لم يروا من تلقاه، فتوهّموا عدم وجود الوحي السماوي بتاتا. ودفعهم هذا الوهم إلى البحث عن دواعٍ عقلية لوجود الله تعالى، فأرادوا حل هذه المعضلة على ضوء نظرية التطور التي كانت تسترعي أنظارهم في هذه الأيام، فوقعوا في هذه العقيدة الباطلة.

لقد سبق أن بينتُ لدى تفسير قول الله تعالى ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أن القرآن الكريم لا يُعلن نزول الوحي الإلهي فحسب، بل يقرّ بنزوله في كل عصر، ولو ثبت صدق دعوى القرآن هذه لاجتُثتْ نظرية الفلاسفة هذه من جذورها. يُعلن القرآن الكريم أن كل كلمة من كلماته وحيٌّ أنزله الله تعالى على محمد ﷺ. كما يدّعي القرآن الكريم أن الله تعالى لم يزل منذ بدء الخلق يُنزل وحيه على الخواص من عباده وأتباعهم، ولم يبرح يكشف لهم وجوده. كما يدّعي القرآن الكريم أيضًا أن المؤمنين به سيحظون بوحى الله تعالى دائما. وفي هذا العصر قد ادعى سيدنا مرزا غلام أحمد المسيح الموعود والمهدي المسعود مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بالتشرف بوحى الله تعالى، وكان يعلن أن وحي الله تعالى ينزل عليه ببركة القرآن الكريم ولخدمته. وقد تلقى عليه آلاف الإلهامات التي قد نشرتها جماعته مجموعةً في كتاب "التذكرة"، وهذا الوحي يشتمل على آلاف النبوءات والمعجزات التي قد تحققت ولا تزال تتحقق. فأتى لنا أن نرضى بقول الفلاسفة بعد رؤية هذه الآيات. كلا بل نعتبر هؤلاء الفلاسفة بعد رؤية هذه الآيات كتلك الشخصية الغبية التقليدية التي كانت تسعى دائما لإيجاد سبب غير معقول حتى لأبسط الأمور.

ثم بعد سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وبركته، قد ذقنا نحن أيضًا طعم الوحي الإلهي، وقد جرب راقم هذه السطور الوحيَ الإلهي مئات المرات. وبعد هذه التجربة ماذا عسى أن تؤثر في أقوال هؤلاء الفلاسفة. غير أني أترحم عليهم لتعاسة حالهم وأتعجب من جهلهم بالعالم الروحاني. لو أن هؤلاء يرجعون إلينا ويسألوننا لقلنا لهم إننا بفضل الله جاهزون الآن أيضًا لإثبات صدق ملوك العالم الروحاني الذين خلوا من قبل، من خلال الآيات الجديدة والأدلة القوية. باختصار، ما دام الوحي الإلهي أمرا ثابتًا بالتجربة وبالمشاهدة، فلا قيمة لهذه الحجج النظرية التي لا أساس لها إلا الظن والقياس.

والأساس الثاني لنظريتهم هو مفهومهم الخاطئ لظاهرة التطور، إذ يظنون أن الإنسان في أول أمره عبد آباءه أو مظاهر الطبيعة والحيوانات وغيرها.

والحق أنه ظنُّ باطل ومرفوض عقلياً وتاريخياً. الواقع أن مفهوم التطور فيما يتعلق بالعقل الإنساني إنما هو مقصور على أن الأمور الدقيقة كُشفت على الناس شيئاً فشيئاً، وتمَّ إظهارها بحسب تطور العقل الإنساني. والتطور بهذا المفهوم وبنفس القدر تقول به اليهودية والمسيحية والإسلام أيضاً، أما القول بأن الإنسان البدائي لم يُعْطَ حتى العِلْمَ البسيطَ بوجود الله تعالى، فهو قول غير معقول كلية. يا ترى، ما هو المانع الذي منع الإنسان البدائي من قبول فكرة وجود الخالق؟ لا يوجد هناك أي سبب منطقي لذلك بتاتا، فكيف يمكن أن يقبل أحد هذه النظرية غير المنطقية؟

يزعم هؤلاء الفلاسفة أن ما يوجد عند الشعوب المتخلفة من علم عن الله تعالى إنما تيسر لهم عبر العقائد الوثنية، وهي التي صارت أساساً لعقيدة وجود الإله. وزعمُ الفلاسفة هذا راجعٌ إلى جهلهم بحقيقة ناصعة وهي أن تخلف شعب حضارياً ليس بالضرورة علامةً على كونه بدائياً. ولو أن هؤلاء الفلاسفة أمعنوا النظر في التاريخ لعرفوا أن الأمم المختلفة قد مرّت بمراحل مختلفة من الحضارة، فهناك أمم كانت في عصر من العصور متحضرة ذات باع كبير في العلوم والفنون، ثم باتت في عصر آخر متخلفةً ومحرومة من تلك العلوم. ألم يدرسوا حضارة اليونان والفرس وأهل العراق ومصر؟ وهل غاب عنهم تاريخ الهند والصين؟ ألم يعرفوا من خلال الاكتشافات القديمة التي قام بها إخوانهم في شتى البلاد أنها كانت في الماضي مهداً لحضارات عظيمة، ثم تلاشت اليوم، وأن هذه البلاد كانت مراكز للعلوم في سالف الأيام، ثم صارت من مصادر الجهل اليوم؟ هل اليونان المعاصر - الذي هو جزء من أوروبا - لا يزال منبعاً لتلك العلوم التي نبعت هنالك في عصر أرسطو وأفلاطون؟ هل تُشاهد في الهند اليوم آثار الرقي الذي حققته في الأزمنة الغابرة؟ كم حققت مصر في الماضي من الرقي الذي أدنى مثاله تلك المومياوات التي لم تستطع أوروبا حتى الآن معرفة سر تحنيطها، ولكن هل يوجد أي أثر لتلك العلوم الآن في مصر.

فإذا أمكن أن تأتي أدوار الجهل والتخلف بعد أدوار الحضارة والمدنية، فكيف يُستبعد أن تكون أدوار الشرك قد أتت بعد أدوار التوحيد؟ وبأي دليل يمكن اعتبار أدوار الشرك سابقة على أدوار التوحيد؟ وإذا كان تقدّم دور الشرك على دور التوحيد غير ثابت فما هو أساس نظرية الفلاسفة هذه؟ وما دام الأمر هكذا فقد بطلت نظريتهم من تلقائها.

ولإلقاء الضوء على هذه القضية، أضرب مثلاً من الأديان الموجودة. كان "كرشنا" نبي الهندوس قبل ألفي سنة، وكان موحدًا، ولا يزال كلامه موجودًا حتى اليوم، وله كتاب معروف باسم "جيتا" وهو يتضمن عقائد التوحيد، ولكن لو قارنّا تعاليم "جيتا" بعقائد الهندوس الذين كانوا قبل خمسمائة عام لوجدناهما على طرفي نقيض. عندما جاء المسلمون إلى هذه البلاد قبل قرابة خمس أو ست مائة سنة كان كل بيت هندوسي معبدًا للأصنام، وكانوا يعبدون الأوهام، ولم يكن للدين الحقيقي وجود في أي مكان. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل يوجد في كتاب "جيتا" أي ذكر لهذه الأوثان التي كانت تحكم أهل الهند قبل خمسمائة عام؟ هل كان فيه أي تصديق للأوهام التي كانت منتشرة في هذه البلاد في تلك الأيام؟ فإذا كانت عقيدة الشرك هي السائدة أولاً، ثم انتشرت عقيدة التوحيد بالتدريج لاحقًا، لكان لزامًا أن تكون هذه الأوهام سائدة من قبل، وأن يكون لهذه الأصنام رواج أولاً، ثم بعدها يسود التوحيد، ولكن ما نشاهده هو أن التوحيد كان قد شاع أول الأمر، وكان إنسانٌ موحدٌ مثل كرشنا قد بعثه الله هاديًا للهند، ثم بعدها حلّ الشرك وعبادة الأوهام محلّ التوحيد.

أما لو قال هؤلاء أن أهل الهند انحرفوا وصاروا مشركين فيما بعد، فأقول لماذا لا يصحّ هذا القول بالنسبة للشعوب الوثنية الأخرى التي كانت في الأدوار الأولى التي انخدع بها هؤلاء الفلاسفة فبنوا عليها نظريتهم؟ كان أساس قولهم أن التطور يقضي بأن يكون الوضع في البداية متدنيا ثم يتطور ويتحسن، ومادام هذا الأساس قد ثبت بطلانه هنا فقد تهدم بناء نظريتهم.

والمثال الثاني الذي أفدّمه هو الديانة اليهودية. لو قرأتم العهد القديم لثبت جلياً أنه جاءت على اليهود فترات من الشرك والوثنية بعد فترات التوحيد، بل دَعُ تاريخ اليهود القديم جانباً، فقد تفتشت في اليهود المعاصرين أيضاً أفكار الشرك خلاف التوحيد المذكور في التوراة.

أما المسيحية فإن الداعين إلى عقائدها الحالية يعترفون بأنفسهم أن المسيح إنما دعا إلى الإله الواحد. وغنيٌّ عن البيان كيف صارت عقيدة التوحيد تلك محرقةً ومشوّهةً اليوم. فهل هذا دليل على أن دورة التوحيد سبقت دورة الشرك كما نقول، أم على أن دورة الشرك سبقت دورة التوحيد كما يدّعون؟

وأخيراً، انظروا إلى تاريخ الإسلام الذي ظهر في آخر الأديان. لقد قدّم هذا الدين من البداية حتى النهاية التوحيد الخالص، ولم يكن فيه أي أثر لعبادة الأرواح، ولم يُطَقْ نبيّه ﷺ أن يقول له أحدٌ أصحابه "ما شاء الله وما شئت" كما ذكر آنفاً، وقد حذر أُمّته من فخاخ الشرك حتى لحظة وفاته قائلا: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبوراً أنبيائهم مساجد" (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة)، لكن انظروا كيف انخرفت أُمّته ﷺ عن التوحيد وكيف وقعوا في الحضيض. سجدوا للقبور، ونسبوا إلى أولياء الله صفات الله تعالى، وتوسلوا إلى الأموات لقضاء حاجاتهم، وليس هناك فعل وثني إلا وقعوا فيه. فهل يصحّ بالنظر إلى انحرافهم عن التوحيد إلى الشرك أن نستنتج أن ابتداء الإسلام كان من الشرك والوثنية، وأن فكرة الإله الواحد جاءت فيما بعد؟ فبحسب نظريتهم التطورية يجب أن تسبق العقيدة البسيطة على العقيدة المكتملة بكل جزئياتها.

فما دامت هذه الشواهد التاريخية تؤكد أن التوحيد كان في الأمم أولاً ثم انتشر فيهم الشرك، فما قيمة هذه النظرية الواهية التي يقدمها هؤلاء الفلاسفة المزعومون إزاء هذه الشواهد التاريخية البينة؟ أليست هذه الشواهد دليلاً على أن الشرك كما انتشر بعد التوحيد في هذه الأمم، كذلك انتشر بعد التوحيد في الأمم البدائية.

والحق أن الرقيّ الإنساني يتمّ على فترات متناوبة، ويأتي الانحطاط بعد الرقيّ ويحلّ الرقي بعد الانحطاط، وهكذا. فالقياس بأفكار الناس في فترة معينة من التاريخ والقول بأن فترة الانحطاط كانت أولاً فقط ولم تسبقها فترة الرقي قط لقياسٍ واهٍ لا يصحّ أبداً.

والدليل الثاني على بطلان زعمهم هو أنه إذا كانت فكرة وجود الإله جاءت نتيجة التطور، فكان لزاماً أن يبدأ الناس في أول الأمر بعبادة الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام، ولكن تاريخ القبائل الوثنية يدلّ على أن عبادة الأفاعي وغيرها من الزواحف والحيوانات سبقت عبادة الشمس والقمر وغيرهما، حيث وُجدت عبادة هذه الأجرام في الشعوب المتحضرة نسيباً، مع أن الإنسان إذا أخذ فكرة الإله مرتجعاً من الظروف المحيطة به، فكان المفروض أن يبدأ في عبادة الشمس والقمر والنجوم أولاً، لأنه كان يراها في كل مكان وفي كل يوم، وكانت تؤثر على العالم كلّ يوم بتأثيراتها التي من شأنها أن ترعب بوجه خاص قلب الإنسان الجاهل بعلوم الفلك آنذاك. أما الأسود والفهود والأفاعي فلم يكن يراها الإنسان كل يوم كما لا يكون تأثيرها واسعاً كسعة تأثيرات الأجرام الفلكية.

بالإضافة إلى ذلك، ما دام الإنسان قد تكوّن بالتدريج نتيجة مبدأ التطور فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لقد ظلّ الإنسان يواجه هذه الأسود والنمور والثعابين آلاف السنوات، ومع ذلك لم يعظّمها تعظيماً خاصاً، فكيف اعتبرها آلهة فجأة، مع أن هذه الضواري لم يكن لها ما للشمس والقمر والنجوم من طبيعة غامضة سحرية هي ضرورية لفكرة اتخاذ الشيء إلهاً. فاتخاذ الإنسان شتي الحيوانات والزواحف والحشرات آلهة في أول الأمر -مع أنه كان يعيش معها، ويتقاتل معها ويقتل بعضها وهو قرد بحسب نظريتهم عن التطور الإنساني- وتفكيره في اتخاذ الأجرام الفلكية آلهة فيما بعد لأمرٍ يفند كلياته مزاعم ونظريات هؤلاء الفلاسفة.

والدليل الثالث هو أن الإنسان لم يتخذ الأفاعي والعقارب والشمس والقمر آلهة في مرحلة تطوره لآلاف السنوات، ولكن نفس هذه الأشياء التي كان يظنها عادية قد عدّها آلهة فيما بعد، وهذا يعني أنه لم يؤلّ لها خوفاً منها، لأن الخوف والرعب يؤثر منذ أول وهلة وأول يوم، ولكن نشوء فكرة تأليهها بعد مرور آلاف السنين دليل على أن سبب ذلك هو غير الخوف، وذلك السبب هو في الواقع ذو صلة بالمصادفات، تلك التي إذا ارتبطت بأوهام الإنسان وعلمه الناقص صرفته عن الحقيقة إلى منهج خاطئ.

من المؤسف أن هؤلاء الفلاسفة لم يتدبروا مسألة الشرك والوثنية على ضوء علم النفس، ولو فعلوا ذلك لعلموا أن المقام الطبيعي للوثنية هو بعد التوحيد لا قبله. فكيف لعاقل أن يصدّق أن الإنسان كان يرى كل هذه الحيوانات تموت أمامه كل يوم، ولكنه اخترع فكرة الإله فجأة عند موت أحد من بني جنسه ذات يوم، مع أن الواقع أن الناس كانوا يموتون أمامه من قبل أيضاً. وعندما كان الإنسان قرداً -حسب زعم أصحاب نظرية التطور الخاطئة هؤلاء- فكان أيضاً يموت كما كانت تموت كل الحيوانات الأخرى حوله أيضاً. إذا كان الموت سيولّد فيه أية فكرة فإنما هي أن كل شيء في الدنيا يصبح بعد فترة معينة بلا قوة وقدرة ويصير عديم الجدوى، وليس أن هناك حياة أخرى بعد الموت. إن فكرة الحياة الأخرى ما كانت لتتولد عند الإنسان إلا بالمنام والحلم، ولو جاز التسليم بنشوء أفكار باطلة بناءً على أضغاث أحلام، فليس من الصعب التسليم بنشوء عقائد سليمة بناءً على الرؤى الصادقة، وهكذا تنحل المشكلة كلها.

وتفنيدياً لزعمهم هذا أقدم دليلاً آخر نجده في البحوث العلمية التي قام بها هؤلاء الفلاسفة أنفسهم، وهو أن فكرة الإله الواحد لا تزال موجودة حتى عند أقدم القبائل الموجودة اليوم والتي هي على أدنى درجة من التحضر مع تمسكها

الشديد بعقائدها الموغلة في الوثنية، مما يدل على قِدَم عقيدة التوحيد، لأن الثابت من أحوال هؤلاء القوم أنهم لا يعبدون ذلك الإله الأكبر مع إيمانهم به، بل يعبدون آلهتهم الشعبية. إن علماء مقارنة الأديان الذين قاموا بالبحوث عن القبائل القديمة في أستراليا وأفريقيا والمكسيك قد اعترفوا في بحوثهم هذه بوجود فكرة الإله الواحد الأكبر لدى تلك القبائل، الذي هو إله غير مرئي ومقامه في السماء. والسؤال هنا: هل مثل هؤلاء الناس سيميلون عقلاً إلى فكرهم القديمة أكثر أم إلى فكرهم الجديدة؟ الجواب طبعاً أن الإنسان يميل أكثر إلى الفكرة الأخيرة. فإذا كانت فكرة الإله الواحد تولدت عند هؤلاء القبائل غير المتحضرة الذين هم تذكّار من الزمن الموجل في القدم، فكان من المفترض أن يعبدوا ذلك الإله غير المرئي أكثر من عبادتهم للآلهة الأخرى التي كانت نتاج أفكارهم السابقة، لأن الفكرة المتطورة هي الغالبة على القديمة، ولكننا نجد هؤلاء القبائل الهمجية في المكسيك وأستراليا وأفريقيا تتمسك بفكرة إله غير مرئي هو أكبر الآلهة عندهم، ولكن عبادته مفقودة بينهم أو شبه مفقودة، مع أنهم يعبدون الآلهة الصغيرة الشعبية كثيراً. وهذا دليل يبين على أن الأفكار الوثنية تولدت بعد فكرة التوحيد، ولذلك نجد الغالبة في حياتهم.

وأقدم الآن الأمثلة التالية على وجود الاعتقاد بإله واحد غير مرئي خالق لكل بين القبائل القديمة المتوحشة.

كتب علماء مقارنة الأديان أن سكان "المكسيك" القدامى، الذين يُعدّون ممثلي أقدم الشعوب، يعتقدون بإله واحد اسمه "إيونا ويلونا"، وهو خالق الكل والمحيط بالكل، وأبو الآباء. في بدء الخليقة، عندما لم يكن هنالك شيء ولا كائن، فكّر "ويلونا"، ونتيجة تفكيره نشأت قوة النمو، فتزايدت تلك القوة وتحولت فضاءً واسعاً، وتجلّى منها نور الإله، ثم أخذ الفضاء يتقلص فنشأ منه القمر والشمس والنجوم.

ما أشبه هذه الفكرة بمعتقدات الأديان الموجودة عن خلق هذا الكون، بل هي تشبه إلى حد كبير البحوث التي قام بها علماء الفلك في هذا العصر ونظرية السديم^١.

وتوجد في أفريقيا قبائل بدائية متخلفة موعلة في التوحش، وهي بدائية لدرجة أن أدمغتهم تشبه أدمغة الحيوانات بنية، وبعض أفرادها ينسون في الشيخوخة ذكريات شباهم كل النسيان، ويوجد لدى هذه القبائل اعتقاد مماثل بإله واحد خالق الكل، ويسمى في لغتهم "نينكمو".

أما بابل وهي من أقدم مراكز الحضارة الإنسانية، فقد عُثر في آثارها القديمة على لوحة مكتوب فيها:

"يا أيها الملك الأزلي الأبدي، مالك جميع المخلوقات؛ أنت خالقي. يا أيها الملك، ليكن حسب رحمتك. يا مولانا الذي ترحم الجميع، لتكن مملكتك الواسعة رحمة. اغرس في قلبي حبَّ عبادة ألوهيتك، وهب لي ما تراه خيرًا، فأنت الذي صغت حياتي على هذا المنوال".

ما أروع هذه الفكرة وما أشبهها بما تُعلِّمه الأديان المعاصرة، ولكن بعد ذلك الدور التوحيدي صارت بابل مركزا للعقيدة الوثنية.

وكذلك نجد أيضًا الاعتقاد بإله واحد عند قبائل كندا البدائية.

^١ نظرية السديم (Nebular Theory): هي فرضية علمية طُوِّرت في القرن الثامن عشر على يد إيمانويل كانت، وهي تشرح كيفية تشكُّل وتطوُّر النظام الشمسي، وتنصُّ النظرية على أن المجموعة الشمسيَّة قد تكوَّنت بفعل حدوث حالة من الانهيار الثقالي (gravitational collapse) أو الانهيار نحو الداخل (المركز)، بفعل الجاذبية الذاتية لسحابة ضخمة تُعرف باسم "السديم الشمسي"، مكونة من غازات الهيدروجين والهيليوم والغبار، وينشأ عن هذا الانهيار تجمُّع غالبية الكتلة الناتجة في مركز السديم ليتم تشكيل الشَّمس، وامتدت الكتلة الباقية حولها لتشكل قرصًا كوكبيًا أوليًا، وهو الذي تشكلت منه المجموعة الشمسية. (المترجم)

ثم هناك أستراليا التي اكتشفت قبل بضعة قرون والتي ظل أهلها منعزلين عن باقي العالم تماماً، وكانوا متوحشين دمويين لدرجة أنهم قد أُبِيدوا تقريباً. وتوجد في أستراليا قبيلة اسمها "آرانتا"، ويؤمن أهلها بإله يدعى "آلتجيرا"، ويعتقدون أنه حليم لا يُعاقب، فلا حاجة لعبادته.

وتوجد في أفريقيا قبيلة متوحشة تسمى "زولو"، هي أيضاً تؤمن بإله غير مرئي، هو أبو العالم كله، ويسمونه "أنكولنكيزلو".

وفي أستراليا سكان قدامى آخرون يؤمنون بوجود إله مُعطي الشريعة واسمه "نوريندير".

وهناك قبيلة قديمة متوحشة أخرى اسمها "وومبو"، وتعبد إلهاً قوياً اسمه "نوريلي".

وتوجد في أفريقيا قبيلة شهيرة باسم "بتو" وهي تؤمن أن الإله "نزامبي" هو خالق الكون كله وهو أبو البشر.

لقد تبين من هذه الأمثلة يقيناً أن القبائل البدائية غير المتحضرة تسلم بإله خالق الكل غير مرئي وغير مادي، بالإضافة إلى أفكارها الوثنية وأهتها القبلية. كما ثبت أيضاً أن هؤلاء القوم لا يعبدون أصلاً هذا الإله غير المادي حاكم الجميع، أو يعبدونه أقل مما يعبدون آلهتهم الأخرى. وهذا يؤكد أن عقيدة التوحيد كانت شائعة بينهم في البداية في الأحقاب الخالية، ولكن راجت فيهم الأفكار الوثنية فيما بعد، وحلت الآلهة الباطلة في قلوبهم محل الإله الحق، وبدأت مرحلة الوثنية بعد مرحلة التوحيد.

خلاصة الكلام، أننا لو سلّمنا بوجود الوحي والإلهام، وهو أمر ثابت في كل عصر وزمان ثبوتاً يماثل إنكاره إنكار الشمس الساطعة، فلا بد من الإقرار أيضاً (أولاً) أن عقيدة التوحيد كانت منذ البداية وأن فكرة الشرك إنما هي نتيجة انحطاط الشعوب.

و(ثانياً) أن التاريخ شاهد على أن الشعوب التي كانت في العصور التاريخية قد سبقت فيها فكرة التوحيد الأفكار الوثنية زماناً، مما يلزمنا أن نقر أن

الشعوب التي تاريخها مجهول، كان التوحيد فيها أيضاً موجوداً قبل الشرك والوثنية.

و(ثالثاً) إن ما يوجد اليوم في العالم من نماذج للقبائل البدائية يوجد عندها أيضاً فكرةُ إلهٍ كبير غير مرئي، ولكن عبادته مفقودة لديهم، مما يدل على أن فكرة التوحيد سابقة على الأفكار الوثنية، ومن أجل ذلك دُفنت الفكرة الأولى تحت الأفكار المتأخرة.

أريد هنا تفنيد أمر آخر أوقع هؤلاء الفلاسفة في ظنهم الباطل هذا. لما قرأ هؤلاء في التوراة وغيرها من كتب الأديان كلمات مثل: إن إله قبيلتنا كذا، وإله شعبنا كذا، استنتجوا منها خطأً أن فكرة إله واحد موجود عندهم بلا شك، ولكنها فكرة متطورة من فكرة الإله القبلي. وقد وقع هؤلاء الفلاسفة في هذا الخطأ لأن كل ديانة قبل الإسلام كانت مختصة بشعب معين، ولأنها كانت أديانا قبلية فكان أهلها يستخدمون في حديثهم حتماً تعابير مثل "إلهنا" و"إله الآخرين"، ولكن هذا لا يعني أن تلك الأديان لم تكن من الله تعالى، وإنما تداولت هذه التعابير بينهم لأن كل شعب كان له دين خاص، وجهالهم الذين كانوا لا يعرفون هذه الحقيقة الدينية كانوا يظنون أن الإله الذي أنزل لهم الدين هو غير آلهة الشعوب الأخرى، مع أن الإله كان واحداً، وكل ما في الأمر أنه تعالى كان قد أعطى كل شعب تعليمًا مختلفًا عن الشعوب الأخرى بحسب ظروفهم وحاجاتهم. ولكن هذه التعابير الشائعة بينهم لم تكن من الله تعالى، بل هم ظنوا الأمر هكذا منخدعين باختلاف شعب عن شعب. الواقع أن "يهوه" كان نفس الإله الذي كان يُدعى في الهند "براهما" أو "برميشور"، ويُدعى في إيران "يزدان"، وبسبب اختلاف هذه الأسماء واختلاف التعليم من شعب لآخر ظنَّ جهالُ هذه الأديان المختلفة أن هناك آلهة شتى. ولكن لا يجوز لأحد، بسبب هذا الخطأ من قبل الجاهلين من أتباع الأديان، أن يستنتج عدم وجود فكرة عن إله واحد عندهم. لقد نبّه الإسلام إلى خطئهم هذا وأعلن صراحةً ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، أي أنه قد جاء

نبي من الله تعالى في كل شعب، في الهند وفي إيران وفي كنعان وفي جزيرة العرب أيضًا، وأن أسفار ديانات شتى البلاد كلها قد أنزلها الإله الواحد الأحد. فمن الظلم العظيم أن يستنتج هؤلاء الفلاسفة الجاهلون بهذه الحقيقة من عقيدة خاطئة للبعض استنتاجًا خطيرًا يتعلق بالتاريخ. الحقائق لا تُبنى على آراء جهال أو متعصبين دينيا من قوم، بل تُبنى النتائج على الحقيقة الأصلية. لو سعى الناس لمعرفة الحقائق بناء على أخطاء بعض الجاهلين لأظلمت الدنيا وحلّ الجهل محلّ العلم.

وأستغرب من هؤلاء الفلاسفة الذين يحاولون عبثًا أن يشبّثوا بأن الاعتقاد بالإله المتطور الواحد "يهوه" قد ظهر بعد موسى عليه السلام! إنهم لا يرون أن إبراهيم كان قبل موسى عليهما السلام، وكان من ذرية إبراهيم شعب يسكنون في قرية مكة في الجزيرة العربية، وكانت عقيدتهم تخالف عقيدة اليهود، وكانوا وثنيين جدًّا حتى إنهم جمعوا في الكعبة التي كانت مركز التوحيد عددًا كبيرًا من الأصنام، وكانوا بعيدين تمامًا عن تأثير الحضارات الخارجية. فظهر فيهم محمد رسول الله ﷺ ونادى في قومه الذين عادوه أشد العدا بآن جدهم إبراهيم كان موحدًا ولم يكن من المشركين حيث ورد في القرآن المجيد عن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٦). فلم يعترض أحدٌ من هؤلاء المشركين على ذلك ولم يقل بل كان إبراهيم من المشركين. فكان هؤلاء يُقرون، رغم انغماسهم في الشرك، بآن إبراهيم لم يكن من المشركين، ولم يكن بين أصنامهم صنمٌ اعتقدوا أن إبراهيم كان يعبد. إن اعتراف هذه الأمة الوثنية بآن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين، ثم إن إعلان القرآن المتكرر أن إبراهيم لم يكن من المشركين، وإن عدم تنفيدهم لهذا الإعلان القرآني كما هو ثابت من التاريخ، كل ذلك يدل دلالة واضحة أن العرب كانوا يؤمنون بآن إبراهيم كان موحدًا، ولم يكن من المشركين. وهذا ما تؤكده رواياتهم القديمة. ومثل هذه الروايات القديمة ولا سيما لقوم لم تتأثر أفكارهم بأفكار العالم الخارجي، لتشكل دليلًا قاطعًا على وجود عقيدة الإله الواحد في

العالم قبل ظهور موسى ﷺ، وأن آباءه كانوا يؤمنون بهذا الإله. كيف يصح، رغم هذه الحقيقة الناصعة، قول الفلاسفة أنه لم توجد عقيدة الإله الواحد في اليهود الذين كانوا بعد إبراهيم بقرون، وكانوا يدعون أنهم من ذريته، وكيف يصح الزعم أن اليهود تركوا عبادة الآلهة الأخرى خوفاً من إله اسمه "يهوه" الذي كانوا يظنون أنه إله غيور شديد البأس، وهكذا نشأت فكرة الإله الواحد. فما أسخفه وأوهنه من استدلال!

خلاصة القول، إن عقيدة وجود الإله الواحد التي تقدمها هذه الآيات الكريمة ليست حلقةً ارتقائيةً متطورة من سلسلة العقائد الوثنية، بل إنها حقيقةٌ تؤكدُها تلك الدلائل والبراهين التي بيناها آنفاً، ويشهد التاريخ وأحوال كل الشعوب البدائية غير المتحضرة على أن عقيدة التوحيد هي الأصل، وأما العقيدة العريقة، وأن عقيدة الوثنية إنما نشأت عند انحطاط الشعوب، ولم تكن عقيدة البشر الأوائل.

أنا لا أنكر نتائج جهود هؤلاء الفلاسفة كلبيةً، بل يمكن أن أَرْضَى ببحوثهم بأنهم قد عرفوا أسباب الشرك والوثنية إلى حد ما، وقاموا ببحوث حول دواعي الانحطاط الفكري لدى الشعوب التي انتشرت فيها الوثنية، ولكن استنتاجهم من هذه البحوث أن عقيدة الشرك هي التي أدت إلى فكرة الإله الواحد استنتاج باطل تماماً. إن استنتاجهم هذا قفزة غير منطقية كقفزهم غير المنطقية بشأن تطور الجنس البشري، حيث استنتجوا بناءً على ما يوجد في بنية الحيوانات والإنسان من مماثلات واختلافات أن الإنسان آخر حلقة من سلسلة الحيوانات. فكما أنهم توصلوا، نتيجة غض الطرف عن الحلقة الغائبة في سلسلة التطور، إلى نتيجة خاطئة حول تطور الجنس البشري، كذلك تماماً قد توصلوا إلى نتيجة باطلة فيما يتعلق بفكرة الإله. ولو أنهم سموا ببحوثهم "معرفة أسباب الوثنية" لكان أمراً مقبولاً إلى حد ما، ولاتفقنا مع أفكارهم بقدر صحة نتائجهم ومنطقيتها ومعقوليتها.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤)

شرح الكلمات:

ريب: راجع شرح الكلمات في قول الله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

نَزَّلْنَا: نَزَّلَهُ: صَيَّرَهُ نَازِلًا. وَنَزَّلَ الْقَوْمَ: أَنْزَلَهُمُ الْمَنَازِلَ. نَزَلَ الشَّيْءُ: رَتَّبَهُ. نَزَلَ الْعَبْدُ: قَدَّرَ لَهَا الْمَنَازِلَ. وَالتَّنْزِيلُ يَكُونُ تَدْرِيجًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَالْإِنْزَالُ أَعَمُّ مِنْهُ. (الأقرب)

الفرق بين الإنزال والتنزيل أن يختصَّ بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفَرَّقًا ومرة بعد أخرى، والإنزال عام. (المفردات)

عَبْدُنَا: يُقَالُ عَبْدَ اللَّهِ: تَأَلَّاهُ لَهُ. عَبْدَ اللَّهِ: طَاعَ لَهُ وَخَضَعَ وَذَلَّ وَخَدَمَهُ وَالتَزَمَ شَرَائِعَ دِينِهِ وَوَحَّدَهُ. (الأقرب)

والعبودية إظهارُ التذلل، والعبادة أبلغُ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا مَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِفْضَالِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى. والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير... وعبادة بالاختيار... والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول عَبْدٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَصَحُّ بَيْعُهُ وَابْتِيعُهُ (وَجَمْعُهُ عِبِيدٌ)، وَالثَّانِي عَبْدٌ بِالْإِيجَادِ، وَذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، وَالثَّالِثُ عَبْدٌ بِالْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا ضَرْبَانِ: عَبْدٌ لِلَّهِ مُخْلِصٌ (وَجَمْعُهُ عِبَادٌ)، وَعَبْدٌ لِلدُّنْيَا. (المفردات)

قال بعض أئمة الاشتقاق: أصل العبودية الذلُّ والخضوع. وقال آخرون: العبودية الرضا بما يفعل الرب، والعبادة فعلٌ ما يرضى به الرب. والأول أقوى.

(التاج)

العابد: الموحد. والتعبدة: العبودية. ما عبدك عني: ما حبسك. عبد ربه: لزمه ولم يفارقه... قال ابن الأنباري: فلان عابد؛ وهو الخاضع لربه، المستسلم المنقاد لأمره، والمتعبد المنفرد بالعبادة. (التاج)

فمعنى العبد أن يصير الإنسان في غاية التواضع والتذلل والخضوع والتوحيد والخدمة والتمسك بالله وعدم المفارقة لله وغاية الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى.

سورة: راجع شرحها في مستهل تفسير سورة الفاتحة.

شهداء: جمع شهيد. والشهادة والشهود: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا. والشهادة قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر. وقد يعبر بالشهادة عن الحكم وعن الإقرار. وقوله (ما شهدنا إلا بما علمنا)، أي ما أخبرنا. والشهادة فسرت بمعنى الخبر اليقين. (وادعوا شهداءكم) قال ابن عباس: معناه أعوانكم. وقال مجاهد: الذين يشهدون لكم. وقال بعضهم: الذين يُعتدّ بحضورهم. (المفردات)

والشهيد: الشاهد؛ الأمين في شهادته؛ الذي لا يغيب عن علمه شيء. (الأقرب)

فمعنى ﴿ادعوا شهداءكم﴾: ١- ادعوا أعوانكم وأصدقاءكم، ٢- ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم، ٣- ادعوا أهلتكم.

دُون: من معانيه: غير. (الأقرب)، فدون الله يعني غير الله.

التفسير: قد نزل أول حكم سماوي رسميًا في القرآن الكريم في الآيتين السابقتين. أما قبلهما فلا شك أن سورة البقرة تحدثت عن محاسن القرآن وواجبات المتقين، وأن سورة الفاتحة ذكرت أدعية المؤمنين ونواياهم وأعمالهم، ولكن الله تعالى لم يصدر أي حكم للناس موجهًا خطابه إليهم، لا في سورة الفاتحة ولا في البقرة إلا في الآيتين الماضيتين. ومن طبع الإنسان أنه لا يميل إلى الاعتراض على أمر إلا إذا خوطب به، لأنه إذا لم يخاطب به يقول ما لي وما لهذا الكلام، أما إذا وجه إليه هذا الكلام فيتوجه إليه فورًا، إما للتدبر فيه أو

لمعارضته، وهذه الآية تتحدث عن النتيجة الطبيعية اللازمة عند صدور هذا الحكم، أي عن رد فعل الكفار عند سماع هذا الحكم في القرآن الكريم، حيث قالوا لم يعجبنا هذا الكلام لأنه قد دمر أمننا وسلامنا، وسلب اليقين من قلوبنا، وفتح علينا أبواب الشكوك والشبهات.

لقد قمت بهذا الاستدلال من قوله تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾. علمًا أن الريب إذا كان بمعنى الشك فلا بد أن يكون مقرونا بـ ﴿في﴾، فيُقال مثلاً: هذا الأمر فيه ريب، وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ (الكهف: ٢٢)، أي أن الساعة الموعودة لا شك فيها، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ (الجاثية: ٣٣)، وفي آية أخرى وردت كلمة الريب مقرونة بـ (من): ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ (الحج: ٦)، ولكننا يمكن أن نفسر هذه الآية بأنكم إن كنتم وقعتم في الشكوك نتيجة قضية البعث، وليس المعنى أنكم في شك في قضية البعث، ذلك أن الكافرين لم يكونوا يشكّون في البعث بل كانوا ينكرونه قطعاً.

والفرق بين الريب والشك أن الشك يكون من الإنسان، أما الريب فلا يكون من الإنسان، بل يُنسب إلى ما يسبب الشك، فمثلاً يقال أشكّ في ذلك، ولكن لا يقال أريب في ذلك، وإنما يقولون: رابني أو أرابني هذا الأمر، أي ألقاني في الشك.

باختصار، لم يشك الكافرون في دعوى القرآن الكريم فحسب، بل قالوا أكثر من ذلك، وهو: (أولاً) إن مواضيع القرآن قد شككتنا في الحقائق التي كنا نؤمن بها، ناهيك أن تزيل شكوكنا، أي أن هذا الكتاب يخلق الشكوك في القلوب بدلاً من إزالتها. (ثانياً) كنا نرى من قبل أن دعوى محمد (ﷺ) جديرة بالتدبر وكنا مستعدين للنظر فيها، ولكن كلما نزل القرآن زادتنا مواضيعه شكاً في دعوى محمد.

هذا يعني أنهم كانوا يشيرون على القرآن الكريم اعتراضين: أولهما أن مواضيعه لا تحقق الغاية التي نزل من أجلها، والثاني لو صدّقناه لاضطررنا للتخلي عن

كثير من الحقائق، فهو يُبعدنا عن كثير من الحقائق الأخرى بدلاً من أن يهدينا إلى الحقيقة الأصلية.

أما عبارة: ﴿مَّا نَزَّلْنَا﴾ فقال العلامة "أبو البقاء" فيها قولين، أحدهما: في موضع جرّ صفةً لريب، أي ريب كائن مما نزلنا، والثاني: ويجوز أن يتعلق (من) ريب، أي إن ارتبتم من أجل ما نزلنا.

وقال العلامة "أبو حيان" في تفسيره: و(من) يحتمل ابتداءً الغاية والسببية (البحر المحيط). أي: نشأ الشك بسبب ما نزلنا، أو (ما نزلنا) سبب الشك. ملخص هذه الأقوال أن ﴿مَّا﴾ يعني أن الشك المذكور آنفاً إنما سببه عند المعترضين هو القرآن الكريم نفسه، حيث يقولون إن القرآن قد ألقانا في القلق والاضطراب.

الحق أن عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ لا تدلّ على الشك في القرآن الكريم، بل تدلّ على بطلان اعتراض الكفار، لأن مفهوم هذه الآية هو أن الكفار يقولون أن هذا القرآن قد ألقانا في الشكوك والشبهات، فقال الله تعالى إبطالاً لزعهم إن كنتم وقعتم في شك بسبب القرآن الكريم فافعلوا كذا وكذا، أي أن دعواكم بأن القرآن سبب لكم الشك باطلة. هناك تعبير عربي: (إن كنت عبدي فأطعني)، ويقال هذا عندما يقول لك أحد كذباً: أنا عبدك، فتكذّبه فيما قال بقولك: إن كنت صادقاً في دعواك فعليك بطاعتي، أي ما دمت لا تطيعني فثبت أنك تدّعي ذلك بلسانك فقط. بهذا المعنى تماماً قال الله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، أي أن ادعاءكم بأن القرآن الكريم قد ألقى بكم في الشك ادعاء باطل، إذ لو كنتم صادقين فيما تقولون لجتتم بسورة ألفتموها مثله، ولكنكم لم تسعوا للإتيان بسورة مثله، وبالتالي فقد بطلت دعواكم بأن القرآن ألقاكم في الشكوك، وثبت أنكم لا تريدون بقولكم هذا إلا التهرب، لأن الكلام الذي يكون فاسداً وقدرّاً بحيث يولد الشكوك في القلوب فإن الطفل الصغير أيضاً يقدر على الإتيان بمثله، ناهيك أن لا يقدر عليه كل الكفار وأعوانهم، بل لا يجرؤون على السعي لذلك، فثبت بذلك أنهم كاذبون في دعواهم.

الحق أن الاعتراض على الخصم أسهل ما يكون، ومنكرو الحق يكتفون دائماً بإثارة الاعتراضات على الخصوم، ولا يأتون بعمل جدِّي يدلّ على كفاءتهم ويؤكد صدق اعتراضهم أيضاً، وهذا ما فعله منكرو القرآن الكريم. كانوا يعترضون على القرآن الكريم دون أن يأتوا إزاءه بأيّ تعاليم مثله، دَعَكُ أن تكون أفضل منه. هذا هو حال معارضي القرآن الكريم حتى اليوم، ولا يرح الكتاب المسيحيون يسوقون الاعتراضات على القرآن المجيد، ولكنهم لم يجرؤوا حتى اليوم على قبول تحدي القرآن الكريم بالإتيان بمثله. يدّعون أن القرآن الكريم قد سرق من الإنجيل كذا وكذا، وأخذ من التوراة كذا وكذا، واستعار من كتب المجوس كذا وكذا، ولكنهم لم يجرؤوا قط أن يقتبسوا من الإنجيل والتوراة وكُتِبَ الزرادشتية مواضيع شتى ويؤلفوا منها كتاباً جامعاً مثل القرآن الكريم. إن اعتراضهم هذا هو كقول من يزعم بأن العسل ليس به أي فضل أو مزية، لأن النحل امتصت من الأثمار رحيقها وسرقت من الأزهار عبيرها العطرة، ولكن هل يمكن لهذا المعارض أن يقدم عسلاً مثله، وأتى له ذلك؟ إن اقتباسَ الأشياء من أماكن شتى وصنْعَ شيء جديد أفضل وأروع، وهو أيضاً لميزة وكمال، وإذا كان هذا أمراً سهلاً عند المعارضين فلماذا لا يفعلون مثله؟

هذا الجواب على سبيل التنازل، وإلا فإن القرآن الكريم يدّعي أنه يتضمن كل الحقائق الموجودة في الكتب السابقة حيث قال الله تعالى ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (البينة: ٤)، أي أن الصحف القرآنية تحتوي على كل الحقائق الصالحة للبقاء والاستمرار ولم تكن بحاجة إلى النسخ نظراً إلى الزمن. كما قال الله تعالى أيضاً: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥٢)، أي أن هذا الرسول يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من قبل، بمعنى أن تعاليمه لا تتضمن التعاليم الجيدة الموجودة في الكتب السابقة، بل فيها أمور إضافية لم يكن الناس يعلمونها من قبل.

كذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أُمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، أي إذا صرتم في أمن فاذكروا الله بالصفات التي

عَلَّمَكُمْ إِيَّاهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، والتي لم تكونوا تعلمونها من قبل. لقد ادعى القرآن الكريم هنا أنه يتضمن علماً إضافياً عن صفات الله تعالى لم يكن متيسراً للدنيا من قبل.

وكذلك قال الله تعالى أنه يوجد في القرآن (متشابهات)، أي أمورٌ تتشابه مع ما ورد في الكتب السابقة، وأن فيه أيضاً ﴿مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران: ٨)، أي أمورٌ لم توجد في الكتب السابقة، وهُنَّ السبب وراء نزول القرآن الكريم.

كذلك قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٠)، أي يقول الكفار أن هذا المدّعي قد جاء بتعاليم مخالفة للصحف السابقة، وهذا دليل على كذبه، فقلّ لهم: إن لكل قوم زمناً محدداً، فعندما ينقضي زمنهم يمحو الله بعض ما أُوتوا من تعاليم ويستبقى بعضها الآخر، وهناك أحكام للعصر الجديد محفوظة عند الله تعالى ويُعطاهما الجديد. فاعتراضهم سخيف، لقد أخذنا لك الأجزاء المفيدة من الكتب السابقة، كما آتيناك تعاليم جديدة لم تكن صالحة للعصر السابق بل كانت صالحة لعصرك.

فالقرآن الكريم بنفسه يعترف أنه يتضمن التعاليم المفيدة التي كانت موجودة في الكتب الأولى، كما يؤكد أن فيه تعاليم إضافية أخرى، فالطعن في القرآن الكريم بتقديم بعض الأمور المتشابهة منافٍ للأمانة، ومن يزعم بأن القرآن الكريم لا يحتوي إلا على مواضيع مسروقة من الكتب السابقة فليؤلف كتاباً مثل القرآن آخذاً ما يشاء من مضامين الصحف السابقة، ثم لينظر هل يقدم بجهوده المضنية واحداً من مئات الآلاف من معارف القرآن الكريم.

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى قال في بداية سورة البقرة: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، ثم لما دُعيَ الناس قاطبة إلى عبادة الله الواحد ثارت ثائرة أعداء القرآن، وقالوا: ما هذه الدعوة التي توجهونها إلينا؟ لقد ادّعيتُم أن لا ريب في هذا الكتاب، بينما الريب كل الريب فيما قدمتم في أول هذا الكتاب من تعليم التوحيد الذي يفتح أبواب الشكوك على مصاريعها، وإن عقيدة

التوحيد هذه باطلة تماماً، وقد بدأت الشكوك والشبهات تساورنا عن الدين بمجرد سماع هذا التعليم، لأن أي أمر من أمور الدين مهما كان قطعياً و يقينياً لم يعد محفوظاً من الاعتراض بعد هذا التعليم، إذًا فما الفائدة من الدين، وأي طمأنينة جلب لنا؟

فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله﴾، أي عليكم أولاً تأليف سورة كهذه، بمعنى أي اتوا بكلامٍ يشمل المضامين والمطالب كالتي وردت في سورة البقرة حتى الآن، وثانياً ادعوا شهداءكم لإنجاز هذه المهمة.

لقد تبين مما سبق من الشرح أن التحدي هنا يتضمن المطالبة بالإتيان بسورة تتضمن من المعارف والمعاني ما يساوي المعارف المذكورة في الآيات السابقة من سورة البقرة. ولا يعني ذلك أن البشر قادرون على الإتيان بمثل باقي القرآن الكريم، كلا، وإنما قال هذا إتماماً للحجة على الخصوم، والمراد أن عجزكم عن الإتيان بنظير ما في القرآن كله من معاني وتعاليم أمرٌ واضح ومُستبعد كل الاستبعاد، فأتوا على الأقل بسورة تحوي المعارف المذكورة في هذه الآيات القليلة السابقة من هذه السورة، لأن هذه الأمور قد أثارت اعتراضكم.

والآن لنر ما هي المعاني المذكورة قبل على هذا الاعتراض. إن الآية الأولى التي قال الله تعالى فيها ﴿لا ريب فيه﴾، والتي بسببها قال الكفار إن القرآن يثير الشك لديهم، تشتمل على المعاني التالية:

١- ﴿ذلك الكتاب﴾ أي:

أ- هذا هو الكتاب الموعود، أي أن الأنبياء السابقين تنبأوا بنزول كتاب كامل، وهذا هو ذلك الكتاب الموعود، وبه تتحقق أنباؤهم.

ب- هذا هو الكتاب الكامل الذي يحتوي على كل ما هو ضروري لتكميل الروحانية.

ج- هذا هو الكتاب الذي جاء استجابةً لدعاء عُلِّمَوه في سورة الفاتحة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾، أي دُلِّنا على الصراط

السوي، صراطِ المُنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.
(للمزيد من التفصيل راجع تفسير قول الله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم)

٢- ﴿لا ريب فيه﴾ أي:

أ- لم يردّ في هذا الكتاب ما يثير القلق والاضطراب حقاً، بل إنه يقدّم على صحة كل دعاويه أدلة وبراهين، ويسدّ باب كل إثم ويفتح باب كل حسنة ببيان أسباب هذا وذاك.

ب- لم يردّ فيه ما يُعدُّ قهمةً في حق الله جل وعلا، أو في حق أحد من الأبرار المقربين، أو بحق أي كتاب سماوي حق.

ج- لا يُعوّزه أيّ أمر لا بد من بيانه لبلوغ الكمال الروحاني.

د- لا يتضمن تعليمًا يوقع الإنسان في المشقة أو الهلاك.

ثم بعد ذلك بين الله تعالى في الآيات التالية من سورة البقرة الأمور التالية:

٣- ﴿هدى للمتقين﴾، أي أن هذا الكتاب لا يقتصر على مطالبة الإنسان بالأعمال الحسنة فحسب، بل يَعِدُّ كلّ من يتبعون تعاليمه أن الله تعالى سيوصلهم إلى مقام وصاله وقربه سبحانه، ويخبرهم بمشيئته تعالى.

٤- وكل من يرفض هذا الكتاب عناداً سيعاقبه الله تعالى بعذابه.

٥- أما الذين لا يقوم إيمانهم به على الإخلاص والصدق، سواء من ناحية العقيدة أو العمل، فهم أيضاً يصبحون عرضة للعقوبات السماوية.

٦- إنه يقدّم عن الله تعالى تعليمًا صادقاً مدعماً بالبراهين.

هذه هي مضامين الآيات السابقة للآية قيد التفسير، ولا تتحقق مطالبة الإتيان بمثل هذه المعارف إلا إذا أتوا بسورة تتضمن كل هذه المضامين. والظاهر أن تحقيق هذه المطالبة خارج عن نطاق قدرة البشر، إذ لا يقدر على تقديم هذه المعارف والمضامين إلا كتاب يُنزلهُ الله تعالى.

لقد ادعى القرآن الكريم عن نفسه في قول الله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ دعوى هي خارجة عن نطاق قدرة البشر، إذ لا يقدر على تحقيقها إلا الله تعالى، ومن أجل ذلك قال الله تعالى في آخر هذه الآية متحدّياً الكفار: ﴿وادعوا

شهداءكم»، أي استعينوا بأهتكم ليوحوا إليكم كتابا مثله، لأن من دعاوي القرآن الكريم أيضًا أن الذين يتبعونه سيفتح لهم باب الوحي السماوي.

هذا هو ما تطالب به هذه الآية. وهذه المطالبة تشمل الجمال اللغوي أيضًا، لأن اللغة الركيكة لا تُفصح عن المعاني بل تُحدِث المزيد من الشك. فقول الله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾، أي ليس فيه ما يبعث على القلق والاضطراب، يتضمن الادعاء أن لغة القرآن ذروة في الفصاحة والبلاغة. لكن من الخطأ القول بأن المطالبة هنا هي الإتيان بكلام مماثل للقرآن في الفصاحة فحسب، لأن هذه المطالبة إنما تماثل قطرة من البحر، لا غير. والحق أن مطالبة القرآن واسعة جدًا ولا تنحصر في اللغة الفصيحة، كما ليس في الآية أي ذكر للغة، وجملة ﴿لا ريب فيه﴾ هي التي يمكن أن يستنتج منها ضرورة الالتزام باللغة الفصيحة عند الإتيان بالمثل، ولكن الواقع أن هذه الجملة تشتمل على مطالب ومعاني أخرى أيضًا، فلا يصح أن نأخذ بمعنى واحد لعبارة ﴿لا ريب فيه﴾ ونحمل معانيها الأخرى، كما لا يصح أيضًا أن نتمسك بعبارة ﴿لا ريب فيه﴾ فحسب، مهملين المطالب الأخرى التي قد أُشير إليها في هذه الآية الكاملة.

وخلاصة القول إن القرآن الحكيم قد ردَّ هنا بشأن قول المعارضين بأن مضامينه أثارت مزيدًا من الشبهات على الدين أو على محمد (رسول الله ﷺ) ردًا مفحمًا لم ولن يقدر أحد على مواجهته. أما الاعتراضات فكانت وما زالت وستبقى مستمرة ما دامت هناك قلوب فارغة من التقوى. ولكن إذا سعى أحد لقبول ذلك التحدي خاليًا من التعصب فلا مناص له من الإقرار بعجزه، ولذلك قال الله تعالى في الآية التالية: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾، لا في قريب الزمان ولا إلى يوم القيامة.

لقد تحدى القرآن الكريم العالمَ بالإتيان بنظيره في خمسة مواضع، وأرى أن مفهوم التحدي في كل موضع منها يختلف عن غيره. فأولًا: هذه الآية التي هي قيد التفسير.

وثانيا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٩).

وثالثا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٤).

ورابعا: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٩).

وخامسا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤-٣٥).

والملاحظ أن التحدي في الموضعين الأول والثاني (أي في سورة البقرة ويونس) هو من نوع واحد، أي الإتيان بسورة واحدة مثل القرآن الكريم، أما تحديات المواضع الأخرى الثلاثة، فلكل واحد منها مفهوم خاص مختلف عن الآخر. ففي سورة الإسراء جاء التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله. أما في سورة هود فالتحدي بالإتيان بعشر سورٍ يؤلفونها وينسبونها إلى الله تعالى إن كانوا صادقين. وأما في سورة الطور فالتحدي فيها مطلق، وهو الإتيان ليس بسورة واحدة بل بأمر واحد فقط.

ويبدو غريباً أن الله تعالى يطالبهم في موضع بالإتيان بمثل القرآن كله، وفي موضع آخر بعشر سور، وفي موضع بسورة، وفي موضع بأمر واحد! فالسؤال الطبيعي الذي يفرض نفسه هنا: ما السبب في هذا الاختلاف؟

قال البعض إن سبب الاختلاف هو التنازل في التحدي حتى ينكشف للمعارضين عجزهم التام، فطالبهم أولاً بمثل القرآن كله، وعندما عجزوا طالبهم بعشر سور مثله، فلما عجزوا أيضاً طالبهم بسورة واحدة، وحين عجزوا أيضاً طالبهم بأمر واحد من مثل القرآن الكريم.

وعندي أن هذا التعليل لا يخلو من اضطراب وضعف، لأن ترتيب نزول السور التي تضمنت هذه التحديات يخالف هذا التعليل. فأول هذه السور نزولاً هي سورة الطور التي فيها التحدي بالإتيان بحديث مثله، أي كلام مماثل للقرآن

الكريم وإن كان أقل من سورة. أفليس من العجيب عقلاً أن يكون التحدي في سورة الطور بدون تحديد المثل الذي يأتون به، ثم يطالبون بالإتيان بمثل القرآن كله في سورة الإسراء التي نزلت بعد الطور، ثم يطالبون بأقل من ذلك أي بعشر سور مثله، ثم يطالبون بأقل من ذلك أي بسورة واحدة فقط!

ثم إن هذا الأمر ليس قصةً نعتبر بها، بل هو تحدٍّ نوجهه إلى العالم، فالسؤال هو: لماذا نطالبهم؟ هل بمثل القرآن كله، أم بعشر سور مثله، أم بسورة، أم بأمر واحد مثله؟! وإذا كانت المطالبة بالإتيان بآية واحدة كافية فلماذا نطالبهم بعشر سور! وإذا كان الإتيان بعشر سور كافياً فلماذا نطالبهم بالإتيان بمثل القرآن كله؟!!

أرى أنه لا داعي لإرجاع سبب اختلاف هذه المطالبات إلى ترتيب نزول القرآن الكريم، وذلك (أولاً) لأن بعض هذه السور متقاربة الزمن نزولاً بحيث يصعب معرفة ترتيبها النزولي الصحيح. وثانياً لم ينزل القرآن سورة فسورة، بل كان نزول بعض سورته متقارباً بحيث كانت ثلاث أو أربع منها تنزل في وقت واحد. لذا فلو كانت آخر آية من سورة من هذه السور أسبق نزولاً من آخر آية من سورة أخرى، جاز لنا القول أن السورة الأولى أسبق نزولاً من الثانية، ولكن لا يصح هذا القول بالنظر إلى كل الآيات من كلتا السورتين. ولذلك أرى أن لا علاقة لهذه المطالبات بترتيب نزول هذه السور، بل يمكن مطالبة المعارضين بكل هذه المطالبات وفي وقت واحد اليوم أيضاً كما طالبهم القرآن الكريم بها في زمن نزوله.

وقبل أن أفصل التحديات المختلفة المذكورة في هذه الآيات أود لفت الأنظار إلى أمر عجيب، وهو أن كل واحد من هذه التحديات جاء مقروناً بذكر المال والثروة والقوة، ما عدا الوارد في سورة البقرة؛ وسببه أنه ليس تحدياً جديداً بل هو نفس التحدي الوارد في سورة يونس، وقد أعيدَ في سورة البقرة نظراً إلى مضامينها دون ذكر المال والمُلْك والقوة باعتباره غير ضروري في السياق. علماً أن سورة يونس مكية وسورة البقرة مدنية. يقول الله تعالى في سورة

يونس قبل التحدي ببضع آيات: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣٢). وكان الله يعلن هنا أن في قبضته الخزائن كلها سواء ما يتعلق منها بالرزق أو القوى الطبيعية أو الكفاءات العملية أو بتدبير شتى القوى والكفاءات تحت نظام واحد. ثم بعد آيتين من السابقة يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَاتَى تُؤْفَكُونَ* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥-٣٦). وهنا أيضاً أشار إلى القوة والمنعة.

ثم في سورة الطور قال الله تعالى بعد إيراد التحدي: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٦-٣٨)، وهنا أيضاً ذكر الثروة والحكم والقوة والمنعة.

أما في سورة هود فقد ورد قبل آية التحدي: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: ١٣).

أما في سورة الإسراء فورد بعد التحدي: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ (الإسراء: ٩١ إلى ٩٣)، وهنا أيضاً ذكر المال والثروة والقوة والمنعة.

ففي المواضع الأربعة وردت مطالبة الكفار من نوع واحد أو لم تذكر مطالبته لفظاً، ولكن ردَّ الله عليها دون ذكرها. فثبت من هنا أن هناك علاقة عميقة بين التحدي المطالب بمثل القرآن وبين الكنوز. وليست هذه العلاقة إلا أن الله تعالى قد عدَّ القرآن المجيد أيضاً كنزاً، وقد ردَّ على مطالبة

المعارضين الرسول ﷺ بالمال أن الكنز الحقيقي للرسول ﷺ هو القرآن الكريم. وردَّ على مطالبتهم ﴿لولا أنزلَ عليه مَلَكٌ﴾ أن الملائكة لا تنزل لمواجهات مادية، وإنما تنزل بالوحي الإلهي، وقد نزلت بالفعل على الرسول الكريم ﷺ بكلام الله تعالى، فقولهم أنه لم ينزل عليه ملك أو يجب أن ينزل عليه ملك قولٌ باطل، لأنهم يطالبون بما قد حصل سلفاً.

ثم لما كان نزول الملائكة، أو تيسر الكنز الروحاني يبدو مجرد دعوى بلا دليل، فبرهنَ على هذه الدعوى بكون القرآن الكريم عديمَ النظرير. أي أن القرآن الكريم يشكّل بنفسه دليلاً على صدقه، حيث يوجد فيه من البراهين الدامغة ما يؤكد كونه كنزاً لا مثيل له، وكلاماً من عند الله تعالى.

ومن الملاحظ هنا أن المواضع التي جاء فيها التحدي القرآني بالإتيان بكلام أكثرَ مثيلٍ للقرآن قد طالب فيها الكفار بالكنوز أو المُلْك، أما المواضع التي جاء التحدي فيها بالإتيان بكلامٍ أقلَّ مثيلٍ للقرآن الكريم فلا نجد فيها ذكراً لأية مطالب من قبل الكفار، وإنما قال الله تعالى هنالك هل يملك الكفار الخزائن ويُسيطرون على النواميس الطبيعية؟ وسبب هذا الفرق هو أن المواضع التي جاء فيها التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله، أو بعشرٍ سور مثله، كان الموضوع المذكور فيها واضحاً بحيث كان هذا السؤال متبادراً إلى ذهن الكفار، فذكر الله فيها ما سألوا وردَّ عليه، لكن هناك جوانب قرآنية أخرى عديمة النظرير يستحيل أن تخطر ببال الكفار ويسألوا عنها، فلو جعل تبيانها مشروطاً بسؤال الكفار لظلت خافيةً عن الناس، ولذلك قد بينها القرآن الكريم بإثارة السؤال حولها بنفسه، وهكذا ألقى الضوء على جوانب كمال القرآن كلها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والآن أتناول بالتفصيل كلّ تحدٍّ منفرداً، لأبين كيف أن القرآن الكريم قد تحدى في هذه الآيات بالإتيان من مثله من كلام كثير أو قليل، بحسب مقتضى الأمر، مع مزاياه المختلفة.

جاء التحدي الأكبر في سورة الإسراء يطالب الكفار بالإتيان بمثل القرآن كله، وليس شرطاً أن يكون الكلام المثل معزواً إلى الله تعالى، بل يجوز للمنكرين أن يؤلفوا من عندهم كما يحلو لهم، ولكن الشرط الوحيد هو أن يدَّعوا أن هذا الكلام الذي ألفوه هو مثل القرآن الكريم أو أفضل منه.

ولما كان ضرورياً تحديد جوانب المماثلة بين الكلامين، فقام القرآن بنفسه بشرح وتحديد هذه المماثلة فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٩٠). أي إذا كان المنكرون يرون فعلاً أن القرآن الكريم هو من كلام البشر فليأتوا بكلامٍ مساوٍ للقرآن الكريم في الفضائل الأربع التالية:

١. أن يُلقي ذلك الكلام الضوء على كل قضية دينية حيوية ضرورية من عقائد والمغزى منها، وصفات الله تعالى وحكمة ظهورها، وعلم الكلام، والعبادات وفلسفتها، وعلم الأخلاق وفلسفتها، والمعاملات وحكمتها، وما يتصل بالدين من أمور الحضارة والمدنية والاقتصاد والسياسة مع بيان حكمتها، والحياة الآخرة وما يتعلق بها.. وغيرها من الأمور.

٢. أن يتناول الأمور سالفة الذكر من كل نواحيها سعة وعمقاً، أي ألا يناقش كل هذه العلوم فحسب، بل يُحيطها بعمقٍ ويتناول كل جانب من كل مسألة ويرشد فيها.

٣. أن تكون كل هذه التعاليم مع سعتها ودقتها خالية من الضرر ونافعة كل النفع.

٤. أن لا يراعي هذا الكلام مصلحة شعب معين أو فئة خاصة، وإنما يكون ملائماً مع فطرة البشر كلهم، ويكون صالحاً للطبائع الإنسانية كلها، فيهيء أسباب الهدى للناس قاطبة على اختلاف طبائعهم وظروفهم ومكانتهم وأفهامهم.

ولأن القرآن الكريم لم يكن قد اكتمل عند نزول هذه الآية، فلذلك لم يقل اتوا بمثله الآن، بل قال لن تستطيعوا الإتيان بمثله، أي لا في حالته الموجودة

حينئذ ولا بعد اكتمال نزوله. والحق أن القرآن الكريم قد تناول الأمور الروحانية تناولاً رائعاً بحيث ما كان بوسع بشر أن يأتي بمثله مراعيًا الأمور الأربعة المذكورة أعلاه حتى في ما كان قد نزل من القرآن حينها وكان يُسمى قرآنًا عندها أيضًا.

إن هذه الآيات تشير إلى أمر آخر أيضًا لا يخلو ذكره من الفائدة، وهو أن هذا التحدي موجه أيضًا إلى من يُدعون علماء الأرواح ويُسمَّون بالإنجليزية (Spiritualists) أي الروحانيين، وأن الجن المذكورين في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...﴾ (الإسراء: ٨٩) هم نفس تلك الأرواح التي يدّعي الروحانيون أنهم يعرفون دقائق الروحانية من خلال اتصالهم بها، حيث نبههم القرآن الكريم إلى أن الإتيان بمثل القرآن مستحيل على الإنسان، سواء أحاول هو بنفسه أو استعان بالأرواح التي يدّعون الاتصال بها. وليس المراد من الجن هنا تلك الكائنات الوهمية الشهيرة عند الناس، لأن مطالبة الإتيان بمثل القرآن مستعنيين بأولئك الجن أمرٌ سخيف. كما أن الله تعالى قد قال في الآية السابقة لهذه الآية من سورة الإسراء ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٦)، مما يدل بوضوح على أن الحديث هنا عن الأرواح نفسها وليس عن الجن المزعومة (للمزيد من التفصيل راجع تفسير هذه الآية في سورة الإسراء).

أما الآية الثانية التي هي من سورة هود، فتذكر اعتراض الكفار بأن الرسول ﷺ لا يملك كنزاً ولا مُلكاً، فرد الله عليهم وقال إذا كان اعتراضكم صحيحاً ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾. فهنا قدّم هذه السور باعتبارها كنزاً، وقال إذا كان محمد مفترياً عندكم في ادعائه بنزول الوحي والملائكة عليه، فأتوا على الأقل بعشر سور مفتريات، أي فأتوا بهذه السور العشر على الأقل مع ادعائكم بأن الملائكة أنزلتها عليكم بإذن الله تعالى، ثم انظروا كيف يكون مصيركم. وإن

كنتم لا تجرؤون على هذا الادعاء الزائف فكيف تظنون أن محمداً يفترى على الله كل هذا الافتراء، وإذا كان يفترى على الله فلماذا هو في مأمن من بطش الله تعالى؟ وهكذا قد جمع الله هنا المواجهة السماوية مع المواجهة العقلية.

وقد طالب هنا بالإتيان بعشر سور، لأن القرآن الكريم لم يدعي هنا بكماله من كل النواحي، بل كان الحديث عن بعض القرآن، بمعنى أن المعارضين كانوا يقولون أن بعض أجزاء القرآن مدعاة للاعتراض، كما هو واضح من قول الله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (هود: ١٣)، وكذلك كما هو بين من اعتراض الكفار بأن محمداً لا يملك كنزاً، ولا ولم ينزل معه ملك، ومن أجل ذلك لم يطالبوا هنا بالإتيان بمثل القرآن كله بل قيل لهم اثبتوا بعشر سور مقابل أضعف جزء من القرآن في زعمكم لكي يُختبر ادعاؤكم هذا.

وقال (عشر سور)، لأن العشرة عدد كامل متكامل، فقال الله تعالى مفندا دعوى المعارضين: لا نقول لكم أن تأتوا بمثل واحد، بل نسمح لكم بالإتيان بعشر سور مثله. فليس السبب وراء مطالبتهم بالإتيان بعشر سور أنهم كانوا قادرين على تأليف سورة واحدة مثل القرآن، وإنما قال عشر سور لأن أفضل سبيل لدحض اعتراضهم هذا أن يُعطوا عدة فرص وليس فرصة واحدة. ولم يطالبهم بالإتيان بمثل للقرآن كله، لأن اعتراضهم هنا كان يخص أجزاء معينة من القرآن الكريم فقط، وليس على القرآن كله..

باختصار، في سورة بني إسرائيل كانت الدعوى عن كون القرآن مكتملاً من كل النواحي، ولذلك طالب الكفار بالإتيان بمثل القرآن كله، أما في سورة هود كان اعتراض الكفار أن بعض أجزاء القرآن غير منطقية، فتحداهم أن يأتوا بعشر نماذج من عندهم مقابل أضعف عشرة أجزاء من القرآن الكريم في زعمهم، لكي لا يقولوا أنهم لم يُعطوا إلا فرصة واحدة لتقديم كلام مماثل فأخطأوا فيها.

والآية الثالثة التي يدعي فيها القرآن أنه كلام لا مثيل له هي في سورة يونس، وقد تحداهم القرآن فيها بالإتيان بسورة مثل سورة منه. وهذه المطالبة أقل كمية

من المطالبتين السابقتين، وسبب ذلك هو أن هذه المطالبة جاءت إثباتاً لدعوى القرآن الكريم وليس تفنيداً لاعتراض الكفار. لقد ادعى القرآن الكريم قبلها أن القدرة والتصرف كلها بيد الله وحده، ثم قَدَّمَ القرآن الكريم نفسه إثباتاً لهذه الدعوى خمسة تحديات فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٨)، أي أن القرآن الكريم (أولاً) يحتوي على تعاليم يستحيل أن يخلقه البشر، وهو (ثانياً) يصدّق الكتب السماوية السابقة، وهو (ثالثاً) يكمل الأحكام الناقصة فيما سبق من الكتب، وهو (رابعاً) مصون عن كل عبث أو تصرف إنساني، وهو (خامساً) تعليم عام من رب العالمين لجميع الناس ولجميع الأزمان. ثم قال للكفار إذا لم يكن كل ما ذكرناه عن القرآن حقاً وصدقا فأتوا بسورة تتصف حقاً بتلك المزايا الخمس التي تتصف بها هذه السورة (سورة يونس). وإن لم تستطيعوا الإتيان بسورة واحدة إزاءها، فيمكن أن تدركوا مدى فضائل هذا الكتاب المكنونة، ومدى عجز البشر عن الإتيان بمثله. فهنا قوله تعالى (مثله) يعني كلاماً يتضمن مثل فضائل القرآن المذكورة في سورة يونس.

والتحدي الرابع هو: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٥). أرى أن التحدي المذكور هنا هو أصغر التحديات، أي الإتيان بمثال واحد، وإن كان أقل من سورة قرآنية صغيرة. وهذا التحدي أيضاً جاء تأكيداً لدعوى القرآن الكريم، وليس تفنيداً لدعوى الكفار. والدعوى القرآنية التي أريد إثباتها هنا قد وردت في مستهل سورة الطور، أعني قول الله تعالى: ﴿وَالطُّورُ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور: ٢ إلى ٩). أي أن القرآن هو الكتاب الذي وُعد به على جبل الطور، وسيظل يُكتب في الدنيا على مر الدهور، وسيقرأ على الدوام، وسيُنشر في العالم، وسيزداد عدد أهل الإسلام جداً، وسيدخل فيه ذوو الفضائل الروحانية والجسمانية العالية، فضلاً عن عامة الناس، وسوف يروي هذا النبع الروحاني شتى البلاد، ونقدّم

هذين الأمرين، الكتاب والإسلام، تدليلاً على يوم القيامة. ثم يُعَقِّبُ الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ (الطور: ٣٤)، فإن كان كذلك، فعليهم أن يأتوا بحديث يتضمن مثل هذه الأنباء المتنوعة، ولا نشترط عليهم أن يكون هذا الحديث تقوُّلاً وافتراءً على الله تعالى، بل لهم أن يستخرجوا ذلك المثل من الكتب السابقة، وليعلموا أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بنظيره أبداً.

فهنا لم يُشترط على الخصوم أن يفتروا ويتقولوا على الله هذا الكلام الذي يقدمونه كنظير للقرآن الكريم، ولم يُشترط عليهم أن يؤلفوه من عندهم، بل قد خيروا في أن يؤلفوه من عند أنفسهم أو يستخرجوه من الكتب السابقة سواء السماوية أو غيرها. ثم إن هذه المطالبة قليلة جداً، أي أن يأتوا بنبوءة واحدة فقط مماثلة لهذه النبوءة القرآنية، مع أن القرآن الكريم مليء بنبوءات عظيمة أخرى.

ثم بين الله تعالى هنا سبب عجز الخصوم أيضاً، وهو أن الإدلاء بمثل هذه النبوءة يتطلب أن يكون صاحبها خالق السماوات والأرض، ومالك الكنوز والمتصرف فيها ومالك الرقي الروحاني ومالك الغيب، ولكن الخصوم لا يملكون هذه القدرات، فأنتى لهم أن يأتوا بحديث مثل القرآن الكريم؟

ولم يرَ الحاجة للرد على الجزئية الثانية، أي عجزهم بالإتيان بحديث مثل القرآن من الصحف السابقة، لأن تلك الصحف كانت من الله تعالى، كل ما في الأمر أنها أقل درجة من القرآن الكريم. وهذا التحدي أيضاً قائم حتى اليوم مثل التحديات الأخرى. فهل بوسع أحد اليوم أيضاً، أيًا كان دينه، أن يدّعي أنه قادر على الإتيان بمثل هذه الآية من سورة الطور؟ وإذا كان أحد يدّعي بذلك فليأت بمثلها.

أما التحدي الخامس فهو الوارد في الآية قيد التفسير من سورة البقرة وقد سبق بيانه.

لقد ثبت مما سبق من الشرح أن هذه التحديات الخمسة هي خمس مطالبات منفصلة في الحقيقة، وكل واحدة منها قائمة، لا تنسخ إحداها الأخرى. وقد

وقع المفسرون في الخطأ بسبب زعمهم بأن كل واحد من هذه التحديات يطالب الخصوم بالإتيان بمثل القرآن في الفصاحة فقط، مع أن الأمر على عكس ذلك. إن التحدي في هذه السور الخمس ليس واحداً، بل إنها تحديات مختلفة منفصلة، وفي كل واحد منها مطالبات مختلفة، قد طُلب من الخصوم أن يأتوا بمثل القرآن كله أو بعضه نظراً لسياق كل مطالبة.

ولا ينخدع أحد مما سبق من الشرح أن التحدي بالإتيان بالمثل مقصور على السور التي جاء بها التحدي. لا شك أن الخصوم قد طُلب منهم في موضع أن يأتوا بمثل القرآن كله، وفي موضع آخر أن يأتوا بعشر سور مثله، وفي موضع ثالث أن يأتوا بمثل الدعوى القرآنية المذكورة في مستهل سورة الطور، وفي موضع رابع أن يأتوا بمثل المعارف المذكورة في سورة يونس نفسها، ولكن المطالبة المذكورة في سورة البقرة عامة، لأن المضامين المذكورة في مستهل سورة البقرة مشتركة بين سور القرآن الكريم كلها، فكل سورة تحقق أنباء الأنبياء السابقين (للمزيد من التفسير راجع تفسير البسملة في سورة الفاتحة)، وكل سورة منزّهة من تعاليم يشوبها الريب، وكل سورة هدى للمتقين. فثبت أن التحدي المذكور في سورة البقرة يغطي سائر سور القرآن، فإن أتى أحد بمثل أيٍّ من سوره طبقاً للشروط المذكورة في أول سورة البقرة والموجودة في جميع السور القرآنية، فإنه بذلك يكون محققاً في تكذيب القرآن المجيد. وهيئات هيهات أن يفعلوا ذلك! وكل من يسعى لذلك سوف يفشل فشلاً ذريعاً.

قبل بضع سنوات قام شخص جاهل غير قادر على كتابة الكتابة باللغة العربية السليمة وقدم مثل القرآن الكريم على سبيل السخرية، ولكن لا يوجد له أي أثر اليوم، وإن بطلان ادعاء ذلك الساخر ثابت حتى بشرط واحد من الشروط التي وضعها القرآن الكريم للإتيان بمثله، أعني شرط ﴿هدى للمتقين﴾، إذ لا يوجد اليوم في العالم تابع واحد لذلك المدعي، فكيف صار كتابه هدى للمتقين؟ إن قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ يدل على كون هذا الكتاب وحياً من الله تعالى، ويعلن القرآن الكريم أن من يدّعي الوحي كذباً وافتراء يُهلك

وأياد. لقد ادعى مسيلمة الكذاب في زمنه تلقيه الوحي افتراءً، فهلك في بضعة سنين، وهلاكه وبقاء القرآن الكريم شكلاً دليلاً قاطعاً على أن ما قدمه مسيلمة لم يكن مثل القرآن الكريم بتاتا.

لقد نقل الإمام الرازي نموذجاً من وحي سخيّف اختلقه مسيلمة الكذاب إزاء سورة الكوثر وهو: (إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وجاهراً، إن مبغضك رجل كافر). ولا شك أنه لن يُعدّ كلامه هذا مثلاً للقرآن الكريم إلا مجنون. بل الواقع أن ما فعله مسيلمة الكذاب هو أسخف من أن يأخذ شخص قصائد الشعارين باللغة الأردنية "غالب" و"مير"، ويجري عليها تغييرات لفظية طفيفة، ثم يدعي أنه نذّهما. فتأليف كلام خال من المعاني والمعارف بتغيير بعض الكلمات في سورة الكوثر - التي تحتوي على أنباء عظيمة قد تتحقق كثير منها في ظروف غير عادية وسيتحقق بعضها في المستقبل - هو تصرف لا يقوم به إلا مجنون. ولا جرم أن تقدم بعض الكتاب المسيحيين هذه الجمل السخيفة لمسيلمة الكذاب مقابل سورة قرآنية لا يقدم أبداً صورة جيدة عن تقواهم.

وأعود وأقول: إن القرآن الكريم يعلن عن كل سورة من سورته أنه سيعمل بها الناس إلى يوم القيامة، ولكن أين كلام مسيلمة هذا اليوم، ومن ذا الذي يؤمن به اليوم؟

وجدير بالذكر هنا أن بعض المفسرين أرجعوا سبب ارتياب الكفار إلى كلمة ﴿نزلنا﴾ في قوله تعالى ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا﴾ حيث قالوا: التنزيل من باب التفعيل الذي من خواصه فعل الشيء ببطء وبتكرار، وكأن الله تعالى يقول هنا للكفار إن كنتم تعترضون على نزول القرآن الكريم ببطء وفقره فقره قائلين لو نزل القرآن جملة واحدة ما كان هناك بأس، ولكن نزوله التدريجي مريب، لأن تأليف الكلام على أقساط متقطعة بحسب الأحداث سهل لمؤلفه، وعليه فليس القرآن كلاماً معجزاً. فردد عليكم أيها الكافرون ونقول: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾، أي اتوا بقطعة من مثله، ولو ألّفتكم قطعة مثله صحّ اعتراضكم، وإلا فلا.

وهذا الاستدلال من قِبل المفسرين يبدو لطيفاً، لكنه لا يستقيم مع قواعد اللغة العربية. ذلك أن صيغة التفعيل تدل على التكرار والكثرة بلا شك، ولكن لا يكون الأمر هكذا دائماً، إنما يكون ذلك في الأفعال التي مجردها متعدياً، فمثلاً: لو جعلنا ضَرَبَ مِنْ ضَرَبَ الذي هو متعدياً كان معناه ضَرَبَ بشدة وتكرار، أو جعلنا ذَبَحَ مِنْ ذَبَحَ، كان معناه أنه لم يذبح مرة واحدة بل ذبح بالتدريج بتمرير السكين مرة بعد أخرى. أما نَزَلَ فهو متعدياً مِنْ نَزَلَ الذي هو لازم، وعليه فلا يراد مِنْ نَزَلَ نزول متكرر أو تدريجي، لأن القاعدة العربية تقول إن زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، والمعنى الزائد في نَزَلَ هو التعدية، أي جعل الفعل اللازم متعدياً.

ومما يدل على أن فعل ﴿نَزَّلْنَا﴾ لا يعني هنا النزول المتكرر أو التدريجي، أن الكفار لما اعترضوا على نزول القرآن تدريجياً في موضع آخر قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٣). فكلمة ﴿نُزِّلَ﴾ قد جاءت -هنا على الأقل- بمعنى إنزال القرآن كله مرة واحدة. فما دامت كلمة التنزيل تفيد إنزال القرآن مرة واحدة أيضاً، فلا يصح استدلال المفسرين من كلمة ﴿نَزَّلْنَا﴾ في الآية قيد التفسير على أن الكفار اعترضوا على نزول القرآن بالتدريج، ذلك أن الله تعالى عندما ذكر هذا الاعتراض على لسان الكفار لم يقل (أُنْزِلَ) بل قال ﴿نُزِّلَ﴾.

غير أن هذا لا يعني أن التنزيل لا يفيد في أي مكان معنى الإنزال التدريجي أبداً، إذ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٧)، فقد ذكر هنا مع ﴿نَزَّلْنَا﴾ مصدره ﴿تَنْزِيلًا﴾ لزيادة المعنى، وهي هنا الإنزال التدريجي.

على كل حال لم يعترض الكفار في الآية قيد التفسير بالذات على نزول القرآن تدريجياً، بل كان اعتراضهم على عقيدة التوحيد المذكورة قبل هذه الآية، أي أنهم قالوا لقد خلقت عقيدة التوحيد في قلوبهم أنواع الشكوك والشبهات.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥)

شرح الكلمات:

وقود: الوقود ما توقد به النار من الحطب. (الأقرب)

الحجارة: جمع الحجر، وهو الجوهر الصلب المعروف. (المفردات)

والحجران هما الذهب والفضة. (الأقرب)

أُعِدَّتْ: أعدّه للأمر: هيأه وأحضره. (الأقرب)

الكافرين: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم.....).

التفسير: يقول الله تعالى في هذه الآية إنكم إن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثل أيّ سورة من القرآن الكريم، ولم تقدرُوا على الإتيان بكلام متّسم بالمازيا المذكورة، ولن تستطيعوا ذلك أبداً، فعليكم أن تدركوا أن القرآن كلام الله تعالى، وأنكم لا تبارزون الإنسان، بل إنما تبارزون الله تعالى، وعليه فاستعدّوا للقاء ذلك العقاب الذي لا يلقاه إلا المعارضون للحقائق السماوية.

وقوله تعالى ﴿لَنْ تَفْعَلُوا﴾ يمكن تفسيره بمفهومين: أحدهما أنكم لن تقدرُوا على فعل ذلك، والآخر أنكم لن تستعدّوا لفعل ذلك، والمفهوم الثاني يشير إلى أن الكفار كانوا يشركون بالله آلهة أخرى، ولكنهم كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أن آلهتهم لا تستطيع إنزال وحي، ولا تُنزل الوحي أبداً، فأنى لهم أن يدعّوا شهداءهم لهذه المواجهة. إن إبراهيم عليه السلام لما قال للكفار اسألوا آلهتكم رأيهم في الأمر الفلاني، اضطربوا للقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٦). وإلى هذا الأمر نفسه أشار القرآن الكريم هنا وقال للخصوم إننا نقدّم هذا الكلام على أنه وحي الله تعالى، فلا مناص لكم من أن

تقولوا إن أصنامكم أو آلهتكم من دون الله قد علّمتكم أيضاً المعارف كمثل المعارف المذكورة في هذه السورة، وها أنتم تقدّمونها ردّاً على التحدي القرآني، ولكنكم أيها الخصوم لن تستعدّوا لهذه المواجهة أبداً رغم الدعاوي الكثيرة، لأنكم تدرون أن لا وجود لآلهتكم المزعومة في الخارج، إنما هي أوهام عقولكم، ولا تستطيع أن تتكلم كما يتكلم الإله الحي.

وقال الله تعالى في وصف النار التي أنذر منها: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، ولو فسّرنا النار بمعنى الجحيم، فالمراد أن الجحيم الذي يدخله الكفار وقوده بعض الناس والحجارة، أي المشركون وأصنامهم التي يعبدونها، كما ذكر الله ذلك في آية أخرى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٩٩). وقد يراد هنا الحجارة المعروفة، لأن نارها أشد حرارة، حيث نجد نار الفحم أو الكلس شديدة الحرارة.

وقد يكون الوقود هنا استعارة، والمراد أن العلاقة بين الناس والحجارة، أي الوثنية، هي التي ستكون سبباً لإيقاد تلك النار للكافرين.

وقد فسّر مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام قوله تعالى ﴿الناس والحجارة﴾ أنه إشارة إلى نوعين من أهل النار: نوع يضمرون في قلوبهم شيئاً من حب الله تعالى، ولم يخرجوا كليةً من مفهوم لفظ الناس الذي يدل على الحب، ونوع آخر منهم شَبَّهوا بالحجارة لخلوّ قلوبهم من حب الله تعالى تماماً، فهي كالحجارة الصلبة إذ لم يبقَ في قلوبهم رافة ولا شفقة. وهذا المعنى على درجة كبيرة من الروعة واللطافة، ويصدّقه القرآن الكريم حيث يقول عن اليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٥)، أي أنكم قد رأيتم آيات الله تعالى ومع ذلك قد أصبحت قلوبكم كالحجارة، بل صارت بعضها أشدّ قسوة من الحجارة أيضاً.

ونظرًا إلى هذا التشبيه، ستعني هذه الآية أنه سيُلقي في نار جهنم الكفار العاديون وكذلك الذين شابهت قلوبهم الحجارة قسوةً وشقاوةً.

ولو قيل: كان المفروض في هذه الحالة أن تذكر الحجارة قبل الناس هنا، لأن الذين صارت قلوبهم كالحجارة هم أولى بالنار صلياً؟ والجواب: لقد قال الله تعالى هنا (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة)، أي عليكم أن تسعوا لإنقاذ أنفسكم من النار، والظاهر أن الذين لا يزالون متحلين ببعض الصفات الإنسانية إلى حد ما هم الأحرى بالانتفاع من هذا الأمر الرباني، لذا كان ذكر الناس قبل الحجارة هنا هو الأنسب والأولى.

ولقد أطلق القرآن المجيد على الكفار نظرًا إلى شرورهم اسمين: الجن والإنس، وسماهم نظرًا إلى عقابهم على شرورهم باسمين أيضاً: الحجارة والناس. قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس: ٦-٧)، أي ألوذ بملاذ الله تعالى من الموسوس الذي يكون حيناً من الجن وحيناً من الناس. وقد ورد هذا التعبير في موضع آخر على لسان أهل النار عند إلقاءهم فيها: ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت: ٣٠)، فهنا أيضاً سمى القوم الذين يغوون الآخرين باسمين: الجن والإنس. (للمزيد من شرح الجن راجع تفسير قول الله تعالى في سورة الحجر: والجان خلقناه من قبل من نار السموم)

باختصار، جعل القرآن المجيد الكفار نظرًا إلى شرورهم نوعين: الجن والإنس، ونظرًا إلى عقابهم نوعين أيضاً: الناس والحجارة. سبب هذا الفرق هو أن نشر الشر والفساد يتطلب الخفاء، ولفظ "الجن" يعني لغة الخفاء والستر، فأهل الشر يضلون الناس من حيث لا يدرون، إذ لو أنهم حاولوا نشر شرورهم بطريقة مكشوفة لما اغتر بهم الناس، فنظرًا إلى دسائسهم السرية سماهم بالجن. أما عند ذكر عقابهم فكان ضروريًا الإشارة إلى قسوة قلوبهم تبريرًا لشدة عقابهم، ولذلك

أطلق لفظ الحجارة على نفس هؤلاء الناس الذين سماهم الجن نظراً إلى شرورهم وفسادهم.

ولا يغيين عن البال أن هذه الآية وإن كانت تذكر النار، ولا سيما نار الحجارة، إلا أن ما ذكره القرآن الكريم عن العقاب والجزاء بعد الموت إنما هو مجاز واستعارة، كما سنذكر ذلك لاحقاً عند تفسير شتى الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، وقد استخدم القرآن الكريم هذه الكلمات والتعابير التي يفهمها الإنسان في هذه الدنيا، تقريباً لصورة العذاب والعقاب في الآخرة إلى أفهام الناس إلى حد ما.

أما قوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فإشارة إلى أن عذاب الله لا ينزل نتيجة الإنكار والعناد فقط، وإلا فإن الله تعالى قد خلق الإنسان للنجاة.

تبطل هذه الفقرة ظناً بعض المسلمين الذين يزعمون أن كل إنسان، مؤمناً كان أم كافراً، لا بد أن يذوق عذاب النار قليلاً أو كثيراً، فإن الله تعالى قد صرح هنا أن جهنم إنما أُعِدَّتْ للكافرين. ولكن هذا لا يعني أيضاً أن كل من يُدعى مؤمناً لن يدخل النار، لأن الذين لا يعملون بتعاليم الإسلام حقاً، ولا يسعون لإصلاح أنفسهم، قد عدّهم القرآن بمنزلة الكفار. فالذين هم مسلمون عقيدة، ولكن أعمالهم كأعمال الكفار، لا يمكن أن يُعدّوا من الناجين من العذاب بحسب مفهوم هذه الآية.

ولنعلم أن العقاب عند القرآن الكريم ليس بدائم أبدي، وليست غايته الانتقام والإيذاء دون مبرر، بل إنه بحسب الإسلام يهدف إلى تطهير الإنسان لكي يصلح للفوز بقرب الله تعالى، وما جهنم إلا كدار للاستشفاء والعلاج من آثار الأمراض الروحانية. (للمزيد من الشرح راجع تفسير قوله تعالى ﴿وَأما الذين سُدّوا ففي الجنة... إلخ﴾ في سورة هود).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٦)

شرح الكلمات:

بَشِّرَ: البَشْرَةُ: ظاهرُ الجلد. وَبَشَّرْتُهُ: أخبرته بشارٍ بَسَطَ بَشْرَةً وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشارَ الماء في الشجر... وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فاستعارة ذلك تنبيهٌ أنَّ أَسْرَّ ما يسمعون الخبر بما ينالهم من العذاب. (المفردات)

والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والتبشير يكون بالخير والشر كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقد يكون هذا على قولهم: تحيُّتُكَ الضربُ وعتابُكَ السيف... والتبشير في عُرف اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور؛ إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشارة تعبيراً، وهذا يكون للحن أيضاً، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقةً في القسمين (التاج).

الصالحات: جمعُ الصالحة. صلح الشيء: ضدُّ فسد، أو زال عنه الفساد. هذا يصلح لك: أي من بابتك (أي يناسبك)، وصالحه: وافقه. والصالح ضد الفاسد. والصلاحية حالة يكون بها الشيء صالحاً. (الأقرب).

فالصالحات هي الأفعال الطيبة الملائمة والمفيدة التي لا فساد فيها. **جَنَّات:** جمعُ الجنة. والجنة من جن. وأصل الجن سترُ الشيء، يقال: جنَّه الليل: ستره، والجنة كلُّ بستان ذي شجر يستر بأشجار الأرض. وقد تُسمى الأشجار الساترة جنةً. وسميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان

بينهما بون، وإما لِسْتَرَه نَعَمَهَا عَنَّا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (المفردات).

الأنهار: النهر مجرى الماء الفائض، وجمعه أنهار... وجعل الله تعالى ذلك مثلاً لما يدرّ من فيضه وفضله في الجنة على الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾. والنهر: السعة تشبيهاً بنهر الماء. ونهرٌ نَهْرٌ: كثير الماء. (المفردات)

أزواج: الزوج كل واحد معه آخر من جنسه (الأقرب). وتخطئ العامة فتظن أن الزوج اثنان، والحقيقة أن الزوج واحد من اثنين، فتقول العرب: زوجان من حمام وزوجان من خفاف، ولا تقول للاثنين زوج حمام أو زوج خفاف، وقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يوضح هذا الأمر. لقد تبين من هنا أن الزوج لا يعني الذكر والأنثى، بل إما الذكر وإما الأنثى، ومن أجل ذلك جيء بكلمة ﴿اثْنَيْنِ﴾ ليعين أن المراد هما الاثنان الذكر والأنثى وليس أربعاً. وكان نوح عليه السلام قد أُمر أن يأخذ معه من الحيوانات الضرورية من الذكر والأنثى.

فالمراد من الأزواج في قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أن لهم رفقاء من جنسهم، يُكْمَلُونَ معهم كل نوع من الترقّي والراحة. ويتضح من القرآن الكريم أن كل شيء دون الله تعالى بحاجة إلى زوج، وبناءً على هذا فإن أهل الجنة، رجالاً أو نساء، يكونون بحاجة إلى زوج. أما نوعية هذا الزوج فلا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، وسوف ينكشف للإنسان عندما يدخل الجنة.

مُطَهَّرَةٌ: طَهَر: ضدٌ نجس. طَهَّرَه جَعَلَهُ طَاهِراً. (الأقرب)

والطهارة ضربان: طهارةُ جسم وطهارةُ نفس. (المفردات)

فمعنى أزواج مُطَهَّرَةٍ رفاقٌ طاهرون.

خالدون: الخلد البقاء والدوام. خَلَدَ (يَخْلُدُ) خُلُودًا: دام وبقي. خَلَدَ الرجل: أبطأ عنه المشيب، وقد أَسَنَّ. خَلَدَ بالمكان وإلى المكان: أقام به. خلد إلى الأرض: لصق بها واطمأن إليها. وفي كليات أبي البقاء: كل ما يتباطأ عنه التغير

والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأيام خوالد، وذلك لطول مكثها لا للدوام. (الأقرب)

والخلود هو تَبَرِّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على حالته التي هو عليها. وأصل المُخَلَّد الذي يبقى مدة طويلة... ثم استعير للمَبْقِيّ دائماً. والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها. (المفردات)

التفسير: تتضمن هذه الآية وصفاً مجملًا للنعم التي سينالها المؤمنون في الجنة. وقد كانت حقيقة نَعَم الجنة ولا تزال محلَّ الاعتراض من قبل أعداء الإسلام، وأهم اعتراضاتهم ما يلي:

١. أن مثل هذه الوعود غاية في إثارة الطمع ومنافية للإيمان الكامل، لأن الإيمان المجلوب بالطمع لا يمكن أن يوصف بالإيمان الحقيقي.

٢. أن القرآن يقدم النعم المادية جزاءً للإيمان، وهذا غير مقبول.

٣. أن الإغراء بالنعم المادية دليل على أن القرآن يقول ببقاء هذا الجسد المادي بعد الموت أيضاً، الأمر الذي يخالف العقل، لأن الجسم المادي مصيره الفناء. ثم إن أجزاء جسم إنسان واحد قد تُستخدم طَبِّياً في أجسام كثير من البشر في الدنيا، فأتى لذلك الجسم الفاني أن يعود إلى صاحبه؟

٤. أن هذه الآية والآيات الأخرى العديدة تتحدث عن وجود أزواج لأهل الجنة، وهذا يدل على وجود علاقات جنسية هنالك، والجنس محل للاعتراض، أما استشارة الشهوات الجنسية في الحياة الآخرة فهو أدعى إلى الاعتراض. ثم إن الغرض الأساسي من الاتصالات الجنسية هو التناسل وحفظ النوع، فهل يكون للإنسان ذرية ونسل في الجنة؟

٥. يتبين من صفات الجنة القرآنية أنها محل للانغماس في الملذات المادية، وليست مقاماً للنعيم الروحاني.

تتلخص اعتراضاتهم في أن الإسلام - معاذ الله - قد أسفَّ بحياة الآخرة إسفافاً يثأثره الأهواء النفسانية المنحطة، وبذلك أفسد معاني تلك الحياة السامية الطاهرة.

ولإدراك مدى بطلان هذه الاعتراضات، ينبغي أن نضع في الاعتبار جيداً صورة الجنة كما يقدمها القرآن الحكيم.

فأولاً يجب أن نتذكر أن القرآن الكريم قد بيّن صراحةً أن العقل الإنساني عاجز عن إدراك نعم الآخرة، فلا يصحّ قياس حياة الآخرة بالحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٨). وقد تبين من ذلك أن كل ما ورد في القرآن الحكيم من وصف للجنة إنما هو على سبيل التمثيل والاستعارة لا غير، ولا يجوز أن يُستنتج من هذه التعابير ما نعني بها في هذه الدنيا. وقد قال الرسول ﷺ في شرح هذا الموضوع فيما رواه عن ربه عز وجل، قال: قال الله تعالى: "أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". (البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة. ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها).

فاتضح من ذلك أيضاً أن حقيقة نعم الجنة تختلف كل الاختلاف عن حقيقة النعم الدنيوية. لو كانت في الآخرة جنات وأثمار وأثمار وأزواج مادية، لكانت مما رآته الأعين أو سمعت به الأذن أو خطرت على قلوب البشر.

ويتحدث القرآن الكريم مبدئياً عن نعيم الجنة فيقول: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد: ٣٦).

لقد بين الله تعالى هنا أن جنات الحياة الآخرة تختلف عن بساتين الدنيا، فثمارها دائمة لا تنقطع، وظلالها كذلك ثابتة لا زوال لها. ولكن الأشياء المادية عرضة للزوال حتماً، لأنها تتحلل باستمرار، وبالتالي فهي بحاجة إلى الغذاء، أما الأشياء التي لا تتحلل فلا تكون بحاجة إلى الغذاء أيضاً. فجنات الآخرة لا تحتاج

إلى الغذاء ولا هي عرضة للفناء، ولا شك أن مثل هذه الجنات ليست مادية أبداً.

وقد وصف القرآن الحكيم الجنة في موضع آخر فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (محمد: ١٦). فأوصاف النعم المذكورة هنا تدل على أن هذه الجنات ليست مادية، لأن الماء الذي لا يأسن أبداً، واللبن الذي لا يفسد أبداً، والخمر التي لا تُسكر أبداً، والعسل الذي هو صافٍ من شوائب الشمع وغيره، لا يمكن أن تكون من قبيل هذه الأشياء المادية الدنيوية.

لقد فسرتُ هنا قول الله تعالى ﴿خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أنها لن تُسكر الشاربين، ذلك لأن آية قرآنية أخرى تذكر معنى مشابهاً لذلك حيث قال الله تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (الصفافات: ٤٦ إلى ٤٨). فهنا أيضاً ورد تعبير ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾، ثم بعدها شرح اللذة بأنها لا تحدث السكر والغيبوبة، وبذلك قد أشار إلى أن خمر الدنيا لا تجلب لذة حقيقية، بل إنها تورث الغفلة عن الهموم والأحزان، أما خمر الآخرة فلا تسبب سُكراً ولا غيبوبة.

وقال القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢)، أي أن ربهم سوف يسقيهم شراباً طاهراً مطهراً.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٦-٢٩)، أي أن المؤمنين يُسقون في الجنة شراباً طيب الرائحة مختوماً، يكون آخره المسك، وفي ذلك فليترغب الراغبون. ويكون هذا الشراب مزيجاً بالكثرة والرفعة التي هي عينٌ يشرب منها المقربون.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ (الطور: ٢٤).

لقد تبين من هذه الآيات أن أهل الجنة يُسَقَوْنَ من خمر لا سُكر فيها ولا عريضة، وستُقدَّم للمؤمنين بعد مزجها بماء من ينبوع الكثرة والرفعة، وتبعث منها رائحة طيبة من المسك، وهي طاهرة ومطهرة لشاربيها، فلا يهزون ولا يتشاقون.

هذا هو وصف خمر الآخرة كما جاء في القرآن الكريم. فكيف خمر الدنيا؟ إنها تسبب السكر، وتبعث شاربيها على العريضة والبذاءة والتشائم أحياناً، وقد ورد عنها في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١-٩٢). علماً أن الأنصاب تعني معابد الأوثان، والأزلام تعني ألعاب من قبيل "يانصيب".

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أن خمر الدنيا شيء سيء وشربها عمل شيطاني، أي منافي للدين، يدفع إلى العداوة والبغضاء، ويمنع من ذكر الله والصلاة.

قارنوا الآن ما تفعله خمر الدنيا مع مواصفات خمر الجنة، فتجدوا أن بينهما ما بين الظلمات والنور. فإذا كانت خمر الدنيا وصفت بالسوء والفساد، فإن خمر الجنة وُصفت بكونها طيبة ومطهرة. وإذا كانت خمر الدنيا تبعث على العداوة والبغض، فإن خمر الآخرة تنجي شاربيها من اللغو والشتائم. وإذا كانت خمر الدنيا عُدَّتْ من عمل الشيطان، فإن خمر الآخرة وُصفت بأنها سبب الكثرة والرفعة. وإذا كانت خمر الدنيا تولّد السكر والعريضة، فقد وصفت خمر الآخرة بأنها لا تُسكر ولا تُفقد العقل. وإذا كانت خمر الدنيا قد نُهيينا عن تعاطيها، فقد قيل في شراب الآخرة أن من يرغب في شيء فليرغب في شراب الآخرة.

فثبت من هذا البون الشاسع بين مواصفات الخمرين أن نعمة الجنة التي سُميت خمرًا لا تختلف عن الخمر الدنيوية فحسب، بل ليست شيئاً مادياً أيضاً،

لأن الشيء المادي، مهما كان طيباً، لا يقدر على تطهير القلب، ولا يبعث على الكثرة والرفعة، وإنما يحصل ذلك بشيء روحاني فقط.

خلاصة الكلام، أن نعم الجنة، وإن سُميت بأسماء نعم الدنيا، ولكن يراد بها النعم الروحانية، لا النعم الجسمانية، ناهيك أن تكون نفس الأشياء التي هي في هذه الدنيا.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء (تفسير ابن جرير ج ١)، أي أننا لا نعرف من نعم الجنة إلا أسماءها دون حقيقتها.

باختصار، ليس المراد من البساتين والأنهار والماء واللبن والشراب والعسل في الآخرة إلا أنها أشياء ستحدث تأثيرات روحانية مشابهة لتلك التأثيرات التي تحدثها الأشياء المادية في الجسم المادي، باستثناء الخمر؛ فخمر الآخرة لا تُشبه خمر الدنيا في كل خواصها، بل في بعضها، ومن أجل ذلك قد بين القرآن الكريم الفرق بينهما مفصلاً، وذلك درءاً لأي التباس وسوء فهم قد يقع فيه البعض بسبب لفظ الخمر.

واللبس الذي كان من الممكن أن يقع فيه البعض لتشابه اسم الخمرين هو أن الخمر الآخرة أيضاً ربما تغشي العقل وتسكر سكرًا ماديًا، فأزال الله تعالى هذا اللبس مبيناً أن خمر الجنة لن تشبه خمر الدنيا في هذا الوصف، بل تنحصر المشابهة بينهما في أن خمر الدنيا تؤثر في عقل الإنسان وتولد فيه التركيز، كذلك فإن قلوب أهل الجنة ستستولي عليها بعد الشرب من خمرها نشوة حب الله تعالى كلية، فيتبتلون إليه عن كل شيء كل التبتل.

ويبقى هناك سؤال وهو: ما دامت نعم الجنة روحانية تختلف عن النعم الدنيوية كلية، فلماذا اختار القرآن الكريم لها أسماء نعم الدنيا؟

والجواب أن الدين هو لجميع طبقات البشر، الأصدقاء والمعارضين، والعالية والبسطاء أيضاً، والأمور التي يتعذر فهمها على الناس لا بد من ذكرها بلغة يفهمها الجميع، لكي يتم بها الرد على المعارضين، كما تكون

مدعاة لاطمئنان البسطاء أيضاً، ولكي ينتفع بها عِلية القوم أيضاً. ومن أجل هذه الحكمة وصف القرآن الحكيم نعيم الآخرة بكلمات يجد فيها الجميع الطمأنينة والارتياح على قدر ذكائهم وثقافتهم ومكانتهم. كان الكفار يعترضون بأن محمداً رسول الله ﷺ يريد منهم التخلي عن كل أنواع النعم، وأن جماعته أيضاً محرومة منها كليةً، فتقريباً لنعم الآخرة إلى أذهانهم استخدم الله تعالى أسماء الأشياء التي كانوا يعدونها من النعم، وأخبر أن المؤمنين سينالون هذه النعم كلها. ومثل هذا التعبير كمثّل أن يقول ثريٌّ لعالمٍ: عندي مال كثير، فيردّ عليه العالم مشيراً إلى مكتبته ويقول عندي كنز هو أكبر مما عندك. فجواب العالم لا يعني أن في كتبه أموالاً مادية، بل المراد أنه يملك ما هو أنفع مما يعدّه الثري كنزاً. وبالمثل عندما يقول القرآن المجيد إن للمؤمنين جناتٍ ذاتِ ظلٍّ ظليل، وأنهارٍ جارية، ولبنٍ سائغ لم يتغير طعمه، وماءٍ غير آسن، وعسلٍ مصفى من الشوائب، وخمرٍ نقية لا تُسكر، مطهرة للقلوب، فإنه بذلك يردّ على المعترضين قائلًا: إن الأشياء التي تعدونها نعماً هي أدنى من النعم التي سينالها المؤمنون في الجنة. إن أنهاركم التي تظنونها نعمة يأسن ماؤها ويتعفن، أما المؤمنون فسينالون في الجنة أنهاراً لا يأسن ماؤها، وإن الجنات التي تعدونها في الدنيا نعمة هي ليست بنعمة حقيقية، إنما النعمة تلك الجنات التي لن تطاها يد الخراب وسينالها المؤمنون في الآخرة. والخمر التي تعدونها نعمة في هذه الدنيا، فالمؤمنون في غنى عنها، لأنها رجس وآفة تعطلّ العقل، أما الخمر التي سيهبها الله المؤمنين فهي تشحذ العقل وتريد الطهارة والتقوى. والعسل الذي تتباهون به تشوبه الشوائب، ولكن الله تعالى سيطعم المؤمنين في الجنة عسلاً مصفى من كل شائبة. وإن الرفاق الذين تعتزّون بهم ليسوا في الحقيقة بنعمة لأنهم غير طاهرين، ولكن الله سيعطي المؤمنين رفقاء طاهرين. وإن الثمار التي تزدهون بها تنفد، ولكن الله تعالى سيعطي المؤمنين ثماراً لا نفاد لها وسوف يجدونها كل حين وكلما أرادوها.

إن هذه المعاني واضحة كل الوضوح بحيث أن كل من أمعن النظر فيها متخليًا عن التعصب فهمها وأدرك ما فيها من إشارات لطيفة رائعة. أما المتعصب أو الجاهل فليس لعلاج من سبيل.

إن المعارضين المسيحيين هم أكثر الناس طعنًا في هذه الآيات، ولكنهم لا ينظرون إلى ما ورد في كتابهم المقدس حيث قيل لهم: {اكنزوا لكم كنوزا في السماء} (متى ٦ : ٢٠). وقيل أيضًا: {فاذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء} (متى ١٩ : ٢١).

فإذا كان ادخار المال في السماء وحياسة الكنز بعد الموت ممكنًا، فكيف كان نيل الجنات والأثوار والعسل واللبن والخمر التي لا تسكر أمرًا غير معقول؟ كذلك ورد في الكتاب المقدس أن المسيح "جَلَسَ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ" (الرسالة إلى العبرانيين ١٠ : ١٢). فإذا كان الله تعالى بحاجة إلى سرير يجلس عليه، وإذا كان المسيح أيضًا احتاج أن يجلس على السرير في السماء، فلماذا لا يحتاج المؤمنون إلى الجنات، وما الغرابة في ذلك؟

وإذا كان جواهرهم أن الكنز المذكور في الإنجيل يعني أن الذي يتخلى عن كنزه في سبيل الله فإنه سيعطيه كنزًا روحانيًا، وأن السرير لا يعني سريرًا مصنوعًا من الخشب أو الذهب أو الفضة، بل هو سرير الجلال، فنجيهم: لماذا لم تفسروا على هذا النحو ما ذكره القرآن الكريم من ماء ولبن وخمر! ولماذا لم تدركوا أن المراد منها أيضًا أن المؤمنين قد حُرِّموا في سبيل الله من المياه، ونُهبت أموالهم، ومُنِعوا من اللبن والعسل، وصاموا لوجه الله تعالى، وحرِّموا على أنفسهم اللبن والعسل والماء ابتغاء مرضاته، فوعدهم الله تعالى أنه سيجازيهم باللبن الروحاني والعسل الروحاني والماء الروحاني. وحرِّموا على أنفسهم الخمر طاعةً لأمر الله تعالى، فيسقيهم الله خمر محبته. وأخرجوا من ديارهم في سبيل الله، أو جعلوا بيوتهم مأوى للفقراء ومكان راحة للضيوف، فسيُسكنهم الله تعالى في بساتين رحمته.

باختصار، إن الجنات والأثمار والألبان والعسل والخمر التي يذكرها القرآن الكريم تختلف كلية عن بساتين هذه الدنيا وأثمارها وأثمارها، وأن لبن الجنة وعسلها وخمرها يختلف تماما عن لبن وعسل وخمر هذه الدنيا، وأن القرآن الكريم قد شرح بنفسه هذه النعم شرحاً لا يشكك بعده فيها إلا من أعماه التعصب. ولأن هذه التعابير قد وردت في الكتب السابقة فليس في هذه الآيات ما يصعب فهمه على الناس.

وأريد أن أوضح هنا أي لا أعني أبداً بما سبق من البيان تجريد الحياة الآخرة من الجسم كلية، وكأنها ليست إلا روحانية، وأن نَعَمَهَا مقصورة على مشاعر القلب فقط. كلا، بل إن الروح لا بد لها من جسم في كل الأحوال بحسب القرآن الكريم، وإذا كان الجسم المادي الدنيوي سيفنى بعد الموت، فإن الإنسان سيحظى في الحياة الآخرة بجسم يختلف عنه كليةً. وتقريراً لحقيقة الحياة الآخرة إلى الأفهام قد أوجد الله تعالى لنا في هذه الدنيا عالمَ المنام، لكي نستوعب به حياة الآخرة بعض الاستيعاب. لقد بين الله تعالى بكل وضوح في القرآن المجيد أن هناك علاقة عميقة بين عالم الآخرة وعالم المنام حيث قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٣)، أي أن الكفار ينكرون الحياة الآخرة وعذابها، مع أنهم لو أعملوا فكرهم لوجدوا على ذلك دليلاً في حياتهم. إنهم يرون أن الله تعالى يقبض روح كل نفس عند موتها، أما النفس التي لا تموت فيقبض روحها في منامها، فأما النفس التي قضى الله بموتها فيُمسك روحها عنده، وأما النفس الأخرى، أي النائمة، فيُطلق روحها لأجل مسمى. وإن في هذه الظاهرة آيات للذين يتفكرون.

لقد بين الله تعالى هنا أن الموت والمنام متشابهان، وإنما الفارق بينهما أن الروح تفارق الجسد المادي عند الموت فراقاً أبدياً، أما عند المنام فتفارق الجسد فراقاً مؤقتاً، وترى الروح الإنسانية خلال هذا الفراق المؤقت مشاهد عديدة،

وتجد لها جسمًا جديدًا وبيئة جديدة، فيمكننا أن نقبس على ذلك الكثير من الحياة الآخرة.

والمناظر التي يراها الإنسان في المنام لا يمكن أن تُعدَّ روحانية محضة، لأن الرائي لا يرى في المنام الروحَ فحسب، بل يرى معها جسمًا أيضًا، ففي كثير من الأحيان يجد نفسه بين البساتين أو وسط الأنهار، ويأكل الأثمار ويشرب اللبن. وهذه المشاهد لا تكون روحانية محضة، بل تشبه في ظاهرها البساتين والأنهار واللبن والعسل وغيرها، ومع ذلك لا يمكن أن يقول أحد أن اللبن أو الماء الذي رآه في المنام هو لبنٌ ماديٌّ أو ماءٌ مادي، بل يكون لهما تعبير آخر في العالم الروحاني. فمثلًا إذا رأى المرء نفسه في بستان يجري فيه نهر، ولم يكن منامه نتيجة تفكيره بل كانت رؤيا صادقة من الله تعالى، فتأويلها أن إيمانه جاذب لفضل الله عليه وأن عمله مقبول عنده تعالى، فهو يجد لذة روحانية برؤية البستان والنهر على النحو الذي يجذب إيمانه وعمله فضل الله تعالى. أو إذا رأى في المنام أنه يأكل المانجو، وكان منامه حقًا، فتأويله أن الله تعالى سيهب له أولادًا صالحين، أو قلبًا صالحًا بسبب أعماله الحسنة. أو إذا رأى أنه يأكل العنب، فتعبيره أن قلبه سيزداد خشيةً وحبًّا لله، وأن الله تعالى سُنزل عليه فضله. أو إذا رأى أنه يأكل الموز، فتأويله أن الله تعالى قد قضى بأن يرزقه رزقًا حلالًا طيبًا بدون مشقة وعناء. فالحق أن الإنسان عندما يأكل في المنام المانجو أو العنب أو الموز، فإن روحه تزداد صلاحية لتلقي الجوائز المشابهة لتلك الفواكه.

والخلاصة أن كون نعم الآخرة روحانية لا يعني أن الإنسان سيشعر بمجرد إحساس باطني بهذه النعم في الآخرة، بل الحق أن نعم الدنيا كلها تمثلُ نعم الآخرة، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. فالأولى أن يقال إن نعم الآخرة هي الأصل بدلًا من أن يقال إن الحياة الآخرة تصوير لنعم الدنيا، فليس الماء واللبن والعسل والثمار في هذه الدنيا إلا صورة ممثلة للحياة الآخرة، ولم تُخلق نعم الدنيا إلا لتصوير نعم الآخرة. إن هذه الدنيا مادية، فأُعطيَت هذه النعم قالبًا ماديًا، وإلا فإن الله تعالى قد أراد بهذه النعم الدنيوية أن يقول لنا: ما

دام التمثيل الدنيوي لنعم الآخرة شهياً ولذيذا لهذه الدرجة، فما بالكم بلذة نعم الآخرة التي هي الأصل، لأن الروح أقوى شعوراً وإحساساً من الجسد.

بعد هذا الشرح لا أرى داعياً للرد على كل واحد من الاعتراضات المذكورة آنفاً رداً منفصلاً، إذ شمل هذا الشرح الردّ عليها جميعاً، ما عدا الاعتراض على الزوجات في الجنة، وسأردّ عليه لدى تفسير قول الله تعالى: ﴿وأزواج مطهرة﴾. والآن أقوم بتفسير هذه الآية.

يقول الله تعالى هنا إن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات سوف ينالون الجنات.

لقد سبق أن ذكرنا أن صلاح الشيء يعني كونه مناسباً للحال، فالأعمال الصالحة هي التي تكون مناسبة لمقتضى الحال. إنه لما يميز القرآن الكريم عن الأسفار الأخرى أنها تأمر بالأعمال الحسنة، ويراد بها عبادة الله، وحسنُ معاملة الناس من صدقة وبر وعفو وإحسان وغيرها من الأعمال. ولكن القرآن الكريم يأمر بالعمل الصالح، ومفهومه أوسع وأشمل من العمل الحسن. ويرى القرآن الكريم أن مجرد العمل بشكله الظاهر لا يكفي لتطهير الإنسان، بل لا بد أن يكون هذا العمل مناسباً لمقتضى الحال. على سبيل المثال، إن عبادة الله بظاهر شكلها غير كافية عند القرآن الكريم ما لم تكن خالية من الرياء والتظاهر. لا شك أن الصلاة عمل حسن، ولكن إذا صاحبها الرياء لم تكن مقبولة عند الله تعالى، لأنها ليست عملاً صالحاً، مع أنها عبادة لله تعالى. أو مثلاً إذا كان هناك غريق يغرق، وأنت تجيد السباحة، وقد علمت أن شخصاً يغرق، لكنك بدأت الصلاة بدلاً من إنقاذه، فصلاتك في هذه الحالة ليست عملاً صالحاً رغم كونها عملاً حسناً، لأن العمل الصالح في ذلك الوقت هو إنقاذ الغريق، لا أداء الصلاة. أو مثلاً يكون البعض رحيماً بفطرته، فيرى شخصاً يظلم غيره، فلو أن هذا الرحيماً عفا عن الظالم ففغوه ليس عملاً صالحاً في ذلك الموقف، رغم كونه عملاً حسناً، فإنما العمل الحسن هو أن يتصدى للظالم دفاعاً عن المظلوم. أو مثلاً هناك قاضٍ جالس على كرسي القضاء بأمر الدولة لمعاقبة المجرمين، فلو أطلق

سراح سارق أو لصٌ بسبب طبعه اللين، فلن يُعَدّ تصرفه عملاً صالحاً رغم أن العفو عمل حسن، ولن يكون عمله مقبولاً عند الله تعالى، لأن الأجدر بالجالس على كرسي القضاء هو أن يؤدي الواجب الذي أنيط به، وإن جاز له أن يعامل المحرم برحمته في حدود ما يسمح له القانون. أو مثلاً يترك شخص عندك ماله كأمانة، فتوزع هذه الأموال على الفقراء، فمع أن مساعدة الفقراء عمل حسن، ولكن تصرفك هذا ليس عملاً صالحاً، لأن الأنسب لك بصفتك مؤتمناً أن تحافظ على هذه الأموال، وإن كنت تعلم أن هناك فقيراً يجب مساعدته، فعليك أن تنبه صاحب الأموال إلى الإحسان إليه، وليس أن تسلّم ماله للفقير. أو مثلاً هناك شخص يعمل حارساً على باب سيده، فيعلم بحلول مصيبة عظيمة على الناس قد تُهلكهم، فرغم أنه مسؤول عن الحراسة، ولكن واجبه في ذلك الظرف أن يسعى لدفع ذلك الهلاك الواسع، لأن العمل الصالح في ذلك الوقت ألا يبالي بالضرر الصغير من أجل دفع الضرر الكبير.

وملخص القول، إن العمل الصالح أوسع معنى من العمل الحسن. والعمل الصالح هو ما لا يكون عملاً حسناً في ظاهره فحسب، بل يجب أن يكون حسناً في حقيقته أيضاً، ولا يكون حسناً في ذاته، بل يكون حسناً بالنظر إلى الظرف والموقف. والقائم بالعمل الصالح ليس من يتبع الكلمات على غير هدى، بل هو من يستعمل ما أعطاه الله من العقل ليرى كيف يؤدي عمله طبقاً لمقتضى الحال، أو لا يكتفي بالقيام بعمل حسن فقط، بل يقوم بكل أنواع الأعمال الحسنة التي هي ضرورية من أجل رقيه ورفي مجتمعه روحانياً ومادياً. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الأمر بأسلوب رائع فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤١)، أي أن المظلوم يمكن أن ينتقم بقدر ظلمه، ولكن الذي يعفو مراعيًا الإصلاح فأجره على الله.

لقد ذكرت هذه الآية العفو الذي هو عمل حسن، ولكنها بينت أن العفو لا يكون مرضياً عند الله تعالى إلا إذا كانت نتيجته الإصلاح. ومثاله أن يلقي المرء في طريقه لصاً قد خرج لنهب الناس في قرية مجاورة، وأخطأ اللص في تقدير قوة

هذا الشخص فحاول نهبه، ولكنه صرع اللص، فمع أن عفوه عن اللص بعد صرعه عملٌ حسن في الظاهر، ولكن حيث إنه يعلم أن نية اللص سيئة، وأنه إذا تركه سوف يهاجم بعض الضعفاء والفقراء، ويلحق الضرر بماله أو نفسه، لذا لن يُعَدَّ عفوه عملاً صالحاً، إذ سيؤدي إلى الفساد بدلاً من الإصلاح.

ويتبين لنا هذا الأمر من أحاديث النبي ﷺ، حيث ورد عن أبي هريرة قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله" (البخاري، كتاب الحج).

وقال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ قلت: "يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها. قلت: ثم أي؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله". (البخاري، كتاب الجهاد).

والذين لا يعلمون دقائق الشرع يرون في هذين الحديثين اختلافًا، ويقولون كيف نرفع هذا الاختلاف، وأي الأعمال أفضل حقيقة؟ والحق أنهم لم يدركوا أن رسول الله ﷺ لا يقارن هنا بين الأعمال الحسنة المختلفة، بل يقارن بين الأعمال الصالحة. فالرجل الذي أخبره النبي ﷺ أن الجهاد خير عمل بعد الإيمان، فيبدو أنه كان يتقاعس عن الجهاد، وكان قلبه منقبضًا من القيام بهذا العمل الحسن، وكان بناءً تقواه ناقصًا، لذا قال له النبي ﷺ أفضل الأعمال الجهاد، فكأنه ﷺ نبهه إلى إن الجهاد هو الأولى بك، لأنك تعمل الأعمال الحسنة الأخرى، ومقصر في الجهاد.

وحينما قال المصطفى ﷺ: خير الأعمال إقامة الصلاة على ميقاتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد، فيبدو أنه كان هناك ناس يتكاسلون في الصلاة، ولا يبرون الوالدين كما يجب، فكان الأنسب لهم أن يؤمروا بإقامة الصلاة على ميقاتها وبرِّ الوالدين، لكي تُسدَّ هذه الثغرات في حسناتهم.

لقد بشر الله تعالى في هذه الآية ذوي الإيمان والعمل الصالح بالجنات، وذلك لأن الإيمان كبُستانٍ يرويه العمل الصالح، فينمو وينضُر ويخضر. والذي لا يعمل بعد الإيمان تحفَّ شجرة إيمانه وتذبل. وقد سبق أن بين الله تعالى عند ذكر

المنافقين عملياً أن إيمانهم سيضيع إذا لم يتوجهوا إلى صالح الأعمال. (راجع تفسير قول الله تعالى: «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ....»). وقال الله تعالى أيضاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١١)، أي إذا ادعى المرء الإيمان فإن إيمانه يصعد إلى الله تعالى، والعمل الصالح هو الذي يرفع إيمانه إليه تعالى، بمعنى أن الإيمان يكتمل بالعمل الصالح، وبدونه يبقى الإيمان في الطريق، ولا يؤتي ثماره على ما يرام.

وقد شبه الله تعالى في آية أخرى الكلمة الطيبة، أي التعاليم الطيبة التي تكون نتيجتها الإيمان، بشجرة طيبة وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، يعني ألم تعلموا أن الله تعالى شبه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؟! فكما أن الشجرة بحاجة إلى الماء كذلك فإن مجرد الإيمان بالكلمة الطيبة لا يكفي، بل لابد من ريّه بماء العمل، وعندها ستبقى شجرة الإيمان مخضرة نضرة. فتبشير الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار إشارة إلى الأمر نفسه، أي أن هؤلاء المؤمنين سقوا زرع إيمانهم بماء العمل، فأسكنهم الله في جنات تجري من تحتها الأنهار، فجرى الأنهار في الجنات سوف يذكرهم دائماً أن إيمانهم وعملهم لم يضيعا، بل أسفروا عن راحة أبدية، وظلال الجنات سيلفت أنظارهم إلى أن الإيمان هو الذي جذب فضل الله عليهم، وأنهار الجنة ستذكرهم بأعمالهم الصالحة التي أنقذت أشجار إيمانهم من الذبول والجفاف.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى أنه سيكون لكل إنسان في الجنة نطاق عمل معين مستقل لن يتدخل فيه غيره، وجريان الأنهار تحت الجنات يعني أن لكل روضة نهر يسقيها ويخصها هي، ولن يكون كما نرى في هذه الدنيا أن نهرًا واحدًا يسقي عدة بساتين ومزارع، فيتنازع أصحابها في مياهه أحياناً.

أما قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فيمكن أن تكون ﴿رَزَقًا﴾ مفعولا مطلقا أو مفعولا به. وإذا كانت

مفعولاً مطلقاً فالمعنى: أنهم يعطون منها عطاءً جميلاً، أي كلما أعطوا من الثمار شيئاً فيعطون بطريقة جميلة، وسيكون مفهوم الجملة أن المؤمنين لن ينالوا ثمرة إيمانهم فحسب، بل سينالون من الإكرام بحيث إنهم سيُعطون ثمرة أعمالهم كاملة، وسيُعطونها كما هو حق العطاء الإلهي.

أما إذا كانت كلمة ﴿رُزْقًا﴾ مفعولاً به فمعناها الشيء المرزوق، وعليه فستعني هذه الجملة: أنهم كلما رُزقوا شيئاً من قبيل الثمار يقولون هذا الذي رزقنا من قبل. فالتركيز هنا على (من ثمرة)، أي أن ما سيُعطون يكون نتيجة أعمالهم.

أما قول الله تعالى: ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾، فقال المفسرون إما أنه يعني أنهم سيقولون إن الثمار التي كان الله تعالى يعطينا إياها في الدنيا، فسوف يعطينا الثمار نفسها في الجنة أيضاً، أو المعنى أنهم سيُعطون الثمار مرة بعد أخرى، فيقولون في كل مرة إننا نُعطى نفس ما أُعطينا من قبل، وفيه إشارة إلى إعطاء نعم الجنة بتكرار.

ولكنني أرى أن كلا المعنيين غير صحيح، ذلك لأنه لو كان المراد أنهم يقولون إننا نُعطى نفس تلك الثمار التي أُعطيناها في الدنيا، فهذا يعني أن ثمار الدنيا وثمار الآخرة من نوع واحد، مع أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم عن نعماء الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٨)، فكيف يصح القول بأن فواكه الجنة تكون مثل فواكه الدنيا؟

أما إذا فسرنا هذه الجملة بأنهم يقولون إن هذه الثمار قد أُوتيناها في الجنة من قبل أيضاً، فيقع على ذلك اعتراضان: الأول: يخبر القرآن الكريم أنهم كلما أعطوا الثمار في الجنة يقولون هذا الكلام، والواضح أنهم لا يستطيعون قول ذلك عندما يُعطون هذه الثمار أول مرة في الجنة، لأنه خلاف قولهم ﴿رُزِقنا من قبل﴾. والاعتراض الثاني هو أن هذا المفهوم ينم عن كفران بنعمة الله بدلاً من شكرها، ذلك أن المرء إذا أراد الشكر على الإحسان قال: "لم أرَ من قبل مثل هذا الشيء الرائع الذي أُعطيته اليوم". لو قال الضيف للمُضيف مثلاً: الطعام الذي تقدمه لي

اليوم قد أطعمتني إياه من قبل أيضاً، فهذا سُبْعَدَّ هَجَوْاً وليس ثناءً، لأن معناه: "أرجوك أن تطعمني شيئاً آخر، فإلى متى ستطعمني الطعام نفسه؟"

أرى أن قول الله تعالى: ﴿كَلِمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالَوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ له معنيان: أحدهما أن الجَنَاتِ تَمَثَّلُ الإيمان، والثمرات تَمَثَّلُ لذة الإيمان، وحينما سيؤتَى المؤمنون ثمار الجنة يقولون: إنها حلاوة الإيمان نفسها التي وهبها الله لنا في الدنيا، فلم يضع إيماننا، بل ما زال يؤتينا أحلى الثمرات. ومن البين أن هذه الكلمات تفيض بعاطفة الشكر والامتنان، وهي الأولى بأهل الجنة وبعظمة الله تعالى. فإنهم كلما يُؤْتَوْنَ من ثمار الجنة شيئاً يذكرون نعمة الإيمان، كما يذكرون فضل الله إذ أورثهم نعمة الإيمان هذه، كما لا يبرحون يشكرون الله على تلك النعمة التي سينعمون بها في الجنة دائماً على صورة ثمار روحانية كنتيجة لذلك الإيمان.

والمعنى الثاني: أن قوله ﴿رَزَقْنَا﴾ يعني وُعدنا به، فالمؤمنون كلما أوتوا من ثمرات الجنة قالوا هذه هي الثمار التي قد وُعدنا بها في الدنيا. واستخدام الفعل الماضي بمعنى الوعد ثابت من القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى للمؤمنين في سياق الحديث عن النساء اللاتي يرضعن أولادهم بالأجرة: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، فجملة ﴿ما آتَيْتُمْ﴾ تعني ما وعدتم المراضع بإيتائه من الأجرة حسب المعروف وعداً موثقاً.

وعليه يكون المراد من قوله تعالى ﴿الَّذِي رَزَقْنَا﴾: الذي وعدنا بإيتائه، ومفهوم هذه الجملة أن الوعد الذي وعدنا به في الدنيا قد تمَّ الوفاء به بهذه النعم. فكلما أوتيَ أهل الجنة من ثمارها، لم يلبثوا أن قالوا قد أوتينا هذه الثمار طبقاً للوعد الذي وعدنا به في الدنيا. وهذا المعنى قد بينه بعض المفسرين السابقين أيضاً.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُوتُوا بِهِ مِثْلَهَا﴾، ففسره البعض أنهم سيعطون في الجنة ثماراً مماثلة لثمار الدنيا، أو أن الثمار التي يُعطونها ستكون متشابهة في صورتها ومختلفة في طعمها.

لقد بينتُ من قبل ما في المعنى الأول من ضعف، وأما المعنى الثاني فأيضاً باطل إذ لا دليل عند المفسرين على تشابه تلك الثمرات صورةً، واختلافها مذاقاً.

وأرى أن المعنى الصحيح هو التالي:

أولاً: أن ثمرات الجنة ستكون متشابهة في لذتها للعبادات والقربات التي قام بها المؤمنون في الدنيا. فالمؤمن عندما سيأكل ثمرات الجنة ويتلذذ بها سيقول: هذه هي الصلاة التي صليتُها في الدنيا، وهذا هو الصوم الذي صممتُ، وهذا هو الحج الذي أدبته، وهذه هي الصدقة التي تصدقت بها، وهذا هو العفو الذي تعاملت به مع الخصوم، وهكذا فإن الأعمال الصالحة كلها ستتمثل لهم في الجنة، فتفيض قلوبهم بعواطف الشكر لربهم قائلين: لم ينسَ ربنا الرحيم كذا وكذا من صلاتنا، ولا كذا وكذا من صدقاتنا. أجل، إنهم سوف يشعرون في كل ثمرة يذوقونها بأن الله تعالى قدّر أعمالهم حق قدرها، وسوف يتذكرون عندها تلك اللذات التي تمتعوا بها عند فعل تلك الخيرات.

ونظراً لهذا المفهوم، ينبغي للمؤمنين أن يدركوا مسؤوليتهم التي تقع عليهم عند قيامهم بالصالحات. فما دامت صلواتنا وصدقاتنا وصيامنا سوف تتمثل لنا في الجنة ثمراتٍ، فعلينا أن نُحسِّن أعمالنا هذه في الدنيا، لأن لذة الثمرات التي نُعطّاها في الجنة ستكون بحسب نوعية صلواتنا وصدقاتنا وصيامنا، فإذا كنا لا نقوم بهذه الأعمال بكامل الشوق والخشوع والتركيز فإننا نصنع غذاءنا الروحاني في الجنة أقلّ لذة من غذاء الآخرين من أهلها. أما إذا كنا نحسِّن أعمالنا من صدقة وعفو وخدمة خلقٍ وعبادات، فكأننا نصنع غذاءنا الروحاني في الجنة لذيذاً شهياً، لأن لذة ذلك الغذاء ستشابه اللذة التي نشعر بها عند قيامنا بالأعمال الحسنة في الدنيا.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ هو أن ما يُرزَق به أهل الجنة من النعم والثمرات سيكون متشابه الخواص ومتوافق التأثيرات.

إن أطعمة الدنيا تكون متضادة التأثير في أحيان كثيرة، فبعضها يكون مفيداً للمعدة، والآخر مجهداً لها، وأحدها ينفع القلب والآخر يضرّه، وهكذا يفقد

طعامنا كثيراً من نفعه لعدم توافق تأثيرات الأغذية المختلفة، وبالتالي لا ينفع أجسامنا إلا مقدار قليل جداً من الأطعمة في الواقع. كذلك حال أعمالنا الروحانية في الدنيا، فنعمل عملاً صالحاً من ناحية، ومن ناحية أخرى يصدر منا عمل سيء أيضاً، وهكذا فإن سيئاتنا تُقلّل من تأثير صالحات أعمالنا. لكن في الجنة ستكون أغذيتنا الروحانية متشابهة، أي أن كل غذاء منها يكون ممداً للآخر بتأثيره، فلا يكون هناك غذاء يرفع من روحانيتنا، وغذاء آخر ينقص منها، بل جميع أغذية الجنة تكون متوافقة ومنسجمة ومتعاونة لتزيد رقينا الروحاني باستمرار، وهكذا تصبح الروح الإنسانية محمية من كل الأسقام الروحانية، ولا يصيبها أي سقم روحاني كما في الحياة الدنيا.

ومن معاني هذه الجملة أن غذاء الجنة سيكون بحسب القوى الروحانية لكل إنسان، فيرزق كل واحد من أهل الجنة من الغذاء ما يحتاجه من أجل رقيه الروحاني، فلن تزال قواه الروحانية تنمو وترقى، ولن يحول دورها عائق.

ويمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مِثَالَهَا﴾ أن ثمار الجنة تكون مشابهة لثمار الدنيا، لكن هذا التشابه يكون شكلياً فقط، وإلا فإنها تختلف عنها لذة وتأثيراً وطبيعة، لأن ثمار الدنيا هي للجسم المادي، وثمار الجنة هي للجسم الروحاني.

أما قول الله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فمعناه: أنهم سيجدون فيها رفاقاً مطهرين، أو أنهم سيجدون فيها زوجات مطهرة أو أزواجاً مطهرين.

ولا مجال لأحد أن يعترض على المعنى الأول، إذ المراد أنه كما تكون أطعمة أهل الجنة متوافقة التأثيرات، كذلك أهلها كلهم رفاقاً متعاونين على التقدم الروحاني، وبعبارة أخرى إنهم سيتمتعون فيها بأمن وتعاون باطني وخارجي.

والأزواج تكون بمعنى الزوجين أيضاً، حيث إن زوج المرأة رجلها، وزوج الرجل امرأته، وعليه فلو أخذنا بمعنى الزوجين فالمراد: أنه سيكون مع كل واحد من أهل الجنة زوجه الصالح. وليس في هذا المعنى أيضاً ما يدعو للاعتراض، بل هو حثٌّ وتحريض بأن يهتم الرجل والمرأة كلاهما بصلاح زوجه، إضافةً إلى صلاح نفسه، لأنهما إذا كانا يريدان أن يكونا معاً في الآخرة كما هما في الدنيا،

فعلى كل واحد منهما السعي لجعل زوجه صالحاً، كي لا يكون الرجل يوم القيامة في الجنة وامرأته في النار، أو العكس. وهذا أروع تعليم لنيل الطهارة الروحانية في الدنيا، وأجدر بالتنويه، دُعُ عنك أن يكون مدعاة للاعتراض.

أما إذا فسرنا قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أنه سيعطى كل رجل في الجنة زوجةً مطهرة وكل امرأة زوجاً مطهراً، فأيضاً لا محل للاعتراض على هذا المعنى، إنما يصحّ الاعتراض لو كان هنا إشارة إلى أي فعل نجس. ما دام القرآن الكريم يصف هؤلاء الأزواج بالطهر، فلن يكون في الجنة ما ينافي الطهارة أبداً، فلم الاعتراض على ذلك؟

قد طعن المستشرق السير "وليام موير" في مضمون هذه الآية طعنًا قذراً وقد أيده في ذلك القسيس "ريفرند ويرى" كعادته، حيث قال وليام: تتحدث السور القرآنية المكية عن النساء في الجنة بكثرة وبحماس أكثر، بينما لا تتحدث عنها السور المدنية إلا في موضعين وباختصار شديد، حيث ورد فيها فقط أن المؤمنين سينالون في الجنة أزواجاً مطهرة. وسببه في رأيه -والعياذ بالله- أن محمداً (رسول الله ﷺ) لم تكن له في مكة سوى زوجة واحدة أسنّ منه، فكان يفكر في النساء كثيراً، لكنه في المدينة وجد بُعْثته ووجد أزواجاً شابات عديدات، فقلل من ذكرهن.

وأرى أن المستشرق وليام موير إنما رأى وجهه وصورته البغيضة في مرآة القرآن الكريم، أما القس ريفرند ويرى فسلك مسلك التعصب المعروف لدى القساوسة. من العجيب أن هؤلاء يدعون الثقافة والتحضر، ومع ذلك تراهم يتهمون، بناءً على قياساتهم الباطلة على الهداة المُقدسين عند الملايين، بينما يكون هؤلاء المعترضون أنفسهم ملطّخين بحمأ الرذائل بما يندى له جبين الإنسانية. وما دفعهم على هذه الجسارة إلا شوكة الحكومات المسيحية في هذا الزمن. ألا يستحي هؤلاء المتهمون؟! عندما كان المسلمون حاكمين على العالم وكان المسيحيون ضعفاء جداً، ما صدرت من المسلمين قط إهانة أو كلمة نابية بحق المسيح الناصري ﷺ. لقد حكم المسلمون البلاد المسيحية

زُهاء ألف سنة، وظلوا يُكرمون سيّد النصرارى كل الإكرام. فيا ليت هؤلاء لم يتكبروا بحكمهم حوالي ثلاثة قرون وما تهجموا على مقام سيد الأنبياء ﷺ كالذئاب الضارية. ليتهم تذكروا هذه المنّة من جانب المسلمين إذ إنهم لم يتهجموا على يسوع قط، مع أنه كان يحقّ لهم أن يقولوا عنه أكثر مما قاله المسيحيون بحق النبي ﷺ.

لقد أثار السير وليام هذا الاعتراض القدر دون أن يفكّر أن الفرق بين السور المكية والمدنية لا ينحصر في ذكر النساء، بل في أمور أخرى أيضاً. فمثلاً تذكر السور المكية أنه سيكون في الجنة خمرة، ولكن لا تجد ذكر الخمر في أية سورة مدنية. وتذكر السور المكية أن في الجنة عسلًا مصفى، ولكن لم تذكر أي سورة مدنية العسل أبدًا، كما هو ظاهر وثابت من الآيات المذكورة قبل قليل. فلو كان المنطق السخيف الذي يقدمه السير وليام موير صحيحًا، أي كانت عند محمد (ﷺ) وعلى آله وأصحابه في مكة زوجة واحدة، ولذلك كان يرى في خريطة الجنة النساء بكثرة، فكيف يمكن أن ينطبق منطق السقيم هذا على ذكر الخمر؟ أعني هل يمكن أن يقال أن محمدًا كان لا يجد الخمر في مكة، ولذلك كان يراها في الجنة كثيرًا، ولأنه وجد الخمر في المدينة فحذف ذكرها من الآيات القرآنية خلال حياته المدنية. أو هل يمكن أن يقال بناءً على منطق السخيف أن محمدًا كان لا يجد اللبن في مكة، ولذلك فكّر أن اللبن سيكون متوفرًا في الجنة، أما في المدينة فوجد اللبن فضعف تفكيره فيه. أم هل يصح القول أن محمدًا كان يشتهي العسل ولكنه لم يجده في مكة، فكان يفكر أن العسل سيكون في الجنة بكثرة، أما في المدينة فوجد العسل فترك ذكره في الفترة المدنية! هل يمكن لمن يملك العقل السليم أن يقبل هذه الخرافات؟ إذا كان منطق صحيحًا فليطبقه على هذه الأشياء كلها.

والحق أن النبي ﷺ كان في مكة أرغدَ عيشًا منه في المدينة. فزوجته المطهرة السيدة خديجة (رضي الله عنها) كانت ثرية جدًا، والثابت من التاريخ أنها وضعت جُلّ أموالها في يده ﷺ. وكانت بناته اللواتي بلغن الشباب وتزوجن

بمكة، قد جُهِّزَ بأعلى الحلي، بينما تزوجت أصغرهن السيدة فاطمة (رضي الله عنها) بالمدينة ولم تجد في الجهاز ولا خاتماً. وبالجملة كانت أوضاع النبي ﷺ الاقتصادية في مكة أحسن منها في المدينة، ولكنه ﷺ أنفق جميع ثروة السيدة خديجة (رضي الله عنها) في سبل الخير شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق له ذلك الرخاء في حياته المدنية. فلو كانت بعض الدواعي النفسية هي السبب وراء هذا الفرق في السور المكية والمدنية عند ذكر نعم الجنة، لكان الأمر على عكس ما يزعم وليم موير.

وإذا كان استدلاله هذا صحيحاً، فيحقّ لمعارضى المسيحية أيضاً أن يقولوا لم يجد "يسوع" مأوى طوال حياته نتيجة فقره، ولذلك اضطر أن يفر من مكان إلى مكان خوفاً من اليهود، ولكي يزيل ما بقلبه من حزن وألم كان يحلم ويتبجح بأنه سيكون ملكاً لليهود.

ثم لو سلّمنا بمنطق السير وليم هذا لجاز القول أن يسوع لم يقدر على الزواج، ولذلك ظل يفكر بتأثير ما يجول في ذهنه من مشاعر أنه عندما يعود ثانية كعريسٍ سيأخذ معه خمس عذارى لا واحدة أو اثنتين، ويختفي بهن في بيته. إذ جاء في إنجيل متى قول يسوع:

{ حِينَئِذٍ يُشَبِّهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ. وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ، وَخَمْسٌ جَاهِلَاتٍ. أَمَّا الْجَاهِلَاتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتًا، وَأَمَّا الْحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتًا فِي أَنْبِئَتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحَهُنَّ. وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنَمَنَ. فَفِي نَصَفِ اللَّيْلِ صَارَ صُرَاخٌ: هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ! فَقَامَتِ جَمِيعُ أَوْلِيكَ الْعَذَارَى وَأَصْلَحْنَ مَصَابِيحَهُنَّ. فَقَالَتِ الْجَاهِلَاتُ لِلْحَكِيمَاتِ: لَلْحَكِيمَاتِ: أَعْطِينَا مِنْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ. فَأَجَابَتِ الْحَكِيمَاتُ قَائِلَاتٍ: لَعَلَّهُ لَا يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَلْ اذْهَبْنَ إِلَى الْبَايَعَةِ وَابْتَغْنَ لَكُنَّ. وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَغْنَ جَاءَ الْعَرِيسُ، وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ. أَخِيرًا جَاءَتْ بَقِيَّةُ

الْعَذَارَى أَيضًا قَائِلَاتٍ: يَا سَيِّدُ، يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا! فَاجَابَ وَقَالَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ { (متى: ٢٥ من ١ إلى ١٢).

فلو استنتج وليام موير والقس ريفرند ويرى وأمثالهما من هذا التمثيل الإنجيلي أن المسيح كان يفكر دائماً في العذارى لعدم زواجه، فهل يصح ذلك؟ وهل سيُعَدُّ العالم المسيحي مثل هؤلاء المعترضين عادلين؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فأقول لماذا لم يحارب هؤلاء المسيحيون مثل هؤلاء الطاعنين الذين وجهوا لمحمد رسول الله ﷺ هذه المطاعن السخيفة والباطلة، ولماذا لم يتذكروا ما علّمتهم المسيحية: {تُحِبُّ جَارَكَ، قَرِيْبَكَ كَنَفْسِكَ} (متى ٢٢ : ٣٩).

ولو أن السير وليام والقس ويرى فكّرَا بتدبُّرٍ لعرفا السبب المنطقي وراء هذا الفرق الموجود بين السور المكية والمدنية. وذلك (أولاً) أن كفار مكة عيَّروا المسلمين بالذل والفقر وحرمانهم مما يملكه الكفار من نعم ومتع مادية، فردّ القرآن في السور المكية على الكفار بأسلوبيهم نفسه، مبيِّناً حقيقة الجنة التي وُعد بها المسلمون، وأخبر أنهم سينالون في الآخرة متاعاً ونعيمًا أفضل مما يباهي به الكفار. ولكن لما ثبَّت الله تعالى أقدام المسلمين في المدينة لم يَسعِ الكفار أن يعيِّروهم، تغيَّرَ الأسلوب القرآني في الجواب. ووصفُ الجنة بالأسلوبيين موجودٌ الآن في القرآن الكريم، فمن اعترض على المسلمين بأسلوب الكفار المُعترضين في الفترة المكية، فترد عليه آيات الفترة المكية، ومن اعترض بأسلوب معارضي الإسلام في الفترة المدنية، فالرد عليه متوفر في آيات الفترة المدنية.

و(ثانياً) كانت الفترة المكية تتطلب شرح العقائد، إذ لا بد في البداية من إصلاح العقائد والحث عليها، ولذلك نجد السور المكية تتناول شرح العقائد بتفصيل أكثر، والجنة ذات صلة وثيقة بعقيدة جزاء الآخرة، ولذلك أفاض القرآن الكريم في شرحها في السور المكية. أما السور المدنية فكان التركيز فيها على إقامة التمدن الإسلامي، ولذلك جاءت أحكام التمدن في السور المدنية بتفصيل أكثر، أما المسائل المذكورة سلفاً في السور المدنية فاكتفى القرآن

بالإشارة إليها عند الحاجة في السور المدنية، وهكذا ينبغي أن يكون الكلام الحكيم.

وقد قال السير وليام موير في طعنه أيضا أنه إذا لم يكن الأمر كما قال آنفاً، فيبدو أن محمداً (ﷺ) لما هاجر إلى المدينة غيرَ وحيه عن الجنة متأثراً باليهود والنصارى.

وللهِ دَرْ مَنْ قال: إن اللص ضعيف الذاكرة. إن هؤلاء الكتاب المسيحيين من ناحية يقدمون بشدة اعتراض مشركي مكة بأن محمداً (رسول الله ﷺ) يُعلِّمه بشر، ويركّزون على أن بعض العبيد المسيحيين في مكة كانوا فعلاً يخبرون محمداً ما ورد في الكتب المسيحية، ومن ناحية يتهمون النبي ﷺ أنه تعلّم دين النصراني في شبابه على يد راهب مسيحي، فنقل ما تعلم منه في القرآن. وقد أكد السير وليام موير في كتابه أن محمداً (ﷺ) استقى المعلومات عن المسيحية من صُهب (ﷺ) الذي كان عبداً رومياً يعيش في مكة (حياة محمد ص ٦٧). فلو صحَّ زعمهم هذا الأخير للزم القول أن النبي ﷺ كان مُلمّاً بالتعاليم المسيحية قبل هجرته إلى المدينة، فكيف يصح إذاً قولهم أنه (ﷺ) تأثر بالتعاليم المسيحية عن الجنة بعد هجرته إلى المدينة مع أن العبيد المسيحيين واليهود قد أخبروه بما ورد في الكتاب المقدس بعهديه، وتيسر له ﷺ هذا العلم وهو في مكة!

لكن الأمر الواقع أن لا ذكر للجنة في أدبيات اليهود والنصارى. لقد أصيب بنو إسرائيل، بفرعيتهم اليهودي والمسيحي، بمرض حب الدنيا بشدة حتى لا توجد في كتبهم تعاليم معينة عن الحياة الآخرة، وكل الوعود التي ذكرها الأنبياء عن الآخرة يطبقها هؤلاء القوم على هذه الدنيا، لذا فمن المحال أن يتأثر النبي ﷺ من هؤلاء القوم. إن كتبهم لا تناقش هذه القضايا أصلاً، ولا يستطيع أحد أن يقتبس منها شيئاً عن الآخرة. إهم مهتمون بهذه الدنيا فقط، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ١٠٥)، أي تنصبُّ جهودهم على هذه الدنيا. فلو أراد أحد أن يقتبس منهم شيئاً في قضية

الجنة فماذا يقتبس؟! إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي قد أفاض في ذكر هذه القضايا التي سوف نذكرها في مكانها.

وفي الأخير، لا يسعني إلا الاعتراف بأن المعارف التي قد بينتها في تفسير هذه الآية قد ذكرتها على ضوء ما بينه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية (عليه السلام) في كتابه "فلسفة تعاليم الإسلام". والحق أن ما ورد في هذا الكتاب عن عالم الآخرة لا يستغني عنه كل من أراد بيان شيء في هذه القضية.

أما قول الله تعالى ﴿وهم فيها خالدون﴾ فيعني أن أهل الجنة لا ينفكون يعيشون فيها، ولن يذوقوا الفناء. وهذه هي النتيجة المحتمة للأميرين المذكورين من قبل، ذلك أن الإنسان يفنى إما بتأثير الأغذية المتناقضة، وهذا التأثير يظهر في صورة الموت أخيراً، أو يفنى بالقتل. ولكن كل غذاء في الجنة يكون داعماً للغذاء الآخر ومتوافقاً مع قوى الإنسان الباطنية، ويكون أهل الجنة رفقاء أحياناً طبيين متحايين متطهرين، لا يضر بعضهم بعضاً، ومن ثمَّ ستُغلق هنالك أبواب الموت نهائياً، وسيحظى الإنسان بالحياة الأبدية.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٧)

شرح الكلمات:

يستحيي: استحيا: استفعالٌ من حَيَّيَ. وَحَيَّيَ منه حيَاءٌ: احتشم. والحياء: انقباضُ النفسِ مِنْ شيءٍ وتركه حذراً من اللوم فيه. استحياه واستحيا منه: انقبض عنه وامتنع منه. واستحيا: حجل. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي لا يمتنع.

أن يضرب مثلاً: ضربه بيده: أصابه وصدمه بها. ضربه بالسوط: جلده.

وضرب له مثلاً: وصفه وقاله وبينه. (الأقرب)

مثلاً: المثلُّ لَعَةً في المثلِّ للشبّه والنظير؛ الصفة؛ الحجة، يقال أقام له مثلاً أي

حجة؛ الحديث؛ القول السائر؛ العبرة؛ الآية. (الأقرب)

فقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا) يعني: أنه تعالى لا يمتنع عن

بيان أمر من الأمور.

فوقها: الفوق من الأضداد، فإذا جاء بمعنى الكبر فيعني أنه أكبر منه، وإذا جاء

بمعنى الصغر فيعني أنه أصغر منه. ويمكن تفسيره هنا بكلا المعنيين، أي ما هو

أكبر من البعوضة، أو ما هو أصغر منها. يقال: فلان أسفل الناس وأرذلهم؛

فيقال: هو فوق ذلك؛ أي أكثرهم سفالةً من ذلك. (الكشاف)

آمنوا: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون

الصلاة...) وقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر....).

الحق: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضي؛ العدل؛ الملك؛ الموجود الثابت؛ اليقين بعد

الشك. (الأقرب)

يُضِلُّ: راجع أيضا شرح كلمات قول الله تعالى: (ولا الضالين).

أضله: دَفَنَهُ وَغَيَّبَهُ؛ أضاعه؛ أهلكه. أضلَّ الله فلانا: صَيَّرَهُ إلى الضلال. أضلَّ

فلان الفرسَ والبعيرَ: شَرَدَا وَذَهَبَا عَنْهُ وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ أَخَذَا. (الأقرب)

وإضلال الله تعالى للإنسان على أحدٍ وجهين: أحدهما أن يكون سببه

الضلال، وهو أن يَضِلَّ الإنسانُ فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن

طريق الجنة إلى النار في الآخرة، والثاني من إضلال الله هو أن الله تعالى وضعَ

جبلَ الإنسان على هيئةٍ إذا راعى طريقاً، محموداً كان أو مذموماً، ألفه واستطابه

ولزمه وتعذرَ صرفُه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل.

وكلُّ ما هو سببٌ في وقوع شيءٍ صحَّ نسبةُ ذلك الفعل إليه، فصَحَّ أن يُنسَبَ ضلالُ العبد إلى الله من هذا الوجه. (المفردات، والكليات لأبي البقاء)
 فمعنى قوله تعالى (يُضِلُّ به كثيراً): أي بالقرآن، يحكم الله عليهم بالضلال.
يهدي: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله تعالى (هْدَى للمتقين).

الفاسقين: الفاسقون والفسقة والفساق جمعُ الفاسق. فسَق: ترك أمر الله؛ عصى وجار عن قصد السبيل، تقول: فسقت الركابُ عن قصد السبيل، أي جارت. وفسَق: خرج عن طريق الحق؛ وقيل فَجَرَ؛ يقال: فسقت الرطبة عن قشرها: خرجت. فسق فلان ماله: أهلكه وأنفق. (الأقرب)
 الفسوق: الخروجُ عن الدين. والفسقُ: العصيانُ والتركُ لأمر الله والخروجُ عن طريق الحق؛ الميلُ إلى المعصية؛ وكأنَّ الفأرة إنما سميت فُويَسِقَةً لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها (لسان العرب)

وأكثرُ ما يُقال الفاسقُ لمن التزمَ حكم الشرع وأقرَّ به، ثم أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه. وإذا قيل للكافر الأصلي: فاسق، فلأنه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة. (المفردات).

فالفاسق: العاصي؛ التارك لحكم الله؛ والرافض له؛ تارك الحق بعد قبوله.

التفسير: قول الله تعالى ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ لا يعني أن يذكر بعضاً من الأمثلة السائرة، بل يعني أن يذكر أمراً أو يبيِّن حقيقة من الحقائق، ذلك أن المثل معناه بيان حقيقة أو أمر، قال الله تعالى ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٦).
 فقوله تعالى (وضربنا لكم الأمثال) يعني بيَّنا لكم أحوالهم. وليس في الآية قيد التفسير أي مناسبة لضرب مثل من الأمثلة السائرة، بل المعنى واضح وهو وصف أمر وبيان حقيقة. فالله تعالى يقول هنا إنه تعالى لا يمتنع من بيان أمر ولو كان بقدر بعوضة أو أصغر منها شأنًا. وسبق أن ذكرنا لدى شرح قوله تعالى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أن معنى (فوق) يُفهم بحسب السياق، فإذا أردت بيان عظمة الشيء

فتقول فما فوقه، وإذا أردت ضالة الشيء فتقول كذلك فما فوقه. فمثلاً إذا قيل لك إن فلاناً محترم، فتقول هو فوق ذلك، أي هو أكثر شرفاً ونبلاً. وإذا قيل لك إن فلاناً حقير، فتقول هو فوق ذلك، أي أنه أكثر خسة ودناءة. فلأن الله تعالى ذكر هنا مثال شيء حقير أي البعوضة، فقوله تعالى ﴿فما فوقها﴾ يعني أن الله تعالى لا يمتنع من بيان أمر وإن كان أهون شأنًا من البعوضة أيضاً. و(ما) في قوله تعالى ﴿مثلاً ما﴾ نكرة، والمراد: أي شيء أو أمر، بمعنى أن الله تعالى لا يمتنع عن بيان أي شيء.

أما ﴿بعوضة﴾ فقد اختلف المفسرون في إعرابها، فقال بعضهم منصوبة لكونها صفة لـ ﴿ما﴾ التي هي بدلٌ من ﴿مثلاً﴾، و﴿مثلاً﴾ مفعول به لـ ﴿يضرب﴾. وقال بعضهم أن ﴿ما﴾ هي عطف بيان لـ ﴿مثلاً﴾. وقال بعضهم إن ﴿ما﴾ بدلٌ من ﴿مثلاً﴾. وقال بعضهم أن ﴿ما﴾ مفعول به ثانٍ ليضرب الذي هو بمعنى ليجعل، بينما قال بعضهم أن ﴿مثلاً﴾ مفعول به أول مؤخر. وقال بعضهم: ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها، وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء. (ابن كثير)

وأرى أن هذا الرأي الأخير هو الأصح، لأن من قواعد العربية أنه إذا حُذف الجار كان المحرور منصوباً لفظاً أو تقديرًا. فلأن "بين" -وهي تفيد الجر- محذوفة هنا، جاء المحرور، أي ﴿بَعُوضَةً﴾، منصوباً. وعليه فيكون معنى الآية أن الله تعالى لا يمتنع من بيان أمرٍ مهما كان ضئيل الشأن، ولو كان بقدر بعوضة أو أقل منها شأنًا، ما دام في بيانه فائدة، ولا يبالي بقول الناس ما الفائدة من ذكره.

أرى أن هذا التأويل هو الأنسب، غير أنني أرى أن المحذوف ليس (بين) بل هو (مثل)، أي (مثل بعوضة)، والمعنى أن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما مثل بعوضة أو أقل منها شأنًا.

يُضْرَبُ البَعُوضُ مَثَلًا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِبَيَانِ حَقَارَةِ الشَّيْءِ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» (الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء في هوان الدنيا). هَذَا الْحَدِيثُ يُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ لَفْظًا وَمَعْنَى؛ أَمَّا مَعْنَى فِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَحَيَاةِ الْآخِرَةِ مِثَالَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بَتَاتًا، إِذْ يَخْبِرُنَا هَذَا الْحَدِيثُ أَنَّ نَعَمَ الدُّنْيَا لَا تَسَاوِي شَيْئًا عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى بِمَقْدَارِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ فَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ ضَرَبَ مِثَالَ جَنَاحِ الْبَعُوضَةِ لِبَيَانِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا. وَنَظَرًا لِمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ نَفْسَ الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِهِ (فَمَا فَوْقَهَا) بِأَنَّهُ جَنَاحُ الْبَعُوضَةِ، وَعَلَيْهِ فَسَتَعْنِي هَذِهِ الْآيَةُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْتَنِعُ عَنْ بَيَانِ أَمْرٍ وَلَوْ كَانَ مِثْلَ بَعُوضَةٍ بَلْ مِثْلَ جَنَاحِهَا أَيْضًا.

بَعْدَ شَرْحِ كَلِمَاتٍ وَجَمَلَ هَذِهِ الْآيَةِ أَتَنَاولُ الْآنَ تَفْسِيرَ مَعَانِيهَا.

لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ نَعَمَ الْجَنَّةِ وَمِشَاهِطَهَا لِنَعَمِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ رَدًّا عَلَى تَفَاخُرِ الْكَفَّارِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَبَثًّا لِلطَّمَأْنِينَةِ فِي قُلُوبِ ضِعَافِ الْمُسْلِمِينَ، بِتَصْوِيرِ نَعْمَاءِ الْجَنَّةِ لَهُمْ عَلَى الْاسْتِعَارَةِ. وَلَكِنْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى قَدْ صَرَحَ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مِثَالَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ الْآخِرِيَّةِ، فَالْآخِرَةُ حَيَاةٌ رُوحَانِيَّةٌ سَامِيَّةٌ، وَالدُّنْيَا حَيَاةٌ مَادِيَّةٌ مُتَدَنِيَّةٌ تَمَامًا، وَكَانَ الْكَفَّارُ مُدْرِكِينَ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، لِذَا فَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ دَفْعِ هَذَا التَّنَاقُضِ الظَّاهِرِيِّ، لَكَيْلَا يَقُولَ الْمَعَارِضُونَ مَا الْمَهْدَفُ مِنْ ذِكْرِ التَّشَابُهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأُمُورِ الْمُتَغَايِرِينَ كَلِيَّةً، إِذْ لَوْ كَانَ الْقَصْدُ بَيَانِ مِثَالَةٍ بَسِيطَةٍ جَدًّا فَمَا الَّذِي دَعَا اللَّهَ الْعَظِيمَ لَذِكْرِ مِثَالَةٍ ضَعِيفَةٍ جَدًّا كَهَذِهِ، وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ هُنَا مُبَيِّنًا أَنَّهُ سَيَعْتَزُّ الْبَعْضُ قَائِلًا: مَا الدَّاعِي مِنْ هَذَا الْوَصْفِ الْقَرَّائِيِّ التَّمْثِيلِيِّ الْغَيْرِ دَقِيقٍ لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ؟ فَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِسَبَبِ هَذَا الْإِعْتِرَاضِ عَنْ بَيَانِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَوْ اسْتِعَارَةً وَجَازًا، مَا دَامَ فِي بَيَانِهَا نَفْعٌ، لِأَنَّ هَذِهِ التَّمْثِيلَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ تَزِيدُ الْإِنْسَانَ عِلْمًا، وَيُمْكِنُ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا مِنْ تَقْدِيرِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ إِلَى حَدِّ مَا قَائِلِينَ: إِنَّ هَذَا وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى،

ولا ضير إن لم ندرك الحقيقة إدراكاً كاملاً، غير أنه قد ساعدنا على تقريبها إلى أفهامنا على الأقل، مما زادنا إيماناً.

أما قوله تعالى: ﴿فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ فالعلم هنا ليس بمعناه المعروف بل هو بمعنى اليقين، لأنه إذا كان للفعل (عِلِمٌ) مفعولان به أفاد اليقين، وقد ورد هنا للفعل ﴿يعلمون﴾ مفعولان، وعليه فمعنى الآية أن المؤمنين يعرفون حق المعرفة أنه الحق من ربهم. و﴿الحق﴾ هو الحقيقة الناصعة القاطعة التي لا شك ولا شبهة فيها. و﴿الحق﴾ مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل حيناً، ومعنى اسم المفعول حيناً آخر (الرضي، شرح الكافية)، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أن المؤمنين يدركون كل الإدراك أن هذا الأمر واقع لا محالة، أو أن هذا الأمر ثابت متحقق من عند الله تعالى يقيناً.

وعليه، فمفهوم هذه الآية كالاتي: لا جرم أن القرآن الكريم قد وصف الجنة بتشبيهات عميقة للغاية، والتي لا تصور الجنة تصويراً حقيقياً حرفياً، بل هي مجرد استعارات ومجازات، كقولنا للرجل إنه الجبل، ويراد به أنه طويل ولا يتحرك من مكانه، بل المراد أنه في عالم الأخلاق كالجبل في عالم الأجسام، وأنه قوي العزيمة لا ينثني عن موقفه، لكن بالإضافة إلى هذه الاستعارات والتشبيهات قد ذكر القرآن لنعماء الجنة مواصفات مميزة أيضاً، ويتذكر المؤمنون فوراً تلك المواصفات الأخرى للجنة عند سماع هذه الاستعارات، ويقولون إن ما قال ربنا هو الحق، وأن هذه الحقيقة ليست بسيطة، بل هي ما جاءنا من عند ربنا، بمعنى أن هذه الاستعارات والتشبيهات تتفق تماماً مع ما ورد في آيات أخرى من كفيات روحانية للجنة. وكأن المؤمنين ينوهون بصحة تلك الاستعارات وتوافقها مع تلك الكفيات الروحانية، وتستمتع قلوبهم بلذتها، ولكن الكفار يجهلون تلك الكفيات الأخرى المذكورة عن الجنة في الآيات القرآنية الأخرى (وقد ذكرتها بالتفصيل قبل قليل)، أو لا يريدون أن يعرفوها، فيقولون لدى سماع هذه

الاستعارات والتشبيهات ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾، أي فماذا يريد الله بذكره، إنه لا يعني شيئاً؟ والحق أن استنكارهم هذا نتاج التعصب والجهل، لأن الاستعارات والتشبيهات نافعة جداً، وهي جزء هام في كل اللغات، ويستخدمها الكتّاب البارعون. ما دام بإمكاننا أن نسمي الشجاع شجاعاً، فلماذا نسميه أسداً؟ وإذا كان بإمكاننا تسمية الكريم كريماً فلماذا نسميه حاتماً يا ترى؟

الحق أن الأشياء اللطيفة غير المرئية لا يمكن تقريبها إلى الأفهام إلا بالتشبيه والاستعارة. فمثلاً ليس عند الإنسان معيار لبيان ما في الصوت الجميل من ارتفاع وانخفاض، ولينٍ وشدة، وإذا أردنا وصفَ جمالِ لحنِ شخصٍ نقول ما أحلى صوته. إن الحلاوة تكون في المأكولات والمشروبات ويتذوقها اللسان، ومع ذلك لا نطمئن عند بيان روعة صوت عذب بقولنا إن صوته جيد جداً، بل نلجأ إلى الاستعارة فنقول إن صوته حلو. كما أن وصف الطيب والعطر أيضاً صعب، فلذلك يقرّبون مواصفات وتأثيرات العطور المختلفة إلى الأذهان بتعابير مماثلة، فيقولون إنها رائحةٌ منزقة أو دائرية أو مبسطة، مع أن الرائحة لا تكون مدورة أو مبسطة، إن هي إلا استعارات لا غنى لنا عنها لوصف روعة العطور كما ينبغي، ولتقريب المراد إلى الأفهام جيداً.

باختصار، إن الاستعارات والتشبيهات هي من لوازم اللغة، وهي لا تفيد المبالغة في الكلام فقط، بل تساعد على تقريب الحقائق إلى الأفهام. فقول الكفار ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ يدل على جهلهم وتعصبهم فحسب.

وكلمة ﴿مثلاً﴾ في قوله تعالى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ منصوبة لكونها تمييزاً، حيث يُحدد المقصود أكثر، والمعنى: ماذا يريد الله تعالى ببيان هذا الأمر.

وقال تعالى ﴿يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾، فبين فيه الغاية من هذا البيان "الناقص" لنعم الآخرة، وقال كيف تقولون أن هذا البيان غير مفيد، كلا بل هو مفيد، فإن المؤمنين قوم روحانيون قد استمتعوا باللذات الروحانية، وإنهم حين

يقرعون هذه الاستعارات والتشبيهات في القرآن تدرك قلوبهم حقيقة تلك النعم إداركاً لا بأس به. إنهم قوم قد تذوقوا طعم النعمتين بنوعيهما، فقد تمتعوا بلذة الصلاة، وعرفوا متعة الصيام، ونالوا لذة الصدقات، كما استمتعوا بلذة فواكه الدنيا أيضاً، ويدركون، بسبب ما يتمتع به أصحاب الكمال من ذوق رفيع لطيف كُنْه التشابه بين الثمار الدنيوية والمتع الروحانية، وعندما يقرأون في القرآن ذكر النعم المادية على سبيل الاستعارة والتشبيه تشعر قلوبهم نتيجة ذوقهم السليم ما بين نعم الدنيا ونعم الآخرة من توافق وتشابه، مما يزيدهم إيماناً على إيمانهم. ولكن الكفار الذين حُمد شعورهم الروحاني، ولم يعرفوا لذة العبادات ولم يتذوقوا طعم ما ينزل من عند الله نتيجة العبادات الممتعة، فمثلهم كالأعمى الذي توصف له الألوان، فلا يفهم منها شيئاً ولا يحرك ذكر المناظر الخلابة وترّاً من أوتار قلبه، فبدلاً من أن ينتفعوا مما يُذكر أمامهم، يسارعون إلى الاعتراض عليه مدللين على ما في قلوبهم من ضلال، شأنهم شأن إنسان سليم العين في الظاهر، ولكنه لا يرى بها شيئاً في الواقع، فإذا أشار له الناس إلى مشهد خلّاب، قال: لا يوجد هناك شيء كهذا، فلا شك أنه يفضح بذلك نفسه، إذ يُطلع الناس على عماه. فالله تعالى يقول هنا إن هذا الوصف القرآني المجازي لنعم الآخرة فيه فائدتان: إحداهما أن هذا الوصف يكشف للناس ما عند المؤمنين من ذوق لطيف، وفائدته الأخرى يفضح الكافرين بكشف ما في بواطنهم من غواية وضلال.

لقد ذكرنا عند شرح معاني الكلمات أن فعل «يُضِلُّ» في قوله تعالى «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» قد أُسند إلى الله تعالى، ولكن من معاني الإضلال (١) الإهلاك و(٢) إظهار نتيجة الضلال، وذلك كما ذكر أئمة اللغة وكما تدل على ذلك الفقرة التالية من الآية: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ»، أي أن الله تعالى لا يُضِلُّ بذكر هذه التشبيهات والاستعارات إلا الفاسقين، وحيث إنهم ضالون سلفاً، فليس المراد من إضلال الله لهم إلا أنه تعالى يكشف ضلالهم ويصدر قراره بكونهم ضالين.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
(البقرة: ٢٨)

شرح الكلمات:

ينقضون: نقضَ العهد والأمر: ضدُّ أبرمَه؛ أفسده بعد إحكامه. (الأقرب)
عَهْد: العهد: الوفاء؛ الضمان؛ المودة؛ الذمة؛ الوصية؛ الموثق. عهد فلان الشيء: حفظه وراعه حالاً بعد حال، قيل هذا أصله، ثم استعمل في الموثق الذي يلزم مراعاته. (الأقرب)
يفسدون: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض...) .

الخاسرون: خسر (يخسر) التاجرُ في بيعه: وُضِعَ في تجارتِه؛ ضدُّ ربح، وخسر الرجل: ضلَّ؛ هلك. (الأقرب)
لقد بحثُ كثيرًا، فوجدت أن الفعل "خسر" لا يستعمل إلا لازماً، ولكن الغريب أن جميع المفسرين فسّروا كلمة ﴿خسروا أنفسهم﴾ متعدية بمعنى أهلكوا أنفسهم، غير أن صاحب "تاج العروس" قال: "ولا يُستعمل هذا الباب إلا لازماً كما صرح به أئمة التصريف". ثم يقول: وقد أخطأ هؤلاء الأئمة لأن القرآن قد استخدمه متعدياً.

والواقع أن هذا الفعل لازم، ولكن المؤسف أن معاجمنا وقواميسنا واقعة تحت التأثير الديني، حتى جعلوا اللغة أيضاً خاضعة للتفسير، وهذا لم يخدم الإسلام شيئاً وإنما أضر به، إذ أدى هذا التصرف إلى اختفاء كثير من معارف القرآن الكريم عن أعين الناس. ليت هناك مَنْ يشمّر عن ساعد الهمة والجدّ ويصنف

قاموساً لغوياً حراً تماماً عن تأثير التفسير الدينية، حتى يتحرر الناس كليةً من هذا القيد الضاغط المجافي للحق، فيسهل عليهم فهم القرآن الكريم!

والحق أننا لو التزمنا بقواعد اللغة بدلاً من الخضوع أمام رعب التفسير لحللنا مشكلة فعل "خسر"، بدون أن نجعله متعدياً خلافاً للقواعد. فيمكننا أن نعامله كما نعامل الفعل "سفه" كما في قوله تعالى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، حيث نقول: هناك حرف جر محذوف وهو "في" والتقدير: سفِه في نفسه؛ أو نقول جاءت كلمة "نفس" هنا تمييزاً، والتمييز يأتي معرفةً في الحالات الشاذة. وبالمثل نقول في قوله تعالى ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ونقول تقديره: خسروا في أنفسهم، أو نقول: إن ﴿أنفسهم﴾ تمييز، والمعنى أنهم صاروا خاسرين بشأن أنفسهم، بمعنى أن خداعهم انقلب عليهم. وهذا المعنى أقوى من المعنى الذي ذهبوا إليه.

التفسير: تذكر هذه الآية صفات الفاسقين الذين يُضللهم الله تعالى. فهم أولاً: ينقضون ما عاهدوا الله عليه، وثانياً: يقطعون الصلوات التي أمر الله بإحكامها، وثالثاً: يفسدون في الأرض.

أما الأمر الأول أي نقض العهد، فيراد به أمران: أولهما ترك التوحيد، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٣)، أي أن الله تعالى خلق كل روح بجليلة تشهد بلسان حائها على أن الله ربها. ثم إن الله تعالى يقول للأرواح من خلال الظهور الخفي لصفاته هل تشهدن على هذا الأمر، فيقلن بلسان حالهن: نعم نحن شاهدات على ذلك. وهذه شهادة لطيفة من قبل الفطرة الإنسانية قد ذكرها القرآن الكريم، ولكن بعض الناس ينسون هذه الشهادة الفطرية الموجودة في كل نفس بشرية ويقعون في الشرك، وهكذا ينقضون العهد الذي تعهدت به كل فطرة إنسانية عندما بلغت رشدتها من أنها ستمسك بالتوحيد.

والمعنى الثاني لنقض العهد هو أن كل نبي يأخذ من قومه عهداً بأنهم سيؤمنون بأي نبي يرسله الله إليهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ

مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ (آل عمران: ٨٢)، أي أننا أخذنا من كل نبي عهدًا بالإيمان بكل وحي أو كل نبي يأتي بعده من عندنا. والفاشقون هم قوم ينسون هذا العهد ويكفرون بالمبعوث الرباني في زمنهم.

أما قول الله تعالى ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فمعناه أن محبة الله ومحبة الحقائق تذوي في قلوبهم، ولا يسعون لإنشاء صلة مع الله تعالى، بل يحبون الدنيا بشدة ويتكالبون على متعتها كلية.

ثم قال الله تعالى ﴿ويفسدون في الأرض﴾، أي أنهم ليسوا مخلصين في حب الدنيا أيضًا، ذلك أن العاقل يحافظ على ما يحبه، ولكنهم يفسدون في الدنيا ويبدّلون أمنها فسادًا وجعلها دمامة. وهذه نتيجة حتمية لكفرهم، ذلك لأن الدنيا لا يمكن أن يجعلها جميلة إلا خالقها وصانعها، أما الذين يعرضون عن خالقها، فأنى لهم أن يستوعبوا كيفية نظام هذه الدنيا، ومن لم يعلم طريقة عمل آلة من الآلات، لابد أن يخرّبها بدلاً من أن يصلحها، ولذلك قال الله تعالى ﴿أولئك هم الخاسرون﴾، أي أنهم يزعمون أن المؤمنين فقدوا طعم الحياة ومتعتها بسبب حرمانهم من النعم المادية، لكن الواقع أن هؤلاء أنفسهم قد حرّموا الحياة الأبدية لأنهم قطعوا صلتهم عن الله الذي هو منبع الحياة.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٩)

شرح الكلمات:

تكفرون: كفر بالله أي أنكر وجوده، أو صفاته وأحكامه.

(راجع أيضا شرح الكلمات لقول الله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون).

أموأتاً: جمعُ مَيِّتٍ ومَيِّتٍ. والمَيِّت: الذي فارقَ الحياة. (الأقرب)

والموت له معانٍ شتى، وبحسب شكل حياة الشيء يكون شكل موته.

(للمزيد راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ).

ثُمَّ: حرفٌ عطفٌ يدلُّ على الترتيب والتراخي، وربما أدخلوا عليه التاء كما

قال:

ولقد أمرُّ على اللثيم يسْبِي فمضيتُ ثُمْتُ قلتُ لا يعنيني. (الأقرب)

التفسير: قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾. والكفر بالله تعالى

نوعان، الأول: الكفر بذات الباري تعالى، والثاني: الكفر بأحكامه أو صفاته.

أما هنا فليس المراد الكفر بذات الباري تعالى، بل الكفر بكلام الله المُشار إليه في قوله تعالى من قبل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٤).

كان الموضوع الأساس في الآيات السابقة هو كلام الله تعالى، وفي سياق إنكاره

تطرَّقَ الحديث ضمناً إلى عقاب الكافرين وجزاء المؤمنين، وهذه الآية عودٌ إلى

الموضوع الأصلي حيث ساق الله هنا دليلاً عقلياً على نزول كلامه تعالى، وقال

كيف تنكرون صفة الكلام لله تعالى، مع أنكم كنتم أمواتاً ثم أحياكم. والسبب

وراء إيراد هذا الدليل هنا هو أنه يتضح من القرآن الكريم أن الحياة الروحانية

مستحيلة بدون وحي الله تعالى، لأن حياة الروح تعني أن تكون صالحة لنيل

الحياة الأبدية، والحياة الأبدية سرٌّ من أسرار قدرة الله تعالى، ولا يمكن أن

يدركه الإنسان بعقله. هناك وسيلة واحدة لمعرفة، وهي أن يُعلِّمه الله بوحيه

علمَ حقيقة الحياة الأخروية، وكيف يصبح صالحاً للحياة الآخرة. فالحياة

الروحانية مستحيلة بدون الوحي الإلهي، ويستحيل على العقل أن يدرك بنفسه

وسائل الحياة الروحانية. فالآية الكريمة تلفت الأنظار إلى ضرورة التفكير في أن

الله تعالى قد هباً لجسم الإنسان جميع الوسائل اللازمة لحياته الدنيوية، فكيف

يمكن أن يحرمه وسائل حياته الأخروية، مع أنها هي الأهم والأسمى بكثير؟

وقوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾. فالأَمْوات جمع ميت، والموت ضد الحياة. ومن معاني الحياة لغة:

(١) ظهور القوة النامية، كما قال الله تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الحديد: ١٨)، أي يُحيي الأرض بعد جفافها وخرابها، أي يخرج نباتها.

(٢) إصلاح القوة الحاسة، والموت إزالتها، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ (مریم: ٢٤)، أي عندما أجاهء مریم المخاض قالت ليتني فقدت الوعي.

فالموت هنا ليس حقيقياً، بل يعني تمني فقدان الوعي من شدة الآلام.

(٣) القوة العاقلة، أي العلم والعرفان، والموت هو الجهل، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام: ١٢٣)، أي هل يستوي الجاهل ومن وهبنا له العلم الروحاني؟ وكذلك قال الله تعالى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (الروم: ٥٣)، أي ليس بوسعك إقناع الجاهلين.

(٤) الأفراح والمسرات، والموت يعني الحزن المكدر للحياة، وإياه قصد الله تعالى بقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (إبراهيم: ١٨)، أي أن الذي يدخل الجحيم يحيطه الموت من كل طرف بدون أن يموت، أي ستحيط به الهموم والغموم.

(٥) التيقظ والانتباه، والموت هو المنام.

(٦) تنفس الحيوان، والموت هو انقطاع النفس.

وعليه فقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ يعني أنكم كنتم عَدَمًا بلا حياة، وبلا وجود -وليس أنكم كنتم ميتين- فأوجدكم الله تعالى ووهبكم الحياة.

ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾، أي ثم يقبض الله تعالى أرواحكم ويميتكم.

ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾، أي يعيدكم إلى الحياة، وفي نهاية المطاف إلى الله تعالى تَرْجَعُونَ.

فالإنسان يمر بمراحل أربع: عدم، ثم حياة، ثم موت، ثم عودة إلى الحياة، ثم النتيجة النهائية للمراحل الأربع وهي العودة إلى الله، أي المثول أمامه تعالى.

في هذه الآية أخبرنا الله تعالى أن الذي يمنحكم الوجود والحياة من العدم، ثم يمتكم بعد الحياة، كيف يصحّ الظن أنه لن يعيدكم إلى الحياة؟! إنه ظنّ منافٍ للعقل. وإذا كانت الحياة الآخرة حقًا، فلا بد أن يهيئ الله من عنده هديًا للإنسان يُعدّه لتلك الحياة.

ما أبسطه وما أروعَه من استدلال! حيث بين الله تعالى أنه لماذا يوجد الله الإنسان من العدم ويهب له الحياة، إذا لم يكن هناك غاية معينة يحققها الإنسان. ولو قلنا جدلاً ليس هناك غاية لخلق الإنسان، فالسؤال لماذا أمات الله هذا الإنسان صاحب العقل والفهم؟ إذا كانت سعادة وراحة هذه الدنيا هي قدرُ الإنسان فحسب، فلماذا خلقه الله من العدم بعد عملية طويلة من التطور ووهب له الحياة، ثم أذاقه الموت دون أن يجعل له بعد موته حياة أسمى؟! تمثل هذه الآية ردًّا أيضًا على الذين يظنون أنه ليس هناك عذاب القبر بعد الموت، بل سيدخل الجنة أو في النار حين يدخل. لقد ذكر الله تعالى هنا خمسة أزمنة: (١) زمن العدم، (٢) زمن الحياة الدنيا، (٣) زمن الموت المادي، (٤) زمن الحياة الجديدة، و (٥) زمن المثول أمام الله تعالى، أي الحشر. واستعمال ﴿ثم﴾ قبل قوله تعالى ﴿إليه تُرجعون﴾ يدل على أن الميت ينال حياة عاجلة بعد موته الدنيوي مباشرة، ولكن الحشر يكون بعد فترة.

وهذه الحياة التي تكون بعد الموت مباشرة لا تخلو من ثواب وعقاب، وإلا كانت مهمة ولا لزوم لها. وإذا كان في تلك الفترة ثواب وعقاب، فثبت أن هناك ثوابًا وعقابًا موجزًا قبل الحشر، وهذا ما يسمى عذاب وثواب القبر. والأحاديث النبوية تدعم هذا، كما أن القرآن الكريم يدل على وجود هذا العذاب دلالة واضحة حيث قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٧)، أي أن آل فرعون سيظلون يعذبون صباحًا ومساءً قبل الجحيم، وكانوا يذوقونه وقت نزول القرآن الكريم أيضًا.

وكما أن هذه الآية قد ذكرت وعد الحياة بعد الموت للأفراد، كذلك قد تتضمن هذه الآية الإشارة إلى الموت القومي والحياة القومية في الدنيا؛ بمعنى أن العالم كان ميتاً فأحياه الله تعالى بالقرآن، وسوف يموت ثانية وسوف يحييه الله أيضاً مرة أخرى. وكأن هذه الآية تنبأ بفترتين من رقي الإسلام؛ الفترة الأولى في أول الإسلام، والثانية في هذا الزمن الأخير، أعني أن هذه الآية تمثل إشارة إلى النبوة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ (الجمعة: ٤)، ونظراً إلى هذا المعنى، فالمراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ أن القيامة ستقوم بعد ذلك، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام هو آخر الأديان، ولا دين سواه إلى يوم القيامة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٣٠)

شرح الكلمات:

خلق: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم...) .

استوى وسوى: استوى الشيء: اعتدل؛ لم يبق فيه نقص؛ زال اعوجاجه. استوى الطعام: نضج. استوى الإنسان: انتهى شبابه وبلغ أشده. استوى على سرير الملك، كناية عن التملك. واستوى على الشيء: غلبه، يقول الشاعر: "فلما علونا واستوينا عليهم". واستوى: علا وارتفع. واستوى إلى شيء: قصده. (الأقرب)

السماء: اسم جنس، يطلق على سماء واحدة أو أكثر، ولأن الضمير (هُنَّ) في قوله تعالى ﴿سَوَّاهُنَّ﴾ جمعٌ، فالمراد هنا السماوات. (للمزيد راجع شرح كلمات قوله تعالى: (أو كصيب من السماء... إلخ).

فمعنى ﴿استوى إلى السماء﴾: قصدها.

وسَوَّى الشيءَ: جعله سويًا؛ صنَّعه مستويًا. وسَوَّى به أو بينهما: عدَّلهما (الأقرب).

فمعنى ﴿سَوَّاهُنَّ﴾: خلَقهن مراعيًا كلَّ ما يلزمهن.

سبع: يراد به الكثرة أيضًا، لأن عدد السبع أو السبعين يستعملان في العربية للتضعيف والتكثير أيضًا. (لسان العرب)

شيء: الشيء هنا بمعنى الأمر.

التفسير: قوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ يعني أن كل ما في الدنيا مخلوق لفائدة الإنسان. وهذه مسألة لم يقدمها هكذا إلا القرآن الكريم، وهي (أولًا) ردُّ على الشرك والوثنية، لأن كل شيء ما دام مخلوقًا لنفع الإنسان فلا يمكن أن يكون إلهًا، لأن الخادم لا يمكن أن يصبح سيدًا. و(ثانيًا) إنها تفتح أبواب ازدهار العلوم، لأن أساس العلوم البحث والتحقيق، ولا يمكن أن يبدأ الإنسان في البحث والتحقيق في شيء إلا إذا كان موقفًا أنه سيؤدي إلى علم نافع له. فما دام الله تعالى قد أعلن أن كل شيء في الكون مخلوق لفائدة الإنسان، فثبت (أولًا) أن لا شيء في الدنيا يخلو من فائدة ما، ويجب ألا يُعدَّ حتى أردأ شيء في الدنيا غير نافع، إذ لو ثبت أن أي شيء في الدنيا خال من النفع لبطلت هذه الآية. انظروا كيف بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية الهامة في عصر الجهل ذلك، إذ كان الناس عندها يعدّون أشياء قليلة جدا نافعة، أما سائر الأشياء الأخرى فظنوها عديمة الجدوى. ولكن القرآن الكريم قال إن هذا خطأ، فليس هناك شيء عبث، بل كل شيء نافعٌ للإنسان. لقد علم الإنسان فوائد آلاف الأشياء، وسوف تنكشف عليه فوائد الأشياء الأخرى،

ومن قال بوجود شيء في الدنيا غير نافع للإنسان فهو جاهلٌ وينكر دعوى القرآن هذه.

و(ثانياً) تدل هذه الآية أيضاً على أن الأشياء النافعة إذا كانت مركبة من عدة أجزاء، فكل جزء منها يكون نافعا للإنسان، لأن الله يقول خلق لكم ما في الأرض جميعاً، وكلمة (جميعاً) تشير إلى أن كل شيء مفيد للإنسان، سواء أكان مفرداً أو مركباً أو ذراتٍ أو مجموعة ذرات. ولو أن العلماء شقّوا الشيء المركب وعثروا على جزئياته، لوجدوا الفوائد في مفرداته وذراته أيضاً، ولن يجدوا فيها تلك الفوائد فحسب، بل ستكون هذه الفوائد نافعة لهم أيضاً.

و(ثالثاً) كما بين الله تعالى هنا أن الأشياء التي تبدو ضارّةً لحياة الإنسان أو لجسمه، فيها أيضاً أسباب فائدة الإنسان. فمهما كان الشيء ساماً لا بد أن يكون له ما يفيد الإنسان. ولمعرفة هذا الأمر قد انتفع الناس حتى من الزرنيخ وجوز القويّ وسمّ الأفاعي. ولكن المؤسف أن الإنسان لم يعترف بفضل الكتاب الذي كشف هذه الحقيقة العظيمة حتى قبل هذه البحوث والاكتشافات بزمان طويل.

كما تتضمن هذه الآية الإشارة إلى أن ما في الدنيا هو لمنفعتكم، فلا يصح أن تجعلوه سبباً للفساد والقتال.

وتشير هذه الآية أيضاً إلى أن كل ما في الدنيا تراث مشترك بين الناس قاطبة، فلا يصحّ استعماله بصورة تجعله حكراً على فرد واحد أو شعب واحد. والإعراض عن هذا المبدأ القيم هو الذي يدفع بأوروبا إلى ما تتعرض له من دمار اليوم، ولو أنهم عملوا بهذا التعليم القرآني لما حصل هذا التباغض والتحاسد بين مختلف الشعوب والطوائف والأفراد. وبناءً على هذا المبدأ نفسه قد أمر الإسلام بالزكاة والصدقات، أعني أن كل الأشياء في هذه الأرض مخلوقة للبشرية جمعاء. ومع أن الإسلام قد سلّم بالملكية الفردية، ولكنه يقبلها شريطة ألاّ يصبح المستحقون الآخرون محرومين من منافعها كلية.

كما فصلت هذه الآية الكريمة في الجدل الجاري بين الأديان حول حقيقة الدنيا بحكم رائع. فالهندوس مثلاً يرون الحياة الدنيا نجساً لا يستطيع الإنسان النجاة من دنسها إلا بالهروب منها، وعلى ذلك يؤسسون اعتقادهم بالتناسخ، وبسبب هذه الفكرة يطلقون مصطلح (مُكتي)، أي الخلاص، على الحالة التي يفلح فيها الإنسان في جهوده من أجل التحرر من الدنيا. والخلاص عندهم يعني النجاة من آلام الدنيا.

والمسيحيون أيضاً يَرُجون النجاة التي تعني عندهم النجاة من الأذى والآلام. وكأهم زعموا أن الدنيا نجس أيضاً، حيث جاء في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لأحد الأثرياء: "فاهبْ وبعْ أملاكك، وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني" (متى ١٩: ٢١-٢٢).

والبوذية أيضاً ترى أن الإنسان الناجح هو مَنْ نال (نيرفانا)، أي الذي قد تخلص من الرغبات كلها. كأهم يرون أن مجرد الرغبة أمرٌ سيء، ولا يمكن أن تكون الرغبات نوعين: سيئة أو حسنة، بل كلها سيئة.

أما الزرادشتيون فقسّموا الأشياء نوعين: خير وشر، فانخدعوا بذلك وزعموا أن للدنيا إلهين: خالقاً للخير وخالقاً للشر.

فثبت من تعاليم هذه الديانات كلها أنها ترى حقيقة الدنيا على أنها بلاء مكروه، ينبغي تجنبه. ولكن الإسلام واليهودية هما الديانتان الوحيدتان اللتان لا تريان الدنيا عقاباً، مع الفرق أن اليهودية اتخذت الدنيا غاية منشودة، أما الإسلام فهو الدين الوحيد الذي أعلن أن الإنسان قد خُلِق في هذه الدنيا لا ليفرّ منها، وإنما ليستخدمها استخداماً سليماً لتكون وسيلة لحياته الآخرة.

ولكننا نشاهد في الدنيا اليوم مشهداً غريباً، فإن الذين تقول دياناتهم إن الدنيا نجسٌ وشرٌّ يجب نبذُه بعيداً، فإنهم هم الذين يعصّون عليها بالنواجذ، ويُعيدون عنها المسلمين فقط. ما دامت الدنيا نجسة جداً عند هذه الديانات فلماذا جعلها أتباعها غايتهم ومقصدهم فحسب؟

أما قول الله تعالى ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾، فقد ظن البعض أنه إشارة إلى خلق السماوات. ولكن هذا ليس صحيحاً، إذ لم ترد كلمة ﴿ثم﴾ هنا للترتيب، بل جاءت بمعنى (الواو)، إذ قد صرح الله تعالى في آية أخرى أنه خلق الأرض بعد خلق السماوات. فلا داعي لهذا التفسير، لأن الحديث هنا ليس عن خلق السماوات ولا خلق الأرض، فإن الله تعالى لم يقل هنا (خلق الأرض)، بل قال ﴿خلق لكم ما في الأرض﴾، وهذا لا يمكن أن يُقال إلا بعد خلق الأرض، إذ المراد أن كل شيء في الأرض خلق لنفعكم. فثبت أن هذه الآية لا تتحدث عن خلق الأرض ولا عن خلق السماء، وإنما بين الله تعالى فيها أننا قد خلقنا كل شيء في الدنيا لفائدتكم، ثم توجهنا إلى الرفعة وأكملناها في سبع درجات. فالآية إنما تبين أن الله تعالى خلق كل شيء في الدنيا لنفع الإنسان، ثم جعل للذين ينتفعون منها سبع درجات للراقي، بمعنى أن الذين ينتفعون من أسباب الرقي هذه انتفاعاً سليماً سينالون أعلى الدرجات الروحانية. لقد سبق أن بينتُ لدى شرح الكلمات أن العدد "سبعة" لا يشير إلى السبع فقط، بل يدل على الكثرة أيضاً، وعليه فيمكن أن تعني هذه الآية أننا خلقنا في الأرض كثيراً من الأسباب لتعملوا بها وتنتفعوا منها، ثم توجهنا إلى رفعتكم، أي هيأنا لكم أسباب رقيكم الروحاني، وخلقنا من أجله أسباباً ملائمة كثيرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾، فإشارة إلى الأمر نفسه، أي أنه بعد أن جعل الله تعالى كل ما في الأرض نافعا للبشر، كان لا بد أن يضع نظاماً يجازي به كل من استعمل منهم هذه الأشياء الأرضية -طبقاً لأوامره تعالى- الاستعمال الأمثل بما ينفع الناس ولا يضرهم. فيقول الله تعالى لقد جعلنا درجاتٍ روحانيةً بلا نهاية، لنرفع الذين ينشرون الخير والسلام في الأرض ونبوتهم في سماء الروحانية. فقوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ يعني أننا لم نكن غافلين عن مقتضى فعلنا الأول، فبعد خلق كل شيء في الأرض لمنفعة الإنسان، كان لزاماً أن يُعطى الذين يحسنون استخدام هذه الوسائل أعلى

الدرجات، ولم تغفل عن ذلك، بل جعلنا لكل واحد منهم في السماء درجاتٍ عليا بحسب عمله. وكأن هذه الآية تتحدث عن الجنة بكلمات أخرى. وهذه الآية دليل ناصعٌ آخر على صدق الإسلام، فإن الله تعالى قد بيّن فيها أن كتاب الإسلام الذي هو كلام الله تعالى لا يمكن أن يناقض العلوم الطبيعية التي هي شرحٌ لفعل الله تعالى في هذا الكون. ذلك أن غاية العلوم إنما هي معرفة خواص الأشياء، وانكشاف خواصها سيكشف حتمًا صدق الإسلام وصدق هذه الآية، بدلاً من أن يضره. فإذا كان الرقي العلمي يصيب الأديان الأخرى بالقلق مخافة أن يؤدي إلى تفنيدها، فإن الإسلام يفرح بأن التقدم العلمي قد قدّم على صدقه دليلاً آخر.

وكما أن قول الله تعالى ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ يمثل إشارة إلى كثرة الدرجات الروحانية وتعددتها، فإنه يرمز أيضاً إلى أن سنة التطور والارتقاء سارية في العالم الروحاني كما هي جارية في العالم الجسماني، وأن التطور الروحاني مقسوم إلى درجات كثيرة آخرها ما ظهر فيها محمد رسول الله ﷺ. وحديث الإسراء الذي رأى فيه النبي ﷺ آدم عليه السلام في السماء الأولى ورأى أنه قد بلغ نهاية السماء السابعة، هو الآخر يتضمن إشارةً إلى أن آدم هو الحلقة الأولى في سلسلة تطور العالم الروحاني، وأن محمداً رسول الله ﷺ هو الحلقة الأخيرة منها. وكأن العالم الروحي الذي كانت بدايته بآدم عليه السلام قد اكتمل في شخص النبي ﷺ.

قد ختم الله بهذه الآية البحثَ المتعلق بارتباب الكافرين في الوحي الإلهي، حيث بين الله تعالى أنه كان من مقتضى المنهج الذي اتبعه سبحانه في خلق الكون أن ينزل الوحي منه، لأن الله تعالى إذا لم يكن يريد الترقى الروحاني للإنسان من خلال الوحي فلماذا خلق في الأرض هذه الأشياء الكثيرة النافعة للإنسان، والتي تنوّع أعماله تنوعاً هائلاً؟ فخلق هذا العالم المليء بالحكمة وتوسيعه وتنويع أعمال الإنسان لهذه الدرجة لا يمكن أن يكون بغير هدف سام. لقد بين الله تعالى هذا الموضوع في آية أخرى بتوضيح أكثر بما يؤكد

المعنى الذي بينته حيث قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٨)، أي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة عصور خلقاً تدريجياً، وأن عرش حكمه قائم على الماء الروحاني، أي على الوحي، لكي يرى مَنْ منكم هو أحسن عملاً. أي بعد خلق السماوات والأرض بدأ الله حكمه على الإنسان من خلال الوحي والإلهام، لكي تُتاح للناس الكُمل الفرصة لإبراز كفاءاتهم وليرتقوا إلى الدرجات العُلا.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣١)

شرح الكلمات:

قال: ورد في المفردات: "القولُ يُستعمل على أوجهٍ، أظهرها أن يكون للمركَّب من الحروف المبرز بالنطق، مفرداً كان أو جملة...
الثاني: يقال للمتصوِّر في النفس قبل الإبراز باللفظ قولٌ، فيقال: في نفسي قول لم أظهره.

الثالث: للاعتقاد، نحو: فلان يقول بقول أبي حنيفة. (أي بعقيدة أبي حنيفة).
الرابع: يقال للدلالة على الشيء، نحو قول الشاعر: امتلاً الحوض وقال قُطَي. "وليس المراد أن الحوض تكلم باللسان، بل المراد أنه قال بلسان حاله أنه قد امتلاً، ولم يبق فيه مكان للمزيد من الماء.

وهناك أمثلة كثيرة على استخدام لفظ القول للدلالة على بيان الأمر الواقع، كقول الشاعر:

قالت له العينان سمعاً وطاعة... وحدثتا كالذرٍّ لما يُثَقَّبِ

وقال غيره:

قالت له الطيرُ تقدّم راشدا ... إنك لا ترجع إلا حامدا (لسان العرب)
فقد نُسب القول هنا إلى أشياء غير ناطقة، والمراد أنها قالت ذلك بلسان
حالتها.

ويتابع الراغب في مفرداته في بيان معاني القول:

"الخامس: يقال للعناية الصادقة بالشيء.....

السابع: في الإلهام، نحو ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْآنِ﴾ (المفردات).

فالقول لا يعني دوماً أن يخاطب المرء غيره ويتكلم معه بلسانه بألفاظ
وكلمات، بل إن للقول معاني مختلفة في مناسبات مختلفة.

ربّك: راجع شرح كلمات قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الفاتحة.

الملائكة: جمعُ الملّك، وهو عند البعض من أَلَك، أي أبلغه الخبر. ويرى
آخرون أنه من أَلَاك، ومعناه أيضاً أبلغه الخبر. والملّك: الرسالة. وقال البعض
إنه من الملّك حيث ورد في "المفردات": "قال بعض المحققين هو من الملّك. قال:
والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له ملّك بالفتح، ومن البشر يقال
له ملّك بالكسر.... والملائكة والملّك أصله مَأَلَك. وقيل هو مقلوب عن
المَلَأَك الذي هو من أَلَك."

بينما يقول صاحب "لسان العرب" إن مَلَأَك مقلوب من مَأَلَك.

وهذا يتفق مع القواعد، وإن كنا لا نفهم أنه ما دام أَلَك وأَلَاك بمعنى بَلَّغَ
الرسالة فما الحاجة للقول بالقلب؛ إذ يمكن ويجوز أن يُصاغ منهما الملّك
والمَلِلك.

ثم يقول صاحب المفردات: "والمَلَأَك والألوك الرسالة، ومنه: أَلَكْنِي، أي أبلغه
رسالتي."

لم يوضح صاحب المفردات الأمر أكثر من ذلك، والحقيقة أن أَلَكْنِي يعني
اجعلني رسولا، ولكنهم بدأوا يستخدمونه بمعنى مقلوب، أي خذ مني الخبر

وَبَلَّغَهُ فُلَانًا. ومثاله قولنا: الميزاب يجري، مع أن الماء هو الذي يجري في الميزاب. وقد وضَّح هذا الأمرَ صاحبُ اللسان.

وقد حصل من صاحب المفردات سهو آخر هنا وهو أنه قد ذَكَرَ كلمة "أَلِكْنِي" تحت مادة أَلَكَ، مع أن فعلَ الأمرِ مِنْ أَلَاكَ هو أَلِكْنِي، أما أَلِكْنِي فهو أمرٌ مِنْ أَلَاكَ، وليس مِنْ أَلَكَ.

بينما يرى البعض أن المَمْلَكَ مِنْ لَأَكَ، يقال: أَلَاكَ إلى فلان إلَاكَةً: أبلغه عنه. وعليه فأصلُ المَمْلَكَ: مَلَأَكَ، وحُذفت الهمزة للخفّة فصار مَلَكًا (الأقرب).

وقال صاحب تاج العروس إنه مِنْ لَأَكَ الشيءَ، أي أداره في فمه، وقد لَأَكَ الفرسُ اللجَمَ يلوكه لوكًا: عَلَكَه.

وكان الرسول يلوك ويلوّد في فمه كلماتِ الرسالة، ومن هنا سميت الكائنات التي تحمل رسالات الله ملائكة.

فالملائكة تعني الكائنات التي تحمل رسالات الله إلى العباد وتنفذ مشيئته في الدنيا، أو: الكائنات القوية المقتدرة.

الأرض: راجع شرح كلمات قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا...﴾.

خليفة: الخليفة: مَنْ يخلف غيره ويقوم مقامه؛ السلطان الأعظم؛ وفي الشرع: الإمامُ الذي ليس فوقه إمام. والخلافة: الإمارة؛ النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه أو لموته أو لعجزه أو لتشريف المستخلف (فإن الله تعالى عندما يجعل أحداً من عباده خليفة فإنما يجعله تشريعاً له وليس لسبب آخر). والخلافة في الشرع: الإمامة. (الأقرب)

يسفك: سفك الدم: صَبَّه. (الأقرب)

الدماء: جمعُ الدم. (الأقرب)

نسب: سَبَّحَ الله: نَزَّهَهُ (مِنْ جميع العيوب والنقائص)، وقد يُعَدَّى باللام، فيقال: سَبَّحَ له؛ وسَبَّحَ: أي صَلَّى؛ قال سبحانه الله. (الأقرب)

التسبيح: التنزيه. وسبحان الله معناه: تنزيهاً لله من الصاحبة والولد. وقيل تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به... وجماعُ معناه بُعْدهُ تبارك وتعالى عن أن يكون له مثْلٌ أو شريك أو ندٌّ أو ضدٌّ (لسان العرب) وقال صاحب تاج العروس: سبحانك، أي أنزهك يا رب من كل سوء وأبرئك... ثم نُزِّلَ "سبحان" منزلةَ الفعل، وسَدَّ مَسَدَهُ، ودلَّ على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه المشركون... وفي العجائب للكرماني... أن سبحان الله مصدر سَبَّحَ، إذا رَفَعَ صوته بالدعاء والذكر... والتسبيح قد يُطلق ويراد به الصلاة والذكر والتحميد والتمجيد، وسُمِّيَت الصلاة تسبيحاً لأن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء (تاج العروس).

وقال الإمام الراغب في المفردات: السَّبْحُ المرُّ السريع في الماء وفي الهواء... والتسبيح تنزيهُ الله تعالى، وأصله المرُّ السريع في عبادة الله تعالى... وجُعِلَ ذلك في فعل الخير كما جُعِلَ الإبعاد في الشر، فقليل: أبعدَه اللهُ؛ وجُعِلَ التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيَّةً. (المفردات)

بحمدك: لمعرفة معنى الحمد راجعُ شرح كلمات قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في

سورة الفاتحة)

نقدس: قدس الرجلُ الله: نزَّهه ووصفه بكونه قُدُوساً. (الأقرب). أي نزَّه الله تعالى عن كل عيب وأقرَّ بكونه تعالى جامعاً للصفات الحسنة كلها.

وورد في المفردات: التقديس التطهير... وقوله ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نظهَّر الأشياء ارتساماً لك، وقيل: نقدسك أي نصفك بالتقديس.

وورد في لسان العرب: من صفات الله عز وجل السُّبُوحُ القُدُّوس... السُّبُوح الذي يُنزهُ عن كل سوء، والقُدُّوس المبارك، وقيل الطاهر.

ومعنى المبارك: الجامع لجميع المحاسن، ومعنى الطاهر: الطاهر بنفسه والمطهَّر للآخرين.

فالفرق بين التسييح والتقديس أن التسييح هو التنزيه، والتقديس هو التنزيه والتعظيم أيضاً.

التفسير: قبل الكتابة في موضوع هذه الآية أرى لزماً ذكر آراء المفسرين السابقين حولها وما ورد في الكتب السابقة.

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية، فمنهم من قال إن الخليفة في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هو آدم عليه السلام، وكان الملائكة يعيشون في هذه الدنيا قبل الناس، فقال لهم الله تعالى سأدعوكم إلى السماء وأخلق مكانكم كائناً آخر هو آدم (ابن كثير). وفي هذه الحالة يكون لفظ الخليفة بمعنى اسم فاعل أي الخالف.

وقد قال بعض من يحمل هذا الرأي: ليس سبب تسمية آدم خليفة لأن الملائكة كانوا يعيشون قبله في الأرض وجاء وأخذ مكانهم، بل سُمي خليفة لأن الجن كانوا يعيشون على الأرض، فدفعهم الله من السهول إلى الجبال وأسكن آدم مكانهم. (ابن جرير عن ابن عباس، وابن كثير)

وقال بعضهم يجوز أن يكون الخليفة هنا بمعنى المخلف أي يخلفه غيره من بعده (فتح البيان). فالخليفة في هذه الحالة اسم مفعول، ومثاله الذبيحة بمعنى المذبوحة.

وقال بعضهم: ليس المراد من الخليفة هنا آدم، بل نسله. ويستدلون على ذلك بقراءة أخرى هي "إني جاعل في الأرض خليفة" (القرطبي عن زيد بن علي). وتبنى بعضهم هذه الفكرة بناءً على قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٤٠).

وقال قتادة أيضاً إن المراد من الخليفة هنا بنو آدم، حيث قال: "فكان في علم الله أنه تكون من تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة" (ابن كثير).

والقائلون بهذا الرأي يستدلون عليه بقول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فهؤلاء المفسدون هم بنو آدم وليس آدم، لأن آدم ما كان ليفسد أو يسفك (ابن كثير).

وقال آخرون إن المراد من الخليفة هو آدم، لأن الخليفة من ينفذ أحكام الآخر وأوامره نيابة عنه، فلأن آدم كان نبي الله تعالى وكان سيُبعث لتنفيذ أوامر الله تعالى في الدنيا فسمي خليفة (القرطبي).

وأرى أن هذا الرأي هو الصحيح، أي آدم سمي خليفة لتنفيذ أوامر الله ونواهيه في الدنيا، وكان فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيبعث الآن نبياً في الدنيا. أما القول بأن الملائكة كانت تعيش في الدنيا قبل آدم فلا دليل عليه، وكذلك لا دليل على أن الجن - أي مخلوقات سوى البشر - كانوا يعيشون في هذه الدنيا قبل البشر، فلا يصح أن يكون ذلك سبباً لتسمية آدم أو ذريته بخليفة، لأن الله تعالى هو الأعلم متى بدأ خلق المخلوقات. أما لو أُريد بالخليفة هنا مخلوق يأتي بعد مخلوق آخر، فيجب أن يسمى كل مخلوق خليفة، لأنه ينوب عن من سبقه من مخلوقات، لأننا لا نستطيع القول أن الله تعالى قد أخذ يتجلى بصفة الخلق منذ بضعة آلاف أو بضع مئات الآلاف من السنين فقط، ولم يكن قبل ذلك أي شيء!

ولا أرى أيضاً أن المراد من الخليفة هنا ذرية آدم، لأنه كلما استُخدمت هذه الكلمة في القرآن بحق شتى الأمم والأقوام فإنما وردت بصيغة الجمع، كقول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٦٦)، وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ (يونس: ٧٤)، وقوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ (الأعراف: ٧٠)، وقوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ (الأعراف: ٧٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (النمل: ٦٣).

فثبت من هذ الآيات أن القرآن الكريم كلما ذكر خلافة قوم استخدم صيغة الجمع، لأن القوم يشتمل على أفراد كثيرين، وكل فرد منهم خليفة لمن كان مثله في الأمم السابقة. فما لم يكن هناك حكمة خاصة فلا مبرر لاستعمال صيغة المفرد بحق الجمع. بينما نجد على النقيض أن القرآن الكريم كلما ذكر خلافة الفرد استخدم صيغة المفرد أي لفظ الخليفة، كقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٧).

فثبت من هنا أن الخليفة في هذه الآية يعني آدم وليس بني آدم. أما السؤال: إذا كان المراد من الخليفة هو آدم عليه السلام، فلماذا قالت الملائكة إنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ سوف نجيب عليه عند تفسير هذه الجملة من الآية.

والآن أتناول تفسير هذه الآية.

إن ما يربط هذه الآية بما قبلها من الآيات أن الله تعالى قد أعلن في بداية سورة البقرة أن القرآن الكريم كلام الله الذي أنزله لهداية الناس، وكان الكفار يعترضون على هذه الدعوى كما أشير إلى ذلك في قول الله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾، وتدللياً على صدق هذه الدعوى قدم الله تعالى هنا قصة آدم، وبين أن نزول الوحي الإلهي ليس بدعاً، بل لم يزل وحي الله تعالى ينزل منذ أن خلق الإنسان، فكان آدم أول إنسان بدأ نزول كلام الله تعالى منذ زمنه. فالاعتراض على نزول الوحي ليس معقولا. ما دام الله تعالى قد أنزل وحيه منذ خلق الإنسان فلماذا لا ينزله الآن؟ باختصار، قد قدّم الله تعالى نزول وحيه منذ خلق الإنسان باستمرار برهانا على نزول الوحي على محمد ﷺ. وهذا الدليل حجة على أتباع الديانات كلها، لأنهم، سواء الهندوس والزرادشتيون واليهود والنصارى، كلهم يؤمنون بنزول الوحي منذ خلق الإنسان. قد ذكر الله تعالى آدم ونزول الوحي عليه بعد ذكر نزول الوحي على محمد ﷺ ليبين للناس أنه لم يهمل الإنسان بدون هُدى، بل ما زال ينزل له الهدى منذ خلقه.

تبدأ هذه الآية بالحرف ﴿إِذْ﴾ الذي يدل على الماضي، وهناك محذوف قبله، وهو: اذكروا، والحرف ﴿إِذْ﴾ دليل على المحذوف، والمراد: أيها الناس، اذكروا قصة آدم إذ تحدث الله تعالى مع الملائكة بهذا الكلام عند خلقه.

وقد أشار إلى هذه الحوار بين الله وبين الملائكة ليبين الله تعالى أن الناس لا يدركون قبل بعثة النبي الحاجة إلى مجيئه، لأن بعثته غيب من غيوب الله تعالى، لا تنكشف حكمته وضرورته تمامًا إلا بعد أن يكمل مهمته. وعند وقوع التطورات والانقلابات على يده لا يجد الناس بدءًا من الاعتراف أنه لولا بعثته لحُرمت الدنيا من ثورة نافعة جدا؛ فالثورة العظيمة التي سيحدثها محمد رسول الله ﷺ لن تُعرف قيمتها إلا بعد أن يُظهر كفاءاته التي وهبها الله إياها، أما قبل وقوع تلك الثورة فتصورها صعب على الناس؛ فالأمر الذي قد فشل الملائكة المقربون في استيعابه كيف يستوعبه الجاهلون؟ فلينتظروا وليروا نتيجة عمله ولا يستعجلوا في إنكاره. لقد بين الله تعالى هذا الموضوع في آية أخرى فقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢-٣)، أي قد قرب زمن الثورة المقدرة من عند الله تعالى، فلا تستعجلوا لرؤيتها، لأنها لن تظهر إلا في موعدها، فإذا ظهرت تبين للناس أن الله بريء من العيب وأسمى من إشراك الناس به.

إن من سنة الله أن يرسل ملائكته بكلامه إلى عباده المقربين، ويقول لهم: أنذروا الناس بأن لا إله إلا أنا، وإياي فليتقوا.

لقد بين الله تعالى هنا أن الأنبياء يُبعثون لإرساء وحدانية الله ودعوة الناس إليه، ولكن ليس بوسع الناس أن يصدقوا أن الأنبياء سيفلحون في هذا الهدف الذي يبدو لهم غير معقول في الظاهر، ولكنهم يفلحون فلاحًا يذهل العالم، ويقوم ملكوت الله في العالم ويسود التوحيد ثانية. عندما أعلن النبي ﷺ نبوته، فمن ذا الذي كان يستطيع القول أنه سيستأصل الشرك من أساسه من الدنيا كلها، وليس من الجزيرة العربية وحدها. كلا، ما كان لأحد أن يدرك هذا في

بداية دعوة النبي ﷺ، ولكنه ﷺ عندما أنجز مهمته اضطر الجميع للاعتراف بوقوع هذه الثورة فعلاً.

باختصار، إن الحوار بين الله والملائكة في قصة آدم إشارةً إلى أنه حتى الصلحاء ذوو الصفات الملائكية لا يدركون عند بعثة النبي عظمة الثورة التي ستقع على يده، ناهيك أن يدركها الآخرون. فمن مقتضى المروءة أن الإنسان إذا لم يؤمن بالنبي فلا يعارضه على الأقل، و ينتظر اليوم الذي ينجز فيه النبي مهمته، لأن إنجازاته ستبين صدقه من كذبه.

لقد بين الله تعالى هذا الأمر في قصة موسى ﷺ على لسان رجل من قوم فرعون إذ قال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ (غافر: ٢٩)، أي أيها القوم إذا كان موسى كاذباً فلماذا تثورون غضباً، فإن كذبه سيهلكه، أما إذا كان صادقاً فسوف يحلّ بكم عذاب الله بسبب معارضته.

والحكمة الثانية في ذكر الملائكة هنا هي أن القرآن الكريم يعلن -وهذا ما تقول به كل الأديان بطريقة أو بأخرى- أن الله تعالى يدير نظام هذا الكون بواسطة الملائكة. فالملائكة موكلون بمختلف الأعمال: بين مسؤول عن الموت، ومسؤول عن دوران الكواكب والأجرام، ومسؤول عن نظام المطر. وسوف نتناول هذا الأمر مفصلاً في محله لاحقاً، أما هنا فنكتفي بهذا القدر.

فالحكمة في إخبار الله الملائكة بجعل آدم خليفةً وأمره لهم بالسجود لآدم عند خلقه هي أنه عندما يظهر نبي في الدنيا يؤمر الملائكة المدبرون لنظام العالم بتأييده ونصرته، فينتصر النبي في نهاية المطاف رغم معارضة جميع الناس له، ذلك لأن نظام الكون كله يؤيده، إذ كل مدبري هذا النظام مأمورون بتأييده. ونجد على ذلك أمثلة في تاريخ الأنبياء لا يسع أحداً إنكارها، فإن نجاه نوح ﷺ من الطوفان، ونجاه إبراهيم ﷺ من النار رغم محاولة الأعداء حرقه بها، ونجاه موسى ﷺ وقومه عند عبور البحر وحدوث الطوفان وتغطية المياه الأرض بمجرد دخول فرعون مع جنوده في البحر، وهبوب العاصفة عند تعليق المسيح

ﷺ على الصليب، ونجّاه من الموت على الصليب نتيجة إنزاله عنه بعد سويغات من تعليقه بسبب عقيدة اليهود ألا يبقى أحد معلقاً في يوم السبت، وانتصار "رام شندر" على "راون" مع كونه وحيداً ومحاصراً بين الأعداء، وغلبة "كرشنا" على أعدائه الأقوياء مع خذلان أصحابه له، ونجاح "زرادشت" ضد أعدائه الأقوياء، ثم في الأخير انتصار النبي ﷺ بأروع صورة، رغم مواجهته للعرب كلهم وحيداً منفرداً، وانتصاره عليهم بأسباب خارقة، كل هذه واقعات لا يمكن أن ينكر كونها خارقة إلا من أعماه التعصب، وكلها تدل على أن الله تعالى عندما يبعث نبياً في الدين يسخر العالم كله في تأييده ونصرته. ولأن الملائكة مدبرو نظام العالم فإن الله تعالى يطلعهم على مشيئته هذه قبل بعثة النبي، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١)، حيث بين الله تعالى أنه أطلع الملائكة بإرادته عند بعثة آدم، فهبوا لنصرته، ولذلك نجح آدم في تحقيق غاية بعثته، بينما خاب أعداؤه وخسروا في النهاية رغم انتصارهم المؤقت في البداية. كما أن الله تعالى قد أشار بذكر هذه القصة إلى أنه قد سخر أيضاً ملائكته الآن لتأييد محمد رسول الله ﷺ، ليحدثوا في العالم تغيراتٍ وانقلاباتٍ ستؤدي أخيراً إلى نجاح محمد ﷺ رغم قوة الأعداء وشدة معارضتهم له.

كما تثبت هذه الآية أن آدم ﷺ قد خُلِقَ في هذه الدنيا، وقد أخطأ الذين ظنوا أن آدم قد أُسكن في الجنة التي يدخلها الناس بعد الموت. من المدهش أن الله تعالى يقول ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١)، مع ذلك يقول البعض: إن آدم كان قد أُسكن في الجنة!

وقد حلّ البعض في زعمه هذه المعضلة بقوله إن الله خلق آدم في هذه الدنيا ثم أخذه إلى الجنة. ولكن هذه الآية لا تسمح بهذا التأويل أيضاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وواضح أن الله تعالى قد جعله خليفة في الدنيا لغاية، فكيف تحققت تلك الغاية بعد نقله من الدنيا إلى الجنة فيما بعد؟ كيف يمكن أن يجعل الله آدم خليفة في الأرض لإنجاز مهمة ثم يُسكنه في الجنة

حيث لا تتحقق تلك المهمة؟ فمن ذا الذي كان سيحقق مهمة آدم في الدنيا بعد أن أُسكن في الجنة؟

ثم هناك آيات أخرى تفنّد هذه الفكرة، ومنها قوله تعالى في صفة الجنة ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ (الطور: ٢٤)، أي لن يكون في الجنة أي شيء عبث، كما أن أهلها لن يُتَّهَموا بالإثم، بمعنى أنهم كلهم سيكونون مبرئين من أي خطأ. ولكن الجنة التي أُسكن فيها آدم دخلها الشيطان أيضا، ودفع آدم إلى مخالفة مشيئة الله تعالى.

ثم ورد عن صفة الجنة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٩)، ولكن آدم أُخرج من الجنة التي كان يسكنها. وقال الله تعالى عن صفة الجنة التي يدخلها الناس بعد الموت: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فصلت: ٣٢)، أي سوف تنالون في الجنة كل ما تتمنون، ولكن آدم أُخرج من الجنة التي كان يسكنها عند تحقيقه رغبته، أعنى عند اقترابه من الشجرة.

وورد عن الجنة التي يدخلها الناس بعد الموت أن أهلها سيقولون: ﴿تَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ (الزمر: ٧٥)، ولكن قيل لآدم في الجنة التي أُسكن فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٦).

فالجنة التي يدخلها الناس بعد الموت قد وصفها القرآن الكريم بوصف مختلف تماما عن وصف الجنة التي أُسكن فيها آدم، فثبت أن جنة آدم كانت منطقة من هذه الدنيا، إذ جعل خليفة للناس في هذه الدنيا نفسها، وكان لا بد له أن يبقى فيها حتى الموت.

وقد اعترض البعض على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ كالاتي:

١: لقد استشار الله الملائكة، فهل هو بحاجة إلى استشارتهم؟

٢: قد اعترض الملائكة على قرار الله تعالى وقالوا: إن الإنسان سيفسد في

الأرض، فلماذا تخلّقه؟ فهل يمكن أن يعترض الملائكة على قرار الله؟

٣: لقد وقع ما قال الملائكة؛ أي أن بني آدم قد أفسدوا في الأرض فعلاً، مما جعل قرار الله تعالى عرضةً للاعتراض.

وقبل الرد على هذه الأسئلة أرى لزماً أن أبين أن الفعل "قال" في قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة...) لا يعني بالضرورة أن الله تعالى عقد اجتماعاً مع الملائكة وتحدث معهم، فقالوا ما قالوا! بل كما بينا عند شرح الكلمات أن "قال" لا يُطلق على النطق باللسان فقط، بل يُطلق على ما يختلج في القلب من أفكار أيضاً، فقد ورد: "يقال للمتصوّر في النفس قبل الإبراز باللفظ قول"، فيقال: في نفسي قول لم أظهره". وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة: ٩)، أي أن المنافقين يفكّرون بأنه لو كان محمدٌ رسولَ الله حقّاً فلماذا لا يعذبنا الله بما نقول ضده؟

كذلك يراد من القول الاعتقاد، حيث ورد في المفردات: "فلان يقول بقول أبي حنيفة"، أي بعقيدته.

كما يطلق القول للدلالة على الأمر الواقع، أي يُسند فعل القول إلى شيء لا يقدر على الكلام، ويكون المراد أنه يتكلم بلسان حاله، كقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني، أي امتلأ الحوض وقال كفاني من الماء فلا تملأني أكثر. وقد ورد هذا التعبير في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١٢)، أي ثم توجه الله إلى السماء والأرض وهما في مرحلة دخانية من خلقهما وقال لهما أطيعا أو امري طواعيةً أو جبراً، فقالتا: نطيعك طواعية. فقول الله لهما بمعنى تسخيرهما، أي أن الله تعالى قد خلق الأرض والسماء بحيث إن أجزاءً منهما تطيع الله تعالى طواعيةً، وأجزاء أخرى منها (بعض الناس مثلاً) تطيعه جبراً. فجواب السماء والأرض هنا إنما هو قولٌ بلسان حالهما، وليس أنهما تكلمتا ونطقتا فعلاً. وقولهما ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ يعني أنهما خاضعتان لسنن الله كليةً.

وقد يكون السب وراء قولهما ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أن المخلوقات التي لا تطيع القوانين الإلهية طواعية ورضاً هي أقلّ عدداً من التي تطيعه تعالى برضا وطواعية. أو أن سبب ذلك أن جواب الفئة الأخرى من المخلوقات حُذف لكونه مفهوماً من السياق. ومن أساليب اللغة العربية التي قد كثر استعمالها في القرآن الكريم أيضاً حذف ما يدل عليه السياق تلقائياً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (النحل: ٨٢)، أي جعل الله قمصانا أو ثياباً تحميكم من الحرّ، وقد حُذف هنا ذكر وقايتها من البرد لكونه مفهوماً ضمناً.

وتُستعمل في العربية كلماتٌ أخرى سوى القول للتعبير بلسان الحال عن وقوع أمر، فمثلاً قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ (الكهف: ٧٨)، أي فوجد موسى ^{عليه السلام} وصاحبه في القرية جداراً موشكاً على السقوط، فقام موسى بإصلاحه. وقد قيل هنا إن الجدار كان "يريد" أن ينقض، والمراد أن حالة الجدار كانت تدل على أنه وشيك السقوط.

وقد قال الإمام أبو المنصور الثعالبي: "من سنن العرب أن تعبر عن الجماد بفعل الإنسان، كما قال الراجز: امتلأ الحوض وقال قُطني". (فقه اللغة ص ٥٤١)

خلاصة الكلام أن القول وغيره من الكلمات المستعملة للإنسان تُستعمل أيضاً لغير ذوي الأرواح للدلالة على حالها، والمراد أنها تقول كذا بلسان حالها. لقد قصدتُ من هذا التمهيد أن أبين أن الحوار الوارد في هذه الآية وما بعدها لا يكون بالضرورة قد وقع هكذا، بل قد يكون المراد أن جواب كل شيء بلسان حاله، يمكن التعبير عنه بهذه الكلمات الواردة في القرآن الكريم، فإن الملائكة أجابوا بعملهم، وأجاب إبليس بحاله، وأجابت الأشياء بلسان حالها، وليس أنها نطقت بهذه الكلمات فعلاً. وفي لغتنا (الأردية) أيضاً تعبير مماثل يقول: "أمعائي تردد: قُلْ هو الله"، والمراد: أن بطني يخبر بلسانه حاله عن شدة الجوع، ويقول إن الله وحده المستعان على كل مصيبة.

بعد هذا التمهيد أقول إن ما ورد في هذه الآية فهو إما كلام بلسان الحال، أو ليس كلامًا بلسان الحال - وأميل شخصيا إلى أن ما ورد هنا عن الملائكة فليس كلامًا بلسان حالهم، بل كان حوارًا بينهم وبين الله بالإلهام والوحي - وإذا كان الأمر هكذا فإن ما قاله الله تعالى للملائكة لم يكن استشارة، إنما كان إخبارًا لهم بقراره تعالى؛ والكلمات القرآنية تدل على ما أقول؛ إذ ليست هناك كلمة يتبين منها أن الله تعالى سأل الملائكة شيئًا، بل تبين الكلمات بجلاء أنه تعالى أخبر الملائكة وقال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وليت شعري؛ من أين استنتج المعارضون أن الله تعالى استشار الملائكة! لا شك أن الله تعالى سمح لهم بالسؤال، وقد سبق أن بينت أن الله تعالى قد أخبرهم بقراره هذا لكي يبدأ كل واحد منهم في نطاق عمله في تأييد آدم. ومن عهد إليه شيء لا بد له أن يفهم عمله جيدًا، فمن هذا الباب قالوا: إلهي، أخلق مخلوقًا يفسد ويسفك الدماء؟ وقد دفعهم إلى هذا السؤال مفهوم كلمة الخليفة، إذ معناه من يقيم نظامًا ويُعِم على الأخيار ويعاقب الأشرار. والظاهر أن كل سؤال لا يكون بالضرورة اعتراضًا، بل يوجه بعض الأسئلة من أجل الزيادة في العلم. نرى كل يوم أن المسؤول إذا أمر الموظفين بشيء سألوه بعض الأسئلة لإدراك واجبهم، وهذه الأسئلة لا تسمى اعتراضًا.

الغريب أن الملائكة يقولون فور سؤالهم تأدبًا وتعظيمًا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ومع ذلك يُعَدُّ المعارضون المتعصبون سؤال الملائكة اعتراضًا. من قال لله تعالى فور السؤال: إنك منزّه عن كل عيب وجامع لكل كمال، فكيف يُعَدُّ سؤاله اعتراضًا؟ لقد بين الملائكة بقولهم هذا أن سؤالهم إنما هو من باب الاستزادة في العلم وليس اعتراضًا على حكمة الله تعالى.

بيد أن قول الملائكة هذا يمكن أن يُعَدَّ اعتراضًا من وجهة نظر أخرى، ذلك أن آدم كما كان نائب الله، كذلك كان بين البشر أفراد آخرون كانوا نواب الملائكة، بمعنى أنهم كانوا أمثال الملائكة وظلالهم - إذ لو كان آدم وحده المتطور الوحيد عقليًا ولم يكن مثل هؤلاء الأفراد موجودين بين البشر، لصار

نزول الشرع على آدم عبثاً - وكان من المحتمل أن ينشأ هذا الاعتراض في قلوب هؤلاء الأفراد فيقولوا: ما دمنا نعبد الله حسب فهمنا وعقلنا فما الداعي لإنسانٍ أت بالشرع؟ فقد تكون مثل هذه الفكرة قد انتابت مثل هؤلاء البشر، وعليه فلا حرج في اعتبار هذا القول اعتراضاً من قبلهم.

والأمر الواقع أن الله تعالى كلما بعث نبياً ساورت مثل هذه الأفكار قلوب المتقين في الظاهر، فمن كان صاحب تقوى حقاً أدرك أنه مخطئ وتدارك خطأه وآمن بإمام الزمان، أما الذي لا تكون تقواه كاملةً فيصاب بالعنار ويخرج من صف الملائكة إلى صف الأبالسة. وهذه ظاهرة تُشاهد عند بعثة كل نبي؛ يخبر التاريخ أنه كان في زمن النبي ﷺ شخص اسمه زيد^١، وكان يدعي أنه على ملة إبراهيم، وكان يلقي الخطب بين العرب ضد الشرك والوثنية قبل بعثة النبي ﷺ. وذات مرة حضر طعاماً مع النبي ﷺ، فرفض الأكل معه بحجة أنه لا يأكل مع المشركين، فقال له النبي ﷺ: إني لم أشرك قط. وعندما أعلن النبي ﷺ دعوى النبوة لم يؤمن به وقال: لو كان الله تعالى سيجعل نبياً لكنت أنا الأولى بذلك، إذ حاربتُ الشرك. (البخاري، كتاب المناقب، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، وسيرة ابن هشام ج ١). فهذا الشخص كان بمنزلة ملاك بين العرب قبل بعثة النبي ﷺ، ولكنه لم يرض بطاعته ﷺ، واعتبر بعثته عبثاً، فحرم الإيمان. فأمثال هذا يوجدون في عصر كل نبي؛ فإنهم يكونون كأظلال للملائكة، ولكنهم ينضمون إلى صف إبليس بالاعتراض على بعثة نبيهم.

أما الاعتراض الثالث بأن قول الملائكة قد تحقق بينما لم يتحقق ما أراده الله تعالى، فهو أيضاً دليل على قلة فهم المعترض. فمتى قال الله تعالى أن البشر لن يقع بينهم فسادٌ وسفك دماء؟ بل الحق أن هذا الأمر متضمن في كلمة (خليفة). كل ما قاله الله تعالى هو أنه مما لا شك فيه أن خلافة آدم تعني أن أعمال البشر ستصبح تابعة للشرعية، وبالتالي ستسمى بعض أفعالهم فساداً وسفك دماء، ومع ذلك سيحقق خلق آدم غاية لا يقدر على تحقيقها مخلوق

^١ كان الدعاة إلى التوحيد قبيل مبعث النبي ﷺ أكثر من واحد، ويبدو أنه قد اختلطت هنا واقتتان سهواً؛ الأولى منهما تخص زيد بن عمرو بن نفيل، والأخرى تخص أمية بن أبي الصلت على ما يبدو، فالأول هو الذي رفض الأكل مع النبي ﷺ وتوفي قبل مبعثه ﷺ والآخر هو الذي لم يؤمن به ﷺ استكباراً. انظر أيضاً المعجم الكبير للطبراني، باب الصاد. (المترجم)

آخر. ذلك أن الله تعالى لم يفند هنا ما قاله الملائكة بأن خلق الإنسان سيؤدي إلى فساد وسفك دماء، وإنما اكتفى الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أن الغاية التي سيحققها النظام الذي سنقيمه على يد آدم هي غاية بالغة الأهمية، بحيث لا يمكن غض النظر عنها، وإن كانت ستؤدي إلى فساد وسفك دماء أيضا. لو أن المعارض تدبر في كلمات الآية لوجد أن الله تعالى لم يقل هنا للملائكة أن ما تدعون معرفته باطل، بل قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أن الله تعالى لم يرفض ما قاله الملائكة، بل أشار إلى أمور إضافية تؤكد ضرورة خلق الإنسان مع صحة مخاوف الملائكة. فثبت أن ما أعلنه الله تعالى قد تحقق فعلاً، فوجد الملائكة الجواب على سؤالهم.

وهناك تساؤل حول قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وهو: هل كان هذا القول يتعلق بآدم، أم بالبشر الذين كان سيتعامل معهم، أم بنسله التالي؟

والجواب أن هذا الأمر ذو صلة بالجميع، فهو يخص آدم عليه السلام من حيث إنه كان أول نبي، وعلى يده جعل البشر تابعين للشرعية، والواضح أن المسؤول عن إدارة نظام يضطر من أجل إرساء حرمة النظام لأن يسجن بعض الناس حيناً، ويقتل القتلة حيناً، ويأخذ الضرائب منهم جبراً في بعض الأحيان، وتبدو هذه الأمور فساداً في بادئ الأمر، ومن لم يدرك فوائد النظام يصاب بالحيرة ويقول: كيف يجوز أخذ مال الآخرين جبراً، وكيف يصح إلقاء الحر في السجن، وكيف يحل قتل إنسان؟ مع أنها أمور لا بد منها للدولة، فإنها لا تقدر على إرساء الأمن والاستقرار إلا بأخذ الضرائب وسجن المجرمين وقتل القاتلين، ويستحيل بدون ذلك أن يظهر للناس ما في النظام من مصالح وفوائد هي أفضل بكثير من الحرية الفردية. إذن، فاستغرب الملائكة لدى سماع الإعلان الرباني عن إقامة النظام أول مرة فقالوا: سوف يقام الآن شخص يحق له سجن الناس وقتلهم وأخذ جزء من أموالهم طوعاً وكرهاً، فسألوا الله تعالى استزادةً لعلمهم: كيف يكون هذا النظام أفضل وأكثر نفعاً؟ فأجابهم الله تعالى: لا تستطيعون استيعاب هذا

الأمر الآن، ولكن عند اكتمال هذا النظام سوف ترون أنه سوف يؤدي إلى ظهور أفراد عظام لم يُخلَقوا من قبل، وسينفَعون البشرية نفعاً لم يسبق له مثيل.

ويمكن أن يكون قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إشارة إلى مَنْ عاصر آدم من البشر وكذلك إلى الجيل القادم أيضاً، ذلك أن الشريعة هي التي تعدّ الإنسان آثماً، فالأسد يفترس الإنسان وغيره من الكائنات، وكذلك الحية تلدغ الإنسان وغيره من الكائنات، ومع ذلك لا يُعدّان من المفسدين في الأرض، إذ لا عقل لهما، وليسا بمكلفين بالشرع، ولكن إقامة آدم خليفة كان يعني أن عقل البشر قد تطور تطوراً يجعلهم مكلفين بالشريعة، فأمرهم الله على يد آدم عليه السلام ألا يقتل إنساناً إنساناً آخر من الآن فصاعداً، وإذا قُتل أحد فلا يقتلن أقاربهُ قاتله، بل عليهم الرجوع إلى نظام الدولة لأخذ ثأرهم، فمن قتل بعد ذلك أحداً عُدّ مفسداً وسافكاً دم. أما قبل إقامة نظام الشرع هذا ما كان أحد يُعدّ بسبب تصرف كهذا مفسداً ولا قاتلاً مجرماً، إذ لم يكن مكلفاً بالشرع. فثبت من هنا أن ما استنتجه الملائكة من جعل آدم خليفة كان استنتاجاً صحيحاً، أي أن البشر لم يكونوا قبل ذلك مسؤولين عن تصرفاتهم لعدم تكليفهم بالشرع، ولكنهم أصبحوا الآن مسؤولين عنها، فسوف يُعدّون مفسدين وسفاكي دماء إذا لم يُخضعوا غرائزهم الطبيعية للقانون، ومن أجل ذلك سأل الملائكة ربهم: هل يكلف البشر الآن باتباع المشيئة الإلهية مثلنا، وتُجعل غرائزهم الحيوانية الطبيعية تابعة لقانون الشريعة؟ وكان استدلال الملائكة هذا صحيحاً تماماً، لأن هذا ما كان سيحصل في الواقع، لأن البشر الذين كانوا قبل بعثة آدم يعيشون مثل الحيوانات الأخرى؛ سيصلون بعد بعثته درجة الملائكة بالعمل بقوانين شريعته بعد سماعها منه، وكانوا سيُعدّون مفسدين وقَتلةً يستوجبون العقاب إذا ما خالفوها.

ومن اللطائف العجيبة أن الإنجيل أيضاً قد قدّم هذه الفكرة، ولكنها فكرة ناقصة سببت عثراً شديداً للمسيحيين، فقد ورد: {فَإِنَّهُ حَتَّى التَّامُوسِ كَانَتْ

الْحَطِيَّةُ فِي الْعَالَمِ، عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لَا تُحَسَّبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ. (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ ٥ : ١٣). كذلك ورد {لَأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَبًا، إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضًا تَعْدٌ} (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ ٤ : ١٥). وهي الفكرة نفسها التي قدّمتها الملائكة، ولكنهم بسبب تقواهم لم يستنتجوا من هذا الإعلان الرباني أن خلق مثل هذا الإنسان لا بد أن يحول دون الرقيّ الإنساني حتمًا، إنما اكتفوا بالسؤال استزادةً للعلم. أما المسيحيون فظنوا من عند أنفسهم أن الشريعة لم تكن إلا من أجل العقاب فقط وقد أُلغيت بظهور المسيح. مع أن الإثم سَمٌّ، وليس سببُ سُمِّيَّتِهِ أن الله اعتبره إثماً، بل الحق أنه سَمٌّ بحد ذاته، ولذلك سَمَّاهُ الله إثماً، والواضح أن التحذير من السم لا يزيده سُمِّيَّةً، بل يساعد الذين يرغبون في تجنّبه وأضراره.

الطفل لا يؤاخذ على تصرفاته السيئة ليس لعدم سوئها، وإنما لأنه لا يدرك ما هي السيئة، ولكنه عندما يصبح قادراً على التمييز، فمن واجبنا أن نعلّمه ما يفعل وما لا يفعل، ومن واجبه أن يعمل بحسب هذا العلم، وإن تنبيهنا له إلى هذه الأمور لا يسمّى ظلمًا، بل هو إحسانٌ وحسنُ تربية. كذلك عندما صار البشر قادرين على التمييز، علّمهم الله تعالى ما هو صالح وما هو غير صالح لهم، وهذا لم يكن قهراً ولا غضباً، بل إحساناً ورحمة. لا شك أن الإنسان لم يُسَمِّ مفسداً ولا سافك دمٍ إلا بعد هذا العلم والاستعداد، ولكن لو لم يحذّره الله تعالى من السيئات بعد أن صار أهلاً لتجنّبها، لكان ذلك ظُلماً بلا شك.

باختصار، كان الملائكة يريدون أن يعرفوا بسؤالهم هذا هل تتغير حالة البشر بعد نزول الشرع، وهل سيُعدّون الآن مجرمين نتيجة أعمال لم يكونوا يُعدّون بسببها مجرمين من قبل؟ وكان تفكير الملائكة هذا صحيحاً تماماً، ولكن ليس لأن الله تعالى كان سيجعل البشر مجرمين جبراً بسبب بعض أعمالهم، بل لأن عقولهم كانت قد تطورت واكتملت، وكانت السيئات ستترك تأثيراً سيئاً على قلوبهم، فأراد الله تعالى أن يجعل آدم خليفةً له ويُنزل عليه وحيه، لكي يطّلع

البشرُ على ما حدث فيهم من تطورات جديدة، ولكي يعرفوا مكانتهم، فيسعدوا للغاية التي صاروا متأهلين لتحقيقها.

والجدير بالذكر أيضاً أن ما قاله الله تعالى لدى جعل آدم خليفةً كان صحيحاً أيضاً، وما قاله الملائكة كان أيضاً صحيحاً، إنما الاختلاف هو في زاوية النظر فحسب. لقد قال الله ما قال نظراً إلى أولئك الصالحاء الذين سيخرجون من نسل آدم، وأيضاً نظراً إلى ميزات النظام الذي سيقوم في الدنيا على يد آدم وأظلاله، أما الملائكة فقالوا ما قالوا بالنظر إلى الأشرار الذين كانوا سيُعدّون مجرمين ويستحقّون العقاب الإلهي بعد اكتمال العقل البشري. كان الله تعالى يرى في خلق آدم التجلي الحمدي، بينما كان الملائكة يخافون من ظهور أمثال أبي جهل نتيجة خلق آدم. لا شك أن ما استنتجته الملائكة من إقامة الخلافة كان صحيحاً، ولكن خوفهم من أن يصبح هذا النظام لعنةً للعالم كان خطأً منهم؛ ذلك لأن ميزة أي نظام تُقدّر بنتائجه الطيبة، لا برؤية تقصير بعض المقصرين في طاعته، ولو تُرك أمرٌ جيد مخافة الأخطار القادمة، فلا سبيل للرقى، وإن كل عملٍ عظيمٍ محفوفٌ بالأهوال والأخطار، فمثلاً إن الحرب التي يخوض غمارها الناسُ دفاعاً عن الوطن يُقتل ويُجرَح فيها الآلاف، بل الملايين، وإن الطلبة يرهقون أنفسهم طلباً للعلم، ولكن لا أحد يتخلى عن الدفاع عن الوطن، ولا عن تعلُّم العلم خوفاً من هذه الأخطار والأهوال. فمع أن قيام الخلافة كان سيعرّض طائفة من البشر للعقوبة ويعُدّهم مفسدين وسفّاحي دماء، إلا أنه كان من المقدر أن تصبح طائفةٌ أخرى من أحبّاء الله تعالى، وتنبوأ مكانةً أرفع من مكانة الملائكة، وكانت هذه الطائفة الناجحة هي السبب وراء إقامة هذا النظام للبشر، ولا يسع أحداً بالنظر إلى هذه الطائفة الناجحة القول أن هذا النظام قد فشل، بل الحق أن كل فرد من هذه الطائفة كان حريّاً بأن يقام من أجله هذا النظام، ومن أجل ذلك قد قال الله تعالى في بعض عباده الكُمَّل: "لولاك ما خلقت الدنيا" (ابن عساكر). هذا حديث قدسيّ ورد في حق الرسول ﷺ، كما قد تلقى طائفةٌ من الصالحاء الكمل إلهاماتٍ مماثلة له، فوجود هؤلاء الكمل بين

البشر لدليل على أن المشيئة الإلهية كانت عين الصواب والحكمة، وأن لا قيمة لمخاوف الملائكة إزاءها.

أما قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فيُطِلُّ الظن بأن قولهم كان اعتراضاً على إرادة الله تعالى، بل المراد أنهم قالوا نحن الحامدون والمقدِّسون لك يا رب، ولم نسألك من باب الاعتراض، بل لفهم حقيقة الأمر.

ويمكن أن يكون لهذه الجملة معنى آخر وهو: حيث إن الخليفة ظلُّ الله تعالى، فقد عبّر الملائكة بقولهم هذا عن خشيتهم بأنهم ربما قصَّروا في تسبيح الله وتحميده وتقديسه، فمست الحاجة إلى خلق كائن يكون ظلًّا لله تعالى. لو كان هذا هو المراد من كلام الملائكة، فأيضاً لا يُعدّ قولهم اعتراضاً، بل هو تعبيرٌ لطيفٌ عن خشية الله اللاتئة بالمقربين لديه تعالى.

ويمكن أن يكون قول الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ بمعنى أن سؤالنا ليس إلا من أجل زيادة العلم، وإلا فإننا نريد ما تريده أنت، فأنت المنزه عن كل عيب، والجامع لكل كمال. إننا نوقن بأن إرادتك لا بد تكون فيها حكمة بالغة، ولكننا نريد أن نفهم تلك الحكمة لكي نؤدي واجباتنا على أحسن وجه.

فقول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ردٌّ مجمل على سؤال الملائكة، حيث أخبرهم الله تعالى أنه مما لا شك فيه أن بعض البشر يمكن أن يتردّوا من مكانتهم الحالية بعد نزول الشرع لكونهم آثمين مغضوباً عليهم، ومع ذلك فإن لنزول الشرع منافع عظيمة لا تدركونها الآن، وسوف تعرفونها عند ظهورها.

هذا الجواب المجمل كان كافياً لإقناع المقربين أمثال الملائكة، إذ كانوا يعرفون عظمة الله عز وجل. فلما قال لهم الله تعالى إن في ذلك مصالح عظيمة لا تعلمونها ولكني أعلمها، أيقنوا بأن هذا واقع حتمًا، ومع ذلك كان الله تعالى قد قدر كشف هذا الأمر للأجيال القادمة من خلال الوحي، فردّ على الملائكة ردًّا مفصلاً كما ورد في الآيات التالية.

وهناك أمر آخر جدير بالذكر، وهو أن ما يميّز القرآن الكريم عن الكتب السماوية الأخرى أنه يذكر التسبيح مع التحميد والتقديس لله تعالى. والتسبيح يعني التنزيه عن العيوب فقط، والظاهر أن ذكر الصفات الإلهية التنزيهية فقط لا يكفي صاحب الفكر السامي والعقل الكامل، بل لا بد له من بيان الصفات الحقيقية الإيجابية إلى جانب الصفات التنزيهية. فمثلاً إذا قلنا أن ذلك الشيء ليس هكذا وهكذا، فلا شك أننا نقرّبه إلى العقل الإنساني، ولكن لا تنكشف عليه حقيقته انكشافاً تاماً، كذلك لو قلنا إن الله تعالى ليس مادةً، ولا يجوع ولا يظمأ، ولا يموت ولا ينام، ولا هو عرضة لغيرها من الرغبات الطبيعية، فلا شك أن السامع يُدرك من ذلك أن الله تعالى مختلف عن الأشياء المادية إلى حد ما، ولكن هذا الوصف لا يبيّن عظمة الله كما ينبغي، ولا يبرز حقيقة تفرّده.

وفي العصور الأولى لم يكن العقل الإنساني قد بلغ كمال النشوء بعد، فركّزت الديانات البدائية على صفتي التنزيه والتسبيح لله تعالى، وظلّ جانب بيان الحمد والتقديس ناقصاً جداً. خذوا الديانة الهندوسية مثلاً، فقد حاولت وصف الله تعالى بالصفات السلبية التنزيهية، وركّزت على قولها إنه تعالى لا يُرى، ولا يسعه مكان، وليس أمامه شيء ولا خلفه شيء، وليست له أهواء ولا رغبات، وغير ذلك من الصفات السلبية.

أما الديانة البوذية فلا يوجد في كتبها تعليم معين عن الله تعالى، غير أنها ترسم الإنسان الكامل الذي هو تمثّلٌ مادي لله تعالى كالآتي: لا يتولد في قلبه رغبة، بل هو حرٌّ من كل الأهواء. مع أن التحرر من الأهواء صفة تنزيهية سلبية فقط، وليس فيه ما يدل على الكمال.

أما الديانة اليهودية فقد ذكرت صفات الله الإيجابية إلى حد ما، ولكن ليس بقدر ما ذكرها القرآن الكريم. إن ما ورد في القرآن الكريم من صفات الله التحميدية والتقديسية من حيث الكمية والكيفية، يتضاءل أمامه كليةً ما ورد منها في الكتاب المقدس. إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ركز على صفات الله التحميدية بالإضافة إلى صفاته التسبيحية، وإنه كتاب لا يُعرّف الله تعالى

للناس بصفاته السلبية التنزيهية، بل يركّز على صفاته التحميدية والتقديسية تركيزاً خاصاً. لقد ركز القرآن على صفات الله السلبية قليلاً جداً، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١٢)، وقال: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان ٥٩)، وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص: ٤)، وقال: ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: ١٥)، وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

والحق أن كل هذه الصفات، ما عدا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لم تُذكر لبيان عظمة الله تعالى، وإنما جاءت ردّاً على العقائد الوثنية. كان المسيحيون وأمثالهم من المشركين ينسبون إلى بعض البشر صفات الله تعالى، فردّ الله عليهم بأن آلهتهم الباطلة هؤلاء كانوا يأكلون الطعام، وولّدوا من بطون أمهاتهم، وتزوجوا وأنجبوا، وكانوا عرضة للنوم والنعاس نتيجة الإرهاق، ولكن الله تعالى منزّه عن هذه الأمور كلها. فثبت من هنا أن هذه الصفات السلبية لم يذكرها القرآن الكريم للتعريف بالله تعالى بقدر ما ذكرها تفنيدياً لألوهية الآلهة الباطلة.

أما قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهو أيضاً ليس وصفاً سلبياً خالصاً، أي لم يُرد الله به القول أن من لا يكون مثل الآخرين يكون إلهاً، بل قد أراد الله بذكر هذه الصفة أن يبين أن الصفات الإيجابية التي ذكرها لتقريب ذاته تعالى إلى الأفهام، يجب ألا ينخدع بها أحد، فيظن أن تلك الصفات تُماثل في حقيقتها صفات الإنسان، وإنما ذكرها الله تعالى تقريباً لصفاته إلى العقل البشري فحسب، وإلا فصفات الله تعالى مختلفة عن صفات البشر تماماً. فمثلاً قد ذكر القرآن الكريم أن الله يتكلم، فيجب أن لا يفهم من ذلك أن الله لساناً، ولَهَاءً، وحنجرةً، وشفاهاً وأسناً يُخرج بها الصوت. كلا، إنما المراد من كلام الله تعالى أنه يوصل رسالته إلى الإنسان بإلقاء كلمات أو أفكار في قلبه. وهكذا يكون سمع الله ورؤيته أيضاً، إذ لا يعني ذلك أن الله أذنًا أو عيناً، إنما المراد أنه تعالى يعلم رغبات خلقه وصراخهم وأحوالهم. فثبت أن قول الله

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا يدلّ على صفاته السلبية بقدر ما يؤكد ويشرح صفاته الحقيقية الإيجابية.

باختصار، إن قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ إشارة إلى أن ذوي العرفان الكامل من عباد الله تعالى لا يرونه بصفاته السلبية، بل يتشرفون بعرفانه بواسطة صفاته الحقيقية الإيجابية.

كما أنه إشارة إلى أن القرآن الذي يؤكد على وجود الصفات الإلهية الإيجابية الحقيقية سيكون سبباً لخلق مظاهر ملائكية من الناس، يركّزون على التحميد والتقديس بالإضافة إلى التسبيح، وأنهم سيقربون وجود البارئ إلى العباد من خلال صفاته الإيجابية المتعلقة بالتجلي الإلهي، ولن يقتصر اهتمامهم على ذكر ومناقشة صفاته السلبية التي تجعله تعالى كما لو أنه محتفٍ متوارٍ ومنقطعٍ عن عباده سبحانه تعالى.

والواقع أن التعلق الكامل بالله عز وجل لا يستأتي إلا بالتفكير في صفاته الإيجابية والانتفاع بها، والذي يقوم بتسبيح الله فقط فكأنما يقرّ بأن الله عظيمٌ سامٌ فحسب؛ أما الذي يسبّح بحمد الله تعالى فإنه يؤكد أنه إله حيّ فعّال، وينتفع بصفاته تعالى وينفع بها الآخرين أيضاً.

وهناك أمرٌ لطيفٌ جديرٌ بالتذكر هنا، وهو أن الفعل ﴿سَبَّحَ﴾ قد ورد في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعاً، وفي ثمانية منها ورد بعده قول الله تعالى ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أو ﴿بِحَمْدِهِ﴾، وذلك في سور الحجر، النصر، غافر، ق، الطور، السجدة. أما المواضع التسعة التي ورد فيها الفعل ﴿سَبَّحَ﴾ بدون ذكر الحمد فهي كالتالي: قال الله تعالى في سورة طه ﴿وَسَبَّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (طه ١٣١)، والفعل ﴿سَبَّحَ﴾ الوارد هنا في آخر الآية إنما هو تكرارٌ للموضوع السابق الوارد في بدايتها، وهو ما نقصده، والأمرُ بتحميد الله مشمول في الأمر بالتسبيح المذكور في آخر الآية.

أما الموضعان الثاني والثالث اللذان ورد فيهما الفعل ﴿سَبَّحْ﴾ بدون الحمد، فهما في سورتي "ق" و"الطور"، والحمد مع التسبيح مشمول في الموضعين لنفس السبب المذكور آنفاً.

والآية الرابعة التي ورد فيها الفعل ﴿سَبَّحْ﴾ بدون الحمد، هي في سورة الإنسان التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٦-٢٧). لقد أمر الله تعالى هنا بالتسبيح بعد ذكر اسم الرب في السجود الذي نقول فيه "سبحان ربي الأعلى"، إذن فهنا أيضاً لم نؤمر بالتسبيح وحده بل بالتسبيح مع التحميد، لأن صفة "الرب" ليست صفة تنزيهية، بل هي إيجابية، وعندما يقول أحد إن ربي الأعلى بريء من كل عيب ونقصان، فلا يحمد به بأنه منزّه من العيب، بل يحمد به بأنه الرب الأعلى، وهذا ليس تسبيحاً فقط بل هو تسبيح وتحميد معاً.

والآيتان السادسة والسابعة هما في سورتي الواقعة والحاقة، حيث ورد قول الله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ في سورة الواقعة مرتين، ومرة في سورة الحاقة ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، ورغم أن لفظ الحمد لم يرد في هذه الأماكن الثلاثة، إلا أننا أمرنا بتسبيح الله باسم ربنا العظيم، أي أن نقول "سبحان ربي العظيم"، وهو ما يردده المسلمون في الركوع في الصلاة، وهذا المفهوم يتضمن الحمد أيضاً وليس التسبيح فقط.

والآية الثامنة هي قول الله تعالى لذكرى عليها السلام في سورة آل عمران ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٤٢)، وهنا أيضاً جاء الأمر بالتسبيح مع ذكر الرب، وهذا ليس تسبيحاً فقط بل يتضمن معنى الحمد أيضاً.

والآية التاسعة هي قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ١٢)، وهنا ورد التسبيح بدون الحمد، ولكنه ليس بأمر إلهي، بل هو ما أمر به ذكرى الناس، وربما ترك ذكر الحمد هنا اختصاراً، لأن أمر الله تعالى بالتسبيح في كل المواضع الأخرى يشمل التحميد

أيضاً، رغم أن لفظ الرب مذكور في الآية التي سبقتها مباشرة، فأمر الله بالتحميد بعد ذكر اسم الرب أيضاً.

باختصار قد خاطب الله المسلمين في القرآن الكريم في خمس عشرة آية، وكان الأمر في كل مكان بالتسبيح مع التحميد، وفي ذلك إشارة للمسلمين ألا يركزوا على صفات الله التنزيهية السلبية وحدها، لأن ذكرها فقط لا يساعد على الانتفاع من صفات الله تعالى، بل يجب ذكر الحمد مع التسبيح للانتفاع من الصفات الإلهية الدالة على إيصال الخير للآخرين.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ" (صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور). ومفهوم هذا الحديث أيضاً أن الذي يذكر صفات الله الإيجابية يسعى للاتصاف بها ويتصبّع بصبغتها بحسب نطقه ووسعه، فيستحق أعظم الجوائز من عند الله تعالى.

خلاصة الكلام أن الله عز وجل قد علّم أمة الإسلام بإيراد قول الملائكة هذا درساً عظيماً وقال: لا تكنفوا بذكر الله تعالى بالصفات السلبية فقط، بل اذكروا الله تعالى بصفاته الإيجابية أيضاً، كي تستفيدوا منها وتكونوا جواباً عملياً وبرهاناً فعلياً على تساؤل الملائكة: بأننا نقوم بتسيحك وتحميدك فما الحاجة إلى خلق نظام البشر، لأنكم أيها المسلمون بتسيحك وتحميدكم هذا ستقدمون برهاناً عملياً على ضرورة خلق البشر، وتكونون شهادة حاسمة على كمال حكمة الله تعالى.

بعض مفاهيم هذه الآية على ضوء آيات أخرى

أبين الآن بعض مفاهيم هذه الآية على ضوء آيات أخرى من القرآن الكريم:
أولاً: أتحدث عن آدم عليه السلام: إن آدم هو الحلقة الأولى من سلسلة النظام الإنساني، وهو من بدأ الله تعالى به في إنزال الوحي للناس حسبما ورد في القرآن الكريم.

وأود أن أوضح في البداية أن آدم المذكور هنا ليس أول إنسان بدأ الله به خلق البشر، كما ليس صحيحاً أن الله تعالى خلق إنساناً أي آدم دفعةً واحدة، ثم خلق زوجته من ضلعه، ثم خلق منهما الجنس البشري. هذه الفكرة لا يصدّقها القرآن الكريم أبداً، بل هي من الكتاب المقدس وغيره من الكتب، ونُسبت إلى الإسلام خطأً.

قد وردت قصة آدم في الكتاب المقدس كآلآتي:

{وقال الله: «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ». فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ... وَغَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ... وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعُ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ»... فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرَأَةٍ أُخِذْتُ»}. (التكوين، الإصحاح ١ و٢).

وذكر الهندوس حقيقة خلق الجنس البشري كآلآتي:

ورد في كتاب "ريغ فيدا":

"مَنْ الَّذِي يَعْلَمُ يَقِينًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبِينَ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْكَوْنُ وَكَيْفَ خُلِقَ؟ لِأَنَّ الْأَلْهَةَ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ ظَهَرَ الْكَوْنُ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ؟ أَيْتَهَا الْحَبِيبَةُ، السَّمَاءُ، هَلْ أَنَا أَعْلَمُ ذَلِكَ - وَأَنَا مَدِيرُ هَذَا الْكَوْنِ - أَمْ لَا أَعْلَمُ." (ريغ فيدا، باب ١٠ فقرة ١٢٩)

بعد أن ذكر كتاب "ريغ فيدا" أن لا أحد يعلم ببداية الكون، شرح بنفسه خلق الكون وخلق الجنس البشري حيث ورد فيه:

"مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْجَمِيعُ بِالْقَاءِ السَّمْنِ عَلَى النَّارِ، خُلِقَ اللَّبَنُ الرَّائِبُ وَالسَّمْنُ وَتِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَعِيشُ بِالْهَوَاءِ وَتَعِيشُ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْعِمْرَانِ. مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْجَمِيعُ بِالْقَاءِ السَّمْنِ عَلَى النَّارِ خُلِقَ (رِيغٌ فِيدَا) وَ(أَوْزَانٌ بِحُورٍ سَامٌ فِيدَا) وَ(يَجْرُ فِيدَا).

عندما قُسم الكائن الأعظم، فكيف عُنِيَ بِهِ، وَمِنْ أَيِّ أَجْزَائِهِ جُعِلَ فَمُهُ، وَمِنْ أَيِّ أَجْزَائِهِ صَارَتْ سَوَاعِدُهُ وَأَفْخَاذُهُ وَأَقْدَامُهُ؟ مَا هُوَ فَمُهُ؟ وَمَا هِيَ سَوَاعِدُهُ؟ وَمَا هِيَ أَفْخَاذُهُ؟ وَمَا هِيَ أَقْدَامُهُ؟

البرهمن^١ خُلِقَ مِنْ فَمِهِ، وَالْخَشْتَرِي مِنْ سَاعِدِهِ، وَالشُّودَرُ مِنْ قَدَمِهِ، وَالْقَمَرُ مِنْ قَلْبِهِ، وَالشَّمْسُ مِنْ عَيْنِهِ، وَالْإِنْدَرُ مِنْ فَمِهِ، وَالْهَوَاءُ مِنَ النَّارِ وَالْكِتَابُ". (رِيغ فِيدَا، بَاب ١٠ فقرة ٩٠).

وهناك كتاب هندوسيٌّ هَامٌّ اسْمُهُ (بَرَاهْدَارَنِيكَ أَوْ بَانِيشَاد)، وَهُوَ يَحْطِى بِمَكَانَةِ كَبِيرَةٍ عِنْدَ الْفَرَقَتَيْنِ الْهِنْدُوسِيَّتَيْنِ "سَنَاتِن دِهْرَم" وَ"الْأَرِيَا"، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ شَرْحُ بَيَانِ "الْفِيدَا" الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ كَالآتِي:

^١ تقسم الديانة الهندوسية أتباعها على أربع طبقات: ١ - البراهمة: وهم الذين خلَقَهم الإله "براهما" من فمه: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرته.

٢ - الخشتري: وهم الذين خلَقَهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع.

٣ - الوَيْش: وهم الذين خلَقَهم الإله من فخذيه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية.

٤ - الشُّودَر: وهم الذين خلَقَهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعملُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتحنون المهن الحقيرة والقدرة. (المترجم)

"لم يجد (أي الإله) الراحة وهو وحيد، ولذلك لا أحد في الدنيا يجد الراحة وهو وحيد، فأراد (أي الإله) أن يكون له رفيق، فتضخّم حتى صار بحجم رجل وامرأة معاً، ثم شطر (الإله أو الروح) جسمه التضخم شطرين، فصار أحدها رجلاً والآخر امرأة، ثم وُلد منهما باقي البشر."

ثم جاء تفصيل خلق المخلوقات الأخرى كالآتي:

"رأت المرأة أن الإله خلّقها من جسمه ثم باشرها، فاخفتت في مكان حزناً وصارت بقرة، فصار الرجل ثوراً وباشر البقرة، ومن هنا خلّق نسل البقر. وهكذا ظلت المرأة تتشكل بأشكال الحيوانات الأخرى خجلاً، وظل الإله يتشكل بالحيوان الذكر من الجنس الذي تشكلت به ويباشرها، وهكذا وُلدت كل الحيوانات والطيور وغيرها." (براهدارنيك أوبانيشاد، باب ١ برهم ٤ فقرات ١ إلى ٤)

أما الكتاب الهندوسي (منوسمرتي) فلا يذكر خلق الحيوانات، ولكنه يسلّم بطريقة الخلق هذه. (منوسمرتي، باب ١ فقرة ٣٢)

وورد في مصدر هندوسي آخر: "أحب الراعي (أي الإله) أن يكون له مخلوق، فقام بالمجاهدة والعبادة، ثم خلّق زوجين، المادة والروح، لكي يخلقا لي باجتماعهما مخلوقات شتى." (برشن أوبانيشاد، باب ١ فقرة ٣ و ٤) وورد في مصدر هندوسي آخر:

"لا شك أنه لم يكن في البداية إلا الإله وحده، ولم يكن هناك ما يغمض العينين، ففكر أن يخلق أجرام الكون، فخلّق السماوات والأرض... فعندها رأى أن هذه هي الناس، ففكر أن يخلق من يعيشون فيها، فأخرج الرجل من المياه وخلّقه، ثم أحماه إحماءً، وعندما حمي انشقّ فمه كما تنشق البيضة وظهر من فمه الكلام، ومن الكلام النار، وافتتح المنخران وخرج منهما النفس، وخرج منه الهواء، وانفتحت العينان وخلق فيهما البصر، وخلّقت منه الشمس، وانفتحت الأذنان وخلّقت منهما قوّة السمع، ومن قوّة السمع ظهر الجلد من أطراف الجسم، ومنه خلّق الشعر الذي خلّقت منه النباتات والعقاقير، وانفتحت القلب

وخلقت منه القوة الفكرية، وخلق من الفؤاد القمر، وانفتحت السرة فخلقت منها القوة الهاضمة، التي خلق منها الموت، وانفتح العضو الخاص، فخرجت منه البذرة، ومن البذرة خلق الماء." (آيتري أوبانيشاد، باب ١ فقرة ١).

وورد في مصدر هندوسي آخر:

"قال برهما: لقد قسمت نفسي جزئين بعدما حثني على ذلك "شكر" المحيط بالقلوب. يا مُني، لقد صرتُ ذا صورتين، فصار نصفي امرأةً ونصفي الآخر رجلاً. وخلق من الرجل والمرأة زوجان متصفان بكل الصفات، وخلق منهما "منو" ابنٌ محبٌ الخير نافع الخلق خالق الكون، وامرأةٌ عابدةٌ صاحبة الجمال الحقيقي وسميت "شتروبا"، ثم تزوجت "شتروبا" الجميلة من "منو"، وباجتماعهما بدأ الجنس البشري." (شِو بُران رُدُر، كتاب ١ باب ١ فقرة ١٦) وبغض النظر عما ورد في هذه العبارات من تفاصيل، فإنه يتضح منها حتمًا أن الديانة الهندوسية ترى أن زوجين خلق في البداية بانشطار الإله "إيشور" شطرين عند البعض، أو بانقسام الإله "براهما" عند الآخرين، ومنه انتشر الجنس البشري.

أنا أعترف أن هذه العبارات مليئة بالاستعارات، حيث ورد فيها أمور عن خلق الإنسان بلغة المجاز، وقد يكون الكتاب المتأخرون ألحقوا بها زيادات بناءً على عقولهم المتقاصرة عن فهم الوحي الإلهي الابتدائي، ومع ذلك لا يسعنا إنكار أنه يوجد هناك تشابه بين مختلف القصص الواردة في هذه الكتب الهندوسية، فهي تتفق في خطوطها العامة. إني لا أريد هنا إلقاء نظرة ناقدة على هذه البيانات إذ ليس مكانها في تفسير القرآن الكريم، وإنما أركز على بيان أن مختلف الكتب الهندوسية الموثوق بها متفقة على أن الجنس البشري بدأ بزوجين خلقاً من وجود الله أو من وجود الآلهة.

وتوجد في الأديان القديمة السابقة للعصر التاريخي مثل الديانة البابلية روايات يتضح منها أن الإنسان خلق من الآلهة. فمثلاً تكشف البحوث التي قاموا بها عن الديانة البابلية أن أهل بابل كانوا يعتقدون أن الإنسان خلق من الآلهة.

يتضح من الآثار البابلية القديمة أن البابليين كانوا يعتقدون أنه كان هناك في البداية إلهان فقط: "أبسو" و"ثيامة"، وكان أبسو إله المياه العذبة، وكانت ثيامة إلهة المياه المالحة، وبامتزاج المياه المالحة هذه خلقت آلهة السماوات والأرض الذين تمردوا على أبسو وثيامة، وقرروا خلق كون منظم. وفي هذه الحرب انهزم الإله "إي آ" وإله السماوات "آنو" ولاذا بالفرار، ولكن ابن "إي آ" وكان يدعى "مردوك" خرج لمحاربة "كنغو" زوج "ثيامة" والذي كان قائد جنودها، ثم بعد ذلك حارب ثيامة نفسها، وأخيراً هزم آلهة الظلمة كلهم وربطهم بالكواكب، وجعل جسد ثيامة جزئين، وخلق بأحدهما السماء وبالأخر سيجناً لأبسو، وخلق الإنسان من دم كنگو زوج ثيامة.

وقام "دارون" من بين علماء وفلاسفة العصر الحديث، بتقديم النظرية القائلة بنشأة جرثومة الحياة على الأرض، التي أخذت تنشأ وتنمو بعد عدد من التطورات المتتابعة عبر زمن طويل إلى أن وصلت إلى طور الحيوانات المتنوعة، وأخيراً وصلت إلى نوع أشبه ما يكون بالقرود، ومن هذا النوع الحيواني تطور وجود الإنسان. فطبقاً لهذه النظرية، كان خلق الإنسان الحلقة الأخيرة من نشوء بذرة الحياة، ولم يخرج إلى الحياة دفعة واحدة.

ويرى بعض الفلاسفة الألمان والفرنسيين المعاصرين أن وجود الله هو الذي نشأ وتطور إلى وجود الإنسان، أو بعبارة أخرى: إن الناموس الأرلي هو الذي تحول إلى صورة الإنسان عبر تطورات عديدة، وأن الإنسان آخر حلقة من هذا التطور المطرد. وكان هؤلاء حاولوا صياغة المعتقدات الهندوسية والبابلية القديمة في قالب العلوم الطبيعية.

أما القرآن الكريم فقد اتبع لكشف أسرار خلق الكون أسلوباً بديعاً ومختلفاً عن سائر هذه الآراء والنظريات. يتبين من القرآن الكريم أن سنة الارتقاء والتطور جارية في العالمين الروحاني والمادي دون مرأى، وأن العالم المادي قد بلغ أوج كماله عبر تطورات ارتقائية طويلة، وكذلك الحال بالنسبة للعالم الروحاني، غير أن القرآن الكريم لا يسلم بأن الإنسان كان آخر حلقة من

سلسلة الارتقاء والتطور في الحيوانات المختلفة، بل يقول إن التطور الإنساني مستقل بنفسه ومنفصل عن غيره من أشكال التطورات، وأنه ليس مجرد نتاج حادث وقع في تطور الحيوانات الأخرى صدفةً. ويتبين هذا التعليم القرآني في قول الله على لسان نوح عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: ١٤ - ١٩).

يتضح من هذه الآيات ما يلي:

١. تدل كلمة ﴿أطواراً﴾ على أن خلق الإنسان قطع قبل اكتماله مراحل وحدودا وأشكالا عديدة، لأن الطور في العربية يعني التقدير والهيئة والحال (الأقرب). فالمراد من ﴿أطواراً﴾ أن خلق الإنسان مرّ بمراحل عديدة وتطور في هيئات مختلفة. فنظراً إلى معنى التقدير يعني أن قدرات الإنسان في كل مرحلة من مراحل خلقه كانت مميزة ومختلفة عما كانت عليه قبلها. ونظراً إلى معنى الهيئة والحال فالمراد أن أشكاله وصوره في كل مرحلة من مراحل خلقه كانت مختلفة عما كانت عليه من قبل.

٢. أنه كانت هناك مرحلة من مراحل خلق الإنسان سبقت خلق السماوات والأرض، ذلك أن الله تعالى قد قسم خلق الإنسان هنا قسمين: أحدهما كان قبل خلق السماوات والأرض، والآخر كان بعد خلقهما. وهذا يعني أن هناك مرحلة من مراحل خلق الإنسان قد بدأت حين لم تكن السماوات والأرض بشكلها الحالي، مما يعني أن جرثومة الحياة الإنسانية كانت موجودة بشكل ما حتى عندما كانت السماوات والأرض في صورة دخان ولم تتكثّر أو تأخذ صورة أجرام بعد.

٣. أن المادة الدخانية التي تكوّن منها الكون عندما تكثّلت وتشكّلت على هيئة أجرام السماوات والأرض، بدأت مرحلة جديدة من خلق الإنسان، فبرز وجوده من بطن الأرض ضعيفا وغير قادر على التحرك شأن النبات الضعيف

الذي لا يتحرك ويستمدّ غذاءه من رطوبتها، ثم أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى صورة كائن مستقل متحرك.

٤. أن ما يجري على الإنسان بعد موته لدليل على صدق ما يقرره القرآن بهذا الشأن، فالجسد يتحول إلى تراب، الأمر الذي يشهد على أن بدء الخلق الإنساني كان من التراب، وإلا لما تحول بعد الموت تراباً. فتحول أجزائه بعد الموت إلى تراب دليل على أصله الذي خلق منه. لكن موت الإنسان وتحوله إلى تراب لا يعني أن جميع أجزائه تفتى وتفقد الحياة، بل قد قدر الله تعالى أن حالته المتطورة التي نالها بعد خلقه من التراب تظل باقية مستقلة، وسيعيدها الله ويظهرها في وقت من الأوقات، وسينال حياة جديدة يحاسب فيها على أعماله. ومجمل القول إن خلق الإنسان بحسب القرآن الكريم لم يكن دفعة واحدة ولا في مرحلة واحدة، بل إنه تعالى أسس بنيان خلق الإنسان منذ أن بدأ خلق نظام الكون، ثم أنبته من الأرض نباتاً وطوره وأعطاه الصورة الإنسانية ووهب له العقل والشعور بالتدريج عبر عصور وأزمان.

ويذكر القرآن الكريم حالة أخرى للإنسان سابقة للمذكورة آنفاً، وهي التي لم يوجد فيها حتى ولا جرثومته البدائية أو ذراته الأولى، فيقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ (مریم: ٦٨). أي ألا يفكر الإنسان أنه لم يكن له أي وجود قبل الوجود الذي منحناه قبل مرحلته الحيوانية، أي لم تكن هناك تلك الجرثومة الحياتية التي تطور منها الإنسان على مراحل وأخذ صورته هذه. لقد بين الله هنا أنه تعالى ليس مُركباً لشيء من أجزاء المادة فحسب، بل هو خالقها أيضاً، وقد كان هناك زمان لم يكن فيه للمادة وجود، ثم خلقها الله تعالى وطورها حتى خلق منها الإنسان أطواراً كما ذكر آنفاً في سورة نوح. لقد شرح الله تعالى مرحلتي خلق الإنسان المذكورتين في سورة نوح أكثر في الآيات التالية:

١- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (فاطر: ١٢)، أي قد جاء على الإنسان زمان حين كانت جرثومة حياته خليطة بالتراب.

٢- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: ٨)، أي أن الله هو الذي زود كل شيء خلقه بقوى وقدرات عالية وملائمة، وبدأ خلق الإنسان من تراب مُزج بالماء، أي أنه تعالى مزج التراب الذي كانت فيه جرثومة حياة الإنسان بالماء ليهيئ أسباب نمو هذه الجرثومة الإنسانية. وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)، لقد تبين من هذه الآية علاقة الماء بالحياة ونموها. فذكر خلق الإنسان من الطين بعد المرحلة الترابية يتضمن الإشارة إلى أن مرحلة نمو جرثومة الحياة الإنسانية بدأت بعد امتزاج الماء بالتراب، وحصول قوة النمو والنشوء فيها.

والدليل على أن مرحلة الطين هنا لا تعني مرحلة النطفة أن الله تعالى قال في سورة السجدة ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: ٨)، ثم أعقبه بقوله ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (السجدة: ٩)، أي أن الإنسان لما تطور من المرحلة الطينية بدأ نسله من ماء مهين أي النطفة. لقد تبين من هنا أن المرحلة التي بدأ فيها الإنسان في النشوء والنماء هي غير المرحلة التي بدأ خلقه فيها من النطفة. إن المرحلة الطينية كانت سابقة لمرحلة ولادة الإنسان من نطفة. بعد اكتمال المرحلة الطينية بدأت مرحلة أخرى من تطور الخلق الإنساني، وهي الولادة من نطفة، وانتهت مرحلة الخلق المفرد.

كما يتضح من هذه الآية أيضاً أن الإنسان عند القرآن الكريم لم يتطور من حيوانات أخرى، بل إن الجرثومة الإنسانية قد خلقت منذ البداية مستقلة بذاتها لتكون بصورة الإنسان، لأن الله تعالى يقول هنا إنه بعد أن صار بشراً سوياً بدأ خلق ذريته من نطفة، وهذا يعني أنه كان قد أصبح بشراً عندما بدأ نسله يولد من نطفة. بينما التسليم بنظرية "دارون" عن خلق الإنسان يستلزم القول بأن الإنسان قبل أن يبلغ مبلغ البشر كان يتناسل من نطفة في صورة حيوانات أخرى.

ترسم لنا آية أخرى حالة الإنسان قبل مرحلة حياته الحيوانية هذه كالآتي: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢)، أي لا شك أنه قد أتت على الإنسان مرحلة لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، أي أنه كان إنساناً ولكنه لم يكن قد نشأت فيه بعد القدرة الفكرية، ولم يكن البشر مطلعين على أحوال بعضهم البعض، ولم يكن يذكر بعضهم بعضاً، ذلك لأن ذكر الآخر ومعرفته يتعلق بالدماغ، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن البشر لم يكن بعضهم يعرف البعض في تلك المرحلة لعدم نماء أدمغتهم بعد، أي أن الإنسان لم يكن قد صار حيواناً عندها، غير أنه كان مزوداً بالقوة الكامنة للتطور وبلوغ الكمال.

ثم تقول الآية التالية من سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ (الإنسان: ٣)، أي أننا بدّلناه بعد ذلك كائناً ذا حياة، وبدأ يتناسل من نطفة أمشاج. والأمشاج جمع المشج أي المختلط (أقرب الموارد)، فالنطفة الأمشاج تعني: الخليطة من قوى متنوعة. وكون نطفة الإنسان أمشاجاً يميزها عن نطفة سائر الحيوانات؛ أعني أن نطف الحيوانات الأخرى ليست بأمشاج، أي أنها ليست خليطة من قوى مختلفة، ومن أجل ذلك لا تكون سائر الحيوانات قادرة على اختيار طرق مختلفة، أما البشر الذين قد خلّقوا من نطفة أمشاج فقواهم وأمزجتهم مختلفة ومتنوعة، وهم قادرون على اختيار الطرق المختلفة. ولأن الحيوانات الأخرى مخلوقة من نطفة غير أمشاج فهي تتبع الطرق التي يتبعها آباؤها. فالقرد مثلاً عنده اليوم أيضاً نفس القوى التي كانت عنده قبل آلاف السنين، وكذلك الأسد عنده نفس القوى الدماغية التي كانت عنده قبل آلاف السنين، ولكن ذرية الإنسان المخلوق من ﴿نطفة أمشاج﴾ قادرة على الاختلاف عن آبائها في أفعالها وقواها، ومستمرة في التقدم في العلوم والفنون. وكأن قوله تعالى ﴿نطفة أمشاج﴾ إشارة إلى كون الإنسان حيواناً ناطقاً، حيث أخبر الله تعالى أن نطفة الإنسان منذ أن أخذ القالب الحيواني كانت مختلفة عن نطف سائر الحيوانات، أي أنه كان مزوداً بكفاءة الرقي والتقدم بلا حدود.

إن هذه الآية أيضًا دليلٌ بَيِّنٌ على أن خلق الإنسان كان منذ بدايته مختلفًا ومنفصلًا ومستقلًا عن خلق الحيوانات الأخرى، لأنه منذ بداية خلقه بالتناسل كان يُخلق من نطفة أمشاج، أما الحيوانات الأخرى فكانت تتناسل من نطفة غير أمشاج.

ومع أن الإنسان خُلِقَ منذ البداية من نطفة أمشاج، غير أنه كان في البداية مزودًا بخصائص نطفة الأمشاج بالقوة فقط لا بالفعل، إذ ظهرت هذه الخصائص بالفعل تدريجيًا بعد تطوره، حيث قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٣)، أي بعد خلق الإنسان من نطفة أمشاج جاءت عليه مرحلة صار فيها إنسانًا بالفعل بعد أن كان إنسانًا بالقوة، حيث أصبح سميعًا بصيرًا.

والسميع والبصير ليس معناهما السامع والباصر فقط، بل معناهما كثير السمع وكثير البصر، وهما ميزتان تختصان بالإنسان دون سائر الحيوانات. الحيوان يسمع ويبصر، ولكنه ليس سميعًا ولا بصيرًا، لأن سمعه وبصره ناقصان، وإنما يسمى السميع والبصير مَنْ بلغ سمعه وبصره درجة الكمال، فمثلا وصف الله تعالى نفسه بهاتين الصفتين في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٩). وقد سُمي الإنسان في القرآن الكريم سميعًا بصيرًا لأنه يسمع صوت الله ويرى مشاهد قدرة الله، ومن أجل ذلك قد سُمي القرآن الكريم قومًا ينكرون سماع كلام الله ويُعرضون عن رؤية آيات قدرة الله عُميةً وصُمًا حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ * مثلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: ٢٤-٢٥). فثبت أن القرآن الكريم لا يعدّ سميعًا وبصيرًا إلا الفريق الذي يسمع كلام الله ويرى آيات قدرته تعالى.

وعليه فقول الله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يعني أن الإنسان قد أتت عليه مرحلة ظهور خصائص النطفة الأمشاج فيه بالفعل، التي كان مزودًا بها بالقوة. وهذا هو التغير الذي كان آدم عليه السلام أولَ مظهرٍ كاملٍ له. فثبت أن هذه الآيات

لا تعني النفي المطلق لوجود البشر قبل آدم، بل تعني أن الجنس البشري كان موجوداً قبله، لأنهم كانوا قد خلُقوا من نطفة أمشاج، ولكن لم يكن أحد منهم متّصفاً بهاتين الصفتين قبل آدم ﷺ، أي أن قواهم لم تكن قد تطورت تطوّراً يؤهّلهم لسماع كلام الله تعالى ورؤية آيات قدرته، فلذلك لم ينزل إليهم الوحي السماوي، ولم يُظهر الله لهم آياته الخاصة بالشرع، ولكن لما تطور الإنسان أكثر حتى صار ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ظهر آدم الذي كان أول مظهر كامل للسمع والبصر، فاصطفاه الله تعالى لكلامه وشرفه بوحيه، وبدأت مرحلة الرقي الروحاني، وكان الإنسان صار مستحقاً لتلك الجنة التي خلُق من أجلها. لا شك أن البشر قبل آدم كانوا مزودين بالكفاءات الإنسانية بالقوة، ولكنهم لم يكونوا أهلاً لإظهارها بالفعل، ولم يكن إدراكهم العقلي مميزاً عن الحيوانات الأخرى كثيراً، ولذلك لم يكلفوا بالشرع عندها.

لقد تبين مما سبق من الآيات أن خلق البشر، كما يقدّمه القرآن الكريم، لم يكن دفعة واحدة، ولم يبدأ بخلق آدم ﷺ، بل كان آدم أول مظهر لحالة الكمال البشري التي استحق بها أن يُدعى إنساناً حقاً جديراً بحمل الشريعة. وعليه جاز القول أن آدم كان أبا البشر من الناحية الروحية، إذ كان بدايةً للعالم الروحاني، وأول إنسان تشرف بالوحي الإلهي، ولكنه ليس بالضرورة أباً لهؤلاء البشر كلهم من الناحية الجسمية، بل من الممكن أن يوجد حينذاك بعض البشر الآخرين من نسل أناس آخرين موجودين في زمن آدم، فمنهم من آمن بآدم ﷺ ومنهم من لم يؤمن به في زمنه، ولكنهم ظلوا يؤمنون به فيما بعد بالتدريج.

أما الآن فأبين أننا لا نجد في قصة آدم المذكورة في القرآن الكريم أي إشارة إلى أن النوع الإنساني بدأ بآدم ﷺ، أو أنه لم يكن في زمنه غيره من البشر.

لقد سرد القرآن الكريم قصة آدم ﷺ بذكر اسمه في الآيات التالية: **أَوَلَهَا آيَةُ قِيدِ التَّفْسِيرِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾.** والظاهر من كلامها أنها لا تتحدث أبداً عن خلق البشر، وإنما

تقول اذكروا عندما قال ربكم للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. وهذه الكلمات نفسها تؤكد وجود قوم آخرين مع آدم من جنسه، فليس الحديث هنا عن خلق آدم وإنما عن اصطفاء خليفة من البشر، والواضح أن اصطفاء خليفة لا يعني أبداً أنه لم يكن قبل آدم أي بشر، وإنما يعني فقط أنه لم يكن بين البشر خليفة الله عندها. لقد سمي الله داود عليه السلام خليفة في القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٧)، والظاهر من هذه الآية أنما المراد من جعل داود خليفة أن يحكم الناس بالعدل، ويجعل عقولهم تابعة لهدي الوحي الإلهي. وهذا هو المراد نفسه من الإعلان الرباني عن جعل آدم خليفة. لم يكن المراد من هذا أنه تعالى خلق آدم آنذاك، وإنما معناه أنه عند بلوغ آدم عليه السلام النضج الروحاني أعلن الله تعالى أنه جعله مهبط وحيه. وتأكيداً للأمر نفسه قال الله تعالى في الآية التالية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣٢) أي أن الله تعالى بعد أن أخبر الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة أنزل وحيه على آدم وعلمه الأسماء كلها. سوف ألقى الضوء على معنى تعليم الأسماء كلها لدى تفسير الآية التالية، أما الآن فأريد التنبيه إلى أن الآية قيد التفسير تبين أن آدم كان موجوداً لدى الإعلان الرباني عن جعل خليفة في الأرض، لأن الله تعالى لم يقل أنه خلق آدم بعد هذا الإعلان، بل قال إنه أنزل وحيه على آدم بعد ذلك، مما يبين جلياً أن آدم قد خلق قبل ذلك.

أما الآية الثانية التي نتحدث عن آدم فهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (الأعراف: ١٢)، أي أننا خلقناكم، ثم زودناكم بأفضل القوى والكفاءات، ثم قلنا للملائكة أطيعوا آدم. لقد فسرت قوله تعالى ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بأننا زودناكم بأفضل القوى والكفاءات، وهذا المعنى يتفق مع اللغة، إذ كتب صاحب المفردات: "الصورة... ضربان؛ أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس والحمار بالمعينة، والثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية والمعاني

التي خُصَّ بها شيءٌ بشيءٍ". لقد تبين من هنا أن الصورة تطلق في العربية على الشكل الظاهري وعلى الشكل المعنوي أيضاً، أي على القوى والكفاءات، وبهذا المعنى نفسه قد قال الله تعالى ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي زودناكم بأفضل القوى والكفاءات.

ثم بعد ذلك قال الله تعالى ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهذا يوضح بجلاء أن الله تعالى لم يأمر الملائكة بطاعة آدم بعد خلق الإنسان فوراً، إنما أمرهم بذلك بعد أن بلغ الإنسان كمالَ كفاءاته الروحانية تدريجياً.

كما تؤكد الآية المذكورة آنفاً وجودَ كثير من البشر قبل أن يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم، أو بتعبير آخر قبل أن يجعل الله آدم مُطاعاً أو خليفةً، ذلك أن الله تعالى لم يقل هنا أننا بعد خلق آدم وإعطائه الصورة الروحانية أمرنا الملائكة بالسجود له، بل استخدم هنا صيغة الجمع للمخاطب وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، ثم بعد ذلك قال ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. فكلمات خلقناكم وصورناكم تدل صراحة أن آدم لم يكن أول البشر، بل كان كثير من البشر موجودين في عصره وكانوا قد أعطوا الصور الروحانية، وكان آدم أكملهم، فاختره الله تعالى من بينهم للخلافة وأمر الملائكة بطاعته.

والآية الثالثة التي تذكر آدم هي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٦)، أي أننا قد آتينا آدم أيضاً من قبل تعليمات معينة غير أنه نسي ذات مرة، ولكننا رأينا أنه لم يفعل ذلك قصداً وإرادة.

وهذه الآية أيضاً لا تذكر مطلقاً أن آدم خُلِقَ قبل سائر البشر كلهم، وإنما تذكر أن الله تعالى وهب لآدم أيضاً النبوة.

بالإضافة إلى هذه الآيات، قد ورد ذكر آدم في موضعين في سورة آل عمران، وفي الموضع الأول (الآية رقم ٣٥) ذكر الله مكانة آدم واصطفاه له، أما في الموضع الثاني (الآية رقم ٦١) فذكر الله تعالى المشابهة بين آدم والمسيح عليهما السلام، ولا ذكر في الموضعين أبداً أن الله تعالى جعل آدم أول البشر.

هذا، وقد ورد ذكر سجود الملائكة في آيات أخرى أيضاً بدون ذكر اسم آدم، ويستدل البعض من هذه الآيات أن آدم كان أول البشر، ولكن لا تدل هذه الآيات على ما ذهبوا إليه. وفيما يلي هذه الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٧-٣٠).

وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧٢-٧٣).

قد يقع البعض في شبهة بقراءة هاتين الآيتين فيقول قد أمر الله تعالى هنا الملائكة بالسجود بذكر خلق البشر، بينما أمر في آيات أخرى الملائكة بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه، فهذا يعني أن المراد من البشر هنا هو آدم، وعليه فآدم هو أول البشر.

ولكن هاتين الآيتين لا تذكران خلق آدم، وإنما تذكران خلق بشر فقط، وليس هناك أي مانع من أن تفسر هاتين الآيتين بأن يكون الله تعالى قد أخبر الملائكة عند بداية خلقه للبشر بأن هذا البشر سيكون في المستقبل مؤهلاً لتلقي الوحي، ثم عندما حان استخلاف آدم أخبر الله الملائكة بمشيئته هذه للمرة الثانية وقال لهم لقد حان وقت ما أخبرتكم به. فالأمر الذي قد أشار الله إليه في المرة الأولى بقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ قد أشار إليه للمرة الثانية بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ليخبر الملائكة أنه قد تمت الآن تسوية الإنسان وصار مؤهلاً لتلقي الوحي، فاستعدوا لمهمة إنزال الوحي عليه واسهروا على تأييده.

وهناك آية أخرى تؤيد هذا المعنى وهي: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٨-١٠).

تبين هذه الآية ترتيب خلق الإنسان كآلاتي:

١. خلق الإنسان أولاً من طين،

٢. ثم استمرار نسله من نطفة،

٣. ثم اكتمال قواه الإنسانية،

٤. ثم نزول الوحي الإلهي عليه.

ويكشف هذا الترتيب جلياً أن الوحي الإلهي إنما نزل على الإنسان الذي بدأ خلقه من نطفة، وليس على الإنسان البدائي الذي خُلِقَ من طين، لأن الله تعالى يقول هنا إن الإنسان خُلِقَ أولاً من طين، ثم بعد ذلك بدأ نسله من نطفة، ثم اكتملت قواه الإنسانية، ثم بعد ذلك نزل عليه الوحي الإلهي. فثبت أن آدم الذي تشرف بكلام الله تعالى كان من ذرية الناس الذين خُلِقُوا من نطفة، ولم يكن من البشر الأوائل الذين خُلِقُوا في المرحلة الطينية البدائية السابقة لمرحلة الخلق الإنساني من نطفة. لأن هذه الآية صريحة في بيان أن كلام الله تعالى نزل على أحد من البشر الذين خُلِقُوا من نطفة، والإنسان المخلوق من نطفة حتماً له أبوان، ومن كان له أبوان لا يمكن أن يُسمى أول إنسان.

فخلاصة القول إنما المراد من الآيتين المذكورتين من سورتي "الحجر" و"ص" أن الإنسان البدائي المذكور فيهما ليس بآدم عليه السلام بل كان أحداً من آبائه، وأن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لم يكن من أجل ذلك الإنسان البدائي جداً، وإنما كان من أجل ذلك الإنسان الكامل الذي كان سيتشرف بكلام الله أول مرة بعد تطور العقل البشري.

وثمة آيات أخرى تدلّ على أن آدم عليه السلام لم يكن أول إنسان ظهر في الوجود، بل كان في عصره كثير من الناس الآخرين. فقد قال الله تعالى في الآيات التالية للآية قيد التفسير من سورة البقرة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾. ولو فسرنا الزوج هنا بمعنى الرفيق والصاحب، وهو صحيح لغة، لثبت أن بني نوع آدم أيضاً كانوا موجودين في عصره. ولو فسرنا الزوج بمعنى الزوجة فأيضاً يكون المراد أن الرجل والمرأة كانا مخلوقين عندها، إذ لا

يوجد هنا لفظ يدل على أن الله تعالى خلق في تلك المناسبة زوجة لآدم، بل قال الله تعالى له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وهذا يعني أن المرأة كانت موجودة سلفاً ولم تُخلق في ذلك الوقت. لو لم تكن المرأة موجودة حينها وخلقها الله في ذلك الحين تماماً، لوجب ذكر ذلك أيضاً، ولكن القرآن الكريم يقدم وجود المرأة كحقيقة ثابتة، وأمر آدم أن يسكن هو وزوجته في الجنة كما يُؤمر اليوم الرجل بأمر ما بشأن زوجته.

وقد ورد هذا الأمر الرباني لآدم في سورة الأعراف أيضاً (الآية ٢٠)، ولكن لا ذكر هنالك لخلق زوجته عندها أيضاً.

وورد ذكر زوجة آدم في سورة طه أيضاً كالآتي: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (طه: ١١٨). وقد ذكرت المرأة هنا أيضاً ذكراً عادياً وليس ذكراً إعجازياً، ولا ذكر هناك أنها خلقت في ذلك الوقت تحديداً.

كذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية قيد التفسير من سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٧). والخطاب هنا للجماعة، فثبت أنه كان هناك مع آدم وزوجته أناس آخرون في ذلك الوقت.

وإن قيل أن صيغة الجمع استخدمت هنا لأن الشيطان كان معهما، فهذا أيضاً لا يبطل استدلالنا من هذه الآية، لأننا لو اعتبرنا الشيطان مشمولاً في هذا الأمر الإلهي فلا بد من أن نعتبر أن هذا الشيطان كان من جنس البشر، إذ تخبر هذه الآية أن المُخرجين من الجنة مع آدم سوف يعيشون كلهم معاً على الأرض وسيتعاملون فيما بينهم. فلو اعتبر الأمر الإلهي موجهاً إلى الشيطان أيضاً، لعدَّ هذا الشيطان من جنس البشر، وهكذا أيضاً لا يكون آدم أول البشر. أما لو قيل أن الشيطان لم يكن مشمولاً في هذا الأمر الإلهي فلا بد من الاعتراف بوجود أناس آخرين مع آدم وزوجته، لأن الأمر بالخروج هنا موجه إلى أكثر من اثنين، وهو دليل على وجود جماعة من البشر في ذلك الوقت.

وعندي أن الشيطان مشمولٌ في هذا الأمر الإلهي، وأن الشيطان الذي غرَّ آدم كان أحد البشر الذين لم يؤمنوا به في ذلك الوقت ولم يستعدوا للانقياد لشريعته.

ثم بعد ذلك قال الله تعالى في الآية التالية: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٩). وهذا أيضًا يبين أنه كان مع آدم أفراد آخرون كثيرون في ذلك الوقت، لأن الخطاب هنا أيضًا بصيغة الجمع. بل الثابت من هنا أنه كانت هناك جماعة سوى آدم، إذ قال الله تعالى هنا اهبطوا أيها الجماعة من هنا جميعًا، فإن أتاكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والظاهر أن هذا الخطاب ليس موجهاً إلى آدم عليه السلام لأنه كان نبيَّ عصره، إنما هو موجه إلى رفاقه الذين كانوا جماعة عند القرآن الكريم.

والكلمات نفسها قد وردت في سورة الأعراف أيضًا.

لعل البعض يقول هنا: قد وردت في سورة طه صيغة التثنية ﴿قال اهبطا منها﴾ (الآية ١٢٤)، ويبدو من هذا أن أمر الخروج كان موجهاً إلى آدم وزوجته فقط، ولم يكن معهما إنسان آخر.

والجواب: لا شك في ورود صيغة التثنية في سورة طه: ﴿اهبطا﴾، ولكن قد قال الله تعالى بعدها: ﴿جميعاً﴾، أي اخرجوا أئتما جميعاً، حيث الآية الكاملة هي: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٤). والواضح أن الخطاب هنا ليس موجهاً إلى آدم وزوجته، بل هو موجه إلى جماعة آدم وجماعة الشيطان. لو كان المراد آدم وزوجته فقط لما قيل ﴿جميعاً﴾، فلفظ ﴿جميعاً﴾ لا يراد به فردان، بل فريقان. فهذه الآية لا تعارض استدلال بل تؤيده.

ثم زاد الله تعالى هذا الأمر إيضاحاً باستخدام صيغة الجمع بشأن الهدى أيضا حيث قال ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

ثم في سورة الحجر ورد أن الشيطان لما رفض طاعة آدم عند اصطفائه خليفة وزجره الله تعالى قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٤٠-٤١). لقد اتضح من هاتين الآيتين أيضًا أن الشيطان كان يجد ضده جماعة من البشر في ذلك الوقت. وقد يقال هنا أن الشيطان كان يعني بصيغة الجمع هنا أولاد آدم، ولكني أقول إن أولاد آدم يأتون في المحل الثاني، إذ كان الشيطان يريد إغواء آدم ورفاقه في مقامهم الأول، وما دام الشيطان يذكر جماعة من الناس، فثبت أنه كانت هناك جماعة من البشر.

ولعل أحدًا يعترض على ما سبق من الشرح قائلاً: هذا يعني أن الشيطان كان من جنس البشر، مع أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم لإبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٣)، وكذلك ورد عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٥١)، أما الجن فقد قال الله فيهم ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (الرحمن: ١٦). فما دام الإنسان خلق من الطين، والجن خلقوا من النار، فكيف يكونان من جنس واحد؟

والجواب الأول أن القرآن الكريم قد فرق بين إبليس والشيطان، فحيثما ذكر الامتناع عن السجود لآدم نُسبه إلى إبليس، وحيثما ذكر محاولة إغواء آدم أسندها إلى الشيطان، فمثلاً قال الله تعالى في الآية قيد التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٥-٣٧).

وقال تعالى في سورة الأعراف عن السجود لآدم: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٢)، بينما قال تعالى عن الوسوسة: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف: ٢١).

وفي سورة طه قال الله تعالى في سياق السجود: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (طه: ١١٧)، بينما قال تعالى في شأن الوسوسة: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ (طه: ١٢١).

واختلاف الاسمين في كل هذه الآيات في كل مرة لا يخلو من حكمة، والقرآن الحكيم يراعي الحكمة في كل كلمة من كلماته، فمن المستحيل أن يكون هذا الاختلاف في استخدام اسمين مختلفين عند الفعلين بدون حكمة، فلزم أن يكون الممتنع عن السجود لآدم غير الذي حاول إغواءه، ولذلك سُمِّي الأول إبليس، والثاني الشيطان.

فمن أصر على هذا الاعتراض فيمكن الرد عليه بأن المخلوق من النار هو إبليس وليس الشيطان (أما ما هو السبب وراء استخدام الاسمين المختلفين عندي فسوف أذكره لدى تفسير هذه الآيات في مكانها).

أما الجواب الثاني والحقيقي فهو أن القول بخلق الجن من النار لا يعني أبداً أن إبليس أو الجن قد خُلِقُوا فعلاً من النار المادية، وإنما هذا أسلوب للتعبير والمراد أن إبليس كان مطبوعاً على طبيعة نارية من التمرد والعصيان. وقد ورد مثل هذا التعبير في مواضع أخرى في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء: ٣٨)، فهذا لا يعني أن العَجَل مادةٌ خُلِقَ منها الإنسان، إنما المراد أنه ذو طبع عَجُول، ويريد أن يرى نتيجة كل شيء عاجلاً. ومنها قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ (الروم: ٥٥)، فليس المراد أن الضعف مادة خُلِقَ منها الإنسان، إنما المراد أن في جَبَلَةِ الإنسان ضعفاً ولا يستطيع أن يهيء بنفسه سبيل الهدى، بل هو بحاجة إلى أن يُنزل الله له الهدى.

وعليه، فالمراد من خلق الجن وإبليس من النار أنهم كانوا ذوي طبائع نارية، بمعنى أن الإنسان قبل خضوعه لحكومة التمدن والتحضّر كان ناري الطبع، وكان صعباً عليه طاعة الآخرين، ولكنه لما تطور بالتدريج مال إلى طبعه الطيني الحقيقي وتعلّم الانقياد والطاعة. وأما قول إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ

طِينٍ﴾ فيعني به أن آدم عقليته عقلية العبيد، أي يمكن أن يطيع الآخرين أما أنا فطبعي ناري، ولا أستطيع طاعة غيري، فأنا خير منه. وكان ادعاء إبليس وأعوانه أمراً طبيعياً إذ كانوا يعدّون حريتهم المزعومة أفضل من الطاعة، ويرون أن طاعة النظام عيب. واليوم أيضاً يوجد أظلال لإبليس حيث يظنون خطأً أن طاعة الآخرين ذل وهوان، وأصحاب الميول الفوضوية الداعية إلى إلغاء الحكومة هم من هذا القبيل.

لقد ورد تعبير الطبع الناري في آية أخرى أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ٢)، فأبو لهب هنا ليس اسماً لأحد، بل هو لقب وصفة لأحد أعداء الإسلام، وليس المراد أنه كان يولّد النار، بل المعنى أنه كان ذا طبع ناري، وكان يحترق حسداً وكمداً من الرسول ﷺ، وكان بسبب عدائه يصبح ناراً متجسدة.

وأما ما ورد في الآيات السابقة أن الجن كانوا يعيشون في العالم قبل خلق البشر من صلصال، فسوف أتناول شرحه في الآيات التالية إن شاء الله، وقد ذكرت شيئاً منه لدى تفسير قول الله تعالى في سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٧)، فليرجع إليه من أراد، فقد طُبع تفسيرها.

لقد تبين مما كتبناه حتى الآن في تفسير الآيات قيد التفسير من سورة البقرة، وكذلك من الآيات الأخرى، أن القرآن الكريم يعلم ما يلي:

١. أن خلق آدم لم يتم دفعة واحدة، بل إن الجزئيات الدقيقة تطورت في نشوئها، ومرت بمراحل عديدة مختلفة إلى أن تحولت للصورة الإنسانية.
٢. أن الإنسان منذ البداية خُلِقَ إنساناً، وليس كما زعم الفلاسفة، نتاج مصادفة خلال تطور بعض الحيوانات.

٣. أن الإنسان الأول الذي تلقى وحي الله تعالى أول مرة كان من سلالة الإنسان المخلوق من نطفة، أي لم يتلقّ الوحي السماويّ أولُ فرد من الجنس البشري الذي نال الصورة الحيوانية، بل إن أول من حازَ هذا المقام الجليل كان

من البشر الذين كانوا من سلالة هذا الفرد الحاصل على الصورة الحيوانية، وهذا المتشرف بالوحي أول مرة سَمَّاه القرآن الكريم آدمَ.

٤. أنه كان في زمن آدم هذا كثيرٌ من بني جنسه، ومن أجل تنظيم هؤلاء القوم وهدايتهم اختار الله تعالى آدم خليفة، وأن هؤلاء كانوا يقيمون مع آدم في الجنة الأرضية التي أُسكنَ فيها، وأنهم أُخرجوا منها أيضاً معه.

إذا كانت المعاني المذكورة أعلاه صحيحة -وقد أثبتُ صحتها بالعديد من آيات القرآن الكريم- فتزول تلقائياً الشبهة التي يثيرها البعض قائلين: إذا كان آدم وامرأته الزوجين الوحيدين في ذلك الوقت فكيف تم زواج أولادهما؟ إذا كان الأخ تزوج أخته، فهذا أمر مشين! ذلك أن الشريعة بدأت من آدم، كما شرحنا آنفاً، وكان كثير من البشر موجودين في ذلك الوقت، أما قبل ذلك فلم يكن العقل الإنساني قد نضج بعدُ بحيث يسمَّى عقلاً إنسانياً بالقوة، ولم يكن قادراً على استيعاب الشريعة والعمل بها، فلا يصح الاعتراض على أفعال إنسان تلك المرحلة.

كما ليس ضرورياً أن يكون البشر قبل آدم ﷺ قد خُلِقوا من زوجين اثنين فقط، بل من الممكن تماماً، بل هو الأقرب إلى القياس، أن يكونوا قد خُلِقوا من أزواج كثيرة مثلما يمكن أن يكونوا قد خُلِقوا من زوجين فقط.

ولا بد لي أن أذكر بهذه المناسبة حواراً جرى بين مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ﷺ وبين مُنجم وبروفيسور أسترالي حول مسألة خلق آدم. جاء هذا المنجم للسياحة في الهند عام ١٩٠٨م وألقى محاضرات في عدة مدن هندية، والتقى أثناء إقامته في لاهور بمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، ووجه إليه السؤال حول هذا الموضوع، وفيما يلي ما دار بينهما من حوار:

سؤال: ورد في الكتاب المقدس أن آدم أو الإنسان الأول ظهر في أرض جيحون وسيحون، وأقام هنالك، فهل هؤلاء البشر الموجودون في مختلف أنحاء العالم من أمريكا وأستراليا وغيرهما هم أيضاً من نسله؟

جواب: لسنا نقول بذلك، ولا نتبع التوراة في قولها بأن الدنيا بدأت بخلق آدم هذا منذ ستة أو سبعة آلاف عام، وأنه لم يكن قبل ذلك شيء، وكأن الله عز وجل كان عاطلاً عندها. كما أننا لا ندعي أن كل البشر الموجودين في مختلف أنحاء الأرض اليوم هم أولاد آدم هذا الأخير، بل نعتقد بأن البشر كانوا موجودين قبله، كما هو واضح من كلمات القرآن الحكيم، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والخليفة مَنْ ينوب عن غيره، وهذا يبين بوضوح أن البشر كانوا قبل آدم أيضاً. فلا يمكن لنا الجزم بأن سكان أمريكا وأستراليا وغيرهما هم من أولاد آدم هذا الأخير، أم أنهم أولاد آدم آخر. (جريدة الحكم، عدد ٣٥، مجلد ١٢، يوم ٣٠ مايو ١٩٠٨)

وقد ذكر حضرة الشيخ محيي الدين بن عربي -وهو من أبرز وأهم الشخصيات في الأمة الإسلامية- كشفاً عجيباً له بهذا الصدد حيث كتب:

"لقد أراي الحق تعالى فيما يراه النائم، وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم، فأنشدوننا بيتين ثبت على البيت الواحد ومضى عني الآخر، فكان الذي ثبت عليه من ذلك:

لقد طُفْنَا كما طُفْتُمْ سَنِينَا بهذا البيت طُرّاً أجمعينا

... فتعجبت من ذلك. فقال لي واحد منهم وتسمى لي باسم لا أعرف ذلك الاسم، ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت له: كم لك منذ مت؟ فقال لي: بضع وأربعون ألف سنة. فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين؟! فقال لي: عن أي آدم تقول، عن هذا الأقرب إليك أو عن غيره؟ فتذكرت حديثاً عن رسول الله ﷺ "أن الله خلق مائة ألف آدم. فقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبي إليه من أولئك". (الفتوحات المكية ج ٣، الفصل الخامس في المنازلات، باب ٣٠٩).

يفهم من هذا الكشف أن آدم الموحى إليه، والذي ينتسب إليه بنو آدم اليوم، لم يكن آدم الأول، بل إنه آخر الأوامد.

وكذلك يبين هذا الكشف أن كلمة "آدم" قد تُستعمل صفةً بمعنى الجد الأكبر، وليس ضروريًا أن يُراد منها آدم الذي تشرف بالوحي أول مرة. كما يدل هذا الكشف على أن الجنس البشري مستمر منذ عصور موعلة في القدم، وأن الدور المذكور في الأحاديث النبوية الشريفة عن خلق العالم، والمحدد بسبعة آلاف سنة، إنما أريد به دور آدم الأخير فقط، وليس أدوار البشرية جمعاء.

باختصار؛ لقد ثبت من الشهادات المذكورة أعلاه أنه قد سبقني في إبداء هذا الرأي صلحاء الأمة من أصحاب الكشوف، الذين رأيهم في تفسير القرآن الكريم هو الأجدر بالقبول، حيث قالوا إن الجنس البشري لم يبدأ من آدم واحد، بل سبقه أودام كثيرون، وأن آدم المذكور في القرآن الكريم كان واحدًا منهم وليس آدم الوحيد.

وربَّ سائل يقول: إذا كان البشر موجودين قبل آدم المذكور، وكانوا يولدون من نطفة، فلماذا قال الله تعالى في القرآن الحكيم بأننا قد خلقناكم من زوجين؟ ولماذا قيل في الحديث النبوي بأن المرأة خلقت من ضلع الرجل؟

والجواب أن هذا الموضوع قد ورد في سورة النساء: الآية ٢، وسورة الأعراف: الآية ١٩٠، وسورة الزمر: الآية ٧. أما سورة النساء فقد ورد فيها: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الآية: ٢)، وأما سورة الأعراف فورد فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الأعراف: ١٩٠)، وأما سورة الزمر فورد فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٧). ولا ذِكرَ لآدم في هذه الآيات الثلاث بتاتًا، فقط قال الله تعالى فيها بأننا خلقناكم من نفس واحدة، ثم جعلنا منها زوجها. وكل هذه الآيات بمعنى واحد، غير أن في سورة الأعراف صراحة أكثر حيث قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٠-١٩١). ويكشف التدبر

في هذه الآية أن ما ذكر هنا لا ينطبق على آدم وزوجته مطلقاً، لأن آدم عليه السلام كان نبي الله تعالى، بينما يخبر القرآن الكريم أن النفس الواحدة المذكورة هنا وزوجها أصبحا مشركين بالله تعالى عند ولادة ولدهما، وقالوا إن فلاناً من الآلهة هو الذي أعطاهما إياه.

فالحق أن النفس الواحدة المذكورة هنا لا يراد منها الإنسان الأول ولا آدم عليه السلام، وإنما يبين الله هنا أن الفرد الواحد تنشأ منه أُمم كبرى، وأن الأولاد تقتضي آثار آبائهم فيصيرون مثلهم، فإن كفاراً فكفاراً، وإن مؤمنين فمؤمنين، وإن مشركين فمشركين، وإن موحدين فموحدين، لذا يجب على المرء أن يأخذ الحيلة القصوى عند الزواج، وأن يهتم بتربية الأولاد كثيراً، لكي لا تسري أخطاء الآباء إلى الأولاد، فيقع الملايين في الشر والسوء.

أما قوله تعالى: ﴿وجعل منها زوجها﴾ فإنما يعني أن الله تعالى خلق زوج هذه النفس من نوعها، أي أن المرأة والرجل من جنس واحد، ويتأثر أحدهما بالآخر، وليس المراد أن الزوجة تُخلق من ضلع الزوج، وإلا فلا بد من القول أن زوجات كل المشركين يُخلَقن من أضلاعهم، لأنني قد أثبتُ أنفأ أن النفس الواحدة هنا لا تعني الإنسان الأول، فلا بد من القول أن زوجة كل رجل تُخلق من ضلعه، وهذا باطل بالبدهة. (سوف أتناول هذا الموضوع مفصلاً لدى تفسير الآية المتعلقة به في سورة النساء إن شاء الله تعالى).

أما السؤال: قد ورد في حديث نبوي أن المرأة خُلقت من ضلع، ويبدو من هذا حتماً أن آدم خُلِق وحده، ولم يكن قبله أي إنسان، ثم خُلقت المرأة من ضلع آدم، وبدأ منهما النسل الإنساني.

والجواب: أن كلمات الحديث الذي ينخدع به البعض هي قول الرسول ﷺ: "استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع" (مسلم، كتاب الرضاة، باب الوصية بالنساء). أي اعملوا بنصيحتي وأحسنوا معاشرة النساء، لأن المرأة خُلقت من ضلع. سوف أشرح هذا الحديث مفصلاً لدى تفسير الآية المشار إليها من سورة النساء، غير أنني أكتفي هنا بالقول: إن هذا الحديث لا

يتحدث عن زوجة آدم عليه السلام، بل يتحدث عن المرأة عموماً، وعن خلق كل امرأة من ضلع، وكلنا نعرف كيف تُخلق المرأة، فلا يمكن شرح هذا الحديث بما يتنافى مع المشاهدة فيقال أن المرأة تُخلق من ضلع فعلاً، إنما المراد من الحديث ما ذكره أئمة اللغة، حيث ورد في "مجمع بحار الأنوار" وهو قاموس قيم يشرح كلمات الحديث: "فإنهن خُلِقْنَ من ضلع" استعارةً للمعوج، أي خُلِقْنَ خُلُقاً فيه الاعوجاج" (مجمع بحار الأنوار، ج ١، للشیخ محمد طاهر، تحت لفظ ضلع). أي أن هذا الكلام استعارة، والمراد أن الدلال والغنج من الصفات الغالبة على المرأة، بمعنى أن المرأة تريد بطبعها الاختلاف مع زوجها. والثابت بالتجربة أن المرأة تجبر الرجل على قبول رأيها بالاختلاف معه، وتحكم عليه بالتأثير عليه، وإلى هذا قد أشار الرسول ﷺ ناصحاً: لا تسعوا للحكم على المرأة جبراً، بل أقنعوها بالحب والرفق وراعوا مشاعرهن. تكون المرأة تابعة للرجل في كثير من الأمور، فتريد تحري كل أمر من أوامره وتختلف معه لتعرف الحقيقة، فلذلك يجب على الرجل أن يقنعها بالدليل والمحبة، أما إذا أجبرها بالقوة كسر قلبها، ولم يعد بينهما علاقة حب ووثام.

ملخص القول لا تدل الآيات السابقة ولا الحديث المذكور على أن آدم الذي جعله الله خليفة كان أوّل البشر، أو أن زوجته خلقت من جسمه، وإنما تتحدث هذه الآيات والحديث عن جميع البشر كقاعدة كلية شاملة ولا تتحدث عن آدم وزوجته خاصة، وإذا ثبت ذلك زال تلقائياً الاعتراض القائل بأن كل الناس ما داموا أبناء آدم فهل كان أبناؤه الذكور والإناث قد تزوجوا فيما بينهم؟ ذلك أن هذا الاعتراض يمكن أن يقع فقط على ذرية آدم الذي كان أول إنسان كامل العقل وحامل شريعة، ولكن إذا ثبت وجود بشر آخرين في عصره زال هذا الاعتراض تلقائياً. أما البشر الذين كانوا قبل آدم فلا يقع هذا الاعتراض عليهم، لأنهم (أولاً) لم يكونوا كاملي العقل ولا حاملين شريعة، و(ثانياً) ليس ثابتاً أنهم كانوا ذرية لإنسان واحد، بل من الممكن أن يكون كثير من الرجال والنساء قد خلّقوا في وقت واحد.

الإنسان حامل للصفات الإلهية ظلياً

كما ثبت من هذه الآية أن الإنسان حامل للصفات الإلهية على سبيل الظلية، لأن هذه الآية تذكر أن الله جعل آدم خليفة، ومن معاني الخليفة مَنْ يتصبَّع بصفات مَنْ قبله، فخليفة الملك مثلاً مَنْ يمارس سلطة الملك، وعليه فخليفة الله مَنْ يتصبَّع بصفات الله تعالى في نطاقه، ولما كان آدم أولَ مظهرٍ كاملٍ للبشرية وأُرسِلَ ليُجعل الناسَ يتَّبِعون خطواته، فثبت أن كل البشر مزودون بأن يكونوا خلفاء الله ويتصفوا بصفاته تعالى في حدود نطاقهم، سواء تمكنوا بالفعل من إظهار هذه الكفاءة أم لم يتمكنوا.

تمدّن آدم

ولما كانت هذه الآية من سورة البقرة تتحدث عن أول خليفة لله تعالى في الأرض، فأرى لزماً أن أتناول هنا التمدّن الإنساني الذي بُعث آدم ﷺ من أجل إقامته، والذي كان الهدف الحقيقي من استخلافه.

يتضح من القرآن الكريم أن التمدن الذي أسسه آدم ﷺ من خلال خلافته كان يتأسس على المبادئ التالية:

١. نظام الزواج: إذ فرض على أتباعه أن يتزوجوا، كما قال الله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٦). لم يكن الشرع قد نزل قبل آدم ﷺ، ولم يكن هناك قاعدة معينة للزواج، فجاء على يد آدم الحكم بالزواج. لقد ذكر الكتاب المقدس قصة آدم بصورة مشوهة، ولكنه ذكر أن الله تعالى أراد أن يخلق لآدم زوجةً (التكوين: إصحاح ٢). وعلى ضوء التحقيق الذي ذكرته آنفاً بأن البشر كانوا موجودين قبل آدم ﷺ، فيدل بيان التوراة هذا على أنه لم يكن بينهم قاعدة محددة للزواج، وأن المراد من خلق زوجة لآدم أن الله تعالى أنزل أحكاماً بشأن العلاقة بين الزوجين.

٢. أمر أتباع آدم بالعمل بأمور والكف عن أمور أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٦).

٣. أن يتعاونوا على قهينة وسائل الطعام للجميع.

٤. ونظام الماء.

٥. أن يرتدوا الثياب ولا يعيشوا عراة.

٦. أن يبنوا البيوت ويعيشوا معاً.

والمبادئ الأربعة الأخيرة مذكورة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (طه: ١١٩-١٢٠). أي من واجبك يا آدم أن تهتم بالأمور التالية في المكان الذي نسكنك فيه: ألا تعيشوا فيه جائعين، ولا عطاشى، ولا عراة، ولا متأذين بالحر.

وهذا ليس وصفاً لجنة آدم كما زعم البعض خطأً، ذلك لأن الوحوش الضارية أيضاً لا تعيش جائعة ولا عطشة ولا متأذية بالحر، بل هذه الضروريات متوفرة للحيوانات أيضاً في هذه الدنيا، فثبت أن هذا ليس وصفاً للجنة، بل إنها الصورة المرسومة لتمدن آدم والتي دعا إليها المجتمع الإنساني الأول، حيث بين لهم أن عيش الناس معاً يؤدي أحياناً إلى حرمان قسم منهم من وسائل الغذاء أو الكساء، فعلى الآخرين الذين يتمتعون بخيرات التمدن أن يسعوا جهدهم لسد هذا الفراغ، ويتعاونوا على إعانة الفقراء والمسنين والعاجزين، ويهيئوا لهم حاجتهم من الغذاء والكساء والماء والخباء.

هذه المبادئ المدنية هي بالغة الأهمية بحيث لم تكن الدنيا في غنى عنها قط، ولكن المؤسف أن الدنيا لم تهتم بها حق الاهتمام قط، إلا الإسلام الذي جعل هذه الأمور من فرائض الحاكم، ولكن المؤسف أن المسلمين أيضاً لم يعملوا بهذه المبادئ بعد زمن الخلافة الراشدة، والنتيجة ما نراه اليوم في الدنيا من فساد ونزاع وقتل وسفك دماء.

الخليفة

لقد سبق أن بينت عند شرح الكلمات والتفسير أن لفظ الخليفة يعني ما يلي:
(١) مَنْ ينوب عن أمة مضتْ أو فرد مات.

(٢) مَنْ ينوب عن رئيسه في حياته في منطقة أخرى وينفذ أوامره.

(٣) مَنْ ينوب عن غيره بعد موته، سواء أكان من ينفذ سلطته ويكمل مهمته أو كان من نسله.

ولكن علينا معرفة معنى لفظ الخليفة الوارد في هذه الآية على ضوء الاستعمال القرآني.

نجد أن لفظ الخليفة قد ورد في القرآن الكريم بالمعاني الثلاثة التالية:

١ — النبي والمبعوث الرباني، كما ورد في الآية قيد التفسير.

لا شك أن آدم عليه السلام كان خليفة بمعنى أنه ونسله قد حلّوا محلّ قوم آخرين بعد هلاكهم، كما كان خليفة أيضاً بمعنى أن الله تعالى أخرج من آدم نسلًا كثيرًا. غير أن أهم ميزة لآدم عليه السلام هي نبوته وبعثته التي قد أشير إليها في هذه الآية قبل كل شيء.

والنبي أو المأمور الرباني يكون خليفة الله بمعنى أنه يعكس صفات الله تعالى على الدنيا وفق الحاجة في عصره، ويأتي إلى الدنيا ظلًا لله تعالى، وبهذا المعنى قد سُمي داود عليه السلام أيضًا خليفة في القرآن الكريم (سورة ص: ٢٧).

٢ — ويُطلق لفظ الخليفة على قوم يحلّون محلّ قوم آخرين هلكوا قبلهم، وقد ورد لفظ الخليفة بهذا المعنى في القرآن الكريم مرارًا، فمثلاً أخبر الله تعالى أن هودًا قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف ٧٠)، أي بعد هلاك قوم نوح أعطاكم الله الحكم والغلبة في الدنيا بدلًا منهم. وكذلك ورد على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف ٧٥).

٣— ويُطلق لفظ الخليفة على نائب النبي الذي يتّبع خطواته، أي يرشد قومه إلى شرعه ويسعى لتوحيد شملهم، سواء أكان هذا الخليفة نبياً أو غير نبى، ومثاله في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى الطور لبعض الليالي قال لهارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف ١٤٣)، أي كُنْ خليفتي في قومي في غيابي، واعمل على إصلاحهم ولا تقبل قول المفسدين. وكان هارون عليه السلام نبياً ونال منصب النبوة قبل هذه الواقعة، لذا فالخلافة التي منحه موسى إياها لم تكن خلافة نبوة، وإنما كان المراد من خلافته أن يتولى نظام قوم موسى في غيابه ليحافظ على وحدتهم ويحميهم من الفساد. فخلافة هارون لم تكن خلافة نبوة، بل كانت خلافة نظام، ولكن كما ذكرت من قبل أن مثل هذه الخلافة الفردية تشمل خلافة نبوة مع خلافة نظام أيضاً، بمعنى أن الله تعالى يبعث لإصلاح أمة نبيٍّ سابقٍ نبياً آخر لا يأتي بشرع جديد بل ينفذ شريعة النبي السابق، فحيث إنه يواصل مهمة النبي السابق فهو يكون خليفة للنبي السابق، ولكنه من حيث منصبه لا يعيّن من قبل النبي السابق ولا من قبل أمته، بل الله تعالى نفسه يقيمه نبياً مباشرة. وقد كان في بني إسرائيل خلفاء كثيرون من هذا القبيل، بل كل الأنبياء الذين جاءوا فيهم بعد موسى عليه السلام كانوا خلفاء من هذا النوع، أعني أنهم كانوا أنبياء، لكنهم لم يأتوا بشرع جديد، بل بُعثوا لتنفيذ شريعة موسى عليه السلام في الدنيا، إذ قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة ٤٥). فثبت من هذه الآية (أولاً) أنه قد بُعث بعد موسى عليه السلام أنبياء كانت مهمتهم منحصرة في إقامة شريعة موسى، وكانهم كانوا خلفاءه. و(ثانياً) علاوة على هؤلاء الأنبياء، كان هناك ربانيون وأحبارُ أمروا بالقيام بهذه المهمة. لقد تبين من ذلك أن كثيراً من الأنبياء والمجدين ظهروا في أمة موسى من بعده خلفاء له، وكانت مهمتهم إكمال مهمة موسى عليه السلام، وكانت آخر حلقة في سلسلة هؤلاء الأنبياء هو المسيح الناصري عليه السلام، الذي ظن المسلمون

خطأً، ولا سيما في هذا العصر الأخير، أنه كان صاحبَ شريعة، وهذا الظن ناشئ من قلة تدبرهم في القرآن الكريم. وكذلك بدأ المسيحيون في هذا العصر يزعمون أن المسيح جاء بقانون جديد، ولذلك سموا كتابه "العهد الجديد". لكن القرآن الكريم يعدّ المسيح خليفة لموسى عليهما السلام جاء لإقامة دينه، حيث قال الله تعالى بعد آيتين من الآية المذكورة آنفاً من سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ (المائدة ٤٧)، أي أننا أرسلنا عيسى ابن مريم بعد الأنبياء المذكورين هنا الذين جاءوا لإقامة تعاليم التوراة، فجاء عيسى متبعا آثارهم ومحققا نبوءات التوراة.

وقد قال المسيح الناصري ﷺ بنفسه: {لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لَأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَأَنْقُضَ بَلْ لَأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نَقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ} (إنجيل متى ٥ : ١٧-١٨).

باختصار، إن كل الأنبياء والمجددين الذين جاءوا بعد موسى، بدءاً من "يوشع" الذي خلفه بعد وفاته فوراً حتى آخر خلفائه وهو المسيح الناصري، كانوا خلفاء لموسى ومنفذين لشريعته.

والثابت من القرآن الكريم أن الأمة الحمديدية قد وُعدت بالخلافة بأنواعها الثلاثة هذه، وللأسف ظل بعض المسلمين غافلين عن هذه الخلافة ولم ينتفعوا منها كما ينبغي. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور ٥٦).

لقد وعد الله المسلمين هنا أنهم سينالون خلافة كخلافة الأمم السابقة، وكما أثبت من القرآن الكريم آنفاً أن خلافة تلك الأمم كانت على ثلاثة أنواع:

الأول: جاء فيهم الأنبياء الذين كانوا يخدمون شريعتهم.

والثاني: أقام الله تعالى فيهم أناساً لم يكونوا أنبياءً، ولكن اصطفاهم الله تعالى لبعض الحكَم من أجل خدمة تلك الأمم وإرشادها إلى الصراط المستقيم.

والثالث: أن الله تعالى جعل تلك الأمم خلائف للأُمم السابقة، وكتب لها العظمة بعد أن نزعها من الأولين.

هذه هي الأنواع الثلاثة للخلافة التي وُعد بها المسلمون، وكان ظهور عظمة الإسلام حقَّ الظهور منوطاً بنيل الأمة الخلافة بأنواعها الثلاثة. بحسب هذا الوعد الإلهي كتب الله في حياة الرسول ﷺ الغلبة للمسلمين على الأمم السابقة، وأهلك أعداءهم ودمرهم، ولو أن المسلمين ظلوا متمسكين بالإيمان والعمل الصالح لاستمرت غلبتهم على الدوام، ولكن المؤسف أنهم تكالبوا على الدنيا بعد فترة غافلين عن الدين، وظنوا خطأ أنهم يستطيعون الرقيّ مع قهاتهم على الدنيا مثل الأمم السابقة، مع أن الله تعالى كان قد صرح في القرآن الكريم أن ازدهارهم لن يتم على النحو الذي ازدهرت به الأمم السابقة، بل إنهم لن يزدهروا إلا بالإيمان والعمل الصالح. وقد أكدت التجارب عبر القرون صدق هذه الحقيقة. فيا ليتهم يدركون سرَّ رقيهم الآن، فيتوجهوا إلى الإيمان والعمل الصالح.

والنوع الثاني من الخلافة فقد أوتيها المسلمون بعد رسول الله ﷺ حين شرف الله سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علياً رضي الله عنهم بنعمة الخلافة واحداً بعد الآخر، ونال المسلمون كلهم نصيبهم من هذه النعمة. ولو أن المسلمين من بعدهم قدروا هذه النعمة حق قدرها لساووا على طريق الازدهار كالصحابة ولازدهر الإسلام اليوم ازدهاراً يفوق الخيال والتصور، ولكن المؤسف أنهم لم يقدرُوا نعمة الخلافة حق قدرها، ومالوا إلى الملوكية، ففقدوا العزة والغلبة التي نالوها من خلال الخلافة.

والنوع الثالث من الخلافة التي نالتها الأمم السابقة هي خلافة الأنبياء التابعين، لكن قد غفل عنها المسلمون غفلةً جعلتهم ينكرون هذا النوع من النبوة كليةً في هذا الزمن الأخير، وأغلقوا باب النبوة ولو كانت غير تشريعية، منكبين هذا الفضل الرباني العظيم الذي هو خاص بالإسلام وحده في هذا

العصر، والذي هو دليل عظيم على الحياة الروحانية للرسول ﷺ، لأن نبوة النبي التابع تزيد عظمة النبي المتبوع وتضيئها، ولا تنقص منها شيئاً.

وتؤمن الجماعة الإسلامية الأحمدية أن الله تعالى قد فتح ثانيةً باب النبوة التابعة للملائمة لعظمة الرسول ﷺ، وذلك ببعثة سيدنا مرزا غلام أحمد ﷺ لإصلاح هذا العصر المليء بالفتن والمفاسد ولاسترداد مجد الإسلام ثانيةً، وأنه تعالى قد أحيا بواسطته الخلافة الراشدة أيضاً من جديد بإقامتها بين أتباعه ﷺ، فنشأت في العالم كله ثانيةً جماعة تقوم بخدمة الإسلام متحدةً على يد واحدة، وتسعى جاهدةً ليلَ نهارٍ لاسترداد حقوق الإسلام والمسلمين، وإن الزمن لقريب حين يكون الإسلام غالباً في العالم، ويزهق الباطل من أمامه مرة أخرى. ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، إن شاء الله تعالى.

الملائكة

لقد ذكرت هذه الآية الملائكة أيضاً، فأرى لزماً ذكرهم هنا إجمالاً على ضوء القرآن الكريم، لكي يسهل على القارئ استيعاب النظرية القرآنية عن الملائكة كلما مرّ على ذكرهم في القرآن الكريم، غير أن ذكرهم مفصلاً سيأتي لاحقاً عند تفسير الآيات المتعلقة بهم.

لقد أخطأ الشباب المتأثرون بالفلسفة المعاصرة في معرفة الله تعالى، فظنوا أن لا وجود للملائكة لأن هذا ينافي الألوهية؛ أما الذين لم يتحرروا بعد من تأثير الدين تماماً، فظنوا أنفسهم بقولهم: الملائكة هي المشاعر الصالحة التي يخلق بها قلب الإنسان، وأن لا وجود للملائكة سوى ذلك.

وقد اعتبر هؤلاء الشباب وجود الملائكة منافياً للألوهية لأنهم ظنوا أن الله تعالى كائن وراء وراء، وأنه (أولاً) لا علاقة له بهذا الكون، وبالتالي ليس له حاجة لأن يتخذ أحداً واسطةً بينه وبين الناس، أما إذا كان الله تعالى على صلة بهذا الكون، فالقول بأنه تعالى يستخدم الملائكة وسائط لإدارة هذا الكون يتنافى مع قدرته الكاملة، ويدل على نقصان صفاته، وعليه فوجود الملائكة محال في الحالتين.

والواقع أن العقيدة الأولى بأن الله موجود ولكن لا دخل له في إدارة الكون، إنما هي حجاب برّاق يُخفون به أفكارهم الإلحادية، إذ لا فرق بين هذه العقيدة وبين الإلحاد أبداً. إذا كان الله تعالى موجوداً وليس له علاقة بهذه الدنيا، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا الله موجود إذن؟ إن وجوده تعالى لا يخلو من حالين: إما أنه تعالى يتدخل في نظام هذا الكون، أو أنه لا يتدخل أبداً. وإذا كان لا يتدخل بتاتا، فهذا لا يخلو من حالتين: إما أنه لا علاقة له بالكون منذ الأزل، أو أنه تخلّى عن الكون بعد خلقه. وإذا كان الله تعالى لا يتدخل في الكون منذ الأزل، فلا دليل على وجوده على الإطلاق، ولا معنى ولا حاجة للإيمان بوجوده، إلا أن يكون هؤلاء المؤمنون بالله في الظاهر يريدون أن يتظاهروا بإيمانهم للمؤمنين نفاقاً وطمعاً في رضاهم ومواساتهم، وهو هدف وضع وخسيس للغاية. أما إذا كان الله تعالى قد تخلّى عن العالم بعد خلقه، فليأت هؤلاء ببرهانهم على ذلك، إذ لا مناص لهم من تقديم دليل يُثبت أن هذا الكائن الفعّال أصبح عاطلاً ومتخلياً عن العالم الآن. إن المؤمنين بأن الله تعالى حيٌّ وفعّالٌ دائماً أبداً، يؤمنون بتسلسل فعله هذا، وهو أمرٌ يقرّ به أصحاب هذه العقيدة الثانية إذ يقولون: نعم، كان الله فعّالاً في البداية، لكنه ليس فعّالاً الآن. فما داموا يقولون: أجل، كان الله فعّالاً في إدارة الكون في البداية، ولكنه أصبح عاطلاً ومتخلياً عنه الآن، فمن واجبه أن يأتونا بدليل علموا به أن الله تعالى ظلّ فعّالاً في إدارة الكون لفترة، ولكنه تخلّى عنه فيما بعد وصار عاطلاً، وأن النظام الكوني أصبح يجري تلقائياً.

إن وجود الملائكة ليس مظنة الارتياح والاعتراض أبداً في أي من الحالتين: لأن الله تعالى إن كان فعّالاً في الماضي فالسؤال هو: هل كان يتخذ وسائل من مخلوقه لإنفاذ مشيئته أم لا؟ أعني هل وُجد هذا الكون من خلال أسباب ونواميس طبيعية، أم حصل كل تطوّر بنفسه دون أي قاعدة أو سبب كعجائب الشعوذة والسحر؟ فإن سلّمنا بأن نظام هذا الكون يدل على أن كل تطوّر حاصل فيه كان خاضعاً لقاعدة أو قانون ما، فلا بد من التسليم أيضاً بأن الله

عز وجل كان قد خلق بعض الوسائط من أجل خلق هذا الكون، وسنَّ سنناً خاصة أدّت إلى وجود الكون بهذا الشكل. فإذا سلّمنا بذلك، ولا مناص من التسليم به، فلا مفرّ من الإقرار بأن وجود الملائكة أسمى عن الاعتراض، إذ لو كان اختياراً وسيلة أو واسطة معيّنة غير منافٍ لقدرة الله تعالى، فإن اختيار وسيلة غيرها أيضاً لا يُعدّ منافياً لقدرة الله سبحانه وتعالى.

كذلك إذا اعتقدنا بأن الله عز وجل يدير الكون اليوم كما كان من قبل، فأيضاً لا يصحّ الاعتراض على وجود الملائكة، لأن الله تعالى ما دام يخلق طفل الإنسان بواسطة النطفة، ويشفي غليل الحيوان بواسطة الماء، ويضيء العالم بواسطة الشمس، ولا يقدر استخدام هذه الوسائط في قدرته تعالى، فكيف يكون استخدام الملائكة في إدارة الكون يمثّل مساساً بقدرته؟

الواقع أن ما يتضح من القرآن الكريم، وما تُصدّقه النواميس الطبيعية، هو أن الله تعالى بحكمته الكاملة يدير نظام الكون بواسطة قانون واسع متشعب. قال الله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٢٩-٣٠)، أي انظروا إلى السماء كيف جعلنا رفعتها عالية جداً، ثم زدناها بكل ما تحتاجه من قوى وقدرات ضرورية، وجعلنا قواها نوعين: ما هو خفي كالليل، وما هو ظاهر كالضحى.

لقد بين الله تعالى هنا أن النظام السماوي مؤسس على قانون متكامل، منه ما هو خفي كالليل، ويُعرف بإمعان النظر والتدبر؛ ومنه ما هو ظاهر واضح وضوح النهار، وتراه العين المجردة. وهذان النوعان من النواميس الطبيعية واضحا للمتأملين فيها. خدوا مثلاً الشمس والقمر، فبعض تأثيراتهما جلية يعرفها الجاهل والأميون أيضاً، وبعض قوانينهما غاية في الخفاء، حتى إن علماء الفلك لم يعرفوا من أسرارها الخفية إلا القليل جداً بعد متابعة وبحوث استمرت آلاف السنين، ولا يزالون عاكفين على هذه البحوث. والحق أن الملائكة هي أول حلقة في سلسلة العلل والمعلولات والسبب والمسبب، فكما أنه لا يجوز

لأحد أن يعترض على قدرة الله تعالى برؤية آخر حلقات هذه السلسلة، كذلك لا يصح الاعتراض على قدرة الله تعالى بسبب أول حلقة منها.

أما أن ينكر أحد وجود الله تعالى فهذه قضية أخرى، وعليه معرفة الأدلة على وجود البارئ تعالى أولاً؛ لكن الذي يؤمن بالله وبأنه تعالى يدير هذا الكون عبر القوانين والوسائط، وأن هذا الكون كله يجري بواسطة شتى الوسائل والأسباب والعلل، ومع ذلك يقول بأن وجود الملائكة مُنافٍ لقدرة الله تعالى، فقله هذا وهمٌ أو هنٌ من بيت العنكبوت. فما دام الله تعالى يدير هذا الكون عبر آلاف الوسائط والأسباب والعلل والنواميس، وهذا لا يقدر في قدرته، فكيف يكون وجود الملائكة منافياً لقدرة تعالى. إذا كان الله تعالى قد جعل النور سبباً لإبصار العين، وخلق ذبذبات الهواء علّةً لحاسة السمع، ولا يمس ذلك قدرة الله، فكذلك خلق الملائكة كعلّةٍ أولى في إدارة نظام الكون لا ينال شيئاً من قدرة الله تعالى.

يتبين من القرآن الكريم أننا إذ تعمقنا في النظام الكوني من أي طرف من أطرافه، نجده يغيب تدريجياً في سلسلة من العلل والأسباب الخفية أو النتائج الدقيقة للغاية، ولا يظهر ولا يتجلى منه إلا الحلقات الوسطى. خذوا مثلاً الإنسان، فإن أسباب وعلل خلقه الأوّل خفيةٌ، كما أن النتائج بعد موته أيضاً مستورة، وهذه الأحوال الخفية والدقيقة من الناحيتين عميقة الصلة بالملائكة التي هي حلقات دقيقة من سلسلة المخلوقات، وكأن الملائكة واسطة بين الله وبين المخلوق. قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٣)، أي الواقع أن المنتهى كل شيء إلى ربك. أما الوسيلة التي توصل إلى هذا المنتهى فقد أخبر الله تعالى أن الملائكة هي آخر واسطة للوصال مع الله تعالى. عندما يُخلق شيء فأول حلقة لخلقه هي الملائكة، وعندما يُكمل هذا الشيء مشواره ويفنى فإن آخر حلقة له أيضاً الملائكة. وهكذا فإن المخلوق يبدأ من أسباب دقيقة للغاية ويأخذ شكله، ثم يمرّ بأشكال دقيقة شتى ليصل إلى غايته بواسطة الملائكة. يتضح من القرآن الكريم أن الملائكة هي الحلقات الأولى لنظام الكون كله، وأنهم ينفذون أوامر الله تعالى في الكون، قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٨﴾ (غافر: ٨)، أي أن الملائكة الذين يحملون العرش وكذلك الذين هم حول العرش يحمدون ربهم ويؤمنون به ويدعون للمؤمنين بأن يغفر الله ذنوبهم. لقد بينتُ معنى العرش في تفسير قول الله تعالى سورة يونس ﴿ثم استوى على العرش﴾، وأثبتُ أن معناه ظهور الصفات الإلهية، وعليه فالمراد من حمل الملائكة للعرش أنهم يُظهرون صفات الله تعالى.

إن نظام الكون كله يدار بصفات الله تعالى، فحمل الملائكة للعرش يعني أنهم الحلقات الأولى لإدارة نظام الكون كله ويُظهرون صفات الله تعالى في العالم المادي.

وبينتُ آياتُ القرآن الكريم مهماتِ الملائكة أيضاً: مثل إنزال الوحي، تنفيذ السنن الكونية، الإمامة والإحياء، ترغيب القلوب في الخير وغيرها من المهام، وسوف نتحدث عنها عند تفسير الآيات المتعلقة بها. وسبب ورود ذكر الملائكة في هذه الآية قيد التفسير هو أن الله تعالى قد قال بعد بضع آيات: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ (البقرة ٣٥)، ويتبين من ذلك أن من أعمال الملائكة أن الله تعالى حين يبعث نبياً أو مأموراً فيأمرهم بتسخير الكون كله في تأييده، لأن الملائكة هم العلة الأولى لكل الأسباب المادية في الكون، وهكذا فكل الكون يصبح في خدمة هذا المبعوث، فيصير غالباً في النهاية رغم المعارضة الشديدة، ويحقق الغاية التي بُعث من أجلها.

وهذا الأمر مذكور في الحديث الشريف أيضاً حيث ورد: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيْلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيْلُ، فَيُنَادِي جَبْرِيْلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ". (البخاري، كتاب الأدب، باب المقة من الله)

وهذا الحديث يؤكد معنى الآية المذكورة آنفاً حيث بين أن الملائكة هي العلة الأولى للتورات والتغيرات الحاصلة في الكون بأمر الله تعالى، ومن واجباتهم وضعُ القبول للمبعوثين الربانيين. ولأنهم المشرفون على التغيرات المادية الحاصلة

في الكون، فإنّ النظام الكوني كله يبدأ في تأييد المبعوثين بسبب تأييد الملائكة لهم، فيتهدي ذوو الطبائع السفلية أخيراً برؤية التأييدات السماوية للمبعوثين ويؤمنون بهم.

موجز القول إن الملائكة كائنات روحانية، خلقهم الله تعالى كالحلقة الأولى في العالم المادي، وجعلهم مدبرين له. وهم ليسوا عند الله تعالى كأهل الحاشية في بلاط الملوك؛ بل كما أن الله تعالى قد خلق أسباباً شتى لإدارة نظام الكون، كذلك جعل الملائكة السبب الأول والعلّة الأولى لإحداث التغيرات في الكون، فلا يرحون يُحدثون في الكون التطورات بإذن الله تعالى، طبقاً للسنن التي وضعها الله تعالى، فلا يزال نظام الكون يجري بتدبيرهم بحسب السنن الموضوعة على ما يرام. لا شك أن الذين لا يتدبرون ينكرون وجود الملائكة لأن العين المادية لا تراهم، ولكن إنكارهم لوجود الملائكة يماثل إنكار بعض الجاهلين للسنن الطبيعية نتيجة جهلهم بأسبابها الدقيقة الخفية. فيوجد في هذا العصر أيضاً قومٌ ينكرون وجود جراثيم الأمراض ويعزونها إلى غضب آلهتهم، لكن الذين عندهم مسحة من الروحانية قد تمكنوا من رؤية الملائكة. فقد ورد في الإنجيل نزول جبريل على المسيح الناصري عليه السلام، وذكر القرآن الكريم والأحاديث النبوية نزول الروح الأمين جبريل على سيدنا ومولانا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفي هذا العصر قد أعلن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام علاقته بالملائكة. وقد تشرفتُ شخصياً برؤية الملائكة بفضل الله تعالى، وبعد هذه التجربة الشخصية أتعجب دائماً من الذين يحسبون الملائكة مجرد كفاءات كامنة في الإنسان. فلا أملك بعد هذه التجارب الشخصية إلا القول إن أفكار هؤلاء القوم ليست إلا نتاج وهم وجهل.

ولمعرفة أعمال الملائكة والغاية من خلقهم وسبل الاتصال بهم ومنافعهم وغيرها من الأمور الكثيرة ينبغي مطالعة كتابي "ملائكة الله". لا يمكن بيان هذا الموضوع الطويل أثناء التفسير مرة واحدة، غير أنني سأتناوله عند تفسير شتى الآيات ذات الصلة به.

وملخص هذه الآية الكريمة أنها تشكّل الدليل الناصع على الدعوى الواردة في الآيات السابقة بأن من سنة الله المستمرة أن يبعث الأنبياء عند الحاجة، وأنه لم يزل يفعل هكذا منذ البداية، وأنه تعالى عندما يبعث مأموره إلى الدنيا يخبر ملائكته بخبر ظهوره، لكي ينشط كل واحد منهم في نطاق عمله لتأييد المبعوث ونصرته.

كما تشير هذه الآية إلى أن من سنة الله المستمرة منذ القدم أنه عندما يبعث نبيه فإن أهل الصلاح وذوي السمائل الملائكية -ناهيك عن العصاة- لا يدركون ضرورة النبوة لبعدهم عن عصر النبوة ولجهلهم بخصائصها، وينكرون ضرورة بعثته نتيجة جهلهم بحقيقة هذا النظام الجديد الذي يريد الله إقامته على يد نبيّ العصر، ولكن الله تعالى يأبى إلا أن يقيم هذا النظام ويهيئ أسباب خير كثير للعالم.

كما تتضمن هذه الآية الإشارة إلى أنه كان لا بد أن يحدث هكذا عند بعثة محمد رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم أيضاً، فلا غرابة إذا كان الكافرون لا يرون ضرورة بعثته ﷺ، لأنه عندما بدأت النبوة أول مرة لم يستطع الملائكة أيضاً أن يدركوا الحاجة إليها، ولكن الأحداث جعلتهم يعترفون بعظمة مبعوثه في نهاية المطاف.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣٢)

شرح الكلمات:

آدم: ورد في أقرب الموارد: "آدم: أبو البشر (صلوات الله عليه). قيل هو اسم أعجمي، وقيل هو مشتق."

وعندي أنه مشتقّ، وهو غير منصرف لكونه علماً ولكونه على وزن "أَفْعُلُ". ولو اعتبرنا آدم مشتقاً، وهو الأصحّ، فقد سُمّي بهذا الاسم لأنه جمع الناس على التمدن؛ "يقال: آدم يأدُم بينهم أدماً: أَلْفَ وَوَقَقَ"؛ أو لأنه تكوّن من عناصر وقوى متعددة؛ يقال: "آدمَ الخبز: خلطه بالإدام"؛ أو لأنه صار أسوة لأصحابه، يقال: "آدم أهله: صار لهم أسوة"؛ أو لأنه عاش على سطح البسيطة، فـ "أديم الأرض سطحها"؛ أو لأنه صار وسيلة بين الله تعالى وبين عباده، فـ "الأدمة: الوسيلة" (الأقرب).

الأسماء: جمع الاسم وهو: اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتمييزه... واسمُ الشيء: علامته (الأقرب).

والاسم: ذات الشيء، والاسم أيضاً الصفة (الكليات).

عَرَضَهُم: عرض الشيء له: أظهره له. عرضَ المتاع للبيع: أظهره للراغبين في شرائه. عرض الشيء عليه: أراه إياه (الأقرب).

أَنْبِئُونِي: أنبأ الخبر: خبره. (الأقرب)

صَادِقِينَ: صدق (يصدق) في الحديث صدقاً وصدقاً: ضدُّ كَذَب. صدَقَه الحديث: أنبأه بالصدق (الأقرب).

صدَّقني فلان: قال لي الصدق (الناج).

وفي حديث البخاري ومسلم أن جبريل سأل الرسول ﷺ ذات مرة سؤالاً، فلما أجابه قال له: صدقت، أي أصبت القول، وهذا هو المعنى المراد في هذه الآية.

التفسير: اختلف المفسرون في الأسماء التي علّمها آدم ﷺ. فقال البعض إنها أسماء الأشياء مثل الصحف والقدر، بمعنى أنه علّمه اللغة (الدر المنثور).

وزاد عليه البعض وقال أنه تعالى علّمه اللغات كلها (فتح البيان). ولكن هذا المعنى خلاف للعقل والنقل كلية.

وقال آخرون: علّمه أسماء ذريته أجمعين (الدر المنثور).

لقد اختلف هؤلاء لأن الله تعالى لم يذكر هنا ما هي الأسماء التي علّمها آدم. ولكن إذا رجعنا إلى القرآن نفسه عرفنا بسهولة حقيقة هذه الأسماء.

لا شك أن الإنسان عندما شرع في التمدن كان بحاجة إلى لغة، ولا بد أن يكون الله تعالى قد علّم آدم لغةً ما، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن ثمة أسماءً معينة لا بد للإنسان أن يتعلمها لتكميل دينه وخلقه، ولا يمكن أن يعلمها إلا الله جل وعلا. فلا بد أن تكون تلك الأسماء المعينة ضمن الأسماء التي تتحدث هذه الآية عن تعليمها، وتلك الأسماء مذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١).

يتبين من هذه الآية أمران:

الأول: أن من المحال أن ينال الإنسان معرفة الله ويرث أفضاله بدون علم صحيح بأسمائه، أي صفاته تعالى.

والثاني: أن العلم الصحيح بهذه الأسماء، أي الصفات، لا يتيسر إلا بتعليم الله تعالى، وأن الذين يحاولون لذلك بعقولهم وأفكارهم فإنهم يقعون في الخطأ حتماً، ولا يستطيعون نيل العلم الصحيح بأسمائه تعالى.

ولما كان آدم عليه السلام قد بُعث لتأسيس الدين وتعزيز علاقة المخلوق بالخالق جل وعلا، فكان لازماً أن يعلمه الله أسماءه، كي تعرف أمته ربّها وتتواصل به تعالى. ولولا تعليم تلك الأسماء كان هناك خطر أن يلحدوا وينحرفوا عن الدين.

فلما ثبتت ضرورة تعليم الله أسماءه لآدم، فندرك بكل سهولة أن الأسماء الإلهية كانت حتماً ضمن الأسماء التي تتحدث عنها هذه الآية بأن الله علّم آدم إياها، بل نستطيع الجزم، نظراً إلى ضرورة الدين، بأن هذه هي الأسماء المقصودة هنا أساساً، أما الأسماء الأخرى فهي ضمنية.

والمفسر المظهري هو الوحيد بين المفسرين القدامى الذي قال إن المراد من الأسماء هنا الأسماء الإلهية، وقد عدّ صاحب تفسير "فتح البيان" قول المظهري

بلا دليل (فتح البيان). والحق أن المعنى الذي ذكره المظهرى مدعوم بالدليل أكثر من أي معنى آخر، كما ذكرت آنفاً.

ومما يدل على أن هذا هو المراد من تعليم الأسماء هنا أن الآيات التالية تبين أن الأسماء التي علّمها الله تعالى آدم لم يكن الملائكة يعرفونها معرفة كاملة، والأسماء التي لا يعرفها جميع الملائكة فرداً فرداً معرفة تامة إنما هي الصفات الإلهية، لأن الملائكة كما وصفهم القرآن الكريم ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥١)، فهم يعرفون ما يؤمرون بفعله، أما ما سوى ذلك فأتى لهم معرفته؟ إنهم لا يقدرّون على إدراك حقيقة صفات الله الغفار والستار والقهار مثلاً، إنما الإنسان هو الذي أعطاه الله هذا العلم وجعله قادراً على اختيار ما يشاء، وجعله عرضة للخطأ والنسيان، فبعد التعليم الإلهي للإنسان إنه يعصي تارةً ويتوب أخرى، وينسى حيناً ويعود إلى الصراط المستقيم حيناً آخر. وكذلك يستفيد الإنسان من غفران الله وهدايته مرةً، ويثير غضبه بإصراره على عصيانه مرةً أخرى. أجل، لا يعلم الصفات الإلهية علماً كاملاً إلا الإنسان، وليس الملائكة من هذا العلم الكامل في شيء، فإنهم إنما يعلمون من الصفات ما يتصل بنطاق عملهم فحسب، ولكل منهم عمل محدد لا يتجاوزه. ومن أجل ذلك ركّز الله تعالى هنا على كلمة ﴿كُلُّهَا﴾، فبين أن الملائكة يعرفون صفةً واحدةً أو أكثر كلٌّ بحسب نطاق عمله، أما الإنسان فيعلم الصفات الإلهية كلها. فكما أن الله تعالى رحيم فإن الإنسان أيضاً مزود بأن يكون رحيماً بحسب وسعه، وكما أن الله غفار فإن الإنسان يمكن أن يكون غفّاراً وفق نطاقه، وكما أن الله قهار فإن الإنسان قادر على أن يكون قهاراً بحسب دائرته، وكما أن الله جبار فإن الإنسان يستطيع أن يكون جباراً في نطاقه، وكما أن الله شكور فإن الإنسان يستطيع أن يكون شكوراً في نطاقه. أما الملائكة فلا يصلح كل واحد منهم أن يتحلّى بكل تلك الصفات. فمثلاً يستحيل لملائكة الموت أن يرحموا أحداً، لأن عملهم إزهاق الأرواح، ولا يستطيع الملائكة الموكلون بالرزق أن يُميتوا أحداً، ولا يستطيع الملائكة الموكلون بإنزال الوحي الإلهي القيام بأي عمل آخر، ولكن

الإنسان الكامل يُحيي مرة ويميت أخرى، ويغفر تارة ويعاقب أخرى. فثبت أن الإنسان هو الذي يحمل الصفات الإلهية كلها، ولكن الملائكة يحملون صفة أو بعض الصفات فقط، لذلك قد أُعطي الإنسان من العلم الكامل لصفات الله تعالى ما لم يُعطه الملائكة. وقد وُضع الأساس لهذا التعليم على يد آدم وعند بعثته، لا قبله، لأن الإنسان قبل ذلك لم يكن كاملاً، ولم يتيسر له هذا العلم، ولم يكن واقفاً على الصفات الإلهية كلها.

وكما أشرت من قبل، فإن من مفاهيم هذه الآية تعليم اللغة أيضاً، لأن اللغة ضرورية لتأسيس مجتمع متمدن. ويبدو أن الله تعالى علّم آدم مبادئ اللغة، فأسّس عليها علم اللغة. والتدبر في هذه الآية يكشف أن تلك اللغة هي اللسان العربي؛ لأن هذه الآية تصرّح أن آدم ﷺ تعلّم الأسماء بواسطة مسمياتها، بمعنى أن اللغة التي تعلّمها كانت قائمة على ما يوجد بين الأسماء والمسميات من علاقة، أي أن كل شيء فيها سُمّي باسمه بناءً على خواصه، فلم تكن الأسماء بدون سبب يربطها بمسمياتها. واللغة العربية هي التي تتميز بهذه الميزة دون سائر اللغات، حيث توجد فيها علاقة عميقة بين كل الأسماء ومسمياتها، أما اللغات الأخرى ففتفتقر إلى هذه الميزة إذ سُمّيت الأشياء فيها من أجل التعريف فقط، ولو غيرنا أسماء المسميات لما حدث أي خلل. فمثلاً في اللغة الأردية يسمى الطعام المصنوع من الغلال "روتي"، ويسمى بالإنجليزية "برد"، وبالفارسية "نان"، ولو استبدلنا هذه الأسماء بأسماء أخرى لما كان لذلك أثر يُذكر. أما العربية فيسمى فيها هذا الطعام "خبزاً"، وهو اسم ذو معنى، لأن حروف "خ ب ز" تدلّ على الصنع والانتفاخ، فيقال: برّخ: أي نفّخ صدره وأبرزه، وخبز: سَمِنَ بدون مرض أو عيب، وخبَزَ: صَنَعَ شيئاً بضرب الكفّين بسرعة. والخبز يصنع بالأيدي بسرعة، وهو أيضاً ينتفخ على النار. إذن فهذه الكلمة تصوير حقيقي لهذا الطعام، ولو استبدلناها بكلمة أخرى ما أفادت هذا المعنى.

ومن أسماء الله "الرب"، ومعناها في العربية الذي يرَبّي ويطور الشيء من حالة أدنى إلى حالة أعلى، ولا يتأتى هذا المفهوم لو استبدلناها بكلمة أخرى.

ثم كلمة "السماء" مشتقة من حروف "س م و"، التي تدل على الارتفاع والعلو، ولكن كلمة "آسمان" الفارسية أو "سكاي" الإنجليزية لا تبين هذا المدلول.

فثبت أن العربية هي اللغة الوحيدة التي اخترعت فيها الأسماء كلها للدلالة على حقيقة مسمياتها، ولو استبدلناها بأخرى لم تنكشف حقيقة تلك الأشياء، وإنما تكون مجرد علامة. أما اللغات الأخرى فلا أثر لهذه الميزة فيها، إلا ما شاء الله. وعليه فالمراد من تعليم الله آدم الأسماء أنه تعالى علّمه لغة ذات نظام محكم، ومبنية على فلسفة عميقة، وكان كل لفظ فيها ذا مدلول معين، وبتعبير آخر علّم الله آدم ﷺ اللغة العربية التي صارت فيما بعد أمّ اللغات. ولمعرفة المزيد عن هذا الأمر الرائع راجع كتاب مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية "من الرحمن" حيث تناول موضوع كون اللغة العربية أمّ الألسن بشكل رائع ولطيف.

ولا أعني بذلك أن سيدنا آدم ﷺ تعلّم اللغة العربية بشكلها الحالي، أو أنها لم تتطور بعده ﷺ، وإنما أعني أن تلك اللغة وُضِعَ أساسها على مبادئ اللغة العربية، أما تغَيَّر تلك اللغة وتطورها وتوسعها فلا علاقة له بهذه القضية، ولا يقدح هذا في أفضلية اللغة العربية وخصوصيتها. إن المبادئ والأصول هي هي، غير أن تلك اللغة قد تطورت بحسب هذه الأصول والمبادئ وسوف تتطور في المستقبل أيضاً.

ويمكن تفسير قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء﴾ بمفهوم آخر، وهو التعليم الفطري الطبيعي، وهو غير التعليم الحاصل عن الوسائل الخارجية، فالمعنى أن الله تعالى زوّد فطرة آدم ﷺ بصلاحية تعلّم شتى العلوم. ومعلوم أن أفراد كل جنس يقدرّون على تعلّم العلوم الخاصة بجنسهم ولو بدرجات متفاوتة، ولكنهم لا يقدرّون مطلقاً على تعلّم العلوم التي هي خارج نطاقهم. فثبت أن الله تعالى قد جعل لكل جنس قدرات وكفاءات للتعلّم تختلف عن قدرات الأجناس الأخرى، فمثلاً إن نطاق تعلم الإنسان هو غير نطاق تعلم العصفور أو البيغاء

أو الحصان أو الكلب. لا شك أن العصفور أو البغاء إذا تعلّم بعض الكلمات بالتدريب، فإنه لا يقدر على أن يستوعبها جيداً، ولا يكون بوسعه أن يتحدث في كل موضوع، ولكن الإنسان قادر على ذلك. وكذلك الحصان والكلب يتعلمان بعض المهارات، ولكن لا يكون نطاق تعلّمهما واسعاً كنطاق تعلّم الإنسان. وعليه فيمكن أن يكون أحد مفاهيم هذه الآية أن الله تعالى زوّد الإنسان بصلاحية تعلّم العلوم الكثيرة والواسعة، والمراد من قوله تعالى ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أنه زود الإنسان بصلاحية تعلّم خواص الأشياء. وبالفعل نجد الإنسان منذ عهد آدم وإلى اليوم عاكفاً على الاختراع والاكتشاف في شتى المجالات العلمية، ويزداد علماً كل يوم. فالأسماء في هذه الحالة تعني الخواص والصفات، لكن ليست صفات الله، بل الخواص الطبيعية للأشياء.

أما نظراً إلى اصطلاح أهل المنطق فالمراد من هذه الجملة أننا جعلنا آدم حيواناً ناطقاً، أي زودناه بصلاحية التدبر في الأشياء والوصول إلى كنهها وحقيقتها، وكذلك صلاحية تعليم الآخرين، كما يشير إلى ذلك لفظ ﴿أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾.

كما تتضمن هذه الآية الإشارة إلى أن الخلافة ذات صلة بالأسماء التي سبق ذكر تعليمها لآدم، ذلك أن الله أخبر في الآية السابقة لهذه الآية بأنه تعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، ثم في هذه الآية أخبر الله تعالى أنه علّم آدم الأسماء، ثم الآيتان التاليتان تتحدثان عن هذه الأسماء نفسها، ثم بعدهما أخبر الله تعالى أنه أمر الملائكة بطاعة آدم، وهذا يدل على أن خلافة آدم بدأت بعد أن علّمه الله هذه الأسماء، ومنذ ذلك الحين أمر الملائكة بتأييده ونصرته. فالحق أن الآية الأولى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لا تخبر عن خلافة آدم بل تخبر عن الخلافة فقط، ثم بعدها علّم الله آدم الأسماء، وكان هذا بمثابة إعلان عن شخص اختاره الله خليفة في الأرض.

أما قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فلا ينخدعن أحد من كلمة ﴿كلها﴾ أنها تعني أن آدم أُعطي علماً كاملاً لجميع الصفات الإلهية كلها، أو

لغة كلها. ذلك أن كلمة (الكل) لا تشمل بالضرورة كل فرد من الجنس، بل يُطلق أحياناً على ما هو ضروري فقط. وقد ورد هذا الاستعمال في مواضع عديدة في القرآن الكريم كقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام ٤٥)، أي أن الأمم التي قبلك لما نسي أهلها وصايانا فتحننا عليهم أبواب كل أنواع الرقي، ثم بعد ذلك أنزلنا عليهم العذاب. فـ ﴿كل شيء﴾ هنا لا يعني أنهم نالوا كل نعمة من الدنيا، بل المقصود أنهم نالوا نصيباً من كل النعم العظيمة في عصرهم أو في بلادهم.

وأيضاً قال الله تعالى لأهل مكة ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ (القصص ٥٨)، وليس المراد من ﴿ثمرات كل شيء﴾ هنا كل الثمار الموجودة في العالم، بل ما هو ضروري منها لصحة أهل مكة ومُتعتهم ولذتهم. وهناك آيات أخرى ورد فيها لفظ ﴿كل﴾ بمعنى الكثير أو حسب الحاجة والضرورة.

واستعمال لفظ ﴿كل﴾ وما يمثله في المعنى، شائع في كل اللغات بالإضافة إلى العربية، والسياق يحدد ما إذا كان المراد به هو المعنى الحقيقي أم المجازي. فليس المراد من قوله تعالى ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أن الله تعالى علّمه الصفات الإلهية كلها، أو كل الصفات الإلهية المتعلقة بالإنسان، أو العلم الكامل لتلك الصفات، لأن الثابت من القرآن الكريم أن علم الصفات الإلهية المتعلقة بالدين كُشف للناس تدريجياً، واكتمل على يد الرسول ﷺ، كما قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة ٤). فالصفات الإلهية لم تنكشف كلها على آدم عليه السلام، بل ظلت تنكشف شيئاً فشيئاً عبر العصور، وبلغ انكشافها الذروة والكمال على يد الرسول ﷺ. وعليه فالمراد من تعليم الله لآدم الأسماء كلها أنه انكشف على آدم من صفات الله تعالى ما كان ذا صلة بعصره، وبالقدر الذي كان ضرورياً في زمنه فقط. كما أن لفظ ﴿كلها﴾ لا يعني أنه انكشف عليه من صفات الله تعالى ما ليس له علاقة بالبشر.

غير أنه يمكن أن يراد من كلمة ﴿كلها﴾ كل الصفات المتعلقة بالإنسان، وعليه، سيكون معنى هذه الآية أن الله تعالى زود آدم وذريته بصلاحية إدراك كل الصفات الإلهية؛ بمعنى أن تعليم الله لآدم الأسماء كلها كان بالقوة وبالإجمال، وليس بالفعل وبالتفصيل، أي أن الله تعالى زود آدم وذريته بكفاءة إدراك الصفات الإلهية بصفة عامة، وإن كان هذا التعليم قد اكتمل بالفعل وبالتفصيل على يد سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

وكذلك إن تعليم الله لآدم أسماء اللغة لا يعني أنه تعالى علّمه كل أسماء اللغة وموادها، بل المراد تعليمه أصول اللغة التي تطورت فيما بعد بصورة اللغة العربية المتكاملة.

أما قوله تعالى ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ فضمير الغائب "هم" في ﴿عرضهم﴾ لا يعود على الأسماء، لأن هذا الضمير لجمع المذكر العاقل، أما كلمة ﴿الأسماء﴾ فمؤنثة ومؤكدة بكلمة ﴿كلها﴾؛ فثبت أن الذين عرضوا على الملائكة ليسوا الأسماء نفسها، بل الذين سُموا بها.

كما أن ضمير الجمع للغائب العاقل في ﴿عرضهم﴾ يدل على أن ما عرض على الملائكة لم يكن من قبيل الأدوات مثل الكوب أو الإبريق أو القدر وغيرها من الأشياء، إذ لو كانت هي المقصودة ل قيل "عرضها" بدلاً من ﴿عرضهم﴾، لأن ضمير "هم" لا يعود في العربية على الحيوانات وغير ذوي العقول، ناهيك أن يعود إلى الجمادات من قدرٍ وغيرها من الأدوات. فثبت أن الذين عرضوا على الملائكة كانوا ذوي العقول.

ولا يلزم من قوله ﴿عَرَضَهُمْ﴾ أن يكون العرض بصورة مادية لأن العرض يعني الإراءة أيضاً، فإذا كان ضمير "هم" عائد على ذرية آدم أو إلى الذين سيكونون أظلاله الكاملين في المستقبل، فقد يكون المراد أن الله تعالى أرى الملائكة مسميات هذه الأسماء، أي أراهم بالكشف أولئك الكُمَّل الذين كان من المقدّر أن يكونوا مظاهراً لتلك الصفات الإلهية في المستقبل.

أما السؤال مَنْ هؤلاء؟ فنستطيع القول، بالتدبر في السياق، إن الملائكة كانوا يتعجبون من اصطفاء خليفة في الأرض مخافة أن يتسبب في سفك الدماء ونشر الفساد، فأرى الله الملائكة أولئك الذين سيكونون في المستقبل مظاهرَ كاملةً للصفات الإلهية التي كانت ستتجلى على آدم وذريته، ثم قال الله للملائكة إذا كان قولكم صحيحاً فأُنِيبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ؛ بمعنى أن الله تعالى أراهم بتقديم هؤلاء الكُمَّل مشهداً لصفات رحمته أو غضبه التي كانت ستتجلى في المستقبل، وقال لهم هل بوسعكم أن تخبروني عن صفات هؤلاء بالتفصيل؟

كما يمكن أن يكون المعروضون على الملائكة هم أولئك الأعوان والأنصار الذين وهبهم الله لآدم بعد أن تعلّم منه الأسماء وتولّى الخلافة، والذين كانوا مظاهرَ لصفات الله المختلفة، أي أن الله تعالى عرّض هؤلاء الأعوان على الملائكة وقال: أخبروني عن أسماء هؤلاء، أي عن صفاتهم الكاملة بالتفصيل إذا كان رأيكم في البشر صائباً. بمعنى أن هؤلاء نموذج مثالي للصلح والسلام، وانعكاسٌ لصفات الله تعالى، وهم الذين قد رباهم آدم، فكيف يمكن أن يقوموا بسفك دم أو فساد. أمّا أعداء آدم، أو الذين يؤمنون بتعاليمه في الظاهر ولا يتبعونه حقاً، فكيف يمكن أن يكون آدم مسؤولاً عن تصرفاتهم وأعمالهم؟

والحق أنه لم يأت حتى اليوم نبي إلا وكانت بعثته مقرونةً بسفك دماء وهياج فتن، لكن ذلك لم يكن نتيجة أعمال النبي أو أعمال أتباعهم، أو بحسب رغبتهم، بل كان ذلك ضد إرادتهم ونتيجة شرور أعدائهم. فالواقع أن الفساد الذي يبدو أنه ظهر حديثاً نتيجة فعل النبي، لا يخلقه النبي في الحقيقة، إنما هو ظهورٌ للفساد الدفين في قلوب المعارضين الأشرار والذي يُشعلهُ تمرّدُهم، حيث يصبح النبي سبباً لظهور هذا الخبث والسوء من قلوبهم. والظاهر أن علاج شرورهم الدفينة واجتثاثها محال ما لم تظهر من القلوب إلى السطح.

لقد بين المسيح عليه السلام هذا المعنى بالكلمات التالية: { لَا تَطُتُوا أَنِّي جئتُ لِأُلْقِيَ سَلامًا عَلَى الْأَرْضِ. مَا جئتُ لِأُلْقِيَ سَلامًا بَلْ سَيفًا. فَإِنِّي جئتُ لِأُفَرِّقَ الْإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالْابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا، وَأَعْدَاءُ الْإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ }

(إِنْجِيلُ مَتَّى ١٠: ٣٤-٣٦). لقد أشار المسيح ﷺ هنا أنه ما جاء إلا للسلام، ولكن المعارضين سوف يغيرون رسالة السلام هذه إلى إعلان الحرب، وسوف يصبح الأخ نتيجة الإيمان بي عدوًّا لأخيه، والأبُّ عدوًّا لابنه، وسوف يكشفون عما في باطنهم من خبث وشر وفتنة، وهكذا يشعلون الحرب رغم رسالته الداعية إلى السلام، ويُخَيِّلُ للناس أنه يدعو إلى القتال والفساد مع أنه رسول الصلح والسلام.

كذلك قال الله تعالى وهو يصف حال المسلمين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ (البقرة ٢١٧)، أي قد فرضت عليكم الحرب رغم أنكم تكرهونها جدًا، بمعنى أن المسلمين يحبون الصلح والسلام من صميم قلوبهم، ولكن العدو قد شنَّ عليهم الهجوم مرة بعد أخرى حتى اضطر المسلمون للقتال. واليوم يلقي كل العالم المعادي للإسلام اللومَ على المسلمين بأنهم نشروا الفساد وسفكوا الدماء، ولا يفكر أحد منهم أن الكفار هم الذين أجبروا المسلمين على القتال، فالكافرون هم الذين ارتكبوا جريمة سفك الدماء وليس المسلمون، فمَنْ أجبرَ خصمه على حمل السيف فلو قُتِلَ خصمه، أو قُتِلَ بيد خصمه، فهو القاتل في الحالتين، لأنه هو الذي دَفَعَ خصمه إلى حمل السيف عليه.

ملخص القول إن من معاني هذه الآية:

(أولاً): أن الله تعالى أظهرَ للملائكة بواسطة الكشف أولئك البشر الكاملين، سواء أكانوا كاملين في التقوى أو كاملين في الكفر، الذين كان من المقدر أن يُخلقوا في المستقبل، وسأل الملائكة: هل تستطيعون أن تخبروني عن صفاتي التي سوف تتجلى من خلال هؤلاء؟

و(ثانياً) أن الله تعالى عرض على الملائكة أولئك الذين كانوا سيُحزرون الكمال الروحاني نتيجة تربية آدم ويستفيدون مما يعلمهم من الصفات الإلهية، وسأل الملائكة: هل تقدرون على التحلي بمثل صفاتهم وخواصهم، وليس المراد أنه سألهم: ما اسم هذا وما اسم ذاك. وكان الهدف من ذلك أن يبين للملائكة أن الذين سوف يُربّيهم آدم لن يسفكوا الدماء ولن ينشروا الفساد في الأرض،

بل إن الأعداء هم الذين يعارضون هؤلاء الطيبين المسالمين ويبدأونهم بالحرب، فالأعداء هم الذين يرتكبون سفك الدماء لا آدم ولا أتباعه، وإن كان هؤلاء الأعداء الكفار يتشدقون دائماً: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٢).

أما قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فليس معناه: إن كنتم تصدقون القول، ذلك أنه سبق أن أثبت أن وقوع الملائكة في الإثم محال بحسب القرآن الكريم، فليس المراد أنكم إن لم تكونوا كاذبين فأخبروني بصفات هؤلاء، بل المراد إذا كان رأيكم صائباً فأنبؤني بصفاتهم. وقد بينت لدى شرح الكلمات أن (الصدق) لا يعني دائماً قول الحق، بل يعني أيضاً الإصابة في الرأي، وهذا هو المراد هنا.

ويتضح من معاني هذه الآية أيضاً أن الله تعالى يُطلع أنبياءه - إلى حد ما - على مواهب أتباعهم والأنبياء المبعوثين من بعدهم، ونرى هذه السنة الإلهية مستمرة مع الأنبياء الذين بعثوا بعد آدم، فإنهم ظلوا يُنبئون ببعثة نبي أو أنبياء يأتون من بعدهم، أما سيدنا ومولانا محمد ﷺ الذي كان جامعاً للكمالات والفضائل كلها فقد أنبأ ببعثته كل نبي سابق. وكذلك يتضح بالنظر في حياة الأنبياء أن أحوال الخواص من أتباعهم تنكشف عليهم انكشافاً إجمالياً، ولذلك لم يخطئ نبي في اختيار أصحابه وأنصاره قط، أي لم تجتمع أغليبتهم على الخطأ بتاتا. ويا ليت إخواننا الشيعة أدركوا هذه الحقيقة، فكفوا عن معاداة الخلفاء الراشدين.

حكمة لطيفة: من طرق التعليم الحديثة ما يُسمى "روضات الأطفال" التي ابتكرها ألمانيا، حيث لا يعلّمون الصغار من الكتب، بل يعرضون عليهم الأشياء ويعلمونهم أسماءها، مما يساعدهم على حفظ الدرس جيداً بدون عناء. في هذه الطريقة التعليمية يأخذون الأولاد إلى الحديقة ويحفظونهم أسماء الأشياء، أو يعرضون أمامهم صورها ونماذجها المصنوعة من الطين أو الخشب. وتعتز أوروبا، ولا سيما ألمانيا، بهذه الطريقة التعليمية كثيراً، ولكن انظروا كيف أن القرآن الكريم قدم في هذه الآية الوجيهة فكرة روضات الأطفال تقديمًا لطيفاً

رائعاً، فإن الله تعالى لم يعلم آدم عليه السلام اللغة بحفظ الكلمات عن ظهر غيب، بل علمه أسماء الأشياء بعرضها عليه وبيان خواصها له عملياً. ثم عند تعليم الملائكة، لم يجبه الله تعالى بالكلمات فقط، بل اتبع الأسلوب نفسه، أعني عرض عليهم الأشياء أو صورها في الكشف، ثم قال لآدم أُنَبِّئُهم بِأَسْمَائِهَا. ذلك لأن هذا الأسلوب هو الناجح للتعليم؛ حيث تُعرض الأشياء الأصلية، أو نماذجها، أو صورها، مع أسمائها وخواصها ووظائفها. فأول درس على منهاج روضة الأطفال لم يتم في ألمانيا، بل تم في الجنة، أو روضة آدم، فكانت بذلك أول روضة لتعليم الأطفال، حيث علم الله آدم بوحيه أولاً، ثم علم الملائكة الأسماء بعرض مسمياتها، لكي يُنقش الدرس في الذهن مع كل تفاصيله وكيفية.

ومن الأمثلة الحديثة للتعليم الإلهي ما جرى مع مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية في هذا العصر، فهو لم يتعلم في أي مدرسة، ومع ذلك لما بدأ في تأليف الكتب باللغة العربية امتثالاً لأمر الله تعالى، علمه الله في ليلة واحدة أربعين ألف لفظ من اللغات العربية (الخزائن الروحانية ج ١١، عاقبة آثم صفحة ٢٣٤). فقام بعدها بتأليف الكتب متحدية العلماء في العالم كله بأن يأتوا، جميعاً أو فرادى، بمثلها في بلاغتها ومعانيها اللطيفة الرائعة، ولكن لم يكن لأحد أن يأتي بمثلها حتى اليوم، رغم كثرة توزيع تلك الكتب في البلاد العربية وقتئذ. ومثل هذا الإعجاز ليس إلا ثمرة لإعجاز القرآن الكريم وتصديقاً له.

هناك سؤال لا بد من الرد عليه. يُقال: إذا كان الملائكة لا يستطيعون التعلم، فما الفائدة من إخبارهم بهذه الأسماء؟ وإذا كانوا قد تعلموا فقد بطل القول بوجود التفاوت بين آدم والملائكة من حيث التعلم؟!

والجواب هو أن علم آدم عليه السلام كان تفصيلياً، أما علم الملائكة فإجمالي، والعلم الإجمالي بالشيء يمكن أن يتيسر للذين ليس عندهم صلاحية تعلم ذلك الشيء بالتفصيل. كان الله تعالى يريد فقط أن يخبر الملائكة أنهم غير قادرين على معرفة الصفات الإلهية كما يقدر على معرفتها آدم بسبب ما أُعطي من

صلاحية لذلك، وكان بوسع الملائكة إدارك الأمر إلى هذا الحد إذا عُرض عليهم الكاملون من أولاد آدم وأتباعه، وليس المراد أن الملائكة حازوا العلم المفصل لصفات الله تعالى كلها بمجرد رؤية هؤلاء الكاملين.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٣)

شرح الكلمات:

سبحانك: يقال سبحان الله، أي أبرئ الله من السوء براءً. (الأقرب)
 (للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (ونحن نسبح بحمدك....).
الحكيم: العالم؛ صاحب الحكمة؛ المتقن للأمور. والحكمة: العدل؛ العلم؛ الحلم؛ ما يمنع من الجهالة؛ كل كلامٍ موافقٍ للحق؛ وقيل: وضع الشيء في موضعه؛ وصواب الأمر وسداده (الأقرب).
وحَكَمَ: أصله منع منعًا لإصلاح، ومنه سُمِّيَت اللجأ حَكَمَةَ الدابة... قال الشاعر: "أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم" (المفردات). أحكموا سفهاءكم يعني: امنعواهم من السفاهة.

التفسير: قال الملائكة بعد رؤية هؤلاء الكُمَّل، ربنا أنت بريء من كل عيب، وإننا لا نعلم إلا ما قد علّمتنا، وإنك أنت العليم الحكيم. أي أننا لم نكن نستوعب مسألة خلافة آدم، حيث ظننا أن خلافته ستؤدي إلى سفك الدماء والفساد، ولكننا قد علمنا الآن أنه رغم وقوع سفك الدماء والفساد بعد خلافته، إلا أنه لن يكون مسؤولاً عن ذلك، بل إنها نتيجة حتمية لمنصبه، وسببه الأعداء من الخارج، أو الضعفاء من الداخل، وليس الخليفة وأتباعه. لقد أدركنا الآن أن هذه الخطة لا تخلو من حكمة، وهي دليل على كونك حكيماً.

ويقول البعض خطأً بأن الله تعالى علّم آدم فتعلّم، ولكنه تعالى لم يعلم الملائكة فلم يتعلموا، فما ذنب الملائكة في ذلك، وكيف تصحّ تخطئة كلامهم؟ إنما نشأ هذا الاعتراض عند أصحابه لأنهم ظنوا أن الآية السابقة التي تضمنت الإعلان عن بدء الخلافة في الأرض تعني ما يلي:

(١) — أن الله تعالى استشار الملائكة، (٢) — فقال الملائكة في الجواب إننا نسبح بحمدك فما الحاجة إلى خليفة معنا، ألا نكفي لتسبيحك.

ولكن كلا الأمرين اللذين استتجوهما من هذه الآية باطل، لأنه:

(أولاً): لا تحدث هذه الآية عن أي استشارة من قبل الله تعالى، بل تقول إن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. لا تدل في هذه الكلمات أبداً على أي استشارة. لو أراد الله استشارتهم لقال: ما رأيكم أيها الملائكة، هل أجعل في الأرض خليفة أم لا؟ ولكن لم يرد مثل هذا القول هنا ولا في أي موضع آخر في القرآن الكريم. فما دام الله تعالى لم يستشرهم، فكيف يقال: لماذا استشار الله تعالى الملائكة الذين لم يكن عندهم علمٌ بالأمر، وما دام قد استشارهم فلم الاعتراض على رأيهم؟

(ثانياً): لقد سبق أن بينت في تفسير هذه الآية إنه ليس في قول الملائكة أبداً ما يدل على أنهم قالوا: أي حاجة إلى أي خليفة ونحن موجودون؟. وأتّى للملائكة أن يقولوا ذلك خاصة وأن الله تعالى يخبرهم عن اصطفاء خليفة في الأرض وليس في السماء؟.

الواضح من كلمات الملائكة أنهم كانوا يريدون أن يفهموا الحاجة الداعية إلى إقامة هذا النظام الجديد في العالم مع إمكانية سفك الدماء والفساد بعد ذلك. فالحق أن سؤالهم كان من أجل فهم الحقيقة، ولم يكن اعتراضاً على الله تعالى، أو إثباتاً بأنهم أحق بالخلافة. وكان للرد على سؤالهم طريقتان: إما النفي البات لإمكانية سفك الدماء والفساد بعد الخلافة، أو إقرار هذه الإمكانية مع التأكيد أن هذا النظام الجديد بالغ الأهمية للبشر، وأن نفعه أكبر من ضرره. ولما كان الجواب الأول هو الأصح والأولى بصدد نظام الخلافة الإنسانية، فيه ردّ الله على

سؤالهم. ولم ينفِ سبحانه وتعالى إمكانية سفك الدماء والفساد على يد بعض الجناة في هذا النظام، غير أنه صرّح أن هذا النظام سيُنتج شخصيات عظيمة متحلية بعدد من صفات الله عز وجل، لذا فخلق مثل هذه الشخصيات العظيمة، بالرغم من وجود شخصيات ناقصة أيضاً، ضروريٌّ من أجل إظهار الصفات الإلهية على الأرض ونافعٌ لنظام الدنيا.

وكان من الممكن أن يتم هذا الجواب أيضاً بإحدى طريقتين:
الأولى: بدعّمه بالأدلة العقلية.

الثانية: من خلال إظهار مواهب هذا الخليفة الأول وكفاءاته بصورة عملية وبتقديم الكاملين من أتباع آدم للملائكة كشفاً.

والظاهر أن الطريقة الثانية للجواب هي الأقوى تأثيراً والأدعى إقناعاً. وهذا ما فعل الله تعالى، إذ علّم آدم صفاته، فأثبت عليه السلام بالتصبغ بصبغة صفات الله أن إظهار الصفات الإلهية إظهاراً كاملاً محالٌ إلا من خلال كائن مزود بقوى الخير والشر، ومُخَيَّر بينهما، ليستولي عليه الحبُّ الإلهي، فيندفع نحو إثناء قوى الخير في نفسه، فيحظى بقرب الله تعالى. لما كان لزماً، من أجل الظهور الكامل لصفات الله تعالى في الدنيا، أن يُخلَق كائنٌ يُعلّم ما هو الخير وما هو الشر، ويُعطى القدرة على اختيار ما شاء منهما، فكان لابد من التغاضي عن خطر وجود أفراد ناقصين يسفكون الدماء ويعيثون الفساد باتباعهم طريق الشر. ولو لم يُعطَ هذا الكائن القدرة على الاختيار، وأُجبرَ على اتباع الخير فقط، لما سُمّي مَظْهَرًا لصفات الله تعالى، بل عُدُّ أداة طيعة لا حياة فيها ولا إرادة ولا مقدرة.

بعد استيعاب حقيقة هذا الجواب لا يصعب على المرء أن يدرك ضحالة الاعتراض القائل بأن الله تعالى علّم آدم ولم يعلم الملائكة، فكيف قال لهم أُنَبِّئُونِي بِخَوَاصِّ وَصَفَاتِ هَذِهِ الْمَسْمِيَّاتِ؟ ذلك أن الملائكة إنما سألوا عن السبب الداعي لخلق هذا المخلوق القادر على ارتكاب الإثم والذي يُعَدُّ مجرماً. بمنظور الشرع. ولا يمكن الرد على سؤالهم إلا أن يقال: لا شك أن البشر يكونون قادرين على ارتكاب الإثم، ومع ذلك سيكون بينهم الكُمل الذين يسلكون

سبل الخير رغم قدرتهم على ارتكاب الشر، ويتصفون بالصفات الإلهية بحسب نطاقهم، ثم يقومون بإرشاد غيرهم إلى سبل الصلاح تحت النظام، وهذا هو الأمر الذي يجعلهم مقرّرين عند الله تعالى، ويمثّل دليلاً على كمالهم وفضلهم. فما هو السبيل لكشف حقيقة الأمر وكنه الكمال الإنسانية إلا أن يُري الله الملائكة هؤلاء الكُمَّل من البشر الذين يفوقون الملائكة في دائرة أعمالهم، ويتسببون في تجلّي الصفات الإلهية كلها بصورة أفضل. فهذه الآيات ليست مدعاة للاعتراض، بل قد بينت حقيقةً ساميةً بأفضل وأكمل أسلوب ممكن.

إن هؤلاء يقدمون هذا الاعتراض وكأن الملائكة قد اعترضوا، مع أن جواب الملائكة يكشف أنهم اطمأنوا بهذا الجواب الرباني معترفين بأن علمهم محدود وأن البشر أوسع منهم علمًا، ومقرّين بأن الله هو العليم الحكيم، أي أن علم الله كامل، ولا يخلو فعل من أفعاله من الحكمة.

يعترض البعض على هذا ويقول: هذا يعني أن الله هو العليم، وليس للإنسان أي فضل وكمال شخصي؟

والجواب أن الإسلام يُعلّم أنه ليس في أحد ميزة ذاتية في الحقيقة سوى الله تعالى، وهذا هو الحق، وهذا ما أقرّ به الملائكة في جوابهم الأول إذ قالوا منذ البداية: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فلم يكن هناك أي نقاش فيما إذا كان عند الله العلم الكامل أم لا، وإنما كان السؤال: هل هناك حاجة أو غاية لخلق البشر أم لا؟ وهذا ما أجاب الله عليه بإعطاء آدم علم الصفات الإلهية، حيث بين الله تعالى أن هذا المخلوق القادر على فعل الخير أو الشر؛ هو أكثر صلاحية لتعلّم العلوم الربانية من الكائنات التي تقدر على فعل الخير فحسب دون الشر. وقد أدرك الملائكة هذه الحقيقة وأقرّوا قائلين: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، بمعنى أنهم لا يستطيعون أن يكونوا مظهرًا كاملاً لصفة الله العليم، بل إن الإنسان هو القادر على ذلك، فلا شك أنه خلق وفقاً لصفة الله العليم، أي أن في خلقه حكمة إلهية بالغة.

لقد تبين مما سبق من الشرح أن الله تعالى قد ذكر هذه التفاصيل من قصة آدم ليبين الغاية من خلق الكون وحكمته، ويخبر أن الهدف من نزول الوحي السماوي في كل زمن إنما هو تحقيق هذه الغاية نفسها، فالذين يعترضون على بعثة الأنبياء فكأنهم يقولون: لما يريد الله تعالى تحقيق غاية خلق الإنسان؟! إنه اعتراض واهٍ وسخيف، وما كان الله ليمتنع عن بعثة الأنبياء بسببه.

أما قول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فليس معناه أن علمهم مقصور على ما علمهم الله، فهذه حقيقة بينة مفروغ منها، إنما يعنون بقولهم هذا أن علمهم لا يزداد كازدياد علم الإنسان الذي زوده الله بالقدرة عليه. ويعني قولهم أيضاً أن ما وهبهم الله من قوى لا يستطيعون بها مباراة الإنسان في علومه المتنوعة الجامعة. وكأنهم قالوا لقد أدركنا أن الإنسان مخلوق لحكمة، وأنه مكلف بعمل ما لا يستطيعونه، وأن خلق البشر ضروري وملئء بالحكم، رغم أن بعضهم سيسفكون الدماء، أو يكونون سبباً في ذلك، أو سيضطرون لسفك الدماء للقضاء على شرور الأشرار منهم.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٤)

شرح الكلمات:

غيب: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة....).

السماوات: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (أو كصيب من السماء...).

الأرض: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض...) .

تُبدون: بدا الأمر: ظهر، وأبدى الأمر: أظهره (الأقرب).

تكتُمون: كتم الشيء (يكتُم كَتَمًا وَكِتْمَانًا): أخفاه، وربما عُدِّيَ إلى مفعولين فقول: كَتَمَ زيدًا الحديث. كَتَمَ الفرسُ الرَّبْوَ: ضاق منخره عن نفسه (الأقرب). فعَجَزُ الفرس عن إخراج نفسه سُمِّيَ كَتَمًا.

وعن ابن عباس والحسن في قوله تعالى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: هو أن تنطق جوارحهم (المفردات).

وكان ظهور الشيء تلقائيًا هو عدم الكتم، وتقاصر الشيء عن الظهور هو الكتم. وعليه فقوله تعالى ﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني (١) ما تخفون (٢) ما لا تستطيعون إظهاره، أي أن الشيء الذي يجب أن يخرج منكم لم يخرج لعدم الصلاحية، بمعنى أنكم خلقتهم خلقة لا يستطيعون بها إنجاز هذا العمل.

التفسير: كان الملائكة قد استوعبوا -إجمالاً- الغاية من خلق آدم عليه السلام، ولكن -استكمالاً للدليل- أمر الله تعالى آدم ببيان خصائص الكَمَل من أمته أو نسله، لكي تتبين الحقيقة علميًا بعد أن تبينت علميًا.

وليس المراد بهذه الآية أن حوارًا جرى بين رب العزة والملائكة وآدم، إنما هو تعبير عن الحقيقة بلسان الحال طبقاً للأساليب المعروفة الشائعة في اللغة العربية، ومثاله قول الشاعر الراجز:

"امتلاً الحوضُ وقال قَطْنِي مهلاً رويداً قد ملأتَ بَطْنِي"

(فقه اللغة للثعالبي، فصل في إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل على الحقيقة).

فليس المراد أن الحوض صرخ قائلاً: كفى فقد امتلأت، بل المراد أنه قال هذا بلسان حاله.

وقال غيره: "قالت له العينان سمعاً وطاعة" (لسان العرب).

وهذا التعبير شائع في سائر اللغات، فمثلاً قال الشاعر الشهير عندنا جلال الدين اللكنوي الذي كنتُ أستخدم به لإصلاح شعري في طفولتي:

حکم دل کا ہے لگی آ کے بجھاؤ میری
عرض کرتے ہیں یہ آنسو کہ جناب آنکھوں سے

أي: قال القلب: أَطْفِئُوا النار التي تشتعل فيّ، فقالت دموع العين: نعم، نطفئها.

المقصود هو أن ألم القلب يُجري دموع العين.

فثبت أنهم يستخدمون لفظ "القول" للتعبير عن لسان حال الشيء أيضاً. وعليه فليس ضرورياً أن يكون هناك أي حوار بين الله وبين آدم عليه السلام، بل المراد أن آدم بدأ بأمر الله تعالى بإظهار الصفات الإلهية التي كانت ستظهر على يد ذريته، وهكذا انكشفت على الملائكة عملياً حقيقة الرُقيّ الروحاني الذي كان من المقدر أن يحزره البشر.

كما أنه ليس المراد من قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أن يكون الله تعالى قد أعطاه دروساً شفوية وهو جالس أمامه، بل المراد أنه تعالى أعطى آدم علم الصفات الإلهية واللغة وخواص الأشياء، إما بالوحي الجليّ أو الخفيّ أو بكتليهما.

وأما قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ...﴾، فيعني أن آدم عليه السلام لما بدأ بإظهار تلك الكمالات والفضائل المقدر ظهورها على يد أمته عموماً، وعلى أيدي الكُمَّل من ذريته خاصة، أدرك الملائكة أن لا أحد من المخلوقات يقدر على إظهار الصفات الإلهية كما يقدر البشر.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فهو شرح لقوله تعالى من قبل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، حيث بين الله فيه أنه هو الأعلم بحاجات الأرض، وبكيفية هطول مطر أفضال السماء عليها، وبمقتضى صفاته أيضاً.

وأما قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فلا يعني أن الملائكة كانوا يخفون في قلوبهم اعتراضًا ويقولون بأفواههم خلافه، وقد بينتُ من قبل أن الملائكة أسمى من ارتكاب الإثم، بل لا قدرة لديهم على المعصية أصلاً، إنما تعني هذه الجملة أن الله هو الأعلم بما أودع في الملائكة من الصفات والكفاءات التي يُبدونها، وأيضاً الأخرى التي لا يمكن ظهورها على أيديهم. لقد بينتُ لدى شرح الكلمات أن الكتم يعني العجز عن إظهار الشيء، وهذا هو المراد من ﴿تَكْتُمُونَ﴾ هنا، أي أنني أعلم مدى قدرتك على إظهار الصفات الإلهية ومدى قصورك عنه، ولذلك اقتضت صفاتي الكاملة خلقَ كائن قادر على إظهار صفاتي كلها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٣٥)

شرح الكلمات:

قلنا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...).

اسجدوا: السجود: التذلل. وفي قوله ﴿اسجدوا لآدم﴾، قيل: أمروا بالتذلل له والقيام بمصالحه ومصلح أولاده. وقوله ﴿وادخلوا الباب سُجَّدًا﴾: أي متذللين منقادين (المفردات).

أو يعني قوله تعالى ﴿اسجدوا لآدم﴾: اسجدوا لأجل خلقِ آدم. سجّد يسجد سجوداً: خضع وانحنى. وسجّد البعيرُ: خفض رأسه. وسجدت السفينةُ للرياح: أطاعتها ومالت بميلها. يقال: فلان ساجدُ المنخر: ذليلٌ خاضع (الأقرب).

فالمراد من (اسجدوا لآدم): أطيعوه.

إلا: حرف استثناء (ينصب ما بعده عادة)، والاستثناء: إخراج ما بعده من حكم ما قبله. وهو في اللغة على ضربين: (١) استثناء متصل، وهو أن يكون المستثنى منه والمستثنى من جنس واحد، كقولهم: جاءني القوم إلا زيداً، فزيد واحد من جنس القوم؛ (٢) استثناء منقطع، وهو إذا لم يكن المستثنى من جنس المستثنى منه كقولهم: جاء القوم إلا حمارهم.

إبليس: مشتق من (ب ل س)، وأبلسَ يعني: قلَّ خيرُه؛ انكسرَ وحنَّ؛ يئسَ من رحمة الله. لازمٌ ويتعدى، فيقال أبلسه غيره. وأبلسَ في أمره؛ تحيَّر؛ وأبلسَ فلانٌ: سكت غمًّا (الأقرب).

فإبليس هو مَنْ: (١) يئس من رحمة الله، (٢) قلَّ جانبُ الخير فيه، (٣) تحيَّر وارتبك في أمره، (٤) لا يزال مغموماً.

أبى: أباه إباءً وإباءةً: لم يَرْضَه (الأقرب).

الإباء: شدة الامتناع، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً (المفردات).
أباه: كرهه. الإباء: الامتناعُ عن الشيء والكراهيةُ له بغضه وعدم ملايمته (التاج).

استكبر: استكبر الشيءَ: رآه كبيراً وعظُم عنده. واستكبر: كان ذا كبرياء (الأقرب).

الكِبَر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. والاستكبار يقال على وجهين: أحدهما أن يتحرق الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً... والثاني أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له (المفردات).

كان: من الأفعال الناقصة، تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وتدلّ عموماً على حدوث الفعل في الماضي. وإذا دلت على حدوث الشيء ووقوعه استغنت عن الخبر لأنها دلت على معنى وزمان، تقول كان

الأمر، فـ (كان) هنا جاءت بمعنى صار. فمعنى ﴿كان من الكافرين﴾: كان من قبل كافرين؛ أو صار من الكافرين.

الكافرين: راجع شرح كلمات قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم...).

التفسير: قبل البدء في تفسير هذه الآية كلها أرى من المناسب أن أبين المراد من السجود هنا.

الثابت من القرآن الكريم أن السجود لغير الله تعالى منافٍ لتعاليمه، قال الله تعالى ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (فصلت: ٣٨). وعليه، فكيف يمكن أن يقال أن الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم السجود المعروف.

يقول البعض هنا: ربما كان السجود لغير الله جائزاً في زمن آدم، وجاء النهي عنه فيما بعد. لكن هذا المعنى غير سليم، لأن التمسك بالتوحيد حُكمٌ أبديٌّ وليس مؤقتاً، حتى يتغيّر عبر العصور. بالإضافة إلى ذلك يقول الله تعالى عن الملائكة صراحةً ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٧)، فهذه الآية تدل بكل جلاء على أن الملائكة يسجدون لله دائماً، ولا يسجدون لغيره أبداً. فما دام الله تعالى قد صرح أن الملائكة وأظلالهم من البشر لا يسجدون لأحد سوى الله أبداً، فكيف يصح القول أن الله تعالى أمر الملائكة في وقت من الأوقات بأن يسجدوا لغيره، فسجدوا له.

فلما ثبت أن السجود لغير الله تعالى منافٍ لتعاليم القرآن الكريم، وأن الملائكة لم يسجدوا لأحد سوى الله قط، فالسؤال: ما هو المراد بأمر الله للملائكة بالسجود لآدم؟

والجواب:

أولاً: اللام مع الفعل (سجد) يفيد التأكيد أحياناً كما في قول الله تعالى ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ (فصلت: ٣٨)، وأحياناً يفيد العلة والسبب، كقول الشاعر الشهير امرئ القيس:

ويومٍ عقرتُ للعدارى مطيبي... (من المعلقات السبع).

أي تذكروا ذلك اليوم الذي ذبحتُ فيه ناقتي للفتيات العذارى. فاللام هنا ليس لتأكيد المعنى، بل لبيان السبب والعلة، أي قد ذبحتُ ناقتي من أجل الفوز برضا العذارى.

وبالمثل ليس المراد من قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أن يسجدوا له فعلاً، وإنما المراد أن يسجدوا لله بسبب استخلافه آدم، حيث أقام الله تعالى بذلك نظاماً رائعاً. فكان الله عز وجل بعد أن أثبت للملائكة بالدليل والمشاهدة أن خلافة آدم هي من أفعال الله الحكيمة، إذ أنيط بها ظهورٌ جديد وتجلٍ كامل لصفات الله تعالى، أمرهم أن يسجدوا لله عز وجل سجودَ حمدٍ وشكرٍ على هذه المنة العظيمة، وذلك كما نرى أن عباد الله الشاكرين يخرجون سجداً عندما يرون مشهداً من مشاهد قدرة الله وجبروته عز وجل.

خلاصة الكلام أن الملائكة لم يؤمروا بالسجود لآدم حقيقةً، بل أمروا بالسجود لله تعالى فرحاً بخلافته، وكأن الله تعالى قال لهم اسجدوا من أجل آدم، أي من أجل تولّيه منصب الخلافة. ولم يكن هناك حاجة لبيان المسجود له، لأن السجود لا يجوز إلا أمام الله تعالى.

وفي هذا المعنى درس للمؤمن أنه كلما نزل عليه فضل من الله فعليه أن يختر ساجداً لله تعالى، فهذا مدعاة لنزول المزيد من أفضاله جل وعلا. ولكن المؤسف أن كثيراً من الناس عندما ينالون نعمةً يصيهم الاستكبار، ويعزّون رقيهم إلى نبوغهم وبراعتهم بدلاً من أن يشكروا الله تعالى.

ثانياً: يمكن أن يُفسر السجود هنا بمعنى الطاعة والانقياد.

قد بينتُ عند شرح الكلمات أن من معاني السجود الطاعة والانقياد بالإضافة إلى السجود المادي، حيث قال الراغب -صاحب المفردات- إن

السجود: التذلل. وقال بعض الأئمة إن من معاني قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أنهم أمروا بالتذلل له والقيام بمصالحه ومصالح أولاده.

وعليه فالمراد أن الله تعالى لما شرف آدم ﷺ بخلعة الخلافة قال للملائكة إن آدم هو مظهر مرضاتنا في الدنيا اليوم، فساعِدوه في إنجاز مهمته وسخّروا له من هذا النظام الكوني كلّ ما هو تحت إدارتكم، والذي أنتم الحلقات الأولى من حلقاته. ﴿فسجدوا﴾، أي فاندفعوا كلهم لتأييد آدم والعمل على تحقيق مرامه. وقوله تعالى ﴿إلا إبليس﴾، يعني أن الملائكة سجدوا كما أمرهم الله تعالى، ولكن إبليس لم يسجد.

مَن هو إبليس هذا؟ سوف أجب على ذلك مفصلاً لاحقاً، غير أن علينا أن نعلم أن إبليس لم يكن من الملائكة أبداً، حيث صرح الله عنه في آية أخرى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ (الكهف: ٥١). أي كان من الجن فرفض الانقياد لآدم بسبب جبّله.

قال البعض لو لم يكن إبليس من الملائكة، فلماذا استثنى بلفظ (إلا) الذي هو بمعنى (سوى)، لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه؛ فمثلاً: لو قيل: جاء أصدقائي كلهم إلا زيداً، فمعناه أن زيداً أيضاً من أصدقائي، فاستثناء إبليس هنا يعني أنه كان من جنس الملائكة.

لا شك أن ﴿إلا﴾ تُرادف "سوى"، ولا شك أيضاً أن المستثنى بـ (إلا) يكون -عموماً- من جنس المستثنى منه، ولا يكون شريكاً في الفعل المذكور من قبل، ومثاله: جاء أصدقائي إلا زيداً، فزيد من أصدقائي ولكنه ليس شريكاً معهم في فعل المحييء. ولكن في بعض الأحيان لا يكون المستثنى بـ (إلا) من جنس المستثنى منه، ومثل هذا الاستثناء يسمى استثناءً منقطعاً، أي أن المستثنى لم يشارك المستثنى منه في الفعل فقط، بل هو ليس فرداً من مجموعة المستثنى منه. ومثال الاستثناء المنقطع هو الجملة الشهيرة عند النحويين: جاء القوم إلا حمّارهم، فالحمّار ليس من جنس القوم ولم يشترك في فعل مجيئهم أيضاً.

ويقال هنا: إذا كان إبليس من غير الملائكة، فلماذا ذُكر معهم حين أمروا بالسجود والطاعة؟ فما دام غيرَ مأمور بالسُّجود فما كان له ليسجد معهم؟

والجواب: لقد نشأ هذا الاعتراض لعدم إدراك حقيقة الملائكة. لقد بينّا من قبل أن الملائكة هم مدبرو نظام الكون كما قال الله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (النازعات: ٦). فما داموا هم العلة الأولى لإدارة هذا الكون، فالأمر الموجه إليهم يشمل جميع الكائنات التي تحتهم. وسبق أن ذكرنا أيضاً أنه ورد في الحديث النبوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً نادى جبريلَ عليه السلام: إن الله أحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريلُ. ثم ينادي جبريلُ في السماء: إن الله أحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه أهلُ السماء، ويوضع له القبول في الأرض" (صحيح البخاري). والواقع أن نظام الكون هو كسلسلة، والملائكة هم الحلقة الأولى فيها، ومن يحرّك الحلقة الأولى منها فكأنما يريد تحريك الحلقات التالية أيضاً. كذلك حينما يأمر الله تعالى الملائكة أمراً، فيكون الهدف منه أن يحدث هيجاناً في العالم الأرضي للعمل به، فالله تعالى حين أمر الملائكة بطاعة آدم كان الملائكة أول المخاطبين بهذا الأمر بلا شك، ولكنه في الواقع كان موجّهاً للعالم كله، فمن رفض هذا الأمر عُذَّ من العصاة. ومن أجل ذلك قال الله تعالى في آية أخرى لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٣). فثبت من هنا أن الأمر الموجه إلى الملائكة كان موجّهاً إلى الجميع في الحقيقة، وكان إبليس أيضاً ملزماً للعمل به كالكائنات الأخرى. فعصيان إبليس لهذا الأمر الإلهي لا يُثبِت أنه كان من الملائكة، إنما يثبت أنه رفض دعوة الملائكة ولم يُطع أمر الله الذي وصله بواسطتهم.

أما قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فقد بين الله تعالى فيه أربعة أسباب لرفض إبليس دعوة الملائكة:

السبب الأول: الإباء، ومعناه - كما شرحنا لدى شرح الكلمات - رفضُ المرء أمراً يراه ناقصاً وغيرَ صالح له. لقد رأى إبليس دعوة الملائكة ناقصةً وغيرَ ملائمة له، فكرهها ورفضها. والواقع أن من أكبر أسباب إنكار الناس للحق أنهم لا

ينظرون إلى ما فيه من نفع للعالم، إنما ينظرون ما إذا كان يحقق مصالحهم العاجلة أم لا، فإن وجدوه خلاف مصالحهم عارضوه غير مباليين بمصيرهم وبمصلح العالم المنوطة به.

والسبب الثاني لإنكار الحق ورفضه مذكور في قول الله تعالى: ﴿استكبر﴾. أي رفض إبليس طاعة آدم لأنه ظن أنه من الكبراء، وأنه لو أطاع آدم لفقد مكانته بين القوم، كما قال الله على لسان إبليس وهو يبرر عدم طاعته لآدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، أي أن آدم طين الطبع إذ يمكن تشكيله في كل القوالب كالعبد، وأنا ناري الطبع ومتحرر المزاج، فأنت لي أن أطيع هذا الذي طبعه كطبع العبيد.

وهذا السبب الثاني لرفض الحق أيضاً شائع على نطاق واسع. إن اتباع الحق يورث المرء خلُق التواضع والانكسار الذي يعدّه أعداء الحق معرّةً ومنقصةً، ويعتبرونه منافياً لمصالح الوطن والملة، ويرون أن هؤلاء المتواضعين خونةً للشعب والبلاد. يتباهى هؤلاء المستكبرون بطبائعهم النارية الثائرة والشريرة، ويحسبون أنهم بتصرفاتهم العدوانية سوف ينهضون بالبلاد والشعب إلى القمة، ولا يدرون أن الازدهار الحقيقي إنما يتأتى بالمشاورة والتضحية وطاعة النظام، لا بنشر الفوضى والفساد بما يجتذب الأنظار لبعض الوقت ولا يجلب منافع دائمة.

كما أن في كلمة (استكبر) إشارة إلى أن المانع الرئيسي الذي يمنع هؤلاء من قبول الحق هو خوفهم على زعامتهم، إذ لا تهمهم مصلحة القوم ولا منفعتهم في الواقع.

والسبب الثالث لرفض الحق مذكور في المعنى الآخر للاستكبار، وهو أن يرى المرء ما يُعرض عليه كبيراً ومستحيلاً كما ذكرنا لدى شرح الكلمات. وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٢)، أي قال الذين لا يرجون لقاءنا بعد سماع دعاوى محمد رسول الله ﷺ: إذا كانت الملائكة تنزل حقاً فلماذا لا تنزل علينا، وإذا كان لأحد

أن يرى الله تعالى فلماذا لا نراه نحن. الواقع أنهم قد استعظموا هذين الأمرين في أنفسهم وعدّوهما من المحال، وتجاوزوا في شرهم الحدود كلها. هذا الدافع الثالث أيضا يلعب في إنكار الحقائق دوراً كبيراً. يقول المعارضون بأفواههم إن هذا المدعي كاذب وعدو للشعب، ولكنهم يرون في قرارة نفوسهم أنه يستحيل النهوض بالشعب إلى هذه المكانة كما يدّعي هذا. وبتعبير آخر، إنهم يقولون في الظاهر إننا نعارضه لأنه خائنٌ للشعب، أما في الواقع فإنهم يحسبون أن دعاويه مستحيلة ولن تتحقق أبداً، وبسبب شدة يأسهم لا يجدون في أنفسهم من الشجاعة ما يدفعهم لتقديم التضحيات التي لا بد منها نتيجة لاتباع النبي.

والسبب الرابع لإنكار إبليس طاعة آدم مذكور في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي أنه كان معتاداً على إنكار الحقائق من قبل. وهذا الأمر أيضاً يصدّ معظم الناس عن قبول الحق. إنهم لا يتحلّون بالأخلاق الحسنة، فيعتادون على إنكار الخير. إنهم لا يجدون الجرأة لقبول الحق رغم انكشافه عليهم بسبب ضعفهم وجبنهم واعتيادهم على ترك الخير. ويوجد مثل هؤلاء بكثرة في كل عصر. وكما أن العنكبوت ينسج حوله بيته ثم يُصبح كالسجين فيه، فإن هؤلاء القوم ينسجون حولهم شبكة من إنكار الحقائق باستمرار، فلا يجدون الجرأة لقبول الحق رغم سطوعه أمامهم.

كان إبليس مصاباً بهذه العيوب الأربعة كلها، فكان أولاً يرى تعاليم آدم عليه السلام خلاف مصلحته الشخصية، وثانياً كان يرى أنه أرفع شأنًا من آدم من حيث المكانة المادية، فكانت طاعة آدم أمراً صعباً عليه. وثالثاً كان يرى أن ما يصبو إليه آدم مستحيل، وأن دعاويه ليست إلا ضرباً من الخبل. ورابعاً كان مقتنعاً إلى حدٍ ما بعقائد آدم، ولكنه معتاداً على عيشة متسخة بالكذب والزور، فكان من المحال أن يقبل تلك العقائد لكون قلبه أسيراً في سيئاته السابقة.

الواقع أن هذا هو حال منكري الحق اليوم أيضاً. يا ليت الناس يحاولون إدراك الحقائق متخلين عن هذه العيوب الأربعة، فيعرفون أن الله تعالى قد فتح

لهم أبواباً واسعة للتقدم والرقى اليوم أيضاً، وهياً لانتصار الإسلام وسائل عديدة، ولكن قليل هم الذين يستعدون لقبول هذا الموت الذي يُكتب بعده الحياة الخالدة لهم وللإسلام. ولكنهم يزهقون أنفسهم من أجل المصالح العاجلة العابرة، متهرين من تقديم التضحيات الدائمة المستمرة. يا ليت قلوبهم انشرفت وتطهرت من الصدأ!

إن (إبليس) مشتق من (ب ل س)، وقد بينت عند شرح الكلمات أن أبلس يعني: (١) الذي قل فيه الخير، (٢) الذي فقد المهمة وحزن (٣) الذي يأس من رحمة الله (٤) الذي احتار ولم يهتد إلى سبيل. فمعنى إبليس: مَنْ قَلَّ فيه الخير وكثر الشر، وفقد همته، واستولى عليه الغم، ويئس من رحمة الله، ولم يهتد سبيلاً لتحقيق مراده، وأصبح حيران.

ويمكن أن نفهم من هذه المعاني أن إبليس إما لقب أطلق على كائن روحاني يحمل هذه الصفات، أو أطلق على إنسان -أيا كان اسمه- استحق هذا اللقب نظراً إلى حالة قلبه، فأطلقه عليه القرآن.

تكشف دراسة القرآن الكريم أن اسم إبليس ورد في أحد عشر موضعاً: (١) الآية التي هي قيد التفسير، (٢) سورة الأعراف، (٣) (٤٠٣) مرتين في سورة الحجر، (٥) سورة الإسراء، (٦) سورة الكهف، (٧) سورة طه، (٨) سورة الشعراء، (٩) سورة سبأ، (١٠ و ١١) سورة ص.

في كل هذه المواضع ذكر إبليس في سياق إنكار السجود لآدم إلا في موضعين، وهما سورتا الشعراء وسبأ، ففي سورة الشعراء يخبر الله تعالى أن أتباع إبليس يدخلون النار، وأما في سورة سبأ فيخبر الله تعالى أن إبليس صدق ظنه في قوم سبأ، أي أنهم صاروا فريسة له.

باختصار، حيثما تحدث القرآن الكريم عن آدم وإنكار السجود له ذكر اسم إبليس، وحيثما تحدث عن إغواء آدم ذكر اسم الشيطان في كل موضع بدون استثناء. وهذا الفرق يكشف جلياً أن القرآن الكريم يفرق بين استعمال كلمتي

إبليس والشیطان فرقا واضحا. وهذا يدل على أن إبليس الذي رفض السجود لآدم هو غير الشیطان الذي حاول إيذاء آدم وإغواءه.

نرى أن الله تعالى قد حذر آدم عليه السلام تحذيراً صريحاً بألا يستمع لإبليس فهو عدو له، ومع ذلك انخدع منه، وهو أمر لا يستوعبه العقل. نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٨)، أي بعد إنكار إبليس لآدم، قلنا لآدم إن هذا عدو لك ولزوجك أو لأصحابك، فحذار أن يخرجكما من الجنة فتقع في الشقاء. ويبدو بعد هذا التحذير الصريح أنه كان من المستحيل أن يقع آدم عليه السلام في خداعه إلا أن يكون قد أراد عصيان الله تعالى؟! ولكننا نجد القرآن الكريم يرفض هذه الفكرة في آية أخرى حيث قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٦)، أي أن آدم أخطأ ناسياً، ولم يرتكب هذا الخطأ متعمداً.

ويمكن التوفيق بين الأمرين باعتبار الشیطان الذي خدع آدم غير إبليس الذي حذر الله منه آدم. لقد انخدع آدم من الشیطان ولم يعرف أنه من أنصار إبليس وأظلاله، فلم يأخذ منه الحذر كما ينبغي، فوقع في الخطأ.

والدليل على صحة هذا ما سبق ذكره آنفاً بأن القرآن كلما ذكر الكائن الذي امتنع عن السجود لآدم سماه إبليس، وهو الذي حذر الله منه آدم، وكلما ذكر الذي وسوس لآدم سماه الشیطان.

لقد ثبت من الآيات المذكورة آنفاً أن إبليس هو الكائن المحرض على الشر إزاء تحريض الملائكة على الخير، والشیطان اسم عام يُطلق على كل القوى الشريرة، ويمكن أن يُطلق على إبليس نفسه، أو على غيره ممن يتبعه، أو ينوب عنه في إغواء الناس وحثهم على المنكرات، وتأليبهم على الأنبياء وعلى رسالاتهم، ومن أجل ذلك لم يُطلق اسم إبليس على أي إنسان في القرآن الكريم، بل كلما ذكر القرآن إبليس ذكره ككائن مقاوم للملائكة، أو أطلقه على الروح الخبيثة المحرصة على السيئة، كما هو واضح مما ورد في سورتي الشعراء وسبأ. وعلى النقيض يُطلق اسم الشیطان على الأرواح الخبيثة كما

يطلق على البشر؛ غير أنه أكثر استعمالاً بالمعنى الأول، كما هو ثابت من الأمثلة التالية:

قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (البقرة: ١٥). والشياطين هنا أئمة الكفر كما هو واضح من كلمات الآية، والصحابة أيضاً قد فسروا الشياطين هنا بهذا المعنى (للمزيد راجع تفسير هذه الآية في مكانها).

وأخبر الله تعالى أن الناس قالوا للمؤمنين بأن الكفار قد احتشدوا بأعداد كبيرة للهجوم عليكم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٦). وكما هو واضح فإن المراد من الشيطان هنا عملاء الكفار الذين يسعون لبث رعبهم في قلوب المؤمنين. وقد قال المفسرون القدامى أيضاً إن المراد من الشيطان هنا "نعيم بن مسعود أو أبو سفيان أو عامة الكفار" الذين كانوا يخوفون المسلمين من قوتهم (فتح البيان وابن كثير).

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣). أي هكذا جعلنا أعداء لكل نبي الشياطين من الناس، والشياطين من الجن، فيوسوس بعضهم في قلوب بعض.

باختصار؛ قد أطلق القرآن الكريم لفظ الشيطان على الأرواح الخبيثة التي توسوس في قلوب الناس، وكذلك على بعض البشر أيضاً، ولكن اسم إبليس لم يُطلق في القرآن الكريم إلا على الكائن الذي رفض السجود لآدم. فالمراد من إبليس تلك الروح الخبيثة التي هي ضد الملائكة وتوسوس في القلوب، أما الشيطان فيطلق على إبليس وكذلك على أظلاله من البشر الذين يعملون مثل عمله.

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد ذكر إبليس باسمين: إبليس والشيطان، وقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن معنى إبليس اليائس الحيران، وأن معنى

الشيطان البعيد عن الحق، أو الذي يُبعد الآخرين عن الحق ويحترق حسداً. فالاسم الأول الذي أُطلق على هذا الكائن هو إبليس، والاسم الثاني هو الشيطان، وفيه إشارة إلى حكمة من علم النفس، وهي أن الإنسان يميل إلى الضلال والغواية بمرحلتين: فأولاً يأخذه اليأس والحيرة، وبتعبير آخر يحيط به الجهل، ثم يتعد بعد ذلك عن الحق ويُبعد عنه الآخرين أيضاً، ويُصاب بالحسد الذي يشابه الاحتراق في النار. فعلى المرء أن يكافح اليأس والجهل، ولو قُضي على اليأس والجهل من الدنيا لزال منها الضلال والإضلال والحسد تلقائياً، لأن الحالة الثانية نتيجة للأولى.

الملائكة وإبليس:

لقد تساءل البعض: لماذا خلق الله تعالى إبليس؟ أيريد الله سبحانه أن يضل عباده؟

والجواب أن الله تعالى زوّد الإنسان بالقدرة على الخير والشر، وخلق معه الملائكة وأظلالهم وإبليس وأظلاله أيضاً، الفريق الأول يُحفّز القلوب على الخيرات، والفريق الثاني يحفزها على الشرور، فمن لبّى دعوة الملائكة وأظلالهم استحق الأجر، ومن انقاد لإغواء إبليس وأوليائه استحق العقاب. والكمال الإنساني يتطلب أن يكون الإنسان مخيراً بين هذين الحافزين، لكي يحكم بنفسه وينقاد للحافز الذي يرضى به، فيستحق بذلك النعم العلياء، ولولا تعرّضه لدواعي الشر لما استحق أفضل النعم.

غير أن القرآن الكريم قد أوضح أيما إيضاح أنه ليس لإبليس أو للشيطان أي تصرف على أحد من الناس، فهم مخبرون بين أتباع خطواته أو مخالفة تحريضه، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٣)، أي يا إبليس لن تكون لك الغلبة على عبادي بالدليل والبرهان، إلا أن الغاوين المتمردين سيتبعونك، لأنهم سيرون أن لأقوالك وزناً وقيمة.

وأيضا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٦)، أي يا إبليس لن تكون لك الغلبة على عبادي بالأدلة والبراهين.

لقد فسرتُ هنا كلمة (سلطان) بمعنى الغلبة بالدليل والبرهان، والقرآن الكريم يؤكد ذلك في قوله تعالى ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ (الكهف: ١٦)، أي إذا كانوا صادقين فيما يفعلون فلماذا لا يأتون ببرهانٍ بَيِّنٍ.

وهناك آيات أخرى أيضا ورد فيها لفظ (سلطان) بهذا المعنى.

فالمراد من كون إبليس لا يملك ضد عباد الله تعالى أي سلطان أن ما يقوله إبليس لا يستند إلى دليل وبرهان، بل يغوي العباد بالكذب والترهيب والإغراء الزائف، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتِطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٥). حيث بيّن الله تعالى هنا أن إبليس لا يغوي الناس بناءً على دليل وبرهان، وإنما دأبه بثّ الرعب في القلوب والإغراء بالوعد الكاذبة، فالذين ينضمّون إلى صفوفه بسبب تخويفه وكذبه فإنه يخوف بواسطتهم من هم أقلّ منهم فسادًا ويحرمهم من الهدى.

موجز القول إن حوافز إبليس ليست مبنية على أي برهان عند القرآن الكريم، بل أساسها الترهيب والتخويف والوعد المزخرفة الزائفة، فلا يصح القول أن الله تعالى قد عمل على إغواء عباده بخلق إبليس. لو أن الله تعالى أعطى الشيطان برهانًا من عنده لصحّ هذا الزعم، لكن الأدلة كلها تؤيد الملائكة دون إبليس، فمن يتبع إبليس إنما يتبعه باختياره، وهو مسؤول بنفسه عن عمله.

وليكن معلومًا أن لِمّة الخير، أي الحافز على الخير، أقوى من لِمّة الشر، وأوّل دليل على ذلك هو أن الله تعالى جعل إبليس تابعًا للملائكة كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله: ﴿إِلَّا إبليس﴾. أعني أن الملائكة هم الذين أمروا

بالسجود لآدم، ولكن إبليس زُجر أيضا لعدم طاعته له، وقد بيّنت من قبل أن معناه أن كل شيء في الكون تابع للملائكة، فالأمر الموجه إلى الملائكة كان موجهًا إلى إبليس أيضًا. وعليه فقوله تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إشارة إلى أن الحافز الملائكي هو الأصل، والانحراف عنه يسمى الحافز الإِبليسي، وهذا يعني أن للملائكة غلبة على إبليس.

والدليل الثاني على أن الله تعالى لم يرد إضلال العباد هو أن القرآن الكريم قد أكد في القرآن مرارًا أن الإنسان مفطور على الخير، ولكن فطرته الطيبة يفسدها فيما بعد هو نفسه أو والداه أو الذين يتولون تربيته، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٨-١١)، أي أننا نقدم النفس البشرية وتسويتها وتكميلها شهادة، فبعد تسويتها أخبرناها جيدًا بما سيفسدها وما يحافظ على صلاحها ونقاها، فمن يحافظ على نقاء نفسه من التأثيرات الخارجية السيئة يفلح، ومن يدسّ نفسه في التراب يفشل.

لقد تبين من هذه الآيات أن النفس الإنسانية مفطورة على النقاء والطهر، ومزودة بالتمييز بين الخير والشر، وليس على الإنسان بعد ذلك إلا أن يعمل بحسب فطرته النقية، ولو فعل ذلك ولم يخضع للتأثيرات الخارجية المنافية لفطرته النقية لَظَلَّ يتقدم في مجال الخير باستمرار، بينما سيهلك الذي يعمل العكس ويدنس نفسه النقية بالتأثيرات الخارجية المنافية لفطرته النقية. وبتعبير آخر، إن الإنسان مجبول على قبول توجيهات الملائكة، ويولد بريئًا من أي نصيب من إبليس، ولكنه يهلك فيما بعد إذ يدعو بنفسه إبليس إليه.

وهذا المعنى قد بيّنه الرسول ﷺ في أحاديثه أيضًا، حيث قال: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين)، أي أن الله تعالى لا يجعل فطرة أي مولود فاسدة، وإنما يصيبها الفساد فيما بعد، وبتعبير آخر إن علاقة المولود

الأساسية هي مع الملائكة، وأن الأسباب الخارجية هي التي تدفعه إلى التعلق بإبليس.

وقد قال بعض المفسرين المعاصرين أن الله تعالى قد بين في هذه الآية الحاجة إلى خلق إبليس، وهي أنه مَظْهَرُ الحياة السفلية التي بالمرور من خلالها يحقق الإنسان الرقيَّ الروحاني.

ولكن هذا التفسير خطأ، إذ لو كان المراد من الحياة السفلية تحقيقَ الرغبات الجسدية من أكل وشرب ولباس وشهوة إلى حد الاعتدال، فلا تكون مثل هذه الحياة من إبليس في شيء، لأن هذه الرغبات الفطرية يُحققها الأنبياء أيضاً، بل قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥٢)، وهذا يعني أن استعمال الطيبات يساعد الإنسان على فعل الخيرات، كما قال رسول الله ﷺ: "لا رهبانية في الإسلام" (مسند أحمد بن حنبل، ج ٦)^١، أي أن الإسلام لا ينهى عن الطيبات سواء ما يتعلق منها بالطعام أو الشراب أو الثياب أو العيش عموماً، بل يُعَدُّ الامتناع عن استعمال هذه الطيبات بقدر الحاجة إثماً. فاستعمال الطيبات إلى حد الاعتدال يُعَدُّه الإسلام جزءاً من الدين، وأما تركها فيعده إثماً، ولو اعتبرنا هذا عمل إبليس وسميناه الحياة السفلية، فهذا يعني -والعياذ بالله- أن الله تعالى أمر جميع الأنبياء والمؤمنين بإنشاء الصلة مع إبليس والشيطان.

ولو قيل أن المراد من الحياة السفلية هو تجاوز حد الاعتدال في استخدام هذه الطيبات، لبطلت أيضاً الفكرة التي أتى بها هذا المفسر، ذلك أن اعتبار الحياة السفلى ضروريةً للحصول على الحياة العليا، يعني أن على الإنسان أن يسرف أولاً في استخدام هذه الطيبات من أكل وشرب للوصول إلى الله تعالى، ثم بعد

^١ نص ما ورد في المصدر المشار إليه هو: "يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا." (مسند أحمد بن حنبل، ج ٦، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها) (المترجم).

ذلك سينال الحياة العليا، وبتعبير آخر كان كل الأنبياء والمؤمنون كاملين يسرفون ويتجاوزون حد الاعتدال في استخدام هذه الطيبات بهدف الوصول إلى الله تعالى، وهذا المعنى باطل بالبداهة. فثبت أن القول بأن إبليس مظهر للحياة السفلية ومن خلالها يمكن أن يصل الإنسان إلى الله تعالى إنما هو قول باطل وعقيدة خاطئة ومنافية لتعليم القرآن الكريم.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٦)

شرح الكلمات:

اسْكُنْ: سَكَنَ يَسْكُنُ سَكُونًا: قَرَّ. سكن فلانُ داره: استوطنها وأقام بها. (الأقرب).

زَوْجُكَ: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (... ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون).

الْجَنَّةُ: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ....).

رَغَدًا: رَغَدَ عَيْشُهُ رَغْدًا: طَابَ وَاتَّسَعَ (الأقرب).

وَالرَّغْدُ: الكثير الواسع الذي لا يُعْيِيكَ مِنْ مَالٍ أَوْ مَاءٍ أَوْ عَيْشٍ أَوْ كَلَالٍ (التاج).

حَيْثُ: ظرف مكان... وتلزم الإضافة للجملة (عند الجمهور)، وإذا لحقتها (ما) الكافَّةُ ضُمِّنَتْ معنى الشرط وجزمتُ فعلين كقوله:

حيثما تستقم يُقَدَّرُ لك ... الله نجاحًا في غابر الأزمان

وَتَرَدُّ لِلزَّمانِ كما في هذا البيت (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يعني: (١) أين شِئْتُمَا، (٢) متى شِئْتُمَا.

الظالمين: جمع ظالم. ظَلَمَ فلانٌ ظُلْمًا وظَلَمًا: وضع الشيءَ في غير موضعه. وظَلَمَ فلانًا: جارَ عليه وفعلَ له الظلمَ. وظَلَمَ فلانٌ حقَّه: نقَصَه إياه... والظلم: انتقاص الحق... ومن هنا سُمي التصرف في ملك الغير ومجاوزة حدِّ الشارع ظلمًا. (الأقرب)

الظلم ثلاثة: الأول: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله، وأعظمُهُ الكفر والشرك والنفاق، لذلك قال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾... والثاني: ظلمٌ بينه وبين الناس... والثالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه، وإياه قصد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ (المفردات).

فالظالم: (١) مَنْ يعمل عملاً في غير محله، (٢) مَنْ ينقص حقوق الآخرين، (٣) مَنْ يتجاوز الحد ويعتدي على ملك غيره، (٤) المشرك، (٥) مَنْ يفعل الجور.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه أمر آدم وزوجته أو رفقاءه بالعيش في الجنة، وقد جاء تفصيل ذلك في آية أخرى في قول الله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (طه ١١٩-١٢٠)، وكذلك قيل لهم أن يأكلوا منها رغداً حيث شاءوا.

قال البعض أن هذه الجنة التي دخلها آدم هي الجنة التي يدخلها الناس بعد الموت. وقال آخرون أنها كانت منطقة من هذه الأرض التي نعيش عليها.

وورد في الكتاب المقدس: {وَوَغَرَسَ الرَّبُّ إِلَهُ جَنَّةٍ فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ} (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٢ : ٨). وورد فيه بعد ذلك أن نهرين دجلة والفرات يسقيانها (الفقرة رقم ١٤). وهذا يعني أن الكتاب المقدس قد خلط بين الاستعارة والحقيقة والخطأ والصواب، إلا أن ذكر منطقة النهرين دجلة والفرات يحدد مكان هذه الجنة. إن واقعات نوح عليه السلام وقومه أيضاً كانت وقعت في هذه المنطقة، كما أن "أور" مولد إبراهيم عليه السلام أيضاً تقع في العراق، وتدل البحوث الجديدة على أن أعمال الحفر الأثرية كشفت عن أن هذه البلاد كانت مهذاً لحضارة موهلة في القدم. وعليه فالأقرب إلى القياس أن مولد آدم عليه السلام كان في

منطقة العراق وأن جنته التي ورد ذكرها كانت منطقة في هذه البلاد نفسها، وقد سُميت جنة لما فيها من الراحة ورغد العيش والنظام المثالي الذي أقامه آدم عليه السلام. وكما أشرت آنفاً فإن أعمال الحفر الأثرية أكدت أن هذه المنطقة كانت مهداً لحضارة قديمة جداً. وقد قام "السيد هول" بعد الحرب العالمية الأولى، ثم بعده "السيد وود" بأعمال التنقيب عن الآثار في منطقة مدينة "أور" التي كانت وطناً لسيدنا إبراهيم عليه السلام وتقع قريباً من مجمع نهري دجلة والفرات. لقد اكتشفوا في هذه الأعمال الحفرية آثار مدفونة لهذه المدينة يرجع زمنها إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، بل قد أكدت البحوث المتأخرة أنها أقدم منها زمناً (دائرة المعارف البريطانية، تحت كلمة ur).

فعندما نرى في الجانب الغربي للجزيرة العربية الكعبة (المعبد العتيق) من جهة، ونجد من جهة أخرى في شرق الجزيرة العربية آثار حضارة "أور" الموعلة في القدم، كما نجد أن هذه المنطقة كانت مركزاً للتغيرات العظيمة في التاريخ المعلوم، فالأقرب إلى القياس أن هذه المنطقة نفسها كانت مكان ولادة آدم عليه السلام، أو المكان الذي بدأ منه التقدم البشري المدني.

أما القول أن الجنة التي أسكن فيها آدم هي تلك الجنة التي سوف يدخلها الصالحون بعد الموت فهو باطلٌ بالبداهة، ذلك (أولاً): لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١)، فمن غير المعقول أن يرسل الله آدم خليفة في الأرض لإقامة النظام فيها لكن يُسكنه في السماء. (وثانياً): في سياق قصة آدم عليه السلام قال الله في صفة الجنة الأخروية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٩)، بينما أُخرج آدم عليه السلام من الجنة التي أُسكن فيها، فثبت من هنا أن جنة آدم لم تكن الجنة السماوية، وإنما كانت جنة على الأرض.

(وثالثاً): تصرّح الآيات القرآنية أن الشيطان بل ذريته أيضاً قد دخلوا في جنة آدم، ولو سلمنا جدلاً أن آدم أسكن في الجنة السماوية، فمن غير المنطقي أن يسكن فيها الشيطان وذريته أيضاً.

ويستنبط من الآية أيضاً أن آدم عليه السلام كان يسكن مع زوجته أو أصحابه في منطقة ما على الأرض في أول الأمر، ثم انتقل منها بأمر الله إلى موضع آخر سماه الله "الجنة"، لأن كلمات الآية تقول ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة ٣٦)، فالله تعالى يوجهه ليغادر مكانه إلى مكان آخر.

لقد بينا لدى شرح الكلمات أن معنى الرغد هو توفر حاجات الحياة بسهولة وكثرة، وقد بين الله تعالى بهذه الكلمة ما في التمدن من مزايا وفوائد. التمدن هو الذي يساعد على توفر حاجات العيش للإنسان بكثرة وسهولة، فبدون التمدن لا يمكن ادّخار المأكولات والمشروبات ولا يمكن إنتاجها بكثرة، إذ كان من المحال في العيشة الحيوانية التي عاشها البشر التوجه إلى إنتاج الحاجات الضرورية وادّخارها، ونقصانها يسبب المعاناة للإنسان. فكلمة ﴿رغداً﴾ إشارة إلى منافع التمدن، حيث قال الله تعالى إنكم بالعيش معاً ستتمكنون من إنتاج ضروريات الحياة وادّخارها عند الحاجة، وهذه هي الجنة الأرضية التي أسست على التمدن في زمن آدم عليه السلام. إن الأمة التي تحافظ على التمدن يعيش أبنائها كلهم براحة ورخاء، وقد عمل أهل الإسلام في أوائله بهذا التعليم، فصار كل طفل من أطفال المسلمين في مأمن من الجوع والعطش وضنك العيش.

هذا الحكم يبدو في بادي الرأي حكماً مادياً محضاً، ولكن الواقع أن أسلوب العيش هذا يقي الناس من المعاصي. إن أكبر دواعي السلب والنهب والغش والخداع هو الفقر وضيق اليد وقلة الحيلة. والشعوب التي تؤمن لجميع أبنائها المأكول والمشرب والملبس تحميهم من الوقوع في الإثم، وتقضي على السبب الداعي إلى الظلم والإثم. فثبت أن هذا الأمر، وإن بدا مادياً وسياسياً محضاً، ولكنه في الحقيقة نظام ديني خالص يبحث الإثم من جذوره. إن كل أنواع النزاع والفساد المنتشرة في العالم اليوم إنما سببها أن بعض الناس أثرياء جداً، وغيرهم يموتون جوعاً وفقراً. لو قام في العالم نظام يضمن لكل شخص توفر ضروريات الحياة بسهولة لقضي على كل النزاعات والحروب نهائياً.

أما قوله تعالى ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فَبَيَّنَ اللهُ فِيهِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ عُنَاوِرِ التَّمَدُنِ البَشَرِيِّ التَّكَامُلَ سَهولَةَ السَّفَرِ والإِقَامَةِ، وَأَنَّ تُرْفَعَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْقِيُودُ الَّتِي لَا دَاعِيَ لَهَا. وَإِنْ إِهْمَالُ هَذَا الْأَمْرِ هُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْفَسَادَاتِ وَالنِّزَاعَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ. إِنْ الشُّعُوبُ تَضَعُ الْقِيُودَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: لَنْ نَسْمَحَ لِأَفْرَادٍ شَعْبٍ كَذَا بِالدَّخُولِ إِلَى أَرْضِينَا أَوْ الْعِيشِ فِيهَا، وَهَكَذَا تَحْتَكِرُ هَذِهِ الشُّعُوبُ نَعْمَ اللهُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ هَذِهِ الدُّنْيَا كُلَّهَا لِلْبَشَرِ كُلِّهِمْ، وَإِنْ حَرَمَانِ الْآخَرِينَ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِفَرْضِ هَذِهِ الْقِيُودِ وَالْعِرَاقِيلِ عَلَيْهِمْ لَأَثْمٌ كَبِيرٌ. يَعِيشُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بَضْعُ مِائَاتِ آلَافِ الْأَشْخَاصِ فِي قَارَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَيَمْنَعُونَ الْآخَرِينَ مِنَ الْقُدُومِ إِلَيْهَا وَالْإِقَامَةِ فِيهَا. فَمَثَلًا يَبْلُغُ عِدَدُ سُكَّانِ الْهِنْدِ قَرَابَةَ أَرْبَعِمِائَةِ مِليُونِ شَخْصٍ، أَمَّا أَسْتْرَالِيَا الَّتِي تَبْلُغُ مِسَاحَتُهَا قَرَابَةَ ضِعْفِي مِسَاحَةِ الْهِنْدِ فَعَدَدُ سُكَّانِهَا سَبْعِمِائَةِ أَلْفٍ فَقَطْ، وَلَكِنْهُمْ يَمْنَعُونَ الْهُنُودَ مِنَ الْحَيِّءِ إِلَى أَسْتْرَالِيَا أَوْ الْإِقَامَةِ فِيهَا! كَذَلِكَ تَحْرَمُ "جَنُوبُ أَفْرِيقِيَا" الْهُنُودَ الْمُقِيمِينَ هُنَاكَ مِنْ حَقُوقِ الْمَوَاطِنَةِ كَامِلَةٍ، وَلَيْسَ أَسَاسُ قُوَّةِ الزَّعِيمِ الْهِنْدِيِّ السِّيَاسِيِّ الْمَعَاوِرِ "غَانْدِي" إِلَّا تِلْكَ الْمَشَاعِرُ الْمَجْرُوحَةُ الَّتِي تَوَلَّدَتْ فِي قَلْبِهِ أَيَّامَ إِقَامَتِهِ فِي جَنُوبِ أَفْرِيقِيَا.

إِنْ هَذَا التَّمْيِيزُ يَخْلُقُ فِي الْقُلُوبِ الْبَغْضَاءَ وَالشُّحْنَاءَ، وَيَرَى الْإِسْلَامُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنِ مِثْلِ هَذِهِ الْقِيُودِ مِنْذُ زَمَنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَسَمَحَ لِأَفْرَادِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِمْ بِالْتَّمَتِيعِ بِنَعْمِ الدُّنْيَا بِدُونِ تَمْيِيزٍ وَتَفْرِقَةٍ. يَا لَيْتَ النَّاسَ عَمِلُوا بِهَذَا التَّعْلِيمِ لِيُقَضَى عَلَى مَا يَوْجَدُ فِي الدُّنْيَا الْيَوْمَ مِنْ بَغْضٍ وَحَقْدٍ وَفَسَادٍ، وَلِتَصْبِحَ هَذِهِ الدُّنْيَا جَنَّةً لِلْجَمِيعِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ تَتَحَوَّلُ جَحِيمًا لِبَعْضِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ.

لَعَلَّ أَحَدًا تَتَابَهَ هُنَا شَبَهَةٌ يَقُولُ: لِمَاذَا مَنَعَ الْإِسْلَامُ إِذْنُ أَتْبَاعِ الْأَدْيَانِ الْآخَرَى مِنْ دُخُولِ الْحِجَازِ؟

وَالْجَوَابُ: لَا شَكَّ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ مَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ الْحِجَازِ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يُؤْثِرُ سَلْبِيًّا عَلَى الْمَعَامَلَاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ لِلْعَالَمِ. ذَلِكَ أَنَّ الْحِجَازَ وَادٍ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ، فَلَا عِلَاقَةَ لَطْعَامِ الْعَالَمِ وَشِرَابِهِ بِهَذِهِ الْبَقْعَةِ. لِمَاذَا يَذْهَبُ النَّاسُ إِلَى مَكَانٍ لَا يَوْجَدُ فِيهِ زَرْعٌ وَلَا مَاءٌ عَذْبٌ، وَمَاذَا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ بِشَأْنِ حَاجَاتِ مَعِيشَتِهِمْ. لَنْ

يرغب أحد في الذهاب إلى ذلك المكان والعيش هنالك إلا الذي تربطه به أواصر الدين، ومثل هؤلاء فإن الذهاب مسموح لهم إلى هنالك بغض النظر عن قومهم وعرقهم. ولعل الحكمة في اختيار الله لهذا الوادي غير ذي الزرع مكانًا لأول وآخر مسجد له، هي أنه حينما يُمنع أتباع الأديان الأخرى من الذهاب إليه بهدف إقامة نظام دين الله فيه، فلا يكون لأحد مساعً للاعتراض قائلاً: لماذا حرّمنا من المنافع والفوائد المادية هنالك؟ أما لو كانت الكعبة في أرض خصبة مخضرة لحرم أتباع الديانات الأخرى من منافعها المادية، أو لم يُعدّ هذا المكان حصناً حصيناً لدين الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ما هي تلك الشجرة التي نُهي آدم عن الاقتراب منها؟ هذا السؤال ظل محل اختلاف كبير بين الناس. فهي عند البعض المرأة، وعند غيرهم الحنطة، وعند آخرين الكرّم (فتح البيان). ولكن كل هذه الأقوال هي خلاف القرآن الكريم. فلا يمكن أن يُراد بها المرأة، لأن آدم عليه السلام قد أمر بالإقامة هناك مع زوجته. كما لا يُراد بها الحنطة ولا الكرّم، لأن كلاهما حلال، وقد قال الله تعالى لآدم ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾، أي كُلَا من أغذية تلك المنطقة بكثرة.

يرى الكتاب المقدس أن الشجرة الممنوعة هي شجرة العلم والمعرفة حيث ورد: {وَأَوْصَى الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ قَائِلًا: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ} (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٢: ١٦-١٧). لكن هذا باطل بالبداهة، لأن معرفة الخير والشر هي التي تجعل الإنسان أفضل من الحيوانات، وإلا فما الفرق بين الإنسان والثور والحصان والحصار؟! والكتاب المقدس نفسه يقول إن الله تعالى قد خلق الإنسان على صورته وشَبَّهه (التكوين ١: ٢٦)، وهذا يعني أنه تعالى قد جعل في الإنسان معرفة الخير والشر وزوّده بالعلم والعرفان، وإلا فما هو المراد من خلق الله الإنسان على صورته وشَبَّهه إذن! ما دام تعالى قد خلقه على صورته وشَبَّهه، فهذا يعني أنه منذ ولادته كان يعرف الخير والشر، فما الحاجة ليأكل من ثمرة

شجرة من أجل معرفة الخير والشر. فإذا كان الله تعالى قد خلقه على صورته وشبهه أولاً، ثم ناه عن أكل ثمرة شجرة معرفة الخير والشر فهذا يعني أنه تعالى قد أبطل فعله بنفسه، وتصرف كالأطفال الذين يبنون بيتاً من الرمال أولاً، ثم يهدمونه.

والسؤال الآن: إذا لم تكن الشجرة الممنوعة قمحاً ولا عنباً ولا معرفة خير وشر، فما هو المراد منها حتى مُنع آدم من الاقتراب منها؟

فأولاً، يتضح من القرآن الكريم أن آدم حين أكل ثمرة هذه الشجرة بدت عورته، وفي هذا دليل على أنها لم تكن شجرة نباتية أرضية حقيقية، بل هي شجرة مجازية، إذ لم نرَ على وجه البسيطة شجرة يؤدي أكل ثمارها إلى كشف العورات.

وثانياً: لا نجد في الشريعة الإسلامية ولا في الشرائع السابقة شجرة يحرم الأكل منها شرعاً. وهذه شهادة أخرى أن تلك الشجرة لم تكن شجرة مادية، بل هي شجرة مجازية.

وثالثاً: قال الله تعالى إن آدم وزوجته وأصحابه إن اقتربوا من الشجرة فسيصبحون من الظالمين، وهذا أيضاً يؤكد أن لفظ الشجرة هنا استعارة، لأنهما بأكل ثمرتها يمكن أن يكونا آثمين لا ظالمين، لأن الظلم يعني في القرآن الكريم الشرك بالله، أو هضم حقوق الغير.

ورابعاً: إن الله تعالى يشير هنا إلى شجرة معينة وينهى آدم عن الاقتراب منها، ومع ذلك يأكل ثمرتها بإغواء الشيطان، فلو كانت شجرة مادية محددة لكانت مقارنة آدم إياها عصيانياً متعمداً، وليس خطأً أو نسياناً على الإطلاق، لكن القرآن الكريم يعلن ﴿فَنَسِيَ﴾ (طه ١١٦)، أي أن آدم أكل من الشجرة ناسياً لا متعمداً، الأمر الذي يدل على أنها لم تكن شجرة مادية، بل كانت شيئاً معنوياً يمكن أن يقترب منه الإنسان خطأً، وهو شجرة معنوية كشجرة الظلم مثلاً، فلو نُهي المرء عن أن يقترب الظلم فهذا حكم غير محدد، والخطأ فيه محتمل، فمن

الممكن تماماً أنه إذا نُهي المرء عن الظلم وأراد اجتنابه، فمع ذلك هناك احتمال أن يتصرف تصرفاً هو ظلمٌ في الحقيقة، ولكنه لا يدري أنه ظلم.

لقد ثبت من كل هذا أن ما نُهي عنه آدم عليه السلام قد سُمي شجرةً على سبيل الاستعارة، ولم يكن شجرة في الحقيقة.

والآن نتوجه إلى القرآن الكريم لنرى هل ورد لفظ الشجرة بمفهوم آخر، أعني: هل أطلقت الشجرة على شيء آخر على سبيل الاستعارة أم لا؟

قد استعيرت الشجرة في القرآن الحكيم لمعان طيبة ولمعان سيئة. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٥-٢٧)، فشبّه الله تعالى هنا الكلام الطيب بالشجرة الطيبة والكلام السيء بالشجرة الخبيثة، وعليه فنهي آدم عن أن يقرب تلك الشجرة يعني أن الله تعالى أمره بتجنّب شجرة المنكرات، فكما أن الله تعالى شبّه نظام الخير الذي وهب لآدم في الجنة بالشجرة، كذلك وصف الأمور المنافية لهذا النظام بالشجرة أيضاً، ونهى آدم عن الاقتراب منها؛ فكأن الله تعالى قال لآدم: كما إننا نأمركم بالإقامة في هذه الجنة، فإننا نأمركم أيضاً بالابتعاد عن الأمور المنافية لهذه الجنة، كيلا تضع منكم. وعلى ضوء هذا المعنى، فمن السهل جداً تفهّم احتمال وقوع آدم في الخطأ في أمر من دقائق الأمور، كما كان من السهل أن يحدّده أحد في هذا.

لا شك أنه يمكن أن يراد من الشجرة الممنوعة كلّ تلك المنكرات التي نهى الله تعالى آدم عنها، إلا أنه في ضوء موضوع هذه الآية سيراد من ذلك أخذ الحيطة والحذر من إبليس وذريته خاصة، لأنه أقسم بإغواء آدم وذريته، حيث قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٨)، فهذه الآية تبين أن الأمر باجتنب إبليس كان فرعاً هاماً من هذه الشجرة التي نُهي آدم عن الاقتراب منها.

ومما يؤيد هذا المعنى أيضاً هو استعمالنا لكلمة ﴿شجرة﴾ بمعنى شجرة النسب، والحق أن إطلاق لفظ ﴿الشجرة﴾ على إبليس إطلاق رائع ولطيف للغاية، لأن نهي آدم عن الاقتراب من إبليس شمل نهي عن ذرية إبليس، أي أتباعه أيضاً.

وحدير بالتذكّر أن حوار الله عز وجل مع آدم لم يكن كحوار إنسان مع غيره، بل كانت حتمّاً على شاكلة الحوار الذي يتم بين الله وأنبيائه جميعاً، أي بصورة الوحي. والوحي الإلهي يكثر فيه الاستعارة والمجاز والتمثيل، لأن كلام الله جميل، واستعمال المجاز والاستعارة والتمثيل يزيد الكلام جمالاً وبهاءً.

أمر الله تعالى آدم بأن يقيم في مكان هو كالجنة راحةً ونعمة، ووهب له شريعةً تحوّل هذه الدنيا جنّة، وأنعم عليه بزواج وأصحاب كانوا مطيعين منقادين له، يتسببون له في كل أنواع الراحة والطمأنينة، ويحولون هذه الحياة إلى جنة آمنة، ونظراً لكل هذه النعم الجليلة، قال الله تعالى لآدم: اسكن الآن أنت وأصحابك في هذه الجنة؛ ونظراً إلى هذه الاستعارة سمّي ما يُفسد هذا النظام ورفاق السوء شجرةً، وقال لآدم تأمرك بالإقامة في هذه الجنة، كما نذكرك من الاقتراب من هذه الشجرة.

باختصار، قد استعملت كلمة ﴿الشجرة﴾ بسبب مناسبتها لكلمة ﴿الجنة﴾. قد أُطلقت على النظام الجيد ورفاق الخير كلمة "الجنة"، وهي مجموعة أشجار كثيرة، بينما أُطلق على الأمور السيئة ورفاق الشر كلمة "الشجرة" وهي مفردة، وقد أشير بذلك إلى الأمور التالية:

١. أن أصل التعاليم التي تلقاها آدم من ربه هو حلُّ الأشياء، أما التحريم فهو من أجل الضرورة فقط، وهكذا فإن الحلال أكثر من الحرام بكثير.

٢. أن جماعة آدم ستكون هي الغالبة والأكثر عدداً، وأن أعداءه سوف يتحولون إلى أقلية، بحيث يمكن تسمية آدم وجماعته جنةً كثيرة الأشجار، ويمكن تسمية أعدائه ونظامهم شجرةً واحدة محدودة الظل والنطاق.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾
(البقرة: ٣٧)

شرح الكلمات:

أَزَلَّهُمَا: أزاله: أزلقَه؛ حمّله على الزلل. (الأقرب)

الزَّلَّةُ في الأصل استرسالُ الرَّجُلِ من غير قصد... وقيل للذنب بغير قصدٍ زَلَّةٌ
تشبيهاً بزَلَّةِ الرَّجُلِ. (المفردات)
أَزَلَّهُ: حمّله على الزلل. (اللسان)

الشيطان: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ).

عنها: "عَنْ" حرفُ جرٍّ، وله عشرة معانٍ منها التعليل نحو: ﴿وما كان
استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة﴾ (الأقرب والمعني)، أي لم يستغفر لأبيه إلا
بسبب وعدٍ منه. وهذا هو معنى (عن) في قول الله تعالى ﴿أَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ
عنها﴾: أي حمّلهما على الزَّلَّةِ بسببها، أي بسبب الشجرة.

اهبطوا: هبطه من الجبل يهبطُ هبطًا: أنزله. وهبط بلدًا: دخله. وهبطه بلدًا:
أدخله، لازمٌ ومتعدٍّ. وهبط السوق: أتاه. وهبط فلان من الجبل يهبط ويهبط
هبوطًا: نزل. وهبط الوادي: نزله. وهبط من موضع إلى موضع آخر: انتقل
(الأقرب).

فمعنى (اهبطوا منها): انتقلوا إلى من مكان إقامتكم هذا إلى مكان آخر؛
اخرجوا.

الأرض: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسُدُوا فِي
الْأَرْضِ).

مستقرّ: استقرّ بالمكان: ثبت... سَكَنَ. والمستقرّ: موضع الاستقرار (الأقرب).

متاع: كلُّ ما يُنتفع به من الحوائج كالطعام واللبزّ وأثاث البيت والأدوات والسلع. وقيل: ... ما يُنتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها ما سوى الفضة والذهب، وعُرفاً: كلُّ ما يلبسه الناس ويسطه. وفي "الكليات": المتاع والمتعة: ما يُنتفع به انتفاعاً قليلاً غيرَ باقٍ بل ينقضي عن قريب... وأصلُ المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد... ويأتي المتاعُ اسماً بمعنى التمتع (الأقرب).

حين: الحين وقتٌ مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر. وقيل: الدهر؛ المدة (الأقرب).

التفسير: يُحتمل أن يكون ضمير المؤنث (عنها) في قوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ راجعاً إلى الجنة أو إلى الشجرة. فإذا كان راجعاً إلى الجنة، فالمعنى أن الشيطان أبعد آدم عليه السلام عن الجنة، أو أن حالة الجنة تغيرت بسبب خداع الشيطان، فصارت موضع أذى لهم. وأما إذا كان الضمير راجعاً إلى الشجرة فالمعنى أن الشيطان اتخذ الشجرة ذريعةً لخداع آدم وأزله من مكانه.

لقد بيّنا لدى شرح الكلمات أن: أزله يعني جعله ينزلق بدون إرادة منه، وعليه فالمعنى أن الشيطان أزلّ قدمَ آدم بواسطة الشجرة بدون عزم منه عليه السلام، فكل ما حصل كان نتيجة خداع ومكر من الشيطان.

وقوله تعالى ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يمكن أن يعني أن الشيطان أخرجهما مما كانا عليه من حالة الأمن والاطمئنان؛ أو من الجنة التي كانا فيها. ولكن المعنى الأول هو الأصح، لأنهما أمرا بالخروج من الجنة بعد ذلك. ولو أخذنا بالمعنى الثاني فيعني قوله "فأخرجهما" أنه جعلهما مستحقين للخروج من الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي اذهبوا فقد وقع العداء بينكم، ولا تظنوا أن هذا العداء سوف ينتهي هنا، بل سوف يستمر بينكم في المستقبل، ولسوف يسعى الشيطان لمثل هذا الهجوم عند مبعث كل نبي من عند الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: سوف تمكثون في هذه الأرض وتنتفعون من أسباب العيش فيها، فعليكم الحذر، إذ لا مفر لكم من العيش مع ذراري الشيطان. والمعنى الثاني أن هذه الحياة وسيلة للتزود للحياة الآخرة، فلا تتغافلوا عن هذا الهدف، بل خذوا بأسباب الحياة الآخرة.

لقد بين الله تعالى هنا أنه لا بد للمؤمن والكافر والصالح والطالح من العيش معاً في مكان واحد، لذا فعلى المؤمنين والصالحين ألا يألوا جهداً في صدِّ هجمات الشيطان عن أنفسهم وعن أولادهم. وهذا الأمر بالغ الأهمية، لأن الغفلة عنه هي التي تؤدي إلى انقضاء عهد الحسنات. فكلما ظن المؤمنون والصالحون أنهم بمأمن من هجمات الشيطان بدأ التدهور والانحيار، وأخذ الشيطان يغلبهم شيئاً فشيئاً. يا ليت أنه كان هناك قوم يجعلون هذا الأمر نصب أعينهم، فيحطّمون رأس الشيطان نهائياً. من المؤسف أن الناس رغم صلاحهم يُفِرّطون في حب أولادهم ويثقون بهم أكثر من اللازم، مما يوقع الأولاد في السيئات، فيسقط القوم من قمة الصلاح.

ويُستنتج من هذه الآية أمرٌ رائعٌ آخر يفنّد عقيدة خاطئة عند المسلمين اليوم، وبيانه أن الله تعالى قد قضى هنا بأن آدم وذريته سيسكنون هذه الأرض مع الشيطان، ومن المحال أن يغادروها إلى مكان آخر فراراً من هجمات الشيطان، ولكن المؤسف أن بعض المسلمين يزعمون أن ذرية الشيطان لما هجموا على عيسى عليه السلام أنقذه الله منهم برفعه إلى السماء. الحق أن هذا الاعتقاد يناقض هذه الآية صراحةً، لأن الله تعالى قد أعلن هنا بكل وضوح أنه لا بد لآدم وذريته أن يعيشوا في هذه الأرض، فكيف يمكن أن يُرفع المسيح الناصري عليه السلام إلى السماء؟ لو كان أحدٌ أحقّ وأولى بالرفع إلى السماء لكان آدم عليه السلام الذي هو أول الأنبياء، أو محمداً المصطفى ﷺ سيداً ولداً آدم، ولكنهم يؤمنون بأن آدم عندما تعرّض لهجوم الشيطان طُرح من السماء إلى الأرض، وبأن محمداً ﷺ اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة. فما دام الله تعالى لم يبدّل سنّته المذكورة

هذه من أجل هذين النبيين، فلماذا بدّ لها من أجل عيسى عليه السلام؟ ولماذا أبطل بنفسه قراره سبحانه وتعالى؟

أما وكيف تمكّن الشيطان من خداع آدم عليه السلام بسبب هذه الشجرة؟ فهذا سؤال هام، حيث يُقال: ما دام الله تعالى قد حذر آدم عليه السلام من إبليس ومن الشجرة أيضاً، فكيف انطلى عليه خداع الشيطان؟

لقد سبق أن بينت أن سبب الخداع آدم عليه السلام هو أنه مما لا شك فيه أن الله تعالى كان قد أمره بأخذ الحذر من إبليس، إلا أن الهدف من ذلك أن يتجنب أتباع إبليس، لأن إبليس ليس إلا روحاً شريرة تحثّ على الشر، وما كان لها أن تأتي إلى آدم وتخدعه مباشرة، وإنما كان أتباع إبليس هم الذين سيحثّون الناس على الشر، ولكن أتباع إبليس هؤلاء يكونون أناساً يصعب معرفتهم أحياناً، إذ يندسّون بين صفوف المؤمنين متظاهرين بالإيمان، وهكذا يتمكنون من خداعهم لصعوبة معرفة ما إذا كانوا لا يزالون أتباعاً لإبليس أم أصبحوا بعد الإيمان من الناصحين. وهذه هي المكيدة التي لجأ إليها الشيطان المذكور هنا، حيث ذكر القرآن الكريم: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٢). وهذا يعني أنه انضمّ إلى آدم وصاحبه متظاهراً بترك عدائهما، ومؤكداً إخلاصه ونصحه لهما. وكان الخداع آدم به في هذا الظرف وارداً تماماً، إذ ظنّ أن هذا الشخص كان ظلاً لإبليس من قبل وكان تجنّبه ضرورياً عندها، ولكنه الآن قد ترك العداء وانضم إلينا حتى يقسم لنا على أنه من أنصارنا المخلصين، فلا حرج من قبوله في صفوفنا. فخداع آدم بسبب هذا الاجتهاد ممكن تماماً، لأن هذا ليس خلاف العقل. وقد وجد مثل هؤلاء القوم في زمن الرسول ﷺ أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ حَشَبٌ مُسْتَنْدَةً يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ

فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٢-٥). علماً أن قوله تعالى (كَانَهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) يعني أنهم يجلسون في المحافل كالكبار ذوي الهيبة.

فهذه الآيات ترسم المنافقين رسماً يتفق تماماً مع رسم الشيطان المذكور في الآية قيد التفسير، فهؤلاء أيضاً كانوا يحلفون بالله أمام الرسول ﷺ كما كان الشيطان يحلف أمام آدم عليه السلام، وكانوا يتظاهرون بإخلاصهم كما تظاهر الشيطان بإخلاصه لآدم، وكان الرسول ﷺ ينخدع من أقوالهم ظناً منه أنهم يقدمون له اقتراحات رائعة، كذلك صدق آدم عليه السلام قول الشيطان، ولكن الفرق أن سيد ولد آدم محمداً ﷺ كان آخر الأنبياء، فنبهه الله بوحيه إلى هجمات هؤلاء الشياطين قبل فوات الأوان، فلم يتمكنوا من إلحاق الضرر بالإسلام ولو ضرراً مؤقتاً، أما شيطان آدم -الذي كان في زمن آدم بمنزلة عبد الله بن أبي بن سلول في زمن الرسول ﷺ- فتمكن من إخراج آدم من جنته مؤقتاً.

فما كان قول الشيطان لآدم ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ إلا ليؤكد له: لقد أمرت بتجنّب إبليس وذريته، ولكني قد صرت مخلصاً لك، وأصبحت من ذريتك ولم أعد من ذرية إبليس، فانخدع آدم عليه السلام بهذا الكلام المعسول، فظن أنه صادق فيما يقول، وفكر أن هذا ما دام قد أصبح ناصحاً لي، فلا داعي من أخذ الحذر منه. أما رسول الله ﷺ، فحذّره الله تعالى أن لا يصدق المنافقين مهما أظهروا له الإخلاص بأفواههم، فقال تعالى: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ (المنافقون: ٥)

بقي أن نحلّ الجانب الثاني من السؤال القائل: نسلم أن الشيطان -الذي كان كائناً آخر غير إبليس- تظاهر لآدم بالإيمان والإخلاص، مما جعل آدم ينخدع به، ومع ذلك لا بد أن ما أمره به الشيطان كان مخالفاً لأمر الله تعالى، فكيف أقدم آدم على معصية الله تعالى؟

والجواب أن الإنسان كما يخدع غيره بالتنكر له، كذلك يخدعه في الحقائق الدقيقة بتصوير الأمور الخاطئة على أنها صحيحة. وقد أشار القرآن الكريم إلى

هذا الأسلوب الخادع متحدثاً عن المنافقين وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٢)، أي أنهم يدعون للمسلمين بأنهم لا يلتقون الكفار إلا لكبت حماسهم واثرائهم ولاستمالتهم إلى المسلمين. فهنا قد قدم المنافقون تبريراً حسناً لتصرفاتهم الشريرة ليرغبوا المسلمين في اتباع خطواتهم لإنهاء الفساد والقتال! ويخبرنا القرآن الكريم أن الشيطان أيضاً اتبع مع آدم المكيدة نفسها؛ فحرضه على مقارنة الشجرة المنوعة بقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢١). فكان الشيطان قال لسيدنا آدم عليه السلام: عليك أن تفكر في حكمة الامتناع عن الشجرة بدلاً من التمسك الحرفي بالأمر الإلهي؛ فإنما يريد الله أن تصبح ملكاً وتنال الخلود بالامتناع عن مقارنة الشجرة، وبممكنك تحقيق هذا الغرض نفسه الآن باقتربك منها، فتمسك بلبّ الأمر الإلهي ولا تتردد في الاقتراب من الشجرة من أجل تحقيق المشيئة الإلهية. وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه: ١٢١)، والمراد من قوله تعالى ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ أن الحياة الملائكية لا تقهقر فيها.

فالآية الأولى التي هي من سورة الأعراف تبين أن الشيطان قال لآدم أن الغرض من الأمر الإلهي بالابتعاد عن تلك الشجرة أن تكون ملكاً وتنال الحياة الأبدية، أما الآية الثانية التي هي من سورة طه فنجد فيها الشيطان يخدع آدم لكي يقترب من الشجرة بقوله: إنك إذا اقتربت منها نلت الحياة الأبدية، وبالجمع بين هاتين الآيتين يتضح جلياً أن الشيطان -من ناحية- صدق ما قال الله لآدم متظاهراً له بالإيمان، وخدعه -من ناحية أخرى- باجتهاده الباطل قائلاً إن الظروف قد تغيرت الآن وبوسعه تحقيق الهدف الإلهي بمقاربة الشجرة بدلاً من تجنبها؛ لأن العمل بروح ولبّ الأمر هو الأولى والأجدر، وليس التمسك الحرفي بالكلمات، فما دام الهدف الحقيقي يُنال باتِّباع هذا الأسلوب فلا بأس في ذلك. وهذا ما أوقع آدم في خداع الشيطان، فقبل قوله، فصارت جنته دار الأذى. والظاهر أن

الخواص -فضلا عن العوام- يمكن أيضاً أن ينخدعوا هكذا في فهم بعض المسائل الدقيقة. ثم إن آدم عليه السلام كان أول الأنبياء، ولم يكن قبله أمثلة كهذه حتى تكون له عبرة. ومن الوارد تماماً أن الله تعالى أراد وقوع آدم في هذا الخطأ ليكون عبرة لمن بعده.

ورغم وجود مثل هذه العبر في الماضي ينخدع عامة المسلمين بمثل هذه الاجتهادات الخاطئة في أيامنا هذه أيضاً؛ فمثلاً يخدع بعض "العلماء" التجار وغيرهم بقولهم بأن الربا الذي حرمه الإسلام هو غير الفائدة التي تعطيتها البنوك، وإذا كان أخذ الربا مدمراً للقوم في الماضي، فإن ترك هذه الفوائد مدمر لهم اليوم، فلا حرج في أخذ فوائد البنوك، بل هي ضرورية من أجل الحياة القومية. وهناك العديد من المسلمين الذي يودون بصدق العمل بأحكام الإسلام في شأن الربا، ولكنهم ينخدعون بهذه الأقوال ويأخذون الربا.

كذلك يخدع البعض المرأة المسلمة قائلاً: إن العرب كانوا أمة جاهلة، وكان سفور النساء مدعاة لفسادهن في تلك الأيام، أما اليوم فنحن في عصر العلم والحضارة، فلا حرج في ترك الحجاب، بل إن خروج المسلمات سافرات سوف يعمل على تقوية الإسلام، وقد انخدعت بهذه الأقاويل كثير من المسلمات المخلصات في حب الإسلام وتركن الحجاب.

بقي سؤال: ما هو الأمر الذي خدع الشيطان بشأنه آدم عليه السلام؟

والجواب: قد أخفى الله تعالى عنا هذا الأمر لحكمة ما، لذا يكفيننا أن نؤمن إجمالاً أن ما عرضه الشيطان على آدم كان أمراً من المناهي يمكن أن يُخدع فيه الإنسان، حيث وسوس له بقوله بأن الظروف قد تغيرت الآن، فترك هذا الأمر ضاراً بالدين الآن تماماً كما كان العمل به ضاراً بالدين من قبل. وربما دعا الشيطان آدم إلى إنشاء العلاقات مع الأعداء، مثلما كان المنافقون يقولون للرسول ﷺ في عصره. وقد مرت جماعتنا أيضاً بتجربتين مماثلتين من قبل أمثال هؤلاء، وفيهما دلالة على أن الشيطان في زمن آدم أيضاً لجأ إلى مثل هذه المكيده.

ولعل أحداً يقول هنا: ما دام الله تعالى لم يذكر هنا الأمر الذي خدع فيه الشيطان آدم، فما الفائدة من ذكر هذه القصة، وكيف يمكن أن يكون هذا البيان المبهم حجةً على خصوم القرآن؟

والجواب على الجزء الأول من هذه الشبهة أن الفائدة التي أرادها الله لنا بذكر هذه القصة هي أن العدو يريد إغواء المؤمنين متنكراً بزيّ الصالح الناصح الأمين، ومغلّفاً السيئة في غلاف التبرير الصالح لها، لذا من واجب المسلمين أن يأخذوا الحذر من مثل هذا العدو. وهذا المعنى واضح وضوح الشمس في كبد السماء. ولم يكن ضرورياً أن يذكر الله ذلك الأمر الخاص الذي خدع الشيطان آدم بشأنه، لأن الشيطان يتنكر في كل زمان بزيّ جديد، فلو ذكر الله تعالى هذا الأمر الخاص لم ينفع ذكره المسلمين نفعاً كثيراً، غير أن ما ذكر الله تعالى من هذه القصة يكفي لتحذير المؤمنين من مؤامرات المنافقين.

أما الجزئية الثانية من هذه الشبهة: كيف ينفع هذا البيان القرآني المبهم خصوم القرآن الكريم؟ فجوابها أن تعاليم القرآن قسماً: أولهما ما هو للمؤمن والكافر معاً، وثانيهما ما فيه نصح وفائدة للمؤمنين فقط. فأما التعاليم القرآنية التي تحتوي على البراهين العقلية، والمعجزات العامة، والأدلة المستقاة من كتب الديانات المختلفة فهي حجة لكل مؤمن وكافر، أو للمؤمنين وأيضاً للكافرين من أتباع أديان شتى. وأما التعاليم المحتوية على الأمور الروحانية المحضة فهي تنفع المؤمنين فقط، ولا يمكن أن تنفع الكافرين إلا بعد إصلاح عقائدهم. ولأن هذه الأمور تخص المؤمنين فقط، فلا بأس إذا لم يدرك الكفار حكماتها. فكما أنه لا يمكن الامتناع عن بيان البراهين الدالة على النبوة بسبب وجود الملحدين بالله تعالى، كذلك لا يمكن الامتناع عن بيان أمور ذات فائدة لأتباع النبي بسبب كفر بعض الناس به.

وأخطأ بعض الناس في فهم قوله تعالى ﴿اهبطوا﴾، فظنوا إن معناه أن آدم عليه السلام كان في السماء، فأسقطه الله منها إلى الأرض. لقد بينّا لدى شرح الكلمات أن من معاني الهبوط الانتقال من مكان إلى آخر، وهذا هو المعنى المراد

هنا، لأن الله تعالى إنما جعل آدم خليفةً في الأرض. وقد ورد الهبوط بمعنى الانتقال في قوله تعالى لبني إسرائيل ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا...﴾ (البقرة: ٦٢)، أي ارتحلوا من هنا إلى بلد آخر.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٨)

شرح الكلمات:

تَلَقَّى: تلقاه: استقبله. وفلان يتلقى فلانا أي يستقبله... و﴿تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾: أي أخذها عنه، وقيل تعلّمها. تلقى الشيء: لقيه. وتلقى الشيء منه: تلقّنه (الأقرب).

فمعنى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ﴾ أنه تلقّن أو تعلّم بالوحي من ربه عبارات للدعاء.

كلمات: جمع كلمة. والكلمة: اللفظة؛ وكلّ ما ينطق به الإنسان مفردا كان أو مركّبا. والكلمة: الخطبة؛ القصيدة (الأقرب).

تاب: تاب الله عليه: رجّع عليه بفضلّه، وهو تَوَّابٌ على عباده (الأقرب).

الرحيم: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الرحمن الرحيم).

التفسير: يتضح من القرآن الكريم أنه حين خدع الشيطان سيدنا آدم وأطلعّه الله على زلّته دعا الله تعالى مبتهلا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٤)، ويبدو أن هذا الدعاء هو الذي تلقّنه آدم من ربه.

لقد نبّهت هذه الآية إلى أمر لطيف آخر، وهو أن الأدعية التي يُعلّمها الله بنفسه عباده هي الأدعية لاستئصال رحمته وفضلّه. إن كثيرا من الناس يتكروّن من عند أنفسهم أدعية، وقد تكون ناقصة وعشية، مما يجعلها تتحول أحيانا إلى

دعاء عليهم. ولا أعني بذلك أن على المرء أن يمتنع من الدعاء بكلماته تمامًا، بل أعني أن عليه أن يسعى لإنشاء صلة قوية مع الله تعالى بحيث إذا حلت عليه مصيبة أو بليّة علّمه الله بنفسه الدعاء المناسب الذي إذا دعا به استدرّ فضل الله تعالى، كما علّم آدم وغيره من الصالحاء.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٩)

شرح الكلمات:

إِذَا: مركّبٌ من (إِنْ) و(مَا) (المغني). و(إِنْ) حرف شرط، وما للتأكيد.
هُدًى: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله تعالى (هدى للمتقين).

خوف: الخوف انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب. (الأقرب)

يَحْزَنُونَ: حَزَنَ له وعليه يَحْزَنُ حَزَنًا: ضَدُّ سُرٍّ. (الأقرب)
الحُزن: الغم؛ خلافُ السرور. والحُزن: الغمُّ الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي (التاج).
الحزن... خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم، ويزادّه الفرح (المفردات).

فالفرق بين الخوف والحزن أن الخوف يخصّ المستقبل والحزن يخصّ الماضي.
التفسير: في قوله تعالى ﴿اهْبِطُوا﴾ بصيغة الجمع دلالة على أن آدم عليه السلام وزوجته لم يكونا وحدهما في الجنة، بل كان معهما أتباع آدم أيضًا.
لقد وعد الله عز وجل هنا أنه لن يزال دُعاءً يظهرهم في ذرية آدم يدعون الناس إلى الهدى والصلاح، وأن الذي يستجيب لهم ويهتدي سيدخل الجنة في

هذه الدنيا أيضًا، أي ستكون قلوبهم عامرة بقوة الإيمان بحيث تظل مطمئنة في كل حال، فلن ينتابها الخوف من الأضرار المقبلة، ولا الحزن على ما قد أصابهم من قبل، بل تصبح قلوبهم بمنزلة الجنة لهم، ثم يرثون بعد الموت نعم الآخرة. لقد بين الله تعالى هنا أن الوحي الإلهي لم ينقطع بعد آدم عليه السلام، حيث وعد الله تعالى منذ ذلك الوقت بأن وحيه سوف ينزل في المستقبل أيضًا، وستنزل أفضاله على المؤمنين به بدون انقطاع.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٤٠)

شرح الكلمات:

كذَّبُوا: كذَّبه: جعله كاذبًا ونَسَبَه إلى الكذب؛ وقيل: قال له كذبت. كَذَّب بالأمْر تكذيبًا وكِذَابًا: أنكره وجحدّه. (الأقرب)

آيات: جمع آية، وهي: العلامة؛ الدليل. والآية: كل قطعة من القرآن فصلت عن غيرها بعلامة. (التاج)

خالدون: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون).

التفسير: أي أن الذين يتنكبون عن طريق الهدى ولا يؤمنون بالآيات التي خلقها الله تعالى لمعرفة في عصرهم سيقعون في النار، ولن يجدوا طمأنينة القلب وسعادة النفس رغم كثرة النعم التي تحيط بهم، كما ينالون العقاب بعد الموت أيضًا.

وأما قوله تعالى ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فالخلود هو المكوث زمنًا طويلًا، فقد ورد في "كليات أبي البقاء^١: "الخلود في الأصل الثبات المديد، دام أم لم يدم."

^١ لم نجد هذه العبارة التالية في كليات أبي البقاء بل وجدنا في البيضاوي. (المترجم)

فليس المراد أنهم سيمكثون في النار إلى أبد الآبدين. إن الإسلام لا يقول بالعذاب الدائم غير المنقطع، بل إنه يعدّ جهنم كالمستشفى التي سيدخلها الناس للاستشفاء من أمراضهم. إن إله الإسلام لا يعاقب الناس غيظاً وغضباً وحقداً، بل يبين أن سبب العقاب هو إصلاح الإنسان فقط، فإذا تم الإصلاح زال العذاب، ولذلك ورد في الحديث الشريف: "يأتي على جهنم زمان لا يبقى فيها أحد، ونسيم الصبا تحرك أبوابها" (تفسير معالم التنزيل، قوله تعالى: أما الذين شقوا...).

ومع أن هذه الواقعة قد جرت مع أحد أجداد النسل البشري في الزمن القديم، إلا أن الله تعالى قد بينها بأسلوب يمثّل موعظة وذكرى لكل مسلم، ولذلك نجد أنه تعالى لم يذكر كثيراً من أمورها على منوال قصة، بل ذكرها بكلمات يمكن أن تنطبق على أي إنسان. فمثلاً لم يخبر الله تعالى ما هي الأسماء التي علّمها آدم، وما هي الشجرة الممنوعة، ثم في سياق الحديث عن إغواء آدم ذكر الله تعالى اسم الشيطان بدلاً من اسم إبليس ليبين أن أظلال إبليس موجودون في كل مكان وعصر، كل ذلك لكي تكون هذه الواقعة نصيحة وعبرة للناس وكيلا يقرأوها كقصة محضة. إن كل إنسان يولد فهو كآدم، ويؤمر الملائكة بمساعدته، لأنهم قد خلّقوا كواسطة لتدبير نظام هذا الكون، وتكون كل الأشياء الخاضعة لتدبيرهم معاونّة للإنسان، وسبب الراحة والسكينة في حياته، بيد أن الأشرار من الناس لا يرتاحون لارتياح إخوانهم، فيصبحون كالشيطان ويحاولون إخراجهم من الجنة الروحانية التي ورثها كل إنسان منذ ولادته، ويؤذونهم كثيراً، لكن الذي ينبغي لربه كما أناب آدم، طالباً منه كشف الضر فيفلح في نهاية المطاف، ويتسامى عن تناول كل خوف وحزن، أما الذين لا يقتفون بآثار آدم وتزلّ أقدامهم في الابتلاءات، ويصالحون الشيطان معرضين عن هدى ربهم، فيصيرون عرضة للآلام ويهلكون.

تطلع الشمس في كل يوم لترى تكرار هذا الحادث في الدنيا. إن الإنسان الغبي المتورط في أنواع المعاصي الخطيرة يتأسف على آدم أنه لماذا اتبع للشيطان.

والحق أن آدم أخطأ ناسياً، أما هذا فإن الشيطان قابع في قلبه فلا يخجل من الطعن في آدم.

إن بعض المفسرين الذين قد جانبوا الصواب قد ذكروا في تفسير هذه الآية قصصاً عجيبة لا دليل عليها من القرآن الكريم ولا من الأحاديث الصحيحة، فلا داعي للتوجه إلى تلك القصص، كما لا يصح أبداً اعتراض أتباع الأديان الأخرى على القرآن الكريم بسبب تلك القصص الواهية.

وإن قصة آدم عليه السلام المذكورة في الآيات السابقة إذ تذكر الإنسان بإصلاح نفسه كما ذكرنا آنفاً، فإنها تنبه أيضاً إلى صدق دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب لطيف، حيث بين الله فيها الأمور التالية:

١. إن الوحي الإلهي سببٌ لشرف الإنسان، لأن البشر إنما صاروا أفضل من سائر الحيوانات بسبب الوحي الإلهي نفسه. فالأمم المحرومة من الوحي الإلهي، أو التي لا تقدّر الوحي حق قدره، ترتكب جريمة تفضيل الحيوانية على الإنسانية، وتعرفل طريق النهضة الحضارية اليوم وستعيقها في المستقبل أيضاً، ولن يدفع عجلة التقدم الحضاري إلا الذين يلبّون نداء السماء، وأن الذين لبّوا نداء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا العصر هم الذين سيؤسسون مدنية جديدة ونافعة. وهذا ما وقع بالفعل، حيث أصبح أتباع هذه الجماعة الروحانية طبقاً لسنة الله المستمرة مؤسسين لحضارة جديدة وعظيمة. إن الحضارة الغربية العصرية، وإن بدت رائعة جداً، إلا أنها مقتطعة إلى حد كبير من المدنية الإسلامية، أما النواحي التي تختلف فيها الحضارة الغربية عن الحضارة الإسلامية فإنها لم تساعد على إرساء الأمن والسلام في العالم، بل سببت الفساد وسفك الدماء.

٢. أنه كلما ظهرت حركة إصلاحية جديدة عارضها الناس، لأنها تكون من العظمة والروعة بحيث يفشل في إدراك أعماقها وقوة تأثيراتها حتى الصالحون من عباد الله في بداية الأمر، وكان محتماً أن يحدث ذلك عند ظهور الإسلام أيضاً، وكذلك حدث.

٣. أما الصالحون منهم فلا يلبثون أن يعترفوا بأخطائهم، ويدعونا لعظمتها، ويندفعوا إلى تأييدها، أما الأشرار فإنهم يبدؤون في مقاومتها، وكذلك جرى للإسلام، وهكذا سيكون في المستقبل أيضاً. وبالفعل قد رأى العالم أن صالحي الفِطرة من الناس تتابعوا في الدخول في الإسلام واحداً تلو الآخر، وهبوا لمناصرته، أما أصحاب الطبائع الإبليسية فأبوا إلا التمرد والعصيان.

٤. أنه عندما يخيب الأعداء في مقاومة الجماعات الإلهية علناً، فإنهم ينضمون إليها نفاقاً، لنسج الدسائس في داخلها سرّاً، كما فعل الشيطان في عصر آدم عليه السلام، وهذا ما يفعل المنافقون ضد الإسلام الآن وسيستمرون في ذلك، وكما فشل الشيطان ضد آدم، ولم يستطع أن يضره ضرراً حقيقياً، كذلك لن يستطيع المنافقون أن يضرُوا الإسلام ضرراً حقيقياً، بل سوف يتقدم الإسلام ويزدهر رغم عداوتهم ومقاومتهم، وسيدوق أعداؤهم عذاباً دائماً.

٥. أن الهدى السماوي ليس مقصوراً على زمن دون زمن، بل سوف يرسل الله تعالى هديّه وفقاً لمقتضى كل عصر. لو كانت السنّة الإلهية لإرسال الهدى محدودة لانسدت أبوابها بمجرد ظهور النبي الأول كما يزعم الهندوس مثلاً، ولكن هذه السنّة الإلهية لم تنقطع ببعثة آدم، بل أخبر الله على لسان آدم بنزول الهدى في المستقبل أيضاً. فانقطاع الهدى السماوي منافٍ لمقتضيات العقل، ومناقضٌ لمتطلبات الوحي السماوي أيضاً.

٦. أن الذين يؤمنون بالهداية السماوية يعيدهم الله تعالى من سيئات أعمالهم السابقة، كما أعاد آدم عليه السلام، ويمشون قدماً بخطى ثابتة وتقلّ الأخطار في المستقبل حتى لا يبقى لها أثر. فالمؤمن يصبح جريئاً شجاعاً مقداماً بسبب إيمانه بهذا الوعد، فلا يخاف العواقب عند تقديم التضحيات ليقينه بأن الوحي السماوي هو العروة الوثقى التي إذا استمسك بها نجح من جميع الهموم والآلام، فله إحدى الحسينين: إما القيادة والصدارة إذا كُتبت له الحياة، أو الشهادة المريحة في أحضان حب الله تعالى، فمم يخاف؟

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة ٤١)

شرح الكلمات:

بني إسرائيل: إسرائيل هو لقبُ سيدنا يعقوب عليه السلام، ويقول الكتاب المقدس إن الله تعالى سماه بهذا لشجاعته حيث ورد: {فقال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت} (التكوين ٣٢: ٢٨). وأطلقَ هذا اللقب على نسل يعقوب أيضاً، فيسمّون "إسرائيل" بدلاً من بني إسرائيل. (Analytical Hebrew and Chaldee Lexicon).

ويسمى إسرائيل بالعبرانية "يسرائيل"، وتتركب هذه الكلمة من "يسر" أي المقاتل الباسل، و"إيل" أي الرب، فالمعنى: "المقاتل الباسل للرب".

أما الكلمة العربية "إسرائيل" فتتركب من "إسر" و "إيل"، وقد تكون عبرانية الأصل ومعربة. والحق أن اللغتين لغة واحدة، وحسب تحقيقنا فإن العبرانية صورة مشوهة من العربية. ويرى هذا الرأي بعض العلماء الغربيين أيضاً، وإن كان معظمهم -بسبب تعصبهم الديني- يعتبرون اللغتين متفرعتين عن لغة أخرى؛ بل زعم بعضهم أن العربية منحدرّة من العبرانية! ولا مجال هنا لمناقشة هذه القضية، غير أني أكتفي بالقول إن اشتراك اللغتين حقيقة ثابتة، وعليه نستطيع القول إن كلمة "إسرائيل" عربية الأصل، وتغيّر شكلها في العبرية فصارت "يسرائيل". يقال في العربية: أسرَ الرجل: قبض عليه وأخذه (الأقرب)، وعليه فتعني كلمة "إسر" القوي الشجاع الذي يتغلب على خصمه ويأسره. أما كلمة "يسر" العبرية فتعني في العربية اللين والانقياد (لسان العرب)، أي: قبول قول الآخر بسهولة وطاعته والإذعان له.

أما كلمة "إيل" فهي في صورتها هذه لا تعني في العربية معنى الرب، ولكن التدبر يكشف أن معناها الحقيقي ينطبق على الله تعالى، لأنها مشتقة من الفعل "آل"، واسم الفاعل منه "آئل"، والصفة المشبهة منها "إيل". و"آل" يعني: ساس؛ يقال آل الرجل أهله، أي ساسهم، وآل الملك رعيته: ساسهم؛ وآل على القوم: وليهم (الأقرب)؛ أي صار ملكاً عليهم. فمعنى الآئل: المدبر؛ الحاكم؛ المليك، أما "إيل" فهو الكائن المتصف أزلاً وأبداً بصفات التدبير والحكم والمُلْك؛ وهي صفات لا يتصف بها إلا ذات البارئ تعالى، لأنه وحده الأزلي الأبدي.

ومن معاني آل: عاد، وعليه فتعني كلمة "إيل" الكائن المتصف أزلاً أبداً بصفة الرجوع، وهذا هو معنى صفة الله "التواب"، أي الذي يرجع على عباده برحمته مرارا وتكرارا.

وعليه، فتعني كلمة "إسرائيل" بناءً على اشتقاقه من "إسر":

(١) العبد القوي الشجاع للمليك الأزلي الأبدي سبحانه وتعالى،

(٢) العبد القوي الشجاع للمدبر الأزلي الأبدي سبحانه وتعالى،

(٣) العبد القوي الشجاع للذي يعود على العباد مراراً، أي التواب سبحانه

وتعالى.

أما بناءً على الاشتقاق من "يسر" فتعني كلمة إسرائيل: عبد الله المطيع الكامل في الطاعة والمتخلق بأخلاقه تعالى.

ولأن العبرية متفرعة من العربية، فتغيرت كلمة "إسرائيل" إلى "يسرائيل"، أعني صارت "إسر" إلى "يسر" و"إيل" إلى "أيل" (حيث يُنطق الألف في العبرية بصوت ما بين الفتح والكسر). وحيث إن العربية تدل على المعاني الأصلية للكلمة، فقد كشفت عن معاني هذه الكلمة كلها، أما العبرية فجعلت معانيها محدودة، أعني أن "إسرائيل" تعني في العبرية: العبد المقاتل الشجاع لله تعالى، أما العربية فقد دلت على هذا المعنى بوضوح، كما أشارت إلى معنى آخر للكلمة، لأن "إسرائيل" يمكن أن تكون الصفة المشبهة من "يسر" أيضاً، وفي هذا المعنى

إشارة إلى صفة مميزة في فطرة الأنبياء، وهي استسلامهم التام الدائم لله تعالى، فكأن "إسرائيل" تعني: المطيع المستسلم لله تعالى، والمنقاد لأحكامه دائماً. ويتأكد هذا المعنى من معجم "تاج العروس" أيضاً حيث جاء فيه: إسرائيل "معناه: صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقيل: سِرِّيُّ الله." والسريُّ هو السيد الشريف ذو المروءة والكرم والعز.

أما المعجم العبراني الإنجليزي للعهد القديم "Hebrew & English Lexicon of the old Testament" فقد صرَّح أن "يسر" لا يعني "السري" في الحقيقة، بل يعني مفهومها مشابهاً له.

والحق أن كلمة "يسر" تعني المقاتل الشجاع، ومثل هذا هو الذي يُؤمَّر على الجيش. وكان العرب يسيّدون على أنفسهم من هو أكثرهم شرفاً ومروءةً وكرماً، ومثل هذا يمكن أن يكون قائد الجيش أيضاً. وهكذا يصبح "يسر" مشابهاً لـ "السري" معنىً.

أذكروا: ذكر الشيء يذكر ذكراً وتذكّراً: حفظه في ذهنه. وذكر الشيء بلسانه: قال فيه شيئاً. وذكر لفلان حديثاً: قاله له. وذكر ما كان قد نسي: فطن به (الأقرب).

الذكرُ تارةً يقال ويراد به هيئةٌ للنفسِ بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكرُ يقال اعتباراً باستحضاره؛ وتارةً يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكرُ ذكرانٍ: ذكرٌ بالقلب وذكرٌ باللسان؛ وكلُّ واحد منهما ضربانٍ: ذكرٌ عن نسيان، وذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ (المفردات).

نعمتي: النعمة: الصنعة والمنّة؛ ما أُنعِمَ به عليك من رزق ومال وغيره؛ المسرّة؛ اليدُ البيضاء الصالحة. وفي الكلّيات: النعمةُ في أصل وضعها: الحالة التي يستلذُّ بها الإنسان، وهذا مبني على ما اشتهر عندهم من أن الفعلة بالكسر للحالة، وبالفتح للمرّة. نعمةُ الله: ما أعطاه الله للعبد مما لا يتمنى غيره أن يعطيه إياه. والجمعُ أنعمُ ونعمٌ. يقال: فلان واسع النعمة، أي واسع المال (الأقرب).

عهدي: العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد بحال. وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً... وعهدُ الله تارةً يكون بما ركّزه في عقولنا، وتارةً يكون بما أمرنا به بالكتاب والسنةِ رسله، وتارةً بما نلتزمه (المفردات).

والعهد: الوصية والأمر؛ الموثق واليمين؛ الحفاظ ورعاية الحرمه؛ الأمان؛ الذمة؛ الالتقاء؛ المعرفة؛ الزمان؛ الوفاء؛ توحيدُ الله تعالى؛ الضمان؛ الذي يُكتب للولاء (التاج).

ارْهَبُون: رهب الرجل يرهَب رهبةً: خاف (الأقرب).

وأصل ﴿ارْهَبُون﴾ ارهَبوني.

التفسير:

ترتيب الموضوع: بذكر مثال سيدنا آدم ﷺ، قد بين الله تعالى أن دعوى محمد رسول الله ﷺ ليست بدعاً، بل ما إن اكتمل العقل البشري حتى أنزل الله وحيه على آدم. ولما كان من الممكن أن يتساءل أحد قائلًا: ما دام الله تعالى قد أنزل وحيه في البداية فما الحاجة إلى وحي آخر، ألا يكفي ذلك الوحي الأول؟ وهذا سؤال عام يثيره معظم منكري النبوة، بل أتباع الديانات السابقة أيضاً. وليس هدفُ منكري النبوة من هذا السؤال إلا التشكيك في المدعي. إذ يريدون بذلك أن يقولوا إن المدعي الجديد على الباطل، أما الأنبياء السابقون فماتوا وليس هناك من يخلفهم أو ينوب عنهم حتى يطاع أو يُتبع. أما أتباع الديانات السابقة فيريدون بإثارة هذا الاعتراض أن يقولوا: ما الحاجة إلى نبي جديد مع وجود ديننا؟

ويمكن الرد على هذا السؤال بطريقتين: الأولى أن نشبب ضرورة النبوة عقلاً، والثانية أن نقدّم شهادة التاريخ والواقع بأن النبوة كانت مستمرة بعد آدم ﷺ أيضاً. وقد تناول القرآن الكريم ضرورة النبوة من حيث العقل في مواضع أخرى عديدة، أما هنا فقد اختار الطريقة الثانية للجواب، مبيناً أن مدعي النبوة ما زالوا يأتون قبل الإسلام بزمان قريب، فلا يصح الاعتراض على نزول شريعة أو

وحي نبوة الآن رغم وجود الشريعة السابقة، والذين قد ثبت صدقهم بالشواهد والدلائل كيف يمكن إنكار دعواهم؟ وإذا كان الأولون صادقين في دعواهم، فكيف يمكن إنكار الوحي الذي أتى بعد الوحي الأول؟ فما دام نزول الوحي مستمرا بعد الوحي الأول، بل قد بعث الله تعالى الأنبياء حتى ما قبل الإسلام بزمان قريب، فكيف يصح الاعتراض على الإسلام بأنه لا داعي لنزول الوحي الجديد فيه بعد الوحي السابق؟

وهناك فائدة أخرى لاختيار هذا الأسلوب للجواب، ذلك أن اليهود والنصارى كانوا من بين أول المخاطبين بالقرآن الكريم، وقد استدل على استمرار الوحي بذكر أنبيائهم هم، مبيّنًا أن في سلسلة أنبيائهم حلقة لا تكتمل بدونها هذه السلسلة، ألا وهي بعثة نبي من بني إسماعيل، فقد أنبأ الله تعالى منذ عهد إبراهيم ببعث نبي من ذرية إسماعيل أيضًا، وقد زاد موسى ومن بعده من الأنبياء نبوءة بعث هذا النبي إيضاحًا. فالاستشهاد بوحى أنبياء اليهود والنصارى له فائدتان: إحداهما التدليل على ضرورة استمرار النبوة، والثانية التدليل على أن انتقال الوحي بعدهم من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل كان أمرًا محتمًا. فذكر أنبياء بني إسرائيل هنا لا يؤكد استمرار وحي النبوة فقط، بل يؤكد أيضًا لزوم بعثة صاحب الوحي في الزمن الأخير من بني إسماعيل والعرب.

وليبيان هذا الدليل، أخذ الله تعالى -بدءًا بهذه الآيات- يخاطب بني إسرائيل، مذكّرًا إياهم بنعمه عليهم، مطالبًا إياهم بتقديم شهادة صادقة بأن الوحي الإلهي كان مستمرًا في العالم دائمًا، وأنكم كنتم مهبطًا للوحي، بل إن انتقال الوحي منكم إلى إخوانكم بني إسماعيل في يوم من الأيام مذكور في كتبكم.

إسرائيل

قبل أن أتناول هذا الموضوع مفصلاً أود توضيح لفظ بني إسرائيل بشيء من التفصيل.

كان إسحاق الابن الأصغر لسيدنا إبراهيم عليهما السلام. وهو والدُ يعقوب الذي أنجب يوسف عليهما السلام. وليعقوب مقام خاص عند اليهود، ويننون تفوقهم العرقي على كونهم أبناءً له. وقد نال يعقوب عليه السلام لقب إسرائيل من الله تعالى، وسُمي أولاده بني إسرائيل. ورد في الكتاب المقدس أن يعقوب أثناء سفرٍ له صارع شخصاً طوال الليل، وكان هذا الشخص هو "الرب" سبحانه وتعالى. "فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدتَ مع الله والناسِ وقدرتَ". (التكوين ٣٢: ٢٨ إلى ٣٠)

ويقول شراح الكتاب المقدس إن ذلك المصارع كان ملاكاً، ولكنهم لم يقدموا على ذلك دليلاً. وسواءً أكان مَنْ رآه يعقوب في عالم الكشف أو الرؤيا ملاكاً أو الرب سبحانه وتعالى، فهو الذي سَمَّاه إسرائيل، لكونه قوياً غالباً عند الله وعند الناس.

فإسرائيل، بحسب الكتاب المقدس، يعني العبد القوي للرب، أو العبد الغالب في سبيل الرب. والمعنى اللغوي لإسرائيل كما ذكرنا لدى شرح المفردات هو "المقاتل الباسل أو الجندي القوي للرب، أو العبد المطيع لله". على كل حال قد أُعطي يعقوب عليه السلام لقب إسرائيل في الرؤيا أو الكشف، وبسبب هذا اللقب سُمي أولاده بني إسرائيل.

بنو إسرائيل واليهود

لم تذكر هذه الآية كلمة اليهود، ولكن وردت في القرآن الكريم في مواضع أخرى كلمة "اليهود" أو "هود". ومن المناسب أن أبين هنا الفرق بين اليهود وبني إسرائيل، لكي يعرف القارئ متى استخدم القرآن الكريم لفظ بني إسرائيل ومتى استخدم لفظ اليهود.

ورد اسم "بني إسرائيل" في ٣٨^١ موضعاً في القرآن الكريم، بينما وردت كلمة "اليهود" في ٩ مواضع منه، ووردت كلمة "هود" (وهو جمعُ يهودي) في ٣ مواضع. والتدبر في هذه المواضع يكشف أن القرآن كلما أراد الإشارة إلى الدين قال اليهود أو هود، وكلما أراد الإشارة إلى الشعب قال بنو إسرائيل. أي كلما أراد القرآن ذكر أتباع دين موسى عليه عليه السلام قال "اليهود" أو "هود"، وكلما أراد الإشارة إلى نسل يعقوب عليه السلام قال "بنو إسرائيل". والمواضع الثلاثة التي وردت فيها كلمة "هود" قد ذكر فيها "النصارى" أيضاً، وكأن القرآن قد أشار في هذه المواضع الثلاثة إلى أتباع الملة اليهودية والملة النصرانية. والمواضع التسعة التي وردت فيها كلمة "اليهود"، قد وردت في ثمانية منها كلمة النصارى أيضاً، مما يدل على أن الحديث فيها هو عن الملة الموسوية وليس عن الشعب الإسرائيلي. أما الموضع التاسع الذي لم ترد فيه كلمة اليهود إزاء كلمة النصارى فهو في سورة المائدة: ٦٥، والسياق فيه يدل بوضوح على أن الحديث هنالك أيضاً عن أتباع الديانة اليهودية وليس عن الشعب، لأن الحديث هنالك عن العقائد. وعلى النقيض كلما استخدم القرآن الكريم كلمة "بني إسرائيل" أشار إلى الشعب الموسوي، وليس هناك موضع واحد في القرآن الكريم استخدم فيه كلمة بني إسرائيل إزاء كلمة "النصارى".

ونظراً إلى هذا الفرق في استخدام هاتين الكلمتين، يمكن أن يندرج تحت كلمة "بني إسرائيل" مَنْ كانوا من نسل يعقوب، وإن تركوا الدين اليهودي ودخلوا في النصرانية أو الإسلام مثلاً. كذلك يمكن أن تندرج تحت كلمة "اليهود" أو "الهود" مَنْ اعتنق الديانة الموسوية، وإن لم يكن من شعب بني إسرائيل.

ولعل أحداً يساوره الشك هنا ويقول إن اليهود لا يسمحون بدخول أحد في ديانتهم، فكيف يمكن أن يدخل أحد من غير بني إسرائيل في الدين اليهودي، وإن أمكن أن يصبح أحد من بني إسرائيل نصرانياً أو مسلماً؟

^١ يبدو أنه حصل هنا سهو، إذ الصحيح ٤١. (المترجم)

والجواب: لا جرم أن بني إسرائيل كانوا يعتبرون الدين الموسوي خاصاً بهم، ولكن كانت هناك استثناءات أيضاً، فقد رخصوا لبعض الناس الدخول في دينهم، مثل عبيدهم، أو الذين هاجروا إلى بلادهم واستوطنوها وعاشوا تحت حكمهم. فقد ورد في "الخروج" كتاب موسى عليه السلام: {وإذا نزل عندك نزيلٌ وصنع فصْحاً للرب فليُخْتَنَنَّ منه كلُّ ذَكَرٍ، ثم يتقدم ليصنعه (أي يشترك في أعياد اليهود)، فيكون كمولود الأرض، وأما كلُّ أغلفٍ فلا يأكل منه. تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم}. (الخروج ١٢: ٤٨ و ٤٩).

لقد تبين من هنا أن شريعة موسى، وإن كانت تعتبر خاصة لبني إسرائيل، ولكنها كانت تسمح لمن ينزل بلادهم ويقيم معهم ويكون تابعا لحكمهم أن يدخل في دينهم، وذلك من أجل توحيد صفوف المجتمع. وكذلك وردت في (سفر التثنية ٢٣: ٣-٨) قائمة بشعوب تدخل أفرادها في النظام اليهودي بشروط معينة.

وورد أيضاً: {وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليعدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً، كلُّ الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي، آتي بهم إلى جبلٍ قدسي وأفرحهم في بيت الصلاة، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولةً في مذبحي، لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب}. (إشعيا ٥٦: ٦ - ٧)

علماً أن المراد بـ (و يتمسكون بعهدي) بأنهم يَحْتَنُونَ، لأن الختان علامة للعهد الإلهي لإبراهيم عليه السلام، كما ورد في الخروج إصحاح ١٢ المذكور قبل قليل.

ويقول العالم اليهودي يوسفوس: مَنْ أراد أن يبدل دينه ويدخل في اليهودية، عليه أن يتقيد بالطقوس والتقاليد اليهودية ويتبع القانون اليهودي ويقوم بعبادة الرب كعبادة اليهود له (الموسوعة اليهودية، ج ١٠).

ويتبين من التوراة أيضاً أن بعض الناس كانوا بالفعل يعتنقون الديانة الموسوية. فيوجد في الكتاب المقدس سفر باسم راعوث، وراعوث هذه فتاة موابية تزوجت من رجل إسرائيلي واعتنقت الديانة الموسوية (سفر راعوث). وكذلك يتبين من الكتاب المقدس أن الآشوريين الذين استوطنوا فلسطين اتبعوا الطريقة اليهودية. (عزرا ٤ : ٢)

وهذا ما يؤكد التاريخ أيضاً، فقد ذكر المؤرخون الرومان تاسيتوس Tacitus، وديكاسيوس Diocassius، وهوريس Horece وغيرهم في كتبهم أسماء الرومان الذين اعتنقوا الدين اليهودي (الموسوعة اليهودية ج ١٠).

ويتضح من التاريخ الإسلامي أيضاً أن بعض عرب المدينة دخلوا في دين اليهود، مثل كعب بن الأشرف عدو الإسلام الشهير، الذي نقض عهده مع رسول الله ﷺ وألب أعداء الإسلام للهجوم على المدينة، وتآمر على قتل المسلمين، مما جعل النبي ﷺ يُصدر الأوامر بقتله. كان أبوه من بني نبهان العربية، وفرّ إلى المدينة لاجئاً بعد أن قتل شخصاً وتحالف مع يهود بني النضير، ثم تزوج فتاة منهم تدعى عقيلة بنت أبي الحقيق، وهكذا دخل دين اليهود. وظل ابنه كعب أيضاً يهودياً. (شرح المواهب اللدنية للزرقاني، ذكر قتل كعب بن الأشرف).

كذلك يتضح من بعض الروايات أن بعض مشركي المدينة كانوا يندرون أبناءهم لليهود، فيدخلونهم في الديانة اليهودية عندما يكبرون، فقد ورد في الحديث: "كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده. فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾." (أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام)

باختصار، إن كون الديانة الموسوية مختصةً ببني إسرائيل لا يعني استحالة دخول غير إسرائيلي في اليهودية، بل بحسب الشريعة التي جاء بها موسى يمكن للرفيق أو التابع لحكم اليهود أن يدخل الدين اليهودي إذا ما عمل بحسب شريعتهم

واختتن. إنما يعني اختصاص هذه الديانة باليهود أنها ليست ديانةً تبشيرية، وأنهم لم يؤمروا بالخروج إلى أمم أخرى لدعوتهم إلى اليهودية، ويعني أيضاً أن الوعود المتعلقة بالرقى والازدهار هي خاصة ببني إسرائيل، أما الأمم الأخرى فيمكن أن ينالوا منها شيئاً بشرط أن يكونوا تابعين ومطيعين لهم تماماً. وعلى النقيض يأمر الإسلام أتباعه بالتبليغ ودعوة الناس كافة، ولا يجعل وعوده المقطوعة للمؤمنين به خاصةً بالعرب، بل كلها تشمل كل المؤمنين، عرباً وعجمًا.

وخلاصة الكلام أنه كان مسموحاً لأتباع الدين الموسوي أن يُدخلوا في دينهم أبناء الأمم الأخرى بصفة استثنائية، وقد دخل فيه عدد محدود من هؤلاء، لذلك لزم أن يكون لهم اسم سوى "بني إسرائيل" ينسبهم إلى الدين الموسوي بدلاً من الشعب الإسرائيلي، وبمرور الوقت استعمل لفظ "اليهود" تحقيقاً لهذا الغرض.

كان عدد الداخلين في اليهودية من غير بني إسرائيل بعد موسى ﷺ بفترة قصيرة عددًا قليلاً، وكان بنو إسرائيل يسمّوهم "أجانب أو غرباء"، ولكن بعد قيام دولة إسرائيل في زمن داود ﷺ واتساع نطاق حكمهم، بدأت الشعوب الأخرى تنظر إليهم باحترام، ودخل من رعاياهم عدد لا بأس به في اليهودية، فمست الحاجة لأن يكون هناك اسم آخر - غير "بني إسرائيل" - يشمل هؤلاء الآخرين أيضاً.

كما لعبت الظروف السياسية دورها في اختيار هذا الاسم، فقد خلف سليمان ﷺ ابنه "رحبعام" الذي كان رجلاً مادياً، ولما جاء زعماء بني إسرائيل لزيارته عند حفل تتويجه طلبوا منه إجراء تعديلات تخفف من وطأة القانون. ولكنه رد عليهم بردّ قاسٍ بناءً على مشورة حاشيته من الشباب، وطردهم من الحفل. فقام عشرة من رؤساء قبائل إسرائيل الاثني عشرة بإعلان التمرد على رحبعام. بمجرد خروجهم من بلاطه؛ ولم يبق تحت حكمه سوى منطقة يهوذا التي تدعى اليوم فلسطين، وكانت تضم قبيلتي يهوذا وبنيامين. وكان سبب وفائهما لرحبعام أن سيدنا داود ﷺ كان من قبيلة يهوذا، ووُلد

وترعرع في قبيلة بنيامين، وبمعونتها نال الحكم على منطقة يهوذا ثم على سائر مناطق بني إسرائيل. (الموسوعة اليهودية، تحت داود)

فكانت بين هاتين القبيلتين أواصر قوية، فظلنا متحدتين في أيام هذا التمرد. وأدى هذا التمرد إلى انقسام دولة بني إسرائيل إلى دولتين: سُمِّيتْ إحداهما "يهودا"، لأن داود عليه السلام كان من قبيلة يهوذا وعاش في منطقتهم، واشتملت هذه الدولة على قبيلتي يهوذا وبنيامين. (أخبار الأيام الأول ٣: ٧-١٠ وأخبار الأيام الثاني ١١: ١)، وسُمِّيتْ الدولة الأخرى "إسرائيل"، إذ ضُمَّتْ معظم القبائل الإسرائيلية، وكانت تقع شمال فلسطين وغرب الشام، بينما كانت دولة يهوذا تقع في منطقة فلسطين.

وبعد هذا الانقسام مالت دولة إسرائيل إلى الشرك، وفرَّ علماء التوراة منها إلى دولة يهوذا، وصارت يهوذا بالتدريج مركزاً للعقيدة الموسوية، والحاملة الوحيدة للواء هذه الديانة.

هكذا، فسكَّان دولة "يهودا" سُمُّوا يهودا للتفريق بينهم وبين سكان دولة "إسرائيل". وباتساع هوة الخلاف بالتدريج بدأ اسم "اليهود" يُستعمل تعبيراً عن الدين بدلاً من الدلالة على المنطقة وحدها. وعندما أعيد عُمران منطقة يهوذا على أيدي النبيين "عُزير ونَحَميا"، وصار زمام الدين الموسوي في يد أهلها وحدهم، اقتصر مدلول كلمة اليهود على أتباع الدين الموسوي، ولم يُعدَّ يعبر عن اسم القبيلة أو المكان، ذلك لأن إحياء الدين الموسوي في ذلك العصر كان يجري على يد أهل منطقة يهوذا وحدهم. وعندما أخذت تسمية "اليهود" تطلق بالمعنى الديني فقط، شملتْ أتباع الدين الموسوي من غير بني إسرائيل أيضاً. ثم عندما آمنت طائفة من بني إسرائيل بالمسيح عيسى عليه السلام انقسموا إلى فئتين: فئة بقيت على اليهودية، وفئة سُمِّيت "النصارى". ثم جاء الإسلام وجعل بعض بني إسرائيل مسلمين، وهكذا فكان هناك من بني إسرائيل من كان دينهم الإسلام.

خلاصة القول: حيث إن الدين الموسوي قد ازدهر على أيدي أهل يهوذا، وقد جاء كل الأنبياء العظام منهم أصلاً أو نشأةً، مثل أرميا، وحزقيال،

ودانيال، وعزرا، ونحميا وغيرهم، وحيث إن دولة إسرائيل الشمالية قد تفشى فيها الشرك والوثنية، فقد اشتهر أهل يهوذا وحدهم باسم اليهود. ولما كان الكثير من غير بني إسرائيل قد دخلوا في الدين الموسوي في ذلك الزمن، فصار اسم اليهود يُطلق على كل من يدخل هذه الديانة، تمييزاً لهم عن شعب بني إسرائيل. وصارت كلمة "اليهود" قبل الإسلام ببضعة قرون تعني: مَنْ ينتسبون إلى دين موسى عليه السلام. وبما أن الوعود الإلهية لإبراهيم وموسى عليهما السلام المتعلقة بالمجد الدنيوي والترقي الروحاني تخص ذريتهما، فبقيت تسمية بني إسرائيل قائمةً لتمييزهم عن الشعوب الأخرى.

لقد تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل بهدف، وهو لكي أبين أن أعداء القرآن الكريم يرمونه بالجهل بالدين اليهودي وتاريخ بني إسرائيل، ولكننا نجد القرآن الكريم قد فرق بين كلمتي اليهود وبني إسرائيل بدقة متناهية؛ أعني أن القرآن كلما أراد ذكر الدين الموسوي استخدم كلمة اليهود، وكلما أراد ذكر الوعود القومية الخاصة بآل إبراهيم أو آل موسى أو آل داود، أو ذكر مَنْ خاطبهم أنبياء السلسلة الموسوية، لم يستخدم كلمة "اليهود" بل استخدم كلمة "بني إسرائيل"، لأن تلك الوعود لم تكن خاصة بأتباع الدين الموسوي بل كانت خاصة بمن يراعون عهد الله من بني إسرائيل، سواء أكانوا على دين موسى أو على أي دين سماوي بعده، كالذين دخلوا في الإسلام من بني إسرائيل.

ومن المضحك أن هؤلاء الذين يرمون القرآن بجهله بتاريخ بني إسرائيل، فإن كتبهم السماوية نفسها تخطئ في هذا الصدد، فمثلاً جاء في الأناجيل عن المسيح عليه السلام أنه "مَلِكُ اليهود"، حيث ورد أن بيلاطس عندما سأله: أأنت مَلِكُ اليهود؟ فقال له يسوع: أنت تقول (متى ٢٧: ١١، مرقس ١٥: ٢، لوقا ٢٣: ٣).

وأساس دعوى الملوكية هذه هو ما جاء في العهد القديم كالتالي: {ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هو ذا مَلِكُكَ يأتي إليك} (زكريا ٩: ٩).

تبين هذه العبارة أن زكريا أخبر بمجيء ملكٍ إسرائيلي يعيد لأورشليم مجدها، فثبت أنه ليس المراد به ملكًا لليهود كما ورد في العبارات الإنجيلية أعلاه، بل المراد ملكٌ للإسرائيليين. فقد ورد: {يا معلّم أنت ابنُ الله، أنت ملكُ إسرائيل} (يوحنا ١: ٤٩). وهذا هو الصحيح، لأن الوعود برقي السلسلة الموسوية كانت مخصوصة ببني إسرائيل، وليس بكل من يدخل في الدين اليهودي.

ثم إن دعوة المسيح عليه السلام كانت موجهة إلى بني إسرائيل، فقد ورد أنه عندما أرسل تلاميذه للتبشير قال لهم: {إلى طريق أُمّ لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة} (متى ١٠: ٥). علمًا أن السامريين كانوا شعبًا خليطًا من أصول مختلفة، وأكثرهم كانوا أولادًا لآباء من اليهود، وكانوا يؤمنون بالتوراة ويعملون بها. فما دام المسيح قد نهي تلاميذه عن الذهاب حتى إلى السامريين، فما بالكم بالأُمم الأجنبية الأخرى؟

وهذا الخطأ قد التصق بالمسيحيين بحيث لم يتخلصوا منه حتى اليوم، فلا يفرّقون بين اليهودي والإسرائيلي. فهم خلال الثورة الحالية في ألمانيا وبعض البلاد الأوروبية ضد الجنس الإسرائيلي، يرفعون شعار: اطرّدوا اليهود من البلاد، ولا يعنون بذلك كل تابع للدين الموسوي فحسب، بل أيضًا من تنصّر من اليهود. صحيح أنهم من بني إسرائيل إلا أنهم لم يعودوا يهودا بعد تنصّرهم. وقد ازداد هذا الهياج في ألمانيا حتى إن كل من كان في عروقه دمٌ من أُمّ إسرائيلية اعتبروه عدوًّا للوطن قائلين إنه يهوديٌّ أو أن فيه دمًا يهوديًا، مع أن مثل هؤلاء لا يدينون بدين اليهود، ولم تكن أمهاتهم يهوديات، وإنما كن مسيحيات، وكان نسلهن أيضًا مسيحيًا.

إذًا، ففي عصر العلوم هذا أيضًا، الذي تزهو به أوروبا بازدهارها العلمي، لا يفرّق أهل أوروبا بين اليهودي والإسرائيلي، لكن القرآن الكريم قد راعى هذا الفرق قبل ثلاثة عشر قرنًا، فكلما تناول ذُكر الوعود المتعلقة بازدهارهم القومي أو خطاب الأنبياء لهم، استخدم كلمة "بني إسرائيل"، وكلما ذكر العقيدة

الدينية اكتفى بكلمة "اليهود". ولما كانت الآية الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها تشير إلى الوعود المخصوصة بذرية إبراهيم عليه السلام، أو إلى الوعود التي قطعت لذرية إبراهيم بواسطة موسى عليه السلام، فاستخدم القرآن في هذه الآية وفي كل الآيات التالية اسم "بني إسرائيل" بدون استثناء، ولم يستخدم فيها لفظ اليهود قط. فقال الله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يكتفِ الله هنا بقوله ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ بل زاد وقال: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ليدخل هنا مفهوماً إضافياً، لأن من خصائص العربية أن الزيادة في الحروف أو الكلمات تدل على زيادة أو جِدَّة في المعنى، والمعنى الإضافي المشار إليه بقوله ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هو أنها نعمة قد جعلتها خاصة بقومكم. ذلك أن نِعَمَ الله على نوعين: أولهما عام يتمتع به المؤمن والكافر على حد سواء، كالهواء والماء والنار والغذاء وغيرها؛ والثاني خاص يناله عباد الله المقربون بتحقيق شروط معينة، أو ما ينزل بحسب وعود خاصة. فلو كان المراد من ﴿نِعْمَتِي﴾ النوع الأول الذي يستوي فيه الكافر والمؤمن لقال: (اذكروا نِعْمِي)، ولكنه تعالى استخدم كلمة "نعمة" مفردة للإشارة إلى أنها نعمة خاصة، ثم زاد عليه قوله ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ليبين أنها كانت نعمة خاصة لكم، ولم يشارككم فيها سواكم.

ما هي تلك النعمة؟ تعالوا نعرفها من القرآن الكريم نفسه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢١).

وهذا ما قاله موسى عليه السلام لبني إسرائيل عندما اقتربوا من الأرض المقدسة، وأمرُوا بدخولها. والواضح أنهم لم يكونوا عندها ملوكاً، بل كانوا يتيهون في الفيافي؛ كما أنهم لم ينالوا الملك قبل ذلك الوقت، ولم يكن فيهم ملكٌ قط منذ زمن إبراهيم حتى يوسف عليهما السلام، وكانوا عبيداً في مصر بعد يوسف عليه السلام، وخرجوا من هذه العبودية على يد موسى عليه السلام، ووعدوا على لسانه بالملك في الأرض المقدسة التي لم يكونوا قد دخلوها بعد، كما تبين الآية التي

تلتها من سورة المائدة. فثبت أن قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ لا يعني أنهم كانوا ملوكًا قبل تلك المناسبة، وإنما المراد أنه تعالى وعدهم بالملك في المستقبل. ولأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ تكملة للآية السابقة فهو أيضًا لا يشير إلى أنبيائهم في الماضي، وإنما هو وعد بالمستقبل، والمراد أن موسى عليه السلام قال لهم عندها: اذكروا وعد الله معكم بأنه تعالى سيعث فيكم الأنبياء بكثرة، ويجعلكم ملوكًا، ويعطيكم ما لم يعط أي شعب آخر. وقد ذكر الله تعالى هذا الوعد بصيغة الماضي لأنه وعدٌ قطعيٌّ حتميٌّ، وليس لأنه إشارة إلى الماضي. فموسى عليه السلام ذكرهم بوعد الله هذا وأمرهم بدخول الأرض المقدسة، وأخبرهم أن هذا الوعد سيبدأ بتحقيقه بعد دخولهم الأرض المقدسة، فلا يتفَاعَسُنْ عن فتحها لكيلا يتأخر تحقق الوعد.

وأكدت الأحداث التالية عملياً على تحقق هذا الوعد، حيث ظهر في بني إسرائيل بعد دخولهم الأرض المقدسة أنبياء كثيرون، كما جعلهم الله ملوكًا أيضًا، وفتح عليهم بواسطة سلسلة طويلة من الأنبياء علومًا روحانية لا نجد نظيرها في الأمم الغابرة.

متى قُطِعَ هذا الوعد؟ يتضح من الكتاب المقدس أن هذا الوعد قُطِعَ أول مرة في زمن إبراهيم عليه السلام. فقد ورد: {وقال له: أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لثريتها} (التكوين ١٥ : ٧). وورد بعد هذه الفقرة أيضًا أن هذا الوعد سوف يتحقق بهجرة قومه إلى بلد آخر حيث يصيرون عبيدًا، وبعد أربعة أجيال سوف يخرجهم الرب منها إلى فلسطين فيملكونها. وسبب تحقق هذا الوعد بعد هذه الفترة هو أن الآشوريين الذين يسكنون في فلسطين، لم يبلغوا بعد في الإثم مبلغًا يستحقون به الطرد منها عقابًا.

ويتبين من هذه العبارة أن هذا العهد قُطِعَ لهم على لسان إبراهيم، وأخبروا أنه سيتحقق بعد خروج بني إسرائيل من مصر بعد عيشهم هنالك عبيدًا، أي في زمن موسى عليه السلام كما يتضح ذلك من الكتاب المقدس والقرآن الكريم

والتاريخ. فقول موسى في هذه الآية من سورة المائدة إشارة إلى هذا الوعد الإبراهيمي المذكور آنفاً.

ورب معترض يقول هنا: إن الوعد الإبراهيمي هذا لا يتضمن ذكر النبوة، وإنما يشير إلى الملك المادي فحسب.

ولكننا عندما نقرأ هذا الوعد في ضوء ما ذكره الكتاب المقدس في أماكن أخرى يتضح لنا الأمر جلياً، فقد ورد: {فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكْثِرَكَ كَثِيرًا جَدًّا}. فَسَقَطَ أِبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا: «أَمَّا أَنَا فَهَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِحُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَا يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدَ أِبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِحُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ. وَأُثْمِرَكَ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لِأَكُونَ لَهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِيَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْتِكَ، كُلَّ أَرْضٍ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلَهُهُمْ} (سِفْرُ التَّكْوِينِ ١٧ : ٢-٨)

لقد اتضح من هنا أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام وعدين: أولهما أنه سيدخل قومه في أرض كنعان ويجعلهم ملوكاً عليها، وهذا إشارة إلى الرقي المادي، والثاني أنه تعالى سيكون إلههم، وهذا إشارة إلى الرقي الروحاني.

باختصار قد وعد الله تعالى إبراهيم عليه السلام في هذه الفقرة من الكتاب المقدس أنه سيأتي بأولاده إلى أرض كنعان ويعطيهم الملك ويكتب لهم الترقيات الروحانية العظيمة. وهذا الوعد قد تكرر فيما بعد بواسطة يعقوب وموسى عليهما السلام، ولكن بدايته كانت مع إبراهيم عليه السلام. فالنبوة والملك الموعود بهما في الآية المذكورة آنفاً من سورة المائدة هما نفس ما وُعدوا به على لسان إبراهيم في الكتاب المقدس، وهي نفس النعمة التي تشير إليها آيتنا قيد التفسير، أعني قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. وبذكر هذه النعمة أخبرهم الله تعالى أن نعمة النبوة لم تنته بآدم، بل استمرت

في بني إسرائيل أنفسهم حيث كانت فيهم سلسلة طويلة من الأنبياء، فلماذا الإنكار الآن؟

وقد جاء ذكر هذه النعمة الموعودة لبني إسرائيل في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام في موضع آخر من سورة البقرة نفسها حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥). وتبين هذه الآية (أولاً) أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام بأن يجعله إماماً، أي يورثه مرتبة الأنبياء أولى الأمر؛ و(ثانياً) طلب إبراهيم إلى الله تعالى أن يمدّ هذا الوعد إلى ذريته أيضاً، فقبل الله طلبه بشروط إذ قال تعالى إنه سيحققه لبعض أولاده الذين لا يرتكبون الظلم القومي لكيلا يصبحوا محرومين من بركات هذا العهد.

وقوله تعالى ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ إشارة إلى هذا الأمر نفسه، أي أن الأمة الأخيرة التي استمرت فيها سلسلة الوحي طويلاً هي بنو إسرائيل بلا شك، ولكن هذا العهد كان مشروطاً بشروط، ووفاه الله لهم ما داموا مستحقين لذلك، ولكنهم عندما باتوا غير مستحقين لنعم هذا العهد نهائياً حوّل الله إلى الفريق الثاني. وقد سبق أن ذكرنا أن العهد الذي تم مع إبراهيم عليه السلام هو أن الله تعالى سيجعل في ذريته الأنبياء، ولكن عندما يصبح جزء من أولاده ظالمين فلن يستحقوا الوفاء به، بل سينتقل هذا العهد إلى الجزء الآخر من أولاده.

والكتاب المقدس أيضاً يذكر أن هذا العهد كان مشروطاً، حيث جاء: {وقال الله لإبراهيم أما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فتختنون في لحم غُرْلَتِكُمْ، فيكون علامة عهد بيني وبينكم... وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته، فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي.} (التكوين ١٧: ٩-١١ و ١٤)

توضح هذه العبارة أن العهد مع إبراهيم في نسله كان مشروطاً وعلامته الظاهرية هي الختان، وأنَّ مَنْ لم يلتزم بهذا العهد لا يكون له عهد مع الله تعالى، ولن ينال نِعَمَهُ التي وُعدوا بها على لسان إبراهيم عليه السلام.

ولا يغيثُ عن البال أنه قد ورد هنا صراحة أن الختان هو علامة هذا العهد بين الله تعالى وعبده، وهذا يبين أن الختان لم يكن هو العهد نفسه من طرف العباد، بل كان علامةً ظاهرةً للعهد، ولكن اليهود لم يدركوا هذا الأمر واكتفوا بالختان فقط، فببَهم موسى عليه السلام ألا يفرحوا بالعمل بحكم واحد ويظنوا أنهم قد وفّوا ما عليهم من العهد، وبلّغهم قول الله هذا: {ولكن إن لم تسمعوا لي، ولم تعملوا كل هذه الوصايا، وإن رفضتم فرائضي، وكرهت أنفسكم أحكامي، فما عملتم كل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذه بكم: أَسْلَطْتُ عليكم رعباً وسِلاًّ وَحُمِّيْتُ ثُفني العينين وَتُثِلْتُ النفسَ، وتزرعون باطلاً زرعكم، فيأكله أعداؤكم، وأجعل وجهي ضدكم} (اللاويين ٢٦: ١٤-١٧).

قارنوا بين قول الله لهم: "وأجعل وجهي ضدكم" وبين ما قيل في هذا العهد من قبل، أعني: "لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك".

لقد تبين من هنا أن الختان كان مجرد علامة ظاهرية، أما العهد المتوقع وفاؤه من ذرية إبراهيم فكان أن يكونوا طاهري القلوب، مطمئني النفوس بسنن الله، عاملين بأحكامه كلها.

وقد وضح الأنبياء بعد موسى -عليهم السلام- أيضاً هذا الموضوع أيّما توضيح، فقال النبي إرميا منذراً بني إسرائيل من عذاب الله: {كلُّ الأمم غُلفٌ، وكلُّ بيت بني إسرائيل غُلفٌ القلوب... ها أيام تأتي يقول الرب، وأعاقب كلَّ مختون وأغلف}. (إرميا ٩: ٢٥-٢٦)

والظاهر من هنا أن النبي إرميا لا يعتبر الختان البدني وفاءً للعهد، وإنما هو ختان القلب الذي يوفي العهد.

وخلاصة القول إن الله تعالى عاهد نسل إبراهيم عليه السلام بواسطته عهداً وعَد فيه بأنه أولاً: سيُخرج من ذريته عباده المقربين الذين يكونون -بحسب التعبير القرآني- أئمة، أي أنبياء من أولي العزم؛ وثانياً: أنه سيورثهم أرض كنعان فيملكونها. والوحي الذي نزل على إبراهيم عليه السلام غير محفوظ بصورته الأصلية، وما نجد منه في الكتاب المقدس لا يعطي شرحاً وافياً للختان، إلا أنني قد أثبتُ من سفر موسى عليه السلام "اللاويين" ومن سفر النبي إرميا أن الختان لا يعني ختاناً ظاهرياً فقط، بل يعني في الحقيقة تطهير القلب والطاعة الكاملة، وأن الختان البدني كان مجرد علامة ظاهرية لهذا.

وعلى ضوء هذا الشرح، فقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يعني: يا بني إسرائيل، تذكروا أنه قد تم بيني وبينكم عهدٌ، وقد وُفِّتُ بما عاهدتكم عليه، فبعثنا فيكم الأنبياء متتابعين، وجعلنا فيكم ملوكاً أيضاً؛ ولكنكم لم توفوا هذا العهد من جانبكم، وصارت قلوبكم غير محتونة، ونسيتم أحكامي، واستولت على أفئدتكم خشيةٌ غيري؛ فإن وفيتم بنصيبكم من العهد فإني مستعد للمضي في الوفاء بنصبي منه، أما إذا توقعتم مني الوفاء به ونكتمت به دائماً، فهذا خطأ منكم.

لقد سبق أن ذكرت أن هذا العهد الإبراهيمي قد أُعيدَ بعده على لسان أنبياء آخرين، فقد أُعيدَ على لسان موسى الذي أتى بالشرعة لبني إسرائيل، وهو عهد مشهور ومعروف بحيث ذكره الكتاب المقدس في عشرات المواضع، وأطلق عليه اسم "العهد" مراراً.

فقد ورد في سفر الخروج ٢٠ تفاصيل لأحكام الرب في الوصايا العشر التي تلقاها موسى عليه السلام، ولعهد جديد لبني إسرائيل.

وإذا قرأنا التكوين ٢٠ مع التثنية ٥: ٢، والتثنية ١٨: ١٨-١٩ تبين لنا ما يلي:

أن الله تعالى دعا موسى عليه السلام إلى جبل سيناء أو "حوريب"، وأعطاه الوصايا العشر، وعقد مع بني إسرائيل عهداً جديداً (التثنية ٥: ٢).

وقال: { في جميع الطريق التي أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لكي تحيوا، ويكون لكم خير، وتطيلوا الأيام في الأرض التي تمتلكونها } (التثنية ٥ : ٣٣).

عندما كانت الوصايا العشر تنزل على موسى عليه السلام عند جبل حوريب أو سيناء كان جلال الله يتجلى على الجبل، وكان هناك بريق شديد، وأصواتٌ رعدٍ مرعبة، فارتعب من ذلك بنو إسرائيل الذين كانوا قد خرجوا من خيامهم وجاءوا إلى سفح الجبل لعقد العهد مع الله تعالى، فطلبوا من موسى أن يسمع هو لكلام الرب ثم يخبرهم بما سمع، لأنهم يرتعدون ويخشون الموت من سماع هذا الكلام. (الخروج ٢٠ : ١٩).

وعندما قالوا هذا قال الرب لموسى: حسنًا، سوف أباركهم ما داموا متبعين أحكامي، ولكني عندما أقيم نبيًا مثلك (أي: صاحبَ شريعة) فسوف أقيمه من إخوتهم (أي: لن يكون منهم)

لا شك أن موسى عليه السلام قال: { يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي } (التثنية ١٨ : ١٥) ولكن هذا (أولًا) يتناقض مع قول الله لموسى بالضبط، وهو: { أَقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ } (التثنية ١٨ : ١٨)، حيث لم يذكر هنا "مِنْ وَسْطِكَ" بل ورد فقط: "مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ".

و(ثانيًا) إن عبارة "مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ" تصبح بلا معنى، إذ الخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل، فأن يقال لهم: "مِنْ وَسْطِكَ" ثم "مِنْ إِخْوَتِكَ" يصير لغوًا بلا معنى. ما دام الله تعالى يقول لهم: سيقام لهم نبي من إخوتهم، فهذا يعني أن هذا النبي لن يقام من بني إسرائيل بل سيكون من قوم غيرهم، ولو كان من بني إسرائيل فما كان من إخوتهم، بل كان منهم.

و(ثالثًا): كان إعلان إقامة هذا النبي من إخوة بني إسرائيل عقابًا لهم، فإذا بُعث من أنفسهم، فأين العقاب إذن؟ حيث ورد قول موسى لبني إسرائيل: { حَسَبَ كُلِّ مَا طَلَبْتَ مِنَ الرَّبِّ إِلَهِكَ فِي حُورِيبَ يَوْمِ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: لَا أَعُوذُ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِي وَلَا أَرَى هَذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضًا لِئَلَّا أَمُوتَ. قَالَ

لِيَ الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. أُقِيمَ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلَ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيَكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ} (التثنية ١٨: ١٦-١٨).

يبدو من هذه الفقرة أن بني إسرائيل لما رفضوا سماع كلام الله المتعلق بالشرعية أغلق الله بابَ الشريعة عليهم، وقال عندما ستمس الحاجة إلى نبي مثل موسى، فسيقمه من إخوتهم.

وبحسب هذا الوعد الإلهي حقق بنو إسرائيل كل نوع من الازدهار، واستمرت فيهم سلسلة النبوة من أجل الحفاظ على حياتهم الروحانية، كما نالوا الحكم على الأرض المقدسة فيما عدا فترة السبي القصيرة، ثم بعد مجيء المسيح عليه السلام انتقل زمام الحكم على الأرض المقدسة إلى أيدي طائفة آمنت به من بني إسرائيل. وفي الآية القرآنية قيد التفسير قد ذكر الله تعالى بني إسرائيل بأننا كنا قطعنا معكم عهداً، ووعدناكم بحياة مباركة، ولقد وفينا بعهدها معكم ما وفيتم بعهدهم معنا، والآن إن وفيتم بعهدهم هذا فنحن أيضاً مستعدون للوفاء به.

وكما يوجد في القرآن الكريم ذكر العهد الإبراهيمي، كذلك يوجد فيه ذكر العهد الموسوي أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف ١٥٧-١٥٨)

قوله تعالى ﴿سَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ....﴾ يعني: سأكتب رحمتي للذين يعملون هذه الصالحات أيًا كان شعبهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، لأن اليهود حرّموا كثيراً من الأشياء السيئة المحرمة مثل لحم الخنزير والدم وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني أن الذين يؤمنون به ويعينونه باللسان والسيف ويتبعون نور القرآن الكريم الذي أنزل عليه، فإن الفلاح مؤكد لهم ولا بد أن ينالوا نصيبهم من البركات المقدرة لجماعة محمد رسول الله ﷺ، وإن كانوا من غير العرب، لأنه ﷺ ليس نبي شعب واحد، بل نبي الشعوب جميعها. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى نفسه في الآية التالية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩)، أي أن المؤمنين بي كلهم سيرثون الجوائز التي وُعدتها، وليس أن شعبي فقط هو الذي سيتمتع بها.

لقد ذكر الله تعالى في الآيتين المذكورتين آنفاً من سورة الأعراف الوعد الموسوي، مبيناً أن في كتاب موسى ﷺ نبأً بمجيء نبي أمي، وأمرًا بالإيمان به، وأن طاعة ذلك النبي ذات صلة بتحقيق الوعد الذي قطع لموسى من أجل أمته، لأن الله تعالى كان قد أخبر موسى أنه بعد بعثة ذلك النبي الموعود لن يتحقق هذا الوعد لبني إسرائيل إلا للذين سيؤمنون به منهم، حيث ورد في الكتاب المقدس: {أقيم لهم نبياً من وسط إخوانك مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه} (التثنية ١٨: ١٨-١٩).

والواضح من هذه الفقرة أن الوعد الذي قطعه الله تعالى مع موسى ﷺ لبني إسرائيل كان أثره ممتداً إلى ما قبل بعثة ذلك النبي الموعود، أما بعد بعثته فينال بنو إسرائيل نعم الله تعالى إذا آمنوا بالنبي الموعود، وإلا استحقوا العقاب. وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي نحن بصدد تفسيره.

ثمة شبهتان يثيرهما البعض هنا؛ الأولى: أن الذين يكفرون بأي نبي ينالون العقاب، وقد بُعث بين موسى ونبينا ﷺ كثير من الأنبياء الذين لم يؤمن بهم بنو إسرائيل، وهذا يعني أنهم قد نكثوا هذا العهد عندها، فكيف يكون هذا الوعد التوراتي خاصاً بالنبي محمد ﷺ؟ والثانية: إذا كانت هذه النبوءة تخص النبي ﷺ،

فإن عصر نبوة أنبياء بني إسرائيل قد انتهى بمبعثه ﷺ، فلماذا قيل لهم: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، سيّما أن النبوة يستحيل أن تنتقل إليهم ثانية وإن تابوا.

والرد على الشبهة الأولى هو: لا شك أن بني إسرائيل قد كفروا بأنبياء كثيرين قبل المصطفى ﷺ، لكنهم كانوا أنبياءهم القوميين. هذا أولاً، وثانياً لا جرم أنهم كفّروهم أول الأمر، ولكنهم أدخلوا فيما بعد أحوالهم وقصصهم ووحيتهم في مجموعة كتبهم المقدسة، فكان كفّرهم بهم مؤقتاً لم يحدث فرقة قومية، وهكذا لم يُحرّموا من البركات المقرونة بأنبيائهم. كان مثلهم كمثّل العرب الذين كفروا بالرسول ﷺ في بداية الأمر، ولكنهم آمنوا به في النهاية. لا شك أن طائفة من بني إسرائيل كفرت بنبيهم الأخير عيسى عليه السلام أشدّ الكفر، ولم يؤمنوا به بعد ذلك أيضاً، ولكنه عليه السلام كان نبياً إسرائيلياً على أية حال، ثم إن الطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل كانت امتداداً للوعد الموسوي لهم، ولو أنهم استقاموا على العهد لظلت فيهم نعمة النبوة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فانتقلت النبوة إلى الطرف الآخر.

أما اليهود فنسوا الجانب الروحاني لهذا العهد، أي طهارة القلب، وهكذا نقضوا عهد الله تعالى، وأما الذين آمنوا من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام فتركوا الختان البدني، وبذلك تخلّوا عن علامة ذلك العهد، وهكذا لم يبق أي فريق من بني إسرائيل على عهدهم، فحوّل الله العهد إلى إخوانهم، بني إسماعيل.

وموجز القول إن كفر بني إسرائيل بالأنبياء الذين خلّوا من قبل سيدنا محمد ﷺ كان كفراً عابراً مؤقتاً؛ إذ كانوا يعدّونهم فيما بعد من أنبيائهم القوميين، ما عدا المسيح عليه السلام الذي استمر معظمهم على الكفر به، ولكنه كان إسرائيلياً وجاء إلى بني إسرائيل أنفسهم، وكان يأمر بالتّباع شريعة موسى كما هو ثابت من الإنجيل، وكان أول من آمنوا به هم من بني إسرائيل أنفسهم، وبالتالي فقد استمر هذا الوعد يتحقق لبني إسرائيل بصورة قومية عن طريق المؤمنين به عليه السلام. أما رسولنا ﷺ فلم يكن كفّرهم به ككفرهم بأنبيائهم القوميين، لأنه ﷺ لم

يكن تابعاً للشرعة الموسوية، بل جاء بشرعة جديدة كما تنبأ موسى ﷺ؛ كما لم يكن ﷺ مبعوثاً إلى بني إسرائيل، بل بعث للعالم كافة، فلم يكن الدين الذي قام على يده ﷺ امتداداً للدين الموسوي، وما كان لبني إسرائيل أن يفتخروا به كقوم، بل كان دينه يمثل نهاية لعصر تفوقهم القومي، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لهم: ما دمتم قد نكثتم عهدكم معي، فقد أنهيت عهدي معكم.

أما الرد على الشبهة الثانية فهو الآتي: لا شك أن سلسلة الأنبياء الإسرائيليين كانت قد انقطعت ببعثة الرسول ﷺ، ولا يمكن أن تُستأنف بشكلها السابق حتى ولو آمنوا بالرسول ﷺ، ومع ذلك كان يوسعهم أن ينالوا رحمت الله تعالى حسب قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٦-٦٨).

علماً أن قوله تعالى ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ إشارة إلى الذين أسلموا من بني إسرائيل.

وتوضح هذه الآيات أن أصحاب التوراة والإنجيل لو آمنوا بما نزل لهدايتهم في الزمن الأخير، أي زمن الرسول ﷺ، واتقوا، لفتح الله عليهم أبواب الوحي من فوقهم، والرزق الطيب من الأرض من تحتهم، وحفظهم من عواقب سيئاتهم السابقة، أي يحقق الله لهم عهده معهم على هذا النحو، ويمتتعهم بالنعم السماوية والدنيوية. ثم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبلغ هؤلاء الأمم حق التبليغ لتتم الحجة عليهم، وليُنقذ منهم من يمكن إنقاذه.

إذن، فرغم انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل وفقاً لنبا موسى ﷺ، إلا أن بني إسرائيل لو بدأوا الوفاء بعهدهم، فإن الله تعالى مستعد للوفاء بعهدهم معهم.

وثمة أمر لطيف في هذه الآية من سورة المائدة يشير إلى النبا الوارد في سفر التثنية (١٨ : ١٨)، وهو أن الله تعالى بعد أن حثّ هنا بني إسرائيل على الإيمان بالهدي السماوي الجديد قال لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، أي عليك بتبليغ كل ما أنزلناه عليك، وهي نفس الكلمات الواردة في نبا التثنية ١٨:١٨ القائل: {وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به}.

كما أن قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يُستنبط منه أن باب النبوة غير التشريعية لم يغلّق في الأمة المحمدية، ذلك أن الله تعالى يقول لبني إسرائيل هنا إنكم إذا وفيتم بعهدي، أي عملتم بأحكامي وآمنتم بمحمد نبيّ هذا العصر، فسوف أوفي لكم بعهدكم، وقد سبق أن بيّنا أن ذلك العهد الإلهي كان بشأن بعثة أنبياء في بني إسرائيل؛ فثبت أن باب النبوة لم يُسدّ في الأمة المحمدية، وإنما انتهى نزول الشريعة الآن، ويمكن الآن أيضاً بعث أنبياء غير تشريعيين تابعين وخادمين للقرآن الكريم ولمحمد رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن هذا ممكناً، فما معنى قول الله لبني إسرائيل: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؟ هذا القول لا يصحّ إلا إذا كان باب النبوة مفتوحاً للأمة المحمدية، فبعد الله بها مَنْ يؤمن من بني إسرائيل بمحمد رسول الله ﷺ.

وليكن معلوماً أنه بحسب النبا الموسوي السالف الذكر، كان باب النبوة التشريعية مسدوداً على بني إسرائيل؛ وكان باب النبوة التابعة للشريعة الموسوية فقط مفتوحاً، لأن عبارة سفر التثنية ١٨:١٨ تصرّح أن النبي المشرّع المثل لموسى لن يأتي من بني إسرائيل، بل يأتي من إخوتهم بني إسماعيل، فكان أنبياء غير تشريعيين يبعثون بينهم قبل محمد المصطفى ﷺ، ولم يُسدّ هذا الباب في

وجهم بعد إيمانهم بنبوته ﷺ، ولذلك أخبرهم الله تعالى أنكم لو أوفيتهم بعهدي الآن أيضاً، فيإمكانكم نيل نصيبكم من هذه النعمة.

أما قوله تعالى ﴿وَيَايَا فَارِهِبُونَ﴾ فـ(إياي) مفعول به لفعل محذوف، وتقديره كالآتي: (وارهبوا إياي ارهبوا، فارهبون)، وكأن الله تعالى قد خوفهم منه ثلاث مرات.

وقد يعترض بعض المتأثرين بفلسفة الغرب ويتساءل عن سبب هذا التأكيد المتكرر بخشية الله تعالى في القرآن الكريم.

والجواب أولاً: ليس الخوف شيئاً معيباً، بل هو ضروري لخلق التقوى، لأن الناس على أحوال، فبعضهم يتقادون بالحب، وبعضهم بالخوف، والله الذي يريد إصلاح العباد لا بد أن يستخدم الحافزين كليهما: الخوف والحب. الفلسفة لا تقدر على إصلاح الإنسان، وإنما يتم الإصلاح بالعلاج نظراً للمرض، فالذين قد فسدوا لا يمكن إصلاحهم إلا بتحذيرهم من العواقب الوخيمة لعيوبهم، ومن لم يراع ذلك فشل في إصلاح الناس.

وثانياً: إن كلمة "رهب" لا يعني الخوف بالمفهوم العام، وإنما يعني الخوف المقرون بالسعي والجهد. تقول العرب: رهبنا الناقة: أي جهدها السير. فالرهب هو الخوف الدافع إلى العمل، ولأجل ذلك يقال للعابد راهب.

وأودّ هنا دفع شبهة أخرى؛ يقال: كان إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم عليهما السلام، فلماذا حرم الله ذريته من نعمه الخاصة لمدة طويلة؟ والجواب أن بني إسحاق، مهما ساءت أحوالهم فيما بعد، إلا أنهم ظلوا في الواقع حملة لواء الدين لمئات السنين، ومن أجل ذلك ورثوا أفضال الله الخاصة. أما بنو إسماعيل فما كانوا قد وصلوا إلى هذه المكانة قبل زمن سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ولذلك نالوا الإنعام بقدر الحاجة. أجل، كان نبينا ﷺ الجوهرة الكاملة في بني إسماعيل فسدت كل نقص، ولما كان من المقدر أن يكون هو ﷺ خاتم النبيين، فلزم أن يسبقه كل الأنبياء الذين نالوا النبوة مباشرة، ليأتي هو ﷺ في آخرهم، ليسد باب النبوة التشريعية والمباشرة.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: ٤٢)

شرح الكلمات:

آمِنُوا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب...) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس...) .

مُصَدِّقًا: صدّقه: ضدُّ كذّبه. التصديق: نسبةُ الصدق بالقلب أو اللسان إلى القائل؛ وقيل: هو أن تنسب باختيارك الصدقَ إلى المخبر. المصدّق: الذي يصدّقك في حديثك (الأقرب).

كافر: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم...) وقوله تعالى (... فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

ولا تشتروا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى).

آيأتي: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار).

ثمنًا: الثمن: ما قدره العاقدان عوضًا للمبيع (الأقرب).

الثمن اسمٌ لما يأخذه البائع في مقابلة المبيع، عينًا كان أو سِلعةً، وكلُّ ما يحصل عوضًا عن شيء فهو ثمنه (المفردات).

والثمن: ما تستحق به الشيء؛ والثمن ثمن البيع؛ وثمنُ كلِّ شيء قيمته، (أي قد تكون قيمة الشيء أكثر مما يُباع به، فالسعر الذي يباع به يسمى ثمنًا). قال الفراء في قوله عز وجل: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا﴾: كلُّ ما كان في القرآن من هذا الذي قد نُصب فيه الثمن، وأدخلت الباء في المبيع أو المشتري، فإن

ذلك أكثر ما يأتي في الشيعيين لا يكونان ثمنًا معلومًا... فمن ذلك: اشتريتُ ثوبًا بكساء، أيهما شئتَ تجعله ثمنًا لصاحبه، لأنه ليس من الأثمان، وما كان ليس من الأثمان مثل الرقيق والدور وجميع العروض فهو على هذا، فإذا جئت إلى الدراهم والدنانير وضعت الباء في الثمن، كما قال في سورة يوسف ﴿وشروه بثمن بخس دراهم﴾، لأن الدراهم ثمن أبدًا (لسان العرب).

اتقون: أصله: اتقوني. راجع أيضا شرح كلمات قول الله تعالى (هدى للمتقين).

التفسير: تبين هذه الآية أن معنى قوله ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ هو التصديق بالنبى الموعود به في نبأ سفر التثنية ١٨:١٨، لأن الله تعالى قال بعدها: ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ﴾، ليشير إلى أن الوفاء بالعهد وخشية الله والإيمان بما نزل على محمد ﷺ، كلها وثيقة الصلة بتكميل النعم الموعودة لبني إسرائيل.

هناك ضمير للغائب محذوف بعد ﴿بما أنزلت﴾ وهو راجع إلى (ما)، والمعنى: آمنوا بما أنزلته.

أما قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، فهي حال لضمير الغائب في ﴿بما أنزلت﴾، والمراد: آمنوا بما أنزلته من الكلام الذي هو مصدق لما معكم من الكتاب، أي أن هذا الكلام يحقق نبأ موسى الوارد في سفر التثنية ١٨:١٨، وأيضا أنباء الأنبياء الإسرائيليين الآخرين، فتصديقكم لهذا الكلام وللشخص الذي نزل عليه يعني تصديقاً لأسفاركم السابقة وعملاً بها؛ وتكذيبكم له يكون تكذيباً ورفضاً لها. فكان الذي يؤمن من بني إسرائيل بما يقدمه محمد رسول الله ﷺ من وحي القرآن، يؤمن بموسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل، لأنهم الذين أنبأوا بمجيئه ﷺ، فمن رفض محمداً ﷺ والكلام المنزل عليه فكأنما رفض موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل، لأنه يرفض تصديق كلامهم في الواقع، فلا يستحق النعمة المترتبة على التصديق والإيمان بهم.

ويمكن أن يسأل هنا بعض غير المسلمين: هل في الواقع أنبا موسى ومن بعده من الأنبياء بنبوءة عن مجيء نبي تحققت ببعثة محمد رسول الله ﷺ؟

والجواب أن كل أمة من الدنيا قد أُخبرت بمجيء نبي في آخر الزمان، مع بيان بعض علاماته التي تحققت في شخص محمد رسول الله ﷺ تحقّقاً كاملاً، ولا سيما أنباء أنبياء بني إسرائيل التي تواترت بكثرة بحيث يمكن أن يؤلف المرء كتاباً ضخماً عنها.

وحيث إن الآية القرآنية قيد التفسير لم تتحدث عن نبوءات جميع الأنبياء والأديان، فلن أتناول تلك النبوءات كلها أيضاً، ولكن لا بد من ذكر نبوءات أنبياء بني إسرائيل هنا في ضوء قوله تعالى: ﴿مصدقاً لما معكم﴾، فأكتفي بذكرها فقط بإيجاز.

التصديق الأول

إن القرآن الكريم ومحمدا رسول الله ﷺ يمثلان تصديقاً لإبراهيم عليه السلام الذي أنبأ بازدهار بني إسماعيل، فلو لم يُبعث سيدنا محمد ﷺ ولم يأت بما نزل عليه من الوحي القرآني لعدَّ إبراهيم كاذباً. لقد أخبر إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى قال له: {وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُنْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جَدًّا. إِنِّي عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً} (التكوين ١٧: ٢٠)

يتبين من هذا النبأ أنه كما كان هناك وعد بحق بني إسحاق بأن الله تعالى سوف يكثرهم ويباركهم ويجعلهم أمة كبيرة، كذلك كان الوعد نفسه في حق بني إسماعيل.

إذا كانت التوراة تقول أن عهد الكثرة والبركة هذا سيتحقق عن طريق بني إسحاق فقط، فسبب ذلك أن القلم كان في أيديهم، فقالوا كما شاءوا، وإلا فإن كل ما قيل في إسحاق قيل بعينه في إسماعيل؛ فلا مبرر لتخصيص إسحاق بهذا أبداً.

تخبر التوراة أن كلام الله نزل على السيدة هاجر أيضاً، وكان فيه نبأ بحق إسماعيل كالآتي: {وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرُ نَسْلِكَ فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْكَثَرَةِ»}. وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ

إِسْمَاعِيلَ، لَأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَدَلَّتِكَ. وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ» { (التكوين ١٦ : ١٠-١٢).

ومع أن هذا الوحي قد نزل على السيدة هاجر إلا أنه قد وُضع في سفرٍ من كتاب موسى عليه السلام، مما يؤكد أنه وحي من الله تعالى، لذلك فهو حجة على بني إسرائيل، كما أن نبأ إبراهيم عليه السلام حجة عليهم.

وإن هذا الوحي يتضمن الأمور التالية:

١. أن نسل إسماعيل سيكثرون كنسل إسحاق كثرةً تفوق العدَّ والإحصاء.
 ٢. أنهم يحرزون مجداً عظيماً حتى يحسداهم كل العالم.
 ٣. أنهم لن تلين قناتهم أمام العالم رغم عدائهم؛ بل يعيشون بعز وشرف.
- وعندما جاء رسولنا محمد ﷺ أعلن أنه سيحقق المجد حتى يحسده عليه العالم، وخاصة بنو إسحاق، وأن الله تعالى سيكتب له الغلبة على الدنيا كلها. وكأنه ﷺ قد أعلن بذلك أنه مُصدِّقٌ لأنباء إبراهيم وهاجر، ولو لم يُبعث ﷺ ما تحقق نبأ إبراهيم ولا نبأ هاجر المتعلقان بنسل إسماعيل، ولكن بعثته ﷺ حققت النبوءتين، وصار القرآن مصدِّقاً للتوراة، أي محققاً لأنبيائها.
- وأما ما ورد في الكتاب المقدس أن إسحاق هو الذي سيحقق الوعد الإبراهيمي، فالجواب (أولاً) قد سبق الرد عليه بأن هذا الكتاب لم يكن مصوناً من عبث المحرفين. كان بنو إسحاق يعادون بني إسماعيل عداً شديداً، وكان الكتاب المقدس في أيديهم أيام عصر الجاهلية لزمان طويل، والله أعلم كم أدخلوا فيه من تحريفات. وبدون الذهاب بعيداً فإن نسخ التوراة المكتوبة في زمن النبي عزرا، وهو عصر التأريخ، تختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً. فهناك اختلافات كبيرة بين نسخ اليهود ونسخ السامريين ونسخ النصارى، رغم اتفاقها في الأساس. فإذا كان هذا هو الحال في عصر التأريخ، فالله أعلم بتحريف اليهود لكتبهم قبل هذا العصر.

و(ثانيًا) حتى ولو تغاضينا عن هذا العبث والتحريف، فإنه يوجد في الكتاب المقدس حتى اليوم أنباء بحق إسماعيل، وعليه فيحق لنا تمامًا أن نقول إن النبأ الوارد في التوراة بحق إسحاق: {وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تِلْدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ}. { (التكوين ١٧: ٢١)، إنما يعني أن بداية تحقق هذا الوعد ستكون بنسل إسحاق. وهذا هو ما حدث فعلاً، إذ لم يزل هذا الوعد يتحقق عن طريق بني إسحاق لمدة طويلة في البداية، ثم نقله الله تعالى إلى بني إسماعيل.

أما السؤال: لماذا تحقق الوعد ببني إسحاق أولاً مع أنه الأخ الأصغر لإسماعيل؟ فالجواب: كان من المقدر لنسل إسماعيل أن ينالوا النبوة التي لن تُنسخ أبداً، فلو بدأ تحقق الوعد الإبراهيمي بواسطة بني إسماعيل لحرم بنو إسحاق من نعمة النبوة كلية. ومن أجل ذلك أعطى الله تعالى بني إسحاق نعمة النبوة لمدة طويلة أولاً، ثم بعث في بني إسماعيل نبياً كان خاتم النبيين ﷺ، الذي لن تُنسخ شريعته بشريعة أخرى، بل ستبقى إلى يوم القيامة.

ومما يدل قطعاً على أن بني إسماعيل كانوا شركاء في العهد الذي أوتيّه إبراهيم بحق أولاده أن علامة هذا العهد الظاهرية من جانب العباد هي الختان، وعلامة هذا العهد الظاهرية من طرف الله تعالى هي إعطاء أرض كنعان، وقد سبق أن سجلتُ الفقرة التوراتية المتعلقة بهذه العلامة، غير أنني أسجلها ثانية للتأكيد والتوضيح وهي: {وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لَأَكُونَ إِلَهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرَّتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونَ إِلَهُهُمْ}. وَقَالَ اللَّهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَحَفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عِلَامَةً عَهْدِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ». { (التكوين ١٧: ٧-١١)

لقد تبين من هنا أن هذا العهد الإلهي كان له شِقَّانِ ظاهريان: شقٌّ يتعلق بالله تعالى وهو أنه سيعطي مُلكَ كنعان لنسل إبراهيم؛ وشقٌّ آخر يتعلق بنسل إبراهيم وهو أنهم سيختتنون. وقد وفى الله عهده وأعطاهم أرض كنعان، ثم جاء زمنٌ نزع الله فيه أرضَ كنعان من اليهود وأعطاهم للنصارى، وحيث إن عيسى ابن مريم عليه السلام نبيٌّ إسرائيلي، فالعهد ظلَّ قائماً بحاله في فترة حكم النصارى على كنعان، أعني بقيت أرض كنعان في قبضة آل إبراهيم عليهم السلام. ولكن بدايةً من وفاة النبي محمد ﷺ مباشرةً وحتى سنة ١٩١٨ م -أي لحوالي ١٣ قرناً- بقيت هذه الأرض تحت حكم المسلمين الذين ينتمون إلى بني إسماعيل. وبقاء الأرض المقدسة تحت حكم بني إسماعيل لثلاثة عشر قرناً، رغم كونهم غيرَ مشاركين في العهد الإبراهيمي، يعني بطلان نبأ إبراهيم تماماً! ولكن كلام الله تعالى لا يمكن أن يكون باطلاً أبداً، فثبت أن بني إسماعيل كانوا شركاء بني إسحاق على قدم المساواة في العهد الإبراهيمي.

وجدير بالذكر أن هذه الشهادة الإلهية الواقعية إذا أثبتت أن بني إسماعيل كانوا شركاء في العهد الإبراهيمي ولذلك بقيت كنعان تحت حكمهم تحقيقاً لهذا العهد، فلا بد من التسليم أيضاً بأن الجانب الروحاني للعهد، أي إعطاء النبوة من قبل الله تعالى واختتان القلب من قبل العبد، كان تحققه لازماً في حق بني إسماعيل أيضاً. وقد تم هذا بالفعل في شخص الرسول محمد ﷺ. وإلا فليقدّموا لنا شخصاً واحداً من بني إسماعيل تحقق فيه هذا الوعد بحسب النبأ.

التصديق الثاني

لقد قام القرآن الكريم ومحمد رسول الله ﷺ بتصديق نبأ موسى عليه السلام التالي: {أَقِمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيَكْلِمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَائِبُهُ. وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلَامًا لَمْ أَوْصِهِ أَنْ

يَتَكَلَّمُ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ إِلَهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذَلِكَ النَّبِيُّ. { (التثنية ١٨ : ١٨-٢٠).

يتضمن هذا النبأ الأمور التالية:

١. أنه سيقام نبي من بني إسماعيل، إخوة بني إسرائيل.
 ٢. أن هذا النبي سيكون مثيلاً لموسى، أي صاحبَ شريعة، وتكون أحواله مشابهة لأحوال موسى.
 ٣. أن كلام الله سيجري على لسانه، بمعنى أن وحيه كله سيكون بكلمات إلهية، وليس أنه يتلو أحكام الله تعالى بكلمات من عنده.
 ٤. أنه سيبلغ الناس كلام الله تعالى غيرَ خائفٍ ولا وجلٍ، ويقرأ عليهم كلام الله كله.
 ٥. أن هذا النبي سيتلو باسم الله تعالى ما ينزل عليه من وحيه تعالى، وسيكون هذا النبي حرباً على الشرك.
 ٦. أن مكذبيه سيتعرضون لعذاب الله تعالى.
 ٧. أنه إذا ادعى أحد بسبيل الافتراء أنه مصداقُ هذا النبأ الموسوي فإن الله تعالى قد قدّر إهلاكه.^١
- وتحقيقاً لكل هذه الأمور الواردة في النبأ كان سيدنا محمد رسول الله ﷺ متصفاً بما يلي:

١. لقد ظهر ﷺ من بني إسماعيل إخوة بني إسحاق.
٢. أعلن ﷺ أنه مثيل لموسى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (الزمل: ١٦). فكان النبي ﷺ صاحبَ شريعة مثل موسى ﷺ، وكانت أحواله ﷺ مشابهة بأحواله جداً، حيث أُعطيَ شريعة كاملة، ووُعد مثل موسى بظهور المحدثين في أمته على

^١ علماً أنه في الطبعة العربية والإنجليزية ورد "سيموت"، ولكن ورد في الطبعة الأردنية: "سيقتل". (المترجم)

التوالي والتواتر، وكما أن عيسى بن مريم كان آخرَ خلفاء موسى عليهما السلام، كذلك وَعَدَ النبي ﷺ بظهور خليفة له على نفس الفترة الزمنية، وسمّاه مسيحاً، وقد ظهر هذا المسيح الموعود فعلاً في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، وبعد الفاصل الزمني نفسه تماماً.

٣. أعلن ﷺ أن كلام الله تعالى يجري على لسانه، أي أن كل كلمات وحيه التي يتلوها على الناس هي عين الكلمات التي تنزل على قلبه وحياً من الله تعالى. لو قرأتم كتب الأنبياء السابقين جميعاً لوجدتم أن كلام الله فيها أقل من كلام البشر، وربما لا يتحدثون في الأناجيل كلها أكثر من جملتين أو ثلاثة من كلام الله الخالص، أما الباقي فكله كلام المسيح أو قصص كتّاب الأناجيل. أما القرآن المجيد فهو الكتاب الوحيد الذي هو كلام الله تعالى من أوله إلى آخره.

باختصار، إن عبارة {أجعلُ كلامي في فمه} تعني أن كلام الوحي الذي كان ينزل على الأنبياء السابقين لم يكن كله وحياً لفظياً، بل كان أكثره ينزل على قلوبهم معنًى، أو كانوا يرون كشوفاً فيعبّرون عنها بألفاظهم، بينما يذكر هذا النبأ خصوصية للرسول ﷺ بأنه لن يبين مراد الله تعالى بكلمات من عنده، بل يبلغ مراد الله تعالى بكلمات الله عز وجل، والكلمات التي يتفوه بها لبيان مراد الله تعالى ستكون كلمات الله نفسه.

باختصار؛ إن كلمات "أجعلُ كلامي في فمه" تعني أن الوحي الإلهي كان ينزل على قلوب الأنبياء السابقين، فإذا وصل من قلوبهم إلى ألسنتهم خرج بقلب ألفاظهم هم، أما محمد رسول الله ﷺ فينزل وحي الله على قلبه ثم يخرج من فمه أيضاً بكلمات الله نفسها، وإلى هذا الأمر تشير الآية القرآنية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم ٤-٥)، أي أن هذا النبي لا يقدم مشيئة الله تعالى في قالب ألفاظ من عنده، بل ينطق بوحى الله تعالى في قالب كلمات أنزله بها على قلبه ﷺ.

٤. أنه ﷺ بلغ وحي الله تعالى غير هيّاب ولا وجل، وأبلغ الناس كل حرف منه. والقرآن الكريم خير شاهد على هذه الحقيقة. لقد واجه النبي ﷺ معارضة

شديدة، وحاول الكفار إغراءه بكل طريق ليحذف أو يخفف من وحي القرآن ما يعيب به آلهتهم، ولكن النبي ﷺ لم يبال بهم مطلقاً، وبلغهم كلام الله كله، وفي صورته الأصلية. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: ١٣)، أي يطمع المعارضون أن تضيق ذرعاً بسبب ظلمهم، فترك شيئاً مما أوحينا به إليك، أو ربما يضيق صدرك بسبب اعتراضهم أنه لم ينزل معك من السماء كنز أو ملكٌ يؤيدك، فترك شيئاً مما يوحى إليك، ولكن هذا لن يحدث لأنك نذير، وكيف يخاف النذير من قوم أخبره الله بهلاكهم، والله تعالى وكيل على كل شيء، فأنتي لأحدٍ أن يخرج من نطاق حكمه وسلطانه. (للمزيد راجع تفسير الآية المذكورة أعلاه في تفسير سورة هود)

لقد شهد النبي ﷺ بنفسه وأشهد الناس على أنه قد بلغهم كلام الله تعالى كله، ففي حجة الوداع لما نزل عليه قول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٤)، قام بين المسلمين خطيباً وذكرهم بواجباتهم، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ أي أيها الناس أستحلفكم بالله أن تشهدوا: هل بلغت الناس كل ما أوحى به الله إليّ حقّ البلاغ أم لا؟ فقال الصحابة بلسان واحد: اللهم، نعم! فقال ﷺ: اللهم، فاشهد! (السيرة النبوية لابن هشام، خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع).

كما يمكن أن يكون لهذا النبأ التوراتي معنى آخر، وبيانه أنه كان من المقدر أن يكون النبي الموعود خاتم النبيين، فاقتضى ذلك أن يبلغ الناس كل ما ينزل عليه من الوحي الديني، لكي لا يبقى شيء من الدين ناقصاً، أما الأنبياء السابقون فلم يكن حالهم هكذا، إذ كان ينكشف عليهم من أسرار الدين ما لم يكن مسموحاً لهم بكشفه للناس، لأن عقلية الناس في عصورهم لم تكن قادرة على استيعاب تلك الأسرار، وإن استوعبها عقول أولئك الأنبياء المتطورة، إذن، فالنبأ التوراتي بأن النبي الموعود يُبلغ الناس كل ما يوحى إليه يعني أن العقل

البشري في زمنه يكون قد اكتمل ونضج، ولذلك يُعطى هذا النبي الموعود آخرَ الشرائع وأكملها، التي تشتمل كل الأسرار الروحانية، وسيؤمر أن يُعلم أمته تلك الأسرار كلها، لأنهم أهل لتعلمها واستيعابها.

ونجد في الإنجيل إشارةً لهذا المعنى، حيث قال المسيح عليه السلام: {إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روحُ الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق} (يوحنا ١٦: ١٢-١٣).

لقد تبين من هذه العبارة أن المسيح عليه السلام لم يبلغ الناس كل ما أوحى إليه، لأن بعض وحيه كان خاصاً به فحسب، ولم تكن أمته قادرة على استيعابه، ولكنه أخبرهم بأنه سيأتي بعده "روحُ الحق"، فيخبر الناس بكل شيء، لكونهم قادرين على استيعابه. وكأنه يقول إن روح الحق هذا سيتبوأ مقام "خاتم النبيين".

٤. أما النبأ التوراتي الوارد في عبارة "كلامي الذي يتكلم به باسمي"، فقد تحققّ بابتداء كلِّ سورة من سور القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، الذي معناه: اقرأ عليكم هذا الكلام باسم الله الرحمن الرحيم.

٥. أما النبأ الخاص بهلاك منكري هذا النبي الموعود، فقد تحقق لنبينا محمد عليه السلام تحقّقاً اعترف به المعارضون أيضاً، وإن كانوا يعزّون هلاك أعدائه إلى أسباب مادية، ولكن الحق أن قولهم هذا خلاف للعقل والواقع.

٦. أما النبأ بأن الله تعالى سيُهلك كلَّ من يدعي على سبيل الافتراء أنه مصداقٌ لهذا النبأ، فقد تحقق أيضاً بأروع صورة. كان محمد رسول الله عليه السلام وحيداً، ولم يألُ أعداؤه جهداً للقضاء عليه، مع ذلك خرج عليه السلام فائزاً في كل موطن، ولم يستطع أحد أن يصيبه بضرر. ويستحيل أن يكون هذا كله مجرد صدفة، بل كان الله تعالى قد أخبر رسوله بذلك سلفاً وأمره أن يعلن أمام العالم: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٨). وإن عصمة النبي عليه السلام من مؤامرات الأعداء بشكل خارق لآية كانت وحدها سبباً في اهتداء كثير من أعدائه. فمن أحداث التاريخ الشهيرة أن هند زوجة أبي سفيان جاءت يوم فتح مكة ضمن النساء لبيعة النبي عليه السلام على الإسلام، فلما أخذ الرسول عليه السلام عليهن ألا

يشركن بالله شيئاً، فلم تملك هند نفسها من شدة الحماس وقالت: أبعد كل ما رأينا بأمر أعيننا نشرك بالله؟ كنتَ وحيداً وكنا عصبة قوية، وبذلنا كل ما في وسعنا للقضاء عليك، فلم نفلح في ذلك. فلو كانت أصنامنا تملك أي قدرة لقضينا عليك، ولكننا هلكنا وخرجت فائزاً (الروض الأنف للسهيلي).

فكروا يا قوم، فلو لم يُبعث من بني إسماعيل نبيٌّ صاحبُ شريعة كمثل موسى، ولو لم يُلقِ الله كلامه في فمه، ولو لم يبلغ الناسَ كلامَ الله، ولو لم يبلغهم كلام الله كله رغم المعارضة الشديدة، ولو لم يهلك الله أعداءه، ولو لم يحالفه النجاح رغم قوة الأعداء وشدة المعارضة، فكيف يتحقق نبأ موسى هذا، وكيف يتبين صدقه؟ فالوحي النازل على رسول الله ﷺ برأى موسى عليه السلام من قهمة الكذب، بل وصدقه أيضاً.

التصديق الثالث

هناك نبأ آخر لموسى عليه السلام يقول فيه: {جاء الربُّ من سيناء، وأشرق لهم من سعيير، وتلاًلاً من جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قُدُوسي*}، وعن يمينه نار شريعة لهم. { (التثنية ٣٣: ٢)

يذكر هذا النبأ ثلاثَ آيات سماوية: الآية الأولى تتعلق بالتجلي الإلهي في سيناء، وهو إشارة إلى ازدهار موسى عليه السلام ورقبه، والثانية تخص التجلي الإلهي من سعيير، وهو خبر بظهور عيسى عليه السلام من منطقة سعيير، والثالثة تخص التجلي الإلهي من منطقة جبل فاران.

والملاحظ أن التجلي الثالث قد ورد بتفصيل أكثر من سابقه، مما يدل على أن هذا التجلي هو المقصود الحقيقي هنا. لقد قيل في هذا النبأ (أولاً) أن مقام

* الكلمات التي تحتها الخط هي ترجمة ما ورد في الطبعة الأردنية، إذ قد حرّفوها في بعض الطباعات الحديثة حيث ترجموها في الطبعة العربية كالأتي: "وأتى من ربوات القدس". (المترجم)

ظهور هذا التجلي هو فاران، و(ثانيا) أن مَظْهَرَ هذا التجلي الإلهي يأتي بصحبة عشرة آلاف من القدوسيين، و(ثالثا) أنه سيكون في يمينه شريعة نارية. وهذه العلامات الثلاث بتمامها وكمالها متوفرة في شخص محمد رسول الله ﷺ. فعندما انتصر الرسول ﷺ على كفار مكة ودخلها حسب أنباء قرآنية واضحة، دخلها من جهة "فاران". ووادي "فاران" هذا يقع بين مكة والمدينة (معجم البلدان، لياقوت الحموي، كلمة: فاران). وعندما فتح النبي ﷺ مكة كان معه جيش قوامه عشرة آلاف من أصحابه القدوسيين.

كما أنه ﷺ أتى الدنيا بشريعة نارية، ألها تحرق بخلق نار الحب الإلهي في الناس آثامهم ومعاصيهم، كما أن هذه الشريعة لا تعد المؤمنين بالأجر والثواب فقط، بل هي تنذر المكفرين والأشرار بالعقوبات. فلو لم يظهر محمد رسول الله ﷺ، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة، ولم ينصره ربه على أعدائه، ولم تُفْتَح مكة على يده، ولم يكن معه عندها عشرة آلاف من الصحابة القدوسيين، ولم تكن معه شريعة كاملة تبشّر المؤمنين بالفلاح والازدهار، وتنذر أعداء الحق بشتى العقوبات، فكيف يا ترى، يتحقق هذا النبأ من سفر التثنية (٣٣: ٢)؟ وكيف يُصَدِّقُ وحي موسى عليه السلام؟ إذن، فكان الوحي النازل على محمد رسول الله ﷺ محققاً لهذا النبأ ومصدقاً له، وفق قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

التصديق الرابع

هناك وحي لسليمان عليه السلام يقول: {حَبِيبِي أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعَلِّمٌ بَيْنَ رَبَّوَةٍ* رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيْزُ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ. عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى

* "مُعَلِّمٌ" يعني: مميز بارز أو قائد. وربوة تعني: عشرة آلاف. والمر: طيب الرائحة ومفيد. وحلقه حلاوة يعني: أن كل أقواله وأفعاله عذبة جميلة. (المترجم)

مَجَارِي الْمِيَاهِ، مَعْسُورَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَقْفَيْهِمَا. خَدَاهُ كَحَمِيلَةِ الطَّيِّبِ وَأَثْلَامَ رِيَّاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوسَنٌ تَقْطُرَانِ مِرًّا مَائِعًا. يَدَاهُ حَلَقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرْصَعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَيْضٌ مُغْلَفٌ بِالْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ. سَاقَاهُ عُمُودَا رُحَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلَعْتُهُ كَلْبَنَانِ. فَتَى كَالْأَرْزِ. حَلَقُهُ حَلَاوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هَذَا حَبِيبِي، وَهَذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ { (نَشِيدُ الْأَنْشَادِ ٥ : ١٠-١٦).

لقد أخبر سليمان عليه السلام في هذا النبأ عن لون النبي ﷺ بأنه أحمر أبيض، وهذا ما يثبتته التاريخ.

ثم صور النبي ﷺ مشهداً لفتح مكة بأنه يرجع لوطنه منتصراً في صحبة عشرة آلاف من الناس، وهم صحابته القدوسيون الوارد ذكرهم في نبأ التنبيه ٣٣ : ٢. وفي آخر هذا النبأ ذكر سليمان عليه السلام اسم محبوبه ﷺ : محمد. ومن أجل إخفاء هذا الاسم من النبأ قام مترجمو التوراة في العصر الحديث بتحريف كلمة "محمد" الواردة في النبأ حيث استبدلوا بها كلمة "مشتهيات". ولكن الكلمة الأصلية في العبرية هي "محمدسم". علماً أن "يم" قد أضيف إلى كلمة "محمد" بالعبرية من أجل الاحترام، مثلما يفعلون بكلمة "ألوه" التي تعني الرب، فيكتبونها "ألوهيم". فـ "محمدسم" يعني: "محمد الموقر".

وبسبب ورود اسم محمد في هذا النبأ، كان الناس في ذلك العصر عندما رأوا علامات قرب ظهور النبي الموعود بدأوا يسمّون أولادهم باسم "محمد"، فكان في المدينة عدة أشخاص سماهم آبائهم محمداً، ومنهم محمد بن أحيحة الصحابي (أسد الغابة).

فلقد حقق الوحي النازل على محمد رسول الله ﷺ هذا النبأ أيضاً، ولولا ذلك لصار نبأ سليمان عليه السلام باطلاً.

التصديق الخامس

وورد في الكتاب المقدس: {لِمَنْ يُعَلِّمُ مَعْرِفَةً، وَلِمَنْ يُفْهَمُ تَعْلِيمًا؟
 أَلِلْمَفْطُومِينَ عَنِ اللَّبَنِ، لِلْمَفْصُولِينَ عَنِ الثَّدِيِّ؟ لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَلَى أَمْرٍ، أَمْرٌ عَلَى أَمْرٍ،
 فَرَضٌ عَلَى فَرَضٍ، فَرَضٌ عَلَى فَرَضٍ، هُنَا قَلِيلٌ هُنَاكَ قَلِيلٌ. إِنَّهُ بِشَفَةِ لَكْنَاءٍ
 وَبِلِسَانٍ آخَرَ يُكَلِّمُ هَذَا الشَّعْبَ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ: «هَذِهِ هِيَ الرَّاحَةُ. أَرْجُوا
 الرَّازِحَ، وَهَذَا هُوَ السُّكُونُ». وَلَكِنْ لَمْ يَشَاءُوا أَنْ يَسْمَعُوا، فَكَانَ لَهُمْ قَوْلُ
 الرَّبِّ: أَمْرًا عَلَى أَمْرٍ، أَمْرًا عَلَى أَمْرٍ، فَرَضًا عَلَى فَرَضٍ، فَرَضًا عَلَى فَرَضٍ، هُنَا
 قَلِيلًا هُنَاكَ قَلِيلًا، لِكَيْ يَذْهَبُوا وَيَسْقُطُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَيَنْكَسِرُوا وَيَصَادُوا
 فَيُؤْخَذُوا.} (إِسْعِيَاءَ ٢٨: ٩-١٣)

وينكشف من النبأ الأمور التالية:

أولاً: أن كلام الله تعالى سوف ينزل في زمن من الأزمان لقوم حُرِّموا من
 لبن الوحي، وفُصلوا عن أهمهم، أي من النبوة بعد أن كانت فيهم. وقد ظهر
 محمد رسول الله ﷺ في زمن كانت النبوة منقطعة لزمن طويل، وخاطب أيضاً
 بني إسرائيل المحرومين من لبن الوحي المفصولين عن ثدي النبوة. قال القرآن
 الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ
 تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ٢٠). فقله تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يشير إلى ما جاء في
 هذا النبأ: "لِمَنْ يُعَلِّمُ مَعْرِفَةً، وَلِمَنْ يُفْهَمُ تَعْلِيمًا؟ أَلِلْمَفْطُومِينَ عَنِ اللَّبَنِ،
 لِلْمَفْصُولِينَ عَنِ الثَّدِيِّ؟"

وثانياً: الكلام الذي سوف ينزل لتلك الأمة لن ينزل دفعة واحدة، ولا
 في بلد واحد؛ بل يكون نزوله أمراً على أمر، وفرضاً على فرض، هنا قليلاً
 وهناك قليلاً. وهكذا بالضبط نزل القرآن المجيد شيئاً فشيئاً؛ بعضه في مكة
 وبعضه في المدينة وبعضه في الأسفار، حتى قال الكفار معترضين: ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ
 عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٣)، ولا يزال المسيحيون يكررون نفس

الاعتراض حتى اليوم رغم وجود هذا النبأ في كتابهم سفر إشعياء، وهكذا يقدمون بأقلامهم دليلاً على كون محمد رسول الله ﷺ مصداقاً لهذا النبأ.

وثالثاً: أن هذا الوحي سوف يتلى عليهم بلسان شخص عربي، وبلغة أجنبية أي عربية؛ ذلك لأنه في بعض الترجمات كالأردية مثلاً، قد وردت العبارة "شفة وحشي" بدلاً من {شفة لکناء}. وكلمة الوحشي تدل على العرب كما سبق أن ذكرنا أن الله تعالى عندما بشر السيدة هاجر بإسماعيل عليهما السلام قال لها: {إنه يكون إنساناً وحشياً} (التكوين ١٦ : ١٢). والحق أن اسم "الوحشي" الذي أطلق على إسماعيل عليه السلام في الكتاب المقدس هو ترجمة لكلمة "العرب" بسبب ما كان يكنه بنو إسرائيل من كراهية لبني إسماعيل. ومادة "ع ر ب" في العربية تعني البيان، والعرب سُموا عرباً لعيشهم في الخيام، وولوعهم بالشعر والأدب، وكلامهم الفصيح البليغ، بسبب عيشهم في الخيام والبادية كان أعداؤهم يسموهم "وحشيين"، بدلاً من أن يسموهم أهل الخيام والبادية. وقد اختار الكتاب المقدس الأسلوب نفسه، فكلما ذكر إسماعيل عليه السلام سماه "وحشياً"، وكلما ذكر النبي المبعوث في أولاده قال إنه سيتكلم بشفة وحشي، بدلاً من أن يقول إنه من أولاد إسماعيل. إن القرآن نزل باللسان العربي، وهو أمر معروف لا حاجة لذكره، ومع ذلك قال الله تعالى من أجل الإشارة إلى نبأ إشعياء هذا: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١٣)، أي قد جاء قبل القرآن الكريم كتاب موسى، والقرآن يحقق ما ورد في ذلك الكتاب من نبوءات، وتحقيقاً لتلك الأنباء قد نزل القرآن بلسان عربي، كي ينذر الظالمين ويبشر المحسنين.

فهذه الآية القرآنية تعلن أن نزول القرآن بلسان عربي تصديقٌ لصحف موسى عليه السلام، أي أنه تصديق لنبأ (التكوين ١٦ : ١٢)، حيث سُمي إسماعيل وحشياً، أي من العرب، وأيضاً تصديق لنبأ (التثنية ١٨ : ١٨)، حيث جاء أن وحي الشريعة لن ينزل في المستقبل على أحد من بني إسحاق، بل سينزل على

إخوتهم بني إسماعيل. وكذلك تشير هذه الآية القرآنية ضمناً إلى نبي إشعياء الذي نحن بصددده، والذي هو مزيد من التوضيح لنبي موسى ﷺ.

ورابعا: سيقول النبي الموعود لليهود إن دار إقامته هي دار أمن وراحة وسكون، فأريحوا المتعبين المجتهدين تجدوا الراحة والسكون، ولكن اليهود لن يسمعون لقوله ولن يدعوا ذلك المكان مكان أمن وراحة، بل سوف يؤذون المجتهدين المتعبين.

وهذا أيضاً يصدق على محمد رسول الله ﷺ، فإنه أعلن أن المدينة المنورة - التي كان اليهود يعيشون فيها معه - دار أمن وحرمة مثل مكة المكرمة، وعقد معهم معاهدة لإقرار الأمن في المدينة (السيرة الحلبية)، ولكنهم لم يدعوا المتعبين أي المهاجرين، الذين جاءوا من سفر بعيد شاق، يعيشون في راحة هناك، فلم يجد اليهود أيضا الراحة هنالك حسب هذه النبوءة.

وخامسا: ورد في هذا النبأ أنه سينزل عليهم "أمر على أمر، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويصادوا فيؤخذوا". وقد تحقق هذا الأمر أيضاً على يد الرسول ﷺ تماما، فإن اليهود عندما أبوا إلا حرمان المتعبين "المهاجرين" من الراحة، فإنهم أنفسهم راحوا وذهبوا، أي أُجِّلِي بعضهم من المدينة، وقُتل بعضهم، وهُزِمُوا وألقوا السلاح أمام الرسول ﷺ وصيدوا وقيدوا، وأُخذ بعضهم عبيداً (سيرة ابن هشام، أمر إجلاء بني النضير وغزوة بني قريظة).

ما أشدَّ جلاء هذا النبأ الذي تحقق على يد النبي محمد ﷺ! فلو لم ينزل عليه ﷺ هذا الكتاب العربي المبين لما أمكن تصديق نبي إشعياء النبي وعُدَّ من الكاذبين، ولكنه تحقق بالقرآن الكريم وتم تصديقه.

التصديق السادس

قال النبي إشعياء: {يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «هَآنَذَا أَوْسَسُ فِي صِهْيُونَ حَجَرًا، حَجَرًا امْتِحَانٍ، حَجَرًا زَاوِيَةً كَرِيْمًا، أَسَاسًا مُؤَسَّسًا: مَنْ آمَنَ لَا يَهْرُبُ»} {إِشْعِيَاءُ

وقال النبي داود عليه السلام: { الْحَجَرُ الَّذِي رَفَعَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّائِرَةِ. مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا. } (الْمَزَامِيرُ ١١٨ : ٢٢-٢٣)
وقال داود عليه السلام أيضاً: { مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ. بَارَكْنَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ. } (الْمَزَامِيرُ ١١٨ : ٢٦)

ثم هنالك وحيٌ للنبي دانيال بهذا الشأن يفيد أن الملك الفارسي نبوخذ نصر رأى حلمًا فَنَسِيه، فذكر ذلك للمنجمين، ولكنهم اعتذروا عن تفسير حلم منسيٍّ، فأمر الملك بقتلهم. وكان النبي دانيال من أسرى السبي الذين أتى بهم الملك من أورشليم إلى بلده، فلما سمع بذلك ابتهل إلى الله تعالى ليطلعه على حلم الملك وتعبيره، فاستجاب الله له. ثم إن دانيال استأذن الملك ليدله على الحلم وتعبيره، فقال:

{ أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنْتَ تَنْظُرُ وَإِذَا يَتِمُّ ثَمَالٌ عَظِيمٌ. هَذَا التَّمَالُ الْعَظِيمُ الْبَهِيُّ جَدًّا وَقَفَ قِبَالَتِكَ، وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ. رَأْسُ هَذَا التَّمَالِ مِنْ ذَهَبٍ جَيِّدٍ. صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّةٍ. بَطْنُهُ وَفَخْذَاهُ مِنْ نُحَاسٍ. سَاقَاهُ مِنْ حَدِيدٍ. قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ وَالبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ. كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بِغَيْرِ يَدَيْنِ، فَضَرَبَ التَّمَالُ عَلَى قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَخَزَفٍ فَسَحَقَهُمَا. فَانْسَحَقَ حِينَئِذٍ الْحَدِيدُ وَالْخَزَفُ وَالنُّحَاسُ وَالْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ مَعًا، وَصَارَتْ كَعُصَافَةِ الْبَيْدَرِ فِي الصَّيْفِ، فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَكَانٌ. أَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي ضَرَبَ التَّمَالُ، فَصَارَ جَبَلًا كَبِيرًا وَمَلَأَ الْأَرْضَ كُلَّهَا. هَذَا هُوَ الْحُلْمُ. فَخَبِّرْ بِتَعْبِيرِهِ قَدَامَ الْمَلِكِ.

أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَلِكُ مُلُوكٍ، لِأَنَّ إِلَهَ السَّمَاوَاتِ أَعْطَاكَ مَمْلَكَةً وَاقْتَدَارًا وَسُلْطَانًا وَفَخْرًا. وَحَيْثُمَا يَسْكُنُ بَنُو الْبَشَرِ وَوُحُوشُ الْبَرِّ وَطُيُورُ السَّمَاءِ دَفَعَهَا لِيَدِكَ وَسَلْطَتِكَ عَلَيْهَا جَمِيعَهَا. فَأَنْتَ هَذَا الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ. وَبَعْدَكَ تَقُومُ مَمْلَكَةٌ أُخْرَى أَصْغَرُ مِنْكَ، وَمَمْلَكَةٌ ثَالِثَةٌ أُخْرَى مِنْ نُحَاسٍ فَتَتَسَلَّطُ عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ. وَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ صَلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، لِأَنَّ الْحَدِيدَ يَدُقُّ وَيَسْحَقُ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَالْحَدِيدِ الَّذِي يُكْسَرُ تَسْحَقُ وَتُكْسَرُ كُلُّ هَؤُلَاءِ. وَبِمَا رَأَيْتَ الْقَدَمَيْنِ

وَالْأَصَابِعَ بَعْضُهَا مِنْ خَرْفٍ وَالْبَعْضُ مِنْ حَدِيدٍ، فَالْمَمْلَكَةُ تَكُونُ مُنْقَسِمَةً، وَيَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْحَدِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّكَ رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَرْفِ الطِّينِ. وَأَصَابِعُ الْقَدَمَيْنِ بَعْضُهَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَرْفٍ، فَبَعْضُ الْمَمْلَكَةِ يَكُونُ قَوِيًّا وَالْبَعْضُ قَصِيًّا. وَبِمَا رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَرْفِ الطِّينِ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِطُونَ بِنَسْلِ النَّاسِ، وَلَكِنْ لَا يَتَلَصَّقُ هَذَا بِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ الْحَدِيدَ لَا يَخْتَلِطُ بِالْخَرْفِ. وَفِي أَيَّامِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ، يُقِيمُ إِلَهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرَضَ أَبَدًا، وَمُلْكُهَا لَا يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ، وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هَذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الْأَبَدِ. لِأَنَّكَ رَأَيْتَ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَ حَجَرٌ مِنْ جَبَلٍ لَا بِيَدَيْنِ، فَسَحَقَ الْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ وَالْخَرْفَ وَالْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ. اللَّهُ الْعَظِيمُ قَدْ عَرَفَ الْمَلِكَ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ هَذَا. الْحَلُمُ حَقٌّ وَتَعْبِيرُهُ يَقِينٌ. { (دَانِيَالُ ٢ : ٣١-٤٥) }

لقد تبين من أنباء هؤلاء النبيين الثلاثة أنه كان من المقدر ظهور ملكٍ روحاني يكون بمثابة حجر الزاوية، أي يكون حلقةً أخيرةً من السلسلة الروحانية، وسيكون ذلك الحجر ثمينًا جدًا وقويًا، ومن آمن به كان وقورًا جلدًا صبورًا، وهو حجر رفضه البناءون، ولسوف يسحق الملوك الشداد، حجر لم تنحته يدُ إنسان.

وقد ذكر المسيح عليه السلام أيضًا هذا النبأ فقال: { اِسْمَعُوا مَثَلًا آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافِرٍ. وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الْأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذَلِكَ. فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ابْنَهُ قَائِلًا: يَهَابُونَ ابْنِي! وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ الْقَائِلِ فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟ » قَالُوا لَهُ: « أُولَئِكَ الْأَرْدِيَاءُ يَهْلِكُهُمْ هَلَاكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الْأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي

رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنَزَّعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ! {إِنْجِيلُ مَتَّى ٢١ : ٣٣-٤٤}.

لقد ضرب المسيح عليه السلام في هذه الفقرة مثلاً، وبين أن بني إسرائيل قد رفضوا أنبياء كثيرين، فأرسل الله تعالى أخيراً نبياً سُمي ابن الله، أي المسيح نفسه، ولكن بني إسرائيل رفضوه أيضاً، وقتلوه، (أي يحاولون قتله كما سنثبت ذلك في مكانه بالأدلة والبراهين)، فسيرسل الله نبياً يُسَمَّى تَجَلِيًّا لله تعالى، ويكون حجرَ الزاوية، وعند مجيئه يُعاقَب بنو إسرائيل عقاباً تاماً، ويُسلم ملكوتُ الله لِقَوْمٍ يعطون الله تعالى أَثْمَارَهُ في وقتها، أي يؤدّون واجبات الله حق الأداء، ويكون ذلك الحجر من العظمة بحيث يسحق كل من يصطدم به، ويتمزق كل من يقع عليه.

هذه الأنباء من أربعة أنبياء: داود، إشعياء، دانيال، والمسيح عليهم السلام، تنطبق كلها على الرسول ﷺ بجلاء بحيث لا ينكر ذلك إلا من أعماه التعصب. كان النبي ﷺ من بني إسماعيل، الذين رفضهم بنو إسحاق باستمرار، وحاولوا حرمانهم من البركات الإبراهيمية دائماً. وقد أعلن النبي ﷺ بنفسه أنه حجر الزاوية فقال: {مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَانًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذِهِ اللَّبَنَةُ، فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبَنَةُ} (مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين).

كان النبي ﷺ ذرة يتيمة لا تقدّر بثمن. وكان أساسه متيناً، حيث لم يزعه أحد من مكانه رغم معارضة العالم الشديدة الممتدة لثلاث عشرة سنة كما تشهد على ذلك الأحداث. ولم يكن صحابته مستعجلين قليلي الصبر كحواريي المسيح ﷺ، بل كانوا ذوي وقار وثبات وأناة. لقد تبرأ حواريو المسيح منه وتحلوا عنه هاربين عندما ألقى جنود الرومان القبض عليه. (متى ٢٦:

٥٦ و (٧٠-٨٤)، لكن صحابة الرسول ﷺ قالوا له في أحلك الظروف: يا رسول الله، سنقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ولن يخلص إليك العدو إلا على جثتنا الهامدة (البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى إذ تستغيثون ربكم...)). ووصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٤)، أي أن عباد الله المؤمنين بمحمد رسول الله ﷺ يمشون على الأرض بكل سكينة ووقار، ولا يستعجلون في أمورهم، وعندما يتعرضون لسب من الجاهلين لا يردون على السب بالسب غيظًا وغضبًا، بل يقولون لهم إنما نريد لكم السلام. وقال الله تعالى في صفتهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٣)، أي أنهم إذا مرّوا بأماكن اللهو واللعب لا يشتركون فيه ميلاً إلى ملذات الدنيا، كما فعلت أمة المسيح حيث نسيّت ذكر الله تعالى وانشغلت بالرقص والغناء والموسيقى. إن صحابة محمد ﷺ يملكون نفوسهم ويمرّون معرضين عن متع الدنيا الفارغة إلى ما ينفعهم في أخراهم التي لا تنقطع ثمارها.

ووصف حجر الزاوية هذا في نبوءة الكتاب المقدس أن قدومه بمنزلة قدوم الله تعالى، وأنه سيأتي باسمه تعالى. وقد زاد المسيح ﷺ هذا الأمر وضوحاً وقال إن هذا القادم باسم الله سوف يجيء بعد من يُسمّى ابن الله. فجاء محمد رسول الله ﷺ بعد المسيح ﷺ، وكان قدومه ﷺ بمثابة قدوم الله تعالى. وقد أشار القرآن الكريم إلى صفة النبي ﷺ هذه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. (الفتح: ١١)

وكون قدومه ﷺ بمثابة قدوم الله تعالى، يشير إلى أمر آخر أيضاً، وهو أن النبي ﷺ سيأتي مثيلاً لموسى، إذ ورد عن موسى أنه هو الله: {فقال الرب لموسى انظر أنا جعلتك إلهاً لفرعون} (الخروج ٧: ١). فتمثيل قدوم النبي الموعود بقدوم الله تعالى يعني أنه يأتي مثيلاً لموسى ﷺ. وكأن هذا النبأ إشارة إلى نبأ موسى الوارد في سفر التثنية ١٨: ١٨.

ثم ذكر هذا النبأ أن هذا الحجر سيسحق مَنْ يسقط عليه، وأن مَنْ سقط عليه يترضض. وهذا ما حدث مع الرسول ﷺ، فرغم فقره وضعفه الشديدين خاض الحرب ضد الأمم كلها وانتصر عليها.

الحق أن المسيح ﷺ قد صوّر غزوات الرسول ﷺ أروع تصوير في قوله: "مَنْ سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه"، أي أن الأعداء سيهاجمونه ﷺ أولاً، فتلحقهم أضرار فادحة؛ ثم إذا كرّ هو عليهم قضى عليهم. وهذا ما حدث تماماً، فلم يزل أعداؤه يهاجمونه ويتضررون وينكسرون، ولما هاجمهم كسر شوكتهم تماماً.

وكان النبي دانيال أيضاً أخبر أن حروب النبي الموعود لن تكون ضد قومه فقط، بل سيشتبك مع الحكومات القوية في عصره، فيقضي عليها. وطبقاً لهذا النبأ فُضي على إمبراطورية قيصر الرومي على يد النبي ﷺ.

وكان النبي دانيال قد أشار إلى دين هذه الإمبراطورية وقال: {وما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس، ولكن لا يتلاصق هذا بذلك، كما أن الحديد لا يختلط بالخزف} (دانيال ٢: ٤٣). وهذه إشارة إلى أن أهل تلك الإمبراطورية يحاولون الانتساب إلى ديانة لا حقّ لهم في الدخول فيها أساساً. فعبارة "يختلطون بنسل الناس" لا تعني طبعاً أنهم ليسوا أناساً كسائر البشر، لذا فلا بد من تفسيرها تفسيراً معقولاً، وهو أنهم سيحاولون الانتماء إلى ابن الإنسان، أي المسيح عيسى ﷺ، ولكن دعواهم هذه باطلة لأن ابن الإنسان هذا لم يأت إلا "لخراف بني إسرائيل الضالة" فقط، ولا يؤذن للأقوام الأخرى بالدخول في دينه. قال المسيح ﷺ: {لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة} (متى ١٥: ٢٤). وكذلك عندما بعث المسيح ﷺ الحواريين مبشرين أمرهم: {إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا} (متى ١٠: ٥). فالرومان الذين ادّعوا انتماءهم إلى المسيحية إنما مثّلهم كمثّل الذي ينسب نفسه إلى قوم لا يحقّ له الانتساب إليهم.

وأما ما قلتُ بأن المسيح عليه السلام هو المراد من "نسل الناس" أو بعبارة أخرى "ابن الإنسان"، فدليله أن هذا الاسم للمسيح مذكور في الإنجيل بكثرة، فمثلاً قيل: {لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر من المغرب، هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان} (متى ٢٤: ٢٧).

ثم وُصف هذا الحجر في النبوة بأنه {قُطع من جبل ولم تقطعه أو تنحته يد إنسان}، ومعناه أن النبي الموعود سيكون أُمِّيًّا لم يتعلَّم على يد بشر. وكان الرسول ﷺ أُمِّيًّا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجزئية من النبأ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

تعلن هذه الآية أن التوراة والإنجيل قد وصفا محمداً رسول الله ﷺ بثلاثة أسماء: الرسول، النبي، الأُمِّي. ولقد وصف الكتاب المقدس النبي الموعود بأنه حجر لم تنحته يد إنسان، وقد صدّق الإنجيل هذا النبأ، وكأنه أخبر أن النبي ﷺ يكون أُمِّيًّا.

لقد حاول البعض بسبب جهلهم تطبيقَ هذا النبأ على المسيح الناصري عليه السلام، ولكنهم لا يدركون أن المسيح لم يكن أُمِّيًّا، بل كان له معلّمون من البشر، حيث ورد: {حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه} (متى ٣: ١٣). وجاء أيضاً: {فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء} (متى ٣: ١٦). فالمسيح ﷺ لم يتلقَّ التعليم المادي فقط، بل تتلمذ على يد النبي يحيى من أجل التعليم الروحاني أيضاً. فلا يمكن، والحال هذه، أن يسمى أُمِّيًّا.

ثم إن المسيح ﷺ لم تكن صفته: "مَنْ سقط عليه يترضض، ومَنْ يسقط هو عليه يسحقه"، بل سقط الناس عليه وآذوه إيذاءً شديداً، ولم يجد فرصة للسقوط على الآخرين.

فلو لم تتحقق هذه الأنباء بوجود النبي ﷺ لَعُدَّ كُلُّ من داود وإشعيا ودانيل والمسيح عليهم السلام من الكاذبين، والعياذ بالله. فالقرآن الكريم قد صدّق كلام هؤلاء الأنبياء جميعاً بتحقيق أنبائهم.

التصديق السابع

جاء في الإنجيل: {فَتَوَبُّوا وَارْجِعُوا لِتُمَحِّيَ خَطَايَاكُمْ، لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ. وَيُرْسِلَ يَسُوعُ الْمَسِيحَ الْمُبَشِّرَ بِهِ لَكُمْ قَبْلُ، الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ إِلَى أَرْضٍ رَدَّ كُلَّ شَيْءٍ، الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللَّهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقَدِيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلْأَبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيَقِيمُ لَكُمْ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ. وَيَكُونُ أَنْ كُلَّ نَفْسٍ لَا تَسْمَعُ لِدَلِيلِ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهَذِهِ الْأَيَّامِ. أَنْتُمْ أَنْبَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ اللَّهُ آبَاءَنَا قَائِلًا لِإِبْرَاهِيمَ: وَنِسْلِكَ تَبَارَكَ جَمِيعُ قِبَائِلِ الْأَرْضِ. إِلَيْكُمْ أَوَّلًا، إِذْ أَقَامَ اللَّهُ فَتَاهُ يَسُوعَ، أَرْسَلَهُ يُبَارِكُكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ.} (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٣ : ١٩-٢٦)

ومع أن هذا النبأ قد ورد في سفر أعمال الرسل، ولكن لا بد أن يكون المسيح نفسه قد تنبأ به، لأن الحواريين كانوا ينقلون أقواله، ويعتقد النصارى أن كل ما قاله الحواريون قالوه تحت تأثير روحي للمسيح، ومن أجل ذلك سجلوا أعمال وأقوال الحواريين في كتبهم المقدسة، واعتبروها أسفاراً من الكتاب المقدس. كما أن هذا النبأ قد أدلى به المسيح ﷺ بكلمات أخرى سبق أن ذكرناها في "التصديق السادس". وعليه، فإن بؤسنا أن نجزم بأن هذا النبأ الوارد في سفر الأعمال هو من أقوال المسيح ﷺ.

ويتضمن هذا النبأ ما يلي:

١. لن ينزل المسيح ﷺ إلى الدنيا مرة أخرى ما لم يتحقق ما أنبأ به موسى ﷺ، أي أن الله تعالى سوف يبعث نبياً مثله من إخوة بني إسرائيل.
٢. ليس موسى ﷺ وحده الذي تنبأ بمجيء هذا النبي الموعود، بل قد تنبأ به أيضاً كل الأنبياء من بعده بدءاً من النبي صموئيل.

٣. كان المجيء الأول للمسيح ﷺ بمنزلة البشارة بمجيء ذلك النبي الموعود، لأن المسيح قال: لقد أرسل الله فتاه يسوع إليكم أولاً ليردّ كل واحد منكم عن شروره.

ولقد أثبت من قبل أن نبينا محمداً ﷺ كان هو النبي المثل لموسى، أو "ذلك النبي" بحسب تعبير الإنجيل، فثبت أن هذا النبأ الذي يؤكد بقاء المسيح في السماء إلى "أزمة ردّ كل شيء" - أي إلى تحقّق كل الأنباء، سيّما نبأ ظهور مثل لموسى - يشرّ ببعث نبينا محمد ﷺ. كما يبين هذا النبأ أن البعث الأول للمسيح الناصري كان تمهيداً لمجيء ذلك النبي الموعود، لكي يطهّر قلوب الناس من الشرور، ويزيل ما ران على قلوب اليهود من جفاء وتحجر، لكي يكونوا أهلاً للإيمان بهذا الموعود عند مبعثه. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣-٨٤).

فالقرآن أيضاً يصدّق بهذا النبأ الذي أدلى به المسيح ﷺ، أي أنه ﷺ قد جاء قبل النبي محمد ﷺ ليطهّر قلوب الكثيرين من الذنوب، ويباركهم، حتى يكونوا أهلاً لتصديق النبي المثل لموسى.

فجاء نبينا محمد رسول الله ﷺ تحقيقاً لهذا النبأ المذكور آنفاً، وهكذا صار مصدّقاً للمسيح وللأنبياء الآخرين منذ صموئيل، ولو لم يأت ﷺ لعدّ كلهم من الكاذبين.

كثيرة الأنبياء التي تحققت في شخص الرسول ﷺ، فصار مصدّقاً لكلام كثير من الأنبياء السابقين، غير أني أكتفي بهذا القدر منها، إذ يستطيع كل منصفٍ خالٍ من التعصب أن يتبيّن بهذه الأمثلة مدى صدق القرآن الكريم في قوله لبي إسرائيل: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾. إن القرآن الكريم تحقيقٌ للأنبياء

الواردة في كتب بني إسرائيل، فالذي يكفر منهم بالقرآن فإنه لا يكفر به فحسب، بل يكفر بكتبه التي أنبأت بنزوله.

لقد أساء بعض كتّاب النصارى فهم هذه الآية، فظنوا أنها إعلان من القرآن بأنه يصدّق كلّ ما جاء في كتبهم من غثّ وسمين، وبناءً على فهمهم الخاطئ هذا يقولون: ما دام كتّابهم المقدس صحيحاً بحسب اعتراف القرآن، فقد ثبت بطلان القرآن، لأن مضامينه تخالف الكتاب المقدس.

إنني لا أفهم أبداً هذه العقلية، أعني أن يقال: ما دام زيد يصدّق بكرة، فلا بد أن يكون زيد على الباطل! هل الظلم جزاء الإحسان؟! الحق أن هذه الآية لا تعني أبداً ما حاول هؤلاء القساوسة استنتاجه منها، كما هو واضح مما ذكرت آنفاً. لقد اتخذ هؤلاء بكلمة ﴿مُصَدِّقًا﴾، مع أن التصديق له مدلولان: الأول نسبة الصدق إلى القائل، والثاني: تحقيق ما قال القائل، والمعنى الثاني هو المراد هنا. قال القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨٢-٨٣).

والظاهر من هذه الآية أن القرآن الكريم يعلن أن جميع الأنبياء أخبروا بمجيء نبيٍّ يصدّق كتبهم جميعاً، ويكون الإيمان به ضرورياً لكل الأمم. ونقرأ في القرآن الكريم أنه يقول عن الأنبياء: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥). ويقول أيضاً: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر: ٣٢). أي أن الكتاب الذي أنزله الله عليك كله حقٌ ويصدّق كل وحي نزل على الأنبياء من قبل.

إذا قرأنا هاتين الآيتين معاً توصلنا إلى أن الأنبياء بُعثوا في كل قطر وفي كل شعب؛ وأن النبي الموعود في هذه الآية يُصدّق كتاب كل نبي، ولا بد أن يؤمن به أتباع كل نبي؛ بعبارة أخرى إن تصديق القرآن الكريم للتوراة والإنجيل هو

كتصديقه للكتب الأخرى مثل "الفيدا" و"الزندأفستا" وسائر كتب الأنبياء حيثما بُعثوا في مختلف أقطار الأرض. ولكننا نجد أن هذه الكتب كلها في شكلها الحالي تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً. ولو قبلنا بصحتها بشكلها الحالي، مع كونها يكذب بعضها بعضاً، لا نهارَ صرُحُ الدين تماماً ولم يبق منه شيء. ولو سَمَّيناها كتب الله بشكلها الحالي لكذبنا الأنبياء الذين تُنسب إليهم. فمثلاً، هل يمكن القول بأن كل التوراة في شكلها الحالي هي الوحي الإلهي الذي نزل على سيدنا موسى عليه السلام، مع أنه قد ورد فيها: {فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مُوآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مُوآب، مقابل بيت فَعُور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.} (التثنية ٣٤: ٥ - ٦) وكذلك ورد فيها: {وَيَشُوْعُ بْنُ نُونٍ كَانَ قَدْ امْتَلَأَ رُوحَ حِكْمَةٍ، إِذْ وَضَعَ مُوسَى عَلَيْهِ يَدَيْهِ، فَسَمِعَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَمِلُوا كَمَا أَوْصَى الرَّبُّ مُوسَى. وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَحَهَا لَوَجْهِهِ} (التثنية ٣٤: ٩-١٠)

يتضح من هذه الفقرات جلياً أنها كتبت بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام بفترة طويلة، بل في وقت انمحي فيه أثر قبره وجاء بعده كثير من الأنبياء في بني إسرائيل، لأن العبارة تقول: "ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى". فهل من عاقل يسلم بأن موسى عليه السلام عاد إلى الدنيا بعد وفاته بمئات السنين وأضاف هذه العبارة إلى كتابه؟ وإذا كان هذا غير صحيح، وكانت يدُ أخرى أضافت هذه العبارة إلى كتاب موسى بعد قرون من وفاته، فمن يدري ما أضيف إليه خلاف ذلك؟ فأَيُّ الفقرات يصدّقها القرآن وأَيُّها لا يصدّق؟ وكيف نميز -في هذا الكتاب المحرّف الذي يعترف علماءؤه أنفسهم أنه قد أُلّف بأيدٍ كثيرة وفي أزمنة مختلفة- بين كلام الله حتى نصدّقه، وبين كلام البشر حتى نرفضه؟

كذلك ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال للحواريين: {الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قومًا لا يدوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته} (متى ١٦: ٢٨)، بينما الأمر الواقع أنهم جميعاً ماتوا، ومات بعدهم أجيال

وأجيال، ولم ير أحدٌ حتى اليوم ابنَ الإنسان آتياً في ملكوته بحسب اعتقاد المسيحيين أنفسهم.

ولو قيل أن مجيء المسيح يعني ازدهار أمته، فهذا أيضاً تأويل خاطئ، لأن المسيحيين إنما حققوا الازدهار والرقى بعد حادثة الصليب بثلاثة قرون، ولم يكن عندها أحدٌ من عاصر المسيح حياً حتى يرى هذا الازدهار.

فليخبرنا القساوسة المحترمون الذين يقولون بأن تصديق القرآن لكتبهم يعني أنه يقرّ بصحتها، كيف يمكن للقرآن أن يصدق هذه الأمور؟

إن أكبر ما يعتقده النصارى أن الأناجيل تعلّم ألوهية المسيح والأقانيم الثلاثة، ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤). فهذه الآية وكثير مثلها تبين بكل جلاء أن القرآن لا يصدّق أبداً ذلك الإنجيل الذي يقدّمه المسيحيون اليوم. والأكبر من ذلك أن القرآن لا يصدّق مطلقاً ما يقدّمه المسيحيون المعاصرون من مفهوم لما ورد في الإنجيل. فماذا عسى أن يغنيهم هذا التأويل لمعنى التصديق؟

الحق أن تصديق البشر يتم بطريقتين: أولاً أن نقول عن شخص إنه صادق فيما يقول، وثانياً أن نثبت صدق قوله سواء بلساننا أو بفعلنا، فمثلاً نقول: فلان صادق فيما يقول، أو نصدق بفعلنا ما قاله، كأن يخبر زيد عن عمرو أنه سيسافر إلى بلد ما، فإذا سافر عمرو فقد صدّق بفعله زيداً.

أما تصديق الكتب السماوية فيكون بثلاث طرق:

١. القول بأن الكتاب كله حق.
 ٢. القول بأن بعض أجزائه حق.
 ٣. القول بأنه كان في أول أمره حقاً، أي أنه كان قد نزل من عند الله تعالى، وأن من جاء به كان صادقاً لا كاذباً، ولكن الناس حرفوه فيما بعد.
- وقد أثبت سلفاً أن التصديق التام للكتب السماوية السابقة محال، كما أنه ما كان للقرآن الكريم أن يفعل ذلك أبداً. إنه محال، لأن معظم تلك الكتب لا

توجد اليوم، وإنه أمرٌ ما كان القرآن ليفعله، لأنه يبيّن أخطاءها، فأتى له أن يصدّقها التصديق التام. فلم يبق أمام القرآن إلا طريقتان لتصديقها: إما أن يصدّق ببعض أجزائها، أو يصدّق بحالتها الابتدائية. وبالفعل يصدق القرآن الكتب السابقة بهاتين الطريقتين: (١) فإنه يصدق الكتب الموجودة اليوم في الدنيا بالطريقتين كليهما: أي أنه يصدق بعض ما ورد فيها من قضايا ومسائل، وبعض ما ورد فيها من أنباء بتحقيقها في وجوده؛ (٢) كما يعلن أن كل الكتب السماوية كانت حقاً مئة بالمئة عند نزولها في أول الأمر، فهو يعلن صدق الوحي الذي نزل على آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكرشنا ورام شنذر وزرادشت وغيرهم من أنبياء الله عليهم السلام، الذين بعثوا في شتى العصور وفي مختلف الأقطار وإلى شتى الشعوب، سواء عرفنا أسماءهم أم لا. لقد أعلن القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرِسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: ٧٩). فقد بين الله تعالى هنا أن الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم ليسوا وحدهم أنبياء الله تعالى؛ بل هناك أنبياء آخرون أيضاً بعثهم الله تعالى.

ثم أثار القرآن الكريم هنا سؤالاً: كيف نعرف صدق الأنبياء الذين لم نَرِدْ أسماؤهم فيه؟ فبيّن الله تعالى أن علامة صدقهم أنهم يأتون بالآيات، ولا يمكن لأحد أن يأتي بالآيات بدون إذن الله وعونه تعالى، فمن أتى منهم بآية فهو نبي صادق يقيناً.

ثم إن كثيراً من الآيات تتطلب شهود عيان وعلماً تفصيلياً للوقائع، ولا علم لنا بالأحوال التفصيلية للكثيرين الذين تقدمهم بعض الأمم كأنبياهم؛ فكيف نعرف صدقهم؟ فأجاب القرآن الكريم على ذلك بأن هناك آية مشتركة بين جميع الأنبياء، وملازمة لكل نبي دائماً، ألا وهي: (١) هلاك أعداء النبي في نهاية المطاف، (٢) وبقاء اسمه في الدنيا وغلبة أتباعه. فإذا رأيت هذه الآية في مدحٍ للوحي، فاستيقنوا أن الله تعالى معه وليس كاذباً.

لقد تبين من هذه الآية أن القرآن الكريم لا يصدّق الأنبياء المذكورين فيه فقط، بل يصدق أيضًا مَنْ لم يذكُر أسماءهم، وإذا كان القرآن مصدّقًا لهم فهو مصدّق لوحيهم أيضًا، ولا سبيل لتصديق هذا الوحي الغائب أو غير المذكور إلا أن نؤمن بصدقهم إيمانًا إجماليًا.

فالمعنى الآخر للتصديق هو الإيمان الإجمالي بها، أي أن الكتب السابقة قد نزلت من الله تعالى في البداية، وهذا هو التصديق الذي يصدّق به القرآن الكريم كتب اليهود والنصارى أيضًا. إذن، فمن الظلم العظيم أن يستنتج أحدٌ من قوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أن القرآن الكريم يعلن بذلك صحة كتبهم في صورتها الراهنة. ثم إن آيات القرآن الكريم الأخرى، والواقعات، والشهادات الداخلية للكتب الأخرى تبطل هذا الزعم.

وهناك أمر لطيف جدير بالذكر، وهو أن هذه الآية لا تقول أن القرآن مصدّقٌ للتوراة والإنجيل، بل تقول: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، فلو فُسِّرَ قوله تعالى ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ بمعناه الواسع لصار المراد أن القرآن الكريم يصدّق أساطيرهم وأباطيلهم أيضًا، وهو باطل بالبداهة. فلا بدّ من تقييد معناه بشروط معقولة، فمثلاً نقول:

أولاً: إن القرآن الكريم مصدّقٌ لكتبهم في مسألة معينة مذكورة في سياق تلك الآيات القرآنية، أي أن التعاليم التي يقدمها القرآن الكريم في مسألة معينة هي نفس التعاليم الموجودة في كتبكم. أي التصديق خاصّ ليس بمطلق. وبهذا المفهوم نفسه فسّرت هنا قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، وقلت إن القرآن الكريم يصدّق الأنبياء الواردة في كتبكم، أي يحققها بنزوله.

ثانياً: إن القرآن الكريم مصدّق ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من وحي الله الخالص. ولا اعتراض على هذا المعنى أيضاً، فأبي شك في أن من واجب كلّ وحي سماويّ أن يصدّق ما في الكتب السابقة من كلام إلهي خالص. ومثل هذا التصديق لا يعني أبداً أن كلّ ما في كتبهم هو وحي الله تعالى حتماً.

وهناك أمر آخر بصدد هذا الاعتراض جدير بالاهتمام، وهو أن الله تعالى كلما ذكر في القرآن الكريم تصديقه للكتب السابقة استعمل صلة "اللام"، ما

عدا موضعين، بينما كلما ذكر تصديق القرآن الكريم لنفسه وللرسول ﷺ استعمل صلة "الباء". والمعروف في اللغة أن دخول حرف الباء على الفعل ﴿صَدَّقَ﴾ كان المراد أن هذا الشيء حق. فهذا الفرق في استخدام حرفي اللام والباء يؤكد أن تصديق القرآن الكريم للكتب السابقة له معنى آخر؛ وهو أن القرآن الكريم بنزوله يحقق ما في تلك الكتب من أنباء، وليس أنه يعدها صحيحة جملة وتفصيلاً بما فيها من رطب ويابس. وهناك آيات قرآنية تؤكد هذا الاستدلال أيضاً، فقد جاء: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ* وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١١ إلى ١٣). علماً أن الخطاب في الآيات السابقة لهذه الآية الأخيرة موجه إلى كفار مكة لا إلى اليهود، حيث قيل لهم إن موسى ﷺ قد شهد وأخبر بمجيء نبي مثيل له يُبعث من بني إسماعيل، أفليس غريباً أن يؤمن به موسى الذي هو من بني إسحاق (إسرائيل)، بينما أنتم تستكبرون عن الإيمان به مع أنه نبي منكم، ومبعثه مدعاة شرف لقومكم بني إسماعيل؟

ثم يخبر الله تعالى هنا أن الكفار يقولون بأنهم رفضوا هذا النبي لكذبه، ودليلهم على ذلك أنه لم يسبقهم إلى الإيمان به سوى أراذل القوم، أما أكابرهم فهم معارضون له، فلو كان صادقاً لكان صناديدهم سابقين إلى الإيمان به. فردّ الله على قولهم هذا وقال إن كتاب موسى كان قبل القرآن الكريم وقد تأكد صدق كتابه بما فيه من الهداية والنفع، ويوجد فيه أنباء عن نزول القرآن الكريم، وقد حققها بالفعل وحيُّ القرآن، ومن تلك الأنباء أن الكتاب الذي ينزل بعد موسى سيكون بلسان عربي، وأن قومه سوف يعارضونه؛ فما دام القرآن يحقق تلك الأنباء الصادرة قبل مئات السنين، فكيف يجوز لكم رفضه؟

ونبأ نزول الشريعة القادمة بلسانٍ عربيٍّ مستنبطٌ من سفر (التثنية ١٨ : ١٨)، حيث ورد أن النبي الموعود سيُبعث من إخوة بني إسرائيل، أي من بني إسماعيل الذين هم العرب. ونبأ معارضة النبي الموعود من قبل قومه مستنبطٌ من سفر (التثنية ٣٣ : ٢)، حيث ورد أنه سيأتي في صحبة عشرة آلاف من القدوسيين، وأن في يده اليمنى نارَ شريعة، أي أنه سيأذن بالقتال ويحارب عند الضرورة. والواضح أن الإنسان يضطر للحرب عندما يعارضه قومه ويكونون ذوي قوة ومنعة. فقولُ قريش بأنهم على القوم ولم يؤمنوا به، فليس هو بدليل على صدقهم، بل هو دليل على صدق القرآن الكريم والنبي ﷺ، لأنهم بقولهم هذا يحققون ما سبق أن تنبأ به موسى. فهذا الأمر تصديق لحمد رسول الله ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى يبين صدق موسى عليه السلام.

فهذه الآية من سورة الأحقاف تكشف معنى التصديق جلياً، لأن تصديق التوراة باللسان والقول فقط ما كان حجةً مقنعة للكفار، إذ كان القرآن والتوراة كلاهما باطل عندهم، إنما كانت الحجة المقنعة لهم أن يحقق القرآن بنزوله أنباء التوراة، لأن تحقيق نبوءة أي نبي سابق تكون حجة على كل إنسان، لأنها تشتمل على أخبار الغيب. إذًا، فليس معنى التصديق في هذه الآية من سورة الأعراف إلا تحقيق نبأ ما، وهذا ما تعنيه الآية: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ وغيرُها من الآيات المماثلة.

أما قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيتضمن مسألة لغوية تحتاج إلى توضيح، حيث قيل أولاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ وهي بصيغة الجمع، ثم قيل: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ وهي بصيغة المفرد، فكيف هذا؟

وقد أجاب علماء اللغة على هذه المسألة بأجوبة شتى منها:

إذا كانت صيغة أفعل التفضيل -مثل (أَوَّلَ) هنا- مضافةً إلى صفة نكرة جاز ورود الصفة مفردةً أو جمعاً، وقد قدّم الفراء مثلاً على الاستعمالين قول الشاعر:

وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَلَأَلَمُ طَاعِمٍ وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ
فجاء لفظ (طاعم) هنا مفرداً كما ورد لفظ (كافر) في قوله تعالى ﴿أَوَّلَ
كَافِرٍ بِهِ﴾ مفرداً، بينما وردت كلمة (جياع) جمعاً. فاستخدم الشاعر الأسلوبين
في بيت واحد.

وقال الفراء أيضاً: إذا كان أفعل التفضيل مضافاً إلى نكرة أولوها، فمثلاً
تقدير طَاعِمٍ هو: مَنْ طَعِمَ، فكلمة كافر في قوله ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ هي بمعنى: أولُ
مَنْ كَفَرَ، والتقدير: لا تكونوا أولَ فريقٍ كافرٍ به.
وقال آخرون: تقديره: لا يكن كلُّ واحدٍ منكم أولَ كافرٍ به.
وقال اللغوي سيبويه: تقديره: لا تكونوا أولَ كافرين به (البحر المحيط،
والزمخشري).

وليس المراد أنه لا تكونوا أولَ كافرٍ به، ويمكنكم أن تكونوا آخر كافرٍ به،
وإنما هذا أسلوب عربي حيث يستحسنون حذف بعض الكلام، والمعنى: لا
تكونوا أولَ كافرٍ به، ولا تكونوا آخرَ كافرٍ به، أي لا تتعجلوا في الكفر أول
الأمر ولا تكفروا فيما بعد أيضاً. ومثاله عند المفسرين قول الشاعر:
مِنْ أَنَاسٍ لَيْسَ فِي أَخْلَاقِهِمْ عَاجِلُ الْفَحْشِ وَلَا سُوءُ جَزَعٍ
(البحر المحيط)

إذ ليس المراد أنهم لا يتفحشون عاجلين، بل يتفحشون آجلين، وإنما المراد لا
يتفحشون أبداً.

وعندي أنه يمكن تفسير هذه المعضلة بغير ذلك، وهو: أن الله تعالى قال هنا
لبنی اسرائیل إن القرآن الكريم ما دام مصدقاً لأنباء كتبكم فكفركم به يصبح
كفراً من الدرجة الأولى، إذ يمكن غض الطرف عن كفر الجاهلين بحقيقة الأمر
ويُلتمس لهم العذر، أما أنتم فلا عذر لكم. فليس المراد أنه يجوز الكفر من
الدرجة الأدنى، أو يجوز الكفر في وقت لاحق؛ بل المراد أن الكفر بالقرآن لا
يجوز بأي حال، أما كفركم به فهو من الدرجة الأولى، أي هو من أشد أنواع
الكفر وأخطره، ويجعلكم في مقدمة الكافرين. ونجد نظير هذا التعبير في قول الله

تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٣٠)، فكلمة (ظَلَّامٍ) صيغة المبالغة، ومع ذلك ليس المراد أن الله تعالى لا يبالغ في الظلم، غير أنه يظلم ظلمًا قليلًا، وإنما المراد أنه تعالى يبدو ظالمًا كبيرًا -والعياذ بالله- ببادي النظر إلى الأمور المذكورة في الآيات السابقة، ولكنه تعالى ليس كذلك أبدًا. وفي لغتنا الأردية أيضًا نقول: لماذا تظلمه لهذه الدرجة، وليس معناه أنه يمكنك أن تظلمه ظلمًا قليلًا، بل المراد أن الظلم لا يجوز مطلقًا فلماذا تظلم هذا الظلم العظيم. أو نقول: لا تكذب لهذه الدرجة، والمعنى أن الكذب مذموم وشنيع، فلا تكذب.

وضمير الغائب في قوله تعالى ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾ يمكن أن يكون عائداً على (ما) الواردة في قوله ﴿بِمَا أُنْزِلَتْ﴾، والمراد: لا تكونوا كافرين بما أنزلته من وحي جديد، أي القرآن الكريم. كما يمكن أن يرجع ضمير الغائب هذا إلى (ما) في قوله تعالى: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾، والمراد: إن هذا القرآن يحقق أنباء كتبكم، فإذا كفر بما غيركم فليكفر، ولكن لماذا تتعجلون أنتم في تكذيب كتبكم بأنفسكم؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ومن سوء حظ المسلمين أنه يوجد بينهم في هذا العصر من يحرفون معاني القرآن الكريم، فهناك من المشايخ الذين يبيعون لأهل القرى مصاحف ذات طبعة رخيصة بثمن غال جدًا، وإذا اعترض أحد على ذلك قالوا: قال الله تعالى: ﴿لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. أو يقرأون القرآن الكريم بالأجرة بعد وفاة أحد بأيام معينة، زاعمين إيصال ثواب قراءتهم للميت، ويحتجون على صحة تصرفهم هذا بهذه الآية نفسها. والحق أن مثل هذه الأفكار والتصرفات سخيفة وباطلة تمامًا، إذ ليس هذا هو معنى هذه الآية، وإلا لكانت العبارة كالآتي: "ولا تشتروا آياتي بثمن قليل"، ذلك أن الشراء هنا ليس بمعناه المعروف، وإنما بمعنى الاستبدال (البحر المحيط)، وسبق أن بينا لدى شرح كلمات قول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضلالة بالهدى﴾ أن من معاني الشراء هو أخذ الشيء بدل الآخر، حيث ورد: "كُلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا وَتَمَسَّكَ بغيره فَقَدْ اشْتَرَاهُ" (الأقرب). وعليه فمفهوم هذه

الآية: لا تتركوا آياتي لتأخذوا المتاع القليل. والمتاع القليل بحسب القرآن هو الدنيا حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النساء: ٧٨). فالمراد: لا تُؤثروا الدنيا على الدين.

والآية زجرٌ لبني إسرائيل أنكم ترفضون رسالة محمد ﷺ، مع أن كتبكم تخبركم عن بعثته، وما تفعلون ذلك إلا خشيةً ضياع زعامتكم ومركزكم الديني. ويشقّ عليكم نيل القرب الإلهي بطاعة محمد رسول الله ﷺ، وتأبون إلا الحفاظ على زعامتكم القومية بمعارضته ﷺ، فكأنكم ترمون أنباء كتبكم وراء ظهوركم طمعاً في العز المادي والمتاع القليل.

ورد في الحديث أن عالمين يهوديين لقيا النبي ﷺ، فقالا فيما بينهما: هذا هو النبي المذكور مجيئه في كتبنا، ولكننا لن نقبله وإلا قتلنا قومنا (مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث صفوان بن عسال المرادي).

وهذه هي العقلية التي تحرم أكثر الناس من قبول الحق. ثم يقول الله تعالى: ﴿وَيَايَا فَاتَّقُونَ﴾، وهذه العبارة تماثل قول الله تعالى من قبل: ﴿وَيَايَا فَارْهَبُون﴾، والتقدير: واتقوا إياي، تنبهوا، فاتقون.

لقد أشار الله بذلك إلى أن الإنسان يؤثر الدنيا على الدين مخافة المصاعب في الحياة، ولكن خوفه عبث، لأن الراحة والتعب من الله تعالى، ولا ينعم الإنسان براحة الدنيا أيضاً إلا بإرضاء ربه، لا بدون ذلك.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:

(٤٣)

شرح الكلمات:

لا تلبسوا: لبس (يلبس) عليه الأمر لبساً: خلطه وجعله مشتبهاً بغيره (الأقرب).

(ولا تلبسوا الأمر): أي لا تجعلوا الأمر مشتبهًا على الآخرين بخلط الباطل مع الحق.

الباطل: نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص. (المفردات)

التفسير: يقال لِبَسَ يَلْبَسُ الأمر، وَلَبَسَ يَلْبَسُ اللباس. فقوله تعالى: ﴿لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني: لا تخلطوا الحق بالباطل، فتجعلوه مشتبهًا على الناس.

وهذا هو دأب أعداء رسل الله دائماً، يأخذون من الحق شيئاً ويخلطون به الباطل مثيرين الضجة ضد النبي قائلين: إنه كذاب. كان اليهود في زمن الرسول ﷺ يعترفون بظهور كل العلامات المتعلقة بالنبي الموعود، ومع ذلك كانوا يحتجون حيناً بأن علامة النبي الموعود الأساسية هي أنه سيظهر من بني إسرائيل، وتارةً يقولون إنه سيظهر في أورشليم، وهكذا كانوا يصدون العامة من قبول الحق؛ مع أن الأساس في قبول الحق هو التحقق مما إذا كان الموعود يحقق الغرض من بعثته أم لا؟ وهل ظهر في زمن هو في أمْس الحاجة إلى ظهوره؟ وهل تحققت بعض الأنباء المتعلقة به تحققاً ظاهراً بلا تأويل، ذلك أن الأنباء يكتنفها بعض الغموض وبعضها تحتاج إلى التأويل لانطوائها على معان مجازية. لا شك أنه ورد في بعض المواضع خبرُ ظهور النبي الموعود من بني إسرائيل، ولكن هناك أخبارٌ عن مجيئه من بني إسماعيل في مواضع أخرى، فليس معنى ظهوره في بني إسرائيل إلا أن قومه سيرثون بركات كالي نالها بنو إسرائيل، وكأنهم يحلّون محلهم في المستقبل. وصحيح أن هناك كلمات تنبئ بظهور هذا الموعود من صهيون، ولكن ليس مراده إلا أن مكان ظهور هذا الموعود، أي مكة المكرمة، سيكون من الأماكن المقدسة عند الله تعالى كصهيون.

فمع أن العديد من العلامات الأخرى المتعلقة بهذا النبي الموعود قد تحققت حرفياً، ومع أنه ظهر في زمن كان في أمْس الحاجة إليه، ومع أنه قام بأعمال

كان من المقدّر أن يقوم بها، فاعتراض بني إسرائيل بعد ذلك بأن النّبأ الفلاني لم يتحقق بعد، أو لم يتحقق حرفياً، ليس إلا لبس الحق بالباطل، ومحاولة مأكرة لصدّ الناس عن قبول الحق. ولكن هذه المحاولات لم تُفلح في الماضي، ولا في زمن الرسول ﷺ، ولن تُفلح في المستقبل أبداً.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ فأصله: ولا تكتُموا الحق، لكونه عطفاً على قول الله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

لقد بين الله تعالى هنا حيلة أخرى يلجأ إليها بنو إسرائيل لخداع الناس، أي سعيهم لكتمان الأنباء الدالة على صدق النبي ﷺ. وهذا يعني أنهم كانوا يقاومون النبي ﷺ بطريقتين: إحداهما خلط الأنباء عند ذكرها للناس، فمثلاً كانوا يخلطون ما هو صريح منها بما هو مجاز يتطلب تأويلاً، أو كانوا يخلطون بين الأنباء المتعلقة بنبي آخر الزمان وبين أنباء متعلقة بأنبياء آخرين سابقين، ويقولون إنها أيضاً من علامات الموعود. وهذا ما يفعله بعض مشايخ المسلمين اليوم، فهناك في الإسلام أنباء عن مجيء أكثر من مهدي، وقد جاء بعضهم وتحقق فيهم ما ورد عنهم من أنباء، ولكن هؤلاء المشايخ لا يزالون يربطونها بمجيء المهدي المنتظر، ليلبسوا على الناس الأنباء المتعلقة به وحده.

والطريقة المأكرة الأخرى التي لجأ إليها اليهود ضد النبي ﷺ أنهم كانوا يسعون لإخفاء بعض الأنباء المتعلقة بظهوره عن أعين العوام، ولا يذكرونها في وعظهم الديني، وإذا نبّههم المسلمون إليها أنكروها نهائياً، وإذا اضطّرهم عالم مطّلع على حقيقة الأمر تلمصوا واختلقوا الأعذار.

أما قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فمعناه أنكم لا تفعلون ما تفعلونه من لبس الحق بالباطل وكتمانه مصادفةً أو سهواً، بل تفعلونه متعمدين عالين به. ومن يرتكب هذا الإثم متعمداً لم يرث أفضال الله تعالى.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٤)

شرح الكلمات:

أقيموا الصلاة: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة...).

الزكاة: اسمٌ من التزكية.

وزكا الشيءُ يزكو: نما. زكا الرجلُ: صلح وتنعّم وكان في خصب، ومنه: زكت الأرض (أي اخضرت). زكاه الله: أنماه؛ طهره. زكى فلان ماله: أدّى عنه زكاته. زكى نفسه: مدحها. وتزكى فلان: تصدّق. والزكاة: صفةُ الشيء؛ طاعة الله؛ ما أخرجته من مالك لتطهره به. وقيل سُميت الصدقة بالزكاة لأنها تزيد في المال الذي تُخرج منه وتوفّره وتقيه من الآفات (الأقرب). **اركعوا:** ركع المصلي ركعاً وركوعاً: طأطأ رأسه. ركع إلى الله: اطمأن إليه. ركع الرجلُ: انخطت حاله وافتقر. وركع المصلي في الصلاة ركوعاً: خفض رأسه بعد قومة القراءة حتى تنال راحته ركبته، أو حتى يطمئن ظهره. والراكع: كلُّ شيء يخفض رأسه (الأقرب).

الركوع: الانحناء، فتارةً يُستعمل للهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارةً في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها (المفردات). كلُّ شيء ينكبّ لوجهه فتمسّ ركبته الأرض أو لا تمسّها بعد أن يخفض رأسه فهو راكع. قال ثعلب: الركوع الخضوع... وكانت العرب في الجاهلية تسمي الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان، ويقولون: ركع إلى الله (التاج). فمعنى اركعوا: تواضعوا؛ اعبدوا الله خالصاً.

التفسير: في الآيات السابقة قد أمر الله تعالى بني إسرائيل بإصلاح إيمانهم، وهنا وجههم إلى إصلاح أعمالهم قائلاً: كما أنه لا مناص لكم من تصديق محمد رسول الله ﷺ لتكميل إيمانكم، كذلك لا بدّ لكم من إصلاح أعمالكم

بتصديقه. لا جرم أنكم تقومون بالعبادة بطريقتكم ولكنها غير مقبولة الآن، وإذا اتبعتم محمداً في أسلوب عبادته لله تعالى قبلت العبادة منكم. ولا شك أنكم تؤدون التضحيات المالية القومية، ولكن لن تحظوا الآن برضى الله تعالى ما لم تؤدوا الزكاة بحسب شريعة محمد ﷺ. قد تكون عبادتكم وأعمالكم منزهة عن الشرك إلى حد ما، ولكن معيار التوحيد قد تغير الآن، فلن ترثوا الآن أفضال الله تعالى ما لم تبلغوا مستوى التوحيد الذي أقامه الله تعالى بواسطة محمد رسول الله ﷺ.

أما قوله تعالى ﴿وَأْتُوا الزَّكَاةَ﴾، فالزكاة إخراج نسبة محددة من الأموال في سبيل الله تعالى، وسوف نتناول مسألة الزكاة فيما بعد بالتفصيل. وينبغي الرجوع إلى ما ذكرناه من قبل من الواجبات المالية على المسلم، وذلك لدى تفسير قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾. لقد ذكرنا في شرح الكلمات أن من معاني الركوع الخضوع وأيضا عيش المرء عيشة منزهة عن الشرك، إذ ورد: كانت العرب تسمي مَنْ آمَنَ بالله ولم يعبد الأوثان راکعاً (أساس البلاغة). وكذلك يقولون: ركع إلى الله: اطمأن إليه خالصة. قال النابغة الذبياني في هذا المعنى:

سبيلُ عذراً أو نجاحاً من امرئ إلى ربِّه ربُّ البرية راکعٌ

(تاج العروس)

أي أن الذي يتوجه بإخلاص إلى ربه الذي هو رب الدنيا كلها، لا بد أن ينال النجاة والنجاح أو يُعَدَّ من المذورين.

فالركوع في قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾ لا يعني ركوع الصلاة، لأنها (أولاً) لا تقتصر على الركوع وحده، بل فيها غير ذلك من الحركات والهيئات، ولا داعي لذكر الركوع خاصة هنا، و(ثانياً) سبق في قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بيان موضوع الصلاة عموماً، بل صلاة الجماعة، التي تتضمن كل هذه الحركات من قيام وركوع وسجود وغيرها، وعليه فلم يكن

هناك داعٍ لذكر الركوع منفصلاً، بعد ذكر الصلاة الشاملة. فثبت أن الركوع المقصود هنا غير الركوع الذي هو في الصلاة، وهو نفس ما أشرت إليه آنفاً، أعني أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أولاً بإقامة الصلاة مع المسلمين وأداء الزكاة مثلهم، ثم أمرهم بأن يُخْلِصُوا أَعْمَالَهُمْ لله وحده كما يفعل المسلمون، وينتهجوا التوحيد الكامل، وينزهوا أَعْمَالَهُمْ عن شوائب الشرك تماماً؛ وعندها سيرثون مرة ثانية النعم التي وُعدوا بها في الوعد الإبراهيمي.

ولقد مسّت الحاجة إلى هذا الشرح كيلا ينخدع أحد ويظن أن اليهود يكفيهم اليوم أيضاً العملُ بأحكام التوراة فقط، ولكي يتّضح للجميع أن العمل الصالح الآن إنما هو ما جاء في الشريعة الإسلامية، ولن يُقبَل إلا إذا قام به الإنسان بحسب الطريقة الإسلامية.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٥)

شرح الكلمات:

البرُّ: الصِّلَةُ (أي الإنعام والعطية والإحسان)؛ الطاعة؛ الصدق (الأقرب).
أصلُ معنى البرِّ السَّعةُ... ثم شاع في الشفقة والإحسان والصلة... قال الإمام أبو منصور اللغوي: البرُّ خيرُ الدنيا والآخرة. والبرُّ أيضاً: الصلاح؛ الخير؛ الاتِّساع في الإحسان إلى الناس (التاج).

تَنسَوْنَ: نَسِيَ الشيءَ نَسِيًّا: ضَدُّ حِفْظِهِ. قال الراغب: النسيان تركُ الإنسانِ ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره. (الأقرب)

"وأكثرُ أهل اللغة فسَّروه (أي النسيان) بالترك... وإذا نُسب ذلك إلى الله فهو تركه إياهم استهانةً بهم ومجازاةً لما تركوه. (التاج)

وقوله عز وجل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، قال ثعلب (النحوي): لا ينسى الله عز وجل، إنما معناه: تركوا الله فتركهم (لسان العرب).
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، أي لا تقصدوا الترك والإهمال.
(الأقرب)

فمعنى ﴿تَنْسَوْنَ﴾ أنكم تهملون؛ تغفلون؛ تتركون.
أنفسكم: الأنفس جمع نفس، والنفس: الروح؛ الجسد... ويراد بالنفس الشخص والإنسان بجملته؛ العظمة؛ العزة؛ الهمة؛ الإرادة؛ الرأي (الأقرب).
تتلون: تلا الكلام تلاوةً؛ قرأه (الأقرب).

تعقلون: عقل (يعقل) الدواء بطنه: أمسكه. عقل الغلام: أدرك فهو عاقل.
عقل الشيء عقلاً: فهمه وتدبره. عقل البعير: ثنى وظيفه مع ذراعه فشدهما معاً بجبل. عقل الوعل عقلاً: صعد وامتنع في الجبل العالي. والعقل نورٌ روحاني به تُدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية (الأقرب).
فمعنى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ألا تستخدمون العقل؛ ألا تنتهون عن التصرفات المَشِينَة.

التفسير: لقد بينا في شرح الكلمات أن البرّ هو أعلى درجات الإحسان والخير. وثُبِنَ هذه الآية بني إسرائيل أنهم بحسب تعاليم كتبهم يأمرّون الناس كثيراً بفعل الخير والإحسان إلى الآخرين، ولكنهم يرفضون الطاعة لهذا النبي العظيم المبعوث من عند الله تعالى خوفاً على مصالحهم الدنيوية، وتقول لهم: إذا كنتم تأمرّون الناس بالخير فلا تنسوا أنفسكم؛ فحقّها عليكم أعظم.

ومن معاني النسيان الترك، وعليه فالمعنى: أتأمرّون الناس بالخيرات وتتركون أنفسكم؟ فلماذا لا تحضّونها على البرّ حتى لا يتعارض فعلكم مع قولكم؟
ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. وهذا لا يعني أن كتابهم مُبرّرٌ من التحريف والتبديل، كما يستنتج بعض قليلي العلم، وإنما قيل هذا في سياق الموضوع السابق، وهو أنكم تقرأون كتابكم الذي لا يأمرّكم أبداً أن تنصّحوا

الآخرين بالخير وتسلخوا أنتم طريق الشرّ، فما دمتم تؤمنون بكتابكم الذي ينهى عن سلوك هذا الطريق فلماذا سلكتموه؟ فحريٌّ بكم أن تُضحّوا في سبيل الحق كما تأمرون غيركم بالتضحية، ولا تُهلكوا أنفسكم بتصرفكم هذا. وأما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فمعناه: أفلا تمتنعون؟ أي لو كانت كتبكم لا تأمركم بالسير في طريق البر لأمكن التماس العذر لكم، ولكن انخافكم عن طريق الخير مع وجود هذا التعليم في كتبكم لأمرٌ مؤسف جداً. فإذا كنتم لا تنصاعون لنصيحة أحد، فعلى الأقل اتبعوا تعاليم كتابكم واسلكوا سبيل البر والتقوى.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

(البقرة: ٤٦)

شرح الكلمات:

استعينوا: استعانته: طلب منه العون. تقول استعنته فأعاني (الأقرب).

للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وإياك نستعين).

الصبر: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله، لا إلى الله، فإذا دعا الله العبد في كشف الضر عنه لا يُقدَح في صبره. وقال (أبو البقاء) في "الكليات": الصبر في المصيبة... وصبر الرجل على الأمر: نقيضُ جزع، أي جرؤ وشجّع وتجلّد. وصبر عن الشيء: أمسك عنه. صبر الدابة: حبسها بلا علف. صبرت نفسي على كذا: حبستها، تقول: صبرت على ما أكره، وصبرت عما أحب (الأقرب).

فمعنى الصبر، (أولاً): الامتناع عن الآثام والثبات على الحسنات، و(ثانياً):

عدم الجزع عند المصيبة في سبيل الله تعالى.

الصلاة: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة...).

الخاشعين: جمع خاشع. خَشَعَ: ذَلَّ وتَطَأَمَنَ. خَشَعَ ببصره: غَضَّه... وفي "النهاية": الخشوع في الصوت والبصر كالخشوع في البدن. (الأقرب)

الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. (المفردات)

التفسير: هناك مانعان لقبول الصدق: الأول ضغط الحكومات أو القوم والأقارب والأصدقاء الذين لا يقبلون الحق ويصدّون الآخرين عن قبوله لعدم فهمهم للحق، أو لتعصّبهم، أو خوفاً على مصالحهم الشخصية؛ والثاني: صدأ العادات المتأصلة ورينُ المعاصي الماضية الذي يمت القلب ويسلب الهمة. وتشير هذه الآية إلى السببين كليهما، وتقول: يا بني إسرائيل، ما دام الحق قد حصص لكم، فلا تتأخروا عن قبوله. لا شك أنكم ستعرضون لضغوط قومكم وأقربائكم وأصدقائكم، وتواجهون الظلم والاضطهاد والأذى، ولكن لا تبالوا بكل هذا، وقاوموه بشيعة الصبر المرضية. كما عليكم أن تدعو الله تعالى لتطهير قلوبكم لكي يزول عنها صدأها، فتتهياً لقبول الحق.

وتبين هذه الآية حكمة أخرى من علم النفس، ألا وهي أن صلاح أي شيء لا بد له من أمرين: الأول أن يُصان من التأثيرات الخارجية؛ والثاني: أن تُزاد قوته الداخلية. وباستعمال كلمة الصبر قد أشار الله تعالى إلى ضرورة مقاومة التأثيرات الخارجية، وباستعمال كلمة الصلاة أشار إلى ضرورة اجتذاب فضل الله بالدعاء، فذلك يسدّ أبواب الضعف ويفتح أبواب القوة، ويُفلح الإنسان.

وكما بيّنا في شرح المفردات، فإن الصبر لا يعني ترك الجزع فقط، بل يعني أيضاً الامتناع عن التأثر بالأفكار السيئة ومقاومتها. فعندما يرفض المرء التأثيرات السيئة ويستجيب للتأثيرات الطيبة -الأمر الذي لا يتيسر إلا بمعونة الدعاء- تتولد في قلبه الروحانية التي تسهّل له ما كان يبدو له صعباً من قبل، فيحقق الانتصار في معركة الرقي الروحاني.

أما قوله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، فكبيرة تعني: مهمة صعبة. والخاشع هو الخائف، وحيثما وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم كانت بمعنى الخائف مما يكون الخوف منه مناسباً ولائقاً، حيث وردت في كل موضع إما بمعنى الخوف من الله تعالى أو من عذابه.

كان من الممكن أن يقول قائل هنا بأن وصف مثل هذا العلاج سهل، ولكن العمل به صعب، فردّ الله تعالى على ذلك وقال: ﴿إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: لا شك أن العمل بهذه الوصفة أمرٌ صعبٌ وشاقٌ، ولكن مَنْ كان من الخاشعين وجَدَه سهلاً. وكأنّ العلاج الحقيقي للتقصير والمعاصي هو الإيمان الكامل بالله تعالى، فبدونه لا يُصان المرء من المعاصي مهما اتخذ من الوسائل والتدابير. لقد اختبرت الدنيا هذا الأمر مراراً، ولكنها للأسف تنسى ذلك في كل مرة. إن الخير الحقيقي الكامل لا يتولد في الإنسان أبداً إلا باليقين الكامل بالله تعالى. إن الدلائل الفلسفية لا تقدر على خلق التقوى الصادقة في الإنسان، وخوف المعاصي الذي يتولد في القلب نتيجة الإيمان الكامل بالله تعالى، لا يمكن أن يتولد بأي طريق آخر، ومن أجل ذلك نجد أن نماذج البرّ والتضحية التي قدّمتها جماعات الأنبياء يستحيل أن تقدّمها أية جماعة أخرى في الدنيا.

إن ما وُعظ به بنو إسرائيل في هذه الآية من الحب والبر والنصح دليلٌ بيّن على تلك الروح السامية التي يريد الإسلام غرسها في العالم. فكل لفظ من الآية يقطر نصحاً ويشعّ صدقاً بما يدلّ على صدق ناصحهم لإنقاذهم من الخطأ. يقول بعض الحمقى أن القرآن كلام محمد (ﷺ) وقد أراد به أن يحظى بالقبول والصيت لدى اليهود.

(Muhammad at Medina, by W.Montgomery Watt, vol.2 p.195, the jews of Yathrib)

بالله عليكم، تدبّروا كلمات هذه الآية، هل هي لطالب صيت وقبول؟ ثم فكّروا في عدم إيمان بني إسرائيل به رغم نصحه هذا. ثم مَنْ المتضرّر؟ هل

الإسلام؟ كلا، فعندما قدّم محمد رسول الله ﷺ هذه النصيحة لبني إسرائيل لم يكن عدد المؤمنين به إلا بضعة آلاف، أما اليوم فينطق بشهادة صدقه ﷺ أكثر من أربعمئة مليون من البشر، وقد حكم المسلمون العالم لألف عام، واليوم أيضاً يهيب الله الوسائل والأسباب لازدهارهم ثانية. ولو آمن بنو إسرائيل ما زادوا على ذلك شيئاً يذكر، بل انتفعوا هم. لقد تنصّر منهم مئات الآلاف، فماذا كانت النتيجة؟ لقد أُخرجوا من بلادهم، ونُهبت ممتلكاتهم، فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولو أنهم دخلوا في الإسلام لدخلوا في زمرة مئات الملايين من المسلمين، وكانوا شركاء معهم في كل البركات على قدم المساواة، ولم يصيبهم أحد من المسلمين بأذى باعتبارهم غرباء. فزعم الكتاب النصارى، رغم كل هذه الحقائق، بأن محمداً ﷺ كان يغري بذلك بني إسرائيل لضمهم إلى صفه لافتراءً يخالف العقل والواقع. كلُّ ما في الأمر أن القرآن الكريم قدّم لبني إسرائيل النصح لحض منفعتهم، ولكنهم لم يقبلوه، فلا يزالون يتحملون تبعات ذلك.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:

(٤٧

شرح الكلمات:

يظنون: ظنَّ الشيءَ: عَلِمَهُ واستيقنَه. والظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويُستعمل في اليقين والشك (الأقرب).
وقد استُعمل الظنُّ هنا بمعنى اليقين.

التفسير: من أسلوب القرآن الكريم أنه إذا استخدم كلمة ما لمعنى خاص، أي كاصطلاح، أتبعها بشرح هذا المعنى الاصطلاحي. فهنا أيضاً قام القرآن بتوضيح المعنى الاصطلاحي لكلمة "الخاشعين" الواردة في الآية السابقة،

فبيّن أنها لا تعني مجرد الخائفين، وإنما تعني الذين تتولّد في قلوبهم خشية الله تعالى نتيجة يقينهم الكامل بوجوده ولقائه، ولا يتأسس شعورهم هذا على مخافة الأذى، وإنما هي الخشية من فوات الترقيات الروحية العليا. وهذا الخوف ليس من قبيل خوف الجبان، وإنما هو قلق العارف بالله، وتجده في أشجع الشجعان، بل يجب أن يوجد فيه. ومن أجل ذلك قيل هذا لليهود لمنعهم من خوف مصائب الدنيا، حيث قال الله لهم: لا شك أن طرد هذا الخوف من القلوب عملية صعبة، ولكنها سهلة على الخاشعين. فلو أخذنا كلمة "الخاشعين" هنا بمعنى الخوف العادي فلا يستقيم معنى الآية، بل يصير عجيباً على النحو: لا تخافوا الناس، ولا شك أن تجنّب هذا الخوف صعب، إلا أنه سهل على الخائفين! فثبت من ذلك أن الخشوع هنا يعني خوف الإنسان من حرمانه من قرب ذلك الوجود الكامل الذي يؤمن به سبحانه تعالى، ولا غرابة في هذا المعنى، إذ المراد: لا تخافوا المصاعب والمشاكل الدنيوية، ولا شك أن هذا أمرٌ صعب، ولكن الذين يضعون لأنفسهم هدفاً سامياً بحيث يشق عليهم تركه، فلا يصعب عليهم مكابدة المشاق. والحق أن الخوف من فوات المرام شجاعةٌ وحذرٌ وليس جبناً.

ثم قال الله تعالى ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يؤكد الحياة بعد الموت حقّ التأكيد، وليس هناك دينٌ سوى الإسلام يتخذ الحياة الأخروية أساساً لبناء التقوى في الدنيا. إنه يعتبر الحياة الدنيا حلقةً من حلقات حياة طويلة يكتمل خلالها رقيُّ الروح الإنسانية، ولا يعتبر الموت نهايةً لصراع الروح، بل يرى أنها ستمضي بعده في كفاح مستمر. والفرق بين الحياتين أن الإنسان يكافح في هذه الحياة وهو في ظلام نسي، ولكن في الحياة الآخرة سينال كل من الصالحين والأشرار بصيرةً يسعون بها للرقى، فأما الأشرار فسوف يكافحون للتخلص مما هم فيه من شدة وبلاء قدمته أيديهم،

وأما الأبرار فيسعون للمزيد من الرقي. هذا هو اليقين الذي جعل المسلمين الصادقين لا يخافون الموت أبداً، وكلما يهبّ المسلمون بهذا الإيمان واليقين يُكتب لهم النصر على العالم. أما الذين يعدّون هذه الحياة الدنيا نهاية رُقِيّهم، فلا يمكن أن يجتهدوا للبر كاجتهاد المؤمنين بالحياة بعد الموت، وإنما يميلون دائماً نحو ملذات الدنيا، ولا يصرفون أنظارهم عن المتع المادية، ولا يمكن أن يضحّوا براحة أبدانهم أبداً.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٤٨)

شرح الكلمات:

بني إسرائيل: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم).

نعمتي وأنعمت: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم).

فضّلْتُكم: فضّلّه على غيره: جعل له مزيّةً عليه وحكم له بالفضل. وفضّلّه: صيرّه أفضل منه (الأقرب).

العالمين: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الحمد لله ربّ العالمين).

التفسير: في هذه الآية اختار الله تعالى أسلوباً آخر لترغيب بني إسرائيل في الإيمان بالشرعية الأخيرة. ففي الآيات السابقة نبّههم الله بأني كنت قد عاهدتكم عهداً وقد وفّيت بما عليّ من العهد، ولكنكم لم تؤدّوا ما في ذمتكم من العهد، فحرّمت من فضله، وها قد نزل وحي جديد بحسب أنباء كتبكم، فآمنوا به، ليستأنف الله إنزال نعمة عليكم. وأما في هذه الآية

فنبههم إلى أن حُبَّ المحسن دأْبُ الشرفاء، وقد أحسن الله إليكم كثيراً، إذ رفعكم من الحضيض إلى الدرجات العلى، حتى جعلكم من أفضل الأمم، فلماذا لا تقدِّرون صنيعه حقَّ قدره، وترفضون رسالته؟ فاشكروا هذا الصنيع، ولا تعرضوا عن محسنكم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ لا يعني أن الله تعالى فضَّلهم على الأولين والآخرين من الأمم كلها، وإنما المراد أنه فضَّلهم على من كان في زمنهم من الأمم. فالقرآن يصف أمة الإسلام التي أسَّسها محمد رسول الله ﷺ بأنها خير الأمم بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١١). وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٤).

يتعيَّن معنى ﴿العالمين﴾ هنا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٤)، فمعناها المعاصرون لكل واحد من هؤلاء، لأن الأنبياء والأمم المذكورين في هذه الآية عاشوا في أزمنة مختلفة، ولا يصحَّ القول أن كل واحد منهم كان أفضل من أهل الأزمنة كلها.

وهناك آية أخرى تلقي مزيداً من الضوء على معنى كلمة "العالمين"، فعندما استضاف لوط عليه السلام بعض الناس في بيته جاءه قومه قائلين: ﴿أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر: ٧١)، أي ألم نمنعك من إحضار الأجانب من الجيران إلى القرية؟ فمعنى العالمين هنا: الغرباء أو الأجانب من حولها.

إذن، فكلمة ﴿العالمين﴾ في القرآن الكريم لا تعني بالضرورة معناها الواسع دائماً؛ بل يمكن أن تعني الجيران أو المعاصرين، وهو المراد في آيتنا هذه.

والملاحظ أن الله تعالى قال هنا: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل "فضلتكم على الناس"، ذلك ليشير إلى أن فضل بني إسرائيل كان على أنواع. وقد سبق أن ذكرتُ لدى شرح ﴿العالمين﴾ في سورة الفاتحة أن

من معانيها طائفة أو نوعاً من الناس يشكّلون دليلاً على وجود الله تعالى. إذاً، فكلمة ﴿العالمين﴾ تشير إلى طوائف ذات خواص مميزة ومتنوعة، ومعنى الآية: أننا فضّلناكم على البارعين في كل العلوم الروحانية، وبيان هذا المعنى كان محالاً لو قيل: "فضلتكم على الناس". فكلمة (العالمين) إشارة إلى أن الله تعالى فضّلهم في جميع المجالات الروحانية، سواء ما يتعلق منها بالشرع وبالأخلاق وبالقرب الإلهي وغيرها. فقد وُجد فيهم أصحاب كمال في كل مجال، فاقوا نظائرهم في عصرهم، أو فيمن حولهم من الأمم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٩)

شرح الكلمات:

اتَّقُوا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (هُدًى للمتقين).

يَوْمًا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ).

لا تجزي: الجزاء: المكافأة على الشيء. جزي الشيء: كفى (الحيط).

جزيْتُ فلانا حقّه: قضيتّه... وتأتي جَزَى بمعنى أغْنَى (اللسان).

فمعنى "لا تجزي نفس":

١- لا تقوم نفس مقام أخرى؛ ٢- لا يستطيع أحد تأدية واجبات غيره.

شفاعة: مصدرُ شَفَعَ. ويقال شَفَعَ شَفْعًا. والشَفْعُ ضمُّ الشيء إلى مثله. والشفاعة الانضمامُ إلى آخر ناصراً له أو سائلاً عنه، وأكثرُ ما يُستعمل في انضمام مَنْ هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى مَنْ هو أدنى (المفردات).

وشفع الصلاة أو العدَدَ: صيّره شفعاً، أي زوجاً، أي أضاف إلى الواحد ثانياً وإلى الركعة أخرى. يقال: كان وترّاً فشفعه بآخر، أي قرّنه به. وشَفَعَ لي الأشخاص، أي أرى الشخصَ شخصين لِضَعْفِ بصري. وشَفَعَ له أو فيه إلى

فلان شفاعة: طَلَبَ أن يعاونه. وشفَعَ لفلان في المطلب: سعى. وشفَعَ لي بالعداوة: أعان عليّ... والشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقعت الجناية في حقه. قيل: ولا تُستعمل إلا بضمّ الناجي إلى نفسه مَنْ هو حائف من سطوة الغير (الأقرب).

عدل: العدل: ضدّ الجور؛ المثل؛ النظير؛ الجزاء؛ الفداء؛ النافلة (الأقرب).

التفسير: في الآية دَحْضٌ لمعتقدات عند بني إسرائيل كانت تشجعهم على المعاصي، وتحرمهم من الحسنات. كانت طوائف مختلفة من بني إسرائيل تظن ما يلي: (١) أن أحداً ممن سواهم سوف يتحمل عبء ذنوبهم، (٢) وأن الأبرار منهم سوف ينقذونهم بشفاعتهم لهم، (٣) أن فيهم بعض الحسنات هي أكثر من سيئاتهم، وستكون فديةً لذنوبهم ويستحقون بها الجنة. وتدحض الآية أفكارهم هذه ليعرفوا المفهوم الحقيقي للحسنات، فلا يهلكوا بإنكار الحقائق.

ولفهم هذه الآية يجب أن نعرف أن الفطرة الإنسانية مجبولة على حبّ نيل المراتب الروحانية العليا. وهذا الإحساس تجاه الكمال موجود، بشكل أو بآخر، حتى في القبائل البدائية غير المتحضرة، سواء كانوا من الزوج الأفارقة أو الهنود الحمر المكسيك أو سكان أستراليا الأصليين. ويوجد هذا الإحساس في بعضهم بصورة واضحة وفي بعضهم بصورة مبهمة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإحساس الفطري بأسلوب لطيف جداً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٣-١٧٤).

تتضمن هذه الآية استعارة لطيفة بأن كل إنسان يخرج من ظهر آبائه، أي يولد، حاملاً أثر التوحيد، ثم بعد ذلك يصبغه أبواه بصبغة الشرك. فلو لم يجعل الله تعالى في فطرة الإنسان أثر التوحيد هذا لكان له عذر في الوقوع في الشرك، ولكن الله تعالى أقام الحجة على كل إنسان بأن غرس في فطرته الاعتراف

بالتوحيد قبل مولده، فلا يستطيع الاعتذار بالجهل، أو بتأثير آبائه فيه. وهذا الأثر الفطري نجده في كل قوم وفي كل قبيلة، فالإنسان منذ الأزل يسعى للفوز بالقرب من خالقه، مما يدل على أن هذه الرغبة توجد في فطرته، ولم تأت من خارجه.

ولكننا مع ذلك نرى أن الإنسان يلتمس طرقاً سهلة لنيل هذا المرام، كسلاً منه أو غفلة. أما المتأثرون بالفلسفة فيحاولون تحقيق هذه الرغبة الفطرية بالمنطق التالي: بما أن الله تعالى قد خلقنا في خضم هذه الظروف الدنيوية، فلا يتوقع منا إلا أن نعيش مواطنين طبيين؛ ولو حققنا هذا الغرض فقط فقد أدينا كل ما ألقى الله علينا من واجبات ومسؤوليات.

أما غيرهم فيحاولون في زعمهم إجابة هذا النداء الرباني بتقديم تضحيات مؤقتة شتى، وقد تبدو للناس تضحياتهم جسيمة، ولكنها في الحقيقة لا تمثل إلا القليل التافه بالقياس إلى التضحية الواجبة الحقيقية. فمثلاً يلجأ بعض الناس - تهرباً من الجهد والكفاح - إلى قطع أعضاء أجسادهم، بدلاً من اتباع سبل الخير الدائم، وإصلاح النفس ليل نهار، وسلوك الطريق الوعر بقمع الأهواء، ويحسبون أن هذا يغنيهم عن التضحية الكاملة غير المنقطعة التي فرضها الله على الناس لنيل الطهارة الحقيقية. فمنهم من يقطعون العضو المثير لهذه الرغبات عجزاً منهم عن كبح ميولهم الشهوانية، وبعضهم يقطعون ألسنتهم لضعف عزمهم عن الامتناع عن الغيبة والنميمة والكذب وفحش القول، وبعضهم يفرّون إلى الغابات والجبال لعدم قدرتهم على ذكر الله تعالى في مشاغل محيطهم، وبعضهم يعيشون عراً ظانين أنهم يضحّون هكذا براحتهم في سبيل الله تعالى، وبعضهم يعلّقون أنفسهم في وضع مقلوب أداءً لحق الله عليهم في زعمهم، كما نراه عند الهندوس!

إن هذه الطرق كلها ليست إلا فراراً من الواجبات الحقيقية المجدية. فلو أن الله تعالى جعل تكميل الإنسان متوقفاً على هذه الأعمال، فلماذا خلقه بفطرة تحب التمدّن؟ إذا كانت الرهبانية، أي الامتناع عن الزواج، من سُبُل الخير

حقاً، فهذا يعني أن سبيل كمال الإنسانية هو في إفناء الناس. وهذا باطل بالبداهة. إذا كانت الرهبانية ذريعة لكمال الحياة الإنسانية، لوجب أن يكون كل الناس متبتلين مترهبين ليصبحوا من الكاملين. ولو تبتلوا جميعاً لُقِضي على البشر في جيل واحد.

يقول البعض: ليست الرهبانية وسيلة للكمال، وإنما الكُمل هم الذين يترهبون. والحق أن هذه فكرة باطلة بالبداهة، لأن ذلك يعني انقطاع نسل الكُمل واستمرار نسل الناقصين. إن الناس ينتخبون الحيوانَ الكامل الأصيل من بين الخيل والماشية والجمال وغيرها لإنتاج نسلها وتكاثرها، وهذا ما يفعلونه من أجل الحصول على الإنتاج الجيد للنباتات والفاكهة والزهور والمحاصيل والخضراوات وغيرها. السؤال هنا: لماذا نتبع هذا الأسلوب في إنتاج النبات الجيد والحيوان الجيد، بينما نسمح للسلالات الناقصة من البشر بإنتاج الذراري الضعيفة، تاركين السلالة الجيدة متبتلةً وبدون إنتاج؟ لن يقبل هذه الفكرة إنسان عاقل.

لا شك أن بعض الشعوب كانوا يقدمون أولادهم قرايينَ لله تعالى استرضاءً له أو تجنباً لغضبه، وتوجد أمثلة لذلك في كل البلاد تقريباً، ومن أجل القضاء على هذه العادة أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام في الرؤيا بالتضحية بابنه، لتعرف الدنيا قوةَ إيمانه، وكذلك ليُمحو الله بذلك هذه العادة محوًّا أبديًّا. وفي بعض الأمم كانوا يقبضون على المجرمين أو الأجانب ويقدمونهم قرايين لله تعالى. وكل هذه الأفكار غير طبيعية ولا معقولة، وقد تولدت نتيجة عدم إدراك الناس صفاتِ الله من جهة، وبسبب عدم فهمهم نقاء الفطرة الإنسانية من جهة أخرى. ولو أنهم أعملوا عقولهم لعرفوا أن هذه ليست الطريقة السليمة لتكميل الروحانية، وإنما سبيل ذلك هو الحذر الدائم من الأهواء السيئة، وجهاد النفس بدون انقطاع، والتوجه المستمر إلى الله تعالى للاستعانة به في ذلك.

وإذا كانت هذه الأفكار الخاطئة منتشرة في أقوام لم يكن لديهم علمٌ مفصل عن الدين، فإن أتباع الديانات اخترعوا هذه الطرق الثلاث الواردة في الآية المذكورة آنفاً، تسكيناً لضمائرهم، وفراراً من الكفاح الحقيقي من أجل الكمال الروحاني. ولا أعني بذلك أن هذه الأفكار لا توجد لدى الأمم التي ليست عندها شريعة كاملة، كلا بل إنها أيضاً تغطي أهواء نفوسها في ستار هذه الأفكار؛ ولكن أتباع الديانات التفصيلية يهتمون بها أكثر من الكفاح الحقيقي ضد أهواء النفس.

والخطاب في الآية مُوجَّه أصلاً إلى بني إسرائيل الذين كانوا منقسمين إلى طائفتين: اليهود والنصارى. وقد رسخت هذه الأفكار بينهم في زمن الانحطاط عندما اندرس فيهم مفهوم الخير الحقيقي. فبدلاً من الحذر والتنبيه الدائم إلى دسائس الشيطان والسعي للدعوى للتقرب إلى الله تعالى مدفوعين بحبه ليل نهار، ظنوا أنهم لو صرفوا النظر عن الشرع والمنهج السماوي فلا ضرر في ذلك، فهم سينالون النجاة على أي حال، إما بكفارة قديمها أسلافهم حسب زعمهم، أو بفضل شفاعتهم لهم، أو بسبب نسبهم العريق، أو بسبب التضحيات المالية التي يقدمونها في الدنيا.

والآن، أقدم تعاليم اليهود والنصارى حول كل واحد من هذه الأمور الثلاثة، لأبين كيف أخطأت هذه الأمم وانحرفت عن جادة الصواب.

فأول فكرة خاطئة نشأت بين اليهود والنصارى -ولا تزال باقية فيهم وقد دحضها القرآن الكريم في هذه الآية- هي أن أحداً آخر سيكون كفارة لخطاياهم، فينجون من تبعاتها. وقد نمت هذه الفكرة بينهم نتيجة القرايين، أعني أنهم لما ضعفت فيهم روح التقوى بدأوا يظنون أن القرايين التي فرضها عليهم دينهم للفت أنظارهم إلى ضرورة التوبة من الذنوب، هي الكفارة الحقيقية لذنوبهم؛ فقد قال موسى عليه السلام:

{وَيَضَعُ هَآرُونَ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِ التِّيْسِ الْحَيِّ وَيَقْرُ عَلَيْهِ بِكُلِّ ذَنْبٍ بَنِي إِسْرَآئِيلَ، وَكُلُّ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ، وَيَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِ التِّيْسِ، وَيُرْسِلُهُ بِيَدٍ مَنْ يُلَاقِيهِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، لِيَحْمِلَ التِّيْسُ عَلَيْهِ كُلَّ ذَنْبِهِمْ إِلَى أَرْضٍ مُقْفَرَةٍ، فَيُطْلِقُ التِّيْسَ فِي الْبَرِّيَّةِ.} (اللاويين ١٦ : ٢١-٢٢)

وقال أيضاً: {وتيساً واحداً ذبيحةً خطيئةً للتكفير عنكم}. (العدد ٢٨ : ٢٢)، أي بالإضافة إلى أضاحي أخرى، قدموا تيساً واحداً كفارةً لذنوبكم، فيمحو كل خطاياكم.

لا شك أن هذه كانت أوامر من موسى عليه السلام، ولكن لا يصح القول، بالنظر إلى تعاليمه الأخرى لبني إسرائيل، أن تضحية التيس أو العجل كفارة تمحو خطايا الإنسان؛ إذ يقول موسى في موضع آخر: {«وَهَذِهِ هِيَ الْوَصَايَا وَالْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ الَّتِي أَمَرَ الرَّبُّ إِيَّاهُمْ أَنْ أُعَلِّمَكُمْ لَتَعْمَلُوهَا فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لَتَمْلِكُوهَا، لِكَيْ تَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلَهَكَ وَتَحْفَظَ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ وَوَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا، أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنُ ابْنِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ، وَلِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ.} (التثنية ١٠ : ١-٢)

ويضيف قائلاً: {«اسْمَعْ يَا إِسْرَآئِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فَتَحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. وَلَتَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ، وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلَادِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ، وَارْبُطْهَا عَلَامةً عَلَى يَدِكَ، وَلَتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ.} (التثنية ٦ : ٤-٩)

ويقول أيضاً: {وَأَعْمَلِ الصَّالِحَ وَالْحَسَنَ فِي عَيْنِي الرَّبِّ لِكَيْ يَكُونَ لَكَ خَيْرٌ}. (التثنية ٦ : ١٨)

لقد تبين من هنا أن موسى عليه السلام كان يؤكد بشدة على تطهير القلب وفعل الخيرات والتمسك بالتوحيد والعمل بأحكام الشرع، حتى إنه كان يوصي

بنشرها باللسان والكتابة وتلقينها للآخرين، حيث يقول: احتفظوا بها بالكتابة على الجدران والأبواب. هل بعد كل هذه التعاليم يمكن أن يتصور أحد اللحظة واحدة أن موسى عليه السلام كان يرى أن التضحية بتيس واحد تمحو كل خطايا قومه جميعاً؟! إذا كان محو الذنوب بهذه السهولة فما الحاجة للحث على العمل بأحكام الشريعة بهذه القوة والحماس، بل ما كانت هناك الحاجة لإنزال الشريعة على الناس أصلاً؟

يدحض القرآن الكريم هنا هذه الفكرة الباطلة محذراً اليهود أنهم سيقفون أمام الله تعالى يوماً لا تجزي فيه أيُّ أضحيةٍ بتيسٍ عن نفس، أي عن أيِّ يهودي، بل لا تنفعه يومئذ إلا طهارة نفسه. فلم يكن الغرض من تعليم موسى لليهود التضحية بتيسٍ أو غيره على ارتكاب خطأ إلا أن يكون رمزاً للتضحية بأهواء النفس وشهواتها، ولكن اليهود مالوا إلى التكاسل معرضين عن التعاليم الحقة، واعتبروا هذا التمثيل أصلاً، تاركين الأصل الذي هو طهارة النفس، ومكتفين بقربان التيس. وقد تركزت فكرة الكفارة هذه في طباع بني إسرائيل بحيث إن الملك البابلي يختصر لما هدم الهيكل في أورشليم حيث كانوا يقدمون قربانهم أصابهم الهلع وظنوا أنه لم تعد لديهم وسيلة لغفران الذنوب. ووصلت شدة الصدمة بكثير منهم حتى تهربوا من الدنيا وترهبوا (الموسوعة اليهودية: ج ١). وصرخ يومئذ عالمهم الكبير يوشع بن حنانيا قائلاً: "واحسرتاه! كيف تتم الآن كفارة سيئاتنا!" (المرجع السابق).

لقد بينت آنفاً أن موسى عليه السلام ما كان يعني أن قربان تيس يصبح كفارة للذنوب، إنما كان هدفه أن يوجه أنظارهم بذبح التيس إلى ذبح أهواء النفس. ولما كان القوم في ذلك العصر مولعين بالرسوم واللغة التمثيلية، جعل الله فيهم تقليد قربان تيس لبيان موضوع ذبح النفس الأمار، لكي يهتم القوم كلهم إلى ضرورة التطهر من ذنوبهم في يوم معين، ولكنهم نسوا المغزى وتمسكوا بالظاهر. والصدمة التي أصابت اليهود بهدم الهيكل جعلت أنبياءهم يشرعون في معارضة أفكارهم الخاطئة هذه، ويبيّنون لهم أن ذنوب الإنسان لا يحملها ثور

ولا تيس. فقال النبي هوشع: {ارْجِعْ يَا إِسْرَائِيلُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكَ، لِأَنَّكَ قَدْ تَعَثَّرْتَ بِإِثْمِكَ. خُذُوا مَعَكُمْ كَلَامًا وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ. قُولُوا لَهُ: «ارْفَعْ كُلَّ إِثْمٍ وَأَقْبَلْ حَسَنًا، فَتَقَدَّمَ عُجُولُ شِفَاهِنَا.} (هوشع ١٤: ١-٢).

هنا يوضح هوشع لليهود أن العجل أو التيس لا يكون كفارة للذنوب، وإنما هو التوبة والتسبيح والتحميد التي تنجي الإنسان من تأثير الإثم. ليس العجل ولد البقرة، وإنما العجل المتولد من لسان التائب، هو الذي يمثل كفارة حقيقية.

وقبل هوشع بسنين نبّه النبي عاموس إلى خطر الاعتماد على هذه القرايين الظاهرية، فقال: {إِنِّي إِذَا قَدَّمْتُ لِي مُحَرَّقَاتِكُمْ وَتَقَدِّمَاتِكُمْ لَا أَرْضِي، وَذَبَائِحَ السَّلَامَةِ مِنْ مُسَمَّنَاتِكُمْ لَا أَلْتَفِتُ إِلَيْهَا. أَبْعِدْ عَنِّي ضِجَّةَ أَغَانِيكَ، وَنِعْمَةَ رَبِّابِكَ لَا أَسْمَعُ. وَلِيَجِرِ الْحَقُّ كَالْمِيَاهِ، وَالْبُرُّ كَنَهْرٍ دَائِمٍ.} (عاموس ٥: ٢٢ - ٢٤).

وقال النبي إشعياء: {لَا تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِيمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبُخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أَطِيقُ الْإِثْمَ وَالْاعْتِكَافَ. رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَعْضَتْنَاهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلًا. مَلِئْتُ حَمَلَةً مَلَهَا.}

وأضاف أيضاً: {اغْتَسِلُوا. تَتَّقُوا. اغْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنِي. كُفُّوا عَنِ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فِعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الْأَرْمَلَةِ. هَلُمَّ تَتَحَاجَجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقَرْمِزِ تَبْيَضُ كَالثَلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمَرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ.} (إشعياء ١: ١٨-١٣)

ويقول النبي ميخا: {بِمِ أَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّبِّ وَأُنْحِنِي لِلإِلَهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ بِمُحَرَّقَاتٍ، بِعُجُولِ أُنْبَاءِ سَنَةٍ؟ هَلْ يُسِرُّ الرَّبُّ بِاللُّوفِ الْكِبَاشِ، بِرِبَوَاتِ أَنْهَارٍ زَيْتٍ؟ هَلْ أُعْطِي بِكَرِّي عَنْ مَعْصِيَتِي، ثَمَرَةَ جَسَدِي عَنْ خَطِيئَةِ نَفْسِي؟ قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلَهِكَ.} (ميخا ٦: ٦ إلى ٨).

تبين هذه الفقرات أنه كان لدى اليهود اعتقاد راسخ بأن القرايين تكفر ذنوبهم، وأن عديداً من أنبيائهم حاولوا صدهم عن هذه العقيدة، وبيّنوا لهم أن

الله تعالى لا يرضى بالأضاحي من التيوس والعجول والبكر من الأبناء، بل هناك طريقة واحدة للوقاية من معبة سيئات الإنسان، هي أن يتوب باللسان والقلب، ويعود إلى فعل الخير والصلاح ثانية، فيغفر الله له ما تقدم من ذنبه.

ولكن أثر هذا التعليم لم يبق فيهم طويلاً، حيث خفَّ تعظيم قرايين الحيوانات من قلوبهم، ولكنهم اخترعوا كفارة أخرى، فقالوا بأن ما تحمله كبار صلحائهم من أذى، سيكون كفارة لذنوبهم، وإذا خلا زمن ما من هؤلاء الأبرار فإن الله تعالى يكفر عنهم ذنوبهم بإهلاك مواليدهم الأبرار. فقد ورد في كتب اليهود: "الجيل الذي لا يوجد فيه الأبرار والصالحون يذهب الرب منهم بأطفالهم الأبرار" (الموسوعة اليهودية، ج ١).

وينبه القرآن الكريم هنا اليهود أنهم لم تُغْنهم نفس؛ سواء أكانت نفس تيس من أنعامهم، أو نفس رجل من صلحائهم، أو نفس طفل من أبنائهم. وهذا ما أكد عليه أنبياءهم من قبل.

وأما الفرع الثاني من بني إسرائيل، وهم النصارى، فتأثروا بنفس الفكرة اليهودية، وبنوا عليها عقيدة الكفارة. فهم يؤمنون أن المسيح صار كفارة لخطاياهم بموته على الصليب، ويظنون أن تعاليم موسى عليه السلام بذبح تيس قرباناً عن ذنوبهم تتضمن في الواقع نبأً مجيء المسيح، بمعنى أن هذه القرايين توجه أنظارهم نحو كبش للرب -أي المسيح عليه السلام- سيأتي ويموت كفارة لذنوب بني آدم. ودليلهم أن الكبش لا يقدر على حمل ذنوب كل الدنيا، ولكن ابن الله تعالى قادر على حملها! وينفون زعم اليهود القائل بأن ما تحمله صلحاؤهم من أذى سيكفر عن ذنوبهم قائلين: إن أسلافهم أنفسهم كانوا ملوثين بالخطيئة؛ والخطي لا يستطيع حمل خطيئة غيره، أما المسيح فكان بلا خطيئة، وبالتالي فهو قادر وحده على حمل خطايا البشر. يقولون لقد صُلب المسيح لا لذنوب جناه، وإنما لأجل ذنوب الآخرين. لقد ورث البشر الخطيئة من أبيهم آدم، وكان المسيح بلا أب، فلم يرث شيئاً عن آدم وكان بلا خطيئة، فصار أهلاً ليكون كفارة لذنوب البشر.

ولقد أيد بعض المسلمين - بسبب جهلهم - المسيحيين في عقيدتهم هذه؛ إذ قالوا: ليس هناك أحد لم يمسه الشيطان إلا المسيح وأمه، وهكذا خطوا خطوة أبعد من النصارى. فهؤلاء يعتبرون المسيح عليه السلام وحده منزهاً عن الخطيئة، ولكن المسلمين ضموا إليه أمه أيضاً. وكأنه لم يوجد نبي سواه لم يمسه الشيطان، نعوذ بالله من هذا القول!

إن النصارى لم ولن يقدموا قولاً واحداً للمسيح عليه السلام قال فيه إنه معصوم من الإثم، أو أن موته على الصليب كفارة لخطايا الآخرين، لأن هذا الاعتقاد ينافي تعاليم المسيح عليه السلام تماماً. وحتى لو كان في أناجيلهم قول للمسيح بهذا المعنى فلا اعتبار له، لأن أناجيلهم الحالية مصابة بتحريف شديد. إنهم يقدمون أقوالاً للحوارين في هذا الصدد منها:

١. قول بولس: {إن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب} (الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١٥: ٣).

٢. وقوله أيضاً: {يسوع نراه مكللاً بالجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد} (رسالته إلى العبرانيين ٢: ٩).
٣. وأيضاً: {لكي يكون رحيماً ورئيس كهنة أميناً في ما لله حتى يكفر خطايا الشعب} (المرجع السابق: ١٧).

٤. وأيضاً: {المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعون كل من علق على خشبة} (رسالته إلى غلاطية ٣: ١٣).
بهذه الأقوال وغيرها يستنتج المسيحيون أن المسيح عليه السلام كان بلا خطية، ولكنه مات ميتة اللعنة إذ علق على الخشبة ومات، فثبت أن موته لم يكن لنفسه، بل مات للآخرين ليكون كفارة لخطاياهم.

وكما سبق أن ذكرت، إن هذه العقيدة المسيحية تولدت عن نظرية كانت فاشية في اليهود زمن انحطاطهم الروحي حين ظنوا أن ما يتحملة صلحائهم من مشاق ومصائب يكفر ذنوب سائر بني إسرائيل، ولكن عقيدة المسيحيين هذه مخالفة لما ورد في الإنجيل نفسه حيث يقول المسيح عليه السلام: {ومن لا يأخذ

صَلْبِهِ وَيَتَّبِعُنِي، فَلَا يَسْتَحَقُّنِي} (متى ١٠: ٣٨). والمعنى نفسه موجود في الأناجيل الأخرى بكلمات أخرى. فتبينَ مِن هنا أن المسيح عليه السلام لا يعتبر صلبه سبباً لنجاة البشر، بل يجب على كل إنسان أن يُصلب على صليب نفسه، لينال النجاة.

وتدحض عقيدة الكفارة أيضاً أحوالُ موسى عليه السلام الذي أسّس السلسلة الموسوية، وقد أعلن المسيح عليه السلام بأنه جاء لتجديد وإقامة تعاليم موسى. فقد جاء في التوراة أنه عندما ذهب موسى إلى الجبل أربعين ليلة، واتخذ بنو إسرائيل في غيابه العجل إلهاً لهم، ثار عليهم غضب الرب وأراد أن يهلكهم قائلاً: {«رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرِّقَةِ. فَلَا أَنْ أَتْرُكُنِي لِيَحْمِيَ غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ، فَأَصِيرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا»} (الخروج ٣٢: ٩-١٠).

ورجع موسى عليه السلام إلى قومه وغضب عليهم لعملهم الوثني وقال لهم: {«أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيئَةً عَظِيمَةً، فَأَصْعُدُ الْآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أَكْفِّرُ خَطِيئَتَكُمْ»} (الخروج ٣٢: ٣٠).

وتحكي التوراة: {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ، وَقَالَ: «آه، قَدْ أَخْطَأَ هَذَا الشَّعْبُ خَطِيئَةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ إِلَهَةً مِنْ ذَهَبٍ. وَالْآنَ إِنِّي غَفَرْتُ خَطِيئَتَهُمْ، وَإِلَّا فَاَمْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي»} (المرجع السابق: ٣٠ إلى ٣٣).

فهنا لم يقل الله تعالى لموسى عليه السلام: أنت مخطئ لكونك من بني آدم، وأنتي لمخطئ أن يصير كفارة للمخطئين الآخرين، بل قال الله له: {مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي}. وهذا الجواب يدل على أن الله تعالى لا يعاقب أحداً بذنوب غيره، وإنما سنته تعالى ألا يعاقب إلا المذنب. فمع وجود هذا التعليم يقول النصارى أن المسيح صُلب كفارة لذنوب قومه، معارضين بذلك تعاليم الكتاب المقدس.

ورب قائل يقول إن هذا التعليم التوراتي نُسخ زمن المسيح عليه السلام.

والرد على ذلك أن هذه السنّة الإلهية حقيقة أزلية، والحقائق الأزلية لا تُنسخ. قد تتبدل الأحكام المتعلقة بالناس، ولكن سنن الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل. أما الأدلة التي يبيّن عليها المسيحيون الكفارة والفداء فهي أيضاً باطلة عقلاً ونقلاً. فمثلاً يقولون إن الإنسان ورثَ الخطيئة من آدم، فلا يستطيع أن يتخلص منها، أو بعبارة أخرى: إن فطرة الإنسان ملوثة بالخطيئة. وهذا الزعم يفنّده القرآن الكريم حين يعلن: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين: ٥)، أي لا شك أننا قد خلقنا الإنسان مزوداً بقوى لا عوج فيها البتة. ويقول النبي ﷺ: "كلُّ مولد يولد على الفطرة" (البخاري، كتاب الجنائز). فكل إنسان يولد بروح طاعة كاملة.

والعجيب أن النصارى يدّعون من جهة أن الإنسان لا يستطيع التغلب على الخطيئة الموروثة من جدّه الأكبر آدم، ولذلك دعت الحاجة إلى كائن مولود بلا أب للكفارة عنها، ومن جهة أخرى يدّعون أن الشخصين الوحيدين اللذين لم يرثا الخطيئة من أحد -أي آدم وحواء- كلاهما مخطئ! إذا كانا مخطئين فكيف نجزم إذن أن مَنْ لم يرث الخطيئة يكون بارّاً وبدون خطيئة؟ هذا القول لا يثبت إلا إذا وُجدت أمثلة عديدة لأشخاص لم يرثوا الخطيئة ومع ذلك كانوا أبراراً، ولكن يرى النصارى أنه كان هناك شخصان اثنان لم يرثا الخطيئة من أحد ومع ذلك كان كلاهما مذبذباً، أي آدم وحواء، أما الشخص الثالث فهو المسيح ﷺ. فادعائهم بأنه ﷺ لم يرث الخطيئة لأنه مولود بغير أب تحكّم ومكابرة ليس إلا، لأن المولود لا يرث من قوى أبيه فقط، بل أيضاً من قوى أمه. لا ندري من هذا الأحمق الذي وسوس إلى قلب مخترع هذه النظرية أن المولود يرث من قوى أبيه فقط. إن المولود يكون حيناً على صورة أبيه وحيناً على صورة أمه، وتارةً يرث من قوى أبيه أكثرَ من قوى أمه، ويحدث العكس أيضاً، وأحياناً يرث قدرًا متقاربًا من الوالدين. فكيف يصحّ القول أن المسيح لم يرث الخطيئة لأنه بدون أب؟ لقد وُلد من بطن السيدة مريم، وورث منها خصائصها، والمرأة وارثة للخطيئة مثل الرجل في عُرف النصارى، بل تقول التوراة إن

الشيطان قد أغوى آدم بواسطة حواء (التكوين ٣ : ١٠ إلى ٧)، وهذا يعني أنه وجد المرأة أكثر ميلاً نحو الخطيئة من الرجل، ولذلك اتخذها ذريعة لإغواء آدم. فالمولود الذي وُلد وارثاً ضَعَفَ حواء وحدها كان أقرب إلى الخطيئة من الذي يولد من أبوين.

أما المسيح عليه السلام فيرى في نفسه غير ما يقول النصارى عنه. فقد ورد في الإنجيل أن شخصاً جاءه وناداه: {«أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيِّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لَتَكُونَ لِي الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةُ؟»} فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ» (متى ١٩ : ١٦-١٧). ويتضح من هنا أن المسيح عليه السلام لا يعتبر نفسه صالحاً. فكيف يسوغ إذن اعتباره الصالح الوحيد، ثم تأسيس عقيدة الكفارة على ذلك؟

وأقول هنا بكل أسف: عندما اعترض مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام على عقيدة الكفارة والفداء مستشهداً بقول المسيح عليه السلام هذا، سارع المسيحيون إلى تحريف هذا النص في بعض الطباعات الجديدة كالأردية مثلاً، مع أنه كان بحسب اعتقادهم جزءاً من الإنجيل منذ تسعة عشر قرناً. وكانت حجتهم بعد هذا التحريف أن الترجمة السابقة كانت خطأ، وقالوا لم يقل المسيح: لماذا تدعوني صالحاً، وإنما قال: لماذا تسألني عن الصلاح؟ وللعاقِل أن يسأل: كيف لم ينتبهوا لهذا الخطأ طيلة تسعة عشر قرناً، وبمجرد أن أشار إليه سيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام عرفوه وصححوه؟

إنه لتحريف جريء ارتكبه في زمن قد مضت فيه على اختراع المطبعة مئات السنين، وصدرت من الأناجيل مئات الطباعات وملايين النسخ بكل اللغات، فالأمة التي تتجاسر على هذا التحريف الخطير بعد اختراع المطابع وانتشارها، يمكنك أن تتصور حجم التحريف الذي أدخلته في كتابها قبل ذلك؟

يَبْدُ أن ما قلته إنما قلته استناداً إلى بيان الكتاب المقدس، وإلا فإن الإسلام يعلمنا أن كل مولود يولد بفطرة طيبة نقية، لا سيّما رسل الله تعالى كالنبي أو

موسى أو غيرهما عليهم السلام، فكل واحد منهم كان في عصمة الله تعالى، ولم يكن للمسيح بهذا الصدد أي خصوصية.

والجدير بالذكر أيضًا أنهم يؤسسون كفارة المسيح على اعتقادهم بأنه اختار الموت على الصليب عن طيب خاطر لحمل خطايا الناس. وقضية موته عليه السلام على الصليب سوف أفصلها في موضعها من القرآن الكريم، إن شاء الله، وأكتفي هنا بالقول إنه لا يثبت من الإنجيل أبدًا أن المسيح كان قد وُضع على الصليب عن رضا وطيب خاطر منه، ولا يثبت أيضًا أنه مات على الصليب. فقد جاء في الإنجيل: {ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أُمَكْنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ»}. {متى ٢٦ : ٣٩}. فهل يقبل العقل السليم أن الذي أتى من السماء برغبته لحمل خطايا البشر، يبكي هكذا ويخرّ على وجهه ساجدًا لكي يجد الخلاص من هذه المحنة؟

يردّ المسيحيون على هذا بقولهم إن المسيح قال أيضًا: {ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت}. فنقول لهم: إن قول المسيح هذا يدل على أنه فيما يتعلق بإرادته فلم يكن يريد هو ليصبح كفارة لذنوب الناس. فكيف والحال هذه، صار كفارة لها؟ هل وضع الله تعالى أعباء الناس ظلمًا على كتفي شخص يأبى ذلك؟ نلاحظ شدة كراهية المسيح لعملية الصلب هذه لدرجة أنه عندما علّق على الصليب قال، كما ورد في الإنجيل: {«إِلَيَّ، إِلَيَّ، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» أَيُّ: إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟} {إنجيل متى ٢٧ : ٤٦}. إن هذه العبارة تكشف بجلاء أن التأويل الذي يقدمه النصارى لقول المسيح "ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" تأويل خاطئ وباطل، لأن الإنجيل يخبر أنه لما تحققت إرادة الله تعالى وعلّق المسيح على الصليب، فإنه بدلًا من الاستسلام لرضا الله تعالى بدأ يشتكى إلى الله تعالى صارخًا: لماذا تركتني؟

الخلاصة أن المسيح عليه السلام ما كان يريد أن يُصلب بحال من الأحوال. فالقول بأنه جاء إلى الدنيا لحمل خطايا الآثمين باطل تمامًا. لو كان المسيح عليه السلام جاء

إلى الدنيا لهذا الغرض حقاً، لما حاول التخلص مما يحسبه النصارى الوسيلة الوحيدة لتخليص الناس من الخطايا.

أما المسألة الثانية وهي موت المسيح ﷺ على الصليب، فهناك شهادة للمسيح بهذا الصدد أوردتها هنا بإيجاز. جاءه وفد من فقهاء اليهود والفريسيين وطلبوا منه أن يُريهم آية فقال: {«جِيلٌ شَرِيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلَا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ. لِأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، هَكَذَا يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ.»} (متى ١٢: ٣٩ و ٤٠).

ودخل النبي يونس "يونان" ﷺ في بطن الحوت حياً، ومكث في بطنه حياً، وخرج من بطنه حياً. فثبت أن المسيح أيضاً دخل القبر حياً، ومكث فيه حياً. فزعم النصارى أنه مات على الصليب باطل، وما دام لم يمت على الصليب فقد بطلت العقيدة القائلة بأنه قبل الموت ليحمل خطايا الآخرين. فإما أن يكون المسيح -والعياذ بالله- كاذباً فيما قاله عن هذه الآية، أو نكذب هؤلاء الذين زعموا أنه مات على الصليب، ودخل القبر ميتاً، ومكث فيه ميتاً.

هناك أمر لطيف جدير بالذكر، فمع أن عادة التضحية بالإنسان -أي عادة قتل الناس أحداً منهم كفارةً لذنوبهم- كانت قد أُلغيت منذ زمن إبراهيم ﷺ، إلا أن اليهود لم يكونوا قد تحرروا من تأثيرها تماماً. فقد ورد في التوراة أن "يَفْتَحِ الْجَلْعَادِي" وهو أحد رؤساء بني إسرائيل، لما خرج لقتال بني عمون، نَذَرَ للرب أنه إذا كتب له النصر فسوف يقدم قرباناً له أول شخص يخرج من أبواب بيته للقاءه عند رجوعه سالماً من المعركة. وحدث أن ابنته الوحيدة كانت أول من خرج للقاءه، فقتلها وفاءً بنذره (سِفَر القضاة ١١ : ٣٠-٣٩). ومثل هذه النذور تكون نوعاً من الكفارة، إذ يريدون بها محو خطاياهم الحائلة دون فلاحهم في مهمة ما.

إذاً فإعلان القرآن الكريم في الآية قيد التفسير بأنه لا يمكن لنفس أن تمثل أمام الله تعالى للحساب نيابةً عن نفس أخرى، هو إعلانٌ حقٌّ ومنطقيٌّ، وتأييده

كتبُ اليهود والنصارى، وأقوالُ موسى وعيسى عليهما السلام. وأما ما يوجد خلافه من نظريات خاطئة لدى هؤلاء القوم فقد نشأت عندهم بسبب أهواء ورغبات باطلة. وقد ارتكبوا إهانة كبيرة في حق أسلافهم الصالحين باعتبارهم كفارة لذنوبهم، كما فتحوا بذلك باب الإثم على مصراعيه.

الشفاعة:

والأمر الثاني المذكور في الآية قيد التفسير أنه لا تُقبل شفاعة أحدٍ لأحد. وهذا أيضا تفنيد لأفكار اليهود والنصارى حول هذا الموضوع. كان اليهود يعتقدون بشفاعة النسب. لقد ظنوا أنهم من ذرية إبراهيم فلا بد أن يشفع لهم، ولن يعاقبهم الله تعالى، وإن عاقبهم فيكون عقابا محدودا. وقد ذكر القرآن الكريم زعمهم هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨١).

ويقول المستشرق "سيل" في ترجمته للقرآن الكريم عند تعليقه على هذه الآية: إن من مسلمات اليهود في عصرنا هذا أنه لن يدخل أحد منهم الجحيم، إلا "داثان وأبيرام" والملحدون، أكثر من أحد عشر شهرا أو سنة على الأكثر (ترجمة سيل للقرآن).

إنني لم أستطع العثور على نص بهذا المعنى في الكتابات القديمة بسبب اندراس الكثير منها، وأما الكتاب المعاصرون فقد ظنوا خطأ أن اليهود كأمة ينكرون البعث بعد الموت، ولذلك لم يبذلوا جهدا لمعرفة عقائد اليهود عن الحياة بعد الموت. ولكننا نعرف من التراث الإسلامي أن اليهود كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت إلى زمن الرسول ﷺ على الأقل. فقله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وغيرها من آيات القرآن تؤيد هذا الأمر. كما توجد في الكتب الإسلامية روايات بهذا المعنى، حيث ذكر ابن إسحاق وابن جرير برواية ابن عباس أن اليهود يعتقدون بأن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وبأنهم سيعاقبون يوما مقابل كل ألف سنة، ثم ينتهي عقابهم. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن بعض اليهود يظنون أنهم يدخلون جهنم لأربعين يوما فقط، لأنهم عبدوا العجل

أربعين يوماً، ما عدا داثن وأبيرام اللذين تمرّدا على موسى وهلكا، وكذلك الملحدين. (سفر العدد ٢٦: ٩-١٠)

هذا الاختلاف الوارد في رواية ابن عباس عن مدة عقاب اليهود بأنها سبعة أو أربعون يوماً راجعٌ إلى اختلاف فرق اليهود في هذا الأمر. على أية حال، تؤكد هذه الروايات أن اليهود حتى زمن نزول القرآن الكريم كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولكنهم كانوا يحسبون أنهم لن يعاقبوا طويلاً لانتسابهم إلى أبيهم إبراهيم عليه السلام. وقد حملوا هذا الظن قبل القرآن بقرون عديدة، لأن اليهود الذين استوطنوا الجزيرة العربية جاءوها قبل الإسلام ببضعة قرون، وهذا يجعلنا نسلم بأن أفكار اليهود هذه التي كانت موجودة عندهم في البلاد الأخرى أيضاً ترجع إلى بضعة قرون قبل الإسلام.

ولو أمعنا النظر في أسفار العهد القديم وجدنا فيها إشاراتٍ إلى الحياة بعد الموت. والحق أن أيّ دين لا يُعدّ ديناً كاملاً ما لم يقدمّ التعاليم حول قضية الحياة بعد الموت، لأنها الوسيلة لتحقيق الغرض من خلق الإنسان، وإن حرمان الناس من تلك التعاليم يُعدّ حرماناً من غاية الدين. فكلّ دين يقصّر في بيان تعاليمه بهذا الشأن يحكم على نفسه بالبطلان.

لقد جاء في التوراة: {وقال الرب لموسى: ها أنت ترقُدُ مع آبائك} (التثنية: ٣١: ١٦). هذه العبارة واضحة في دلالتها على أن روح موسى عليه السلام ستكون بعد الموت مع أرواح آبائه، لأنه لم يدفن في مقابر آبائه، بل مات في البرية ولم يبق لقبره علامة يعرف بها. فقد ورد في التوراة: {ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم} (التثنية ٣٤: ٦). فالمراد من رقود موسى عليه السلام مع آبائه هو لقاء روحه بأرواحهم بعد الموت.

وكذلك ورد في التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: {وَمَتَّ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَأَنْضَمَّ إِلَى قَوْمِكَ، كَمَا مَاتَ هَارُونُ أَخُوكَ فِي جَبَلٍ هُوَرٍ وَضُمَّ إِلَى قَوْمِهِ}. (التثنية ٣٢: ٥٠).

إن هذه العبارة تدلل على الحياة بعد الموت، وتشير إلى أن الأرواح البارة تقيم معاً في مكان خاص، وإلا فما معنى الانضمام إلى الآباء بعد الموت؟ ويقول أيوب عليه السلام: {فَلَمْ أَكُنْ، كَأَجَنَّةٍ لَمْ يَرَوْا نُورًا.} (أيوب ٣ : ١٦)، أي لم يُعَمَّرُوا.

ثم يصف حالهم: {هُنَاكَ يَكْفُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الشَّعْبِ، وَهُنَاكَ يَسْتَرِيحُ الْمُتَعَبُونَ. الْأَسْرَى يَطْمَئِنُّونَ جَمِيعًا، لَا يَسْمَعُونَ صَوْتَ الْمُسَخَّرِ الصَّغِيرِ كَمَا الْكَبِيرُ هُنَاكَ، وَالْعَبْدُ حُرٌّ مِنْ سَيِّدِهِ.} (أيوب ٣ : ١٧-١٩) ويقول داود عليه السلام مخاطباً ربه: {لَنْ تَتْرَكَ نَفْسِي فِي الْهَاطِيَةِ. لَنْ تَدَعَ تَقِيكَ يَرَى فُسَادًا. تُعَرِّفُنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ} (المزامير ١٦ : ١٠ و ١١).

ويقول أيضاً: {نَجَّ نَفْسِي مِنَ النَّاسِ بِيَدِكَ يَا رَبُّ، مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا. نَصِيْبُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ. بَذَخْتُكَ تَمَلَأُ بَطُونَهُمْ. يَشْبَعُونَ أَوْلَادًا وَيَتْرَكُونَ فَضَالَتَهُمْ لِأَطْفَالِهِمْ. أَمَّا أَنَا فَبَالِبٌ أَنْظُرْ وَجْهَكَ. أَشْبَعُ إِذَا اسْتَيْقَظْتُ بِشَبْهِكَ.} (المزامير ١٣ : ١٥-١٧)

تبين كلمات داود عليه السلام هذه أن بعض الناس يكتفون بالحياة الدنيا، ولكن المؤمن يضع الحياة بعد الموت نُصَبَ عينيه، لأنه سيحظى هناك بلقاء الله تعالى على أتم وجهه، وتكون روحه في الحياة الآخرة على شبه الله تعالى، أي كاملة الصفات.

ويضيف داود عليه السلام مخاطباً ربه: {حَيَاةً سَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَهُ طَوْلَ الْأَيَّامِ إِلَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ} (المزامير ٢١ : ٤).

يتبين من هذه الفقرات أنه يوجد في تعاليم موسى ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام دليل قطعي على الحياة بعد الموت. وإذا قرأنا هذه الشهادة مع الشهادة القرآنية التي هي شهادة تاريخية موثقة حتى عند المعارضين فيما يتعلق بأحوال اليهود المعاصرين للنبي ﷺ على الأقل، فلا بد من التسليم بأن الباحثين من عصرنا هذا قد أخطأوا في قولهم بأن تعاليم أنبياء بني إسرائيل ليس فيها ذكر للحياة بعد الموت. الحق أن رأيهم ناتج عن قلة التدبر، ولا يستند إلى دليل.

والواقع أن هذا التعليم كان موجوداً في الديانة اليهودية منذ البداية، وكانوا يتعللون بأفكار وأمانٍ يَحْتَلِقُونَهَا من عند أنفسهم فراراً من خوفهم من عقاب سيئاتهم في الآخرة. ومن هذه الأمانِ أنهم أولاد الأنبياء، وأنهم بشفاعتهم سينجون من عذاب الآخرة كلية أو يخفف عنهم العذاب، فيعذبون أياماً معدودة. والله تعالى ينفي هنا فكرتهم هذه ويبين أن الشفاعة ليس هدفها أن يتمادى الإنسان في الآثام، وأنكم لن تنالوا مثل هذه الرخصة أبداً، فأصلحوا أعمالكم، ولا تفسدوا عاقبتكم، مغترين بأمانكم التي ما أنزلنا بها من سلطان. وربما اغترّ اليهود في مسألة الشفاعة أيضاً لأنهم أنذروا مراراً بعقاب سماوي، ولكن الله تعالى رفعه عنهم بدعاء أنبيائهم، فظنوا أنه هكذا سيفعل بهم في الآخرة أيضاً. ولكن الحياة الآخرة لا تقاس بالحياة الدنيا، لأن كشف العذاب في هذه يهيئ للإنسان فرصة للتوبة وفعل الخير، أما الآخرة فهي دار الحساب والحكم النهائي. أما لو كانت النجاة في الآخرة سُتَال كما يظنون لصارت الحياة الدنيا عبثاً محضاً.

وفكرة الشفاعة موجودة لدى النصارى أيضاً. جاء في الإنجيل: {يَا أَوْلَادِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هَذَا لِكَيْ لَا تُخْطِئُوا. وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الْآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ. وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا. لَيْسَ لِخَطَايَانَا فَقْطُ، بَلْ لِخَطَايَا كُلِّ الْعَالَمِ أَيْضاً.} (رسالة يوحنا الأولى ٢: ١-٢).

وهنا ينشأ سؤال: هل الكفارة والشفاعة شيء واحد؟ وإذا كانا شيئاً واحداً، فلماذا ذُكر كل منهما على حدة؟

الكتب المسيحية صامتة عن ذلك حسب معلوماتي. الحق أن هناك فرقاً بين الكلمتين نظراً إلى معناهما. فالكفارة تعني محو أثر فعلٍ بفعلٍ آخر، أما الشفاعة فلا تدل على الفعل العوض، وإنما تعني أن يتوسط أحد لصالح مخطئ، بدون أن يقدم الوسيط عوضاً عن خطأ المخطئ، وإنما يطلب له الغفران بناءً على علاقته بصاحب الأمر. وأرى أن النصارى لم يدركوا هذا الفرق بين الشفاعة والكفارة وخلطوا بينهما.

وموجز القول إن اليهود والنصارى كانوا ولا يزالون يظنون خطأً أن الله تعالى لن يعذبهم، أو يعذبهم أقلَّ العذاب بسبب أسلافهم الصالحين المقربين. وهذا مما شجّعهم على ارتكاب المعاصي، وجعلهم لا يتجهون إلى التدبر في الحقائق الإلهية. وبكشف خطئهم هذا يسعى القرآن الكريم لإيقاظ فطرتهم النائمة ويحيي فيهم ملكة التفكير في الحقائق الدينية.

لا بد هنا من إزالة سوء فهم يروج له الكتاب النصراني ضد الإسلام ومؤسسه ﷺ. يقولون -استناداً إلى هذه الآية ومثيلاتها- أن الإسلام لا يقول بمبدأ الشفاعة، وأن المسيح وحده الذي ادعى بشفاعته للناس، وأن نبي الإسلام ليس شفيعاً لأحد بحسب ما ورد في القرآن (ترجمة ويرى للقرآن)، وأن اعتقاد المسلمين بكونه ﷺ شفيعاً لهم اعتقاد باطل ومن بنات أفكارهم، ولا يستند إلى نصوص القرآن، وإنما إلى أحاديث ضعيفة.

والحق أن زعمهم هذا ناشئ عن سوء فهم. ولسوف أتناول موضوع الشفاعة في مكانها في القرآن الكريم، إن شاء الله تعالى، ولكني أود هنا بيان أن القرآن الكريم لا ينكر الشفاعة، وإنما يعلن بطلان الشفاعة التي يؤمن بها اليهود والنصارى. ففي هذه السورة قال القرآن الكريم: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (الآية ٢٥٦)، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزحرف ٨٧)، أي هؤلاء الذين يشركوهم بالله تعالى لا يملكون حق الشفاعة لأحد، إنما يملكه عبدنا هذا الذي يشهد بالحق، وهم يعرفون أنه ﷺ) الشاهد بالحق.

فثبت من هنا أن القرآن الكريم يقول بالشفاعة، وينفي فقط تلك الشفاعة غير المنطقية التي تشجّع الناس على الذنوب وتصرفهم عن إعمال الفكر في الحقائق.

ثم إن كلمات الآية قيد التفسير نفسها تكفي لتأكيد ما نقول، إذ لم يقل الله هنا بأنه لن تكون هناك شفاعة مطلقاً، بل قال: لا تُقبل من أحد شفاعة، أي: لن تُقبل الشفاعة من مجرم، وليس أنه لن تكون الشفاعة مطلقاً يوم القيامة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فهو ردٌ لخطأ ثالث كان يشجع اليهود والنصارى على الذنوب، إذ ظنوا أن الآثمين سوف ينجون من العقاب بتقديم عوضٍ عن أخطائهم. وهذه العقيدة موجودة عند اليهود والنصارى كليهما. وطائفة الرومان الكاثوليك من بين النصارى أشدُّ تمسكًا بهذا الاعتقاد من اليهود، فعندما يرتكب أحدهم إثماً يذهب إلى القسيس، فيُقدَّر له عقوبة ما، فإذا أوقعها على نفسه ظنَّ بأن ذنبه قد غُفِرَ له. وكان اليهود ولا يزالون معتادين على تقديم عوض عن ذنوبهم بالقرايين.

ولكن الإسلام لا يقبل بمثل هذا العوض عن الذنوب، وإنما مفهوم الاستغفار في الإسلام أن يكره الإنسان الإثم ويتجنَّبَه في المستقبل، وليس للاستغفار معنى غير هذا في الواقع. فلو قتل المرء غيره ثم أخرج صدقةً، فكيف يُغفَر له ذنبه ذلك؟ أو لو اعتكف في الكنيسة صائماً فكيف يحصل له الغفران؟ لا شك أن الإسلام أيضاً جعل بعض الأعمال كفارةً لبعض الأخطاء، ولكنها أخطاء ذات صلة بأشكال ظاهرية للعبادة، وليس هناك أي تعليم يُهَضِّمُ به حقٌّ من حقوق العباد أو حقوق الله تعالى. فمثلاً لو ترك المرء ركناً من أركان الحج اضطراراً أو نسياناً، أُمرَ بتعويضه بعمل من أعمال الخير من صدقة أو صيام أو نُسك. أو لو قتل المرء غيره خطأً أُمرَ بفعلٍ خيرٍ عوضاً عنه، ولا يعني ذلك أن فعل الخير هذا أزال عنه الإثم، وإنما الهدف من ذلك أن يتحقق الغرض الظاهري للعبادة بطريق آخر، أو أن يصبح الإنسان حذراً في المستقبل، فلا يرتكب خطأً يتضرر به الآخرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي لا ينجيهم من عذاب الله تعالى أيُّ من هذه الطرق غير المنطقية. هناك سبيل واحد للنجاة من العذاب، ذلك أن يبذل الإنسان غاية جهده لفهم الحق وقبوله، ويتبع أحكام الله تعالى بكل ما في وسعه ويُلبي دعوته. فعلى اليهود والنصارى ألا يعتمدوا على طرق اختلقوها بأنفسهم، بل عليهم أن يقبلوا الحق الجديد من الله تعالى، وإلا فلن تنفعهم حيلة أخرى.

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أن الآية السابقة تقول إن الله تعالى فضلكم على أهل زمانكم، فكان الواجب عليكم أن تكونوا عبادًا شاكرين مطيعين له، ولكنكم على عكس ذلك تتحايلون للتخلص من طاعته، وتحاولون استغلال هذه الفضيلة لخداع من لا يعرفون.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٥٠)

شرح الكلمات:

آل: الآل هم الأهل والقوم (الأقرب).

وقيل: الآل مقلوب من الأهل (المفردات).

وأهل الرجل: عشيرته وذوو قريبه؛ زوجته. وأهل نبي: أمته. وأهل بيت:

ساكنوه. وأهل الأمر: أصحاب الحكم والسلطان (الأقرب).

هناك فرق بين الأهل والآل، فقيل: أن الآل "خُصَّ" بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات، ودون الأزمنة والأمكنة، يقال آل فلان، ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا، ولا يقال: آل الخياط، بل يضاف إلى الأشرف الأفاضل، يقال آل الله وآل السلطان. والأهل يضاف إلى الكل، يقال: أهل الله وأهل الخياط، كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا" (المفردات).

فمعنى آل فرعون: قوم فرعون.

فرعون: لقب كل من ملك مصر؛ وقيل: كل عاتٍ متكبرٍ متمرّدٍ، وجمعه

فراعنة.

فَرَعْنَ: كان ذا دهاء ومكر. تفرعنَ فلان علينا: طغى وتجبر. وتفرعنَ النبات: طال وقوي. ويقال للتمساح الفرعون (الأقرب).

فكأن هذا الاسم أطلق على الملوك المصريين القدامى لشدة ذكائهم وبأسهم وسلطانهم.

يسومونكم: ساءَ البائع السلعة: عرضها وذكر ثمنها... ساءَ فلانًا الأمر: كلفه إياه. وأكثر ما يُستعمل في الشر والعذاب. ساءَ خسفًا: أولاه إياه وأراده عليه (الأقرب).

والسَّوم: الذهاب في ابتغاء الشيء، فهو لفظٌ لمعنى مركَّب من الذهاب والابتغاء، وأُجرِيَ مجرى الذهاب في قولهم: سامت الإبل فهي سائمة، ومجرى الابتغاء في قولهم: سُمْتُ كذا، قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (المفردات). وساءَ: ألزَمَ وحشَمَه (التاج).

فمعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أنهم كانوا يعذبونكم عذابًا شديدًا، أو كانوا يريدون أن يعذبوكم عذابًا شديدًا.

يذَّبَحُونَ: ذَبَح: شقَّ؛ خنق؛ نحر، وذَبَح: بالغَ في الذبح (الأقرب).

الذبح: قطعُ الحلقوم (اللسان).

الذبح: الهلاك (التاج).

والمراد من الذبح في الآية القتل أو الخنق.

يستحيون: استحياه: أبقاه حيًّا، وقال اللحياني: استبقاه ولم يقتله (اللسان).

فقوله تعالى (ويستحيون نساءكم) يعني: يستبقونهن ولا يقتلوهن.

بلاء: بلوتُ الرجلَ بلاءً وبلوًا وابتليته: اختبرته... ابتلاه الله: امتحنه... والاسم منه البَلْوَى والبَلْوةُ والبَلِيَّةُ والبلاء... والبلاء يكون في الخير والشر، يقال ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا. والله تعالى يبلي العبد بلاءً حسنًا ويبليه بلاءً سيئًا... والبلاء: الإنعام (اللسان). وفي القرآن: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾.

عظيم: عظم الشيء عِظْمًا وعِظْمَةً: كبير. وعظم الأمر على فلان: شقٌّ وصعب (الأقرب). فمعنى عظيم: كبير، شاقٌّ وصعب.

التفسير: بهذه الآية بدأ الله تعالى يعدّد لبني إسرائيل النعم التي لم يزل ينزلها عليهم أحقاباً طويلة، وأوّل هذه النعم أنهم كانوا يعيشون في مصر تحت حكم الفراعنة عبيداً، فأرسل الله تعالى عبده موسى عليه السلام ونجّاهم على يده.

لقد صوّر كتابهم المقدس حياة العبودية التي عاشوها كالأتي:
 {ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَىٰ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ:
 «هُؤُذَا بُنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلَّا يَنْمُوا،
 فَيَكُونُوا إِذَا حَدَّثَ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَىٰ أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ
 مِنَ الْأَرْضِ». فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِّكِي يَذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ... اسْتَعْبَدَ
 الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْنَفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ
 وَاللَّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلُّ عَمَلِهِم الَّذِي عَمَلُوهُ بِوَاسِطَتِهِمْ عُنْفًا {
 (الخُرُوجُ ١ : ٨-١٤)

أما قوله تعالى: ﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، فأقول: كان رمسيس الثاني، الذي وُلد موسى عليه السلام في زمنه، شديد العداوة لبني إسرائيل، فأمر بقتل أبنائهم برؤية ازدهارهم، ولكنه لم يفلح في خطته تماماً لإشفاق القابلات على المواليد. فأمر أخيراً بطرح أبنائهم، دون البنات، في النهر. (الخروج ١ : ٢٢).
 وتوجد في التلمود روايات بهذا المعنى.

كما ورد في الإنجيل: {فاحتال هذا على جنسنا وأساء إلى آبائنا، حتى جعلوا أطفالهم منبوزين لكي لا يعيشوا} (أعمال الرسل ٧ : ١٩).

لقد انخدع البعض من كلمة (يُذَبِّحُونَ) في الآية، فظنوا أن القرآن الكريم يقول أن المصريين كانوا يخنقون مواليد بني إسرائيل، مع أن التاريخ يقول بغير ذلك. وقد أوقعهم في هذا الوهم كون الخنق من معاني الذبح، فغفلوا عن معناه الآخر، وهو الهلاك كما بينّا في شرح الكلمات. فمعنى هذه الآية في

الحقيقة أنهم كانوا يهلكون المواليد بأي طريقة كانت. وقد وضح القرآن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ (الأعراف ١٤٢) أما قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فيعني أن في نجاتكم من هذا الكرب إنعاماً كبيراً من الله تعالى، إذ ترتبت على هذه النجاة سلسلة من نعم عظيمة أخرى.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥١)

شرح الكلمات:

فَرَقْنَا: فرّقنا بكم البحر: أي فلقناه (الأقرب).

تَنْظُرُونَ: نظّره ونظرَ إليه: أبصره وتأمّله بعينه. نظّره: مدّ طرفه إليه، رآه أو لم يره. نظر في الأمر نظراً: تدبّره وتفكّر فيه يقدره ويقيسه. نظر بين الناس: حكّم وفصل دعاواهم. ونظر للقوم: رثى لهم وأعانهم. نظر الشيء: انتظره. يقال داري تنظر إلى دار فلان، أي تقابلها (الأقرب).

فمعنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

١. كنتم تشاهدون آل فرعون وهم يغرقون.
٢. كنتم تحكمون عند غرق آل فرعون أنهم على الباطل وأنكم على الحق.
٣. كنتم تشفقون على آل فرعون عند غرقهم وتقولون في أنفسكم ليتهم لم يرتكبوا الشر ولم يلقوا هذا المصير.
٤. كنتم تنتظرون هلاكهم.
٥. كنتم إزاء آل فرعون عند غرقهم.

التفسير: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ يعني حرفيًا: عندما شققنا البحر بواسطتكم، وبسبب هذا المعنى للباء في (بكم) اتخذ معظم المفسرين ففسروا الآية أن بني إسرائيل كانوا ذريعة لفلق البحر. لقد أمروا بخوض البحر، فكلما تقدّموا في البحر تراجع الماء على جانبيهم.

ولكن هذا المعنى باطل لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء ٦٤). لقد تبين من هنا أن بني إسرائيل لم يكونوا سببًا في انفلاق البحر، وإنما كانت العصا هي السبب الظاهري فيما جرى.

أما ماذا تفيد "الباء" هنا إذا؟ فالجواب أن الباء تفيد أيضًا التعليل والسببية، وعليه فالمعنى: أننا فرقنا لأجلكم البحر، أي لنجاتكم، وبعبارة أخرى: فرقنا لكم البحر. (البحر المحيط، والكشاف)

قوله تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ...﴾ إشارة إلى معجزة أظهرها الله لموسى ﷺ عند خروجه ببني إسرائيل من مصر إلى الشام، فطاردهم فرعون مع جنوده لإعادتهم. ورد في التوراة:

{فَمَدَّ مُوسَىٰ يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ، فَأَجْرَى الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً وَأَنْشَقَّ الْمَاءُ. فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسْطِ الْبَحْرِ. وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ النَّارِ وَالسَّحَابِ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ، وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقَوْهَا بِثَقَلَةٍ. فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ: «نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ». فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ،

عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ». فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ. فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ حَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلَا وَاحِدٌ. وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشَوْا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ، فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى. { (الخروج ١٤: ٢١-٣١)

وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في مواضع أخرى أيضاً، حيث قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء ٦٤)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (طه ٧٨-٨٠).

بالجمع بين هذه الآيات القرآنية كلها تتضح تفاصيل الحادثة كما يلي: خرج بنو إسرائيل قاصدين الأرض المقدسة، حتى لحق بهم فرعون بجيشه، فأصابهم الهلع وظنوا أنهم مدركون. ولكن الله تعالى طمأنهم بواسطة موسى ﷺ حيث أوحى إليه أن يضرب بعصاه البحر، ففعل، فتراجع الماء على الجانبين وظهر لهم طريق في البحر فتقدموا فيه. وكان الماء يمتد على الجانبين، فيتراءى لهم مرتفعاً كالتلال. وتبعهم فرعون وجنوده يطاردونهم. ولما وصل بنو إسرائيل إلى الشاطئ الآخر سألهم ارتد الماء كما كان وأغرق المصريين.

ولاستيعاب هذا الحادث يجب أن نتذكر أن القرآن الكريم يعلمنا أن كل المعجزات تكون من عند الله تعالى، ولا دخل ولا تصرف للإنسان فيها، وعليه فما كان رفع موسى عليه السلام العصى وضربه البحر بها إلا بمثابة علامة فقط، وليس معناه أنه كان لموسى أو لعصاه أي دخل في تراجع ماء البحر.

كما يجب أن نتذكر أيضاً أنه لا يثبت أبداً من ألفاظ القرآن الكريم أن البحر انشقَّ جزءين منفصلين وأن موسى عليه السلام مرَّ بينهما. لقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الحادث بكلمتين: "فرقنا" و"انفلق"، ومعنى الفرق والفلق هو الانفصال. فكأن ماء البحر انفصل متراجعاً عن الشاطئ عند مرور بني إسرائيل، فظهرت اليابسة، فمرّوا عليها. وتحدثت هذه الظاهرة على شواطئ البحر عادة. فقد ورد في كتاب "حياة نابليون" أنه في أثناء غزوه لمصر مرَّ بجنوده على شاطئ البحر الأحمر وقت الجزر، وبينما هو يعبر هذا المكان حان وقت المدّ وارتفع الماء، فنجا هو وجنوده بصعوبة بالغة.

فالمعجزة في هذا الحادث هي أن الله تعالى أتى ببني إسرائيل إزاء البحر وقت الجزر، وما إن رفع موسى عليه السلام يده بالعصا لضرب البحر حتى بدأ الجزر وتراجع الماء، وعندما دخل فرعون مع جنوده البحر وقعت لهم من العوائق غير العادية أثناء العبور ما أبطأ سرعتهم كثيراً، فأدركهم المدّ ولا يزالون في وسط البحر، فغرقوا. وهذا ما يؤيده الوصف القرآني للحادث حيث قال الله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، أي عندما تراجع ماء البحر كان كل جزء منه كالتل الرملي المرتفع. فلو كان القرآن الكريم يريد القول أن البحر قد انشقَّ جزءين لما استخدم كلمة "كل" التي تدخل على النكرة المفردة. فلفظ "كل" يبين أن البحر لم ينشق إلى قسمين، وإنما تراجع الماء عن أماكنه، كما يحدث في البحار التي توجد على جوانبها حفر ومنخفضات، فتبقى ممتلئة بالماء وقت الجزر، وهذا ما حدث في هذا الحادث. كان البحر على جانب من بني إسرائيل، وكانت على جانبهم الآخر بحيرات صغيرة وحفر مائية، وهذه المساحات المائية تبدو لمن يمرّ بينها كأنها تلال من الماء، وهي ظاهرة طبيعية.

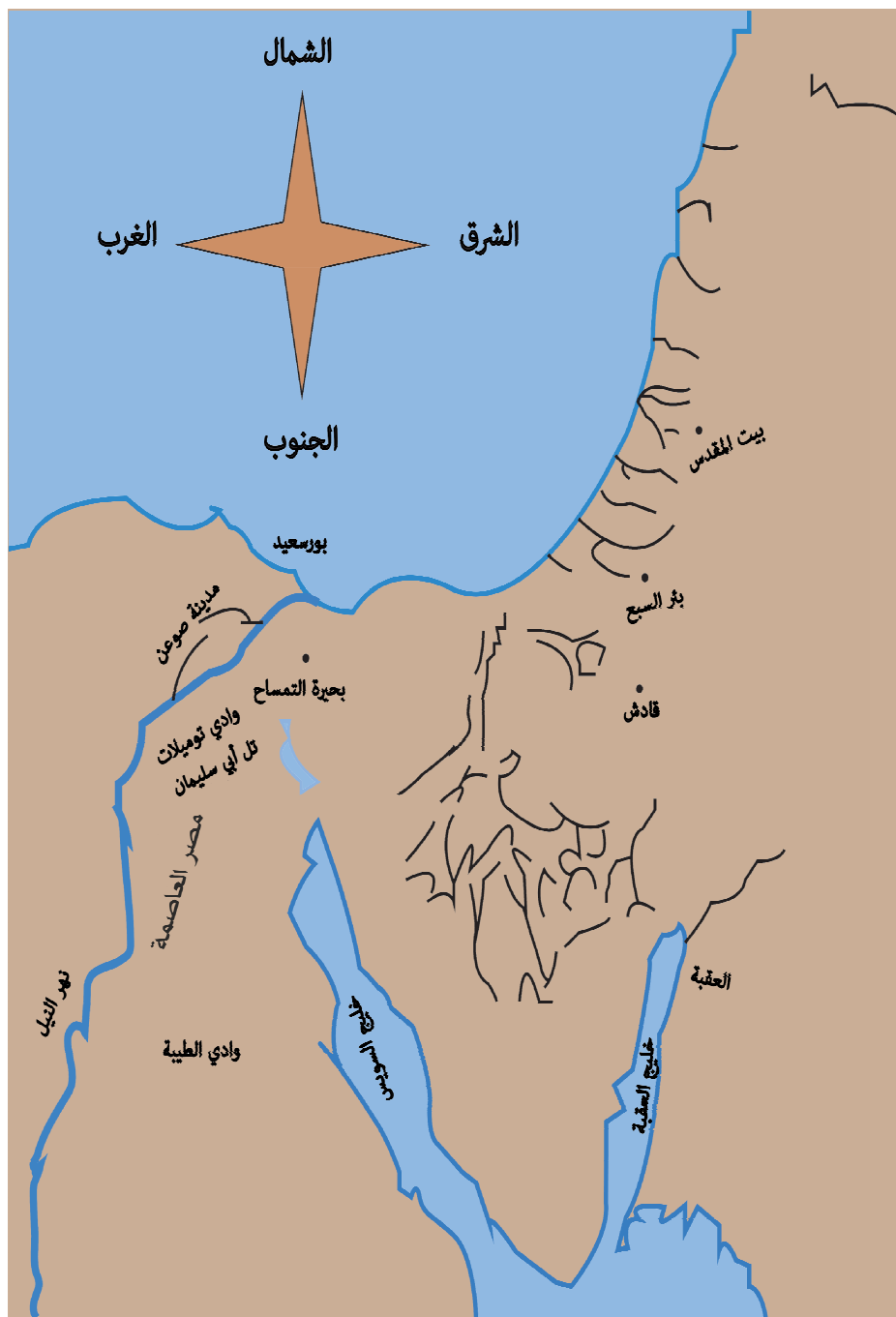
ويتبين من خريطة خليج السويس أنه توجد على شواطئه العديد من البحيرات التي كانت في الماضي أكثر عددًا كما تدل الخرائط القديمة.

بعد ذكر معنى هذه الآية القرآنية من وجهة نظري، أرى من المناسب ذكر آراء المفسرين السابقين أيضاً. إنهم يرون أن موسى عليه السلام عبر نهر النيل، وأن النهر انشق من اثني عشر موضعاً. ويستدلون على هذا بقول الله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، ويرون أن النهر انشق هكذا لكي تعبر كل قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثني عشرة منفردةً وحدها. وقد بالغوا في هذه القصة حتى قالوا أنه كان هناك حاجز مائي يفصل بين كل قبيلة وأخرى، إذ رفضت القبائل العبور ما لم تر كل واحدة منها الأخرى، فدعا موسى عليه السلام ربه، فأمره أن يدخل عصاه في الجدار المائي، ففعل، فكانت ثقب في الحاجز، حتى سمع ورأى منها بعضهم بعضاً (الكشاف).

وكان الماء تجمد بحيث بقيت الثقوب على حالها، وكان عصا موسى طالت حتى شقَّتْ بضربة واحدة كلَّ الحواجز الاثني عشر التي مرت بينها قبائل بني إسرائيل!!

ولكن لم يلق أحد من المفسرين الضوء على أنه إذا كان بنو إسرائيل على هذا الحب الشديد الذي جعلهم لا يرتاحون إلا برؤية بعضهم البعض، ولم يطمئنا للعبور إلا على هذا النحو رغم وجود موسى بينهم، فلماذا لم يعبروا كلهم عبر طريق واحد، ولماذا جعل لكل قبيلة منهم طريقاً منفصلاً؟!

الحق أن المفسرين قد وقعوا في خطأ خطير حين ظنوا أن الماء الذي عبره موسى عليه السلام مع قومه هو ماء النيل، إذ الأحداث لا تثبت ذلك، لأن سكان العاصمة في زمن موسى عليه السلام، وإلى زمننا هذا، كانوا يقيمون على الجانب الشرقي من النيل لا الغربي منه، كما يتبين ذلك من التاريخ والآثار القديمة (انظر الخريطة).



يتبين من هذه الخريطة بوضوح أن أرض كنعان التي قصدتها موسى عليه السلام وقومُه تقع في جهة الشمال الشرقي من النيل. وكانت عاصمة الفراعنة في منطقة "أرض جاسان" (التكوين ٤٧)، وتسمى أيضًا "وادي توميلات" (موسوعة الكتاب المقدس، تحت كلمة رمسيس). وهذا الوادي يقع في الشرق من النيل، وكل مَنْ يسافر إلى كنعان من هنالك لا يعبر النيل أصلاً، لأن النيل يكون في الجهة الغربية من هذا المسافر. ثبت أن هذه الآية لا تتحدث عن عبورهم النيل بل تتحدث عن عبورهم ماء آخر. وبما أنه لا يقع أي نهر بين عاصمة مصر القديمة وبين قادش التي وصل إليها موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، فلا بد أن يكون المكان الذي عبره مع قومه بحراً، أو جزءاً كبيراً منه.

فالقول بأن ماء النهر الجاري توقف عن الجريان بضرب موسى عليه السلام إياه بعصاه، وصار جزءً من الماء على جانب وجزؤه الآخر على الجانب الآخر، وكأن الماء تجمدَ، وأن موسى جعل الثقوب في هذا الماء، أقول: كل ذلك ليس إلا قصصاً فارغة عابثة لا يصدقها القرآن الكريم. لقد استعمل القرآن الكريم كلمة البحر واليم، وكلمة (اليم) تطلق على النهر أيضاً، لكنها أكثر استعمالاً للبحر أو للبحيرة المالحة، ولا يقع بين موطن بني إسرائيل في مصر وبين أرض كنعان إلا البحر أو البحيرات المتفرعة منه، وليس هناك نهرٌ جارٍ. فالمكان الذي عبره موسى عليه السلام إما هو بحر أو شَرْم وخليج منه.

لقد ذكرت من قبل وقوع ظاهرة المد والجزر في البحر، حيث ينسحب الماء بعيداً عن الشاطئ مرة، ويعود إليه أخرى، وحادث انفلاق البحر ذو صلة بظاهرة المد والجزر هذه. لقد وصل موسى عليه السلام إلى البحر وقت الجزر حين كان الماء قد تراجع، ووصل فرعون هنالك بعد ذلك، وحيث إنه خرج مطارداً بني إسرائيل بعد خروج موسى بهم من مساكنهم بيومٍ على الأقل، وكان موسى عليه السلام قد قطع معظم الطريق المنكشف في البحر نتيجة تراجع الماء، فلما وصل فرعون البحر اندفع وراء بني إسرائيل بجيشه ومركباته مستعجلاً، وتسببت الأرض الرملية الرخوة في تأخير مسيرة فرعون، إذ غاصت فيها المركبات

وتعطلت، واستغرقت محاولته للعبور وقتاً طويلاً، حتى حان وقت المدّ وبدأ الماء يرتفع، مما زاد في ارتباك فرعون، فلم يستطع أن يتقدم أو يتأخر، حتى فاجأه الماء وأحاط به، وأغرقه ومعظم جيشه، ولأن الوقت كان وقت المد، فإن الماء المندفَع إلى الشاطئ قد ألقى بجثثهم على الساحل فيما بعد.

وقد سبق أن رددت على من يسأل: إذا كان موسى عليه السلام قد استفاد من ظاهرة المد والجزر، فأين المعجزة؟ وقلتُ إن المعجزة هي أن الله تعالى قد أتى موسى عليه السلام إلى الساحل في وقت بدء الجزر.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا لم يطاردهم فرعون سالكاً طريق البر اليابس بدلاً من الدخول وراءهم في هذا الطريق الذي ظهر داخل الساحة المائية؟

والجواب أن البحر في ذلك المكان قريب من مدينة السويس على الأغلب - وتبلغ سعة البحر ثلثي ميل فقط (موسوعة الكتاب المقدس) - وتكثر بها البحيرات والمستنقعات ذات الطبيعة الرخوة. وكان موسى عليه السلام قد توجه ناحية الشمال أول الأمر، لكنه لما رأى البحيرات والمستنقعات ووجد الطريق مسدوداً أمامه، عاد إلى المكان الذي عبر منه البحر كما يقول الكتاب المقدس، حيث ورد: {أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «لَعَلَّا يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ». فَأَدَارَ اللَّهُ الشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةٍ بَحْرٍ سُوْفٍ} (الخروج: ١٣: ١٧-١٨).

فلو أن فرعون اتجه إلى طريق البر لكان عليه أن يلفّ حول البحيرات شمالاً، وفي تلك الأثناء يكون موسى عليه السلام قد خرج بعيداً عن فرعون بمسافة بعيدة وخرج من مملكته. ولذلك لم ير فرعون سبيلاً للحاق بموسى عليه السلام ومن معه إلا أن يتبع خطاهم في طريق البحر المنكشف نتيجة تراجع الماء، ولكن الله تعالى ألقى الرعب في الثيران التي كانت تجر مركبات فرعون وعرقل سير المركبات، فصارت سرعة فرعون وجنوده بطيئة جداً حتى فاجأهم المدّ.

(راجع سفر الخروج ١٣ و ١٤، لتجد صورة إجمالية لخروج بني إسرائيل من مصر، وإن كان فيه كثير من الأخطاء والمبالغات).

هناك نقاش بين الباحثين المعاصرين بأنه إذا كان بنو إسرائيل قد عبروا البحر فعلاً، فمن أين عبروا؟ فيرى بعضهم، اعتماداً على ورود ذكر نهر في التوراة، أن موسى ﷺ عبر بالقرب من بحيرة التمساح التي كانت في رأيهم متصلة بالبحر عبر قناة في الماضي. هذا ما يراه دوبائي آمي وستيكل وكنوبل. (موسوعة الكتاب المقدس، الخروج).

ويرى البعض الآخر أن بني إسرائيل لم يمرّوا بالقرب من بحر القلزم، بل مروا بالقرب من مدينة "صوعن" قريباً من البحر المتوسط. هذا رأي شلاييدون وبرغش (المرجع السابق).

ويرى آخرون أن بني إسرائيل لم يكونوا يعيشون في مصر الأفريقية، وإنما عاشوا في "مِصر" الواقعة في شمال الجزيرة العربية، وأن بني إسرائيل أخطأوا وكتبوا في التوراة "مِصر" (المرجع السابق). وبحسب هذه النظرية، فلو أنهم عبروا البحر بالفعل لكانوا قد ذهبوا من الشرق إلى الغرب لا العكس، ولم يعبروا خليج السويس وإنما عبروا خليج العقبة قريباً من مدينة العقبة. أما إذا اعتبرنا موقع "مِصر" التي في الجزيرة العربية أبعداً إلى الشمال، فلم يعبروا أي بحر، وتكون قصة العبور كلها مُختلقة.

ويتأكد من بحث الآثار والتواريخ القديمة تماماً أنه كانت ثمة مناطق عديدة تسمى "مِصر" وكانت تقع في شمال إفريقيا وجنوب الشام وشمال الجزيرة العربية، بل كانت هناك أماكن أخرى تسمى مصر أو مصران أو مصرام أو مصرايم أو مُصرى. ومن أجل ذلك لما وجد هؤلاء الباحثون المعاصرون بعض التفاصيل الواردة في التوراة بشأن حادثة الخروج لا ينطبق على مصر الإفريقية، قالوا أن حادثة الخروج هذه قد وقعت في مِصر الواقعة في الجزيرة العربية، وحجتهم على رأيهم سفر موسى ﷺ إلى مدين، لأن مدين تقع قرب حدود مِصر الواقعة في الجزيرة العربية.

وإطلاق اسم مصر على عدة مناطق قد يُعدّ عجباً لدى الكتاب الغربيين، ولكنه ليس كذلك عند علماء اللغة العربية، لأن كلمة "مِصر" تعني في اللغة بلداً

أو مدينة. ويعرف من عاش في المدن الكبيرة أو زارها أن الذين يعيشون حول مدينة بمسافة عشرة أو عشرين ميلاً، لا يذكرون اسمها، بل يشيرون إليها بلفظ المدينة فقط. فمثلاً إن أهل الريف عندنا إذا أرادوا أن يقولوا أن فلاناً ذهب إلى مدينة لاهور، قالوا إنه ذهب إلى المدينة. بل يتضح من الكتب الإنجليزية أن أهل إنجلترا يعنون بكلمة (city) أي (مدينة) مدينةً لندن. فلا عجب إذا أطلق العرب أو من كانت لغتهم مشابة للغة العربية اسمَ "مصر" على منطقة فيها مدن كبيرة، سواء كانت في الشام أو في الجزيرة العربية أو في أفريقيا، وذلك في زمن لم توجد فيه مدن كبيرة. وما كان مرادهم من كلمة مُصرى أو مصرام أو مصران أو مصرائيم إلا أنها منطقة فيها مدن. كان العيش في المدن ليس أقل من أعجوبة عند قومٍ بدوٍ كالعرب، وكان وجود مناطق تكثر فيها المدن أمراً محيراً لهم، فكان طبيعياً أن يطلقوا عليها اسم مصر أو أمصار أو ما شابه ذلك. فلا يصحّ الاحتجاج بكلمة "مصر" وحدها بأن أحداث خروج بني إسرائيل لم تقع في مصر الأفريقية، بل في مصر من هذه الأمصار الأخرى.

إذاً، فبسبب الاختلاف في جزئيات الطريق الذي مرّ منه بنو إسرائيل لا يمكن صرف النظر عن المسألة الأساسية، وهي اتفاق الكتاب المقدس والقرآن الكريم على أن ملوك مصر التي خرج منها بنو إسرائيل كانوا يسمّون فراعنة، وأن أهل مصر تلك كانوا يحطّون جثث موتاهم. والحق أن إنكار هذه الحقيقة الناصعة يمثّل التشكيك في معرفة إنسان بحجة أن ملامحه واسمه واسم أبيه مطابقةٌ بحسب العلامات المذكورة عنه، إلا أنّ لون منديله مختلف عما هو مذكور في العلامات.

الواقع أن تاريخ الأزمنة القديمة ليس محفوظاً بحيث نعرف تفاصيله معرفة صحيحة مائة بالمائة. لذا ينبغي أن نبيّ الأمر على الاتفاق الذي بلغ من الصحة سبعين بالمائة مثلاً، ونترك الاختلاف الذي ينحصر في الثلاثين بالمائة المتبقية، ولا نرتكب حماقة فعل العكس.

ومن الناس من يحاول من خلال شهادة التاريخ السلبيّة أو الإيجابية أن يثبت أن بني إسرائيل لم يدخلوا مصر ولم يعيشوا فيها أصلاً. ويبيّن هؤلاء استدلالهم على الأمور التالية:

١- عدم ذكر بني إسرائيل في الآثار المصرية القديمة. (إسرائيل، بقلم: أدولف لودز ص ١٦٧)

٢- قد ورد في أثر قديم يعود زمنه إلى عهد الملك منفتاح -الذي يقال أن في عهده خرج موسى ببني إسرائيل من مصر- أن بعض قبائل بني إسرائيل كانت تعيش في كنعان في العام الخامس من عهده، بينما يقول الكتاب المقدس أن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهد هذا الملك ودخلوا كنعان بعد ذلك بحوالي خمسين سنة!

٣- صحيح أن الآثار المصرية تذكر مجيء بعض القبائل الآسيوية إلى مصر، ولكننا إذا طبقنا هذه الأحداث على بني إسرائيل تطابقت الأحداث ولم تتوافق التواريخ، وإذا توافقت التواريخ لم تطابق الأحداث؛ فثبت أن كل القصة مُختلقة.

ولما كان القرآن الكريم يذكر دخول بني إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، فلا بد لنا من الرد على هذا الاعتراض، فنقول:

أولاً: ليس ضرورياً أن يُعرّف كل شيء من خلال الآثار القديمة. فمثلاً لو مُحي تاريخ بلد متحضر في عصر الحضارة هذا، فهل يمكن معرفة تفاصيل تاريخه الكامل من خلال آثاره. هل يمكن بدراسة آثار مدينة أو مدينتين من إنجلترا أو الولايات المتحدة أو ألمانيا أو فرنسا مثلاً أن نعرف تاريخها الكامل معرفة صحيحة تامة، أعني عدد كل شعوبها وكل سكانها وكل عاداتهم وعلومهم وفنونهم ودياناتهم ومذاهبهم وما إلى ذلك؟ فإذا كان هذا محالاً، فما أسخف الظنّ أنه يمكننا معرفة أحوال أمة مضت منذ آلاف السنين مع تفاصيلها الدقيقة الكاملة من خلال الحفر والتنقيب في مدينة أو مدينتين يرجع تاريخهما إلى بضعة آلاف سنة! الحق أنه أمر مناف للعقل، ولو بنينا عليه علماً

لكان ذلك سخرية بالعلم نفسه. لا شك أن الشهادة الأثرية الإيجابية ذات قيمة، وإن كان فيها احتمال كبير للخطأ، أما القول أن قومًا لم يعيشوا في مكان ما لأننا لم نعثر بعد على آثار لهم فهو قول خاطئ وخلاف العقل تمامًا، وكان من واجب هؤلاء الكتاب تجنب ذكر ذلك في كتبهم العلمية.

أي وزن كان لبني إسرائيل في مصر يا ترى؟ كانوا يعيشون فيها عبيدًا، ولم تُعهد إليهم مسئوليات ذات قيمة حتى يُذكروا في الآثار التاريخية. ولعلَّ أبرز ما كان يميّزهم هو دينهم المختلف عن دين المصريين، أو أن حكام مصر عندها لم يكونوا مصريين خالصين، فكانوا يخشون تأمر بني إسرائيل مع أعدائهم. ولم يكن هناك داعٍ -والحال هذه- أن يُذكر اسم بني إسرائيل في الآثار التاريخية، وحتى ولو كان هناك ذكر لهم في الآثار فإنها لا تعطي إلا نتفًا من التاريخ وليس كل التاريخ كما أسلفت. فسكوت الآثار عن ذكر بني إسرائيل ليس دليلًا على عدم إقامتهم في مصر.

ثانيًا: أما القول أن هناك أثرًا فرعونيًا من زمن منفتح أو ملكٍ قبله يدلُّ على أن بني إسرائيل وقتها كانوا يعيشون في كنعان، فهو قول لا وزن له أيضًا. ذلك أن هذا الأثر الذي لم يتعين تاريخه، إذا كان من زمن ما بعد يوسف عليه السلام وما قبل خروج موسى عليه السلام، فإنه يعني فقط أن بعض بني إسرائيل كانوا قد هاجروا إلى كنعان قبل خروج موسى عليه السلام من مصر، وأما إذا كان هذا الأثر من زمن ما قبل يوسف أو ما بعد خروج موسى عليه السلام، فهذا لا يشكّل أي دليل خلاف ما نقول.

ثالثًا: أما القول أن بعض الشعوب الآسيوية ورد ذكرهم في تاريخ مصر بلا شك، ولكن هناك دليل على أنهم بنو إسرائيل أنفسهم، فهو دليلٌ سلبيٌّ محضٌ، والدليل السلبي القائم على آثار ناقصة ليس دليلًا، وإنما مثله كمثل مَنْ يدّعي بعدم وجود موضوع ما في كتاب ضاع منه نصف صفحاته، فرما كان الموضوع مذكورًا في الصفحات الضائعة.

والآن أقدم أدلة قياسية على عيش بني إسرائيل في مصر:

أولاً: يعترف هؤلاء المنكرون أنفسهم بأن اسم موسى موجود في اللغة المصرية القديمة. فيرون أن أصل كلمة "مُوسي" هو "مَوْسي" ومعناه الابن (موسى والتوحيد، لسيجموند فرويد ص ١٣). وإذا كانت هذه الدعوى صحيحة فقد ثبت أن بني إسرائيل عاشوا في مصر الأفريقية، وطال عيشهم هناك حتى تسمَّوا بالأسماء المصرية.

ويدعي هؤلاء المنكرون أيضاً أن أسماء بعض أصحاب موسى التي وردت في الكتاب المقدس مثل اسم "حور" وغيره أسماءٌ مصرية؛ ولو صحَّ هذا لكان دليلاً أيضاً على عيش بني إسرائيل في مصر ثم خروجهم منها.

ثانياً: لا يقول الكتاب المقدس أن آباء الإسرائيليين كانوا ملوكاً وحكاماً في مصر حتى يقال أنهم اختلقوا هذه القصة تعظيماً لشأنهم، وإنما يذكر الكتاب المقدس أنهم عاشوا فيها عبيداً مضطهدين، فلا نجد سبباً لتفريقهم قصة كهذه.

ثالثاً: تفاصيل هذا الحادث الواردة في الكتاب المقدس تصدق كلها على مصر الأفريقية، منها ذكرُ الفراعنة، وأسماءُ بعض ملوكهم التي أكدها التاريخ، وأسماءُ بعض المدن والأماكن المصرية التي كانت آثارها مندثرة بصفة عامة، وقد اكتشفتها الحفريات الحديثة. والتفاصيل المذكورة في الكتاب المقدس عن قوانين الفراعنة وآدابهم قد أكدتها الاكتشافات الأثرية، ومنها مثلاً مخازن الغلال التي قد أكدت الآثار وجودها. (ولنذكر ضمناً أن القرآن الكريم قد ألقى الضوء على عقيدة المصريين باتصاف ملوكهم بصفات الإله، وقد تأكد هذا الأمر أيضاً باكتشافات الآثار المصرية القديمة).

كذلك فإن المعلومات التي يذكرها الكتاب المقدس عن جغرافية مصر صحيحة إلى حد كبير. فكل هذه التفاصيل -الصحيحة في معظمها عن شتى الأمور التي اندرست لطول الزمن، واكتشفت الآن بالاكتشافات الأثرية- تؤكد وجودَ علاقة عميقة بين إسرائيل ومصر في ذلك الزمن. وأما ما يثار اليوم من شبهات فسببها أن القائلين بها يريدون أن تنطبق كل هذه

التفصيلات تماماً على ما وجدوه من معلومات من الاكتشافات الأثرية الناقصة، أو من المصادر التاريخية الناقصة. وهذه مطالبة مخالفة للعقل.

رابعاً: يتضح من التاريخ اليوناني القديم أن المصريين كانوا يقرّون بخروج بني إسرائيل من مصر. لا شك أن هذه الروايات اليونانية مشوهة، فمثلاً قد ورد فيها أن بني إسرائيل كانوا أولاد المصريين المصابين بالجذام، وأنهم أُجبروا على العيش معزولين عن سائر الناس بسبب مرضهم هذا، وكانوا ينكرون آلهة المصريين، فثاروا على المصريين، ولذلك طردهم المصريون. وقد ذكر هذه الروايات أيضاً المؤرخ اليوناني هكتيوس (HECATAEUS) الذي هو من مدينة أبديرة (ميليتوس)، والمعاصر للإسكندر المقدوني، وأيضاً المؤرخ مانيتو (MANETO) من هيلوبوليس. (إسرائيل، لأدولف لودز ص ١٦٧)، ولا جرم أن هذه الروايات تخالف تماماً ما جاء في الكتاب المقدس، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا نسجها المصريون إن كان بنو إسرائيل لم يذهبوا إلى مصر ولم يعيشوا فيها ولم يخرجوا منها أصلاً؟ ويمكن للمرء أن يفهم أن سبب الاختلاف بين هذه الروايات وما ورد في الكتاب المقدس هو أن المصريين كانوا أعداء للإسرائيليين، وكان ملكهم قد هلك مقهوراً ذليلاً أمام موسى (عليه السلام)، ولذلك قالوا: كان بنو إسرائيل مصابين بالجذام، فطردناهم من بلادنا، ولكن إذا كان بنو إسرائيل لم يذهبوا إلى مصر ولم يخرجوا منها بتاتاً، فما الداعي لأن ينسج المصريون قصصاً بأن بني إسرائيل جاؤوا إلى بلادنا وأننا طردناهم من بينها، ثم يعترف بنو إسرائيل أيضاً بأننا كنا ذهبنا إلى مصر وأن المصريين طردونا من بلادهم. فثبت أن ما يقوله هؤلاء الكتاب الغربيون يتنافى مع العقل تماماً، وأن بيان الكتاب المقدس والقرآن الكريم بأن بني إسرائيل كانوا قد ذهبوا إلى مصر وخرجوا منها بعون الله تعالى، هو الحق تماماً.

وبعد أن تبين أن المراد بكلمة "مصر" هي مصر الأفريقية المعروفة فقد ثبت أن بني إسرائيل خرجوا من مصر قاصدين كنعان. أما السؤال: هل خرجوا من ناحية الجنوب أو الوسط أو الشمال؟ فهذا لا يحمل أهمية كبيرة من وجهة

النظر الدينية. ولكن نظراً إلى البحوث المتوافرة وظاهرة المدّ والجزر المذكورة في القرآن والكتاب المقدس، فالأقرب إلى القياس أنهم خرجوا من عاصمة فرعون موسى وقتها - وكانت تقع عند تل أبي سليمان - متجهين أولاً إلى الوسط، أي إلى بحيرة التمساح الأقرب إلى كنعان، ولما اعترضت البحيرات طريقهم اتجهوا ناحية الجنوب وعبروا البحر وقت الجزر بالقرب من موقع السويس، ومن ثم اتجهوا إلى قادش.

ويتبين من قوله تعالى ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أن البحر كان قليل الاتساع جداً في المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل، ولولا ذلك ما تمكنوا من مشاهدة غرق آل فرعون في البحر من شاطئه الآخر. وقد سبق أن بينت أن عرض خليج السويس في أقصى شماله يبلغ حوالي ثلثي ميل. وإذا اعتبرنا أن آل فرعون غرقوا في منتصف هذه المسافة مثلاً، فمعنى ذلك أن الإسرائيليين شاهدوا منظر غرقهم واقفين على بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ متر.

ويبدو أن فرعون وبعض حاشيته ما كانوا يعرفون السباحة، أو أن الوقت كان مساءً وخيم الظلام بسرعة، فضّلوا الطريق متخبطين في المياه، ودخلوا المياه العميقة فغرقوا. وحدث نفس الشيء مع نابليون في الواقعة المشار إليها من قبل، حيث دخل هو وأصحابه قبيل المساء في الطريق اليابس في البحر الذي كشفه تراجع الماء وقت الجزر، فجاءهم المدّ وهم لا يزالون يسيرون فيه، ولما كانت هناك بركٌ صغيرة كثيرة في الأرض اليابسة، فاتصل ماء البحر بماء البرك والبحيرات، فلم يستطيعوا تحديد الجهة المقصودة، فخافوا أن يتجهوا إلى المياه العميقة بدلاً من الشاطئ فيغرقوا. فأمر نابليون زملاءه أن يتقدّموا في الاتجاهات الأربعة على شكل علامة +، ففعلوا، وكانوا إذا صادف فريق منهم الماء العميق حذر رفاقه وارتدّوا في الاتجاه الآخر، وهكذا تلمّسوا طريقهم حتى وصلوا إلى الشاطئ. ولما وصل نابليون إلى بر الأمان استلقى على الرمال وقال بصورة عفوية: لو غرقتُ اليوم لأثار العالم المسيحي كله ضجة قاتلاً: ها قد غرق فرعون آخر في البحر.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٢)

ظالمون: جمع ظالم. للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (... ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

التفسير: تذكر هذه الآية منة إلهية أخرى تنكر لها بنو إسرائيل في زمن موسى ﷺ، ولم يألوا جهداً في تغيير هذه المنّة إلى سبب للعذاب. وبيان ذلك أن الله تعالى أمر موسى ﷺ أن يخلو للعبادة في جبل كان في طريقهم إلى كنعان، ليتلقى منه تعالى بعض التوجيهات. فذهب موسى ﷺ إلى الجبل، ولكن بني إسرائيل أحسّوا بعد أيام أن غيبته قد طالت عليهم وظنوا أنه قد مات أو تعرض لمكروه. فصنعوا تمثالاً عجلاً ذهبي من الحلي التي كانت معهم، وقالوا هذا إلهنا، وعكفوا على عبادته. وأخبر الله تعالى موسى بما فعله قومه وأمره بالرجوع إليهم.

ويذكر الكتاب المقدس هذه الواقعة كالآتي: {وَقَالَ لِمُوسَى: «اصْعَدْ إِلَى الرَّبِّ أَنْتَ وَهَارُونُ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو، وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، وَاسْجُدُوا مِنْ بَعِيدٍ. وَيَقْتَرِبُ مُوسَى وَحْدَهُ إِلَى الرَّبِّ، وَهُمْ لَا يَقْتَرِبُونَ. وَأَمَّا الشَّعْبُ فَلَا يَصْعَدُ مَعَهُ»} (الخروج ٢٤: ١-٢).

فعمل موسى ﷺ بذلك، {وَأَمَّا الشُّيُوخُ فَقَالَ لَهُمْ: «اجْلِسُوا لَنَا هَهُنَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكُمْ. وَهُوَذَا هَارُونُ وَخُورُ مَعَكُمْ. فَمَنْ كَانَ صَاحِبَ دَعْوَى فَلْيَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمَا»}. {الْخُرُوجُ ٢٤: ١٤}

ثم ورد: {وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسْطِ السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ. وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً}. {الخروج ٢٤: ١٨}.

ثم ورد: {وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمْ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَنَبَاتِكُمْ وَأَثُونِي بِهَا». فَزَعَّ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً. فَقَالُوا: «هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحاً أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ». فَكَبَّرُوا فِي الْعَدِّ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلَامَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلْأَكْلِ وَالشَّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلْعِبِّ. { (الخروج ٣٢: ١-٦).

يتضح من هنا أن الكتاب المقدس يرى أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بقضاء ليالي في الجبل. وقبل أن يصعد موسى إلى الجبل أمر بني إسرائيل بطاعة هارون وحُورَ فترة غيابه. وبعد أيام ظن بنو إسرائيل أن موسى قد مات فلم يرجع إليهم، وطلبوا من هارون أن يصنع لهم صنماً. فلَبَّى طلبهم وجمع منهم حُلِيِّهم وصنع لهم عِجْلاً، فقدَّموا له القرابين والأضاحي بمساعدة هارون.

أما القرآن الكريم فقد ذكر هذا الحادث في قول الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف ١٤٣). وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف ١٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه ٩١-٩٢).

لقد وجّه هارون عليه السلام أنظار بني إسرائيل هنا بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ إلى أن الله تعالى برحمته الواسعة يُنزل كلامه لهداية الناس، ولكن ما هو الهدى الذي يعطيكم هذا العجل؟

وهناك بون شاسع بين بيان الكتاب المقدس والقرآن الكريم؛ فأولاً: يبين القرآن الكريم سبب قلق بني إسرائيل ويذكر أن موسى عليه السلام أُمر في البداية بقضاء ثلاثين ليلة في الخلوة على الجبل، ولا بد أنه يكون قد أخبر قومه بهذه المدة، ثم زاد الله تعالى عشر ليالٍ أخرى تكميلاً للإحسان إلى موسى عليه السلام، لأن عدد الأربعين يدلّ على الكمال في العالم الروحاني، وبسبب هذه الزيادة في عدد الليالي أصاب قومه القلق، فمنهم مَنْ قال أن موسى قد مات، منهم من ظن أنه خذلهم هروباً من مشاقّ الطريق، ونظراً لحدّاثه عهدهم بالإيمان تأثّروا بمن حولهم من الأقوام الوثنية وصنعوا صنماً يعبدونه. ولكن الكتاب المقدس لا يبيّن السبب وراء قلقهم.

وثانياً: يصرح القرآن الكريم أن هارون عليه السلام لم يقع في هذا الشرك، بل إن بني إسرائيل هم الذين ارتكبوه، وحاول هارون بكل جهد منعهم منه. أما الكتاب المقدس فهو لا يكتفي بتوريط هارون النبي في هذا العمل الوثني، بل يقول إنه قَبْلَ طلبهم بلا تردد، ولم يصنع العجل لهم فحسب، بل دعاهم جميعاً لعبادته. لا حول ولا قوة إلا بالله! والحق أن رواية الكتاب المقدس هذه مخالفة للعقل والمنطق ولا يمكن أن يقبلها عاقل للحظة واحدة، لأن معنى ما يقوله الكتاب المقدس أن النبي الذي كان معتاداً على سماع كلام الله تعالى ألّه تمثالاً بلا حياة، لا يضرّ ولا ينفع، وعَبَدَ بنفسه هذا التمثال وحثّ قومه على عبادته! مَنْ يقبل هذا الهراء السخيف سوى قساوسة النصارى وأحبار اليهود الذين ختموا بالرصاص على آذان عقولهم لكي يصدقوا كل ما ورد في أسفارهم من رطب ويابس؟!

ويعترض البعض هنا: كيف صُنِعَ تمثال العجل في عشرة أيام فقط؟ وكأن هؤلاء المعارضين قد رأوا ذلك العجل ووجدوه رائع الصنعة بحيث تطلَّبَ صنُّه مصانع عظيمة ومهندسين كباراً! أيُّ صعوبة في صياغة صنمٍ بإذابة الذهب في قالب من التراب؟ إن الذي صنع التمثال كان مشرَّكاً بقلبه، وكان حريصاً على أن يترد بنو إسرائيل إلى الشرك ثانية، فصاغ تمثلاً عادياً في ساعات. وصياغة مثل هذا التمثال ليست أصعب من صياغة الأسورة العادية التي يصنعها الصاغة في ساعات قليلة.

أما السؤال من أين تعلَّم هارون هذه الصنعة، فهذا سؤال يجب أن يردَّ عليه اليهود والنصارى لا نحن، لأننا نؤمن أن هارون عليه السلام كان مبرأً من هذا العمل الوثني، وأن التمثال قد صنعه شخص آخر اسمه السامري، ولعله كان صائغاً فصنعه بنفسه أو مستعيناً بالصائغين الآخرين الذين كانوا يحملون مثل أفكاره. ويعترض البعض هنا قائلاً: لقد واعدَ الله تعالى موسى ثلاثين ليلة في البداية، ثم جعلها أربعين، وهذا إخلاف للوعد.

الحق أن مثال هذا الاعتراض كأنَّ يَعدَّك أحدٌ بإعطاء ثلاثين درهماً، ثم يزيدها إلى أربعين. فهل هذا إخلاف للوعد؟ إن كلام الله تعالى نعمة عظيمة، وقد أتمَّها بأربعين ليلة بدلاً من ثلاثين، وإتمام النعمة ليس إخلافاً للوعد، بل هو إحسان وإنعام.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٣)

شرح الكلمات:

ثُمَّ: حرفُ عطف. وللمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (...). فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون).

عَفَوْنَا: عفا عنه ولَهْ ذَنْبُهُ وَعَنْ ذَنْبِهِ: صَفَحَ عَنْهُ وَتَرَكَ عَقُوبَتَهُ وَهُوَ يَسْتَحِقُّهَا وَأَعْرَضَ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِ. عفا الله عن فلان: محَا ذُنُوبَهُ. عفا عن الشيء: أَمْسَكَ عَنْهُ وَتَنَزَّاهُ عَنْ طَلْبِهِ (الأقرب).

لَعَلَّ: رَاجِعٌ شَرَحَ كَلِمَاتِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (... الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

تَشْكُرُونَ: شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ: أَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ (الأقرب).

التفسير: يَتَّضِحُ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَمَا اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا، وَقَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرِّقَبَةِ. فَلَا أَنْتَرُكُنِي لِیَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ} (الخروج ٣٢: ٩-١٠).

وورد أيضًا: {فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهِهِ... فَندِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ} (المرجع السابق: ١١-١٩)، أي لم يعاقبهم الله تعالى، بل عفا عنهم.

وقوله تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ} يعني أن الله تعالى عفا عنهم كشعب، ولكن كبار الجرمين منهم نالوا العقاب الفردي، ولم يُعْفَ عنهم. ذلك أن الجرائم القومية قسمان: قسمٌ يتعلق بالقوم ككل، وقسمٌ يتعلق بأفراد منهم. فهناك أناس يقومون بالدور الأكبر في الجرائم القومية، ومنهم من يشارك بنصيب أقل، ومنهم من لا يشارك فيها بجهد، وإن كان مع الجرمين بقلبه ولسانه، وهناك من لا يشترك بلسانه ولكن قلبه معهم، وهناك من ينساق للمشاركة في الجريمة جُبْنًا وقلبه غير مطمئن إليها، ومنهم من لا يشترك في الجريمة ولكن يؤديها بلسانه فقط، وقلبه كارُهُ لها. ومنهم من لا يشترك فيها لا بالعمل ولا باللسان ولا بالقلب، ولكنه لا يقاومها، بل يسكت عليها. ومنهم من يكتفي بإبداء عدم الرضا عن الجريمة بلسانه دون مقاومة جادة منه. كل هؤلاء يكونون

شركاء في العقوبة القومية، ولكن عند العقوبة الفردية يُعاقب كل شخص منهم بمقدار دوره في الجريمة. وقوله تعالى: ﴿عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ إنما يشير إلى رفع العقوبة القومية عنهم نتيجة دعاء موسى عليه السلام، ولا يشير إلى رفع العقوبات الفردية التي استحقها كبار المجرمين، إذ يتبين بعد آيتين أنهم عوقبوا.

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني أننا تفضلنا عليكم بهذا الفضل لكي تقدروا رحمتنا الواسعة حق قدرها، فتنتفعوا بها على الدوام.

﴿وَإِذِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾
(البقرة: ٥٤)

شرح الكلمات:

الفرقان: مصدرُ فَرَقَ، يقال فَرَقَ بينهما فِرْقَانًا: فصلَ أبعاضَهُما... فَرَقَ لفلان أمرٌ ورأيٌ: تَبَيَّنَ واتضح. فَرَقَ له عن الشيء: بَيَّنَّه. والفرقان: القرآن؛ وكلُّ ما فُرِقَ به بين الحق والباطل؛ النصرُ؛ البرهانُ؛ الصبحُ أو السحرُ؛ انفراقُ البحر؛ التوراة؛ ويوم الفرقان: يومٌ بدر (الأقرب).

الواقع أن المعنى الأصلي للفرقان هو كل ما فُرِقَ به بين الحق والباطل، وقد ذكر أهل اللغة معاني أخرى للفرقان مثل: القرآن الكريم والتوراة وانفراق البحر، على وجه الاستنباط، لكنها ليست معاني لغوية للفرقان، وقد أوردوها لأن كلاً منها مَيَّزَ بين الحق والباطل عند أهل هذه الأديان.

تهتدون: اهتدى الفرسُ الخيلُ: إذا صار في أوائلها وتقدّمها (تاج العروس). فعلاوة على المعنى المعروف فإن (لعلكم تهتدون) تعني أيضاً: لكي تسبقوا الناس وتكونوا أئمة لهم.

(راجع أيضاً شرح كلمات قول الله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله تعالى (هدى للمتقين)).

التفسير: ذكرت هذه الآية ضمناً ما أُعطيَ موسى ﷺ في الأربعين ليلة. وكأنه تعالى يقول هنا: لقد عملنا كلَّ هذا لهداية بني إسرائيل ولازدهارهم، ولكنهم عكفوا على عبادة العجل، معرضين عن إلههم الحي المحسن. هذا التباين بين فعل الله تعالى وفعل بني إسرائيل يبرز جريمتهم أيما إبراز بحيث من المحال ألا يتأثر منه عاقل.

أما قول الله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فبيّن فيه أننا كنا نعمل لهدايتكم، وأنكم تعملون لضلالكم. فالكتاب والفرقان اللذان أوتيتهما موسى ﷺ على الجبل كان الغرض منهما أن يتحول إيمان بني إسرائيل الإجمالي إلى إيمان تفصيلي، ولكنهم أضاعوا في تلك الأيام ما كان فيهم من إيمان ووقعوا في الشرك والوثنية.

سيدنا موسى ﷺ

ورد اسم موسى في القرآن الكريم في هذه الآية أول مرة، فحريّ بنا أن نذكر هنا أموراً عنه ﷺ.

يتضح من القرآن الكريم أن موسى ﷺ كان من بني إسرائيل، وكان الحلقة الأولى من سلسلة النبوة في بني إسرائيل التي كان عيسى ﷺ الحلقة الأخيرة فيها. ورد في القرآن الكريم أن الملائكة من قوم فرعون قالوا له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (الأعراف ١٢٨). كذلك قد ورد في أكثر من عشرة مواضع في القرآن الكريم أن بني إسرائيل هم قوم موسى ﷺ. ومع أنه يمكن أن يراد من قومه هنا المؤمنون به، ولكن القرآن الكريم يبين أن موسى ﷺ لم يبعث إلا إلى بني إسرائيل، فلا بد أن المؤمنين به هم بنو إسرائيل أنفسهم إلا ما شذَّ وندر، وعليه فالمراد من قومه بنو إسرائيل. وثمة آية أخرى توضح المراد من قوم موسى كل التوضيح، قال الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ

لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴿٨٤﴾ (يونس ٨٤). فالقوم هنا هم بنو إسرائيل في كل حال ولا يمكن أن يراد من القوم هنا المؤمنون.

إن الباحثين الجدد المعاصرين يحاولون إثبات أن موسى عليه السلام لم يكن من بني إسرائيل، بل كان من أصل مصري، ويستدلّون على ذلك بما يلي:

الأول: موسى اسم مصري، فيقال باللغة المصرية (مُوسَى) للطفل. يقول برستيد (Breasted): "توجد لدى المصريين القدامى أسماء مثل (آمن موسى) و(بتا موسى)، ومعناها: طفل آمون وطفل بتا. وآمون وبتا إلهان من آلهة المصريين" (كتاب فجر الضمير The Dawn of Conscience)

ويقول البروفيسور سيجموند فرويد S.Freud: "وعلاوة على هذه الأسماء، هناك أسماء مشابهة لها للملوك المصريين مثل: آه موسى، تُت موسى، رع موسى" (موسى والتوحيد Moses And Monotheism).

و(رع موسى) هو الذي يذكره الكتاب المقدس باسم (رعمسيس). و(رع) هو إله الشمس عند المصريين، فمعنى (رع موسى): الطفل الذي وهبه إله الشمس. ويقول هؤلاء الباحثون أن الأسماء الأخرى التي كانت مع كلمة موسى سقطت، وبقي اسم (موسى) فقط.

الثاني: ويدّعون أيضاً أن التوحيد لم يكن معروفاً في القبائل الكنعانية، وإنما أسس عقيدة التوحيد أحد ملوك مصر اسمه (أمنحوتب الرابع). كان يعبد إلهاً يسمّيه (آتون)، وأمر الناس بعبادته. وأُطلق اسم (آتون) في الكتب القديمة على إله الشمس، ويقال أنه كان هناك في هليوبوليس معبد كبير لإله الشمس يزاولون فيه عبادة الشمس، وكان الكثير من رهبان هذا المعبد يحملون أفكاراً فلسفية، فبدأوا بالتدريج يُسبغون على إله الشمس طابعاً أخلاقياً، بدلاً من طابعه المادي، ثم خلّع عليه أمنحوتب صبغة الإله الواحد، وروّج له في مصر. وينقلون عنه قوله: أيها الإله الوحيد الفريد، لا إله سواك. وقد نقل (برستيد) قول أمنحوتب هذا في كتابه (تاريخ مصر History of Egypt)، ويستدلون من

قوله هذا على أنه كان مؤسس فكرة التوحيد، وأشاعها في البلاد قسراً، وأمر بهدم معابد الآلهة الأخرى. وكان اسمه (أمنحوتب) اسماً وثنياً فاستبدله باسم (أخناتون)، وكأنه نسب نفسه إلى الإله الواحد (آتون).

الثالث: رَوَّج موسى في بني إسرائيل عادة الختان، وهي عادة مصرية، فثبت بذلك أن موسى كان مصرياً.

الرابع: لا يوجد في تعاليم الملك المصري أخناتون ذكرُ البعث بعد الموت، وكذلك لا يوجد ذكرُ البعث في تعاليم موسى أيضاً.

الخامس: كان المصريون يكرهون الخنزير، وفي تعاليم موسى أيضاً كراهية الخنزير.

السادس: ورد عن موسى أنه كان لا يجيد التعبير عن أفكاره، وهذا يدل على أنه كان مصري الأصل ولم يكن يجيد الحديث بالعبرية.

بهذه الأفكار يستدلون على أن موسى عليه السلام كان مصري الأصل، وأنه كان من أتباع الملك المصري أمنحوتب المعروف بأخناتون. ويقولون: بعد موت (أخناتون) عادت الديانة المصرية الوثنية ثانيةً وحلَّ الشرك محلَّ التوحيد مرةً أخرى. وعندما لم ير موسى إمكانية نشر دين أخناتون الداعي إلى التوحيد بين المصريين توجه إلى قوم بني إسرائيل غير المصريين الذين كانوا عرضة لاضطهادهم دائماً، وكان من السهل صرفهم عن العقائد المصرية بسبب كراهيتهم للمصريين. فأقبل بنو إسرائيل على دينه مسرعين بسبب عدائهم للمصريين، وعندما لم يعد لهم مكان في مصر نتيجة اعتناقهم الدين الموسوي هاجروا مع موسى منها إلى كنعان.

وأردَّ الآن على هذه الأدلة الستة بإيجاز:

دليلهم الأول:

الحق أن قولهم: إن موسى اسم مصري، فلا بد وأن يكون موسى مصري الأصل؛ لقولٍ سخيِّف للغاية. لقد عاش بنو إسرائيل في مصر عبداً

محكومين، فكان لا بد أن يتأثروا بحضارة المصريين وعاداتهم. وهذه الظاهرة تلاحظ في الشعوب المستعمرة عموماً، فمثلاً إن الإنجليز في الهند قليلون، وربما لا يبلغ عددهم حتى الواحد بالألف من سكانها، ومع ذلك نجد الآلاف من الهنود يسمّون أنفسهم بأسماء إنجليزية مثل جيمز وجونز وتامس وغيرها، ويعتزون بها، مع سواد بشرتهم وقيام بعضهم بأعمال تنظيف المراحيض، وعدم قدرتهم على نطق كلمة إنجليزية واحدة، دُع عنك أن يتحدثوا بها. فهل يحق لمؤرخ أن يستدلّ بهذه الأسماء أن هؤلاء من أصل إنجليزي؟ يجب أن يكون الاستدلال ذا قيمة، وعلى المؤرخ أن يقدم رأيه بعد دراسة الأحوال والظروف كلها بنظرة عميقة واعية. وإني لأتعجب كيف استساغ هؤلاء المؤرخون الغربيون استنباط هذه النتائج بهذه السطحية والعجلة! الغريب أنهم يستغربون من إطلاق أسماء مصرية مثل اسم موسى وأسماء بعض أصحابه، مع أننا نستطيع تقديم آلاف الأمثلة لهنود سمر يسمّون أنفسهم تامس وجيمز وجونز، مع أنهم ينظفون المراحيض ويجهلون اللغة الإنجليزية جهلاً تاماً. ونفس الحال بالنسبة للنساء أيضاً، فهناك المئات من الهنديات اللواتي لسن مسيحيات، ولكنهم بسبب دراستهن في مدارس الكنائس المسيحية سمّين أنفسهن أو أولادهن بأسماء إنجليزية. وأحياناً تجد للمرأة اسمين أحدهما إنجليزي والآخر إسلامي أو هندوسي، وهي معروفة بين صديقاتها وأقاربها باسمها الإنجليزي. فمثلاً يكون اسمها ثريا، لكنها معروفة بين أترابها باسم دولي (dolly)، أو يكون اسمها "رام كور"، لكنها شهيرة بين صديقاتها باسم جين (jane). فهل يجوز لأحد أن يستنتج من أسمائهن أنهن من أصل إنجليزي. فلماذا لا نستنتج بناءً على هذه الأمثلة التي تبلغ الآلاف أن (موسى) - إن كان اسماً مصرياً - فقد سمّاه به أبواه أو غيرها تأثراً بالحيط المصري. وأي غرابة في هذا خاصة وإن القرآن والكتاب المقدس يذكران أن أم موسى عندما وضعت جعته في صندوق بأمر الله تعالى وألقته في النهر خوفاً من اضطهاد فرعون، فعثرت عليه امرأة من الأسرة الملكية الفرعونية

وأخذته وقامت بتربيته. لقد عثروا عليه على شاطئ النهر، وما كان لهم أن يعرفوا له اسماً، فلو سمّوه بلغتهم فما الغرابة في ذلك.

باختصار، حتى لو افترضنا في ضوء هذا الحادث بأن موسى اسم مصري، فإنه لا يحقّ لنا الاستدلال على كون موسى عليه السلام مصري الأصل حتى وإن وجدنا في سلسلة أحداث طفولته حلقة تؤكد إمكانية أن يكون اسمه مصرياً. فاستنتاجهم هذا استنتاج واهٍ وضعيف للغاية ولا يؤبه له مطلقاً.

يقول الكتاب المقدس عن هذا الحادث أن رجلاً من بيت لاوي تزوج امرأة من قبيلته، { فَحَبَلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتْ ابْنًا. وَلَمَّا رَأَتْهُ أَنَّهُ حَسَنٌ، حَبَّأَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ. وَلَمَّا لَمْ يُمَكِّنْهَا أَنْ تُحَبِّئَهُ بَعْدُ، أَخَذَتْ لَهُ سَفْطًا مِنَ الْبُرْدِيِّ وَطَلَّتْهُ بِالْحُمُرِ وَالزَّرْفَتِ، وَوَضَعَتْ الْوَلَدَ فِيهِ، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ الْحَلَفَاءِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَوَقَفَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ لِتَعْرِفَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ. فَتَزَلَّتِ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى النَّهْرِ لِتَغْتَسِلَ، وَكَانَتْ حَوَارِيهَا مَاشِيَاتٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ. فَرَأَتْ السَّفْطَ بَيْنَ الْحَلَفَاءِ، فَأَرْسَلَتْ أُمَّتَهَا وَأَخَذَتْهُ. وَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ الْوَلَدَ، وَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي. فَزَكَّتْ لَهُ وَقَالَتْ: «هَذَا مِنْ أَوْلَادِ الْعِبْرَانِيِّينَ». فَقَالَتْ أُخْتُهُ لَابْنَةِ فِرْعَوْنَ: «هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُو لَكَ امْرَأَةً مُرْضِعَةً مِنَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لِتَرْضِعَ لَكَ الْوَلَدَ؟» فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «اذْهَبِي». فَذَهَبَتِ الْفَتَاةُ وَدَعَتْ أُمَّ الْوَلَدِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «اذْهَبِي بِهِذَا الْوَلَدِ وَأَرْضِعِيهِ لِي وَأَنَا أُعْطِي أُجْرَتَكَ». فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ الْوَلَدَ وَأَرْضَعَتْهُ. وَلَمَّا كَبِرَ الْوَلَدُ جَاءَتْ بِهِ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَصَارَ لَهَا ابْنًا، وَدَعَتْ اسْمَهُ «مُوسَى» وَقَالَتْ: «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ» { (الْخُرُوجُ ٢: ٢-١٠).

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحادث في قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص ٨-١٠).

يتبين من هذه الفقرات من القرآن الكريم والكتاب المقدس أن امرأة من بيت فرعون أخذت موسى عليه السلام طفلاً رضيعاً وقامت بتربيته. ويقول الكتاب المقدس أن هذه المرأة كانت بنت فرعون، وهي التي سُمّته. وما دامت هي التي سُمّته فكان طبيعياً أن تسميه باسم مصري.

فمن غير المعقول اعتبار موسى عليه السلام مصري الأصل لكون اسمه مصرياً. يوجد عندنا في منطقة البنجاب مثلاً على الأقل من هذا القبيل، فاثنان من الإنجليز المشهورين قاما بتربية طفلين هنديين وتسميتهما باسمين إنجليزين، وكلاهما معروف باسمه الإنجليزي حتى اليوم، وأحدهما يُنسب إلى عائلة واربرتون (Warburton)، والآخر إلى عائلة الدكتور مارتن كلارك (Dr. Martin clark)، وكان أحد أفرادها وزيراً في الحيشة. وكلا الشاين هنديّ قحّ، ولكنه معروف باسمه الإنجليزي، لأن الإنجليز ربّوه وسَمّوه باسم إنجليزي.

كما أرى أن هؤلاء الكتاب الغربيين لم يقدّموا دليلاً كافياً على كون موسى اسماً مصري الأصل، ولا على أنه ليس اسماً عبرانياً. إنهم يستدلون بأسماء مصرية يتكون أحد جزئها من لفظ (موسى)، ولكننا نجد علماء الألسنة مختلفين في ذلك، إذ ليس منهم واحدٌ ذكر بأن نُطْق كلمة (موسى) المصرية هو مثل نطق كلمة (موسى) بالعبرية، وإنما قرأها بعضهم (موسى)، وبعضهم (ميس)، وبعضهم (ميسو)، ومعناها الطفل، وتُستخدم منفردةً حيناً ومتصلةً باسم آخر حيناً آخر. فقد وردت في الأسماء الملكية المصرية التالية: (تحتس، أحمس، رعميسو). وكما هو ظاهر، فهناك بون شاسع بين نطق هذه الأسماء ونطق كلمة موسى.

بالإضافة إلى ذلك قد ورد في الكتاب المقدس أن ابنة فرعون نادت الطفل باسم (موسى) قائلة: "لأنني انتشلته من الماء". ولكن ليس في اللغة المصرية كلمة موسى أو مشابهة لها تعني معنى الانتشال من الماء. بينما توجد في العبرية كلمة تعطي معنى مشابهاً للانتشال من الماء، وهي كلمة (موشي) التي تتركب من مقطعين: (مو) ومعناه ماء، و(شي) ومعناه شيء. والمعروف أن العبرية والعربية

لغتانٍ متشابهتان، ولو حولنا هذه الكلمة إلى العربية صارت كآلآتي: ماء شيء. والماء يسمى "مو" في العربية المشوهة، ولا بد أن من ذهب للحج هنالك قد سمع هذه الكلمة هنالك، إذ يقول الواحد للآخر هنالك: "مو شَي فيه"، أي: هل شيء من الماء فيه. والحق أن العبرية صورة مشوهة من العربية، وعليه فتعني كلمة (موشي) بالعبرية: شيء مائي، أي الولد المنتشل من الماء، وانقلبت موشي في العربية إلى موسى، كما هو الحال في كلمتي (عيسى وإسماعيل)، فأصلهما العبري (يشوع ويشمائل). وهذه قرينة قوية على أن اسم موسى عبراني الأصل، وأن رواية الكتاب المقدس في هذا الصدد ضعيفة.

ثم إنه من غير المعقول أن يمكث الطفل عند أمّه كل هذه السنين ومع ذلك لا تسمّيه باسم من عندها. أرى أن أم موسى عليه السلام عندما أحضرته من بيت عائلة فرعون لكي ترضعه سمّته (موشي)، وذلك نظرًا لنجاته من الغرق في الماء، ليذكرها هذا الاسم دائمًا بالمعجزة الإلهية التي وقعت لها. ويبدو أنها حين عادت به إلى بيت فرعون أخبرتهم باسمه هذا مبينةً لهم سبب هذه التسمية، فأعجبهم الاسم وقالوا سنناديه بهذا الاسم.

أرى أن هذا هو البيان الأقرب إلى الواقع والصواب، لأنه أولاً: ليس في اللغة المصرية كلمة مثل موشي. بمعنى (ما انتشل من الماء)، وثانياً: من غير المنطقي أن يبقى الطفل بدون أي اسمٍ إلى كل تلك السنوات.

ثم إذا ألقينا نظرة على اللغة العربية وجدنا أن لفظ موسى يعني بالعربية: المقطوع، وفيه إشارة إلى أنه فصلَ من أسرته وتربى عند آل فرعون. أما لفظ "موشي" العبري فيعني في العربية الشيء المنتشل، حيث يقال: أوشى الشيء: استخرجه. واسم الفاعل منه هو "موشي"، واسم المفعول هو "موشى"، وعليه فالمراد من موشى: المنتشل. وهذا المعنى يطابق قول بنت فرعون الوارد في الكتاب المقدس (لأني انتشلته من الماء).

فعندي أن لفظ موسى كان في الأصل مُوشى، وتُطق في العبرية مَوْشَى، ومعناه الأصلي: من انتشل أو استخرج.

وأقول في الأخير: العجيب أن هؤلاء الباحثين المعاصرين يريدون من ناحية إثبات أن بني إسرائيل لم يذهبوا إلى مصر ولم يخرجوا منها أصلاً، ومن ناحية أخرى يقولون إن بني إسرائيل ذهبوا إلى مصر، وأن كبيرهم موسى (عليه السلام) كان مصري الأصل، وأن دينه كان ديناً مصرياً. يمكن أن يدرك الإنسان بهذا التعارض مدى ضعف أساس أقوالهم. لا شك أنهم قاموا ببعض البحوث الجيدة فعلاً، ولكن شوقهم إلى تعميم النتيجة التي يتوصلون إليها في مسألة ما على سائر المسائل هو ما أفسدهم وأوقعهم في العثار. ومثلهم كمثل الذي يصنع إناء من الطين، ثم يتباهى بأنه قد صنع العالم كله! إن صنع الإناء عمل جيد، ولكن هذا لا يعني أنه صار بذلك صانعاً للعالم كله. ولو أن هؤلاء لم يقعوا في سوء الفهم هذا لكان لبحوثهم وزن أكبر كثيراً.

دليلهم الثاني:

قالوا: إن فكرة التوحيد مصرية الأصل، ولأن موسى (عليه السلام) نشرها في قومه، فثبت أنه كان مصري الأصل.

والجواب، أولاً: إن الظن بأن فكرة ما لا يمكن أن تنشأ إلا في ذهن شعب واحد فقط ظنٌّ باطل ومناف للعقل، وإلا فلا بد من التسليم بأن كل هذا الرقي العلمي في العالم لم ينشأ إلا في رؤوس خمسة أو ستة من الناس، وأن الآخرين أخذوا عنهم. وهذا باطل بالبدهة. فما زال عديد من الناس في شتى مناطق العالم يُعملون فكرهم لوحدهم فيما حولهم من الأشياء والأحداث، وتوصلوا إلى نتائج، وكانت أفكارٌ ماثٍ منهم متوافقة ومترادفة مع كونهم من مختلف أقطار العالم. كانت فكرتهم الأساسية واحدة بشيء من التنوع الذي يحصل بسبب اختلاف البيئات في مختلف الأمصار. أما قضية التوحيد فلا يمكن القول بشأها تحديداً أنها نشأت في قلوب أهل قطر واحد. فقد شاهدنا أن هناك

قضايا علمية متفرعة كثيرة قد قام العلماء بالبحوث فيها في وقت واحد وفي بلاد مختلفة منفردين دون أن يرى أحدهم ما يقوم به غيره، ومع ذلك توصلوا إلى نتائج مماثلة؛ ولم يقل أحد أن هذا سرق نتائج الآخر، بل قالوا إنها ظاهرة توارد الأفكار. خذوا اللاسلكي مثلاً، فكان عديد من العلماء يقومون بالبحوث بشأنه في وقت واحد بالإضافة إلى "ماركوبي"، فتمكنوا بصورة منفردة من الوصول إلى حقائق شتى. لذا فلا يصح القول أبداً أن فكرة التوحيد نشأت عند المصريين فقط، ولا يمكن أن تنشأ عند غيرهم، ولأن موسى نشر التوحيد، فكان مصرياً.

حتى ولو سلمنا جدلاً بصحة قولهم هذا، فلا يعني ذلك أن موسى ﷺ كان مصرياً. فهل من السنن الكونية أن الفكرة المصرية لا ينشرها إلا المصري؟ وأن من المحال أن يقبلها إسرائيلي وينشرها؟ إذا كانت فكرة التوحيد مصرية الأصل، فهل من المستحيل أن يعجب بها شخص إسرائيلي، كموسى مثلاً، وينشرها في قومه؟

إن ردودي هذه لا تمثل إلا نقداً علمياً محضاً، وإلاً فالواقع أن موسى ﷺ لم يدّع قط أنه المخترع لفكرة التوحيد، كما لا يقول الإسلام أن موسى مخترعها. بل إن كل الأديان متفقة على أن الأنبياء لا ينشرون أفكارهم، وإنما ينشرون وحي الله تعالى، وأن فكرة التوحيد قد جاءت إلى الدنيا بوحي الله منذ بداية العالم. فما دام الله تعالى واحداً، ولم يزل منذ البداية ينزل وحيه، فمن البديهي أنه سيقول لكل نبي بأنه واحد، ومن المحال أن يوحي لأنبيائه السابقين بتعدد الآلهة، ثم يقول لأخناتون المصري إنني واحد أحد. لقد وقع هؤلاء الباحثون في هذه الخدعة نتيجة عدم فهمهم للوحي وحقيقته. الحق أن أساس الدين هو الوحي، وإذا لم يكن هنالك وحي إلهي فليس الدين إلا وهم وهراء، وفي هذه الحالة يصبح موسى بلا قيمة، سواء أكان من المصريين أو من بني إسرائيل أو من غيرهم. إنما تكمن عظمة موسى ﷺ وأهميته فيما نزل عليه من وحي الله تعالى، وإذا سلمنا بالوحي الإلهي فلا بد من الاعتراف أن التوحيد

كان العنصر الأعظم من تعاليم الأنبياء أجمعين، وما كان الله تعالى لينتظر ظهور أمحنوتب (أحناتون) لإظهار وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى.

نجد القرآن الكريم يقول باستمرار لأهل مكة إن جدكم إبراهيم كان موحداً، ولا شك أن إبراهيم كان قبل موسى عليهما السلام، ورغم أن أهل مكة كانوا مشركين، لكنهم لم يجرؤوا على إنكار ما قال لهم القرآن الكريم، حيث لا نجد في التاريخ واقعة واحدة قالوا فيها -ولو كذباً- أن إبراهيم كان مشركاً مثلهم. وهذه شهادة تاريخية على أن قريشاً -الذين كانوا يعيشون بعيداً عن بني إسرائيل وكانوا يعدّون أنفسهم من نسل إبراهيم- هم الآخرون كانوا يقرّون بأن إبراهيم عليه السلام كان من الموحدين. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: إذا كان موسى عليه السلام قد تعلّم التوحيد من أمحنوتب المصري، فمن علّم إبراهيم التوحيد؟ هل تعلّمه من المصريين؟ كان أهل مكة مشركين، وكان من صالحهم أن يدّعوا أن إبراهيم كان من المشركين، ولكنهم لم ينكروا كونه من الموحدين. فادّعاء هؤلاء الباحثين أن التوحيد بدأ من أمحنوتب المصري باطلٌ تماماً. إن التاريخ لمختلف الشعوب يؤكد بأن فكرة التوحيد كانت موجودة منذ الزمن السحيق، لأن الوحي الإلهي قد حفظ فكرة التوحيد حيّةً وقائمةً في كل أنحاء الدنيا. التوحيد لم يتولد من الشرك، بل قد تولدت أفكار الشرك بعد التوحيد في زمن الضلال والانحطاط.

دليلهم الثالث:

قالوا إن عادة الختان مصرية، ولما كان موسى يُعلّم بني إسرائيل الختان فثبت أنه كان مصرياً.

الجواب: أولاً: إن هذا الاستدلال باطل، لأننا لو افترضنا أن الختان لم يكن إلا في مصر وحدها، فلم لا نقول إن بني إسرائيل قد أخذوه تأثراً بالحيط المصري أيام إقامتهم الطويلة في مصر؟

وثانيا: من الخطأ القول أن الختان كان شائعاً عند المصريين وحدهم. يقول الكتاب المقدس إن الله تعالى شرع الختان لإبراهيم -الذي مضى قبل موسى بعدة قرون- فقام بختان نفسه وأوصى به ذريته، بل ختن ابنه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام. والدليل على صحة ما جاء في الكتاب المقدس هو أن الختان كان شائعاً لدى العرب الذين لم يكونوا على علاقات اجتماعية جيدة مع بني إسرائيل، والذين لم يذهبوا إلى مصر قط، والذين تقول روايتهم إن عادة الختان جاءتهم بواسطة جدهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. يمكن هؤلاء الكتاب أن يقولوا بشأن ما يقوله الكتاب المقدس بهذا الصدد أن موسى المصري علّم بني إسرائيل الختان، فنسبوا عادة الختان إلى جدهم إبراهيم، ولكن ماذا سيقول هؤلاء الكتاب عما يقوله العرب الذين لم يكن لهم في تاريخ بني إسرائيل رغبة، ولم يكن في قلوبهم تجاه موسى تعاطف، بل كانت بينهم وبين بني إسرائيل عداوة لكونهم من نسل إسحاق الذي كان أخاً لإسماعيل من أم أخرى. ففي وجود الختان في العرب وعزّوهم إياه إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دلالة بيّنة على أن هذه العادة جاءتهم بواسطة إبراهيم عليه السلام، وعلى أن الباحثين القائلين بأن موسى عليه السلام كان مصري الأصل قد أخطأوا خطأ فادحاً في واقع الأمر.

لم يزل الختان موجوداً عند العرب منذ زمن طويل، وقد شهد على ذلك المؤرخ "فلاس تارجى ايس" ٣٤٢ ق.م (الموسوعة اليهودية ج ٤ ص ٩٧)، إلا أن الشهادة الكبرى هي الشهادة القومية للعرب، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

كما ورد في الموسوعة اليهودية أن الختان كان ولا يزال موجوداً في شعوب أخرى، بالإضافة إلى المسلمين واليهود، مثل نصارى الحبشة والقبائل الإفريقية الوحشية التي عدد المختنين فيها أكثر من الذين لا يختنون. وكذلك كانت قبائل أستراليا القديمة تقوم بالختان، مع أنها لم تربطها بمصر صلة.

(Tribes of Central Australia by Spencer & Gellen)

كذلك كان الختان موجوداً في سكان القارة الأمريكية كلها (الموسوعة اليهودية، ج ٤ ص ٩٧).

لقد ثبت من هنا أن القول بأن الختان كان عند المصريين فقط قولٌ باطل. فما دام الختان شائعاً في معظم القبائل الأفريقية وقبائل أستراليا وقبائل شمال وجنوب ووسط القارة الأمريكية، وفي العرب أيضاً، فما المانع من القول أن عادة الختان كانت موجودة في بني إسرائيل أيضاً؟

إن أقدم ثبوت للختان في مصر هو في الجثة المخططة للملك المصري (أمنحوب Amen-en-heb) ١٦١٤ - ١٥٥٥ ق.م (الموسوعة اليهودية، ج 4 ص ٩٧، نقلاً عن archivfur anther ص ١٢٣)، وهو زمن ما بعد هجرة يوسف عليه السلام وأسْرته إلى مصر. وهذا يدل على أن أقدم ثبوت للختان في مصر كان قبل موسى عليه السلام بقرنين فقط. وليس صعباً أن نستنتج من ذلك أن يوسف عليه السلام لما كان مقرباً لدى الملوك المصريين، فبدأ الملوك وحاشيتهم من عليّة القوم يختنون بتوجيه من يوسف عليه السلام. ويرى علماء الآثار المصرية أيضاً أن الختان كان شائعاً بين الملوك وكهنة المعابد عموماً.

دليلهم الرابع:

قالوا: إن دين أمنحوتب لا يذكر البعث بعد الموت، وكذلك لا ذكر للبعث بعد الموت في دين موسى، فثبت أن موسى مصري.

هناك عيان كبيران في هذا الدليل: أولهما: أن دين أمنحوتب ليس معروفاً كله، فلم يترك كتاباً، وإن ترك فهو غير موجود، ولم يترك وراءه جماعة من أتباعه حتى نعرف الحقيقة من أقوالهم، فكيف يُجزم بأن دينه لم يعلم عقيدة البعث بعد الموت؟ فزعمهم هذا غير معقول.

والثاني: لم يُثبت هؤلاء الباحثون أن تعاليم موسى عليه السلام خالية من ذكر البعث بعد الموت. والحق أن تعاليم موسى والأنبياء التابعين له تذكر الحياة بعد الموت. ونورد فيما يلي قولين لموسى وداود عليهما السلام:

ورد في الكتاب المقدس أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: {وَمَتَّ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَأَنْضَمَّ إِلَى قَوْمِكَ، كَمَا مَاتَ هَارُونُ أَخُوكَ فِي جَبَلٍ هُوَرٍ وَضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ} (التثنية ٣٢: ٥٠).

ويقول داود عليه السلام لربه: {نَجَّ نَفْسِي مِنَ الشَّرِيرِ بِسَيْفِكَ، مِنْ النَّاسِ بِيَدِكَ يَا رَبُّ، مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا. نَصِييُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ. بِذَخَائِرِكَ تَمَلُّ بِطُونُهُمْ. يَشْبَعُونَ أَوْلَادًا وَيَتْرَكُونَ فُضَالَتَهُمْ لِأَطْفَالِهِمْ. أَمَّا أَنَا فَبَالِرٌ أَنْظُرُ وَجْهَكَ. أَشْبَعُ إِذَا اسْتَيْقَظْتُ بِشَبْهِكَ}. {المزامير ١٧: ١٣-١٥}.

لقد ثبت من هنا بجلاء أن موسى عليه السلام كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وأن هذا الأمر موجود في الكتاب المقدس، كما أن داود عليه السلام كان يؤمن به، وجاء ذكره في المزامير.

لا جرم أن العهد القديم لم يذكر مسألة البعث بعد الموت بالقوة التي ذكرها دين زرادشت أو دين الإسلام أو دين الهندوس، ولكن سببه تكالب اليهود على الدنيا بشدة، فعندما اندرست التوراة بحوادث الدهر وجمعتها اليهود ثانية وجّهوا حلّ عنايتهم إلى جمع الأنبياء المتعلقة بالازدهار المادي، ولم يبالوا مطلقاً بجمع ما هو خارج من اهتمامهم هذا، فاخفت من كتبهم أمور كثيرة منها مسألة البعث بعد الموت، ومع ذلك يوجد ذكر البعث بعد الموت في التوراة وأسفار الأنبياء الأخرى حتى اليوم، كما أسلفت.

دليلهم الخامس:

قالوا: الخنزير حرام عند بني إسرائيل، وكذلك الحال عند المصريين. إن هذا الاستدلال راجع إلى عدم العلم. فليس صحيحاً أن المصريين كانوا يحرمون أكل لحم الخنزير. غاية ما نعرفه من التاريخ المصري القديم هو أنهم كانوا لا يأكلون لحمه كثيراً، ولكن هذا ليس دليلاً على تحريمه عندهم (موسوعة الكتاب المقدس، ج ٤ ص ٤٨٢٥، نقلاً عن كتاب "مصر" لإرمن "erman")

ص ٤٤١). بل الحق أن المصريين كانوا يربّون الخنازير في بعض المناطق، فقد ورد أنه كان في حظائر ريني (renni) الكاهن في معبد إلكاب (El-kab) ثلاثمائة خنزير. وقال هيرودتس: كان المصريون يقدّمون قرايين الخنازير باسم الإلهين ساليبي (Salene)، وديونيسس (Dionysus) أو أوزيريس (Osiris). وأنه توجد رسومات خنازير على قبر باهيري (Paheri)، الملك المصري من الأسرة الثامنة عشرة. (موسوعة الكتاب المقدس، ص ٤٨٢٥-٤٨٢٦).

وكذلك قال البروفيسور أدولف لودز (Adolphe Lodz) الأستاذ بجامعة السوربون في باريس: كان المصريون لا يأكلون لحم الخنزير عادة، ولكنهم في الليلة الرابعة عشرة من شهر معين كانوا يقدمون قرايين الخنزير في معابد (ساليبي وديونيسس)، وكان الكهنة يأكلون لحمه. (إسرائيل للبروفيسور لودز ص ٢٤٨).

فالقول أن موسى كان مصرياً لأنه نهي عن أكل لحم الخنزير قولٌ باطل، لأن لحم الخنزير لم يكن محرماً عند المصريين حرمة تامة، والذين كانوا يحرمون أكل لحمه إنما كانوا يحرمونه لقداسته عندهم لا لنجاسته، ومن أجل ذلك كانوا يقدّمون قرايينه في طقوسهم وفي معابدهم، وكان كهنتهم يأكلون لحمه.

والقول بتقديس المصريين للخنزير ليس قياساً مني، بل هذه هي الحقيقة التاريخية، حيث ورد في موسوعة الكتاب المقدس أن سكان آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا كانوا يعظمون الخنزير تعظيماً خاصاً. وكذلك قال البروفيسور لودز: كان الخنزير حيواناً مقدساً لدى الكثير من جيران بني إسرائيل، وكانوا يظنون أنه قد نزل عليه تقديس الرب. وكان الخنزير مقدساً عند أهل بابل بسبب الإله "نينيب" (ninib) وأيضاً عند السوريين بسبب الإله "تموز"، حتى سمّوا شهر تموز (خنزير) (إسرائيل للبروفيسور لودز ص ٢٤٨،

نقلاً عن Die keilinschriften und das Alte Testament, by

Heinrich Zimmern und Hugo Winkler

فهذه المراجع أيضاً تؤكد أن المصريين كانوا يتجنبون أكل لحم الخنزير تقديساً له، لا كراهة له. لكن اليهود كانوا يكرهونه باعتباره سيئاً ونجساً كما يذكر الكتاب المقدس، فالاستدلال من حرمة الخنزير عند المصريين على كون موسى مصرياً لا يصحّ على الإطلاق.

دليلهم السادس:

قالوا: يتبين من الكتاب المقدس أن موسى لم يكن يجيد النطق بلسان بني إسرائيل، وهذا دليل على كونه مصري الأصل.

إن عدم طلاقة لسان موسى أمرٌ صحيح إلى حد ما، ويقرّه الكتاب المقدس والقرآن الكريم، حيث ورد: {فَالآنَ هَلُمَّ فَأَرْسِلْكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَخُذْ مِنْ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ. فَقَالَ مُوسَىٰ لِلَّهِ: «مَنْ أَنَا حَتَّىٰ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَحَتَّىٰ أَخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟»} (الخروج ٣ : ١٠-١١)

ثم بعد عدة توجيهات إلهية لموسى ﷺ ورد: {فَقَالَ مُوسَىٰ لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلَامٍ مُنْذُ أُمْسٍ وَلَا أَوَّلٍ مِنْ أُمْسٍ، وَلَا مِنْ حِينٍ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفِئْمِ وَاللِّسَانِ». فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلْإِنْسَانِ فَمَا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَّا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَكَ فَمَكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ.»} (الخروج ٤ : ١٠-١٢).

وورد في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ (الشعراء: ١١-١٤).

يتبين مما ذكره الكتاب المقدس والقرآن الكريم أنه كان في لسان موسى ﷺ شيء من الثقل حتماً، لذلك تضرّع إلى ربه سبحانه وتعالى وقال: لا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولكن يتضح أيضاً من الكتاب المقدس والقرآن الكريم

كليهما أنه قدم هذا الاعتذار إلى الله تعالى حين أمره بالذهاب إلى فرعون وتبليغه الحق. والآن أمامنا خياران اثنان: فإما أن نفسر هذا الاعتذار بأنه كان في لسان موسى عليه السلام لكُنةً أو ضعفٌ في الأعصاب بحيث إذا تمحس في النقاش لم يستطع التعبير جيداً عما في نفسه، فكان يتلعثم عند نطق بعض الحروف والكلمات؛ وإما أن نفسر اعتذاره بأنه عليه السلام كان لا يحسن الكلام بلغة قوم أمر بتبليغ الحق لهم. فإذا أخذنا بالخيار الأول لبطل تماماً استدلالهم بأنه كان مصرياً؛ لأن كُنة اللسان أو غيرها ليست خصوصية للمصريين، بل يمكن وجود هذا العيب في أي قوم. وإذا أخذنا بالخيار الثاني لكان أيضاً دليلاً قاطعاً على أن موسى عليه السلام لم يكن مصري الأصل، إذ تُخبر التوراة والقرآن الكريم كلاهما أن موسى اعتذر بعدم انطلاق لسانه عند الكلام حين أمر بتبليغ الحق للمصريين. فهل من عاقل يصدّق أن موسى المصري الأصل عندما أمر بتبليغ الدعوة لفرعون المصري أخذ يعتذر بأنه لا يعلم اللغة المصرية؟ فما دام موسى مصري الأصل فكان يعلم لغة فرعون يقيناً. باختصار، لو فسرنا المراد من معذرتة عليه السلام أنه لا يعرف لغة من أمر بتبليغ الدعوة له فهذا يعني يقيناً أنه عليه السلام كان من بني إسرائيل. كان عليه السلام قد أمر بتبليغ الدعوة لفرعون، وكان لا يجيد لغة فرعون، فاعتذر وقال يا رب أنا لا أجيد لغة من تأمرني بتبليغ الدعوة له، أي أنا أجيد العبرية ولا أجيد المصرية لغة فرعون. فثبت أن استدلال هؤلاء الباحثين باطل وواهٍ وضعيف للغاية، ودليلٌ على قلة تدبرهم.

خلاصة القول إن موسى عليه السلام لم يكن مصري الأصل، بل كان إسرائيلياً كما تقول التوراة والقرآن الكريم، وأن زعم الباحثين المعاصرين بأنه عليه السلام كان مصري الأصل زعمٌ باطلٌ ومنافٍ للعقل تماماً. الواقع ليس هناك ما يدل على أن موسى عليه السلام لم يكن من بني إسرائيل، وهناك عشرات الأدلة على أنه كان إسرائيلياً، وقد ذكرنا بعضها آنفاً.

الكتاب

أما قول الله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، فيعني أننا أعطينا موسى على الجبل بعض الفرائض والوصايا، لأن من معاني الكتاب الفرض كما ذكرنا لدى شرح هذه الكلمة في قول الله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه).

لقد أثار القسيس (ويري) في تفسيره لهذه الآية اعتراضاً وقال: إن هذا مثال من الأمثلة العديدة الواردة في سورة البقرة التي تكشف عن جهل محمد ﷺ بتاريخ اليهود. يقول القرآن إن موسى أوتيَ التوراة على الجبل، مع أن التوراة تقول أنه أوتيَ هنالك الألواح فقط.

أرى أن القسيس (ويري) أولاً يُحسن الظن بالتوراة أكثر مما تستحقّه. وثانياً إنه يُكِنّ للقرآن عداوة شديدة لا يرى بعدها الحاجة للتدبر فيه، ويرى أن الاعتراض على القرآن الكريم كافٍ لنجاته في الآخرة.

الحق أن اعتبار (ويري) بيان الكتاب المقدس صحيحاً بدون أية شهادة خارجية أمرٌ يخالف المنطق السليم تماماً. فقد قدّم كتاب النصارى أنفسهم الأدلة على وجود تحريف أبواب وأبواب في الكتاب المقدس بحيث لا يمكن تصديقه اليوم في أي شيء بدون شهادة خارجية.

يقول القسيس (ويري) بأن الثابت من الكتاب المقدس أن موسى (عليه السلام) أوتيَ الألواح على جبل الطور، بينما يقول القرآن الكريم خلاف ذلك، فثبت أن القرآن باطل وأنه تأليف إنسان جاهل بالحقائق التاريخية - والعياذ بالله. لقد نسي القسيس (ويري) أن الباحثين الذين هم إخوانه في الدين، والذين أشرنا إليهم آنفاً، ينكرون وجود موسى أصلاً، وإذا كانوا يعترفون بوجوده فيقولون إنه كان مصري الأصل. وبعضهم ينكرون دخول بني إسرائيل إلى مصر، ناهيك عن خروجهم منها. بل إنهم ينكرون وجود جبل الطور الذي يقول عنه الكتاب

المقدس أن موسى تلقى هنالك الألواح، أما الذين اعترفوا منهم بوجود الطور فقد اختلفوا في تحديد موقعه بين مصر والشام وبلاد العرب. فرغم كون بيانات الكتاب المقدس مجروحة تاريخياً لهذه الدرجة، يقول هذا القسيس أن محمداً ﷺ بسبب جهله بالتاريخ اليهودي قال في القرآن الكريم ما يخالف الواقع. والحق أن قول القسيس هذا لا يدل إلا على جهله الفاضح بحقيقة الكتاب المقدس وبما نُشر عن هذا الكتاب من بحوث علمية جديدة بأقلام النصارى أنفسهم.

والدليل على ما يُكِنّه هذا القسيس من تعصب شديد ضد القرآن الكريم هو أن القرآن لم يذكر قط أن كل التوراة نزلت عند الطور، بل ذكر - كما تقول التوراة وكما يقرّ القسيس - أن ما نزل هنالك إنما كان بعض الأحكام والألواح. قال الله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

تبين هذه الآية أن الله تعالى أعطى موسى ﷺ الألواح عند الطور، ولكن لا يقول القرآن الكريم هنا، كما لا تدعي التوراة، أن موسى ﷺ لم يُعْطَ هنالك شيئاً آخر مع الألواح. فقول هذا القسيس أن "الكتاب المقدس يخبر أن موسى قد أعطى هنالك لوحين فقط فيهما عشر وصايا" قولٌ يثير العجب العجيب.

إن ما أعطى الله تعالى موسى على الجبل - في أثناء انشغال بني إسرائيل بعبادة العجل - مذكورٌ في سفر الخروج في الإصحاحات من ٢٠ إلى ٣١، ولا داعي لتسجيل كل هذه الإصحاحات هنا، وإنما نورد مضامينها بإيجاز شديد!

* في الإصحاح ٢٠ ذكرٌ للوصايا العشر التي أوتيها موسى ﷺ على الجبل.
* في الإصحاح ٢١ أحكام عن العبيد، وعن ثقب آذانهم، وعن الإماء، وعن جرائم القتل والغدر، وعن سبّ الوالدين، وعن القصاص في الجروح والإصابات من الإنسان والحيوان.

* في الإصحاح ٢٢ أحكام عن السرقة، إلحاق الخسائر بالغير، الودائع والأمانات، القرض، الزنا، السحر، جماع الحيوانات، عبادة الأصنام، الغرباء، الأراذل، الأيتام، الربا، الرهن، تعظيم الحاكم، أول الثمار والمحاصيل.

* في الإصحاح ٢٣ أحكام ووعود عن التهمة، شهادة الزور، العدل، النصح، التخلي عن الحقل صدقةً، السبت، عبادة الأصنام، الأعياد الثلاثة، دم وشحم الأضحية وإرسال الملائكة.

* في الإصحاح ٢٤ ذكر ذهاب موسى إلى الجبل ثانية.

* في الإصحاح ٢٥ توجيهات لبني إسرائيل عن أنواع النذور، هيئة تابوت العهد، صنع الغطاء والكرويين، المائدة وأوانيها، الشمعدان وأدواته.

* في الإصحاح ٢٦ ذكر لأستار الخيمة العشرة، الأستار الأحد عشرة المصنوعة من شعر مِعْزَى، غطاء لِلْخَيْمَةِ مِنْ جُلُودِ كِبَاشٍ، ألواح المسكن وما إلى ذلك، وغطاء الصندوق والأبواب.

* في الإصحاح ٢٧ تفاصيل عن مذبح المحرقات وأسبأها، فناء المسكن وأعمدته وأستاره وزيت السراج وغيرها.

* في الإصحاح ٢٨ تخصيص هارون وأبنائه للكهانة، أحكام ملابسهم المقدسة وهيئتهم وعمائمهم وقمصانهم المذهبة والأوريم والتَّمِيم.

* في الإصحاح ٢٩ تقديم المحرقات لتقديس الكهنة، وطقوس المحرقات، ووعد الله تعالى ببقائه بين بني إسرائيل.

* في الإصحاح ٣٠ ذكر لصنع مذبح للبخور، والفدية، الخوض، وصفات لصنع الزيت المقدس والبخور.

* في الإصحاح ٣١ توجيهات عامة وذكر تسَلُّم اللوحين.

فكيف نسي القسيس (ويري) كل هذه التعاليم التي أُعطيها موسى ﷺ على الطور والتي وردت في هذه الإصحاحات الاثني عشر. إن النصف من هذه الإصحاحات فقط تتضمن الوصايا العشر وذكر اللوحين، ومع ذلك يقول القس أن موسى ﷺ لم يُعطَ على الطور إلا الألواح، وأن قول القرآن الكريم

إن موسى عليه السلام قد أُوتِيَ على الطور شيئاً غير الألواح أيضاً يدل على جهل القرآن؟؟!

أما قول القسيس أن القرآن الكريم يقول بنزول التوراة كلها على موسى عند الطور فهو قولٌ بلا دليل، لأن كلمة (الكتاب) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ لا تعني الكتاب كله، بل تعني أيضاً بعض الكتاب. وقد أطلق القرآن الكريم اسم الكتاب على رسالة قصيرة أيضاً، حيث ورد أن سليمان عليه السلام كتب رسالة إلى ملكة سبأ وقال لرسوله: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٢٩-٣٢). فهنا أطلق القرآن الكريم اسم الكتاب على رسالة تتضمن بضع كلمات فقط. فاستنتاج القسيس من كلمة (الكتاب) أن المراد منها التوراة كلها ليس إلا دليلاً على اندفاعه للتهجُم على القرآن الكريم، ولو بقتل الحقيقة.

الفرقان

كتب القسّ (ويري) في تفسيره للقرآن الكريم نقلاً عن كتاب "القرآن، بالأردية المكتوبة بالحروف اللاتينية" -وهو تفسير مختصر للقرآن الكريم قام به أحد الكتّاب المسيحيين- أن كلمة الفرقان سوربة الأصل، ويبدو أن محمداً عليه السلام كان مطلعاً على تفسير الكتاب المقدس الذي أعده "أفرام السرياني"، والذي سُمي فيه الكتاب المقدس الفرقان مراراً!

ويرى القسّ (ويري) أن كلمة "الفرقان" سُرْيانية الأصل بلا شك، ولكنه لا يتفق مع قول هذا المفسر بأن محمداً عليه السلام كان مطلعاً على كتاب أحد النصاري السُريان أو العبريين، وحجة (ويري) هي أن القرآن يسرد الأحداث سرداً يختلف

عن أحداث تاريخ الكنيسة اختلافاً كبيراً، لذا فمصدر السرد القرآني سماعي فقط.

ومسألة اطلاع النبي ﷺ أو عدم اطلاعه على كتاب شخص نصراني سُرياني مسألة لا علاقة لها بموضوعنا هذا، ولا يقبلها عاقل. لقد ذهب الرسول ﷺ إلى الشام مع قافلة تجارية لبضعة أسابيع فقط، فالزعم أنه تمكن من تعلم اللغة السُريانية ودراسة كتبها زعمٌ لا يخطر إلا ببال مخبول، ولا يقبله عاقل. يمكن إخوانُ هذا القسيس الإنجليزُ في الهند زهاء أربعين سنة، ومع ذلك لا يستطيع قراءة كلمات اللغة الأردية إلاّ واحد بالألف منهم، ومعظمهم لا يستطيعون حتى التحدث بها. ورغم هذه التجارب والمشاهدات، فالقول بأن النبي ﷺ قد تمكن خلال بضعة أسابيع من تعلّم لغة السُريان بل الاطلاع على كتبها، فضلاً عن أعماله التجارية، دليلٌ على التعصب المتمكّن من قلوب الأقوام المسيحية ضد النبي محمد ﷺ.

أما قولهم أن الفرقان كلمة سريانية، فهو أيضاً يدل على جهلهم التام باللغة العربية. الغريب أن هؤلاء لا يعرفون بدائيات العربية ومع ذلك يجلسون لكتابة تفسير القرآن الكريم، وهو القمّة التي لا تُداني في كمال اللغة وفصاحتها وجمالها!

الحق أن الفرقان كلمة عربية الأصل، ولها مشتقات عديدة في كلام العرب، كما في قول الله تعالى المذكور قبل قليل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ (البقرة: ٥١)، وكذلك يوجد في العربية كلمات مثل: فَرَقَ، فَرَّقَ، فَرَّقَ، فَارَقَ، أَفْرَقَ، تَفَرَّقَ، تَفَارَقَ، انْفَرَقَ، افْتَرَقَ، فَارَوْقَ، فَرَأَى، فَرَّقَ، فَرُوقَ، فَرَقَان، فُرُقَ، فِرْقَ، فِرْقَ، فَرَّقَ، فَرِيقَ، فَرَقَاءُ، فِرْقَةٌ، فَرُوقُ، فَرِيقَةٌ، أَفْرَقُ، تَفَارِيقُ، مَفْرَقُ، مَفْرِقُ، مُفْرَقُ، مُنْفَرِقُ، وَمُفْرَقُ، وغيرها من اشتقاقها الكثيرة. فإذا كانت (الفرقان) سريانية الأصل، فمن أين أتت مشتقاقها هذه في العربية؟ وإذا كانت عربية الأصل، فكيف يصح مصدرها سريانيا؟

لو لم يكن وزن (الْفُرْقَان) موجوداً في العربية لأمكن اعتبارها غير عربية؛ ولكننا نجد وزن (فُعْلَان) شائعاً بكثرة في العربية، فمثلاً: سُبْحَانَ، وهو اسم يُستخدم لتنزيه الله تعالى؛ وقرآن، وهو اسم الوحي الذي نزل على محمد ﷺ؛ ونُعْمَان، وهو اسم إمام الفقه الشهير أبي حنيفة؛ وكُفْرَان، أي الكفر؛ وفُقْدَان، أي ضياع الشيء، وغيرها من الكلمات الكثيرة. فما دامت لكلمة الفرقان مشتقات كثيرة في العربية، وما دام وزنها عربياً، وما دامت توجد في العربية مئات الكلمات المماثلة لها، فمن زعم بعد ذلك أنها كلمة سريانية الأصل، فهو يدل على جهله المطبق.

غير أني سوف أقدم الآن دليلاً أكبر من ذلك على كون كلمة (الفرقان) عربية الأصل، وأن اللغة العربية هي الوحيدة التي استخدمت مادة الفرقان حق الاستخدام، وأنه إذا كانت اللغتان السريانية والعبرانية -وهما في الحقيقة مشتقتان من العربية- قد استخدمتاها، فليس في استخدامهما لها نفس هذه الحكمة والشأن كما هي في العربية.

وليكن معلوماً أن من خصائص العربية أنه ليست الكلمة فقط تدل على معنى خاص، بل إن الحروف الأصلية التي تُشتق منها الكلمة أيضاً تدل على معناها الأصلي الأساسي. فهناك ارتباط قوي بين معاني الكلمات المشتقة من حروف معينة، وإن تغير مكائدها، بل ويوجد هذا الارتباط في الحروف المشابهة لها. ويتضح هذا من الأمثلة التالية:

فكلمة الفرقان مثلاً المتألّفة من الحروف (ف ر ق) لها معناها الخاص بها، ولكن هناك حكمة وفلسفة توجد في هذه الكلمة وأيضاً في كل كلمة مشتقة من مادة (ف ر ق)، حيث تنطوي تلك الكلمات كلها على نفس المعنى أو ضده، لأن المخالفة في المعنى هي بمنزلة المشاركة السلبية، لأنه عند ذكر معنى من المعاني يتبادر إلى الذهن معناه المخالف تلقائياً. وهناك كثير من الكلمات في العربية تعطي المعنى وضده أيضاً، فمثلاً كلمة (الظن) تعني الشك واليقين أيضاً، وكلمة (الرجاء) تعني الأمل والخوف أيضاً، وتسمى مثل هذه الكلمات في

الاصطلاح (الأضداد). وقد ألف بعض اللغويين كتباً مستقلة في موضوع الأضداد في العربية، وجمع بعضهم في مؤلفاتهم كل ما ورد في القرآن الكريم من أضداد.

خذ مثلاً كلمة الفرقان المتكونة من حروف (ف ر ق)، فلو اشتقنا بتغيير ترتيب هذه الحروف كلماتٍ مختلفة لتضمنت كل واحدة منها المعنى الأساس الموجود في حروف (ف ر ق)، مثل فَرَّق، فَرَّقَ، رَفَّقَ، رَفَّقَ، قَفَّرَ، قَفَّرَ، فكل واحدة من هذه الكلمات لها معناها الخاص بها، ولكنها تشترك مع غيرها في المعنى الأساسي الموجود في حروف (ف ر ق) أيضاً، سواء كانت هذه المشاركة إيجابية أو سلبية.

فما دامت كلمة الفرقان موجودة في العربية، وتوجد فيها أيضاً كلمات مشابهة لها في مبناها ومعناها، فهي كلمة عربية يقينا ولا يصحّ أبداً القول أنها مستعارة من لغة أخرى، لأن الكلمة المستعارة تكون وحيدة، أما التي توجد جذورها في العربية فكيف يقال أنها مستعارة؟

وهذه المشاركة التي أشرت إليها آنفاً تسمى في الاصطلاح العربي "الاشتقاق الكبير". ونجد أن الاشتقاق الكبير يدل على كون كلمة الفرقان عربية، وإليك بيانه:

الفرق يعني الفصل والخوف، يقال فَرَّقَهُمَا أي أبعدهما عن الآخر، وفَرَّقَ أي خاف. والخوف يتضمن معنى البعد، لأن الإنسان إذا خاف شيئاً فَرَّ منه وابتعد عنه. والفرقان هي مصدرُ فَرَّقَ، حيث ورد في قاموس "أقرب الموارد" الذي قد وضعه عالم نصراي: فَرَّقَ يَفْرِقُ فَرَقًا وَفُرْقَانًا. أي أن الفرق والفرقان هما مصدر (فَرَّقَ).

والآن نتوجه، على ضوء الاشتقاق الكبير، إلى كلمات أخرى مشتقة من حروف (ف ر ق). فكلمة (فَقَّرَ) تعني عدم الغنى، وهي تتضمن معنى البعد أيضاً، لأن الفقير بعيد عن الأغنياء. والبعد يضادّه الوصل، وهذا المعنى أيضاً موجود في

حروف (فقر)، يقال: فَقَرَ حَبَاتِ العقد، أي ثقبها ونظمها ووصلها بالخيط. وكذلك تسمى فقرات الظهر العمود الفقري، لأنها موصولة كالعقد بخيط النخاع الشوكي، ويصل بعضها ببعض.

ثم قَرَفَ يعني فصلَ القشر عن الفاكهة وغيرها، ويقال قَرَفَ الجرحَ: أزال قشره. ومعنى البعد واضحٌ بينُ في هذين المثالين. ويقال قَرَفَ فلاناً: عابه، وغني عن البيان أن فعل العيب يؤدي إلى التفرقة والبُعد. ويقال قَرَفَ لعياله: كَسَبَ لهم، وقَرَفَ الشيء: خلطه، وقَارَفَ: قاربَ. وهذه الأفعال تفيد الوصل. وهكذا تجمع حروف (ق ر ف) بين معنيي الفصل والوصل.

ثم يقال قَفَرَ الأثر: تَبَعَهُ واقتفاه، وتَقَفَرَ أي جَمَعَ؛ وهذا يدل على الوصل. ويقال أَقْفَرَ المكانُ أي خلا. والقَفَرُ: الخلاء من الأرض الفاصل بين العمران. والقَفَار حَبْرٌ بدون إدام، يقال أَكَلَ حَبْرَهُ قَفَارًا. ويوجد في هذه الأمثلة معنى البعد.

و(الرَّفَق) تعني اللين، وهو دافع إلى الوصل والاجتماع. والرفق: الربط. والرفيق: الصاحب. والرفاقة: الصداقة. والمِرْفَق: الموصل بين الساعد والعضد. وكلها معانٍ تفيد القرب والوصل.

و(الرَّقْف) تعني الارتجاف، وسببه الخوف، وقد سبق ذكر (فَرَقَ) أي خاف. فكل الكلمات المؤلفة من حروف (ف ر ق) تفيد معنى الفصل أو الوصل. فمن ذا الذي يمكن أن يقول بعد معرفة هذه الحقيقة أن "الفرقان" كلمة أعجمية وليست عربية. بل الحق أنني أستطيع بناءً على الاشتقاق الكبير أيضا أن أثبت أن كلمة الفرقان ليست إلا عربية الأصل، أعني ليس هذا الاشتراك في المعنى مقصوراً على الكلمات المؤلفة من حروف (ف ر ق) فحسب، بل يوجد أيضًا في الكلمات القريبة منها في المَخرج، فمثلاً لو غَيَّرنا (ف ر ق) إلى (و ل ك) لحملتُ كثيرٌ من الكلمات المشتقة معانيَ قريبة من المعنى الموجود في حروف (ف

ر ق). ولكن كتابنا هذا ليس كتاب لغة بل هو تفسير، فلا أرى الخوض في مزيد من التفصيل مناسباً.

لقد بينتُ من قبل أن الفرقان تعني لغةً الفرق أو التمييز بين شيئين، أما معناها الاصطلاحي الإسلامي فقد اختلف فيه المفسرون. فنقل ابن جرير عن أبي العالية أن الفرقان ما فُرِقَ به بين الحق والباطل. ورؤي عن مجاهد أن معنى الفرقان الكتاب، ومعناه الفارق بين الحق والباطل. وعن ابن عباس أن الفرقان جماعُ اسمِ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وعن ابن زيد أن الفرقان قد أوتيَه محمد رسول الله ﷺ وأيضاً موسى ﷺ، حيث مَيَّز الله تعالى بين المشركين والمسلمين يوم بدر، ومَيَّز بين موسى وأعدائه في حادث البحر (تفسير ابن جرير).

ويقول العلامة القرطبي أن البعض قالوا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أن معناه أن الله تعالى أعطى موسى ﷺ التوراة، وأعطى محمداً ﷺ الفرقان، وحذفَ هنا اسم النبي ﷺ اختصاراً. ولكن هذا المعنى باطل بالبداهة.

ويضيف القرطبي بأن الذين فسروا الفرقان بالكتاب يقولون إن الفرقان توكيد للكتاب. وهذا قول الزجاج والفرّاء.

وفسر بعضهم الفرقان أن الله تعالى نَجَّاهم من المصيبة، أي أخرجهم من مصر. وقال ابن بحر أن معنى الفرقان الحجة والبرهان. وقال غيرهم أن الواو زائدة، والفرقان صفة للكتاب (تفسير القرطبي).

وملخص هذه الأقوال أن الفرقان تعني أصلاً التمييز بين الحق والباطل، ولكنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذي أعطاه الله موسى ﷺ تمييزاً بين الحق والباطل. وأرى أن اعتبار الكتاب والفرقان شيئاً واحداً لا يستقيم نظراً لما ورد في القرآن الكريم في مواضع أخرى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٩). وتبين هذه الآية أن الفرقان قد

أُوتِيَهُ كُلٌّ مِنْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْفَرْقَانِ التَّوْرَةُ.

قد وردت كلمة الفرقان في القرآن الكريم بالمعاني التالية:

١: القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)، أي أنزل فيه القرآن، وفيه هداية للناس وأدلة على الهدى، وبراهين ذات فرقانٍ أي مميزة بين الحق والباطل. فالقرآن الكريم مشتمل على الفرقان.

٢: النجاة من المصائب والمشاكل؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٣٠).

ويكشف التدبر في هذه الآيات أن معنى الفرقان في الحقيقة هو ما يميز بين الحق والباطل. فإذا كان الله تعالى قد وعد المؤمنين بالفرقان، فمعناه أنه سيمنحهم عند الشدائد ما يستطيعون به معرفة طريق الخلاص. وإذا كان موسى عليه السلام قد أُوتِيَ فرقاناً فمعناه أنه أُوتِيَ ما يستطيع به التمييز بين أصدقائه وأعدائه، وبين الحق والباطل. وإذا كان الرسول ﷺ قد أُوتِيَ فرقاناً فمعناه أنه أُوتِيَ ما يميز به هو وأتباعه بين الحق والباطل، ويستطيع به معارضوه معرفة الحق إن أرادوا. لذا فلا داعي لتضييق نطاق معاني الفرقان بيوم بدر أو نجاة بني إسرائيل من البحر فقط. لا شك أن غزوة بدر سميت فرقاناً، وكذلك نجاة بني إسرائيل من البحر سميت فرقاناً، ولكن ليس هذا فقط كل ما أُوتِيَهُ هذان النبيان الكريمان عليهما السلام، بل قد أُوتِيَ موسى عليه السلام عشرات المعجزات، وأُوتِيَ النبي ﷺ آلاف المعجزات أيضاً. فإذا سُمِّيَ القرآن الكريم معجزةً ما فرقاناً - كما سُمِّيَ وقعة بدر فرقاناً - سنفسر الفرقان هنالك بذلك المعنى الخاص، ولكنه إذا قال (فرقاناً) على إطلاقه فلا يصحّ تضييق معانيه.

الحق أن كل نبي يُعطى شريعة، سواء شريعة جديدة أنزلت عليه أو شريعة قديمة أنزلت على نبي سابق ويُؤمر باتباعها، وكذلك يعطى كل نبي فرقاناً،

أي آياتٍ تميز بين الحق والباطل. والحق أن هذا الفرقان هو الوسيلة الحقة لمعرفة صدقه. وبسبب جهل هذه الحقيقة قد كَذَّبَ الناس في كل زمن أنبياءَ صادقين، أو وقعوا صيداً في شرك الكذابين. إن صدق أنبياء الله تعالى لا يتأسس على أمر واحد، وإنما يُعطون عشرات البراهين التي تشكل في مجموعها شهادة قاطعة على صدقهم أو علو درجتهم. هناك من الناس من يحسبون أنفسهم مأمورين من الله تعالى نتيجة بضعة أحلام رأوها وإلهامات تلقوها، مع أنها قد تكون نتيجة تخيلات، أو أمراض، أو وسوسة نفس، أو من الشيطان، وربما كانت من الله الرحمن. علماً أن تحقق حلم أو إلهام لا يكون دليلاً على أنه من الله الرحمن حتماً، لأن بعض الأمور الخيالية والطبيعية قد تتحقق أيضاً، فإلهامات بعض أصحاب الطبائع الضعيفة لا تكون مزية لهم، ولكن وحي الأنبياء له شأن عظيم، ويكون ذا سعة عظيمة، ويغطي حاجات العصر ويكون علاجاً لمفاسد الزمن، وبالإضافة إلى وحيهم العظيم يمتازون حتى قبل دعواهم بحياة طاهرة. قال الله تعالى على لسان النبي ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٧)، أي قد يكون إلهام شخص باطلاً نتيجة ضعف عقله، ولكن من الصعب أن يُعزى الضعف العقلي إلى إنسان له هذا الشأن. لا شك أن الوحي الحق دليل في حد ذاته، وأن الحياة الطاهرة قبل الدعوى أيضاً دليل في حد ذاتها، ولكن اجتماع هذين الدليلين يشكل دليلاً ثالثاً عظيماً، وهذا هو الفرقان.

وقد ساق القرآن الكريم على صدق الرسول ﷺ دليلاً آخر أيضاً وقال: أفلا تنظرون إلى وجوه المؤمنين به ﷺ؟ أليسوا في حد ذاتهم دليلاً قوياً على صدقه؟ فالناس -عموماً- درجات وطبقات؛ فبعضهم سيئو الخلق، وبعضهم طمّاعون، وبعضهم جاهلون، وبعضهم سذج ينخدعون بسرعة، بينما يوجد بين المؤمنين بمحمد ﷺ من تبوءوا قبل الإيمان مكانة عالية بسبب عملهم وعلمهم وعقلهم، وإن إيمان هؤلاء يشكل في حد ذاته دليلاً عظيماً على صدقه ﷺ. فما الذي دعا هؤلاء الذين لم يكونوا متسرعين جاهلين وسيئين،

بل كانوا ذوي عقل ودهاء وحجة وعلم، وعطاء وبرّ بالفقراء، ومهارة عالية في مهنتهم وأعمالهم، أقول: ما الذي دعاهم لأن يجعلوا أنفسهم عرضة للإساءة والتحقيق من قومهم نتيجة اتّباعهم لإنسان إن لم تكن فيه الآيات الدالة على صدقه ﷺ؟

ومن آيات صدق الرسول ﷺ التي ذكرها الله تعالى هلاك أعدائه. إن هذا بحذ ذاته دليل عظيم، ولكنه إذا اجتمع مع الأدلة الثلاثة السابقة لشكّل دليلاً له شأنه العظيم.

كذلك من الأدلة على صدق الرسول ﷺ أنه قضى على المفاسد المنتشرة في زمنه، وأصلح الأخطاء العلمية والعقدية والعملية، وهذا بنفسه دليل قوي، ولكنه إذا أُضيف إلى الأدلة السابقة لصارت تلك الأدلة مجتمعة صرحاً شامخاً على صدقه ﷺ.

إننا نُقرُّ بأن بعض الإلهامات تكون طَبِيعِيَّةً وخياليَّةً، ونقرُّ أن بعضها تتحقّق أحياناً، ولكن من الصعب جداً أن نصدّق أن هذه الإلهامات الخياليَّة والطَبِيعِيَّة التي هي نتيجة لضعف عقلي أو أن هذه الإلهامات الشيطانيَّة التي هي نتيجة لضعف عقلي وخُلقي أيضاً، لم تجذّ سوى هذا الشخص الذي كان القوم كلهم يشهدون على طهارة حياته. وحتى لو سلّمنا جدلاً بهذا الأمر المتعذّر، فإنه من الأشدّ صعوبةً أن نقبل أن شخصاً صالحاً اختلّ عقله وادّعى أموراً غير معقولة، ومع ذلك صدّقه عقلاءُ قومه وفضلاؤهم الذين كان القوم يشهدون على رجاحة عقولهم، والذين عرفوه عن قرب. وحتى لو سلّمنا فرضاً بحصول هذا الخطأ أيضاً، فمن الأشدّ استحالةً أن نقبل بأن مثل هذا الشخص المخبول هو الذي قام بإصلاح الأفكار الخاطئة المنتشرة في زمنه؛ سواء من حيث العقيدة أو العلم أو العمل. إن الخصم المعارض يُقرُّ بأن محمداً ﷺ ادّعى تلقي الوحي السماوي؛ ويقرُّ بأن بعض وحيه ﷺ قد تحقّق ولو

مصادفة؛ ويُقرّ بأن حياة محمد ﷺ قبل دعواه كانت طاهرة تمام الطهر؛ ويُقرّ بأن المؤمنين به كانوا ممن يعرفونه عن كتب، وكانوا من المشهود لهم برجاحة العقل وسعة العلم وصالح العمل؛ ويُقرّ بأن هؤلاء المؤمنين بمحمد ﷺ قد انتصروا مصادفةً وأن أعداءهم انهزموا مصادفةً أيضاً؛ ويُقرّ بأن الشرك قبيح وأن محمداً ﷺ تمكّن من القضاء عليه؛ ويُقرّ بأن محمداً ﷺ قام بعشرات الإصلاحات العقدية التي كان بعضها صحيحاً عند فريق من المعارضين وبعضها صحيحاً عند الفريق الآخر منهم، فمن ذا الذي يستطيع القول بعد كل هذه الإقرارات مجتمعة بأن محمداً ﷺ كان مختلّ العقل أو واقعاً تحت تأثير الشيطان، والعياذ بالله. يمكن التشكيك في كل دليل على حدة، ويمكن أن ينظر إليه منفرداً عن غيره بأنه مصادفةً من المصادفات، ولكن من المحال أن تجتمع كل هذه الأدلة ومئات غيرها في إنسان مصادفةً. وإذا كانت هذه الدلائل مجتمعة محلّ شبهة؛ إذن فليس في الدنيا شيء يقيني وقطعي. وإن هذه المجموعة من الدلائل والبراهين هي الفرقان عندي. وقد أوتيَ هذه المجموعة من البراهين موسى، وداود، وعيسى، ونبينا محمدٌ عليهم الصلاة والسلام، وقد أوتيها اليوم مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه الصلاة والسلام.

يعترض المخالف دائماً على كل دليل بمفرده، وينسى أن الاعتراض ممكن على كل شيء. على المرء أن يرى كيف اجتمعت في المدّعي عشرات الأدلة المتنوعة. إذا توافرت مثل هذه المجموعة في أحدٍ أمكن الجزم بأنه قد أوتيَ فرقاناً، وأنه من الله تعالى، لأن هذا الفرقان يستحيل أن يُعطاه الكذاب.

بيد أن رسولنا محمداً ﷺ يمتاز عن سائر الأنبياء، ذلك أن هؤلاء قد أوتوا كتاباً وفرقاناً، ولكنه ﷺ قد أوتيَ الفرقانَ وأوتيَ الكتابَ الذي هو في حد

ذاته فرقان. كانت توراة موسى ﷺ بحاجة إلى معجزات أخرى لكي يتجلى صدقها، وكان وحي عيسى بن مريم ﷺ بحاجة إلى معجزات أخرى كي يتبين صدقه؛ والأمر نفسه ينطبق على كتاب الفيدا الهندوسي وكتاب الزند أفيستا الزرادشتي، ولكن الكتاب الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ فلا يحتاج إلى أدلة أخرى لبيان صدقه، لأنه في حد ذاته فرقان، أي كتابٌ حيٌّ، ولو أن الناس نسوا معجزاته ﷺ الأخرى فإن القرآن الكريم وحده يُثبت صدقه لما يحتوي عليه من أدلة وبراهين؛ ومن أجل ذلك سُمي فرقاناً. ليس بين الكتب السماوية السابقة كتاب أُوتيَ هذا الاسم، لأنها كلها بحاجة إلى أدلة أخرى لانجلاء صدقها، أما القرآن الكريم فهو في حد ذاته يحتوي على أدلة صدقه، ومن أجل ذلك وعد الله تعالى المؤمنين بالقرآن بقوله: ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، أي أن هذا الكتاب فرقان، فالذين يؤمنون به إيماناً كاملاً سَيُعْطُونَ فرقاناً من عند الله تعالى.

إن الفرقان دليل يبلغ من القوة والشمول بحيث إذا وعاه الإنسان وحاول على ضوئه معرفة صدق الأنبياء، لم يصعب عليه معرفة المأمور الرباني في زمنه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. اعلم أن (لعل) لا تفيد الشك هنا، وإنما هو من التعابير المَلَكِيَّة. إنه يفيد الشك عمومًا، ولكنه في كلام الملوك يفيد القطعية والحزم، حيث يقول الملك في أمره دائماً: إننا نأمل كذا من الشعب، والمراد أنه أمرٌ مَلَكِيٌّ للشعب، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أننا أعطينا موسى نعمة الكتاب والفرقان لكي يهتدي بها بنو إسرائيل، ولكنهم للأسف ما استفادوا من الكتاب ولا من الفرقان، ولم يقدروا نِعْمنا هذه حق قدرها كما مسحوا فطرتهم، فحرموا من النتيجة الطبيعية لهذه النعم، أي من الهداية.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٥)

شرح الكلمات:

بارئكم: برأ الله الخلق: خلَقهم. البارئُ: الخالقُ. (الأقرب)
اقتلوا: قَتَلَهُ: أَمَاتَهُ بضرب أو حجر أو سمٍّ أو عِلَّةٍ. قَتَلَ الجوعَ والبردَ: كَسَرَ شِدَّتَهُ. قَتَلَ اللهُ الإنسانَ وَقَاتَلَهُ: لَعَنَهُ (الأقرب).
﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قيل معناه: لِيَقْتُلَ بعضكم بعضاً. وقيل: عُنِيَ بِقَتْلِ النفسِ إِمَاتَةَ الشهواتِ، وعنه اسْتَعِيرَ على سبيلِ المبالغة: قَتَلْتُ الخمرَ بالماءِ: إِذَا مَزَجْتَهُ بِهِ، وَقَتَلْتُ فَلَانًا وَقَتَلْتُهُ: إِذَا ذَلَّلْتَهُ (المفردات).

وفي حديث السقيفة عندما اجتمع الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لانتخاب خليفة له، واختلف بعضهم ومنهم سعد، ف قيل فيه: قَتَلَ اللهُ سَعْدًا فَإِنَّهُ صَاحِبُ فِتْنَةٍ وَشَرٌّ: أَي دَفَعَ اللهُ شَرَّهُ. وفي رواية أن عمر رضي الله عنه قال يوم السقيفة: اقْتُلُوا سَعْدًا، قَتَلَهُ اللهُ! أَي اجْعَلُوهُ كَمَنْ قُتِلَ وَاحْسِبُوهُ فِي عِدَادِ مَنْ مَاتَ وَهَلَكَ، وَلَا تَعْتَدُوا بِمَشْهَدِهِ، وَلَا تَعْرِجُوا على قوله. وفي حديث عمر أيضاً: مَنْ دَعَا إِلَى إِمَارَةِ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتُلُوهُ، أَي اجْعَلُوهُ كَمَنْ قُتِلَ وَمَاتَ، بَلَاءً تَقْبَلُوا لَهُ قَوْلًا وَلَا تَقِيمُوا لَهُ دَعْوَةً. وكذلك الحديث الآخر: إِذَا بُوِيعَ لِخُلَفَائِهِ فَقَاتِلُوا الْأَخِيرَ مِنْهُمَا: أَي أَبْطَلُوا دَعْوَتَهُ وَاجْعَلُوهُ كَمَنْ قَدْ مَاتَ (اللسان).

فالقتل يعني التذليل والمقاطعة أيضاً، بالإضافة إلى معانيه المعروفة.

أنفسكم: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم).

تاب وتواب: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه..).

الرحيم: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الرحمن الرحيم).

التفسير: لقد بين الله تعالى في الآية السابقة أن بني إسرائيل عصوا الله تعالى في وقت كان الله يمين فيهم عليهم أعظم المنن، أما هنا فذكر الله تعالى أنه كان لا بد من إنزال العقوبة على أئمة الكفر منهم، لأن العفو التام عنهم على ارتكابهم جريمة الشرك في هذه المناسبة العظيمة كان سيشحجهم على المعاصي. فقال الله تعالى: يا بني إسرائيل، لقد ظلمتم أنفسكم بوقوعكم في الشرك ظلماً عظيماً، فتوبوا إلى بارئكم. والبارئ هو الخالق، ولكن هناك فرق بين الكلمتين، فبرأ يعني خَلَقَ بدون عيب أو نقص، حيث قال الزمخشري: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت (الكشاف). وأشاد برأيه العلامة أبو حيان -وهو من كبار علماء النحو واللغة ويُعدّ تفسيره (البحر المحيط) من أرقى التفاسير- وقال إن استدلال الزمخشري هذا حسنٌ ولطيف.

وقد قام الزمخشري بهذا الاستدلال بناءً على المعنى الأصلي للبرء، وهو الخلو من العيب والنقص.

وقال صاحب اللسان: الفرق بين الخلق والبرء أن الخلق يُستعمل لكل مخلوق، أما البرء فيُستعمل لذوي الأرواح عادةً، تقول العرب: خلق الله السماوات والأرض، وبرأ الله النَّسَمَةَ.

وكأن البرء يُستعمل لإيجاد مخلوق أكمل وأرقى.

وقد استعمل القرآن الكريم البرء لخلق المصائب أيضاً (الحديد: ٢٣)، لكن استعماله هذا كان بسبب المشاركة بين ذوي الأرواح وبين غيرها، إذ الحديث هنالك عن ذوي الأنفس والأرواح أصلاً، وإلا فإن البرء لا يجوز استخدامه لغير ذوي الأرواح، حيث قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ (الحشر: ٢٥). وقد جُمعت هنا هاتان الصفتان الإلهيتان، مما يدل على أنهما ليستا بمعنى واحد، بل هناك فرق بين معنهما. وعليه، فالله

تعالى بارئ. بمعنى أنه لا يخلق الخلقَ فقط، بل يخلقه مزوداً بأخلاق معينة وقوى متطورة قابلة للازدهار.

فكلمة البارئ في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ تمثل إشارة لطيفة لتفنيد الشرك الذي وقع فيه بنو إسرائيل، حيث نحتوا صنماً، والواضح أن الخالق أفضل من المخلوق، والناحت خير من المنحوت، والرسام أسمى من الرسم لأنه قادر على رسم مثله بل أفضل منه. فقوله تعالى ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ يعني أيها الحمقى، كيف تسجدون لما صنعتموه بأيديكم، وهو جماد تافه لا حياة فيه؛ أما الذي صنعكم مزودين بالحياة صناعة كاملةً فنسيتموه. إذا كانت الصنعة ذات قيمة، فإن الصانع أفضل منها قدرًا وقيمة، لأنه منبع الصنائع، فإذا كانت الصنعة الرائعة تعجبكم فيجب أن تتوجهوا إلى صانعها سبحانه وتعالى، وتتمسكوا بالتوحيد بدلاً من الشرك والوثنية.

فهذه الكلمات الثلاث: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ قد ألقى الله تعالى الضوء على موضوع التوبة وحقيقتها وعلى ضرورة التوبة إلى الله وحده إلقاءً وكأنه تعالى قد حصر البحر في إناء.

أما قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فقد سبق في شرح الكلمات أن القتل يعني القتل الظاهري، كما يعني الإعراض والمقاطعة أيضاً، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القتل هنا يعني قتل أهواء النفس. ولكن يتضح من الكتاب المقدس أن بعض أئمة الجريمة عوقبوا بالقتل. وحيث إن الله تعالى قد ذكر قبل هذه الآية أنه عفا عنهم عفواً عاماً، ثم ذكر هنا شناعة هذه الفعلة في تلك المناسبة ذكراً خاصاً، فيبدو من أن بعضهم قد عوقبوا بالقتل فعلاً. وقد ذكر الكتاب المقدس هذا الأمر، حيث ورد أن موسى عليه السلام قال لبني لاوي:

{هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ

صَاحِبُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبُهُ». فَفَعَلَ بَنُو لَأَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلٌ { (الخروج ٣٢: ٢٧-٢٨).

ثم ورد أن موسى ﷺ ابتهل إلى الله تعالى مسترحماً وقال: {«آه، قَدْ أَخْطَأَ هَذَا الشَّعْبُ خَطِيئَةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ دَهَبٍ. وَالْآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيئَتَهُمْ، وَإِلَّا فَاْمُحْنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ»} (المرجع السابق: ٣١-٣٢).

ثم ورد أن الله تعالى عفا عنهم كقوم، ولكن لم يعفُ عن أئمة الجرمين كأفراد، بل قال: سوف أحاسبهم يوم القيامة (المرجع السابق: ٣٤). لقد تبين من فقرات الكتاب المقدس هذه أن الجرمين عوقبوا بالقتل أولاً، ثم رفع الله تعالى العقوبة القومية عن بني إسرائيل رحمةً بهم نتيجة دعاء موسى ﷺ، أما عقاب كبار الجرمين يوم القيامة فلا يزال في انتظارهم.

هناك شيء من الاختلاف بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم بصدد هذه الواقعة، فالقرآن الكريم يقول إن العفو القومي كان أولاً، ثم نُفِذَت العقوبة على أئمة الجرمين، بينما يقول الكتاب المقدس أن العقاب نُفِذَ على قادة الجرمين أولاً، ثم صدر العفو القومي من الله تعالى. وفيما يتعلق بشهادة الوحي الإلهي، فلا بد أن يثق اليهود والنصارى بما ورد في كتابهم المقدس، وأن يثق المسلمون بما ورد في القرآن الكريم، وأما شهادة التاريخ فليس عندنا منها شيء حول الحادث سوى ما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس. وقد رأينا بشأن الاختلافات الأخرى بينهما أن شهادة التاريخ الحرة المتوفرة أيدت موقف القرآن الكريم وفندت موقف الكتاب المقدس دائماً؛ وعليه فلا بد من تقديم موقف القرآن الكريم في هذه القضية أيضاً على موقف الكتاب المقدس.

كما توجد هناك شهادة فطرية أيضاً على صحة موقف القرآن الكريم. الظاهر أنه حين يرتكب فريق من الشعب جريمة قومية تُتخذ ضد الجرمين خطوة جماعية، ثم لو أريد العفو تم العفو عن الشعب عامة، ثم يعاقب المحرضون وكبار الجرمين. ونظراً إلى هذا المبدأ الفطري والنفساني نجد موقف القرآن الكريم هو

الأقرب إلى الصواب، فعندما أخبرهم موسى عليه السلام بسخط الله على جريمتهم ندموا، وعندما ابتهل موسى عليه السلام إلى الله تعالى طمأنه بأن شعبه لن يهلك كله، ثم بعد ذلك تم الإعلان عن إنزال العقوبة بأئمة الكفر منهم.

أما رواية الكتاب المقدس فتقول أن الله تعالى أمر بقتل جميع الشعب، وبدأ تنفيذ الأمر، ثم لما ابتهل موسى عليه السلام إلى الله تعالى عفا عمن نجوا من القتل. وهذا الترتيب للأحداث غير طبيعي، وليس ذلك فقط بل هو ظلم أيضاً؛ وكأن بني إسرائيل بدأوا بقتل بعضهم بعضاً في اليوم الأول ما استطاعوا، ثم شمل العفو الآخرين بغض النظر عن كونهم من أئمة الكفر أم من الأبرياء! وكأن العقوبة نُفذت نظراً إلى الوقت والموعود وليس نظراً إلى حجم الجريمة، فقتل من قُتل، ونجا الباقيون أبرياء ومجرمين على السواء. مع أن العقوبة الصادرة بحسب قانون الشرع تكون بحجم شناعة الجرم دائماً، أما قوانين العقاب الطبيعي من كوارث طبيعية فلها قوانين مختلفة عن ذلك.

فثبت مما سبق أن موقف القرآن الكريم هو الصواب بحسب قانون العدل والإنصاف، حيث يخبر أن الذين وقعوا في الجريمة جهلاً أو رهبةً من الآخرين فقد استحقوا العفو، وأما أكابر المجرمين فعوقبوا.

وليكن معلوماً أن قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يعني أن انتحروا، بل المراد اقتلوا أفراداً معينين، أو زعماء الشرك من بينكم. فقد ورد تعبير مماثل في آيات أخرى، منها قول الله تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ (الآية: ٨٥)، حيث ﴿أنفسكم﴾ تعني إخوانكم، أي لا تخرجوا إخوانكم من ديارهم. وقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦)، أي لا يظلم بعضكم إخوانه في الأشهر الحرم. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦٢)، أي سلموا على أقاربكم وإخوانكم في هذه البيوت. فالمراد من ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: اقتلوا أئمة الجريمة من أقاربكم وأصدقائكم، كما جاء في الكتاب المقدس.

ويبدو أن الذين ثبت أنهم أئمة الجريمة قد صدر الأمر بأن يُقتلوا بأيدي أقربائهم وإخوانهم هم، وكان في هذا فائدتان: الأولى إيقاع العقوبة بالجرم قتلاً، وإيقاع العقوبة بالمنفذ بقتل صاحبه بيده ومشاهدة قتله بعينه؛ والثانية: أن نظام بني إسرائيل كان يقوم على القبائل، والعداوة بين القبائل تكون شديدة، فلو نفذت العقوبة على مجرم بيد شخص ليس من قبيلته لثارت العداوات والأحقاد على أشدها في بني إسرائيل، واشتغلوا بها ناسين جريمة المقتول، ولغلبت عليهم فكرة الثأر. فكان هذا الأمر الإلهي إصلاحاً لقلوبهم من خلال الشعور بالألم ونجاة لهم من الوقوع في المزيد من الفتن.

أما بنو إسرائيل فقد أمرهم الله بذلك لهذه الحكمة، ولربما عملوا به كرهاً، وأما الرسول ﷺ فإن أحد أصحابه تطوَّعَ بمثل هذه الخدمة، مما يدل على أن الذين عاشوا في صحبته ﷺ بلغوا ذروة مكارم الأخلاق. كان الرسول ﷺ قافلاً من غزوة بني المصطلق، فنزل على ماء. كانت هناك بئر واحدة، وكان الورد كثيراً، فتشاجر بعض القوم على الماء نتيجة الاستعجال، وتصادف أن بعضهم كانوا من الأنصار وبعضهم من المهاجرين، فانقسم القوم فجأةً ولا شعورياً إلى فريقين، فريق من الأنصار وفريق من المهاجرين. فانتهر رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول هذه الفرصة الساخنة وقال بكل قوة مؤلِّباً الأنصار: إنكم أنتم من أفسد هؤلاء بدلال زائد وإلا ما كانوا ليدلُّونا هكذا: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٩)، أي أن أعزَّ شخص في المدينة، يعني نفسه، سوف يطرد منها أذلَّ شخص فيها، يقصد النبي ﷺ والعياذ بالله. وهذا هو ما فهمه الصحابة من قول رئيس المنافقين هذا، ولعله كان يقصد أن الفريق الأعزَّ، أي الأنصار، سوف يطردون من المدينة الفريق الأذلَّ، أي المهاجرين. وأياً كان المعنى فالنتيجة واحدة. ومع أن الصحابة عندها كانوا في حماس وشجار، إلا أنهم ما إن سمعوا مقالته البغيضة هذه حتى عادوا إلى صوابهم، وفطن الأنصار فوراً أنهم في لحظة اختبار شديد لإيمانهم، فأنهوا الشجار على الفور وأفسحوا المجال للمهاجرين. ولم يُبدِ المهاجرون أي ردة فعل لأن

الشجار كان معهم وانتهى بهدوء الأنصار، ولكن أخذ الأنصار يتلاومون فيما بينهم بأننا لا نستحق العيش بعد ما صدر من ابن سلول. ولما بلغ الخبر ابن عبد الله بن سلول قرّر في نفسه أن أباه لا يستحق العيش بعد هذه الجريمة النكراء، فجاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هل بلغتك مقالة أبي؟ قال ﷺ: نعم. قال: يا رسول الله، هل له عقوبة غير القتل؟! فإن كنتَ آمراً بقتله فمُرني أضرب عنقه، لأني أخاف أن يقتله غيري فتثور نفسي وتوسوس لي: ها هو قاتل أبيك يمرّ من أمامك، فأقتل مؤمناً بكافر. (السيرة النبوية لابن هشام، غزوة بني المصطلق، موقف عبد الله الابن من أبيه).

لاحظوا النظر الثاقب للصحابه! فابن زعيم المنافقين ما كان يريد قتل أبيه بيده لإساءته إلى النبي ﷺ، إذ كان يعلم أن هذه الجريمة مهما كانت شنيعة فإن مرتكبها أبوه، وإنما أراد قتل أبيه بيده لكيلا ينشأ في قلبه بغضٌ نحو أخ مسلم. فكأن الحكمة التي وجّه الله إليها أنظار بني إسرائيل بالوحي الجليّ، قد علمها أصحاب الرسول بأنفسهم بالوحي الخفي، وذلك نتيجة نور إيمانهم، رضي الله عنهم ورضوا عنه!

أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، فإشارة إلى ما ذكرتُ آنفاً، أي أن إنزالكم العقوبة بأئمة الشرك خير لشعبكم، لأن قلوبكم قد بلغت من السوء والفساد بحيث لا يصلحها العفو وحده، بل لا بد من شيء من العقوبة. كما في قوله تعالى هذا إشارة أيضاً إلى أن قتل الأقارب بيد الأقارب، والأصدقاء بيد الأصدقاء خيرٌ لكم، لأن قتلهم بيد غيرهم سوف يثير بينكم سلسلة من الضغائن والأحقاد التي لن تنتهي؛ لأن دافع الانتقام عندكم شديد لا تخبو ناره.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن الله تعالى توجه إليكم بفضله ورحمته، أي تناسى جريمتكم بعد إيقاع هذه العقوبة، وما كان ليذكركم بها إن لم تكونوا قد ارتكبتم مزيداً من الجرائم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أي أن ما حدث لكم فيما بعد كان نتيجة معاصيكم المستمرة. كان الله تعالى قد عفا عنكم كلية رغم شناعة جريمتكم هذه، ولكن المؤسف أنكم لم تقدروا العفو الإلهي العظيم كما هو بين من الأحداث التي وقعت بعد ذلك.

لقد سبق أن بينت أنه قُتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من بني إسرائيل بحسب ما ورد في سفر الخروج بالكتاب المقدس، ولكن هذا مخالف للعقل تمامًا. إذا كان أئمة الشرك وحدهم ثلاثة آلاف، فلا بد أن يكون العدد الإجمالي لبني إسرائيل مئات الألوف. ولكن عددهم بهذا القدر في ذلك الوقت ليس ثابتًا بحسب التاريخ ولا يؤيده الواقع. ففي زمننا هذا الذي تيسرت فيه شتى وسائل السفر لا يستطيع مئات الآلاف بالتسهيلات المعاصرة عبور صحراء سيناء بسهولة، فكيف تمكن بنو إسرائيل من عبورها في ذلك العصر بوسائلهم البدائية مع نسائهم وأطفالهم وأمتعتهم؟ بحسب ما يتضح من القرآن، وطبقًا لشهادة العقل، لم يكن هؤلاء المهاجرون يتجاوزون بضعة آلاف. وربما قُتل بضعة أفراد من ثلاث قبائل، فبالغ كتابُ الكتب المقدس وجعلوهم ثلاثة آلاف.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٦)

شرح الكلمات:

جهرة: الجهرة: ما ظهر، ومنه: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، أي عيانًا غير مستتر (الأقرب).

الصاعقة: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق...) .

التفسير: من دأب المتعنتين أنهم عند عجزهم أمام الأدلة والبراهين يضعون شروطاً سخيفة لكي يتهربوا من مواجهة الحقيقة. ويوجد في أيامنا هذه أيضاً كثيرون إذا أثبت لهم وجود الله تعالى بالبراهين قالوا لن نؤمن به ما لم نره بأم أعيننا. ويبدو أن طائفة من بني إسرائيل طالبت موسى عليه السلام بمثل هذه المطالبة. ومع أن الكتاب المقدس ساكت عن ذلك، ولكنه أمر يطالب به معارضو الحق في كل عصر تقريباً، ولا يسع خصوم القرآن المجيد إنكار هذا الواقع. إن القرآن الكريم يدّعي كونه وحياً إلهياً، فليس ضرورياً أن يتقيد بما ذكره الكتاب المقدس فقط، ولا يضيف إليه جديداً.

وهناك تساؤل: عندما طالب بنو إسرائيل برؤية الله تعالى جهرةً نزل عليهم العذاب، ولكن عندما قال موسى لله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٤)، لم ينزل عليه غضب الله، لماذا؟

والجواب أن موسى عليه السلام طلب ذلك حباً وولهاً، أما بنو إسرائيل فطالبوا بذلك كشرط لطاعتهم، وقالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله عياناً، وهذه وقاحة وشر، ولذلك عوقبوا. ولو أنهم سألوا ذلك بعد قبول الحق كما فعل موسى عليه السلام ما نزل عليهم العقاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، والصاعقة هي العذاب لغةً، فقد ورد في لسان العرب: قيل الصاعقة العذاب. ويدل التأمل العميق في هذه الكلمة على أنها تطلق خاصةً على عذاب مصحوب بصوت شديد جداً، كعذاب الزلازل والرعود والعواصف. وأحياناً تعني الصاعقة الموت والإغماء، لأنهما مصاحبتان للكوارث عادة، ولكن المعنى الأصلي للكلمة هو ما ذكر. وقد استعملت الصاعقة في القرآن في أكثر الأحيان بمعنى العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٤). ثم بعد ذلك قام القرآن بتوضيح صاعقة عاد هذه وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ (فصلت: ١٧)، ووصف صاعقة ثمود وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾

(الأعراف: ٧٩)، أي زلزلة شديدة. فثبت من هنا أن الصاعقة في القرآن الكريم تعني العذاب، وهي تعني العذاب في الآية قيد التفسير أيضاً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٧)

شرح الكلمات:

بعثنا: بعثه يبعث بعثاً: أرسله. وبعثه: أثاره وهيجه. وبعثه على الشيء: حمّله على فعله. وبعث الله تعالى الموتى: أحياهم. والبعث: النشر (الأقرب).
فمعنى بعثناكم: نهضنا بكم.

موتكم: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت).

تشكرون: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون).

التفسير: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ يعني في ضوء الآية السابقة، أننا نهضنا بكم بعد ذلتكم وهوانكم وجعلناكم معززين مكرمين، ذلك أن قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يدلّ على أنهم لم يموتوا موتاً تنتهي فيه الحياة، بل ماتوا معنوياً.

لقد ذكرنا في شرح الكلمات أن للموت ستة معاني وهي: زوالُ القوة النامية الموجودة؛ زوالُ القوة الحاسة؛ زوالُ القوة العاقلة، أي الجهالة؛ الحياةُ المليئة بالآلام؛ النوم؛ ومفارقةُ الروح الجسد، ولا ينطبق منها هنا إلا زوالُ القوة العاقلة، أي الجهالة، والحياةُ المريرة المليئة بالآلام. فليس المراد أن الله تعالى أحياهم بعد أن ماتوا حقيقة، بل المراد: أننا أزلنا عنكم العذاب المذكور في الآية السابقة، وتوجّهنا إليكم بفضلنا ورحمتنا، وبدّلنا حالتكم المشاهدة للموت بسبب عذابنا إلى حياةٍ طيبة مادياً وروحياً.

لقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الموت هنا يعني مفارقة الروح للجسد بعض الوقت، ولكنهم أيضا لم يقصدوا به الموت الحقيقي، حيث كتب القرطبي عن المفسر المعروف قتادة: "ماتوا وذهبت أرواحهم، ثم رُدُّوا لاستيفاء آجالهم". وقد ذكر ابن كثير القول نفسه عن ربيع بن أنس. وهذا يدل بوضوح على أن قتادة لا يرى أنهم ماتوا موتا حقيقيا، لأن الموت الحقيقي يحلّ بالمرء بعد استيفائه أيام حياته، لأن مفارقة الروح قبل استيفاء أيام الحياة يعني مفارقة مؤقتة.

وقال غيره أن المراد من الموت توقُّفُ الحركة حيث ورد: "ماتوا موتَ هُمُودٍ يعتبر به الغيرُ ثم أُرسلوا" (القرطبي).

وقال البعض: معناه: "علمناكم من بعد جهلكم" (القرطبي)، أي: كانت روحانيتكم قد ماتت نتيجة سؤالكم الدال على جهلكم حيث طالبتكم أن تتروا الله جهرَةً، فنزل عليكم سخط الله تعالى، ثم عفا عنكم ووهبكم الهداية الروحانية، فعادت إليكم الحياة الروحانية من جديد. وهذا المعنى الأخير قريب جداً مما ذهبنا إليه.

ومن المفسرين من قال أن بني إسرائيل عوقبوا بهذا العذاب بسبب اتخاذهم العجل إلهًا، ولكن هذا خطأ، لأن الله تعالى ذكر هنا جريمة أخرى لهم بكلمات صريحة، وهي قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، كما أن العقوبة المذكورة هنا تختلف عن العقوبة التي نالوها عند عبادة العجل. فثبت أن الحادتين منفصلان مختلفان.

وليكن معلوماً أيضا أن قولهم لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ يشير إلى عدم طاعتهم لموسى وليس إلى عدم إيمانهم به، أعني أنهم قالوا له لن نطيعك حتى نرى الله عيانًا، وليس أننا لن نصدّقك أو لن نؤمن بك، فإنهم ما كانوا يشكّون في نبوة موسى عليه السلام، وإنما كانوا يرفضون طاعته ما لم ينالوا ما ناله من شرف الحديث الشفوي مع الله تعالى.

لقد سبق أن بينت أن الموت هنا لا يعني الموت الحقيقي. والحق أن اعتبار الموت هنا حقيقياً يماثل تفنيد كثير من آيات القرآن الكريم التي ترفض فكرة

رجوع الموتى الحقيقيين إلى هذه الدنيا، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠-١٠١). فهذه الآية تصرّح أن الذي يموت لا يرجع إلى هذا العالم، وأن الحياة التي توهب له بعد الموت ستكتمل في اليوم الذي يبدأ فيه الطّور الجديد من حياة الآخرة بعد البعث من الموت.

كما تَرُدُّ على هذه العودة المزعومة إلى هذه الدنيا اعتراضاتٌ منطقية عديدة، فمثلاً: لو أُعيدَ أحد إلى الحياة بعد الموت وأُرسِلَ إلى الدنيا لكان إيمانه عن اضطرار، لا عن طوعية، ولا قيمة لمثل هذا الإيمان، إذ لا بد للإيمان في هذه الدنيا من شيء من الخفاء، ومن أجل ذلك تنطوي معجزات الرسل على شيء من الخفاء والستر، مما يدفع البعض للاعتراض على معجزاتهم الواضحة البيّنة. لو كان أساس الأمور الإيمانية على تجارب كالتجارب العملية كما هو حال الأشياء المادية الأخرى لم يُعدَّ للإيمان بها مغزى، ولا اضطر الكافر والمؤمن لقبولها، ولضاعت الغاية من الإيمان. فرجوع الموتى إلى الدنيا يهدم الغرض من الإيمان، أو على الأقل لا يبقى لإيمان العائد إلى الدنيا مغزى وقيمة.

ولقد خطر هذا الأمر ببال بعض المفسرين القدامى أيضاً، فقال العلامة الماوردي: "واختلف في بقاء تكليف مَنْ أُعيدَ بعد موته ومُعَايِنَةِ الأحوال المُضْطَرَّةِ إلى المعرفة على قولين: أحدهما بقاء تكليفهم لثلاثين عاماً من تعبُّدٍ، والثاني سقوطُ تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار" (تفسير القرطبي)، أي أن التكليف مقصور على الاستدلال وإعمال العقل، وليس على الإيمان الاضطراري.

وهذا القول دليل على أن بعض المفسرين والعلماء القدامى أيضاً قد فكّروا بأن رجوع الموتى إلى هذه الدنيا يُبطل بعض أحكام الشرع الأخرى، فحاولوا دفع هذه الشبهة، ولكنهم فشلوا في ذلك كما هو ظاهر من أقوالهم غير المقنعة.

فالحق أن الموتى الحقيقيين لا يرجعون إلى هذه الدنيا أحياء، وأنه كلما ذكر القرآن الكريم إحياء الموتى أو رجوعهم إلى هذه الدنيا فلا يراد به إحياء مادياً حقيقياً، بل المراد إحياء موتى روحانيين أو شفاء مريض بدا كالميت، أو هوض قوم بعد انخراط وإدبار، أو تبدل حالتهم من الكفر إلى الإيمان، وما شابه ذلك من المعاني.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
(البقرة: ٥٨)

شرح الكلمات:

ظَلَّلْنَا: ظلله تظليلاً: غشيته وألقى عليه ظله. ظَلَّلْنَا عليكم الغمام: سخرناه لِيُظِلَّكُمْ (الأقرب).

الغمام: السحاب، وقيل الأبيض منه. وَسَمَّى السحاب بالغمام لأنه يُغْمُ السماءَ أي يسترها، جمعه الغمام (الأقرب)

المن: مصدرٌ من يَمُنُّ. مَنْ عَلَيْهِ بِالْعَتَقِ وَغَيْرِهِ يُمْنٌ مَّنًّا: أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَاصْطَنَعَ عِنْدَهُ صَنِيعَةً وَإِحْسَانًا. وَالْمَنُّ: كُلُّ مَا يُمْنُ اللَّهُ بِهِ مِمَّا لَا تَعَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ فَهُوَ الْمَنُّ؛ كُلُّ طَلٍّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى شَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَيَحُلُو وَيَنْعَقِدُ عَسلاً وَيَجِفُّ جَفَافاً الصَّمْغَ كَالسَّيْرِخُشْتِ وَالتَّرَنْجِبِينَ .
(الأقرب)

السَّلْوٰى: العسل؛ كُلُّ مَا سَلَّاكَ؛ طَائِرٌ أبيض مثل السُّمَانِيَّ وَاحْدَتُهُ سَلْوَاةٌ. وَقِيلَ السَّلْوٰى اللَّحْمُ، وَسَمَّى السَّلْوٰى لِأَنَّهُ يَسْلِي الْإِنْسَانَ عَنْ سَائِرِ الْآدَامِ (الأقرب).

السلوى: أصلها ما يسلي الإنسان... يقال: سليت عن كذا: إذا زال عنك محبته (المفردات).

الطيبات: جمع طيبة. طاب الشيء: لذّ وزكا وحسن وحلا وجلّ وجاد. والطيب: ذو الطيبة؛ وخلاف الخبيث؛ الحلال (الأقرب). أصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس. والطعام الطيب في الشرع: ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز (المفردات).

وما ظلمونا: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

التفسير: ورد في الكتاب المقدس: {وَمَتَّى ارْتَفَعَتِ السَّحَابَةُ عَنِ الْخِيَمَةِ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَرْتَحِلُونَ، وَفِي الْمَكَانِ حَيْثُ حَلَّتِ السَّحَابَةُ هُنَاكَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْزِلُونَ. حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَرْتَحِلُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَنْزِلُونَ. جَمِيعَ أَيَّامِ حُلُولِ السَّحَابَةِ عَلَى الْمَسْكَنِ كَانُوا يَنْزِلُونَ. وَإِذَا تَمَادَتِ السَّحَابَةُ عَلَى الْمَسْكَنِ أَيَّامًا كَثِيرَةً كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَةَ الرَّبِّ وَلَا يَرْتَحِلُونَ. وَإِذَا كَانَتِ السَّحَابَةُ أَيَّامًا قَلِيلَةً عَلَى الْمَسْكَنِ، فَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَنْزِلُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَرْتَحِلُونَ. وَإِذَا كَانَتِ السَّحَابَةُ مِنَ الْمَسَاءِ إِلَى الصَّبَاحِ، ثُمَّ ارْتَفَعَتِ السَّحَابَةُ فِي الصَّبَاحِ، كَانُوا يَرْتَحِلُونَ. أَوْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ ارْتَفَعَتِ السَّحَابَةُ كَانُوا يَرْتَحِلُونَ. أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً، مَتَى تَمَادَتِ السَّحَابَةُ عَلَى الْمَسْكَنِ حَالَةً عَلَيْهِ، كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْزِلُونَ وَلَا يَرْتَحِلُونَ. وَمَتَّى ارْتَفَعَتْ كَانُوا يَرْتَحِلُونَ} (العدد ٩: ١٧-٢٢، وانظر أيضا سفر الخروج ٤٠: ٣٤-٣٨).

يتبين من هذه الفقرات أنه حيثما كان على بني إسرائيل أن يحلوا كانت السُّحب تأتي وتُظِلُّ ذلك المكان، وكانت ترتفع عنهم يوم سفرهم. ولكن يبدو من كلمات القرآن الكريم أن المراد من ظلال الغمام هو المطر، لأن السحب الداكنة المظلمة ممطرة عموماً. فإما أن هذا البيان القرآني جاء تفنيدياً لما قاله

الكتاب المقدس، أو أنه يشير إلى واقعة أخرى لم يذكرها الكتاب المقدس. وعندني أن بيان القرآن الكريم هو تفنيد لبيان الكتاب المقدس، لأن وصف الأخير للسُّحب غير ضروري وغير معقول، فأَيُّ داع أن تحيط السحب ببني إسرائيل من أجل توجيههم إلى المكان المناسب لإقامتهم؟ إذ كان يكفي أن يوحى الله تعالى لموسى عليه السلام ويخبره بذلك.

لقد ذكر القرآن إلى جانب الغمام طعامين هما المن والسلوى، مما يدل على أن تلك الفيافي المجدبة كان الماء بها شحيحاً جداً، بالإضافة إلى قلة الطعام هنالك، فكان الله تعالى يطفئ عطشهم بالسحب الداكنة الممطرة، ويسدّ جوعهم بالمن والسلوى. ومن سنة الله المستمرة أن يَمُنَّ على عباده ببركات خاصة ليدرأ بها عنهم الأذى ويهيئ لهم أسباب الراحة. ولم يفعل الله تعالى هذا في الماضي فقط، بل يفعله اليوم أيضاً مع عباده الصالحين. فلا يصحّ أن يراد بظلال الغمام أن الله تعالى كان يأمر السحب للتحرك معهم لتظللهم دائماً حيثما حلّوا وارتحلوا، لأن ظلال السحب المستمرة نقمة لا نعمة. فالمراد من الآية أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في البراري وكانوا بحاجة إلى المأكل والمشرب، فكان الله تعالى يطر عليهم السحب، فكانوا يزيلون به ظمأهم ويسدّون حاجاتهم الأخرى.

لقد سبق أن ذكرت عند شرح الكلمات أن المن يعني لغةً: كلّ ما يجده المرء بدون تعب ولا نصب، أما اصطلاحاً فالمن هو شيء كالصمغ ينعقد على الشجر وطعمه حلو، أو هو الترنجبين. والترنجبين الذي يستعمل في الهند كدواء يكون مزيّفاً عادة، ولكن المنّ النقيّ يوجد في برية سيناء والشام وبعض مناطق العراق. فقبل أيام أحضر أحد الإخوة المنّ من العراق هديةً لي، وكان بنوعيه: المزيّف والنقيّ، والمزيّف منه كان مثل الترنجبين الهندي، أما النقيّ فكان يبدو كتُلة صغيرة من الأوراق. وأخبرني هذا الأخ أنه الطلّ المزوج بالنباتات الصغيرة التي تنبت على جذور الأشجار، ويخنيه الناس مع تلك الأوراق، ثم يغلونه في الماء فيفصلونه عن الأوراق، فتبقى الحلاوة التي يصنعون منها الحلوى

بإضافة المكسرات إليها من لوز وفستق وغيرهما، وهذا ما يفعله العرب. فقامت أنا بتصفيته، فخرج منه شيء داكن اللون يشبه العسل.

لقد ذكر المنّ في الكتاب المقدس كالاتي:

{وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدى حَوَالِي المَحَلَّةِ. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدى إِذَا عَلَى وَجْهِ البَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالجَلِيدِ عَلَى الأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ؟» لَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ الخُبْزُ الَّذِي أُعْطَاكُمْ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا.» { (الخروج ١٦: ١٣ إلى ١٥)

يظهر من هذه الفقرة أن ذلك الشيء سَقَطَ على الأرض، ولكن، كما قلتُ آنفًا، العرب وأهل الشام الذين يتوافر هذا الشيء في مناطقهم يشهدون على أنه شيء كالصمغ حلو الطعم يسقط على الشجر أو ينبت عليها. من الممكن أن المن الذي ينبت من جذور الشجر أو يسقط عليها لا يكون خليطاً من الأوراق، بل يكون قطعاً مصفاةً تنعقد هنا وهناك. غير أن ما رأيته من المن الموجود في العراق كان خليطاً مع الأوراق، ويُفصل عنها بالغليان.

لقد سبق في شرح معاني الكلمات أن المنّ ما يُنال بدون تعب ولا نصب، وعليه فيمكن إطلاق المن على كل الأشياء التي تنال بدون تعب. وورد في الحديث: "الكَمأة من المنّ الذي أُنزلَ على موسى" (مسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة). ويتضح من هنا أن المنّ ليس اسماً لشيء معين، بل يطلق على كل ما يصلح للأكل وينمو في البراري فوق الصخور والأشجار بدون جهد بشري. فالمنّ هو الكمأة والترنجيبين والأشن والنبق وغيرها من ثمار النباتات البرية التي تصلح غذاءً يسدّ الجوع. وتتوافر هذه الأشياء في البراري والصحاري حتى إن القوافل التي تمرّ بها تقطت منها لأسابيع أحياناً. ويبدو أن الله تعالى هياً لبني إسرائيل هذه الأشياء بكثرة في برية سيناء في سنوات هجرتهم، فأغناهم إلى حد كبير عن الحاجة إلى الخنطة والأرز وغيرهما.

أما السلوى فمنها أيضاً خاصّ وعامّ كالمنّ. فالعام منها كلّ ما يسليك، والخاص طيرٌ يشبه السّمان، والعسلُ أيضاً. وقد ورد ذكره في الكتاب المقدس كآلاتي: {فَخَرَجَتْ رِيحٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ وَسَاقَتْ سَلَوَى مِنَ الْبَحْرِ وَأَلْقَتْهَا عَلَى الْمَحَلَّةِ، نَحَوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَا وَمَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ هُنَاكَ، حَوَالِي الْمَحَلَّةِ، وَنَحَوَ ذِرَاعَيْنِ فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ. فَقَامَ الشَّعْبُ كُلُّ ذَلِكَ النَّهَارِ، وَكُلُّ اللَّيْلِ وَكُلُّ يَوْمٍ الْغَدِ وَجَمَعُوا السَّلَوَى. الَّذِي قَلَّ جَمَعَ عَشْرَةَ حَوَامِرَ. وَسَطَّحُوهَا لَهُمْ مَسَاطِحَ حَوَالِي الْمَحَلَّةِ. وَإِذْ كَانَ اللَّحْمُ بَعْدُ بَيْنَ أَسْنَانِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْقَطِعَ، حَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى الشَّعْبِ، وَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ ضَرْبَةً عَظِيمَةً جَدًّا. فَدُعِيَ اسْمُ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ «قَبْرُوتَ هَتَاوَةَ»، لِأَنَّهُمْ هُنَاكَ دَفَنُوا الْقَوْمَ الَّذِينَ اسْتَهَوْا.} (العدد ١١: ٣١-٣٤).

عاش بنو إسرائيل من قبل عبيداً تحت الفراعنة مدة طويلة، فأراد الله تعالى أن يعيشوا في البرية أحراراً لكي يزرع فيهم الجرأة والشجاعة. فبدلاً من أن يأخذهم إلى كنعان في وقت قصير تركهم في صحراء سيناء وما حولها من الأماكن مُدَّةً من الزمن، وهياً لهم هناك أغذية بدون جهد وتعب منهم، منها ما هو حلوّ، ومنها ما هو مالح، ومنها ما هو صلب، ومنها ما هو لين، ومنها ما يُطهى، ومنها ما يؤكل نيئاً، في تنوّعٍ يرضي شتى الأذواق، ويسدّ الجوع، ويغذي الجسم، ويحفظ الصحة تماماً. وسبق أن ذكرت أن المن يشمل الفواكه والكمأة والترنجبين وغيرها، وأن السلوى يشمل الطيور والعسل وكل ما يسلي القلب من الأغذية. فبالغمام هياً الله تعالى لبني إسرائيل الماء، وبالمنّ وفرّ لهم الغذاء من فواكه وخضار، وبالسلوى سد حاجتهم إلى اللحم.

وكلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ جديرة بالتأمل هنا. إن النزول يدلّ على الإعزاز والإكرام، أو توفير شيء في ظروف صعبة. فلا يعني الإنزال هنا أن الله تعالى أنزل لهم المن والسلوى من السماء، وإنما كان مما ينمو على الأرض، وقد استخدم له كلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لأنه تعالى هياًها لبني إسرائيل في ظروف غير عادية. فالذين يقعون بسبب كلمة (النزول) في أنواع الأخطاء في مسألة نزول المسيح المنتظر يجب

أن يتدبروا ويتنبهوا إلى هذه الأساليب القرآنية. فإذا جاز إطلاق كلمة النزول على المن والسلوى وهما من نتاج الأرض، فكيف لا يجوز استخدام النزول لمجيء المسيح المنتظر الذي خُلِقَ على الأرض؟ فكما أن إيجاد المن والسلوى في ظروف غير عادية سمي نزولا في المصطلح القرآني، كذلك فإن ظهور نفس ظاهرة مُصلِحَةٍ في عصر مشحون بأنواع الفسق والفجور يسمّى نزولاً في الاصطلاح الإلهي، وقد ورد للمسيح الموعود بالمعنى نفسه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يشير إلى أن هذه الأغذية بالغة الفائدة لكم في الظروف الراهنة، وسوف تسدّ كل حاجاتكم من طعام وشراب.

والطيب يعني اللذيذ، الطاهر، الحسن، الحلو، الممتاز، وعليه فمعنى هذه الجملة أن هذه الأشياء تكفل لكم لذة الطعم، وتساعد على إصلاح أخلاقكم، وهي أطعمة حسنة وحلوة في ظاهرها ورائعة في قيمتها ومنافعها، فكلوا منها، وتحلّوا بمحاسن الأخلاق، واستعدّوا للمهمّة الجليلة التي تنتظركم.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أن الطيبات التي أعطىها موسى عليه السلام وقومه من المن والسلوى هي الطيبات فقط، بل الحق أن أيّ كلمة، مدحاً كانت أو ذمّاً، تعطي معنى نسبياً؛ فالشيء الذي يكون مفيداً في وقت، أو لشخص، فإنه يكون ضاراً في وقت آخر أو لشخص آخر، والعكس صحيح أيضاً. فالأشياء التي أُعطيها بنو إسرائيل، وإن كانت طيبات بوجه عام، ولكنها كانت طيبات لهم بوجه خاص نظراً لظروفهم آنذاك، واستبدال أغذية أخرى بها ما كان ليحقّق الغرض الذي من أجله تركهم الله تعالى في برية سيناء.

وتوهّم فقرة الكتاب المقدس التي أوردناها سابقاً (العدد ١١: ٣١-٣٤) أن قدوم طير السماني كان بمنزلة عذاب لبني إسرائيل، لأن غضب الله نزل عليهم قبل أن يعضّغوا أول لقمة من لحمه. ولكن القرآن الكريم يقول خلاف ذلك، إذ يخبر أن هذه الطيور جاءت نعمة وإحساناً لهم. والحق أن ما يقوله القرآن الكريم

هو الصواب، لأن توفير الغذاء في البقاء، ثم إنزال العذاب بسبب جمعه وأكله يُعدُّ ظلمًا. فلو حذرهم الله تعالى من قبل وقال ستأتيكم طيور السمان فلا تأكلوها، لكان هناك مبرر لغضبه عليهم، أو لو كان أكل لحم السمان حرامًا على بني إسرائيل لاستحقوا العقاب بأكله؛ ولكن لم يكن عندهم أي حرمة لها. فإذا كانوا قد وجدوا شيئًا حلالاً وهموا بأكله - إذ يخبر الكتاب المقدس أن العذاب حلّ بهم قبل أن يأكلوه - فأبي مبرر للغضب والعذاب الذي ملأ تلك البرية بقبورهم؟ إنه لظلمٌ عظيم، والله ليس بظلام للعبيد.

والحق أن عبارات أخرى من الكتاب المقدس نفسه تنفي كون طيور السمان نقمةً، حيث ورد:

{فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. كُلَّمَهُمْ قَائِلًا: فِي الْعَشِيَّةِ تَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَفِي الصَّبَاحِ تَشْبَعُونَ خُبْزًا، وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ». فَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى صَعِدَتْ وَغَطَّتِ الْمَحَلَّةَ. وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدى حَوَالِي الْمَحَلَّةِ. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدى إِذَا عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ عَلَى الْأَرْضِ.} (الخروج ١٦: ١١-١٤).

لقد اتضح من هذه العبارة أن طيور السمان جاءت وفق بشارة الله تعالى، وأمر الله موسى عليه السلام أن يأكلوها نعمةً وفضلاً منه تعالى، وبأكلها سيعرفون أن الرب إلههم. وقد ذكرت نعمة السمان مع نعمة المن، ولم يُذكر المن في أي مكان في الكتاب المقدس إلا كنعمة لا كعذاب. فيبدو أن ما ورد في سفر العدد ١١ هو نموذج لحقق مفسر جاهلٍ من مفسري الكتاب المقدس حيث أدخل فيه أفكاره الخاطئة، وإلا فالحق ما ذكره القرآن الكريم، أي أن المن كان إنعامًا كما كان السلوى أيضاً إنعامًا.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فبين فيه أن بني إسرائيل لم يُقدِّروا نعمنا فاستحقوا عذابنا. كانوا يظنون بتنكرهم لنعمنا وكأنهم

قد أضربوا بنا، ولم يدركوا أنه يستحيل أن يضرنا أحد. فالذي يخالف أوامر الله تعالى لا يضر إلا نفسه، والذي يتنكر لنعمه إنما يغلق بيده أبواب النعم عليه.

وهذه الآفة الرهيبة تصيب دائماً من يؤمنون بالدين بلا وعي ولا فهم، وقد أصابت المسلمين في العصر الحاضر؛ فقد اعتبروا أحكام الدين من صلاة وصوم وحج وزكاة وتضحية أعباء وضرائب، وإن أدّوها ظنوا أنهم قد متوا عليه مئة عظيمة، وإن لم يؤدّوها حسبوا أنهم قد خدعوا الله تعالى أيما خدعة. مع أن الله تعالى غني عن كل شيء؛ لا تنفعه صلاة أحد ولا صومه ولا حجّه ولا زكاته ولا تضحيته، بل إنها كلها لمصلحتنا نحن، فمنها ما هو لإصلاح قلوبنا، ومنها ما هو لإصلاح فكرنا، ومنها ما هو لخير أجسامنا، ومنها ما هو صالح لإزدهار مدنيتنا، ومنها ما هو لترشيد سياستنا أو اقتصادنا. فالحري أن تفيض قلوبنا شكراً لله تعالى عند عملنا بهذه الأحكام؛ إذ هدانا الله تعالى إلى الصراط المستقيم، ودلّنا على طرق الفلاح والازدهار. إننا إن هلكنا ودُمّرنا لم يضر الله ذلك شيئاً، وإن نجونا لما نفعه تعالى ذلك شيئاً. فويل للجهل وتعساً له لأنه يسوق الإنسان إلى ما ينافي العقل والفتنة، ومع ذلك يندفع إليه اندفاعاً.

ويبدو من قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أن بني إسرائيل ارتكبوا بعض المعاصي بصدد المن والسلوى أيضاً. لقد تخطت الكتاب المقدس في ذكر السلوى تماماً كما أسلفت، وأما المن فذكر الكتاب المقدس عصيانهم بشأنه، حيث ورد أن موسى عليه السلام منعهم من ادّخار المن، ولكنهم ادّخروه نتيجة جشعهم الشديد. وكذلك منعهم من جمع المن يوم السبت، ولكنهم خرجوا يوم السبت لجمّعه، فلم يجذوه (الخروج ١٦ : ١٩-٢٩).

ويبدو أنهم وقعوا في مثل هذا العصيان بشأن السلوى أيضاً، فرموا من ادّخاره، ولكنهم ادّخروه. على كل حال، كل ما تشير إليه كلمات القرآن الكريم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هو أنهم وقعوا في عصيان ما بشأن السلوى حتماً، أو على الأقل كفروا بنعمة السلوى، إذ تذكر الآيات القرآنية القادمة كفرهم بهذه النعمة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٥٩)

شرح الكلمات:

القرية: الضيعة؛ المَصْرُ الجامع (أي المدينة الكبيرة)؛ وقيل: كل مكان اتصلت به الأبنية وأُتخذ قراراً؛ جمعُ الناس من قولهم: قرئتُ الماء في الحوض، إذا جمَعته فيه؛ وتقعُ على المدن وغيرها، وقيل: المدينة ما حولها سور بخلاف القرية (الأقرب).

رغدا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وَكُلَا مِنْهَا رَغدا حَيْثُ شِئْتُمَا).

الباب: المدخل؛ أو ما يُسَدُّ به المدخل (الأقرب).

سُجَّدًا: السُّجْدُ جمع الساجد. للمزيد راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ).

حِطَّةً: الاسم من استحطَّ فلاناً وزَرَه: سألَه أن يحطَّه عنه... و(حِطَّةً): خيرٌ لمبتدأ محذوف وتقديره: "أمرُك أو مسألتنا حِطَّةً" (الأقرب).

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا حِطَّةً﴾ أي: حُطُّ عنا ذُنُوبِنَا (المفردات).

نغفر: غفر الشيء غفرًا: ستره. غفر الله له ذنبه: غطَّى عليه وعفا عنه. غفر الله الأمرَ بغُفْرته: أصلحه بما ينبغي أن يصلح به (الأقرب).

خطايا: جمعُ خطيئة. والخطيئةُ الذنبُ، وقيل المتعمدُ منه. والخطيئةُ أعمُّ من الإثم، لأنه قد تكون عن غير تعمُدٍ، والإثم لا يكون إلا عمدًا (الأقرب).

نزيد: زاد الشيء: نما، وزاده الله خيرًا فزاد، لازمٌ ومتعدُّ. وزاد فلان: أعطى الزيادة. (الأقرب)

فمعنى ﴿سَنَزِيدُ﴾: سننمِّي؛ سنعطِي المزيد.

المحسنين: أحسن إليه وبه: عمل حسنًا وأعطاه الحسنة. وأحسن: أتى بالحسن. أحسن الشيء: جعله حسنًا. وأحسن الشيء: علمه، يقال فلان يُحسن القراءة، أي يعلمها (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ يعني ادخلوا باب المدينة مطيعين متخلقين بأخلاق تليق بأمة نبيٍّ لكي تتركوا في أهلها أثرًا طيبًا. وقوله تعالى: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ يعني ادعوا الله تعالى أن يعفو عنكم تقصيراتكم كيلا تؤثر الحياة المدنية فيكم تأثيرا سلبيا.

لقد مرَّ بنو إسرائيل أثناء عبورهم بركة سيناء إلى أرض كنعان بقبائل تقطن القرى والمدن (موسوعة الكتاب المقدس)، وسُمح لهم أن يدخلوا هذه القرى لبعض الوقت ترويحًا لأنفسهم. وقد أشير هنا إلى إحدى هذه القرى أو المدن بدون أن يصرَّح القرآن الكريم باسمها، إذ ليس هناك داع لذلك، لأنه لا يسرد لنا تاريخ خروج بني إسرائيل وإنما يشير إلى بعض الأحداث الهامة تكميلًا لبيان ما يريد ذكره من المواضيع. إنما القرآن الكريم يهتم بما في القصة من عبرة وليس بالأسماء والتواريخ. لقد قال الله تعالى لهم ادخلوا هذه القرية وتمتعوا بأطياب حياة المدينة بعض الوقت، وليكن سلوكهم أمام أهلها سلوك المؤمنين المطيعين، وداوموا على الدعاء والاستغفار حتى لا تتأثروا من مساوئ أهل القرية، ولو فعلتم هذا فلسوف نكبح جموح قلوبكم إلى الذنوب، ونعينها على الخير.

وقوله تعالى ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني أن ما ذكرنا من النعم ليس كل ما لدينا، بل لو أحسستم وعملتُم بوصايانا كما ينبغي فسوف ننعم عليكم أكثر، أي عندها لن تقاوم قلوبكم نزعات الشر فقط، بل ستوفَّقون لأحسن أعمال البر وأفضلها.

والزيادة تعني النماء والإثماء الذي يمكن أن يتضمن أيضًا البركة في الأولاد والأموال، وعليه فيمكن أن تعني هذه الآية: إذا عملتم بوصايانا حقًا، باركنا في ذريعتكم، فتكثرون وتعمرون القرى والبلاد الكبيرة.

وقد تعني الآية: لا تمدّوا أعينكم إلى ما عند أهل هذه المدينة من زينة الدنيا وأموالها، بل استمروا في الطاعة والاستغفار، ولو فعلتم ذلك فسوف نعطيكم أحسن مما عندهم.

يقول القسيس (ريفرند ويرى) معلقاً على هذه الآية بأن القرآن قد خلط هنا بين الأحداث؛ حيث وقعت بعضها في برية سيئاء، وبعضها في الأرض المقدسة، وبعضها لم تحدث أصلاً في أي مكان، كما سرّدها القرآن بترتيب يخالف الترتيب الواقعي كلية، وهذا دليلٌ على أن نبي العرب كان -معاذ الله- يجهل أحداث التوراة جهلاً تاماً.

إني دائماً أنظر إلى هذا القسيس نظرة إشفاق، فقد أضاع عمره كليةً. كان من واجبه كقسيس أن يدرس كتابه المقدس أكثر من أي كتاب آخر، ولكنه للأسف لم يدرسه إلا قليلاً. ولو أنه درس كتابه بإمعان لم يتصور للحظة واحدة أنه مرجع تاريخي موثوق به، يسرد الأحداث سرّداً صحيحاً منطقياً. إن بيانات كتابه المقدس متعارضة تعارضاً يستحيل أن يكتب أي إنسان على ضوءها تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر. بل إن الكتاب النصارى أنفسهم يعترفون بأن تاريخ الخروج المذكور في الكتاب المقدس لا يستحق الاعتبار وأن ترتيب أحداثه غير سليم.

فقد كتب البروفسور ستاننج J.F.Stanning، من جامعة أكسفورد: لقد سُجِّلَتْ في بداية سفر الخروج أحداثٌ وقعت في الواقع في آخر أيام هجرة موسى. كما أن حادثتي تحلية موسى لمياه بحيرة (مارا) ونزول المن والسلوى لم تُردَا في الكتاب المقدس في مكاتهما الحقيقي، إذ وقع حادث المنّ بعد الذهاب من سيئاء، ولا علاقة له بحادث طيور السماء. كذلك ذُكر في سفر العدد حادث الطيور في آخر أيام الهجرة، بينما ذُكر في سفر الخروج في بداية الهجرة (الموسوعة البريطانية مجلد ٨ ص ٩٧٠ عمود ١ ملاحظة ٥).

وقد سبق أن ذكرتُ قبل قليل أن الكتاب المقدس يقول في سفر الخروج ١٦: ١٢-١١ أن الله تعالى بشرَّ موسى عليه السلام بأنكم ستأكلون طيور السماء قبل

حلول المساء نعمةً من الله تعالى، ولكن الكتاب المقدس يعارض نفسه بنفسه في سفر العدد ١١: ٣٣ أن عقاب الله تعالى نزل ببني إسرائيل لجمعهم هذه الطيور، وأهلك منهم الآلاف قبل أن يمضغوا لحمها. فسفر الخروج يخبر أنهم بشروا من عند الله تعالى بأنهم سيأكلون لحم السماني ويُعْذُّها نعمةً، ولكن سفر العدد يقول أنهم لم يأكلوا لحمها، بل حلَّ بهم عذاب الله قبل أكله؛ وكلا السُفْرَيْن عند أهل الكتاب وحيٌّ نزل على موسى ﷺ!

هل يستطيع أحد التوفيق بين هذين البيانين؟ فلو صدّق القرآن الكريم بيان سفر الخروج لقال القسيسون إن صاحب القرآن جاهل بالتاريخ إذ يعارض ما ورد في سفر العدد! ولو صدق القرآن الكريم ما ورد في سفر العدد لقالوا إن صاحب القرآن لا يعرف تاريخ الكتاب المقدس إذ يخالف ما ورد في سفر الخروج! ولو أن القرآن صدّق الاثنين معًا لصار التاريخ الذي يقدمه القرآن غير معقول وغير منطقي كما هو حال التاريخ الذي يقدمه الكتاب المقدس. ومن أجل ذلك لم ير القرآن الكريم حاجة للخوض فيما ورد في سفرَي الخروج والعدد، وإنما سرد الله تعالى فيه الأحداث بحسب علمه تعالى، وهكذا صدّق القرآن الكريم ما كان حقًا من أحداث الكتاب المقدس، ونفى ما كان فيه من أحداث غير حقيقية، وزاد وبَيَّن ما سكت عنه الكتاب المقدس، وكان فيه عبرة. فالله تعالى ليس بحاجة لأن يتبع ما كتبه مؤلفو الكتاب المقدس.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: ٦٠)

شرح الكلمات:

رِجْزًا: الرجز: القَدْرُ؛ عبادة الأوثان؛ العذاب؛ الشرك (الأقرب).

أصل الرجز الاضطرابُ وتواترُ الحركة، ولذلك سُمِّي عذاب الزلزلة رجزاً. وقد سُمِّي الشركُ وعبادةُ الأوثان رجزاً لأن اعتقادَ المشرك يشوبه الاضطرابُ. **يفسقون:** راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين).

التفسير: يقول الله تعالى لبني إسرائيل: لقد كفرتم بنعمنا. أردنا أن تروّحوا عن أنفسكم وتستمتعوا بطيبات القرية لفترة من الزمن لكي يزول عنكم التعب والملل، ولكنكم استهزأتم بأوامرنا ونعمنا وقتلتم كلمة لم تؤمروا بها. أُمِرتُم بأن تقولوا ﴿حِطَّةٌ﴾، أي أن تدعوا لمغفرتكم وسترِ ضعفكم، ولكنكم استبدلتم بها (حِطَّةً)، أي نريد القمح.

هذا لا يعني أنهم استخدموا كلمة الحنطة بعينها، بل استخدموا ما يعني الحنطة في العبرية، سواء كلمة الحنطة نفسها أو غيرها.

يبدو أنهم لما دخلوا القرية فكّروا في أرغفة ساخنة من الخبز فاستولى عليهم الشوق إليها وانشغلوا بها عن وصية الاستغفار، فأخذوا يردّدون (حنطة) بدلاً من ﴿حِطَّةٌ﴾ على سبيل السخرية، فعذّبهم الله تعالى بسبب هذا الاستهزاء والعصيان.

انظروا كيف أن هذا الخطأ الذي يبدو بسيطاً قد جلب عليهم غضب الله! وسبب ذلك أن الإنسان لا يستطيع التقدم في الخير إلا إذا كان جاداً. مهما قام به المرء من عبادات أو قدّم من خدمات فإنه لا يستطيع الارتقاء الروحاني ولا يكون نافعاً للقوم حقاً، بل إن أمثال هؤلاء الهازلين يدفعون قومهم إلى هوة الدمار الرهيب أحياناً. إن التفوه — (حنطة) مكان ﴿حِطَّةٌ﴾ أمرٌ هينٌ في بادئ الأمر، لكن التدبر سيكشف لكم أنه أمر خطير جداً، وليس بهين، لأنه استهزاءٌ بكلام الله تعالى، ولا يفعل ذلك إلا من كان قلبه خالياً من الجدية، ومن خلا قلبه من الجدية فلا خير فيه لا من حيث الدين ولا من حيث الدنيا، وحقيق به أن يغدر بقومه أو ملّته عند أدنى دافع للتهيج والإغراء. وللأسف إن المسلمين مصابون بهذه الآفة اليوم. فإن المتدينين منهم كالمشايخ والمتصوفين - دَعُ عنك العلمانيين الذين لا يهتمون بالدين - يستهزئون بالدين، فمثلاً يتلون

آية قرآنية في غير محلّها، أو يذكرون حديثاً شريفاً على سبيل المزاح والاستهزاء، مع أن كلام الله تعالى ورسوله أسمى من أن يُستهزأ به ويُتخذ ذريعة للنكات الفكاهية. إن الاستهزاء بهما جد خطير. إنه يسوّد القلب، ويميت الروحانية، ويدمر التقوى. والتغلب على هذا الإثم لا يتطلب من الإنسان جهداً كبيراً أو كبتَ إغراء، وإنما يكفيه قدرٌ من أخذ الحذر والحيلة. وبهذا الجهد البسيط يستطيع إصلاح قلبه إصلاحاً يساعد على القيام بمهمات جسيمة.

فأقلّعوا عن الاستهزاء والسخرية بآيات الله وكلام رسوله نهائياً. إنها معصية لا متعة فيها، وهي تमित قلب الإنسان كليةً. يجب أن تتولد الخشية في قلوبكم بسماع اسم الله تعالى ورسوله. إن ذكر الحبوب لا بد أن يستلفت انتباه الإنسان. هل يسخر المرء من أبيه وأمه؟ فإذا كانوا لا يسخرون بآبائهم وأمهاتهم فكيف يستسيغون السخرية من اسم الله ورسوله ومن كلام الله ورسوله، ويضعون في لحظة واحدة ما كسبوه في عبادة العمر كله؟ فالحذر ثم الحذر!

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. العذاب الذي أصابهم إنما أتاهم من الأرض، ولكن الله تعالى يقول إنه أنزل من السماء، وإن هذه الكلمات أقوى بكثير من الكلمات الواردة في الأحاديث النبوية عن نزول المسيح المنتظر، إذ لم يرد في أي حديث صحيح أنه سينزل من السماء، إنما ورد فقط أنه سينزل، أما هنا فورد بصريح العبارة أن الله تعالى أنزل عليهم العذاب من السماء. وقال الصحابة والأئمة أن الرجز يعني العذاب عموماً، أو عذاب الطاعون أو البرد. قال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جبير المفسر الشهير: هو الطاعون. وذكر ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت الصحابييين عن رسول الله ﷺ أن الطاعون رجز. ونقل ابن جرير عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: إن هذا الوجع والسقم رجزٌ عذبٌ به بعضُ الأمم قبلكم (تفسير ابن كثير). ومعلوم أن الطاعون مرض مادي، حيث يظهر في جسم الإنسان ورم ويصاب

بالحمى، وأسباب الطاعون تتهياً على هذه الأرض كغيره من الأمراض، ومع ذلك قال الله تعالى إننا أنزلنا من السماء هذا العذاب على بني إسرائيل. وإن قيل أن الله تعالى يصدر الأمر بتفشي الطاعون من السماء، ولذلك قال أنزلناه من السماء؛ فأقول: نفس الحال بالنسبة للمسيح، فهل ينزل الأمر بتفشي الطاعون من السماء، ولكن أمر بعثة أحد من الله تعالى لا ينزل من السماء؟ فإذا جاز لنا أن نقول إن الطاعون نزل من السماء، فلماذا لا يجوز القول إن أنبياء الله ينزلون من السماء رغم ولادتهم في الأرض؟

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦١)

شرح الكلمات:

استسقى: استفعلٌ من سقى يسقي. استسقى الرجل من فلان استسقاءً: طلب السقي وإعطاء ما يشربه (الأقرب).

قوم: القَوْمُ: الجماعةُ من الرجالِ خاصّةً، أو تدخلُ النساءُ على تبعيّةٍ، سُمّوا بذلك لقيامهم بالعظائم والمهمّات، يُذكر ويؤنث فيقال: قام القوم وقامت القوم، والجمعُ أقوام وأقاوم وأقاويم وأقائم (الأقرب).

وورد في اللسان: القَوْمُ الجماعة من الرجال والنساء جميعا. وقيل هو للرجال خاصة دون النساء، ويُقوَّى ذلك قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾... فلو كانت النساء من القوم لم يقل ولا نساءً من نساء... أما الذين قالوا إن القوم يُطلق

على جماعة من الرجال والنساء جميعاً فقالوا: قومُ النبيِّ مَنْ يُبعثُ إليهم رجالاً ونساءً. وقومُ كلِّ رجلٍ شيعته وعشيرته. (اللسان).

قلنا: أي أوحينا. (للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...)).

فانفجرت: فَجَر الماءَ يَفْجُرُ: بَجَسَه وفتح له طريقاً فجرى. فَجَر القناة: شَقَّهَا، وقيل: شَقَّهَا شَقًّا واسعاً. انفجر الماء تفجَّر: أي سال وجرى (الأقرب). معنى انفجرت: تدفقت؛ سالت وجرت.

أناس: الأناس: جمعُ الإنس، وهم: البشرُ، أو غيرُ الجنِّ والملائك. (الأقرب) وقال صاحب تاج العروس: الأناس تعني أحيانا القبيلة والطائفة. **مشربهم:** المشرب: الماء؛ الوجهُ الذي يُشْرَبُ منه؛ شريعةُ النهر، والجمع مشاربُ (الأقرب).

لا تعثوا: عَثِيَ يَعْثِي: أفسدَ؛ بِالْع في الفساد أو الكِبَر أو الكفر (الأقرب). عَثِيَ: أفسدَ أَشَدَّ الفساد. والعثوُّ: أَشَدُّ الفسادِ (اللسان). وقال الإمام الراغب: العيث أكثرُ ما يقال في الفساد الذي يُدْرِك حِسًّا، والعِثِّي فيما يُدْرِك حُكْمًا (المفردات).

فمعنى لا تعثوا: لا تفسدوا أَشَدَّ الفساد؛ لا تتمادوا في الفساد والكِبَر والكفر.

مفسدين: أفسدَ الشيءَ ضدَّ أصلحَه. أفسد بين القوم: أَلْقَى الشَّرَّ والإِغْرَاءَ بينهم. الفسادُ: الجدالُ؛ نقيضُ الصلاح؛ الخراب؛ أخذُ المال ظلماً بغير حق؛ الجذب والقحطُ. (الأقرب والتاج)

التفسير: تتحدث هذه الآية عن نكران بني إسرائيل لنعمة أخرى. كانوا بحاجة إلى الماء في موضع كان نزول المطر فيه شحيحاً، إذ كانوا قد خرجوا من المنطقة التي تنزل فيها الأمطار، فدعا موسى ﷺ للسقيا، فأمره الله تعالى أن

يضرب حجراً معيناً، وعندما ضربه تفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ووجدت كل جماعة منهم ماءً وعيّنت لها مورداً.

يعترض القساوسة على هذه الآية قائلين: لم يذكر الكتاب المقدس مثل هذا الحدث! ولكن كما أسلفت، لا اعتبار بورود حدث في الكتاب المقدس أو عدم وروده فيه. لا شك أن المؤرخ مضطر للتقيد بسرد أحداث عن بني إسرائيل كما ذكرت في الكتاب المقدس أو في المصادر التاريخية الأخرى، ولكن القرآن الكريم يعلن أنه وحي الله تعالى، فلا حاجة له للالتزام فقط بما جاء في تلك المصادر. أفلم تقع في الدنيا أحداث سوى ما ذكره الكتاب المقدس وكتب التاريخ؟ وهل محذور على الله جلّ وعلا ذكر مثل هذه الأحداث؟ إن القرآن المجيد كلام الله تعالى، وأنّي لعلم المؤرخين أن يبلغ شأو العلم الإلهي؟ من حق المنكر للقرآن الكريم أن يطالبنا بإثبات أنه كلام الله تعالى حقاً، فإذا أثبتنا له ذلك فلا بد من اعتبار شهادة القرآن هي الأوثق والأقوى من شهادة أي مؤرخ أو كتاب منسوخ أو ممسوخ.

غير أنه لا يجوز لنا أيضاً أن نُلّيس كلمات القرآن الكريم معاني تعارض القرآن نفسه، أو العقل الذي خلقه الله تعالى، أو اللغة.

إذا كان القسس قد أخطأوا في اعتراضهم على هذه الآية بأن الحادث المذكور فيها لم يُذكر في الكتاب المقدس فلا يمكن قبوله، فإن بعض المفسرين أيضاً قد أخطأوا في فهم هذه الآية، إذ ظنوا أن موسى عليه السلام كان يحمل معه حجراً صغيراً، وكلما احتاج بنو إسرائيل للماء ضربه بالعصا، فكانت تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً! إنها ليست معجزة إلهية وإنما هي مهزلة. فما دام الله تعالى قد هياهم في بعض المناطق الماء بإنزال المطر من الغمام كمعجزة، فلا بد أن تكون معجزة تدفق الماء من الحجر بضرب العصا أيضاً خاضعةً لسنن الله الكونية.

إن المفهوم الحقيقي لهذه الآية هو أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بضرب حجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. والذين زاروا الأماكن الجبلية

يعرفون أنه عندما يذوب الجليد فوق قمم الجبال يرتفع مستوى الماء الباطني الجاري تحت سطح الأرض، وفي بعض الأحيان يجري تحت الأرض قريباً جداً من سطحها، ويمكن أن يخرج متدفقاً بمجرد ضرب الأرض بالعصا. ومثل هذه العيون لا توجد في الجبال فقط، بل توجد أيضاً في البراري أحياناً وفق سنن كونية معروفة. وتكثر مثل هذه المواقع في صحراء الجزيرة العربية، حيث توجد عيون الماء والنخيل، وتسمى الواحات في اصطلاح الجغرافيين. فكان الله تعالى قد وجه موسى ﷺ بالوحي إلى موضع كهذا، حيث كان الماء قريباً جداً من سطح الأرض، وكان عليه حجر، فأمره الله تعالى أن يحركه بالعصا ليتدفق الماء من ورائه، ففعل.

فليست المعجزة أن الماء خرج من الحجر، كما ليست المعجزة أن الماء تولد فجأة في باطن الأرض هنالك وخرج، وإنما المعجزة أن الله تعالى دلّ موسى ﷺ بالوحي على وجود الماء وراء حجر معين. فلا مبرر لنكران مثل هذه المعجزة، كما لا داعي أيضاً لتصويرها بصورة مخالفة لسنن الله الكونية. كان الماء موجوداً هنالك بحسب السنن الطبيعية، ولكن الناس كانوا لا يعلمون بوجوده هنالك، وكان الله يعلم ذلك، فأخبر عبده موسى ﷺ بذلك، فلما كسر موسى الحجر الذي كان يسدّ جريان الماء على سطح الأرض تدفّق الماء عليها. ويبدو أن الحجر لم يكن كبيراً ولا عميقاً، فتشقق بضرب العصا، وخرج الماء من اثني عشر موضعاً من هذه الشقوق. ومن خبر هذه الجبال يعرف أن العديد من العيون تتدفق من موضع واحد أحياناً. وقد شاهدت بنفسي في موضع جبلي بكشمير عيوناً كثيرة تفيض من مساحة لا تتجاوز أمتاراً، وربما كان عدد تلك العيون أيضاً اثني عشرة، ويسمى هذا الموضع ككرناغ، وهو يبعد عن منبع نهر جهلم قرابة ستة عشر ميلاً، وعن مدينة إسلام آباد عشرة أميال تقريباً.

ويبدو أن الغرض من انفجار الماء اثني عشرة عيناً أن بني إسرائيل كانوا قبائل عديدة كثيرة الشجار فيما بينها، فهياً الله تعالى بذلك موضع شرب لكل منها

على حدة. وربما تدفّق الماء اثنتي عشرة عيّناً بالصدفة، وليس نظراً إلى اثنتي عشرة قبيلة لبني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى ذلك العدد ليبين فقط أنهم وجدوا الماء الوفير وشربوه بدون تعب.

وأرى لزماً هنا أن أذكر أن المستشرق سيل (Sale) قد كتب في ملاحظاته في ترجمته للقرآن الكريم أن سائحاً من القرن الخامس عشر قد شهد على أنه وجد آثاراً لاثنتي عشرة عيّناً في صخرة بجبل حوريب، وإن كانت بعضها قد جفّت. (ترجمة القرآن، سيل ص ٨)

يتضح من هذه الشهادة أن اثنتي عشرة عيّناً كانت تجري من بعض الصخور في تلك المنطقة في زمن من الأزمان.

نجد في الكتاب المقدس الأمر الإلهي لموسى عليه السلام بضرب صخرة في جبل حوريب ليخرج منها الماء، بدون ذكر اثنتي عشرة عيّناً (الخروج ١٧: ٦). غير أننا نجد في موضع آخر في الكتاب المقدس ذكر وجود اثنتي عشرة عيّناً في مكان يسمى إيليم، لكن لا ذكر هناك للضرب بالعصا (الخروج ١٥: ٢٧). على كل حال، لا يمكن أن نغير شهادة الكتاب المقدس أهمية كبيرة بهذا الشأن كما أسلفت، غير أن شهادة سائح نصراني من القرن الخامس عشر على وجود اثنتي عشرة عيّناً في جبل حوريب تكفي على الأقل لإفحام هؤلاء المعارضين المسيحيين الطاعنين.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ لا يعني أن الله تعالى عيّن لكل قبيلة منهم موضع شرب، بل المراد أن القوم بأنفسهم اتخذوا مواقع شرب لهم، أي أن الماء كان يتدفق بوفرة ومن أماكن متفرقة فتيسّر لبني إسرائيل الحصول على كفايتهم من الماء بدون مشقة، وبدون أن يقع بينهم خصومة أو شجار.

و﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ يعني كل قوم وقبيلة، وليس كل إنسان.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لقد هيا الله تعالى لكم في كل موطن ما يكفيكم من الطعام والشراب، فاشكروا صنيعه، وتوكلوا عليه ولا تتكالبوا على الأسباب. الحق أن كل فساد

في الدنيا ينشأ نتيجة الاعتماد على الأسباب، فيظن الإنسان أنه إن لم يجد أرضاً كذا أو مسكناً كذا أو دابةً كذا فسوف يتضرر ويخسر، فيخاصم أخاه، وتبدأ سلسلة لا تنتهي من الفساد والفتنة. يقول الله تعالى هنا لبني إسرائيل: انظروا كيف حرّرناكم من كل هذه المتاعب، فلا تتعبون في البحث عن الطعام ولا الشراب وغيرهما، فما دمنا نسدّ كل حاجاتكم فلا داعي للفساد والتباغض والشجار مع الجيران والإخوان. يجب ألا تفسدوا في هذه الأيام على الأقل، كما يجب أن تتجنبوا الفساد في المستقبل تذكّراً لنعم هذه الأيام.

لقد سبق أن ذكرنا أن العُثُوّ هو أشدّ الفساد، وعليه فقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تفسدوا في الأرض متعمدين. يتصرف المرء في بعض الأحيان تصرفاً يؤدي إلى الفساد بدون قصد منه، ومن واجب المؤمن أن يسعى لتجنب مثل هذه المواطن أيضاً، أما الأعمال التي يعلم أنها تؤدي إلى الفساد فلا مناص له من تجنبها في كل حال، وهذا هو المراد من الآية.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)

شرح الكلمات:

لن نصبر: صبرتُ نفسي على كذا: حبستها (الأقرب).

وفي البصائر: الصَّبْرُ فِي اللَّعَةِ الْحَبْسُ وَالْكَفُّ فِي ضَيْقٍ، فَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ
عَنِ الْجَزَعِ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشُّكْوَى، وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ
(التاج).

للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

طعام: اسمٌ لما يؤكَل كالشراب لما يُشْرَب... وقد غلب الطعامُ على البرِّ...
وربما أُطلقَ على الحبوب كلها، وجمعه أطعمة، وجمعُ الجمعِ أطعماتٌ. (الأقرب)
بقلها: البَقْلُ: ما نَبَتَ فِي بَزَرِهِ لَا فِي أَرْوَمَةٍ ثَابِتَةٍ... وقال ابنُ فارس: البَقْلُ:
كُلُّ ما اخضَرَّتْ به الأرضُ... والفرقُ ما بينَ البَقْلِ ودَقِّ الشَّجَرِ أَنَّ البَقْلَ إِذَا
رُعِيَ لَمْ يَبْقَ لَهُ ساقٌ، والشَّجَرُ بَقِيَ لَهُ سَوْقٌ وَإِنْ دَقَّتْ. (التاج)
والبقل من النبات ما ليس بشجرٍ دَقٌّ وَلَا جَلٌّ (اللسان).

قثائها: القثاء نوع من الفاكهة يشبه الخيار، تسميه عوامنا بالمقثي (الأقرب).
فومها: الفوم لغةٌ في الثوم. والفوم: الحنطة؛ الحمص؛ الخبز؛ سائرُ الحبوب التي
تُخَبَزُ. والفومة: السنبلة (الأقرب).

تستبدلون: استبدله واستبدل به: أخذ هذا مكان ذاك (الأقرب).

أدنى: مشتقٌّ من الدنوَّ عند البعض. بمعنى الأقرب أي أقلَّ قيمة، وعند الآخرين
من الدناءة أي الأخسَّ والأرذل (اللسان).
ويعبرُ بالأدنى تارةً عن الأصغر فيقابلُ بالأكبر، وتارةً عن الأرذل فيقابلُ
بالخير، وتارةً عن الأوَّل فيقابلُ بالآخر، وتارةً عن الأقرب فيقابلُ بالأقصى.
(المفردات).

اهبطوا: هَبَطَ يَهْبِطُ وَيَهْبُطُ من موضع إلى موضع آخر: انتقل (الأقرب).
للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوًّا).
مِصْرًا: المِصر: الحاجز بين الشيئين؛ الحدُّ بين الأرضين خاصة؛ وقيل الحدُّ في
كُلِّ شيء؛ الكورةُ أي المدينة والصقع؛ (مثلما يُطلقُ مصر على مدينة القاهرة في
هذه الأيام)؛ وكلُّ كورةٍ يُقسَمُ فيها الفِئُءُ والصدقات (الأقرب).

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ: ضَرَبَهُ يَدُهُ وبالعصا: أَصَابَهُ وصدمه بها. وضَرَبَ على يديه: أَمْسَكَ. ضَرَبَ الْقَاضِي عَلَى يَدِ فُلَانٍ: حَجَرَ عَلَيْهِ وَمَنَعَهُ التَّصَرُّفَ. ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ: وَضَعَهَا وَأَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا. ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ: أَذَلَّهُمُ (الْأَقْرَب).

ذَلَّ: هَانَ ضِدُّ عَزَّ. وَضَرَبَ عَلَيْهِ الذَّلَّةَ: أَذَلَّهُ. (الْأَقْرَب)

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ: التَّحَقَّتْهُمْ الذَّلَّةُ (المفردات).

المسكنة: الفقر؛ الذِّلُّ (الْأَقْرَب).

بَاءُوا بِغَضَبٍ: بَاءَ: رَجَعَ. بَاءَ بِهِ: أَرْجَعَهُ (الْأَقْرَب).

بَاءَ بِذَنْبِهِ: أَحْتَمَلَهُ وَصَارَ الْمَذْنِبُ مَأْوَى الذَّنْبِ؛ كَانَ عَلَيْهِ عَقُوبَةُ ذَنْبِهِ (اللسان).

غَضَبُ: الغضب: ثورانُ دمِ القلبِ إِرَادَةَ الانتقامِ، وَإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَرَادُ بِهِ الانتقامُ دُونَ غَيْرِهِ (المفردات).

(للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾).

وَقَالَ الْإِمَامُ الرَّائِغُ فِي مَفْرَدَاتِهِ: بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ: أَيِ حَلٍّ مُبَوِّأٍ وَمَعَهُ غَضَبُ اللَّهِ، أَيِ عَقُوبَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِغَضَبٍ﴾ فِي مَوْضِعٍ حَالٍ... أَيِ رَجَعَ وَجَاءَ وَحَالُهُ أَنَّهُ مَغْضُوبٌ... وَاسْتِعْمَالُ (بَاءَ) تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ مَكَانَهُ الْمَوْافِقَ يَلْزِمُهُ فِيهِ غَضَبُ اللَّهِ، فَكَيْفَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَمْكِنَةِ (المفردات).

فَمَعْنَى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾: صَارُوا عَرْضَةً لِّغَضَبِ اللَّهِ؛ صَارَتْ بَيُوتُهُمْ مَحَلًّا لِّغَضَبِ اللَّهِ.

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ: أَيِ يَجْحَدُونَ بِهَا. لِلْمَزِيدِ رَاجِعُ شَرْحِ كَلِمَاتِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...).

آيَاتٍ: جَمْعُ آيَةٍ. لِلْمَزِيدِ رَاجِعُ شَرْحِ كَلِمَاتِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ...).

يَقْتُلُونَ: رَاجِعُ شَرْحِ كَلِمَاتِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (فَتَوَبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ....).

ومن معاني قَتَلَهُ: أهلكه؛ قاطعه؛ أذله؛ أبطل عمله. وعلاوة على ذلك: يقال هو قاتلُ الشتواتِ (جمع شتاء) أي يُطعم فيها ويُدْفئ (اللسان).

وقَتَلَهُ: أصاب قتاله (تاج العروس)

فمعنى: ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ﴾: يُهْلِكُونَهُمْ؛ يَقَاطِعُونَهُمْ؛ يسعون إلى إبطال أعمالهم؛ يحاولون إزلالهم.

الحَقُّ: حَقُّهُ يُحَقُّه حَقًّا: غلبه على الحق. حَقُّ الأمر: أثبتّه وأوجبه؛ كان على يقين منه. وحقُّ الخبر: وقف على حقيقته. وحقُّ الأمر: وَجَبَ وَثَبَتَ (الأقرب). الحقُّ يقال في الفعل والقول والواقع بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب (المفردات).

للمزيد راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون).

عصوا: عصاه يعصيه: خرّج عن طاعته وخالف أمره وعانده (المفردات).

يعتدون: اعتدى عليه: ظلّمه (الأقرب).

الاعتداء: مجاوزةُ الحقِّ (المفردات).

الاعتداء والتعدي والعدوان هو الظلمُ. اعتدى فلان عن الحق واعتدى فوق الحق: جازَ عن الحق إلى الظلم (اللسان).

فمعنى: ﴿يَعْتَدُونَ﴾: يتجاوزون الحق؛ يظلمون.

التفسير: تذكر هذه الآية نكراناً آخر للجميل ارتكبه بنو إسرائيل، ويبدو

أنه ذو صلة بنعمة المنّ والسلوى. لقد عاشوا على طعام المنّ والسلوى مدةً طويلة كانوا يذهبون خلالها إلى المدن ويمكثون فيها للتمتع بطعامها وشرابها من حين لآخر، ولكنهم لم يستطيعوا الصبر على طعام واحد في البراري، وإن لم يكن في الواقع طعاماً واحداً بل كان متنوعاً. كانوا معتادين على العيشة المدنيّة بحكم عيشهم في مصر، مولعين بالمشويات والمقليات وغيرها من لذائذ الأَطعمة التي يأكلها أهل الحضر، فتبرّموا من أكل الأغذية البرية، ولم يُقدِّروا الحكمة من وراء هذه المعيشة والأغذية. وبلغ بهم الضيق أن قالوا لموسى عليه السلام لن نصبر على

طعام واحد، وإن كنتَ تصبر عليه ولا ترى الحاجة إلى استبداله، فادْعُ الله تعالى لأجلنا على الأقل لكي يُخرج لنا من الأرض أنواع الخضروات والبقول، أي يسمح لنا بالإقامة والاستقرار في مكان نستطيع فيه الزراعة وإنتاج هذه الغلال والبقول والخضار. فأجابه الله تعالى: أطلبون الطعام الأقل نفعا لكم بدلاً من الأجود والأنسب لكم؟ يقال: استبدله به: أخذه مكانه.

لقد اختلف المفسرون في معنى «خَيْرٌ» و«أَدْنَى» في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، فقال بعضهم: المراد من «خَيْرٌ» اللحم، ومن «أَدْنَى» الخضار. ولكن هذا المعنى خطأ. فالخضار خير واللحم أيضاً خير، ولم يأمر الله تعالى في الشرع أنه إذا وُجد طعام جيد فلا تأكلوا غيره، لأن النفس البشرية تشتهي أحياناً العدس مع تيسر الأرز مع اللحم، وليس في هذا ما يجلب عذاب الله أو سخطه تعالى.

الحق أن في كلمتي (خَيْرٌ) و(أَدْنَى) مقارنةً بين ما كانوا يجدونه في البرية من أغذية بدون جهد وتعب، وبين ما يحصل عليه أهل الحضر بعد سعي ومشقة. لقد تركهم الله تعالى في تلك البراري لكي يزيل عنهم أثر العبودية ويخلصهم من المعاصي المترسخة في نفوسهم نتيجة صحبة المصريين، ولكي لا تثور فيهم نزعات الشرك مرة بعد أخرى نتيجة مخالطتهم الأمم الأخرى، بل تترسخ فيهم عقيدة التوحيد ببركة بقائهم الدائم في صحبة موسى عليه السلام. وقد وفر الله لهم كل طعام يتوفر في البادية، أما الخضار والأطعمة الشهية فلا تيسر إلا في المدن والقرى.

باختصار، لم يكن المراد من مطالبة بني إسرائيل أن يجدوا الخضار والخيار وغيرها، بل كانوا في الحقيقة يريدون أن يُسمح لهم بالعيش في المدن والقرى لأنهم تبرموا من حياة البداوة. وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لا يعني لماذا تريدون الخنطة والخضار والبقول بدلاً من الكمأة والسمانى والعسل وغيرها، بل يعني لماذا ترغبون عن هذه العيشة المفيدة لكم التي تؤهلكم للحكم والملك وحياة العزة والكرامة وتحبون عيشة لن تبرحوا

فيها مزارعين عاديين؟ فمطالبتكم هذه إما حمقٌ وغباءٌ وعدمٌ تقدير لتلك الحياة التي يريدّها الله لكم، وإما عدمٌ ثقةٍ وإيمانٍ بوعود الله تعالى وبشاراته. تظنون أن موسى عليه السلام يكذب عليكم، وتقولون في أنفسكم هيهات أن يكون لنا مُلكٌ وحُكم في يوم من الأيام، فلماذا لا نكون فلاحين على الأقل. ولما كان كلا الأمرين يدلّ على عدم الإيمان وفتور الهمة، فعنّفهم الله تعالى وسخط عليهم.

لقد ذكر عدم صبرهم على طعام واحد في الكتاب المقدس حيث قال بنو إسرائيل: {قَدْ تَذَكَّرْنَا السَّمَكَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ فِي مِصْرَ مَجَانًا، وَالْقَنَاءَ وَالْبَطِيخَ وَالْكُرَّاثَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ.} (العدد ١١: ٥)

ثم يقول الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾. وقد ذهب بعض المفسرين -جهلاً منهم لقواعد اللغة العربية- أن ﴿مِصْرًا﴾ هنا تعني مدينة مصر، أي العاصمة المصرية، وأن بني إسرائيل أمروا بالذهاب إليها. وقد هلّل الكتّابُ المسيحيون لخطأ المفسرين هذا ورموا القرآن الكريم بالجهل ساخرين. والحق أن رأي هؤلاء المفسرين الجاهلين وكذلك اعتراض هؤلاء الطاعنين كلاهما باطل. فـ(مِصْرُ) العاصمة المصرية علّمٌ غير منصرف لا يقبل التنوين بحسب قواعد العربية، وقد وردت في القرآن الكريم غير منصرفة كما في قول يوسف عليه السلام لأهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٠)، وفي قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ (الزخرف: ٥٢). بينما قال الله تعالى هنا ﴿مِصْرًا﴾، أي أيّ مدينة، لا "مِصْر"، العاصمة المصرية. فاعتراض هؤلاء المسيحيين إنما يدل على جهلهم بالعربية، لأن المراد أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: ادخلوا أي بلدة أو مدينة تجددوا فيها الأشياء التي تطلبونها.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾، والمراد: لأنهم فضّلوا الزراعة على عيش يؤهلهم للحُكم والسلطان فألزمهم الله الذل والهوان. ومن عجيب قدرة الله تعالى أن بني إسرائيل قد نالوا المُلْكَ وفق البشارات الإلهية، إلا أن إخلافتهم المتكرر لعهودهم مع الله تعالى صار وبالاً عليهم، حتى حُرّموا

من الملُك لأكثر من عشرين قرناً ولم يبق لهم حتى اليوم إلا أعمال التجارة والزراعة.^١

ثم يقول الله تعالى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وقد مرّ في شرح معاني الكلمات أن باء بالشئ يعني أنه صار محلاً دائماً له، وعليه فالمراد: أنهم حلّوا بالبلاد حاملين معهم غضب الله، وكأنّ مأواهم ووطنهم -الذي يكون أدعى لأمن المرء وراحته- صار مصدرَ عذاب وشقاء لهم. وهذا ما أكّدته الأحداث اللاحقة أيضاً، إذ لم تزل أرض كنعان، وطن بني إسرائيل، بؤرةً للمصائب والآلام دائماً.

أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيعني أن إنكارهم لآيات الله تعالى كان نتيجة لمعارضتهم لأنبيائهم. وحيث إنهم لم يحترموا أنبياءهم فضاع منهم بالتدريج احترامهم لكلام الله تعالى وإيمانهم به الذي أتى به أنبياءهم. لقد عارضوا الأنبياء لأنهم كانوا عاصين آثمين. دعاهم أنبياءهم إلى الهدى، فلم يعجبهم، فبدأوا في معارضتهم.

إن العارفين بقاعدة العلة والمعلول سيُسعدهم أسلوب القرآن الكريم هذا، حيث يذكر هنا الخير والشر ثم يُتبّعه ببيان سببهما وأصلهما، لكي يعرف الإنسان مصدر الشر فيقطعه من جذوره كيلا يعود ثانية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يعني أن بني إسرائيل كانوا يقتلون أنبياءهم قتلاً جسدياً؛ فهم لم يقتلوا إلى ذلك الوقت أيّاً من أنبيائهم. فالقتل في اللغة يعني القتل غير المادي أيضاً، ومن معانيه:

(١): اللعنة، يقال: قتله الله أي لعنه،

(٢): المقاطعة والإعراض، يقال: اقتلوا فلانا: أي أعرضوا عنه ولا تهتمّوا

بقوله.

^١ لقد قال حضرة المفسّر رحمه الله هذا قبل أن تتأسس دولة إسرائيل. (المترجم)

(٣) المساسُ بالشيء، يقال: فلان قَتَلَه، أي أصاب قَتَالَه أي جسده.

(٤) إزالةُ تأثيرِ الشيء؛ يقال: فلان قاتِلُ الشتوات، أي يُطعم الفقراءَ

ويكسوهم في أيام البرد، وهكذا يزيل عنهم أثر البرد.

(٥) التخريبُ والإيذاء، يقال: فلان قَتَلَه العشق. (لسان العرب وأقرب

الموارد)

فليس معنى هذه الآية أن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء بالسيف، إذ لم يكونوا قد قتلوا أيًا من أنبيائهم حتى زمن موسى عليه السلام، وعليه فالمراد أنهم كانوا يضربون أنبياءهم ويؤذونهم ويقاطعونهم أو يسعون لإفشال مهمتهم.

وقد ورد القتل في القرآن الكريم بمثل هذه المعاني، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢٢). هذه الآية تتعلق بالرسول ﷺ، ولا يعني القتل هنا إلا أن الأعداء كانوا يهاجمونه ﷺ أو يحاولون قتله، أو يعرقلون جهوده، لأنهم لم يقتلوا رسولنا ﷺ وما كانوا ليقتلوه.

كذلك جاء في القرآن المجيد: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٩). والحق أن فرعون وأصحابه لم يقتلوا موسى عليه السلام، لذا فغاية ما يمكن أن نفسر به هذه الآية هو أنهم أرادوا قتل موسى عليه السلام.

إذًا، فالقتل في آيتنا هذه يمكن أن يعني إرادة القتل، أي أن بني إسرائيل كانوا ينكرون آيات الله وكانوا يريدون قتل موسى وهارون، أو كانوا يقاطعونهما ويُعرضون عنهما، أو يخاصمونهما، أو يعرقلون طريق نشر دعوتهما، ومن أجل ذلك كانوا يُحرمون من الخير ويتمادون في الإثم. وكان سبب معارضتهم لأنبيائهم أنهم أصبحوا أهل طيش وغضب، وفقدت طبائعهم الاعتدال والاتزان، وتجاوزوا حد الاعتدال في كل شيء، وحري بمن كان هذا طبعه أن يُحرَم خيرا كثيرا، ويتجرأ على الكبائر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٣)

شرح الكلمات:

آمنوا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب...) وقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين).

هادوا: هادَ الرجلُ يَهْدُ هُدًى: تابَ ورجع إلى الحق. يقال هادَ المذنبُ إلى الله: رجع إليه، فهو هائدٌ وجمعه هُودٌ. هادَ الرجلُ: دخل في اليهودية. وهاد في المنطق: أداه بسكون ورفق (الأقرب).

فالقول "هادوا" يعني: اعتنقوا الديانة اليهودية.

النصارى: تُبْعُ المسيح (أي أتباعه عليه السلام)، الواحد نصراني، نسبة إلى الناصرة... وقيل جمعُ نَصْرَانٍ، وقيل جمعُ نَصْرِيٍّ نسبة إلى قرية اسمها نَصْرَة (الأقرب).

قال الراغب: النصارى: قيل سُمُوا بذلك لقوله ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ (المفردات).

ولكن هذا غير صحيح، بل النصراني نسبة إلى الناصرة.

الصائبين: جمعُ صابئ. صَبَأَ الرجلُ صَبْأً: خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ آخَرَ. والصابئون قوم يعبدون النجوم؛ وقيل قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قُبِلَتْهُمْ مَهَبُ الشَّامِ عند منتصف النهار (الأقرب).

صالحًا: العمل الصالح هو الخالصُ من الفساد وذو الفائدة والموافق لمقتضى الحال.

للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ...).

أجرهم: الأجر: الثواب (الأقرب).

الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو آخروياً (المفردات).

وبهم: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الحمد لله رب العالمين).

لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: الفرق بين الخوف والحزن أن الخوف يكون عن المستقبل والحزن عن الماضي. (للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (فَمَنْ تَبِعَ هَدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)).

التفسير: قوله تعالى: ﴿هَادُوا﴾ يعني هَدُّوا. وقد وردت كلمة (هَادَ) في العبرية أيضاً بهذا المعنى نفسه. غير أن الكلمة العبرية "هَادَ" لا تتضمن المعاني الأخرى التي توجد في "هَادَ" العربية والتي ذكرناها عند شرح الكلمات. الحق أن كلمة يهودي تعريبٌ لاسم عبري أُطلقَ على بني إسرائيل من قبلهم ومن حولهم بعد سبيهم إلى بابل، فكانوا يسمُّون تابعَ الديانة اليهودية (يَهُودِي) بالعبرية، و(يهوداي) بالأرامية، و(ياأودائي) بالبابلية القديمة، وكلُّها مشتقة من اسم يهوذا، وهي المنطقة الجنوبية من دولة بني إسرائيل، وكان يحكمها ذرية سليمان عليه السلام وقبيلته، وكانت عاصمتها أورشليم (موسوعة الكتاب المقدس، والموسوعة اليهودية). كانت ذرية يهوذا بن يعقوب عليه السلام ذوي قوة ومنعة في هذه المنطقة، وكان اسمه بالعبرية يَهُودَا، فسُمِّيَت هذه المنطقة أيضاً ييهودا، وسمي ساكنها يهوديا. علماً أن دولة بني إسرائيل انقسمت إلى دولتين نتيجة التمرد بعد سليمان عليه السلام، فحكمَ بنو يهوذا وبنيامين -ابنُ يعقوب عليه السلام- المنطقة الجنوبية أي يهوذا، أما القبائل العشر فشكلت حكومة منفصلة في الشمال. وكانت هذه القبائل العشر انحرفت عن الدين، وكان بعثُ الأنبياء في منطقة بني يهوذا الجنوبية عموماً، ثم للتمييز بين هاتين الفرقتين الإسرائيليتين ولِلإشارة إلى أن أهل دولة يهوذا التي عاصمتها أورشليم هو الدين الصحيح، فاشتُقَّ اصطلاح (اليهودي). بمعنى التابع الحقيقي لشريعة موسى عليه السلام، ثم عربّه

العرب في لغتهم. ولما كان اسم (يهود) يشبه صيغة المضارع للكلمة العربية (هَادَ)، فصاغ العرب لها صيغة الماضي (هَادَ). بمعنى دخل في اليهودية. ولكن في العربية هناك كلمة مستقلة (هَادَ)، ولها معاني أخرى أيضا لا علاقة لها باليهود ولا تشير إليهم، فيجب ألا يغترّ بها أحد ويربط بين مدلولاتها وبين كلمة (يهود).

فكلمة يهودي تعني لغةً: ساكنُ منطقة يهوذا، وتعني اصطلاحاً: تابعٌ صادقٌ لدين موسى ﷺ. والعجيب أن القرآن الكريم كلما ذكر هؤلاء القوم مشيراً إلى دينهم سمّاهم اليهود، وكلما تحدث عنهم كشعب سمّاهم بني إسرائيل، وهو عين الصواب؛ ومع ذلك يرمي الكتابُ المسيحيون القرآنَ الكريم بالجهل بتاريخ بني إسرائيل! في حين أن كتابهم الإنجيل قد استخدم الاسمين استعمالاً خاطئاً، حيث عني باليهود الشعبَ الإسرائيلي. ولا يزال أهل الغرب يكررون الخطأ نفسه (راجع أيضاً تفسير قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾).

قوله تعالى ﴿النَّصَارَى﴾:

النصارى: جمعُ نصري، ومعناه ساكنُ قرية الناصرة. وكان اليهود وأهل الجزيرة العربية يدعون المسيحيين بهذا الاسم.

والناصرة التي يُنسَبون إليها قرية في الجليل، وكانت تسمى في القديم بلدة المسيح، لإقامته فيها مع أهله قبل أن يعتمد من يوحنا (يحيى) النبي عليهما السلام (انظر متى ٤: ١٣-١٤، مرقس ١: ٩، لوقا ١: ٢٦، يوحنا ١: ٤٦، أعمال الرسل ١٠: ٣٨). وبسبب انتماء المسيح ﷺ إلى هذه القرية سُمّي اليهود الأوائل في كتبهم الدينية أتباعه (النصارى)، وأخذها عنهم العرب، ولا يزالون مشهورين بهذا الاسم حتى اليوم.

ومن عجائب قدر الله تعالى أن المناهضين للمسيح الموعود لأمة محمد المصطفى ﷺ أيضاً يسمّون أتباعه ﷺ (القاديانيين) نسبةً إلى بلدة إمامهم. وهذه مشابهة تشير التأمل.

وكان الرومان أيضا يسمون منذ البداية أتباع المسيح عليه السلام الناصريين كما في المرجع (أعمال الرسل ٢٤: ٥)، ولكن العجيب أن الناصرة التي تُنسب إليها أتباع المسيح عليه السلام لم يزل اليهود يسكنونها لقرون طويلة، أما النصارى فلم يسكنوها إلا بعد عدة قرون (موسوعة الكتاب المقدس، مجلد ٣ ص ٣٣٥٨-٣٣٦٠).

ورد في الإنجيل أن يوسف النجار، الأب المجازي للمسيح عليه السلام، كان يقيم في الناصرة بناءً على رؤية رآها حيث ورد: {وَإِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي حُلْمٍ، انْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي الْجَلِيلِ. وَاتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالْأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا»} (متى ٢: ٢٢-٢٣). ولكن الغريب أنه ليس في الكتاب المقدس أي ذكر لهذه الأنبياء التي يتكلم عنها متى، أعني: "لكي يتم ما قيل بالأنبياء". فإما أن هذا النبأ إلهامٌ وليٍّ من أوليائهم، أو أن كاتب الإنجيل ذكره من عند نفسه تفسيراً للفظ "الناصري" فراراً من بعض الاعتراضات. والله أعلم بالصواب.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾:

لا وجود لهذه الأمة في أيامنا هذه، وإن قيل أن في العراق أقواماً يُشْتَبِه أَنَّهُمْ من أصل صابئ.

وكانت تعيش في بابل في قديم الزمان فرقة مسيحية تُسمى بالصابئة، وتُسمى أيضاً Elkesaitas، وكانوا أكثرَ شبهاً بأتباع يوحنا المعمدان (موسوعة الكتاب المقدس).

وكذلك أُطلق اسم ﴿الصَّابِئِينَ﴾ على أقوام تعبد النجوم، وكانت موجودة في وقت من الأوقات في العراق والجزيرة العربية، وكانت عاصمتهم (حرّان) (الموسوعة البريطانية).

الحق أن هؤلاء كانوا يقيمون في منطقة سبأ، وتحوّل اسمهم من الصابئين إلى الصابئين، وكانوا يعبدون النجوم، ويؤمنون بشريعة سماوية. ولا يتضح من التاريخ هل تسمّوا بأنفسهم باسم الصابئين أم أطلقه عليهم الناس. ويروي التاريخ أن بعض هذه الطائفة كانوا لا يزالون في زمن الملك العباسي

المأمون، إذ ورد أن المأمون رأى بعضاً منهم في طريقه عند غزوه لبلاد الروم، وعندما رأى شعرهم الطويل ولباسهم العجيب وطقوسهم الدينية الغريبة أمرهم بالانضمام إلى دين من ديانات أهل الكتاب وإلا قتلهم. فأتخذوا اسم (الصَّابِئِينَ) بعد استشارة فقهاء المسلمين (الموسوعة البريطانية، مجلد ١٩ ص ٧٩٠).

وأرى أنه من الخطأ القول أنهم اختاروا لهم اسم (الصَّابِئِينَ) بعد استشارة المسلمين. لعل فريقاً صغيراً من القبيلة الصابئة انفصلوا عنها، وعاشوا فترة طويلة بعيداً عنها، حتى نسوا اسم دينهم، ولما تكلموا مع فقهاء المسلمين أخبروهم أنكم الصابئة، إذ يذكر التاريخ الإسلامي أن أهل حرّان كانوا على اتصال بحكومات المسلمين قبل المأمون بزمان.

لا نستطيع تحديد أمة الصابئين في القرآن الكريم، غير أنني أرى أنهم أهل الكتب السماوية عند العرب، لأن العديد من أهل هذه الكتب كانوا يسمّون أنفسهم صابئين، وكان العرب يعرفون منهم اليهود والنصارى، فأطلقوا على هاتين الأمتين هذين الاسمين، وأما من سواهما من الأمم التي حسب العرب أن لها كتباً سماوية فأطلقوا عليها اسم الصابئين. فمع أن شتى الأمم والقبائل اختارت لنفسها اسم الصابئين لأسباب مختلفة، إلا أن العرب أطلقوا هذا الاسم على كل أمة سوى اليهود والنصارى، وعندما ظهر الإسلام أطلق المشركون على المسلمين اسم الصابئين، فإذا أسلم أحد قالوا: صبأ فلان، إلى أن استأنسوا باسم الإسلام والمسلمين.

ولا حرج عندي أن نعتبر أن القرآن الكريم أيضاً قد استخدم كلمة الصابئين بمفهومها الشائع عند العرب، أعني أن الصابئين عند القرآن هم أهل كتب سماوية. وأما مفهوم هذه الآية الكريمة فهو أن من سنة الله تعالى أن كل هؤلاء المنتسبين إلى أي كتاب سماوي، إذا آمنوا بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً وعملوا بحسب هذا الإيمان، فلن يهلكوا أبداً.

وكما هو واضح من تفسير الآيات السابقة فإن الله تعالى يقول، ابتداءً من الركوع الرابع^١ أن محمدًا رسول الله ﷺ ليس بدءًا من الرسل، بل كانت قبله سلسلة طويلة من النبوة منذ القدم، فأول إنسان كامل أيضا قد بُعث نبياً.

ثم في الركوع الخامس^٢ بين الله تعالى أن النبوة لم تنته عند آدم عليه السلام، بل لم يزل الأنبياء يُبعثون إلى زمن قريب من محمد رسول الله ﷺ، فقد استمرت في بني إسرائيل جيران العرب سلسلة طويلة من الأنبياء وُضع أساسها على يد موسى عليه السلام. وأخبر الله تعالى في هذا السياق أنه كان قد أخبر بواسطة إبراهيم عليه السلام أنه تعالى سيقم سلسلة روحانية عظيمة من النبوة بواسطة ابنه إسماعيل وإسحاق كليهما. فما دامت النبوة قد بدأت بأمر الله تعالى واستمرت، وما دام الأنبياء السابقون قد أنبأوا بظهور نبي عظيم في بني إسماعيل، فلا مبرر للاستغراب من ادعاء شخص منهم النبوة.

والموضوع الثاني الذي بدأ الله تعالى بيانه من الركوع الرابع هو أن كل نبي قد لقي معارضة، فأدم عليه السلام واجه اعتراضات شديدة من قبل الشيطان وذريته. ومع أن الملائكة لم يعترضوا عليه، ولكنهم أبدوا استغراباً وحيرة لخلقهم. ثم تكرر الأمر نفسه عند ظهور كل نبي حتى لم يسلم من الاعتراضات نبي عظيم كموسى عليه السلام. فكيف يصح إنكار محمد ﷺ بحجة أن بعض الناس يعترضون عليه في بعض ما جاء به؟

والموضوع الثالث الذي ذكره الله تعالى في هذه الركوعات هو أن الله تعالى عندما يصطفي أمة فإنه يتم عليها فضله، ولكنها عندما تتعدى الحدود في الكفران بنعمه فإنه تعالى ينقل فضله منها إلى أمة أخرى. لقد انتقل فضل النبوة من آدم مروراً بأولاده الكثيرين إلى بني إسرائيل، وإذا كان فضل الله قد انتقل الآن إلى بني إسماعيل من بني إسرائيل جراء أفعالهم المنكرة المتواترة لزمن طويل،

^١ أي بدءاً من الآية: ٣١ (المترجم).

^٢ أي بدءاً من الآية: ٤١ (المترجم).

فلماذا يغضبون من فعل الله هذا؟ ولماذا يغضب أهل مكة أيضاً على ذلك؟ لا مبرر لسخط بني إسرائيل على ذلك، لأنهم بأنفسهم دَعَوْا فضل الله من بيوتهم دَعَاءً، كما لا يجوز لأهل مكة أن يشتكوا من إضاءة سراج نور الله تعالى في بيوتهم المظلمة، ومن نزول شآبيب رحمة الله على قلوبهم الداوية، بل الحري بهم أن يفرحوا بذلك، فإنها مناسبة فرح وابتهاج لا حزن واكتئاب.

هذه هي المواضيع الثلاثة التي بدأ الله تعالى في بيانها من الركوع الرابع وسوف يستمر بيانها في الآيات التالية لهذه الآية التي هي قيد التفسير والتي تبدو عجيبة في هذا السياق، وكأنها شاذة لا رابط بينها وبين ما قبلها وما بعدها من الآيات. فالآيات السابقة لها تتحدث عن اليهود في الزمن القديم، والآيات التالية لها أيضاً تتحدث عن اليهود في زمن موسى عليه السلام، وبينهما جاءت هذه الآية لتتحدث عن المسلمين أو عن المؤمنين عموماً وعن النصارى والصابئين أيضاً. فالسؤال هنا: أين الرابط بين هذه الآية والتي قبلها وبعدها؟

والجواب أن الآية السابقة تحدثت عن موضوع نزول الغضب الإلهي الدائم على اليهود وأنهم ظلوا يعارضون الأنبياء. وهو موضوع مخيف تنخلع من هوله القلوب، ولا ترضى الفطرة الإنسانية المرور به بدون أن تجد حلاً لمشاكلها. فعندما يقرأ المرء أن الله تعالى ظل ينزل فضله على أمة نزولاً غير منقطع لمدة طويلة، ولكنهم عصوا الله تعالى مرة بعد أخرى، وخالفوا أنبياءهم، فإنه يقول في نفسه ما هو الطريق الذي يجتبه هذا المآل الخطير. وتردّ هذه الآية على هذا السؤال الفطري الناشئ في القلب عند قراءة هذا الموضوع المخيف، فتقول إن المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً ويعملون صالحاً بحسب إيمانهم، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو الصابئين أو أية أمة أخرى، سوف ينالون أجرهم عند الله تعالى. أي أن الأمر الذي يضمن للإنسان أمناً دائماً هو إيمانه بالله واليوم الآخر وعمله الصالح. فلا تظنوا أن الإنسان يتعثر رغم إيمانه الصادق، كلا. إن بني إسرائيل لم يتعثروا ولم يستحقوا غضب الله عليهم مع صدقهم في إيمانهم، إنما سببه ضعف إيمانهم، لأن الذي يؤمن بالله

بصدق، ويوقن بالبعث بعد الموت، ويعمل صالحاً بحسب ذلك، فلا يستحق غضب الله أبداً. فإذا كان اليهود قد تعثروا، وكذلك النصارى وغيرهم من الأمم المجاورة لهم مثل الصابئين، فإن أكبر أسباب عثارهم أنهم إما لم يؤمنوا بالله حقاً، أو لم يوقنوا باليوم الآخر حقاً، أو لم يعملوا صالحاً بحسب إيمانهم. لم يكن اليهود صادقين في إيمانهم بالله تعالى ولذلك عبدوا العجل، ولم يكونوا مؤمنين باليوم الآخر حقاً ولذلك تتبّعوا كل ما يتعلق باليوم الآخر في كتبهم الدينية وحذفوه. والحال نفسه للنصارى، فلم يكونوا صادقين في إيمانهم بالله تعالى وإلا لما اتخذوا عبداً من عباد الله ابناً لله تعالى، ناهيك عن العمل الصالح عندهم، فإن عقيدة الكفارة أبطلت ضرورة العمل الصالح! ومن أجل ذلك يقول الله تعالى: لا تخافوا من سوء مآل اليهود وقراءة أنباء غضب الله عليهم؛ فظننوا أنه ما دام اليهود الذين بُعث فيهم هذا العدد الضخم من الأنبياء يمكن أن يفسدوا، فكيف يطمئن المرء على مصيره الروحاني؟ إن الفلاح الروحاني ممكن يقيناً، كل ما عليكم هو إصلاح إيمانكم بالله واليوم الآخر وفعل الصالحات، وعندها لن يحيد بكم شيء عن جادة الصواب، ولن تُحرّموا من فضل الله ونعمه أبداً. والذين يفعلون ذلك فلا خوف على مستقبلهم، ولا حزن عليهم مما فرطوا به في الماضي.

علماً أن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتضمن المؤمنين من جميع الأمم، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ فيذكر هؤلاء الأمم الثلاث خاصة من أجل التأكيد. وكأن الآية تقول: إن كل المؤمنين بالله واليوم الآخر عامة، ولا سيما اليهود والنصارى والصابئين سواء الصابئين المعروفين أو أمة غيرهم، إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً بحسب الإيمان، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم في المستقبل ولا هم يحزنون على الماضي.

ونظراً إلى هذا المفهوم، فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا يشير إلى المسلمين وحدهم، بل هو عام يشمل جميع المؤمنين من كل الأمم، سواء كانوا هندوساً أو أتباع زرادشت أو أهل الديانة الإغريقية أو أتباع كونفوشيوس أو اليهود أو

النصارى أو الصابئين. فتوضيحاً للمعنى الإجمالي لكلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أتبعها الله بقوله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ وقدم مثال هؤلاء الديانات الثلاث المجاورة للعرب، دفعاً للقنوط الذي قد يستولي على قلب المؤمن بقراءة سوء أحوال اليهود ومصيرهم في الآيات السابقة، مبيّناً أن سبيل الإيمان ليس محفوفاً بالأخطار كما يبدو من مآل اليهود، فإنهم أهلكوا أنفسهم بأنفسهم، وإلاّ فإن الطريق الروحاني فسيح وممهّد وليس بوعر. لو كان الإنسان مؤمناً بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات حقاً، لَزالت من أمامه كل المشاكل والعراقيل تلقائياً، فلا يجد صعوبة في معرفة الأنبياء، ولا يعاني في إدراك حقائق المسائل الروحانية، ولا تبقى أمامه أية معضلات في الأمور الأخلاقية، ولا يشعر بالملل في القيام بالعبادات، ولا بالعبء في الوفاء بحقوق العباد.

إن من كمالات القرآن الكريم ومحاسنه أنه كلما تناول موضوعاً فيه من الوعيد ما قد يسبب القنوط للإنسان، لم يلبث أن فتح أمامه باب الأمل أيضاً، وكلما ذكر موضوعاً فيه من البشارة والسرور ما قد يُسبب الغفلة والكسل للبعض، أثبته بذكر ما يولّد خشية الله وتقواه، لكي يبقى الإيمان في اعتدال بين الرجاء والخوف ولا يتطرف قلب المسلم إلى أحد الطرفين كلية. أما التوراة والإنجيل وسائر الكتب الأخرى فتعوزها هذه الميزة. إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي راعى هذا الاتزان والاعتدال الذي يحول دون انحراف الإنسان إلى أمل باطل أو قنوط مدمر.

وهناك علاقة أخرى لهذه الآية بما قبلها من الآيات، فالآية قيد التفسير تذكّر بني إسرائيل بما ارتكبه من ضروب العصيان المتكرر، وبرؤية هذه الوقائع المؤلمة مجتمعة في موضع واحد كان لا بد أن يتأثر بها أصحاب الطباع الطيبة من بني إسرائيل الذين يخشون الله تعالى حقاً، وكان هناك خطر أن يصيبهم القنوط فيظنوا أنه لم يبق لقومهم سبيل للغفران والنجاة، فدرأً لليأس عنهم قال الله تعالى لهم: لقد فتحنا اليوم أبواب رحمتنا ثانيةً بواسطة دين الإسلام، فكل من أصلح إيمانه بحسب تعاليم الإسلام وعمل الصالحات -سواء كان مسلماً أو يهودياً أو

نصرانياً أو مؤمناً بأي كتاب سماوي آخر - سوف تُتاح له أيضاً فرصة التقدم الروحاني والفوز بقرب الله ونيل أفضاله تعالى ثانية، ولن يحول بينه وبين ذلك ما ارتكبه أمته من المعاصي في الماضي.

لا بد هنا من الرد على شبهة قد تنتاب البعض وهي: إذا كانت الحالة الإيمانية لبني إسرائيل بهذا السوء والتردي فلماذا فضّلهم الله على الآخرين؟
والجواب: لا يمكن قياس حالة أمة بحال العوامّ منها فقط، وإنما تقدّر قيمتها بحالة الخواصّ منها حيناً، وباستعدادها الفطري حيناً آخر. انظروا كيف أن بني إسرائيل - رغم بُعدهم عن عهد النبوة ورغم تعرضهم لشتى أنواع الاضطهاد طيلة هذه القرون الطويلة - لا يزالون مسمكين بمقاليذ الاقتصاد العالمي نتيجة ذكائهم ودهائهم، ويتفوقون على غيرهم في مجال الاكتشافات العلمية المختلفة، مما يدل على مواهبهم الفطرية وملكاتهم الخاصة التي تميزهم عن كثير من شعوب العالم. هذا فيما يتعلق باستعدادهم الفطري، وأما قدرات الخواصّ من بني إسرائيل فيكفيك دليلاً على ذلك أنه لم يُبعث في أي شعب من الأنبياء بقدر ما بُعث فيهم، فتمتّع هذا العدد الكبير منهم بالجواهر الروحاني والقرب الإلهي دليلٌ قاطع على فضلهم. فلم يكن اصطفاء الله إياهم لأفضال خاصة عن فراغ أو من قبيل التحكم، بل كانوا أهلاً لها في الحقيقة.

لكن الأسف أنه رغم كثرة الخواص بين بني إسرائيل وتمييزهم بميزة حدّة النور الفطري إلا أنهم كانوا مصابين بعيين وهما: أنهم استخدموا نورهم الفطري من أجل تحقيق الرقي المادي بدلاً من الرقي الروحاني، كما أن تمتّعهم بالذكاء العالي بوجه عام جعلهم يحسدون أنبياءهم ويرفضون احترامهم اللائق بهم، فدفعهم هذان العيبان إلى التفهقر في المجال الروحاني في نهاية المطاف، فحرّموا نعمة النبوة.

خلاصة القول، إن تمتّع بني إسرائيل بأفضال الله الخاصة وجلبهم سخط الله على أنفسهم بالتكرار في وقت واحد، ليسا بضدين لا يجتمعان، بل يمكن أن يجتمع هذان الأمران في وقت واحد، وقد اجتمعا فيهم بالفعل.

لقد ذكرت هذا المعنى نظراً لارتباط الآية قيد التفسير بما قبلها وما بعدها من الآيات، أما بالنظر إليها كآية مستقلة فيمكن أن تعني كلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المسلمين أيضاً، وفي هذه الحالة تصبح هذه الآية نبأً عظيم الشأن إذ تبين طريقاً سهلاً للفصل بين الأديان المختلفة. وبيان ذلك أنه ما من أحدٍ في الدنيا يدعُ أحباءَه يهلكون ويدمرون أو يراهم عرضةً للأذى، فكيف يمكن لله تعالى أن يخزي أحباءَه ويذلّهم؟ الأمر الفيصل بين شتى الأديان هو أن الدين الذي يتلقى من الله النصر والتأييد هو الدين الحق، أما الأديان المحرومة من نصرة الله وتأييده فلا يمكن أن تكون مَرْضِيَّةً عند الله تعالى. وبحسب هذا المبدأ قد ذكر الله تعالى هنا بعض الأديان الموجودة في ذلك الوقت وقال إن المؤمنين -أي أهل الإسلام- وكذلك اليهود والنصارى والصابئين كل أمة منهم تدّعي بأنهم هم المؤمنون حقاً وأن الأعمال التي يقومون بها هي الأعمال الحقة المرضية عند الله تعالى، فتعالوا ندلكم على ما يفصل بينكم، لتعلموا من منكم هم أحباء الله المرضيون عنده حقاً. ألا إن آية صدق الصادق منكم في إيمانه بالله واليوم الآخر وفعل الصالحات حقاً هي أنه سيخرج من حالة الخوف أو الحزن وسيتمتع بكل نوع من الطمأنينة والراحة بفضل الله تعالى.

ولإدراك الظروف التي طُرِح فيها هذا المعيار لمعرفة صدق الأديان المختلفة، ليكن معلوماً أن هذه السورة قد نزلت في السنوات الأولى بعد الهجرة، حين كان الإسلام ضعيفاً غَضَّ الإهاب، وكان أهل الجزيرة العربية يعادون الرسول ﷺ متعطشين لدمه. أما أهل المدينة فإن فئة قوية منهم دخلوا في الإسلام نفاقاً وكانوا يتآمرون لتدمير الإسلام. وكانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود وكلها كانت تعادي الإسلام عداء شديداً وتسعى جاهدة للقضاء عليه. وكانت بالقرب من المدينة قبائل نصرانية. وكان أهل الشام -وهم على عدة منازل من المدينة- يعادون الإسلام بشدة. ولم يتجاوز عدد المسلمين رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً ثلاثة أو أربعة آلاف.

في هذه الظروف الحالية، أنطق الله تعالى لسان نبيه ﷺ بهذه الكلمات وأبلغ على يده ﷺ - جميع الأعداء الذين كانوا يزيدون عن المؤمنين آلاف المرات عدداً، وليس ذلك فحسب بل كانوا أكثر منهم مالاً وعزاً وقوة ومنعة وعدةً وعتاداً بما يفوق التصور - رسالة تقول: أيها القوم، إن كل طائفة منا تدعي أنها هي المؤمنة بالله واليوم الآخر وتعمل الصالحات المرضية عند الله تعالى، وأما سبيل الفصل بيننا وبينكم فهو أن الله ينصر الصادق منا حتماً. لا شك أنكم أكثرُ منا عدداً وتنعمون بالأمن والراحة، ولكننا نخبركم أن الطائفة التي ينجيها الله تعالى من الشدائد والمصائب ستكون هي الصادقة وال مرضية عند الله تعالى، وأما الطائفة التي تصبح هدفاً للخوف والحزن رغم توافر وسائل الأمن والراحة فهي التي ستكون على الباطل حتماً.

أي الديانات ثبت صدقها وفقاً لهذا المعيار؟ أرى أننا لسنا بحاجة للإجابة على هذا التساؤل من عند أنفسنا، فكُتِبَ أعداء الإسلام نفسها تلقي عليه ضوءاً كافياً، حيث تكشف أن هناك بوئاً شاسعاً بين ما كان عليه المسلمون في بعد الهجرة حين تم هذا الإعلان القرآني، وبين ما صاروا عليه بعد بضع سنين، وكيف أن المسلمين المحاصرين بين الأعداء من كل جانب انطلقوا في الأرض شرقاً وغرباً حتى ملأوها، وانقلب حزنهم وخوفهم أملاً وسروراً، أما أعداؤهم الذين كانوا ينعمون بالراحة والأمان فأقضَّ الخوفُ والحزن مضاجعهم. فكانت هذه شهادة عملية من عند الله على أن جماعة المسلمين هي الجماعة المؤمنة بالله واليوم الآخر حقاً والعاملة للصالحات، وأما أتباع الديانات الأخرى فليس إيمانها إلا إيماناً تقليدياً فارغاً، وأن أعمالهم لا تحظى برضا الله تعالى.

ولا يصحّ الاعتراض على هذا المعيار بحجة أن الدول المسيحية غالبية على المسلمين في هذا العصر. ذلك أن الوعد الإلهي بالخروج من حالة الخوف والحزن عند الصراع الديني لم يكن إلا للذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً صادقاً ويعملون الصالحات حقاً، لكن المسلمين في هذا الزمن قد أعرضوا عن الإسلام واتخذوا القرآن مهجوراً وشابهوا بني إسرائيل في زمن المسيح الناصري

عليه السلام، وذلك وفقاً لأنباء النبي ﷺ؛ فوقوعهم في أنواع الحزن والخوف إنما هو عقاب لهم وتحقق لنبا رسولنا ﷺ. غير أن هناك وعداً أيضاً لهم بأنهم سوف يؤمنون بالمسيح الموعود ليتحقق لهم هذا الوعد الإلهي ثانية، وينجوا من الخوف والحزن، وليصبح أعداؤهم أذلاء مهانين إزاءهم. لكن هذه الغلبة لن تتم بالأسباب المادية بل بالأسباب الروحانية، وسيجعل الإسلام غالباً بالحجة والبرهان بدلاً من السيف والسنان. وقد ظهر ذلك المسيح الموعود عليه السلام، وإن الله تعالى ينجيهِ هو وأتباعه من الحزن والخوف بآيات خارقة للعادة، ويخزي أعداءهم عند المواجهة.

لقد اتخذ البعض في فهم هذه الآية فظنوا أن القرآن الكريم قد جعل هنا زوال الحزن والخوف مشروطاً بالإيمان بالله واليوم الآخر فقط، وهذا دليل على أن كل أمة تؤمن بالله واليوم الآخر ناجية بحسب القرآن الكريم. ولكنه فهم غير سليم تماماً؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يشمل جميع مبادئ الإسلام. قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥١-١٥٢). فهذه الآية تبين أن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بالرسول، وأن الإيمان بالرسول يتضمن الإيمان بكتابه أيضاً.

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣). لقد اتضح من هذه الآية أيضاً أن الإيمان بالآخرة يشمل الإيمان بالقرآن الكريم والقيام بالعبادات المفروضة.

فثبت أن الإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن كل ما يتفرع منه من قضايا وأحكام أخرى.

أما قول الله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، فليكن معلوماً أن العمل الصالح هو ما يكون ملائماً للظرف، لأن الصلاح في العربية يعني المناسب الموافق الذي لا عيب فيه، يقال: صالحه: وافقه، وهذا يصلح لك، أي يناسبك. وأصلح بين

القوم: وافق بينهم. فالعمل الصالح ما يكون وفق الحاجة والظرف، ومثل هذا العمل هو ما يمكن أن يصلح الفساد والخراب، أما العمل الذي لا يكون ملائماً للحاجة والظرف فيؤدي إلى الفساد والخراب مهما بدا حسناً في بادي الرأي. فمثلاً لو بدأ المرء الصلاة وقت القتال، أو شرع يوزع الصدقات وقت الصلاة، أو تشاغل بأعمال تبطل الصيام، فيسافر مثلاً إلى خارج مدينته في جولات تبليغية تاركاً الصوم بحجة السفر، فإن أعماله هذه كلها لن توصف بالصالح ولن تترتب عليها نتائج طيبة، حتى وإن كانت هذه الأعمال حسنة في الظاهر.

إن القرآن الكريم كلما ذكر الإنسان الكامل جعل له شرط العمل الصالح وليس العمل الحسن، ذلك أن أي عمل حسن إذا لم يكن صالحاً فلا يكون نافعاً، وعلى النقيض إن بعض الأعمال التي تبدو سيئة في بادئ الأمر تصبح نافعة أحياناً إذا ما صارت صالحة أي ملائمة للظرف. فمثلاً لو رأيت عقرباً على رأس إنسان، أو حية محتفية في عمامته، وخفت أن تلدغه إن اقتربت منها ببطء أو حذرته منها، فضربت الرجل بيدك بل بنعلك في ذلك المكان لقتل الحية أو العقرب، فقد عملت عملاً صالحاً تثاب عليه، وإن كان ضربك إياه في حد ذاته عملاً سيئاً. أو مثلاً لو كنت واقفاً مع شخص يقف بالقرب من حفرة، وعلمت أن عدوه على وشك إطلاق النار عليه، فدفعته في الحفرة إنقاذاً له من قذيفة قاتلة، لكان عملك صالحاً، وإن كان إلقاءك إياه في الحفرة عملاً غير سليم في الظرف العادي.

فالحق أن ما يثاب عليه المرء هو العمل الصالح. لا شك أن الأعمال الحسنة هي التي تكون أعمالاً صالحةً في معظم الأحوال، ولكن الإنسان أحياناً يجعل من الفعل الحسن عملاً غير صالح فلا يستحق عليه الثواب، كذلك يصبح العمل السيئ عملاً صالحاً عند الضرورة شريطة أن يصبح العمل به في ذلك الظرف ضرورياً وفق أمر الله تعالى.

خرج النبي ﷺ ذات مرة للجهاد، وكان بعض الصحابة صائمين، فلما وصلوا إلى المنزل اشتد التعب بالصائمين فسقطوا على الأرض منهكين، أما

المفطرون فأخذوا ينصبون الخيام ويحفرون الأرض إعداداً للمكان، ويجمعون الحطب، ويجلبون الماء للوضوء والشرب، فلما رأى النبي ﷺ ذلك قال: سبق المفطرون الصائمين أجراً.

تعلمنا هذه الواقعة أن الصوم، وإن كان عملاً حسناً، إلا أنه يصبح غير جائز أو عملاً أدنى حين يكون الإسلام بحاجة إلى عمل آخر يتطلب من المسلم قوة وجهداً.

علمنا أن هؤلاء الصحابة كانوا صائمين صومَ تطوعٍ، لا صوم فرض فهو غير جائز في السفر.

ولسوء الحظ أن المسلمين مصابون اليوم بهذا الخلل، فتجد كثيراً منهم يعملون الأعمال الحسنة، ولكن قلماً تجدهم يعملون الأعمال الصالحة. إن الإسلام اليوم في أزمة شديدة؛ حيث تُشنّ عليه الهجمات من كل حذب وصوب، ولكنك تجد ملايين المسلمين رغم انخطاطهم، مداومين على الصلوات والأذكار، ولكن المصيبة أنهم يقضون جُلَّ أوقاتهم في هذه الصلوات والأذكار فقط. لا شك أن مساجدهم عامرة، ولكنهم لا يبالون بخراب أصاب بيت محمد رسول الله ﷺ؛ لذا فصلواهم وأذكارهم هذه مردودة في وجوههم. فما داموا لا يبالون بعمارة بيت الإسلام فلا يعمر الله قلوبهم بتجلياته.

ثم إن مئات الآلاف منهم يسعون، في بادئ الأمر، للنهوض بإخوانهم في مجالات التعليم والاقتصاد والسياسة، ولكنهم غافلون عن الصلاة والصيام وغيرهما، فصارت أعمالهم هذه سياسيةً بحتةً، لأنها تخلو من طعم الدين والروحانية. يهتمون بضرورات الجسم، ويتجاهلون ضرورات الروح، فأعمالهم أيضاً ليست من الصالحات في شيء. إنما العمل الصالح ما يُراعى فيه الظرف والحاجة جيداً. إن البيت الذي ينقصه جدار واحد لا يُعدُّ بيتاً صالحاً لحماية الإنسان، فما بالك ببيت ليس له إلا جدار واحد؟ كانت هناك حاجة ماسة إلى بيان محاسن تعاليم الإسلام بالعمل، وإلى حماية الإسلام بسيف الأدلة والبراهين، ولو أنهم فعلوا ذلك لما أصاب الإسلام هذا الضعف والهزال، ولم

يصبح المسلمون متمردين متهورين، ولا جناء متهرين، بل لتحلوا بمكارم الأخلاق، وبذلوا أعلى التضحيات، ولأصبحوا شرفاء متواضعين، وشجعان وبواسل؛ ولجمعوا في أنفسهم كل الأخلاق الفاضلة في وقت واحد، ولم تستطع أمة في الدنيا مباراتهم.

ويجب أن نتذكر أيضا أن كلمة (الصلاح) لا تُستخدم في العربية أبداً بمعنى الشر، وعليه فإن الكذب والسرقة وقطع الطرق وغيرها من الأفعال ليست من الصلاح في شيء، حتى لو قام بها أحد من أجل مصلحة شخصية أو لمنفعة غيره.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٦٤)

شرح الكلمات:

الميثاق: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ (المفردات).

رَفَعْنَا: رفعه رفعاً: ضدُّ وضعه. رُفِعَ له الشيءُ: أبصره من بعيد (الأقرب).

الطور: الجبل؛ جبلٌ قربَ أيلةَ يضاف إلى سيناء (الأقرب).

اذكروا: ذكر الشيء: حَفِظَه في ذهنه (الأقرب).

وقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: ادرسوا ما فيه (اللسان).

للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ).

تتقون: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (هدى للمتقين).

التفسير: المراد من قوله تعالى: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ تلك الوصايا العشر والأحكام الأخرى التي نزلت على موسى ﷺ على جبل سيناء. لقد نبه الله تعالى هنا بني إسرائيل إلى تلك الأحكام وقال تذكروا تلك الوصايا التي

أوتيتموها وأنتم واقفون على سفح جبل سيناء، والتي أعرضتم عن سماعها قائلين: لا نريد سماعها حتى لا نهلك.

وسبب إضافة الميثاق إلى بني إسرائيل في قوله تعالى ﴿مِيثَاقُكُمْ﴾ هو أنه كان ميثاقاً شهيراً وذا أهمية كبيرة عندهم. لقد وُضع فيه الأساس للأواصر التي كانت تستشأ بين الله تعالى وبينهم، وقد قرّر الله تعالى بسبب معاصيهم المتكررة وقت ذلك الميثاق أن النبي الموعودَ صاحبَ الشرع الجديد لن يظهر من بني إسحاق، بل سيظهر من بني إسماعيل. فبسبب أهميته القصوى لبني إسرائيل سُمّي "ميثاق بني إسرائيل" تذكيراً لهم بأهميته. وهذا الأسلوب شائع في كل لغة، فمثلاً يكون في البيت عدة أولاد ولكن أحدهم يحظى بدلال زائد من قبل أمه، فلو رآه والده يبالغ في شطارته، لأتى به إلى الأم وقال لها: انظري ماذا فعل ابنك هذا. وقوله هذا لا يعني أنه ليس ابناً له أو أن أولاده الآخرين ليسوا أبناء لها، وإنما المراد أن هذا الولد تربطه بأمه أواصر محبة متزايدة. وعلى هذا المنوال نفسه قال الله تعالى هنا ﴿مِيثَاقُكُمْ﴾، ولا يعني هذا أنه لم يكن لبني إسرائيل مع الله تعالى عهد سواه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾. والطور في العبرية هو الجبل أيّا كان (قاموس العهد القديم: عبري - إنجليزي). ومن معاني الطور في العبرية أيضاً الجبل، ولكن لما سمع العرب من اليهود أن الله تعالى تكلم مع موسى ﷺ على الطور، ظنوا أن الطور ربما يعني بالعبرية ذلك الجبل الخاص في سيناء، فسموه "جبل الطور"، مع أن المعنى أن الله تعالى تكلم مع موسى ﷺ على جبل ما.

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة الطور بمعنى الجبل فقط كما في العبرية، وكان حريّاً به أن يفعل هكذا، غير أن في الاستعمال القرآني إشارة إلى أن الطور يعني الجبل وليس جبلاً معيناً، حيث قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ (المؤمنون: ٢١)، وقال تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢-٣)، أي أن المراد من طور موسى ﷺ جبل في بركة سيناء.

لقد أخطأ بعض المفسرين في فهم قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾، وظنوا أن الله تعالى رفع الجبل وجعله كالمظلة فوق رؤوس بني إسرائيل، وقد استغلَّ المستشرق رُدُول Rodwell خطأهم للطعن في الإسلام وقال: لقد وقع اليهود في هذا الخطأ لعدم فهمهم ما ورد في الكتاب المقدس، وقد نقل القرآن الخطأ نفسه بعد سماعه من اليهود.

والكلمات الواردة في سفر الخروج ١٩: ١٧ هي: {وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلَاقَاةِ اللَّهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ}. والحق أن اليهود كما أخطأوا في فهم هذه الفقرة كما يشير إليه المستشرق رُدُول، كذلك فإن بعض المفسرين فسروا هذه الآية القرآنية بالمعنى الخاطئ بناءً على هذه الروايات اليهودية حول رفع الطور عليهم. مع أن هذه الآية القرآنية لا تعني إلا أن هذا الميثاق قد أخذ منهم حين كانوا عند سفح الجبل. وهذا المعنى يتفق مع الأسلوب العربي تماماً.

لقد انخدع المفسرون بكلمتي (رفع) و(فوق)، مع أنهما أيضاً تعنيان الرفع فقط. فقد ورد في حديث الهجرة النبوية عن البراء ابن عازب أن الخليفة الأول سيدنا أبا بكر رضي الله عنه قال وهو يقصّ قصة الهجرة إلى المدينة أنه لما اشتد بنا الحر وقت الظهيرة: "رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ" (البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام). فلا يعني ذلك أن صخرة رُفِعَتْ لهما فعلاً، بل المراد أنهما رأيا بالقرب منهما صخرة مرتفعة لها ظل. كذلك ورد في القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١١-١٢). فمعنى قوله ﴿جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أنهم جاءوكم من الجهتين، المرتفعة والمنخفضة من الأرض.

فالمفهوم الصحيح للآية أن اليهود كانوا واقفين بالقرب من الطور عندما أعطاهم الله تعالى بعض الوصايا وأخذ منهم العهد للعمل بها كما هو ثابت من الكتاب المقدس حيث ورد:

{وَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ أَنَّهُ صَارَتْ رُغُودٌ وَبُرُوقٌ وَسَحَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَصَوْتُ بُوقٍ شَدِيدٌ جَدًّا. فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمَحَلَّةِ. وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلَاقَاةِ اللَّهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. وَكَانَ جَبَلُ سَيْنَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الْأَثُونِ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جَدًّا. فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَادًا جَدًّا، وَمُوسَى يَتَكَلَّمُ وَاللَّهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ. وَنَزَلَ الرَّبُّ عَلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ، إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ، وَدَعَا اللَّهُ مُوسَى إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ. فَصَعِدَ مُوسَى. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْحَدِرْ حَذِرَ الشَّعْبِ لِئَلَّا يَفْتَحِمُوا إِلَى الرَّبِّ لِيَنْظُرُوا، فَيَسْقُطَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. وَلِيَتَقَدَّسَ أَيْضًا الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ إِلَى الرَّبِّ لِئَلَّا يَبْطِشَ بِهِمُ الرَّبُّ». فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لَا يَقْدِرُ الشَّعْبُ أَنْ يَصْعَدَ إِلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ، لِأَنَّكَ أَنْتَ حَذَرْتَنَا قَائِلًا: أَقِمْ حُدُودًا لِلْجَبَلِ وَقَدِّسْهُ». فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «اذْهَبْ انْحَدِرْ ثُمَّ اصْعَدْ أَنْتَ وَهَارُونُ مَعَكَ. وَأَمَّا الْكَهَنَةُ وَالشَّعْبُ فَلَا يَفْتَحِمُوا لِيَصْعَدُوا إِلَى الرَّبِّ لِئَلَّا يَبْطِشَ بِهِمْ». فَانْحَدَرَ مُوسَى إِلَى الشَّعْبِ وَقَالَ لَهُمْ. { (الخروج ١٩: ٢٥-١٦).

وقد نُسبَ رفعُ الطور إلى الله تعالى في قوله ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، لأنه هو الذي أوصاهم بالانتظار أسفل الجبل كما يذكر الكتاب المقدس: {فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَدِرْ حَذِرَ الشَّعْبِ لِئَلَّا يَفْتَحِمُوا إِلَى الرَّبِّ لِيَنْظُرُوا، فَيَسْقُطَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ.}

وجدير بالذكر أيضا أن في كلمة (رَفَعْنَا) و(فَوْقَ) إشارة إلى أن ميثاق الطور هذا له صفةُ الدوام، وكأنَّ الله تعالى لم يذكر هنا أن هذا العهد قد أُخذ عند سفح الطور فحسب، بل أشار أيضًا بطريق المجاز اللطيف إلى أن الطور سيقى

دائماً محققاً فوق رؤوسهم لِيُذَكِّرَهُمْ بهذا العهد، فليس هذا العهد ليوم أو يومين، بل هو ذو صلة دائمة بالحياة القومية لبني إسرائيل.

ثم قال الله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. وضع الله تعالى اللبنة الأولى للشرعة الموسوية في بركة سيناء على جبل يذكره الناس الآن باسم "الطور"، وسوف نذكره نحن أيضاً بهذا الاسم. وقد ورد كل هذا الحدث والزلال في سفر الخروج ١٩ و ٢٠. ويبدو من الفقرة {الرَّبُّ إِلَهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْداً فِي حُورَيْبَ} (التثنية ٥: ٢) أن موسى ﷺ تلقى الوصايا العشر على صخرة بجبل حوريب، وفي تلك المناسبة أخذ من بني إسرائيل الميثاق بالعمل بهذه الوصايا. وقد أوتوا أحكاماً أخرى بالإضافة إلى الوصايا العشر كما أثبتنا ذلك على ضوء ما ورد في سفر الخروج في الإصحاحات من ٢٠ إلى ٣١، وذلك لدى شرح كلمة "الكتاب" عند تفسير قول الله تعالى ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ (البقرة ٥٤). وكان هذا أساساً لنعمة عظيمة الشأن، ولكن اليهود كفروا بهذه المناسبة أيضاً كما تبين الآية التي تلتها.

وتؤكد آيتنا هذه بأن على بني إسرائيل أن يذكروا دائماً ذلك العهد الذي أخذ منهم عندئذ، وأن يتمسكوا به بقوة، ويعملوا به دائماً، لكي ينجوا من المصائب كلها. وقد ورد هذا التأكيد في الكتاب المقدس كالاتي: {وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ الْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا فِي مَسَامِعِكُمُ الْيَوْمَ، وَتَعَلَّمُوهَا وَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوهَا.} (التثنية ٥: ١)

كما أن مفهوم قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أيضاً موجود في الكتاب المقدس، أي أنكم إن تمسكتكم بميثاقكم هذا وعملتكم بهذه الوصايا التي أوتيتها فستنجون من عذاب الله والمصائب، حيث ورد: {فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «لَا تَخَافُوا. لَأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا جَاءَ لِكَيْ يَمَتِّحَكُمْ، وَلِكَيْ تَكُونَ مَخَافَتُهُ أَمَامَ وُجُوهِكُمْ حَتَّى لَا تُخْطِئُوا»} (الخروج ٢٠: ٢٠).

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ

مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٥)

شرح الكلمات:

توليتهم: تَوَلَّى: أَدْبَرَ. تَوَلَّى عنه: أَعْرَضَ عنه وتركه (الأقرب).

فمعنى توليتهم: رجعتهم مدبرين؛ أَعْرَضْتُمْ عنه وتركتموه.

فضل: الفضل: الإحسان والابتداء به بلا عِلَّةٍ (الأقرب).

الخاسرين: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ... أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

التفسير: ورد في الكتاب المقدس: {وَكَانَ جَمِيعُ الشَّعْبِ يَرَوْنَ الرُّعُودَ وَالْبُرُوقَ وَصَوْتَ الْبُوقِ، وَالْجَبَلَ يُدَخِّنُ. وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ ارْتَعَدُوا وَوَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ، وَقَالُوا لِمُوسَى: «تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعَ. وَلَا يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللَّهُ لِئَلَّا نَمُوتَ»}. (الخروج ٢٠: ١٨-١٩).

وورد أيضاً: {وَجَهَّأَ لَوَجْهِهِ تَكَلَّمَ الرَّبُّ مَعَنَا فِي الْجَبَلِ مِنْ وَسْطِ النَّارِ. أَنَا كُنْتُ وَاقِفاً بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَكُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِكَيْ أُخْبِرْكُمْ بِكَلَامِ الرَّبِّ، لِأَنَّكُمْ خِفْتُمْ مِنْ أَجْلِ النَّارِ، وَلَمْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ}. (التثنية ٥: ٤-٥)

يتضح من هذه الفقرات أن بني إسرائيل خافوا بسبب الزلزال حين دعاهم الله تعالى ليشرفهم بكلامه مشافهة. فقوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني أنهم فروا من هناك مدبرين، ولم يريدوا سماع كلام الله تعالى. ويقول الله تعالى لهم: لولا شملكم الله بفضله ورحمته لحا اسمكم من أمة رسوله وأصبحتم من الخاسرين، ولكنه لم يعاقبكم. غير أن الثابت من التثنية ١٨: ١٨ أن الله تعالى قرر بسبب رفضهم سماع كلامه أن النبي الموعود المثل لموسى لن يظهر من بني إسرائيل، بل يظهر من إخوانهم بني إسماعيل.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٦٦-٦٧)

شرح الكلمات:

اعتدوا: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (... ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

السبت: سَبَتَ الرجلُ يَسُبُّتُ ويسبُّ سَبْتًا: استراح. سَبَتَ الشيءَ: قطعه. سَبَتَ الرأسَ: حلَّقه. سَبَتَ: قامَ بأمرِ السبت. والسبتُ: الدهرُ؛ يومٌ من أيام الأسبوع بين الجمعة والأحد (الأقرب).

ويسمى السبت سبتًا لأنه يوم عطلة عند اليهود من أجل الراحة. خاسئين: جمعُ خاسئ. خَسَأَتُ الكلبُ فخرَّسًا؛ زجرته مستهينا به فانزجر (التاج).

خرَّسَ الرجلُ الكلبَ: طرده؛ الخاسئ من الكلاب المبعد المطرود ولا يُترك أن يدنو من الناس. (الأقرب)

نكالًا: نكلَ بفلان: صنَّعَ به صنيعًا يحذر غيره إذا رآه. والنكال اسمٌ ما يُجعل عبرةً للغير. (الأقرب)

موعظة: وعظه: نصَّحه وذكره ما يلبِّن قلبه من الثواب والعقاب؛ وفي المصباح: "وما يسوقه إلى التوبة إلى الله وإصلاح السيرة، وأمره بالطاعة." والموعظة: كلامُ الواعظ من النصيح والحث والإنذار (الأقرب).

وقال الخليل: الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب (المفردات).

المتقين: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (هُدًى للمتقين).

التفسير: كل ما ذكرناه من معاني السبب في شرح الكلمات يمكن أن ينطبق هنا. فلو قُرئت هذه الآية منفصلةً عن الآيات السابقة فالمعنى: أننا حين أنعمنا عليكم بالمال والثروة والراحة والرخاء انغمستم في الشر، فأنزلنا عليكم الذل والمهانة. أما لو قُرئت مقرونةً بالآيات السابقة فمفهومها: كان احترامُ السبت من الوصايا التي فرضناها عليكم عند الطور، ولكنكم خالفتم هذه الوصية أيضاً.

لقد ذُكر السبت في الكتاب المقدس كالآتي: {إِحْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدَّسَهُ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَشْتَغِلُ وَتَعْمَلُ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَسَبْتُ لِلرَّبِّ إِلَهُكَ، لَا تَعْمَلْ فِيهِ عَمَلًا مَّا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمْتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ، وَنَزِيلُكَ الَّذِي فِي أَبْوَابِكَ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، عَبْدُكَ وَأَمْتُكَ مِثْلَكَ. وَادْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لِأَجْلِ ذَلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ.} (التثنية ٥: ١٢-١٥).

وقد ورد مثل هذا المعنى أيضاً في سفر الخروج ٢٠: ٨-١١.

هذه الفقرة من الكتاب المقدس تبدو بأنها بالفعل من وحي الله تعالى الذي أوحى به إلى موسى عليه السلام والذي لا يزال محفوظاً إلى وقتنا هذا. ففيه بيان لحكمة أعمال الإنسان وتعليم سامٍ للعناية بالضعفاء والفقراء.

وكلمة (السَّبْتُ) العربية تشبه كلمة (ثبات) في العبرية التي تعني الراحة كما تعني السبت في العربية. ومن معاني كلمة (ثبات) العبرية القطع والختم (موسوعة الكتاب المقدس، والقاموس العبري للعهد القديم). وكلمة السبت العربية أيضاً تعني القطع والختم، فيقال: سَبَتَ الشيءَ: قطعه، وسَبَتَ رأسه: حلّقه.

ويرى علماء العبرية عموماً أن السبت لم يسم بهذا الاسم لكونه يوم راحة، بل لأن الناس يُنْهَوْنَ فيه عمل الأسبوع.

وكلمة (سَبَّة) باللغة البابلية القديمة تعني دعاء التوبة. ويرى بعض العلماء، ومنهم "جيسن"، أن كلمة السبت بابلية الأصل، ومعناها يوم التوبة والدعاء (موسوعة الكتاب المقدس).

ويتضح من عبارة الكتاب المقدس المذكورة أعلاه أن يوم السبت قد خُصّص لينال الخدم والعمّال والعبيد وأهل القبيلة قسطاً من الراحة وليعبدوا الله تعالى. وهذان الهدفان من الأهمية بمكان، ولا بد من أخذهما في الاعتبار. كان اليهود يسمّون في هذا اليوم (السَّبْتُ)، ويؤكد الكتاب المقدس أن يوم السبت خُصّص لهذا الغرض (وهذا سبب تسمية هذا اليوم بالسبت، وإلا فإن المعنى الأصلي للسبت هو يوم ترك الأعمال اليومية؛ وعليه يمكننا القول إن سبت بني إسرائيل هو يوم السبت، وأن سبت المسلمين هو يوم الجمعة) إذ قد ورد أن الله تعالى أنهى عمل خلق السماوات والأرض يوم الجمعة واتخذ يوم السبت يومَ استراحة، وتذكّاراً لهذا أمرَ اليهود بالاحتفال بالسبت. فقد ورد في الكتاب المقدس: {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَحَّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ.} (الخروج ٢٠: ١١)

لقد اعترف النصارى أيضاً بأهمية تقديس السبت، ولكنهم حدّدوا لذلك يوم الأحد، ذلك أن بعض الأمم والملوك الأوروبيين عندما أعربوا عن رغبتهم في المسيحية اشترطوا لدخولهم فيها أن يكون الأحد يوم الإجازة، فقبل القساوسة هذا الشرط من أجل تنصيرهم، وهكذا سبقوا اليهود في انتهاك حرمة السبت؛ إذ كان اليهود في بعض الأحيان يقومون يوم السبت بأعمال تجلب بعض المنافع، أما النصارى ففقرروا أن يكون يوم السبت يومَ العمل الديني للأبد واتخذوا يوم الأحد عطلة. ولو كان هذا بأمر من الله تعالى لما كان مثارَ اعتراض، ولكنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم وبعد المسيح الناصري عليه السلام بقرون. وكان المسيح عليه السلام يقدّس يوم السبت، وإن لم يبالغ في ذلك كما فعل اليهود؛ حيث قال عليه السلام: {السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ، لَا الْإِنْسَانُ لِأَجْلِ السَّبْتِ} (مرقس ٢: ٢٧). وليس معنى ذلك إلا أنه عند الضرورات الملحّة لا داعي للتطرف في التمسك بأحكام السبت بخدافيرها، وأن السبت ليس مانعاً من أداء أمور الدين. ذلك لأن اليهود اعتقدوا خطأً أنه لا يجوز في يوم السبت حتى التبليغ والوعظ

وغير ذلك من أعمال الخير، مع أن السبت فُرض لمنع الناس من الشؤون الدنيوية لا الدينية.

ظَلَّت الشعوب المسيحية تسبت في أيامها الأولى (الموسوعة اليهودية، وموسوعة الكتاب المقدس)، غير أن الشعوب غير اليهودية ظلت تقُدس منذ زمن الحواريين يومَ الأحد الذي كان يومًا مقدسًا عند الشعوب الآرية. فقد كتب بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: {فِي كُلِّ أَوَّلِ أُسْبُوعٍ، لِيَضَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عِنْدَهُ، خَازِنًا مَا تَيْسَّرَ، حَتَّى إِذَا جِئْتُ لَا يَكُونَ جَمْعٌ حِينَئِذٍ.} (رسالة بُولُسَ الأولى ١٦ : ٢). يتبين من هذا أن أهل كورنثوس كانوا يتخذون يوم الأحد عطلة لهم.

وكذلك ورد عن بولس: {وَفِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزًا، خَاطَبَهُمُ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْعَدِ، وَأَطَالَ الْكَلَامَ إِلَى نَصْفِ اللَّيْلِ.} (أعمال الرسل ٢٠ : ٧). لقد اتضح من هذا أن الأمم غير الإسرائيلية كانت تقيم احتفالات عامة يوم الأحد ربما لأنه كان يوم عطلتهم القومية. وفي أيامنا هذه أيضًا يضطر المسلمون -الذين يعيشون تحت حكم الإنجليز في مختلف أقطار العالم- لعقد اجتماعاتهم يوم الأحد، لأن هذا هو يوم العطلة في تلك البلاد.

ويرى بعض الكتّاب أن النصارى شرعوا في تقديس الأحد مخافة معارضة الأمم غير اليهودية، ولكن برنابا يقول في رسالته إن سبب تقديسهم للأحد هو قيام المسيح من الموت فيه (الموسوعة اليهودية).

وأيًا كان السبب، فإن تقديسهم ليوم الأحد كان مخالفًا لتعليم موسى عليه السلام. لقد حدّد الإسلام أيضًا يومًا للسبت، وهو يوم الجمعة. ولم يتحدد يوم الجمعة من أجل السبت بقياس من قبل المسلمين، بل قد حدّده الله تعالى بنفسه، فلا يمكن أن يثار ضد المسلمين الاعتراض الذي يثار ضد النصارى.

لقد خصَّ الإسلام يوم الجمعة بالمزايا التالية: أن يكون يومَ عطلة، وأن تزيد فيه العبادة، وأن يكون يومَ اجتماع قومي، ويومَ غُسل ونظافة، وعيادة المرضى وغير

ذلك من أعمال البر النافعة للمجتمع والأمة. ومسموح للناس بعد الفراغ من صلاة الجمعة أن يذهبوا إلى شؤونهم الدنيوية، وإن كان الأولى والأفضل أن يشتغلوا بعدها أيضاً بذكر الله تعالى.

من المؤسف أن المسلمين أيضاً لم يقدرُوا سبتهم، حتى كانت صلاة الجمعة قد اختفت تماماً لمدة من الزمن في الهند، اللهم إلا في مدنها الكبيرة. وقد بدأوا يهتمون بها الآن، ولكن حتى الآن، ليس حتى واحد بالمائة من المسلمين مستعد لأداء صلاة الجمعة. إنا لله وإنا إليه راجعون! وبعد مذكرات قدمها مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية للحكومة، وجهود من أبناء الجماعة، قد سمحت الدولة بصعوبة بعطلة ساعة لأداء صلاة الجمعة، ولكن المسلمين مع ذلك لا ينتهزونها، بل يقول بعضهم علناً للمسؤولين الحكوميين لن نشترك في عطلة يوم الجمعة لأن طلب هذه العطلة إنما قدّمه الأحمديون بنية فتنة وفساد.^١

لقد بدأت الآن حركة بين النصارى تسمى (جماعة اليوم السابع) وهي تحتفل بالسبت يوم السبت بدلاً من يوم الأحد.

وأما اعتداءات اليهود بشأن السبت المشار إليها في هذه الآية فقد ذكرها القرآن الكريم في آية أخرى حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

يتضح من هنا أن اليهود كانوا يصيدون السمك يوم السبت من أجل المنافع التجارية.

أما ما ذكر هنا بأن الحيتان كانت تأتيتهم بكثرة يوم السبت، فلم يكن هذا معجزة كما ظن بعض المفسرين، بل الحق أن من عادة بعض أهل الخير إلقاء الطعام إلى الحيوانات في أيامهم المقدسة، وتعرف الحيوانات هذا التوقيت جيداً، فتأتي طلباً للطعام. ويبدو أن بعض أهل الخير من اليهود كانوا يوم السبت يلقون

^١ كان هذا قبل انقسام الهند بسنوات حين كان الإنجليز يحكمونها (الناشر).

الطعام على الشاطئ صدقةً منهم، فكانت الحيتان تجتمع هناك للأكل في ذلك اليوم بوجه خاص. وعندما لاحظ بعض الأشرار ذلك بدأوا صيدها يوم السبت. يلقي الهندوس عندنا الحبوب والدقيق وغيرهما على شواطئ الأنهار في أماكنهم المقدسة، فتجتمع الأسماك بكثرة تثير العجب، مشهدٌ لا تراه في وقت آخر أو في موضع آخر من النهر.

لقد ذكر الكتاب المقدس بعض اعتداءات اليهود في السبت حيث ورد: {فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ رَأَيْتُ فِي يَهُوذَا قَوْمًا يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ فِي السَّبْتِ، وَيَأْتُونَ بِحُزْمٍ وَيَحْمِلُونَ حَمِيرًا، وَأَيْضًا يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيمَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمَرٍ وَعَنْبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ، فَاشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَبْعُهُمُ الطَّعَامَ. وَالصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ، وَيَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِنَبِيِّ يَهُوذَا فِي أُورُشَلِيمَ} (تَحْمِيًا ١٣ : ١٥-١٦).

وذكر انتهاك اليهود حرمة السبت في مواضع أخرى منها: إرمياء ١٧ : ١٩-٢٧، وحزقيال ٢٢ : ٨.

ثم يقول الله تعالى ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. لقد أخطأ بعض المفسرين في فهم هذه الآية، فظنوا أن المعتدين في السبت مُسخوا قردةً في الواقع. وهذا غير صحيح، لأن القرآن الكريم قد ذكر هذا الأمر في موضعين آخرين أيضاً، ويتضح منهما أنهم لم يمسخوا قردةً بالفعل، بل صاروا قردةً على سبيل الاستعارة والمجاز.

فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٦١-٦٢). يتضح من هنا أن الجماعة التي لعنت ومُسخت قردةً وخنازير كانت تأتي الرسول ﷺ وتقول له نفاقاً لقد آمنا بينما كانت قلوبهم مليئة بالكفر. والثابت من القرآن الكريم والحديث والتاريخ أن هذه الجماعة كانت من البشر لا من القردة

والخنازير. فثبت أن المراد من هذه الآية أن أخلاقهم فسدت حتى صارت كعادات القرود والخنازير؛ وليس أنهم صاروا قرود وخنازير شكلاً وخلقاً.

والآية الأخرى هي قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٧-١٦٩). وكل من تدبر في هذه الآية أدرك بمنتهى السهولة أن هؤلاء القرود لم يكونوا قرود في الحقيقة، وإنما شُبِّهَ هؤلاء العصاة بالقرود، وأنهم سيقون إلى يوم القيامة، وأنه سيكون فيهم الصالحون والطالحون، وسوف يتعرضون لأنواع الابتلاءات ليعودوا إلى الله تعالى.

فما دام القرآن الكريم نفسه يشرح معنى كون بعض بني إسرائيل قروداً وخنازير، فلا مجال لقبول رواية تخالفه.

بعد سماع هذا الشرح يقول البعض: أي غرابة في أن يكون القادمون إلى الرسول ﷺ هم نفس اليهود الذين مُسِّخُوا قروداً وخنازير بالفعل؟

والجواب: (أولاً) إن الصفات التي ذكرها القرآن المجيد لهؤلاء لا تسمح بالأخذ بهذا التأويل السخيف، و(ثانياً) إن المفسرين القدامى الذين ذهبوا إلى المعنى الظاهري هم أنفسهم لم يقبلوا بأن هؤلاء المسوخين بقوا إلى زمن الرسول ﷺ. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: "جُعِلُوا قروداً فواقاً ثم هلكوا. ما كان للمسوخ نسل" (الدر المنثور). وقال الضحاك عن ابن عباس: "فمسخهم الله قروداً بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام. قال: ولم يعيش مسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل" (تفسير ابن كثير). فالقائلون بالمسخ المادي أنفسهم يرون أن المسوخين لا يحيون فوق ثلاثة أيام، بينما يقول القرآن الكريم إن هؤلاء المسوخين سيقون إلى يوم القيامة مغلوبين

بأيدي الآخرين، وأنهم كانوا يأتون الرسول ﷺ من حين لآخر، ويحاورونه، فكيف يصح المسخ بالمعنى المادي؟

وحتى لو سلّمنا جدلاً بالمسخ المادي عموماً، إلا أنه نظراً إلى الآيات المذكورة آنفاً، لا بد من القول إن هؤلاء القوم الذين يخبر القرآن الكريم عن مسخهم هنا خاصة، لم ينقلبوا قردهً وخنازيرَ حقيقةً، وإنما مُسخوا مسخاً روحانياً. وبالإضافة إلى الشرح القرآني المذكور آنفاً هناك دليل آخر يبين بجلاء أن القردة هنا لا تعني قردهً في الحقيقة، وهو دليل من قواعد العربية؛ فمن قواعدها أن صيغة الجمع السالم المقرون بالواو والنون أو الياء والنون تخص جمع المذكر العاقل. لكن القردة المذكورين في الآية وُصفوا بكونهم ﴿خَاسِئِينَ﴾، وهي صيغة لذوى العقول، وإلا لقال (قردة خاسئة). فثبت أن القردة هنا ليست قردة مادية.

والمعنى الذي ذهبوا إليه قد رواه بعض علماء السلف أيضاً. يقول التابعي والمفسر الكبير مجاهد: "مُسَخَّتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُمَسَّخُوا قَرْدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَهُمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَعْنَى ﴿قَرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ أَذَلَّةٌ صَاغِرِينَ. وَقَالَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى قَتَادَةُ وَرَبِيعٌ وَأَبُو مَالِكٍ" (ابن كثير، والدر المنثور). ويقال في اللغة: قَرَدَ فلان أي ذلَّ.

كذلك قال علماء آخرون: جُعِلَتْ أَخْلَاقُهُمْ كَأَخْلَاقِهَا أَيِ الْقَرْدَةِ. (المفردات)

ما هو المراد الحقيقي من جعلهم قردةً، فإن القرآن المجيد نفسه قد بيّنه، وهو: أولاً: أنهم صاروا مهانين صاغرين. فكما أن القرد يؤخذ ويرقُص ويقفز كما يشير له القرّاد ولا يمكنه مخالفة أوامره، كذلك تسلطت على اليهود حكومات، ولن تزال تتسلط، وتعاملهم كما تشاء، ولا يكون لهم دخل في الحكم. ثانياً: القرد حيوانٌ مقلِّدٌ. قد مُسَخَّتْ قُلُوبُ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَيْثُ خَلَّتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَصَارَتْ جُلٌّ أَعْمَالُهُمْ تَقْلِيداً أَعْمَى، وَقَشُوراً بِلَا لُبٍّ، حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ إِذَا أَتَوْا إِلَى الْمُسْلِمِينَ تَظَاهَرُوا بِالْإِسْلَامِ، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ تَبِعُوا دِينَهُمْ.

ثالثاً: القرد شَبَقٌ إلى الشهوة الجنسية، يقال "فلان أزن من قرد" (لسان العرب، وتاج العروس). وقد تفشت الدعارة في اليهود كثيراً أيضاً، وتوجد المومسات اليهوديات في كثير من البلاد.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٨)

شرح الكلمات:

هُزُؤًا: هزأ به ومنه: سخر منه (الأقرب).

فقوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ يعني: أجمعنا هدفاً للاستهزاء؟

الجاهلين: الجهل: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل (المفردات).

التفسير: كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر، وكان المصريون يعظمون البقرة تعظيماً كبيراً، ولذلك استولت عظمتها على قلوب بني إسرائيل أيضاً. ويتضح من الآية رقم (٥٢) من سورة البقرة، ومن الكتاب المقدس (سفر الخروج ٣٢) أن الصنم الذي اتخذته بنو إسرائيل إلهاً كان على صورة عجل؛ مما يدل على أن تعظيم البقرة في قلوبهم وصل إلى حد تأليهها. ولما كان الهدف الأساس للأنبياء هو القضاء على الشرك وإظهار جلال الإله الواحد الأحد، الخالق المالك لكل مخلوق، فكان لزاماً أن يكون في شريعة موسى ﷺ ما يستأصل من قلوب بني إسرائيل تعظيم البقرة الذي كان قد دفعهم إلى عبادتها، ولولا ذلك لعادوا إلى عبادتها بعد فترة. ولذلك أمرهم شريعة موسى ﷺ في عدة مواضع بذبح البقر. ومن الواضح أن الذين يذبحون حيواناً مرة بعد أخرى لا يمكن أن يخلعوا عليه صفات الألوهية.

تشير هذه الآية إلى أن موسى ﷺ أمر قومه ذات مرة بذبح بقرة، فحاولوا مماطلته، ولكنهم اضطروا إلى الامتناع لأمره في نهاية المطاف.

لقد ذكر الله تعالى هنا نكراناً آخر للجميل ارتكبه بنو إسرائيل؛ فَعَدَّ عبادة العجل وتلقّي العقوبات القاسية، وبعد التوبة والخجل، لم يكن متوقعا من هذا الجيل نفسه أن يسقط في وحل الشرك ثانية، ولكنهم لم يتخذوا من ذلك كله عبرة، بل مالوا إلى الشرك مرة أخرى. ويبدو أنه - لسوء حظهم - وُلد في قطيعهم عجل رائع اللون والجمال، ولما كانت عبادة العجل شائعة بين المصريين، حتى إن أكبر معابدهم كان ذلك الذي يوضع فيه صنم عجل جميل بدون عيب، فتلهفت قلوبهم إلى تعظيم ذلك العجل الجميل نتيجة تأثر عقائدهم بحكم عيشهم في مصر. فأمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يسنّ بينهم سنّة ذبح البقر قمعا للميول الوثنية في قلوبهم. لقد كاد المريب أن يقول خذوني، فقد ظنوا أن هذا الأمر يخصّ عجلهم الجميل المحبوب الذي كانوا يتحدثون عن جماله. كان حديثهم عنه قد تناهى إلى مسامع موسى عليه السلام بطريق أو بآخر، فلم يبادروا إلى ذبح أي بقرة عملاً بأمر الله ليتحقق الغرض من ذلك وهو إزالة تعظيم العجل من قلوبهم بالتدرّج، وبدون أن يهتك سترهم، واهلوا على موسى عليه السلام بوابل من الأسئلة حول مواصفات تلك البقرة وعلاماتها، ظناً منهم أن الله تعالى يريد ذبح بقرة معينة. وكانت نتيجة هذا النقاش أن ذكر الله تعالى لهم علامات دقيقة لعجلهم الجميل الذي بدأ تعظيمه يترسخ في قلوبهم، فاضطروا إلى ذبحه في آخر المطاف، بالإضافة إلى تعرضهم للخجل والإحراج.

ونجد في تاريخ المصريين أدلة كثيرة على عبادة العجل وتعظيمه، فقد ورد عن عجل (آيس) أنه عجلٌ مقدس عبده المصريون منذ القدم، ووضعوا صوره بين أصنامهم وتمائيلهم، وكان الأهم بين كل الحيوانات المقدسة لديهم، واتخذوا يوم ميلاده عطلةً وعيداً ويومَ وفاته مأثماً وحرزاً في البلاد كلها، وكان مأثمه لا ينقطع إلى أن يجدوا عجلا جديدا بمواصفات وعلامات تؤكد كونه مظهراً للإله. وكان له معبد كبير في مكان اسمه ممفيس. وكانوا يقومون بتحنيطه عند موته ويدفونه في مقابر خاصة محفورة في الصخور.

وورد أيضا: كان العجل أهم الحيوانات التي كان المصريون يعبدونها، وتوجد آثار عبادته في الماضي الموعّل في القدم. فكلما مات مثيلٌ للعجل "آبيس" بحثوا عن عجل جديد ذي مواصفات مماثلة، ومن وُجد العجل المنشود في قطيعه أكرموه إكراما كبيرا، ومن عثر على ذلك العجل أعطوه جائزة كبيرة. وكانوا يأتون بأنثاه أيضا ويضعونها في حجرة في معبد ممفيس، ويسمحون لهما بالسفاد مرة واحدة فقط في السنة، ثم يقتلون أنثاه. وكانوا يحتفلون بيوم ولادته كل عام ويتخذونه إجازة عامة. كان الناس يجتمعون لزيارته. كان المصريون يعرفون أخبار المستقبل من خلال أحواله، وينتفعون في زعمهم مما يراه سدة معبد من أحلام ومنامات، بل كانوا يعدّون كلام الأطفال اللاعين أمام معبد أنباء مستقبلية. وإذا مات حنطوه وعملوا له مومياء ودفنوه في قبر محفور في الصخور. ولم تكن عبادة العجل "آبيس" خاصة بقبيلة معينة، بل كان أهل مصر كلهم يعبدونه.

ويقال أن الملك المصري "كاكاو" (kakaو)، ثاني ملوك السلالة الفرعونية الثانية، هو الذي أسس عبادة هذا العجل، وبني له معبدًا في "ممفيس"، وسمى العجل "آبيس" على اسم والد إله الشمس "بتاح" (phtah). كما أنه شرع عبادة عجل آخر اسمه "منفيس" (mnevis) كتذكّار حي لإله الشمس، وذلك في هوليوبولس. كما أنه بدأ عبادة عجل آخر يدعى "باخا"، وكان يُعدّ في أول الأمر مظهرًا للإله "منتوي" (mentui) ثم مظهرًا لإله الشمس، وذلك في مكان يدعى "هرمانتيس" (hermonthis).

وكان المصريون يعبدون العجل بالإضافة إلى عبادة البقرة، بل كانوا يعبدون حيوانات أخرى غير العجل، وكانوا يقدسون كل فرد من جنس ذلك الحيوان الذي كانوا يضعون له في المعبد تمثالاً ممثلاً عن ذلك الجنس، وإن كانوا لا يعبدونه، وكان أكل لحم الحيوان من ذلك الجنس حراما عندهم، وإذا تعمد أحدهم قتل حيوان من جنس الحيوانات التي اتخذوها آلهة فكان يعاقب بالقتل، أما لو قتله خطأ لغرموه بغرامة. وسلسلة العجول الآلهة من سلالة عجل ممفيس

تصل حتى نهاية الملوك المصريين، فبدءاً من عصر رعمسيس الثاني -الذي وُلد موسى ﷺ في زمنه- حتى عصر البطالمة (Ptolemaic period)، قد وُضعت للعبادة تماثيل لأربعة وعشرين عجلاً على الأقل واحداً بعد الآخر في معبده بمفيس. (النيل والحضارة المصرية، لـ "مورت" (moret) المحاضر في جامعة فرنسا، صفحة ٣٦٤)

لقد ثبت من هذه المقتبسات أن عبادة العجل بوجه خاص كانت شائعة في مصر، وكانت عجول ذات مواصفات معينة تُنتقى لهذا الغرض، وكان بنو إسرائيل متأثرين بهذه العقائد المصرية بحكم عيشهم بين المصريين، فوُلد بالصدفة في قطيع بعض بني إسرائيل عجلٌ جميل ذو مواصفات غير عادية، فظنوا أن إله الشمس قد نظر إليهم بلطفٍ ومحبة، فوُلد الإله في صورة هذا العجل الجميل عندهم، فأمرهم الله عندها بذبح ذلك العجل لكي يقضي على هذا الشرك بينهم.

علماً أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة البقرة هنا، وهي تُستعمل للمؤنث والمذكر.

ولا يذكر الكتاب المقدس تفاصيل هذا الحادث كما ذكرها القرآن الكريم، وقد سبق أن ذكرتُ أن ذكر الكتاب المقدس لحادث تاريخي أو عدمه لا يعنى شيئاً مقابل كتاب سماوي محفوظ. ومع ذلك فقد تحدث الكتاب المقدس عن توضحية بعجل ذي مواصفات كالتى ذكرها القرآن الكريم، حيث ورد: {كَلَّمَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا إِلَيْكَ بَقَرَةً حَمْرَاءَ صَحِيحَةً لَا عَيْبَ فِيهَا، وَلَمْ يَعْلُ عَلَيْهَا نِيرٌ، فَتَعْطُونَهَا لِأَعْزَارِ الْكَاهِنِ، فَتَخْرُجُ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَتُذْبِحُ قُدَّامَهُ. وَيَأْخُذُ أَعْزَارُ الْكَاهِنِ مِنْ دَمِهَا بِأَصْبَعِهِ وَيَنْضِجُ مِنْ دَمِهَا إِلَى جِهَةِ وَجْهِ خِيَمَةِ الْجَمْعِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. وَتُحْرَقُ الْبَقَرَةُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ. يُحْرَقُ جِلْدُهَا وَلَحْمُهَا وَدَمُهَا مَعَ فَرْثِهَا. وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ حَشَبَ أَرْزٍ وَزَوْفًا وَقِرْمِزًا وَيَطْرَحُهُنَّ فِي وَسْطِ حَرِيقِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ يَغْسِلُ الْكَاهِنُ ثِيَابَهُ وَيَرْحَضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ الْمَحَلَّةَ.

وَيَكُونُ الْكَاهِنُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَالَّذِي أَحْرَقَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ بِمَاءٍ وَيَرَحُضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ وَيَكُونُ نَجَسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَيَجْمَعُ رَجُلٌ طَاهِرٌ رَمَادَ الْبَقَرَةِ وَيَضَعُهُ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ فِي مَكَانٍ طَاهِرٍ، فَتَكُونُ لِجَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي حِفْظِ مَاءٍ نَجَاسَةٍ. إِنَّهَا ذَبِيحَةٌ خَطِيئَةٍ { (العدد ١٩ : ٢-٩)

لا يذكر الكتاب المقدس هنا ما دار بين موسى عليه السلام وبينهم من أسئلة وأجوبة كما ذكر القرآن الكريم، لكن المرء يدرك بتأمل قليل أنه رغم ورود هذا الحادث في الكتاب المقدس كحادث عادي إلا أن الغاية المتوخاة من ذبح مثل هذه البقرة إنما هي محو الشرك من قلوب بني إسرائيل، ووقايتهم من تأثير الأمم الأخرى. ولعل هذه هي الحكمة في تسمية الماء الذي خلط به رماد البقرة "ماءً نجاسةً"، أي الماء الذي غُسلت به نجاسة الشرك، بمعنى أن بني إسرائيل لو استمروا في ذبح مثل هذه العجول والبقر التي كان يعبدها المصريون لتطهرت قلوبهم من نجاسة الشرك.

لقد ذكرت كتب الحديث اليهودية هذا الحادث بتفصيل أكثر مما ذكره الكتاب المقدس هنا. فقد وردت في (مشتا) -وهو أحد كتب الحديث اليهودية- بحوث مفصلة جدا عن هذه البقرة، بل هناك باب كامل عن الحادث. وورد في رواية الربّي "نسييس" أنه لم توجد بقرة بتلك المواصفات بعد موسى عليه السلام (موسوعة الكتاب المقدس). وهذه الرواية من أحاديث اليهود تصديق كامل لما ذكره القرآن الكريم بأن الله تعالى كان يريد منهم في الواقع ذبح بقرة محددة متميزة بجمال غير عادي وبعلامات معينة ما كانت تتوافر في كل بقرة دائماً.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أي أن الاستهزاء والسخرية في أمور الدين هو دأب الجاهلين. والأسف أن كثيراً من الناس لا يدركون هذه الحقيقة، فتفسد قلوبهم جراء الضحك من أمور الدين أو عدم الجدّة فيها.

﴿قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: ٦٩)

شرح الكلمات:

فَارِضٌ: فَرَضَتِ البقرة: كبرتْ وطعنتْ في السنِّ. لا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ: لَا مُسِنَّةٌ وَلَا فَتِيَّةٌ (الأقرب).

بِكْرٌ: البقرة الفتية (الأقرب).

بِكْرٌ في قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ هي التي لم تلد. (المفردات)
عَوَانٌ: النَّصَفُ فِي سَنِّهَا (الأقرب)، أي المكتملة الحيويَّة.

التفسير: أمر الله تعالى اليهود بذبح عجلٍ أو بقرة، فبدأوا يسألون عن
علامتها إذ كانوا يخافون في قلوبهم على عجلهم المحبوب. فقال الله تعالى: إنها
﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، أي أنها بين الفارض والبكر.
ثم قال تعالى ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، أي لا تتعرضوا للإحراج والإذلال
بكثرة السؤال. لكن اليهود لم يرتدعوا، بل تبادوا في السؤال كما هو بين من
الآيات التالية.

﴿قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسُرُّ النََّاظِرِينَ﴾ (البقرة: ٧٠)

شرح الكلمات:

صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْثُهَا: فَقَعَ لَوْثُهُ: اشْتَدَّتْ صُفْرَتُهُ. الفاقع: الخالصُ الصفرة؛
الخالصُ الصافي من الألوان أي لَوْنٍ كَانَ، والمشهور أنه صَفَةٌ لِلْأَصْفَرِ
(الأقرب).

التفسير: رغم الإشارة الإلهية لبني إسرائيل بأننا نستر عليكم فلا تَهتَكُوا ستركُم بالأسئلة، فإنهم استمروا في السؤال، فردَّ الله عليهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

توجد في العربية كلمات مختلفة لبيان شدة كل لون، فمثلاً إذا كان الشيء الأسود شديد السواد قيل: حالكٌ، وإذا كان الأصفر شديد الصفرة ورائع الجمال قيل: فاقعٌ.

وصف الكتاب المقدس البقرة أنها حمراء، بينما وصفها القرآن الكريم أنها صفراء. ولو اعتُبر هذا اختلافاً فقد سبق أن قلت إن القرآن الكريم وحي سماوي محفوظ، وهو الأحق بالاعتبار عند الاختلاف مع الكتاب المقدس الذي هو غير محفوظ من التحريف. غير أنني أرى أنه ليس ثمة اختلاف، لأن بعض الألوان متشابهة وتوصف بأسماء مختلفة من منظورات مختلفة، ومن تلك الألوان اللون الأصفر الفاقع. فمن ناظرٍ يسميه أصفر، وآخر يسميه أحمر. فمثلاً لو وضعنا الزعفران أمام عدة أشخاص لاختلَفوا في تسمية لونه، ولقال بعضهم إنه أصفر، وقال غيرهم إنه أحمر. ويبدو أن لون تلك البقرة سُمِّي عند اليهود أحمر، وعند العرب أصفر. ولما كان القرآن بالعربية فسُمِّي لونها أصفر. ثبت أنه ليس باختلاف في الواقع.

ثم قال الله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. هناك إشكال هنا وهو أن ضمير المؤنث في ﴿تَسُرُّ﴾ راجع إلى (لَوْن) الذي هو مذكر، فكيف هذا؟

والجواب أن من قواعد العربية جواز استعمال فعل للمضاف نظراً إلى المضاف إليه تذكيراً وتأنيثاً. ولما كانت كلمة (لَوْن) مضافة إلى الضمير (ها) العائد إلى البقرة، جاء الفعل ﴿تَسُرُّ﴾ بصيغة التأنيث بحسب ضمير المؤنث (ها)، وقال: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾؛ والمعنى: يسرُّ لونُ البقرة الناظرين.

ويجوز في العربية استخدام الضمير بالمعنى أيضاً، فلأن اللون هنا يعني الصفرة، فالمعنى: تسرُّ صفرتها الناظرين.

ويجوز أيضاً أن يُعتبر الضمير عائداً إلى البقرة، أي تسرّ البقرة الناظرين، فالجملة صفة أخرى للبقرة.

﴿قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧١)

شرح الكلمات:

تشابه: تشابه الرجلان: أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا. (الأقرب)

التفسير: لم يرتدع اليهود عن السؤال بعد ذلك أيضاً، وطلبوا علامات أخرى للبقرة. ولما كانوا يشكّون في أن الله تعالى يريد بقرتهم المعظمة، قرّروا في نفوسهم أخيراً أنهم إذا أمروا بذبحها في كل حال فسيذبحونها، ولذلك قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٢)

شرح الكلمات:

مُسَلَّمَةٌ: سلّمه الله من الآفة: وقاه إياها (الأقرب). فمعنى مسلّمة أنها سليمة من المرض والعيوب.

شِيَّةٌ: وشيت الشيء وشيّا: جعلت فيه أثراً يخالف معظم لونه (المفردات).

شِيَّةٌ: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره (الأقرب).

فمعنى ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أن لها لوناً واحداً لم يخالط بلون آخر.

التفسير: وأخيراً ذكر الله تعالى كل المواصفات التي تم بها تحديد ذلك العجل، حيث قال الله لهم بأن هذا العجل لم يُستخدم للحراثة ولا للسقي، أي هو عجلٌ قد تركتموه كالفحل، مُعفىً من العمل تعظيماً وتكريماً له، لا عيب فيه، ولا يؤذيه أحد، فليس به أثر لجرح أو ضرب. وكأن هذا هو وصفٌ للشيران التي يعظمها الناس تعظيماً عقائدياً. وهكذا بيّن الله تعالى لهم كل علامات عجلهم المحبوب، حتى قالوا في نهاية المطاف: الآن جئت بالحق، أي لقد صدق حدسنا بأن الله يقصد عجلنا المحبوب.

والواقع أن قول الله تعالى كان حقاً من قبل ومن بعد. كان تعالى يريد أن يعودهم على ذبح البقر دون أن يهتك سترهم، لكي ينمحي هذا الشرك من قلوبهم شيئاً فشيئاً، ولكن إصرارهم كان السبب في تحديد عجلهم المحبوب، فقالوا: الآن جئت بالحق، وذبحوا البقرة آخر الأمر كارهين.

إن قولهم ﴿الآن جئت بالحق﴾ دليلٌ واضح على أن أفكار الشرك كانت قد تولدت في نفوسهم بصدد عجل معين، وإلا فكيف يمكن أن يوجهوا سؤالاً تلو سؤال عند الأمر بذبح بقرة ثم يقولوا بعد أن أخبروا بالعلامات المفصلة: ﴿الآن جئت بالحق﴾. يأمر الأثرياء عندنا خدمهم بشراء عجول لتُقدّم أضحية يوم عيد الأضحية، ولكن لم يحدث قط أن خدمهم قالوا لم نفهم أي عجل نأتي به، ولا يسألون مراراً لتحديد عجل معين، لأنهم يفهمون من العجل أيّ عجل، وليس عجلاً محدداً. أما اليهود فكانت الأفكار الوثنية قد ترسخت في قلوبهم بشأن عجل معين، فظنوا منذ البداية أن المقصود من الأمر بذبح بقرة ليس إلا ذبح عجلهم المحبوب، فظلوا يطيلون النقاش حتى أخبرهم الله بعلامات عجلهم الذي كانوا يعدّونه مظهرًا لله تعالى.

ثم إن اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً عند ذهاب موسى عليه السلام إلى الجبل دليلٌ آخر على عقيدتهم الوثنية بشأن البقر. ومن الثابت تاريخياً أن المصريين كانوا

يعبدون العجل الحي ويعبدون تمثاله أيضاً. وكذلك بنو إسرائيل عبدوا تمثال العجل مرة، ثم حاولوا عبادته حياً في المرة الثانية.

ثم إن لون العجل دليل آخر على تأليههم إياه؛ لأن تمثال العجل الذي صنعه من الذهب كان أصفر، كما أن البقرة التي أمروا بذبحها كانت أيضاً صفراء بحسب القرآن الكريم، ثم إن الصفراء تعني الذهب أيضاً في العربية (الأقرب). فصناعة التمثال من الذهب، وكون البقرة التي أمروا بذبحها صفراء اللون لدليل على أن العجل الذي كان اليهود يعدّونه موصوفاً بصفات الإلهية كان أصفر اللون.

وهناك دليل قياسي قوي على أن العجل الذي أمر اليهود بذبحه كان بالفعل، أو كاد أن يصير، مركزَ عبادتهم، وهذا الدليل هو أنه كان أصفر اللون. وقد سبق أن أثبت من تاريخ المصريين القدماء أنهم قاموا بتأليه العجل في المعبد بمفيس باعتباره مظهراً لإله الشمس. كانوا يعبدون ذلك العجل في ممفيس باسم "بتاح" الذي يقال أنه كان أباً لـ "رع"، أي أباً لإله الشمس، وكانوا يعدّون العجل مظهراً لإله الشمس في معبدي هوليوبولس وهرمانثس. ولأن الشمس صفراء اللون، ففي كون ذلك العجل أصفر اللون دليل قوي على أن اليهود اعتبروه مظهراً لإله الشمس التي هي أيضاً صفراء اللون.

ولو صحّ هذا القياس لأدركنا بسهولة أن اللون الأصفر الذي وصف به القرآن الكريم تلك البقرة أقرب إلى الواقع من اللون الأحمر المذكور في الكتاب المقدس.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيعني أن ذبح ذلك العجل كان شاقاً عليهم، لأنهم كانوا يظنون بحكم تأثير البيئة المصرية أنه متصف بشيء من الألوهية.

ما أكثر أوامر الله حكمة! لقد روجّ الله تعالى لتقديم قربان البقرة في المسلمين أيضاً للقضاء على الشرك المتعلق بها والموجود في بعض بلاد العالم حتى اليوم.

وللأسف أن من المسلمين مَنْ يستعدّون بدون مصلحة دينية للتخلي عن حقهم المشروع لذبح البقر، بينما يخرج فريقٌ منهم بالبقر والعجول المعدّة للذبح في تظاهرة تجرح شعور جيرانهم من أتباع دين^١ آخر بدون داع. وكلا التصرفين باطلٌ غير جائز.

على المؤمن إصلاح نفسه، وليس إيذاء جاره. وما أقرب به إلى العدل والإنصاف ذلك الاقتراح الذي قدمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام إلى جيران المسلمين من أتباع الديانات الأخرى. لقد قال عليه السلام في كتابه "رسالة الصلح" بأننا نعدّ صلحاء الهندوس مثل حضرة (كرشنا) وحضرة (رام شنذر) من أنبياء الله تعالى بحسب تعاليم القرآن الكريم، ولو أن الهندوس احترموا رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالمقابل، فإننا مستعدّون للامتناع عن ذبح البقر في هذه البلاد. ولكن المؤسف أن الهندوس لم يقبلوا هذا العرض العادل جدا.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة: ٧٣)

شرح الكلمات:

قَتَلْتُمْ: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)، وقوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير الحق).

ادَّارَأْتُمْ: أصله تَدَارَأْتُمْ، فلأن مخرج التاء والdal متقارب، فبدلت التاء إلى الدال، وأدغمت، صار الحرف الأول ساكنا نتيجة الإدغام، وأضيفت الهمزة في البداية لسهولة القراءة.

^١ يشير هنا حضرة المفسر عليه السلام إلى بلاد الهند التي يقُدّس فيها الهندوس البقر. (المترجم).

يقال: درأه يدرأه: دفعه، وقيل دفعه (دفعاً) شديداً. تدارأ القوم: تدافعوا في الخصومة واختلفوا. الدرء: الميل والعوج في القناة ونحوها، يقال: قَوِّمْتُ درءً فلانٍ بمعنى قَوِّمْتُ اعوجاجه. والدرء: الخلاف (الأقرب).

وقال الزجاج: معنى ﴿فَادَارَأْتُمْ﴾: فتدارأتم أي تدافعتم، أي ألقى بعضكم إلى بعض (اللسان)، أي: اختلفتم وأتَّهم بعضكم بعضاً بالقتل. مُخْرِج: أخرج الشيء: أبرزه (الأقرب).

تَكْتُمُونَ: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (... وأعلم ما تبدون وما تكتمون).

التفسير: أي اذكروا عندما قتلتم نفساً ثم اختلفتم فيها واتَّهم بعضكم بعضاً بقتله، أو قتلتم: نحن لم نقتل بل قتلته غيرنا، أو اختلفتم في قتله اختلافاً من نوع آخر. كل هذه المعاني تنطبق هنا لأن هذا هو معنى كلمة "تدارأتم" أو ﴿ادَارَأْتُمْ﴾.

والظاهر من القول ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أن اليهود هم القتلة، أو أنهم كانوا يساندون القتال. لو كانت هذه الواقعة من قبل فردٍ واحد لما نُسب القتل إلى الأمة اليهودية كلها. علماً أن القتل هنا يمكن أن يراد به إرادة القتل أيضاً. راجع أيضاً شرح الكلمات تحت قول الله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ في هذه السورة.

وقوله تعالى ﴿نَفْسًا﴾ يعني نفساً عظيمة أو نفساً غير معروفة، لأن التنوين يفيد المعنيين.

والخطاب هنا لليهود حيث قيل لهم: تذكروا:

(١) عندما قتلتم نفساً عظيمة أو أردتم قتلها.

(٢) أو عندما ساعدتم أو حرَّضتم على قتل إنسان عظيم أو محاولة قتله.

(٣) أو عندما قتلتم أو أردتم قتل إنسان، ثم اختلفتم في قتله، أي قتلتم: إنا لم

نقتله أو لم نساعد على قتله أحداً، أو لم نحاول لقتله أو لم نساعد على قتله، أو قتلتم لا علم لنا بالقتل والقاتل.

وأضعفُ هذه المعاني قتلُ إنسانٍ مجهول، لأنه ما كان لليهودِ كَأَمَّةٍ فائدةٌ في قتل إنسانٍ مجهولٍ لا أهمية له، ولا معنى لأن يختلفوا في قتله. فيبدو أن المراد من قوله تعالى ﴿نَفْسًا﴾ شخصٌ عظيم، ولم يُذكر اسمه لأنه متبادر إلى الذهن تلقائياً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني سوف يفضح الله تعالى بطريق أو بآخر القاتلَ أو المحرِّضَ على القتل، أو المتآمر على محاولة القتل. كما يمكن أن يراد بذلك أن الله تعالى سوف يُظهر ما تكنه صدور القاتلين من بغضٍ دفينٍ وحقدٍ مكتومٍ دَفَعَهُم إلى ارتكاب جريمة القتل أو محاولة القتل. ولأن الموضوع المذكور في هذه الآية يكتمل في الآية التالية فلذلك سنذكره بكامله لاحقاً.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤)

شرح الكلمات:

اضربوه: ضربَه بيده وبالعضا: أصابه وصدمه بها. ضربَه بالسيف: أوقعه به. ضرب الشيء بالشيء: خلطهما. ضرب له مثلاً: وصفه وقاله وبينه. (الأقرب).
ببعضها: بعضُ كلِّ شيء: طائفةٌ منه، وقيل جزءٌ منه، ويجوز كونه أعظم من بقيته كالثمانية من العشرة (الأقرب).

يُحيي: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم...).

الموتى: جمعُ الميت، وهو الذي فارق الحياة. (الأقرب). للمزيد راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم).

آياته: الآيات جمع آية. للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).
تعلقون: راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون).

التفسير: أي قلنا لهم اضربوا القتالَ ببعض المقتول أو بسبب البعض. علماً أن الباء حرف جرّ يفيد عدة معانٍ في العربية: منها الإلصاق حقيقةً نحو: أمسكتُ يزيد، وهو المفضي إلى نفس المجرور (أي أن جسمي التصق بجسمه)، أو مجازاً وهو المفضي إلى ما تقرب منه، كمررتُ يزيد؛ (أي لم يلتصق جسمي بجسمه غير أنني كنت قريباً منه)؛ والمعنى الثاني للباء هو: التعدية نحو ذهبْتُ يزيد؛ والثالث: الاستعانة نحو نجوتُ بالفرار؛ والرابع: السببية نحو لقيتُ يزيد الأسد؛ (أي أن زيدا كالأسد قوةً وشجاعة، وكأني قد رأيت الأسد من خلاله)؛ والخامس: المعية نحو اهبطُ بسلام؛ والسادس: التبعية نحو شربنَ بماء البحر؛ والسابع: القسم نحو بالله؛ والثامن: التأكيد (الأقرب).

ولا ينطبق هنا من هذه المعاني إلا معنى الإلصاق أو السببية. فإذا كان الباء في قوله تعالى ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ بمعنى الإلصاق فالمعنى: اضربوا بعضها ببعض بقوة؛ أي ارموا عليه جزءاً منها بقوة، وإذا كان بمعنى السببية والتعليل فالمعنى: اضربوه بسبب بعض ذنوبه.

ولقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في بادئ الأمر مفهومان: الأول: هكذا يحيي الله الموتى الحقيقيين ويرجعهم إلى الحياة الدنيا، ولكن هذا المفهوم مرفوض بالطبع، لأنه ينافي القرآن الكريم الذي يؤكد في آيات أخرى أن الموتى الحقيقيين لا يرجعون إلى الدنيا. (راجع للمزيد تفسير الآية ٥٦).

والمفهوم الثاني هو: كذلك يحيي الله الذين يشبهون الموتى، أو كذلك يقيم الله كرامة الموتى ويحفظها، أو كذلك يحفظ الله الناس من الدمار. وهذان المعنيان الأخيران يصدقهما القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٨٠)، أي أيها العقلاء لو عاقبتم القاتل بعقوبة

مناسبة لقلت جرائم القتل في المستقبل، وأنقذت أرواح كثيرة من الهلاك. ونظرًا إلى هذه المحاورة القرآنية سيكون المراد من إحياء الموتى هنا إنقاذ مَنْ يُحتمل قتله.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أن كرامة القتيل لا تضيع نتيجة القصاص، بل تبقى قائمة محفوظة، مما يزيل البغضاء والشحناء من قلوب أهله، أما إذا لم يعاقب القاتل فتبقى الضغائن في قلوب أقاربه إذ يرون أن قتلهم قد أهينَ وأذلَّ. وهذا تعبير شائع عند العرب، فقد قال الشاعر الحارث بن حلزة:

إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّا قِبَ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ

(من المعلقة السبع)

أي: أيها الأعداء، إن نبشتم الأرض ما بين ملحّة والصاقب لوجدتم هناك أمواتًا وأحياء. يعني ذوو بأس وشجاعة وحمية، وكلما قتلتم منا قتيلاً أحييناه بأخذ ثأره منكم، أما قتلاكم فظلوا أمواتًا وأذلاء لأنكم لم تقدرُوا على أخذ ثأرهم منا.

وهذا البيت لأحد فحول الشعراء في الجاهلية، وقد ثبت من هنا أن إحياء الميت في العربية يعني أيضا أخذ الثأر للقتيل، وعليه فقول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يعني أنه يُحيي مَنْ يموت في سبيله بأخذ ثأره من القاتل. أما المعنى الأول أي إحياء مَنْ يكون كالميت، فهو أيضا شائع بكثرة، حيث يطلق اسم الشيء على شبيه له. فمثلاً إذا أصيب المرء بجرح كبير يسبب له ألماً شديداً قال: لقد مِتُّ، أي قد صرت كالميت من شدة الألم والكره. وعليه، فمعنى الآية: هكذا يُحيي الله الذين يكونون كالموتى، أي الذين لا يبقى في حياتهم أملٌ، وتجزم العلوم المادية بهلاكهم، لكن ينقذهم الله تعالى بفضله.

ثم قال الله تعالى ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي يريكم آياته كي ترتدعوا عن المعاصي والذنوب؛ ذلك أن العقل يعني ربط الشيء ومنعه، كما

شرحنا من قبل، وتسمى قوة العقل عقلاً لأنها تمنع الإنسان من الأخطاء والذنوب.

يبدو من هذا القول الإلهي أن هذا الحادث آية ربانية يمكن أن يستفيد منها العقلاء ليتقوا من الإثم والسوء، أو ينجوا من الكفر والعصيان.

والحادث الذي نتحدث عنه هذه الآية والتي قبلها يتعلق -عند المفسرين القدامى- بقتيل من بني إسرائيل، حيث يقولون أن رجلاً اسمه "عاميل" عند الكرمان، أو "نكار" عند الماوردي، قتل ابن أخيه أو أخوه عند البعض، فأمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وقد مر ذكرها آنفاً، ثم أمرهم بضرب القاتل ببعض أجزائها. وهناك اختلاف كبير بين المفسرين حول (بعضها)، فقيل إنه اللسان، وقيل العجب، وقيل الفخذ اليمنى، ونُسب إلى ابن عباس إنه الغضروف الذي منه الأذن. فعندما ضربوه بجزء منها قام القاتل حيّاً وأخبر عن قاتله (تفسير فتح البيان).

ثم ذكر المفسرون سبب الاختلاف بين بني إسرائيل نتيجة هذا الحادث، فقالوا أن سببه هو أن القاتل كان قد ألقى جثة القاتل في مكان يقع بين مساكن قبائل مختلفة، فاتَّهمت كل قبيلة أختها بقتله.

ثم ظل المفسرون يبحثون عن سبب قتله، فقال بعضهم أن القاتل كانت له بنت جميلة وأراد القاتل الزواج منها، فقتله للزواج منها. وقال غيرهم أن القاتل كان فقيراً فقتل عمه أو أخاه ليرث ماله.

أما القرطبي فقام باستخراج بعض المسائل الإسلامية من هذا الحادث! والظاهر أن لا أساس من القرآن والحديث لأي من هذه التفاصيل التي أوردها المفسرون، ومن أجل ذلك نجد ابن الأثير يقول بعد إيراد هذه الروايات: "والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحقَّ عندنا" (ابن كثير).

أما صاحب فتح البيان فإنه ذكر أولاً الروايات المتعلقة بأجزاء هذه البقرة - ومنها رواية تنسب إلى ابن عباس - ثم قال: "ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفي أن نقول: أمرهم الله تعالى أن يضربوه ببعضها". وقوله هذا أيضاً دليلٌ على أن هذه الروايات - رغم أن بعضها منسوبة إلى الصحابة - لا يجوز تسميتها روايات إسلامية، بل الحق أنها مرويات من كتب اليهود، فاعتمادها يماثل أن يعزى إلى الإسلام ما هو منافٍ لتعاليمه تماماً ومكذَّبٌ للقرآن الكريم. والحق أن كلمات القرآن الكريم وترتيبها لا تقبل هذه الروايات البتة.

فأولاً يقول المفسرون أن الله تعالى أمر بذبح البقرة بعد حادث قتل النفس، وذلك للعثور على القاتل، ولكن القرآن الكريم قد ذكر حادث ذبح البقرة قبل حادث قتل النفس. والقرآن الكريم كتاب الله تعالى، ويفوق كل المعايير الإنسانية للفصاحة والبلاغة. ولن يروي هذا الحادث أيُّ إنسان - مهما كان بسيط العقل - بالترتيب الذي يقول به المفسرون. فلو أن أحداً منا أراد ذكر هذا الحادث مستعيناً بعقله وبالمعنى الذي ذهب إليه المفسرون لقال: اذكروا عندما قتلتم نفساً واختلقتم في قتلها، فأمرناكم بذبح بقرة وضرب القتيل بشيء منها، وعندما فعلتم ذلك قام القتيل حياً. ولكن القرآن الكريم لم يذكر الحادث على هذا النحو، بل ذكر حادث ذبح البقرة منفصلاً عن حادث قتل النفس، وذكر حادث البقرة قبل حادث القتل، فكيف يقال أن البقرة ذُبحت للعثور على القتيل؟ وحتى بغض النظر عما يوجد في القرآن الكريم من فصاحة وبلاغة، فإن هذا الترتيب المعكوس للحادثين لا يليق بكتاب عادي معقول أيضاً!

ولستُ الوحيد في إثارة هذا الاعتراض، بل لقد تبادر أيضاً إلى أذهان بعض المفسرين القدامى، فقد أثاره الإمام الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب"، وحاول الرد عليه، ولكنه كان ردّاً واهياً جداً، إذ قال: ليس ضرورياً أن يذكر القرآن الأحداث بترتيبها الأصلي، إذ قد يُذكر السبب قبل الحكم وقد يُذكر الحكم قبل السبب.

لا شك أن الترتيب قد يتغير أحياناً وتُذكر الواقعة على عكس ترتيبها الواقعي أحياناً، ولكن سبب هذا التقديم والتأخير إنما هو ذكرُ الأهمّ أولاً. فمثلاً: إذا رأى المرء جثة قتيل، وأراد ذكر ذلك لزملائه فإنه يقول لهم أولاً: لقد مات فلان، ثم يبين التفاصيل بأنه كان ذاهباً فرأى جثته في مكان كذا وكذا. أما المفسرون فلا يقدمون ما وقع متأخراً فحسب، بل يؤخّرون الأهمّ ويقدمون الأقلّ أهمية. ثم لا يوجد في قولهم آية حكمة في التقديم والتأخير. فالقول بالتأخير والتقديم بدون ذكر حكمة له، لا يجدي شيئاً ولا يُعتدّ به؛ بل لابد من إثبات الأسباب التي أدت إلى التقديم والتأخير هنا، وإلاّ للزم القول أن هذا الجزء من القرآن الكريم خال من الحكمة، إذ قدّم وأخّر بلا مبرر. وقد أثبت أن المبررات التي من أجلها يُقدّم المتأخّر على المتقدّم لا توجد هنا، بل يوجد هنا مبرر معاكس؛ وهو ضرورة ذكر ما وقع أولاً قبل ما وقع متأخراً، لأن الحادث الأول - أعني ذبح البقرة - أهمّ من حادث القتل، لذا كان لابد من ذكر الحادثين بترتيبهما الواقعي، وهذا ما فعله القرآن الكريم.

والأمر الثاني الذي يجب وضعه في الاعتبار هو أن القرآن الكريم قد بدأ حادث ذبح البقرة بقوله: ﴿إِذْ﴾، وكذلك بدأ ذكر حادث قتل النفس أيضاً بقوله ﴿إِذْ﴾، وقد ورد ﴿إِذْ﴾ في كل الآيات السابقة أيضاً للإشارة إلى أحداث مستقلة منفصلة بعضها عن بعض، وهذا دليلٌ بَيِّنٌ على أن هاتين الحادثتين أيضاً منفصلتان.

والدليل الثالث الذي يدعم رأيي هو أنه لا معنى لضرب القتيل بجزءٍ من جسم البقرة من أجل إحيائه، فلو أراد الله تعالى إحياء القتيل كمعجزة ما كان هناك داعٍ لذلك، إذ كان يمكن إحياءه بدعاء موسى عليه السلام، كما كان الموتى يُحيون بدعاء عيسى عليه السلام عند عامة المسلمين.

وإن قيل أن هناك أثراً طيباً في لحم البقر يساعد على إحياء الموتى، قلنا: لماذا لا يظهر هذا الأثر الآن؟

وإن قيل أن هذا الأثر الطي كان في تلك البقرة ذات المواصفات المحددة، قلنا: لماذا أمرهم الله تعالى بذبح أية بقرة أولاً، ولم لم يأمرهم بذبح البقرة المقصودة منذ البداية؟ ثم إن العثور على بقرة بتلك المواصفات ليس صعباً اليوم، ليَجربوا عليها بحسب عقيدتهم؟

باختصار، ليس هناك مبرر معقول يربط بين هذين الحادتين، اللهم إلا مبرر قبول الروايات الإسرائيلية! ولكن المشكلة أن الروايات الإسرائيلية المعتمدة أيضاً تخالف هذا الأمر، لأن الكتاب المقدس لا يذكر بتاتاً أي حادث ذُبح فيه البقرة من أجل إحياء ميت فعاد إلى الحياة. لا شك أنه قد ورد فيه التالي:

{«إِذَا وَجِدَ قَتِيلٌ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لَتَمْتَلِكَهَا وَأَقْعًا فِي الْحَقْلِ، لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ، يَخْرُجُ شُيُوخُكَ وَقُضَاتُكَ وَيَقِيسُونَ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَ الْقَتِيلِ. فَالْمَدِينَةُ الْقُرْبَى مِنَ الْقَتِيلِ، يَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ عِجْلَةً مِنَ الْبَقَرِ لَمْ يُحَرِّثْ عَلَيْهَا، لَمْ تَجَرَّ بِالنَّيْرِ. وَيَنْحَدِرُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِالْعِجْلَةِ إِلَى وَادٍ دَائِمِ السَّيْلَانِ لَمْ يُحَرِّثْ فِيهِ وَلَمْ يُزْرَعْ، وَيَكْسِرُونَ عُنُقَ الْعِجْلَةِ فِي الْوَادِي. ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الْكَهَنَةُ بَنُو لَأوِي، لِأَنَّهُ إِيَّاهُمْ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِيَخْدِمُوهُ وَيُبَارِكُوا بِاسْمِ الرَّبِّ، وَحَسَبَ قَوْلِهِمْ تَكُونُ كُلُّ خُصُومَةٍ وَكُلُّ ضَرَبَةٍ، وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرَبِيِّينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقِ فِي الْوَادِي، وَيُصْرِّحُونَ وَيَقُولُونَ: أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هَذَا الدَّمَ، وَأَعَيْنَا لَمْ نُبْصِرْ. { (التثنية ٢١: ١-٧)

والظاهر من هذه الفقرة أنهم لم يؤمروا بذبح البقرة لضرب القاتل بجزء من جسدها، ولا تذكر هذه العبارات أنهم فعلوا هكذا، وأن القاتل قام حياً، وأنه أخبر باسم القاتل، بل كانت الحكمة في ذبحها (أولاً) نحو تعظيم البقرة من قلوب بني إسرائيل، و(ثانياً) محاولة إجبارهم على قول الحق من خلال مطالبتهم بالإدلاء بالشهادة بعد غسل أيديهم على البقرة التي كانوا يعظمونها في أنفسهم. فما دام هذا هو الأمر الواقع فأى مبرر لفرض معانٍ على القرآن الكريم بأبائها ترتيب القرآن للأحداث، كما لا نجد في الكتاب المقدس ما يدعمها؟ لماذا

نفسر هذه الآيات بما يرفضه العقل والنقل، ولماذا نتيح للعدو فرصة للاستهزاء بالقرآن الكريم؟ إن ما يقوله القرآن الكريم واضح تمامًا ومتسلسل تسلسلاً طبيعياً. كان بنو إسرائيل في ذلك الزمن على استعداد صريح لعبادة البقر والعجل، ويوجد في الكتاب المقدس أمرٌ إلهي بذبح البقرة، وتتفق الحكمة التي يذكرها الكتاب المقدس من وراء ذبحها مع المفهوم القرآني، أي محو تقديس البقر من قلوبهم، فكيف يجوز بعد ذلك كله تفسير هذه الآيات بما يثير الضحك، وتقديمها بترتيب غير معقولٍ مخلٍ بترتيب الآيات القرآنية اللطيف. وما دام قد ثبت أن القصص التي بسببها فسّر المفسرون هذه الآيات بهذا المفهوم الخاطئ باطلة، وأنها لا أثر لها في الكتاب المقدس، ولا يصدقها القرآن الكريم، ولم يقل النبي ﷺ عنها شيئاً، فلم يبق أمامنا إلا سبيل وحيد وسهل وطبيعي، ألا وهو أن نعدّ حادثي ذبح البقرة وقتل النفس واقعتين منفصلتين لا صلة بينهما، ونفسّر الآية من منظور آخر، نابذين القصص الإسرائيلية التي يفنّدها الكتاب المقدس نفسه.

وحتى لو سلّمنا بآراء المفسرين جدلاً من أجل تفسير هذه الآية، فأيضاً ليس المراد أن القتل عاد إلى الحياة عندما ضُرب بجزء من جسم البقرة، لأن هذا المعنى ينافي القرآن الكريم منفاةً صريحة، وإنما نقول: عند ضرب القتل وقع أمرٌ عُرف به القاتل، وقد علّم الله تعالى موسى ﷺ هذه الحيلة للعثور على القاتل. وهذا المعنى قد ذكره سيدنا المسيح الموعود ﷺ في كتابه (إزالة الأوهام)، ولكنه ذكره استدراجاً للخصم كما هو واضح من السياق، لأنه ﷺ لم يقيم بأي تفسير لهذه الآية من عنده، بل قال هذا تفنيداً لقول الخصم الذي كان يستدلّ بهذه الآية على إحياء الموتى موتاً حقيقياً. لقد قال ﷺ إن الآية لا تتحدث عن إحياء أحد الموتى حقيقةً، بل غاية ما يمكن أن يراد بها هو أنه حين ضُرب القتل بجزء من لحم البقرة حدث أمرٌ عُرف به القاتل.

وفي بلادنا أيضاً يضع الناس صَبْغاً أسوداً على شيء ويتركونه داخل غرفة مظلمة من أجل العثور على السارق وغيره، حيث يطلبون من المشتبه فيهم أن

يدخلوا ويلمسوا هذا الشيء، فَمَنْ التصقتْ به يده فهو السارق. فيدخلون ويلمسه الجميع إلا السارق مخافة أن تلتصق به يده، ومن ثم يخرج وليس على يده الصبغ الأسود، فيُعرف.

فيمكننا أن نسلّم جدلاً بمثل هذه القصص لإفحام الخصم بسهولة، ونقول إذا كان الله تعالى قد علّم موسى عليه السلام حيلةً كهذه بدون أن يكون فيها خداع ولا مخالفة للحق، فليس في ذلك ما يدل على عودة الموتى إلى الحياة. أو يمكن أن نسلّم بأن الله تعالى أظهر عندها أمراً عُرف به القاتل من بين الذين ضَرَبوا القَتِيلَ بقطعة من البقرة، فمثلاً عندما ضرب القاتل القَتِيلَ بقطعة من البقرة أخذ يرتجف ذعراً فُعُرف، أو أنه لما ضرب القَتِيلَ بقطعة منها تحركَ جسد القَتِيلَ لسبب آخر، فظن القاتل أنه سينهض حياً، فأغميَ عليه هلعاً، أو اعترف بالجرمة بنفسه.

على كل حال، ليس في هذه الآية ما يدل على عودة ميّت إلى الحياة وإخباره القوم بالجاني. غير أننا لم نأخذها بالمعنى الذي ذكره المفسرون جدلاً إلا لندراً عن القرآن الكريم تهمّة التناقض، إذ قد يقول قائل أن القرآن يقول في موضع إن الموتى لا يعودون إلى الحياة في الدنيا، ويقول في موضع آخر أن ميّتاً عاد إلى الحياة. وإلا فيأتي أرى أن هذه الآية تتحدث عن موضوع منفصل مستقل عن موضوع الآية السابقة، ولا داعي لتفسيرها هكذا مستدلّين بروايات يهودية تتنافى مع ما ورد في كتبهم هم.

وقبل بيان المعنى الأصح عندي، أودّ أن أذكر هنا معنى آخر بيّنه بعض علماء جماعتنا، معتبرين هذين الحادّتين منفصلين تماماً. يرى هؤلاء العلماء أن المراد من قوله تعالى ﴿نَفْسًا﴾ هو المسيح الناصري عليه السلام، وأن ﴿قَتَلْتُمْ﴾ يعني أنكم حاولتم قتله، أو جعلتموه شبيهاً بالقتيل، وأن مفهوم الآية هو: اذكروا يا بني إسرائيل حين حاولتم قتل نفس عظيمة، أي عيسى عليه السلام، أو آذيتموه حتى كاد يموت، أي حاولتم قتله على الصليب.

أما قوله تعالى ﴿فَادَارَأْتُمْ فِيهَا﴾، فيمكن إرجاع ضمير (هَا) إلى النفس أو إلى حادثة القتل، والمعنى عند هؤلاء العلماء: أنكم اختلفتم في هذه النفس بعد حادثة الصليب، أو أنكم اختلفتم في حادثة الصليب ذاتها، فالمعنى الأول نظراً إلى الاختلاف في النفس هو: أنكم اختلفتم في المسيح، فقال بعضكم أن جثته سُرقت بعد أن مات، وقال بعضكم أنه أُنزل من الصليب حياً وفرّ من القبر؛ والمعنى الثاني نظراً إلى الاختلاف في حادثة الصليب هو: أن بعضكم ظن أن المسيح قد مات على الصليب، بينما ظن الآخرون أنه لم يمت على الصليب.

أما قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فيعني عند هؤلاء العلماء: أن الله تعالى سوف يميّط اللثام عن حقيقة هذه الاختلافات يوماً ما. وها قد أمّاط الله تعالى هذا اللثام حيث إن مؤسس الجماعة الأحمديّة المسيح الموعود عليه السلام قد أثبت في هذا الزمن من القرآن الكريم والأنجيل والتاريخ، أن المسيح ابن مريم عليه السلام قد علّق على الصليب ولا شك، ولكنه لم يمت عليه، وإنما أُنزل عنه حياً، ومكث في القبر حياً ثلاثة أيام، ثم لحق بحوارييه.

ويفسر هؤلاء العلماء قول الله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا﴾ كالاتي: قد أَمَرْنَا الملائكة أن اضربوا هذا الشعب بسبب جريمة محاولته لقتل المسيح، أي أن يُنزلوا عليهم العقاب والعذاب. وكان ضمير المذكر (هـ) في قوله تعالى ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يرجع إلى شعب اليهود الذين سعوا لقتل المسيح، وأن ضمير المؤنث (ها) في ﴿بَعْضُهَا﴾ يرجع إلى جريمة القتل، والمراد من (بعض الجريمة) أن يعاقبهم الملائكة في الدنيا ببعض عقاب هذه الجريمة، وأما عقابها الكامل فينالونه بعد الموت في الآخرة.

ولسوف أتناول، إن شاء الله، واقعة صلب المسيح عليه السلام بالتفصيل عند شرح الآية رقم ١٥٨ من سورة النساء، ولكني أود أن أذكرها هنا بإيجاز لكي يفهم القارئ ما يقصده علماء جماعتنا هذه.

لقد اختلفت الأمم في واقعة صلب المسيح الناصري عليه السلام؛ فيرى اليهود أنهم علّقوه على الصليب فمات عليه، ثم وُضعت جثته في قبر حيث سرقتها يريدوه

وأعلنوا بين الناس أنه عاد إلى الحياة ثانية، وذلك لوقايته من طعن اليهود بأنهم علّقوه على الصليب فمات عليه، لذا فهو كذاب وملعون، بحسب ما ورد في كتابهم المقدس أن من مات على خشبة فهو ملعون، حيث ورد: {لَأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِّنَ اللَّهِ.} (التثنية ٢١: ٢٣)، وورد في الإنجيل: {لَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ»} (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣).

أما النصارى فيرون أن المسيح عليه السلام قد عُلّق على الصليب، ومات عليه وصار ملعونا بلا شك، ولكنه صُلب بدون ذنب جناه، لذلك فقد صار ملعوناً من أجل الآخرين، ونجا نتيجة عودته إلى الحياة من اللعنة التي تحملها طواغية لتخليص الناس من عقوبة الخطيئة.

أما المسلمون عامة في هذه الأيام فيعتقدون أن المسيح عليه السلام لم يعلّق على الصليب، بل عُلّق شخص آخر مكانه، أما المسيح فرفعه الله إلى السماء حيّاً. ولكن هذه العقيدة لا تستند إلى أي حديث صحيح، وتفاصيل هذه الواقعة التي يذكرونها لا تُعزى إلى الرسول ﷺ. والحق أن تفاصيل الوقائع الماضية لا تُعلم إلا بوحي نبي أو بالتاريخ الصحيح، وما دام الرسول ﷺ لم يذكر أية تفاصيل عن رفع المسيح إلى السماء حيّاً، فلم يبق لنا إلا الرجوع إلى التاريخ، ولكننا لا نجد سنداً لهذه التفاصيل لا في تاريخ اليهود ولا في تاريخ النصارى. ومعنى ذلك أن بعض أشرار اليهود والنصارى وضعوا روايات مخالفة لتاريخهم ودسّوها في تراث المسلمين.

ولقد رفض مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام هذه العقائد الثلاث، وأثبت من القرآن الكريم والأنجيل والتاريخ أن المسيح عليه السلام قد عُلّق على الصليب، ولكنه -وبحسب أنبائه المذكورة في الإنجيل والتي لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا- أُنزل من على الصليب حيّاً، ومكث في غرفة مشاهمة للقبر مغشياً عليه وفي حالة ضعف شديد من شدة آلام الجروح، وفي اليوم الثالث أفاق وخرج من القبر، ثم طبقاً لنبوءته: {وَلِي خِرَافٌ أُخْرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا} (يوحنا ١٠: ١٦)، ذهب بمساعدة حواربيه إلى قبائل

بني إسرائيل العشر الضالة لدعوتهم إلى الحق، الذين يذكر الكتاب المقدس والتاريخ أن الملك بختنصر البابلي سباهم إلى العراق وبلاد فارس، ومن هناك شتّتهم في البلاد الشرقية من دولته، أي في أفغانستان وكشمير.

ويرى علماء الأحمدية هؤلاء أن الآية قيد التفسير تشير إلى هذا الحادث، وتقول لبني إسرائيل إن اعتداءاتكم لم تقتصر على زمن موسى فقط، بل امتدت إلى زمن المسيح أيضاً، حيث حاولتم قتله وجعله ملعوناً؛ ولكن الله تعالى سوف يكشف سرّكم هذا في يوم من الأيام.

وهذا التفسير وإن كان ينطبق على هذه الآية إلى حد كبير، ولكن توجد فيه إشكالات، فمثلاً قال الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة ٧٥)، و(ثُمَّ) تأتي عادةً للترتيب أي لذكر واقعة أخرى. والآن لو فسرنا قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بأن الله تعالى أخبرهم أنه سوف يميّط اللثام عن حقيقة هذا السر في عصر المسيح الموعود عليه السلام، فلا بد أن نفسّر قول الله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أن قلوب اليهود لم تقس بعد واقعة القتل المذكورة هنا، وإنما قست بعد كشف الله لهذا السر المكتوم في زمن المسيح الموعود عليه السلام. وهذا باطل بالبداهة، لأن قلوبهم كانت قد صارت قاسية حين ظلموا المسيح عليه السلام وعلّقوه على الصليب.

أتوجه الآن إلى بيان المعنى الذي أفضّله؛ ولإدراك هذا المعنى لا بد من معرفة أن المفسرين القدامى وقعوا في هذا الخطأ لظنّهم أن الحادث المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ يتعلق بزمن موسى عليه السلام، مع أن هذا ليس صحيحاً عندي، لأن الأحداث والاعتداءات الصادرة من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام كان قد انتهى سردها إلى قوله تعالى ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة ٧٢)، وابتداءً من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ (البقرة ٧٣) بدأ ذكر عصيانهم واعتداءاتهم الصادرة في عصر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والدليل على ذلك أن الله تعالى يقول بعد سرد واقعة قتلهم نفساً: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة ٧٥)، أي لم تأخذوا عبرة من تلك الواقعة أيضاً، ثم يقول في آخر الآية: ﴿وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٧٥)، مما يدل على أن الذين قست قلوبهم هم الذين قتلوا نفساً أو حاولوا قتلها، وكانوا معاصرين للرسول ﷺ، ومن أجل ذلك حذرهم الله وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ (البقرة ٧٦)، أي يا أصحاب محمد ﷺ، هل تطمعون في إيمانهم؟ فهذه الآية أيضاً تتحدث عن قوم كانوا في زمن رسول الله ﷺ.

وهناك حادثة من زمن الرسول ﷺ لم ترل مثار اعتراض من قبل أعداء الإسلام دائماً، وهي حادثة قتل الزعيمين اليهوديين "كعب بن الأشرف، وأبي رافع سلام بن أبي الحقيق"، بأمر النبي ﷺ. يقول معارضو الإسلام: يجوز قتل أحد في الحرب أو بسبب الحرب، ولكن هذين الرجلين لم يشتركا في الحرب ولم يقوموا بجرime التحريض على الحرب، فلماذا قُتلا؟ وأرى أن آيتنا هذه تتحدث عن هذه الواقعة، حيث بين الله تعالى فيها أن هذا القتل قد تم بسبب جرائم قومية تقع مسؤوليتها على اليهود، ولا اعتراض على تصرف الرسول ﷺ، لأن ما نفذه كان بأمر الله تعالى، وكان قصاصاً مشروعاً لجرائمهم.

وبيان ذلك أن الله تعالى عندما كتب للمسلمين النصر العظيم في وقعة بدر، احترقت قلوب اليهود حسداً، وهم الذين كانوا قد عقدوا اتفاقية سلام مع الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة. كما أخذت نار البغض تستعر في نفوس المنافقين. والحق أن وقعة بدر كسرت شوكة كفار مكة من ناحية، ومن ناحية أخرى أقضت مضاجع اليهود والمنافقين، إذ كانوا يظنون أن قدوم المسلمين إلى المدينة أمرٌ مؤقت وتغيّرٌ بسيط لا خطورة فيه؛ ولكنهم بعد وقعة بدر حسبوا للمسلمين ألف حساب، فشرع المنافقون في حيك المؤامرات السرية بين المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى أخذ زعيم اليهود كعب بن الأشرف في تأليب اليهود على المسلمين بطرق شتى، كما قام بتأجيج أهل مكة ضد المسلمين. وعاضده في ذلك الزعيم اليهودي أبو رافع ابن أبي الحقيق.

وقعت غزوة بدر في السابع عشر أو التاسع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وبعدها بادر كعب بالذهاب إلى أهل مكة يرثي قتلاهم بحماس،

ويشير حميتهم، ويحرضهم على قتال المسلمين لأخذ الثأر منهم. واندفع في شره بالتشبيب بنساء المسلمين حتى إنه شبب بزوجة العباس عم النبي ﷺ، وكان أهل مكة يقرأون شعره هذا، فتمتلئ قلوبهم حماساً ضد المسلمين ويزول رعبهم في نفوسهم. وقد أدى ذلك إلى إثارة المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى شجع يهود المدينة على الشر حتى بدأوا يطعنون في النبي ﷺ وفي المسلمين علناً، ويسخرون من المسلمين في المدينة. فذات مرة ذهبت إحدى المسلمات إلى السوق للشراء، ثم أتت محل صائغ يهودي من بني قينقاع، وقد كانوا صاغة - وفي رواية أنها كانت قد طلبت منه صنع حلي لها - وسألته عن حليها التي تأخر في صنعها. ومع أن ذلك كان قبل نزول آيات الحجاب، لكن يبدو أن المسلمات كن يحتجن ويسترن رؤوسهن ووجوههن إلى حد ما حياءً منهن عند خروجهن إلى سوق اليهود. وكانت هذه السيدة أيضاً تدلي خمارها على وجهها احتشاماً من اليهود، فقال لها صاحب المحل: ارفعي حجابك عن وجهك، فرفضت. فربط خمارها بإزارها في حين غفلة منها، فلما قامت منصرفاً سقط عنها الخمار وانكشف وجهها، فضحك اليهود. فصرخت واستغاثت، وكان مسلم يمر قريباً من الدكان، فاشتبك مع اليهودي الشرير الذي فعل هذه الفعلة فقتل بيد المسلم. فتكاثر اليهود على المسلم فقتلوه أيضاً. وكان هذا الحادث بمثابة إلقاء الوقود على النار، وتوتر الجو وازدادت العلاقات بين المسلمين واليهود سوءاً. (السيرة النبوية لابن هشام، أمر بني قينقاع)

ولم يكن هذا الحادث عملاً فردياً، بل انعكاساً قومياً كنتيجة لتحريضات ابن الأشرف ضد الإسلام بعد وقعة بدر، فكان اليهود يريدون في المدينة فتنة تمكّنهم من قتل النبي ﷺ. يقول ابن سعد: "فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد" (الطبقات لابن سعد). وقد ازداد التوتر حتى إن الصحابة كانوا يتوجسون الخطر كل حين مخافة أن يهاجم اليهود النبي ﷺ خداعاً. فقد ورد في التاريخ أن الصحابي طلحة بن البراء مرض في تلك الأيام مرضاً شديداً، ولما احتضر كان الوقت ليلاً، فأوصى أهله ألا يخبروا النبي ﷺ

بموته، بل يدفونه بأنفسهم، لكيلا يأتي النبي ﷺ إلى بيته للعزاء به، ولا يشترك في جنازته وقت الليل خشية أن يتعرض ﷺ لهجوم مباغت من قبل اليهود، وقال: "فإني أخاف عليه اليهود وأن يُصاب في سبي". (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني)

يتبين مما سبق مدى تمادي اليهود في شرورهم وقتنتهم حتى إن المسلمين كانوا في خوف دائم من أن يُغتال النبي ﷺ. ومن أجل ذلك فإن النبي ﷺ لم يعد انتهاك يهود بني قينقاع لحرمة السيدة المسلمة وقتلهم للمسلم الذي تقدم لإغايتها حادثاً فردياً. وكل عاقل منصف سيستنتج حتماً من كل هذه الأحداث وخلفياتها أن حادث قتل هذا المسلم لم يكن عملاً فردياً، إلا المؤرخون النصاري المتعصبون الذين يقولون إنه عمل فردي، وما دام كل فريق قد قتل شخصاً من الفريق الآخر، فكان يجب أن ينتهي الأمر بعدها (حياة محمد، وليام موير). لكن كل إنسان منصف إذا وضع في الاعتبار (أولاً) الأوضاع كلها وتحريض اليهود لكفار مكة على الهجوم على المدينة، و(ثانياً) تشييب اليهود العلني بنساء المسلمين بين قبائل العرب بأقذر الأبيات، و(ثالثاً) اعتداءهم الفاضح على حرمة نساء المسلمين في وضح النهار، و(رابعاً) مؤامراتهم وسعيهم لاغتيال الرسول ﷺ، أقول إذا وضع كل هذه الخلفيات في الاعتبار فلن يعدّ هذا الحادث جريمة فردية، بل يعدّها جريمة قومية من قبل الأمة اليهودية.

باختصار، عاقب الرسول ﷺ أخيراً بني قينقاع بإجلالهم من المدينة، وأمر بقتل كعب بن الأشرف رأس الفتنة والشر، وبقتل أبي رافع صهره ومساعدته الأكبر وزعيم قبيلة بني النضير، لأنهما القاتلان الحقيقيان للمسلمين حيث حرّضاً على قتل الرسول ﷺ، فقتل الأول بسبب جرائمه، والثاني بسبب إعانة الأول على جرائمه.

يصرخ المؤرخون النصاري حتى اليوم قائلين إنهما قُتلا بدون جرم ارتكبا، ولكن الحقيقة أن قتلهم ليس بشيء أمام الفتنة الهوجاء التي تولّيا كبرها.

أرى أن آيتنا هذه تشير إلى هذا الحادث نفسه وتقول: لقد ارتكبتم المعاصي والجرائم في زمن موسى، لكن قد هيا الله لكم فرصة أخرى للتقرب إليه، ومع ذلك تأبون إلا الإصرار على شروركم السابقة، وتريدون قتل نفس عظيمة وتآمرون لذلك، ثم ترفضون تحمّل مسؤولية هذه الجريمة محاولين التنصل منها؛ ولكن لن تنفعكم مكائدكم من الله شيئاً، لأنه يعلم رؤوس الشر والفتنة، وسيهتك سترهم وسيفضحهم، أي أن الله تعالى يعلم أن كعب بن الأشرف هو رأس هذه الفتنة، ولسوف يهيئ الأسباب لعقابه على بعض جرائمه.

لقد قال الله تعالى هنا ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، ولكن ما ذكرته آنفاً يبين أنهم أرادوا قتل الرسول ﷺ ولكن لم يتمكنوا منه، فكيف قال الله تعالى ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾؟ والجواب أن كلمة القتل لا تعني فقط القتل بالفعل، بل تعني أيضاً إرادة القتل أو محاولته، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٩)، فالقتل هنا بمعنى إرادة فرعون وأصحابه لقتل موسى عليه السلام. وهذا هو المراد هنا أيضاً، أي أنكم صمتم على قتل هذه النفس العظيمة، وتآمرتم ودبرتم المكائد لذلك، حتى كدتم أن تقتلوه بالفعل.

ثم إن اليهود كانوا بالفعل قد قتلوا نفساً مسلمة، ومع أنه كان واحداً من عامة المسلمين، ولكن قتله كان يستهدف في الواقع إثارة فتنة حتى يتمكنوا من قتل نبينا محمد ﷺ. وعليه فيمكن أن يراد من ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ذلك المسلم الذي قتله بنو قينقاع؛ وكان "نفساً عظيمة" من حيث أن قتلها كان حلقة من سلسلة المؤامرات التي كان هدفها قتل النبي ﷺ.

ولا يظن أحد أنه كيف يمكن لليهود، وهم قلة، أن يجردوا في أنفسهم هذا الحماس والجرأة ضد المسلمين. لا شك أنهم كانوا قلة، ولكنهم كانوا واثقين من مساندة قوم لم يسلموا من أهل المدينة عموماً ومن المنافقين خاصة، لأن أهلها كانوا حلفاء اليهود منذ سنين طويلة قبل هجرة المسلمين إليها. كما كان أهل مكة يحرضونهم على المسلمين. علاوة على ذلك، كان اليهود يعدّون

أنفسهم أكثر ثقافة وتنظيماً من غيرهم. ورد في التاريخ أنهم بدأوا يقولون بعد وقعة بدر: "يا محمد، إنك ترى أنا قومك؟! ولا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبحت منهم فرصة. إنا والله لن حاربناك لتعلمنّا نحن الناس". (السيرة النبوية لابن هشام، أمر بني قينقاع)

بعد هذا التمهيد أقوم بتفسير هذه الآية الكريمة بشيء من التفصيل. إن المخاطبين في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هم اليهود، والمراد بالنفس هو الرسول ﷺ، أو الشخص أو الأشخاص الذين قتلهم اليهود تمهيداً لقتل الرسول ﷺ.

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ يعني أنكرتم أنكم تأمرتم وكذبتم لاغتيال النبي ﷺ، أو اختلفتم في قتل المسلم الذي قتلته جماعة منكم، وتهرّب كل واحد منكم من تحمّل مسؤولية القتل زاعماً أنه صادق فيما يقول، ولكن مثل هذا القول لا يكون إلا كذباً.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، أي أن الله تعالى يعلم من يخرّضكم على قتل هذا المسلم، أو على قتل النبي ﷺ وعلى كل هذه الشرور، وسيفضحه الله تعالى. أو المراد أن الله يعلم أنكم تشيّبون بالمسلمات وتنتهكون حرمتهم، أو تهاجمون المسلمين في ظاهر الأمر، ولكن هدفكم الأساس هو قتل النبي ﷺ، ولسوف يفضح الله تعالى خطتكم الشريرة هذه.

وبالفعل قد كشفت الأحداث فيما بعد عن نوايا اليهود الشريرة؛ حيث دعا بنو النضير النبي ﷺ مرةً بحجة الحديث معه في بعض مسائل الدين لكي يغتالوه عند سnoch الفرصة، ولكن الله تعالى سلّمه منهم حيث أطلعه على خطتهم الخبيثة. (أبو داود، كتاب الخراج، باب خبر بني النضير).

ثم إن يهودية من خير دعت النبي ﷺ للطعام، ودست السم في طعامه، وما إن أخذ النبي ﷺ لقمة حتى أخبره الله بالوحي بذلك، فلفظها، وكان معه مسلم آخر أكل منه لقمةً فمات (السيرة النبوية لابن هشام، بقية أمر خير).

وهكذا فإن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني أنكم تريدون اغتيال الرسول، وحين تُسألون عن ذلك بناءً على القرائن الدالة على ذلك تنكرون، ولكن اعلّموا أن الله تعالى سيهيئ من الأسباب ما يفضحكم به تماماً ويكشف مؤامراتكم القومية هذه.

إذاً فقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كشف ما كان يخفيه اليهود من نوايا خبيثة، كما كان بمنزلة نبيٍّ مستقبلٍ أيضاً.

قد يعترض هنا أحد قائلًا: تقول أن قول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كان بمنزلة نبيٍّ مستقبلٍ، ولكنك قد اعترضت من قبل على المعنى الذي ذهب إليه علماء الجماعة وقلت أننا إذا ما اعتبرنا هذه الآية نبيًّا مستقبلًا يتحقق في زمن المسيح الموعود عليه السلام فلا ينسجم قول الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مع باقي الآية؟

والجواب: لقد اعتبر قول الله ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ جملةً اعتراضيةً وقلت إنها بمنزلة نبيٍّ مستقبلٍ، أما باقي الكلام فهو متعلق بوقت نزوله، والتقدير: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا - وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ - فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ.... وفي هذه الحالة تظل هذه الفقرات القرآنية كلها منسجمة بعضها مع بعض. أما هؤلاء العلماء فقد اعتبروا قول الله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أيضًا نبيًّا متعلقًا بالمستقبل البعيد، ولكن في هذه الحالة لا يتماشى قول الله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مع باقي الآية.

وقوله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعني: عند مؤامرة هذا الشخص لاغتيال محمد ﷺ، أو عند قتل أحد المسلمين تمهيدًا لقتله ﷺ، قلنا اقتلوا هذا الشخص بسبب بعض جرائمه.

وهذه الجملة بحاجة إلى مزيد من الإيضاح.

فأولاً: إن قوله تعالى ﴿اضْرِبُوهُ﴾، يُقال ضَرَبَهُ بيده وبالعصا ونحوها: أصابه وصدَمَه بها. وضرِبَه بالسيف: أوقع به (الأقرب).

فضرِبَه بالسيف يعني حاول قتله به. كان النبي ﷺ قد فوّض مهمة قتل كعب بن الأشرف رأس الفتنة إلى أحد أصحابه، وحيث إن المرء لو خرج لاغتتيال أحد فليس من المؤكد أن يتمكن من قتله حتمياً، بل غاية ما يمكن أن يفعله هو السعي لقتله، فلذلك قيل هنا: ﴿اضْرِبُوهُ﴾، أي هاجموه بالسيف.

والحق أنه لا يؤمر بقتل أحد إلا مَنْ يكون قادراً على قتله، كأن تأمر الحكومة مسؤولها بقتل شخص تابع لها، ولكن كعب بن الأشرف لم يكن تابعاً للحكومة الإسلامية، فلذلك قيل: ﴿اضْرِبُوهُ﴾، أي اسعوا لقتله بالسيف.

والباء في قوله تعالى ﴿بِبَعْضِهَا﴾ تعليلية، والمعنى اقتلوه جرّاء بعضها، وهناك محذوف مضاف إلى ضمير المؤنث (ها) بحسب القواعد العربية، وهذا المحذوف هو الجرائم أو الآثام أو ما شابه ذلك، وتقدير الجملة: فقلنا هاجموا القاتل بالسيف جرّاء بعض جرائمه وآثامه.

وقيل هنا ﴿بِبَعْضِهَا﴾، لأن عقوبة جرائم كعب بن الأشرف لا تنتهي في هذه الدنيا، ولا يغطّي قتله عقوبته كلها، بل سيلقى على جرائمه عذاباً من عند الله في الآخرة أيضاً، لأن القرآن الكريم يصف عقوبة القاتل كالآتي: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (النساء: ٩٤)، والثابت من القرآن الكريم أن القاتل يُقتل في الدنيا أيضاً. فثبت أن للقاتل عقوبتين: الإعدام في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة. وكأن الله تعالى يقول هنا: عاقبوا هذا المجرم العقاب الديني على بعض جرائمه، أما عقابه الباقي فسيكون بعد موته.

وأما قولي بأن الباء في قوله تعالى ﴿بِبَعْضِهَا﴾ تعليلية، أي أن معنى الجملة: اقتلوه جرّاء بعض جرائمه، فمثال الباء التعليلية في القرآن الكريم قولُ الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ (المائدة ١٤)، أي لعنّاهم بسبب نقضهم عهدهم.

أما قولي بأن هناك محذوفاً مضافاً إلى الضمير (ها) في قوله تعالى ﴿بِعَظْمِهَا﴾، وهو الجرائم أو المعاصي، فمثال المحذوف المضاف قولُ الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ (المائدة ٤)، أي حُرِّمَ عليكم أكلُ الميتة. ومثاله الآخر قولُ الله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف ٨٣)، والقرية مجموعة بيوت، والعير هي الحمير، ولا أحد يسأل البيوت ولا الحمير، إنما المراد: واسأل أهلَ القرية وأصحابَ العير.

ثم بعد ذلك يقول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، أي أن الأعداء يريدون تدمير جماعات الأنبياء والقضاء على الأنبياء بقتلهم، ولكن الله تعالى يحفظ من الأعداء حتماً أولئك الأنبياء الذين قد قضى بحفظهم من القتل، ويكتب لهم حياة جديدة حين يكونون في عداد الموتى في نظر العدو. فمن سنة الله المستمرة أنه لا يدع العدو يتمكن من قتل النبي الأول والنبي الأخير في سلسلة نبوة أيٍّ أُمَّةٍ، لأنهما النموذج الحقيقي لإحياء الأمة، ومثالهما موسى عليه السلام الذي كان الحلقة الأولى من سلسلة النبوة للأمة الموسوية، وعيسى عليه السلام الذي كان الحلقة الأخيرة منها، وإحياء بني إسرائيل كما تمَّ على أيديهما لم يتمَّ على أيدي سائر أنبيائهم، وقد حفظهما الله تعالى من الأعداء في كل موطن. وإلى ذلك يشير قول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ حيث بين أنه لا يتمكن أبداً أحد من قتل الذين يريد الله حفظهم من الموت.

كما أن قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ إشارةً إلى الإحياء العام الذي يتمَّ في الدنيا على أيدي النبي الأول والنبي الأخير من أية سلسلة للنبوة، حيث بين الله تعالى أن الذين يريدون قتلها يُبادون حتماً، لأنهم إذا لم يُبادوا صار إحياء الدنيا محالاً، لذا فالاعتراض على إهلاكهم حماقة، بل إن عدم إهلاكهم يجعل الله تعالى عرضة للاعتراض.

ثم بين الله تعالى بقوله ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أن الغرض من إراءة مثل هذه الآيات هو ردُّ الناس عن الشر وتوجيههم إلى الخير. لقد نال اليهود العقوبات وحفظ الله رسوله ﷺ وجماعته عند كل الهجمات؛ سواءً العلنية منها

أو السريّة، وكان في ذلك آية عظيمة لقوم يعقلون. وبالفعل قد أسلمَ بسببها بعض اليهود، ولكن أكثرهم لم ينتفعوا بها.

باختصار، إن الآيتين السابقتين ردُّ على الاعتراض الشهير الذي لا يزال يروّج له كتاب النصرارى واليهود بأن النبي ﷺ قتل كعب ابن الأشرف وأبا رافع سلام بن أبي الحقيق بدون جريمة ارتكباها، حيث بين الله تعالى هنا أن شرورهما أدّت إلى قتل بعض المسلمين، بل لقد تأمرا وخطّطا لاغتيال الرسول ﷺ. والتأمر لاغتيال إمام جماعة أو ملك أو رئيس دولةٍ هو بمثابة قتل الشعب كله. وقد أطلق أهل الغرب على هذه الجريمة اسمًا خاصا وهو (High Treason) أي الخيانة العظمى، ويعاقب مرتكبوها بالإعدام، وليس ضروريًا أن يكون المجرمون قد نجحوا فعلاً في تنفيذ مؤامرة الاغتيال. وفي هذه الأيام أيضًا -أيام هذه الحرب العالمية الثانية- يعاقب الجواسيس بالإعدام على جرائم تجسسٍ بسيطةٍ. إن اليهود والنصارى يعترضون على قتل كعب بن الأشرف وأبي رافع سلام بن أبي الحقيق، ولكنهم يغضّون الطرف عن تأمرهما وتخطيطهما وتحريضهما على اغتيال النبي ﷺ. فهل في العالم دولة لا تنفذ عقوبة الإعدام في من يتأمر على قتل رئيسها وكبار المسؤولين فيها. الحق أن أي دولة لن تقصر في إعدامه إلا إذا كانت لا تعرف قيمة رئيسها، وتظن أن قتله لا يشكل جريمة كبرى ولا يضر بالبلد شيئًا. أما صحابة الرسول ﷺ فقد كانوا عشاقه، ويمكن معرفة مدى حبهم له بما ذكرناه آنفا عن الصحابي طلحة بن البراء الذي أوصى أهله ألا يخبروا النبي ﷺ بموته مخافة أن يأتي إلى بيته لصلاة الجنازة بالليل شفقةً عليه، فيغتاله اليهود في ظلام الليل. ليس بوسع اليهود والنصارى أن يدركوا حقًا ما كان في قلوب الصحابة من قيمة لصلاة الرسول ﷺ على أحد منهم، ومع ذلك لو أنهم فكّروا بدون تعصب في تضحية هذا الصحابي لأدركوا أن حياة النبي ﷺ كانت في خطر شديد من قبل اليهود في ذلك الوقت حتى إن هذا الصحابي ضحّى بنعمة صلاة الرسول عليه التي كانت باليقين أحبّ وأعزّ إليه من ماله

وأهله وأولاده بل ومن نفسه! ولو لم يكن هذا الخطر شديداً وحقيقياً لما حرم هذا الصحابي نفسه من نعمة صلاة الرسول ﷺ عليه.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٥)

شرح الكلمات:

قَسَتْ: قسا قلبه يقسو قسواً وقساوةً: صلبٌ وغلظ. قسا الدرهم: زاف (الأقرب).

القسوة: الصلابة في كل شيء، وقسوة القلب ذهابُ اللين والرحمة والخشوع (اللسان).

الحجارة: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدَّت للكافرين).

يتفجر: تفجَّرَ الماء: سال وجرى (الأقرب).

الأنهار: راجعُ شرح كلمات قول الله تعالى (وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

يَشَقَّقُ: أصله يتشقق. وشقَّ الشيء: صدَّعه وفرَّقه. وتشققَ الخطب: تصدَّع وتفرَّق (الأقرب).

يهبط: هبط من الخشية: تضاعلَ وخشع (الأقرب). الهبوط: الانحدار (المفردات)

للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو).
 للمزيد راجع شرح كلمات قول الله تعالى (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو).

فالمراد من قوله تعالى ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ١ - أن من القلوب ما يسقط من خشية الله مستغفراً، ٢ - أن منها ما يخشع ويتواضع من خشية الله.
خشية: خشيه يخشاه خشية: خافه واتقاه. والخشية: الخوف. وفي "الكليات": الخشية أشد من الخوف... والخشية تكون من عظمة المخشي، والخوف يكون من ضعف الخائف (الأقرب).

وقال الإمام الراغب: الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. (المفردات)

غافل: غفل عنه غفلة: تركه وسها عنه. غفل الشيء: ستره. وجمع الغافل: غافلون وغفول وغُفل (الأقرب).

الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والתיقظ. (المفردات)
 يقال: أنت غافل، أي لا تُعنى بشيء (اللسان).

قال أبو البقاء عن الغفلة: هو الذهول عن الشيء (التاج).

فقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الله تعالى:

١ - ليس ساهياً عن أعمالكم، ٢ - ما كان ليستر أعمالكم على الدوام، ٣ -

لا ينسى أعمالكم بل يرتب عليها النتائج، ٤ - يُعنى بأعمالكم.

التفسير: قال الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. ويتضح من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ أن

مضمون هذه الآية ذو صلة بالتي قبلها، والمعنى: كان المفروض أن تلين قلوبكم برؤية الآيات الإلهية التي سبق ذكرها، ولكن ازدادت قلوبكم قساوة وشقاوة. والدليل على صحة هذا المعنى هو أن يهود بني النضير وبني قريظة قد تمادوا في شرورهم وفتنتهم أكثر من ذي قبل، رغم قتل كعب بن الأشرف وأبي رافع بن أبي الحقيق، وإجلاء بني قينقاع من المدينة.

وقوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ يعني أن قلوبكم صارت صلبة كالأحجار، بل أقسى منها. وقساوة القلب تُشَبَّه بقساوة الحجارة في كل لغة تقريباً، والمراد من التشبيه الوارد في هذه الآية هو أن قلوبكم غير مستعدة لقبول أحكام الله تعالى. إن بعض الأحجار يمكن أن تلين، ولكن قلوبكم لا تلين. وحرف ﴿أَوْ﴾ هنا لا يدل على الشك، وإنما المراد أن قلوب بعضهم قاسية مثل الأحجار وبعضها أقسى منها.

وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ يعني أن هناك أحجاراً تنشق من ضغط الماء الجاري وراءها، فيسيل منها غزيراً كالأنهار. وهذه الظاهرة تُلاحظ بكثرة في المناطق الجبلية حيث تنشق الأرض الحجرية بتأثير ضغط الماء المنحدر تحت وجه الأرض من قمم الجبال الثلجية، فتسيل المياه من الأرض غزيرة. ولكن اليهود قست قلوبهم لدرجة أنه قد سال ماء الكلام الإلهي، فلم تفسح له الطريق، وأنكروا آيات الله تعالى ظاهراً وباطناً.

وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ يعني أن من الأحجار ما يتصدع بضغط الماء، فيسيل منه الماء، ولكنه لا يكون نبعاً كبيراً بل يكون ماء قليلاً.

والمراد أن الخير يظهر من بعض الناس بقدر كبير، ومن بعضهم بقدر يسير، فمنهم من يكون كالأحجار الصلبة التي تحجز وراءها عيون ماء كبيرة، أي أنهم يقاومون الحق بشدة في أول الأمر، ولكنهم يقبلونه ويفسحون له الطريق في النهاية، حتى يتدفق ماء الحق منهم بقوة. ومنهم من يقاومون الحق في البداية ويضطرون للإذعان له آخر المطاف، ولكن لا يكون إيمانهم بقوة النوع الأول. أما اليهود فأكثرهم ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء، بل هم أشد قسوة من الأحجار، فلا يفسحون الطريق للحقائق السماوية بأي صورة، لا ضيقاً ولا واسعاً.

أما قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فيمكن أن نفهمه كالتالي:

أولاً: بإرجاع الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ إلى الحجارة، أي أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله. ولا يعني ذلك أن الحجارة تعقل وتميّز وتشعر بخشية الله كالإنسان، بل لا بد هنا من تقدير محذوف كآلآتي: إن من الأحجار ما يهبط من أسباب خشية الله تعالى من عواصف وزلازل وفيضانات وصواعق، وهذه الظواهر تتسبب في خشية الله وفي تردّي الأحجار أيضاً. والمراد أنه تقع في الأرض والسماء انقلابات شديدة وتطورات عظيمة باستمرار، ولكن هؤلاء اليهود القساة القلوب والمتعصبين لا تميل قلوبهم إلى خشية الله، ولا تحزّ ساجدةً أمام الله تعالى.

وثانياً: باعتبار الخشية بمعنى الإخشاء (البحر المحيط)، أي أن بعض الحجارة تسقط من إخشاء الأشياء التي تبعث خشية الله في القلوب من قبيل الأعاصير والفيضانات والصواعق والزلازل وغيرها. والمراد هو نفس ما ذكر من قبل، والفرق فرق الإعراب فقط، ففي الشرح الأول قدّرنا محذوفاً كآلآتي: أن بعض الأحجار تسقط نتيجة أسباب خشية الله، أما في الشرح الثاني فاعتبرنا الخشية بمعنى الإخشاء، وفي الاثنین يُعَدُّ مصدر الخشية والإخشاء بمعنى اسم الفاعل، مثل قولهم زيد عدل أي عادل (للمزيد انظر بحث المصدر بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول في كتاب "الرضى")

ثالثاً: بإرجاع الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ إلى القلوب، أي أن من القلوب ما تحزّ ساجدة من خشية الله. ولا يمكن الاعتراض على إرجاع الضمير إلى الاسم الأبعد (القلوب) بدل الاسم القريب (الحجارة)، لأن ظاهرة انتشار الضمائر هكذا أمر جائز وشائع في اللغة، ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُوَقِّرُوهُ وَنُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح: ١٠)، فضمير (الغائب) في ﴿نُعَزِّرُوهُ وَنُوَقِّرُوهُ﴾ عائد إلى الرسول ﷺ، أما في ﴿وَنُسَبِّحُوهُ﴾ فإلى الله تعالى.

ومثاله الآخر قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْظُكُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٠﴾ (البقرة: ٢٣٠)، فضمير المخاطب في ﴿تَأْخُذُوا﴾ يعود إلى الأزواج، بينما ضمير المخاطب في ﴿خِفْتُمْ﴾ راجع إلى الذين يصلحون بين الزوجين. فهذا الأسلوب شائع في العربية ويسمى "انتشار الضمائر"، ولا بأس به عند النحويين. (الجواهر الحسان للثعالبي)

أما قوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيؤكد أن هذه الآيات القرآنية تتحدث عن اليهود المعاصرين للرسول ﷺ، وتقول: إن أعمالكم الشريرة ضده ﷺ ليست خافية على الله تعالى، ولسوف يعاقبكم عليها.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٦)

شرح الكلمات:

تَطْمَعُونَ: طمع فيه (يطمع): حرص عليه (الأقرب).

والطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوةً له (المفردات).

طمع فيه وبه: حرص عليه ورجاه (التاج).

والطمع ضد اليأس (اللسان).

فمعنى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أفترجون؟ أفترحسون؟

أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ: آمنَ له: خضع له وانقاد. وآمنَ به: صدَّقه. وآمنَه: أَمَّنَه (الأقرب).

فمعنى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ هو: هل تحرصون أو ترجون أن يصدقوا قولكم أو ينقادوا لكم.

فريق: الفريق: الطائفة من الناس أكثر من الفرقة، وربما أطلق الفريق على الجماعة، قَلَّتْ أو كَثُرَتْ (الأقرب).

يحرّفون: حرّفه: غيّره؛ وحرّف الكلام: غيّره عن مواضعه (الأقرب).

وتحريف الكلام أن تجعله على حرفٍ من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين (المفردات).

التفسير: معنى آمنَ له، كما ذكر عند شرح الكلمات، هو: أطاعه وانقاد له، أو صدّقه تصديقاً جزئياً، أما آمنَ به فيعني صدّقه تصديقاً كلياً أيضاً، كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (البقرة: ٥). وحيثما جاء الفعل آمنَ أو آمنوا في القرآن الكريم ورد مقروناً بالحرف الجار (الباء) أو (اللام)، فقد ورد آمن به ٥٣ مرة، وآمن له ٤ مرات.^١

وكلما ورد الفعل (آمنَ له) في القرآن الكريم كان بمعنى الطاعة والانقياد بالمقام الأول، كقوله تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ (يونس ٨٤)، أي أن عددا كبيرا من بني إسرائيل آمنوا بموسى عليه السلام في قلوبهم، ولكن قليلا منهم هم من وفّقوا لطاعة أحكامه والانقياد له علناً، أما الباقون فخافوا أن يتعرضوا للأذى على يد فرعون وأعدائه.

كذلك ذكر الله تعالى قول فرعون للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ﴾ (طه ٧٢)، أي أنكم أطعتم موسى وتمردتم عليّ. ذلك أن فرعون ما كان يهّمه كثيرا إيمانهم بموسى في قلوبهم، إنما كان يهّمه ألا يطيعوه في الظاهر، أي سياسياً. ولقد ورد قول مماثل لفرعون في سورة الشعراء الآية ٥٠ أيضاً.

باختصار، حيثما أراد القرآن الكريم الإشارة إلى الإيمان بالمعنى المعروف قال (آمن به)، وحيثما أراد الإشارة إلى الطاعة والانقياد قال (آمن له).

أما صيغة (تؤمنوا بـ) فقد وردت في القرآن الكريم في ١٢ موضعاً، وصيغة (تؤمنوا لـ) فوردت في موضع واحد، وهو قول موسى عليه السلام لفرعون وقومه: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ﴾ (الدخان ٢٢)، ومعنى الإيمان هنا الطاعة أيضاً،

^١ أي. بمشتقاتهما المختلفة. (المترجم)

إذ ورد من قبل قول موسى لهم ﴿أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ (الدخان ١٩)، فالمعنى أنكم إذا لم تطيعوني ولم تسلموا لي بني إسرائيل طواعيةً، فلا تضعوا العراقيل في طريقي على الأقل.

أما صيغة اسم الفاعل من (آمنَ به)، أي المؤمن بالمعنى المعروف، فاستخدمها القرآن في موضعين، أما صيغة اسم الفاعل من (آمنَ له)، أي بمعنى المطيع أو المصدق تصديقاً جزئياً، فاستخدمها في موضع واحد، وهو قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف: ١٨)، أي لن تقبل قولنا وإن كنا صادقين.

والفعل (نؤمن بـ) ورد في ٤ مواضع، أما الفعل (نؤمن لـ) فورد في ٨ مواضع، وهي:

(أولاً) قول الله تعالى: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ (الشعراء ١١٢)، أي كيف نطيعك وأتباعك أراذل.

و(ثانياً) قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون ٤٨)، أي قال قوم فرعون هل نطيع شخصين من قوم هم عبيد لنا، لنصبح عبيدا لعبيدنا؟

و(ثالثاً) قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقَرَبَانٍ تَأْكُلُ النَّارُ﴾ (آل عمران ١٨٤)، وهنا يمكن أن يكون ﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ بالمفهومين: أي الإيمان أو الطاعة، غير أنه يُفَضَّلُ اعتباره بمعنى الطاعة أو التصديق الجزئي وليس بمعنى الإيمان الكلي، وذلك نظراً لاستعماله في المواضع الأخرى.

و(رابعاً) قول الله تعالى عن المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ (التوبة ٩٤)، وهنا ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ يعني لن نطيعكم في الأمر المذكور، ولا يعني الإيمان المعروف، لأن النبي لا يؤمن بأفراد جماعته.

و(خامسا) قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (الإسراء ٩١)، وهنا أيضا يعني الإيمان الطاعة والانقياد، إذ ذكر هنا الأسباب المادية والمُلْك المادي. وكذلك ورد قول الكفار في هذه السورة نفسها ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ (الإسراء ٩٤)، وهنا أيضا يعني الإيمان تصديق أمر معين وليس الإيمان الكلي المعروف.

و(سادسا) قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة ٥٦)، وهنا جاء الإيمان قطعًا بمعنى الطاعة، لأن القوم كانوا قد أظهروا إيمانهم الكلي بموسى ﷺ عند خروجهم من مصر. أو يعني الإيمان هنا تصديق أمر معين فحسب.

و(سابعا) قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف ١٣٣)، وهذا قول قوم فرعون لموسى ﷺ بعد أن طالبهم بخروج بني إسرائيل من مصر، والمعنى أننا لن نقبل مطلبك ولن نرسلهم معك. هذا وقد ورد بعد ذلك بآية واحدة قولهم لموسى ﷺ ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الأعراف ١٣٥)، وهذا يؤكد أن الإيمان هنا بمعنى الطاعة قطعًا، إذ لو كان بمعناه المعروف لقالوا لموسى ﷺ لن نرسل معك بني إسرائيل فقط، بل سوف نخرج معك من مصر مؤمنين بك.

أما الفعل (يؤمن) أو (يؤمنون) فقد ورد في ٨٠ موضعا، ورد في ٧٧ موضعا منها بالباء، وفي موضعين فقط باللام، أحدهما قول الله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ في هذه الآية قيد التفسير، والثاني قول الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ٦١)، أي قال المنافقون إن الرسول ﷺ يستمع كلام من يعارضنا من المؤمنين ويصدقّه، فردّ الله عليهم بقوله: صحيح أن رسولي يفعل هكذا ونعم ما يفعل. فإن ﴿يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا يعني بكل تأكيد تصديق قول المؤمنين، أما ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فيعني الإيمان الكلي بالله تعالى.

باختصار، كلما ورد في القرآن الكريم القول (آمن له) وما شابه ذلك فمعناه الطاعة أو التصديق الجزئي بشي معين، أما إذا أريد الإيمان الكلي بالله أو رسوله كان القول (آمنَ به) وليس (آمنَ له). وعليه، فقوله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ يعني: هل تأملون وتحرصون أن يقبلوا قولكم، وهذا المعنى يؤكد أنه أيضا ضمير المخاطب في كلمة ﴿لَكُمْ﴾ الذي يعود على جماعة المؤمنين، لا على الله تعالى ورسوله، لأن الإنسان إنما يؤمنُ الإيمانَ المعروفَ بالله ورسوله، لا بجماعة المؤمنين. فثبت أن الإيمان ورد هنا بمعنى الطاعة، والمراد أن بعض المسلمين يُحسنون الظن باليهود ويصدقون وعودهم بالعيش معهم في سلام ووثام، فيقول الله تعالى لهؤلاء المسلمين: إنكم مخطئون في هذا الظن، لأن نبل النفس أو خشية الله هو الدافع إلى الوفاء بالعهد، ولكن الذي يلجأ إلى الكذب والخداع فلا يُتوقع منه الوفاء بالعهد. باختصار، هنا قد حذر الله المؤمنين من اليهود بأنكم ترون كيف يلجأ هؤلاء إلى الكذب والخديعة، وهذا دليل كافٍ على أن لا قيمة لوعودهم وأقوالهم؟

ثم يقول لهم الله تعالى ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي أن التحريف فعلٌ سيئٌ بلا شك، ولكن إذا وقع المرء في تحريف شيء لعدم فهمه له أو نتيجة سَهْوٍ فلا يدل ذلك على شرٍّ منه، بل على جهلٍ وخطأ، أما اليهود فلا عذر عندهم من هذا القبيل، بل إنهم يحرفون كلام الله عمداً وبعد معرفة مراده جيداً؛ ومن يرتكب مثل هذا الافتراء والظلم في حق دين قومٍ أو في حق ديانته وقومه هو، فكيف يُتوقع منه أنه سيفي بعهده نبلاً وأمانةً أو خشيةً من الله تعالى.

إذا كان المراد من كلام الله هنا كُتب اليهود - كما قال عامة المفسرين القدماء - فأیضا لا يؤمن جانبُ اليهود عقلاً، لأن الأمة التي ترتكب الخيانة في حق دينها هي فلا يتوقع منها أن تعامل الآخرين بأمانة.

أما إذا كان المراد من كلام الله هنا القرآن الكريم - كما رأى بعض المفسرين وكما أرى أنا أيضاً نظراً للسياق - فأیضا لا قيمة لقول اليهود المذكورين هنا؛

لأن كلام الله تعالى هو أعلى ثروة عند أي أمة، وتكون مشاعرهم تجاهه حساسة للغاية. فإذا كان اليهود معتادين على تحريف معاني القرآن وتقديمها للناس بصورة مشوهة، مجرّحين بذلك مشاعر المسلمين المرهفة، فكيف يرحى منهم الوفاء بعهودهم معهم في الأمور الدنيوية؟ إذا جرّح المرء مشاعرَ وأحاسيس غيره في الأمور الحساسة للغاية، فكيف يتوقع منه ألا يجرّح مشاعره في الأمور العادية.

يتضح من هذه الآية أنه كان من دأب اليهود تقديم آيات القرآن الكريم للناس مبتورة عن سياقها ومعنى مشوه، من أجل إثارتهم ضد الإسلام. وهذا هو دأب أعداء أنبياء الله تعالى منذ القدم. فلم يُبعث نبي إلا واتبعوا هذا الأسلوب الشائن ضده، بل ليس هناك حقيقة إلا وحاربها أعداؤها بهذه المكيدة، لأن معارضة الحق تدفع المرء إلى الكذب، إذ كيف يستطيع أحد معارضة الحق وإثارة الناس ضده بدون أن يلبسه لباس الباطل. وهذه هي أكبر جريمة تُرتكب في هذا العصر أيضاً، وهذا هو الحائل الأكبر دون قبول الناس للحق. فلو أن الناس صمّموا على عدم تقديم دين معارضيه للناس في ثوب الكذب، وعرضوه أمام قومهم وأمام الآخرين كما يقول به أهله لما تعذر على الناس معرفة الحق، ولزال النزاع والشقاق والنفاق بين الأمم بسرعة.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضْهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٧)

التفسير: في الآية السابقة بيّن الله تعالى أن اليهود يعاملون المسلمين بتعصّب شديد، حتى إنهم يتعمدون عرض القرآن الكريم على الناس بمعانٍ محرفة، سعياً لإثارتهم ضد المسلمين، أما في هذه الآية فبيّن الله تعالى أنهم لا يسخرون

من كلام الله تعالى فحسب، بل لا يعاملون المسلمين بإخلاص. فعندما يلقوهم يتظاهرون لهم أنهم يؤمنون بصدق الإسلام من الصميم، بل يخبروهم بأدلة أقنعتهم بصدقه، ويطلعوهم على أنباء كتبهم التي تنطبق عندهم على محمد رسول الله ﷺ، وتنطق بصدقه؛ ولكنهم حين يرجعون إلى أصحابهم من اليهود يلوم بعضهم بعضاً قائلين: كيف تخبرون المسلمين بأمر سوف يتخذونها حجة عليكم في دينكم؟ إن هذا التصرف من قبل اليهود دليلٌ على أنهم لا يعارضون المسلمين بسبب الدين فقط، بل يعادوهم عداً سياسياً ومدنياً، إذ إنهم لا يكتفون بالاعتراض على الإسلام فقط، بل إنهم ليسوا مخلصين في علاقاتهم الدنيوية بجيرانهم المسلمين، وإنما يعاملوهم بمكر وخداع.

وهذا الجانب الأسود من أخلاق اليهود خطير جداً. كانوا يلقون المسلمين ويتظاهرون لهم بالصدقة، ويقولون لهم إننا مقتنعون بصدق الإسلام من القلوب، ولكنهم عندما يلتقون باليهود الآخرين كانوا يتلاومون قائلين: لماذا تخبرون المسلمين بما فتحه الله علينا من الأمور، فإنهم سوف يستخدمونها حجة علينا. إن اليهود بأسلوهم هذا كانوا يعترفون عملياً بأن ما يذكرونه للمسلمين هو من أنباء الله الواردة في كتبهم، وأنه يدل على صدق الإسلام، ولكنهم لا يريدون أن يطلع عليه المسلمون كيلا يستخدموه ضد دين اليهود. وكأنهم بسلوكهم هذا يريدون التمسك بمكانتهم المادية وعزهم الدنيوي حتى لو أدى ذلك إلى اعتبار أن كلام الله تعالى باطل وأن مشيئته لم تتحقق. والأمة التي قد ساءت أخلاقها لهذه الدرجة كيف يرجى منها الخير من حيث الدين؟ كلا، بل إن هلاكها خير للدين والأخلاق والعالم. فهذا التصرف الذي ظهر من قبل اليهود عند بعثة النبي ﷺ لدليلٍ بينٍ على أن هذه الأمة لم تعد مستحقةً لنعم الله تعالى؛ وكان لا بد أن يظهر النبي الموعود خارجها.

وقال الله تعالى في آخر هذه الآية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي أن المرء يتكلم بما يؤدي إلى عزته أو عزة قومه، ولكن قائل الكلام المذكور أعلاه يقر صراحة أنه يخون الله تعالى، إذ يعلم مشيئة الله ويفهم نبوءاته ومع ذلك يعلن أنه لن يسمح

بأنجلاء صدق النبوءات الإلهية وسيعيق تحقق المشيئة الإلهية. ومن ادعى هذا الادعاء الخطير أمام أصدقائه فأئى شبهة في أنه من الذين لا يعقلون. إنما مثله كمثل من قيل فيه: يا له من لصٍّ جريء، حيث خرج للسرقة حاملاً السراج بيده.

وقوله تعالى ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يفيد مفهومين: الأول؛ إذا كان الله تعالى قد كشف عليكم صدق الإسلام بالأدلة العقلية أو بالآيات والمعجزات، فلماذا تذكرون هذا الأمر أمام المسلمين، والثاني؛ لماذا تخبرون المسلمين بالأنباء التوراتية التي وردت عن محمد رسول الله ﷺ والتي قد تحققت في شخصه مؤكدة صدقه؟ وكلا المفهومين ينطبق هنا في آن واحد. كان اليهود على صنفين: صنف لم يكن مطلعاً تماماً على الكتاب المقدس، ولكن كانت قلوبهم مستيقنة بصدق الرسول ﷺ بعد سماع الأدلة العقلية ورؤية المعجزات على يده ﷺ، وصنف آخر كانوا مطلعين تماماً على الأنباء الواردة في كتبهم عن النبي الموعود والتي كانت قد تحققت في شخص النبي محمد ﷺ، وكان صدقه قد تبين لهم، وكانوا يذكرون هذه الأنباء للمسلمين ويقولون لهم إن رسولكم صادق بحسب نبأ كذا وكذا في سفر كذا وكذا من كتبنا.

أما قوله تعالى ﴿لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، فهناك إشكال حول عبارة ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أريد توضيحه. المعنى العام لهذه الجملة أن بعض اليهود قالوا لبعض: لماذا تذكرون للمسلمين الأنباء الواردة في كتبنا أو لماذا تعترفون أمامهم أن صدق نبينهم قد ظهر لكم بالأدلة العقلية؟ ألا تعلمون أنهم سيحتجون بما عليكم عند ربكم إثباتاً لجرمتكم؟

قد يعترض البعض على هذا المفهوم قائلاً: إن الله تعالى هو عالم الغيب عند المسلمين واليهود، فكيف يُعقل أن يلوم بعض اليهود إخوانهم على اعترافهم للمسلمين بما يوجد في قلوبهم من يقين أو بما يوجد في التوراة من أنباء، ليقوم المسلمون بالحجة عليهم أمام الله تعالى يوم القيامة؟

والجواب الأول هو: يصحّ هذا الاعتراض إذا سلّمنا بأن الناس كلهم متساوون في إيمانهم بالله تعالى. وهذا غير صحيح، إذ يوجد بين الناس من يعتقدون بأن بعض البشر يعلمون الغيب من دون الله تعالى، وهناك من يظنون أن الله تعالى لا يعلم كل الغيب. فقد قال القرآن الكريم عن الحوار الذي سيدور بين الله تعالى وبين الكفار يوم القيامة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٤)، أي عندما تقوم الحجة على الكفار يوم القيامة سوف يرددون كلامًا واحدًا ويقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ومثل هذا الجواب أمام علام الغيوب ليس إلا جهلاً فاضحاً، ولكن بعض الناس يحملون مثل هذه الأفكار الحمقاء فعلاً. فهناك فلاسفة يعترفون بأن الله عالمٌ علمًا كليًا إجمالياً، ولكنهم ينكرون أن الله يعلم الأشياء علمًا تفصيلياً بكل جزئياتها، ولم يكن بمستبعد من أمثال هؤلاء الموجودين بين اليهود أن يقولوا لإخوانهم: لماذا تخبرون المسلمين بما في نفوسكم فإنهم سيحتجون به عليكم يوم القيامة. والواقع أن اليهود كانوا يرتكبون مثل هذه الحماقة في أمور أخرى أيضاً، فمثلاً قد ورد في سورة البقرة لاحقاً بعد آيات فلائيل أنهم قالوا أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً، مع أن اليهودية بدأت بموسى عليه السلام، بل لم يطلق هذا الاسم عليهم إلا بعد سليمان عليه السلام. فالأمر عندما تصاب بالانحطاط والإدبار تسارع في ترديد مثل هذه الأقوال اللامنطقية والمتضاربة، ذلك لأن إيمان الناس عندها لا يتأسس على دليل وبرهان، بل على ما يسمعون دون تدبر، وإن مصدر ما يسمعون أناسٌ يحملون أفكاراً متضاربة، فتكون حصيلة ما يصل إليهم معلومات متضاربة. هذا أولاً، وثانياً إن الإنسان عندما يعتنق عقيدة مخالفة للعقل يضطر لإثبات صدقها لقول ما يخالف العقل أيضاً. وإن الدين الحق لا يحقق النجاح إلا لخلوه من التضارب والتعارض، وعندما يخلو الإنسان إلى نفسه ساعة ويتخلى عن التعصب يغزوه الحق، وهكذا تزدهر الجماعات الربانية.

أما الجواب الثاني فهو: أن لكلمة (عند) عدة معاني، منها مكان الحضور، وعليه فإن قوله تعالى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني بحضور ربهم. ومن معاني (عند):

بحسب الحكم أو الرأي، فيقال: هذا عند فلان حرام، أي بحسب حكمه ورأيه، ومثاله في القرآن الكريم: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأَوَّلِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور: ١٤)، أي أن هؤلاء الذين اتهموا الآخرين بالفاحشة ولم يأتوا بأربعة شهداء فهم الكاذبون بحسب حكم الله تعالى. فليست ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ هنا بمعنى في علم الله تعالى أو في حضوره، إذ من الممكن أن يكون الشخص في اتهامه غيره صادقاً، ولكن ليس بمقدرته الإتيان بالشهداء الأربعة، فهو في علم الله صادق، ولكنه بحسب حكم الله كاذب ولا يُعتدّ بقوله، لكيلا يشجع ذلك الكاذبين على رمي الآخرين افتراءً بالفاحشة بدافع العداوة دون أن يأتوا بالدليل الكافي، وإلا فالله يعلم الصادق من الكاذب بدون شهادة.

وقال بعض العلماء أن ﴿عِنْدَ﴾ في قوله تعالى ﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ جاءت بمعنى (في)، أي ليحاجوكم به في ربكم، بمعنى: ليحاجوكم به في الأمور المتعلقة بالله تعالى.

وقال البعض أن هناك مضافاً محذوفاً هنا -وهو جائر بحسب القواعد العربية- وتقديره: عند ذكر ربكم (البحر المحيط). ومفهوم الجملة: مخافة أن يحتجوا عليكم وقت النقاش عن ربكم بما تخبرونهم من أنباء، بمعنى: أنكم لو قلتم للمسلمين عند النقاش هل عندكم من برهان من ربكم على صدق محمد (ﷺ)، فنخاف أن يحتجوا عليكم بالأنباء التوراتية التي يسمعونها منكم.

ويتبين من قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الإسلام لا يرضى بالإيمان نفاقاً بدون إخلاص، ولأجل ذلك استنكر الله تعالى فعل اليهود هذا، حيث كانوا يعترفون أمام المسلمين بالإيمان مع أن إيمانهم لم يكن صادقاً. فلو كان التصديق باللسان وحده مُجدياً عند الإسلام لأشاد القرآن الكريم بتصرف اليهود هذا ولهيأ لهم الفرص لمزيد من التقارب مع المسلمين وللتظاهر بمظهر المؤمنين.

كما أن قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ردٌّ على مزاعم الذين قالوا إن محمداً (ﷺ) كان قد سمع من اليهود ما ورد في كتابهم المقدس من واقعات وذكرها في القرآن الكريم. ذلك أن الذي يستقي المعلومات من مصدر يحاول توطيد الصلة

به، لا قطعها. فلو كان نبينا ﷺ يفعل ما يزعمونه، وحاشاه أن يفعل، لم يهتك ستر اليهود ولم يكشف فسادهم هكذا، بل لسعى لإتاحة فرص التقارب لهم أكثر فأكثر.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (البقرة:

(٧٨

التفسير: هذه الآية أيضًا ردُّ على الكتاب النصارى الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه سمع من اليهود واقعات الكتاب المقدس ووضعتها في القرآن الكريم، حيث تبين هذه الآية أن الله تعالى يخبر نبيه بكل خير ضروري، ألا يعلم اليهود أن الله تعالى يعلم ما يسرُّون وما يعلنون؟ أي أنه تعالى قد ذكر في القرآن الكريم أخبارًا لم يذكرها اليهود في الكتاب المقدس، وذكر أيضًا أخبارًا ذكرها في كتابهم. أفلا يدركون من ذلك أنهم لو لم يذكروها لما نقص ذلك من مضامين القرآن الكريم شيئًا.

مازال أعداء الحق يعترضون على أنبياء الله تعالى بأنهم من صنع أحداثٍ زمنهم، حيث يدعون النبوة متأثرين بالتيارات الفكرية المعاصرة لهم. لا شك أن الله تعالى إذا أراد بعثة نبي وجه أنظار الناس إلى ضرورة بعثة أحد، فمثلاً يتحدثون عن بعض الأنبياء السابقة عن بعثة موعود ويقولون إن هذا العصر عصرٌ تحقُّقها، ويستنتجون من بعض العلامات أن المأمور الموعود سيبعث في هذا العصر. وهكذا يجب أن يكون، لأن تهيئة الأسباب والمناخ لقبوله في الدنيا أمر ضروري لا يمكن أن يغفل عنه الله تعالى. فإذا أتى الموعود استند إلى تلك الأنبياء أيضا التي كان علماء عصره يتطلعون إلى تحقيقها قبيل مجيئه.

لكن القول -بسبب هذه الظاهرة- أن الأنبياء من صنع أحداث عصرهم قولٌ واهٍ جدًا. هل يرى هؤلاء المعارضون أنه لا بد أن يبعث الله النبيَّ أولاً، ثم

بعد ذلك يهيبُ الأسباب لمعرفة صدقه؟ لو فعل الله ذلك فكأنما أراد بنفسه حرمان الناس من الهدى! أم أن هؤلاء المعترضين يريدون أن يهيبُ الله الأسباب لمعرفة الأنبياء، ويظهر الآثار الدالة على تحقق الأنبياء السابقة، ولكن لا يجوز للنبي أن ينتفع بها ويستدل بها على صدقه، وإلا لعدَّ من المتأثرين بالأفكار السائدة في عصره؟ وسخفُ هذا القول واضحٌ بالبداهة، لأن عدم انتفاع المبعوث الإلهي بما هيا له الله تعالى من أدلة على صدقه يُعدّ خيانةً في حق الله ودينه، والنبي لا يكون خائناً أبداً.

فلا قيمة لمثل هذه الاعتراضات، سواء أثرت ضد الأنبياء السابقين عليهم السلام، أو ضد نبينا محمد ﷺ، أو ضد أحد بعده. لقد ردَّ الله في هذه الآية القرآنية على هذا الاعتراض ردّاً رائعاً حيث قال لليهود إن كتابنا هذا يذكر أموراً توجد في كتبكم، كما يذكر أموراً لا تذكرونها للناس، أو لا تقدرُونَ على ذكرها؛ والله عليم بكل الأمور، والكتاب المنزل من عنده ليس بحاجة إلى علمٍ من غيره، كما لا يمكن أيضاً أن يسكت هذا الكتاب عن ذكر شيءٍ لجرد أن ذكره أحدٌ من قبل، لأن ذلك وأدُّ للحق، وكتاب الله تعالى أسمى من ذلك وأجلُّ.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩-٨٠)

شرح الكلمات:

أمانِيٌّ: جمعُ أُمْنِيَّةٍ؛ وهي: البُغْيَةُ؛ ما يُتَمَنَّى؛ الكذبُ؛ ما يُقْرَأُ (الأقرب).

التفسير: من معاني الأمانة (ما يُقرأ)، وعليه فمفهوم الآية أن من اليهود من يقتصر علمهم على قراءة صحف بني إسرائيل فقط، وليسوا بقادرين على استيعابها جيداً. وهذا يعني أن كلمة ﴿أُمِّيُونَ﴾ هنا تفيد مفهوماً محدوداً -أي أنها تعني من يفهم المعاني الظاهرة البادية، ولا علم له بدقائق اللغة- ولا تفيد مفهومها العام وهو من لا يستطيعون القراءة والكتابة أصلاً. فالآية تدمغ اليهود بأنهم لا يجتهدون لدراسة كتبهم بعمق، وعندما يقرأون فيها كلمات ذات أوجه يتمسكون بالتي تخالف سنة الله ومشيتته، تاركين التي تطابق سنته ومشيتته تعالى.

وإن في هذا الموضوع لعبرة للمسلمين اليوم، لأن حالهم مشابه لذلك. فمعظمهم لا يعرفون معاني القرآن الكريم، ومن يعرفها فإنما إلى حد محدود جداً. لا يهتمون ولا يريدون أن يهتموا بما في القرآن من معارف كثيرة ومفاهيم غزيرة، بل من حاول ذلك رموه بالتأويل والكفر، ولأجل ذلك سُدَّتْ أمامهم أبواب خزائن القرآن الكريم، وأصبح مأوه الجاري راكداً آسناً لهم. أو لم يفكروا أن ما عابه القرآن الكريم على اليهود لا يمكن أن يكون ميزةً في المسلمين.

ومن معاني الأمانة: ما يتمناه المرء، ونظراً إلى هذا المعنى ستكون كلمة ﴿أُمِّيُونَ﴾ بمفهومها العام، أي من لا يستطيع القراءة والكتابة أصلاً، والمراد من الآية أن من اليهود من لا يستطيعون قراءة كتبهم، أو أنهم يستطيعون تلاوته من الذاكرة ولكن بدون معرفة معانيه، وعلمهم منحصر في بعض الأمانى فقط، أي أنهم يظنون أنهم إذا قرأوا صحفهم هكذا أو سمعوها بلا إدراكٍ لمعانيها، كفاهم ذلك للنجاة. وكأن كتاب الله تعالى يولد في قلوبهم أمانةً فقط ولا يهبهم علماً ونوراً.

وهذا هو أيضاً حال المسلمين اليوم، ولكنهم لا ينتبهون لخطئهم هذا، بل لا يريدون أن ينتبهوا. فالملايين منهم لا يقدرّون على القراءة من المصحف، والملايين منهم يستطيعون قراءته ولكنهم لا يعرفون معانيه، وكلتا الفئتين

تعوزها الرغبة في قراءة القرآن الكريم واستيعاب معانيه. يكتفون بقراءة القرآن بدون فهم معانيه، أو بسماع شيء من القرآن من غيرهم، طائنين أنهم قد سمعوا القرآن أو قرأوه، وأن هذا يكفيهم لنجاتهم. والواقع أنهم لم يسمعوا القرآن ولم يقرأوه، وإنما سمعوا أنغام القراءة ونظروا إلى رسم القرآن فقط. إن القرآن الكريم اسم للمفاهيم التي تنطوي عليه كلماته، ومن لم يقرأ هذه المفاهيم مدرّكاً أن هذا هو المراد من هذه الكلمات، فلم يقرأ القرآن. ومن لم يفهم هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى لهداية العالم فأنى له أن يدّعي الإيمان بالدين الحق؟ أنا لا أقول إن الذي لا يعرف معاني القرآن فعليه ألا يقرأه، لأن هذه القراءة تذكره بغايته على الأقل؛ ولكني أقول: لا بد له من أن يجد في قلبه رغبة لفهم معاني القرآن، وأن يسعى لتعلّمها. وما دامت هذه الرغبة موجودة فيه وسعى لذلك باستمرار، فسوف يُعَدّ بريئاً عند الله ورسوله حتماً. أما إذا كانت الرغبة مفقودة والمحاولة معدومة، فأنى له أن يُرضي الله تعالى بمحض أمانيه؟

ومن معاني الأمانة الكذب، وعليه فالمراد من الآية أن بين اليهود أميين لا يعلمون من كتبهم إلا بعض الأكاذيب والأباطيل. وهذا يعني أنه يكون بين القوم فئة لا يعرفون معاني كلام الله تعالى، ولكنهم يريدون أن يظن الناس أنهم يعرفونها، أي أنهم يريدون أن يُدْعَوْا علماء مع جهلهم. يقول الله تعالى أيُّ خير يرجى من أمثال هؤلاء اليهود لأنفسهم أو لمن سواهم؟ وكيف يستحقون نزول فضل الله عليهم؟ إنهم أعداء دين الله. إنهم يسيئون إلى الله تعالى بَعَزَوْا جهلهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويُضِلُّون البسطاء بنشر جهالاتهم بينهم.

وللأسف أن أمثالهم كثيرون في المسلمين اليوم. فمنهم من لا يستطيع قراءة القرآن الكريم، ولكنه يقص على الناس ما سمعه من قصص وأساطير من هنا وهناك، ويوهمهم أنها كلام الله وسنة رسوله؛ ثم يلجّ عليهم أن يصدّقوها ويؤمنوا بها، بل ويعملوا بها. ومنهم من عنده إلمام بسيط بالعربية، ولكن ليس لديه من الكفاءة ما يساعده على فهم دقائق هذه اللغة، فيضلل ويضل غيره بعلمه الناقص بالقرآن الكريم. ومنهم من يستطيع تلاوة القرآن الكريم ويتباهى

به على عامة الناس الذين لا يقدرّون على التلاوة، ويتظاهر أمامهم بكونه خبيراً في علوم القرآن. الواقع أن هؤلاء هم السوس الذي ينخر في أساس الإسلام. فلو أن المسلمين اهتموا بقراءة القرآن الكريم وسعوا لتدبر آياته وفهم معانيه فهماً صحيحاً، ولم يتبعوا الكاذبين وتخلّوا عن الأمانى الكاذبة، لما رأى الإسلام هذا اليوم الأسود الذي يُدمي قلب كل مسلم مخلص.

أما قوله تعالى ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فيعني أن كل هؤلاء الأصناف الذين مرّ ذكرهم ليس بأيديهم إلا الظن، لا العلم، سواء الذين ليس لديهم إلمام تامّ بالعربية ويعتمدون على الظنون، أو الذين ليس عندهم أدنى علم باللغة، وإنما يُعدّون ما يسمعون من الناس كلام الله ويمأّلون به عقولهم، ثم يسعون ليضخّوه في عقول العامة، فهؤلاء ليس عندهم إلا الظنون إذ يحسبون أن ما سمعوه من الناس حق وصدق.

أما قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ...﴾ فهو مثال لجمال الإيجاز القرآني البليغ، إذ تبدو هذه الآية وكأنها تعقيب يكمل الآية السابقة، ولكنها في الواقع تتحدث عن صنف آخر من أهل الكتاب. وبيان ذلك أن الآية السابقة تتحدث عن أولئك اليهود الذين لا يعرفون العبرية معرفة تامة، ولا علم لهم بما في أسفارهم من مفاهيم دقيقة، ويخدعون أنفسهم ويضلّون الآخرين؛ أو عن اليهود الذين كانوا يعيشون في أمانيتهم بأن ما قرأوه أو سمعوه من غيرهم من كلمات صحفهم يكفيهم للنجاة، أو عن اليهود الذين كانوا يقرأون صحفهم أو يحفظون شيئاً منها عن ظهر غيب بدون استيعاب معانيها، وإنما حفظوا شيئاً من تفاسير علمائهم وكانوا يذكرونها للناس في كل مناسبة مدعين أنهم يقدمون لهم التعاليم الحقة الموجودة في صحف بني إسرائيل. وهذا يعني أن الآية السابقة كانت تتحدث عن جهال اليهود فقط، وأما هذه الآية فلا تتحدث عن جهالهم بل عن علمائهم، وتخبر أن هؤلاء اليهود الذين يكتبون الكتب بأيديهم ثم يوهمون الناس أنها من عند الله تعالى، سوف يحل بهم العذاب.

قد يقال هنا إذا كانت هذه الآية تتحدث عن صنف جديد من اليهود، فلماذا بدأت بحرف الفاء الذي يفيد النتيجة؟ أي أن ما ذكر هنا هو نتيجة للمذكور من قبل، وليس بموضوع جديد منفصل.

والجواب أن مهمة القرآن الكريم بيان مواضيع لا حصر لها، ولذلك قد أنزل بعبارة هي الذروة في الإيجاز المعجز. وقد تحدثت الآية السابقة عن جهال اليهود الذين كانوا يَضَلُّون ويُضِلُّون معتمدين على تفسيرات علمائهم الخاطئة، بينما تذكر هذه الآية علماء اليهود الذين خلت قلوبهم من التقوى وأضلوا الناس، ولو ذكر الله تعالى كلاً من الفريقين ذكراً منفصلاً لطالت العبارة، ومن أجل ذلك تحدثت الآية الأولى عن الجهال منهم، ثم بينت الآية الثانية أن ضلال هؤلاء الجاهلين هو نتيجة لتصرفات علمائهم غير السليمة، فهم (أولاً) لم يعلموهم الكتاب، و(ثانياً) علّموهم أموراً باطلة عزّوها إلى الكتاب قائلين هذا هو المراد مما ورد في كتبنا. فعلماء اليهود هم المسؤولون عن هلاك جهالهم ودمارهم. وإن ضلال علمائهم يكمن في أنهم بسبب قلة تقواهم نسبوا أفكارهم إلى الله تعالى وعرضوها على الناس وعدّوها كتابَ الله. لا جرم أن الجهال سينالون العقاب، غير أن علماءهم سينالون -بالإضافة إلى عقابهم- نصيبهم من عقاب الجهال أيضاً، لأنهم هم المسؤولون عن ضلالهم. ومن أجل ذلك قال الله تعالى بعد ذكر الجهال ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

فبهذه العبارة الوجيزة والكلمات المعدودة قد بين الله تعالى (أولاً) أنه يوجد بين اليهود علماء، ولكنهم يستغلّون علمهم أسوأ استغلال، و(ثانياً) أن علماء اليهود مسؤولون عن ضلال الجهال منهم، و(ثالثاً) أن جهالهم سينالون العقاب بلا شك، إلا أن علماءهم سينالون نصيبهم من عقاب الجهال أيضاً لأنهم هم المسؤولون عن ضلالهم. فكل هذه المعاني قد ذكرها القرآن الكريم بإضافة حرف الفاء وتأخير ذكر العلماء هنا.

أما قوله تعالى ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فبين الله تعالى فيه أن هؤلاء العلماء يفسدون دينهم لمكاسب مادية، ولا حرج عندهم لو ضاع الدين إذا سلمت لهم دنياهم.

وقد يتساءل أحد: كل كاتب يكتب بيده، فلماذا قال الله تعالى ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ؟﴾

والجواب أن الله تعالى قال ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيداً بأن هؤلاء العلماء هم الذين كتبوا هذه الأباطيل، ذلك لأن من معاني الفعل (كَتَبَ): أُملي على الآخر ليكتب له. وقد ورد في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: "أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بعده أبداً" (البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته)، مع أن الثابت من القرآن الكريم والتاريخ أن النبي ﷺ لم يكن يعرف الكتابة. فقوله ﷺ "أَكْتُبُ لَكُمْ" إنما يعني أُملي على أحدكم. فقد زاد الله تعالى هنا كلمة ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ تأكيداً أن الحديث هنا هو عن علماء اليهود الذين يعرفون القراءة والكتابة، كيلا يظن أحد أن الكتابة هنا تعني الإملاء وأن الآية تتحدث عن جهال اليهود الذين مرَّ ذكرهم من قبل.

ثم قال الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يبين أن هؤلاء العلماء يستوجبون عذاباً مضاعفاً ثلاثة أضعاف: أولاً، لأنهم أضلُّوا الجاهل؛ وثانياً، لأنهم نسبوا الأباطيل إلى كلام الله تعالى؛ وثالثاً، لأن الباعث على التحريف والتزوير لم يكن خيراً، إنما هو متاع الدنيا القليل.

وتبيِّن هذه الآية فلسفة هامة للثواب والعقاب. فالسيئات على نوعين: سيئة تُرتكب عن جهل وغفلة، وأخرى تُرتكب عن عمد. ثم تنقسم السيئة العمد أيضاً إلى قسمين: الأول ما يكون دافعُهُ فكرةً حسنة وإن كانت في حد ذاتها خاطئة؛ والثاني ما يكون دافعُهُ فكرةً شريرةً قدرة.

وبيان ذلك أن يقتل المرء غيره خطأً أو جهلاً، فهذه جريمة شنيعة بلا شك، ولكن مرتكبها إما أن يُعفى من العقاب تماماً أو يُعاقب عقاباً خفيفاً، إذ قصر في أخذ الحيلة والحذر. هذا مثال العمل السيء يُرتكب خطأً.

ولكن هناك شخصا آخر يقتل غيره متعمداً، ظناً منه أن هذا قد قُتل ولده أو أحداً من صلحاء قومه، فهذه جريمة منكرة ولا شك، ولكن باعثها خير.

ثم هناك شخصٌ قُتل غيره ليسلب نقوده لينفقها على ملذاته الدنيوية، فهذه جريمة سيئة وباعثها أيضاً سيء، وبالتالي فقد ارتكب جريمتين: القتل والجشع، ولذلك فإنه يستحق عذاباً مضاعفاً.

وكذلك الحال للحسنات، فهي أيضاً على أنواع.

فبقوله أن علماء اليهود يُعذَّبون بسبب ما كتبت أيديهم، ويُعذَّبون أيضاً لأنهم فعلوا ذلك من أجل متاع الدنيا القليل، قد بيّن القرآن الكريم نكتة خلقية رائعة ولطيفة، وفتح بها باباً للعلم لمن أراد أن يتزود بالتقوى.

يستنتج النصارى من هذه الآية أن القرآن الكريم يعترف هنا بأن كتابهم المقدس كان محفوظاً في صورته الأصلية حتى زمن النبي ﷺ، ولولا ذلك لما اعترض القرآن على التحريف في كتاب كان محرّفاً مبدلاً من قبل. والجواب أولاً، أنني لم أفسر هذه الآية بأنها تتحدث عن تحريف الكتاب المقدس، لذلك فاستنتاجهم باطل وفي غير محله.

لكن هذا لا يعني أننا نقول بأن الكتاب المقدس كان سليماً من التحريف والتبديل حتى زمن نزول القرآن الكريم. كلا، بل كان هذا الكتاب بحسب علمنا وتحقيقنا محرّفاً عند نزول القرآن يقيناً، وإنما نعني بقولنا هذا أننا لم نفسر هذه الآية بهذا المعنى. والحق أن الكتاب المقدس قد صار محرّفاً حتى قبل زمن المسيح عليه السلام.

وثانياً، لو فسرنا الآية بهذا المعنى أيضاً، أي أنها تتّهم اليهود بأنهم كانوا يحرفون كتابهم فليس معنى ذلك أن كتابهم كان سليماً من التحريف والتبديل حتى زمن نزول القرآن الكريم، وإنما يكون مفهوم هذه الآية أن اليهود يحرفون الكتاب المقدس. وأي عاقل يمكن أن يستنتج من هذه الجملة أنهم ما كانوا يحرفون كتابهم وأنه كان سليماً من التحريف حتى زمن نزول القرآن الكريم؟

نعم، يحق لهؤلاء الكتّاب المسيحيين أن يقولوا: إذا كان الكتاب المقدس محرّفاً، فما الحرج في تحريفه وتبديله، ولماذا يزجر القرآن اليهود على ذلك؟
والجواب: الحق أن اليهود كانوا قد بدأوا بالتحريف في الكتاب المقدس قبل نزول القرآن الكريم، ولكن استمرارهم في هذا التحريف كان أمراً سيئاً ومشيناً. أما الكتاب المقدس فلا بد من التسليم بأنه كتاب سماوي ولكنه محرّف مبذّل. ولكن لو كان هناك كتاب من صنع البشر مئة بالمئة، وظنّه أحد خطأً أنه كتاب سماوي، ثم حرّفه رغم عقيدته هذه، فلا بد أن يُعَدَّ من المجرمين، ليس بمعنى أنه يحرّف كتاباً سماوياً، بل لأنه يحرف كتاباً يحسبه كتاباً سماوياً. فقد قال القرآن الكريم صراحة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ٢)، أي أن المنافقين يأتون رسول الله ﷺ ويقولون نخلف بالله إنك لرسول الله، ويقول الله تعالى إنك رسول الله يقيناً، ولكن المنافقين كاذبون في دعواهم هذه. فقد عدّ المنافقون هنا كاذبين في ادعائهم أمراً كان حقاً وقد شهد الله بنفسه على كونه حقاً وصدقا، ذلك لأنهم لم يكونوا يؤمنون في قلوبهم بما تشهد به ألسنتهم. فكما أن من النفاق والكفر أن يتظاهر المرء بالإيمان بشيء حق لا يؤمن به قلبه، كذلك فإن إدخال المرء تحريفات في كتاب محرّف سلفاً رغم إيمانه بأنه كلام الله تعالى دليل على كفره، ولا شك أنه حري بأن يُحذّره الله تعالى في كتابه بسبب جريمته.

لا تقتل الأم ولدها وهي واعية، ولكن لو أن امرأة قتلت ولداً مع إيمانها أنه ولدها وهو ليس ولدها في الواقع، لأيقنا أنها مخبولة العقل، لأنها قتلتها مع يقينها أنه ولدها وإن لم يكن ولدها حقيقة. وبالمثل لا شك أن التوراة لم تكن محفوظة في زمن الرسول ﷺ، بل كانت محرّفة مبدلة، ولكن اليهود كانوا يؤمنون أنها محفوظة وغير محرّفة، وأنها من بدايتها إلى نهايتها كلام الله تعالى، وبالتالي فإن إخفاءهم لمضامينها أو تحريفهم لها، مع هذا الإيمان، دليل بَيِّنٌ على سوء إيمانهم وقبح فعالهم.

وليكن معلومًا أيضًا أنَّ التوراة حتى في شكلها الحالي تتضمن آلاف الحقائق، فلو حرّفوها اليوم أيضًا لألحقوا بالحق والصدق ضررًا كبيرًا.

وهناك معنى آخر لهذه الآية، وهو أن اليهود موقنون بأن التوراة ضاعت عند غزو الملك البابلي بختنصر لأورشليم، ثم ألّفها النبي عزرا من جديد. وهذا يعني أن تاريخ اليهود أيضًا يؤكد أن التوراة الأصلية لم يُعد لها وجود، بل إن بعض الناس - وإن كانوا أنبياء - كتبوها وألفوها من جديد، فكانت إذن بمثابة الأحاديث النبوية عند المسلمين، وكما أن الأحاديث النبوية لا يمكن تسميتها كتاب الله، كذلك لا يمكن تسمية تلك التوراة كتاب الله، إذ أنها صارت عرضة لاحتمال الخطأ، ولا سيما أن اليهود لم تكن عندهم قط عادة حفظ التوراة عن ظهر غيب، كما أن الشهادات الداخلية للتوراة تؤكد أنها ليست بشكلها الأصلي، بل أضيف إليها كثير من الزوائد والتفاسير والروايات الخاطئة. وعليه فيمكن أن تعني هذه الآية أيضًا أن اليهود يعرفون بأنفسهم حسب شهادة تاريخهم أن كتابهم لم يسلم من أيدي العابثين، ومع ذلك يصرون على أنه كتاب الله تعالى. لا شك أنه كان كتاب الله في بادئ الأمر، ولكن بعد تعرضه للزيادة والنقص بأيدي المحرفين، لا يجوز تسميته كلام الله ووضعه بإزاء كتاب هو كلام الله الخالص، فإن ذلك ظلمٌ وعدوان.

أما النصارى فقد ذهبوا أبعدَ من اليهود. إن الأناجيل كلها تسمى عندهم كلام الله تعالى، ولكنك لو فتحت كتابهم هذا وجدت مكتوبًا فيه: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، ورسائل بطرس، ورسائل بولس، ورسائل كيت ورسائل كيت. فكيف يمكن أن تكون أناجيل البشر ورسائلهم كلامَ الله تعالى؟ لا جرم أنه يوجد في الأناجيل كلام الله أيضًا، ولكن هذا لا يعني أنها كتاب الله، لأن الحقيقة أن البشر قد ألفوا بكلماتهم بعض الأمور التي لم يسمعوها من الله تعالى مباشرة وإنما سمعوها من نبيهم، أو لم يسمعوها من نبيهم؛ وإنما استنتجوها مما سمعه الآخرون من كلام نبيهم. ومثل هذه الأمور أيضًا لا تشكّل من كتابهم أكثرَ من اثنين أو ثلاثة بالمائة، أما ما عدا ذلك فهو

من بنات أفكارهم أو من روايات غير محققة. فمن الظلم العظيم اعتبار مثل هذه الكتب على أنها كتب الله، ثم تأسيس دين عليها، ثم وضعها بإزاء كتاب هو كلام الله تعالى يقيناً.

كما يمكن أن تكون في هذه الآية إشارة إلى عشرات الكتب الأخرى الموجودة لدى اليهود والنصارى التي يعدونها من وحي الله تعالى، أو بمنزلة الكتب السماوية، ولكنهم بأنفسهم يشكّون في صحتها. فقد نشر النصارى مجموعة هذه الكتب باسم (أبوكريفا Apocrypha)، ويعدّها مؤلفوها أو بعض الفرق المسيحية كتباً إلهامية، ولكن النصارى في مجموعهم لا يعدونها كتب الله ولا يعتقدون أنها أناجيل حقيقية.

فالأمة التي تعترف بنفسها بأن عندها أناجيل تُعدّ أسفاراً سماوية مع أنها ليست كذلك في الحقيقة، ألا يستوجب أبناؤها اللوم؟ ثم أليس من واجب القرآن الكريم أن يزجر هؤلاء المجرمين ويكشف للعالم خطأهم ويحاول إصلاحهم؟

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
(البقرة: ٨١)

شرح الكلمات:

يخلف: أحلفه ما وعده: قال شيئاً ولم يفعله (الأقرب).

التفسير: تتحدث هذه الآية عن طائفة من اليهود كانوا يعتقدون أنهم لن يعذبوا عذاباً خالداً مهما ارتكبوا من الذنوب لأنهم أولاد أحبائ الله تعالى. والحق أن اليهود قد حذفوا من التوراة عقيدة الحياة بعد الموت كلية، فلا مجال

لثواب والعقاب! لو قرأ المرء العهد القديم كله لم يجد فيه مسألة الحياة بعد الممات والجزاء والعقاب مذكورة بصراحة كما ذكرها القرآن الكريم، بل يتطلب الأمر إعمال الفكر والجهد الشديدين لاستنباط هذه المسألة من العهد القديم. كانت أغلبية اليهود تسأل الثواب كله في هذه الدنيا، وترى أن العقاب كله أيضاً فيها. غير أنه قد وُجدت بينهم فئة قليلة لم يتحرروا كليةً من عقيدة الثواب والعقاب والحشر والنشر، وكانوا هم الآخرون يعتقدون أنهم لن يعاقبوا كثيراً لأنهم أحباء الله، ولو عذبوا فلن يكون عذابهم إلا أياماً معدودة. وكان من هذه الفئة من يرون أنهم ينالون العقاب أياماً معدودة ثم يتحولون إلى رماد يوضع عند أقدام الصالحاء. بينما كان يرى البعض الآخر منهم أنهم ينالون الغفران بعد عقاب محدود.

وفيما يلي أفكار اليهود المختلفة حول هذه العقيدة:

يذكر سيل (Seale) في ترجمته للقرآن الكريم أن من مسلمّات اليهود أن أحدهم، مهما كان شريراً، وأيا كانت فرقته أو طائفته، لن يبقى في الجحيم أكثر من أحد عشر شهراً أو سنة على الأكثر، ما عدا " داثان " و "أبيرام" أو الملحدّين، فهؤلاء يعذبون عذاباً أبدياً. لقد تمرّد " داثان " و "أبيرام" على موسى عليه السلام وحاول كل منهما القضاء على حكمه بجمع شرذمة معه (سفر العدد ١٦)، فأهلكهما الله بعذاب خاص.

وورد في كتابهم (التلمود البابلي) أن كل اليهود، ما عدا الكفار و "جير" و "بوم"، لن يمكثوا في الجحيم إلا اثني عشر شهراً، ثم يحرقون ويصبحون رماداً يُذَرّ على أقدام الصالحاء.

وجاء في تلمود "بافا ميزيا" (Bava Metzia) أن كل اليهود سيدخلون جهنم ثم سيخرجون منها، إلا الزناة والهاكّين لحرمة الجيران والمسيئين إليهم.

وجاء في تلمود "أبروين" (Erubin): لن تمسّ نار جهنم اليهود الآثمين، لأنهم سوف يعترفون بذنوبهم على أبواب جهنم، فيرجعون إلى الله تعالى.

وجاء في تلمود "بيراخوث" (Berachoth) أن المرتدين والروميين والإيرانيين هم الذين سيدخلون جهنم، أي أن عصاة اليهود لن يدخلوها أصلاً.

كما ورد في هذا المصدر نفسه أن هناك خطراً ضئيلاً جداً على بني إسرائيل من دخول جهنم، غير أن المرتد من اليهود عليه خطر كبير من دخولها، وكذلك هناك خطر دخول النار على غير اليهود (الموسوعة اليهودية).

تبيّن هذه الفقرات أن معظم اليهود كانوا يعتقدون أنهم لن ينالوا إلا عقاباً محدوداً جداً، وهذا هو المراد من كلمة ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾. وقد قال صاحب "البحر المحيط" في تفسير هذه الآية أن اليهود كانوا يرون أنهم عبدوا العجل أربعين يوماً، فيعاقبون في النار أربعين يوماً. وقد استكثر بعض منهم عذاب الأربعين يوماً وقالوا: لن ندخل النار إلا سبعة أيام. وهذا دليل على وجود مثل هذه الأفكار عندهم حتى العصر الإسلامي أيضاً.

فيقول الله تعالى للنبي ﷺ: قل لهم هل أخذتم من الله عهداً بهذا الشأن؟ إذا كان الأمر كذلك فلن يخلف الله عهده. اعلّموا أن العقاب أو عدمه بيد الله تعالى وحده، وليس بأيدي كهنتكم ورهبانكم حتى يحكموا بما يشاءون. إذا كان الله تعالى قد عقد معكم عهداً كهذا فلا بد أن يكون موجوداً في التوراة، ويجب أن يعلنه موسى أو غيره من الأنبياء، ولكنهم كلهم ساكتون عنه، إنمّا يتكلم به علماء التلمود بحسب اجتهاداتهم أو أمانيتهم وأهوائهم. أليس هذا يمثل إساءة بحق الله تعالى ودينه؟

ثم يقول: إذا لم يكن هناك عهد كهذا من الله تعالى، فهذا يعني أن علماءكم لفقوا هذه الأفكار من عند أنفسهم، والافتراء على الله معصية كبرى.

الواقع أن فساد شتى الأديان راجع إلى هذه المفتريات التي احتلقها الناس بناء على أفكارهم وظنونهم ونسبوها إلى أديانهم كذباً وزوراً. والمسلمون أيضاً في هذا العصر كلما اختلفوا فيما بينهم في أمر من أمور دينهم دعموا رأيهم بتلفيق شيء من عند أنفسهم ونسبوه إلى الإسلام. ولكن كلاً من القرآن والحديث لم

يتطرقا ولو بإشارة من بعيد لما يدّعي هؤلاء، ولكنهم لا يرحون يرددون أن الإسلام يقول كذا وكذا. ندعو الله تعالى أن يوفق المسلمين لأن يتنبهوا إلى هذا العيب، فلا يتلاعبوا بالقرآن الكريم ولا يأخذوا في أيديهم ما هو حقُّ الله وحده.

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٢)

شرح الكلمات:

بلى: حرفٌ تصديقٍ مثل "نعم"، وأكثرُ ما تقع بعد الاستفهام، وتختصّ بالإيجاب، سواء كان ما قبلها مُثَبِّتاً أو منفيّاً، نحو: أقام زيد؟ الجواب بلى، أي قام. وأما قام زيد؟ والجواب بلى أي قام. (الأقرب)

كَسَبَ: كَسَبَ الشَّيْءَ: جَمَعَهُ. كَسَبَ الْإِثْمَ: تَحَمَّلَهُ. (الأقرب)

التفسير: (بلى) حرفٌ تصديقٍ لما بعده، سواء كان ما قبله إيجاباً أو نفيّاً.

فمعنى قوله تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: لا شك أن من ارتكب سيئة متعمداً، ثم غلبت عليه خطاياها بحيث يضعف فيه تأثير الخير ويضيع منه، فإنه يدخل النار، ويبقى فيها مدةً طويلة.

ويشير كَسَبُ السيئة وإحاطة الخطيئة بفاعلها إلى أن مجرد ارتكاب الخطيئة لا يُدخل صاحبها النار، بل لا بد من ارتكاب الخطيئة مع توافر العلم والإرادة وغلبة الخطايا عليه. وهذا هو التعليم الحكيم الذي يرتاح إليه قلب الإنسان، أما عقيدة الكفارة المسيحية القائلة أن مَنْ آمَنَ بالموت الصليبي للمسيح غُفِرَتْ له ذنوبه كلها؛ أو دعوى اليهود بالأفضلية على الآخرين التي ستحفظهم من العذاب في كل حال، أو عقيدة الهندوس بالنجاة المحدودة التي تلقي بالإنسان في دورة التناسخ غير المنقطعة؛ أو عقيدة الزرادشتيين عن التمايز النسلي، فهذه كلها معتقدات غير سليمة. يعلن القرآن الكريم أن الدين وسيلة للنجاة، ولا

يعني إيمان المرء بالدين أنه قد نال بذلك حقوقاً خاصة، كلا، بل تتأسس النجاة على اعتقاد سليم ونية حسنة وسعي صادق. العقيدة تساعد على النجاة، ولكنها ليست ضماناً للنجاة، بل إنها تتسبب في عقاب المرء أحياناً؛ لأن من أخطأ عن علم استوجب عقوبةً أشدَّ، ومن ضلَّ رغم توافر أسباب الهداية كانت جريمته أكبر. فلا تظنوا أنكم باعتناق الدين نجوتم من العقاب، وإنما يوجهكم الدين إلى أعمال وأفكار تساعدكم على النجاة، أما إذا لم يُصلح دينكم أعمالكم وأفكاركم فهذا ليس مدعاةً للاطمئنان، بل هو مظنة للخطر.

ما أقربَ هذه النظريةَ إلى الفطرة الإنسانية، وما أسماها عن أي اعتراض!

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٣)

التفسير: قد ذكر الله تعالى من قبل أحوال أصحاب النار، أما الآن فذكر أحوال أصحاب الجنة، ويبيّن أنه كما أن هناك شرطاً يوجب عقاب النار، وهو ارتكاب السيئة مع العلم والإرادة وغلبة الشر على الخير، كذلك فإن هناك شرطاً يوجب نعيم الجنة أيضاً، وهو الإيمان والعمل الصالح بحسبه.

لقد ذكرتُ من قبل أن اعتناق دين أو عقيدة ليس ضماناً للنجاة، وإنما يساعد ذلك على تحقيقها، وفي هذه الآية قد بيّن الله تعالى أن الذين يؤمنون ويعملون عملاً صالحاً يدخلون الجنة.

وقد يتساءل هنا أحد: هل يعني هذا أن العمل الصالح لا ينفع الإنسان بدون الإيمان؟

والجواب أنه ليس صحيحاً القول أن العمل الصالح بدون الإيمان لا ينفع، وإنما الصحيح أن العمل الصالح لا يتأتى بدون الإيمان. فإن أعمال الفكر سيكشف لنا أن العمل لا يعني فقط فعل شيء بالجوارح، بل إن نشاط العقل

أيضاً عمل. فلو أن الإنسان أراد بأحد سوءاً أو خيراً، فإن نيّته هذه أيضاً عملٌ في حد ذاتها، وإن لم يخرج إلى حيّز التنفيذ. فمثلاً لو كان قلب الإنسان مليئاً بأفكار شريرة أو نوايا سيئة ضد الآخرين، فمثلاً يحسد الناسَ ليل نهار ويريد بهم الشر، فلا يمكن أن نبرئه من سوء العمل، وإنما نقول أنه لم يتمكن من تنفيذ شره بيده وجوارحه، ولكنه كان ذا عمل سيئ فعلاً.

والحق أن القرآن الكريم يبين أن التعريف الصحيح للعمل الصالح لا يكون إلا بمعونة الله ورسوله، وعليه فبدون الإيمان لا يستطيع الإنسان معرفة العمل الصالح. ولكن هذا لا يعني أن القيام بالعمل الصالح ولو بقدر ضئيل مستحيل بدون الإيمان، كلا، بل هناك مئات الأنواع من العمل الصالح التي يمكن أن يفعلها الإنسان بدون الإيمان، ولكننا نتحدث هنا عن التعريف الكامل للعمل الصالح، ولا جرم أن التعريف الصحيح الكامل للعمل الصالح محال بدون الإيمان.

ثم إن القرآن الكريم يذكر نتيجتين للعمل الصالح: إحداهما أن الإنسان ينال ثمار أعماله الصالحة في هذه الدنيا، وكذلك الحال بالنسبة للأعمال السيئة. فالصادق يُذاع صيته، والكاذب تسوء سمعته. والصادق يثق به الناس، والكاذب يفقد الثقة عند القوم. والأمين يُقرضه الناس بل يتركون عنده أماناتهم فينتفع بها. والمجتهد ينال العمل والوظيفة بسهولة وينال راتباً أعلى، ولكن الخائن لا يؤتمن ولا يقترب منه أحد. باختصار، هناك أعمال حسنة كثيرة ينال المرء في هذه الدنيا جزاءها، ولكن آيتنا هذه لا تتحدث عن الثواب الدنيوي أو النتيجة الدنيوية، وإنما تتحدث عن نيل الجنة. وينشأ هنا السؤال: ما دام الإنسان قد نال في الدنيا الجزاء على عمله الصالح، فلمَ ينال ثواب الجنة أيضاً؟ إذاً، لا بد لنيل الجنة من أن يكون قد قام مع عمله الحسن بعمل آخر طاعةً لله تعالى، وهذا العمل الآخر هو الإيمان، ولأجل ذلك كان الرسول ﷺ يؤكد ضرورة الإيمان كلما ذكر عملاً يُدخل الجنة قائلاً: مَنْ فعل كذا إيماناً واحتساباً. ومعنى ذلك أن الإنسان ينال الأجر الدنيوي على عمله في هذه الدنيا، أما نيل الأجر الأخروي فلا بد له من عمل زائد، وهو الإيمان. إن الذي يصدق في كلامه ينال الأجر الدنيوي صيته حسناً ونجاحاً

وازدهاراً، ولكنه لو صدق في قوله إيماناً بالله وطاعةً له فقد عَمِلَ عملين: قولُ الصدق، والسعي لإرضاء الله تعالى بطاعته. وقد نال الجزاء الدنيوي على عمله هذا، ولكنه لم ينل في الدنيا جزاءه على قيامه بهذا العمل طاعةً لله وابتغاءَ مرضاته تعالى، ولذلك سينال هذا الجزاء في الآخرة في صورة الجنة.

عندما يقوم المرء بعمل صالح لوجه الله تعالى، فإن عمله هذا ينفع الناس، فيعطونه جزاءه المحدود بحسب وسائلهم المحدودة في هذه الدنيا، ولكن هذا الجزاء المحدود لا يمكن أن يسمى جزاءً على عمله هذا الذي قام به لوجه الله تعالى، بل إن جزاءه هذا على الله تعالى، ولأن وسائل الله تعالى غير محدودة، فيعطيه جزاءه هذا بجنة غير محدودة.

فشرط الإيمان الذي جعله الله هنا مع العمل الصالح لا يقلل من قيمة العمل الصالح، وإنما يبين أن العمل الصالح إذا صار مقروناً بالإيمان زادت قيمته، فلا يُجَزَى عليه المرء في هذه الدنيا فقط، بل ينال جزاءً ثانياً في الآخرة أيضاً. فثبت خطأ الذين يقولون أن الإسلام يقلل من قيمة العمل الصالح بجعله مشروطاً مع الإيمان. إن الإنسان يعمل العمل الصالح مع الناس، فيردون له صنيعه هذا في نطاق استطاعتهم في الدنيا، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن العمل الصالح الذي يتم لوجه الله تعالى. لا يقول القرآن الكريم أن العمل الصالح يجب أن يكون بدون جزاء ما لم يكن مقروناً بالإيمان. كلا، بل يركز القرآن الكريم على أن الأعمال الصالحة التي يعملها المرء مع الناس من واجبهم أن يجزوه عليها، كما أن نوااميس الطبيعة أيضاً تدبر له جزاء مناسباً، ولكن الآية قيد التفسير وغيرها من الآيات تبين أمراً إضافياً، ألا وهو أن الإنسان إذا كانت نيته عند قيامه بعمل صالح أنه يفعلهُ لإرضاء الله تعالى، واضعاً في الحسبان صورة واضحة للعمل الصالح نتيجة إيمانه بالله ورسوله ونور تعاليمه، فلا بد أن تكون مكافأته أعظم من مكافأة شخص يعمل العمل الصالح لخير الناس فقط، ويجب ألا ينال الأول جزاءً عمله في الدنيا فحسب، بل يجب أن يناله في الآخرة أيضاً، لأنه ربط العمل الصالح بالإيمان وبرضا الله تعالى، لذا فلا بد أن تزداد مكافأته كميةً وزمناً.

العمل الصالح: كلما ذكر القرآن الكريم العمل أشاد بالعمل الصالح، أي العمل المناسب للظرف، مثلاً الصلاة في وقتها، والصوم في حينه، والزكاة في وقتها، والجهد في حينه. فالعمل الحسن وحده لا يكون نافعا، إنما العمل الحسن الذي يكون ملائما للظرف هو ما يكون نافعا.

كما نبهنا القرآن الكريم بذكر العمل الصالح أن العمل الحسن يصبح سيئا في بعض الظروف، كالرحمة في موقف يقتضي الانتقام، والانتقام في ظرف يقتضي الرحمة. فمع أن الرحمة أمر حسن، ولكنها لا تكون عملاً صالحاً في موقف يقتضي الانتقام، بل تصبح عملاً غير محمود. أو خذوا الصلاة مثلاً، فهي عمل حسن، لكن المرء لو بدأ الصلاة وقت القتال فلن تكون عملاً صالحاً ولن تكون نافعة.

وقد أشار القرآن الكريم بذكر (أصحاب الجنة) بعد ذكر (أصحاب النار) إلى أن كلاً من أهل النار وأهل الجنة نوعان: فمن أهل النار من يعذب عذاباً مؤقتاً، ومنهم من يعذب عذاباً طويلاً؛ ومن أهل الجنة من ينال نعيماً عارضاً، ومنهم من ينال نعيماً أبدياً، ذلك لأن كلمة (أصحاب) تدل على معنى الدوام، فهناك أناس تكون فترة مكثهم في الجحيم أقل من الأولين، أو فترة مكثهم في الجنة أقل من المذكورين أولاً. ويتبين من القرآن الكريم أن أهل العذاب المؤقت أو أهل الجنة المؤقتة سوف ينالون قسطاً من العذاب أولاً، ثم بعد ذلك يشملهم الغفران الرباني فيدخلون الجنة الأبديّة.

فأصحاب الجنة هم قوم يدخلونها من أول يوم، وإلا فكل إنسان سوف يدخل الجنة آخر الأمر.

ولكن تعاليم الآرية الهندوس هي على عكس ذلك؛ فهم يظنون أن الله تعالى سوف يعذب الناس أولاً، وقبل اكتمال العذاب على ذنوبهم كلها يبدأ في الإنعام عليهم، ويستمر في الإنعام بعض الوقت، ثم يبدأ في عقابهم ثانية على ما استبقاه من ذنوبهم، فيعذبهم بخلقهم بصورة مخلوق آخر. وهذا التعليم ينم عن بغض وحقد، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.



ملحقَات

وَضَعَ الْأَصْلَ الْأَرَدُو: الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ عَبْدِ الْحَمِيدِ نَاه
نَاظِرُ التَّصْنِيفِ بِالْجَمَاعَةِ بِبَاكِسْتَانِ

(١)

فهرس المواضيع

١٢٢، ١٢٥	الملك
٦٧٤	الفرق بين البارئ والخالق
١٣	إن الله هو العلة الأولى للكون
٤٦٤	سلسلة العلل والمعلول لا تنافي قدرة الله
١٣	هو متصف بجميع المحاسن والحمد
٧٣، ٣٣	هو جامع لكل فضيلة
٧٣، ٣٣	هو منزّه عن كل عيب
١٤	الله متساو في البداية والنهاية (أزلي أبدي)
٣٣	هو عالمٌ كُنْه الخلق وحقيقته
١٣	تمتاز كافة أفعاله بالشمول والكمال
١٤	يملك النتائج أيضا
١٣	منبع جميع أصناف الرقي
٤٦١	ليس بمنقطع عن الدنيا
٣٠٣	معنى قدرة الله ﷻ
٢٥٥	سعة علم الله ﷻ
١٤	إثبات خالقيته ﷻ
٣٩٦	إثبات صفته التكلم
٣٩	صلاحياته بكونه مالكا
٤٠٧	مفهوم تسبيح الله ﷻ
٤٢٧	العلاقة الكاملة مع الله تنشأ بمعرفة صفاته الإيجابية
٤٢٩	تعليم الاتصاف بصفاته الإيجابية
	النهى عن التركيز على صفات الله التنزيهية
٤٢٩	السلبية وحدها
٤٦١	وجود الملائكة لا ينافي كمال قدرة الله
٤١٥	إن الله ليس بمحتاج إلى استشارة الملائكة
٤٦٣	استخدام الوساطة لا ينافي قدرته ﷻ
٤٦٩	تعليم آدم الأسماء يعني تعليمه صفات الله
٤٧٩	مثال جديد لتعليم الله ﷻ
٤٠٤	لا تعارض بين كلام الله ﷻ وفعله
	الله ﷻ وحده يحفظنا من ضرر التقلبات الأرضية
٣١٦	والسماوية
٤٦	توفيق العبادة يكون بفضل الله فقط
٤٢	النجاح الدائم لا يُنال إلا بالعلاقة مع الله
١٧٣	القرايين لا تقدّم إلا أمام الله ﷻ
٤٠	صفة الله المالك تتجلى عند بعثة نبي

الله ﷻ

١٣	لله وجود مستقل واسم مستقل
١٧	الله اسم ذاتي للبارئ تعالى
١٧	لفظة "الله" ليست أعجمية
٢٦	لفظة "الله" ليست صفة بل علمٌ
٢٦	"ال" في الله أصلية
١٧	الله اسم جامد وليس بمشتق
٢٦	لفظة الله لغة
٣٢٥	التطور في معرفة ذات الله ﷻ
٣٢٢	هل الله أظهر للناس نفسه بالتدرج

صفاته ﷻ:

	ذكر القرآن صفات الله بالتفصيل مقابل الصحف الأخرى
١٢٦	يتضمن القرآن الأدلة على ذات الله وصفاته ٣٤٣
٩٣، ٧٧	آية الكرسي بيان جامع لذات الله وصفاته ٩٣
	من انتفع من القرآن حقاً تشرف برؤية الله في الدنيا ١٤٨
٤٣٦	الله ليس مُركَّب المادة فقط بل خالقها أيضا ٤٣٦
٥٧٠	مجيء الرسول ﷺ هو بمثابة مجيء الله ﷻ ٥٧٠
٦٧٤	البارئ
٣١٠	البديع
٦٧٣، ٦٧٠، ٥٢٦، ٥١٩	التواب
٣٠٨، ٣٠	الرب
١٤	رب العالمين
١٧، ١٤-١٣	الرحمن
١٨، ١٤-١٣	الرحيم
٤٨٣، ٤٨٠، ٢٢٤، ٨٤	الحكيم
١٢٤	العزیز
٤٨٣	العليم
٣١٠	الفاطر
٣٠٢	القادر
١٢٣	القدوس
٢٩٩	القدیر
٢٠٩، ١٤، ٧، ٦	مالك يوم الدين

٣٣٣	أسماء الله المختلفة في شتى الأديان	٢١٦	معنى كون الله ﷻ في السماء
	أسماء مختلفة لله الواحد في قبائل أفريقيا وأستراليا	٣٨	المراد من يوم الله ﷻ
٣٣٢	القديم	٢٤٤	الإيمان بالله ﷻ أولى حلقات الإيمان
	الآخرة	٢١٦	كيفية ظهور أحكام الله ﷻ
٢٤٤	الإيمان بالآخرة آخر حلقات الإيمان	٤٠٣	بداية حكم الله على الناس بالوحي
٣٧٠	عالم المنام يحيط اللثام عن الحياة الأخروية	١٨٥	الحكمة في الأمر بالعبادة
٣٧٠	الحياة الآخرة روحانية محضة دون الجسد المادي	٥٩٣	اجتناب الذنب محال دون الإيمان الكامل بالله
٣٧١	نعماء الدنيا تمثيل لنعماء الآخرة	٢٠٩	من عرف صفات الله أحسن إلى خلقه
٣٩٠	المقارنة بين حياة الدنيا والآخرة	٥٥٠	سبب الحث على مخافة الله ﷻ
٣٦٣	الرد على اعتراضات حول نعماء الآخرة		الله وحده جدير بالحمد على كمالات الإنسان ٣٤
٥٩٥	الإسلام وحده يؤكد الحياة بعد الممات	١٤	يعامل الله ﷻ كل نوع وفق طبيعته
٥٩٥	الإسلام يؤسس التقوى على حياة الآخرة	١٥	يريد الله لقاء عباده وإصلاحهم
٥٩٥	عقيدة حياة الآخرة تزيل خوف الموت	٧٨٥	نظريات عن كون الله عالم الغيب
	تحلو اليهودية والمسيحية من تعليم معين عن حياة	٦٨١	طلب رؤية الله جهرًا
٣٨٤	الآخرة		دحض القول أن الله عالم الكليات دون الجزئيات ٢٥٢
٣٦٩	ذكر نعم الآخرة في كتب المسيحية	٣٢١	دحض القول أن فكرة وجود الله نتيجة التطور
٢٢٢	معان مختلفة للآخرة	٣٤	التطور ليس بمناف لوجود الله ﷻ
٢٢٣	الآخرة بمعنى الوحي النازل بعد النبي ﷺ	١٢١	اتهام التوراة بأن الله تعب
	في {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} نبوءة عن بعثة المسيح		اختلاف معاني الكلمات عند استخدامها لله أو
٢٢٤	الموعود	٢٧٨	للإنسان
	سبب ورود "الإيقان" للوحي القادم و"الإيمان"	٢٣٧	حقيقة الختم على قلوب الكفار
٢٢٤	للوحي السابق	٢٥٤	معنى مخادعة الله ﷻ المنافقين
٣٨٥	أهمية قراءة "فلسفة تعاليم الإسلام" لمعرفة الآخرة	٢٦٤	معنى قول الله "فرادهم الله مرضا"
	الآداب:	٢٧٧	معنى استهزاء الله ﷻ
١٨٠	آداب الصلاة	٣٩٢	معنى إضلال الله ﷻ
	حركات الصلاة تجمع جميع مظاهر الأدب والحب ١٨٢	١٢٥	الشرك أكبر تهمة
٧٣٦	أحكام الجمعة وآدابها	١٥٥	لا دليل على وجود شريك لله ﷻ
٩٢	آداب الحروب الدينية	٣١٩	دليل على أن لا شريك لله ﷻ
	آريا (فرقة هندوسية):	٣٣٠	إيمان القبائل غير المتمدنة الوثنية بآله كبير
٨٠٥	عقيدتهم عن الثواب والعقاب	٣٣١	عقيدة إله واحد في تمدن بابل
	الآية/ الآيات:	٤٠٢	فكرة إلهين عند الزرادشتية
١٩	البسملة جزء من القرآن الكريم	٤٢٥	الهندوسية لا تذكر إلا صفات الله السلبية
	كُتبت البسملة في مستهل كل سورة بوحى الله ١٢	٤٢٥	لم تذكر البوذية تعاليم الله ﷻ ذكرًا معنا
		٤٢٥	لم تذكر اليهودية صفات الله كاملة
		٣٢١	نظريات فلاسفة أوروبا عن ذات الله ﷻ

- أحاديث تدل على أن البسملة جزء من القرآن ١٩
 رأي الأحناف عن البسملة ٢٠
 لماذا لم ترد البسملة قبل سورة البراءة ١٨
 فضل البسملة ٢٠
 خمسة أسباب لورود البسملة في مستهل كل سورة ٢١
 حكم قراءة البسملة قبل كل أمر ٢٠
 البسملة مفتاح مفاهيم كل سورة ٢٣
 في البسملة أصول ترشد قارئ القرآن ٢٣
 البسملة دليل على صدق النبي ﷺ ٢٢-٢١
 البسملة حجة على اليهود ٢٢
 ذكر البسملة في الكتب المقدسة السابقة ٢٣
 مقارنة بين البسملة و”بنام يزدان بخشائش ودار“ ٢٣
 البسملة في رسالة سليمان ﷺ للملكة سبأ ٢٤
 حكمة إضافة ”اسم“ إلى الله في البسملة ٢٧
 سبب ورود {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} كجملة اسمية ٣٢
 نبوءة عظيمة في {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ٧٠
 دحض اعتراض للمستشرقين على {لَا رَيْبَ فِيهِ} ١٣٤
 سبب نزول {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} ٥٣٣
- آية الكرسي:**
 فضلها ٧٥
 هي بيان جامع لذات الله وصفاته ﷻ ٩٣
 هي رسم لطيف لصفات الباري تعالى ٧٧
إبليس (انظر أيضا الشيطان)
 معنى لفظ إبليس ٤٩٥
 سبب تسمية إبليس ٤٩٧
 إبليس وصف وليس علماً ٤٩٥
 المراد من خلقه من النار ٤٤٨
 سبب خلقه ٤٩٨
 الفرق بين إبليس والشيطان ٤٩٧
 العلاقة بين إبليس والشيطان ٤٤٧
 إبليس لم يكن من الملائكة ٤٩٢
- أسباب إباء إبليس عن السجود ٤٩٢
 إبليس وذريته هي الشجرة المنوعة ٥١٠
 الشيطان وليس إبليس حث آدم على الخطأ ٤٩٥
 توضيح زلة آدم ﷺ ٥١٤
 حث إبليس لا يكون مبنياً على الدليل ٤٩٩
 دحض فكرة عن إبليس ٥٠١
أبو كريفا (apocrypha): الأناجيل غير المعترف بها ٧٩٨
- الاجتهاد:**
 اجتهادات خاطئة في هذا العصر ٥١٧
 خطأ آدم في الاجتهاد ٥١٤
- الأجرام الفلكية:**
 تأثير الأجرام الفلكية في أحوال العالم ٣١٥
- الأجرة:**
 تعاليم الإسلام حول أداء حق الخدمة ٢٠٢
- الأحد** (انظر أيضا السبت)
 يوم مقدس لدى النسل الآري والشعوب غير اليهودية ٧٣٦
 جعلت المسيحية الأحد سبباً بضغوط من ملوك أوروبا ٧٣٥
- الإحسان:**
 تعريف الإحسان ١٦٠
 من عرف صفات الله أحسن إلى خلقه ٢٠٩
 حب الله يدفع للإحسان إلى الناس ٢٠٧
 الإحسان الكامل يُنشئ العلاقة الكاملة ٣١١-٣٠٦
 الإحسان إلى الوالدين ٢٠٢
 الإحسان إلى المعلمين والمحسنين وذريتهم ٢٠٣
 الأمر بالإحسان إلى الجار ٢٠٥
 الإحسان إلى الوالدين والمعلمين والمحسنين ٢٠٣
- الأحناف:**
 البسملة جزء من القرآن عند الأحناف ٢٠
- إحياء الموتى:** ٧٧٢

- إحياء الموتى والقرآن الكريم ٦٨٥
- الإخلاص:**
- لا ينفع الإيمان دون الإخلاص ٢٥٠
- لا يجذب الإسلام اعتناق دين بدون إخلاص ٧٨٧
- الأخلاق:**
- تعليم قرآني كامل عن فلسفة الأخلاق ١١٨
- الأذان:**
- حكمة الأذان في أدنى المولود ٤٩
- الأربعون:**
- عدد الأربعين يدل على التكميل في العالم الروحاني ٦٣٩
- الأرض:**
- قُدِّرَ للإنسان أن يعيش في الأرض ٥١٣
- القلب والعقل هما الأرض في العالم الروحاني ٣٢٠
- الأرواحيون:**
- الأرواحيون مطالبون بأن يأتوا بمثل القرآن ٣٥٠
- الشیطان بمعنى أئمة الكفر والأرواح الخبيثة ٤٩٧
- الاستسقاء:**
- صلاة الاستسقاء ١٨٠
- الاستعارة:**
- الاستعارة والتشبيه أداة لتقريب الحقيقة ٣٩١
- الاستعارة في حديث قدسي ٢٥٦
- الاستعارة في الإنجيل ٢٥٧
- الإسراء:**
- حقيقة حديث الإسراء ٤٠٤
- الإسلام** (انظر أيضا المسلمون)
- النصرة الإلهية في بداية الإسلام ٧٢٣
- غلبة الإسلام الإعجازية على الفرس والروم ٢٧٢
- إثبات صدق الإسلام ٤٠٤
- الإسلام يقول بنزول الوحي الإلهي في كل عصر ٤١١
- تشرف المسلمين برؤية الله ووصاله في كل عصر ١٤٨
- العلاقة مع الخالق أولى من العلاقة مع المخلوق عند الإسلام ٢٠٦
- الإسلام يأمر بالإيمان بجميع الأنبياء ٢١٩
- الإسلام لا يجب اعتناق الدين بدون إخلاص ٧٨٧
- الرد على أن الإسلام يُكره الإنسان على اعتناقه ٢٤٨
- كل مولود يولد على الفطرة السليمة عند الإسلام ٦٠٩
- لا يقول الإسلام كون العذاب للأبد ٥٢٢
- متى تُعدّ الجريمة جريمة عند الإسلام ٣١٩
- أعمال المرء الصالحة قبل إسلامه لا تضع ٢٠٩
- تأكيد الإسلام على الحياة بعد الممات ٥٩٥
- التقوى أصل حياة الآخرة عند الإسلام ٥٩٥
- الإسلام وحده يعدّ الدنيا وسيلة لصالح الآخرة ٤٠٢
- الإسلام يدعي جمع العالم كله على دين التوحيد ٣١١
- عصر التوحيد كان أسبق من عصر الشرك ٣٢٥
- لا مخلص للعالم غير الإسلام ٧٤
- نظم العالم في سلك واحد محال دون مركز ٩١
- أمرنا بنشر الإسلام في العالم كله ٥٣٤
- الشرح الذي قدمه الحسين لنظام الإسلام صار هو المقبول ٢٢٩
- تعليم الإسلام عن العفو ٣٧٣
- تعليم الإسلام عن الإحسان إلى الوالدين ٢٠٢
- حث الإسلام على الضيافة ٢٠٤
- حث الإسلام على الإنفاق شكرا لله تعالى ٢٠٠
- حث الإسلام على الإنفاق للضرورة القومية والمالية ١٩٩
- حث الإسلام على الإنفاق لنشره ولتوطيد نظام الجماعة ٢٠٠
- آداب الحروب الدينية في الإسلام ٩٢
- الإسلام دين مدني يهدف لتطوير الجميع ٤٧
- الحروب الإسلامية لم تكن لجلب المال ٧٦
- جمع الإسلام في عبادته جميع طرق العبادة لدى الشعوب ١٨٣
- مقارنة بين عبادات الإسلام وعبادات الأمم الأخرى ١٨٥-١٨٤
- الصلاة الإسلامية ١٦٩
- تفصيل فرض الصلوات الخمس في الإسلام ١٧٥

٤٨	عقيدة التناسخ تؤيد الجبر والإكراه	٧٣٦	الجمعة سبَّتُ المسلمين
٢٣٨	القرآن ينهى عن الجبر والإكراه	٧٣٦	أحكام الجمعة وآدابها
٢٠٥	أخذ الضيافة بالإكراه	١٨٨	أمرنا بالإتفاق من كل ما رزقنا من قوى وكفاءات
	الإلقاء: (انظر أيضا الوحي)	٢٠٢	من لا يتفق لتطوير النظام المدني آثم
٣٠٩	كل إنسان يعطى هداية خاصة بالإلقاء	١٩٤	عشرة أنواع من الإنفاق في الإسلام
	الإلهام: (انظر في الوحي)	١٩٧	الإسلام لا يجب التسول
	الأم:	٩١	الصيام في الإسلام
٦٠٩	يولد الولد بخصال الوالدين كليهما	٥٠٦	الإسلام لا يمنع من التحرك من بلد إلى آخر
	الإمام:		الرد على أن غير المسلمين لا يمكنهم الدخول في
٥٤١	الإمام بمعنى نبيٍّ من أولي الأمر	٥٠٦	الحجاز
	الأمة المحمدية:	٣٩٩	نبوءة ازدهارين للإسلام
٥٩٧	أفضلية الأمة المحمدية	٥٨٦	خبر ظهور مهديين كثر في الإسلام
٦٨	المقام المحمود مطمح نظر هذه الأمة	٧٢٤	نشأة الإسلام الثانية ستتم بأسباب روحانية
١٤٨	تشرف أتباعها في كل عصر برؤية الله ووصاله	٧٢٤	سبب انحطاط المسلمين في هذا العصر
٢٢٤، ٢٢٣	باب الوحي مفتوح في الأمة	٣٢٧	عادات المسلمين المعاصرين الوثنية
٥٤٩	باب النبوة غير التشريعية ليس بمغلق فيها		يعمل المسلمون المعاصرون أعمال الخير دون
٦٤	الصدقية في الأمة	٧٢٦	الأعمال الصالحة
٥٥٧	سلسلة المجتدين في الأمة	٧٩١	قوم ينسفون أسس الإسلام
٤٥٩	وعد ثلاثة أنواع من الخلافة في الأمة	٢٢٥	أسباب بُعد المسلمين عن الإسلام
٤٦١	إحياء الخلافة فيها بنبي تابع	٦١٨	لا كفارة في الإسلام إلا في حقوق الله
٤٦٠	إنكار المسلمين الخلافة الحاصلة بمجيء نبي تابع	٥٩٣	حبّ ونصح الإسلام لبني إسرائيل
٦٧	حقيقة تسمية شخص في الأمة باسم مريم وعيسى	٤٩	وجود أسس بعض نظريات "فرويد" في الإسلام
٤٦٠	عظمة المسلمين تبقى ببقاء الإيمان والعمل الصالح		الاسم/الأسماء:
	رقي المسلمين منوط بالإيمان والعمل الصالح دون	٤٦٩	أسماء الله تعني صفات الله تعالى
٤٦٠	غيرهم	٤٧٣	الأسماء بمعنى علم خواص الأشياء
	عُلم المسلمون مراعاة صفات الله الإيجابية مع		الاعتدال/الوسطية:
٤٢٩	السلبية	٧١١	عدم الاعتدال أساس ذنوب بني إسرائيل
٢٨٣	تمثيل في الحديث عن الأمة الإسلامية		إقامة الصلاة: (انظر في الصلاة)
	الأمن:		الاقتصاد:
	الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يدم أمن	٥٠٥	نظام الاقتصاد الجيد يساعد على تجنب المعاصي
٧١٩	الإنسان		الإكراه: (انظر أيضا الجبر)
٣٠٩	ضرورة عبادة الله لإقامة الأمن في العالم	٥٣٣	لا إكراه في الدين
		٩٣	لا يتحقق غرض الدين بالإكراه

- أودع الإنسان في فطرته أثر التوحيد ٥٩٩
- قدرة الإنسان على الاهتداء والرقى ٨٠
- كل إنسان يعطى هداية خاصة بإلقاء رباني ٣٠٩
- خلق الله ﷻ في قلبه جوهر الحب والتعلق ٧٩
- قابلية تعلم الإنسان لا توجد في حيوان آخر ٤٧٢
- الإنسان وحده يمكن أن يكون مظهرًا لصفة الله العليم ٤٨٣
- يمكنه تعلم العلوم الإلهية بقدرته على الخير والشر ٤٨٣
- سبب إعطائه قوة التحرير والتأليف ٧٩
- وسيلة رقيه في الأعمال البدنية والقلبية ١٥
- كل إنسان وهبه الله ﷻ فطرة سليمة ٥٠٠، ٦١٠
- بالأساس فطرته صالحة ولكن التأثير الخارجي يفسدها ٥٠٠
- تعليم القرآن يدل على فطرته الطاهرة ١٣٢
- التقوى منوطة بفطرة الإنسان وليست بالدين ١٥٠
- الإنسان ليس بحرّ في تفكيره حرية تامة ٤٨
- أثر الطفولة في نفسية الإنسان ٤٩
- سيرقى الإنسان هدى ومعرفة بعد مماته أيضا ١٤٧
- استعمال لفظة الشيطان للإنسان أيضا ٢٧٥
- حمل الإنسان الشريعة بواسطة آدم ٤٢٠
- في البداية لم يكن الإنسان مسؤولا عن أعماله
- لانعدام الشرع ٤٢١
- كل الكون خدام للإنسان ٤٠٠
- كل ما في الدنيا وراثه مشتركة للناس كلهم ٤٠١
- لا يقدر الإنسان معرفة كنه الأشياء كاملة ٣٣
- سورة البقرة تحل التساؤلات الطبيعية الناشئة عن الفطرة الإنسانية ٨٢
- مرّ بمراحل التطور ٣٤
- نظرية الفلاسفة المعاصرين أن الإنسان آخر حلقة لتطور الكون ٤٣٤
- مراحل التطور الإنساني المختلفة ٤٣٥
- إثبات خلق الإنسان من تراب ٤٣٦
- الفرق بين نطفة الإنسان ونطف الحيوانات لأخرى ٤٣٨
- نطفة أمشاج مخصوصة بالإنسان فقط ٤٣٩
- المراد من كون الإنسان سميعا وبصيرا ٤٣٩
- أمر القرآن بتصديق جميع الأنبياء مدعاة لأمن العالم ٢٢٢
- من ينشر الأمن والصلاح نال مكانة في السماء ٤٠٣
- الأمي:**
- ”نبوءة دانيال عن الحجر المقطوع“ عن النبي الأمي ﷺ ٥٧٢
- من معاني الأمي من يقرأ دون فقه المعاني ٧٩٠
- أمير الجيش:**
- أمير الجيش في الإسلام ٧٦
- الإنجيل/الأنجيل:**
- الأنجيل الموجودة غير إلهامية ١٤٠
- لا يمكن أن يدعى الإنجيل كتاب الله ﷻ ٧٩٨
- الإنجيل بيان القصصين ولا يوجد فيه من كلام المسيح إلا القليل ٥٥٨
- لا يوجد فيه ذكر أحكام الشريعة المهمة ٣١٢
- الأنجيل غير المعترف بها (apokaradokia) ٧٩٨
- بعض نماذج التحريف فيها ١٤٢
- التحريف في الأنجيل الموجودة ٥٧٦
- تحريف التراجم بعد ١٩٣٠ ١٤٢
- التحريف فيها جراء نقد المسيح الموعود ﷺ ٦١٠
- اختلافاتها الداخلية ١٤٠
- تقسيم الميراث عند المجيء الثاني للمسيح وفقها ٢٥٧
- تعبيرات في الإنجيل عن نزول الكلام الإلهي ٢١٥
- الإنسان** (انظر أيضا الفطرة الإنسانية)
- حامل الصفات الإلهية ظلما ٤٥٥
- من فطرة الإنسان نيل المقام الأعلى في الروحانية ٥٩٩
- خلق الإنسان لأن ينال التريقات اللامتناهية ١٣، ٣٥
- لا يمكن أن يدرك الملائكة علمه الجامع والمتنوع ٤٨٤
- إنسان ذو صفات ملائكية ٨٧
- الفرق بين الإنسان والملائكة من حيث الصفات ٤٧٠
- أقسام الكمالات الإنسانية ٥٨
- الإنسان الحيوان الناطق ٤٧٣
- أعطى الإنسان علما بسيطا عن ذات الله منذ البداية ٢٥

٢٠١	الإنفاق للكفارة	٤٣٤	نظرية القرآن عن خلق الإنسان
٢٠١	الإنفاق للنفقة	٤٥٣	معنى خلق الإنسان من نفس واحدة
١٩٠	إنفاق المرء على نفسه	٤٣٧	لم يتولد من الحيوانات الأخرى عبر التطور
	أهل القرآن (القرآنيون):	٤٣٣	خلق الإنسان عند الديانة البابلية
٢١١	فرقة هندية ترفض حديث النبي ﷺ	٤٣٢	نظريات هندوسية عن خلقه
	الأولاد:	٤٣٠	نظرية الكتاب المقدس عن خلق الإنسان
٦٠٩	يولد الولد بخصال الوالدين كليهما	٤٣٤	نظرية الفلاسفة المعاصرين عن خلق الإنسان
٤٥٣	ضرورة تربية الأولاد خاصة	٤٤٠	الإنسان قبل آدم ﷺ
٥١٣	أمر المؤمنين بحماية أولادهم من الشيطان	٤٥٥ - ٤٥٦	أصول تمهيدية للمجتمع الإنساني الأول
	الإيمان: (انظر أيضا المؤمن والنفاق)	٤٢١	المراد من جعل آدم خليفة
٧٧٩	معاني مختلفة للإيمان		الأنصار:
	استحالة اجتتاب الذنب بدون الإيمان الكامل بالله	٥٣٣	هؤود أولاد الأنصار بدخولهم في بني النضير
٥٩٣	ﷻ		الإنعام:
	الإيمان بالله أولى حلقات الإيمان والإيمان بالآخرة	٨٨	الطاعة الكاملة وسيلة للحصول على الإنعام الإلهي
٢٤٤	آخرها	٥٧	صور الإنعام المختلفة
٢٤٦	لا يكفي الإيمان بالله واليوم الآخرة فقط	٣٦٣	دحض اعتراضات على النعم الأخروية
	العرب الساكنون حول المدينة كانوا يؤمنون	٣٦٩	ذكر الإنعامات الأخروية في الكتب المسيحية
٢٤٧	بالآخرة	٦٩١	المن والسلوى كانا إنعاما
٢٤٦	الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن		الإنفاق (انظر أيضا الزكاة والصدقة):
٢١٠	لا بد للمتمقي من الإيمان بما نزل على النبي ﷺ	١٨٨	أمرنا بالإنفاق من كل قوة وكفاءة
٦٨٤	ضرورة بعض الإخفاء من أجل الإيمان	١٩٢	من ينفق وفق أمر الله يزداد ماله
٧٤	الإيمان بين الخوف والرجاء	١٩٠	حكم الاعتدال في الإنفاق
٢٥٠	لا يفيد الإيمان إلا بإخلاص	١٩١	إنفاق كل الممتلكات في سبيل الله ﷻ
٢٥٢	ضعف الإيمان سببه النقص في علم الصفات الإلهية	٢٠٠	حكم الإنفاق لنشر الإسلام وتوطيد نظام الجماعة
	لو كان هنالك جبرٌ لكان على الإيمان لا على	١٩٩	الإنفاق عند ضرورة القوم والملة
٢٣٨	الكفر	٢٠٢	الإنفاق لرقى النظام المدني
٢٢١	المراد من الإيمان بالأنبياء السابقين هو الإيمان بمجمل		حكمة الله في أمر الناس بالإنفاق على عباده
٣٧٤-٣٧٥	علاقة الإيمان بالعمل الصالح	١٩٣-١٩٢	
٢٤٢	ضرورة العمل مع الإيمان بالقلب واللسان	١٩٢	حكم إنفاق الأشياء المباحة
٨٠٢	لا ينشأ العمل الصالح بدون الإيمان	١٩٤	عشرة أقسام من الإنفاق في الإسلام
٨٠٣	شرط الإيمان والمحاسبة من أجل العمل الصالح	٢٠٢	الإنفاق لأداء حق الخدمة
١٥٥	ضرورة كون الإيمان مبنيًا على الدلائل والبراهين	٢٠٣	الإنفاق للإحسان
	الإيمان الحق يكون ذاتيا لا ما يتولد بحماس	٢٠٤	الإحسان هدية
١٦٠	الآخرين فقط	٢٠٠	الإنفاق شكرا

ذكر البعث بعد الموت في التوراة والزبور ٦٥٤-٦٥٥
حذف اليهود عقيدة البعث بعد الموت من التوراة ٧٩٨
البعثة:

تُلِّفَتْ أنظار الناس إلى ظهور المبعوث قبل بعثته ٧٨٨
البقرة:

إطلاق القرآن البقرة على الثور وأنتاه معا ٧٤٤
ميلان بني إسرائيل إلى عبادة الثور فأمرؤا بذبحه ٧٤٤-٧٤٢
عبادة الثور عند سكان مصر ٧٤٤
دخلت عظمتها في قلوب بني إسرائيل من المصريين ٧٤١، ٧٥٠

حكم ذبحها في الشريعة الموسوية وحكمته ٧٤١
أمرت بنو إسرائيل بذبح بقرة ذات ميزات خاصة ٧٤٤
اختلاف القرآن مع الكتاب المقدس في لون البقرة ٧٤٧، ٧٥٠

قُتِلَ مَنْ عبدوا العجل بحسب التوراة ٦٧٦-٦٧٧
الحكمة في اتخاذها أضحية في الإسلام ٧٥٠
لو احترم الهندوس نبينا ﷺ امتنعنا عن ذبحها ٧٥١
(المسيح الموعود ﷺ)

البوذية:

لا توجد فيها تعاليم الله بصورة معينة ٤٢٥
النظرية البوذية عن خلق العالم ٤٠٢
ذكرت البوذية فكرة الإنسان الكامل بصفات سلبية ٤٢٥

بيعة العقبة:

التبثُل

التبثُل سعي إنساني للعمل بـ {قَالُوا بَلَىٰ} ٦٠٠

التبليغ:

حق التبليغ على الإنسان ٧٩

التثليث/الثالث

الثالث مرفوض لافتقاره لدليل ١٥٧

إيمان الأمم وقت انحطاطها مبني على القبل والقال ٧٨٦
رجوع الأموات إلى الدنيا يبطل غاية الإيمان ٦٨٣
الإيمان المستعار ١٦١

ضرورة بقاء الإيمان قويا خارج أجواء الجماعة أيضا ١٦١
لا تصدر الأعمال العظيمة بدون الإيمان بالغيب ١٥٩
الإيمان بالغيب تصديق لما لا يُدرك بالحواس الخمس ١٥٨
الإيمان بالغيب أساسٌ للتضحيات لرفي القوم والملة والبشر ١٥٩

البايية والبهائية

البحر:

حقيقة معجزة انشقاق البحر لنبي إسرائيل ٦٢٣

البخل:

البخل على النفس مخالف لتعليم الإسلام ١٩٠

البرزخ:

إثبات الحياة البرزخية ٣٩٧

البشر (انظر أيضا آدم والإنسان والخلق)

خلق البشر لم يبدأ من آدم ﷺ ٤٤٠
تسوية البشر ٤٤٣
مراحل مختلفة لخلق البشر ٤٤٠-٤٤١
كان البشر قبل بعثة آدم ﷺ يعيشون مثل الحيوانات ٤٢١
نزل الإلهام على آدم ﷺ عند نضج العقل البشري ٥٢٨

البعث بعد الموت:

البعث بعد الموت يحقق مقصود حياة الإنسان ٦١٤
الكتب الأخرى أقل من القرآن بيانا للبعث بعد الموت ١١٧

سيرقى الإنسان هدى ومعرفة بعد مماته أيضا ١٤٧
ذكر البعث بعد الموت في العهد القديم ٦١٤
تفسير موسى وداود وأيوب للبعث بعد الموت

٦١٤-٦١٥

التحريف:

- علاقة النية بالتحريف ٧٨٢
كانت التوراة محرفة قبل المسيح أيضا ٧٩٥
تحريف المسيحيين للإنجيل بعد نقد المسيح الموعود ٦١٠

التزكية:

- طريقتان للتزكية ٩٣
ضرورة التعاون المتبادل للتزكية القومية ٩٤
لا يمكن تزكية القلوب بالجبر ٩٣

التسييح:

- معنى التسييح ٤٠٧
التسييح بيان للصفات الإلهية التنزيهية فقط ٤٢٥
سبب ذكر التوحيد والتقديس مع التسييح ٤٢٥
الديانات البدائية ركزت على التسييح فقط ٤٢٥

التشبيه/الاستعارة/المثل:

- التشبيه يقرب الشيء غير المرئي من العقل ٣٩١
استخدام الواحد للجمع في التشبيه ٢٨٧

التصديق:

- يصدق القرآن جميع الكتب السماوية ٥٧٥
ثلاث طرق لتصديق الكتب السماوية ٥٧٧
معنى تصديق القرآن للتوراة والإنجيل ٥٧٧-٥٧٨

التضحية:

- علامات المضحين في سبيل الله ﷻ ٩٤
تقديم الأضاحي لا يكفر الذنوب ٦٠٤
حكمة ذبح بني إسرائيل البقرة ٧٥٠

التطور:

- حقيقة نظرية التطور ٣٤
القرآن الكريم ونظرية التطور ٤٣٤
كل شيء سوى الله ﷻ خاضع لقانون التطور ٣٤
نظام العالم يدل على التطور ٨٧
التطور لا ينافي وجود الله ﷻ ٣٤
التطور الإنساني مستقل بنفسه ومنفصل عن غيره ٤٣٥

نظرية الفلاسفة أن الإنسان حلقة أخيرة لتطور

الكون ٤٣٤

الرد على نظرية تطور داروين ٤٣٤

التطور سار في العالم المادي والروحاني كليهما ٤٠٤

التطور في العالم الروحاني وحديث الإسراء ٤٠٤

آدم حلقة التطور الأولى ٨٧

حلقة التطور الأخيرة هي الغاية العليا ٨٧

ضرورة وجود عقيدة بسيطة قبل عقيدة مفصلة

وفق التطور ٣٢٧

التطور في التعرف على ذات الله ﷻ ٣٢٥

التطور يستمر في الجنة أيضا ٣٧

التعبير (انظر في الرؤيا والمنام)

التعصب:

يقبل الإنسان الحق عند خلوه من التعصب ٧٨٦

التعليم:

تكرار التعاليم ضروري ٧٧

التفسير:

ضرورة قاموس لغوي يؤلف بدون تأثير التفسير ٣٩٣

التقوى:

معنى التقوى ١١٣

التقوى ذات صلة بالفطرة لا بالدين ١٥٠

الإسلام يؤسس التقوى على حياة الآخرة ٥٩٥

التقوى غاية العبادة ٣٠٧

الهداية والتقوى ليستا اسماء لمقام واحد ١٤٦

المؤمنون بالقرآن هم أهل التقوى ١٤٨

التقوى المبنية على الدلائل العقلية هي من الدرجة

الأدنى ١٥٩

المتقي لا يؤمن باللسان فقط بل يصدق قلبه أيضا ١٦١

المتقي يبحث في مبدأ الدنيا ومنتهائها ٢٠٦

المتقي يؤمن بما نزل على خاتم الأنبياء ﷺ ٢١٠

الهدى مركب للمتقي ٢٢٨

أحكام تناسب أحوال الأتقياء في كل عصر ٢١٨

عاقبة المتقي ٢٢٩

تعاليم التوحيد في البهوتغيتا الهندوسي ٣٢٦
 عقيدة التوحيد في قبائل إفريقيا وأستراليا وبابل
 ٣٣٠-٣٣٢
 عقيدة مشركي العرب أن إبراهيم كان موحدًا ٣٣٤
 العرب قبل الإسلام استخدموا الراكع بمعنى الموحد
 ٥٨٧

عقيدة التوحيد في التمدن البابلي ٣٣١
 نَقْضُ الفاسق للعهد يعني تركه للتوحيد ٣٩٤

التوراة (انظر في الكتاب المقدس)

التييم:

حكمة التييم ١٧٠
الثالث: (انظر في التثليث)

الثواب والعقاب:

الرحمة والقانون ٣٣
 ثواب غير محدود لعمل محدود نتيجة لصفة الرحمة ٣٦
 الجزاء الكامل يتجلى يوم الدين ٣٩
 قانون الشرع يراعي أهمية الجرم عند العقاب ٦٧٧
 شرط الإيمان والمحاسبة للعمل الصالح ٨٠٣
 شرط الإرادة في الثواب والعقاب ٨٠١
 عند العقاب لا بد من مراعاة ظرف الجرم ٣١٩
 جزاء العمل الحسن أو السيء بشكل ما في الدنيا ٨٠٣
 عقوبة الخيانة الكبرى ٧٧٣
 عقيدة اليهود عن الثواب والعقاب ٧٩٩
 هدف العقاب الإلهي ليس الانتقام أو الإيذاء ٣٦٠
 فلسفة العقاب الإلهي ٧٩٤
 ذكر الثواب والعقاب بعد الممات تمثيلي ٣٦٠

الثور: (انظر في البقرة)

الجار:

وصية القرآن بالإحسان إلى الجار ٢٠٥، ٣١٣
 المؤمن لا يؤذي جاره ٧٥١
 ضرورة حسن الجوار والضيافة للراقي والتمدن ٢٠٤
الجرير:

تقوى الغني لا تكتمل بدون أداء الزكاة ١٩٥
 التقوى توجب خلو علاقات البشر من الفساد ٣٠٩
 ضرورة تكميل العلل الأربع لتكميل كل شيء ١٥١
التلاوة: (انظر في القرآن)

التمثيل:

تمثيل في الحديث عن الأمة المحمدية ٢٨٣
التمدن والحضارة:

آدم وضع أساس التمدن الموجود ٥٠٥
 ستة أصول لتمدن آدم ﷺ ٤٥٥
 حرية السفر والسكن أكمل التمدن ٥٠٦
 ضرورة حسن الجوار والضيافة للراقي والتمدن ٢٠٤
 من لا ينفق للنظام المدني فهو آثم ٢٠٢

التناسخ / الحلول

رد على التناسخ في تعاليم الإسلام ١٣٢
 صفة الرحيمية تردّ عليه التناسخ ٣٦
 عقيدة التناسخ تؤيد الجبر والإكراه ٤٨

التويم المغناطيسي

التهجد (انظر في الصلاة)

التوبة:

أنبياء بني إسرائيل عدّوا التوبة علاجًا للذنوب
 ٦٠٥-٦٠٦

التوحيد:

قانون واحد في الكون كله يدل على توحيد
 البارئ تعالى ٣١٩
 أثر التوحيد قد وُضع في فطرة الإنسان ٥٩٩
 إقامة التوحيد من مقاصد بعثة الأنبياء ٤١٢
 التوحيد أقدم من الشرك والوثنية ٣٢٢
 التوحيد أسبق زمنًا من الشرك عند الإسلام
 ٣٢٦
 والتوراة
 تعليم الرسول ﷺ التوحيد ٣٢١
 التوحيد ليس إرثًا لبلد معين ٦٥٠
 دعا المسيح ﷺ إليها بسيطًا غير معقد ٣٢٧

٢٤٨	لم ينتشر الإسلام بالجير	الجن:
١٥٠	لا فائدة في هداية الناس بالجير	جنٌّ من الكفار
٩٣	لا يمكن تركية القلوب بالجير	الجنابة:
٢٤٨	الجير يوَلدُ النفاق	حكمه غسل الجنابة
٢٣٧	لا يَحْتَمُّ الله ﷻ على قلوب الكفار إكراه	الجنابة:
٤٥٤	لا ينبغي إكراه المرأة على شيء	كيفية صلاة الجنابة
١٢٥	التوازن بين الجبر والقدر	١٧٩
١٢٥	جانب الجبر في نوااميس الطبيعة	الجنة:
٤٨	الرد على الآراء الخاطئة عن الجبر والقدر	حقيقة الجنة بحسب القرآن الكريم
٢٨١	أعطى الله الإنسان قدرة التمييز بين الحسنة والسيئة	الجنة ليست مادية
٤٨	بعقيدة الخطيئة الموروثة نشر المسيحيون فكرة الجبر	لا فناء على الجنة
٤٨	د. فرويد وقضية الجبر والقدر	الجنة مقامٌ رقيٌّ غير محدود
		المراد من نعماء الجنة
		المراد من أزواج مطهرة في الجنة
		ثمار الجنة
		معنى "تجري من تحتها الأنهار"
		حقيقة خمر الجنة
		سبب اختيار أسماء الدنيا لنعماء الجنة
		دخول الجنة بعد الموت منوط بدخولها في الدنيا
		المراد من الجنة الدنيوية
		تصور الهندوس الخاطئ عن الجنة
		جنة آدم ﷺ كانت على الأرض وفي العراق
		٥٠٤-٥٠٣
		وضع أساس الجنة الأرضية منذ عصر آدم
		نظام الجنة يقابله نظام الشجرة الممنوعة
		جنة آدم ﷺ أولُ نموذج لروضة الأطفال
		٤٧٩
		الجهاد:
		أكبر نفقات الصدقات هي للجهاد في سبيل الله
		٩٢
		جهنم:
		جهنم دار شفاء
		تفسير المسيح الموعود لـ "وقودها الناس والحجارة"
		٣٥٨
		الحب:
		يتولد الحب نتيجة الحسن والإحسان
		٣١١
		جبريل:
		هو الملاك الذي ينزل بكلام الله وسُمِّي روح القدس في التوراة
		٢١٥
		نزوله على المسيح ﷺ والنبي ﷺ
		٤٦٦
		الجيل:
		مفهوم رفع الطور فوق بني إسرائيل
		٧٢٩
		الجماعة الإسلامية الأحمدية:
		غاية إنشائها
		٤٦١
		سعي الأحمدية لعطلة يوم الجمعة
		٧٣٧
		استحالة العبادة والاستعانة وطلب الهداية بدون الجماعة
		٤٧
		عليها الحذر من كيد المنافقين
		٢٦٨
		ابتلاءات تلازمنا كجماعة إلهية
		٢٩٥
		جمع الصلاتين (انظر في الصلاة)
		الجمعة
		الجمعة يوم عيد (سيدنا عمر ؓ)
		١٤٥
		الجمعة بمثابة السبت للمسلمين
		٧٣٦
		أحكام الجمعة وآدابها
		٧٣٦
		تفصيل صلاة الجمعة
		١٧٨
		سعي المسيح الموعود ﷺ وجماعته لعطلة يوم الجمعة
		٧٣٧

أَتْلُقُ بِابِكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ٢١
 أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؛ فَعَلِمَهُمُ الْفَاتِحَةُ ٨
 أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بِهِ ٧٩٤
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ١٧٤
 إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ ٤٩٢
 إِنَّ الرِّهَابِيَّةَ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْنَا ٥٠١
 إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ تُقْرَأُ فِيهِ الْبَقْرَةُ ٧٦
 إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ١٩٠
 إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ٢٣٩
 إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أَقْبَتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا ٢٨٣
 إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ ٧٥
 إِنَّ الْمَرْأَةَ لَخَلَقَتْ مِنْ ضَلَعٍ ٤٥٣
 إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودَ ٦٩
 إِنِّي لَمْ أَشْرِكْ قَطُّ ٤١٩
 أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ ٣٧٤
 تَهَادُوا تَحَابُّوا ٢٠٥
 الرَّابِكُ شَيْطَانٌ وَالرَّابِكَانُ شَيْطَانَانِ وَالْثَلَاثَةُ رَكْبٌ

٢٧٤
 الرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ ١٨
 رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ لَهَا ظِلٌّ ٧٢٩
 فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ ٣
 قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ٣ ، ٤٥
 الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ... ٣٠١
 كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْهِ الْبَسْمَلَةُ ١٨
 كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَقْطَعُ ٢٠
 كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ٤٢٩
 الْكُفَاءُ مِنَ الْمَنْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى ٦٨٨
 لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ٢
 لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ٣٢٧
 لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَإِنْ سَنَامُ الْقُرْآنِ ٧٥
 لَوْ كَانَ الدَّيُّ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَهَبَ رَجُلٌ مِنْ قَارِسَ ٢٢٤
 لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَغْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعْضَةٍ ٣٨٩

يَتَوَلَّدُ الْحُبُّ الْكَامِلُ بِالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ لِمَنْنِ الْمُحْسِنِ ٨٦
 يُمْكِنُ أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ خَالِقَهُ ثُمَّ خَلَقَهُ وَلَيْسَ بِالْعَكْسِ ٢٠٦

الحج:

الحج وسيلة لاجتماع الأمة ٩١
 نزول {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} يَوْمَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ ٥٥٩

الحجاب:

اجتهاد خاطئ معاصر عن الحجاب ٥١٧
 الحبر:

النبي ﷺ هو حجر الزاوية عند إشعياء وداود ٥٦٦
 عدَّ النبي ﷺ نفسه حجر الزاوية ٣٨٠
 معجزة انفجار العين بضرب موسى الحجر ٧٧٦-٧٠١
 أناس ذوو قلوب متحجرة ٣٥٨ ، ٧٧٦
 تفسير المسيح الموعود ﷺ للحجارة ٣٥٨

الحديث الشريف

لم يرد في حديث صحيح "النزول من السماء"
 للمسيح الموعود ٦٩٨
 حقيقة حديث الإسراء ٤٠٤
 معنى الحديث "إِذَا بُويعَ خَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْأَخِيرَ"
 تمثيل في الحديث عن الأمة الإسلامية ٢٨٣
 التطور في العالم الروحاني وحديث الإسراء ٤٠٤
 لولاك لما خلقت الأفلاك ٤٢٣
 الاستعارة في الحديث القدسي ٢٥٦

الأحاديث الواردة في هذا الكتاب

(آية الكرسي) سيدة آي القرآن ٩٣
 أجعلتني لله نداء ٣٢١
 احثوا في وجوه المداحين التراب ٢٩
 الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ١٦٠
 الحمد لله أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ٣ ، ٦٥
 إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ٢٦٣
 أسلمت على ما أسلفت ٢٠٩
 أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ٣٦٤

- لولاك ما خلقتُ الدنيا ٤٢٣
ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم
القرآن ٦
مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِيَنِي بِالْحَجَارِ ٢٠٥
ما من مولود إلا يولد على الفطرة
٤٩، ٢٨٠، ٦٠٩، ٥٠٠
مَتَلِّي وَمَتَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَتَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا ٥٦٩
من قرأ حرفاً من كتاب الله ٩٩
مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ ٧٦
مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ ١٩٨
هي (الفاتحة) كنز من كنوز عرشي ٤
وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا (الفاتحة) رُقِيَّةٌ ٣
يا ابن آدم، مرضتُ فلم تُعُدني ٢٥٦
- أحاديث في مواضيع شتى**
أحاديث تبين مسائل الصلاة ١٦٥ - ١٧٩
أحاديث في وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من
الصلاة ١١
حديث عن اعتكاف رسول الله ﷺ ليالي في غار
حراء ٦٥
حديث عن تحريم الرسول ﷺ الصدقة على أولاده ٢٠٣
حديث عن تسابق أبي بكر وعمر في الإنفاق ١٩١
حديث عن حوار بين النبي ﷺ وحيي بن أخطب
٩٩، ٥٨٤
حديث عن طريقة الختم والطبع على القلوب ٢٣٩
- الحرية:**
الحرية الدينية ٥٣٣
حرية الإسلام بشأن الإقامة والسفر ٥٠٦
- الحسد:**
حسد بني إسرائيل للنبي ﷺ ٨٨
- الحضارة:** (انظر في التمدن)
الحق:
الموانع من قبول الحق ٤٩٢ - ٥٩٢
أكبر سبب لرفض الحق في هذا العصر ٧٨٣
- يقبل الإنسان الحق إذا خلا من العصبية ٧٨٦
الحلال (انظر في الغذاء)
الحلول (انظر في التناسخ)
الحمد:
الفرق بين الحمد والمدح والثناء والشكر ٢٩
ذكرُ الحمد مع التسبيح في القرآن الكريم ٤٢٧
- الحواريون:**
مقارنة بين حواربي المسيح وصحابة النبي ﷺ ٥٦٩
تصديق أقوال الحوارين بالقرآن والسنة ٥٧٣
- الحواس:**
تعطل الحواس الظاهرية أو الباطنية إذا لم تُستخدم ٢٣٦
- الحياة:**
معان مختلفة للحياة في القرآن الكريم ٣٩٧
الحياة الآخرة (انظر الآخرة، البعث بعد الموت)
خاتم النبيين ﷺ:
"روح الحق" في نبوءة المسيح إشارة إلى ختم نبوة
النبي ﷺ ٥٦٠
- الخالق:**
علاقة الخالق مقدّمة على علاقة المخلوق في
الروحانيات ٢٠٦
دحض عقيدة أن المخلوق أولى من الخالق ٢٠٦ - ٢٠٧
- الختان:**
هو علامة ظاهرية لعهد الله مع إبراهيم
٥٣٢ - ٥٤٢ - ٥٥٥
- كان فراعنة مصر وأثرياءهم يخشون في مصر ٦٥٤
عادة الختان عند المسيحيين الأحباش ٦٥٣
الختان في قبائل أمريكا القديمة ٦٥٣
الختان في قبائل أستراليا القديمة ٦٥٣
- الختم:**
معنى الختم على القلوب والعيون ٢٣٦

الخنزير:

- تأثير لحم الخنزير على أخلاق الإنسان ٩٠
كان حيوانا مقدسا عند المصريين والشاميين ٦٥٦
هل حرمه موسى ﷺ متأثرا بتعاليم المصريين؟ ٦٥٦
حقيقة صيرورة اليهود خنازير ٧٣٨

الخوارج:

- دافعهم الأصلي ٢١١
الخوف:
سبب تركيز القرآن على مخافة الله ﷻ ٥٥٠
الفرق بين الخوف والخرن ٧١٣
الفرق بين الخوف والخشوع ٥٩٥-٥٩٤
عقيدة الحياة بعد الموت تزيل الخوف من الموت
٥٩٦-٥٩٥

الدعاء:

- سبعة آداب لاستجابة الدعاء ٧
أسباب عدم استجابة الدعاء ٧
الأدعية الإلهامية أكثر جذبا لرحمة الله من غيرها ٥١٩
دعاء آدم ﷺ في حضرة الله ﷻ ٥١٩
دعاء إبراهيم ﷺ لبعثة نبي في مكة ٨٣
دعاء إبراهيم ﷺ لبيت الله الحرام ومكة ٨٩
{أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} دعاء جامع وكامل ٥٢،٥٥
حكمة استخدام صيغة الجمع في "أَهْدِنَا" ٦٢
{ذَلِكَ الْكِتَابُ} لدعاء {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ١١٨
ما معنى دعاء الرسول ﷺ {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} بعد نبه النبوة ٦٢
الأدعية المسنونة في الصلاة ١٧٣-١٧٢
الفرق بين الصلاة والدعاء ١٥٣

الدليل:

- الإيمان مؤسس على الدلائل والبراهين ١٥٥
ما لا دليل عليه لا يكون من الله ﷻ ١٥٦
التقوى التي تُنال بالدلائل العقلية هي أدنى درجة ١٥٩
حواضر الشيطان وإبليس تفتقر للدليل ٤٩

لا ينجم الله ﷻ على القلوب إكراها ٢٣٧

خسوف القمر:

أثر خسوف القمر على أحوال البشر ٣١٦

الخشوع:

الفرق بين الخشوع والخوف ٥٩٥-٥٩٤

الخشية:

في {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} دواعي الخشية للمؤمن ٧٠

الخلافة:

- معنى الخليفة في التعبير القرآني ٤٥٧
النبي والمأمور يكون خليفة الله ٤٥٧
ما هي الخلافة النظامية ٤١٨-٤٥٧
خلافة الأنبياء في بني إسرائيل ٤٥٨
كل قوم يأتون بعد قوم هم خلفاؤهم ٤٥٧
ورود لفظة خلافت جمعاً للخلافة القومية ٤١٠
المراد من جعل آدم خليفة ٤٠٩
آراء المفسرين في كون آدم خليفة ٤٤١
اختلاف سعد عند انتخاب الخليفة بعد النبي ﷺ ٦٧٣
الخلافة الراشدة بعد النبي ﷺ ٤٦٠
عصر الخلافة الراشدة عصر الأمن والرفاهية ٣١٠
غفلة المسلمين عن خلافة الأنبياء التابعين ٤٦٠
حكم مقاطعة من يقومون بالدعاية للخلافة ٦٧٣
معنى الحديث "إذا بويع لخليفتي فاقتلوا الأخير" ٦٧٣
تأمر الخلافة الأندلسية مع الروم ضد الخلافة العباسية ١٠١

الخلق (انظر الكون)

الخلق والأخلاق:

تأثير الغذاء على أخلاق الإنسان ٦٩٠، ٩٠

الخمير:

- مضار الخمير ٣٦٥
حقيقة خمير الجنة ٣٦٥

التوبة علاج الذنب عند أنبياء بني إسرائيل ٦٠٥، ٦٠٦
 الإنفاق في سبيل الله كفارةً لدفع وبال الذنب ٢٠١
 مجرد تقديم الأضاحي لا يكفر الذنوب ٦٠٤
 دحض عقائد بني إسرائيل المشجعة على الذنوب ٥٩٩
 حديث شريف يدحض نظرية الخطيئة الموروثة ٦٠٩
 الرد على عقيدة دفع فدية الذنوب ٦١٨
 عدم استخدام الأشياء عند الضرورة إثم ٥٠١
 أكبر ذنب في هذا العصر ٧٨٣

الرؤيا:

عالم الرؤيا تفهّمنا حياة الآخرة ٣٧٠
 أقسام مختلفة للإلهام والرؤيا ٦٦٩
 تعبير الرؤيا ٣٧١
 تعلّم المفسر ﷺ معاني الفاتحة في الرؤيا ٨

الرب:

معنى الرب ٣٠
 الربوبية تقتضي التطور ٣٤
 تجلّي الربوبية للعبد المحبوب خاصة ٤٣
 في الجنة تطور لامتناهي وفق صفة الربوبية ٣٧

الربا:

الربا منافية للإحسان والتعاون المتبادل ٩٤
 اجتهد خاطئ عن الربا ٥١٧
 آيات الربا نزلت في فترة متأخرة ٧٥

الرَّجْزُ:

الرجز الطاعون أو عذاب البرد ٦٩٨

الرحمة:

الرحمة والقانون ٣٧٣
 الرحمة بدون مقابل ٣٦
 لا تطلق كلمة الرحمن على غير الله ﷻ ٣٦
 سبب ورود الرحمن مرتين في الفاتحة ٣٦
 لفظ الرحمن يدحض عقيدة الفداء المسيحية ٣٦
 مسيلة الكذاب.. رحمن اليمامة ٣٦
 سبب ورود صفة الرحمن مرتين في الفاتحة ٣٦
 صفة الرحمن تدحض التناسخ ٣٦

عقيدة الثالوث والفداء مخالفة للعقل وبلا دليل ١٥٧
الدنيا (انظر أيضا الآخرة، الكون)

مقارنة بين الحياة الدنيوية والأخروية ٣٨٩
 تمثيل النعماء الدنيوية والأخروية ٣٧١
 حنة آدم عليه السلام كانت على هذه الأرض ٤١٥
 الموتى لا يرجعون إلى الدنيا وفق القرآن ٦٧٣

الدين:

لا تعارض في الدين الحق ٧٨٦
 سبب فساد شتى الأديان ٨٠٠
 علوم الدين انكشفت على الدنيا تدريجاً ٤٧٤
 إقامة نظام الاقتصاد العادل جزء من الدين ٥٠٥
 السخريّة بأمر الدين دأب الجاهلين ٧٤٥
 أركان بنيان الدين الأساسية ١٢٦
 الإنسان أحد أركان الدين لكونه مهبط الوحي ١٣٢
 وجود تصور الإله الأكبر عند القبائل البدائية ٣٢٩
 جميع الديانات تؤمن بنزول الوحي منذ البدء ٤١١، ٣٢٢
 لا يكتمل دين دون دعوته للإيمان بالبعث بعد

الممات ٦١٤
 حقيقة أسماء الله المختلفة في شتى الأديان ٣٣٣
 تركيز الأديان الابتدائية على التسبيح دون التحميد والتقدّيس ٤٢٥
 ضرورة الدين الجديد مع وجود ديانات قديمة ٥٢٨
 سبب فساد الديانات ٨٠٠
 لا إكراه في الدين ٥٣٣
 لا يتحقق غرض الدين بالإكراه ٩٣
 إنما الدين الحق ما يحظى بنصرة الله ٧٢٢
 التقوى ذات صلة بالفطرة الإنسانية لا بالدين ١٥٠
 القرآن الكريم لا يصدّق الأديان الأخرى بدلا من تكذيبها ١٢٠

الذنب:

تجنب الذنب محال دون الإيمان الكامل بالله ﷻ ٥٩٣
 النظام المعيشي الجيد يجنب السيئات ٥٠٥
 كراهية الذنب وتجنبه تغفر الذنوب ٦١٨

الرزق:

معنى الرزق

١٨٧

حكم الزكاة وحكمتها ١٩٤-١٩٥

لا يكتمل تقوى الغني دون أداء الزكاة ١٩٥

الرقية:

الرقية بالفاتحة لمن لدغته الحية

٣

الرهبانية

الكُمَل لا يلجأون إلى الرهبانية

١٩٠، ٦٠١

الزواج:

نزل حكم الزواج أول مرة في شرع آدم ﷺ ٤٥٥

النكاح من المشاركات يحلّ بالنظام ٩٢

المراد من أزواج مطهرة في الجنة ٣٧٩

خديجة زوجة النبي ﷺ وضعت جُلّ أموالها في يده ٣٨١

الروح:

الروح أرهف حساً من الجسد

٣٧٢

مطالبة القرآن الأرواحيين بالإتيان بمثله

٣٥٠

الروحانية:

طريقة تكميل الروحانية

٦٠١

"السائل" من لا يستطيع سد حاجاته مع جهده ١٩٧

السائل لا يعني "المتسول" ١٩٦

لا مكان للتسول في نظام الإسلام ١٩٦

روح الحق:

"روح الحق" في نبوءة المسيح إشارة إلى كون النبي

٥٦٠

خاتم النبيين ﷺ

روح القدس:

روح القدس هو جبريل في مصطلح القرآن ٢١٥

جبريل ينزل بكلام الله وسُمّي روح القدس في

التوراة ٢١٥

روضة الأطفال

أصول روضة الأطفال والقرآن الكريم

٤٧٨

سبب نزول آية لا إكراه في الدين

٥٣٣

الزرادشتية:

نظرية الزرادشتية عن خلق العالم

٤٠٢

عقيدة الزرادشتية عن فضل النسب

٨٠١

فكرة إلهين عند الزرادشتية

٤٠٢

كسر الاسكندر الأكبر قوة الديانة الزرادشتية

١٣٦

كتب الزرادشتية قد ضاعت

١٣٧

هل البسملة مسروقة من كتاب الزرادشتية

٢٣

أدلة على تحريف الزنداوستا

١٣٧

يستاسب الملك الفارسي أعدّ نسختين للأفستا

١٣٧

ذكر الزنداوستا الحياة بعد الموت ناقصا

١١٧

الزكاة (انظر ايضا الإنفاق)

السؤال:

السبت:

معنى السبت

٧٣٥-٧٣٤

يوم مقدس لدى اليهود

٧٣٥

يوم السبت كان سبباً لدى اليهود

٧٣٥

أحكام السبت في التوراة

٧٣٤

الحكمة من تخصيص السبت

٧٣٥

تفاصيل هتك اليهود حرمة السبت

٧٣٨

المسيح ﷺ كان يحترم السبت

٧٣٥

سبب اتخاذ المسيحيين المتأخرين الأحد سبباً

٧٣٥

حركة مسيحية تدعو لجعل يوم السبت سبباً

٧٣٧

الجمعة هو بمثابة السبت للمسلمين

٧٣٦

أحكام السبت في التوراة

٧٣٤

العبرة للمسلمين في عقوبة هتك حرمة السبت

٧٣٧

السجود:

النهي عن السجود أمام غير الله ﷻ

٤٨٩

المراد من السجود لأدم ﷺ

٤٨٩

ضرورة سجود المؤمن عند نزول فضل الله ﷻ

٤٩٠

سجود المؤمن هو توافق أخلاقه مع نبيه

٦٩٤

السخرية:

السخرية ذنب عديم الفائدة وميت للقلب

٧٩٨

- السخرية في أمور الدين دأبُ الجاهلين ٧٤٥ إثبات أن الشجرة المنوعة استعارة ٥٠٨
- السلوك:** أسرار السلوك العالي في سورة الفاتحة ٤٣
- السلوى:** سلوى بنى إسرائيل ٦٨٩
- السلوى يعني كلُّ ما يسلي ٦٨٩
- السماء:** المراد من بناء السماء سقفاً ٣١٥
- تفسير بناء السماء وسيلة للحفاظ ٣١٨
- التأثيرات السماوية في الأعمال والأخلاق ٣١٥
- والعادات ٤٠٣
- المراد من السموات السبع ٣٢٠
- السماء في العالم الروحاني هداية وفيوضات إلهية ٢١٦
- معنى كون الله ﷻ في السماء ٣١٨
- السماء بمعنى السحاب
- السنة:** النبي يكون تفسيراً عملياً وحيّاً لشريعته ٢١٢
- سنة الله ﷻ:** نزول القرآن موافق لسنة الله ﷻ ٨٧
- من سنة الله عدم تمكّن العدو من قتل أول نبي أمة ٧٧٢
- وآخرها
- السورة (انظر في القرآن)**
- السادات (أولاد الرسول ﷺ):** حكمة عدم جواز الصدقات للسادات ٢٠٣
- ضرورة خدمة فقراء السادات اعترافاً بإحسان الرسول ﷺ ٢٠٤
- السيئة (انظر أيضاً الذنب)**
- شرطان للمواخذة على السيئة ٨٠١
- أقسام مختلفة للسيئة ٧٩٤
- أعطى الله الإنسان قدرة التمييز بين الحسنة والسيئة ٢٨١
- الشجرة المنوعة:** الرد على آراء المفسرين السابقين حولها ٥٠٧
- الرد على أن الشجرة المنوعة هو العلم ٥٠٧
- إثبات أن الشجرة المنوعة استعارة ٥٠٨
- المراد منها إبليس والإثم والنظام المخالف ٥٠٩
- الشرع/الشريعة:** أهمية الشريعة ٩١
- الشريعة هداية عامة ٣٠٩
- آدم عليه السلام أول نبي جعل به الإنسان تابعاً للشرع ٤٢٠
- ضرورة العقل لتطبيق الشرع ٤٢١
- لولا العقول المتطورة عند بعثة آدم صار نزول الشرع عبثاً ٤١٨
- دائرة نطاق الشرع في الإسلام ١١٦
- خطأ الفكرة المسيحية عن الشريعة ٤٢٢-٤٢١
- الرد على أن الشريعة لعنة ٣٠٧
- كيف نال الرسول النبوة بدون العمل بشريعة ٦٣
- الشرك / الوثنية**
- الشرك بهتان عظيم ١٢٥
- القضاء على الشرك بيد الرسول ﷺ ٤١٢
- أضرار الشرك ٣٠٧
- صور عديدة للشرك في شتى الديانات ١٢٥
- دليل يبطل الشرك ٣١٩
- تسخير الكون للإنسان دليل على بطلان الشرك ٤٠٠
- الرد على أن الشرك سبق التوحيد زماناً ٣٢١
- أدلة من الصحف على كون التوحيد أسبق زماناً ٣٢٦
- من الشرك ٧٤٤
- أمر بنو إسرائيل بذبح بقرة للقضاء على الشرك ٣٢٧
- عادات وثنية لدى المسلمين المعاصرين
- شعائر الله ﷻ:** هي أمور تُظهر إرادة الله ﷻ ٢٥٩
- الشعر:** معنى الشعر ٢٥٧-٢٥٠
- الشعور:** الشعور وسيلة لمعرفة الفطرة السليمة ٢٥٩
- الفرق بين الشعور والعلم والمعرفة ٢٥٧-٢٥٠
- الشفاعة:**

٣١٠	أسوتهم الحسنة	٦١٧	الشفاعة في الإسلام
٧٧٣	عشقهم للرسول ﷺ	٦١٣	الشفاعة واليهود
٦٩	تحلوا بأخلاق الأقباط السابقة كلها	٦١٦	الشفاعة والمسيحية
٦٧٨	مستواهم العالي في الإيمان والأخلاق	٦١٦	الفرق بين الشفاعة وعقيدة الفداء المسيحية
٥٦١	هم العشرة آلاف قدوسي	٦١٦	الشفاعة لا تشجع على الذنوب
٥٦٩	مقارنة بين الصحابة وحواريي المسيح ﷺ		الشك:
	الصدق:	٣٣٨	الفرق بين الشك والريب
٦٦٩	دلائل صدق الأنبياء		الشك المنفي في قول الله تعالى "لا ريب فيه" ١٣٣
٧٢٢	مِحْكُ صدق الدين		الشكر:
	الصدقات: (انظر أيضا الإنفاق)	٢٠٠	الإنفاق شكرا لله
١٩٦	الصدقات تطوعًا وحُكْمًا		الشهادة:
١٩٦	فُرس الإنفاق		كاذب مَنْ اتهم غيره بالزنا ولم يقدم أربعة شهود ٧٨٧
١٩٦	الإنفاق على السائل والمحروم	٧٨٧	حكمة تقدم أربعة شهود في الزنا
١٩٨	الإنفاق لدفع البلاء		الشهيد:
٩٢	أكبر سبل الإنفاق الجهاد في سبيل الله	٨٩	الشهيد ينال الحياة الأبدية
١٩٩	الإنفاق للضرورات القومية والمالية صدقة	٢٢٩	أهمية استشهاد الإمام حسين ﷺ وحكمته
٢٠٤	الحكمة في عدم جواز الصدقة للسادات		الشیطان (انظر أيضا إبليس):
	الصدّيق والصدّيقية:	٤٩٨	الحكمة في خلق الشيطان
٦٤	الصدّيقية في الأمة المحمدية	٤٩٨	لا سلطة للشيطان على أحد
	الصراط المستقيم:	٤٩٩	طريق إغواء الشيطان
١٥	معالم الصراط المستقيم	٤٩٧	الشيطان بمعنى أئمة الكفر والأرواح الخبيثة
٧٣	الصراط المستقيم هو أقرب الطرق	٢٧٥	الشيطان بمعنى أسياذ يهود المدينة
	الصفات الإلهية (انظر أيضا الله تعالى)	٤٩٧، ٤٩٦	الفرق بين الشيطان وإبليس
	عدم فهم صفات الله سبب كل ضعف وذنوب	٤٤٦	الشيطان الذي خدع آدم كان أحد البشر
٣٠٣-٢٥٢		٥١٥	شيطان آدم كان بمثابة عبد الله بن أبي بن سلول
٤٥٧	المبعوثون يعكسون صفات الله وفق حاجة عصرهم	٥١٦	كيف استطاع الشيطان خداع آدم ﷺ
٤٧٤	عُلم الإنسان صفات الله تدريجيا	٥١٧	الأمر الذي خدع فيه الشيطان آدم ﷺ
٤٧٠	لا تعلم الملائكة جميع صفات الله ﷻ	٦٠٧	دحض عصمة المسيح وأمه فقط من مس الشيطان
٤٧٠	الفرق بين الإنسان والملائكة في الاتصاف بها		الصائبون:
٤٥٥	الإنسان يحمل الصفات الإلهية ظليًا	٧١٥	من هم الصائبون؟
٤٨٣	الإنسان وحده المظهر الكامل لصفة الله العليم	٧١٦	سمّى العرب المؤمن بالكتب السماوية صابئا
٤٢٥	القرآن وحده بين صفات الله الإيجابية كاملة	٢٩٦	الصاعقة:
	لا يؤكد القرآن على صفات الله السلبية إلا قليلا		الصحابة ﷺ:
٤٢٥، ٤٢٦			

أركان الصلاة: القيام، والركوع، والسجدة،	الكَمَل في المعرفة يعرفون رهم بصفاته الإيجابية لا
١٧٢، ١٧٣ والقيود	السلبية ٤٢٧-٤٢٥
١٧٧ عدد ركعات سنن الصلوات	الحمد والتقديس من الصفات الإيجابية ٤٢٧
١٧٦ صلاة الوتر	الديانات الأخرى لم تذكر الصفات الإيجابية إلا
١٧٨ صلاة الجمعة	قليلا ٤٢٥
١٧٨ صلاة العيدين	صفات الله الأربع الأساسية ترشد للسلوك العالي ٤٣
١٧٧ جمع الصلاتين	إثبات صفة الكلام الإلهية بالدلائل العقلية ٣٩٦
١٧٧ جمع الصلاتين	الصفات المريمية:
١٨٠، ١٧٥ قصر الصلاة	الصفات المريمية في المؤمن ٦٦
١٧٧ صلاة التهجد	الصلاة (انظر أيضا الجمعة) ١٦٩
إيقاظ الآخرين في رمضان للتهجد يدخل في	فرض الصلوات الخمس ١٧٥
١٦٤ {يُقيمُونَ الصَّلَاةَ}	أهمية الصلوات بالجماعة وحكمتها ١٦٤، ١٨٤
١٧٧ فضل صلاة التهجد	أداء الصلاة بشروطها الظاهرية ١٦٢
١٧٧ صلاة الضحى (الإشراق)	ضرورة أداء الصلاة عند عدم توفر شروطها أيضا ١٦
١٧٩ صلاة الجنائز	سنة معان لإقامة الصلاة ١٦٢
١٨٠ صلاة الاستسقاء	مواقيت الصلاة ١٧٥
١٨٠ صلاة الخوف	آداب الصلاة ١٨٠
١٨٠ صلاة الحاجة	الاصطفاف للصلاة بالجماعة ١٨٠
الصلاة الإبراهيمية:	أثر حركات الصلاة الظاهرية في قلب الإنسان ١٨٣
١٧٣ ترديد الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة	الصلاة ليست اعترافاً بالعبودية فحسب ١٨٦
الصلب:	حركات الصلاة تدل على مظاهر الأدب والحب ١٨٣
٦١٢-١٣١ لم يمت المسيح على الصلب	من يصلي ولا يكره الإثم فصلاته ناقصة ١٦٩
٦١١ لم يعلق المسيح ﷺ على الصلب برضاه	الصلاة بغير التزام ليست صلاة عند الإسلام ١٦٢
٣١٧ تدبير إلهي لنجاة المسيح من موت الصلب	طريقة تحنُّب الكسل وتنشُّت الأفكار في الصلاة ١٦٧
٦٠٨ لم يقل المسيح ﷺ أن نجاة الناس بفدائه	يجب ألا ييأس المصلي نتيجة تنشُّت الأفكار في
١٤٠ اختلاف الأناجيل في حادثة الصلب	الصلاة ١٦٤
٧٦٢ اختلاف شتى الأقوام في حادثة الصلب	أهمية الضوء لتركيز الأفكار في الصلاة ١٧٠
الصورة:	طريقة الضوء للصلاة ١٦٩
٤٤١ أقسام الصورة	حكمة غسل الجنابة قبل الصلاة ١٧١
الصال / الصالون:	حكمة البدء بالأكل إذا حضرت الصلاة والطعام
المراد من المغضوب عليهم والصالين من سورة	معا ١٦٧
٦٩ الفاتحة	لا ينبغي أداء الصلاة وقت الحاجة إلى البول والبراز ١٦٧
الضلع: (انظر أيضا المرأة)	حكمة استقبال القبلة في الصلاة ١٨١
٤٥٣ المراد من خلق حواء من الضلع	حكمة الإقامة للصلاة ١٧١
	فتوى المسيح الموعود في قراءة الفاتحة وراء الإمام ١٢

الضيافة:

٢٠٤	حث الإسلام على الضيافة	٤٧	الجماعة
٢٠٤	الضيافة سنة الأنبياء		جُمعت عبادات الأمم الأخرى في العبادات الإسلامية
٢٠٤	ضرورة حسن الجوار والضيافة للرفقي والتمدن	١٨٤	مقارنة بين عبادات الإسلام وعبادات الأمم الأخرى
٢٠٥	أخذ الضيافة بالإكراه	١٨٥	تحث العبادات الإسلامية المشاعرَ على الصلاح والتقوى

الطاعة:

٨٨	العزة الحققة في الطاعة الكاملة	١٨٤	الغفلة عن العبادة الحققة سببُ فقدان الأمن بهذا الزمن
٨٨	الطاعة الكاملة وسيلة لنيل الإنعام الإلهي	١٨٧	سببُ عبادة الأجرام الفلكية

الطاعون:

٦٩٨	الطاعون رجز	٣١٦	الأمر الضرورية لتكميل العبادة

طالب العلم:

١٦١	نصيحة للطلاب الموفدين إلى الخارج	٣٠٥	العبرية:

الطور:

٧٢٨	معنى رفع الطور على بني إسرائيل	٥٢٥	هي صورة مشوهة للعربية

الطيب:

	الطيب غذاء تبيحه أصول الصحة والعبادات البلدية والفترة السليمة	٤٠٠	عدد السبعة تدل على الكثرة
٩٠		٣٥١	العشرة عدد متكامل

العالم والعالمون (انظر أيضا الكون والدنيا)

٣٠	شرح العالم	٦٣٩	الأربعون في العالم الروحاني عدد التكميل
٣٣	هناك نظام روحاني مع نظام مادي		العذاب:
٥٩٧	من معاني العالم أهل عصر من العصور	٥٢٢	الإسلام ينفي العذاب الدائم ويُعدّ جهنم دار علاج
٣١	تفسير المسيح الموعود ﷺ للعالم	٢٤٠	العذاب هو الحرمان من رؤية الله
٢٤٦	عالم المنام والرؤيا يحيط اللثام عن حياة الآخرة	٦١٤	عقيدة اليهود أن النار لا تمسّهم إلا أياما معدودة

العبادة:

٤٤	معنى العبادة لغة	٣٩٨	الدليل على عذاب القبر
٣٣٦، ٤٦	مفهوم العبادة الحقيقي		العرب:
٤٤	لا عبادة إلا لمستجمع للصفات الكاملة	٥٦٥	معنى العرب البدو الرحّل
٣٠٦	العبادة الكاملة تتطلب العلاقة الكاملة	٦٥٣	عادة الختان عند العرب قبل المسيح ﷺ
٣٠٧	هدف العبادة نيل التقوى	٥٣٣	كان مشركو العرب يهودون أولادهم نذرا
٣٢١	ينزل الإلهام نتيجة العبادة	٣٣٤	كان العرب يعتقدون أن إبراهيم موحد
٣٠٩	العبادة تستلزم علاقة حسنة بخلق الله ﷻ	٧١٦	سمّى العرب المؤمن بكتاب سماوي صابنا
٤٦	لا توفيق للعبادة دون فضل الله تعالى	٥٦٣	تسمية العرب أولادهم محمدا قبل بعثة النبي ﷺ
			العرب الساكنون حول المدينة كانوا يؤمنون بالآخرة
		٢٤٧	
			العرب قبل الإسلام استخدموا الراكع بمعنى الموحد

العربية (اللغة):

٢٥٨	والشعور	٤٧١	عَلَّمَ الله آدمَ العربية بالوحي
٤٢١	ضرورة العقل لتنفيذ الشرع	٤٧٢	العربية أُمُّ الألسنة
٣٢١	العقل ناقص بدون الإلهام	٤٧١	ميزة لا توجد في غير العربية
١٥٧	الغيب أمور يحتاج إثباتها إلى العقل والأدلة	٣٥٦	زيادة في المبني زيادة في المعنى
	نزل الإلهام على آدم ﷺ عند نضج العقل	٦٦٤	هناك معانٍ في أحرف الكلمة وفي ترتيبها
٥٢٨	البشري		الكلمات المركبة من أحرف معيّنة مشتركة في المعنى
٣٢٠	القلب والعقل أرضٌ وهدي والفيض الإلهي سماء	٦٦٥	نظام الاشتقاق الكبير في العربية
٥٢٨	يثبت القرآن ضرورة النبوة بالعقل والواقع	٦٦٥	نظام الأضداد في العربية
	التقوى المبنية على الدلائل العقلية هي من الدرجة	٧٧٧	ورود المصدر الثلاثي. معنى المصدر الرباعي
١٥٩	الأدنى	٧٧٧	المصدر. بمعنى اسم الفاعل
	العلّة:	٧٧٧	أصول عن مرجع الضمائر
٧٥١	ضرورة تكميل العلل الأربع لتكميل كل شيء	٧٥٢	التنوين للتذكير والتعظيم أيضا
	العلم:	٧٧٢	حذف المضاف أحيانا
٢٥٠	الفرق بين العلم والشعور	٧٤٧	استخدام ضمير المضاف من أجل المضاف
٥٠٧	دحض الزعم أن الشجرة المنوعة هي العلم	١٨٠	قسمان للاستثناء: متصل ومنقطع
١٠٤	مقطعة "الم" ترمز إلى العلم الإلهي		

العرش:

٥٠	علم النفس يؤكد ضرورة وجود ذات عليا	٤٦٥	العرش يعني الصفات الإلهية
٤٨	مناقشة نظريات فرويد		

العرفان:

	العلوم:	٢٥٧	الفرق بين العرفان والعلم والشعور
٤٠٤	فعلُ الله (أي العلوم) لا يتعارض مع كلامه ﷻ	٤٢٧	الكُمل في العرفان يعرفون رهم بصفاته الإيجابية
٤٠٠	القرآن فتح طريق تطور العلوم	١٤٧	يتطور الإنسان عرفانًا وهدي بعد الموت أيضا

العروة الوثقى:

٨٠٥، ٣٧٢	حقيقة الأعمال الصالحة	٥٢٤	العروة الوثقى. بمعنى وحي الله ﷻ

العزة:

٧٢٥، ٣٧٢	الفرق بين العمل الصالح والعمل الحسن	٨٨	العزة الحققة في الطاعة الكاملة

العشرة:

٧٢٥، ٧١٢	للظرف والمصلحة	٣٥١	عدد العشرة متكامل

العفو (انظر أيضا الثواب والعقاب)

٣٧٤	العلاقة بين العمل الصالح وبين الإيمان	٣٧٣	تعاليم الإسلام عن العفو

العقل:

٢٤٣، ٢٤٢	ضرورة العمل الصالح للإيمان	٧٥٥	لماذا سُمِّيَ العقل عقلا
٤٦	توفيق العمل لا يتأتى إلا من الله ﷻ		

- رقي الإنسان منوط بأعمال القلب والجسم ١٥
 العمل الحسن يزيد الإنسان قدرة على قبول الهدى ٢٨٢
 حكمُ قراءة البسملة قبل كل أمر ٢٠
 أعمال الإنسان هي نتاج محيطه ٣١٤
 أثر الغذاء على أعمال الإنسان ٩٠
 المنافقون من حيث العمل ٢٩١، ٢٩٢
 عمل المرء هو ما يحتم على قلبه وسمعه وعينه ٢٣٨
 أعمال ما قبل الإيمان لا تضيع ٢٠٩

العهد/المعاهدة

- إشارة إلى غزواته ﷺ في نبوءة موسى عن الشريعة النارية ٥٧١
 إشارة إلى غزوات النبي ﷺ في نبوءة المسيح ٥٧١
 عدتْ غزوة بدر فرقانا ٦٦٨
 أثر بدر على يهود المدينة ٧٦٥
 غزوة الأحزاب ٢٨٥
 غزوة بني المصطلق ٢٦٥، ٦٧٨
 غزوة تبوك ٢٦٢
 الوفاء بالعهد ذو صلة بنبل النفس وخشية الله ﷻ ٧٨٢
 عهد الله ﷻ مع أولاد إبراهيم ٥٤٢
 هل كان العهد الإبراهيمي متعلقا بإسحاق أم بإسماعيل ٥٥٣
 تجديد العهد الإبراهيمي بواسطة موسى ٥٤٣
 العهد مع بني إسرائيل ٧٣١
 تطهير القلوب كان الجانب الروحاني في العهد الإسرائيليلي ٥٤٧
 إيفاء بني إسرائيل بالعهد يعني إيمانهم بالنبي الموعود ٥٥٢
 عهد بني إسرائيل مع الله تعالى ونكتهم إياه ٥٤٢، ٥٤٧
 المراد من نكت الفاسق عهده ٣٩٤

العيد:

- صفات الفاسق: ترك التوحيد ونقض العهد وإنكار المبعوث ٣٩٤
 صلاة العيدين ١٧٨

العين:

- أعمال الإنسان هي سبب الختم على الأبصار ٢٣٨
 سبب تقديم ذكر العيون على السمع ٢٤٠
 سبب ذكر العيون جمعا والسمع مفردا ٢٤١
 العين (معنى النبوع): معجزة انفجار العين بضرب عصا موسى الحجر ٧٠١
 عدم ذكر التوراة لهذه المعجزة ليس دليلا على عدم وقوعها ٧٠١
 شهادة سائح عن آثار الاثنتي عشرة عينا ٧٠٣

الغذاء:

- معنى الفرقان ٦٤٢
 الفرقان لفظ عربي وليس بشامي ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤
 سبب تسمية القرآن فرقانا ٦٦٨
 كل نبي يُعطى فرقانا ٦٦٨
 الفرقان، بمعنى مجموعة دلائل الصدق ٦٧١
 كل ما يتحلل هو بحاجة إلى الغذاء ٣٦٤

غزوات النبي ﷺ:

الغيب:

- الغيب لا يعني أمورا وهمية ١٥٦
 الحقائق غير المدركة بالحواس تُسمى غيبا ١٥٧
 الغيب أمور يحتاج إثباتها إلى العقل والأدلة ١٥٧
 الخزائن المخفية عن العين غيب ١٥٦

الفاسق:

- صفات الفاسق: ترك التوحيد ونقض العهد وإنكار المبعوث ٣٩٤

الفتح:

- الفتح حق الشجعان والمضحجين ٢٧٣

الفرحة:

- الفرحة الحقيقية ٣٤

الفرقان:

- معنى الفرقان ٦٤٢
 الفرقان لفظ عربي وليس بشامي ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤
 سبب تسمية القرآن فرقانا ٦٦٨
 كل نبي يُعطى فرقانا ٦٦٨
 الفرقان، بمعنى مجموعة دلائل الصدق ٦٧١

الفطرة الإنسانية:

القانون والرحمة ٣٧٣
هناك قوانين مختلفة في مدارج الخلق المختلفة ٦٣
القانون الخارجي يدل على وجود القانون
الروحاني ٨٩، ٩٠
الجبر في قانون الطبيعة لحكم عظيمة ١٢٥

وُلد الإنسان بفطرة سليمة ٢٨٠، ٥٠٠، ٦٠٩، ٦١٠
التوحيد مودع في الفطرة ٥٩٩
في الفطرة تطلع للمقام الروحاني الأعلى ٥٩٩
انتقال خصال الوالدين إلى فطرة الولد ٦٠٩
القرآن يحرك فطرة الإنسان السليمة ١٤٥
الغرض من العبادة هداية الفطرة ٣٠٧
إنما ينال الهدى من يحفظ فطرته من التأثير السيء ١٥٠
كفة لمة الخير راجحة في فطرة الإنسان ٤٩٩

القبلة:

ليست القبلة مقصودة في حد ذاتها ٨٩
القبلة وسيلة للوحدة ٨٩
دحض اعتراض لترك النبي ﷺ القبلة الأولى ٨٩

الفكر / الأفكار:

القتل بمعان مختلفة ٧١٠
من معاني القتل إرادة القتل ٧٦٨، ٧١١
القتل بمعنى المقاطعة ودفع الشر ٦٧٣

الفكر قوة تعين على استدلال النتائج الخارجية ٢٥٨
أهمية الموضوع لتركيز الفكر في الصلاة ١٧٠
طريقة تحبب الكسل وتشئت الأفكار في الصلاة ١٦٧
يجب ألا يبأس المصلي نتيجة تشئت أفكاره في الصلاة ١٦٤

الفلاح:

معنى {اقتلوا أنفسكم} ٦٧٣
دحض آراء المفسرين في {وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا} ٦٧٣
٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩

معنى الفلاح ٢٢٨
أمر أساسية للفلاح ٥٩٢

فلسفة تعاليم الإسلام: (كتاب للمسيح

الموعود ﷺ)

أهمية قراءة "فلسفة تعاليم الإسلام" لمعرفة عالم الآخرة ٣٨٥

الفيدا: (كتاب الهندوس)

النفوس في {وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا} هي عيسى عند البعض ٧٦١
المراد من النفس في {وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا} نفس النبي ﷺ ٧٦٨

إثبات تعرض الفيذا للتحريف ١٣٨
مقارنة الفيذا مع القرآن الكريم ١١٧
ضخامة الفيذا رغم قلة مضامينها خلاف القرآن ٢٤٥
لا يقدم الفيذا أدلة على وجود الله ﷻ ١٣٦
بدء خلق الكون عند الفيذا ٤٣٠

القدوسي:

نبوة عن عشرة آلاف قدوسي تخص الصحابة ﷺ ٥٦٢، ٥٦١

القذف:

حكمة تقدم أربعة شهود عند تهمة الزنا ٧٨٧

القرآن الكريم:

نزوله ٨٧
نزل القرآن وفق سنة الله ﷻ ٨٧
قلب النبي ﷺ الأطهر استلزم نزول القرآن ٦٥

القادياني:

تشابه بين الأحمديين والنصارى بسبب لقب "القادياني" ٧١٤
القانون (انظر أيضا الثواب والعقاب، الرحمة، الشرع)

- ١٤٤ شهادة بعض اليهود على كمال القرآن
١٥١ توضيح تكميل العلة المادية للقرآن
٣٤٨ القرآن يقدم أدلة صدقه بنفسه
١٣٣ لا ريب في القرآن
١٢٠ يصدق القرآن جميع الصحف السماوية
٢٢١ يعدُّ القرآن كل الأنبياء طاهرين وصادقين

تعاليم القرآن وجامعيتها:

- تعليم قرآني لا نظير له عن الإيمان بالصحف السابقة
٢١٩، ١٢٧
تعليم القرآن عن عصمة الملائكة والأنبياء ١٢٦، ١٢٧
١٤٤ بين القرآن كل ما هو ضروري
١٥٥ لا يأمر القرآن بالإيمان من غير دليل
١١٩ القرآن لم يهضم حق أحدا
٥١٨ شُعبٌ شتى لتعاليمه
١٣٣ تعاليم القرآن ضامنة للنجاح وعدمية المثال
١١٨ قدم القرآن توضيحا كاملا لفلسفة الأخلاق
٥٤ في القرآن علمٌ شافٍ لكل قضية دينية
يبين القرآن كل أمر ضروري لتكميل الروحانية
٣٤٢، ١١٥

- يقدم القرآن الأدلة على وجود الله والملائكة
والبعث ١٢٦، ١٣٦، ٢٢٦
الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن ٢٤٦
١٢٦ بين القرآن صفات الله مفصلة
٥٢٨ يثبت القرآن ضرورة النبوة بالعقل والواقع
١٤٥ يولد القرآن الحماس لوصل الله ﷻ
١٤٨ يدعي بخلق التقوى في النفوس
٧١٠ يكشف عن أصل كل سيئة وحسنة
١٥٢ يمكن القرآن الاتقياء من مكالمة الله ورؤيته ١٤٨، ١٥٢
١٤٧ يبلغ الإنسان غايته المنشودة
٤٣٤ نظرية القرآن عن خلق الإنسان
٤٣٤ القرآن ونظرية التطور
١٣٢ نظرية القرآن عن الفطرة الإنسانية
٤٩٩ كتلة لمة الخير في الإنسان راجحة عند القرآن
٤٠١، ٤٠٠ خلق الكون لفائدة الإنسان عند القرآن
٢٣٨ القرآن ينهي عن الجبر والإكراه

- محتوى الفاتحة أحد أسباب نزول القرآن ٦٦
جمع القرآن وترتيب سورته

٧٧

- ٧٨ جمعه وترتيبه من الله ﷻ
٧٨ سبب الفرق بين ترتيبه النزولي وترتيبه التدويني
٣٤٢ يحقق نزوله نبوءات الأنبياء السابقين
٣٥٢ نبوءة عن كتابة القرآن وقراءته
٥٦٧ نبوءة إشعياء عن نزوله
١٨ كتبت البسملة في مستهل كل سورة بوحى الله
٢١ خمسة أسباب لورود البسملة قبل كل سورة
٢٠ البسملة جزء من القرآن عند الأحناف

ضرورة القرآن

- ١٣٣ إثبات ضرورة القرآن
١٥٠ ضرورة القرآن مع كتب مقدسة أخرى

تصديق القرآن للصحف الأخرى

- مفهوم تصديق القرآن لجميع الكتب المقدسة ٥٧٥، ٥٧٧
المقصود من تصديق القرآن للتوراة والإنجيل ٢١٩،
٥٥٣، ٥٥٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨
٥٥٣ تصديقه لنبوءات إبراهيم عليه السلام
٥٥٦ تصديقه لكلام موسى عليه السلام
٥٦٧ تصديقه لكلام داوود ودانيل
٥٦٢ تصديقه لكلام سليمان عليه السلام
٥٦٨ تصديقه لكلام المسيح عليه السلام
٥٧٣ تصديقه لأقوال حواربي المسيح عليه السلام

فضله:

- ١٥٠، ٧٢٠
الخصائص المميزة للقرآن ٨٥، ٣٠٥، ٣٤٩
الخصائص المميزة لتعاليم القرآن ٣٤٢
سبب تسمية القرآن فرقانا ٦٦٨
ما يميز القرآن عن الصحف الأخرى ٨٥، ١١٥
١٤٥، ١٤٩، ٢٤٥
اعتراف وليام ميور بكون القرآن غير محرف ١٣٧
نزول آية {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ} ١٤٤
شمول القرآن مع إيجازه ٢٤٤، ٢٤٥، ٧٩٢
القرآن يحوي حقائق جميع الديانات ٨٥

- يعلن القرآن استحالة عودة الموتى إلى الدنيا ٦٨٣، ٦٨٥
ما ذكر القرآن من ثواب وعقاب بعد الموت
استعارات ٣٦٠
ليست جهنم أبدية عند القرآن ٣٦٠
ليست المادة أزلية عند القرآن ٣١٠
فتح القرآن أبواب تطور العلم ٤٠٠

هديُّ القرآن:

- القرآن هدى لجميع البشر ١٤٩
يقدم القرآن تعليمًا لجميع الأتقياء حسب مراتبهم ١٤٦، ١٦١
القرآن كتاب يهدي المنعم عليهم ٨٥

الحث على قراءته:

- الهدف الحقيقي من قراءة القرآن ٧٩١
توجيه في البسملة لقراءة القرآن ٢٢
قراءة القرآن وفهمه وحفظه سهل ١١٨
على المسلمين أن يتدبروا القرآن ٧٥، ٧٩٠
عاقبة من لا يسمع آيات القرآن ولا يتدبرها ٢٣٠
المفهوم الصحيح لتلاوة القرآن ٧٩١

التحدي القرآني للإتيان بنظيره:

- تحدى القرآن بالإتيان بكتاب مثله ٣٤٢، ٣٤٣
توضيح تحديات الخمسة عن الإتيان بمثله ٣٥٢
طالب الأرواحيين أن يأتوا بمثله ٣٥٠
محاولة مسيلمة الكذاب للإتيان بمثله ٣٥٥

تعابير وأساليب قرآنية:

- فرّق القرآن بين إبليس والشيطان ٤٩٧
استخدم القرآن لفظة الشيطان للإنسان أيضا ٢٧٥
أشار القرآن باليهود إلى دين موسى وبني إسرائيل إلى قومه ٥٣١
استخدم القرآن لفظ الفرقان بمعان شتى ٦٦٨
معان شتى للشجرة في القرآن ٥٠٩
استعمل القرآن لفظ الهدى بمعان عدة ٥٠
القرآن وحده يركز على التحميد مع التسبيح ٤٢٥، ٤٢٦
النفاق حسب القرآن ٢٦٤

القرآن الكريم والكتاب المقدس:

- مقارنة بين القرآن والكتاب المقدس ٣١٢
يفند القرآن تمّما وجهتها التوراة لله تعالى ١٢١
دحض القرآن تمّما وجهها الكتاب المقدس للأنبياء ١٢٩، ١٣٠
خلق الله الكون لحكمة عند القرآن خلاف الكتاب المقدس ١٢٥
فند القرآن زعم التوراة أن الله حزن وندم على خلق الكون ١٢٢
الفرق بين القرآن والكتاب المقدس في بيان تأليه العجل ٦٣٨
اختلاف القرآن مع الكتاب المقدس في البقرة ٧٤٧، ٧٥٠
التوراة تعد السلوى عذابا والقرآن يعبده إحسانا ٦٩٠
تحريف اليهود معاني آيات القرآن ٧٨٣
تفنيد زعم أن القرآن يجهل تاريخ بني إسرائيل ٥٣٦
الرد على أن الذنب يغفر بجزء مقابل ٦١٨
القرآن مليء بتفنيد الشرك بالله ﷻ ١٢٥
الرد على أن القرآن يوقع في الشك ٣٣٩
تنبيه قرآني لليهود على اعتقادهم بالكفارة ٦٠٤
رد قرآني على عقيدة الفداء المسيحية ٦٠٩
القرآن ليس بمتنخل من الكتب الأخرى ٣٤٠، ٧٨٨
- المقطعات القرآنية**
- المقطعات جزء من الوحي ولها معانيها ٩٨
ترتيب خاص في استخدام المقطعات في القرآن ١٠٣
سبب تغير المقطعات في السور القرآنية ١٠٢
التماثل في مضامين السور المتبدئة بمقطعات مماثلة ١٠٦
المقطعات تشير إلى الصفات الإلهية ١٠٨
السور المستهله بـ "ر" تبين تاريخ الأمم وخلق الكون ١٠٧
السور المستهله بـ "م" تتحدث عن علم اليقين ١٠٨
نبوءات في القيمة العددية للمقطعات ٩٩
آراء المفسرين عن المقطعات ٩٨
نظرية أبي العالية عن المقطعات ١٠٨
في المقطعات أسرار عن أشخاص لهم علاقة وطيدة بالقرآن ١٠١
استخدام العرب للمقطعات ١٠٩

وصية قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة ١١
فتوى المسيح الموعود عليه السلام في قراءة الفاتحة وراء

الإمام ١٢
الرقية بالفاتحة لمن لدغته الحية ٣

سورة البقرة:

فضائل سورة البقرة ٧٥
هي خلاصة القرآن الكريم ٩٦
فصاحتها وبلاغتها المعجزة ٨٢
لا مثيل لها في مضامينها وسعة أحكامها ٧٧
فيها حلول لتساؤلات الإنسانية الفطرية ٨٢
رأي محي الدين العربي في سورة البقرة ٧٦
ترابطها بسورة الفاتحة ٩٦
خلاصة مضامين سورة البقرة ٨٣
فيها ذكر أحداث ٧١ سنة من البعثة ١٠١
البقرة مدنية ٧٥
مفتاح لفهم معارفها ٨٣

سورة التوبة:

سبب عدم إيراد البسملة في مستهلها ١٨
سورة مريم:

فيها ذكر ازدهار المسيحية ١٠١

سورة العنكبوت:

المؤمنون هم المخاطبون في (الم) الواردة في مستهلها ١٠٤

سورة المزمل:

مضامينها ٨٠

سورة المدثر:

مضامينها ٨٠

سورة العلق:

مضامينها ٧٩

سورة الكوثر:

فيها نبوءات عظيمة ٣٥٥

سورة النصر:

فيها نبوءة الفتح والنصر ٢٣١

معاني مقطعة "الم" عند المسيح الموعود عليه السلام ١٥١

سور القرآن

سُميت سور القرآن بأمر الله عز وجل ٧٥

ترتيب السور القرآنية ٧٧

البسملة في مستهل السور وحي وجزء من القرآن

١٨-١٩

نبأ موسى عن نزول البسملة في مستهل كل سورة

٢١-٢٢

خمس أسباب لورود البسملة في مستهل كل سورة ٢١

البسملة مفتاح مطالب كل سورة ٢٣

الترايط في السور التي تبدأ بـ (الم) ١٠٨

الترايط في السور التي تبدأ بـ (الر) ١٠٨

السور الحالية من مقطعة تابعة في معانيها للسور

السابقة المبتدئة بمقطعة ١٠٤

مضامين السور الأوائل ٨٠

حقيقة فضائل السور المختلفة ٧٦

سورة الفاتحة:

في مكاشفة يوحنا نبوءة عن نزول الفاتحة ٤

فضائل الفاتحة ٦

هي أعظم السور من حيث المعارف ٨

مضامينها بمنزلة مقدمة للقرآن الكريم ١٣

في الفاتحة إشارة إلى سبعة عشر أمرا ١٣

أسرار السلوك العالي في الفاتحة ٤٣

فيها سبعة آداب لاستجابة دعاء ٧

هي دعاء للحصول على الإنعامات ٤٦

تناولت الفاتحة الموضوع الذي كان سبب نزول

القرآن ٦٦

أسمائها المختلفة ٦٦، ٢

أسمائها إلهامية وتدل على مضامينها الواسعة ٥٤، ٦

الفاتحة جزء من القرآن الكريم ١٠

سبب عدم كتابة عبد الله بن مسعود الفاتحة في

مصحفه ١٠

ترتيب آياتها المليء بالحكم ٧٢

حكمة ورود الرحمن والرحيم مرتين في الفاتحة ٣٦

نزلت الفاتحة في مكة وأيضاً في المدينة ١٠

مواضيع متفرقة عن القرآن:

- هل يمكن نسخ القرآن؟ ١٣٧، ٥٤
روايات إسرائيلية مخالفة للقرآن قابلة للرفض ٧٥٧
قراءة القرآن إهداء للميت غير مجدية ٥٨٣
اعتذار عدم بيع القرآن بثمن قليل ٥٨٣
نكتة معرفة بينها المسيح الموعود عليه السلام ١٥١
القرود (انظر في المسخ)

القرض:

- الإقراض سبيل للإحسان والتعاون المتبادل ٩٥
آداب التسلف والتسليف ٩٥

القصاص:

- معنى قول الله تعالى {فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} ٧٥٤
القصة:

- قصص إسرائيلية لا يجوز تصديقها أو تكذيبها (ابن كثير) ٧٥٦

القلب:

- القلب والعقل أرضٌ والهدي والفيض الإلهي سماء ٣٢٠
أثر الشعور في القلب حتميٌّ ٢٥٠
مفهومُ ختم الله على القلوب ٣٣٨-٣٣٩
مرض نفاق القلب ٢٦٣
الفطرة وسيلة رقي المرء في أعماله البدنية والقلبية ١٥
ضرورة العمل مع الإيمان بالقلب واللسان ٢٤٢
رقي الإنسان منوط بأعمال القلب والجسم ١٥
لا يمكن تزكية القلوب بالجبر ٩٣
لا يختم الله عَلَيْكَ على القلوب إكراها ٢٣٧
تطهير القلوب كان الجانب الروحاني في العهد الإسرائيلي ٥٤٧

القول:

- معان مختلفة للقول ٤٠٥

القوم:

- كيف يفسد قوم مختارون ٧١٨
إيمان القوم زمن الانحطاط يكون مبنيا على القبيل والقال ٧٨٦

القيامة (انظر أيضا الآخرة):

- يوم القيامة ينكشف الثواب والعقاب كاملا ٣٩
الكاثوليك الرومان: (انظر أيضا المسيحية)
الكتاب:

- الحكمة في نسبة نزول الكتاب إلى قوم ما ٢١١
إطلاق كلمة الكتاب على جزء منه أيضا ٦٦٢
الكتاب الذي أُعطيَ موسى عليه السلام ٦٥٩

الكتاب المقدس/التوراة والإنجيل:

- الكتاب المقدس كان أساسه على الوحي ٣٢٢
توجد فيه آلاف من الحقائق حتى الآن ٧٩٧
نبوءة موسى فيه أن النبي الكاذب يقتل ٢٢
نبوءة التوراة أن مثيل موسى سيقراً كلام الله باسمه تعالى ٢١
مصدق نبوءة التثنية في التوراة ٥٥٦، ٥٥٧
نبوءة التوراة عن عشرة آلاف قدوسي تخص الصحابة عليهم السلام ٥٦١، ٥٦٢
لفظ ”الوحشي“ بحق إسماعيل في الكتاب المقدس ترجمة خاطئة ٥٦٥
نبوءة رقي بني إسماعيل في التوراة ٥٥٣
العهد الإبراهيمي يتعلق بإسحاق وفق التوراة ٥٥٣
تعيين حنة آدم عليه السلام في التوراة ٥٠٣
ذكر البعث بعد الممات في العهد القديم ٦١٤
أحكام السبت في التوراة ٧٣٤
تعايير مشاهة في الكتاب المقدس لمعنى ”لا ريب فيه“ ١٣٤

يمكن إدخال غير بني إسرائيل في اليهودية وفق

- التوراة ٥٣١
مفهوم خاطئ لتصديق القرآن للتوراة ٢٢١
المقصود من تصديق القرآن للتوراة ٢١٩
الكتاب المقدس مع قلة مضامينه أضخم من القرآن ٢٤٥
أدلة على كون الكتاب المقدس غير محفوظ ١٣٩،
٥٥٤، ٥٧٦
ضاعت التوراة في زمن نبوخذنصر فكتبها عزرا
النبي ٧٦٧

- الاختلاف في نسخ التوراة اليهودية والسامرية
والمسيحية ٥٥٤
- كانت التوراة مخرفة قبل المسيح أيضا ٧٩٥
- لم تكن التوراة تُحفظ عن ظهر قلب ٧٩٧
- لا تقدم التوراة الأدلة على وجود الله ﷻ ١٣٦
- أُخترت التوراة ذُكر أحكام الشرع الهامة ٣١٢
- حذف اليهود من التوراة عقيدة الحياة بعد الموت ٧٩٨
- نظرية الكتاب المقدس الخاطئة عن الخطيئة الموروثة ١٣٢
- قصة خلق آدم ﷺ في التوراة ٤٣٠
- عصر التوحيد سبق عصر الشرك عند التوراة ٣٢٧
- وقائع سفر موسى الواردة في التوراة متعارضة ٦٩٥
- الرد على أن الشجرة المنوعة فيها عِلْمٌ ٥٠٧
- حُكم ذبح البقرة في شرع موسى وحكمته ٧٤١
- قصة ذبح بني إسرائيل البقرة ٧٤٤
- اختلاف القرآن والتوراة حول قصة عبادة العجل ٦٣٨
- قصة قتل الذين عبدوا العجل في التوراة ٦٧٦-٦٧٧
- تعذَّ التوراة السُلوى عذابًا والقرآن يعدّه مَنَّةً ٦٩٠
- دحض تمّ وَجَّهَتْ في التوراة للأنبياء ١٢٩-١٣٠
- اقام التوراة بأن الله ندم على خلق البشر وتعب ١٢١
- أنبياء تابعون للتوراة ٤٥٨
- في نشيد الأنشاد نبوءة عن النبي ﷺ باسم محمدم ٥٦٣، ٥٦٢
- الكعبة:**
- الكعبة المشرفة أقدم معبد ٥٠٤
- الكعبة مركز التوحيد ٣٣٤
- بُنيت الكعبة قبل إبراهيم ﷺ ١٨١
- دعاء إبراهيم ﷺ للكعبة ٨٩
- حكم تطهير الكعبة الظاهري والباطني ٨٩
- حكمة تولية الوجه شطرها في الصلاة ١٨١
- الكعبة لا تُعبد بل هي مكان اجتماع الناس ١٨١
- الكفارة** (انظر أيضا المسيحية والخلاص)
- الكفارة هي الإنفاق لدفع وبال الذنب ٢٠١
- في الإسلام الكفارة في حقوق الله لا في حقوق العباد ٦١٨
- هل الكفارة والشفاعة شيء واحد؟ ٦١٦
- أثر عقيدة الكفارة في بني إسرائيل ٦٠٤
- صار المسيح فداءً لكفارة الخطيئة عند المسيحية ٦٠٦
- القرآن يرد على عقيدة فداء المسيحيين ٦٠٢، ٦٠٩
- صفة الله الرحمن ومالك يوم الدين ردُّ على الفداء المسيحي ٣٩
- عقيدة الفداء المسيحية تبطل ضرورة العمل الصالح ٧١٩
- لم يقل المسيح أن خلاص الناس بصلبه ٦٠٧
- الكفر:**
- الكفر إنكار ذات الله أو بعض صفاته أو أحكامه ٣٩٦
- قسمان للكفار: الجن والإنس ٣٥٩
- كلام الله** (انظر في الوحي):
- الكون** (انظر أيضا الدنيا)
- حالة الكون الدخانية ٤٣٥
- خُلِق الكون تحت حكمة إلهية ١٢٥
- نظريات شتى الديانات عن خلق الكون ٤٠٢
- النظرية الهندوسية عن خلق الكون ٤٣٠
- نظام الكون تابع للقوانين الظاهرية والباطنية ٤٦٣
- الملائكة علة ثانية للكون ٢١٦
- كل شيء في الكون نافع للإنسان ٤٠٠
- جميع موارد الكون إرث مشترك للبشر كلهم ٤٠١
- تأثيرات كونية في قوى وأعمال الناس ٣١٤
- الإنسان آخر حلقات تطور الكون عند الفلاسفة ٤٣٤
- يسخَّر الكون كله لتأييد المبعوث ٤٦٦
- تأييد الكون لخاتم الأنبياء ﷺ ٩٠
- لَمَّةُ الخير:**
- كفَّة لَمَّةُ الخير راحجة في فطرة الإنسان ٤٩٩
- اللوح:**
- الألواح التي أعطيتها موسى عند الطور ٦٥٩
- المادة** (انظر الكون أيضا)
- الحالة الدخانية للمادة ٤٣٥
- الأشياء المادية عرضة للتحلل حتما ٣٦٤
- المادة والحياة كلتاها من خلق الله عند الفيدا ٤٣٣
- المالك:**

- الفرق بين المالك والملِك ٣٩
- المؤمن:** (انظر أيضا الإيمان)
- مثل المؤمن كامرأة فرعون ومريم بنت عمران ٦٦
- المؤمن يكون أشجع الناس ٢٧٣
- أمر المؤمنون أن يجنبوا أولادهم من الشيطان ٥١٣
- المبعوث والمأمور:** (انظر أيضا النبي):
- تُلفت الأنظار إلى المبعوث قبل بعثته ٧٨٨
- المبعوث يرفضه الفاسقون ٣٩٥، ٣٩٤
- المتقي:** (انظر في التقوى)
- المثل:**
- الفرق بين المثل والنَد ٣١٤
- تحلّي القرآن عن الإتيان بمثله ٣٤٣، ٣٤٢
- لم يقدر أحد على الإتيان بمثل الكتب العربية
- المسيح الموعود ﷺ ٤٧٩
- المثل والمثال:**
- مثل المنافقين ٢٩١
- المقصود من مثل البعوضة في القرآن ٣٨٩
- المجدد:**
- سلسلة الأنبياء والمجددين في بني إسرائيل ٤٥٩
- سلسلة المجددين في الأمة المحمدية ٥٥٧
- مجمع البحار:**
- "مجمع بينهما" هو النبي ﷺ ٢١٩
- المحروم:**
- المحروم من لا يسأل رغم الفقر ١٩٨، ١٩٧
- الحيوانات تدخل في مفهوم "المحروم" ١٩٨
- محمديم:** (انظر في الكتاب المقدس)
- المرأة:**
- مفهوم خلق المرأة من ضلع ٤٥٣
- لا يجوز إكراهها على شيء ٤٥٤
- المسخ:** (انظر أيضا القرد)
- حقيقة مسخ اليهود قردة ٧٣٩
- أقوال المفسرين عن مسخ اليهود قردة ٧٣٩
- حصائل القردة ٧٤٠-٧٤١
- المسلمون:** (انظر أيضا الإسلام):
- غاية المسلم ٥٩
- في قصة آدم عبرة لكل مسلم ٥٢٢
- العبرة للمسلمين في عقوبة هتك حرمة السبت ٧٣٧
- قراءة القرآن بالتدبر ضرورية للمسلمين ٦٧٥، ٧٩٠
- نسب مسلمو عصرنا قياساً عليهم إلى الإسلام ٨٠٠
- عقيدة المسلمين المعاصرين في رفع المسيح إلى السماء ٧٦٣
- لم يذكر المسلمون المسيح بسوء في حكمهم الممتد ألف سنة ٣٨٠
- المسيح الموعود:** (ميرزا غلام أحمد القادياني ﷺ):
- مجيء المسيح ثانية كان مقدراً بعد بعثة النبي ﷺ ٥٧٠
- نبأ بعثة المسيح الموعود في {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} ٢٢٤
- لم يذكر أي حديث صحيح "النزول من السماء" للمسيح الموعود ٦٩٨
- تواصل المسيح الموعود والمصلح الموعود مع الملائكة ٤٦٦
- تحريف المسيحيين في كتابهم بعد نقد المسيح الموعود ﷺ ٦١٠
- تفسير المسيح الموعود لقوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) ٣٥٨
- سعي المسيح الموعود ﷺ وجماعته لعطلة يوم الجمعة ٧٣٧
- تفسير المسيح الموعود ﷺ للعالم ٣١
- معاني مقطعة "الم" عند المسيح الموعود ﷺ ١٥١
- فتوى المسيح الموعود ﷺ في قراءة الفاتحة وراء الإمام ١٢
- لو احترم الهندوس نبينا ﷺ لامتنعنا عن ذبح البقرة (المسيح الموعود ﷺ) ٧٥١
- المسيحية:**
- سبب تسمية المسيحيين بالنصارى ٧٢
- ازدهار المسيحية بعد ٣ قرون من حادث الصليب ٥٧٧
- ذكر رقي المسيحية الثاني في سورة مريم ١٠١

- نبوءة انتشار فتنها في آخر الزمان ٧١
- غلبة الدول المسيحية ليست دليلاً على صدقها ٧٢٣
- المسيحيون هم الضالون ٦٩
- هجمات المسيحيين القذرة على النبي ﷺ ٣٨٠
- قدم المسيح عقيدة الإله الواحد ولكنها فسدت فيما بعد ٣٢٧
- النظرية المسيحية عن خلق الكون ٤٠٢
- عقيدة المسيحيين عن واقعة صلب المسيح ٧٦٣
- إبطال عقيدة رفع المسيح إلى السماء ٥١٣
- فهم خاطئ عند النصاري عن تصديق القرآن للإنجيل ٥٧٥
- الكتب المسيحية تفتقر إلى بيان الحياة الأخروية ٣٦٩، ٣٨٤
- تفنيد العقيدة المسيحية بأن الشرع لعنة ٣٠٧، ٤٢١
- أساس عقيدة الفداء المسيحية ٦٠٦، ٦٠٥
- تفنيد الزعم أن عقيدة الشفاعة تشجع على الذنوب ٣٦، ٤٠، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨
- عقيدة الفداء المسيحية تبطل ضرورة العمل الصالح ٧١٩
- المسيحية وقضية الشفاعة ٦١٦
- عقيدة الخطيئة الموروثة المسيحية تؤكد الجبر ٤٨
- المسيحيون الأوائل سبتوا يوم السبت ٧٣٥
- خلفية جعل المسيحيين الأحد سبتاً ٧٣٥
- الحركة السبتية المسيحية ٧٣٧
- تعريف المسيحيين للإنجيل بعد نقد المسيح الموعود ٦١٠
- المسيحيون:** (انظر في المسيحية)
- المطر:**
- المطر: بمعنى الوحي الإلهي ٣٢٠
- المعجزة:** (انظر أيضاً الفرقان)
- معجزات الأنبياء يكتنفها الخفاء ٦٨٤
- تولد الأسباب الظاهرية ليست مخالفة للغلبة الإعجازية ٢٧٢
- حماية الأنبياء وانتصاراتهم بمعجزة ٤١٣
- حقيقة معجزة فرق البحر بيني لإسرائيل ٦٢٣
- حقيقة معجزة انفجار العين بضرب موسى ﷺ ٧٠١
- الحجر ٧٠١
- المعجزات الخاصة سُميت فرقانا ٦٦٨
- المغضوب عليهم:**
- المراد من المغضوب عليهم والضالين ٦٩
- المقام المحمود:**
- بلوغ المقام المحمود غاية الأمة المحمدية ٦٩
- المقطعات القرآنية:** (انظر في القرآن)
- الملائكة:**
- ذكر وجود الملائكة وصفاتهم في القرآن الكريم ١٢٦
- وجود الملائكة لا ينافي وجود الله تعالى ٤٦١
- هم علة أولى للأسباب المادية ٤٦٣، ٤٦٥
- هم علة ثانية للكون ٢١٦، ١٢٦
- هم مديرو نظام الكون ٤١٣
- هم واسطة بين الله ﷻ وخلقه ٤٠٤
- بواسطتهم يُنفذ أمر الله ﷻ ٤٠٧
- هم منبع حوافر الصلاح ١٢٦
- فرائض الملائكة ٤٦٥
- يسخرون الكون كله لتأييد المبعوث عند بعثته ٤٦٥
- معنى حمل الملائكة للعرش ٤٦٥
- الملائكة معصومون من الذنب ٤٨٧
- المراد من مكالتهم عند بعثة آدم ﷺ ٤١٢
- كانت مكالتهم تلك لسان الحال ٤٨٥
- المراد من سجودهم لآدم ﷺ ٤١٣، ٤٦٥
- الملائكة عند بعثة آدم ﷺ كانوا أناساً متصفين
- بصفات الملائكة ٤١٨
- حتى المتصفون بصفات ملائكية لا يدركون حقيقة الانقلاب الحاصل بالمبعوث ٤١٣
- أري الملائكة الكُمل من نسل آدم كشفاً ٤٧٥
- أناس ذوو صفات ملائكية ٨٧
- لا يستشير الله ﷻ الملائكة ٤١٥، ٤٨١
- لا يعلم الملائكة صفات الله ﷻ كاملةً ٤٧٠
- يستحيل للملائكة بلوغ علم الإنسان الجامع والتنوع ٤٨٤

النبوة/النبوءات:

- النبوءات تدفع الناس للإيمان وتزيد المؤمنين إيماناً ٢٤١
نبوءات موسى عن بعثة النبي ﷺ ٢١، ٥٤٤ إلى ٥٥٦
نبوءة سليمان عن النبي ﷺ ٥٦٢-٥٦٣
نبوءة إشعياء عن بعثة النبي ﷺ ٥٦٤
نبوءة عيسى عن بعثة النبي ﷺ ٥٦٠
نبوءة المسيح ﷺ عن بعثة الرسول ﷺ في تمثيل الكرم ٥٦٨

- نبوءة في سورة النصر عن الفتح وإيمان الناس بكثرة ٢٣١
نبوءة في سورة الجمعة عن بعثة المسيح الموعود ﷺ ٢٢٤
في {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} نبوءة عن بعثة المسيح الموعود ٢٢٤
نبوءة عظيمة في آية {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ٧٠

- نبوءة انتشار المسيحية في آخر الزمان ٦٩
في {لَا رَيْبَ فِيهِ} نبوءة عدم نسخ القرآن ١٣٧

النبوة/النبي/الأنبياء:

- مقام النبي ٦٤، ١٢٧
النبوة تنتهي الترقيات الدينية ٥٩
ضرورة العمل رغم كون النبوة توهب هبة ٦٥
النبوة نعمة قومية ٥٣٩، ٥٣٨

- كل نبي يعطى شريعة سواء جديدة أو قديمة ٦٦٨
صدق دلائل الأنبياء ٦٦٩
حماية الأنبياء وتأبيدهم المعجز ٤١٣
عصمة الأنبياء قبل النبوة ٦٦٩
أمثلة تسخير نظام العالم للأنبياء ٤١٣
يبقى جانب الخفاء في معجزات الأنبياء ٦٨٤
يعطى النبي فهم كلام الله ﷻ ٢١٣

- كل نبي يُعطى فرقانا ٦٦٨، ٦٧١
النبي نموذج حي للكتاب النازل عليه ٢١٣
يعطى النبي أنباء عن النبي الآتي بعده ٤٧٨

- لا يكون النبي حائناً ٧٩٨
مقصد بعثة الأنبياء ٨٨
إقامة التوحيد على يد الأنبياء ٤١٢
إحياء الموتى على يد الأنبياء ٧٧٢

- الملائكة وإبليس ٤٩٨
نزول الملائكة استعارة ٢١٦
تواصل المسيح الموعود والمصلح الموعود مع الملائكة ٤٦٦
الملك:

- الفرق بين المالك والملِك ٣٩
المن والسلوى:

- المراد منهما الترنجيبين والفطر ٦٨٧، ٦٨٨
المن هو كل رزق يُنال بلا جهد ومشقة ٦٨٨
المنافق (انظر في النفاق)

المنعم عليهم:

- طائفة المنعم عليهم ٦٠
القرآن كتاب يهدي المنعم عليهم ٨٥
المهدي:

- نبأ ظهور مهديين كثيرين في الإسلام ٥٨٦
الموت:

- معاني الموت الستة ٦٨٢، ٣٩٧
الموت دليل على الحياة الأبدية ٣٩٨
الجهل من معانيه ٦٨٢
عقيدة الحياة بعد الممات تزيل خوف الموت ٥٩٦، ٥٩٥

الميت/الموتى:

- المراد من إحياء الموتى ٧٥٥، ٧٧٢
القرآن يعارض فكرة عودة الموتى إلى الدنيا ٦٨٣، ٧٥٤
رجوع الموتى إلى الدنيا يبطل غاية الإيمان ٦٨٤
رجوع الموتى إلى الدنيا يبطل بعض قضايا الدين ٦٨٤
دحض المسيح الموعود إمكانية عودة الموتى الحقيقيين ٧٦٠
مسألة قراءة "قل" والقرآن الكريم من أجل الميت ٥٨٣

الميثاق:

- المراد منه عشرة أحكام نزلت على موسى ٧٢٧
النار:

- من معاني النار تعليم رباني وآيات إلهية ٢٨٤
من معاني النار الحرب ٢٨٥
معنى إيقاد المنافقين النار ٢٨٤
المراد من خلق إبليس من النار ٤٤٨

- ٤٠٢ عقيدة نجاة البوذية
- ١٣٣ تعاليم الإسلام عن النجاة الأبدية
- ٧٢٤ لا يكفي الإيمان بالله واليوم الآخر فقط للنجاة
- ٨٠٢ الإيمان وحده لا يضمن النجاة
- ٨٠١ عقيدة النجاة عند شتى الديانات
- ٦٠٢ الرد على نظرية نجاة اليهود والنصارى
- ٤٠٠، ٤٠٢ الرد على عقيدة نجاة المسيحيين
- ٦١١ لم يعلّق المسيح ﷺ خلاصَ الناس بصلبه
- التدُّ:**
- ٣١٤ الفرق بين الند والمثل
- النذر:**
- ١٩٨ النذر وحكمه
- ٥٣٣ كان مشركو العرب يهودون بعض أولادهم نذرا
- نزامي:**
- ٣٣٢ اسم الإله في قبيلة بنتو الأفريقية
- النزول:**
- ٦٩٩، ٦٨٩، ٣١٧ معاني النزول في القرآن الكريم
- ٢١٤، ٢١٧ حقيقة نزول كلام الله من السماء
- ٢١٦ نزول الملائكة استعارة
- ٢٢٣ نزول الوحي بعد النبي ﷺ
- لم يرد في حديث صحيح تعبير "النزول من السماء" للمسيح الموعود
- ٦٩٨
- نشيد الأنشاد:** (انظر في الكتاب المقدس)
- النصارى** (انظر في المسيحية)
- النطفة:**
- ٤٣٨ {نُطْفَةٌ أَمْشَاجٌ} خاص بالإنسان فقط
- ٤٤٩ أول بشر تلقى الوحي خُلِقَ من "نطفة أمشاج"
- نظام الجماعة:**
- ٤٢٠ أهمية نظام الجماعة
- ٢٠٠ حكم الإنفاق لتوطيد نظام الجماعة
- النعمة:**
- ٥٨ مفهوم النعمة
- ٥٣٨ قسمان من نعم الله ﷻ
- ٦٥١ الأنبياء ينشرون وحي الله ﷻ لا أفكارهم
- لم يسمح للأنبياء السابقين بالروح ببعض الأسرار
- ٥٥٩ المنكشفة عليهم
- ٤٠ تظهر صفة الله المالك عند بعثة نبي
- يُظهر الأنبياء صفات الله ﷻ وفق ضرورة عصرهم
- ٤٥٧
- أُتس كالملائكة قبل بعثة النبي يصبحون أبالسة إنكاره
- ٤١٩ حتى ذوو الصفات الملائكة لا يدركون الثورة
- ٤١٣ المنوطة بالنبي
- ٤١٢ لا يفهم الناس ضرورة بعثة نبي قبل مجيئه
- ٧٨٨ يعدّ المعارضون النبي وليد العصر
- ٤٧٦ علاقة سفك الدم والفساد ببعثة الأنبياء
- فشل العدو في قتل أول أنبياء سلسلة روحانية
- وآخرها
- ٧٧٢
- ٢٢ يهلك مدعي النبوة الكاذب
- ٤٥٨ أنبياء غير مشرعين
- ٤٦١ النبوة التابعة تزيد من مقام المتبوع
- كيف يُبَيِّت نبي بعد النبي ﷺ مع كونه خاتم
- النبين؟
- ٦٢
- باب النبوة غير التشريعية لم يعلّق في الأمة المحمدية
- ٥٤٩، ٦١
- في سورة الفاتحة دعاء لنيل الأمة المحمدية نعمة
- النبوة
- ٦٠
- إذا كانت النبوة موهبة فلماذا ندعو؟
- ٦١
- ضرورة استمرار النبوة
- ٥٢٨
- نبوءة بعثة نبي في بني إسماعيل
- ٥٢٩، ٨٨
- لماذا نال بنو إسحاق النبوة قبل بني إسماعيل؟
- ٥٥٥
- الإيمان بالأنبياء السابقين يكون إجماليا
- ٢٢١
- ضرورة الإيمان بأنبياء بني إسرائيل وغيرهم
- ٢١٩
- دحض تمّ ألصقت في الكتاب المقدس بالأنبياء
- ١٣٠-٢٩
- نري أن كرشنا ورامتشندر من الأنبياء بحسب
- ٧٥١ القرآن
- ٢٩٥ المصائب وجماعات الأنبياء
- النجاة:**
- ٤٠٢ نظرية الهندوس عن النجاة

- نعماء الدنيا تمثيل لنعماء الآخرة ٣٧١
- النفاق:**
- علامات النفاق ٢٦٣
- قسمان للنفاق: عقديا وعمليا
- ٣٠١، ٢٩١، ٢٨٣، ٢٤٧، ٢٤٣
- اعتراضات المنافقين على النبي ﷺ ٢٦٦
- المراد من جعل المنافقين أصابعهم في آذانهم ٢٩٥
- أحوال المنافقين زمن النبي ﷺ ٢٦٥، ٥١٥
- مؤامرات المنافقين في المدينة المنورة ٢٦٥، ٢٦١، ٢٥٩
- الفتنة الأخيرة لمنافقي المدينة ٢٦٢
- أثر غزوة بدر على المنافقين ٧٦٥
- ضرورة انتباه الأحمدين لمكائد المنافقين ٢٦٨
- النفس** (انظر أيضا الإنسان):
- مفهوم خلق الإنسان من نفس واحدة ٤٥٣
- النكاح** (انظر في الزواج)
- نكران الجميل:**
- عند نكران قوم للنعمة تنتقل إلى قوم آخر ٧١٧
- النية:**
- لا بد من النية لوجه الله مع العمل الصالح ٨٠٤
- النية وحدها لا تجعل الإنسان قادرا على العمل الصحيح ٢١١
- صاحب النية الصالحة من يعمل بحسبها ٢١٠
- دور النية في ارتكاب السيئات ٧٩٥-٧٩٤
- الإرادة شرط للمواخذه على السيئات ٨٠١
- علاقة النية في التحريف ٧٨٢
- النيرفانا:**
- عقيدة نجا البوذية ٤٠٢
- المهجرة**
- قصة من هجرة النبي ﷺ ٤٩٣
- الهداية**
- وردت الهداية في القرآن بمعان مختلفة ١٤٦، ٥٠
- أربعة معانٍ للهدى عند الإمام الراغب ١١١
- النشر هداية عامة ٣٠٩
- الهداية الخاصة ينالها كل إنسان بالإلقاء ٣٠٩
- الهداية درجات لا متناهية ١٤٦، ٢٥-٥١
- سيتطور الإنسان بعد الموت أيضا معرفةً وهدى ١٤٧
- القرآن الكريم هدى للبشر كافة ١٤٩
- الهداية مركبٌ للمتمقي ٢٢٨
- من دعا بصدق: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}
- تيسرت له أسباب الهدى ٥٥
- كل حسنة تزيد صاحبها استعدادا لقبول الخير ٢٨٢
- ضرورة الإيمان بما نزل قبل القرآن لنيل الهدى ٢١٩
- ينال الهدى من يجنب فطرته من التأثير السيء ١٥٠
- لا فائدة من الهداية بالإكراه ١٥٠
- المراد من طلب النبي ﷺ الهداية ٥٢
- الهدية:**
- الهدية تزيد المحبة والضيافة أحسنُ صورها ٢٠٤
- الهندوسية:**
- نظرية الهندوسية عن خلق الكون ٤٠٢
- بيائها عن بدء خلق الإنسان ٤٣١
- عقيدة التناسخ الهندوسية والرد عليها ٤٨، ٣٦
- نظرية الهندوسية عن خطيئة الإنسان ١٣٢
- تصور اللجنة عند الهندوسية ٣٧
- تأكيد كتب الهندوس أن عصر التوحيد كان قبل الشرك ٣٢٦
- الرد على قلم ألصقت بكرشنا ١٢٨
- رسالة صلح من المسيح الموعود ﷺ إلى الهندوس ٧٥١
- الوالدان:** (انظر أيضا الأولاد)
- الأمر بالإحسان إلى الوالدين ٢٠٢
- يولد الولد بخصال الوالدين كليهما ٦٠٩
- الوتر:** (انظر في الصلاة)
- الوثنية:** (انظر في الشرك)
- الوحي:**
- بدأ الله ﷻ يحكم على عباده بالإلهام ٤٠٥
- أول من نزل عليه الوحي هو آدم ﷺ ٨٧
- الحياة الروحانية محال بدون الوحي ٣٢٤

- ٣٢١ عقل الإنسان ناقص دون الإلهام
- ٥١٩ الأدعية الإلهامية تجذب فضل الله أكثر
- ٣٢٠ تشبيه الوحي بالمطر
- ٦٦٩ تحقق رؤيا أو إلهام لا يثبت أهما من الرحمن
- ٣٥٥ ادعاء مسيئة الكذاب للإلهام وهلاكه
- ٢٢٣ المراد من الآخرة ما يوحى بعد النبي ﷺ
- سبب ورود "الإيقان" للوحي القادم و"الإيمان"
- ٢٢٤ للوحي السابق
- ٣٢٤ دعوى المسيح الموعود ﷺ بتلقي الوحي
- ٣٢٤ دعوى المصلح الموعود ﷺ بتلقي الوحي
- ٢٢٧ جميع الأديان دون الإسلام أغلقت باب الوحي
- ١٤٨ تشترط المسلمين في كل عصر بالوحي مشافهة
- ٣٢٣ أسباب إنكار فلاسفة أوروبا للوحي
- الوضوء:**
- ١٦٩ الطريقة الإسلامية للوضوء
- عند عدم توفر الماء ينوب التيمم مناب الوضوء
- ١٧١، ١٧٠
- أهمية الوضوء لتركيز الأفكار في الصلاة
- ١٧٠
- طريقة الوضوء للصلاة
- ١٦٩
- اليقين:**
- ١٢٧ الوحي يزيد المرء يقينا ومعرفة
- يهو:**
- ٣٣٣ اسم الله ﷻ الوارد في التوراة
- اليهودية** (انظر أيضا بنو إسرائيل)
- ٥٣٦ بداية استخدام لفظ اليهود ثم اتساع معانيه
- ٧١٣ بعد داود دُعي جزء من بني إسرائيل يهوديا
- ٥٣٢ دخول شعوب أخرى في اليهودية
- ٥٣٣ كان مشركو العرب يهودون بعض أولادهم نذرا
- ٧٩٧ ضاع كتاب اليهود المنزل في زمن نبوخذ نصر
- ٤٢٥ لم يرد تفصيل صفات الله ﷻ في اليهودية
- عقيدة البعث بعد الموت كانت موجودة في اليهود
- ٧٩٥، ٧١٩، ٦١٤ قبل عيسى
- ٤٠٢ جعل اليهود الدنيا غايتهم
- الرد على نظرية اليهود عن النجاة
- ٥٩٩، ٦٠٢، ٦٠٤
- ١٣٢ الإنسان ركن أساسي للدين كونه مهبطا للوحي
- ٢٢٥ لا ينزل الوحي إلا على المتطورين المقربين
- ٢١٤ حقيقة تعبير نزول الوحي من السماء
- ٥٥٨ الوحي النازل على النبي ﷺ هو كلمات الله ﷻ
- ٣٢٣ أسباب إنكار فلاسفة الغرب للوحي
- جبريل ينزل بكلام الله وسمي روح القدس في
- التوراة
- ٢١٥
- ١٢٧ يتلقى الإنسان كلام الله ببركة اليقين والمعرفة
- محال التعارض بين فعل الله ﷻ وقوله
- ٤٠٤
- ضرورة الوحي بعد آدم ﷺ
- ٨٧
- المطر. بمعنى الوحي الإلهي
- ٣٢٠
- معنى نزول الوحي من السماء وفق القرآن والتوراة
- ٢١٥، ٢١٤
- ٣٩٦ إنكار الوحي كفر
- ٢٨٤ تشبيه النار بالوحي
- ١٢٧ الإلهام ينزل لفظا ولا ينشأ من المخيلة
- ٦٦٩ أقسام مختلفة للإلهام
- ٦٦٩ الفرق بين إلهام نبي وغيره
- ٥٥٧ الفرق بين وحي النبي ﷺ والأنبياء الآخرين
- اضطراب قلوب الأنبياء المطهرة يستلزم نزول
- الإلهام الإلهي
- ٦٥
- ٢٢٥ الوحي في الأمة المحمدية
- ٥٢٨ ضرورة الوحي والإلهام
- ١٢٧ الوحي يزيد المرء يقينا ومعرفة
- ٣٤ ضرورة نزول الوحي لهداية العالم أجمع
- ٤٠٤ الوحي مقتضى خلق العالم
- ٣٢٢ جميع الأديان المعاصرة تؤمن بالوحي
- ٤١١ جميع الأديان تقول بنزول الوحي في بداية الخلق
- ٤٤١-٤٤٠ أول إنسان نزل عليه الوحي هو آدم ﷺ
- عُلم آدم صفات الله واللغة وخواص الأشياء
- ٤٨٦ بالوحي الجملي والخفي
- ٥٥٣ نزول الإلهام على هاجر عليها السلام
- ٨٨ تغير مركز الوحي بسبب تمرد بني إسرائيل
- يُستخدم المجاز والتشبيه والاستعارة في الوحي
- ٥١٠ بكثرة

- دحض عقائد اليهود: الشفاعة والكفارة والفدية
٦٠٤-٦٠٥، ٦١٣-٦١٦
- عقيدة اليهود عن الثواب والعقاب ٦١٣، ٧٩٩
- أضحية البشر عند اليهود ٦١٢
- أسباب كون اليهود المغضوب عليهم ٦٩، ٧٢١
- تصرفات خاطئة لعلماء اليهود ٧٩٣
- تحريف اليهود كلام الله متعمدا ٧٨٢
- لا يطالع اليهود كتبهم بالتدبير ٧٩٠
- غلو اليهود وإساءتهم إلى السبت ٧٣٧-٧٣٨
- كنمان اليهود الحق ٥٨٦
- انحطاط اليهود خلُقاً ٧٨٤
- دعوى اليهود بأفضليتهم بدون دليل ٨٠١
- لا يوثق باليهود ٧٨٢
- تتجر قلوب اليهود ٣٥٨
- عقيدة اليهود في صلب المسيح ﷺ ٧٦٢
- فشلهم إزاء المسيح ﷺ ٢٢٩
- بهتان اليهود على المسيح ﷺ ١٣٠
- حقيقة كون اليهود قردة ٧٣٨-٧٤١
- نبوة إشعيا بعدم إيمان اليهود بالنبي الموعود ﷺ ٥٦٦
- البسملة حجة على اليهود ٢٢
- كان اليهود معترفين بصدق الإسلام في قلوبهم ٧٨٤، ٥٨٤
- شهادة بعض اليهود عن كمال القرآن الكريم ١٤٥
- تحريف اليهود معاني آيات القرآن الكريم ٧٨٣
- كفر اليهود بالنبي ﷺ من أجل الدنيا فحسب ٥٨٤
- مؤامرة اليهود لاغتيال النبي ﷺ ٧٦٩
- محاولة تسميم اليهود النبي ﷺ ٧٦٩
- سوء سلوك اليهود مع المسلمين ٧٨٣
- اليهود أعداء المسلمين سياسياً ومدنياً ٧٨٤
- مضرات عدم قبول اليهود الإسلام ٥٩٣
- أثر اليهود سياسياً في المدينة قبل الإسلام ٢٦٠
- أثر غزوة بدر في يهود المدينة ٧٦٥
- مؤامرة اليهود مع المنافقين ٢٦١-٢٦٢
- الشياطين بمعنى رؤساء يهود المدينة ٢٧٥
- حسن ظن بعض المسلمين في ادعاء اليهود للصلح والأمن ٧٨٢
- فتنة بني قينقاع ونفيهم ٧٦٦-٧٦٧
- تمادي بني النضير وبني قريظة في شرهم ٧٧٥
- جرائم قومية من قبل يهود المدينة ٧٦٥
- جواز قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق ٧٧٠، ٧٦٥
- المراد من دعاء الوقاية من فتنة اليهود ٧١

(٢)

فهرس الأسماء

فهرس الأسماء

آبيس (إله مصري)

٧٤٣

آدم عليه السلام:قصة خلقه عليه السلام في التوراة

٤٣٠

بيان خلق البشر في كتب الهندوسية

٤٣٠

توضيح المسيح الموعود لخلق آدم

٤٥٠

لم يكن آدم عليه السلام أول إنسان

٤٥١، ٤٤٣

عند بعثة آدم كانت هناك عقول متطورة سواء أيضاً ٤١٨

٤٤٥

كان مع آدم أتباعه في الجنة

٤٤٥

كانت جنة آدم في هذه الدنيا

٤١٥

مولد آدم وجنته في العراق

٥٠٣

ست مبادئ للتمدن في تعاليم آدم

٤٥٥

ضرورة الكلام الإلهي بعد آدم

٨٧

المراد من خلافة آدم

٤٠٩

آراء المفسرين السابقين عن خلافة آدم

٤٠٩

نظريتان عن خلافة آدم

٤٠٩

كان آدم عليه السلام أول بشر تلقى الوحي ٨٧، ٤٤٠، ٤١١

٤١١

كان حلقة أولى من تطور العالم الروحاني ٨٧، ٤٠٤

٨٧، ٤٠٤

آدم أول نبي بواسطته جُعل الإنسان تابعاً للشرع ٤٢٠

٤٢٠

هو الحلقة الأولى للنظام الإنساني

٤٢٩

الأسماء التي تعلّمها هي صفات الله

٤٦٩

مفهوم تعلّمه الأسماء كلها

٤٧٣

نال آدم بالوحي علم صفات الله واللغة وخواص

٤٨٦

الأشياء

٤٨٦

علّم الله عليه السلام آدم أصول اللغة الأساسية

٤٧١

عُرِضَ الكُتْمَل من نسله أمام الملائكة كشفاً ٤٧٥

٤٧٥

حقيقة الحوار بين الله والملائكة عن بعثة آدم ٤١٢

٤١٢

كان الحوار بين آدم والملائكة بلسان الحال ٤٨٥

٤٨٥

المراد من السجود لآدم ٤١٣، ٤٨٩

٤١٣، ٤٨٩

الشيطان أغوى آدم وإبليسُ رفض السجود له ٤٤٨

٤٤٨

كيف وقع آدم في مكر الشيطان ٥١٤، ٥١٦

٥١٦، ٥١٤

فيم أزلّه الشيطان؟

٥١٧

آدم عليه السلام والشجرة المنوعة

٥٠٧

لم يخطئ آدم عمداً

٥١٤، ٤٩٦

دعاء آدم أمام الله عليه السلام ٥١٩

دحض القرآن كلّ تهمة وُجّهت لآدم ١٢٩

غرض بيان تفصيل قصة آدم ٤٨٤

في قصة آدم عبرة لكل مسلم ٥٢٢

قصة آدم تلفت أنظار المسلمين إلى النبي عليه السلام ٥٢٣

آرنتا (قبيلة أسترالية) ٣٣٢

التجيرا (قبيلة أسترالية) ٣٣٢

آنو (إله بابلي) ٤٣٤

إبراهيم عليه السلام:كان مولد إبراهيم عليه السلام العراق ٥٠٣

كون إبراهيم إماماً يعني أنه من الأنبياء أولي الأمر ٥٤١

كان إبراهيم موحداً ٣٣٤

اضطرار قلب إبراهيم استلزم نزول الصحف عليه ٦٥

حُبُّ إبراهيم للخلق ٢٠٧

نجاة إبراهيم من النار ٤١٣

دحض القرآن لكل تهمة وجهت إلى إبراهيم ١٢٩

ضيافة إبراهيم ٢٠٤

عادة الختان في نسل إبراهيم ٥٥٥

دعاء إبراهيم لمكة والكعبة ٨٩

إعادة بناء الكعبة على يدي إبراهيم ١٨١

وعد النبوة والملوكية في نسل إبراهيم ٥٣٨

نبوءة تطهير نسل إبراهيم في أربعة عصور ٩٤

نبوءات إبراهيم ٥٥٣

دعاء إبراهيم لبعثة نبي في مكة ٨٣

نبأه عن بعثة نبي في آل إسماعيل ٥٢٩

تحقق نبوءات إبراهيم لإسماعيل في النبي عليه السلام ٥٥٦

أعطى وعوداً لبني إسحاق وبني إسماعيل ٨٨

فضل الله على بني إسرائيل لما وعد مع إبراهيم ٨٨

حُكْم كنعان علامة عهد إبراهيم الظاهرية ٥٥٦

أَبَسُو (إله بابلي) ٤٣٤

ابن أبي حاتم ٦٩٨

ابن عباس عليه السلام

رأيه في المقطعات ١٠١

٦٥٦، ٦٣٢	أدولف لورد المؤرخ	٧٣٩	قول ابن عباس في مسخ اليهود
٦٩٨	أسامة بن زيد رضي الله عنه	٦٧٩	ابن عبد الله بن أبي بن سلول نموذج إيمانه
٥٣٠	إسحاق عليه السلام	١٨	ابن مسعود رضي الله عنه
٥٤٩	علاقة إسحاق بالعهد الإبراهيمي	١١	أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه
٥٢٥	إسرائيل	٣٣٩	أبو البقاء
٥٢٥	إسرائيل لقب يعقوب عليه السلام	١٠	أبو بكر الأنباري
	إسكندر الأكبر	٣١٠، ١٩١	أبو بكر الصديق رضي الله عنه
١٣٦	كسر الاسكندر الأكبر قوة الديانة الزرادشتية	٦٧٤، ٣٣٩	أبو حيان المفسر
	إسماعيل عليه السلام :		أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي قتله
٥٦٥	معنى إسماعيل	٧٦٧، ٧٦٥	
٨٨	ترك في واد غير ذي زرع	١٨، ١٢، ٣	أبو سعيد الخدري رضي الله عنه
٥٥٣	بشارات هاجر عن إسماعيل	٤٩٧، ٢٨٥	أبو سفيان
٥٥٣	نبوءات إبراهيم عن إسماعيل	٧٤٠، ١٠٨، ٩	أبو العالية
١٨١	إعادة بناء الكعبة بمساعدة إسماعيل	١٨	أبو علي النحوي
	إشعيا النبي	٢٥٤	أبو الغول الطهوي الشاعر
٥٦٦، ٥٦٥، ٥٦٤	نبوءته عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم	٤٤٩	أبو لهب
٦٦٢	أفرايم السرياني (مفسر التوراة)		أبو مالك المفسر
	الإمام الحسين رضي الله عنه	٧٤٠	تفسيره لـ (كونوا فرقة خاسئين)
٢٢٩	نجاح الحسين إزاء يزيد مع استشهاد	٥٨٩	أبو منصور الثعالبي
	الشرح الذي قدمه الحسين لنظام الإسلام صار هو	١٢	أبو نعيم
٢٢٩	المقبول	١١٣، ١١، ٩، ٣	أبو هريرة رضي الله عنه
٤٩٠	امروء القيس	٩٩	أبو ياسر بن أخطب الخير اليهودي
٦٥٤	أمنحوب الملك المصري	١١، ٦	أبي بن كعب رضي الله عنه
٤، ٢	أنس رضي الله عنه	٧٩٩	أبيرام
	أنكولنكرولو	٦٤٤	أتون (إله مصري)
٣٣٢	إله قبيلة زولو الأفريقية	٢٢٥	أحمد السرهندي رحمه الله
٢٦٠	الأوس	٦٤٥	أخناتون
	أيوب عليه السلام	٢٨٧، ٢٨٦، ١٦	الأخفش النحوي
٦١٥	توضيحه للبعث بعد الموت		
	ايوونا ويلونا		
٣٣٠	إله سكان المكسيك القدماء		

- براهما (إله الهندوس) ٣٣٣، ٤٣٣
- برغش المؤرخ ٦٣٠
- برميشور (إله الهندوس) ٣٥، ٣٣٣
- بريستيد المؤرخ (Breasted): ٦٤٤
- بشير الدين محمود أحمد صاحب هذا التفسير (المصلح الموعود ﷺ الخليفة الثاني للمسيح الموعود ﷺ)
- تلقيه الوحي مئات المرات ٣٢٤
- تجربته الشخصية مع الملائكة ٤٦٦
- رؤياه عن تعلم معاني الفاتحة ٨
- إلقاء رباني عليه عن تفسير سورة البقرة ٨٣
- بحثه ﷺ في المقطعات ١٠٢
- قوله: بعض أسرار المقطعات منوطة بالمتصلين بالقرآن ١٠١
- بطرس الحواري ١٣١، ٢٧٥، ٧٩٧
- بنتو (قبيلة أفريقية) ٣٣٢
- بنشيرا Panthera (جندي روماني) ١٣٠
- بنو إسحاق ٨٨
- سبب نيل بني إسحاق النبوة قبل بني إسماعيل ٥٥٥
- ظلوا حَمَلَةً قنديل الدين لعصور طويلة ٥٥٠
- عداوة بني إسحاق لبني إسماعيل ٥٥٤
- بنو إسرائيل:**
- تاريخ بني إسرائيل ٥٢٥
- دحض الزعم أنهم لم يذهبوا إلى مصر ٦٣٢-٦٣٣
- حياتهم في مصر كالعبيد ٦٢١
- قتل أبناءهم بأمر من فرعون ٦٢١
- طريق ذهابهم من مصر إلى كنعان ٦٢٨
- تفصيل انشقاق البحر من أجلهم في التوراة ٦٢٣
- تفصيل مكان مجاوزتهم البحر ٦٣٦
- تمرد عشر قبائل إسرائيلية بعد سليمان ٥٣٤
- إسرائيل ويهوذا سلطنتان متحاربتان ٥٣٥
- تشريد نبوخذنصر لهم في فارس وأفغانستان
- وكشمير ٧٦٤
- دُعوا باسم اليهود بعد داود ﷺ ٧٨٦
- من أسلم أو تنصر من نسل يعقوب عُدَّ إسرائيليًا ٥٣١
- منة الله عليهم ٦٢١
- نالوا نعمتي النبوة والملك ٥٣٨
- أنبياء غير تشريعيين فيهم ٤٥٨
- نوعية خلفائهم ٤٥٨
- إقامة ملكهم على يد داود ٥٣٤
- الوعد الإلهي لهم بحكم كنعان ٥٤٠
- معنى قول الله لهم: (وَأَنَا كَمَا لَمْ يَأْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) ٥٨-٥٩
- موهبتهم الفطرية ٧٢١
- أفضليتهم كانت مخصوصة بزمينهم ٣١
- معنى قتلهم الأنبياء ٧١٠
- السبب الأساسي لإثمهم ٧١١
- كفرهم بسماع كلام الله ﷻ ٥٤٥
- مطالبتهم رؤية الله ﷻ جهراً ٦٨١
- نقضهم العهد ٥٤٢
- قصة عبادتهم العجل ٦٣٧
- تعظيمهم البقرة ٧٤٩، ٧٤١
- أُمروا بذبح البقرة ذراً للشرك عنهم ٧٤٥
- معنى رفع الطور فوقهم ٧٢٩
- تظليل السماء عليهم يعني المطر ٦٨٦
- المن والسلوى لبني إسرائيل ٦٨٧
- الجانب الروحاني للعهد الإسرائيلي هو تركية القلب ٥٤٧
- أُمروا بالإيمان بآخر الوحي ٥٩٦
- انتقال مركز الوحي عنهم ليغيهم المتكرر ٨٨
- انتقال النعمة منهم إلى بني إسماعيل ٥٤٥
- كفرهم برسول الله ﷺ جراء الحسد ٨٨
- سبب النصح القرآني لبني إسرائيل ٥٩٣
- سبب ذكر بني إسرائيل بعد قصة آدم ٥٢٩
- يجوز نقل قصصهم دون تصديق أو تكذيب لها (ابن كثير) ٧٥٦
- بنو إسماعيل ٨٨**
- كانوا شركاء في العهد الإبراهيمي ٥٥٦
- نبوءة كون بني إسماعيل بدوا ٥٦٥

- ٥٥٣ نبوءات رقي بني إسماعيل في التوراة
- ٥٢٩ نبوءة بعثة نبي في بني إسماعيل
- ٨٨ النبوة في بني إسماعيل
- تحقق نبوءات إبراهيم عن بني إسماعيل في شخص النبي ﷺ
- ٥٥٦ انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل
- ٥٤٤ سبب تلقيهم النبوة بعد بني إسحاق
- ٥٥٥ سبب حرمانهم من نعمة النبوة لفترة طويلة
- ٥٥٠
- ٦١٢ **بنو عمون**
- ٧٧٥، ٢٦٠ **بنو قريظة**
- ٧٧٥، ٢٦٠ **بنو قينقاع**
- ٧٦٧، ٧٦٦ نفى بني قينقاع
- ٥٣٣، ٢٦٠ **بنو النضير**
- ٧٦٩ مؤامرتهم لقتل رسول الله ﷺ
- ٧٧٥ تمادىهم في الفساد
- ٧٦٧ الأمر بقتل رئيسهم
- ٥٣٣ دخول أولاد العرب فيهم
- ٥٣٤ بني امين (قبيلة يهودية)
- ٣١٧ **بهم سين الهندوسي**
- ٢٠٧ **بوذا ﷺ**
- ١١٨ تعليمه الناقص
- ٧٩٧، ٧٦٣، ٧٣٦، ٦٠٧ **بولس**
- ٥٣٣ **تاسيتوس Tacitus** المؤرخ
- ١٣٨ **تلسي رام سوامي** البانديت
- ٥٩٠ **ثعلب اللغوي**
- ٦٨١ **ثمود**
- ٤٣٤ **ثيامه** (الهة بابلية)
- ٩٩، ٣ **جابر بن عبد الله ﷺ**
- جرانت أيلن** الفيلسوف
- ٣٢١ نظريته عن الله ﷻ
- ٢٩٣ **جعفر بن علبة الحارثي** الشاعر
- ٤٨٦ **جلال الدين لكهوني** الشاعر
- ٢٢٥ **جنيد البغدادى** رحمة الله عليه
- ٧٩٩، ٧٠٣، ٦١٣، ٢١٤ **جورج سيل** المستشرق
- ٥٣٢ **جوزيفيس** المؤرخ
- ١٣٨ **جي ديوشرما** البانديت
- ٧٥٥ **الحارث بن حلزة** الشاعر
- ٢٢٥ **حسن البصري** رحمه الله
- الحسين ﷺ** (انظر في الإمام الحسين)
- ١٠٠ **حيي بن أخطب** اليهودي
- خديجة** رضي الله عنها
- ٣٨٢، ٣٨١ **تضحيتها المالية**
- ٢٨٨، ٢٦١، ٢٦٠ **الخزرج**
- ٦٩٨ **خزيمة بن ثابت** ﷺ
- ١١ **خوات بن جبير**
- ٦١٣ **داثان** (عدو لموسى ﷺ)
- داروين**
- ٤٣٤ **الرد على نظريته عن التطور**
- دانيال ﷺ**
- ٥٧١ نبوءته عن دمار القوى العظمى على يد النبي ﷺ
- ٥٦٦ تصديق نبوءته من القرآن الكريم
- داود ﷺ**
- ٤٤١ هو خليفة الله ﷻ
- ٥٦٦ القرآن يصدق كلامه
- ٥٣٥ قيام دولة بني إسرائيل على يده
- ٦١٤ تصرىحه عن الحياة بعد الموت
- ٦٣٠ **دوبائي آمي** المؤرخ
- ٥٣٣ **ديكاسيوس Diocassious** المؤرخ
- ٤٨٥، ٤١٧ **راجز** الشاعر
- ٧٥٧، ٣٥٥ **الرازي** الإمام

٥٣٧	السامريون	الراغب الأصفهاني (١١١، ١١٢، ٢٤٢، ٤٠٦،
٦٣٠	ستيكل المؤرخ	٤٠٨، ٤٩٠، ٥٨٩، ٧٠٠، ٧٠٦، ٧١٢
	ستينغ البروفيسور J.F.Stanning	١٢٨
٦٩٥	رأيه عن تناقضات الكتاب المقدس	هو ني وفق تعاليم القرآن (المسيح الموعود ﷺ) ٧٥١
	سعد بن عبادة ﷺ	٢١٩
٦٧٣	تحلفه عند انتخاب أبي بكر ﷺ	٥٧٨
٦٩٨	سعد بن مالك ﷺ	٢٠٧
٦٩٨	سعيد بن جبير	٤١٤
٨	سعيد بن المعلى	ربيع المفسر ٧٤٠
٧٣٣، ٧٦٥	سلام بن أبي الحقيق اليهودي	ربيع بن أنس ٦٨٣، ١٠٨
٢٢٤	سلمان الفارسي ﷺ	رحبام بن سليمان ﷺ ٥٣٤
٧١٣، ٥٣٤	سليمان ﷺ	رحمن اليمامة (مسيلمه الكذاب) ٣٦
٦٦٢، ٢١	رسالته ﷺ إلى ملكة سبأ	رمسيس الثاني ٦٢١
١٣٠	أقام التوراة له ﷺ	روبرتسن سميث
٥٦٢	القرآن يصدق كلامه	نظريته عن الله ﷻ ٣٢١
٥٦٢	نبوءته عن بعثة النبي ﷺ	رود ويل المستشرق ٧٢٩، ٢٤
١٢٨	سيتا جي (زوجة رام تشندر)	روشن علي الحافظ ٣٠١
١٣٨	سيته برت سام شرمى البانديت	زرادشت ﷺ ٢٥
٦٤٤، ٦٣٤، ٤٩، ٤٨	سيجموند فرويد	ضرورة الإيمان به ٢١٩
	شتروبا	صدقه ٥٧٨
٤٣٣	المرأة الأولى عند الهندوس	حبه للخلق ٢٠٧
	شلاييدن المؤرخ	بجاحه رغم العداوات ٤١٤
٦٣٠	يرى أن موسى عبر البحر الأبيض	زكريا ﷺ ٤٢٨، ٢١٩
٢٢٥	شهاب الدين سهروردي رحمة الله عليه	الزخشري المفسر ٦٧٤، ٥٨٢، ٢٧٧، ١٦
٣٨٣	صهيب الرومي ﷺ	الزهري ٩
٧٧٣، ٧٦٦	طلحة بن براء ﷺ	زولو (قبيلة أفريقية) ٣٣٢
٦٨١	عاد	زيد بن عمرو بن نفيل
٦٠٥	عاموس النبي	كان تابعا لدين إبراهيم لكن لم يؤمن بالنبي ﷺ ٤١٩
١٢، ١١، ٢	عبادة بن الصامت ﷺ	السامري
		هو اتخذ العجل لا هارون ﷺ ٦٣٩، ١٣٠

- ١٠١ العباس بن المأمون
- ٢٢٦، ٢٢٥ عبد القادر الجليلي رحمه الله عليه
- ٢٦١ عبد الله بن أبي بن السلول رئيس الخزرج
- ٦٧٨ إثارته الفتنة في غزوة بني المصطلق
- ٢٧٣ موته متحسرا وقبول ابنه الإسلام
- ٦٧٩ قوة إيمان ابنه
- ٣٧١، ٢٧٩، ١١ عبد الله بن العباس ؓ
- ١١ عبد الله بن عمر ؓ
- ١١ عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ
- ٢٧٦، ٩٩، ١٠ عبد الله بن مسعود ؓ
- ١١ عثمان بن أبي العاص
- عثمان بن عفان ؓ الخليفة الثالث الراشد
- ٤٦٠، ٣١٠، ٦٥
- ٥٥٤، ٥٣٦ عزرا النبي
- ٧٦٧ أُملى التوراة بناء على حفظه
- ٥٣٥ عزيز نبي إسرائيلي
- ٩ عطاء
- ٥٣٣ عقيلة بنت أبي الحقيق
- ٤٦٠، ٣١٠، ٦٥ علي بن أبي طالب ؓ
- عمر بن الخطاب ؓ
- ٦٧٣، ٣١٠، ٤٦٠، ٦٥، ١١
- ٢٣٤ قصة إسلامه
- ٨٢ طلبه من لبيد أن يسمعه شعره
- ٢٥٤ عمرو بن كلثوم
- ٦٤٤ عمون هوتب (الملك المصري)
- عيسى بن مريم المسيح ﷺ
- المراد {وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ} بعثة عيسى
- ٥٦١ ﷺ
- ٥٦٩ معنى تسميته ابن الله
- ٣١٢ تعاليمه
- ٣٢٧ علّم التوحيد
- ٤٥٩ قوله "لَا تَطْنُوا إِلَيَّ حَتَّى لَا تُقْضَ التَّائُمُوسُ"
- ٤٧٦ معنى قوله: "مَا حُتُّ لَأَلْفِي سَلَامًا بَلْ سَيْفًا"
- ٤٤٢ شبهه بآدم عليهما السلام
- ٤٥٨ هو آخر الأنبياء في السلسلة الموسوية
- ٥٧١ أرسل ﷺ إلى بني إسرائيل فقط
- ٥٧٤ كان مبشراً بالرسول الكريم ﷺ
- ٥٥٩ نبوءة مبعث خاتم النبيين ﷺ
- ٥٦٨ نبوءته عن بعثة النبي في تمثيل الكرم والكرامين
- ٢٠٧ حبه للخلق
- ٢٢٩ نجاحه مقابل اليهود
- ٥٣٦ هو ملك اليهود
- ٦٠٧ هو وأمه ليسا وهدما معصومين من مس الشيطان
- ٦٠٩ دحض عصمته من "الخطيئة الموروثة"
- ٥٧٢ نبوءة النبي الأُمى لا تنطبق عليه
- ١٣٠ دحض القرآن التهم التي وجهها له اليهود
- ٣٨٠ لم يسئ إليه المسلمون قط
- ٦١٢ وعده بإراءة آية كآية يونان النبي
- ٧٦٢ آراء مختلفة في قصة الصلب
- ٦١١ لم يعلق على الصليب برضاه
- ٦١١ أدعيته للنجاح من الصليب
- ٣١٧ تدبير إلهي لنجاته من الصلب
- ٤١٣، ٣١٧، ٢٢٩، ١٣١ نجاة من الموت على الصليب
- ٦١٢ لم يمت على الصليب
- حقائق بينها المسيح الموعود عن نجاته المسيح من
- ٧٦٢ الصليب
- ٣٨٣ مجيئه الثاني
- تقسيم ميراث الله عند مجيئه الثاني وفق الكتاب
- ٢٥٧ المقدس
- ٥٠٦ غاندي
- غلام أحمد ميرزا القادياني المسيح الموعود ﷺ
- ٣٢٤ دعواه بالوحي والإلهام
- ٤٦٦ علاقته بالملائكة
- ٥٥٧ هو مثيل عيسى
- ٦٧١ أعطي فرقاناً

- تشرفه بالنبوة التابعة للنبي ﷺ ٤١٦
- حمائته وداره من الطاعون ٣١٧
- حمية الله له عند سقوط السقف في سيالكوت ٣١٧
- حماسه المنقطع النظير لعزة النبي ﷺ ٧٥١
- علمه الله أربعين ألفاً من اللغات العربية ٤٧٩
- نموذج منقطع النظير لتفسيره القرآن ١٥١
- تفسيره ﷺ لـ "العالمين" ٣١
- تفسيره ﷺ لـ "وقودها الناس والحجارة" ٣٥٨
- تفسيره ﷺ لـ {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى} ٧٦٠
- تحريف مسيحي للإنجيل بعد نقده ﷺ ٦١٠
- حقائق بينها عن نجاة المسيح من الصليب ٧٦٢، ٧٦٣
- دحضه عقيدة الفداء المسيحية ٦١٠
- رسالته ﷺ إلى الهندوس للصلح ٧٥١
- عدّ ﷺ كرشنا ورامتشندر من الأنبياء ٧٥١
- سعيه لإحازة يوم الجمعة ٧٣٧
- يرى ضرورة قراءة الفاتحة خلف الإمام ١٢
- حواره مع فلكي أسترالي عن خلق آدم ٤٥٠
- شبه أتباعه بأتباع المسيح ٧١٤
- النصرة الإلهية الخارقة لجماعته ٧٢٣
- لن يغلب المسلمون إلا إذا تعلقوا به ٧٢٤
- غوثم بوذا** (انظر في بوذا)
- فاطمة** رضي الله عنها
- زواجها ببساطة ٣٨٢
- الفراعنة**
- رعمسيس الثاني كان فرعون مصر عند ولادة ٢٠٤
- موسى ٦٢١، ٧٤٤
- سبب اختيار موسى طريق الشاطئ عند الخروج ٦٢٩
- منفتح هو الذي غرق عند ملاحقته موسى ٦٣٢
- تشبيه المؤمنين بامرأة فرعون ٦٦
- فلاس تارجي ايس** المؤرخ ٦٥٣
- فريزر** الفيلسوف
- نظريته عن وجود الله ﷻ ٣٢١
- قتادة** المفسر ٦٨٣، ٧٤٠، ٤٠٩، ٢٧٦، ٩
- القرطبي** المفسر ٤، ١٠، ١١، ٧٦، ٤٠٩، ٧٥٦، ٦٨٣، ٦٦٧، ٤١٠
- قريش:**
- تحريض كعب بن الأشرف قريشا على المسلمين ٧٦٥
- قيصر الرومي**
- تآمر منافقي المدينة مع قىصر ضد النبي ٢٦٢
- كاكاو** (فرعون مصر) ٧٤٣
- كرشنا**
- هو نبي بحسب تعليم القرآن ٧٥١
- ضرورة الإيمان به ٢١٩
- صدقه ٥٧٨، ٢٢٢
- تعليم التوحيد في كتابه "غيتا" ٣٢٦
- خدمته للخلق ٢٠٧
- انتصاره على أعدائه ٤١٤
- دحض التهم الموجهة إليه ١٢٨
- الكرماني**
- كعب بن الأشرف** اليهودي ٧٦٥
- جرائم كعب بن الأشرف ٧٦٥
- حكم القرآن بقتله ٧٧٠
- كان كعب من العرب ٥٣٣
- كنغو** (شخصية أسطورية بابلية) ٤٣٤
- كنفيوشس** ﷺ
- خدمته للخلق ٢٠٧
- كنوبل** المؤرخ
- رأيه عن طريق سفر خروود موسى ٦٣٠
- كنور سين** الهندوسي ٣١٧
- ليبد بن ربيعة** الشاعر
- تأثر بفصاحة سورة البقرة وبلاغتها ٨٢
- لورنس غوم**
- نظريته عن الله ﷻ ٣٢١
- لوط** ﷺ

٢٢	البسمة هي أحد دلائل صدقه ﷺ	٢٠٤	إكرامه للضيوف
٥٨٤	اعتراف علماء اليهود بصدقه ﷺ	ماتيو بول Methew Pool	
٢١٩	معجزته ﷺ العظيمة	١٣٢	فسر الكتاب المقدس
٤٢٣، ٥٢٣	تجليه ﷺ في خلق آدم ﷺ	مارتن كلارك الدكتور (Dr. Martin)	
٥٥٠	كونه خاتم النبيين ﷺ	٦٤٨	clarck)
٥١٥	هو ﷺ سيد ولد آدم وآخر الأنبياء	٧١٥	مأمون الرشيد
٦٢	إمكانية بعثة نبي بعد خاتم النبيين ﷺ	٧٥٦، ٦٨٤	المواردي
٢٢٣	نزول الوحي بعده ﷺ	٢٤٥	المتنبي الشاعر
٤٠	ظهور صفة الله المالكية في عصره ﷺ	٧٤٠، ٦٦٧، ٣٣٧، ٢٧٦، ٩	مجاهد المفسر
٨٠	في السور الأوائل أعده الله لحمل النبوة العظيمة	٥٦٣	محمد بن أحичة
٤٧٤	بلغ علمه ﷺ بصفات الله المنتهى	محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ﷺ	
٦٨	بلغ ﷺ بالدين إلى كماله	٥٥٣	جميع الأنبياء تنبأوا عن نبي آخر الزمان
٤١٣	انقلاب روحاني على يده	٨٣	ذكر صفاته ﷺ في دعاء إبراهيم ﷺ
٨٨	مهامه ﷺ الأربع	٩٥	هو ﷺ تحقيق لدعاء إبراهيم ﷺ
٣٢١	تعليمه ﷺ التوحيد	٥٥٦	بحجته ﷺ تحققت نبوءات إبراهيم لبني إسماعيل
٢٠٧	خدمته ﷺ للخلق	٥٥٦، ٥٤٥، ٥٤٤، ٢١	نبوءة بعثته ﷺ بواسطة موسى
٢١١	لا بد للمتمقي أن يؤمن بكلامه ﷺ	٢١	نبوءة موسى أنه ﷺ "لا يتكلم إلا باسمي...."
٢١١	ضرورة اتباع سنته ﷺ إضافة إلى القرآن	٥٦٣، ٥٦٢	نبوءة سليمان عن بعثته ﷺ باسم محمد
٥٥٨	الفرق بين وحيه ﷺ ووحى الأنبياء الآخرين	٥٧٢	نبوءة عن كونه ﷺ أمياً
٥١٥	كان الله ﷻ يحذره سلفاً من هجمات الشيطان	٥٧٢	هو الحجر الذي رفضه البتاعون في نبوءة دانيال
٤١٤	نبوءة غلبته ﷺ في قصة آدم ﷺ	نبا إشعياء عنه ﷺ أنه حجر رأس الزاوية	
٣١٧	حفظ الله ﷻ له من مكاييد الأعداء	٥٦٤، ٥٧٠، ٥٦٦	هو المصدق لنبوءة عن ظهور الله من فاران
٤١٤، ٥٦٠	غلبته ﷺ على الأعداء	٥٦١	نبوءة المسيح عنه ﷺ
٧٧٣	عشق صحابته له ﷺ	٥٦٩، ٥٦٨، ٥٦٠	هو ﷺ تصديق عملي لأقوال حواربي المسيح
٥٥٩	خطبته ﷺ عند حجة الوداع	٥٧٣	المراد من بعثة النبي الموعود في صهيون هو مكة
٨٩	تحويل القبلة على يده ﷺ إلى الكعبة	٥٧١	خارطة فتوحات النبي ﷺ في النبوءات السابقة
٧٩٤	لم يكن يعلم الكتابة	٥٦٣	تسمية العرب أبناءهم بمحمد قبل الإسلام
٦٢، ٥٢	معنى طلبه ﷺ للهداية بعد النبوة	٤٠٤	حاز على أعلى مقام في تطور العالم الروحاني
٢٠٣	لا يجوز الصدقة لأولاده ﷺ	الحديث القدسي "لولاك لما خلقت الأفلاك"	٤٢٣
٥٧٥	نبأ كون النبي الموعود مصدقاً لكتاب كل نبي	٢١٩	كان ﷺ مجمع البحار
٥٥٦	تصديقه ﷺ لكلام موسى	٥٥٧	هو ﷺ مثيل موسى ﷺ
٧٨٤، ٥٨٤	كفر به ﷺ اليهود من أجل الدنيا	٦٦٩	دلائل صدقه ﷺ
٨٨	حسد بني إسرائيل عليه ﷺ		
٧٦٧	مؤامرات اليهود لقتله ﷺ		
٧٦٩	مؤامرة بني النضير لقتله ﷺ		

- ٦٤٣ إثبات كونه إسرائيلياً من القرآن
دحض زعم الباحثين الحديثين أن موسى كان
مصرياً ٦٤٤، ٦٤٥
رعمسيس الثاني كان حاكم مصر عند ولادة
موسى ٧٤٤
مصدق نبوءة {جاء الرب من سيناء} ٥٦١
نزول كلام الله ﷻ على موسى ٨٨
الكتاب الذي أُعطي موسى ٦٥٩
موسى ﷻ جدد العهد الإبراهيمي ٥٤٣
ذكر العهد الموسوي في القرآن ٥٤٥
علم الالتزام بالصالح والتوحيد والشرع ٦٠٣
حبه للخلق ٢٠٧
دليل صدق موسى ٤١٣
تصديق القرآن والنبي ﷻ لكلام موسى ٥٥٦
طريق خروج موسى من مصر إلى كنعان ٦٢٨
سبب اختياره طريق شاطئ البحر الأحمر ٦٢٨
مجاوزته البحر وغرق فرعون فيه ٤١٣
حقيقة معجزة تفجيره العيون من الحجر ٧٠١
ذكر قصة موته ﷻ في الكتاب الذي نزل عليه ٥٧٦
دحض القرآن تمهاً وجهتها التوراة لموسى ١٢٩
دحض أن موسى أخذ عقيدة التوحيد من مصر ٦٥٠
كان عيسى آخر خلفاء موسى ٤٥٨
نبوءة موسى عن بعثة النبي ﷻ ٥٤٤، ٢١
هل كان في لسان موسى لكنة ٦٥٧
مينوس (إله مصري) Menvis ٧٤٣
الناطقة الذبياني ٥٨٨
نابليون ٦٣٦، ٦٢٥
نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري ١٢
نبوخذنصر البابلي ٧٩٧، ٧٦٤، ٦٠٤، ٥٦٧
نحمياه النبي ٥٣٥
نسيس الربّي ٧٤٥
نوح ﷻ ٥٠٣
كان في العراق ٥٠٣
سمّته ﷻ امرأة يهودية في خير ٧٦٩
معنى قوله تعالى {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} ٥٧
كيف نال ﷻ النبوة دون اتباع شريعة؟ ٦٣
توليّه ﷻ عن قبلته الأولى ٨٩
دحض أن عبداً مسيحياً علّمه ﷻ تعاليم المسيحية ٣٨٤
دحض أنه ﷻ سمع قصص التوراة وأضافها للقرآن ٧٨٧
دعوة المسيح الموعود الهندوس لاحترام النبي ﷻ ٧٥١
محمد طاهر (صاحب مجمع البحار) ٤٥٤
محي الدين ابن العربي رحمة الله عليه ٢٢٥
قوله عن سورة البقرة ٧٦
كشفه عن آدم ﷻ ٣٥١
مردوك (شخصية أسطورية بابلية) ٤٣٤
مريم بنت عمران عليها السلام
تشبيه المؤمنين بمريم ٦٦
براءتها من تهم اليهود ١٣٠
مسيلمة الكذاب
دعواه الباطلة وهلاكه ٣٥٥، ٣٦
مصعب بن عمير ﷻ ٢٦٠
المظهري المفسر ٤٦٩، ٤٧٠
معاوية ١٠١
المعتصم بالله ١٠١
معين الدين الجشتي رحمة الله عليه ٢٢٥
منتو (إله مصري) ٧٤٣
منفتاح (ملك مصري) ٧٤٣
غرقه عند ملاحقته لموسى ﷻ ٦٣٢
منو
الرجل الأول عند الهندوس ٤٣٣
مورت الدكتور ٧٤٤
موسى ﷻ ٢٧٧، ٢٨٤
قصة ولادته في التوراة والقرآن ٦٤٧
موسى اسم عبراني، ومعناه ٦٤٩

٤١٣	حفظه من الطوفان
٣٠١	نور الدين ﷺ الخليفة الأول للمسيح الموعود العليه السلام
٣٣٢	نوريلي اسم إله قبيلة "وومبو" الأسترالية
٣٣٢	نوريندير إله قبائل أستراليا القديمة
١٧	نولدكي المستشرق
٥٥٣	هاجر عليها السلام نزول الوحي عليها
٤٥٨	هارون عليه السلام هو خليفة لموسى دحض القرآن الزعم أن هارون صاغ الذهب عجلا
٦٣٨ ، ١٣٠	منع هارون بني إسرائيل من عبادة العجل
٦٣٩ ، ٦٣٨	القرآن يبرئه من الشرك
١٣٠	دحض ما اتهم به هارون عليه السلام
٦١٤	وفاة هارون
٥٠٤	هال (عالم الآثار)
٣٢١	هربرت سبنسر الفيلسوف عقيدته عن الله ﷻ
٥٦٠	هند زوجة أبي سفيان
٥٣٣	هوريس (Horece) المؤرخ
٦٠٥	هوسيع النبي
٦٤٨	واربوتن (Warburton)
٢٢٥	ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله
	وليام ميور السير
١٣٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤	

(٣)

فهرس الأماكن

- أستراليا ٦٣٠ البحر المتوسط
- عقيدة التوحيد عند سكانها القدماء ٣٢٩، ٣٣٠
- الختان عند قبائل أستراليا القديمة ٦٥٣، ٦٥٤
- إسرائيل
- دولة قبائل إسرائيل المتمردة بعد سليمان ٥٣٤
- إسلام آباد (كشمير) ٧٠٢
- أفريقيا
- عقيدة التوحيد عند قبائل أفريقية الوحشية
- ٣٣١، ٣٣٢
- غضبُ حقوق سكان أفريقيا الجنوبية ٥٠٦
- أفغانستان
- بنو إسرائيل في أفغانستان ٧٦٣، ٧٦٤
- ألمانيا
- كرهُ الألمان لليهود ٥٣٧
- أمريكا
- الختان عند قبائلها القديمة ٦٥٤
- الأندلس
- معاهدة الخلافة الأندلسية مع الروم ضد العباسيين ١٠١
- أور (العراق)
- هي مسقط رأس إبراهيم عليه السلام ٥٠٣
- هي من أقدم الحضارات في العالم ٥٠٤
- أورشليم ٥٣٦، ٥٣٧، ٧١٣
- أوروبا
- نظريات فلاسفة أوروبا عن الله ﷻ ٣٢١
- إيليم (سيناء)
- آثار اثنتي عشرة عيناً هنالك ٧٠٣
- بابل ٧١٣
- عقيدة التوحيد في حضارة بابل ٣٣١
- نظرية بدء خلق الإنسان لدى البابليين ٤٣٣، ٤٣٤
- البحر الأحمر ٦٢٥
- بحر القلزم ٦٣٠
- بحيرة التمساح (مصر)
- تل أبي سليمان (مصر) ٦٣٦
- مرّ بها موسى عليه السلام عند خروجه من مصر ٦٣٠
- جاسان (مصر)
- عاصمة الفراغة ٦٢٨
- جبل حوريب (سيناء)
- مكان نزلت فيه الشريعة الموسوية ٧٣١
- الجزيرة العربية
- سبب إطلاق مصر على مناطق عدة في الجزيرة العربية ٦٣٠
- القبائل العربية في المدينة قبل الإسلام ٢٦٠
- العرب حول المدينة كانوا يؤمنون باليوم الآخر ٢٤٧
- جهلم (النهر) ٧٠٢
- الحبشة
- الختان عند نصارى الحبشة ٦٥٥
- الحجاز
- دخول غير المسلمين فيها ٥٠٦
- حرّان (العراق)
- مرکز عبدة النجوم ٧١٥
- خير
- قصة تسميم نبينا ﷺ ٧٦٩
- دجلة ٥٠٣
- سبأ
- رسالة ملكئها إلى سليمان عليه السلام ٦٦٢
- سعير
- (وأشرق لهم من سعير) إشارة إلى بعثة عيسى ٥٦١
- السويس
- عبر بنو إسرائيل البحر بالقرب من السويس ٦٢٩
- سيالكوت
- قصة سقوط السقف هنالك وحفظ المسيح الموعود ٣١٧

سیناء	٦٨٩	منح کنعان لنسل إبراهيم كانت علامةً ظاهرية
تلقي موسى ﷺ الأحكام على سیناء	٧٢٧	لعهد
الشام	٦٨٧	وُعد بنو إسرائيل بالسيطرة عليها
صهيون		بقيت في قبضة آل إبراهيم دائماً
نبأ بعثة النبي الموعود في صهيون يعني بعثته في مكة ٥٨٥		ظلت في قبضة المسلمين ثلاثة عشر قرناً
الطائف	٢٤	ظلت عرضة للمصائب
طور سیناء	٧٢٨	مارا (بحيرة)
(جاء الربُّ من سيناء) إشارة إلى بعثة موسى ٥٦١		مدينة المنورة
العراق	٦٨٧، ٧١٥، ٧٦٤	المدینة قبل الإسلام
مولد آدم ﷺ وكانت جنته هنالك ٥٠٣، ٥٠٤		أصبحت المدينة دار الأمن وفق النبوءات
أرض نوح ﷺ وقومه	٥٠٣	منافقو المدينة
بنو إسرائيل في العراق	٧٦٤، ٧٦٣	جرائم اليهود فيها
فاران		نفي بني قينقاع من المدينة
تقع جبال فاران بين مكة والمدينة المنورة ٥٦٢		تمادي بني النضير وبني قريظة في شرهم
هي مظهر تجلي رسول الله ﷺ ٥٦١، ٥٦٢		مصر
عند فتح مكة دخل النبي ﷺ مكة من جانب فاران ٥٦٢		عيش بني إسرائيل عبيدا في مصر ٦٢١، ٦٣٥
فارس		أربعة أدلة على دخول بني إسرائيل في مصر ٦٣٣
بنو إسرائيل في بلاد فارس ٧٦٣، ٧٦٤		عبادة العجل لدى المصريين ٧٤١
النشأة الثانية للإسلام بواسطة أبناء فارس ٢٢٤		كان لون العجل المعبود عند المصريين ذهبياً ٧٥٠
الفرات	٥٠٣، ٥٠٤	سبب إطلاق مصر على مناطق عربية كثيرة ٦٣٠
فلسطين	٥٣٥	كلمة "مصر" بمعنى ذلك البلد غير منصرفة وبمعنى
قادش	٦٢٨، ٦٣٦	أية مدينة منصرفة ٧٠٩
القاهرة	٧٠٦	مُصر
كربلاء	٢٢٩	مدينة في شمال الجزيرة العربية ٦٣٠
كشمير	٧٠٢، ٧٦٤	مكة المكرمة
بنو إسرائيل في كشمير ٧٦٣، ٧٦٤		دعاء إبراهيم ﷺ لمكة ٨٩
ككرناغ (كشمير) ٧٠٣		سكانها من نسل إبراهيم ٣٣٤
كندا		نبوءة فتح مكة ٨٩
عقيدة التوحيد عند سكانها القدامى ٣٣١		دخول النبي ﷺ عند فتحها من جانب فاران ٥٦٢
كنعان		عشرة آلاف قدوسي مع النبي ﷺ عند فتحها ٥٦٢
		المكسيك
		عقيدة التوحيد في قبائلها المتخلفة ٣٣٠

ممفيس

٧٤٣، ٧٤٢

هرمانتيس (مصر)

٧٤٣، ٧٥٠

الناصرية

هوليوبولس

مسقط رأس عيسى عليه السلام

٧١٤

مدينة مصرية أقيم فيها معبد إله الشمس

النيل

٧٤٣، ٦٤٤، ٧٥٠

وادي توميالات

جاوز موسى عليه السلام نهر النيل عند الحجره وفق

المفسرين

٦٢٦

عاصمة فرعون عند خروج موسى من مصر ٦٢٨

يهودا

كان سكان عاصمة مصر في عصر موسى يقيمون

شرقيّ النيل

٦٢٦

٧١٣

سلطنة بن يامين ويهوذا

٥٣٤، ٥٣٥

(٤)

المراجع والمصادر

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب التفسير وعلوم القرآن

- الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي
- إملاء ما من به الرحمن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البضاوي
- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف
- تفسير روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي البروسوي
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن محمد ابن كثير
- التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي
- التفسير المظهر، القاضي محمد ثناء الله العثماني
- جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري
- الجامع لأحكام القرآن، عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبي
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي
- الجواهر في تفسير القرآن الكريم، الشيخ طنطاوي جوهرى
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي
- روح المعاني في تفسير القرآن شهاب الدين السيد محمود الألوسي
- فتح البيان في مقاصد القرآن صديق بن حسن القنوجي البهوبالي
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين الفراء البغوي
- مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي

- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس

الحديث الشريف والفقه

- الصحاح الستة
- مسند أحمد بن حنبل
- المستدرک، الحاكم النيسابوري
- مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي
- مسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي
- السنن الكبرى، الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي
- صحيح ابن حبان، الحافظ محمد بن ابن حبان التميمي
- صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة النيسابوري
- الأربعين، الحافظ عبد القادر بن عبد الله الفهمي الرهاوي
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني
- غمز عيون البصائر، شرح الأشباه والنظائر، ابن نجيم أحمد بن محمد شهاب الدين الحموي

السيرة والتاريخ والتصوف

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن أبي الكرم ابن الأثير

- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني
- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي
- تاريخ دمشق، ابن عساكر
- الروض الأنف، الإمام عبد الرحمن السهيلي
- السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين
- السيرة النبوية، ابن هشام
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني
- الطبقات الكبرى، محمد ابن سعد
- معجم البلدان، ياقوت الحموي
- الفتوحات المكية، محي الدين محمد بن علي ابن العربي

اللغة والأدب

- أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري
- أقرب الموارد، سعيد الخوري اللبناني
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني
- القاموس، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
- لسان العرب، ابن منظور
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الاستربادي النجفي الرضي
- شرح مئة عامل، عبد الرحمن الجرجاني
- فقه اللغة للثعالبي، عبد الملك بن محمد

- كليات أبي البقاء، أيوب بن موسى الكفوي
- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل، محمد طاهر بن علي الهندي
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي
- المعلقات السبع
- ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي
- دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٧٧

كتب عربية متفرقة

- ممن الرحمن، مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام، الخزان الروحانية مجلد ٩
- الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، تصدرها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، العهد القديم - الإصدار الثاني ١٩٩٥ الطبعة الرابعة، العهد الجديد - الإصدار الرابع ١٩٩٣، الطبعة الثلاثون

المراجع العربية

کتب حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ الصلاۃ والسلام (طبعہ روحانی خزائن)، پبلشر

نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان

- انجام آتھم
- ازالہ اوهام
- اسلامی اصول کی فلاسفی
- اعجاز المسیح

دیگر کتب و اخبارات سلسلہ

- ملفوظات جلد ۱، نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ پاکستان
- اخبار "الحکم نمبر ۳۵، جلد ۱۲، ۳۰ مئی ۱۹۰۸
- تفسیر سروری، مولانا سید سرور شاہ، احمدیہ مشن پریس قادیان ۱۹۵۸

ہندو کتب

- ستیا رتھ پرکاش، پنڈت رشی دیانند، بانی فرقہ آریا سماج، ترجمہ از چمپوتی ایم

اے

- وید چاروں (رگ وید، اتھروا وید، سام وید یجروید)
- رامائن

- گیتا
- منوسمرتی
- برہم دی ورت پُران
- کورم پُران
- شوپران
- شری مد بھگوت پُران
- پرشن اپنشد
- آئتری اپنشد
- براہدارنیک اپنشد (تفسیر وید)

متفرق اردو کتب

- کتاب مقدس (اردو)
- ینا سچ الاسلام، ریورنڈ ڈبلیو ایس ٹی کلیر ٹسڈل ایم اے
- لغات عبرانی ولیم ہوپر، مشن پریس، الہ آباد الہند، ۱۸۸۰

المراجع الإنكليزية وغيرها

- Adolphe Lods, *Israel*, (UK: Kegan Paul, Trench, Trübner & Co. Ltd, 1932)
- A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Translated by Edward Robinson, (Gould & Newman, 1836)
- Alexandre Moret, *The Nile and Egyptian Civilisation*, (New York, Knopf Publishing Group, 1927)
- Benjamin Davidson, *The Analytical Hebrew and Chaladee Lexicon*, (London: Samuel Bagster & Sons, 1871)
- Commentary of the Holy Bible, Mathew Poole, (Hendrickson Publishers Inc, 1980)
- Die Keilinschriften und das Alte Testament by Heinrich Zimmern und Hugo Winkler (Wentworth Press, 2018)
- Encyclopaedia Britannica, (UK) Ltd, 1968)
- Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edited by James Hastings, (UK: T&T Clark Ltd, 1995)
- H. Polano, *The Talmud: Selections*, (London: Fredrick Warne & Co., 1966)
- Isidore Singer, *The Jewish Encyclopedia*, (Palala Press, 2015)
- James H Breasted, *The Dawn of Conscience*, (New York: Scribner's, 1939)
- John D. Davies, *The Westminster Dictionary of the Bible*, (London: The Westminster Press, 1944)
- John L. McKenzie & S. J., *Dictionary of the Bible*, (UK, Macmillan Publishing, 1965)
- J. Sutherland Black and T.K. Cheyne, *Encyclopaedia Biblica: A Critical Dictionary of the Literary, Political and Religious*, (Thoemmes Continuum, 1903)
- Montgomery Watt, *Muhammad at Medina*, (Pakistan, 1955)
- Peake's Commentary of the Bible, Mathew Black (UK: Thomas Nelson & Sons Ltd, 1964)
- Rev. Dr. A. Cohen, *Everyman's Talmud*, (London: J.M. Dent & Sons Ltd, 1949)
- Rev. Wherry, *A Comprehensive Commentary on the Quran*, (UK: Kegan Paul, Trench, Trübner & Co., 1896)

- Sigmund Freud, *Moses and Monotheism*, (New York: Random House USA Inc, 1955)
- Sir William Muir, *The life of Mahomet*, (London: Smith, Elder & Co., 1878)
- Spencer & Gillen, *The Native Tribes of Central Australia*, (UK: Cambridge University Press, 1899)
- The Gospel of Nicodemus, (Kessinger Publishing, 2010)
- The Interpreters Bible, (Nashville, USA: Parthenon Press, 1951)
- The Holy Quran, Translated by George Sale (London: Fredrick Warne & Co., 1889)
- The Interpreters Bible, (Nashville, USA: Parthenon Press, 1951)
- The Koran, translated by J.M. Rodwell (New York: E.P. Dutton and Co., 1915)
- The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language (New York, Lexicon Publications, 1991)